الرواية التي تحوّلت إلى أنجح فيلم رعب في التاريخ

ترجمة نادر أسامة

الشيء

رواية

ستيفن كينغ



الأكثر مبيعًا في قوائم نيويورك تايمز

الكتاب: الشَّيءُ IT ، القسم الثاني (رواية)
تأليف: ستيڤن كينغ
ترجمة: نادر أسامة
عدد الصفحات: 840 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-017-2
رقم الإيداع: 3039 / 2018
الطبعة الأولى: 2018
Printed by Sahara Printing Company

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2– شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ستيڤن كينغ



رواية

القسم الثاني

ترجمة

نادر أسامة





الجزء الثَّالث

كِبارٌ

«الكِبَر عِبَر
قوامه القنوط،
ومن دون إنجازٍ يستحق الذكر،
قد تعترينا صحوةٌ جديدة،
تعكس القنوط.
لأن رغم ما لا نستطيع إنجازه،
وما حُرمنا حُبَّه
وما فقدناه في انتظارنا
يتوالى الكِبَر ولا يتوانى
بلا نهاية أو قُدرة على هزيمته».

– ويليام كارلوس ويليامز
قصيدة باترسون.

ألا تريد العودة إلى الديار الآن؟
ألا تريد العودة؟
كل البشر يُنهكون إذا هاموا في البقاع.
ألا تريد العودة إلى الديار؟
ألا تريد العودة؟

– جو سوث

الفصل العاشر

لمُّ الشَّمل

1

بيل دِنبروه يستقلُّ تاكسيًا

راح جرس الهاتف يرن، وانتزعه من نومٍ عميق جدًّا لا تجرؤ أحلامٌ على سبر أغواره. مدَّ يده إليه دون أن يفتح عينيه، ودون أن يستفيق بشكلٍ كامل، ولو كان قد توقَّف في هذه اللحظة لانزلق إلى النوم من جديد دون أدنى صعوبة، وكان سيفعلها بالسهولة ذاتها التي انزلق بها من على التلال المُغطَّاة بالثلوج في حديقة مكارون بزلَّاجته المرنة. في البداية تجري بزلَّاجتك، ثم تلقي بجسدك فوقها، وبعدها تنزلق إلى أسفل شاعرًا أنك تطير بسُرعة الصوت. لا تستطيع فعل ذلك وأنت بالغ، لأن الإثارة المفرطة ستسحب روحك من خصيتيك كالجحيم.

تلمَّست أصابعه أزرار الهاتف، وانزلقت من عليها، ثم ارتفعت مُجدَّدًا. كان لديه هاجسٌ خافت أن المُتَّصل مايك هانلون، وأنه يتَّصل من ديري ليخبرهُ أن عليه العودة إلى الديار، أن عليه أن يتذكَّر، وليخبرهُ أنهم قطعوا وعدًا يجب الوفاء به. لقد قطع ستان يوريس كفوفهم بشظية زجاجة كولا وأقسموا عهدًا أن...

لكن كل هذا حدث بالفعل.

لقد وصل يوم أمس قبل المغيب بقليل، بالكاد قبل السادسة مساءً. افترض بيل أنه لو كان آخر من اتَّصل بهم مايك هانلون، فلا بُدَّ أنهم جميعًا قد وصلوا في أوقاتٍ مُختلفة، بل رُبَّما قضى بعضهم اليوم بطوله هنا في المدينة. عن نفسه، لم يرَ أيًّا منهم بعد، ولم يشعر برغبة مُلحَّة في رؤية أيِّهم. كل ما فعله أن سجَّل وصوله في الفندق، وصعد إلى غرفته، وطلب وجبة من خدمة الغُرف، واكتشف أن لا رغبة لديه في الأكل ما إن وُضِع الطعام أمامه، ثم ارتمى على الفراش بعدها وراح في نومٍ عميق بلا أحلام إلى اللحظة.

فتح بيل عينًا واحدة وتخبَّط باحثًا عن سمَّاعة التليفون، التي انزلقت ساقطة على الكومود قبل أن يلتقطها وهو يفتح عينه الأخرى. كان يشعر بأن عقله فارغ تمامًا، منزوع القابس، يعمل على البطاريَّات.

في النهاية تمكَّن من الإمساك بالهاتف، ونهض مُتَّكِئًا على ذراعٍ واحده ووضع السمَّاعة على أذنه. «مرحبًا؟».

- «بيل؟».

كان هذا صوت مايك هانلون. على الأقل هو مُصيبٌ في ذلك. الأسبوع الماضي، لم يتذكَّر مَن مايك مِن الأساس، الآن كلمة واحدة كافية لتعرُّفه. كان الأمر رائعًا نوعًا... لكن بطريقة مُنذرة بسوء.

- «أجل، يا مايك».

- «لقد أيقظتك، أليس كذلك؟».

- «بلى، أيقظتني. لا عليك». على الحائط فوق التلفاز، توجد لوحة شنيعة الذوق تعرض صيَّادي سلطعون بمعاطف صفراء وقُبَّعات واقية من الماء يجذبون شباك السلطعون. بالنظر إليها، تذكَّر بيل أين هو: فندق ديري تاون هاوس في نهاية الشارع الرئيس. على بُعد نصف ميلٍ إلى الشمال توجد حديقة باسي... وجسر القُبُلات... والقناة.

- «كم الساعة يا مايك؟».

- «العاشرة إلا الربع».

- «من أيِّ يومٍ؟».

- «الثلاثون منه». بدا مايك مُستمتعًا نوعًا.
- «أجل. حسنًا».
قال مايك وقد تغيَّر صوته الآن: «لقد رتَّبت لقاءً صغيرًا للمِّ الشَّمل».
أنزل بيل ساقيه من الفراش وقال: «أحقًّا؟ هل جاء الجميع؟».
قال مايك: «الجميع عدا ستان». الآن كان ثمَّة شيءٌ يلوح في صوته.. شيءٌ لم يفهمه بيل. «كانت بيف آخر القادمين، لقد وصلت في وقتٍ مُتأخِّر ليلة أمس».
«لماذا تقول آخر القادمين يا مايك؟ رُبَّما يظهر ستان اليوم».
- «بيل، ستان مات».
- «ماذا؟ كيف؟ هل طائرته...»
قال مايك: «لا شيء من هذا يا بيل. اسمع، إذا لم يكن لديك مانع، سيكون من الأفضل لو أخبرتكم جميعًا في الوقت نفسه».
- «هل للأمر علاقة بما نحن فيه؟».
قال مايك: «أجل، أظنُّ ذلك»، ثم صمت برهة قبل أن يضيف: «بل أنا مُتأكِّدٌ من ذلك».
شعر بيل بخوفٍ مألوفٍ يسكُن محيط قلبه من جديد. أهو شيئًا يعتاده المرء بهذه السُرعة؟ أم هو شيئًا حمله في صدره طوال الوقت دون أن يشعر بوجوده أو يُفكِّر فيه، كحقيقة الموت التي لا مفر منها؟
تناول بيل سجائره، وأشعل واحدة، ثم أطفأ عود الثقاب بأوَّل نفسٍ منها.
- «ألم يُقابل بعضهم بعضًا البارحة؟».
- «لا، لا أظنُّ ذلك».
- «وأنت لم تقابل أيًّا منا بعد».
- «لا، فقط حادثتكم جميعًا هاتفيًا».
قال بيل: «حسنًا، أين سنجتمع؟».
- «هل تتذكَّر مكان مصنع الحديد القديم؟».
- «بالتأكيد، طريق المراعي».
- «أنت قديم جدًّا أيُّها الصديق الحجري. إن اسمه شارع المركز التجاري

هذه الأيّام. صار لدينا ثالث أكبر مركز تجاري في الولاية كلها، يعرض فيه ثمانية وأربعون تاجرًا مُنتجاتهم تحت سقفٍ واحد من أجل راحتك في التسوُّق كما يقول الشعار».

- «يبدو الأمر أ-أ-أمريكيًّا جـ-جدًّا، حسنًا».
- «بيل؟».
- «ماذا؟».
- «هل أنت بخير؟».
- «أجل». كان قلبه ينبض بسرعة، وطرف سيجارته يهتز قليلًا. لقد تلعثم، وقد سمعه مايك.

مرَّت لحظة صمت، ثم قال مايك بعدها: «بعد المركز التجاري مُباشرةً، يُوجد مطعم اسمه يشم الشرق. لديهم غُرفٌ خاصة للتجمُّعات، وقد حجزت واحدة أمس. يُمكننا المكوث فيها طوال فترة بعد الظهيرة إذا رغبنا».

- «هل تظن أن الأمر سيتطلَّب كل هذا الوقت؟».
- «لا أعرف يا بيل».
- «هل يعرف سائقو التاكسي المكان؟».
- «بالتأكيد».

قال بيل: «حسنًا». ثم كتب اسم المطعم على المُفكِّرة المجاورة للهاتف، وأردف: «لماذا اخترت هذا المكان؟».

قال مايك ببطء: «لأنه جديد على ما أظنُّ. لقد بدا لي كأنه... لا أعرف كيف أقولها...».

اقترح بيل عليه: «أرضٌ مُحايدة؟».

- «أجل، أظنُّ كذلك».
- «هل الطعام جيِّد؟».

قال مايك: «لا أعلم. كيف حال شهيتك؟».

نفث بيل الدخان وضحك نصف ضحكة وهو يسعل: «ليست بخير حال يا صديقي القديم».

قال مايك: «أجل، واضح في صوتك».

- «نتقابل في منتصف النهار؟».
- «فلنجعلها الساعة الواحدة أفضل. لندع بيفرلي تنعم ببعض النوم».
سحب بيل نفسًا من السيجارة وقال: «هل تزوَّجت؟».
تردَّد مايك قليلًا مرَّة أخرى، قبل أن يقول: «سنحكي عن كل شيء».
سأله بيل: «مثلما يحدث عندما تذهب لحفل لمِّ شمل أصدقاء مدرستك الثانوية بعدها بعشر سنوات، هه؟ كي ترى من صار بدينًا، ومن صلع رأسه، ومن أنجب».
قال مايك: «كنت أتمنَّى أن يكون الأمر كذلك».
- «أجل، وأنا أيضًا يا مايكي.. وأنا أيضًا».
قالها ووضع السمَّاعة، ثم اغتسل وطلب إفطارًا لم يكن يشتهيه وبالكاد لمسه. لا، شهيَّته ليست بخير حال على الإطلاق.
اتَّصل بيل برقم شركة بيج يلو كاب، وطلب أن يقله تاكسي في الواحد إلا الربع، مُفكِّرًا أن خمس عشرة دقيقة مُدَّة أكثر من كافية للذهاب إلى طريق المراعي (وجد نفسه عاجزًا في التفكير فيه كشارع المركز التجاري، حتَّى عندما رأى المركز بالفعل)، لكنه استخفَّ بالزحام المروري في ساعة الغداء. لكم نمت ديري منذ أن تركها طفلًا.
في عام 1958 كانت مُجرَّد بلدة كبيرة لا أكثر، يقطنها نحو ثلاثين ألف شخص، وربَّما نحو سبعة آلاف آخرين في البقاع المُحيطة بها.
الآن صارت مدينة متكاملة. مدينة صغيرة جدًّا مُقارنةً بلندن أو نيويورك، لكنها تبلي بلاءً حسنًا بمعايير ولاية مين، التي لا يتعدَّى سُكَّان أكبر مُدنها -بورتلاند- ثلاثمئة ألف شخص.
تحرَّك التاكسي ببطء جنوب الشارع الرئيس (فكَّر بيل: نحن فوق القناة الآن. أنا لا أراها، لكنها هناك بالأسفل، يجري ماؤها في الظلام) ثم انعطف إلى الشارع الأوسط. كان أوَّل ما خطر في عقل بيل هو التفكير المُعتاد المُتوقَّع: لشدَّة ما تغيَّرت البلدة.. لكن صحب تفكيره المُتوقَّع هذا ذُعرٌ عميق لم يتوقَّعه قط. كان عقله يتذكَّر فترة صباه هنا بصفتها أيَّام عصيبة مُخيفة، ليس بسبب صيف عام 1958 فحسب عندما واجه سبعتهم الفزع، لكن بسبب موت

جورج، والتيه العميق الذي ضلَّ والداه طريقهما فيه بعدها، والمضايقات المُستمرَّة التي تعرَّض لها بسبب ثأثأته، وتحرُّش باورز وهاجنز وكريس المستمر لهم بعد معركة الحجارة في البرِّية،

(يا إلهي، باورز وهاجنز وكريس! ربَّاه، باورز واهجنز وكريس!)

والشعور الممض بأن ديري باردة، أن ديري شاقة، أن ديري لا تولي أدنى اهتمام إذا مات أحدهم أو عاش، وبالتأكيد إذا ما انتصروا على المُهرِّج بيني وايز أم لا. لقد عاش الناس في ديري عاشوا مع بيني وايز بكل ظهوراته وهيئاته مُدَّة طويلة جدًا، ورُبَّما -بطريقة مجنونة أو بأخرى- استطاعوا فهمه.. استحسانه.. الاحتياج له.. حبه؟ رُبَّما. أجل.. رُبَّما كان هذا أيضًا صحيحًا.

إذًا لماذا هذا الذُعر الذي يستشعره؟

رُبَّما فقط لأن التغيير الذي يراه في المدينة يبدو بليدًا تمامًا نوعًا ما، أو رُبَّما لأن ديري بدا أنها فقدت طابعها الأساسي في نظره.

لم يعد مسرح بيچو موجودًا، وحلت محلَّه ساحة انتظار سيَّارات (لكن اللافتة تقول: الدخول بتذاكر فقط، المُعتدون يُعرِّضون سيَّاراتهم للسحب). أيضًا لم يعد متجر ذا شوبوت ولا مطعم بيلي المجاوران للمسرح موجودين بدورهما، وحل محلَّهما أحد فروع البنك الشمالي الوطني المزوَّد بلافتة رقمية تبرز من الجزء الأمامي للمبنى تعرض الوقت ودرجة الحرارة بالقياسين المئوي والفهرنهايت. صيدلية الشارع الرئيس، عرين السيِّد كين، والمكان الذي حصل منه بيل على دواء الربو لإدي في ذلك اليوم، اختفت بدورها. صار زقاق ريتشارد مكانًا هجينًا غريبًا يُدعى «مركز التسوُّق الصغير». بالنظر إليه مع وقوف التاكسي في إحدى إشارات المرور، رأى بيل متجر بيع أُسطُوانات، ومحل أطعمة طبيعية، ومتجر ألعاب يعرض تخفيضات تصفية على جميع ألعاب زنازين وتنانين.

واصل التاكسي مسيره من جديد بنخعة طفيفة، وقال السائق: «ستستغرق الرحلة بعض الوقت. أتمنَّى لو تُجدول كل تلك البنوك اللعينة مواعيد غداء موظفيها بالتعاقُب.. لا مؤاخذة على ألفاظي إن كنت رجُلًا مُتديِّنًا».

قال بيل: «لا عليك». كان السماء مُدلهمة في الخارج، وقد بدأت بعض

قطرات المطر في التناثُر على الزُجاج الأمامي. كان الراديو يتحدَّث عن هروب مُختلٍّ عقليٍّ من مصحَّة في مكان ما، ويُفترض أنه خطرٌ جدًّا، ثم بدأ يتحدَّث عن أخبار فريق ريد سوكس. إنها تُمطر باكرًا، وستصفو بعدها. أغلق سائق التاكسي الراديو عندما بدأ باري مانيلو في الغناء بحُرقة عن ماندي التي أتت لتمنح دون مُقابل. سأله بيل: «متى بُنيت؟».

- «ماذا؟ البنوك؟».

- «أها».

قال: «مُعظمها في أواخر الستينيات، أوائل السبعينيات». كان السائق رجُلًا ضخمًا ذا عُنُق غليظ، ويرتدي معطف صيادين بمُربَّعات سوداء في حمراء، وثمَّة طاقية بُرتقالية مُتألِّقة مُلطَّخة بزيت المُحرِّك مزمومة على رأسه. «حدث ذلك بعدما حصلوا على مال التجديد المدني، أو تقسيم الأرباح.. هذا ما كانوا يُسمُّونه.. وقد كانت طريقتهم في التقسيم هي تمزيق كل شيء وبيعه. بعدها جاءت البنوك. أظنُّ أنها المؤسسات الوحيدة التي كان لديها مال كافٍ لتحمُّل التكلفة. يا له من امتيازٍ لعين، أليس كذلك؟ هم يُسمُّونه تقسيم الأرباح، وأنا أُسمِّيه خراء على العشاء. لا تؤاخذني على ألفاظي إن كنت رجُلًا مُتديِّنًا. لقد دار كلام كثير عن كيف سيُعيدون تنشيط وسط المدينة، وبالفعل أعادوا تنشيطها بامتياز. لقد هدموا جميع المتاجر القديمة وشيَّدوا مكانها بنوكًا ومواقف انتظار سيَّارات.. أتعرف؟ ما زال الواحد منا لا يستطيع العثور على خُرم إبرة لعين لإيقاف سيَّارته فيه. يجب أن يُعلِّقوا جميع أفراد مجلس المدينة من أعضائهم. باستثناء تلك المرأة بولوك، فتلك يجب أن تُعلَّق من بِزِّها. لا انتظر، إنها لا تمتلك بِزَّان من الأساس، إن صدرها مُسطَّحٌ كلوح لعين.. لا تؤاخذني على ألفاظي إن كنت رجُلًا مُتديِّنًا».

قال بيل مُبتسمًا: «أنا كذلك».

- «إذًا اخرج من سيَّارتي واذهب إلى كنيسة لعينة»، قالها سائق التاكسي، فانفجر كلاهما ضاحكًا.

سأله بيل: «هل عشت هنا طويلًا؟».

- «حياتي كلها، ولِدتُ في مُستشفى ديري العام، وسيدفنون جُثّتي اللعينة في مقبرة ماونت هوب».

قال بيل: «أمرٌ رائع».

قال السائق: «أجل». ثم تنخَّم، وفتح نافذته، وبصق بصقة صفراء ليمونية هائلة الحجم في الهواء المطير. كان سلوكه -المُتناقض لكن الجذَّاب بطريقة أو بأخرى، والحرِّيف تقريبًا- يحمل سُخرية مريرة مرحة. «من سيوقعه حظه العاثر في هذه البصقة، لن يشتري علكة لعينة مُدَّة أسبوع. لا تؤاخذني على ألفاظي إن كنت رجُلًا مُتديِّنًا».

قال بيل: «لم تتغيَّر المدينة بالكامل». كانت مصفوفة البنوك وساحات الانتظار الكئيبة تنزلق وراءهما وهما يتقدَّمان عبر الشارع الأوسط، وبعد صعود التلَّة وعبور البنك الوطني الأوَّل، بدآ يكتسبان بعض السُرعة. «ما زالت سينما علاء الدين موجودة».

أقرَّ السائق: «أجل، لكن بشق الأنفس، أولاد الزنى حاولوا هدمها أيضًا».

سأله بيل: «لبناء بنكٍ آخر؟». كان جُزءٌ داخله مُستمتع أن جُزءًا آخر داخله مذعورٌ من الفكرة. لم يكن يُصدِّق أن أيَّ شخصٍ عاقل قد يرغب في تدمير هذه القُبَّة الفخمة المُبهجة بثُرياها الكريستالية اللامعة، وسلالمها التي تلتف من اليمين واليسار صعودًا إلى البلكون، وستائرها العملاقة التي لم تكن تُفتح إلى الجانبين فحسب مع بدء العرض بل ترتفع أيضًا إلى أعلى في طيَّاتٍ سحرية، وجميعها مُضاءة من أسفل بمصابيح حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء، بينما تُدار البكرات وتئن في الكواليس.. لهذا وجد بيل الجُزء المصدوم داخله يصرخ: ليس دار علاء الدين. كيف تجرَّأوا وفكَّروا في هدم سينما علاء الدين لبناء بنكٍ؟

قال السائق: «أوه، أجل، بنك. أنت مُحقٌّ لعين. لا تؤاخذني على ألفاظي إن كنت رجُلًا مُتديِّنًا. أوَّل من وضعوا أعينهم على العلاء الدين تُجَّار من مُقاطعة بينوبسكوت. لقد حصلوا على جميع الأوراق القانونية من مجلس المدينة، وكادت السينما أن تقع في قبضتهم. لكن بعدها شكَّل حفنة من الناس لجنة -أغلبهم من المواطنين القدامى- وقدَّموا التماسًا، ونظَّموا مسيرات،

وصرخوا ملء حناجرهم، وفي النهاية أجبروا مجلس المدينة على الاجتماع معهم لمُناقشة الأمر.. وقد فشخ هانلون أولئك الشواذ». كان صوت السائق يتوهَّج بعظيم الرضا وهو يقولها.

سأله بن مشدوهًا: «هانلون؟ مايك هانلون؟».

قال السائق: «نعم». ثم التفت بجسده إلى الوراء قليلًا وحدَّق إلى بيل، كاشفًا عن وجهٍ دائري مُشقَّق الجلد، ونظَّارة قديمة العدسات بإطارٍ أبيض. «أمين مكتبة. أسود البشرة. هل تعرفه؟».

قال بيل: «أجل، أعرفه»، وتذكَّر كيف التقى مايك أوَّل مرَّة في يوليو من العام 1985. كان هذا أيضًا بسبب باورز وهاجنز وكريس بطبيعة الحال. باورز وهاجنز وكريس

(ريَّاه)

المُتنطِّعين عند كل زاوية وأسفل كل حجر، يلعبون دورهم الهام كزراديَّات تضغط سبعتهم معًا أكثر، فأكثر، فأكثر. «كنا نلعب معًا ونحن صبية، قبل أن أغادر البلدة».

قال السائق: «وها أنت ذا، إنه عالم صغير لعين. لا تؤاخذني...».

أنهى بيل عبارته معه: «... على ألفاظي إن كنت رجُلًا مُتديِّنًا».

كرَّر السائق بارتياح: «عفارم عليك». ثم مضيا في صمتٍ بعض الوقت قبل أن يقول: «أجل لقد تغيَّرت ديري كثيرًا.. لكن بعضها ما زال موجودًا. فندق تاون هاوس حيث التقيتك، وبُرج المياة في الحديقة التذكارية. أتذكر هذا المكان يا زعيم؟ كنا نظنه مسكونًا بالعفاريت ونحن صبية».

قال بيل: «أجل، أذكره».

- «انظر. إنه المُستشفى. هل تعرَّفته؟».

كانا يعبران من أمام مُستشفى ديري العام في تلك اللحظة. خلف المُستشفى، كان نهر بينوبسكوت يتدفَّق في اتِّجاه نقطة تلاقيه مع الكِندوسكيج.. وتحت سماء الربيع المُمطرة، كان له لونًا قصديريًّا باهتًا. كان المُستشفى التي يذكره بيل ما زال موجودًا (بمبناه الأبيض ذي الإطارات الخشبية والجناحين المُلحقين الذي يرتفع كلٍ منهما ثلاثة طوابق) لكنه أُحيط الآن وتقزَّم بمُجمَّعٍ

مبانٍ كامل يصل عدده إلى اثني عشر بناءً رُبَّما. استطاع أن يرى ساحة الانتظار إلى اليسار، وما يبدو أنه يزيد على خمسمئة سيَّارة واقفة بها.

صاح بيل مشدوهًا: «يا إلهي، هذا ليس مُستشفى، إنه حرمٌ جامعي لعين».

ضحك السائق قائلًا: «بما أنك لست رجُلًا مُتديِّنًا، فلن أؤاخذك على ألفاظك. أجل، لقد صار الآن بحجم مُستشفى مين الشرقي في بانجور. إن به معامل أشعة ومركز علاجي وستمئة غرفة ومغسلة خاصة، وما خفي كان أعظم. المُستشفى القديم موجود، لكنه -بُرمَّته- صار مُجرَّد قسم الآن».

شعر بيل بازدواجية شعورية شاذة في عقله، كالشعور الذي تذكَّر أنه أصابه عندما شاهد فيلمًا ثلاثي الأبعاد للمرَّة الأولى، ومحاولة دمج صورتين غير مُنسجمتين معًا. تستطيع خداع عقلك وعينيك لمُمارسة هذه الخدعة، هكذا تذكَّر، لكنك قد تُصاب بصداعٍ هائل بعدها... وقد استشعر الآن صُداعًا مُماثلًا يهجم عليه. ديري في ثوبٍ جديد.. جميل.. لكن ديري القديمة ما زالت موجودة، كمبنى المُستشفى الخشبي الأبيض. ديري القديمة مدفونة بالكامل تقريبًا تحت كل تلك الإنشاءات الجديدة... وعيناك تُسحبان بطريقةٍ أو بأخرى -بلا حول ولا قوَّة- لتفقُّدها... للبحث عنها.

سأله بيل: «ساحة القطارات ذهبت على الأرجح هي الأخرى، أليس كذلك؟».

ضحك السائق مُجدَّدًا وهو في قمَّة السعادة وقال: «لديك ذاكرة جيِّدة بالنسبة إلى شخصٍ غادر البلدة وهو بعد طفل يا زعيم». فكَّر بيل: كان يجب أن تلتقي بي الأسبوع الماضي يا صديقي البذيء. «المكان برُمَّته ما زال قائمًا، لكنه لا يعدو أطلالًا وقُضبانًا صدئة الآن. حتَّى عربات البضائع لم تعد تتوقَّف في أثناء مرورها. أراد شخصٌ أن يشتري الأرض ويُنشئ مركز ترفيهي ما على قارعة الطريق يضم ملاعب جولف مُصغَّرة، وملاعب بيسبول مُغلقة، ومساحات خضراء، ومضامير سباق، وكوخًا لألعاب الڤيديو، ولا أعلم ماذا أيضًا. لكن ثمَّة تنازعًا كبيرًا بين مُلَّاك الأرض حاليًا. أظنُّه سيفوز بها في النهاية، إنه شخصٌ مُثابر، لكن حتَّى اللحظة ما زالت القضية مُعلَّقة في المحاكم».

- «والقناة؟». هكذا غمغم بيل وهما ينعطفان خارجين من الشارع

الأوسط مُتَّجهَين طريق المراعي الذي كان -كما قال مايك- مُعلَّمًا بلافتة طريق خضراء تقول: شارع المركز التجاري. «القناة ما زالت موجودة، أليس كذلك؟».

قال السائق: «أجل، هذه ستظل موجودة دائمًا على ما أظن».

الآن صار مركز ديري التُجاري على يسار بيل، وفيما كانا يعبران من جواره، باغتت بيل الازدواجية الشعورية ذاتها من جديد. في صباهم، كانت كل هذه الأرض حقلًا عظيمًا طويلًا مليئًا بالأعشاب الفاسدة وزهور عبَّاد الشمس العملاقة التي تحد الطرف الشمالي الشرقي من البرِّية.. وخلفه، باتِّجاه الغرب، تقع منطقة اللسان القديم وبيوت مُنخفضي الدخل. تذكَّر بيل استكشافهم لهذا الحقل، حذرين كي لا يقعوا في حُفر أقبية مصنع حديد كيتشنر، الذي انفجر في عيد الفصح عام 1906. كان الحقل مليئًا بالأنقاض، وقد استكشفوها باهتمام علماء الآثار الذين يستكشفون الآثار المصرية: الطوب، والمغارف، وكتل الحديد التي تخرج منها مسامير صدئة، وألواح الزجاج، والزُجاجات المليئة بمادة لزجة لا اسم لها تبدو رائحتها كأسوأ سم في العالم. لقد حدث شيءٌ ما سيِّئ بالقرب من هنا، في حُفرة الحصى القريبة من مكب النفايات، لكنه لا يستطيع تذكُّره بعد. كل ما يتذكَّره اسم فحسب، باتريك هومبولت، وقد كان في الأمر ثلَّاجة ما. أيضًا، توجد ذكرى أخرى عن طائر ما طارد مايك هانلون. ماذا...؟

هزَّ بيل رأسه.. شذرات.. فُتات قش تذروه الرياح.. هذا كل شيء.

مضى الحقل الآن، وكذا أطلال مصنع الحديد. تذكَّر بيل فجأة مدخنة المصنع العظيمة، بالقرميد الذي يغطي وجهها، وآخر عشرة أقدام منها المكسية بالسخام. لقد كانت تتمدَّد بين الأعشاب كماسورة عملاقة. لقد تسلَّقوها بطريقةٍ ما وساروا ضاحكين بامتداد طولها بأذرُعٍ ممدودة كأنهم مجموعة من السائرين على الحبال...

هزَّ بيل رأسه، كأنه ينفض عنه سراب المركز التجاري.. ينفض صورة مجموعة المباني القبيحة التي تعلوها لافتات تقول سيرز وجِي سي بيني وولورثز وسي ڤي إس ويوركس ستيك هاوس ووالدنبوكس وعشرات غيرها.

كانت الطرق تتعرَّج دخولًا وخروجًا من ساحات الانتظار، لكن المركز لم يبرح ناظريه، لأنه لم يكن سرابًا. لقد اختفى مصنع كيتشنر، وكذا الحقل الذي نما حول انقاضه. إن المركز التُّجاري الحقيقة الواقعة، لا الذكريات.

لكنه -بطريقة أو بأخرى- لم يُصدِّق ذلك.

قال السائق: «لقد وصلنا وجهتك يا زعيم»، ثم توقَّف في موقف سيَّارات مبنى يبدو كأنه معبد بوذي بلاستيكي ضخم. «تأخَّرنا قليلًا، لكن الوصول مُتأخِّرًا أفضل من عدمه، ألست مُحقًّا؟».

قال بيل وهو يناوله خمسة دولارات: «بالتأكيد أنت مُحِق. احتفظ بالباقي».

صاح السائق: «يا لها من صفقة رابحة لعينة! إذا أردت أحدًا ليقلك اتَّصل بشركة بيج يلو واسأل عن ديڤ. اطلبني بالاسم».

قال بيل مُبتسمًا: «فقط سأسأل عن السائق المُتديِّن.. الرَّجُل الذي حدَّد بقعته في مقبرة ماونت هوب من الآن».

قال ديڤ ضاحكًا: «لك هذا.. أتمنى لك يومًا جيِّدًا يا زعيم».

- «وأنت أيضًا يا ديڤ».

وقف بيل في الهواء خفيف المطر يُراقب ابتعاد التاكسي، وأدرك أنه كان يريد سؤال السائق سؤالًا إضافيًّا آخر، لكنه نسيَ.. عامدًا على الأرجح.

كان يُريد سؤال ديڤ إن كان يُحب العيش في ديري.

بشكلٍ مُفاجئ، استدار بيل دِنبروه وسار نحو مطعم يشم الشرق. كان مايك هانلون في الردهة، جالسًا على مقعد من الخوص المجدول له مسند ظهرٍ عظيم، وما إن رآه نهض واقفًا، وشعر بيل بعدم تصديقٍ عميق يجتاحه ويسري فيه. عاد إليه ذلك الشعور بازدواجية الأشياء والأشخاص، لكنه صار أسوأ الآن، أسوأ كثيرًا.

كان يتذكَّر صبيًّا طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات، حسن المظهر، رشيقًا، لكن أمامه يقف رجُلًا طوله خمسة أقدام وسبع بوصات. كان نحيفًا، وبدت ملابسه كأنها مُعلَّقة عليه، وأفصحت الخطوط على وجهه أنه قد جاوز الأربعين من عمره بكثير، رغم أنه كان في الثامنة والثلاثين أو نحو ذلك.

لا بُدَّ أن صدمة بيل كانت بادية على وجهه، لأن مايك قال بهدوء: «أعرف كيف يبدو مظهري».

قال بيل وقد احمرَّ خجلًا: «ليس بالسوء الذي تظنه يا مايك. أنا فقط أتذكَّرك طفلًا، هذا كل ما في الأمر».

- «أحقًّا؟».

- «تبدو مُتعبًا قليلًا».

قال مايك: «أنا مُتعب قليلًا. لكنني سأعيش. على ما أظنُّ»، ثم ابتسم، وأضاءت الابتسامة وجهه، وفيه، رأى بيل الصبي الذي عرفه منذ سبعة وعشرين عامًا. كما طغت المباني الزجاجية والحجرية الحديثة على مبنى المُستشفى الرئيس ذي العوارض الخشبية، طغت آثار الزمن التي لا مفر منها على وجه الصبي الذي عرفه بيل قديمًا. ثمَّة تجاعيد على جبهته، وقد حفرت الخطوط أخاديد لنفسها من رُكني فمه وصولًا إلى ذقنه تقريبًا، وشاب شعر فوديه. لكن تمامًا كالمُستشفى القديم الذي رغم تقزُّمه لا يزال موجودًا -لا يزال واضحًا- كان الصبي الذي عرفه بيل يومًا كذلك.

مدَّ مايك يده ليُصافح صديقه وقال: «مرحبًا بعودتك إلى ديري، يا بيل الكبير».

تجاهل بيل اليد الممدودة وعانق مايك، واحتضنه مايك بقوَّة هو الآخر، واستشعر بيل شعر رأسه الخشن المُجعَّد على كتفه وجانب عُنُقه.

قال بيل: «مهما كان الأمر يا مايك، فلسوف نعتني به»، وسمع صوت الدموع القاسي في حلقه لكنه لم يأبه، وأردف: «لقد هزمناه مرَّة، ونستطيع هـ-هـ-هزيمته مُـ-مُـ-مُجدَّدًا».

انسحب مايك إلى الخلف بعيدًا عنه، وأمسكه بذراعين ممدودتين، ورغم أنه كان يبتسم، بدت عيناه ممتلئتين بالدموع تمامًا. أخرج مايك منديلًا ومسحهما ثم قال: «بالتأكيد يا بيل. تستطيع الرهان على ذلك».

سألت المُضيفة: «هلا تفضَّلتما باتباعي أيُّها السيِّدان؟». كانت امرأة باسمة من الشرق، ترتدي كيمونو وردي اللون منقوش عليه تنِّين يتلوَّى ويتمعَّج ذيله المطلي بالذهب، وشعرها الداكن مُصفَّف إلى أعلى ومعقود بأمشاطٍ من عاج.

قال مايك: «أعرف الطريق يا روز».
ابتسمت لكليهما وقالت: «جيِّد جدًّا يا سيِّد هانلون. أنت تحسن استقبال أصدقائك حسبما أرى».
قال مايك: «أظنُّ ذلك، من هنا يا بيل».
ثم قاده عبر رواقٍ مُعتم، وتجاوزا حُجرة الطعام الرئيسة مُتَّجهين إلى حيث تتعلَّق ستارة مُطرَّزة بالخرز.
سأل بيل: «الآخرون...؟».
قال مايك: «كلهم وصلوا.. أعني كل من استطاع المجيء».
وقف بيل متردِّدًا خارج الباب، وشعر بالخوف يجتاحه فجأة. لم يكن المجهول ما أخافه، ولا الغيب الخارق للطبيعة الذي ينتظرهم، بل الحقيقة البسيطة أنه صار أطول بخمس عشرة بوصة عمَّا كان في عام 1958، وأنه فقد مُعظم شعره. شعر فجأة بعدم راحة -أو بذعرٍ بالأحرى- من فكرة أنه سيراهم جميعًا من جديد، بعدما بليت ملامحهم الطفلة، ودُفنت تحت طوارئ الزمن كما دُفن المُستشفى القديم. سيراهم وقد احتلَّت البنوك مواقع داخل رؤوسهم حيث اعتادت أن تقف دور عرضٍ سحرية شامخة كالقصور.
فكَّر بيل، لقد كبرنا، لم نكن نظن أن هذا سيحدث، ليس وقتها، وليس لنا. لكننا كبرنا، ولو دخلت إلى الغُرفة ستتجسَّد هذه الحقيقة إلى الأبد: لقد صرنا بالغين.
نظر بيل إلى مايك شاعرًا فجأة بالحيرة والخجل. «كيف يبدون؟»، هكذا سمع نفسه يقول في صوتٍ واهن، ثم أردف: «كيف يبدون يا مايك؟».
قال مايك بلُطفٍ: «ادخل وانظر بنفسك»، ثم قاد بيل إلى الغُرفة الصغيرة الخاصة.

2

بيل دِنبروه يلقي نظرة

لعل أن عتمة الغُرفة فحسب هي ما خلقت ذلك الإيهام الذي استمر لأقصر لحظة مُمكنة، لكن بيل تساءل لاحقًا إذا ما كانت هذه رسالةً ما موجَّهةً له بالخصوص.. رسالة مُفادها أن القدر أيضًا قد يكون رؤوفًا.

في تلك اللحظة الوجيزة بدا لعينيه أن أيَّهم لم يكبر، أن أصدقاءه مارسوا فعل بيتربان، وما زالوا جميعًا أطفالًا.

كان ريتشي توزييه مائلًا بمقعده إلى الوراء ومستندًا على الجدار ويقول شيئًا ما لبيڤرلي مارش، التي كانت تضع يدها على فمها وتضحك، بينما ابتسامة مُتذاكية مألوفة تمامًا تلوح على وجه ريتشي. ها هو إدي كاسبراك يجلس إلى يسار بيڤرلي، وعلى المنضدة أمامه بجوار كوب الماء زجاجة بلاستيكية مزوَّدة بمقبض كمقبض المُسدَّس. كانت مُزخرفة كقطعة فنية حديثة، لكنها تؤدي الغرض القديم نفسه كما هو واضح: هذا بخَّاخه. على الطرف الآخر من الطاولة، جالسًا يُراقب هذا الثُلاثي بتعبير هو خليط من الشجن والاستمتاع والتركيز، كان بن هانسكوم.

شعر بيل بيده ترغب في تحسُّس رأسه، وأدرك باستمتاع آسف أنه كاد أن يفرك يافوخه الأصلع ليرى إن كان الشعر قد عاد إليه بطريقة سحرية.. ذلك الشعر الأحمر الجميل الذي بدأ يفقده عندما كان طالبًا في العام الثاني في الكُلِّية.

كسر هذا إيهامه. لاحظ بيل أن ريتشي لم يكن يرتدي نظَّارته، وفكَّر: لا بُدَّ أنه يضع عدساتٍ لاصقة الآن. لقد كان يكره تلك النظَّارة. لقد استعاض عن التيشرتات والسراويل المصنوعة من القِيطان[1] التي اعتاد ارتداءها بُحلَّة لم يبتاعها من على رفٍّ أيِّ محل... قدَّر بيل أنه ينظر إلى حُلَّة ثمنها تسعمئة دولار حيكت خصيصًا له.

صارت بيڤرلي مارش -إذا كان لقبها لا يزال مارش- امرأة بارعة الحُسن بشكلٍ مُذهل.. وبدلًا من ذيل الحصان الذي اعتادت عقص شعرها به كيفما اتَّفق، انسال شعرها -الذي حافظ تمامًا على ألوانه القديمة- على كتفي بلوزتها البيضاء ماركة شيب أند شور في تيَّارٍ من الألوان الهادئة. في هذا الضوء المُعتم، كان شعرها يتوهَّج بخفوت كبُساطٍ من جمر مُتَّقِد. تخيَّل بيل أنه في وضح النهار -حتَّى لو كان نهارًا غائمًا مثل هذا- سوف يضطرم كلهبٍ مُشتعِل، ووجد نفسه يتعجَّب من الشعور الذي سينتابه لو أقحم يديه في ذلك

(1) نسيج من الحرير المضفور، أو القطن، أو غيرهما، يُبَرَمُ فيكون كالحبل الدقيق.

الشعر. فكَّر بامتعاضٍ ساخر: أقدم قِصَّة في التاريخ. أنا أحب زوجتي، لكن ما أروعكِ يا صغيرة.

كان إدي قد كبر ليُشبه أنثوني بيركينز إلى حدٍ ما. كان هذا صحيحًا بقدر غرابته. تجعَّد وجهه بالخطوط قبل أوانه (رغم أنه يبدو وهو يتحرَّك أصغر سنًّا من ريتشي أو بن)، وزاد من عَجَزِه تلك النظَّارة عديمة الإطار التي يرتديها، التي قد تتخيَّلها على مُحامٍ بريطاني وهو يقترب من منصَّة الدفاع أو وهو يفر أوراق مُذكِّرة قانونية. كان شعره قصيرًا، ومُصفَّفًا بتصفيفة كانت تُعرف باسم رابطة اللبلاب في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. كان يرتدي معطفًا رياضيًا صارخًا بدا كقطعة ملابس اختطفها أحدهم من على رفِّ متجر ملابس رجالي يبيع البضاعة بنصف الثمن لأنه قريبًا ما سيوقف نشاطه... لكن الساعة على معصمه كانت سويسرية من طراز باتك فيليب، والخاتم الذي يحيط إصبع يده اليُمنى الصغير من الياقوت. كان حجر الخاتم الكريم سوقيًّا جدًّا وشديد الفجاجة بحيث لا يمكن أن يكون سوى حجرٍ حقيقيٍّ.

بن هو الذي تغيَّر حقًّا، وعندما تفحَّصه بيل بنظرة أخرى، شعر بعدم تصديقٍ هائلٍ يجتاحه. إن وجهه لم يتغيَّر، وكان شعره الذي بدأ يشيب وصار أطول مُصفَّفًا إلى اليمين بالطريقة غير المُعتادة ذاتها. لكن بن صار نحيفًا. كان يجلس بأريحية تامة في مقعده، وكان صديريه الجلدي مفتوحًا كاشفًا عن قميص أزرق من نسيج الشامبري. كان يرتدي سراويل چينز مُستقيم الساقين ماركة ليڤيس، وحذاء رُعاة بقر، وحزام عريض بحُلية فِضِّية تقشَّرت في بعض موضعٍ. كل هذه الملابس كانت تلتصق بجسدٍ نحيف ومشدود الخصر. كان يرتدي سوارًا بحُلياتٍ ثقيلة في إحدى معصميه ليست ذهبية بل من النحاس. فكَّر بيل: لقد خسر وزنًا. إنه مُجرَّد شبح لذاته السابقة إذا جاز التعبير... لقد صار الرفيق القديم بن نحيفًا. العجائب لن تنتهي أبدًا.

مرَّت لحظة صمت بين سِتَّتهم فاقت الوصف. كانت واحدة من أغرب اللحظات التي مرَّت ببيل دِنبروه في حياته. لم يكن ستان حاضرًا، لكن ثمَّة سابع موجود رغم ذلك. هنا في غُرفة الطعام الخاصة هذه شعر بيل بحضور ذلك السابع بشكلٍ طاغٍ تمامًا حتَّى إنه كاد أن يتجسَّد، لكن ليس في صورة

رجُلٍ مُسنٍّ يرتدي ثوبًا أبيض ويُريح منجلًا على كتفه. كان الحضور هو البُقعة الخالية البيضاء على خريطة السنوات بين التاريخين 1958 و1985، وهي مساحة قد يُسميها مُستكشفٌ بالـ «مجهول الأعظم». تعجَّب بيل من الأحداث التي ملأت تلك الفترة. هل كانت بيڤرلي مارش ترتدي تنورة قصيرة كاشفة عن مُعظم ساقيها اللعوبتين؟ هل كانت ترتدي حذاءً أبيض عالي الرقبة، وشعرها مفلوقًا من مُنتصفه ومكويًّا؟ أكان ريتشي توزييه يحمل لافتة تقول أوقِفوا الحرب على أحد وجهيها، وعلى الوجه الآخر تقول أخرِجوا هيئة تدريب ضُبَّاط الاحتياط من الحرم الجامعي؟ أكان بن هانسكوم يرتدي الخوذة الصفراء بشعار العلم على مُقدِّمتها، ويقود جرَّافة مُستظِلًّا بمظلَّة من القُماش، وقميصه المفتوح يكشف عن بطنٍ يقل بروزها بالتدريج من فوق حزام سراويله؟ أكان سابعهم ذلك الرفيق الأسود الذي لم تكن تربطه صلة قرابة بإتش راب براون أو بجراندماستر فلاش؟ لا، ليس هذا الرفيق الذي أمامي من أقصد، بل النسخة القديمة منه التي ترتدي قمصانًا بيضاء وسراويل قُماشية زهيدة، وتجلس في مقصورة مكتبة في جامعة مين، تكتب أبحاثًا عن منشأ هوامش الكتب، والمزايا المُحتملة للترقيم الدولي في علم فهرسة الكُتُب، بينما يسير المُتظاهرون في الخارج، ويغني فيل أوشس «أيا ريتشارد نيكسون جِد لنفسك دولة أخرى تكون جُزءًا منها»، ويموت رجالٌ وقد انفجرت بطونهم في قُرى لا يعلمون كيفية نطق أسمائها.. ذلك الرفيق الذي يجلس مُنكبًّا على عمله (كان بيل يراه بعين الخيال) المفروش أمامه تحت شعاع ضوء الشتاء الأبيض النضر، ووجهه رصين ومُستغرق، عالمًا أنه حينما يصير المرء أمين مكتبة فهذا يعني أنه صار على أقرب مسافة يستطيع أيُّ إنسانٍ بلوغها للجلوس على مقعد الأبدية. أهو نفسه ذلك السابع؟ أم هو ذلك الشاب الذي اعتاد أن يرى انعكاسه في المرآة، وينظر إلى مُقدِّمة رأسه الآخذة في التوسُّع فوق جبهته، ويحملق في المشط المليء بالشعرات الحمراء، ويلقي نظرة على انعكاس كومة دفاتر مُلاحظات الجامعة المُكدَّسة على المكتب في المرآة.. الدفاتر التي تضم المسوَّدة الفوضوية الأولى لروايته التي تُدعى چوانا، والتي سوف تُنشر العام القادم؟

بعض ما سبق، كل ما سبق، لا شيء ممَّا سبق.

لم يكن الأمر يهم حقًّا. كان سابعهم موجودًا، وفي تلك اللحظة الخاصة استشعره جميعهم... ورُبَّما فهموا بشكلٍ كامل القوَّة المروِّعة للكيان الذي أعادهم. إن الشَّيءَ حيٌّ، هكذا فكَّر بيل شاعرًا بالبرودة تسري أسفل ملابسه. عين السمندل... ذيل التنين... يد المجد... أيًّا ما كان كُنهه.. لقد عاد الشَّيءُ من جديد، هنا في ديري.. الشَّيءُ الذي لا اسم له.

فجأة شعر بيل بأن الشَّيءَ هو سابعهم. أن الشَّيءَ والزمان يتناوبان بطريقةٍ ما. أن الشَّيءَ وضع كل أقنعته، بالإضافة إلى آلاف الأقنعة الأخرى التي استطاع بها أن يُرهب ويقتل... وقد كانت فكرة أن الشَّيءَ قد يكون هم بشكلٍ ما أكثر الأفكار إرعابًا على الإطلاق، ووجد بيل نفسه يُفكِّر بذُعرٍ مُتصاعد: تُرى كم تركنا من ذواتنا خلفنا؟ أيُّ أجزاءٍ منا لم تُغادر قط المصارف والمجارير التي يقطنها الشَّيءُ... والتي يتغذى فيها؟ ألهذا السَّبب نسينا؟ لأن جزءًا منا لم يحظ بأيِّ مُستقبل، لم يكبر قط، لم يغادر ديري قط؟ هل هذا هو السَّبب؟

لم يرَ في وجوههم أيَّ أجوبة... فقط رأى أسئلته التي انعكست عن مُحيَّاهم عائدة إليه.

تشكَّلت الأفكار وتلاشت في غضون ثوانٍ أو أجزاء من ثوانٍ، خالقة لنفسها أُطُرها الزمنية الخاصة، وقد عَبَرَ كل ذلك عقل بيل دِنبروه في هنيهة لا تزيد على خمس ثوانٍ.

بعدها ابتسم ريتشي توزيير الذي كان يسند ظهره إلى الجدار وقال: «يا إلهي، انظروا إلى هذا. لقد اختار بيل لنفسه إطلالة ملساء كالزلطة. كم مكثت في فرك فروة رأسك بمنيك يا بيل الكبير؟».

هنا، فتح بيل فمه دون أن يملك أدنى فكرة عمَّا سيخرج منه على الإطلاق، وسمع نفسه يقول: «اللعنة عليك وعلى من يقف في صفك يا سليط اللسان».

مرَّت لحظة صمت قصيرة، ثم ضجَّت الغُرفة بالضحك. أقدم بيل عليهم وبدأ في مصافحة الأيدي الممدودة، وعلى الرغم من أن شيئًا ما مُريعًا بدا أنه يسكنه الآن، أحسَّ بيل بشيءٍ مُريح يسري داخله: ذلك الشعور بأنه عاد إلى الديار أخيرًا، وإلى الأبد.

3
بن هانسكوم يخسر وزنًا

طلب لهم مايك هانلون المشروبات، وكأنما ليعوِّضوا لحظات الصمت السابقة، بدأ الجميع في الكلام دُفعة واحدة. اتضح أن بيفرلي مارش قد صارت بيفرلي روجان. قالت إنها متزوِّجة من رجُلٍ رائع في شيكاجو قلب حياتها كلها رأسًا على عقب، كما تمكَّن -بسحرٍ حميدٍ ما- من تحويل مهارة زوجته البسيطة في الحياكة إلى تجارة كاملة. يمتلك إدي كاسبراك شركة ليموزين في نيويورك، وقد قال لهم وهو يبتسم بشكلٍ طفيف: «قد تكون زوجتي الآن في الفراش مع آل باتشينو»، فضجَّت الغُرفةُ بالضحك.

كان جميعهم يعرف ما قد وصل إليه كلٍ من بيل وبن، لكن كان لدى بيل شعور غريب أنهم لم يربطوا أسميهما -بن المُهندس المعماري، وهو الكاتب- بصبيين عرفوهما في طفولتهم حتَّى وقتٍ قريب جدًّا جدًّا. كانت بيفرلي قد أحضرت نسختين من روايتيه جوانا والجنادل السوداء، وطلبت منه أن يوقِّعهما لها.. وقد فعل بيل، ملاحظًا أن كلا الكتابين بحالة مُمتازة، كأنهما ابتيعا لتوِّهما من كشك الجرائد في المطار عندما ترجَّلت من طائرتها.

في السياق نفسه، أخبر ريتشي بن كم أثار مبنى مركز اتِّصالات شبكة بي بي سي في لندن إعجابه... لكن بعض الحيرة التمعت في العيون، كأنهم لم يستطيعوا إيجاد الصِّلة بين المبنى بهذا الرَّجُل أمامهم... أو بالصبي البدين الهُمام الذي علَّمهم كيف يُغرقوا نصف البرِّية بألواحٍ مُختلسة وباب سيَّارة أكله الصدأ.

كان ريتشي مُقدِّم أغانٍ أو فارس أُسطُوانات. أخبرهم أنه معروف بلقب الرَّجُل ذو الألف صوت، فقال بيل متألِّمًا: «يا إلهي يا ريتشي، لقد كانت أصواتك مُزعجة تمامًا».

ردَّ ريتشي بتعالٍ: «لن تصل بمعسول الكلام إلى أيِّ مكانٍ، يا سيِّد».

عندما سألته بيفرلي ما إذا كان يرتدي عدساتٍ لاصقة حاليًا، أجابها ريتشي بصوتٍ خفيض: «اقتربي أكثر يا صغيرة. انظري في عيني»، وقد فعلت بيفرلي، وصاحت بمرح عندما أمال ريتشي رأسه قليلًا كي تتمكَّن من رؤية الحدود السُفلية اللينة لعدسات هايدروموييست التي يرتديها.

سأل بن مايك هانلون: «هل المكتبة ما زالت على حالها؟».

أخرج مايك محفظته وأخرج منها صورة للمكتبة مُلتقطة من علٍ. فعلها بالفخر ذاته الذي يُخرج به رجلٌ صور أولاده عندما يسأله أحدهم عن عائلته. قال لهم فيما راحت الصورة تتناقل من يدٍ إلى يد: «التقطها أحدهم من طائرة خفيفة على ارتفاعٍ مُنخفض. حاولت أن أحصل على مالٍ كافٍ من مجلس المدينة أو من مُتبرِّع ثري لطباعتها بحجم جداري كي توضع في مكتبة الأطفال، لكنني لم أُوَفَّق حتَّى الآن. صورة جيِّدة، هه؟».

وافق جميعهم أنها كذلك. ظل بن يحملها وقتًا أطول، مُتأمِّلها بثباتٍ. في النهاية، نقر بأصبعه الجزء من الصورة الذي يظهر به الممر الزجاجي الذي يربط المبنيين. «هل ميَّزت هذا الممرَّ في أيِّ مكانٍ آخر يا مايك؟».

ابتسم مايك قائلًا: «إنه مركز الاتِّصالات الذي صمَّمته»، فانفجر سِتَّتهم ضاحكين.

جاءت المشروبات، فجلسوا جميعهم.

ثم حلَّ الصمت المُفاجئ المُحرج المُحيِّر، من جديد. نظر أحدهم إلى الآخر.

سألت بيفرلي في صوتٍ عذب وأجش قليلًا: «حسنًا، نخب من سنشرب؟».

قال ريتشي فجأة: «نخبنا». لم يكن يبتسم الآن. تلاقت عيناه وعينا بيل، وبقوَّة كاسحة استطاع بيل التعامل معها بالكاد، داهمته ذكرى جلوسه وريتشي في مُنتصف شارع نيبولت يحتضن أحدهما الآخر ويبكيان، بعد اختفاء الشَّيءِ الذي رُبَّما كان مُهرِّجًا ورُبَّما كان مُستذئبًا. عندما رفع كأسه، كانت يده ترتعش، وانسكب بعضٌ من شرابه على المفرش الأبيض.

قام ريتشي واقفًا ببطء، فحذو حذوه واحدٌ تلو الآخر: بيل في البداية، ثم

بن وإدي، وبيفرلي بعدهما، وفي النهاية مايك. قال ريتشي: «نخبنا». كان صوته يرتعش قليلًا، تمامًا ككفِّ بيل. «نخب نادي الخاسرين في عام 1958».

قالت بيفرلي، مُستمتعة نوعًا: «نخب الخاسرين».

– «نخب الخاسرين». قالها إدي بوجهٍ شاحبٍ ومُغضَّنٍ خلف نظّارته عديمة الإطار.

وافق بن: «نخب الخاسرين»، وقد ظهر شبح ابتسامة خفيفة وموجعة في رُكني فمه.

– «الخاسرين». قالها مايك هانلون بنعومة.

واختتم بيل النخب: «إلى الخاسرين».

ثم تلاقت كؤوسهم مُقرقِعة، وشربوا.

جثم الصمت مُجدَّدًا، وهذه المرَّة لم يكسره ريتشي. هذه المرَّة بدا الصمت ضروريًّا.

هكذا جلسوا على مقاعدهم برهة، ثم قال بيل: «حسنًا، ألقِ بما عندك يا مايك. أخبرنا ما الذي يحدث هنا، وما في استطاعتنا فعله».

قال مايك: «كلوا أوَّلًا.. وسنتحدَّث بعدها».

وهكذا أكلوا... وقد أكلوا طويلًا وبشكلٍ جيِّد، مثل تلك النكتة عن الرَّجُل المُدان، هكذا فكَّر بيل. لكن ها هي شهيته بأفضل حالاتها منذ عقود... منذ أن كان طفلًا، هكذا أغواه الظن. لم يكن الطعام استثنائي الجودة، لكنه أيضًا بعيد تمام البُعد عن السوء، وكان كثيرًا. بدأ ستَّتهم يتبادلون أطباق الطعام ذهابًا وإيابًا عبر المنضدة.. أضلع اللحم الصغيرة، طاسة المقالي، أجنحة الدجاج المطهية ببراعة ودِقَّة، لفائف البيض، الكستناء المائي الملفوف في شرائح لحم الخنزير المُقدَّد، شرائح لحم البقر الملفوفة على عصي خشبية.

بدأوا وليمتهم بصينية الطعام المُنوَّع، وانخرط ريتشي في فعلٍ صبياني لكنه مُسلٍّ، وراح يجمع قليلًا من كل شيءٍ ويضعه في الوعاء المُشتعل في مُنتصف الصينية التي يُشاركها مع بيفرلي، بما في ذلك نصف لفيفة بيضٍ وحفنة من الفاصوليا الحمراء. ثم قال لبن: «يوجد صحنٌ مُشتعل على مائدتي، لكم

أُحب هذا. أعتقد أنني مُستعد أن آكل خراء مُقدَّمًا على لوحٍ خشبي إذا كان هناك صحنٌ مُشتعلٌ على مائدتي».

قال بيل: «لقد حصلت على ما تطلبه على الأرجح». ضحت بيڤرلي بقوَّة لدرجة أنها اضطرت إلى بصق ما في فمها في منديل المائدة أمامها.

قال ريتشي في محاكاة بارعة لدرجة مُخيفة لدون باردو: «يا إلهي، أظنُّ أنني سأؤووع ما في بطني»، فزاد ضحك بيڤرلي، وتوهَّجت بلونٍ أحمر قانٍ.

ثم قالت له: «كُفَّ يا ريتشي، أنا أحُذِّرك».

قال ريتشي: «تحذيرك وصل. بالهناء والشفاء يا عزيزتي».

أحضرت لهم روز الحلوى بنفسها، التي كانت هرمًا كبيرًا من كعكة الألاسكا المخبوزة المُغطَّاة بالأيس كريم، ثم أشعلت لهم سطحها الخارجي باللهب ووضعتها عند رأس المائدة، حيث يجلس مايك.

قال ريتشي بصوت رجُلٍ تُوفيَ وانتقل إلى الجنة: «مزيدٌ من اللهب على مائدتي، هذه أفضل وجبة أكلتها في حياتي».

قالت روز بوقار: «ألديك شك!».

سألها ريتشي: «إذا أطفأت هذه الشُعلة، هل سأحظى بأُمنيتي؟».

- «كل الأماني تتحقَّق في يشم الشرق يا سيِّدي».

خانت الابتسامة ريتشي فجأة، وقال: «أُحيي رقة إحساسك، لكن أتعرفين؟ أنا أشك حقًّا في صدق هذا الكلام».

أجهزوا على كعكة الألاسكا المخبوزة بالكامل تقريبًا، وعندما أراح بيل ظهره إلى الوراء شاعرًا ببطنه يدفع حزام سراويله بقوَّة، لاحظ الكؤوس المتراصة على المائدة. بدا له أن هناك المئات منها. ابتسم قليلًا مُدركًا أنه وحده جرع كأسي مارتيني قبل الوجبة، وعددًا لا يعلمه سوى الرَّب من بيرة كيرين الطيبة، وقد شرب الآخرون مثله تقريبًا. في مثل حالتهم، لو أن شرائح زجاجات لعبة البولينج قُدِّمت لهم فستبدو طيِّبة المذاق في أفواههم.. ورغم ذلك، لم يشعر بن بأنه ثملٌ.

قال بن: «لم آكل بمثل هذه الشهية منذ أن كنت طفلًا». نظروا إليه فتخضَّبت

وجنتاه بحُمرة طفيفة، وأردف: «أعني ذلك حرفيًّا. قد تكون تلك أكبر وجبة التهمتها منذ أن كنت في السنة الثانوية الثانية».

سأله إدي: «هل اتَّبعت حمية غذائية؟».

قال بن: «أجل فعلت. حمية إطلاق سراح بن هانسكوم الغذائية».

سأله ريتشي: «ما الذي دفعك لذلك؟».

قال بن متململًا في مقعده: «صدقني، لن ترغب في سماع هذه القِصَّة العتيقة الـ...».

قاطعه بيل قائلًا: «أنا لا أعرف رأي البقية، لكنني أود سماعها عن نفسي. هيًّا يا بن، احك. ما الذي حوَّل المُصارع كالهون هايستاك إلى عارض الأزياء الذي نراه اليوم أمامنا؟».

شخر ريتشي ضاحكًا قليلًا: «كومة القش، أجل. كنت قد نسيت هذا».

قال بن: «ليست قِصَّة عظيمة جدًّا. في الحقيقة، ليست قِصَّة من الأساس. بعد ذلك الصيف -بعد عام 1958- مكثنا في ديري عامين آخرين، ثم فقدت أمي وظيفتها وانتهى بنا الأمر في نبراسكا، لأن كانت لها أخت هناك عرضت أن تستضيفنا عندها إلى أن تتمكَّن أمي من الوقوف على قدميها مرَّة أخرى. لم تكن إقامتنا عندها عظيمة تمامًا. كانت أختها -أو خالتي چين- عاهرة بخيلة لا تنفك عن تذكيرك بمكانك في العالم ومجريات الأمور العظيمة، وكيف أننا محظوظان لأن أمي لها أختٌ قادرة على إعانتنا، وكم أننا محظوظان لأننا لا نعيش على معونات الجمعيات الخيرية، وكل هذه الأمور. كنت بدينًا جدًّا وقتها لدرجة أثارت تقزُّزها، ولم تكن قادرة على إغفال الأمر. 'بن، يجب أن تُمارس مزيدًا من التمارين. بن، ستُصاب بنوبة قلبية قبل بلوغك الأربعين إذا لم تخسر وزنًا. بن، ثمَّة أطفال رُضَّع يتضوَّرون جوعًا في العالم، يجب أن تخجل من نفسك'».

توقَّف بن قليلًا ورشف رشفة ماءٍ، وأردف: «المُشكلة أنها كانت تأتي إلى ذكر الأطفال الجوعى إذا حتَّى لو لم أنهِ طبقي».

ضحك ريتشي وأومأ متفهِّمًا.

- «على أيِّ حال، كانت الدولة ما زالت تحاول الخروج من فترة ركود،

وكانت أمي قد قاربت على عامٍ كامل من دون العثور على عملٍ مُستدام. بحلول الوقت الذي انتقلنا فيه من منزل خالتي چين في لا فيستا، ومكثنا في منزلنا الخاصِ في أوماها، كنت قد زدت نحو تسعين رطلًا عمَّا كنتم تعرفونني يا رفاق، وأظنُّني اكتسبت معظم هذا الوزن فقط نكايةً في خالتي چين».

صفَّر إدي مشدوهًا: «هذا معناه أن وزنك وصل إلى...».

قال بن بجدية: «نحو مئتي وعشرة أرطال. على أيٍّ حال، كنت أرتاد مدرسة إيست سايد الثانوية في أوماها، وقد كانت حصص التربية البدنية... حسنًا، سيِّئة جدًّا. كان الصبية الآخرون ينعتونني بالبرميل، هذا يُعطيكم فكرة عن قدر المُعاناة».

«استمرَّت المُضايقات قرابة سبعة شهور، ثم في أحد الأيام، فيما كنا نرتدي ملابسنا في حُجرة خلع الملابس بعد حصة التربية البدنية، بدأ ثلاثة أو أربعة صبية في... في صفعي على بطني، وقد سمُّوا الأمر بـ«لظلظة الدهون». بعدها بقليل انضم إليهم اثنان أو ثلاثة آخرون. ثم أربعة أو خمسة.. وسرعان ما كان جميعهم يطاردونني في جنبات غُرفة خلع الملابس وعبر الرواق، صافعين بطني، ومؤخِّرتي، وساقيّ. اعتراني الخوف وبدأت أصرخ، وهذا جعل الجميع يضجون بالضحك كالمجانين».

صمت برهة ثم أردف ناظرًا إلى أسفل وهو يُعيد ترتيب آنية المائدة الفِضِّية أمامه: «أتعرفون، كانت هذه آخر مرَّة أتذكَّر أنني فكَّرت في هنري باورز فيها إلى أن هاتفني مايك منذ يومين. الفتى الذي بدأ الأمر كله كان ولدًا قرويًا ذا كفين ضخمين، وفي أثناء ما كانوا يطاردونني أتذكَّر أنني فكَّرت أن هنري باورز قد عاد. أظنُّ... لا، بل أنا مُتيقِّن أن هذه كانت اللحظة التي شعرت فيها بالذُعر».

«لم ينفكُّوا عن مطاردتي بطول الرواق بعيدًا عن غُرفة خلع الملابس، حيث يحتفظ الفتية الذين يُمارسون الرياضة بأغراضهم. كنت عاريًا وأحمر اللون كسلطعون، وقد فقدت كل إحساسٍ بالكرامة... أو بنفسي.. وبالمكان من حولي. صرخت طلبًا للمُساعدة، لكنهم استمرَّوا في تتبُّعي صائحين: 'لظلظة الدهون! لظلظة الدهون! لظلظة الدهون'. كان هناك دكَّة...».

قالت بيفرلي فجأة: «بن، لست مُضطرًا لأن تسترجع هذه الذكرى». كان وجهها قد شحب وصار بلون الرماد، وكانت تعبث بكوب ماء وقاربت على سكبه.

قال بيل: «دعيه ينهي قصَّته».

نظر إليه بن للحظة ثم أومأ برأسه: «كان هناك دكَّة في نهاية الرواق، سقطت فوقها وخبطت رأسي. التف جميعهم حولي في غضون دقيقة أو اثنتين، ثم سمعت صوتًا يقول: 'حسنًا، يكفي هذا. اذهبوا يا رفاق واستبدلوا ملابسكم'».

«كان هذا المُدرِّب واقفًا عند المدخل يرتدي سراويله الرياضية الزرقاء ذات الخطوط البيضاء على الجانبين التي تمتد إلى التيشرت الأبيض الذي يضعه. لم تكن ثمَّة وسيلة لمعرفة منذ متى وهو يقف هنا. نظر جميعهم إليه، بعضهم يبتسم، بعضهم شاعرًا بالذنب، بعضهم يحملق بلا تعبير.. ثم عادوا أدراجهم. هنا انفجرت باكيًا».

«ظل المُدرِّب واقفًا في المدخل الذي يفضي إلى صالة الألعاب الرياضية فحسب، ينظر إلى الصبي البدين العاري الذي احمر الجلد في جميع جسده من لظلظة الدهون، يراقب هذا الصبي البدين يبكي على الأرض».

«ثم قال أخيرًا: 'بيني، لِمَ لا تخرس فحسب عليك اللعنة؟'».

«صدمني تمامًا أن أسمع مُدرِّسًا يستخدم هذا اللفظ الذي أستخدمه. رفعت نظري إليه، فاقترب وجلس على الدَّكة التي سقطت من عليها. ثم انحنى فوقي، فتأرجحت الصُفَّارة المُعلَّقة حول عنقه ولكزتني في جبهتي. ولثانية ظننت أنه سيُقبِّلني أو شيءٍ كهذا، فانكمشت مُبتعدًا عنه، لكن ما فعله أنه أمسك بنهديّ -واحدًا في كل يدٍ- واعتصرهما، ثم رفع يده بعيدًا عني ومسحهما في سراويله كأنه لمس شيئًا قذرًا».

«سألني: 'هل تظن أنني سأواسيك؟ أنت تحلم. أنت تُثير اشمئزازهم كما تُثير اشمئزازي. لكلٍ منا أسباب مختلفة، لكن هذا لأنهم أطفال وأنا لست كذلك. أنهم لا يعرفون لماذا تُثير اشمئزازهم، أما أنا فأعرف.. لأنني أرى تدفن الجسد الجميل الذي أهداك الله إياه أسفل كُتلٍ من الدهون. هذا نوعٌ أحمق

من تدليل النفس والتساهل معها، ويجعلني أريد التقيُّؤ. الآن اسمعني يا بيني، لأن هذه المرَّة الوحيدة التي سأقول لك فيها هذا الكلام. إن لديَّ فريق كرة قدم، وفريق سلة، ومضمار ركضٍ أشرف عليها جميعًا، وفي الوقت المتبقِّي، أدرِّب فريق سباحة. لذا سأقولها لك مرَّة واحدة.. أنت بدين من هنا'». قالها ونقر جبهتي في البقعة ذاتها التي لكزتني فيها تلك الصُفَّارة اللعينة. «'هذا هو المكان الذي تتراكم فيه دهون الجميع. ضع عقلك في حمية غذائية ولسوف تخسر وزنًا، لكن أمثالك لا يفعلون ذلك أبدًا'».

قالت بيڤرلي بسخط: «ذلك الوضيع!».

ابتسم بن قائلًا: «أجل. لكنه لم يكن يعرف أنه وضيع، لهذه الدرجة كان أحمق. لا بُدَّ أنه شاهد چاك ويب في فيلم ذا دي أي نحو ستين مرَّة، وقد ظن أنه بذلك يسدي لي معروفًا.. وقد اتضح بعدها أنه فعل ذلك حقًّا. لأنني فكَّرت في شيءٍ لحظتها. فكَّرت...».

أشاح بن ببصره بعيدًا، وقطب جبينه، واعترى بيل أغرب شعور يُمكن أن يعتريه، لقد شعر بأنه يعرف تمام المعرفة ما كان بن على وشك قوله قبل أن يقوله.

«لقد أخبرتكم أن آخر مرَّة فكرت في هنري باورز فيها كانت عندما راح أولئك الصبية يطاردونني ويعتدون عليّ. حسنًا، عندما نهض المُدرِّب استعدادًا للرحيل، كانت تلك المرَّة الأخيرة التي فكَّرت فيها حقًّا بما فعلناه معًا في صيف عام 1958. فكَّرت...».

ثم تردَّد مرَّة أخرى، ونظر إلى كلٍ منهم بالتتابع، كمن يُفتِّش وجوههم. ثم واصل بحذر.

«فكَّرت في كم كنا بأفضل حال ونحن معًا. فكَّرت في ما فعلناه وكيف فعلناه، ومرَّة واحدة أتاني خاطرٌ أن المُدرِّب إن حدث واضطر إلى مواجهة شيءٍ كالذي واجهناه، فسوف يشيب شعره كله في اللحظة ذاتها، وسيتوقَّف قلبه ويموت في صدره كالساعة القديمة. لم يكن هذا مُنصفًا بالطبع، لكنه بدوره لم ينصفني. ما حدث كان بسيطًا جدًا...».

قال بيل: «ثارت ثائرتك».

ابتسم بيل وقال: «أجل. هذا صحيح. هتفت: 'أيُّها المُدرِّب!'».

«التفت ونظر إليّ، فسألته: 'تقول إنك تُشرف على مضمار الركض؟'».

«قال لي: 'هذا صحيح، لكن هذا لا يعني لك أيَّ شيءٍ'».

«قلت له: 'اسمعني الآن يا بن العاهرة الأحمق صلد الدماغ'، ففُغِرَ فوه وتدلَّى ساقطًا وجحظت عيناه وأنا أضيف: 'سأشترك في فريق الركض من أوَّل مارس. ما رأيك في ذلك؟'».

«قال لي: 'رأيي أنه من الأفضل لك أن تغلق فمك قبل أن يوقعك في مُشكلة كبيرة'».

«قلت له: 'سأتفوَّق على كل عدَّائينك. سأتفوَّق على أفضل واحدٍ فيهم، وعندها ستكون مدينًا لي باعتذارٍ لعين'».

«شُدَّت قبضتاه، وللدقيقة كاملة ظننت أنه سوف ينهال عليّ بهما، ثم ارتخيتا بعد ذلك، وقال بهدوء: 'لن تفعل شيئًا سوى الكلام أيُّها الفتى البدين. أنت مُجرَّد ثرثار مُتشدِّق. اليوم الذي ستسبق فيه أفضل عدَّاءٍ في فريقي سيكون اليوم الذي أُغادر فيه هذا المكان وأعود لبيع الذرة في السيرك'، ثم غادر».

سأله ريتشي: «وهل خسرت وزنك؟».

قال بن: «حسنًا، أجل. لكن المُدرِّب كان مُخطئًا. لم يبدأ الأمر بعقلي، بل بأمي. لقد عدت إلى المنزل يومها وأخبرتها أنني أُريد خسارة بعض الوزن، وانتهى الأمر بمُشاجرة جحيمية بيننا... انتهى وكلانا يبكي. بدأت أمي بالكلام العقيم القديم ذاته: أنني لست بدينًا، وإنما عظمي عريض فقط، والفتى الضخم إذا أراد أن يصير رجُلًا ضخمًا يجب أن يأكل بضخامة فقط ليحافظ على ضخامته. كانت بدانتي... تُشكِّل لها نوعًا من الأمان على ما أظنُّ. لقد كانت محاولة تربية صبي بمُفردها تجربة مُخيفة بالنسبة إليها. إنها لم تتلقَ تعليمًا وليس لديها مهارات حقيقية، وكل ما في جُعبتها مُجرَّد الاستعداد للعمل بجد، وعندما كانت تستطيع إعادة ملء طبقي، أو عندما تستطيع النظر عبر المائدة إليَّ وترى أنني أبدو مُمتلِئًا...».

قال مايك: «كانت تشعر بأنها تفوز بالمعركة».

قال بن وهو يجرع الجرعة الأخيرة من البيرة ويمسح شنب الرغوة الصغير

بظهر يده: «أها. لذا لم تكن المعركة الكُبرى مع عقلي، بل معها. لم تستطِع تقبُّل الأمر ببساطة، وظلَّت هكذا شهورًا. لم تكن تغسل ثيابي، ولا تبتاع لي ثيابًا جديدة، وقتها بدأت أجري.. أجري في كل مكان.. أحيانًا كان قلبي يدُقّ بقوَّة هائلة أشعر معها أنني على وشك الإغماء. أوَّل ميلٍ ركضته أنهيته وأنا أتقيَّأ ثم غبت عن الوعي، ثم بعدها كنت أتقيَّأ فحسب، وبعد فترة كنت أركض مُمسكًا بسراويلي كي لا تنزلق».

«حصلت على وظيفة توزيع جرائد، وكنت أجري بحقيبة مُعلَّقة حول عُنُقي وتتقافز على صدري وأنا أقبض سراويلي كي لا تقع. بدأت التيشيرتات تبدو كالأشرعة عليَّ، وفي الليل عندما كنت أعود إلى المنزل وآكل نصف الطعام الموضوع في طبقي، كانت أمي تنفجر باكية وتقول إنني أجوِّعُ نفسي، وأقتل نفسي، وأنني لم أعد أحبها بعد الآن، وأنني لا أهتم بمقدار ما تعمل جاهدة من أجل سعادتي».

غمغم ريتشي وهو يُشعل سيجارة: «يا للمسيح، لا أعرف كيف صمدت في وجه الأمر يا بن».

قال بن: «فقط وضعت صورة المُدرِّب أمام ناظريّ. ظللت أتذكَّرة شكله وهو يمسك بصدري في الرواق الذي يفضي إلى غرفة خلع الملابس. هكذا نجحت في مسعاي. اشتريت لنفسي سراويل چينز جديدة وبعض الأغراض بأموال توزيع الجرائد، وواصل جارنا العجوز في شقَّة الطابق الأول فتح ثقوب جديدة في حزامي بمثقاب الجلد الذي يمتلكه... نحو خمسة منها على ما أتذكَّر. أظنُّني تذكَّرت الآن المرَّة الأخرى التي اضطررت لشراء سراويل چينز جديدة لنفسي... كان هذا عندما دفعني هنري باورز إلى البرِّية في ذلك اليوم، ما جعلها تتمزَّق تقريبًا من على جسدي».

قال إدي مُبتسمًا: «أجل. لقد أخبرتني يومها عن حيلة حليب الشيكولاتة، أتذكُر؟».

أومأ بن قائلًا: «بالكاد، فالأمر يأتيني في ومضاتٍ خاطفة تولد وتتلاشى في اللحظة ذاتها. في هذه الأثناء بدأت أحضر دروسًا عن الصحة والتغذية في المدرسة، واكتشفت أنك تستطيع التهام كل ما هو أخضر وطازج بأيِّ كميَّات

دون أن تزداد وزنًا. لذا في إحدى الليالي، وضعت أمي طبق سلاطة خضراء أمامي، يحتوي خسًّا وسبانخ طازجة وقطع تُفاح ورُبَّما قليلًا من شرائح لحم الخنزير المُتبقِّية. حسنًا، لم أكن من هواة طعام الأرانب هذا كثيرًا، لكنني ملأت طبقي ثلاث مرَّات، دون أن أتوقَّف عن مدح جودة الطعام مرارًا وتكرارًا لأمي».

«اختصر هذا كثيرًا من المسافات تجاه حل المُشكلة. لم تكن أمي تهتم كثيرًا بما آكل ما دمت آكل كميَّات كبيرة منه. أغرقتني بالسلطات. ظللت آكلها طوال الثلاث سنوات التالية. أحيانًا كنت أنظر إلى المرآة كي أتأكَّد من أن أنفي لا يتحرَّك».

سأله إدي: «إذًا ماذا فعلت مع المُدرِّب. هل ذهبت إلى المضمار؟»، ثم تحسَّس بخَّاخه، كأن فكرة الرَّكض فكَّرته به.

قال بن: «أوه، أجل فعلت. تنافست في كلا السباقين: مسافة أربعمئة متر، ومسافة مئتي متر. بحلول ذلك الوقت كنت قد فقدت سبعين رطلًا وازداد طولي بوصتين، وهو ما جعل ما تبقَّى من الدهون يتوزَّع بشكلٍ أفضل. في اليوم الأوَّل من الاختبارات فُزت في سباق مئتي المتر بفارق ستة أطوال[1]، وأربعمئة المتر بفارق ثمانية. ثم اتَّجهت إلى المُدرِّب الذي كان يقرض أظافره من الغيظ ويبصق الفُتات وقلت له: 'يبدو أن وقت عودتك إلى السيرك لبيع الذرة قد حان، متى ستأخذ الطريق المؤدي إلى كانساس؟'».

«في البداية لم يقل شيئًا، فقط لفَّ بجذعه في حركة دائرية ولكمني في وجهي وأسقطني أرضًا على ظهري. ثم أخبرني أن أخرج من الملعب، لأنه لا يريد ثرثارًا مُتذاكيًا لقيطًا ضمن فريقه».

«قلت له وأنا أمسح الدم عن رُكن فمي: 'لن أنضم إليه لو طلب مني كينيدي شخصيًّا، وبما أنك من وضعني على الطريق فلن ألزمك بكلمتك... لكن في المرة القادمة وأنت جالس لتجهيز صينية كبيرة من كيزان الذُرة، فكِّر في بن هانسكوم'».

«هنا قال لي إنني إن لم أخرج حالًا سوف ينهال عليّ ضربًا حتَّى أستغيث».

---

(1) طول الحصان، أو ببساطة الطول: وحدة قياس لطول الحصان من الأنف إلى الذيل، حوالي 8 أقدام (2.4م). يستخدم طول الحصان كوحدة قياس مسافات في مضامير سباقات العدو.

قالها بن وهو يبتسم قليلًا، لكن لم يكن ثمَّة ما يسر في تلك الابتسامة، وبالتأكيد لم يكن فيها حنين. «كان الجميع يُراقبنا، حتَّى الفتية الذين تفوَّقت عليهم بدوا مُحرجين بشدَّة، لذا قلت له: 'أتعرف أيُّها المُدرِّب، سأصفح عنك هذه المرَّة، بسبب أنك خاسرٌ ضعيف لكنك أكثر غرورًا من أن تتعلَّم شيئًا جديدًا، لكن إذا اعترضت طريقي مُجدَّدًا سأحرص على أن تفقد وظيفتك. لست واثقًا إن كنت سأنجح، لكنني سأحاول جاهدًا على الأقل. لقد خسرت وزني كي أحظى ببعض الكرامة وبعض السلام النفسي. هذه الأشياء تستحق القتال لأجلها'».

قال بيل: «هذه كلماتٌ عظيمة يا بن... لكن الكاتب داخلي يتساءل ما إذا كان هناك فتية يتحدَّثون هكذا حقًّا».

أومأ بن برأسه وما زال شبح الابتسامة الغريبة تلك يلوح على وجهه: «أشك أن أيَّ طفلٍ لم يمر بالأشياء التي مررنا بها سيقدر على قولها، لكنني قلتها.. وعنيتها».

فكَّر بيل فيما يقول ثم أومأ قائلًا: «حسنًا».

قال بن: «تراجع المُدرِّب خطوة إلى الوراء ويداه في خصر سراويله الرياضية، وفتح فمه ثم أغلقه ثانيةً. لم يقل أيُّ شخصٍ أيَّ شيءٍ. سرتُ مُبتعدًا، وكان هذا آخر احتكاكٍ لي مع المُدرِّب ودلاي. عندما ناولتني المُعلِّمة المسؤولة عن صفِّي شهادة السنة الأولى الثانوية، وجدت أن أحدهم كتب كلمة مُعفَى في خانة التربية البدنية، ومهرها بتوقيعه».

صاح ريتشي وهو يهز يده المشدودة فوق رأسه: «لقد هزمته! حسنًا فعلت يا بن!».

هزَّ بن كتفيه وقال: «أظنُّ أنني هزمت جزءًا من نفسي. لقد أعطاني المُدرِّب الدفعة، على ما أظنُّ... لكن التفكير فيكم يا رفاق ما جعلني أؤمن أنني قادر على فعلها حقًّا، وقد نجحت في مسعاي بالفعل».

رفع بن كتفيه بطريقة ساحرة، لكن بيل استطاع أن يرى قطرات عرقٍ دقيقة على مُقدِّمة جبهته أسفل خط شعره. «نهاية الاعترافات. أظنُّ أنني أرغب في كوب بيرة آخر، الحديث عملٌ مُعطِّش».

أشار مايك إلى النادلة.

ثم طلب جميعهم جولة أخرى من البيرة، وتحدَّثوا في أمورٍ خفيفة إلى أن أتى الشراب. نظر بيل إلى كوب البيرة أمامه، وراقب الفقاقيع التي تزحف مُتزاحمة إلى حافته. شعر بأنه مُستمتع ومندهش لإدراكه أنه يأمل أن يفتح أحدهم قِصَّة جديدة عمَّا حدث في السنوات التي تلت تفرُّقهم. أن تحكي لهم بيفرلي عن الرَّجُل الرَّائع الذي تزوَّجته (حتَّى وإن كان مُملًّا، كما هو معروف عن الرجال الرائعين)، أو أن يبدأ ريتشي توزيبه بسرد الوقائع الطريفة التي حدثت له في استوديو الإذاعة، أو أن يصف إدي كاسبراك لهم كيف يبدو تيدي كينيدي في الحقيقة، أو كم يدفع روبرت ريدفورد إكرامية... أو أن يُفسِّر لهم لماذا استطاع بن خسارة وزنه الزائد، بينما اضطر هو للتمسُّك ببخَّاخه.

فكَّر بيل: الحقيقة أن مايك سيبدأ في التحدُّث في أيِّ لحظة الآن، ولست مُتأكِّدًا من أنني راغب في سماع ما يتحتَّم عليه أن يقوله. الحقيقة أن نبضات قلبي بدأت تتسارع بشكلٍ مُقلق، وأن يديَّ باردتان إلى حدٍّ كبير. الحقيقة أنني أكبر بخمسة وعشرين عامًا عن السن الذي يُفترض أن أشعر فيه بخوفٍ كهذا. كلنا كذلك. لذا قولوا شيئًا، أيًّا منكم. لنتحدَّث عن وظائفنا وأزواجنا وعن شعور المرء حين ينظر إلى رفاق صباه وإدراكه العميق بأنهم تلقَّوا ضرباتٍ جيِّدة من الزمن الذي لا يترك شيئًا على حالة. لنتحدَّث عن الجنس، عن البيسبول، عن أسعار البنزين، عن مُستقبل دول حلف وارسو. لنتحدَّث عن أيِّ شيءٍ غير ما أتينا إلى هنا للتحدُّث عنه. قولوا شيئًا، أيًّا منكم.

وبالفعل تحدَّث أحدهم. كان هذا إدي، لكنه لم يتحدَّث عن كيف يبدو تيدي كينيدي في الحقيقة، أو كم يدفع روبرت ريدفورد إكرامية، أو حتَّى لماذا وجد أنه مُضطرًّا للتمسُّك بما اعتاد ريتشي أن يُسميه أحيانًا في الأيَّام الخالية بـ «مصَّاص رئة إدي»، بل سأل مايك عن تاريخ وفاة ستانلي يوريس.

- «في الليلة قبل الماضية. ليلة ما هاتفتكم».

- «هل لوفاته علاقة بـ... بما نحن بصدده هنا؟».

أجاب مايك: «أستطيع المرواغة قائلًا إنه ما دام لم يترك مُلاحظة،

فلا يمُكن لأحد أن يؤكِّد هذا تمامًا.. لكن بما أن الأمر حدث مُباشرةً بعد المُكالمة، فأظنُّ أن افتراض العلاقة أمر منطقي تمامًا».

قالت بيڤرلي بخفوت: «لقد قتل نفسه، أليس كذلك؟ أوه يا إلهي.. يا لستان المسكين».

كان الآخرون ينظرون إلى مايك، الذي أنهى شرابه وقال: «أجل، ستان انتحر. من الواضح أنه صعد إلى الحمَّام بعدما هاتفته، وملأ المغطس بالماء، ونزل فيه، ثم قطع شرايينه».

خفض بيل بصره إلى المائدة، التي بدت وجوههم الشاحبة فجأة أنها تنعكس عليها... فقط الوجوه، لا أجساد.. كدوائر بيضاء.. كبالونات بيضاء.. بالونات قمرية.. مربوطة بوعدٍ قديمٍ كان ينبغي أن تنتهي صلاحيته منذ فترة طويلة.

سأله ريتشي: «كيف علمت الخبر؟ هل وصل إلى الجرائد المحلِّية هنا؟».

- «لا.. منذ فترة وأنا مُشترك في جرائد المُدن القريبة من أماكن إقاماتكم. لم أنفك عن إبقاء عيني عليكم على مرِّ السنين».

قال ريتشي بوجهٍ نكد: «قلها صراحةً: كنت أتجسَّس. شكرًا يا مايك».

قال مايك ببساطة: «هذه مهمَّتي».

كرَّرت بيڤرلي: «يا لستان المسكين». بدت مصدومة، وغير قادرة على التعامل مع الخبر. «لكنه كان شُجاعًا جدًّا في الماضي.. وشديد العزم».

قال إدي: «الناس تتغيَّر».

سأله بيل: «أحقًّا؟ لقد كان ستان...» وحرَّك يديه إلى مفرش المائدة، محاولًا العثور على الكلمات المُناسبة. «... كان شخصًا مُنظَّمًا، من أولئك الأشخاص الذين ينظمون مكتباتهم إلى روايات وكُتُب غير روائية... ثم بعدها يشعر بحاجة إلى ترتيب كل قسم بالحروف الأبجدية. أتذكَّر شيئًا قاله ذات مرَّة، لا أذكر أين كنا ولا ماذا كنا نفعل وقتها، ليس بعد على الأقل، لكنني أظنه كان قرب نهاية الأحداث. لقد قال إنه قادر على تحمُّل الخوف، لكنه يكره أن يتلوَّث، وقد بدا لي وقتها أن هذا جوهر ستان الحقيقي. رُبَّما كان الأمر يفوق احتماله، عندما اتَّصل مايك به، ورأى أن أمامه خيارين لا ثالث

لهما: أن يعيش مُلوَّثًا أو أن يموت نظيفًا. رُبَّما الناس لا يتغيَّرون بالقدر الذي نظنه. رُبَّما هم... يُخشوشنون فحسب».

مرَّت لحظة من الصمت ثم قال ريتشي بعدها: «حسنًا إذًا يا مايك.. ماذا يحدث في ديري؟ أخبِرنا».

قال مايك: «أستطيع إخباركم ببعض الأشياء. مثلًا أستطيع إخباركم بما يحدث الآن، كما أستطيع إخباركم ببعض الأمور عن أنفسكم. لكنني لا أستطيع إخباركم بكل ما حدث في صيف 1958، ولا أظنُّ أنني سأُضطر لذلك أبدًا. ستتذكَّرون كل شيءٍ في النهاية بأنفسكم. كما أعتقد أنني لو أخبرتكم بما يفوق استعداد عقولكم للتذكُّر، فما حدث لستان...».

سأله بن بهدوء: «قد يحدث لنا؟».

أومأ مايك موافقًا: «أجل. هذا تحديدًا ما أخشاه».

قال بيل: «إذًا احك لنا ما تستطيع يا مايك».

قال مايك: «حسنًا. سأحكي».

4

الخاسرون يلمون بالنبأ المُخيف

قال مايك صراحةً: «لقد بدأت حوادث القتل من جديد».

ثم نقل بصره في الوجوه عبر المائدة، وثبَّت عينيه على عيني بيل.

- «بدأت أولى 'الجرائم الجديدة' -إذا سمحتم لي بتلك الصيغة المُتكلِّفة المروِّعة نوعًا- على جسر الشارع الرئيس، وانتهت أسفله. كانت الضحية شابًا شاذًّا طفولي الطباع يُدعى أدريان ميلون، وكان يُعاني من حالة ربو سيِّئة».

امتدَّت يد إدي ولمست بخَّاخه، واستمرَّ مايك: «لقد وقعت الجريمة في 21 يوليو من الصيف الماضي، في آخر يوم من مهرجان أيَّام القناة، الذي يُعد نوعًا من الاحتفال أشبه بـ... بـ...».

قال بيل بصوتٍ خفيض: «بطقس خاص بديري». كان يُمسِّد صدغيه

بأصابعة الطويلة ببطء، ولم يكن من الصعب تخمين أنه يُفكِّر في شقيقه الراحل چورچ... چورچ الذي فتح الطريق آخر مرَّة حدث فيها الأمر.

قال مايك: «أجل.. طقس».

حكى لهم ما حدث لأدريان ميلون سريعًا، وراقب غير مسرور أعينهم وهي تتَّسع رويدًا رويدًا. أخبرهم ما تناقلته جريدة أخبار ديري وما لم تتناقله... كالشهادة التي أدلى بها دون هيجارتي وكريستوفر آنوين عن المُهرِّج الذي شُوهِد أسفل الجسر كذلك القزم في القِصَّة الخيالية القديمة.. مُهرِّج يبدو خليطًا من رونالد مِكدونالد وبوزو، وفقًا لوصف هيجارتي.

صاح بن بصوتٍ أجش: «إنه هو. إنه ذلك الملعون بيني وايز».

قال مايك ناظرًا إلى بيل: «يوجد شيءٌ آخر. أحد المُحقِّقين في القضية، ذلك الذي أخرج جُثَّة أدريان ميلون من القناة، كان ضابطًا يُدعى هارولد جاردنر».

قال بيل بصوتٍ مُنهكٍ دامع: «ربَّاه».

نظرت بيڤرلي إليه ووضعت يدها على ذراعه وقالت بصوتٍ مشدوه يمتلئ بالقلق: «بيل؟ بيل، ماذا دهاك؟».

قال بيل: «لا بُدَّ أن هارلود كان في الخامسة حينذاك».

- «أجل».

سأله ريتشي: «ما الأمر يا بيل؟».

قال بيل: «هـ-هـ-هارلود جاردنر هو ا-ابن ديڤ جاردنر. كان ديڤ يعيش في آخر شارعنا في ذلك الوقت، عندما قُتل چورچ.. كان هو من وصل إلى چـ... چـ... إلى أخي أوَّلًا وأحضره إلى المنزل ملفوفًا في لـ-لحاف».

جلسوا والصمت يلفهم، ولم يتفوَّهوا بشيءٍ، وغطَّت بيڤرلي عينيها للحظات.

في النهاية قال مايك: «الماضي والحاضر يتماثلان بشكلٍ جيِّد تمامًا، أليس كذلك؟».

قال بيل بنبرة خفيضة: «بلى، تمامًا».

واصل مايك: «ظللت أضع جميعكم نصب عينيّ طول السنين، ولم أفهم

لماذا استمرَّيت في فعل ذلك إلا عندما حدث ذلك، وقتها أدركت أن سلوكي له سبب حقيقي وملموس.. ورغم ذلك، لم آخذ خطوة، وانتظرت لأرى كيف ستتطوَّر مُجريات الأمور. هل ترون معي، لقد شعرت بأنني يجب أن أكون واثقًا تمام الثقة قبل أن... أُعكِّر صفو حيواتكم. ليس تسعين بالمئة، ولا خمس وتسعين بالمئة.. بل مئة بالمئة».

«في ديسمبر من العام الماضي، عُثر على صبي في الثامنة يُدعى ستيڤن جونسون مقتولًا في الحديقة التذكارية. كان قد شُوِّه بشناعة مثل أدريان ميلون قبل موته أو بعده مُباشرةً، لكن بدا عليه أنه تُوفِّي من أثر محض ذُعرٍ فحسب».

سأله إدي: «هل وُجدت أيُّ آثار اعتداءٍ جنسي؟».

- «لا، فقط تشويه عادي».

سأله إدي بطريقة من لا يرغب حقًّا في المعرفة: «ما عدد الحوادث الإجمالي؟».

قال مايك: «الرقم كبير».

كرَّر بيل: «كم؟».

- «تسعة حتَّى الآن».

صرخت بيڤرلي: «غير معقول! كنت سأقرأ عن هذا في الجرائد، أو أراه في نشرات الأخبار! عندما قَتَلَ ذلك الشُرطي المجنون كل أولئك النسوة في كاسل روك في ولاية مين، وعندما قُتِل كل أولئك الأطفال في أتلانتا، قرأنا...».

قال مايك: «أجل. لقد فكَّرت في ذلك كثيرًا. إنها المُتلازمة المُعتادة لما يحدث هنا. بيڤ مُحِقَّة، هذه أخبار من النوع التي تُسافر شرق البلاد وغربها.. وبشكلٍ ما، المقارنة بجريمة أتلانتا هي أكثر شيء يُخيفني بشأن كل هذا. تسعة أطفال قُتِلوا... كان لا بُدَّ أن يأتي مُراسلو قنوات التليفزيون، وعلماء النفس المُتصنِّعون، وصحفيون من جريدتي أتلانتيك مونثلي ورولينج ستون... باختصار، السيرك الإعلامي المُعتاد».

قال بيل: «لكن هذا لم يحدث».

أجابه مايك: «أجل، لم يحدث. لقد نُشِر خبر عن الأمر في مُلحق الأحد

من جريدة تليجرام في بورتلاند، وآخر في جريدة جلوب في بوسطن بعد الحادثين الأخيرين، ونشر برنامج تليفزيوني يُذاع من بوسطن اسمه يومٌ جيِّد! تقريرًا في شهر فبراير الماضي عن جرائم القتل التي لم تُحلَّ، وقد ذكر فيه أحد الخُبراء جرائم ديري، لكن بشكلٍ عابرٍ فقط، ولم يعط الرَّجُل أدنى إشارةٍ إلى أنه يعرف عن حدوث مجموعة مماثلة من الجرائم في الفترة بين 1958-1957، وأخرى بين 1930-1929».

«بعض أسباب عدم الاهتمام الإعلامي مفهومة بالطبع. أتلانتا ونيويورك وشيكاجو وديترويت.. تلك مُدنٌ إعلامية كبيرة، وعندما يحدث أمرٌ في المُدن الإعلامية الكبيرة فإنه يُحدث دويًّا. ديري لا تمتلك محطَّة تليفزيونية أو إذاعية واحدة، إلا إذا كنت تعد موجة الـ FM الصغيرة التي يبثها قسم اللغة الإنجليزية والكلام في المدرسة الثانوية محطَّة. بانجور تحظى بنصيب الأسد من السوق في ولاية مين عندما يأتي الأمر إلى الوسائط الإعلامية».

قال إدي: «باستثناء أخبار ديري»، فضحك الجميع.

- «لكننا جميعًا نعرف أن هذا لا يُفسِّر الأمر في ظلِّ العالم الحالي الذي نعيشه. نحن نعيش عصر شبكة الاتِّصالات، وفي مرحلةٍ ما كان ينبغي أن تنتشر القِصَّة على صعيدٍ وطني، لكن هذا لم يحدث، وأنا أظنُّ أن السَّبب الرئيس هو: أن الشَّيءَ لا يرغب في ذلك».

قال بيل شاردًا ولنفسه تقريبًا: «الشَّيءُ».

أكَّد مايك موافقًا: «الشَّيءُ. إذا كان لنا أن ندعو الشَّيءَ باسمٍ، فقد يكون هذا الاسم ما اعتدنا أن ندعوه به ونحن صبية. أترون معي، لقدْ بدأت أُفكِّر أن الشَّيءَ يعيش هنا منذ مُدَّة طويلة جدًّا... وأيًّا كان كُنهه... فقد صار جُزءًا من ديري.. تمامًا كبُرج المياه، أو القناة، أو حديقة باسي، أو المكتبة. فقط هو ليس معلمًا جُغرافيًّا خارجيًّا. رُبَّما كان هذا صحيحًا فيما مضى، لكن الشَّيءَ الآن صار... جوهريًّا.. لقد صار جوهريًّا بشكلٍ ما. هذه طريقة التفكير الوحيدة التي ارتحت إليها لأتمكَّن من استيعاب كلِّ الأمور المُريعة التي حدثت هنا... تلك التي تُفسَّر والأخرى التي لا تفسير لها. لقد وقع حريق في ملهى ليلي للزنوج يُدعى بلاك سبوت في عام 1930، وقبلها بعام، قُتِلت

مجموعة خارجين عن القانون غير أذكياء جدًّا في شارع القناة في مُنتصف الظهيرة، إبَّان فترة الكساد الاقتصادي».

- «عصابة برادلي»، قالها بيل، ثم أردف: «لقد أردتهم قوَّات الإف بي أي صرعى، أليس كذلك؟».

- «هذا ما تقوله السجلَّات، لكنه ليس صحيحًا تمامًا. بقدر ما استطعت معرفته -وأنا مُستعد لبذل الكثير في مُقابل تصديق أن هذا لم يحدث، لأنني أحب هذه المدينة- فإن عصابة برادلي، السبعة كلهم، قتلهم في واقع الأمر مواطنو ديري الصالحون. سأحكي لكم الحكاية في وقتٍ ما».

«ثمَّة انفجار وقع في مصنع حديد كيتشنر خلال مُسابقة للعثور على بيض عيد الفصح في عام 1906، وفي العام نفسه، وقعت سلسلة مُروِّعة من عمليات تشويهٍ وتمثيل بالحيوانات، وقد تتبَّعوا خيطها وصولًا إلى أندرو رولين، العم الأكبر للرجُل الذي يدير مزارع رولين حاليًا. قيل إنه ضُرب حتَّى الموت بواسطة الضُبَّاط الثلاثة الذين كانوا من المُفترض أن يُمسكوا به، ولم يمثل أيٌّ منهم أمام المحكمة».

أخرج مايك هانلون مُفكِّرة صغيرة من جيبه الداخلي، وتصفَّح أوراقها وهو يتكلَّم دون أن يرفع بصره: «في عام 1877 نُفِّذت أربع حالات إعدامٍ دون مُحاكمة داخل حدود البلدة. أحد أولئك الذين شُنقوا كان واعظًا غير رسمي للكنيسة الميثودية، وقد قيل إنه أغرق أطفاله الأربعة في مغطس الحمَّام كما لو كانوا هِررة، ثم أطلق النار على زوجته في رأسها. لقد وضع البُندقية في يدها ليبدو الأمر كانتحارٍ، لكنه لم ينجح في خداع أحدٍ. قبل ذلك بعام، عُثِر على أربعة من قاطعي الأشجار صرعى في كوخٍ على ضفاف نهر الكِندوسكيج جنوبًا أجسادهم مُقطَّعة إربًا حرفيًّا.. وفي مقتطفات المُذكِّرات القديمة، سُجِّلت حوادث اختفاء أطفالٍ، بل عائلاتٍ كاملة... لكن هذا لم يُذكر في أيِّ وثيقة عامة. يستمر الأمر على هذا المنوال، لكن أظنُّ أن الفكرة وصلتكم».

قال بن: «وصلتني الفكرة. ثمَّة أمرٌ يحدث هنا، لكن بمنأى عن الأنظار.. في السِّر».

أغلق مايك مُفكِّرته، وأعادها إلى جيبه، ونظر إليهم باهتمام.

- «إذا كنت رجُل تأمين بدلًا من أمين مكتبة، لكنت رسمت لكم خطًا بيانيًا، وكان من شأنه أن يُظهر مُعدَّلًا مُرتفعًا غير معتاد لكل أنواع الجريمة العنيفة التي نعرفها، من دون استبعاد الاغتصاب وسفاح المحارم وسرقة المنازل وسرقة السيَّارات والتحرُّش بالأطفال وسوء مُعاملة الزوجات والاعتداء».

- «كانت هناك مدينة متوسِّطة الحجم في تكساس لوحِظ أن مُعدَّل الجريمة فيها أقل بكثير ممَّا قد يتوقَّعه المرء لمدينة بحجمها وخليطها العرقي المُتنوِّع، وقد جرى تتبُّع هدوء السُّكان غير المُعتاد هذا وربطه بشيءٍ ما مُذاب في ماء المدينة... مُهدِّئ طبيعي ما. النقيض تمامًا يجري هنا. إن ديري مدينة عنيفة إذا عشت فيها في الأعوام العادية. لكن كل سبعة وعشرين عامًا -رغم أن الدورة لم تكن دقيقة تمامًا قط- تتصاعد وتيرة ذلك العُنف وتبلغ ذروة جنونية... وهذا لم يُذكر قط في الأنباء الوطنية».

قالت بيڤرلي: «تعني أنه ثمَّة سرطانًا ينخر هنا في عظام البلدة».

- «لا، على الإطلاق. السرطان الذي لا يُعالَج يَقتل في النهاية، لكن ديري لم تمُت، بل على النقيض تمامًا، ازدهرت... بطريقة لا تلفت النظر وليس بها ثمَّة ما يُدهش بالتأكيد. إنها ببساطة مدينة صغيرة مُزدهرة نوعًا ما في ولاية غير ذات شعبية كبيرة، وتقع فيها أمور سيِّئة كثيرًا جدًا، وأمور مُريعة كل ربع قرن أو نحو ذلك».

سأله بن: «هل ظلَّ الأمر يحدث بانتظام على مدار السنين؟».

أومأ مايك موافقًا: «على مدار كل السنين. الفترة بين 1715-1719، الفترة بين 1740 و1743، لا بُدَّ أن هذه كانت سنوات مريرة حقًّا، الفترة بين 1769 و1970... القائمة تستمر وصولًا إلى الوقت الحالي. أشعر أن الأمور تزداد سوءًا باطراد لأنه رُبَّما مع نهاية كل دورة يزداد عدد السكَّان في ديري، ورُبَّما بسبب شيءٍ آخر. في عام 1958، يبدو أن الدورة وصلت إلى نهاية سابقة لأوانها، وهو الأمر الذي كُنَّا مسؤولين عنه».

انحني بيل أمامًا، وقد لمعت عيناه فجأة، وقال: «هل أنت مُتأكِّد من هذا؟ تمام التأكُّد؟».

قال مايك: «أجل. كل الدورات السابقة وصلت ذروتها غالبًا مع حلول شهر سبتمبر، ثم انتهت بحدثٍ كبير. بعدها تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي تقريبًا بحلول الكريسماس، أو عيد الفصح على أقصى تقدير. بعبارةٍ أخرى، يأتي عامان سيِّئان ويستمرَّان لقرابة أربعة عشر أو عشرين شهرًا كل سبعة وعشرين عامًا. لكن العامين السيئين اللذين بدأ بمقتل أخيك في أكتوبر من عام 1957، انتهيا فجأة في أغسطس من عام 1958».

سأله إدي مُلِحًّا: «لماذا؟». كانت أنفاسه تُصفِّر، وتذكَّر بيل ذلك الصفير الرفيع المُميِّز لشهيق إدي، وعلم أنه قريبًا سوف يشفط من مصَّاص رئته القديم. «ماذا فعلنا؟».

ظل السؤال مُعلَّقًا في الهواء. بدا أن مايك يُفكِّر في سؤاله مليًّا، وفي النهاية هزَّ رأسه وقال: «ستتذكَّرون. ستتذكَّرون في الوقت المُناسب».

سأله بن: «وإن لم نتذكَّر؟».

– «إذًا ليكن الله في عوننا جميعًا».

قال ريتشي: «تسعة أطفال قُتِلوا هذا العام.. يا للمسيح!».

قال مايك: «صُرِعت ليزا ألبيركت وستيڤن جونسون في أواخر عام 1984، وفي فبراير اختفى فتى في المرحلة الثانوية اسمه دينيس توريو، وعُثر على جُثته في مارس في البرِّية، مشوَّهة، وكانت هذه إلى جوارها».

أخرج مايك صورة فوتوغرافية من الجيب نفسه الذي أعاد إليه المُفكِّرة، وتناقلتها الأيدي عبر المائدة. نظر إدي وبيڤرلي إليها في حيرة، لكن ردَّة فعل ريتشي توزييه جاءت عنيفة. لقد ألقاها من يده كما لو أنها ساخنة. «يا للمسيح! يا للمسيح يا مايك!»، ثم رفع بصره. كانت عيناه مُتَّسعتين ومصدومتين، وبعدها بلحظة، مرَّر الصورة إلى بيل.

نظر بيل إليها وشعر بالعالم يدور من حوله ويستحيل رماديًا، وللحظة صار على يقينٍ من أنه سيفقد وعيه. صدرت أنَّة منه، وعلم بيل أنه مصدرها، ثم ترك الصورة تسقط.

سمع بيڤرلي تقول: «ما الأمر؟ ما الذي تعنيه الصورة يا بيل؟».

قال بيل أخيرًا: «إنها صورة أخي في المدرسة. إنها صورة جـ–جورجي. صورة الألبوم... تلك التي تحرَّكت، تلك التي غمزت بعينها».

تناقلت الأيدي الصورة مُجدَّدًا، بينما ظل بيل جالسًا كحجرٍ أصم على رأس المائدة، مُحدِّقًا إلى الفراغ. كانت الصورة صورة لصورة. أظهرت الصورة صورة مدرسة مُمزَّقة موضوعة على خلفية بيضاء، تُظهر شفتين مُبتسمتين تكشفان عن ثُقبين فارغين لم تنم فيهما سنتان جديدتان (إلا إذا كانت الأسنان تنمو في القبر، هكذا فكَّر بيل، مُرتجفًا)... وعلى الهامش أسفل صورة چورچي كُتبت الكلمات: أصدقاء المدرسة 1957–1958.

سألت بيڤرلي مُجدَّدًا: «عُثر عليها هذا العام؟».

أومأ مايك فالتفتت إلى بيل وقالت: «متى رأيْتُها آخر مرَّة يا بيل؟».

بلَّل شفتيه مُحاولًا الكلام، لكن شيئًا لم يخرج. حاول مرَّة أخرى، وهو يسمع الكلمات تتردَّد أصداؤها في رأسه، مُدرِكًا أن تأتأته تعود، مُحاربًا ذلك، مُحاربًا ذلك في ذُعرٍ.

– «لم أر تلك الصورة منذ عام 1958، في ذلك الربيع، بعد سنة من موت چورچ.. وعندما حاولت أن أُريها إلى ريتشي، كانت قد ا–ا–اختفت».

صدر صوت شهيقٍ عالٍ جعلهم جميعًا يلتفتون إلى مصدره. كان إدي يُعيد وضع بخَّاخه على المائدة وهو يبدو عليه الإحراج نوعًا.

صاح ريتشي بمرحٍ: «إدي كاسبرك يُقلِع!»، ثم فجأة وبشكلٍ غريب بعدها، خرج منه صوت مُقدِّم نشرة الأخبار القديم: «اليوم في ديري، المدينة بأكملها تتأهَّب لموكب المُصابين بالربو، ونجم العرض هو إد الكبير الأحمق، المعروف في نيو إنجلاند بـ...».

ثم توقَّف فجأة، وتحرَّكت إحدى يديه إلى وجهه، كما لو أنه سُيغطيه، وفكَّر بيل فجأة: لا لا، ليس هذا ما يحدث، إنه لا يُغطي وجهه بل يُرجع نظَّارته إلى أعلى أنفه... النظَّارة التي لم تعد موجودة من الأساس. يا إلهي، ماذا يحدث هنا؟

قال ريتش: «معذرة يا إدي، كانت هذه وقاحة مني. لا أعلم فيما كنت أُفكِّر فيه بحق الجحيم». ثم جال ببصره في وجوه الآخرين، مُرتبكًا.

فتحدَّث مايك هانلون قاطعًا الصمت.

– «بعد اكتشاف جُثَّة ستيڤ چونسون، أخذت وعدًا على نفسي أنه إذا

حدث أيُّ شيءٍ آخر -إذا وقعت حالة أخرى واحدة لا لبس فيها- سأُجري المُكالمات، لكنني تلكَّأتُ ولم أُجرها إلا بعد مرور شهرين آخرين. بدا الأمر كأنني نُوِّمتُ إيحائيًّا بما يحدث.. بوعيي بما يحدث.. بتؤدَّة ما يحدث. عُثِر على صورة چورچ عند شجَرة ساقطة على مسافة أقل من عشرة أقدام من جُثة الصبي توريو. لم تكن مُخبَّأة، بل على النقيض تمامًا، بدا أن القاتل يريد أن يُعثَر عليها... وهو ما أنا واثقٌ منه».

سأله بن: «كيف حصلت على الصورة من الشُرطة يا مايك؟ لقد كانت في حوزتهم، أليس كذلك؟».

- «بلى. ثمَّة زميل في قسم الشُرطة لا يُمانع كسب بعض المال الإضافي. أدفع له عشرين دولارًا في الشهر.. هذا كل ما أستطيع توفيره. إنه بالوعة نقود».

«عُثر على جُثَّة دون روي بعد أربعة أيَّام من العثور على جُثَّة صبي آل توريو، في حديقة مكارون. صبي في الثالثة عشرة، مقطوع الرَّأس».

«في الثالث والعشرين من أبريل من هذا العام، أُبلِغ عن اختفاء آدم تارو، في السادسة عشرة، بعد عدم عودته إلى المنزل من تدريبات فرقة غنائية هو عضوٌ فيها، ثم عُثِر عليه في اليوم التالي قرب الدرب المجاور للحزام الأخضر خلف منطقة غرب برودواي».

«السادس من مايو. فردريك كوان. عامان ونصف. عُثر عليه في حمَّام الدور العُلوي، غارقًا في المرحاض».

صرخت بيڤرلي: «أوه، بربك يا مايك!».

قال في غضبٍ تقريبًا: «أجل، الأمر شنيع. ألا تظنين أنني أعرف ذلك؟».

سألته بيڤرلي: «ألم تقتنع الشُرطة أن الأمر قد يكون... حسنًا، حادثة ما؟».

هزَّ مايك رأسه: «كانت أمه تنشر الملابس في الباحة الخلفية.. لقد سمعت صوت صراع، سمعت ابنها يصرخ. ركضت بكل ما أُوتيت من قوَّة، وفي أثناء صعودها الدرج، قالت إنها سمعت صوت الماء يُرحض في المرحاض أكثر من مرَّة.. بالإضافة إلى صوت شخصٍ يضحك. قالت إن الصوت لم يبدُ بشريًّا».

سأله إدي: «ولم ترَ شيئًا على الإطلاق».

قال مايك ببساطة: «رأت ابنها. كان ظهره مكسورًا، وجمجمته مُمزَّقة، وكان باب حجيرة الاستحمام الزُجاجي مكسورًا، والدماء في كل مكان. الأم الآن نزيلة في معهد بانجور للصحة العقلية. أخبَرني... أخبَرني مصدري في قسم الشُرطة أنها فقدت عقلها إلى حدٍ كبير».

قال ريتشي بصوتٍ خشن: «لا عجب في ذلك، من معه سيجارة؟».

أعطته بيڤرلي واحدة، فأشعلها ريتشي بيدين ترتجفان بشدَّة.

«كان تعليق الشرطة أن القاتل دخل من الباب الأمامي بينما أم الصبي كوان تُعلِّق ملابسها في الباحة الخلفية. ثم، قفز من نافذة الحمَّام إلى الباحة التي غادرتها جزعة لتوِّها، في أثناء ما كانت تصعد الدرج. لكن النافذة صغيرة جدًّا، وطفلٌ في السابعة من العُمر سيُضطر إلى التملُّص كثيرًا لعبورها، كما أن ارتفاعها خمسة وعشرون قدمًا، وتفضي إلى فناء مرصوف بالحجارة. لا يُحب رادميكر التحدُّث عن هذه الأمور، ولم يحاول أحدٌ من الصحفيين -بالتحديد لا أحد من صحفيي جريدة أخبار ديري- الإلحاح في سؤاله عنها».

رشف مايك رشفة ماء ثم مرَّر صورة ثانية إليهم. لم تكن هذه صورة من مُمتلكات الشُرطة؛ بل صورة مدرسية أخرى. كانت تُظهر ولدًا في الثالثة عشر رُبَّما، يرتدي أفضل ثيابه لصورة المدرسة، ويضع يديه النظيفتين بأناقة على حجره... لكن ثمَّة بريق شيطاني نوعًا ما يلتمع في عينيه. كان أسود البشرة.

قال مايك: «چيفري هولي. الثالث عشر من مايو. أسبوع بعد مقتل صبي آل كوان. عُثر عليه مشقوقًا إلى نصفين في حديقة باسي قُرب القناة».

«بعد تسعة أيَّام، في الثاني والعشرين من مايو، عُثِر على صبيٍّ في الصف الخامس يُدعى چون فيوري صريعًا في شارع نيبولت...».

فلتت صرخة رفيعة ومرتعشة من إدي، ومدَّ يده سريعًا إلى بخَّاخه فأوقعه من على المائدة. تدحرج البخَّاخ في اتِّجاه بيل، الذي التقطه. كان وجه إدي قد صار أصفر بلون المرض، وراحت أنفاسه تُصفر ببرودة في حلقه.

جأر بن: «اعطوه شيئًا ليشربه! فليأت شخصًا ما بـ...».

لكن إدي كان يهز رأسه، ثم ضغط زناد بخَّاخه في حلقه. ارتفع صدره

عاليًا مع استنشاقه شهيقًا عارمًا، ثم ضغط الزناد مرَّة أخرى وأراح ظهره إلى الوراء وهو يلهث بعينين نصف مُغلقتين.

قال شاهقًا: «سأكون بخير. أمهلوني دقيقة، أنا معكم».

سألته بيفرلي: «إدي، هل أنت مُتأكِّد؟ رُبَّما من الأفضل أن تستلقي أرضًا...».

كرَّر إدي لائمًا: «سأكون بخير. إنها فقط... الصدمة كما تعرفين. الصدمة. لقد نسيت كل شيءٍ عن شارع نيبولت».

لم يرد أحدٌ. لم يكن أحدهم مُضطرًا لذلك. فكَّر بيل: تظن أن قدرتك على الاستيعاب قد بلغت مداها، ثم يطرح مايك اسمًا آخر، وآخر، وآخر، كساحرٍ أسود يمسك بقُبَّعة مليئة بالخدع الخبيثة، لتجد نفسك تُطرح أرضًا على مؤخِّرتك من جديد.

كان الأمر أكثر جسامة من مواجهته كله دُفعة واحدة. هذا الفيض من العنف الذي لا تفسير له، كله مُوجَّه بشكلٍ مُباشر إلى الأشخاص الستة في هذه الغُرفة، أو هذا ما يبدو أن صورة چورچ توسوس به.

واصل مايك بصوتٍ خافت: «كانت كلتا ساقي چون فيوري مفقودة، لكن الطبيب الشرعي قال إنهما قُطعتا بعد موته. لقد فشل قلبه، كان يبدو كأنه تُوفي من الخوف حرفيًا. لقد عثر عليه ساعي بريد الذي شاهد يدًا تبرز من تحت إحدى الدَّكك...».

قال ريتشي: «كان رقم 29، أليس كذلك؟»، فنظر بيل إليه سريعًا. نظر إليه ريتشي بدوره، وأومأ، ثم نظر إلى مايك من جديد وقال: «المنزل رقم 29 في شارع نيبولت».

قال مايك بالصوت الهادئ ذاته: «أوه، أجل. كان رقم 29»، ثم جرع مزيدًا من الماء وقال: «هل أنت بخير يا إدي حقًا؟».

أومأ إدي. كان صوت أنفاسه قد هدأ.

واصل مايك: «ألقى رادميكر القبض على أحدهم في اليوم التالي من العثور عن جُثَّة فيوري، وبالمُصادفة، تصدَّرت مقالة افتتاحية صحيفة الأخبار في اليوم نفسه تدعو إلى استقالة رادميكر».

قال بن: «بعد ثماني جرائم؟ يا له من تحرُّكٍ ثوري هائل منهم، ألا تظن ذلك؟».

أرادت بيڤرلي معرفة من الذي اعتقلوه.

قال مايك: «رجلًا يقطن كوخًا في الطريق 7، بعد حدود المدينة بقليل، في نيوبورت. ناسك ما اسمه هارولد إيرل، يحرق الحطب في موقده، ويُسقِّف المكان بالقرميد وأغطية إطارات السيَّارات التي يعثر عليها. غالبًا لم يكن الرَّجُل يرى ورقة فئة مئتي دولار طوال العام. لقد رآه شخص يقود سيَّارته واقفًا خارج عتبة باب كوخه ينظر إلى السماء يوم اكتشاف جثة چون فيوري، وكانت ملابسه مغطاة بالدماء».

قال ريتشي آملًا: «إذًا رُبَّما...».

قاطعه مايك: «لقد عثروا على ثلاث غزلان مذبوحة في سقيفته. كان يصطاد في هاڤن، والدماء على ملابسه كانت دماء غزلان. سأله رادميكر إن كان قتل چون فيوري، فقال إيرل شيئًا على غرار: 'أوه، أيوا، لقد قتلت أناس كُثُر. أطلقت النار على مُعظمهم في الحرب'. أيضًا قال إنه رأى أشياء في الغابة في تلك الليلة. أضواء زرقاء تطفو فوق سطح الأرض ببوصات قليلة. كان يدعوها بـ'أضواء الجثث'، كما قال إنه رأى بيج فوت[1] أيضًا. أرسلوه إلى مصحَّة بانجور العقلية، وفقًا للتقرير الطبي، فإن كبده لم يكن يعمل تقريبًا. كان مُعتادًا على شُرب مُزيل الطلاء...».

صاحت بيڤرلي: «يا إلهي».

- «... وكان فريسة سائغة للهلوسة. ما زالوا يبقون عليه في المصحَّة إلى الآن، وحتَّى ثلاثة أيَّام فقط ظلَّ رادميكر مُتمسِّكًا بفكرة أن إيرل هو المُشتبه به الأرجح. لقد أطلق ثمانية من رجاله للحفر في كل مكان حول سقيفته والبحث عن رؤوس مفقودة أو عواكس إضاءة مصنوعة من جلد البشر، أو وحده الله يعلم ماذا أيضًا».

---

(1) بيج فوت أو ذو القدم الكبيرة أو الساسكواتش: مخلوق أسطوري يشبه القرد، يقال إنه يسكن الغابات في شمال غرب المحيط الهادئ، ويُعد المُعادل الغربي لرجل الثلوج.

توقَّف مايك بُرهة، وخفض رأسه، ثم واصل. بدا صوته أجش قليلًا الآن: «انتظرت وانتظرت وانتظرت. لكن عندما شاهدت الضحية الأخيرة، اتَّصلت بكم، وكم كنت أتمنَّى من الله لو عجَّلت بهذا».

قال بن فجأة: «إلينا بها».

قال مايك: «صبي آخر في الصف الخامس، زميلٌ لابن آل فيوري. عُثر على جُثَّته بعد شارع كانساس بقليل، بالقرب من المكان الذي اعتاد بيل على إخفاء درَّاجته به عندما كنا ننزل إلى البرِّية. اسمه چيري بيلوود. كان مُمزَّقًا شر تمزيق، وما... ما تبقَّى منه عُثر عليه أسفل جدار أسمنتي شُيِّد بطول شارع كانساس كله تقريبًا قبل نحو عشرين عامًا لإيقاف تآكل التربة. التقطت الشرطة صورة للجدار حيث عُثر على بيلوود قبل أقل من نصف ساعة من رفع الجُثَّة... هاكم».

مرَّر مايك الصورة إلى ريتشي توزييه، الذي نظر إليها ومرَّرها إلى بيڤرلي. ألقت بيڤرلي نظرة سريعة عليها، وأجفلت، ثم أعطتها لإدي، الذي نظر إليها طويلًا سابحًا في عالمٍ آخر قبل أن يناولها لبن. مرَّرها بن إلى بيل ناظرًا إليها بالكاد.

في الصورة، توجد كلمات مُبعثرة على الجدار الأسمنتي في غير انتظام تقول:

عودوا للديار عودوا للديار عودوا للديار

رمق بيل مايك مُتجهِّمًا. كان بيل يشعر بالحيرة والخوف طوال الجلسة، الآن بدأ يشعر بأولى خلجات الغضب، وقد سرَّهُ هذا. ليس الغضب شعورًا رائعًا لتشعُر به، لكنه أفضل من الصدمة، أفضل من الخوف البائس.

– «أهي مكتوبة بما أظنُّ أنها مكتوبة به؟».

قال مايك: «أجل.. بدماء چيري بيلوود».

5
ريتشي توزيه يُخرَس بـ «بيب.. بيب»

استعاد مايك صُورَه من جديد، ظانًّا أن بيل قد يطلب منه الاحتفاظ بصورة المدرسة الأخيرة لچورچ، لكن بيل لم يطلب ذلك، وضع مايك الصور كلها في جيب معطفه الداخلي، وعندما توارت عن الأنظار، شعروا جميعًا -بمن فيهم مايك- براحة.

كانت بيڤرلي تقول بخفوت: «تسعة أطفال. لا أستطيع التصديق. أعني... أنا أصدق، لكنني لا أصدق في الوقت نفسه. تسعة أطفال ولم يحدث شيء؟ لا شيء على الإطلاق؟».

قال مايك: «ليس الأمر كذلك بالضبط. الناس غاضبون، الناس خائفون، أو هذا ما يبدو. من شبه المُستحيل تقريبًا تحديد من يشعر بالخوف حقًّا ومن يدَّعي أنه كذلك».

- «يدَّعي؟».

- «بيڤرلي ألا تتذكَّرين ذلك الرَّجُل عندما كنا أطفالًا الذي طوى جريدته ودخل إلى منزله فحسب عندما كنا نستنجد به طالبين الغوث؟».

للحظة، بدا أن ثمَّة شيئًا قفز في عينيها، وبدت مُدرِكة ومذعورة على حدٍّ سواء، ثم بدت عليها الحيرة وقالت: «لا... متى كان ذلك يا مايك؟».

- «لا عليك. ستتذكَّرين في الوقت المناسب. كل ما أستطيع قوله الآن إن كل شيء يبدو ويتصرَّف بالطريقة التي ينبغي أن يبدو ويتصرَّف بها في ديري. يفعل الناس كل الأشياء التي قد تتوقَّعون منهم أن يفعلوها في مواجهة مثل هذه السلسلة الشنيعة من الجرائم، ومعظمها الأشياء نفسها التي لم ينفكُّوا عن فعلها عندما كان الأطفال يختفون ويُقتلون في عام 1958. لقد عادت لجنة 'انقذوا أطفالنا' إلى عقد اجتماعاتها من جديد، لكن هذه المرَّة في مدرسة ديري الابتدائية بدلًا من الثانوية. يوجد ستة عشر مُحقِّقًا من مكتب نائب

الولاية العام في المدينة، ووِحدَة من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي لا أعلم عددهم تحديدًا، ورغم أن رادميكر يُدلي ببياناتٍ لوذعية، لا أظنُّه يفعل شيئًا. لقد أُعيد تفعيل حظر التجوُّل...».

- «أوه، أجل. حظر التجوُّل»، قالها بن وهو يفرك رقبته ببطءٍ وتأنٍّ: «لقد أحدث ذلك العجائب في عام 1958. أتذكَّر ذلك جيِّدًا».

«... وعادت رابطة الأُمَّهات السائرات اللاتي يتأكَّدن أن كل طفل يذهب إلى المدرسة -من الحضانة إلى الصف الثامن- يصحبه مُرافقٌ إلى المنزل. تلقَّت جريدة الأخبار ما يربو على ألفي رسالة تطالب بإيجاد حلٍّ في الأسابيع الثلاثة الأخيرة فحسب، وأيضًا بدأت الهجرة من المدينة مرَّة أخرى. أعتقد أن الهجرة هي السبيل الوحيدة حقًّا لمعرفة من الذي يرغب بالفعل في انتهاء الأمر ومن ليس كذلك.. الصادقون حقًّا يصابون بالذُعر ويُغادرون».

سأله ريتشي: «الناس تغادر حقًّا؟».

- «يتكرَّر الأمر مع كل دورة. من المستحيل معرفة عدد الذين غادروا، لأن الدورة لم تُساهم في خفض تعداد السكَّان بشكل ملحوظ منذ عام 1850 أو نحو ذلك. لكن الأعداد ليست بقليلة. الناس تفر مذعورة كأطفالٍ اكتشفوا أن المنزل الذي يقطنونه مسكون حقًّا بعد كل شيء».

قالت بيڤرلي بخفوت: «عودوا للديار، عودوا للديار، عودوا للديار»، وعندما رفعت بصرها عن يديها، اتَّجهت بنظرها إلى بيل لا مايك، وسألته: «يُريدنا أن نعود.. لماذا؟».

قال مايك بشكلٍ غامضٍ قليلًا: «قد يكون راغبًا في عودتنا جميعًا. بالتأكيد. رُبَّما هو يُريد الانتقام، فبعد كل شيء، لقد أعقناه مرَّة من قبل».

قال بيل: «الانتقام... أو مُجرَّد إعادة الأمور إلى نصابها».

أومأ مايك: «الأمور لا تجري بنصابها الصحيح في حيواتكم أنتم أيضًا. لم يُغادر أحدكم ديري سليمًا، من دون أن يترك الشَّيءُ علامته عليه. لقد نسيَ جميعكم ما حدث هنا، وذكرياتكم عن ذلك الصيف باهتة وشحيحة تمامًا، مُجرَّد شظايا... هذا فضلًا عن تلك الحقيقة الغريبة وهي أن جميعكم أغنياء».

قال ريتشي: «أوه، هلم الآن يا مايك! هذه بالكاد...».

قال مايك رافعًا يده وهو يبتسم ابتسامة خافتة: «على رسلك، على رسلك، أنا لا أتَّهمكم بشيءٍ، أنا فقط أحاول وضع الحقائق على الطاولة. لنقل أنكم أغنياء بالنسبة إلى أمين مكتبة مدينة صغيرة لا يكسب أكثر من أحد عشر ألف دولار سنويًّا بعد الضرائب، حسنًا؟».

هزَّ ريتشي كتفي بزَّته غالية الثمن في غير راحة، وبدا بن مُستغرِقًا تمامًا في تقطيع منديله الورقي إلى شرائط رفيعة. لم يكن أحدهم ينظر إلى مايك باستثناء بيل.

قال مايك: «ليس أحدكم فاحش الثراء بالتأكيد، لكنكم جميعًا تعيشون في رغدٍ حتَّى بمقاييس الطبقة الوسطى العُليا في أمريكا. جميعنا أصدقاء هنا، لذا اعترفوا. لو كان أحدكم قد قدَّم أقل من تسعين ألف دولار في إقراره الضريبي لعام 1984، فليرفع يده».

نظر أحدهم إلى الآخر خلسةً تقريبًا شاعرين بالإحراج -كمعظم الأمريكيين- من حقيقة نجاحهم العارية، كأن النقود بيضٌ مسلوق يُسبِّب ريحًا كريهًا إذا التهمت كثيرًا منه. شعر بيل بالدماء الساخنة في وجنتيه، وبالعجز عن كبحها. لقد تلقَّى أجرًا يفوق إجمالي ما ذكره مايك بعشرة آلاف دولار فقط نظير المسوَّدة الأولى لسيناريو فيلم غُرفة العليَّة، وقد وُعِد بعشرين ألفًا أخرى لكل إعادة كتابة، إذا تطلَّب الأمر ذلك. هذا بخلاف حصَّته في عائدات شباك التذاكر، والدُفعة المُقدَّمة الكبيرة التي حصل عليها بعد توقيعه عقد نشر كتابين. ما المبلغ الذي كتبه في إقراره الضريبي لعام 1984؟ نحو ثمانمئة ألف دولار، أليس كذلك؟ وهو على أيِّ حالٍ مبلغ يبدو فاحشًا تمامًا مُقارنةً بما ذكره مايك هانلون عن دخله السنوي الأقل من أحد عشر ألف دولار سنويًّا.

فكَّر بيل: إذًا هذا مقدار ما يدفعونه لك لحراسة المنارة يا مايك، أيُّها الطفل العجوز. يا للمسيح، كان يجب أن تُطالب بزيادة في مرحلة ما من حياتك!

قال مايك: «بيل دِنبروه، روائي ناجح في مُجتمع لا توجد به سوى حفنة من الكُتَّاب، وحفنة أقل محظوظة بما يكفي لكسب قوتها من امتهان الحرفة. بيڤرلي روجان، مُصمِّمة تعمل في صناعة الملابس، المجال الذي يُدعى إليه

كثيرين، لكن قِلّة تُنتخب. إنها في الحقيقة المُصمِّمة الأكثر رواجًا في الثلث الأوسط من البلاد حاليًا».

قالت بيڤرلي: «أوه، هذا ليس بسببي»، ثم أطلقت ضحكة عصبية وأشعلت لفافة تبغ جديدة من عقب اللفافة المُحترقة التي في يدها: «هذا بسبب توم. توم هو الأستاذ. من دونه أظن أنني لم أكن لأبرح العمل على تبطين التنانير وحياكة الثياب. لست بارعة في أمور التجارة والأعمال على الإطلاق، حتَّى توم يعرف ذلك. الأمر كله بسبب... توم، وبعض الحظ»، وأنهت كلامه آخذة نفسًا طويلًا من السيجارة ونفثته بعيدًا.

قال ريتشي بمكر: «يبدو لي أن السيِّدة تقول سمعًا وطاعة كثيرًا».

التفتت بيڤرلي إليه سريعًا وحدَّجته بنظرة قاسية وقد تلوَّن وجهها: «ما الذي يعنيه هذا تحديدًا يا ريتشي توزييه؟».

- «لا تضوبيني يا سيِّدة سكاولت». هكذا صاح ريتشي في صوت خادم طفل زنجي مذعور. في تلك اللحظة استطاع بيل أن يرى بجلاءٍ تام الطفل الذي كان يعرفه. لم يكن ذلك الطفل مُجرَّد نسخة كامنة أسفل السطح الخارجي الناضج لريتش توزييه، بل مخلوق أكثر واقعية منه تقريبًا. «لا تضربني! اسمحي لي أن أُحضِّر لكِ كأسًا آخر من كوكتيل مينت چيولب يا سيِّدة سكاولت! لسوف تحتسينه خارجًا في الشُرفة حيث الجو باردًا قليلًا! لا تكسري بخاطر صبي».

قالت بيڤرلي ببرودة: «أنت لا تُطاق يا ريتشي، يجب أن تنضج».

نظر ريتشي إليها، وابتسامته تتلاشى ببطء ويحل عدم يقين مكانها: «قبل أن أعود إلى هنا، ظننت أنني فعلت».

قال مايك: «ريتش، لا بُدَّ أنك أنجح مُقدِّم أغاني في الولايات المُتَّحدة كلها، وبالتأكيد لوس أنچلوس بأكملها في قبضة يدك. علاوة على ذلك، أنت تشارك في برنامجين بالتزامن، أحدهما يُقدِّم عدًّا تنازُليًّا صريحًا لأفضل أربعين أغنيه على الساحة، والآخر يُدعى ذا فريكي فورتي...».

قال ريتشي بصوت مستر تي[1] الأجش، لكنه كان يتورَّد خجلاً: «من الأفضل أن تحترس أيُّها الأحمق، وإلا بدَّلت مكاني رأسك ومؤخِّرتك. سأُجري لك جراحة في المُخ بقبضتي. سـ...».

واصل مايك مُتجاهلًا ريتشي: «إدي، أنت تمتلك شركة ليموزين في مدينة يصطدم فيها المرء بسيَّاراتٍ سوداء طويلة عند عبوره الشارع. لقد أفلست شركتا سيَّارات ليموزين في نيويورك الأسبوع الماضي، لكن الأمور تسير معك بخير حال».

«وأنت يا بن، على الأرجح أنت أصغر أنجح مُصمِّم معماري في العالم كله».

فتح بن فمه ليعترض، ثم أغلقه مُجدَّدًا فجأة.

ابتسم مايك لهم، وباعد بين ذراعيه قائلًا: «أنا لا أريد إحراج أحد، لكنني أريد كشف كل الأوراق على الطاولة. ثمَّة أناس ينجحون في شبابهم، وأناس ينجحون في الوظائف المُتخصِّصة جدًّا. إذا لم يكن يوجد أناس يتحدُّون الظروف والاحتمالات وينجحون، أظنُّ أن الجميع كانوا سيستسلمون لليأس. إذا كان النجاح قد حالف أحدكم أو اثنين منكم، كنا سنستطيع اعتبار الأمر صُدفه. لكن هذا لم يحدث لواحد أو اثنين، بل لجميعكم، وهذا يتضمَّن ستان، الذي كان أنجح مُحاسب شاب في ولاية أتلانتا، ما يعني أنه الأنجح في الجنوب كله. استنتاجي النهائي أن نجاحكم ينبع ممَّا حدث هنا منذ سبعة وعشرين عامًا مضى. إذا كنتم جميعًا مثلًا تعرَّضتم إلى أحجار الأسبست في طفولتكم، وصرتم جميعًا مُصابين بسرطان الرئة حاليًا، فإن المُتلازمة لن تكون أكثر وضوحًا أو إقناعًا، أيُريد أحدكم الجدال حول الأمر؟».

قالها ونظر إليهم، ولم يجب أحدهم.

قال بيل: «جميعنا إلا أنت. ماذا حدث لك يا مايكي؟».

ابتسم قائلًا: «أليست المسألة واضحة؟ لقد بقيت هنا».

---

(1) مستر تي: ممثل ومصارع أمريكي مُحترف مُتقاعد ولد في مدينة شيكاغو بولاية إلينوي الأمريكية في 21 مايو 1952.

قال بن: «ظللت تحرس المنارة». انتفض بيل ونظر إليه جافلًا، لكن بن كان مُستغرِقًا في التحديق إلى مايك ولم يره. «هذا لا يجعلني أشعر بالرضا يا مايك. في الحقيقة، هذا يُشعرني بأنني كتلة خراء كبيرة».

قالت بيڤرلي: «بالفعل».

هزَّ مايك رأسه في صبر: «لا يوجد شيءٌ لتشعروا بالذنب تجاهه. أتظنون أنني اخترت البقاء هنا، أو أن أيَّ واحد فيكم اختار الرحيل؟ يا للجحيم، لقد كنا أطفالًا. لسببٍ أو لآخر غادر ذويكم البلدة، وأنتم يا رفاق كنتم في عداد الحقائب التي حملوها معهما، والديّ اختارا البقاء، لكن هل كان ذلك قرارهما حقًّا؟ لا أظنُّ ذلك. كيف اتُخِذ قرار من يرحل ومن يمكث؟ أهو الحظ؟ القدر؟ أم أمرٌ آخر؟ لا أعلم. لكن أيًّا كان، فلم يكن لكم دخل في الأمر يا رفاق، لذا كُفوا عن هذا».

سأله إدي على استحياء: «ألا تشعر... بالمرارة؟».

قال مايك: «كنت أكثر انشغالًا من أن أشعر بالمرارة. لقد أمضيت وقتًا طويلًا أُراقب وأنتظر... أظنُّ كنت أراقب وأنتظر حتَّى قبل أن أعلم ذلك، لكن خلال السنوات الخمس الأخيرة، كنت في الحالة التي قد تُسمونها حالة تأهُب قصوى.. ومنذ مطلع العام وأنا أكتب مُذكِّراتي، وعندما يكتب الرَّجُل، فإنه يُفكِّر أكثر... أو رُبَّما فقط بشكلٍ أكثر تحديدًا. أحد الأمور التي قضيت وقتًا طويلًا في الكتابة عنها والتفكير فيها هي طبيعة الشَّيءِ. الشَّيءُ يتشكَّل، نحن نعرف ذلك، وأظنُّ أيضًا أن الشَّيءَ يتلاعب، ويترك علامته على الناس، بالطريقة ذاتها التي تشم بها رائحة الظربان عليك إذا حدث وأطلق رائحته الكريهة جوارك، حتَّى لو اغتسلت طويلًا، يترك علامته بالطريقة ذاتها التي يبصق بها الجندب عُصارته الحشرية على راحة يدك إذا حاولت أن تُمسك به».

حلَّ مايك أزرار قميصه ببطء وفتحه على اتِّساعه. استطاعوا جميعًا رؤية أثر النُدبة الوردية التي تقطع الجلد الناعم البُني بين حلمتيه.

قال لهم: «بالطريقة ذاتها التي تُخلِّف المخالب بها ندوبًا».

صاح ريتشي وهو يكاد يئن: «المستذئِب! يا للمسيح يا بيل الكبير، إنه المستذئِب! عندما عدنا معًا إلى شارع نيبولت!».

سأله بيل: «ماذا؟». بدا صوته كرجُلٍ يُنتزعُ من حلمٍ عميق. «ماذا قلت يا ريتشي؟».

- «ألا تتذكَّر؟».

- «لا.. هل تتذكَّر أنت؟».

- «أنا... تقريبًا». قالها ريتشي بخفوت وهو يبدو مُبلبلًا وخائفًا على حدٍ سواء.

سأل إدي مايك فجأة: «هل تقول إن هذا الشَّيءُ ليس شرًّا خالصًا؟ أنه مُجرَّد جزء من... النظام الطبيعي؟». كان يُحدِّق في الندوب كالمُنوَّم إيحائيًّا.

قال مايك وهو يُعيد غلق أزرار قميصه: «إنه ليس جُزءًا من أيِّ نظام طبيعي نعرفه أو نستطيع التعايش معه، ولا أرى أيَّ داعٍ كي نتحرَّك على أيِّ أساسٍ آخر غير الذي نفهمه: أن الشَّيءَ يقتل، ويقتلِ الأطفال، وأن هذا أمرٌ شرير. لقد أدرك بيل هذا قبل أن يُدركه أيٌّ منا، ألا تتذكَّر هذا يا بيل؟».

قال بيل: «أتذكَّر أنني رغبت في قتل الشَّيء»، وللمرَّة الأولى سمع وقع اللفظ في صوته يكتسب ماهيَّة ويصير اسمًا من حينها. «لكنني لم تكن لديَّ خِبرة عريضة في كيفية تنفيذ الأمر، إذا فهمتهم ما أعنيه. لقد أردت قتل الشَّيءِ فحسب، لأنه قتل چورچ».

- «وهل ما زلت تحمل تلك الرغبة؟».

أمعن بيل التفكير مليًّا. ثم خفض بصره ونظر إلى يديه المفرودتين أمامه على المائدة وتذكَّر چورچ في معطفه الأصفر الواقي من المطر، واضعًا الغطاء على رأسه، ويمسك بالقارب الورقي المعزول بطبقة رقيقة من الشمع في إحدى يديه. ثم رفع عينيه إلى مايك.

وقال: «أ-أ-أكثر من أيِّ وقتٍ مضى».

أومأ مايك كأن هذا ما كان يتوقَّعه تمامًا، ثم قال: «لقد ترك الشَّيءُ علامته علينا جميعًا، وأعمل إرادته فينا، كما أعمل إرادته في هذه البلدة كلها، يومًا بعد يوم، حتَّى خلال تلك الفترات الطويلة التي كان ينام فيها، أو يدخُل في سُباتٍ، أو أيًّا ما كان يفعله بين... فترات نشاطه الأكثر حيوية».

ثم رفع مايك إصبعًا واحدًا.

- «لكن لو كان الشَّيءُ قد أعمل إرادته فينا، فعند نُقطة مُعيَّنة، وبطريقةٍ ما، نحن أيضًا أعملنا إرادتنا فيه. لقد أوقفنا الشَّيءَ قبل أن ينهي دورته، أنا مُتيقِّن من ذلك. هل أضعفناه؟ هل آذيناه؟ هل كدنا نقتله بالفعل؟ أعتقد ذلك. أظنُّ أننا اقتربنا كثيرًا من قتل الشَّيءِ، لدرجة أننا غادرنا ونحن نظن أننا نجحنا في مسعانا».

سأله بن: «لكنك لا تتذكَّر هذا الجُزء بدورك، أليس كذلك؟».

- «بلى، لا أتذكَّر. أنا أتذكَّر كل شيء حتَّى الخامس عشر من أغسطس عام 1958 بجلاءٍ شبه تام تقريبًا. لكن ابتداءً من هذا التاريخ وحتى الرابع من سبتمبر الذي تلاه عندما بدأت الدراسة مُجدَّدًا، فأصبحت جميع الأحداث ممحُوَّة من ذاكرتي. ليست مشوَّشة أو ضبابية فحسب، بل غير موجودة من الأساس. باستثناءٍ وحيد: أشعر أنني أتذكَّر صوت بيل وهو يصرُخ بشيءٍ يُدعى الضياء العتيق».

انتفضت ذراع بيل في تشنُّج، وخبطت إحدى زُجاجات البيرة الفارغة، فتكسَّرت الزُّجاجة على الأرض بدويٍ كقنبلة.

سألته بيڤرلي نصف ناهضة: «هل جرحت نفسك؟».

رد قائلًا: «لا». كان صوته جافًا وخشنًا، وقد سرت القشعريرة في جلده فتحبَّب، وبدا له أن جمجمته تنمو بشكلٍ ما، واستطاع أن يشُعر بـ...

(الضياء العتيق)

... بها تضغط جلد وجهه بنبضاتٍ خدرة ثابتة.

- «سوف ألتقط الـ...».

- «لا، فقط اجلسي». كان يريد أن ينظر إليها لكنه لم يقوَ، لم يكن يستطيع رفع عينيه عن مايك.

سأله مايك بهدوء: «هل تتذكَّر الضياء العتيق يا بيل؟».

قال له: «لا». كان يشعر بفمه مشلولًا كما يُشلُّ فم المرء عندما يتحمَّس طبيب الأسنان ويُفرط في استخدام مُخدِّر النوڤوكين.

- «ستتذكَّر».

- «أتمنَّى من الله ألا أفعل».

قال مايك: «ستتذكَّر على أيِّ حال، لكن ليس الآن، ولا أنا أيضًا. هل يتذكَّر أحدكم؟».

واحدٌ تلو الآخر، هزَّ أربعتهم رؤوسهم.

قال مايك بهدوء: «لكننا فعلنا أمرًا ما. في مرحلةٍ ما استطعنا أن نمارس نوعًا من الإرادة الجمعية. في مرحلةٍ ما توصَّلنا إلى تفاهُمٍ خاصٍ ما بيننا، سواء كان واعيًا أم غير واعٍ»، ثم ثار ساخطًا: «يا إلهي، كم أتمنى لو كان ستان معنا. لدي شعورٌ أن ستانَ، بعقله المُنظَّم، رُبَّما سيكون لديه فكرة ما».

قالت بيڤرلي: «رُبَّما هذا صحيح، ولهذا السَّبب قتل نفسه. رُبَّما ستان فهم أنه إذا كان السحر قد وُجِدَ في ما مضى، فهو لن يفلح مع الكبار».

قال مايك: «أظنُّ أن السحر قد ينجح رغم ذلك، لأن ثمَّة شيئًا واحدًا آخر مُشتركًا بيننا نحن الستة، وأتعجَّب إن كان أيّكم قد أدرك كنهه».

هنا كان الدور قد جاء على بيل ليفتح فمه ثم يغلقه مُجدَّدًا.

قال مايك: «هيا. أنت تعرف ماهيته. أستطيع رؤية ذلك في ملامحك».

أجابه بيل: «لست مُتأكِّدًا إن كنت أعرف. لكنني أظنُّ أننا جميعًا لم ننجب، جميعنا بلا ذُرية لنا، أهذا ما تقصد؟».

مرَّت لحظة صادمة من الصمت.

ثم قال مايك: «أجل، هذا تمامًا ما أقصد».

قال إدي ساخطًا: «يا ليسوع المسيح العظيم! ما علاقة هذا بما نحن فيه؟ من الذي أعطاكم فكرة أن جميع من في العالم يجب أن ينجب؟ هذا جنون!».

سأله مايك: «هل رُزقت أنت وزوجتك بأطفال؟».

- «إذا كنت تتتبَّع أخبارنا كما تدَّعي، فأنت تعلم جيِّدًا أننا لم ننجب، لكنني ما زلت عند رأيي أن هذا لا يعني أيَّ شيءٍ لعين».

- «هل حاولت الإنجاب؟».

تحدَّث إدي وقد أخذته العزة بالنفس بشكلٍ غريب، لكن خدَّيه كانا يتورَّدان: «لم نستخدم وسائل تحديد النسل إذا كان هذا ما تعني. كل ما في الأمر أن زوجتي سمينة بعض الشَّيء... أوه اللعنة... إنها مُفرطة البدانة. لقد

ذهبنا إلى طبيب وأخبرنا أن زوجتي قد لا تُرزق بأبناء أبدًا إن لم تخسر بعض الوزن. هل هذا يجعلنا مُجرمَين؟».

قال ريتشي مُلطِّفًا وهو يميل نحوه: «خذ الأمور ببساطة يا إدز».

صرخ إدي مُلتفتًا إلى ريتشي: «إيَّاك أن تنعتني بإدز، وإيَّاك -شُف إيَّاك!- أن تقرصني من خدِّي! أنت تعرف كم أكره هذا! لطالما كرهته!».

تراجع ريتشي خلفًا وهو يطرف بعينيه.

سأل مايك: «بيڤرلي؟ ماذا عنك أنت وتوم؟».

قالت: «لا أطفال، وأيضًا لا وسائل منع الحمل. توم يُريد أطفالًا... وأنا أيضًا، بالتأكيد»، هكذا أضافت مُتردِّدة، وهي تختلس النظر إليهم سريعًا. فكَّر بيل أن عينيها تلمعان أكثر من اللازم، تقريبًا كعيني مُمثِّلة تؤدي مشهدًا جيِّدًا. «الأمر فقط لم يحدث بعد».

سألها بن: «هل أجريتما الاختبارات المُعتادة؟».

- «أوه، أجل بلا شك»، قالتها وأطلقت ضحكة خفيفة بدت عصبية تقريبًا، وفي إحدى قفزات الفهم التي تباغت عادة أولئك الموهوبين بالفضول والبصيرة، أدرك بيل فجأة الكثير عن بيڤرلي وزوجها توم، أو أعظم رجُل في العالم كما عرَّفته. لقد أجرت بيڤرلي اختبارات الخصوبة، لكن تخمينه أن أعظم رجُل في العالم رفض مُجرَّد فكرة أن شيئًا رُبَّما ليس على ما يُرام في الحيوانات المنوية التي تُصنَّع في خصيتيه المُقدَّستين.

سأل ريتشي: «ماذا عن زوجتك أي بيل الكبير؟ هل تحاولان؟». نظر جميعهم إليه بفضول، لأن زوجته شخص يعرفونه. لم تكن أودرا بأيِّ حال من الأحوال أشهر مُمثِّلة، أو أكثر مُمثِّلة محبوبة في العالم، لكنها كانت بالتأكيد جُزءًا من فكرة «المشاهير» التي استبدَلت الموهبة في النصف الثاني من القرن العشرين؛ لقد ظهرت صورتها في مجلة بيبول عندما قصَّت شعرها في قَصَّة قصيرة، وخلال فترة طويلة مُملَّة جدًّا (عندما لم تكتمل المسرحية التي كانت تُخطِّط الاشتراك فيها على أحد المسارح خارج برودواي)، شاركت لمُدَّة أسبوع في برنامج المُسابقات هوليوود سكوارز، رغم اعتراضات وكيل

أعمالها العنيفة. كانت شخصًا غريبًا عنهم ذا وجهٍ مألوفٍ لهم، وقد ظن بيل أن بيقرلي استحوذ عليها الفضول بشكلٍ خاص.

قال بيل: «كنا نحاول على فتراتٍ مُتقطِّعة طوال السنوات الست الماضية، وانقطعت محاولاتنا في الشهور الثمانية الأخيرة بسبب الفيلم الذي نصوِّره، اسمه غُرفة العليّة».

قال ريتشي: «أتعرف، ثمَّة برنامج ترفيهي عندنا في المحطَّة يُذاع يوميًّا من الخامسة والربع إلى الخامسة والنصف. اسمه رؤية النجوم. لقد خصَّصوا فقرة منه لذلك الفيلم اللعين الأسبوع الماضي، وثرثروا عن الزوج والزوجة اللذين يعملان معًا في سعادة. لقد ذكروا اسميكما لكنني لم أُميِّزهما على الإطلاق. غريب، أليس كذلك؟».

قال بيل: «جدًّا. على أيِّ حال، قالت أودرا إنه سيكون قدرًا مُعاكسًا إذا حدث وحملت في أثناء إعدادات ما قبل التصوير، حينها سيكون عليها خوض عشرة أسابيع من التمثيل المُضني وتوعُّك الحمل والإعياء الصباحي في الوقت نفسه. لكننا نرغب في أبناء، ولقد حاولنا جاهدين».

سأله بن: «هل أَجريَت اختبارات الخصوبة؟».

- «أها. منذ أربع سنوات في نيويورك. اكتشف الأطباء ورمًا حميدًا صغيرًا في رحم أودرا، وقالوا إنها محظوظة لكونها أجرت الاختبار، لأن رغم أن الورم لن يمنعها من الحمل، فإنه قد يتسبَّب في حملٍ مُنتبذ[1]. باستثناء ذلك، أنا وهي خصيبان على حدٍّ سواء».

كرَّر إدي بعناد: «هذا لا يثبت أيَّ شيءٍ لعين».

غمغم بن: «لكنه موحي رغم ذلك».

سأله بيل: «ألم تقع حوادث صغيرة معك يا بن»، وقد صدمه وأمتعه اكتشاف أن كاد أن يدعوه بكومة القش بدلًا من بن.

---

(1) الحمل المُنتبذ أو الحمل خارج الرَّحم: أحد مضاعفات الحمل، وفيه ينغرس الجنين خارج التجويف الرحمي.. وعلى الرغم من بعض الاستثناءات النادرة، فإن الحمل خارج الرحم لا يستمر.

قال بن: «أنا لم أتزوَّج قط، وكنت حريصًا دائمًا، ولم أتورَّط في قضايا إثبات نسب من أيِّ نوعٍ. بخلاف ذلك، لا أظنُّ أنه توجد وسيلة حقيقية لمعرفة الأمر».

سألهم ريتشي: «أتريدون سماع حكاية ظريفة». كان فمه يبتسم، لكن شبح الابتسامة كان غائبًا عن عينيه.

قال بيل: «بالتأكيد. لطالما كنت بارعًا في الحكايا الظريفة يا ريتشي».

قال ريتشي بصوت الضابط الأيرلندي: «وجهك ومؤخِّرتي يا بُني». كان هذا تقليدًا خلَّابًا منه لصوت الضابط الأيرلندي، ما جعل بيل يفكِّر: لقد تحسَّنت بكل المقاييس يا ريتشي. في صباك، لم تكن قادرًا على مُحاكاة اللكنة الأيرلندية مهما أجهدت عقلك ولسانك في المحاولة. باستثناء مرَّة... أو اثنتين... متى...

(الضياء العتيق)

كان ذلك؟

- «وجهك ومؤخرتي. فقط تذكَّر هذه المُقارنة، يا صغيري الوسيم».

فجأة أمسك بن هانسكوم أنفه وصاح في صوتٍ صبياني مُتهدِّج: «بيب-بيب يا ريتشي! بيب-بيب! بيب-بيب».

بعد لحظة، أمسك إدي بأنفه بدوره وانضم إليه، ثم فعلت بيفرلي الأمر نفسه.

صاح ريتشي وهو يضحك بدوره: «حسنًا! حسنًا! ها أنا أستسلم! لخاطر المسيح!».

قال إدي: «أوه يا رجل»، ثم انهار خلفًا على كُرسيه ضاحكًا من كل قلبه حتَّى أوشك على البكاء تقريبًا. «لقد نجحنا ف إخراسك هذه المرَّة، أحسنت صنعًا يا بن».

كان بن يبتسم، لكنه بدا مُبلبلًا قليلًا.

قالت بيفرلي وهي تقهقه: «بيب-بيب. يا لله، كنت قد نسيت كل شيءٍ عن الأمر. لقد اعتدنا أن نُخرسك بيب بيب يا ريتشي».

قال ريتشي بارتياح: «أنتم يا رفاق لا تُقدِّرون الموهبة الحقَّة، هذا كل ما

في الأمر». كما الأيَّام الخوالي، كان في مقدور المرء إخلال توازن ريتشي وإسقاطه أرضًا، لكنه كان يرتد واقفًا في التوِّ كعرائس المُلاكمة المزوَّدة بأكياس رملٍ في قاعدتها التي في قصص چو بالوكا المُصوَّرة. «كانت هذه إحدى مُساهماتك القليلة في 'نادي الخاسرين'، أليس كذلك يا كومة القش؟».

- «أجل، أظنُّها كذلك».

- «يا له من رجُل!». قالها ريتشي بصوتٍ راجفٍ مرعون ثم بدأ يضرب المائدة برأسه، وكاد أن يدس أنفه في كوب الشاي أمامه في كل مرَّة نزل عليها فيها. «يا له من رجُل! أوه يا أولاد، يا لهُ من رجُل!».

قال بن بوقار: «بيب-بيب يا ريتشي»، ثم أطلق ضحكة جهيرة لا علاقة لها بصوته الصبياني المُتهدِّج. «ما زلت نقار الخشب القديم نفسه».

سألهم ريتشي: «هل ترغبون في سماع القِصَّة أم لا؟ أعني، ليس الأمر شديد الأهمَّية بشكلٍ خاص. قاطعوني إن رغبتم في ذلك. أستطيع تحمُّل مُضايقاتكم وثقل دمكم. أنتم تنظرون إلى رجُلٍ أجرى مُقابلة مع أوزي أوزبورن ذاته في يومٍ ما».

قال بيل: «احكِ يا ريتشي». ثم اختلس نظرة إلى مايك الذي بدا أكثر سعادة -أو أكثر ارتياحًا- من ذي قبل. هل هذا بسبب أنه لاحظ الانصهار غير الواعي الذي يحدث لهم، والسهولة النسبية التي انزلقوا بها إلى ذواتهم القديمة، تلك التي لا تنجح قط في لقاءات الأصدقاء القدامى وهم كِبارًا؟ أجل، بيل يظن ذلك، وقد فكَّر أنه، إذا كان ثمَّة شروط مُسبقة مُعيَّنة لازمة للاعتقاد في السحر كي يعمل السحر، إذًا رُبَّما تلك الشروط المُسبقة سوف تُرتِّب نفسها لا محالة. لم تكن هذه فكرة مُريحة تمامًا. فقد جعلته يشعر بأنه رجُلٌ مربوط في رأس صاروخٍ نوويٍ موجَّه.

بيب-بيب بالفعل.

كان ريتشي يقول: «حسنًا، أستطيع أن أجعلها حكاية طويلة ومُملَّة أو أستطيع أن أعطيكم النُسخة المُختصرة المُخِلَّة منها، لكنني سألجأ إلى شيءٍ ما وسط. في السنة التي تلت انتقالي إلى كاليفورنيا قابلت فتاةً، وقد وقع

كلانا في غرام الآخر لحد الوله. انتقلنا للعيش معًا. في البداية كانت تستخدم حبوب منع الحمل، لكنها كانت تصاب بالإعياء في كل مرَّة تقريبًا. تناقشنا في فكرة أن تضع لولبًا رحميًا، لكنني لم أكن مُتحمِّسًا تمامًا للأمر.. فقد كان هذا العصر الذي بدأت تظهر فيه أوَّل الأخبار في الجرائد قائلة إنها قد لا تكون وسيلة آمنة تمامًا».

«تناقشنا كثيرًا حول الأطفال، وقرَّرنا أننا لا نرغب فيهم حتَّى لو قمنا بإضفاء صفة شرعية على علاقتنا. تحدَّثنا عن استهتار ولا مسؤولية جلب أطفالٍ إلى مثل هذا العالم القميء الشرير المُكتظ بالبشر... وكثيرٍ من البلا بلا بلا، والإلخ إلخ لخ.. لنذهب لتطهير العالم ودسِّ قنبلة في حمَّام رجال البنك الأمريكي، ثم لنعود إلى فراشنا لتدخين بعض الماريجوانا ومناقشة الفرق بين الماوية والحركة التروتسكية، إن كنتم تفهمون ما أقصد».

«قد أكون متحاملًا كثيرًا على كلينا. سحقًا، لقد كنا يافِعَين ومثاليين إلى حدٍّ كبير، وكانت النتيجة أنني قطعت أحبالي، كما يقولها أهل بيڤرلي هيلز بطريقة مُبتذلة أنيقة. تمَّت العملية بشكلٍ جيِّد، ولم تحدث لي آثارٍ سلبية وخيمة، رغم المخاطر المُحتملة كما تعلمون. صديقٌ لي أجرى العملية فانتفخت خصيتاه حتَّى صارتا بحجم إطارات سيَّارة كاديلاك طراز 1959. كنت سأهديه زوجين من حمَّالات سراويل وحمَّالتي صدر في عيد ميلاده، لكن تورُّمهما زال قبل أن يحين وقته».

قال بيل: «ليس هذا بغريبٍ عن لباقتك المُعتادة ومقامك الرفيع»، فبدأت بيڤرلي تضحك من جديد.

ابتسم له ريتشي ابتسامة كبيرة مُخلصة وقال: «شكرًا لك يا بيل على كلماتك الداعمة. لقد استخدمت كلمة 'نيك' مئتي وست مرَّات في كتابك الأخير، لقد أحصيتها».

قال بيل برزانة: «بيب-بيب يا طويل اللسان»، فضحك الجميع، وجد بيل نفسه غير قادر على تصديق أنهم كانوا يتحدَّثون عن ضحايا أطفال مقتولين منذ أقل من عشر دقائق.

قل بن: «انجز يا ريتشي، الوقت يتأخَّر».

واصل ريتشي: «عشت مع ساندي طوال عامين ونصف، وكدنا خلالها أن نتزوَّج مرَّتين. لكن بالطريقة التي سارت الأمور بعد ذلك، أظنُّ أننا وفَّرنا على نفسينا كثيرًا من وجع القلب، وكل مُشكلات المُمتلكات الزوجية الخرائية تلك، بإبقاءنا على الأمور بسيطة. تلقَّت ساندي عرضًا للانضمام إلى شركة مُحاماة في واشنطن في الوقت نفسه الذي تلقَّيت فيه عرضًا للانضمام إلى محطَّة كلاد الإذاعية كمُشغِّل أغانٍ في عطلة نهاية الأسبوع. لم تكن فرصة عظيمة بالطبع، لكنها وضع قدم. قالت لي إن هذه فُرصتها الكبيرة، ولا بُدَّ أنني أكثر خنزير شوفيني حسَّاس في الولايات المُتَّحدة بتقاعسي عن مُرافقتها، وأنها نالت كفايتها من كاليفورنيا على أيِّ حال. أخبرتها أنني بدوري أمامي فُرصة، وهكذا تشاجرنا حول الأمر، وتراشقنا بالاتِّهامات، وبعد انتهاء كل أنواع الشجار المعروفة هجرتني ساندي».

«بعد سنة، قرَّرت محاولة الخضوع لعملية إعادة ربط قناتي المنوية الدافقة. لا لسبب مُحدَّد، كما أنني كنت أعلم من المقالات التي قرأتها أن الفُرص هزيلة جدًّا، لكنني فكَّرت أن لا يضير الأعور الضرب على عينه».

قال بيل: «هل كنت تُرافق إحداهن بشكلٍ مُنتظم وقتها؟».

قال ريتشي قاطبًا جبينه: «لا، وهذا الجزء الغريب في الأمر. لقد استيقظت ذات يوم والفكرة تلح في عقلي، أن هذه الأسلاك في جسدي يجب أن تُلحم من جديد».

قال إدي: «لا بُدَّ أنك كنت معتوهًا. أنت تتحدَّث عن تخدير كُلِّي بدلًا من موضعي، وجراحة، ورُبَّما أسبوع نقاهة في المُستشفى بعدها».

أجابه ريتشي: «أجل، أخبرني الطبيب بكل تلك الأمور، فقلت له إنني أريد أن أفعلها رغم ذلك. لا أعرف السَّبب. سألني الطبيب إن كنت أعلم الآثار المُترتِّبة على العملية وكيف أنها بالتأكيد ستكون مؤلمة، في حين أن النتيجة غير مضمونة على الإطلاق وأقرب إلى الرهان على وجهي عُملة، فأخبرته أنني أعلم. قال لي حسنًا، فسألته متى، فقد كنت أرى أن خير البرِّ عاجله كما ترون. قال لي اصبر قليلًا يا بُني، اكبح جماحك، فالخطوة الأولى هي أخذ عيِّنة من السائل المنوي للتأكُّد من أن عكس العملية ضروري من الأساس.

فقلت له: 'بربك، لقد خضعت لاختبارٍ بعد العملية الأولى وجاء إيجابيًّا'. فأخبرني أن أحيانًا تعيد القنوات ربط نفسها تلقائيًّا. فصحت: 'أوه ماما! لم يخبرني أحدٌ بذلك قط'. قال إن الاحتمالات ضعيفة جدًا -متناهية الضآلة في الواقع- لكن لأن العملية خطيرة تمامًا، فيتحتَّم فحصك أوَّلًا. هكذا دخلت إلى حمَّام الرجال حاملًا عددًا من مجلَّة فريدريكس أوف هوليوود وضربت عشرة في كوبٍ ورقي...».

قالت بيفرلي: «بيب-بيب يا ريتشي».

قال ريتشي: «أوه، أجل، معك حق. لقد كذبت بشأن مجلَّة فريدريكس، فالمرء لا يجد أيَّ شيءٍ بهذه الجودة في عيادة طبيب. على أيِّ حال، هاتفني الطبيب بعدها بثلاثة أيَّام وسألني ما الذي أود سماعه أوَّلًا، الخبر الجيِّد أم الخبر السيِّئ».

«فقلت له: 'إليّ بالجيِّد أوَّلًا'».

«قال لي: 'الخبر الجيِّد أننا لن نحتاج إلى العملية، أما الخبر السيئ أن أيَّ امرأة نمت معها في فراشٍ واحد خلال آخر سنتين ونصف يمكنها أن ترفع عليك دعوى أبوَّة إذا رغبت'».

«سألته: 'هل تقول ما أُفكِّر أنك تقوله؟'».

«قال لي: 'ما أقوله أنك لا تقذف أعيرة فارغة، ولم تكن تفعل ذلك لفترة طويلة نسبيًّا حتَّى الآن. ثمَّة ملايين السبَّاحين في عيِّنة المني الخاصة بك. لقد وصلت أيَّام مرحك وعربدتك رائقة البال إلى نهايتها مؤقَّتًا يا ريتشارد'».

«شكرته ووضعت السمَّاعة. ثم رفعتها مُجدَّدًا واتَّصلت بساندي في واشنطن. ردَّت عليّ بصوتٍ مُندهش: 'ريتش!'»، هنا كان صوت ريتشي قد تحوَّل إلى صوت تلك الفتاة ساندي التي لم يقابلها أيُّهم في حياته قط. لم يكن الصوت مُحاكاةً أو حتَّى تقليدًا، بل نسخة طبق الأصل. كان الأمر أشبه بلوحة سمعية للفتاة. «'كم هو رائع أن أسمع صوتك! لقد تزوَّجت!'».

«قلت لها: 'حقًّا هذا رائع. كان يجب أن تُخبريني، كنت سأرسل لكِ خلَّاطًا هدية'».

«فقالت: 'لم تتغيَّر يا ريتشي. دائمًا مِهذارًا'».

«فقلت لها: ‹بالتأكيد، ما زلت كما أنا. دائمًا مِهذارًا. بالمناسبة يا ساندي، لم يحدث أنك رُزِقتِ بطفلٍ أو أيِّ شيء بعدما غادرتِ لوس أنچلوس، أليس كذلك؟ أو خضعتِ لتوسيعٍ وكحتٍ للرحم أو شيءٍ من هذا القبيل؟›».

«قالت لي: ‹هذا ليس مزاحًا طريفًا تمامًا يا ريتشي›، وخطر في بالي أنها على وشك إغلاق الخط في وجهي، لذا سألتها ماذا حدث. بدأت تضحك، لكن هذه المرَّة كانت تضحك بشدَّة من أعماق قلبها. تضحك بالطريقة التي اعتدت أن أضحك بها في صُحبتكم يا رفاق، كأن أحدهم أخبرها أفضل نكتة في التاريخ. ثم عندما بدأت تهدأ قليلًا سألتها ما المُضحك إلى هذه الدرجة في سؤالي، فقالت: ‹هذه المرَّة النكتة انقلبت عليك. بعد كل هذه السنوات انقلب السحر أخيرًا على توزييه فارس الأُسطُوانات. كم نغلًا أنجبت منذ أن ارتحلت شرقًا يا ريتش؟›».

«سألتها: ‹أفهم من هذا أنك لم تختبري مباهج الأمومة بعد؟›».

«قالت لي: ‹سأحظى بطفلٍ في يوليو القادم. هل من أسئلةٍ أخرى؟›».

«قلت لها: ‹أجل. متى غيَّرتِ رأيك عن لا أخلاقية جلب أطفالٍ جُديد إلى هذا العالم القذر؟›».

«‹عندما قابلت أخيرًا رجُلًا ليس قذرًا›. هكذا أجابتني، ثم أغلقت الخط».

بدأ بن يضحك، ولم يتوقَّف عن الضحك إلى أن سالتِ الدموع من عينيه.

قال ريتشي: «أجل. أظنُّها سابقت بغلق الخط كي تحظى بانتصار الكلمة الأخيرة، لكن يُمكنها أن تُغلق الخط طوال اليوم كما تشاء. فأنا أعرف عندما أنتصر. عُدت إلى الطبيب بعدها بأسبوع وسأله إن كان قادرًا على أن يكون أكثر وضوحًا بشأن هذا النوع من الالتحام التلقائي، فقال لي إنه تناقش في الأمر مع بعضٍ من زملائه، واتَّضح أنه خلال فترة الثلاث سنوات من 1980 إلى 1982، سجَّل فرع الجمعية الطبية الأمريكية في كاليفورنيا ثلاثًا وعشرين حالة تجدُّد تلقائيًا. ست من تلك الحالات اتضح أنها ببساطة عمليات فاشلة، وستة أخرى إما خدع أو محاولات نصب من رجالٍ طامعين في اقتناص بعضٍ من أرصدة أطباءهما البنكية. لذا.. يتبقَّى لنا إحدى عشر حالة حقيقية في ثلاث سنوات».

سألته بيڤرلي: «إحدى عشرة حالة من كم؟».

قال ريتشي بهدوء: «من 28617 حالة».

عمَّ الصمت المائدة.

قال ريتشي: «وبهذا أكون قد تغلَّبت على احتمال الفوز في اليناصيب الأيرلندية. أيمنحك هذا أيَّ هأهآت جيِّدة يا إدز؟».

بدأ إدي في عناده: «ما زال الأمر لا يثبت...».

قال بيل: «لا، هو لا يثبت شيئًا، لكنه بالتأكيد يشير إلى وجود رابطٍ ما. السؤال الآن هو، ما الذي علينا فعله الآن؟ هل فكَّرت في هذا يا مايك؟».

قال مايك: «بالتأكيد فكَّرت في الأمر، لكن كان من المستحيل البت في أيِّ شيءٍ قبل أن تتقابلوا مُجدَّدًا وتتحدَّثوا معًا، كما تفعلون الآن. لم تكن ثمَّة طريقة للتنبُّؤ بسير الأمور في لمِّ الشَّملِ هذا قبل أن يحدث بالفعل».

ثم صمت هنيهةً طويلة، ناظرًا إليهم بإمعان.

قبل أن يضيف: «لديّ فكرة واحدة، لكن قبل أن أقولها لكم، أعتقد أننا يجب أن نتفق أوَّلًا ما إذا كان لنا دخل بما يحدث هنا أم لها. هل نرغب في محاولة فعل ما حاولنا فعله من قبل؟ هل نريد محاولة قتل الشَّيءِ مُجدَّدًا؟ أم هل نقتسم فاتورة المطعم نحن الستة ويعود كلٌّ منا إلى ما كان يفعله؟».

قالت بيڤرلي: «يبدو أن...». لكن مايك أوقفها بهزَّة من رأسه. لم يكن قد أنهى كلامه بعد.

«يجب أن تفهموا أنه يستحيل توقُّع احتمالات نجاحنا. أعرف أنها ليست جيِّدة، كمعرفتي بأنها كان يمكن أن تكون أفضل قليلًا لو كان ستان موجودًا، لكن حتَّى مع ذلك لن تكون رائعة، إنما أفضل فقط. برحيل ستان، فإن الدائرة التي شكَّلناها في ذلك اليوم تحطَّمت، وبدائرة مُحطَّمة، لا أعتقد حقًّا أننا قادرون على تدمير الشَّيءِ، ولا إرساله بعيدًا ردحًا من الزمن، كما فعلنا من قبل. أظنُّ أن الشَّيءَ سيقتلنا، واحدًا تلو الآخر، وبطُرقٍ شنيعة غالبًا. عندما كنا أطفالًا، استطعنا تشكيل دائرة متكاملة بطريقةٍ ما لا أستطيع فهمها حتَّى الآن، وأظنُّ أنه -إذا اتفقنا على المُضي قِدمًا- سنحاول صُنع دائرة أصغر. لا أعلم إن كان هذا ممكنًا من عدمه. أعتقد أننا قد نظن عند مرحلة ما أننا نجحنا في صنعها، فقط لنكتشف -بعد فوات الأوان- أن الأوان قد فات».

تأمَّل مايك وجوههم من جديد، بعينين مُتعبتين غائرتين في بشرة وجهه البُنِّية: «لذا أعتقد أننا نحتاج إلى التصويت. هل نبقى ونحاول مرَّة أخرى، أم نعود إلى ديارنا. ذانك الاختياران المُتاحان. لقد أتيت بكم إلى هنا بقوَّة وعدٍ قديم لم أكن حتَّى واثقًا أنكم تتذكَّرونه، لكنني لا أستطيع الإمساك بكم هنا بقوَّة ذلك الوعد، فنتائج ذلك ستكون أسوأ».

ثم نظر إلى بيل، وفي تلك اللحظة أدرك بيل ما هو آتٍ. كان بيل يخاف ما سيأتي، ويعجز عن ضدِّه، لكنه أيضًا تقبَّله... بذات الشعور بالخلاص الذي لا بُدَّ أنه يجتاح مُنتحر عندما يرفع يديه عن مقود سيَّارة مُسرعة ويغطي بهما عينيه. لقد جاء مايك بهم إلى هنا، وفرد أمامهم جميع الحقائق بأناقة، وها هو الآن يخلع عنه عباءة القيادة وينوي إعادتها إلى الشخص الذي ارتداها في عام 1958.

- «ما قولك يا بيل الكبير؟ ادع إلى التصويت».

قال بيل: «قبل أن أفعل. هـ-هل يعي الجميع علام سنصوِّت؟ كنت ستقولين شيئًا يا بيف».

هزَّت بيف رأسها.

- «حسنًا. أظنُّ أن السؤال هو: هل نبقى ونحارب، أم ننسى الأمر برُمَّته؟ من ينحاز للبقاء يرفع يده».

لم يتحرَّك أحدٌ من الجالسين حول المنضدة قيد أنملة مُدَّة خمس ثوانٍ، وقد ذكَّر بيل هذا بالمزادات التي حضرها، حيث يرتفع سعر بندٍ ما إلى عنان السماء، فيمارس أولئك الذين لا يرغبون في تقديم مزيدٍ من العطاءات دور التماثيل حرفيًّا، ويخشى أحدهم أن يحك جلده أو يهِش ذبابة عن طرف أنفه كي لا يعدُّها البائع رغبة في المُزايدة بخمسة أو خمسة وعشرين ألفًا أخرى.

فكَّر بيل في چورچي.. چورچي الذي لم يكن يرغب في إيذاء أحدٍ، والذي أراد فقط الخروج من المنزل بعدما ظل حبيسه طوال عطلة نهاية الأسبوع. فكَّر في چورچي بوجهه المتورِّد، والقارب الورقي في إحدى يديه، ويربط حزام معطف المطر الأصفر باليد الأخرى. تذكَّر چورچي وهو يشكره، ثم انحناءته فوقه وتقبيله لوجنته المُلتهبة بفعل الحُمَّى: شكرًا يا بيل. إنه قاربٌ أنيق.

شعر بالغضب القديم يتنامى في صدره، لكنه صار أكبر الآن، وصار منظوره للأمور أوسع. الأمر لا يتعلَّق الآن بچورچي فحسب. حامت أسماء كثيرة في رأسه: بيتي ريبسوم، اكتُشفت مُجمَّدة على الأرض. شيريل لامونيكا، استُخرجت من الكِندوسكيج. ماثيو كليمنتس، مُزِع من فوق درَّاجته ثلاثية العجلات. ڤيرونيكا روجان، في التاسعة من عُمرها وعُثر عليها في مجرورٍ. ستيڤن چونسون، وليزا ألبركت، والآخرون، ووحده الله يعلم كم ممَّن اختفوا بلا أثر.

رفع بيل يده ببطء: «لنقتل الشَّيءَ، دعونا نقتله حقًّا هذه المرَّة».

مرَّت برهة ظلَّت يده فيها مُعلَّقة وحدها في الهواء، كيد الطفل الوحيد الذي يعرف الإجابة الصحيحة، الطفل الذي يكرهه جميع الأطفال الآخرين. ثم تنهَّد ريتشي، ورفع يده، وقال: «ما الذي يمكن أن يحدث بحق الجحيم.. لن يكون الأمر أسوأ من محاورة أوزي أوزبورن».

رفعت بيڤرلي يدها. كانت الدماء قد عادت إلى وجهها الآن، لكن في بُقعٍ متوهِّجة مُتفرِّقة على عظام وجنتيها. بدت شديدة التحمُّس ومرتعدة من الخوف على حدٍ سواء.

رفع مايك يده.

ورفع بن يده.

ظل إدي كاسبراك مُتراجعًا في مقعده، كأنه يريد أن يذوب فيه ومن ثم يختفي. كان وجهه الرفيع حسَّاس المظهر هلعًا لدرجة بائسة وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال قبل أن يعود إلى بيل. للحظة، شعر بيل في قرارة نفسه بثقة أن إدي سيدفع مقعده إلى الخلف ببساطة، وسينهض واقفًا، ثم يندفع خارجًا من الغرفة دون أن ينظر وراءه. لكنه في النهاية رفع إحدى يديه عاليًا في الهواء، وبالأخرى أمسك بخَّاخه في قبضته بإحكام.

قال ريتشي: «كل الاحترام يا إدز. أراهن أن جميعنا سنحظى ببعض الهأهآت هذه المرَّة».

- «بيب-بيب ريتشي». هكذا قال إدي بصوتٍ مُرتعش.

5
الخاسرون يتناولون الحلوى

سأل بيل: «حسنًا إذًا، ما الفكرة التي لديك يا مايك؟». كان الجو المشحون بالتوتُّر قد كُسِر من قِبَل روز مُضيفتهم، التي أتت ومعها طبقًا من كعكات الحظ. لقد نظرت حولها إلى الأشخاص الستة الرافعين أيديهم في الهواء بحذرٍ مُهذَّب يعوزه الفضول، فخفض الجميع أيديهم، ولم يتفوَّه أيُّهم بكلمة إلى أن غادرت روز من جديد.

قال مايك: «إنها بسيطة تمامًا، لكنها قد تكون لعينة الخطورة أيضًا».

قال ريتشي: «قُلها».

– «أظنُّ أنه يجب علينا أن نفترق لبقيَّة اليوم. أظنُّ أن كلًّا منا يجب أن يعود إلى أكثر مكان يتذكَّره في ديري... بخلاف البرِّية بالطبع. لا أعتقد أن أيًّا منا يجب أن يذهب إلى هناك، ليس بعد. يمكنكم أن تُفكِّروا في الأمر كسلسلة من الجولات سيرًا».

سأله بن: «ما الغرض يا مايك؟».

– «لست متأكِّدًا تمامًا. يجب أن تفهموا أنني أعتمد على الحدسِ بشكلٍ كبير في موقفنا هذا...».

قاطعه ريتشي: «يا له من إيقاعٍ جيِّد للرقص عليه».

ابتسم الآخرون، لكن مايك لم يبتسم، وبدلًا من ذلك أومأ قائلًا: «هذه عبارة جيِّدة لوصف الأمر كغيرها. الاعتماد على الحدس يشبه الاستماع إلى إيقاعٍ والرقص عليه. الاعتماد على الحدس أمر أكثر صعوبة على الكبار، وهذا السَّبب الرئيس الذي يجعلني أعتقد أن الاعتماد على الحدس قد يكون الشيء الصحيح الذي يتعيَّن علينا فعله. الأطفال –قبل كل شيء– يستخدمونه وقودًا في نحو ثمانين بالمئة من الوقت، إلى أن يبلغوا الرابعة عشرة على الأقل».

قال إدي: «أنت تتحدَّث عن الدخول في الحالة من جديد».

- «هذا ما أفترضه. على أيِّ حالٍ، تلك فكرتي. إذا لم يتوارد إليكم مكان مُعيَّن للذهاب إليه، فقط اتبعوا أقدامكم، ولتنظروا إلى أين ستأخذكم. ثم سنتقابل الليلة، في المكتبة، لنتحدَّث عمَّا حدث».

قال بن: «إن حدث أيُّ شيء».

- «أوه، أظنُّ أن أمورًا ستحدث».

سأله بيل: «أيُّ نوعٍ من الأمور؟».

هزَّ مايك رأسه: «ليس لديَّ فكرة. أظنُّ أن أيًّا كان ما سيحدث سيميل إلى أن يكون غير سارٍ. أظنُّ أنه من المُحتمل حتَّى إن بعضنا قد لا يستطيع مقابلة الآخرين في المكتبة الليلة. لا يوجد سبب لهذه الفكرة، باستثناء مسألة الحدس تلك مرَّة أخرى».

استُقبل كلامه بالصمت.

ثم سألت بيفرلي أخيرًا: «لِم التفرُّق؟ إذا كان من المُفترض أن نفعل الأمر معًا كمجموعة، لِمَ تُريد لكلٍ منا أن يبدأ بمفرده يا مايك؟ خصوصًا لو كان خطرًا كبيرًا حقًّا كما تعتقد أنه قد يكون؟».

قال بيل: «أظنني قادر على إجابة هذا السؤال».

قال مايك: «تفضَّل يا بيل».

توجَّه بيل إلى بيفرلي بحديثه: «لقد بدأ الأمر مع كل واحدٍ منا على حِدَةٍ. أنا لا أتذكَّر كل شيء -ليس بعد- لكنني واثق من أنني أتذكَّر هذه النقطة. الصورة التي تحرَّكت في غُرفة چورچ، ومومياء بن، والمجذوم الذي واجهه إدي أسفل شُرفة المنزل في شارع نيبولت، وعثور مايك على دماءٍ فوق المرج الأخضر في حديقة باسي قرب القناة، والطائر... أتذكَّر شيئًا ما عن طائر، أليس كذلك يا مايك؟».

أومأ مايك مُتجهِّمًا.

- «طائرٌ كبير».

«أجل، لكنه لم يكن ودودًا كطائر عالم سمسم».

صاح ريتشي مقوقئًا بعُنف: «المُعادل المحلِّي لچيمس براون[1] يقول نكتة مُحترمة! أوه يا غلمان، أنحن مُباركون أم نحن مُباركون!».

قال مايك: «بيب-بيب يا ريتشي»، فسكت ريتشي.

واصل بيل كلامه لبيڤرلي: «أما أنت، فقد ثرثرت إليك تلك الأصوات من المواسير، وانبثقت الدماء من البالوعة، وبالنسبة إلى ريتشي...»، لكنه هنا توقَّف حائرًا.

قال ريتشي: «لا بُدَّ أنني الاستثناء الذي يؤكِّد القاعدة يا بيل الكبير. المرَّة الأولى التي واجهت فيها شيئًا غريبًا في ذلك الصيف -أعني شيئًا غريبًا تمامًا- كانت في غُرفة چورچ معك. عندما عدنا إلى منزلك معًا في ذلك اليوم وألقينا نظرة على ألبوم الصور وبدأت صورة الشارع الأوسط قرب القناة تتحرَّك، أتذكُر؟».

قال بيل: «أجل. لكن هل أنت متأكِّد من عدم حدوث شيء قبلها يا ريتشي؟ لا شيء على الإطلاق؟».

لمع شيءٌ في عيني ريتشي، وهو يقول ببطء: «أنا... حسنًا، أتذكَّر ذلك اليوم الذي طاردني فيه هنري وأصدقاؤه، كان ذلك قبل انتهاء الدراسة، وقد ضلَّلتهم في قسم الألعاب في متجر فريسي. اتجهت بعدها إلى مركز المدينة وجلست على إحدى الدكك العمومية وأظنُّ أنني رأيت... لكن ذلك كان حُلمًا».

سألته بيڤرلي: «ماذا كان؟»

قال ريتشي بفظاظة تقريبًا: «لا شيء. مُجرَّد حلم، حقًّا، ومع ذلك، ليس لدي مانع أن أتمشَّى قليلًا، سيُضيِّع هذا بعض الوقت عصرًا. فرصة لتفقُّد المكان القديم الذي نشأت به».

سألهم بيل: «إذًا نحن متَّفقون؟».

أومأوا جميعًا بالإيجاب.

- «وسنتقابل الليلة في المكتبة الساعة... متى تقترح يا مايك؟».

---

(1) يقصد مايك.

- «السابعة مساءً. اقرعوا الجرس إذا تأخَّرتم. تغلق المكتبة أبوابها في السابعة في أيَّام العمل حتَّى تبدأ الإجازة الصيفية».

قال بيل وهو يطوف بعينيه في وجوههم بجدِّية: «السابعة مساءً إذًا، خذوا حذركم. يجب أن تتذكَّروا أن أيًّا منا لا يعرف حقًّا ما يفعله. فكِّروا في الأمر كاستطلاع. إذا رأيتم شيئًا لا تقاتلوه. فقط اهربوا».

قال ريتشي بصوت مايكل چاكسون الحالم: «أنا عاشق لا مُقاتل».

قال بن: «حسنًا، إن كنا سنفعل ذلك، فمن الأفضل أن نبدأ في التحرُّك»، وشاعت ابتسامة صغيرة في ركن فمه الأيسر. كانت مريرة أكثر منها مؤنسة. «ومع ذلك فلتحل عليّ اللعنة إن كنت أستطيع إخباركم إلى أين سأتجه، ما دامت البرِّية مُستبعدة. كان الذهاب معكم يا رفاق إلى هناك هو أفضل شيء أفعله في ذلك الصيف»، ثم تحرَّكت عيناه إلى بيڤرلي، وظلَّ يرمقها بُرهةً، قبل أن يُحرِّكها بعيدًا. «لا يسعني التفكير في أيِّ مكانٍ آخر يعني لي الكثير. سأهيم على وجهي بضع ساعات على الأرجح مُتأمِّلًا المباني، ومُختبرًا المدينة في ثوبها الجديد».

قال ريتشي: «ستجد مكانًا تذهب إليه يا كومة القش. اذهب إلى محال الطعام التي اعتدت ارتيادها واملأ الخزَّان».

ضحك بن قائلًا: «لقد انخفضت سعتي كثيرًا عمَّا كنت في الحادية عشرة. أنا مُمتلئ تمامًا لدرجة أنكم قد تضطروا إلى دحرجتي خارج هذا المكان».

قال إدي: «حسنًا، أنا مُستعد تمامًا».

- «انتظروا لحظة!». هكذا صاحت بيڤرلي عندما بدأوا يدفعون مقاعدهم إلى الخلف. «كعك الحظ! لا تنسوه».

قال ريتشي: «أجل، أستطيع رؤية ورقة حظي من الآن. سيلتهمك وحشٌ ضخمٌ قريبًا، نتمنى لك يومًا لطيفًا».

ضحكوا جميعًا، ومرَّر مايك الوعاء الصغير الذي يحوي كعكات الحظ إلى ريتشي، الذي التقط واحدة ثم مرَّره عبر المائدة. لاحظ بيل أن أيًّا منهم لم يفتح كعكته حتَّى حصل جميعهم على كعكة. جلسوا جميعًا بالكعكات التي على هيئة قُبَّعات إما أمامهم أو في أيديهم، وعندما أمسكت بيڤرلي بكعكتها

وهي لا تزال مُبتسمة، شعر بيل بصرخة ترتفع في حلقة تقول: لا! لا تفعلي ذلك. إنها جزءٌ من الأمر، أعيديها مكانها، لا تفتحيها!!

لكن الأوان كان قد فات. كسرت بيڤرلي كعكتها إلى نصفين، وكان بن يفعل المثل بكعكته، وراح إدي يقطع كعكته بطرف شكوته، وقبل أن تنقلب ابتسامة بيڤرلي إلى التواءة مرعوبة، كان أمام بيل وقت ليُفكِّر: إننا نعلم، بطريقةٍ ما نعلم، لأن أحدنا لم يقدم على قضم كعكته ببساطة. من المفترض أن هذا التصرُّف الطبيعي لفعله، لكن أحدًا لم يفعله. بطريقةٍ ما، جزء داخلنا ما زال يتذكَّر... كل شيء.

شعر بيل أن هذه المعرفة الوجدانية الوحشية هي الإدراك الأكثر ترويعًا على الإطلاق بطريقة أو بأخرى، فهي تتحدَّث بلسان أكثر فصاحة ممَّا استطاع مايك، كاشفة لهم كيف أن الشَّيءَ لمسهم وترك علامته عليهم بعُمقٍ وبلا أدنى ريب... وكيف أن لمسته ما زالت لم تبرحهم.

انبثقت الدماء من كعكة بيڤرلي كأنها تتدفَّق من شُريانٍ مقطوع. تناثر الدم على يديها ثم قِيئَ على المفرش الأبيض الذي يغطي المائدة مُلطِّخًا إيَّاه ببُقَعٍ حمراء فاقعة غاصت في نسيجه ثم انتشرت في هيئة أصابع وردية بشعة.

صرخ إدي صرخة مخنوقة ودفع نفسه بعيدًا عن الطاولة بتشنُّجٍ مُشمئز مُفاجئ حتَّى إن المقعد كاد أن ينقلب على ظهره. كانت هناك حشرة كبيرة ظهرها أصفر غامق قبيح ضارب إلى البُني تدفع نفسها خارجة من كعكة حظه كما لو كانت شرنقة، وعيناها السوداون اللامعتان تُحملاق أمامًا على نحوٍ أعمى... وبينما هي تترنَّح فوق طبق العيش والزبد الخاص بإدي، راح الفتات يتساقط من ظهرها في وابلٍ صغير سمعه بيل بوضوح، وطارد كوابيسه لاحقًا عصر ذلك اليوم عندما حظِيَ بقليلٍ من النوم... وفيما كانت الحشرة تُحرِّر نفسها تمامًا، راتت تحك أرجلها الخلفية معًا، مُصدرة صوت احتكاك جافًا رفيعًا، وأدرك بيل أنها صرصورٌ متحوِّرٌ شنيع من نوعٍ ما. سارت الحشرة في تثاقل إلى حافَّة الطبق، ثم سقطت على ظهرها فوق مفرش المائدة الأبيض.

تمكَّن ريتشي أن يقول بصوتٍ مخنوق: «يا إلهي! يا إلهي يا بيل إنها عين، يا إلهي الرحيم إنها عينٌ لعينة...».

تحرَّكت رأس بيل سريعًا نحو ريتشي ورآه يُحدِّق نحو الأسفل إلى كعكته، وشفتاه مشدودتان إلى الخلف كاشفتان عن أسنانه في اشمئزازٍ مُريع. كانت قطعة من سطح كعكته المصقول قد سقطت على المفرش، وكشفت عن ثُقبٍ تبرز منه عينٌ بشرية زجاجية تُحملق بحدَّة، يتناثر على قزحيتها البُنِّية خاوية التعبير فُتات الكعك، ويُدفن في بياضها.

ألقى بن هانسكوم كعكته، ليس بشكلٍ إرادي، وإنما في ردَّةُ فعل شخصٍ فُوجِئ تمامًا بشناعة صنيعٍ ما.. وفيما تدحرجت كعكة حظه عبر المائدة، شاهد بيل سِنَّتين داخل تجويفها، جذريهما داكنان بفعل الدماء المُتخثِّرة عليهما. أخذت السِّنتان تصلصان معًا كأنهما بذرتان في قرعة مُجوَّفة.

عاد بيل ببصره إلى بيڤرلي ورآها تأخذ نفسًا لتصرخ. كانت عيناها مُثبَّتتين على الحشرة التي خرجت زاحفة من كعكة إدي، والتي راحت تركل بأرجلها الخمولة وهي مقلوبة على ظهرها فوق مفرش المائدة.

تحرَّك بيل. لم يُفكِّر، فقط تحرَّك. حدسٌ، هكذا فكَّر مسعورًا وهو يقفز من مقعده ويضع يده على فم بيڤرلي قبل أن تطلق صرختها بالكاد. ها أنا ذا، أتصرَّف بحدسي. يجب أن يفخر مايك بي.

وما خرج من فم بيڤرلي لم يكن صرخة، بل صوت مخنوق مُكمَّم: «مممممفه!».

كان إدي يُصدر أصوات الصفير التي يتذكَّرها بيل جيِّدًا. لا مُشكلة كبيرة هنا، فقط شفطة جيِّدة من بخَّاخه ستُرجعه سليمًا كالعدسة الجديدة، كما كان مُنتج فيلمه فريدي فايرستون سيقول. تعجَّب بيل -ولم تكن هذه المرَّة الأولى- لِمَ تنتاب المرء مثل هذه الأفكار الغريبة في أوقاتٍ كهذي.

نظر إليهم باحتدام، وما قاله كان شيئًا آخر يعود إلى ذلك الصيف.. شيئًا بدا قديمًا جدًّا وفي موضعه تمامًا على حدٍ سواء: «اخرسوا أيُّها الحمقى! كلكم! ولا صوت واحد! اخرسوا تمامًا!».

مسح ريتشي يده على فمه. بدا مايك رماديًا من الشحوب، لكنه أومأ إلى بيل. تراجع جميعهم بعيدًا عن المائدة. لم يكن بيل قد فتح كعكة حظه، لكنه

الآن استطاع أن يرى جوانبها تتحرَّك ببطء إلى الداخل والخارج.. تنتفخ وتسترخي، تنتفخ وتسترخي، تنتفخ وتسترخي، كأنها تحاول الفكاك.

زامت بيڤرلي مُجدَّدًا في كفِّه الذي يُكمِّمها: «مممممفه!»، ودغدغت أنفاسها كفَّه.

قال لها: «ولا صوت يا بيڤ». ثم أزال يده عنها.

بدت عيناها المُتَّسعتان تحتلّان وجهها كله، وأخذ فمها يرفت وهي تقول: «بيل... بيل، هل رأيت...»، وزاغت عيناها عائدة إلى الصرصور وتسمَّرتا عليه. بدا أن الصرصور يموت. حملقت فيها عيناه القميئتان، وفي التوِّ بدأت بيڤرلي تئِن.

قال لها جادًّا: «كُـ-كُـ-كُفي عن هذا. عودي إلى المائدة».

- «لا أستطيع يا بيلي، لا أستطيع الاقتراب من ذلك الـ...».

- «تستطيعين! يجب أن تستطيعي». سمع بيل صوت خطوات أقدام رشيقة وسريعة تقترب عبر الردهة القصيرة على الجهة الأخرى من الستائر المطرَّزة. نظر حوله إلى الآخرين: «الكلام لكم جميعًا! عودوا إلى الطاولة! تحدَّثوا! تصرَّفوا بطبيعية!».

نظرت بيڤرلي إليه بعينين ضارعتين، فهزَّ بيل رأسه. جلس بيل إلى كرسيه، وجذبه إلى المائدة، محاولًا عدم النظر إلى كعكة حظه الموضوعة في طبقه. كانت قد انتفخت تمامًا، وصارت كدمِّل غير معقول يمتلئ بالصديد، وكانت لا تزال تنبض ببطء دخولًا وخروجًا. فكَّر بيل سريعًا: كنت سأقضم ذلك الشيء.

دسَّ إدي البخَّاخ في فمه وأطلقه في حنجرته مُجدَّدًا، واستنشق الرذاذ بصوتٍ حادٍ رفيع.

سأل بيل مايك وهو يبتسم بجنون: «من تظنه سيفوز بالبطولة؟». دلفت روز عبر الستارة لحظتها، وتساؤلٌ مُهذَّب يلوح على وجهها. بطرف عينه، رأى بيل أن بيڤرلي قد جذبت نفسها إلى المائدة من جديد. فتاة مُطيعة.

قال مايك: «أظنُّ أن أداء شيكاجو بيرز يبدو جيِّدًا».

سألت روز: «هل كل شيءٍ على ما يُرام؟».

قال بيل: «تـ-تمامًا»، ثم أشار بإصبعه في اتِّجاه إدي، وأردف: «لقد داهمت أزمة الربو صديقنا وأخذ دواءه، لقد صار أفضل الآن».

نظرت روز إلى إدي باهتمام قَلِق.

همس إدي مُصفِرًا: «أفضلٌ».

- «هل ترغبون في رفع الأطباق الآن؟».

قال مايك: «بعد قليل». ثم عرض عليها ابتسامة كبيرة زائفة.

- «هل كان الطعام جيِّدًا؟». تفحَّصت عيناها المائدة من جديد، وقليلٌ من الشك يغشى بئرًا عميقة من الطمأنينة في صدرها. إنها لم ترَ الصرصور، ولا العين، ولا الأسنان، ولا الطريقة التي يبدو أن كعكة بيل تتنفَّس بها، وبالمثل، مرت عيناها على الدماء التي تُلطِّخ مفرش المائدة دون مشكلة.

قالت بيفرلي وهي تبتسم ابتسامة أكثر طبيعية من ابتسامتي كلٍ من بيل ومايك: «كل شيء كان جيِّدًا جدًّا»، وبدا أن ابتسامتها استطاعت إراحة عقل روز وإقناعه بأنه إذا كان أمرًا سيِّئًا قد جرى هنا، فهو ليس عيبًا في ضيافة روز أو في مطبخها. النساء تتمتَّع بجرأة كبيرة، هكذا فكَّر بيل.

سألت روز: «كعك الحظ كان جيِّدًا؟».

قال ريتشي: «حسنًا، أنا لا أعرف رأي الآخرين، لكن عن نفسي حصلت على واحدة تُسرُّ العين قبل الفم».

سمع بيل صوت تكسير، فخفض بصره إلى طبقه ورأى ساقًا طائشة تبرز من كعكة حظه. كانت تحتكُّ بالطبق.

فكَّر بيل ثانيةً: كنت سأقضم هذه، لكنه حافظ على ابتسامته، وقال: «رائع جدًّا».

كان ريتشي ينظر إلى طبق بيل. ثمَّة ذبابة عملاقة رمادية سوداء تحرِّر نفسها ببطء من بقايا كعكته المُتساقطة. أصدرت الحشرة طنينًا واهنًا، وتدفَّق سائلٌ مصفِر ببطء من الكعكة وتعجَّن على مفرش المائدة. فاحت رائحة كريهة الآن.. رائحة سميكة كرائحة جرحٍ مُتقيِّح.

- «حسنًا، إن كنت غير قادرة على خدمتكم في هذه اللحظة...».

قاطعها بن: «ليس الآن. كانت الوجبة رائعة، استثنائية تمامًا».

قالت روز: «سأغادركم الآن إذًا»، ثم انحنت خارجة عبر الستارة المُطرَّزة بالخرز. كانت حبيبات الخرز ما زالت تتأرجح وتصلصل عندما انتفض جميعهم متراجعين بعيدًا عن المائدة مُجدَّدًا.

سأل بن بصوتٍ أجش: «ما هذا؟»، وهو ينظر إلى الشيء في طبق بيل.

قال بيل: «ذبابة. ذبابة متطفِّرة. أظنُّها خارجة من قريحة كاتب يُدعى چورچ لانچلان. لقد كتب قِصَّة بعنوان 'الذبابة' وقد أُنتِج فيلمٌ مأخوذٌ عنها. لم يكن الفيلم رائعًا جدًّا، لكن القِصَّة أرعدت مفاصلي. لقد عاد الشَّيءُ إلى ألاعيبه القديمة. أنا أُفكِّر بأمر الذباب كثيرًا مؤخَّرًا، لأنني أخطط لكتابة رواية أُفكِّر في تسميتها 'طريق الحشرات'. أعلم أن الاسم يبدو سـ-سخيفًا جدًّا، لكن كما ترون...».

قالت بيڤرلي بصوتٍ مشوَّش: «اعذروني، أظنُّ أنني سأتقيأ».

ثم غادرت قبل أن يتمكَّن أيُّ الرجال من النهوض.

فرد بيل منديله وألقاه على الذبابة، التي كانت في حجم عصفور صغير. لا يُمكن لشيءٍ بهذا الحجم الخروج من كعكة حظ صينية صغيرة كهذه... لكنها خرجت. أصدرت الذبابة طنينًا مرَّتين أسفل المنديل، ثم صمتت.

قال إدي بوهن: «يا للمسيح!».

قال مايك: «لنخرج من هذا المكان اللعين حالًا. نستطيع لقاء بيڤرلي في الخارج».

خرجت بيڤرلي من حمَّام السيِّدات بينما هم يتجمَّعون عند ماكينة النقد. بدت شاحبة لكن رابطة الجأش. دفع مايك الفاتورة، ولثم روز على وجنتها، ثم خرجوا جميعًا بعدها إلى الظهيرة المطيرة في الخارج.

سألهم مايك: «هل ما حدث غيَّر رأيِ أحدكم؟».

قال بن: «لا أظنُّ أنه غيَّر رأيي».

وأجاب إدي: «لا».

وسأل ريتشي: «أيُّ أحد؟».

هزَّ بيل رأسه نافيًا ثم نظر إلى بيڤرلي.

قالت له: «ما زلت سأبقى. بيل، ماذا قصدت بأن الشَّيءَ عاد إلى ألاعيبه القديمة؟».

قال لها: «منذ فترة وأنا أُفكِّر في كتابة قِصَّة عن الحشرات. تلك القِصَّة التي كتبها لانچلان أظنُّ أنها عشَّشت في يافوخي. لهذا رأيت ذبابة. أنت رأيت دمًا يا بيڤرلي. لماذا تفكِّرين في الدماء؟».

قالت بيڤرلي فورًا: «بسبب الدماء التي خرجت من المجرور على ما أظنُّ. الدماء التي خرجت من بالوعة الحمام في منزلي القديم، عندما كنت في الحادية عشر». لكن هل هذه الحقيقة بالفعل؟ لم تكن تظن ذلك، لأن ما ومض في عقلها فورًا عندما سالت الدماء على أصابعها في تيَّارٍ دافئٍ صغير هي آثار الأقدام الدامية التي تركتها خلفها على الأرضية والبساط بعدما خطت على زجاجة العطر المكسورة. فكَّرت في توم و...

(بيڤي، أحيانًا أقلق عليكِ كثيرًا)

أبيها.

قال بيل لإدي: «لقد حصلت على حشرة بدورك. لماذا؟».

قال إدي: «ليست أيَّ حشرة. إنه صرصور. توجد صراصير كثيرة في قبو منزلنا. نمتلك منزلًا سعره مئتي ألف دولار ولا نستطيع التخلُّص من الصراصير. إنها تُثير جنونا ليلًا. لقد حلمت ذات يوم أنني استيقظت من نومي ووجدت الفراش يعج بالصراصير، وأخذت أحاولُ قتلها ببخَّاخي، لكن كل ما كان يصدر منه وأنا أضغط زناده هو صوت طقطقة فارغة، وقبل أن أستيقظ اكتشفت أنه يعج بالصراصير بدوره».

قال بن ناظِرًا إلى بيڤرلي: «لم ترَ المُضيفة أيًّا من هذا، كما لم يرَ أبواكِ الدماء التي تدفَّقت من البالوعة قط، رغم أنها كانت في كل مكان».

غمغمت بيڤرلي: «أجل».

وقف ستتهم ينظر أحدهم إلى الآخر أسفل رذاذ مطر الربيع الخفيف.

نظر مايك إلى ساعته وقال: «ستمر الحافلة بعد عشرين دقيقة تقريبًا، أو أستطيع إقلال أربعة منكم في سيَّارتي إذا حشرنا أنفسنا، أو يمكنني الاتصال ببعض سيارات التاكسي».

قال بيل: «أظنُّ أنني سأبدأ جولتي سيرًا من هنا. لا أعلم إلى أين سأذهب، لكن قليلًا من الهواء المُنعش يبدو فكرة رائعة الآن».

قال بن: «أما أنا فسأتَّصل بتاكسي».

قال ريتشي: «سآتي معك، إن كنت ستنزلني في وسط المدينة».

- «حسنًا، إلى أين أنت ذاهب؟».

هزَّ ريتشي كتفيه: «لست متأكِّدًا بعد».

ثم استقر رأي الباقين على انتظار الحافلة.

ذكَّرهم مايك: «السابعة مساءً الليلة، وليأخذ الجميعُ حذره».

وافقوا على أنهم سيأخذون حذرهم، رغم أن بيل لم يكن يعرف كيف يمكن أن تقطع مثل هذا الوعد عندما تتعامل مع مثل هذه المجموعة الكبيرة من العوامل المجهولة.

كان سيَهِمُّ بقول هذا لهم، ثم نظر في وجوههم ورأى أنهم يدركون الأمر بالفعل.

لذا سار مُبتعدًا بدلًا من هذا، ورفع إحدى يديه مودِّعًا. لامس الهواء الكثيف وجهه وأشعره بشعورٍ طيِّب. ستكون المسافة رجوعًا إلى البلدة طويلة، لكن لا ضير في هذا. إن لديه أمورًا كثيرة للتفكير فيها، وهو يشعر بسعادة لأن لمَّ الشَّملِ انتهى، وأن العمل قد بدأ.

الفصل الحادي عشر

جولات سيرًا

1

بن هانسكوم يستعير كتابًا

ترجَّل ريتشي توزيبه من التاكسي في تقاطع شوارع كانساس والأوسط والرئيس الثلاثي، ومن بعده ترجَّل بن أعلى تلّة أب-مايل. كان السائق هو «الرفيق المُتدين» الذي أقلَّ بيل، لكن لا ريتشي ولا بن علما بذلك: لقد سقط ديف في صمتٍ عابس في أثناء رحلته معهما. افترض بن أنه كان يمكن أن يترجَّل بصحبة ريتشي، لكن بدا له أنه من الأفضل أن يبدأ كلٌّ منهم الرحلة بمفرده.

وقف بن عند ناصية التقاء شارعي كانساس ودالتري، يراقب التاكسي وهو يغوص مُجدَّدًا في الزحام، ودسَّ يديه عميقًا في جيبي سراويله محاولًا إخراج خاتمة الغداء الشنيعة من عقله، لكنه لم يستطع فعل ذلك، ولم تنفك أفكاره عن العودة إلى تلك الذبابة الرمادية الداكنة التي خرجت من كعكة حظ بيل وزحفت على طبقه، وجناحاها المعروقان يلتصقان بجسدها. حاول بن إلهاء عقله وتشتيته لطرد هذه الصورة، وقد ظن أنه نجح، فقط ليكتشف بعد خمس دقائق أن عقله عاد إليه بجلاءٍ تام من جديد.

فكَّر بن: أنا أحاول تسويغها بطريقةٍ أو بأخرى؛ لم يكن يقصد ذلك من المعنى الشعوري، بل بالأحرى من المعنى المنطقي. تُشيَّد المباني عن طريق ملاحظة قوانين الطبيعة، وقوانين الطبيعة يمكن التعبير عنها في معادلاتٍ أنيقة، والمعادلات يجب أن تكون مسوَّغة. أين التسويغ في ما حدث منذ أقل من نصف الساعة؟

دع الأمر يمضي، هكذا أخبر نفسه للمرَّة العاشرة. لن تستطيع تسويغه، لذا دعه وشأنه.

كانت تلك نصيحة جيِّدة جدًا، المشكلة أنه غير قادر على تقبُّلها. تذكَّر بن ذلك اليوم الذي قابل فيه المومياء السائرة فوق سطح القناة المُتجمِّد، وكيف استمرَّت حياته بعدها بشكل طبيعي. لقد عَلِم أن أيًّا كان كنه هذا الذي رآه قد اقترب تمامًا من الإمساك به، لكن حياته استمرَّت بطبيعية بعد ذلك. ذهب إلى المدرسة، وأخذ اختبار الرياضيات، وزار المكتبة بعد انتهاء الدراسة، والتهم الطعام بشهيته المعتادة. لقد أدرج الشَّيءَ الذي رآه فوق البحيرة في نسيج حياته، رغم أنه كاد أن يُقتَل على يديه... فما الجديد هنا، الأطفال دائمًا على مشارف أن يقتلوا في كل لحظة. إنهم يهرعون عابرين الطرق دون أن ينظروا. إنهم يتوغَّلون في ماء البُحيرة ثم يدركون بعدها أنهم تجاوزوا العمق المناسب لأطوالهم بقواربهم المطَّاطية، وأنه يجب عليهم التجديف بقوَّة للعودة. إنهم يسقطون من قُضبان التعلُّق في الحدائق على مؤخِّراتهم، ومن فروع الأشجار على رؤوسهم.

الآن، بينما هو واقفٌ هنا أسفل رذاذ المطر الآخذ في التلاشي أمام متجر ترستوورثي للمُعدَّات، الذي كان مكتب رهنيات في عام 1958 (عاد بن بذهنه: مكتب الأخوان فارتي، كانت النوافذ السميكة تزدحم دائمًا بالمسدَّسات والبنادق والنصال والقيثارات المُعلَّقة من أعناقها كحيوانات غريبة)، والتمع في إدراكه فجأة أن الأطفال أبرع من الكبار في مسألة مُشارفة الموت، وأنهم أفضل أيضًا في دمج ما لا يُمكن تفسيره في حيواتهم الطبيعية. إنهم يؤمنون -ضمنيًّا- بالعالم الخفي، كما يأخذون المعجزات بكل أشكالها سواء الخيِّرة أو الشريرة منها في الاعتبار.. أوه أجل، بكل تأكيد، لكن هذا لا يعطِّل عالمهم بأيِّ حالٍ من الأحوال.. ولو حدث أن وقعت صدمة مُفاجئة -جميلة أو مُرعبة- لأيٍّ منهم في العاشرة صباحًا، فإن هذا لا يعوقه عن الاستمتاع بشطيرة أو شطيرتي هوت دوج بالجبن على الغداء في الثانية ظهرًا.

لكن عندما تكبر، يتغيَّر كل شيء. لم تعد تستلقي مُتيقِّظًا ليلًا في الفراش وأنت متيقِّن من أن ثمَّة شيئًا رابضًا في خزانتك أو يخمش زجاج نافذتك...

لكن عندما يقع أمرٌ بالفعل -أمرٌ يتجاوز التفكير العقلاني- تتلقَّى دوائرك العصبية ما يفوق احتمالها. تبدأ المحاور والتشعُبات في السخونة، ويبدأ جسدك في التوتُّر والاهتزاز. تفقد أعصابك، وترتجف، وتتدحرج. تبدأ مُخيلتك في التواثب والتلاعب بجهازك العصبي كما تشاء. لا تعد قادرًا على دمج ما حدث للتو في خبراتك الحياتية ببساطة. هذا اللا معقول يأبى الانسجام. عقلك لا ينفك عن الرجوع إلى الأمر، وغن تلمُّسه حذرًا كهرَّة تتلمَّس كرة من الصوف... ثم في النهاية -بالتأكيد- إما أن تفقد عقلك أو تذهب إلى مكانٍ يستحيل عليك التفكير فيه بمنطقية بعد الآن.

فكَّر بن: وإذا حدث ذلك، سيمسكُ الشَّيءُ بي.. بنا جميعًا.

بدأ في السير شمال شارع كانساس، لا يقصد مكانًا مُحدَّدًا، ثم وجد نفسه يُفكِّر فجأة: ماذا فعلنا بالدولار الفِضِّي؟

ما زال لم يتذكَّر.

الدولار الفِضِّي يا بن... لقد أنقذت بيفرلي حياتك به... وربُّما حياة الجميع... خاصةً بيل. لقد كاد الشَّيءُ أن يُمزِّق أحشائي قبل أن تقوم بيفرلي بـ... بماذا؟ ماذا فعلت؟ وكيف نجح الأمر؟ لقد جعلته يتراجع، وجميعنا ساعدها في ذلك. لكن كيف؟

جاءته لفظةٌ ما مجهولة فجأة. لفظة لا معنى لها على الإطلاق لكنها قلَّصت أحشاءه: تشود.

نظر بن إلى الرصيف، وللحظة شاهد هيئة سُلحفاة مرسومة بالطبشور عليه، وبدا له أن الكلمة تسبح أمام عينيه. أغلق بن عينيه بإحكام وعندما فتحهما لم يكن الشكل سُلحفاة، بل مُجرَّد مُستطيلات لعبة الحجلة التي أذابها ماء المطر.

تشود.

ما معنى ذلك؟

- «لا أعرف».

قالها بن بصوتٍ مسموع، وعندما نظر حوله ليرى إن كان أيُّ شخصٍ قد رآه وهو يكلِّم نفسه، لاحظ أنه انعطف خارجًا من شارع كانساس ودلف إلى

جادة كوستيلو. لقد أخبر الآخرين في أثناء الغداء أن البرِّية هي المكان الوحيد في ديري التي كان يشعر بالسعادة فيها وهو طفل، لكن ذلك لم يكن عين الصواب، أليس كذلك؟ ثمَّة مكانٌ آخر قريب إلى قلبه.. وها هو قد جاء إلى ذلك المكان الآخر إما مُصادفةً أو دون وعي منه: مكتبة ديري العامة.

وقف بن أمام المكتبة العامة نحو دقيقة أو دقيقتين، ويداه ما زالتا في جيبيه. إنها لم تتغيَّر، لقد أثارت تجاعيدها إعجابه الآن بقدر ما اعتادت أن تعجبه وهو طفل. مثل كثيرٍ من الأبنية الحجرية التي صُمِّمت جيِّدًا، ينجح مبنى المكتبة في إرباك العيون المُراقبة عن كثب بتناقضاته: إن متانة أحجارها الصلدة تعادلها بطريقةٍ ما رقَّة أقواسها وأعمدتها النحيفة. كانت تبدو آمنة كبنك مُترَّس جيِّدًا، وفي الوقت نفسه رشيقة وسرحة (حسنًا، كانت نحيفة مُقارنةً بمباني المدينة الأخرى، خاصةً تلك التي نُصِّبت في بداية القرن، أما نوافذها التي تتقاطع عليها شرائط حديدية رفيعة، فكانت رشيقة ومطوَّقة). تلك التناقضات استطاعت حمايتها من الاتِّصاف بالقبح، ولم يتعجَّب بن كثيرًا من موجة الحب التي اجتاحته تجاه هذا المكان.

لم تتغيَّر معالم جادة كوستيلو كثيرًا في الحقيقة. بالنظر حوله، استطاع بن رؤية بيت مجتمع ديري، ووجد نفسه يتساءل ما إذا كان سوق جادة كوستيلو ما زال موجودًا في مكانه حيث تعيد الجادة –نصف الدائرية– اتِّصالها بشارع كانساس.

سار بن عبر حديقة المكتبة –مُلاحظًا بالكاد أن حذائيه ابتُلَّا– ليلقي نظرة على الممرِّ الزجاجي الذي يصل مكتبة الكبار بمكتبة الأطفال. هذا بدوره لم يتغيَّر، ومن مكانه هنا، بالكاد خلف الفروع المُنحنية لشجرة الصفصاف المُندَّاة، استطاع رؤية الناس يروحون ويجيئون عبره. غمرته البهجة القديمة، واستطاع المشهد أن ينسيه بالفعل ما حدث في نهاية غداءِ لمِّ الشَّمل للمرَّة الأولى. تذكَّر مروره في تلك البقعة نفسها التي يقف فيها وهو صغير، فقط كان ذلك في الشتاء، وكان يشق طريقه عبر ثلوج يصل ارتفاعها إلى فخذيه تقريبًا، ثم الوقوف ما يقرب من خمس عشرة دقيقة. كان يأتي في الغسق، هكذا تذكَّر، وقد كانت التناقضات أيضًا ما جذبته وقتها إلى هنا وأبقت

عليه. يقف بأصابع خدَّرها الصقيع، وثلوج تذوب داخل حذائيه المطَّاطيين الخضراوين عاليا الرقبة. كان الظلام يستهل نشر عباءته الداكنة على العالم، الذي صار أرجوانيًّا مشوَّبًا بظلال أوائل الشتاء، وكانت السماء بلون الرماد في اتِّجاه الشرق، وتلتهب كالجمر ناحية الغرب. اعتاد أن يكون الجو باردًا حيث يقف الآن ويصل إلى تحت الصفر بعشر درجات تقريبًا أو أبرد من ذلك إن كانت الرياح تهب آتية من البرِّية المُجمَّدة، كما كانت تفعل دائمًا.

لكن هناك، على بُعد أقل من أربعين ياردة من مكانه حاليًا، يسير الناس جيئةً وذهابًا مُرتدين قُمصانًا فحسب. هناك، على بُعد أقل من أربعين ياردة من مكانه حاليًا، يوجد طريق أنبوبي يُنيره ضوءٌ أبيض ساطع، تُلقيه مصابيح الفلورسنت العالية. ثمَّة أطفال صغار يمرحون، وعُشَّاق يافعين مُتشابكي الأيدي (إذا رآهم أمين المكتبة، سينهرهم عن ذلك فورًا). كان الأمر ساحرًا بطريقةٍ ما، وكان أكثر سحرًا حين كان أصغر من أن يتعامل عقله مع الأمور الدنيوية كالطاقة الكهربائية وحرارة النفط. كان السحر هو تلك الأسطُوانة المتوهِّجة بالضوء والحياة التي تربط بين المبنيين المُعتمين كشريان حياة. كان السحر يكمن في مُراقبة أولئك الناس وهم يسيرون داخل الممرِّ الزجاجي وسط حقل الجليد المُظلم في الخارج دون أن يمسسهم ظلامٌ أو برودة. كان الممرَّ الزجاجي يجعل منهم قُرَّة أعين وأشباه آلهة.

في النهاية، يبدأ في السير (كما يفعل الآن) ويدور حول المبنى مُتَّجهًا صوب الباب الأمامي، لكنه كان دائمًا ما يتوقَّف وينظر خلفه (كما يفعل الآن) قبل أن يقطع عليه أحد أكتاف بناء مكتبة الكبار الحجري الضخم خط البصر إلى منتصف المبنى الأنيق.

صعد بن الدرجات التي تقود إلى مكتبة الكبار مُتلذِّذًا بشجن الحنين الممض الذي يُغلِّف قلبه، ثم توقَّف بُرهة في الردهة الضيِّقة العالية التي تتوسَّط الأعمدة العملاقة، الباردة دائمًا بغض النظر عن سخونة اليوم، ثم جذب الباب المُدعَّم بالحديد والمزوَّد بفتحة لإعادة الكُتُب المستعارة في أيِّ وقت، ودلف إلى الهدوء الصامت في الداخل.

أصابته قوَّة الذكرى بدوار تقريبًا استمرَّ لحظات بينما كان يخطو إلى

حيث الضوء الناعم المُنبعث من المصابيح الدائرية المُدلَّاة. لم تكن الصدمة جسدية، كضربة في الفك أو صفعة، بل أقرب إلى ذلك الإحساس الغريب بأن الزمن يعيد نفسه وأنك شاهدت هذا الموقف من قبل، ذلك الشعور الذي يدعوه الناس الباحثون عن مُصطلح جيِّد: ديچا-ڤو. لقد اختبر بن ذلك الشعور كثيرًا من قبل، لكنه لم يضربه بمثل هذه القوَّة المُربكة قط. للحظة، ظل بن واقفًا في المدخل، شاعرًا بأنه تائهٌ في الزمن حرفيًّا، وغير واثق من سِنِّه تمامًا. أهو في الثامنة والثلاثين أم الحادية عشرة؟

ها هي التمتمة الهادئة ذاتها التي لا يقطعها سوى همسٌ عابر، والدبيب الخافت لأمناء المكتبة وهم يختمون الكتب أو إنذارات التأخُّر، والرفرفة المكتومة للجرائد والمجلَّات التي تُقلب صفحاتها. لقد وقع في غرام إضاءة المكان الآن بقدر ما وقع في غرامها وقتها، تلك المنسالة في خطوطٍ مائلة عبر النوافذ العالية... وفي عصر هذا اليوم المطير الغائم، حيث تبدو النوافذ رمادية كأجنحة الحمام، كان الضوء ناعسًا ومُخدِّرًا على نحوٍ ما.

سار عابرًا أرضية الطابق الواسع الذي بهت لون المشمَّع الذي يكسيه بنمطه المُتداخل من مُربَّعاتٍ حمراء وسوداء بالكامل تقريبًا، محاولًا الإبقاء على خطواته خافته كما اعتاد أن يفعل فيما مضى. إن سقف مكتبة الكبار مُقبَّب، ما كان يُضخِّم جميع الأصوات.

لاحظ بن أن السُّلَّمين الحديديين الحلزونيين اللذين يقودان إلى الطابق الثاني ما زالا في مكانيهما، واحدًا على كل جانب من مكتب الاستقبال الذي يأخذ هيئة حدوة حصان، لكنه أيضًا رأى مِصعدًا صغيرًا أُضيف في مرحلةٍ ما خلال الأعوام الخمسة وعشرين التي تلت رحيله وأمه من البلدة. كان هذا أمرًا مُريحًا نوعًا، لقد دقَّ وتدًا في شعور الديچا-ڤو الخانق هذا.

شعر بأنه مُتطفِّلٌ وهو يعبر طرقة الطابق الواسع، كأنه يتجسس لصالح بلدٍ آخر، وظل يتوقَّع أن ترفع أمينة المكتبة الجالسة إلى المكتب رأسها وتنظر إليه، ثم تنادي عليه في تحدٍ عالي النبرات سيُشتِّت انتباه كل قارئ ويوجِّه جميع الأعين إليه: «أنت! أجل أنت! ماذا تفعل هنا؟ لا شأنٌ لك هنا! أنت غريب! أنت من الماضي! عُد من حيث جئت! عُد أدراجك الآن قبل أن أتَّصل بالشُّرطة!».

وقد رفعت أمينة المكتبة رأسها بالفعل. كانت فتاة يافعة جميلة، وللحظة سخيفة عابرة بدا لبن أن خياله سيتحقَّق بالفعل، وقفز قلبه في حلقه عندما لمست عيناها الزرقاوان عينيه، قبل أن تشيح بهما غير مُبالية، وشعر بن أنه استعاد القدرة على الكلام من جديد. إذا كان جسوسًا، فهو لم يُكشف.

عبر من أسفل إحدى درجات السُلَّم الضيقة -الانتحارية تقريبًا- المصنوعة من الحديد المطاوع وهو في طريقه إلى الممرِّ الذي يقود إلى مكتبة الأطفال، وقد سرَّه أن لاحظ (فقط بعد أن فعلها) أنه فعل تصرُّفًا عفويًّا آخر من تصرُّفات طفولته. لقد نظر إلى أعلى آملًا -كما كان يأمل وهو طفل- أن يرى فتاة بتنورة قصيرة تهبط هذه الدرجات، واستطاع أن يتذكَّر -الآن استطاع أن يتذكَّر- وهو ينظر إلى أعلى بلا سببٍ واضح ذلك اليوم عندما كان في الثامنة أو التاسعة عندما نظر عبر تنورة قُطنية ترتديها فتاة جميلة في المرحلة الثانوية، وكيف تمكَّن من رؤية لباسها الداخلي الوردي النظيف.. ومثلما أطلق لمعان سوار كاحل بيڤرلي مارش المُشمِس المُفاجِئ سهمًا أكثر بدائية من أن يكون حُبًّا أو حتَّى عاطفة بسيطة إلى قلبه في ذلك اليوم الأخير من المدرسة عام 1958، كذا فعل به مرأى اللباس الوردي لتلك الفتاة. استطاع تذكُّر جلوسه إلى المنضدة في مكتبة الأطفال والتفكير في ذلك المشهد غير المُتوقَّع نحو عشرين دقيقة بوجنتين ساخنتين وجبهة مُشتعلة، فيما يقبع أمامه كتاب مفتوح عن تاريخ القطارات لم يقرأ منه حرفًا، وقضيبه الصغير يبرز كفرع شجرةٍ صلب ضئيل في سراويله غارسًا نفسه عميقًا في بطنه المُتدلي. لقد سرح بخياله أنهما تزوَّجها، وأنهما يعيشان في منزلٍ هادئ على أطراف المدينة، وينهلان من ملذَّاتٍ لم يكن يفهم من طبيعتها شيئًا.

ثم انتهت هذه الأحاسيس فجأة كما بدأت تقريبًا، لكنه من حينها لم يعبر أسفل ذلك السُلَّم الحديدي من دون أن ينظر إلى أعلى. لم ير بن مشهدًا آخر مُثيرًا أو مؤثِّرًا على الإطلاق (ذات يوم كانت امرأة بدينة تشق طريقها نزولًا بحرصٍ بالغ، لكنه أشاح ببصره بعيدًا عن ذلك المشهد، شاعرًا بالخزي، كأنه مُنتهكٍ)، لكن العادة لازمته... وقد فعلها الآن، وهو كبير.

سار بن ببطء على امتداد الممرِّ الزجاجي، مُلاحظًا الآن تغيُّرات أخرى

طرأت: وُضِعت مُلصقات صفراء تقول مُنظَّمة الأوبك تُحبُ هدرك للطاقة، لذا اقتصد قدر استطاعتك! على ألواح مفاتيح المصابيح. عندما دلف إلى هذا العالم الذي انكمش عليه، المكوَّن من مناضد ومقاعد خشبية فاتحة، هذا العالم الذي لا يعلو ارتفاع نافورة مياه الشُرب فيه أربعة أقدام، لم تكن الإطارات المُعلَّقة على الحائط البعيد تعرض صورًا لدوايت أيزنهاور أو ريتشارد نيكسون، وإنما لرونالد ريجان وچورچ بوش. تداعى إلى عقل بن أن ريجان كان مُقدِّم برنامج مسرح چنرال إليكترك في العام الذي أنهى فيه بن عامه الدراسي الخامس، وأن چورچ بوش لم يكن يبلغ ثلاثين عامًا بعد.

لكن...

اجتاحه شعور الديچا-ڤو من جديد. كان عاجزًا أمامه، وهذه المرَّة استشعر الذُعر الخادر لرجُلٍ يدرك أخيرًا بعد نصف ساعة من السباحة اليائسة غير المُجدية أن الشاطئ لا يقترب بأيٍّ حال وأنه يغرق.

كان قد أتى في ساعة القِصَّة... وهناك، في الرُكن، التفَّ جمعٌ صغير قوامه نحو اثني عشر طفلًا صغيرًا يجلسون في مقاعدهم الصغيرة مُهذَّبين في نصف دائرة، وينصتون. كانت أمينة المكتبة تقول بصوت القزم العميق الخفيض في القِصَّة: «من ذا الذي يسير على جسري؟»، وفكَّر بن: عندما ترفع يدها سأرى أنها مسز ديڤيس، أجل، ستكون مسز ديڤيس ولن تكون قد شاخت يومًا واحدًا...

لكن عندما رفعت رأسها، رأى بن أنها امرأة أصغر بكثير عمَّا كانت مسز ديڤيس وقتها.

بعض الأطفال غطوا أفواههم وضحكوا، بينما آخرون راقبوها في صمتٍ فحسب، وفي عيونهم المُتَّسعة ينعكس السحر الأبدي للقِصَّة الخيالية: هل سيُدحر الوحش... أم سيحظى بفريستهِ؟

واصلت أمينة المكتبة سردها: «هذا أنا ماعز جراف، أسير على جسرك»، فيما كان بن يمر من جوارها شاحبًا.

كيف يُعقل أنها تسرد القِصَّة نفسها؟ تلك القِصَّة بعينها؟ أمن المُفترض عليّ تصديق أن هذه مُصادفة؟ لأنني لا أُصدِّق ذلك... اللعنة، أنا لا أُصدِّق ذلك!

مال فوق نافورة مياه الشُرب، ووجد نفسه ينحني كثيرًا إلى أسفل كما كان ريتشي يفعل وهو يؤدي أحد فروض الطاعة الولاء الهاذرة التي اعتاد تقديمها.

فكَّر بن مذعورًا: يجب أن أتحدَّث إلى أحدهم. مايك... بيل... أيُّ شخص. أيوجد في هذه المدينة ما يُدبِّس الماضي بالحاضر معًا، أم أنني أتوهَّم؟ لأنني إن لم أكن واهمًا، فلا أظنُّ أنني اتفقت على كل ذلك. أنا...

نظر بن إلى مكتب الاستقبال، وشعر أن قلبه أفلت نبضة وتوقَّف لحظةً قبل أن يعاود النبض بضعف سُرعته. كان المُلصق المُعلَّق فوق المكتب بسيطًا، وصارمًا... ومألوفًا... ويقول ببساطة:

تذكَّروا حظر التجوُّل في السابعة مساءً

دائرة شُرطة ديري.

في تلك اللحظة بدا أن كل شيء جاء جليًّا إلى عقله، جاءه في ومضة رهيبة من الضوء، وأدرك أن التصويت الذي صوَّتوه لم يكن يعدو مُجرَّد مُزحة. لا سبيل لهم للتراجع، لا يوجد ولم يوجد قط. إنهم على مسارٍ محتوم كمسار الذاكرة الذي جعله ينظر إلى أعلى عندما مرَّ أسفل السُلَّم الحديدي الذي يقود إلى أكوام الكتب في الطابق الثاني. ثمَّة رجع صدى هنا في ديري، رجع صدى قاتل، وكل ما يُمكنهم أن يأملوه هو أن ذلك الرجع قد يتغيَّر بما فيه الكفاية إلى صالحهم كي يتمكَّنوا من الفرار بحياتهم.

غمغم بن: «يا للمسيح»، مُمسكًا إحدى وجنتيه بكفِّه.. بقوَّة.

– «أيُمكنني مساعدتك يا سيدي؟». هكذا سأل صوتٌ من جانبه، فانتفض مذعورًا قليلًا. كانت فتاة في السابعة عشرة تقريبًا، وكان شعرها الأشقر الداكن مُبعدًا عن وجهها اليافع الجميل بمشابك شعر. إنها مُساعدة المكتبة بالتأكيد: كانوا موجودين في عام 1958 أيضًا، أولاد وبنات في المدرسة الثانوية يساعدون في أرشفة الكتب، ويعلِّمون الأطفال كيف يستخدمون بطاقاتهم، ويناقشون تقارير الكتب والبحوث المدرسية، ويساعدون الطُلَّاب الحائرين في كتابة الحواشي وإعداد قوائم المراجع. كانت الرواتب زهيدة، لكن دائمًا يوجد فتيان يقبلون بالعمل، فالوظيفة مقبولة.

في أعقاب ذلك، تذكَّر بن وهو يقرأ نظرة الفتاة الدمثة المُتسائلة عن كتب

أنه لم يعد يتنمي إلى هنا. إنه عملاق في أرض الأقزام. دخيل. لقد شعر في مكتبة الكبار بالتوتُّر من أن يلاحظه أحدهم أو يتحدَّث إليه، لكن هذا الذي حدث الآن أمرٌ مُريح نسبيًا. على الأقل لقد أثبت له أنه ما زال كبيرًا، وحقيقة أن الفتاة لا ترتدي سوتيانًا أسفل بلوزتها ذات الطراز الغربي كانت مُريحة أكثر منها مُثيرة: إذا كانت ثمَّة حاجة إلى إثبات أن هذا هو العام 1985 لا 1958، فإن رسمة حلمتيها البارزتين المطبوعة على بلوزتها القطنية هي ذلك الإثبات.

قال لها: «لا، أشكرك»، ثم لسببٍ ما لم يستطع فهمه، سمع نفسه يضيف: «كنت أبحث عن ابني».

ابتسمت الفتاة قائلة: «أوه، حقًّا؟ ما اسمه؟ رُبَّما أكون قد رأيته. أنا أعرف كل الأطفال تقريبًا».

قال له: «اسمه بن هانسكوم، لكنني لا أره هنا».

- «اخبرني كيف يبدو وسأوصل له رسالتك، إن كانت لديك واحدة».

قال بن الآن وقد بدأ يشعر بانزعاج ويندم على بدءه لهذا الحوار: «حسنًا، إنه قوي البنية، ويشبهني قليلًا. لكن الأمر ليس بهذه الأهمية يا آنسة. إذا رأيتيه، فقط أخبريه أن أباه مرَّ على المكتبة في طريقه إلى المنزل».

- «سأفعل». هكذا قالت وهي تبتسم، لكن الابتسامة لم تبلغ عينيها، وأدرك بن فجأة أنها لم تأتِ وتتحدَّث إليه رغبةً في المساعدة أو بداعي الكياسة. إنها مُساعدة مكتبة أطفال في مدينة ذُبِح فيها تسعة أطفال على مدار ثمانية أشهر. عندما ترى رجُلًا غريبًا في ذلك العالم المُصغَّر حيث يأتي الكبار بشكلٍ نادرٍ جدًّا لتوصيل أطفالهم أو اصطحابهم، فأنت ترتاب.. بالتأكيد.

قال لها: «شكرًا لكِ»، وابتسم لها ابتسامة تمنَّى أن تكون مُطمئنة، ثم فر من المكان كفراره من الجحيم.

سار بن عائدًا عبر المعبر إلى مكتبة الكبار، واتَّجه إلى المكتب وفقًا لدافع لم يفهمه... لكن ألا يُفترض منهم اتِّباع دوافعهم عصر هذا اليوم؟ اتِّباع دوافعهم ليروا إلى أين ستقودهم؟

أوضحت لوحة الاسم على مكتب الاستقبال أن أمينة المكتبة اليافعة

الجميلة التي تجلس خلفها تدعى كارول دانر. خلفها، استطاع بن رؤية باب عليه لوحة اسم زجاجية تقول مايكل هانلون، رئيس أمناء المكتبة.

سألته الآنسة دانر: «هل أستطيع مُساعدتك؟».

قال بن: «أظنُّ ذلك. حسنًا، في الحقيقة أريد الحصول على بطاقة استعارة».

قالت له وهي تُخرج استمارة من الدرج: «هل تقطن في ديري؟».

– «ليس حاليًا».

– «عنوان المنزل إذًا؟».

– «رورال ستار، الطريق 2، هيمينجفورد هوم، نبراسكا»، ثم توقَّف قليلًا مستمتعًا بنظرتها، ثم تلى عليها الرمز البريدي: «54341».

– «أهذه مُزحة يا سيِّد هانسكوم؟».

– «لا، على الإطلاق».

– «هل تنوي الانتقال إلى ديري إذًا؟».

– «لا، لا أخطط لذلك».

– «إنه لطريقٌ طويل لاستعارة الكُتُب، أليس كذلك؟ ألا توجد لديكم مكتبات في نبراسكا».

قال بن لها: «الأمر وجداني نوعًا ما». كان بن يظن أن إخبار شخص غريب بهذا سيكون أمرًا مُحرجًا، لكنه لم يجده كذلك. «لقد نشأت في ديري. هذه المرَّة الأولى التي أعود فيها إليها منذ أن كنت طفلًا. كنت أتجوَّل في المدينة منذ قليل، وأشاهد ما الذي تغيَّر وما الذي بقيَ على حاله. ثم أدركت فجأة أنني أمضيت نحو عشر سنوات من حياتي بين سن الثالثة والثالثة عشرة هنا، وأنني لا أمتلك أيَّ شيءٍ لأتذكَّر به تلك السنوات، ولا حتَّى شيء زهيد كبطاقة بريدية. كانت لديَّ دولارات فِضِّية لكنني فقدت إحداها وأعطيت بقيتها إلى صديق. أظنُّ أنني أرغب في تذكار لفترة صباي. أعرف أن الأمر جاء مُتأخِّرًا، لكن ألا يقولون أن تأتي مُتأخِّرًا خيرٌ من ألا تأتي أبدًا؟».

ابتسمت كارول دانر، وقد حوَّلت الابتسامة وجهها الجميل إلى وجهٍ صبوح تمامًا، ثم قالت: «هذا تفكير شديد العذوبة. إذا رغبت يمكنك أن

تتجوَّل في المكتبة نحو عشر أو خمس عشرة دقيقة، وسأكون قد جهَّزت لك البطاقة عند عودتك إلى المكتب».

ابتسم بيل قائلًا: «أظنُّ أنه توجد رسوم، بما أنني من خارج البلدة وهذه الأمور».

– «هل كانت لديك بطاقة عندما كنت طفلًا؟».

ابتسم بن قائلًا: «بالتأكيد. بخلاف أصدقائي، أظنُّ أن بطاقة الاستعارة كانت أكثر شيءٍ هام...».

– «بن، هلا أتيت إلى هنا؟». هكذا ناداه صوتٌ مُرتفعٌ فجأة، قاطعًا صمت المكتبة الهادئ كمشرط.

التفت بيل مُنتفضًا في خجل كما يفعل الناس أحيانًا عندما يصيح شخصٌ ما داخل جنبات مكتبة. لم ير شخصًا يعرفه... ثم أدرك بعدها بلحظة أن أيًّا من القُرَّاء لم يرفع رأسه أو يُبدي أدنى علامة دهشة أو انزعاج. ما زال الرجال المُسنُّون يقرأون نُسخهم من صُحُف أخبار ديري، وبوسطون جلوب، وناشيونال چيوجرافيك، والتايم، والنيوزويك، ويو إس نيوز أند ورلد ريبورت، وفي غُرفة المراجع، ما زالت فتاتان في المرحلة الثانوية تنكبَّان فوق كومة من الأوراق وبطاقات الملفَّات، وواصل كثيرٌ من المُطَّلعين مسح عناوين الكتب على الرفوف التي تحمل لافتة أدب حديث: استعارة أسبوع. ثمَّة رجل يرتدي قُبَّعة قيادة سخيفة، ويمسك بغليون بلا تبغ بين أسنانه، لم ينفك عن تصفُّح مجموعة من رسومات لويس دي فارجس.

عاد بن إلى المرأة الشابة التي كانت تنظر إليه في حيرة.

– «هل ثمَّة خطبٌ ما؟».

قال بن مُبتسمًا: «لا، ظننت أنني سمعت شيئًا. أعتقد أنني أعاني اختلال اختلاف التوقيت أكثر ممَّا اعتقدت. ماذا كنت تقولين؟».

– «حسنًا، أنت من كنت تتكلم، لكنني كنت على وشك إضافة أنه إذا كنت تملك بطاقة عندما كنت مواطنًا في ديري، فسيكون اسمك مُدرجًا في السجلات. نحن نحتفظ بكل شيءٍ على شرائح مجهرية الآن. هذا أحد الأشياء التي تغيَّرت منذ صباك هنا، حسبما أظنُّ».

قال لها: «أجل. أشياء كثيرة تغيَّرت في ديري... لكن أشياء أخرى ظلَّت على حالها».

- «على أيِّ حال، أستطيع البحث عن اسمك وأجدِّد لك البطاقة، من دون رسوم».

قال بن: «هذا رائع»، لكن قبل أن يضيف أشكرك إلى عبارته، شق الصوت صمت المكتبة المُقدَّس مرَّة ثانية، بنبرة أعلى الآن، ومرح خبيث مشؤوم: «اصعد إلى هنا يا بن! اصعد إلى هنا أيُّها الصغير البدين اللَّعين! تلك حياتك يا بن هانسكوم».

أزال بن الحشرجة من صوته وقال: «ممنون جدًّا».

- «هذا لا شيء»، ثم أمالت رأسها وسألته: «هل حرارة الجو بدأت في الارتفاع في الخارج؟».

قال لها: «قليلًا. لِمَ تسألين؟».

- «إنك...».

صرخ الصوت: «بن هانسكوم فعلها!». كان يأتي من الأعلى، من رفوف الكُتب العلوية. «بن هانسكوم قتل الأطفال! اضبطوه! أمسكوه!».

- «... تتفصَّد عرقًا». أنهت عباراتها.

قال بن ببلاهة: «حقًّا؟».

قالت له: «سأجهِّز لك البطاقة حالًا».

- «أشكرك».

اتَّجهت الشابة إلى الآلة الكاتبة القديمة طراز أولد رويال الموضوعة في ركن المكتب.

سار بن مُبتعدًا ببطء، وقلبه يخفق بين ضلوعه. أجل، إنه يتفصَّد عرقًا، يستطيع أن يشعر بالقطرات تنسال على جبهته، وأسفل إبطيه، وتُلبِّد شعر صدره. نظر بن إلى أعلى وشاهد المُهرِّج بيني وايز يقف على قمَّة السُلَّم الأيسر وينظر إليه، وجهه أبيض بفعل الطلاء، وخطوط أحمر الشفاه تمتدُّ من طرفي فمه راسمة ابتسامة مُميتة، ومكان عينيه يوجد محجران فارغان. كان يحمل حفنة بالونات في يدٍ، وكتاب في اليد الأخرى.

فكَّر بن: إنه الشَّيء. ها أنا ذا في منتصف قاعة مكتبة ديري العامة المُستديرة في أواخر ربيع عام 1985، وأنا كبير، وها أنا ألتقي وجهًا لوجه بأشنع كوابيس طفولتي. إنني أقف وجهًا لوجه أمام الشَّيء.

هتف بيني وايز: «هلم يا بن، اصعد. لن أؤذيك. إن معي كتابٌ لك. كتابٌ... وبالونة! اصعد!».

فتح بن فمه ليرد. لا بُدَّ أنك مخبول تمامًا لتُفكِّر أنني قد أصعد إليك، ثم أدرك فجأة أنه لو فعل ذلك، فسينظر إليه جميع من بالمكان، وسيسأل الجميع أنفسهم: من ذلك المجنون؟

صاح به بيني وايز وهو يضحك: «أوه، أعلم أنك لا تستطيع إجابتي. لكنني كدت أخدعك تقريبًا رغم ذلك، أليس كذلك؟ 'عفوًا يا سيدي، ألديك تُفَّاحٌ أخضر؟... أجل موجود؟ إذًا من الأفضل أن تتركه ينضج!'، 'عفوًا يا سيِّدتي، هل يجري العُمر بك؟... أيفعل؟ من الأفضل أن تجري وراءه!'».

أنهى المُهرِّج نكاته وضحكة ضحكة عالية مُجلجلة تردَّد صداها عبر قُبَّة القاعة المُستديرة كسربٍ من وطاويط سوداء، وبجهدٍ جهيد نجح بن في ألا يضع يديه على أذنيه اتِّقاءً لشناعتها.

نادى عليه بيني وايز: «اصعد يا بن. سنتحدَّث فحسب. هذه أرضٌ مُحايدة. ما قولك؟».

فكَّر بن: لن أصعد. عندما سآتي إليك في النهاية أظنُّ أنك لن ترغب في رؤيتي، سوف نقتلك.

ضج المُهرِّج بالضحك من جديد: «تقتلوني؟ تقتلوني؟». ثم فجأة، وبطريقة مُريعة، صار صوته كريتشي توزييه. لم يكن صوته بالضبط، وإنما الصوت الذي ينطق به ريتشي عندما يتقمَّص شخصية الخادم الزنجي الصغير: «لا تقتلني يا سيِّدي، سأكون زنجيًّا مُهذَّبًا. لا تقتل الغلام الأسود هذا العام يا كومة القش!»، ثم جلجلت تلك الضحكة العاوية من جديد.

مُرتجفًا، كاسف الوجه، سار بن عبر قاعة مكتبة الكبار التي تضج بأصداء الضحكات. شعر أنه على وشك التقيُّؤ، ثم وقف أمام أحد الرفوف، والتقط كتابًا بشكل عشوائي بيدٍ مُرتعشة، وراحت أصابعه الباردة تُقلِّب الصفحات.

نادى الصوت من أعلى: «هذه فرصتك الأخيرة يا كومة القش! ارحل عن المدينة. ارحل عن المدينة قبل أن يحل الظلام الليلة. لن أتركك الليلة... أنت والآخرين. أنتم أكبر من أن تتمكَّنوا من إيقافي يا بن. جميعكم شاخ.. شاخ على فعل أيِّ شيءٍ باستثناء قتل أنفسكم. ارحل يا بن. هل تريد رؤية هذا الليلة؟».

استدار بن ببطء وهو ما زال ممسكًا بالكتاب بيدين مُثلَّجتين. لم يكن راغبًا في النظر، لكن بدا أن ثمَّة يدًا خفية أسفل ذقنه، تُحرِّكها إلى أعلى وأعلى وأعلى.

كان المُهرِّج قد رحل، وفي مكانه أعلى السُلَّم الأيسر وقف دراكيولا... لكنه لم يكن دراكيولا الذي يظهر في الأفلام. لم يكن يُشبه بيلا لوجوسي أو كريستوفر لي أو فرانك لانجلا أو فرانسيس ليديرر أو ريچي نالدر. ما وقف هناك كان مزيجٌ من رجُلٍ وكائن عتيق كأنه جذرٌ مُلتوٍ. كان وجهه شاحبًا كالموتى، وعيناه حمراوان أرجوانيتين بلون الدماء المُتخثِّرة، ثم انفتح فمه كاشفًا عن أسنانٍ حادة كأمواسٍ مغروسة عميقًا في اللثة بزوايا غير منتظمة. كان النظر كالنظر في متاهة مرايا قاتلة، حيث خطوة واحدة خاطئة يمكنها أن تقطعك إلى نصفين.

صرخ المخلوق: «كـــــــي-رانـــــــــــش!»، ثم أغلق فكَّاه بقوَّة. تدفَّقت الدماء من فمه في فيضٍ أحمر قانٍ. أجزاء من شفتيه المُمزَّقتين سقطت على قميصه الحريري الأبيض وانزلقت عليه تاركة خيطًا من الدماء وراءها.

- «ماذا رأى ستان يوريس قبل أن يموت؟»، هكذا صرخ مصَّاص الدماء فيه، وهو يضحك عميقًا من فتحة فمه الدامية: «أهو الأمير ألبرت، أم ديڤي كروكيت، ملك الحدود البرِّية؟ ماذا رأى يا بن؟ وهل تريد رؤيته أنت أيضًا؟ ماذا رأى؟ ماذا رأى؟». ثم تردَّدت تلك الضحكة العاوية ثانيةً، وتأكَّد بن أنه سيصرخ الآن، أجل، لا مجال لوقف الصرخة، ستفلت منه بالتأكيد. كانت الدماء تسيل على درجات السُلَّم في شلالٍ رهيب. سقطت قطرات منها على يدٍ معرورقة لرجلٍ عجوز يقرأ جريدة وول ستريت. كانت تجري الآن بين مفاصل أصابعه، خفية وغير محسوسة.

أخذ بيل نفسًا عميقًا، واثقًا من أن الصرخة ستتبعه، وستكون مروِّعة في صمت عصر هذا اليوم الربيعي الهادئ المُشبَّع برذاذ المطر، صادمة كقطع سكينٍ... أو فمٍ مليءٍ بنصال الأمواس الحادة.

لكن بدلًا من الصراخ، خرجت من فمه كانت الكلمات التالية مُرتعشة وسريعة ومنطوقة بصوتٍ هامس كأنها ابتهالٍ أو تضرُّع: «بالتأكيد، لقد صنعنا منه كُرية معدنيَّة. لقد حوَّلنا الدولار الفِضِّي إلى قذيفة فِضِّية».

نظر الرَّجُل المُهذّب ذو قُبَّعة القيادة الذي كان يتصفَّح رسومات لويس دي فارجس إلى أعلى بحدَّة وقال: «هُراء». الآن رفع الناس أبصارهم، وصاح أحدهم منزعجًا «ششششش!» في الرَّجُل العجوز.

– «معذرة»، هكذا قال بن في صوتٍ خفيضٍ مُرتجف. كان يعي بالكاد أن العرق الآن يسيل على وجهه بكثافة، وأن قميصه يلتصق بجسده. «كنت أُفكِّر بصوتٍ مرتفع...».

كرَّر الرَّجُل العجوز بصوتٍ أعلى هذه المرَّة: «هُراء. لا يمكن صنع رصاصة فِضِّية من دولارٍ فِضِّي. هذا خطأٌ شائع، محض خيال، المشكلة أنه مع جاذبية مُعيَّنة...».

جاءت الآنسة دانر إليهما وقالت: «سيِّد بروكهيل، يجب أن تخفض صوتك. الناس تقرأ...».

قاطعها بروكهيل فجأة: «الرَّجُل مريض. اعطيه مُسكِّنًا يا كارول»، ثم عاد إلى كتابه.

نظرت كارول دانر إلى بن بوجهٍ يعتريه قلقٌ حادٌ، وقالت: «هل أنت مريض يا سيِّد هانسكوم؟ أعلم أنه ليس من اللائق قول هذا، لكنك تبدو بحالة سيِّئة».

قال بن: «لقد... لقد أكلت طعامًا صينيًّا على الغداء، ولا أظنُّه يتواءم مع معدتي».

– «إذا رغبت في الاستلقاء قليلًا، يوجد سرير نقَّال في مكتب السيِّد هانلون. يمكنك...».

– «لا. أشكرك. لكنني لا أرغب». ما كان يريده ليس الاستلقاء، وإنما الفرار من المكتبة في الحال فراره من الجحيم. نظر بن إلى أعلى نحو السُلَّم.

كان المُهرِّج قد اختفى، وكذا مصَّاص الدماء اختفى، لكن ثمَّة بالونة مربوطة إلى الدرابزين الحديدي الذي يحيط بالبسطة، وعلى جلدها المطاطي المُنتفخ كُتِبَ: احظ بيومٍ طيِّب! فالليلة تموت!

قالت كارول وهي تضع يدًا متردِّدة على ذراعه: «لقد انتهيت من بطاقة الاستعارة، أما زلت راغبًا فيها؟».

قال بن: «أجل. أشكرك»، ثم سحب نفسًا عميقًا متهدِّجًا: «أنا آسف جدا حيال ذلك».

قالت له: «آمُل فقط ألا يكون تسمُّمًا غذائيًّا».

قال السيِّد بروكهيل دون أن يرفع بصره عن لوحات لويس دي فارجس، أو يزيل غليونه الخامد من ركن فمه: «تلك صنيعة خيالية. أمرٌ محكوم عليه بالفشل. الرصاصة سوف تتداعى».

قال بن مُتحدِّثًا مرَّةً أخرى دون معرفة مُسبقة أنه كان سيتحدَّث: «قذيفة وليست رصاصة. لقد أدركنا على الفور أننا لن نستطيع صنع رصاصة. أعني، لقد كنا مُجرَّد أطفالٍ. كانت هذه فكرتي...».

– «ششش!». هكذا قال أحدهم مُجدَّدًا.

نظر بروكهيل إلى بن نظرة مندهشة قليلًا، وبدا أنه على وشك التحدُّث، ثم عاد إلى كتاب اللوحات.

عند المكتب، ناولت كارول دانر بن بطاقة برتقالية صغيرة عليها ختم مكتبة ديري العامة. أخذها بن مُرتبكًا، وأدرك أنها أوَّل بطاقة استعارة مكتبية يحصل عليها في حياته وهو كبير. كانت البطاقة التي حصل عليها في صغره صفراء بلون الكاناريا.

– «هل أنت واثق من أنك لا تحتاج بعض الراحة يا سيِّد هانسكوم؟».

– «أشعر بتحسُّن.. أشكرك».

– «متأكِّد؟».

نجح بن في أن يبتسم: «أجل، متأكِّد».

– «تبدو أفضل نوعًا ما بالفعل». هكذا قالت كارول، لكنها قالتها بارتيابٍ

بعض الشيء، كأنها أدركت أن تلك هي الكلمات المُناسبة التي يجب أن تُقال، لكنها لم تكن تُصدِّقها حقًّا.

كانت تمسك بكتاب أسفل أداة الميكروفيلم التي يستخدمونها هذه الأيَّام لتسجيل الكتب المستعارة، وشعر بن بنفحة من الاستمتاع الهِستيري. هذا الكتاب الذي أخذته من الرَّف عندما بدأ المُهرِّج في التحدُّث بصوت الطفل الزنجي. لقد ظنَّت أنني أريد استعارته. ها أنا استعرت أوَّل كتاب لي منذ خمس وعشرين سنة من مكتبة ديري العامة، دون أن أعرف حتَّى عمَّا يتحدَّث. من ناحية أخرى، أنا لا أهتم. فقط دعيني أخرج من هنا، سيكون ذلك كافيًا.

قال لها: «شكرًا لكِ»، ووضع الكتاب تحت ذراعه.

– «على الرحب والسعة يا سيِّد هانسكوم. هل أنت متأكِّد أنك لا تريد قرصًا مُسكِّنًا؟».

قال لها: «تمام التأكُّد»، ثم تردَّد قليلًا قبل أن يضيف: «ألا يمكن أن تكوني على دراية بأيِّ حالٍ من الأحوال بما حدث للسيِّدة ستاريت؟ باربرا ستاريت؟ كانت رئيسة مكتبة الأطفال».

قالت كارول دانر: «لقد توفيت منذ ثلاث سنوات بسكتة دماغية. كانت خسارة كبيرة. لقد كانت صغيرة نسبيًّا... في الثامنة والخمسين أو التاسعة والخمسين على ما أظنُّ. لقد أغلق السيِّد هانلون المكتبة يومًا حِدادًا عليها».

قال بن: «أوه»، وهو يشعر بفراغ يملأ قلبه. هذا ما يحدث عندما تعود إلى حيث اعتدت أن تعيش، كما تقول كلمات الأغنية. القشدة التي تُغلِّف الكعكة حلوة المذاق، لكن الحشوة أسفلها مُرَّة. تجد الناس قد نسوك، أو ماتوا وتركوك، أو فقدوا شعورهم وأسنانهم... وفي بعض الحالات تكتشف أنهم فقدوا عقولهم. أوه، إنه لشيءٍ رائع أن تكون على قيد الحياة. يا الله!

قالت له: «آسفة. كنت تحبها، أليس كذلك؟».

– «جميع الأطفال أحبوا مسز ستاريت». قالها بن، وفوجئ بأن الدموع على وشك مُغادرة عينيه.

– «هل أنت...».

إذا سألتني إن كنت بخير مرّة أخرى، سوف أبدأ في البكاء بالفعل.. أو الصراخ.. أو أيّ شيء.

نظر بن إلى ساعته وقال: «يجب أن أطير حالًا، شكرًا على ذوقك ورقتك».

- «فلتحظ بيوم طيِّب يا سيِّد هانسكوم».

بالتأكيد... لأنَّ الليلة أموت.

رفع يده بالتحية ثم بدأ يسير عائدًا عبر القاعة. رفع السيِّد بروكهيل عينيه ونظر إليه بحدَّةٍ وشكٍّ.

نظر بن إلى البسطة التي تتصدَّر السُلَّم الأيسر. كانت البالونة ما زالت تطفو هناك، مربوطة بالخيط إلى الشريط الحديدي. كانت الكلمات المطبوعة عليها تقول:

أنا قتلت باربرا ستاريت!

- المُهِّرج بيني وايز

أشاح بن ببصره بعيدًا، شاعرًا بالنبض في حلقه يبدأ في التسارُع مُجدَّدًا. خرج من المكتبة سريعًا وفاجأته حِدَّة الشمس. كانت السُحُب من فوقه تتفكَّك وتنحل، سامحة لأشعة شمس أواخر مايو الدافئة في التحرُّك لأسفل، ما جعل العشب الأخضر يبدو برَّاقًا وخصيبًا تمامًا. بدأ بيل يشعُر بالهمِّ يُزاح من قلبه، وبدا له أنه ترك عبئًا لا يُطاق خلفه في المكتبة... ثم خفض نظره إلى الكتاب الذي حدث وأن سحبه عن غير قصد، وانضغطت أسنانه معًا بقوَّة مُفاجئة ومؤلمة. إنها رواية الجرّافة لستيفن دبليو ميدر، إحدى الروايات التي استعارها من المكتبة في اليوم الذي هبط فيه إلى البرِّية هربًا من هنري باورز وعصابته.

وبما أن ذكر هنري قد جاء، فإن طبعة قدم حذائه الضخم الغليظ ما زالت على غلاف الكتاب!

بأصابع مُرتعشة، تصفَّح بن الكتاب سريعًا، ثم انتقل إلى آخره. لقد حدَّثت المكتبة نظام الاستعارة وأدخلت تكنولوچيا الميكروفيلم، لقد رأى ذلك. لكن ما زال ثمَّة جيب في غلاف الكتاب الخلفي يحوي بطاقة مدسوسة. توجد أسماء مكتوب على أسطر البطاقة، كلٌ منها مُرفق بختم أمين المكتبة الذي يشير إلى تاريخ انتهاء مُدَّة الاستعارة. تفحَّص بن البطاقة، ورأى الآتي:

اسم المستعير	تاريخ الإرجاع
تشارلز إن براون	14 مايو 1958
ديڤيد هارتويل	1 يونيو 1958
چوزيف برنان	17 يونيو 1958

في آخر سطر من البطاقة، عثر بن على توقيعه الطفولي الخاص، مكتوبًا بخط قلم رصاص ثقيل:

بن هانسكوم 9 يوليو 1958

توجد أيضًا كلمة مختومة على مساحة البطاقة كلها، ومختومة على الورقة الفارغة الأخيرة، ومختومة على ثخانة الصفحات. مختومة مرارًا وتكرارًا كثيرًا جدًّا بحبرٍ أحمر مُلطِّخٍ يبدو كالدماء.

هذه الكلمة هي: إلغاء.

غمغم بن: «يا إلهي الرحيم». لم يدرِ ما يقول غير هذا. لقد بدت العبارة كأنها تشمل الموقف برُمَّته.

– «يا إلهي الرحيم، يا إلهي الرحيم».

وقف بن في أشعة الشمس، ووجد نفسه يتساءل فجأة عمَّا يحدث الآن للآخرين.

2

إدي كاسبراك يلتقط كُرةً

ترجَّل إدي من الحافلة عند ناصية شارعي كانساس وكوسوث. إن كوسوث شارع يمتد بطول ربع ميل أسفل التلَّة قبل أن ينتهي فجأة حيث تهبط الأرض بوعورة إلى البرِّية. لم تكن لديه أدنى فكرة لِم اختار هذه البقعة تحديدًا ليغادر الحافلة. إن جادة كوسوث لا تعني له شيئًا، ولم يكن يعرف أيَّ شخصٍ بعينه في هذه الناحية من شارع كانساس، لكنها بدت له البقعة الصحيحة. كان هذا كل ما يعرف، وعند هذه المرحلة، بدا ذلك كافيًا تمامًا. لقد تركت بيڤرلي الحافلة وودَّعته عند واحدة من المحطَّات جنوب الشارع الرئيس، أما مايك فقاد سيَّارته عائدًا إلى المكتبة.

الآن، بينما هو يُراقب الحافلة المرسيدس الصغيرة السخيفة نوعًا تبتعد، تعجَّب إدي ممَّا يفعله هنا بالضبط. إنه يقف عند ناصية شارع مجهول، في مدينة مجهولة، تبعد نحو خمسةِ آلاف ميل عن ميرا، التي لا بُدَّ أنِ القلق ينهش قلبها خوفًا عليه. شعر بدوارٍ لحظيٍ آلمه تقريبًا، وتحسَّس جيب معطفه، وتذكَّر أنه تركَ دواء الدرامامايِن في فندقِ تاون هاوس مع بقية دستوره الدوائي. لكن معه أسبرين. إنه لا يخرج أبدًا بلا أسبرين، كما لا يخرج أبدًا بلا سراويل. ابتلع إدي قرصين من دون ماء وبدأ يسير بطول شارع كانساس، وراح يفكِّر بعقلٍ مشوَّش أنه رُبَّما سيتَّجه إلى المكتبة العامة، أو يعبر الطريق إلى جادة كوستيلو. كان الجو قد بدأ يصفو الآن، وخمَّن إدي أنه يستطيع التمشية إلى غرب برودواي ويتأمَّل المنازل الڤيكتورية القديمة التي تقف هناك.. المنطقة التي تعد أحد الحيين الراقيين جميلي المعمار الوحيدين في ديري. كان يفعل ذلك أحيانًا عندما كان طفلًا.. يسير فحسب بطول غرب برودواي دون اكتراث، كأنه في طريقه إلى مكانٍ ما آخر. كان منزل آل مولر يقع بالقرب من تقاطع شارع ويتشام مع غرب برودواي، وهو منزل أحمر مُسيَّج بسياجٍ من الأمام وأبراجٍ حجرية في الأركان.

يوجد أيضًا منزل آل بوي، الذي يبعد نحو أربعة منازل عن بيت آل مولر، على الجانب نفسه، وقد افترض إدي أن هذا أحد الأسباب الذي جعل جريتا بوي وسالي مولر صديقتين مُقرَّبتين في المدرسة الثانوية. كان سقف منزل آل بوي المائل مطليًّا بالأخضر، وفي أركانه أبراجٌ بدوره... لكن في حين كانت أبراج منزل آل مولر مُربَّعة، تلك التي في منزل آل بوي كانت متوَّجة بأشكال مخروطية غريبة بدت لإدي كأنها قُبَّعات البُلهاء الطويلة. في الصيف، كان دائمًا ما يرى أثاثًا في الحديقة. منضدة تعلوها مظلَّة صفراء، ومقاعد من الخوص، وأرجوحة شبكية تتدلَّى بحبلٍ بين شجرتين. كان لديهم أيضًا تجهيز لمُمارسة لعبة الكروكيه في الخلف. كان إدي يعلم ذلك رغم أنه لم يُدع من قبل قط إلى منزل جريتا للعب الكروكيه. ففي أثناء تمشيته العارضة (كأنه في طريقه إلى مكانٍ آخر) كان إدي يسمع أحيانًا قرقعة الكُرات، والضحك، والهمهمات الساخرة عندما تطيش كرة أحدهم بعيدًا عن الهدف. ذات مرَّة

شاهد جريتها ذاتها، تحمل كوبَ عصير ليمون في يدٍ ومضرب الكروكيه في اليد الأخرى، وتبدو رشيقة وجميلة وتفوق قدرة أيِّ شاعرٍ على الوصف (حتَّى كتفيها الملوَّحين بالشمس كانا رائعي الجمال في عيني إدي كاسبراك، الذي كان في التاسعة من عمره في ذلك الوقت) وهي تركض وراء كُرتها التي طاشت بعيدًا عن الهدف وارتدَّت عن شجرة وانحرف مسارها، وهو ما أتى بها إلى مجال رؤية إدي.

وقع إدي في هواها قليلًا في ذلك اليوم، بشعرها الأشقر اللامع الذي يسقط على كتفي فستانها فرنسي الطراز، الذي كان لونه أزرق هادئ. نظرت جريتا وقتذاك حولها، وللحظة ظن إدي أنها رأته، لكن اتضح أن هذا لم يحدث، لأنه عندما رفع يده في تحيَّة خجول، لم ترفع يدها لترد تحيته، بل ضربت كُرتها فقط إلى الحديقة الخلفية ثم ركضت وراءها. أكمل إدي مسيره حينها من دون سخط على التحية التي لم تُرد (مُقتنعًا بصدق أنها لا بُدَّ لم تره) أو استياء من كونه لم يُدع من قبل قط لحضور إحدى مُباريات الكروكيه التي تستضيفها في أمسيات السبت في منزلها: لِمَ سترغب فتاة جميلة كجريتا في دعوة صبيٍّ مثله؟ كان هزيل الجسد، مريضًا بالربو، ولديه وجه يُشبه جُرذٍ غارق.

فكَّر إدي وهو يمشي الآن بلا هديٍ جنوب شارع كانساس: أجل، كان يجب أن أذهب إلى غرب برودواي لإلقاء نظرة على كل تلك المنازل من جديد... منزل آل مولر، وآل بوي، ومنزل د. هال، وآل تراكر...

لكن أفكاره بُتِرت فجأة وهو يتذكَّر هذا الاسم الأخير، لأن -العفريت بالذكر يأتي- ها هو ذا، يقف أمام مستودع شاحنات الأخوان تراكر.

قال إدي بصوتٍ عالٍ وهو يضحك: «ما زال موجودًا! يا أولاد الذين!».

كان منزل فيل وتوني تراكر -وهما شقيقان أعزبان مدى الحياة- الأجمل غالبًا من بين جميع المنازل الكبيرة في ذلك الشارع في غرب برودواي. منزلٌ أبيض لا تشوبه شائبة، ينتمي إلى طرازٍ نصف ڤيكتوري، ومُحاط بحديقة غنَّاء وأحواض أزهار رائعة البهاء تظل وافرة مُتمرِّدة (بطريقة طبيعية أنيقة) طوال فصلي الربيع والصيف. كان دربهم الخاص يُغلق كل خريف، ولهذا كان يظل دائمًا أسود كمرآة مُعتمة، بينما القرميد المائل على جوانب السقف

كان أخضر بلون النعناع تمامًا، ويكاد يطابق لون عشب الحديقة، وأحيانًا كان المارَّة يقفون لالتقاط صور للنوافذ الحجرية، التي كانت قديمة جدًّا ورائعة تمامًا.

- «أيُّ شقيقين ذكرين يحافظان على منزلٍ بهذه الأناقة والروعة لا بُدَّ أنهما شاذان»، هكذا قالت أم إدي يومًا ما بطريقة ناقمة نوعًا، ولم يجرؤ إدي على طلب تفسيرٍ منها.

أما مستودع الشاحنات فكان النقيض التام لمنزل الشقيقين تراكر. كان المستودع بناءً منخفضًا من الطوب، وقد كانت قوالب الطوب قديمة ومُفتَّتة في مواضع كثيرة وحال لونها البرتقالي القذر إلى أسود بلون السخام عند مواطئ البناء. كانت النوافذ موحَّدة في قذارتها باستثناء بقعة صغيرة دائرية في إحدى النوافذ السُفلية لمكتب المؤسِّس. أبقي الصبية الذين عاشوا قبل إدي وأولئك الذين جاءوا من بعده على هذه البقعة الوحيدة نظيفة تمامًا، لأن المؤسِّس كان يضع رزنامة بلاي بوي على مكتبة. لم يكن ثمَّة طفلٌ يأتي للعب البيسبول في الأرض الخلفية من دون التوقُّف أوَّلًا لمسح الزجاج بواسطة قُفَّاز الكُرة، والتحديق في فتاة الشهر الجديدة.

كان المستودع مُحاطًا بنفايات الحصى من ثلاثة جوانب. اعتادت شاحنات كثيرة من طرز مختلفة كچيمي-بيتي وكينثورث وريو، جميعها مطبوعٌ عليها الأخوان تراكر. ديري، نيوتاون، بروفيدانس، هارتفورد، نيويورك الوقوف هنا في اكتظاظٍ فوضوي مُعقَّد. أحيانًا كانت تقف كاملة، وأحيانًا مُفكَّكة إلى قُمرات منفصلة ومقطورات تقف في صمت على عجلاتها الخلفية وقوائم الدعم.

كان الأخوان يبقيان على شاحناتهما خارج المُستودع أمام مؤخِّرة المبنى قدر استطاعتهما، لأن كليهما كان من عُشَّاق البيسبول ويُحبَّان أن يأتي الأولاد للعب. كان فيل تراكر يقود إحدى الشاحنات بنفسه لذا كان الأولاد يرونه نادرًا. أما توني تراكر، وهو رجُلٌ عملاق بذراعين كلوحي خشب وبطن عظيم يتماشى معهما، كان من يُعنى بالسجلات ودفاتر الحسابات، وقد اعتاد إدي رؤيته رغم أنه لم يكن يلعب قط (كانت أمه لتقتله لو علمت أنه يلعب

البيسبول، ويركض حول الملعب سامحًا للغُبار بدخول رئتيه الحسَّاستين، مُعرِّضًا نفسه لخطر كسر إحدى ساقيه، أو الإصابة بارتجاج في المخ، أو أيِّ شيءٍ لا يعلم خطورته سوى الله). كان توني تراكر لاعبًا أساسيًا مع الأولاد في الصيف، بصوته الذي صار جزءًا من اللعبة ذاتها في أُذُني إدي وقتها، كما صار صوت ميل آلين كذلك بعدها. كان توني تراكر الضخم لكن الرشيق كالشبح -بالتيشيرت الأبيض الذي يتلألأ مع غروب الشمس عندما تبدأ اليرَّاعات في غزو الهواء بزينتها الضوئية- يصيح ملء صوته: «يجب أن تنخفض أسفل تلك الكُورة قبل أن تستطيع التقاطتها يا أحمر الوجه!... أيُّها القصير، لقد رفعت عينك عن تلك الكُورة! لا يُمكنك ضرب الكُورة اللعينة، إن لم تكن تنظر إليها!... انزلق يا ذا الساق الكسحاء! ضع باطن حذائك الكيدس في وجه رجل القاعدة الثاني هذا، ولن يستطيع التفوُّق عليك!».

لم يكن ينادي على أيٍّ منهم باسمه، هكذا تذكَّر إدي. كان دائمًا ما يقول: مرحبًا يا أحمر الوجه، أيُّها الأشقر، يا ذا الأربع عيون، يا قصير، ولم يكن يسمِّي الكُرةِ كُرةً، بل كورة دائمًا، ولم يكن المضرب مضربًا أبدًا، بل شيءٍ يدعوه توني تراكر بالعصا، كما في: «لن تستطيع ضرب تلك الكورة إذا لم تتشبَّث جيِّدًا بالعصا يا ذا الساق الكسحاء».

مبتسمًا، سار إدي مقتربًا أكثر، ثم تلاشت الابتسامة من على وجهه. كان المبنى القديم مُظلمًا وصامتًا كالقبر الآن، المبنى الذي اعتادت أن تُجهَّز فيه الطلبات وتُصلَّح الشاحنات وتُخزَّن السلع مُددًا قصيرة. تنمو الحشاش بكثافة عبر الحصى، ولا شاحنات تقف على جانبي الأرض الخالية... باستثناء مقطورة وحيدة، جوانبها صدئة ومتداعية.

مع اقترابه أكثر، رأى إدي أنه توجد لافتة وضعها سمسار عقارات تقول أرض للبيع على النافذة.

لقد أفلس الأخوان تراكر، هكذا فكَّر إدي، مُندهشًا من الحزن الذي حملته الفكرة معها.. كأن عزيزًا قد مات. سُرَّ إدي الآن لكونه لم يذهب إلى غرب برودواي. إذا كان الأخوان تراكر قد أفلسا -الأخوان تراكر اللذان بديا خالدين- فما الذي حدث أيضًا في ذلك الشارع الذي كان يهوى السير فيه

طفلًا؟ أدرك إدي مُنزعجًا أنه لا يُريد أن يعرف. لم يكن يرغب في رؤية جريتا بوي وقد استحال شعرها رماديًا، وازدادت ساقاها بدانة من كثرة الجلوس وكثرة الأكل وكثرة الشُرب.. من الأفضل -والأكثر أمانًا- أن يظل بعيدًا فحسب.

هذا ما كان يجب علينا جميعًا فعله، أن نظل بعيدًا. ليس لدينا أيَّ عملٍ هنا. العودة إلى الديار أشبه بالقيام بحركة يوجا مخبولة تمامًا، كأن تضع قدمك في فمك وبطريقةٍ ما تبتلع نفسك حتَّى لا يتبقَّى منك شيء.. وهو أمر يستحيل حدوثه، وأيُّ شخصٍ عاقل يجب أن يشعر بسعادة بالغة لعينة أنه مستحيل...

ما الذي تظن يا إدي أنه حدث للأخوين تراكر على أيِّ حال؟

رُبَّما داهمت توني تراكر أزمة قلبية، لقد كان يحمل قرابة خمسة وسبعين رطلًا زائدًا من الشحم على جسده. على المرء أن يُراقب الأحمال التي يضعها على قلبه. قد يتغنَّى الشعراء عن القلوب المُحطَّمة، وقد يغني باري مانيلو عنها، كل هذا جميل (هو ومايرا يمتلكان كل ألبوم سجَّله باري مانيلو في حياته)، لكنه عن نفسه يُفضِّل إجراء رسم قلب كل عام. بالتأكيد، لقد ترك قلب توني العمل في وظيفته القميئة واستقال، وماذا عن فيل؟ رُبَّما ساء حظه على أحد الطرق السريعة. كان إدي -الذي يكسب قوته بدوره من القيادة (أو كان، فهذه الأيَّام هو يقلُّ المشاهير فقط ويقضي باقي اليوم في المكتب)- يعلم عن الحظ العاثر على الطرق السريعة. رُبَّما كان العجوز فيل ينقل بعض المُعدَّات في مكانٍ ما في نيو هامبشاير أو في هينزفيل وودز شمال ولاية مين وقد كانت الأرض زلقة بفعل الجليد، أو رُبَّما فقد السيطرة على مكابحه وهو يهبط تلَّة ما طويلة في جنوب ديري في أثناء اتِّجاهه إلى هاقن، بينما مطر الربيع يتساقط. رُبَّما حدث له هذا أو أيٌّ من الأشياء الأخرى التي تسمعها في الأغاني الريفية الرديئة عن سائقي الشاحنات الذين يعتمرون قُبَّعات ستيسون ويتعاطون المُخدِّرات. العمل المكتبي يُشعرك بالوحدة أحيانًا، لكن إدي جلس خلف مقود القيادة بدوره أكثر من مرَّة، وبخَّاخه راكبًا معه على لوحة القيادة وزناده ينعكس بضبابية على لوح الزجاج الأمامي (بالإضافة إلى كيس كبير من الدواء في درج السيَّارة)، ويعرف أن الوحدة الحقيقية هي وحدة

الأضواء الحمراء المنوِّمة: المصابيح الخلفية للسيَّارة أمامك التي تنعكس على زجاجك الأمامي المُبتل بماء المطر.

- «اللعنة، الوقت يجري». قالها إدي في تنهيدة هامسة، دون أن يعي حتَّى إنه تحدَّث بصوتٍ عالٍ.

طاف إدي بالمبنى وهو يشعر بالنشوة والاغتمام في الآن ذاته، هو حال ينتابه في أحايين كثيرة، فيما راح حذاؤه الجوتشي يسحق الحصى من تحته، ليلقي نظرة عى الساحة الواسعة حيث اعتادت مُباريات البيسبول أن تُقام عندما كان طفلًا.. عندما كان يبدو أن تسعين بالمئة من تعداد السُكَّان أطفال.

لم تتغيَّر الساحة كثيرًا، لكن نظرة واحدة كانت كافية كي يتأكَّد بلا أدنى شك أن المُباريات توقَّفت. لقد مات التقليد القديم ببساطة في مرحلة ما في السنوات التي تفصل بين الماضي والحاضر، لأسبابٍ مجهولة.

في عام 1958 كانت الحدود الخارجية للملعب الشبيهة بألماسة قد حُدِّدت لا بخطوط الطبشور الأبيض، وإنما بالحُفر التي صنعتها الأقدام الراكضة. لم يكن لدى الأولاد الذين يلعبون البيسبول هنا قواعد ملعب حقيقية، وإنما أربع قطع قماشية كبيرة يحتفظون بها دائمًا أسفل فتحة التحميل خلف بناء الطوب الطويل، وكانوا يستخرجونها مُحتفلين مُهلِّلين عندما يندفع عددًا كافيًا من الأولاد إلى الساحة الخلفية للعب البيسبول، ثم يُعيدونها بذات الاحتفالية إلى مكانها عندما تبدأ ظلال المساء في الانتشار بكثافة كافية لتعيق الاستمرار في اللعب. كان جميع الأولاد الذين اعتادوا المجيء للعب هنا أكبر عمرًا من أفراد نادي الخاسرين، إلا أن إدي قد تذكَّر الآن أن ستان يوريس كان يأتي للعب أحيانًا. كانت ضربته للكُرة مقبولة على أحسن تقدير، لكنه كان راكضًا سريعًا، وردَّات فعله خاطفة كالملائكة.

الآن، لم يستطِع إدي رؤية أيَّ أثرٍ لحدود الملعب التي خلَّفتها الأقدام الراكضة. لقد نمت الحشاش من بين الحصى في وفرة شعثاء مُتفرِّقة، وثمَّة زجاجات بيرة وصودا مُلقاة هنا وهناك.. في الأيَّام الخوالي، كانت مثل هذه الشظايا الزُجاجية المكسورة تُزال بدقَّة بشكلٍ دوري. الشيء الوحيد الذي ظل على حاله هو السياج الحديدي في خلفية الساحة، الذي يرتفع اثني عشر

قدمًا في الهواء، والصَّدِئ كالدماء الجافة. كان يؤطِّر السماء بأشكالٍ ماسية لا حصر لها.

فكَّر إدي وهو يقف مُتحسِّرًا ويداه في جيبيه وينظر إلى المكان الذي كانت القاعدة الأساسية تحتلَّه منذ سبعة وعشرين عامًا: كانت هذه منطقة خروج الكرة إلى خارج الملعب، من فوق السياج وهبوطًا إلى البرِّية. كانوا يطلقون عليها «العفوية». ضحك إدي بصوتٍ عالٍ ونظر حوله بعصبية، كأن الذي ضحك شبحٌ مُخيف لا رجل يرتدي سراويل ثمنها ستين دولارًا.. رجُلٌ صلدٌ كالـ... حسنًا، صلدٌ كالـ... كالـ...

كفاك يا إدز، أنت لست صلدًا على الإطلاق، وفي السنوات الأخيرة يبدو أن الهأهآت صارت قليلة ومُتباعدة.. أليس كذلك؟ هكذا بدا أن صوت ريتشي يهمس له.

قال إدي بصوتٍ خفيض: «أجل، هذا صحيح»، ثم ركل بعض الأحجار بعيدًا مُحدثًا صخبًا.

في الحقيقة، لم يكن شاهد سوى كُرتين فقط تعبران السياج، كلتيهما ضربهما الفتى ذاته: بيلش هاجنز. لطالما كان بيلش ضخم البدن، ووصل إلى ارتفاع ستَّة أقدام وهو بعد في الثانية عشرة، واعتاد أن يزن قرابة المئة وسبعين رطلًا. لقد حصل على لقب بيلش[1] لأنه كان قادرًا على التجشُّؤ جشاءً مُذهلاً في طوله وعلو صوته.. وحينما يكون في أفضل حالاته، يبدو تجشؤه كمزيج بين ضفدعٍ ضخمٍ وحشرة السيكادا. أحيانًا كان يُربِّت بيده سريعًا على فمه المفتوح وهو يتجشَّأ، ويُخرجُ صوتًا كأنه هنديٌّ أحمر غليظ النبرة.

كان بيلش ضخمًا لا بدين، تذكَّر إدي هذا الآن، لكن يبدو أن الرَّب لم يقصد حقًّا لصبي في الثانية عشرة أن يبلغ مثل ذلك الحجم غير العادي. إذا لم يكن بيلش قد لقيَ مصرعه في ذلك الصيف، فرُبَّما كان سيكبر ويصل طوله إلى مترين أو أكثر، ورُبَّما كان سيتعلَّم بمرور الزمن كيفية استخدام مُميِّزات جسده الضخم وسط عالم من البشر الأصغر حجمًا. فكَّر إدي أيضًا أنه رُبَّما

---

(1) بالإنجليزية Belch: تجشُّؤ.

كان سيتعلَّم الدماثة واللطف، لكنه كان كان أخرق وشريرًا على حدٍ سواء في سنِّ الثانية عشرة. لم يكن مُتخلِّفًا، لكنه كان يبدو كذلك تقريبًا لأن حركات جسده تعوزها الرشاقة والاتِّساق في العموم. لم يكن يمتلك إيقاعات ستانلي الفطرية. كان يبدو أن جسد بيلش لا يتواصل مع عقله، بل يعيش في كونه الخاص بطيء الوتيرة. استطاع إدي أن يتذكَّر الليلة التي طارت فيها كُرة طويلة بطيئة مُباشرةً إلى حيث يتمركز بيلش في قلب الملعب. لم يُكلِّف بيلش نفسه حتَّى عناء الحركة. ظلَّ واقفًا ناظرًا إلى أعلى رافعًا قُفَّازه في إيماءة بلهاء ساكنة لا عزم فيها تقريبًا، وبدلًا من أن تسقط الكُرة إلى قُفَّازه، ضربته في أعلى رأسه مُحدثة صوتًا مجوَّفًا: بونك! بدا الصوت كأن الكُرة سقطت من ارتفاع ثلاثة طوابق على سقف سيَّارة فورد. بعدها ارتدَّت عن رأسه وطارت أربعة أقدام وسقطت برشاقة إلى قُفَّازه. ضحك صبيٌّ بائسٍ سيِّئ الحظ على الصوت الأجوف الذي صدر. سار بيلش إليه وركل مؤخِّرته بقوَّة كاسحة لدرجة أن الصبي فيليبس ركض صارخًا إلى منزله وسراويله مشقوقة من المِقعدة. لم يضحك شخصٌ آخر بعدها... على الأقل ليس في العلن. افترض إدي أن لو كان ريتشي توزييه موجودًا وقتها، لم يكن سيقدر على كبح جماح نفسه، وعلى الأرجح كان بيلش سيودعه في المُستشفى بضربه له.

كان بيلش بطيئًا بالمثل في ضرب الكُرة عند القاعدة الأساسية. كان كثيرًا ما يخفق، وإذا حدث وضرب كُرة مُنخفِضَّة، فحتَّى أكثر لاعبي الملعب خرقًا لم يكن يجد صعوبة في استباقها ركضًا إلى القاعدة الأولى على الأقل. لكنه حين يحصل على ضربة جيِّدة، فإن الكُرة تطير بعيدًا بعيدًا لمسافة طويلة. الكُرة الأولى التي ضربها لم تُسترجع قط، رغم أن أكثر من عشرة أطفال أخذوا يتسكَّعون جيئةً وذهابًا على المنحدر الذي يغوص إلى البرِّية المائل بوعورة بحثًا عنها.

أما الثانية فاستُعيدت. كانت الكُرة مِلْك صبي آخر في الصفِّ السادس (لم يتمكَّن إدي من تذكُّر اسمه الحقيقي الآن؛ كل ما تذكَّره أن الصبية الآخرون كانوا يدعونه الشمَّام لأنه كان دائم الإصابة بالبرد)، واستخدموها في اللعب طوال أواخر الربيع وبدايات صيف عام 1958. نتيجة لذلك، لم تعد المسكينة

تلك الدائرة المثالية البيضاء المصنوعة من جلد الجياد والمُطرَّزة بخيوطٍ حمراء التي خرجت يومًا من علبتها، بل صارت بالية، ومُلطَّخة بخضار العُشب، وممزَّقة في بعض موضعٍ بسبب رحلات هبوطها التي لا حصر لها مُرتطمة بحصى الملعب الخارجي. كانت خياطتها قد بدأت تنحل في أحد الأماكن، وقد عَلِمَ إدي الذي كان يلتقط الكُرات الخارجة ويعيدها إلى اللاعبين في الأوقات التي لم تكن أزمات الربو تشتدُّ فيها عليه، أن أحدهم سيحضر قريبًا شريط لحام أسود ويلفها به كي يمكّنوا من استغلالها في اللعب نحو أسبوعٍ آخر أو أكثر.

لكن قبل أن يأتي ذلك اليوم، ألقى صبي ذو اسمٍ عجيب هو سترينجر ديدهام برمية جديدة أعطاها اسمًا عجيبًا بدورها هو «تغيير السُرعة». زامن بيلش الرمية بإتقانٍ تام (لقد كانت الرميات البطيئة هي الرميات التي تتزامن مع سرعته، إذا جاز التعبير)، وضرب كُرة الشمَّام العجوز بقوَّة غير معقولة، لدرجة أن غلاف الكُرة انخلع عنها في التوِّ، وسقط قرب القاعدة الثانية بمسافة صغيرة كفراشة كبيرة بيضاء. أما الكُرة نفسها فقد واصلت صعودها إلى أعلى نحو سماءٍ رائعة مُخضَّبة بألوان الغروب، وهي تنفصل وتتفكَّك في صعودها، يتابعها الصبية بعيونهم في انشداهٍ بليد وهي تتخطَّى السياج مواصلة ارتفاعها. تذكَّر إدي أن سترينجر ديدهام تمتم في صوتٍ ناعمٍ مذهول «يا للهول!»، بينما الكُرة تصعد مُخلِّفة وراءها خيطًا في السماء، وشاهد جميعهم الخيوط تتفكَّك، ثم قبل أن تسقط، بدأ ستة صبية يتسلَّقون السياج كالقردة، واستطاع إدي تذكُّر توني تراكر الذي راح يضحك مصعوقًا بطريقة مجنونة وهو يصرخ:

- «هذه الكُرة كانت ستخرج خارج حدود ستاد يانكي! هل تسمعونني؟ هذه الكُرة كانت ستعبر حدود ستاد يانكي اللعين!».

كان بيتر چوردون من عثر على الكُرة، في موضعٍ ليس ببعيد عن الجدول الذي سيبني فيه نادي الخاسرين سدَّهُم بعد أقل من ثلاثة أسابيع. ما تبقَّى منها لم يكن يزيد على ثلاث بوصات من لُبِّها، وقد كانت مُعجزة حقيقية أن الجديلة لم تنكسر.

باتفاقٍ غير منطوق، أحضر الصبية بقايا كُرة الشمَّام إلى توني تراكر، الذي

تفحَّصها من دون أن يتفوَّه بكلمة، مُحاطًا بأولادٍ صامتين بدورهم. رؤية تلك الدائرة من الصبية الواقفين حول رجُلٍ طويلٍ ببطنٍ عظيم مُتدلي من بُعد رُبَّما بدت كطقس ديني تقريبًا.. كتبجيلٍ للجسم المُقدَّس. لم يركض بيلش هاجنز حول القواعد حتَّى، فقط ظل واقفًا وسط الآخرين كصبيٍ لا يمتلك أدنى فكرة عن موقعه. ما ناوله إيَّاه توني تراكر في ذلك اليوم كانَ شيئًا أصغر من كُرة التنس.

تائهًا في تلك الذكريات، سار إدي من المكان الذي كانت تحتله القاعدة الأساسية، ثم عَبَرَ رابية الرامي (فقط لم تكن هذه رابية قط، بل وهدة نُظِّفت من الحصى) مُتَّجهًا إلى المركز المتوسِّط بين القاعدة الثانية والثالثة. توقَّف إدي لحظةً، وقد راعه الصمت، ثم واصل مسيره إلى السياج الحديدي. كان صدئًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، ونمت عليه سلالة قبيحة ما من الكرمات، لكنه ما زال قائمًا. بالنظرِ من خلاله، استطاع إدي رؤية الأرض تنحدر بعيدًا إلى البرِّية في اخضرارٍ أخَّاذ.

لقد صارت البرِّية أشبه بدغلٍ كثيف أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، وللمرَّةِ الأولى وجد إدي نفسه يتساءل لماذا سُمِّي نطاقًا مُعقَّدًا ومتشابكًا من النباتات بالبرِّية من الأساس: إنه منطقة يُمكن وصفها بأيِّ شيءٍ إلا الجدب. لِمَ لم تُسمَّى البراري؟ أو الدغل؟

البرِّية.

للاسم رنين مشؤوم، وخبيث تقريبًا، لكن ما يستدعيه إلى الذهن ليس تشابُكًا كثيفًا من الأشجار والشُجيرات التي تتزاحم متصارعة على ضوء الشمس، بل صور لكُثبان رملية تذروها الرياح بلا نهاية، أو مساحات يابسة من الأرض المُشقَّقة وصحراء.. برِّية. لقد قال مايك سابقًا إن جميعهم أجدب عاقر، وقد بدا هذا صحيحًا بما فيه الكفاية. سبعة أصدقاء، لم يُرزق واحدٌ منهم بطفل. حتَّى في هذه الأيَّام التي شاع فيها تحديد النسل، مثل هذا الاحتمال بعيد.

نظر إدي عبر الفتحات الصدئة ألماسية الشكل، وهو ينصت إلى صوت السيَّارات البعيدة الرتيب الآتي من شارع كانساس، وإلى صوت جريان المياه

واندفاعه الآتي من الأسفل بعيدًا. إنه يرى لمعان صفحة الماء في أشعة شمس الربيع، كانعكاسٍ على سطحٍ زُجاجي. ما زالت أعواد الخيزران هناك يابسة وبيضاء، كبُقَعٍ من الفطر وسط كل هذا الاخضرار، وخلفها، في المُستنقعات المُمتدَّة المُتاخمة لنُهير الكِندوسكيج، توجد رمالٌ مُتحرِّكة.

لقد قضيت أسعد أوقات طفولتي في تلك الفوضى هناك، هكذا فكَّر، وارتجف.

كان على وشك الاستدارة عائدًا عندما لفت شيءٌ ما نظره: أُسطُوانة خرسانية يعلوها غطاءٌ حديدي. فتحات المورلوك، هكذا اعتاد بن أن يدعوها وهو يضحك بثغره دون أن تضحك عيناه. إذا اتَّجهت إلى واحدة منها ووقفت إلى جوارها فرُبَّما سيصل ارتفاعها إلى خصرك (لو كنت طفلًا)، وستقرأ الكلمات المختومة عليها في نصف حلقة: إدارة ديري للصرف الصحي، وستستطيع سماع الضوضاء البيضاء الرتيبة الآتية من الأسفل. صوت ماكينة ما تعمل بلا توقُّف.

فتحات المورلوك.

من مثل هذه دلفنا... في أغسطس، قرب النهاية. هبطنا من إحدى فتحات المورلوك إلى أنفاق المجاري، لكن بعد فترى لم تعد مجاري، بل... ماذا؟

لقد عثرنا على باتريك هوكستيتر بالأسفل. لقد رأته بيفرلي يفعل أمرًا ذميمًا قبل أن يقتنصه الشَّيءُ. لقد جعلها الأمر تضحك لكنها علمت أنه فعلٌ ذميم. أمرٌ ما له علاقة بهنري باورز، أليس كذلك؟ أجل، أظنُّ ذلك، و...

استدار إدي مُبتعدًا فجأة وبدأ يسير نحو المستودع المهجور، غير راغبٍ في النظر إلى البرِّية أكثر من ذلك، ولم ترق له الأفكار التي استحضرتها. شعر برغبة في أن يكون الآن في منزله مع ميرا، لم يكن يرغب في الوجود هنا، لـ...

- «التقط أيُّها الصبي!».

التفت إدي إلى مصدر الصوت، وهنا رأى كُرة تُحلِّق من فوق السياج مُتَّجهة إليه. ارتطمت الكُرة بالحصى وارتدت عنه، فمد إدي يده والتقطها.. وفي ردَّة فعله العفوية غير الواعية، جاء التقاطهُ للكُرة أنيقًا، ورشيقًا تقريبًا.

نظر إدي إلى ما قبع في يده، وفي لحظة واحدة انفرطِ كل عصبٍ داخله

وشاعت البرودة في أوصاله. لقد كانت هذه كُرة بيسبول يومًا ما، أما الآن فهي مُجرَّد جسم كروي ملفوف بخيط، لأن الغطاء انخلع من عليها. استطاع إدي أن يرى خيطًا يمتد منها بعيدًا. كان مُعلَّقًا في قمَّة السياج كخيطِ شبكة عنكبوت، ويختفي نزولًا إلى البرِّية.

يا للهول. يا للمسيح. الشَّيءُ هنا.. إنه هنا.. معي.. الآن...

- «اهبط إلى هنا لنلعب يا إدي»، هكذا قال الصوت على الجانب الآخر من السياج، وأدرك إدي في هلعٍ كاد أن يسلبه وعيه أن هذا صوت بيلش هاجنز، الفتى الذي قُتِل في الأنفاقِ أسفل ديري في أغسطس عام 1958. الآن، ها هو بيلش هاجنز هنا، بشحمه ولحمه، يشق طريقه صاعدًا الضِفَّة بصعوبة على الناحية الأخرى من السياج.

كان يرتدي زي فريق بيسبول نيويورك يانكيز المُخطَّط بلونين، وكان مُلطَّخًا بالطحالب وتعلوه شذراتٍ من أوراق الخريف الجافة. كان هذا بيلش، لكنه كان المجذوم أيضًا.. مخلوق نهض ببشاعة من موته سنواتٍ طويلة في قبرٍ رطب. كان اللحم على وجهه الثقيل مُهترئًا ومُعلَّقًا في أنسجة شريطية عفنة، وأحد محجريه فارغًا لا عين فيه. دسَّ المخلوق أصابع يده اليُمنى المُتحلِّلة في فتحات السياج الحديدي، وعندما قبضها، سمع إدي صوت اعتصارِ غضن كاد أن يُفقده عقله.

قال بيلش: «هذه الكُرة كانت ستعبر حدود ستاد يانكي!»، ثم ضحك. سقط ضفدع أبيض اللون متلوِّيًا من فمه وتدحرج على الأرض. «هل تسمعني؟ هذه الكُرة كانت ستعبر حدود ستاد يانكي اللعين! وبالمناسبة يا إدي، ما رأيك لو أمتص قضيبك؟ سأفعلها نظير عشرة سنتات، بل سأفعلها مجَّانًا بحق الجحيم».

تبدَّلت ملامح بيلش. سقط أنفه الشبيه بالهُلام كاشفًا عن قناتين حمراوين طازجتين رآهما إدي كثيرًا في أحلامه. ثم تجعَّد شعره وتساقط عن صدغيه، واستحال أبيض كنسيج العنكبوت. انشقَّ الجلد المُتحلِّل على جبهته مفتوحًا، كاشفًا عن عظمٍ أبيض تُغطيه مادة غشائية مخاطية لزجة كعدسة كشَّاف ضوءٍ

غائم. لقد رحل بيلش. ما يقف أمامه الآن هو الشَّيءُ الذي قابله أسفل شُرفة المنزل رقم 29 في شارع نيبولت.

دندن المخلوق: «بوبي يفعلها نظير عشرة سنتات»، ثم بدأ يتسلَّق السياج. خلَّف الشَّيءُ نسائل صغيرة من اللحم على الفتحات ألماسية الشكل حيث تتقاطع الأسلاك. جلجل السياج وتزعزع أسفل وزنه، وعندما لمس الشَّيءُ النباتات المُتعرِّشة استحال لونها إلى الأسود. «إنه يفعلها في أيِّ الأوقات، ولفترة إضافية مُقابل خمس عشرة أخرى من العُملات».

حاول إدي الصراخ، لكن شيئًا لم يخرج من حلقه أكثر من صريرٍ جافٍ لا قوَّة فيه. نظر إلى الكُرة القابعة في كفِّه، وفجأة بدأت دماء في التعرُّق من خيوطها المُلتفَّة، وتقاطرت على الحصى وتناثرت على خُفَّيه.

ألقى إدي الكُرة أرضًا وتراجع خطوتين جافلتين مُترنِّحتين إلى الوراء وقد جحظت عيناه وراح يُجفِّف يديه في صدر قميصه، وصل المجذوم إلى قمَّة السياج. تأرجح خيال رأسه في مواجهة السماء، ككابوسٍ أشبه بيقطينة هالوين مُنتفخة. تدلَّى لسانه إلى الخارج، كان بطول أربعة أقدام -رُبَّما ستَّة- وتعرَّج في طريقه نزولًا على السياج كثُعبانٍ يخرج من فمِّ المجذوم الضاحك.

الآن كان يراه... ثم اختفى في اللحظة التالية.

لم يتلاشَ كما يحدث للأشباح في الأفلام، بل اختفى في غمضة عينٍ ببساطة. لكن إدي سمع صوتًا أكَّد ماديَّة وجوده الحقيقي: بوب! كصوت الغطاء الفلين الذي يطير من فم زجاجة شامبانيا. كان هذا صوت الهواء الذي سرعان ما ملأ الفراغ الذي كان المجذوم يحتلَّه.

استدار إدي وبدأ يركض، لكن قبل أن يبتعد مسافة عشرة أقدام، طارت أربعة أجسام مُتيبِّسة من الظلال من أسفل فتحة تحميل المستودع المهجور. في البداية ظن إدي أنها خفافيش، وصرخ مُغطِّيًا رأسه، ثم رأى أنها خرق قماشية مُربَّعة. إنها قطع القماش التي كانت تُستخدم كقواعد الملعب حينما كان الأولاد الكبار يلعبون هنا.

راحت الأقمشة تلف وتدور في الهواء الساكن فوق رأسه، واضطر إدي

إلى الانحناء لتفادي الاصطدام بواحدة منها، ثم استقرَّت بعدها في أماكنها المُعتادة دُفعة واحدة، ناثرة الغبار في الجو: القاعدة الأساسية، ثم الأولى، فالثانية، فالثالثة.

لاهثًا، متقطِّع الأنفاس، جاف الحلق، ركض إدي من جوار القاعدة الأساسية، وشفتيه مشدودتان إلى الخلف، ووجهه شاحب في بياض الجبن القريش.

وووووش! صوت مضرب يضرب كُرة شبحية. ثم...

توقَّف إدي وقد خارت قواه، وفلتت أنَّة من بين شفتيه. كانت الأرض تنتفخ في خطٍ مُستقيم من القاعدة الأساسية إلى الأولى، كسنجابٍ عملاق يشق طريقه بالكاد أسفل سطح التُربة، وتدحرج الحصى على كلا الجانبين، وصل الجسم أسفل الأرض إلى القاعدة وطارت قطعة القماش إلى الهواء بسرعة وقوَّة كبيرة جدًّا لدرجة أنها أصدرت فرقعة أشبه بالصوت الذي يُصدره صبي تلميع أحذية بخرقته عندما يكون مُتحمِّسًا. بدأت الأرض ترتفع بين القاعدة الأولى والثانية، أسرع فأسرع. طارت القاعدة الثانية في الهواء بصوت فرقعة مماثل، ثم هبطت إلى الأرض في الوقت الذي بلغ فيه الجسم القاعدة الثالثة مُسرعًا في طريقه نحو القاعدة الأساسية.

طارت القاعدة الأساسية في الهواء بدورها، لكن قبل أن تهبط إلى الأرض برز الجسم من تحت الأرض كهدية مروِّعة، وقد كان توني تراكر. كان وجهه جمجمة ما زالت تتشبَّث نسائل اللحم الأسود بها، وقميصه الأبيض أسمال بالية متحلِّلة. نتأ توني تراكر من الأرض عند القاعدة الأساسية، مُتمايلًا إلى الأمام والخلف كدودة أرض قميئة.

- «لا يهم مدى تمسُّكك برذَّاذ الرماد الذي تولجه في حلقك»، هكذا قال توني تراكي في صوتٍ خشن وجاف كالرمل، وأسنانه المكشوفة تبتسم في ابتهاج لعوب مجنون: «لا يهم يا مقطوع النفس. سنلتقطك أنت وأصدقاءك، سنحصل على الكورة!».

ارتجف إدي وتراجع مُرتعدًا، وضِعت يدٌ على كتفه. انتفض إدي مُبتعدًا

عنها. أحكمت اليد قبضتها لحظة، ثم ارتخت. التفت إدي إلى الخلف. إنها جريتا بوي. كانت ميِّتة وقد تآكل نصف وجهها، واليرقات تزحف على كتل اللحم الأحمر المُتبقِّية، وكانت تمسك ببالونة خضراء في يدها.

قال نصف الوجه الذي ميَّزهُ إدي: «حادث سيَّارة»، ثم ابتسم. أصدرت الابتسامة صوت تمزُّق مُريعًا، واستطاع إدي رؤية الأوتار الغضنة تتحرَّك كأحزمة مُريعة. «كنت في الثامنة عشرة يا إدي. ثملة ومنتشية بمُخدِّر الريدز. أصدقاؤك هنا يا إدي».

تراجع إدي مُبتعدًا عنها، ويداه تُغطيان وجهه. سارت جريتا نحوه. كانت الدماء قد تناثرت وجفَّت على ساقيها في علامات طويلة، وكانت ترتدي فردتي حذاءٍ جلدي.

ثم الآن، خلفها، شاهد إدي الرعب الخالص: باتريك هوكستيتر يمشي مُتثاقلًا عبر الملعب الخارجي مُتَّجهًا إليه. كان يرتدي بدوره ملابس فريق نيويورك يانكيز.

ركض إدي. أمسكت به جريتا من جديد، ومزَّقت قميصه وسكبت سائلًا مُقزِّزًا على ياقته. كان توني تراكر يُحرِّر نفسه من الأرض التي شقَّها كسنجابٍ بشري، بينما يتعثَّر باتريك هوكستيتر ويمشي باضطراب. ركض إدي دون أن يعلم من أين يأتي بنفسٍ كافٍ للركض، لكنه كان يركض بطريقة أو بأخرى. بينما هو يركض، شاهد كلماتٍ تطفو أمامه، كلماتٍ مكتوبة على جانب البالونة الخضراء التي كانت جريتا بوي تحملها:

دواء الربو يُسبِّب السرطان!

مع تحيَّات صيدلية الشارع الأوسط.

ركض إدي.. وركض.. وركض.. وعند مرحلةٍ ما سقط أرضًا شبه ميِّت قُرب حديقة ماكرون، وقد شاهده بعض الصبية وفرُّوا مُبتعدين عن طريقه لأنه بدا لهم مُدمن خمرٍ، أو شخص يحمل وجهه مرضًا غريبًا في نظرهم، أو رُبَّما حتَّى يكون القاتل الذي يتحدَّثون عنه في الأخبار، وفكَّروا في إبلاغ الشُرطة بأمره، لكنهم في النهاية لم يفعلوا.

3

بيفرلي روجان تقوم بزيارة

سارت بيڤرلي شاردة جنوب الشارع الرئيس بعد أن خرجت من فندق ديري تاون هاوس الذي ذهبت إليه لتغيير ملابسها وارتداء سراويل چينز زرقاء وبلوزة صفراء فضفاضة. لم تكن تُفكِّر في وجهتها، بل راحت تُفكِّر في الآتي:

شعرك شمسُ الشِّتاء،
جمر يناير،
قلبي يحترق بين خصلاته أيضًا.

لقد خبَّأت تلك الكلمات في درج ملابسها السُفلي، تحت ملابسها الداخلية. قد تكون والدتها رأتها، لكن لا ضير في ذلك. المهم هو أن والدها لم يكن يفتح هذا الدرج على الإطلاق. إذا كان قد رآها، لرُبَّما كان قد رمقها بتلك النظرة اللامعة الودودة تقريبًا والمُثِلَّة تمامًا، وسألها بطريقته الوديَّة تقريبًا: «هل كنت تفعلين أمرًا لا ينبغي لك فعله يا بيڤ؟ هل كنت تفعلين أمرًا مع صبيٍ ما؟». لم يكن يهم إذا أجابت بنعم أو بلا، ففي كلتا الحالتين كانت لطمة سريعة مُفاجئة ستنهال على وجهها، سريعة لدرجة أنها لن تؤلم في البداية.. فالأمر سيستغرق دقيقتين كي يتبدَّد الفراغ ويحل الألم مكانه، ثم بعدها ستسمع من جديد صوته الودود تقريبًا وهو يقول: «أنا أقلق عليك كثيرًا يا بيڤرلي. أقلق كثيرًا جدًّا. يجب أن تكبري، أليس كذلك؟».

رُبَّما والدها ما زال يعيش في ديري. لقد كان هنا في آخر مرَّة سمعت فيها أخباره، لكن ذلك كان منذ... منذ مُتى؟ عشر سنوات؟ على الأقل. كان هذا قبل زواجها من توم بزمنٍ طويل. لقد تلقَّت منه بطاقة بريدية، ليست بطاقة فارغة كالتي كُتبت القصيدة عليها، بل أخرى تعرض صورة لتمثال بول بونيان البلاستيكي البشع الذي ينتصب أمام مركز المدينة. لقد نُصِّب التمثال في وقتٍ ما من الخمسينيات، وقد كان أحد المعالم التي تُميِّز صباها، لكن بطاقة

والدها لم تستدعِ إلى ذهنها حنينًا أو ذكرياتٍ.. ولم يكن الأمر سيُشكِّلُ فارقًا لها لو كانت البطاقة تعرض صورة لقوس جيتواي في سانت لويس أو جسر البوَّابة الذهبية في سان فرانسيسكو.

قالت الكلمات على البطاقة: «أتمنَّى أن تكوني بخير وبصحة جيدة. أتمنى لو استطعتِ مُساعدتي بإرسال بعض المال، لأنني لا أمتلك الكثير منه. أحبك يا بيڤي. أبوك».

كان يحبها، وقد افترضت بيڤرلي أن هذا -بطريقة أو بأخرى- هو السَّبب الرئيس وراء وقوعها في غرام بيل دِنبروه في ذلك الصيف الطويل.. لأن من بين جميع الصبية، كان بيل الوحيد الذي أبدى السلطوية المُرتبطة في ذهنها بأبيها.. لكنها كانت نوعًا مُختلفًا من السُلطة. كانت سُلطة قادرة على الإنصات وأخذ المشورة. لم تر بيڤرلي في عينيه أو في أفعاله ما يشير إلى أنه يؤمن أن طريقة أبيها في القلق هي الشكل الوحيد للسُلطة الذي يجب أن يوجد... كما لو أن الناس حيواناتَ أليفة، يجب أن تُدلَّل وتتعلَّم الانضباط على حدٍ سواء.

أيًّا كانت الأسباب، فبعد انتهاء اجتماعهم الأوَّل كمجموعة مُكتملة النصاب في يوليو من ذلك العام -ذلك الاجتماع الذي تفرَّد فيه بيل بالزعامة الكاملة من دون جهد من ناحيته- وقعت بيڤرلي في حبه بجنون. إذا وصفت الأمر بأنه حب تلميذة عادي لزميلها، هو تمامًا كأن تصف سيَّارة رولز رويس بأنه مُجرَّد مركبة بأربع عجلات، مثلها مثل عربة قش تجرها جياد. لم تكن ابتسامتها تتَّسع أو يتورَّد خدَّاها عندما تراه، أيضًا لم تكتب اسمه بالطباشير على الأشجار أو على حوائط جسر القُبُلات. كانت ببساطة تحيا يومها وصورته في قلبها طوال الوقت، كنوعٍ من العذاب المؤلم الموجِع. كانت مُستعدَّة للموت في سبيله.

وكان من الطبيعي -هكذا افترضت- أن تجد نفسها راغبة في تصديق أن بيل هو من كتب قصيدة الغزل لها... رغم أنها لم تتمادَ كثيرًا في رغبتها لإقناع نفسها بالفعل أن هذه هي الحقيقة ولا شيء سواها. لا، إنها تعرف من كتب القصيدة، ولاحقًا، ألم يعترف لها مؤلِّف القصيدة بذلك؟ أجل، لقد أسرَّ بن لها بذلك (رغم أنها لا تستطيع الآن تذكُّر -مهما بذلت من جهد- أين ومتى

وتحت أيِّ ظروف أخبرها بذلك)، وعلى الرغم من أن حبه لها ظلَّ مخفيًّا بالكامل تقريبًا، تمامًا كالحب الذي شعرت به تجاه بيل،

(لكنك أخبرتيه يا بيڤي، أجل فعلتِ، لقد أخبرتيه أنك تُحبينه)

فقد كان واضحًا كالشمس لأيِّ شخصٍ سليم النظر (ونقي السريرة). كان الأمر واضحًا في الطريقة التي اعتاد أن يحرص بها دائمًا على إبقاء مسافةً معقولة بينهما.. في تسارع أنفاسه عندما تلمس ذراعه أو يده.. في طريقة هندامه عندما كان يعلم أنه سيقابلها.. ذلك العزيز بن البدين رقيق الحاشية.

لكن مُثلَّث حب الطفولة العذري هذا انتهى بطريقةٍ ما، والطريقة والكيفية اللتين انتهى بهما لهما أمران لا تستطيع تذكُّرهما بعد. إنها تتذكَّر اعتراف بن بتأليفه وإرساله قصيدة الحب الصغيرة تلك، كما تتذكَّر إخبارها بيل أنها تحبه، وأنها ستظل تحبه إلى الأبد، وبطريقةٍ ما، ساعد هذان الاعترافان في إنقاذ حيواتهم جميعًا، أليس كذلك؟ لا تستطيع التذكُّر في الحقيقة. كانت هذه الذكريات (أو ذكريات الذكريات، فهذا الوصف أقرب إلى طبيعتها) أشبه بجُزرٍ لا تبدو كجُزرٍ على الإطلاق، إنما مُجرَّد كُتلٍ من حيودٍ مُرجانية حدث وأن برزت فوق سطح الماء، لا في قطعٍ مُتفرِّقة، بل حيدٍ واحد، ورغم ذلك، كلما حاولت الغوص لرؤية بقية ذلك الحيد، تتدخَّل صورة مُغضبة وتشوِّش الرؤية: صورة طيور السوادية التي تعود كل ربيع إلى نيو إنجلاند، وتتزاحم على خطوط الهاتف، وقمم الأشجار، والأسطح، وهي تتصارع على الأماكن، وتملأ الجو بصخبها الشاكي. لم تنفك هذه الصورة الدخيلة المزعجة عن معاودتها مرَّة وثانية وثالثة، كموجة راديو كثيفة تعيق إرسالًا ترغب بشدَّة في تلقِّيه.

أدركت بيڤرلي في صدمة مُفاجئة أنها تقف أمام مغسلة كلين كلوز، حيث أخذت الخرق لتنظيفها في ذلك اليوم مع ستان يوريس وبن وإدي في أواخر يونيو.. الخِرق التي تلوِّثها دماءٌ هم فقط يستطيعون رؤيتها. كانت نوافذ المكان مُعتمة بلُطخ الصابون الجاف حاليًا، وثمَّة لافتة مكتوبة بخط اليد ومُلصقة بالباب تقول: للبيع من خلال المالك. حدَّقت بيڤرلي من خلال بُقع الصابون الأبيض الجاف على النوافذ، واستطاعت رؤية غرفة فارغة حوائطها

الصفراء القذرة مليئة بمُربَّعات أفتح لونًا تُعلِّم الأماكن التي كانت الغسَّالات تحتلُّها.

أنا في طريقي إلى المنزل. هكذا فكَّرت بيڤرلي آسفة، لكنها أكملت في طريقها على أيِّ حال.

لم يتغيَّر هذا الحيُّ كثيرًا. بعض الأشجار اختفت، غالبًا أشجار الدردار أصابها مرضٌ. بدت المنازل أكثر تهالُكًا، وبدت النوافذ المكسورة أكثر شيوعا قليلًا ممَّا كانت عليه وهي فتاة. استبدل الورق المقوَّى بعض الألواح المكسورة، لكن ليس جميعها.

الآن، ها هي ذي تقف أمام شقَّة الدور الأرضي في البناية رقم 127 جنوب الشارع الرئيس. ما زالت دارها موجودة. صار الطلاء الأبيض المقشَّر الذي تتذكَّره بُنيًا مقشَّرًا بلون الشيكولاته في مرحلةٍ ما على مدار السنين، لكن العين ما زالت لا تُخطئه. ها هي النافذة التي تطل على ما كان يومًا مطبخهم، وها هي نافذة غرفة نومها.

(چيم دويون، اطلع من ذلك الشارع! تعال حالًا، تريد أن تصدمك سيَّارة وتموت؟)

ارتجفت بيڤرلي، واحتضنت ذراعيها من فوق نهديها بشكلٍ مُتقاطع، مُمسكة بكوعيها في راحتي يدها.

بابا، هل يُعقل أنك ما زلت هنا؟ أوه، أجل، وما المانع. إنه لم يكن ليُفكِّر في الانتقال إلا إذا اضطرُ إلى ذلك. تقدمي يا بيڤرلي فحسب. ألقي نظرة على صناديق البريد. هناك ثلاثة صناديق تخصُّ الشقق الثلاث، بالضبط كالأيام الخوالي. إذا كان أحدها مكتوبًا عليه مارش، فيمكنك رن الجرس، وسرعان ما ستسمعين خبيب خُفَّين يسيران عبر الردهة، ثم سيفُتح الباب وستجدين نفسك تنظرين إليه... إلى الرَّجُل الذي منحك حيوانه المنوي شعرك الأصهب، وجعلك عسراء، وأعطاك موهبة الرسم... هل تتذكَّرين كيف كان بارعًا في الرسم؟ كان يستطيع رسم أيَّ شيءٍ يُريده إذا كان مزاجه رائقًا، ولم يكن مزاجه كذلك في كثيرٍ من الأحيان. أظنُّ أنه كان يقلق كثيرًا بخصوص أمورٍ عديدة. لكن عندما كان يبدأ الرسم، كنت تجلسين أمامه بالساعات وتشاهدينه

يرسم قططًا وكلابًا وجيادًا وأبقارًا تخرج من أفواهها بالونات كلام مكتوب فيها مووو! وكنت تضحكين ملء روحك فيضحك هو ثم يقول لك: الآن يا بيڤي، دورك... وعندما تمسكين بالقلم كان يوجِّه أصابعك، وتُشاهدين أن بقرة أو قطة أو رجُلًا مُبتسمًا يتكوَّن أسفل أصابِعك وأنت تشمِّين رائحة غسول ما بعد الحلاقة ماركة سكين براسير الذي يضعه، وتستشعرين دفء جلده. هيا يا بيڤرلي، اضغطي الجرس. سيخرج لكِ وسيكون هَرِمًا تشيع الخطوط عميقًا في وجهه، وأسنانه -تلك التي بقيت- ستكون صفراء.. ولسوف ينظر إليك ويقول يا إلهي إنها بيڤي، لقد عادت بيڤي إلى المنزل لرؤية والدها، ادخلي يا بيڤي، لكم أنا سعيد برؤيتك، أنا سعيد لأنني كنت قلقًا عليك يا بيڤي، قلقًا عليك كثيرًا.

سارت بيڤرلي ببطء عبر الممرِّ، وراحت الحشائش النامية بين شقوق الأسفلت تداعب سراويلها الچينز. نظرت من كثب إلى نافذة الطابق الأوَّل، لكن ستائرها كانت مُسدلة. نظرت إلى صناديق البريد. الطابق الثالث: ستاركويزر.. الطابق الثاني: بيرك.. الطابق الأوَّل -انقطع نفسها-: مارش.

لكنني لن أرن الجرس. أنا لا أريد رؤيته. لن أرن الجرس.

كان هذا القرار الحازم الأوَّل الذي اتَّخذته أخيرًا في حياتها! القرار الذي فتح الطريق إلى حياة كاملة من القرارات الحازمة! لقد عادت أدراجها عبر الممرِّ! ومنه إلى وسط المدينة! وصعدت إلى غرفتها في الفندق! وحزمت حقيبتها! وركبت تاكسيًّا! وطارت! وأنذرت توم أن يبتعد عن طريقها! وعاشت حياة ناجحة! ثم ماتت سعيدة!

رنَّت بيڤرلي الجرس.

سمعت صوت الجرس المألوف يأتي من حجرة المعيشة، الجرس الذي بدا لها دائمًا كأنه نطق الاسم الصيني: تشينج-شونج!

تبعه الصمت ولا شيء سواه. لا جواب. تململت في وقفتها في الرواق، ونقلت وزنها من قدمٍ إلى أخرى، وهي تشعر بحاجة مُفاجئة للتبوُّل.

لا أحد بالمنزل، أستطيع الرحيل الآن. هكذا فكَّرت بيڤرلي، شاعرة بالخلاص.

لكن بدلًا من ذلك، رنَّت الجرس ثانيةً: تشينج-شونج! لا جواب. فكَّرت في قصيدة بن العذبة الصغيرة، وحاولت تذكُّر متى تحديدًا اعترف لها بكتابتها، ولماذا، ثم للحظة، ارتبط الأمر بذكرى المرَّة الأولى التي جاءها الحيض فيها. هل بدأت تحيض في سنِّ الحادية عشرة؟ بالطبع لا، رغم أن نهديها بدأ نموَّهما الأليم في منتصف الشتاء ذلك العام. لماذا...؟ ثم فجأة، شوَّشت ذاكرتها صورة ذهنية لآلاف من طيور السوادية تزدحم على خطوط الهاتف وأسطح المباني، وهي تثرثر وتصخب في سماء الربيع البيضاء.

سأرحل الآن. لقد رننت الجرس مرَّتين. هذا يكفي.

لكنها رنَّته من جديد.

تشينج-شونج!

الآن سمعت صوت شخص يقترب. كان الصوت كما تخيَّلته تمامًا: الحفيف المُنهك لخُفَّين قديمين. نظرت حولها في جنون، وكادت أن تفر راكضة من المكان. هل تستطيع الوصول إلى الممرِّ الأسفلتي وتدور حول الزاوية قبل أن يراها وتتركه يظن أن من يرن الجرس بعض الصبية العابثين لا أكثر؟

«هاي يا سيِّد، ألديك تُفَّاحٌ أخضر؟...».

زفرت بيفرلي نفسًا عميقًا مُفاجئًا واضطرت إلى إحكام حنجرتها عندما فُتِح الباب، لأن ضحكة ارتياح أردات مُغادرة حلقها. لم يكن والدها من فتح الباب، بل امرأة طويلة القامة في أواخر السبعينيات تقف عند مدخل الباب وتنظر إليها. كان شعرها طويلًا ورائعًا، معظمه أبيض، لكن تتخلَّله شعيراتٍ من أنقى أنواع الذهب. كانت عيناها الزرقاوان بلون مياه الوديان الخلالية التي لا بُدَّ أن أسلافها انحدروا منها تطل من خلف عويناتٍ عديمة الإطار، وكانت ترتدي ثوبًا أرجوانيًا من الحرير المائج اللامع.

- «أجل يا آنستي؟».

قالت بيفرل: «معذرة». غادرت الرغبة في الضحك التي تملَّكتها بالسرعة ذاتها التي جاءتها بها. لاحظت أن المرأة ترتدي حلية على عنقها.. سلسلة قصيرة تحتوي حلية من العاج الحقيقي بكل تأكيد، محاطة بحافَّة رفيعة جدًا

من الذهب يكاد لا يُلاحظ. «لا بُدَّ أنني رننت جرس المنزل الخاطئ»، أو رننت الجرس الخاطئ عمدًا، هكذا همس عقلها. «كنت أقصد شقَّة السيِّد مارش».

- «مارش؟». قالتها المرأة مُتعجِّبة، وتجعَّدت جبهتها قليلًا.

- «أجل، فكما ترين أنا...».

قالت المرأة العجوز: «لا أحد هنا اسمه مارش».

- «لكن...».

- «إلا... أنت لا تقصدين آلڤين مارش، أليس كذلك؟».

قالت بيڤرلي: «بلى. إنه أبي!».

ارتفعت يد المرأة إلى حُلية العاج ولمستها، ثم نظرت بدقَّة أكثر إلى بيڤرلي، ممَّا أشعرها أنها فتاة صغيرة تحمل في يدها بعضًا من كعك فتيات الكشَّافة، أو رُبَّما بعض البطاقات دعمًا لفريق نمور مدرسة ديري الثانوية. بعدها ابتسمت المرأة العجوز... ابتسامة طيِّبة لكن يشوبها حُزنٌ.

- «لقد انقطعتِ طويلًا يا صغيرة. أكره -أنا الغريبة- أن أكون من يبلغك بالأخبار السيِّئة، لكن والدك مات منذ خمس سنوات».

- «لكن... على الجرس...»، نظرت بيڤرلي من جديد إلى الاسم، ثم فلت منها صوتٌ خافت متحيِّر لم يكن ضحكة بالضبط. في خضم انفعالها، وبعقلها اللا واعي وتأكُّدها شبه اليقيني أن والدها ما زال هنا، قرأت بيڤرلي الاسم كارش على أنه مارش.

سألتها: «هل أنت السيِّدة كارش؟». كانت مصدومة من خبر موت والدها، لكنها في الوقت نفسه شعرت بالحمق من هذه الغلطة. لا بُدَّ أن السيِّدة ستظنها جاهلة لا تقرأ ولا تكتب.

قالت المرأة: «أجل، السيِّدة كارش».

- «هل... هل كنت تعرفين أبي؟».

قالت السيِّدة كارش: «قليلًا جدًا، كنت أعرفه». كانت تتحدَّث كشخصية يودا من فيلم الإمبراطورية ترد الضربة، واضعة نصف الجملة الأول في آخرها. شعرت بيڤرلي بالرغبة في الضحك من جديد. منذ متى وانفعالاتها

تتأرجح بهذا العنف؟ إنها لا تتذكَّر، لكنها خائفة تمامًا لكونها ستتذكَّر قريبًا جدًّا. «كان يستأجر الشقة الأرضية قبلي. لقد رأى أحدنا الآخر بشكل وجيز، فيما كنت أنتقل وهو يرحل، على مدار أيَّام قليلة. لقد انتقل إلى جادة روارد، أتعرفينها؟».

قالت بيڤرلي: «أجل». كانت جادة روارد تتفرَّع من الشارع الرئيس على بُعد أربعة أبنية من هنا، حيث الشقق السكنية أصغر حجمًا، وأكثر تهالُكًا بكثير.

قالت السيِّدة كارش: «اعتدت رؤيته أحيانًا في متجر جادة كوستيلو، وفي مغسلة كلين كلوز قبل أن تُغلق. كنا نتبادل التحيات من وقتٍ إلى آخر. كنا... أنت شاحبة يا فتاة. معذرة، فلتتفضَّلي بالداخل وسأعد لك بعض الشاي».

قالت بيڤرلي بوهن: «لا، لا أستطيع»، لكنها في الحقيقة كانت تشعر بالشحوب والإعياء بالفعل، كزجاج تكاثف الضباب عليه ولم تعد قادرًا على النظر من خلاله. الشاي فكرة جيِّدة، ورُبَّما مِقعد أيضًا كي تجلس عليه وهي تشربه.

قالت السيِّدة كارش بحميمية: «بل تستطيعين وستدخلين، هذا أقل ما يمكنني فعله بعدما أطلعتك على تلك الأخبار السيِّئة».

وقبل أن تستطيع الاعتراض، وجدت بيڤرلي نفسها تُقاد عبر الردهة الكئيبة إلى داخل شقتها القديمة، التي بدت الآن أصغر حجمًا بكثير، لكن أكثر أمانًا... وقد افترضت أنها شعرت بذلك الأمان لأن كل شيء تقريبًا بدا مختلفًا. بدلًا من الطاولة الفورميكا وردية السطح بكراسيها الثلاثة، توجد منضدة دائرية صغيرة، لا يعدو حجمها حجم كومود صغير، وعليها مزهرية تحوي أزهارًا صناعية. بدلًا من الثلاجة كلڤيناتور بسقفها المنحني (التي كان والدها يصلِّحها بنفسه باستمرار)، ثمَّة ثلَّاجة كبيرة بلون النحاس. كان الموقد صغيرًا لكنه يبدو جيِّدًا، وكان موضوعًا فوقه ميكروويف طراز أمانا رادار–رانج. عُلِّقت ستائر زرقاء لامعة على النوافذ، واستطاعت أن ترى أصص أزهارٍ خارجها. أما الأرض التي كانت مغطَّاة بالمشمَّع عندما كانت فتاة صغيرة، نُزع المشمَّع عنها وتُركت عارية على خشبها الأصلي، الذي كان مصقولًا جيِّدًا بسبب تلميعه الدائم بالزيت.

من الذهب يكاد لا يُلاحظ. «لا بُدَّ أنني رننت جرس المنزل الخاطئ»، أو رننت الجرس الخاطئ عمدًا، هكذا همس عقلها. «كنت أقصد شقَّة السيِّد مارش».

- «مارش؟». قالتها المرأة مُتعجِّبة، وتجعَّدت جبهتها قليلًا.

- «أجل، فكما ترين أنا...».

قالت المرأة العجوز: «لا أحد هنا اسمه مارش».

- «لكن...».

- «إلا... أنت لا تقصدين آلڤين مارش، أليس كذلك؟».

قالت بيڤرلي: «بلى. إنه أبي!».

ارتفعت يد المرأة إلى حُلية العاج ولمستها، ثم نظرت بدقَّة أكثر إلى بيڤرلي، ممَّا أشعرها أنها فتاة صغيرة تحمل في يدها بعضًا من كعك فتيات الكشَّافة، أو رُبَّما بعض البطاقات دعمًا لفريق نمور مدرسة ديري الثانوية. بعدها ابتسمت المرأة العجوز... ابتسامة طيِّبة لكن يشوبها حُزنٌ.

- «لقد انقطعتِ طويلًا يا صغيرة. أكره -أنا الغريبة- أن أكون من يبلغك بالأخبار السيِّئة، لكن والدك مات منذ خمس سنوات».

- «لكن... على الجرس...»، نظرت بيڤرلي من جديد إلى الاسم، ثم فلت منها صوتٌ خافت متحيِّر لم يكن ضحكة بالضبط. في خضم انفعالها، وبعقلها اللا واعي وتأكُّدها شبه اليقيني أن والدها ما زال هنا، قرأت بيڤرلي الاسم كارش على أنه مارش.

سألتها: «هل أنت السيِّدة كارش؟». كانت مصدومة من خبر موت والدها، لكنها في الوقت نفسه شعرت بالحمق من هذه الغلطة. لا بُدَّ أن السيِّدة ستظنها جاهلة لا تقرأ ولا تكتب.

قالت المرأة: «أجل، السيِّدة كارش».

- «هل... هل كنت تعرفين أبي؟».

قالت السيِّدة كارش: «قليلًا جدًا، كنت أعرفه». كانت تتحدَّث كشخصية يودا من فيلم الإمبراطورية ترد الضربة، واضعة نصف الجملة الأول في آخرها. شعرت بيڤرلي بالرغبة في الضحك من جديد. منذ متى وانفعالاتها

تتأرجح بهذا العنف؟ إنها لا تتذكَّر، لكنها خائفة تمامًا لكونها ستتذكَّر قريبًا جدًّا. «كان يستأجر الشقة الأرضية قبلي. لقد رأى أحدنا الآخر بشكل وجيز، فيما كنت أنتقل وهو يرحل، على مدار أيَّام قليلة. لقد انتقل إلى جادة روارد، أتعرفينها؟».

قالت بيڤرلي: «أجل». كانت جادة روارد تتفرَّع من الشارع الرئيس على بُعد أربعة أبنية من هنا، حيث الشقق السكنية أصغر حجمًا، وأكثر تهالُكًا بكثير.

قالت السيِّدة كارش: «اعتدت رؤيته أحيانًا في متجر جادة كوستيلو، وفي مغسلة كلين كلوز قبل أن تُغلق. كنا نتبادل التحيات من وقتٍ إلى آخر. كنا... أنت شاحبة يا فتاة. معذرة، فلتتفضَّلي بالداخل وسأعد لك بعض الشاي».

قالت بيڤرلي بوهن: «لا، لا أستطيع»، لكنها في الحقيقة كانت تشعر بالشحوب والإعياء بالفعل، كزجاج تكاثف الضباب عليه ولم تعد قادرًا على النظر من خلاله. الشاي فكرة جيِّدة، وربَّما مِقعد أيضًا كي تجلس عليه وهي تشربه.

قالت السيِّدة كارش بحميمية: «بل تستطيعين وستدخلين، هذا أقل ما يمكنني فعله بعدما أطلعتك على تلك الأخبار السيِّئة».

وقبل أن تستطيع الاعتراض، وجدت بيڤرلي نفسها تُقاد عبر الردهة الكئيبة إلى داخل شقتها القديمة، التي بدت الآن أصغر حجمًا بكثير، لكن أكثر أمانًا... وقد افترضت أنها شعرت بذلك الأمان لأن كل شيء تقريبًا بدا مختلفًا. بدلًا من الطاولة الفورميكا وردية السطح بكراسيها الثلاثة، توجد منضدة دائرية صغيرة، لا يعدو حجمها حجم كومود صغير، وعليها مزهرية تحوي أزهارًا صناعية. بدلًا من الثلاجة كلڤيناتور بسقفها المنحني (التي كان والدها يصلِّحها بنفسه باستمرار)، ثمَّة ثلَّاجة كبيرة بلون النحاس. كان الموقد صغيرًا لكنه يبدو جيِّدًا، وكان موضوعًا فوقه ميكروويڤ طراز أمانا رادار-رانج. عُلِّقت ستائر زرقاء لامعة على النوافذ، واستطاعت أن ترى أصص أزهارٍ خارجها. أما الأرض التي كانت مغطَّاة بالمشمَّع عندما كانت فتاة صغيرة، نُزع المشمَّع عنها وتُركت عارية على خشبها الأصلي، الذي كان مصقولًا جيِّدًا بسبب تلميعه الدائم بالزيت.

رفعت السيِّدة كارش نظرها عن الموقد حيث وضعت برَّاد الشاي، وقالت: «هل نشأتِ هنا؟».

قالت بيڤرلي: «أجل. لكن المكان تغيَّر تمامًا الآن... صار نظيفًا ومُرتَّبًا جدًّا... إنه رائع في الحقيقة!».

قالت السيِّدة كارش: «يا لرقتك»، ثم ابتسمت ابتسامة جعلتها تبدو أصغر سِنًّا، كأنها تشع، وأردفت: «كما ترين أنا أمتلك القليل من المال، لكنني مستورة بمعاش الضمان الاجتماعي. منذ زمنٍ بعيد، كنت شابة أعيش في السويد، لقد جئت إلى هذا البلد في عام 1920. كانت سنِّي أربعة عشر عامًا، ولا مال معي، وهي الطريقة الأمثل ليتعلَّم المرء قيمة المال الحقيقية، ألا توافقينني في هذا؟».

قالت بيڤرلي: «أجل».

قالت السيِّدة كارش: «في المُستشفى عملت. لسنواتٍ عديدة، منذ عام 1925. ترقَّيت إلى منصب رئيسة العاملات. كان معي جميع المفاتيح. زوجي استثمر أموالنا بشكلٍ جيِّد، والآن ها أنا أعيش في مأواي الصغير هذا. خذي جولة يا فتاتي، حالما يغلي الماء!».

- «لا، لا أستطيع...».

- «أرجوكِ... ما زلت أشعر بالذنب. تجوَّلي في الشقَّة، لو رغبتِ!».

هكذا نهضت بيڤرلي وأخذت جولة. صارت غُرفة نوم والديها غُرفة نوم السيِّدة كارش الآن، وقد كان الفرق عظيمًا. بدت الغرفة أكثر إشراقًا وبهجةً الآن. ثمَّة خِزانة كبيرة من خشب الأرز، مُطعَّمة بالحرفين R.G.. وتفوح منها رائحة ناعمة في الهواء. ثمَّة لحاف عملاق مفرود فوق الفراش، عليه رأت رسومًا لامرأة ترفع سطل مياه من بئر، وصبية يركبون على ظهور الماشية، ورجال يكوِّمون القش. لحافٌ رائع.

أما غرفتها فصارت غرفة الحياكة. ثمَّة ماكينة خياطة سوداء طراز سينجر موضوعة على طاولة حديدية أسفل زوجين من المصابيح قويَّة الإضاءة. توجد صورة للمسيح مُعلَّقة على أحد الحوائط، وصورة لچون إف كيندي

على حائطٍ آخر. أسفل الصورة، وُضِع دولاب أواني جميل الشكل مُترَع بالكُتُب بدلًا من الخزف الصيني، لكنه لم يفقد أيًّا من بريقه بسبب ذلك.

اتَّجهت بيڤرلي إلى الحمَّام آخرًا.

كان قد أُعيط طلاؤه بلونٍ الوردي خافت وبهيج لا يبدو فجًّا. كانت جميع تجهيزاته جديدة، ورغم ذلك، اقتربت بيڤرلي من الحوض شاعرة بأن الكابوس القديم يجذبها مرَّة أخرى. سوف تنظر عبر تلك العين السوداء التي لا جفن لها، ولسوف تسمع الهمس، ثم ستتدفَّق الدماء...

انحنت فوق الحوض، واختلست نظرة سريعة إلى وجهها الشاحب وعينيها الغائرتين في المرآة التي تعلوه، ثم حدَّقت إلى العين، وانتظرت سماع الأصوات.. الضحكات.. الأنين.. الدماء.

كم لبثت من الوقت هناك، مُنحنية فوق الحوض، تنتظر مرأى ومسمع أشياء مضى عليها سبع وعشرون سنة؟ لا تعلم بالضبط. في النهاية أوقظها صوت السيِّدة كارش الذي يدعوها إلى الرجوع. «الشاي، يا آنسة!».

انتفضت مُغادرة الحمَّام، وقد فاقت من تنويمها الإيحائي المؤقَّت. إذا كان هناك سحرٌ أسود ما أسفل تلك البالوعة، فهو قد رحل الآن... أو غفا على الأقل.

- «أوه، لم يكن من الضروري إرهاق نفسك!».

نظرت إليها السيِّدة كارش بوجهٍ مُشرق، وابتسمت قائلة: «أوه يا فتاتي، لو تعلمين كم أن الصحبة نادرة هذه الأيَّام، ما كنت ستقولين ذلك. يا إلهي، أنا أفعل أكثر من ذلك لموظَّف مياه محطَّة بانجور عندما يأتي لقراءة عدَّادي! لقد جعلته بدينًا!».

كانت هناك أطباق وأكواب رقيقة موضوعة على المنضدة الدائرية، لونها أبيض عاجي ومُحدَّدة بخطٍّ أزرق. يوجد طبق يحتوي بعض الكعك والبسكويت، وبجواره إبريق شاي جميل يتصاعد منه بخار مُعتدل ورائحة ذكية. سرحت بيڤرلي مُفكِّرة أن الأمر الوحيد الناقص هو بعض الشطائر الصغيرة مُقطَّعة الحواف: شطائر العمَّات، كما اعتادت أن تصفها. توجد ثلاثة أنواع من فطائر العمَّات: الجبن الطري بالزيتون، والجرجير، وسلاطة البيض.

قالت السيِّدة كارش: «اجلسي. اجلسي يا آنسة، وسأصب الشاي لكِ».
قالت بيڤرلي: «لست آنسة»، ورفعت يدها اليسرى لها كي تُريها خاتم الزواج.
ابتسمت السيِّدة كارش وحرَّكت يدها في الهواء، في إيماءة معناها أن هذا لا يهم، وقالت: «أنا أدعو كل الفتيات الصغيرات الجميلات آنسات. مُجرَّد عادة. لا تأخذيها كإهانة».
قالت بيڤرلي: «لا، على الإطلاق». لكنها شعرت لسببٍ ما بمسحة خافتة جدًّا من عدم الراحة: ثمَّة شيءٌ في ابتسامة المرأة العجوز يبدو... ماذا؟ مُزعجًا؟ زائفًا؟ ماكرًا؟ يا له من تفكيرٍ سخيف، أليس كذلك؟
- «لقد أحببت لمساتك على المكان».
قالت السيِّدة كارش: «أحقًّا»، وصبَّت الشاي الذي بدا لونه داكنًا وعكرًا. لم تشعر بيڤرلي برغبة في احتسائه حقًّا... وفجأة شعرت برغبة أكيدة في مغادرة المكان.
لقد كان الاسم المكتوب أسفل جرس الباب مارش بالفعل، هكذا همس لها عقلها، ما أشعرها بالذُّعر.
ناولتها السيِّدة كارش الشاي.
قالت بيڤرلي: «أشكرك». إن مظهره يبدو مليئًا بالعكارة فعلًا، لكن رائحته رائعة. تذوَّقته. إنه جيِّد. كفاك سخافة، هكذا قالت لنفسها. «دولاب الأواني الذي لديك قطعة فنِّية».
- «قطعة أثرية، ذلك الدولاب!». هكذا قالت السيِّدة كارش، وضحكت. لاحظت بيڤرلي أن جمال المرأة العجوز تشوبه شائبة واحدة فقط، لكنها شائبة شائعة إلى حدٍ ما هنا في الشمال. كانتِ أسنانها قميئة. تبدو قويَّة، لكن جميعها قميء. كانت صفراء، والسنَّتان الأماميَّتان تركب إحداهما فوق الأخرى. أما أنيابها فبدت طويلة جدًّا، تقريبًا كأنياب الضواري.
لقد كانت أسنانها بيضاء... عندما فتحت الباب وابتسمت وقُلتِ لنفسك كم هي بيضاء.

فجأة، لم تعد بيڤرلي تشعر ببعض الخوف فحسب، فجأة شعرت برغبة عارمة في الخروج من هنا، بل كانت في حاجة ماسة إلى هذا.

تنهَّدت السيِّدة كارش قائلة: «قديمٌ جدًّا، أوه أجل!»، وجرعت كوب الشاي في يدها كله جرعة واحدة بصوت مُفاجِئ مرتفع. ابتسمت المرأة إلى بيڤرلي كاشفة عن أسنانها، ولاحظت بيڤرلي أن عيني المرأة قد تغيَّرتا. صارت القرنيتان صفراوين.. عتيقتين.. وتغزوها خطوطٌ حمراء غائمة. خفَّ شعرها، وبدت جدائله مشعَّثة، ولم يعد فِضِّيًّا بشُعيراتٍ ذهبية، بل تحوَّل إلى رماديٍّ باهت.

– «عتيق جدًّا»، هكذا غمغمت السيِّدة كارش من وراء كوبها الفارغ، وهي تنظر بمكر إلى بيڤرلي بعينيها الصفراوين. برزت أسنانها الناتئة من خلف تلك الضحكة المُثيرة للاشمئزاز.. الشبقة تقريبًا. «من موطني، أتيت به. هل لاحظت حرفي RG عليه؟».

– «أجل». كان صوتها يأتي من بعيد جدًّا، بينما جزء من عقلها يصرخ: إذا لم تكن تعرف أنكِ لاحظتِ التغيرُّ الذي طرأ عليها فرُبَّما ما زلت في مأمن، إذا لم تعرف، إذا لم تر...

قالت المرأة: «أبي...»، ناطقة إيَّاها أبويا، ولاحظت بيڤرلي أن ثوبها تبدَّل بدوره. صار أسود خشنًا وباليًا، وصارت الحُلية على صدرها جمجمة بفم مفتوح على اتِّساعه بشكلٍ مريض. «اسمه روبرت جراي، لكنه معروف أيضًا باسم بوب جراي، ويشتهر أكثر باسم بيني وايز، المُهرِّج الراقص. رغم أن هذا لم يكن اسمه أيضًا. لكن دُعاباته الخاصة كانت تروق له، أبويا».

ضحكت المرأة من جديد. استحالت بعض أسنانها سوداء كثوبها، وصارت التجاعيد في جلدها أخاديد الآن، وأصبحت بشرتها الحليبية الوردية صفراء سقيمة. صارت الأصابع مخالب، وابتسمت المرأة ابتسامتها المُريعة إلى بيڤرلي: «فلتأكلي شيئًا يا عزيزتي». لقد غلظ صوتها قليلًا، وصار مُتشقِّقًا كصوت باب سرداب قديم يتأرجح بجنون على المفصلات مسدودة بطمي جافٍ أسود.

– «لا، شكرًا لكِ». سمعت بيڤرلي نفسها تنطق بصوتٍ طفوليٍ رفيع أوه–

يجب-أن-أفر-من-هنا. لم تبد الكلمات نابعة من عقلها، بل خرجت من فمها ثم ارتحلت في الهواء ودلفت إلى أذنيها قبل أن تعي ما قالته.

سألتها الساحرة: «لا ترغبين؟» ثم ابتسمت وخمشت الطبق بمخالبها، وبدأت تحشر البسكويت وشرائح الكعك الرقيقة في فمها بكلتا يديها. أخذت أسنانها المُريعة تطحن وتطحن، بينما أظافر أصابعها الطويلة والقذرة تنغرس في طبق الحلوى، وتساقط الفتات على ذقنها العظمية اليابسة. كانت رائحة أنفاسها أشبه برائحة الجثث التي طال موتها وانفجرت مفتوحة بفعل غازات تحلُّلها، واستحالت ضحكاتها الآن قهقهات ميِّتة. خفَّ شعرها أكثر، وبدأت فروة رأسها الحرشفية تتكشَّف في أكثر من بقعة.

- «أوه، لكم كان يحب دعاباته، أبويا! إليك بدعابة يا آنستي، إذا كنتِ تُحبين الدُعابات: أبويا من حملني لا أمي. لقد تبرَّزني من ثقب مؤخِّرته! هي! هي! هي!».

- «يجب أن أرحل».

هكذا سمعت بيڤرلي نفسها تقول في الصوت الضعيف الواهن نفسه.. صوت فتاة صغيرة أُحرجت بشدَّة في أوَّل حفلٍ تذهب إليه. لم تكن في قدميها قوَّة قادرة على حملها، وبالكاد أدركت أن ما في كوبها ليس شايًا، بل غائط، غائط سائل، هدية صغيرة من المجارير أسفل المدينة. لقد شربت بعضًا من هذا السائل، رشفة فحسب... يا إلهي، يا إلهي، يا يسوع المُقدَّس، أرجوك، أرجوك...

كانت المرأة تنكمش أمام عينيها.. وتنحف. من تجلس أمامها حاليًا وتضحك بصوتٍ عالٍ رفيعٍ وتهتز ذهابًا وإيابًا هي عجوز شمطاء بوجهٍ أشبه بتُفاحة مُتغضِّنة.

قالت العجوز: «أوه، أنا وأبي الشيء نفسه. أنا هو، وهو أنا يا عزيزتي. إذا كنتِ حكيمة فستفرين راكضة، راكضة من حيث أتيت، راكضة سريعًا، لأن بقائك يحمل ما هو أسوأ من الموت. لا أحد ممَّن مات في ديري يموت حقًّا. لقد علِمت ذلك في الماضي، الآن صدِّقيه».

جذبت بيڤرلي ساقيها أسفلها بالحركة البطيئة. بدا الأمر لها كأنها ترى

نفسها من الخارج وهي تسحب قدميها وتتراجع مبتعدة عن المنضدة وعن الساحرة في خليطٍ من عذابٍ مذعور وعدم تصديق.. عدم تصديق لأنها أدركت للمرَّة الأولى أن منضدة غرفة الطعام الصغيرة لم تكن من خشب البلوط الداكن بل من حلوى الفادچ، وفي أثناء ما كانت بيڤرلي تنظر، كسرت الساحرة -وهي تقهقه وتختلس نظرة سريعة ماكرة إلى ركن الغرفة بعينيها الصفراوين العتيقتين- قطعة منها ودسَّتها بنهم إلى الفخ الأسود الذي هو فمها.

رأت بيڤرلي أن الأكواب سكاكر بيضاء مؤطَّرة بعناية بخطوطٍ من كريمة مصبوغة بالأزرق، أما صورة المسيح وصورة چون إف كيندي فمصنوعتين من غزل بناتٍ شفَّاف تقريبًا، وفيما كانت بيڤرلي تنظر إليهما، أخرج يسوع لسانه، وغمز لها كيندي غمزةً خبيثة.

صرخت الساحرة وأظافرها تحتك بالمنضدة المصنوعة من حلوى الفادچ: «كلنا ننتظرك يا بيڤرلي! أوه أجل! أوه أجل!».

كانت المصابيح المُعلَّقة في السقف مصنوعة من حلوى صلبة، وكساء الحوائط الخشبي عبارة عن توفي بالكراميل. نظرت بيڤرلي إلى أسفل ورأت أن قدميها تتركان آثارًا على ألواح الأرضية، التي لم تكن ألواحًا بل قطع من الشيكولاتة. كانت رائحة الحلوى مُتخِمة.

يا إلهي! أنا في قصَّة هانزل وجريتل. إنها الساحرة التي طالما أثارت ذعري لأنها تلتهم الأطفال...

صرخت الساحرة وضحكت: «أنت وأصدقاءك! أنت وأصدقاءك في القفص! حتَّى يغلي الماء»، وصرخت بضحكة جعلت بيڤرلي تركض نحو الباب، لكن بدا أنها تركض بالحركة البطيئة. تردَّدت ضحكة الساحرة وحامت حول رأسها كسحابة من خفافيش. كانت ردهة الشقة تفوح برائحة عفنة هي خليط من السُكَّر والنوجا والتوفي وفراولة صناعية مُقزِّزة. مقبض الباب الذي كان من الكريستال الصناعي عندما أتت، صار الآن ألماسة ضخمة من السُكَّر.

- «أنا أقلق عليكِ يا بيڤي... أقلق كثيرًا».

التفت بيڤرلي مُستديرة، ودوَّاماتِ الشعر الأحمر تطفو حول وجهها، لترى

والدها يتقدَّم نحوها عبر الرواق وهو في ثوب الساحرة الأسود وعلى رقبته حُلية الجمجمة. كانت تتدلَّى من وجهه نسائل عجينية من اللحم الممهوك، وعيناه سوداوان كالزجاج البُركاني، وكفَّاه ينقبضان وينبسطان تباعًا، وفمه مشدود في ابتسامة مسعورة.

– «لقد كنت أضربك لأنني أردت نيكك يا بيڤي، لطالما كان هذا كل ما رغبته، أن أنكحك، أن ألتهمك، ألتهم فرجك. كم كنت أريد امتصاص بظرك بين أسناني، يام–يام، كم هو لذيذ يا بيڤي، أوووووه، لذيذ في فمي، لكم أردت أن أضعك في قفصٍ... ثم أحمي الفرن... وألمس فرجك... فرجك الممتلئ... وعندما ينتفخ بما يكفي لأكله... لأكله... آكله...».

صارخة، أمسكت بيڤرلي بمقبض الباب اللزج واندفعت خارجة إلى شُرفة الشقة التي كانت مُزيَّنة بحلوى البارلين ومرصوفة بالفادچ. من بعيد، وبصورة ضبابية مُعتمة، استطاعت رؤية السيَّارات تروح وتجيء، ورأت امرأة تدفع عربة مليئة بالبقالة التي ابتاعتها من متجر كوستيلو.

فكَّرت بيڤرلي: يجب أن أخرج من هنا، إلى العالم الحقيقي في الخارج، فقط إذا استطعت الوصول إلى الرصيف...

قال أبوها: «لن يُفيدك الفرار بشيءٍ يا بيڤي».

(أبويا)

ثم أردف: «لقد انتظرنا هذه اللحظة زمنًا طويلًا. سيكون هذا مُمتعًا. سيكون مذاقه لذيذًا في فمَّينا».

نظرت خلفها من جديد. الآن لم يعد والدها الميِّت يرتدي رداء الساحرة الأسود، بل حُلَّة مُهرِّج بكُرياتٍ زغبية برتقالية كبيرة على الصدر، وعلى رأسه تجثم قلنسوة من فراء الرَّاكون موضة عام 1958، التي أكسبها فيس باركر شعبية كاسحة في فيلم ديزني عن ديڤي كروكيت. كان يمسك في إحدى يديه بحفنة من البالونات، وفي اليد الأخرى يحمل ساق طفل كأنها فخذ دجاجة، وعلى كل بالونة كُتِبَ: الشَّيءُ جاء من الفضاء الخارجي.

قال لها مُبتسمًا ابتسامته الغائرة وهو يتقدَّم مُترنِّحًا هابطًا درجات الشُرفة الأرضية وراءها: «أخبري أصدقاءك أنني آخر الباقين من جنسٍ مُحتضر،

الناجي الوحيد من كوكبٍ يموت. لقد أتيت لسلب كل النساء، واغتصاب جميع الرجال، وتعلُّم رقصة بيبرمينت تويست!».

بدأ الشيءُ يرقص رقص الزنوج المحموم، قابضًا البالونات في يدٍ والساق المقطوعة النازفة في اليد الأخرى. كانت حُلَّة المُهرجين تتلوَّى وترفرف، لكن بيڤرلي لم تكن تستشعر هبوب أيِّ رياح. تعثَّرت إحدى ساقيها في الأخرى وسقطت على رصيف الشارع فاردة كفَّيها لامتصاص الصدمة التي سرت في ذراعيها وصولًا إلى كتفيها. توقَّفت المرأة التي تدفع عربة البقالة ونظرت إليها بارتياب، ثم أسرعت في خطاها أكثر.

تقدَّم المُهرِّج إليها من جديد، وألقى بالساق المقطوعة جانبًا. سقطت الساق على الأرض برطمة مُريعة لا توصف. ظلَّت بيڤرلي ممدَّدة على الرصيف لحظات، شاعرة أنها ستستيقظ في أيِّ لحظة قريبًا، لأن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا، لا بُدَّ أنها حلم...

ثم أدركت أن هذا ليس صحيحًا قبل أن تلمسها أصابع المُهرِّج ذات المخالب الطويلة المقوَّسة. إن الشَّيءَ حقيقي، ومن الممكن أن يقتلها، كما قتل الأطفال من قبلها.

- «السوادية تعرف اسمك الحقيقي!». هكذا صرخت بيڤرلي فجأة. تراجع الشَّيءُ، وبدا لها للحظة أن ابتسامته المشدودة وسط أحمر الشفاه القاني تحوَّلت إلى عبوسٍ من الألم والكراهية، ورُبَّما الخوف كذلك. رُبَّما هذه مُخيِّلتها فقط. بالتأكيد لم تكن بيڤرلي تعرف ما الذي دفعها لأن تقول مثل هذا القول الغريب، لكنه ابتاع لها لحظة من الوقت.

نهضت بيڤرلي على ساقيها وركضت. صوت أنين مكابح قوي، ثم صياح خشن أجش يصرخ: «لِمَ لا تنظرين إلى أين أنت ذاهبة أيَّتُها الغبية المتأنِّقة!». أدركت بوعيٍ مشوَّش أن شاحنة مخبوزات كادت أن تصدمها عندما اندفعت إلى الشارع كطفلة تركض خلف كرة مطَّاطية، ثم وجدت نفسها تقف على الرصيف الآخر تلهث، وثمَّة نغزة ألم حارقة في جانبها الأيسر. مضت شاحنة المخبوزات في طريقها إلى جنوب الشارع الرئيس.

لقد اختفى المُهرِّج، واختفت الساق، وحده المنزل ظلَّ هناك، لكنه

بدا الآن على حقيقته، متداعيًا ومهجورًا، ونوافذه مغلقة بألواح الخشب، والدرجات التي تقود إلى شُرفته الأرضية مشقَّقة ومتكسِّرة.

هل كنت هناك حقًّا، أم كان كل هذا مُجرَّد حُلم؟

لكن سراويلها الجينز كانت متَّسخة، وبلوزتها الصفراء مُلطَّخة بالغبار.

كما توجد بقايا شيكولاتة بين أصابعها.

دعكت بيڤرلي أصابعها في ساقي سراويلها وجدَّت في سيرها.. وجهها مُتَّقد، وظهرها بارد كالجليد، وعيناها تنبضان في تزامن مع نبض قلبها القوي.

لن نستطيع هزيمة الشَّيء. أيًّا كان كنه الشَّيء، فلن نستطيع هزيمته. إنه يريدنا أن نحاول.. إنه راغب في تسوية الحساب القديم. لا أعتقد أنه سيرضى بالتعادل. يجب أن نرحل عن هنا.. يجب أن نغادر فحسب.

احتكَّ شيءٌ بربلة ساقها، خفيفًا كمخلب قطٍّ فضولي.

إنها بالونة، صفراء بلون بلوزتها، ومكتوبٌ على جانبها بلونٍ أزرق مُشِع: هذا صحيح يا عِكرشة!

وفيما كانت تنظر إليها، راحت البالونة تتقافز متهادية عبر الشارع، مدفوعة بنسيم نهايات الربيع الرقيق.

3

ريتشي توزيبه يُهرول هَرِعًا

حسنًا، في أحد الأيَّام طاردني هنري وأصدقاؤه.. كان هذا قبل انتهاء الدراسة...

كان ريتشي يسير على تخوم شارع القناة، بعد حديقة باسي. لكنه توقَّف الآن، داسًّا يديه في جيبيه، وراح ينظر في اتِّجاه جسر القُبُلات دون أن يراه حقًّا.

لقد ضللتهم في قسم الألعاب من متجر فريسي...

منذ ختام غداء لَمِّ الشمل الجنوني وريتشي توزيبه يسير في الطرقات بلا هدف، محاولًا استيعاب الأشياء المريعة التي كانت في كعكات الحظ... أو

الأشياء المريعة التي «بدت» في تلك الكعكات. فكَّر ريتشي أن لا شيء على الأرجح خرج من الكعك. إنها هلوسة جماعية انتابتهم بسبب الهُراء المخيف الذي كانوا يتحدَّثون عنه. أفضل إثباتٍ لهذه الفرضية أن روز لم ترَ شيئًا على الإطلاق. صحيح أن والدي بيفرلي لم يستطيعا رؤية أيٍّ من الدماء التي خرجت من بالوعة الحمَّام أيضًا، لكن ذلك أمر مُختلف.

حقًّا؟ لماذا؟

غمغم ريتشي: «لأننا كِبار الآن»، ثم اكتشف أن الفكرة بلا قوَّة ولا منطق على الإطلاق.. إنها هُراء كامل أشبه بترنيمة طفل ينط الحبل ويهذي بكلامٍ مسجوعٍ كيفما اتفق.

بدأ ريتشي في السير من جديد.

بعدها ذهبت إلى مركز المدينة وجلست على إحدى دكك الحديقة لبُرهة، وظننت أنني رأيت...

توقَّف من جديد قاطبًا جبينه.

رأيت ماذا؟

... ما رأيته كان حُلمًا فحسب.

أكان كذلك؟ أكان كذلك حقًّا؟

نظر ريتشي إلى يساره ورأى مبنى من الزجاج والطوب اعتاد أن يبدو عصريًّا تمامًا في أواخر الخمسينيات، لكنه يبدو الآن أثريًّا ومبتذلًا.

ها أنا ذا عُدت إلى مركز المدينة اللعين. المكان الذي اعترتني فيه تلك الهلوسة الأخرى القديمة، أو الحلم، أو أيًّا كان.

لقد شعر بقيَّتهم في اجتماعهم الأخير أنه لم يتغيَّر. رأوه كمُهرِّج الفصل، كساخرٍ مجنون، وقد انزلق بالفعل مُتقمِّصًا ذلك الدور القديم بمنتهى السهولة واليُسر. آه، لقد انزلقنا جميعًا إلى أدوارنا القديمة من جديد، ألم تلحظ ذلك؟ لكن أيوجد أمرٌ غريب أو غير مُعتاد في ذلك؟ فكَّر ريتشي أن هذا يحدث في أيِّ اجتماع لمِّ شملٍ لأصدقاء مدرسة قدامى بعد عشرة أو عشرين عامًا. يجد بهلوان الفصل الذي اكتشف في الجامعة طريق التديُّن نفسه يعود تلقائيًّا إلى المتذاكي الذي كانه قديمًا بعد احتساء كوبين من الخمر. يبدأ المثقَّف

الألمعي الذي انتهى به الأمر كوكيل لشركة چي إم للشاحنات فجأة في تصديع الرؤوس بالحديث عن چون إيرفينج وچون شيفر. يجد الزميل الذي اعتاد عزف أغنيات فرقة مووندوجز في أمسيات الأحد والذي صار أستاذًا في الرياضيات في جامعة كورنيل نفسه فجأة على المسرح مع الفرقة، بجيتار على كتفه، ويغني «جلوريا» أو «سيرفنج بيرد» بحماسة شديدة وهو في حالة سُكرٍ جذلة. ما الذي كان سبرينجستين يقوله في الأغنية؟ لا تراجع يا صغيرتي، ولا استسلام... من السهل أن تبدأ كلمات الأغاني القديمة في إلهامك بعد احتساء كوبين من الشراب أو تدخين بعض الماريجوانا.

لكن ريتشي كان يعتقد أن العودة إلى الجذور هي الهلوسة، لا الحياة الحالية. قد يكون نضج المرء أرشيف الماضي وميراثه ووليدته، لكن كثيرًا ما تختلف أهواء الآباء والأبناء وتتباين ميولهم تمامًا بحيث لا يتشاركون إلا في تشابهٍ خارجي عابر. إنهم...

لكنك ذكرت البلوغ والكِبَر، الآن يبدو كلا المُترادفين هُراءً كاملًا.. مُجرَّد ثرثرة ولغوٍ فارغ. لماذا يا ريتشي؟ لماذا؟

لأن ديري ما زالت غريبة الآن كما كانت في أيِّ وقتٍ مضى. لِمَ لا نترك الأمر وشأنه عند هذه النقطة؟

لأن الأشياء ليست بهذه البساطة، هذا هو السَّبب.

في طفولته اعتاد أن يكون مهذارًا، وسليطًا أحيانًا، وكوميديًّا خفيف الدم أحيانًا أخرى، لأن هذه كانت طريقته في مواصلة الحياة دون أن يضربه فتية كهنري باورز، أو أن يطير صوابه من الشعور بالملل والوحدة. لقد أدرك الآن أن جزءًا كبيرًا من المشكلة يقبع في عقله، الذي كان يعمل عادةً أسرع من عقول زملائه بعشر أو عشرين مرَّة. كانوا يظنونه مُختلفًا، وغريب الأطوار، أو حتَّى انتحاريًّا، بسبب الأعمال الطائشة التي يرتكبها. لكن رُبَّما كان لحالته تفسير بسيط، كأن يكون عقله يعمل مزوِّد سُرعة، إذا كان ثمَّة أيُّ بساطة في أن يعمل عقلٌ بمزوِّد سُرعة.

على أيِّ حال، كانت حالته من الأشياء التي يمكن أن توضع تحت السيطرة بعد فترة... توضع تحت السيطرة أو تجد مُتنفَّسًا لها، عن طريق شخصيات

ككينكي بريفكيس أو بوفورد كيسدريڤل على سبيل المثال. لقد اكتشف ريتشي ذلك في الشهور التي تلت تجوُّله العابر في محطَّة إذاعة الجامعة، وقد اكتشف كل ما يرغب فيه حقًا بعد أسبوعه الأوَّل خلف الميكروفون كمُذيع. لم يكن بارعًا تمامًا في البداية. كان أكثر حماسة من أن يسيطر على نفسه ويصير بارعًا. لكنه فهم حجم إمكاناته التي لن تمكِّنه فقط من البراعة في تلك المهنة، وإنما التعملُق فيها.. وهذه المعرفة وحدها كانت كفيلة بأن تُحلِّق به إلى القمر على سحابة من النشوة، وفي الوقت نفسه بدأ ريتشي يدرك المبدأ العظيم الذي يسير العالم به، أو على الأقل ذلك الجزء من العالم المُتعلِّق بالحياة المهنية والنجاح: يجب عليك العثور على الطفل العابث المجنون الذي يجري في دمائك ويعيث فسادًا في حياتك. يجب أن تحصره في زاوية وتُمسك به، لكنك لن تقتله ما إن تفعل. أوه لا. إن القتل لرحيم لمثل هذا الوغد الصغير. بل ضع لجامًا في فمه وسرجًا على ظهره وابدأ في الحرث. سيكد الطفل العابث في العمل كالشيطان ما إن تضعه على الطريق، بل سيمدك ببعض الهأهآت من حين إلى آخر. هذا كل شيء في الحقيقة، لكنه كافٍ.

لقد اعتاد أن يكون مضحكًا تمامًا، هذا صحيح، لكنه في النهاية استطاع تجاوز الكوابيس التي تقطن الجانب المُظلم من تلك الضحكات، أو هكذا ظن أنه فعل. إلى أن جاء اليوم ولم تعد لفظة بالغ فجأة تعني شيئًا في أُذُنيه.

الآن، ها هو شيء آخر يجب أن يتعامل معه، أو على الأقل أن يفكِّر فيه. ها هو تمثال بول بونيان المُنتصب أمام مبنى مركز المدينة.

لا بُدَّ أنني الاستثناء الذي يؤكِّد القاعدة يا بيل الكبير.

هل أنت واثق من أن شيئًا لم يحدث معك؟ لا شيء على الإطلاق يا ريتشي؟

هناك عند مركز المدينة... لقد ظننت أنني رأيت...

انغرس ألمٌ حادٌ في عينيه لثاني مرَّة اليوم، فأنشب أصابعه فيهما وراح يحكَّهما، وفلتت منه أنَّةٌ جافلة. ثم تلاشى الألم سريعًا من جديد مثلما بدأ. لكنه اشتم شيئًا أيضًا، أليس كذلك؟ شيئًا لم يكن له وجودٌ حقيقي، لكنه موجود في الوقت ذاته.. شيئًا جعله يُفكِّر في

(أنا هنا بجوارك تمامًا يا ريتشي، اقبض يدي جيدًّا، تمسَّك بها)

مايك هانلون. ما جعل عينيه تلسعانه وتدمعان لهو دُخان ما.. لقد اشتمَّوا هذا الدُخان منذ سبعة وعشرين عامًا، وفي النهاية لم يتبقَّ في المكان إلا هو ومايك، وقد شاهدا...

لكن الذكرى تلاشت مرَّة أخرى.

تقدَّم ريتشي خطوة أخرى من تمثال بول بونيان البلاستيكي، مأخوذًا من ابتذاله البهيج الآن بقدر ما أربكه حجمه الطاغي وهو طفل. إن بول الأسطوري يرتفع عشرين قدمًا في الهواء، وقد أضافت قاعدته ستة أقدام أخرى إلى ارتفاعه. كان يقف مُبتسمًا ناظرًا إلى أسفل نحو المارة والسيَّارات عند الحدود الخارجية لشارع القناة وأمام حديقة مبنى مركز المدينة. لقد أُنشئ مركز المدينة بين عامي 1954 و1955 كمقر فريق كرة سلَّة للناشئين لم ير النور قط. بعدها بعام، في 1956، صوَّت مجلس المدينة لجمع مالٍ لشراء التمثال. لقد نوقش أمر التمثال بشكل مُحتدم سواء في اجتماعات المجلس العامة أو في أعمدة مقالات مُحرِّري جريدة أخبار ديري. كثيرون ظنوا أنه سيكون تمثالًا مثاليًا رائعًا، وأنه سيخدم بالتأكيد كمزارٍ سياحي بارز، لكن آخرين شعروا أن فكرة وضع تمثالٍ من البلاستيك لبول بونيان لَهو أمر شنيع الذوق، بل مُبهرج ومبتذل بشكلٍ لا يُصدَّق. تذكَّر ريتشي أن مُدرِّسة الرسم في المدرسة الثانوية كتبت خطابًا إلى جريدة الأخبار تقول فيه إنه إذا انتصب شيءٌ بمثل هذا القُبح في ديري حقًّا، فأنها سوف تُفجِّره. تساءل ريشتي مُبتسمًا ما إذا كان عقد هذه الصغيرة قد تجدَّد لسنة أخرى.

ظل الجدال مُحتدمًا لستَّة أشهر، وقد أدرك ريتشي الآن أنه -الجدال- كان نموذجًا مثاليًا لجدال البلدات الكبيرة/ المدن الصغيرة الذي لا يعدو أكثر من زوبعة في فنجان، وبطبيعة الحال لم يكن له أدنى معنى، ولم يكن أحد في الخارج يدري بأمره. في النهاية، اشتُري التمثال، وحتَّى إن كان مجلس المدينة قد فعل أمرًا غريبًا شاذًا -خاصةً بالنسبة إلى نيو إنجلاند- كأن يُقرِّر عدم استخدام بندًا أُنفق مالًا لحيازته، فأين بحق الرب كانوا سيُخزِّنونه؟ هكذا نُصِّب التمثال -الذي لم يكن منحوتًا بل صُبَّ في قالب في أحد مصانع

البلاستيك في أوهايو- في موقعه الحالي، وهو ما زال ملفوفًا كمومياء في شرائط قماشية عملاقة تصلح لأن تكون أشرعة مركبة شراعية ضخمة. ثم أُميط اللثام عنه في 13 مايو عام 1957، في عيد مجالس بلدية المدينة وضواحيها المئة والخمسين. تنبّأ أحد الفصيلين المتجادلين بحدوث موجات غضب جماهيرية، بينما تنبّأ الفصيل الآخر بموجة من الترحيب البهيج.

عندما أُميط اللثام عن تمثال بول الحطّاب في ذلك اليوم كان يرتدي عفريتة العُمَّال وقميصًا ذا مُربَّعات أحمر في أسود. كانت لحيته سوداء رائعة، لحية حطّابين نموذجية تامة الاكتمال. على أحد كتفيه فأس بلاستيكي عملاق، فيما يبتسم هو بلا انقطاع صوب السماوات الشمالية، التي كانت في يوم كشف النقاب زرقاء بلون جلد الثور ذائع الصيت رفيق بول في التماثيل (رغم أن الثور لم يكن موجودًا يوم إماطة اللثام، فقد كانت التكلفة التي قُدِّرت لإضافة تمثال ثورٍ أزرق إلى الوحدة الفنية باهظة).

شعر الأطفال الذين حضروا مراسم الاحتفال بسعادة منقطعة النظير بالعملاق البلاستيكي (كان ثمَّة مئات منهم، وكان من ضمنهم ريتشي توزييه وهو في العاشرة برفقة والده). رفع الآباء أبناءهم على القاعدة المُربَّعة التي يقف عليها بول، والتقطوا صورًا لهم، ثم وقفوا يراقبون بمزيجٍ من الاستمتاع والقلق الأطفال وهم يتسلَّقون ويزحفون ضاحكين مُستمتعين على حذائي بول الأسودين العملاقين (عذرًا تصحيح: حذائي بول الأسودين العملاقين البلاستيكيين).

ثم في مارس من العام التالي، انتهى الأمر بريتشي على إحدة الدكك المتناثرة أمام التمثال بعدما راوغ بالكاد السَّادة باورز وكريس وهاجنز في مطاردة طويلة استهلَّت في مدرسة ديري الابتدائية، وساقته عبر معظم منطقة وسط المدينة، إلى أن تخلَّص منهم نهاية المطاف في قسم ألعاب متجر فيرسي.

كان فرع ديري من سلسلة متاجر فيرسي مكانًا بائسًا مُقارنةً بالمتجر عظيم المساحة في وسط مدينة بانجور، لكن ريتشي كان في وادٍ بعيد تمامًا ليتذمَّر على مثل هذه الأمور. في تلك اللحظة كان المكان بمثابة ميناء آمن

وسط عاصفة هوجاء. كان هنري باورز خلفه تمامًا، وفي ذلك الوقت كانت قوى ريتشي قد وهنت تمامًا. لقد تملَّص مراوغًا ودلف إلى المتجر كملاذٍ أخير عبر الباب الدوَّار. أما هنري -الذي لم يكن يعرف آلية عمل مثل هذه الأجهزة- فكاد أن يفقد أطراف أصابعه وهو يحاول الإمساك بريتشي، في اللحظة التي دُفِع فيها ريتشي متدحرجًا إلى داخل المتجر بقوَّة دوران الباب.

مندفعًا إلى الطابق السُفلي، وطرف قميصه الخلفي يتطاير من ورائه، سمع ريتشي صوت تفريغ هواء عالٍ من الباب الدوار كصوت أعيرة نارية آتية من تلفازٍ مُرتفع الصوت، وأدرك أن البلهاء الثلاثة لاري وموي وكيرلي ما زالوا في أعقابه. كان ريتشي يضحك وهو يهبط الدرج إلى الطابق السُفلي، لكن ذلك لم يكن سوى فرط عصبية. لقد كان مذعورًا كأرنب علق في سلكٍ شائك. كانوا ينوون ضربه بشكلٍ مُبرح هذه المرَّة (ولم تكن لديه أدنى فكرة وقتها أنه بعد نحو عشرة أسابيع من اليوم سيؤمن بأن ثلاثتهم -خاصةً هنري- قادرون على فعل أيِّ شيءٍ بهم دون القتل، وبالتأكيد كان سيشحب من الصدمة إذا عرف بأمر مناوشة الحجارة المروِّعة التي ستقع في يوليو، والتي سيتلاشى بعدها ذلك الاستثناء الأخير من عقله). كانت هذه المُطاردة برُمَّتها من البداية شديدة الحمق.

كان ريتشي وباقي الصبية في الصف الخامس يدخلون إلى صالة الألعاب الرياضية في الوقت الذي يخرج فيه تلاميذ الصف السادس، وهنري بينهم عملاق كثورٍ بين أبقار. رغم أن هنري كان لا يزال في الصف الخامس، فقد اعتاد ارتياد صالة الألعاب مع الفتية الأكبر سنًّا. كانت المواسير التي تجري بطول السقف تقطر ماءً من جديد، ولم يكن السيِّد فازيو قد وضع بعد لافتة احترس! الأرض مبتلَّة! على حاملها الصغير. انزلق هنري في بركة ماء صغيرة وسقط على مؤخِّرته.

قبل أن يستطيع إيقافه، انفلت لسانُ ريتشي الخائن وقال: «هنيئًا لك يا عجل!».

انفجرت موجة ضحك بين زملاء هنري وزملاء ريتشي، لكن لم يكن ثمَّة أدنى ابتسام على وجه هنري وهو يلملم نفسه ناهضًا، بل احمرار غاضب كجمرٍ حديث الاشتعال.

- «اصبر على نفسك يا ذا الأربع عيون». قالها هنري، وواصل سيره.

مات الضحك على الفور. نظر جميع الصبية إلى ريتشي على أنه شخصٌ ميِّت. لم يكلِّف هنري نفسه عناء التوقُّف لاستبصار ردَّة الفعل على الوجوه، بل واصل سيره ببساطة، برأسٍ مُنخفض وكوعين حمراوين من أثر السقطة وبقعة كبيرة من البلل على مِقعدة سراويله. شاهد ريتشي هذه البقعة المُبتلَّة، وشعر بفمه الانتحاري يُفتح من جديد... لكنه أغلقه هذه المرَّة بسرعة كبيرة كاد بها أن يقضم طرف لسانه بأسنانه.

حسنًا، لسوف ينسى، هكذا أخبر ريتشي نفسه على مضض وهو يُبدِّل ملابسه استعدادًا لحصَّة الرياضة. بالتأكيد سينسى. هذا الرفيق لا يملك دوائر ذاكرة نشطة كثيرة، لا بُدَّ أنه ينظر حوله بحثًا عن كتيب إرشادات في كل مرَّة يغوط فيها. ها-ها.

ها-ها.

قال له فينيس تاليندو الذي يشتهر بعبثه الدائم في منخاره وهو يضع الواقي الرياضي على قضيبه الذي في حجم وشكل حبَّة فول سوداني عجفاء: «أنت ميِّت يا طويل اللسان»، قالها بثقة وحزن، ثم أردف: «لكن لا تقلق، سأجلب الزهور من أجلك».

قال ريتشي بذكاء: «بل اقطع أذنيك، فنحن في حاجة إلى زهرة القرنبيط». ضحك الجميع، بما فيهم الرفيق تاليندو العابث في منخاره. لِمَ لا يضحكون وجميعهم لديه رفاهية الضحك؟ مِمَّ سيقلقون؟ سيعود جميعهم إلى منازلهم ويشاهدون چيمي دود والماوسكتيرز في برنامج نادي ميكي ماوس أو سيستمعون إلى فرانكي ليمون وهو يغني «لأنني لست من المجرمين الأحداث» في برنامج أمريكان باندستاند، بينما ريتشي يشق طريقه زاحفًا على أربع كالحمار بين ملابس النساء الداخلية والأدوات المنزلية في طريقه إلى قسم الألعاب، والعرق ينزلق من ظهره إلى فلق مؤخِّرته، وتشتد أوتار خصيتيه إلى أن تلتصق بجسده من فرط الذُعر. بالتأكيد يستطيعون الضحك. هأو-أو-أو-أو.

لم ينسَ هنري الأمر. لقد غادر ريتشي من باب حضانة الأطفال في نهاية

مبنى المدرسة على سبيل الاحتياط، لكن هنري كان قد وضع بيلش هاجنز هناك، على سبيل الاحتياط أيضًا. هأو-أو-أو-أو.

لكن ريتشي لمح بيلش أوَّلًا، وإلا كانت المُطاردة ستُحسم في التوِّ. كان بيلش ينظر في اتِّجاه حديقة ديري، مُمسكًا بسيجارة غير مُشتعلة في يدٍ، وباليد الأخرى يُخرج مِقعدة سراويله القماشية الضيِّقة المحشورة في مؤخِّرته. بقلبٍ يخفق بعنف، سار ريتشي بهدوء عبر فناء المدرسة، وبالكاد استطاع الوصول إلى شارع شارتر قبل أن يلتفت بيلش ويراه، قبل أن يصيح مناديًا هنري وڤيكتور، ومن هنا بدأت المطاردة.

عندما وصل ريتشي إلى قسم الألعاب كان خاويًا تمامًا من البشر. كان مهجورًا بشكلٍ مُفزِع. لم يكن يوجد حتَّى موظَّف مبيعات يتسكَّع في المكان، وهو شخص بالغ تتركَّز وظيفته في الترحيب بالأطفال الزائرين ووضع حدٍّ للأمور قبل أن تخرج عن السيطرة. استطاع ريتشي سماع صوت اقتراب الدينوصورات الثلاثة منه الآن، لكنه لم يكن قادرًا على الركض أكثر من ذلك. كان كل نفسٍ يأخذه ينتج عنه نغزًا حارقًا في جانبه الأيسر.

ركَّز ريتشي نَظَرَهُ على الباب الذي تعلوه لافتة تقول: مخرج للطوارئ فقط! الإنذار الصوتي سيعمل عند الاستخدام! تواثب الأمل في صدره.

ركض ريتشي عبر ممرٍّ يكتظ بدُمى دونالد داك التي تقفز من الصندوق، ودبَّابات الجيش الأمريكي المصنوعة في اليابان، ومُسدَّسات صوت، وروبوتات بلاستيكية تعمل بالزنبرك، وصل إلى الباب وارتمى على المقبض العمودي بكل قوَّته. انفتح الباب سامحًا لهواء منتصف مارس البارد بالدخول. انطلق جرس التنبيه بصوتٍ مدوٍّ. عاد ريتشي أدراجه على الفور وجثم مندفعًا على يديه ورُكبتيه إلى الممرِّ التالي قبل أن يرتد الباب منغلقًا من جديد.

اندفع هنري وبيلش وڤيكتور إلى قسم الألعاب في اللحظة ذاته التي انغلق الباب فيها وتوقَّف جرس الإنذار. اندفع ثلاثتهم نحوه، يتقدَّمهم هنري، بوجهٍ صارم عازم.

جاء موظَّف المبيعات راكضًا. كان يرتدي معطفًا طويلًا أزرق من النايلون فوق سُترة مُربَّعة قبيحة تمامًا، وكان إطار نظَّارته ورديًّا بلون عيون الأرانب

البيضاء. فكَّر ريتشي أنه يبدو كالممثِّل والي كوكس في شخصية السيِّد بيبرز، واضطر أن يدسَّ فمه الخائن في لحم معصمه كي يمنعه من العواء بعواصف من الضحك.

صاح السيِّد بيبرز: «أنتم يا أولادا لا يمكنكم الخروج من هنا! هذا مخرج للطوارئ! أنتم! هاي! يا أولادا».

رمقه ڤيكتور ببعض العصبية، لكن هنري وبيلش لم يحيدا عن دربها، فتبعهما ڤيكتور. انطلق جرس الإنذار من جديد، لمُدَّة أطول هذه المرَّة، بينما ثلاثتهم يندفعون خروجًا إلى الزقاق. قبل أن يتوقَّف الرنين، نهض ريتشي على قدميه وهرول عائدًا إلى قسم ملابس السيِّدات الداخلية.

صرخ العامل فيه: «أنتم يا أولاد، ستُمنعون من دخول المتجر!».

نظر ريتشي خلفه من فوق كتفه وقال بصوت الجدَّة جرانت: «ألم يخبرك أحدٌ من قبل أنك تشبه السيِّد بيبرز أيُّها الشاب؟».

وهكذا استطاع الهرب، وهكذا انتهى به الأمر على بُعد ميل تقريبًا من متجر فيرسي وأمام مركز المدينة... وبعيدًا عن الأذى، كما كان يأمل مُخلصًا. على الأقل في الوقت الحالي، فهو منهوك القوى. جلس ريتشي على دكَّة إلى يسار تمثال بول بونيان، غير راغبٍ سوى في بعض السلام كي يستعيد شتات نفسه من جديد. بعد قليل سوف ينهض ويتَّجه إلى المنزل، لكن الآن كم كان الجلوس هنا أسفل أشعة شمس الأصيل جميلًا. لقد بدأ اليوم ببرودة قاتمة مطيرة، لكنك الآن تستطيع أن تشعُر بأن الربيع على الأبواب حقًّا.

كان يرى سُرادق مبنى مركز المدينة يلوح منتصبًا خلف الحديقة، وقد كان في هذا اليوم يحمل الإعلان التالي بحروف زرقاء نصف شفَّافة:

مرحى يا شباب!

الثامن والعشرون من مارس يقترب!

موعد حفل الروك أند رول بقيادة الدي چي آرني جينسبورج

مع أغنيات لجميع المطربين وفرقكم المُفضَّلة

چيري لي لويس

بينجوينز

فرانكي ليمون والتين-آچرز
چين فينسنت وألبوم بلو كابس
فريدي بوم بوم كانون
أُمسية رائعة من الترفيه الجيِّد!

يرغب ريتشي حضور هذا الحفل، لكنه يعلم أنه ليست أمامه فرصة لفعل ذلك. لم يكن مفهوم أمه عن الترفيه الجيِّد يتضمَّن غناء چيري لي لويس لشباب أمريكا: لدينا دجاجة في الحظيرة، حظيرة من، أيُّ حظيرة، إنها حظيرتي، ولا يتضمَّن أيضًا بالمنطق نفسه حماسة فريدي كانون في غنائه عن تالاهاسي لاسي. كانت أمه على استعدادٍ للاعتراف بأنها شاركت في الهتاف والصراخ لفرانك سيناترا (التي كانت تدعوه الآن فرانكي الماخط) عندما كانت مُهوَّسة بأغاني البوب، لكنها كانت تمقت الروك أند رول تمامًا كوالدة بيل دِنبروه. كان تشاك بيري يثير ذعرها، وقد أعلنت من قبل أن ريتشارد بينيمان -الذي يشتهر بين مُعجبيه من المراهقين وما دون المراهقين بريتشارد الصغير- جعلها ترغب في «التقيؤ كدجاجة».

كان هذا وصفًا لم يسأل ريتشي عن شرحٍ له قط.

أما والده فكان مُحايدًا بخصوص الروك أند رول، بل يُمكن استمالته أحيانًا، لكن ريتشي كان يعلم أن رغبات أمه أوامر بخصوص هذا الأمر، وأنه لن يُسمح له بذلك إلى أن يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة على أيِّ حال، وأنه بحلول ذلك الوقت -هكذا كانت أمه مقتنعة- ستكون حُمَّى الروك أند رول قد انحسرت عن البلاد.

لكن ريتشي كان يرى رأي فرقة داني والصغار أكثر صوابًا بخصوص تلك القضية، وأن الروك أند رول لن يموت أبدًا. كان عن نفسه مُتيَّمًا بالروك أند رول، رغم أن مصادره لم تكن تزيد على برنامجين: أمريكان باندستاند على القناة السابعة، ودبليو إم إي إكس على إذاعة راديو بوسطن، عندما يخف الهواء ويأتي صوت آرني جينسبورج الأجش الحماسي الذي يتخلَّل الأغاني كصوت شبحٍ يُستدعى في جلسة تحضير أرواح. إن إيقاعات الروك أند رول تُغذِّي روحه بما هو أكثر من السعادة. إنها تجعله يشعر بأنه أكبر، وأقوى، وأكثر

حيوية ووجودًا. عندما يُغني فرانكي فورد «رحلة بحرية» أو يُغني إدي كوشران «البلوز في الصيف»، يُحلِّق ريتشي بالسعادة. ثمَّة قوَّة ما في هذه الموسيقى، قوَّة يبدو أنها تنتمي إلى كل الأطفال الناحلين، والأطفال البدناء، والأطفال القبحاء، والأطفال الخجولين... باختصار، إلى كل الخاسرين في العالم. في أثناء استماعه للروك أند رول، يشعر ريتشي أن تيَّارًا كهربائيًّا مجنونًا وجذلًا يسري فيه، وتصير لديه القدرة ليسمو أو ليقتل. كان يعبد فاتس دومينو (الذي يجعل من بن هانسكوم نحيفًا هازلًا بالمقارنة)، وبودي هولي الذي يرتدي العوينات شأنه شأن ريتشي، وچاي هاوكينز الذي يخرُج من تابوتٍ في حفلاته (أو هكذا قيل لريتشي)، وفرقة دوڤيلز الذين كانوا يرقصون ببراعة السود ذاتها.

حسنًا، بالكاد ببراعتهم ذاتها.

لسوف يأتي الوقت الذي سيُسمح له فيه بالاستمتاع بموسيقى الروك أند رول، وقد كان واثقًا من أنها ستكون موجودة لم تزل عندما تستسلم أمه في النهاية وتسمح له بالاستماع إليها. لكن هذا لن يكون في الثامن والعشرين من مارس 1958... أو 1959... أو...

شردت عيناه بعيدًا عن السُرادق وبعدها... حسنًا... لا بُدَّ أنه راح في النوم. كان هذا التفسير الوحيد المعقول للأمر، فما حدث تاليًا لهو أمرٌ لا يُمكن أن يحدث إلا في الأحلام.

ثم ها هو ذا الآن، ريتشي توزيير البالغ الذي شَبعَ من كل الروك أند رول الذي أراده يومًا، والذي اكتشف -مسرورًا- أنه رغم ذلك لا يزال غير كافٍ. رَنَت عيناه إلى السُرادق أمام مبنى مركز المدينة الآن، ورأى -بمصادفة ما مُريعة- أن تلك الحروف الزرقاء نصف الشفَّافة ذاتها تقول:

الرابع عشر من يونيو!

حفل هيڤي ميتال مانيا!!

تُحييه:

فرقة چوداز بريست

فرقة أيرون ميدن

احجز تذكرتك من هنا أو من أيٍّ منفذ بيع

فكَّر ريتشي: في وقتٍ ما على مدار السنين توقفوا عن كتابة سطر «الترفيه الجيِّد»، هذا الفارق الوحيد حسب علمي.

ثم سمع صوت داني والصغار يتردَّد في عقله، خافتًا وبعيدًا، كأصواتٍ خارجة من راديو رخيص الثمن تترامى إلى الآذان من نهاية رواقٍ طويل: لن تموت موسيقى الروك أند رول أبدًا، سأظل مقتنعًا بذلك إلى النهاية... لسوف تُخلَّد في التاريخ، فقط انتظر وسترى يا صديقي...

عاد ريتشي يرمق تمثال بول بونيان، قديس ديري.. ديري التي ظهرت إلى الوجود وفقًا للحكايات لأنها كانت المكان التي تنجرف الأخشاب وجذوع الأشجار مع مجرى النهر. لقد أتت أوقات، غالبًا في الربيع، كانت فيها صفحة ماء نهري بنسكويت والكندوسكيج مُغطَّاة بالأخشاب الطافية التي يلتمع لحاؤها الأسود في ضوء شمس الربيع، وكان أيُّ شخصٍ رشيق الخطوات يستطيع السير من حانة والي في جنوب الجزء من البلدة الذي يُسمَّى نصف الفدَّان الجحيمي إلى حانة رامبر في بروستر (كانت رابمر حانة سيِّئة السمعة بدرجة مُريعة حتَّى أنها اشتهرت باسم دلو الدم) دون أن تبتل فردتا حذائه، أو هكذا كانت الروايات تقول إبَّان شباب ريتشي، الأخير الذي كان يفترض أن ثمَّةَ حضورًا قويًا لفكرة الحطَّاب الأمريكي الأسطوري بول بونيان في مثل كل تلك القصص.

فكَّر ريتشي وهو يرفع نظره إلى التمثال: العزيز بول القديم، كيف مرَّت السنون بك منذ أن غادرت؟ هل حفرت مجاري أنهار جديدة في أثناء إيابك إلى الديار وأنت تجر فأسك العملاق خلفك؟ هل حفرت أيُّ بحيراتٍ جديدة كي تغطس في مياهها إلى أن تصل إلى رقبتك؟ هل أخفت أيَّ أطفالٍ صغار آخرين كما أخفتني في ذلك اليوم؟

ثم فجأة تذكَّر ريتشي كل شيء، بالطريقة نفسها التي تتذكَّر بها أحيانًا كلمة ظلَّت تتراقص طويلًا على طرف لسانك تأبى الخروج.

تذكَّر جلوسه تحت أشعة شمس مارس اليانعة، ناعسًا بعض الشيء، ويُفكِّر في العودة إلى المنزل واللحاق بآخر نصف ساعة من برنامج باندستاند، ثم فجأة هبَّ هواءٌ دافئ بقوَّة على وجهه، مُرجِعًا شعره إلى الوراء بعيدًا عن

جبهته. رفع بصره إلى أعلى ليجد وجه بول بونيان البلاستيكي الهائل أمام وجهه مُباشرةً يملأ محيط رؤيته بالكامل. كان أكبر من وجوه المُمثلين على شاشة السينما. لقد هبَّ الهواء على وجهه بسبب انحناء تمثال بول إلى أسفل، رغم أنه لم يعد يشبه بول بالضبط في هذه اللحظة. كانت جبهته الآن منخفِضَّة وخنفسية الشكل، وتنبت خصل شعر خشنة كالسلك من أنفه الأحمر كأنف سكيرٍ أفرط في الشراب. كانت عيناه دمويتين وإحداهما غائمة بعكارةٍ ما.

لم يعد الفأس مسنودًا على كتفه الآن. كان بول ينحني مستندًا إلى مقبض الفأس، بينما طرفه الحاد يحفر خندقًا في خرسانة الرصيف. كان ما زال يبتسم، لكن لم يكن ثمَّة أيّ ابتهاج في تلك الابتسامة حاليًا.. ومن أسنانه الصفراء العملاقة، انجرفت رائحة نتنة كرائحة جثث حيواناتٍ صغيرة تتحلَّل في غابةٍ قائظة.

- «لسوف ألتهمك حيًّا»، هكذا قال العملاق في صوتٍ رخيمٍ هادر، كصوت جلاميد صخرٍ يحتك بعضها ببعض في أثناء زلزالٍ عنيف. «سوف ألتهمك حيًّا أيُّها اللعين إذا لم ترجع لي دجاجتي وقيثارتي وحقائب الذهب!».

جعل الهواء الخارج من فمه وهو يتلفَّظ بتلك الكلمات قميص ريتشي يرفرف كشراع مركبٍ وسط إعصار. انكمش ريتشي على الدكَّة، وجحظت عيناه، وانتصب الشعر على جميع جسده كريشات يابسة على جيفة نتنة.

بدأ العملاق يضحك. ثم أراح يده على مقبض فأسه بالطريقة ذاتها التي يعقد بها تيد ويليامز يديه على مضرب البيبسول المُفضَّل له (أو العصا إن كنت تُفضِّل هذه التسمية)، ثم جذب الفأس من الحفرة التي صنعها في أرض الرصيف. بدأ الفأس يرتفع في الهواء، مُصدرًا صوتًا مُندفعًا فتَّاكًا. أدرك ريتشي فجأة أن العملاق ينتوي شقَّه إلى نصفين.

لكنه شعر أنه عاجزٌ عن الحركة، واستولى عليه نوعٌ بليد من اللا مُبالاة. ما الذي يهم. إنه ينعس وينتابه حُلمٌ. في أيِّ لحظةٍ سيطلق سائقٌ ما نفير سيَّارته ليُحذِّر صبيًّا يعبر الطريق، ولسوف يوقظه هذا.

هدر العملاق قائلًا: «هذا صحيح. سوف تستيقظ في الجحيم!»، وفي اللحظة الأخيرة، بينما كان الفأس يتباطأ قليلًا عند أوج ارتفاعه قبل هبوطه

السريع، أدرك ريتشي أن هذا ليس حلمًا على الإطلاق... وأنه لو كان حُلمًا، فهو حلم قاتل.

تدحرج ريتشي -وهو يحاول الصراخ لكن دون أن يخرج صوت من حلقه- من مكانه على الدكَّة إلى رقعة الأرض التي يكسوها الحصى التي تحيط بالمكان الذي كان التمثال يحتلّه، المكان الذي لم يعد فيه سوى القاعدة ومسمارين عملاقين يبرزان منها في المكان الذي كانت قدماه تحتلّانه. ملأ صوت الفأس العالم من حوله بصفيرٍ ضاغطٍ مُلِح، وصارت ابتسامة العملاق التواءة وجه قاتلٍ على وشك القتل. كانت شفتاه مشدودتين تمامًا إلى الخلف، ومن أسفلهما التمعت لثته البلاستيكية المُتَّقدة احمرارًا.

ضرب نصل الفأس الدكَّة التي كان ريتشي يجلس عليها منذ لحظة مضت. كانت شفرة النصل حادَّة تمامًا لدرجة أن لا صوت انبعث من الضربة، بل انفصلت الدكَّة ببساطة إلى نصفين في التوِّ. تهاوى النصفان أحدهما بعيدًا عن الآخر، وكان الخشب الذي بداخل قشرتها الخارجية الخضراء ناصع البياض لدرجة مُنفِّرة نوعًا.

كان ريتشي ما زال مُستلقيًا على ظهره، وبينما هو لا يزال يحاول الصراخ، راح يدفع نفسه إلى الخلف بكعبيه. انزلق الحصى إلى جسده من ياقة قميصه، وتدحرج وصولًا إلى مِقعدة سراويله. أما بول، فها هو ذا، يتعملق من فوقه، وينظر إليه بعينين في حجم أغطية بلَّاعات الصرف الصحي. ها هو بول، يحملق في صبيٍّ صغير يرتعد رعبًا فوق الحصى.

تدحرج ريتشي على بطنه ثم نهض واقفًا. بدأت ساقاه في الركض قبل أن يتمكَّن من حفظ توازنه، وكنتيجة لذلك سقط أرضًا من جديد على بطنه. سمع الهواء يُفرَّغ من رئتيه، وسقط شعره على عينيه، واستطاع رؤية السيَّارات تروح جيئةً وذهابًا في شارع القناة كما يراها يوميًّا، كأن شيئًا لا يحدث، كأن لا أحد في تلك السيَّارات يستطيع رؤية بول، أو الاهتمام بأن الحياة قد دبَّت فيه، وأنه هبط من قاعدته ليقتل بفأسٍ في حجم شاحنة ضخمة.

حُجِبت أشعة الشمس من فوقه، ووجد ريتشي نفسه مُستلقيًا في ظلِّ عملاق على هيئة رجُل.

سارع ريتشي زحفًا على رُكبتيه، وكاد أن يسقط من فوق الرصيف، ثم نجح في النهوض على قدميه وأطلق ساقيه للريح. كان يركض بعنفٍ حتَّى إن رُكبتيه كادتا أن تصطدمان بصدره، وكاد مرفقاه أن ينخلعا، ومن خلفه، استطاع سماع صوت انشقاق الهواء من جديد، وهو الصوت الذي لم يبد صوتًا على الإطلاق، بل ضغط على الجلد وطبلتي الأذنين. سوووويـــــــــــــــف!

زُلزلت الأرض. اصطكَّت أسنان ريتشي بعضها ببعض كالخزف الصيني في زلزال. لم يكن في حاجة إلى النظر خلفه ليدرك أن فأس بول قد انغرس في خرسانة الرصيف حتى مقبضها خلف قدميه ببوصات قليلة.

وليكتمل الجنون، وجد نفسه يسمع في عقله غناء فرقة دوڤيلز: الأطفال في بريستل في خطورة المُسدَّسات عندما يرقصون البريستل ستومب...

تجاوز ريتشي ظل العملاق وخرج إلى ضوء الشمس مُجدَّدًا، وما إن فعل بدأ يضحك الضحكة العصبية ذاتها التي فلتت منه وهو يندفع هابطًا سلالم متجر فيرسي. بدأ النغز في جانبه الأيسر يشتدُّ عليه مُجدَّدًا، وفي النهاية غامر بالنظر بشكلٍ خاطف من وراء كتفه.

كان تمثال بول بونيان منتصبًا على قاعدته حيث يقف دائمًا، والفأس على كتفه، ورأسه يرنو إلى السماء، وشفتاه مرسومتان في ابتسامة الأبطال الأسطوريين المُتفائلة، والدكَّة التي انفصلت إلى قسمين قد عادت قطعة واحدة سليمة، شكرًا جزيلًا. كان الحصى الذي ترك بول انطباع قدمه العملاقة عليه منبسطًا ومستويًا، باستثناء رقعة مبعثرة واحدة التي سقط ريتشي فوقها وهو

(يهرب من العملاق)

يحلم. لم يكن هناك انطباعُ قدمٍ، ولا حرثةُ فأسٍ في الخرسانة. لم يكن يوجد سوى ذلك الصبي الذي طاردَه مجموعة من الفتية الأكبر سِنًّا وحجمًا، ما تسبَّب له بحلمٍ صغير مزعج -لكن واقعي- عن عملاق قاتل... أو النسخة المستفحلة من هنري باورز، إن راق لك التعبير.

- «اللعنة». قالها ريتشي بصوتٍ راجفٍ ضعيف، ثم ضحك ضحكة مُرتابة.

ظلَّ واقفًا في مكانه بعض الوقت، ينتظر أن تدب الحياة في التمثال ويتحرَّك من جديد. رُبَّما سيغمز له، رُبَّما سينقل فأسه من كتفٍ إلى الآخر، رُبَّما سيهبط من قاعدته ويندفع نحوه ثانيةً. لكن أيًّا من هذا لم يحدث بالتأكيد.

بالتأكيد.

لِمَ القلق؟ هأو-أو-أو-أو.

لقد كان الأمر حلمًا.. غفوة.. لا أكثر ولا أقل.

لكن -كما قال أبرهام لينكولن أو سقراط أو شخصٌ ما- لقد طفح الكيل. حان وقت العودة إلى المنزل والاسترخاء... حان وقت الاستلقاء فحسب كما يفعل كوكي في مسلسل 77 صنست ستريب.

ورغم أن المرور بأرض مبنى مركز المدينة هو الطريق المختصر إلى المنزل، قرَّر ريتشي ألا يفعل ذلك. لم يكن يريد الاقتراب من ذلك التمثال مرَّة أخرى. لذا دار دورة كبيرة حول المنطقة، وفي تلك الليلة كان قد نسيَ أمر هذا الحدث الجلل.

حتَّى الآن.

فكَّر ريتشي: ها أنا ذا الآن، رجُل راشد يرتدي سُترة رياضية خضراء بلون الطحالب، ابتعتها من أفضل متاجر حي روديو درايف. ها أنا ذا الآن رجُل راشد يرتدي حذاء ماركة باس ويجونز، وملابس داخلية من كيلفن كلاين أغطي بها مؤخِّرتي، ها أنا ذا رجُل راشد يضع عدساتٍ لاصقة مرنة تلتصق بنعومة بعينيه، ها أنا ذا رجُل راشد يتذكَّر الصبي الذي كانه.. الذي اعتاد الاعتقاد أن تيشرت رابطة اللبلاب برسمة فروت لوب على الصدر هو أعلى صيحات الموضة، ها أنا رجُل راشد يجلس يرمق التمثال القديم ذاته، و... مرحبًا يا بول، يا بول الطويل، لقد أتيت لأخبرك أنك لم تتغيرَّ في جميع صفاتك، ولم تِشِخ يومًا واحدًا لعينًا.

لكن التفسير القديم لم ينفك عن الرنينُ في عقله: لقد كان حُلمًا.

ظن ريتشي أن في مقدوره الإيمان بوجود الوحوش إن اضطُر لذلك. ليست الوحوش أمرًا شديد الجموح. ألم يجلس قبل ذلك مرَّاتٍ عديدة في محطَّته الإذاعية يقرأ أخبارًا عن رجالٍ كعيدي أمين دادا وجيم جونز وذلك الرَّجُل

الذي فجَّر أولئك الناس في مكدونالد إلى أشلاء؟ وَفِّر نقودك، فالوحوش زهيدة وفي كل مكان! من يريد أن يدفع تذكرة سينما قيمتها خمسة دولارات لرؤية وحوشٍ، في حين أنه قادرٌ على القراءة عنها نظير خمسة وثلاثين سنتًا في الجريدة أو السماع عنها في الراديو مجّانًا؟ لقد افترض أنه ما دام يستطيع تصديق في وجود أمثال چيم چونز، فهو يستطيع تصديق الوحش الذي يذكره مايك هانلون، على الأقل لبعض الوقت. إنه حتّى ينضوي على جاذبية مؤسفة خاصة، لأنه جاء من الخارج ولا أحد مسؤول عن وجوده. إنه يستطيع الإيمان بوجود وحشٍ ذي ألف وجه، كالأقنعة المطاطية المخيفة في متجر الألعاب العجيبة (إذا كنت ستشتري واحدًا، فربَّما تريد أيضًا شراء مجموعة، لأنك ستحصل على خصم إضافي، هكذا فكَّر)، على الأقل على سبيل الفرضية... لكن كيف يؤمن بأن تمثال بلاستيكي ارتفاعه ثلاثون قدمًا ترك قاعدته وحاول فلقه بفأسه إلى نصفين؟ هذا أمرٌ شديد السخف والإفراط.. وكما قال إبرهام لينكولن أو سقراط أو شخصٌ ما: سآكل السمك، وسآكل اللحم، لكن ثمَّة أشياء لا أستسيغها. الأمر فقط ليس...

انغرس ذلك الألم الحاد كالدبُّوس في مقلتيه مُجدَّدًا، دون سابق إنذار، وجعله ينتفض ألمًا وفلتت منه صرخة استياء عالية. كانت هذه المرَّة الأسوأ حتَّى الآن، لقد انغرس الألم عميقًا وطال بقاؤه، وأفزعه بالكامل. صفع ريتشي عينيه بيديه، ثم أمسك جفنيه السُفليين غريزيًّا بأطراف أصابعه عازمًا على إزالة عدساته اللاصقة وهو يُفكِّر مُشوَّشًا: ربَّما كان نوعًا ما من العدوى. بحق المسيح، إنه يؤلم كالجحيم!

جذب ريتشي جفنيه وكان على وشك أن يطرف بعينيه طرفة مُعيَّنة مُتمرِّسة ستقذف بالعدستين بعيدًا، عندما اختفى الألم. كان سيقضي الخمس عشرة دقيقة التالية في تذلُّلٍ قصير النظر جاثيًا على رُكبتيه باحثًا عنهما على الحصى الذي يحيط بالدكَّة، لكن اللعنة، ما المشكلة؟ فلقد شعر بإبرتين تنغرسان عميقًا في عينيه. لم يخفت الألم تدريجيًّا، بل تلاشى دفعة واحدة فحسب كما جاء. الآن تراه، الآن لا تراه. دمعت عيناه قليلًا ثم توقَّفت بعدها.

خفض ريتشي يديه ببطء، وقلبه ينبض سريعًا في صدره، مُتأهِّبًا أن يطرف

العدستين اللاصقتين بعيدًا عن عينيه في اللحظة التي يبدأ فيها الألم مُجدَّدًا. لكنه لم يداهمه، وبغتةً، وجد نفسه يُفكِّر في فيلم الرعب الوحيد الذي استطاع أن يثير ذعره حقًّا وهو صغير، رُبَّما لأنه كان يتلقَّى سُخرية دائمة بسبب نظَّارته ويمضي وقتًا طويلًا في التفكير بأمر عينيه.. فيلم العين الزاحفة، من بطولة فورست تاكر. لم يكن فيلمًا جيِّدًا جدًا. لم ينفك باقي الصبية عن الضحك بطريقة هِستيرية في أثناء العرض، لكن ريتشي لم يضحك. كان يشعر بأن أوصاله بارده، وأن وجهه شاحب وفمه أعجم. لقد عجز عن تقمُّص أحد أصواته، بينما العين الچيلاتينية ذات المجسَّات تخرج من وسط الضباب الصناعي في استوديو أفلام بريطاني ما، وتلوِّح بمجسَّاتها الليفية أمامها. كان مرأى هذه العين كابوسًا، وبمثابة تجسيدٍ كامل لمئات المخاوف ودواعي الانزعاج غير المفهومة. في إحدى الليالي بعدها، حلم ريتشي بأنه ينظر إلى نفسه في المرآة، ويمسك بدبُّوسٍ كبير ويغرزه في حدقة عينه السوداء ليستشعر الخدر المائع المرن بينما يمتلئ جفنه السفلي بالدماء. لقد تذكَّر -الآن تذكَّر- أنه استيقظ وقد بلَّل فراشه. أفضل مؤشِّر على شناعة ذلك الحلم وصعوبته على عقله أن شعوره الأوَّلي لم يكن خزيًا أو خجلًا من فعلته غير الناضجة، بل الراحة. لقد تقبَّل البلل الدافئ أسفل جسده، وبارك واقعية المشهد الذي هو فيه.

- «اللعنة على هذا»، هكذا قال ريتشي توزيبه في صوتٍ خفيض غير رابط الجأش، وبدأ ينهض من على الدكَّة.

لسوف يعود إلى فندق ديري تاون هاوس ويغفو قليلًا. إذا كان هذا طريق ذكرياته، فإنه يفضِّل عليه طريق لوس أنچلوس السريع وقت الذروة. غالبًا لا يعدو ألم عينيه كونه دليلًا على إرهاقه وإصابته بدوار السفر، بالإضافة إلى الضغط العصبي من التقاء الماضي كله دفعة واحدة، في عصر يومٍ واحد. كفاه صدمات.. كفاه استكشافًا. إنه لا يُحِب الطريقة التي ينتقل بها عقله من موضوعٍ إلى آخر. ماذا كانت كلمات تلك الأغنية لبيتر جابريل تقول؟ «اصدم القرد». حسنًا، هذا القرد قد صُدِمَ بما فيه يكفي. لقد حان وقت الحصول على بعض النوم، ورُبَّما التفكير قليلًا لوضع الأمور في نطاقها الصحيح.

وفيما كان ينهض، زاغت عيناه إلى السُرادق الذي يؤم مبنى مركز المدينة

من جديد، وبغتةً، خارت كل القوى من ساقيه ووجد نفسه يهمد على الدكَّة من جديد.. بقوَّة.

ريتشي توزييه الرَّجُل ذو الألف صوت.
يعود إلى ديري، البلدة ذات الألف رقِصَّة
وعلى شرف عودة طويل اللسان
يفخر مركز المدينة بتقديم
حفل «الفرق-الميِّتة» مع ريتشي توزييه
بادي هولي، وريتشي ڤالنز، وبيج بوبر
فرانكي ليمون، چين ڤينسنت، مارڤين جاي
الفرقة المُصاحبة
جيتار أساسي: چيمي هيندركس
جيتار مساعد: چون لينون
باص جيتار: فيل لينوت
طبول: كيث مون
وضيف الحفل الخاص، المطرب چيم موريسون
مرحبًا بعودتك يا ريتشي!
أنت ميِّت بدورك!

شعر ريتشي بأن أحدهم شفط كل الهواء من رئتيه... ثم سمع الصوت مُجدَّدًا، ذلك الصوت الذي يضغط الجلد وطبلتي الأذنين، تلك الاندفاعة الفتَّاكة ذات الصفير: سووووويـــــــــــــف! تدحرج ريتشي من على الدكَّة وفوق الحصى وهو يُفكِّر: إذًا هذا ما قصدوه عندما يتحدَّثون عن الديچا-فو. الآن تعرف. لن تحتاج إلى سؤال أيِّ شخصٍ مرَّة أخرى...

سقط ريتشي على كتفه وتدحرج، ونظر إلى أعلى نحو تمثال بول بونيان، الذي لم يعد بول بونيان الآن. كان المُهرِّج يقف هناك، مُتألِّقًا وجليًّا، مصنوعًا من البلاستيك الخلَّاب، ويرتفع عشرين قدمًا في الهواء، عشرين قدمًا من الطلاء اللامع، ووجهه المطلي يعلوه ضحكة هزلية كونية الأبعاد. كانت كُريات حُلَّته البُرتقالية مصبوبة من البلاستيك، كلٍ منها في حجم الكُرة

الطائرة، وبدلًا من الفأس، كان يحمل مجموعة بالونات بلاستيكية على كلٍ منها العباراتان التاليتان: ما زال الروك أثيرًا إلى قلبي وحفل «الفرق-الميِّتة» مع ريتشي توزييه.

زحف ريتشي إلى الوراء مستخدمًا كعبيه وكفَّيه. دخل الحصى في سراويله. سمع تمزُّق القماش تحت إبط سُترته الرياضية باهظة الثمن. تدحرج على الأرض، ونهض على قدميه مترنِّحًا ونظر خلفه. كان المُهرِّج ينظر إليه، وعيناه زائغتان مُبلَّلتان في محجريهما.

دمدم قائلًا: «هل أفزعتك يا رفيق؟».

سمع ريتشي لسانه يتكلَّم بشكل مستقل على عقله المشلول من الذُعر: «مُجرَّد خضَّة رخيصة يا بوزو. هذا كل شيء».

اتَّسعت ابتسامة المُهرِّج وأومأ كأنه لم يكن يتوقَّع ردًّا آخر. انفرجت الشفتان المطليتان بالأحمر الدامي كاشفة عن أسنانٍ حادة كالأنياب، تنتهي كلٍ منها بسنٍّ مُدبَّب، ثم قال الشَّيء: «كنت أستطيع قتلك الآن إذا رغبت، لكن مرحًا كثيرًا سأحظى به لا يصح تفويته».

سمع ريتشي لسانه يصيح: «المرح لي أيضًا، والمرح الأكبر سيكون في اللحظة التي سنأتي فيها لقطع رأسك اللعين يا صغيري».

اتَّسعت ابتسامة المُهرِّج أكثر فأكثر. ثم رفع يده المدسوسة في قُفَّازٍ أبيض، وشعر ريتشي بنفحة الهواء تعيد شعره إلى الخلف بعيدًا عن جبهته كما فعلت منذ سبعة وعشرين عامًا، ثم رفع المُهرِّج إصبعه الأوسط له. كان كبيرًا كعارضة خشبية.

كبيرًا كعارضـ... هكذا كان ريتشي يُفكِّر عندما ضربه الألم من جديد. انغرست أشواكٌ صدئة في هلام عينيه الرخو، فصرخ وأمسك بوجهه بقوَّة.

أنشد المُهرِّج جذلًا بصوت هادر متذبذب: «يا مُرائي، قبل أن تبصر ذرَّة الخشب التي في عين أخيك، أخرج أوَّلًا الخشبة الكبيرة التي في عينك»، ومن جديد وجد ريتشي نفسه غارقًا في الإنتان اللاذع المُنبعث من أنفاسه.

نظر ريتشي إلى أعلى، وأخذ مجموعة خطوات واسعة مُتعجِّلة إلى الوراء. كان المُهرِّج ينحني مُتَّكِئًا بقفَّازيه على رُكبتيه.

- «أتريد مواصلة اللعب يا ريتشي؟ ما رأيك لو أشرت إلى قضيبك وأصبتك بسرطان البروستاتا؟ أو الإشارة إلى رأسك ومنحك ورمًا في المُخ، رغم أنني مُتأكِّد أن بعض الناس سيقولون إنني لم أفعل شيئًا سوى أن أزدت بعض الطين بللًا. يُمكنني الإشارة إلى فمك، لتجد لسانك السليط هذا يغرق في القيح والصديد. أستطيع فعل ذلك يا ريتشي، أتريد أن تُجرِّب؟».

كانت العينان تتَّسعان، وتتَّسعان، وفي المُقلتين السوداوين اللتين في حجم كُرتي تنس، استطاع ريتشي رؤية دياجيرَ مسعورة لا بُدَّ أنها تسري عند حافَّة الكون. استطاع رؤية سعادة فاحشة شعر أنها قد تصيبه بالخبال. في تلك اللحظة، أدرك أن الشَّيءَ يستطيع فعل أيٍّ من الأمور التي ذكرها، بل وأكثر.

ورغم ذلك سمع صوت لسانه يُقرِّع، لكن هذه المرَّة لم يكن الصوت صوته، ولا أيٌّ من أصواته المُختلقة القديمة أو الحالية. كان صوتًا لم يسمعه من قبل قط. لاحقًا سيخبر الآخرين -مُتردِّدًا- أن الصوت كان شبيهًا بصوت السيِّد چيڤاس الزنجي، عاليًا ومُعتدًّا بنفسه، ساخرًا من ذاته وهو يصرخ ذعرًا وألمًا:

- «كفّ عن إزعاجي أيُّها المُهرِّج العجوز الشاحب الضخم!» هكذا صاح، وفجأة وجد نفسه يضحك من جديد. «أنا رجُل أقوال، أنا رجُل أفعال، أنا رجُلٌ بقضيبٍ طويلٍ فعَّال! لديَّ الوقت، ولدي القُدرة، أنا رجُلٌ ذو خطَّة. إذا لم تبتعد عني، ستزعل مني! هل تسمعني يا أبيض البشرة، هل تسمعني أيُّها الردف؟».

ظنَّ ريتشي أن المُهرِّج سيجفل، لكنه لم ينتظر لرؤية ذلك بأمِّ عينيه. ركض سريعًا، وذراعاه المحمومتان تضخَّان، وسُترته الرياضية تُرفرف خلفه كالأجنحة، دون أن يأبه أن أحد المارَّة الذي توقَّف ليستطيع ابنه تأمُّل تمثال بول بونيان راح ينظر إليه بحذرٍ واستغراب، كأنه جُنَّ أو شيء من هذا القبيل. فكَّر ريتشي: في حقيقة الأمر يا رفاق، أشعر أنني جُننت بالفعل. أوه يا إلهي. كما أن تقليد جراندماستر فلاش الأخير هذا كان أسوأ مُحاكاة في التاريخ، لكنها أدَّت الغرض بشكلٍ ما...

هنا رعد صوت المُهرِّج من خلفه. لم يسمع الأب الصوت، لكن وجه

الصغير التوى من الرُعب وبدأ يبكي. حمل الأب ابنه واحتضنه متحيّرًا. رغم فزعه، راقب إدي تلك التفصيلة الصغيرة عن كثب. بدا صوت المُهرِّج غاضبًا وطروبًا في الوقت نفسه، وربُّما أيضًا كان غاضبًا فحسب: «إن العين معنا في الأسفل يا ريتشي... هل تسمعني؟ العين التي تزحف. إذا كنت لا تريد أن تُحلِّق، ولا أن تقول وداعًا بتملُّق، فلتهبط أسفل المدينة وتلقي سلامًا كبيرًا على العين الواحدة العظيمة! تعال وانظر إليها في أيِّ وقت.. في أيِّ وقتٍ تشاء. هل تسمعني يا ريتشي؟ اجلب معك اليويو الخاصة بك. اجعل بيڤرلي ترتدي تنورة كبيرة طويلة أسفلها أربع أو خمس حشوات. اجعلها ترتدي خاتم زاوجها حول رقبتها! اجعل إدي يرتدي صندله! سنمرح كثيرًا! سنشغِّل كل الأغاني العظيمة!».

وعندما وصل إلى الرصيف، جرؤ ريتشي على النظر من فوق كتفه، وما شاهد لم يكن مشهدًا مُريحًا على الإطلاق. كان تمثال بول بونيان ما زال مُختفيًا، والمُهرِّج قد اختفى بدوره. ما كان موجودًا الآن لهو تمثال بلاستيكي ارتفاعه عشرون قدمًا لمُغنِّي الروك بادي هولي الذي يعلِّق زرًّا دائريًا في إحدى طيَّات سُترته المنقوشة. كان مكتوبًا على الزر: عرض «الفرق-الميِّتة» مع ريتشي توزيبه.

إحدى ذراعي نظَّارة بادي هولي ملحومة بشريطٍ لاصق.

كان الطفل ما زال يبكي بِهستيريا، ووالده يسير به سريعًا في اتِّجاه وسط المدينة مُمسكًا بذراعه وهو يتجنَّب ريتشي بمسافة كبيرة.

بدأ ريتشي في السير
(أيا قدميّ لا تخذلاني الآن)
محاولًا عدم التفكير في...
(سنشغِّل كل الأغاني العظيمة!)

ما حدث لتوِّه. كل ما أراد التفكير فيه الآن هو جرعة السكوتش الهائلة التي سيشربها في مشرَب الفندق قبل أن يخلد إلى القيلولة.

التفكير في الشراب -في أيِّ نوعٍ من الشراب- جعله يشعر بتحسُّنٍ قليلًا. نظر من فوق كتفه مرَّة أخرى، ووجد بول بونيان ينتصب مُبتسمًا إلى السماء،

وفأسه البلاستيكي على كتفه. أشعره هذا بتحسُّنٍ أكثر. بدأ ريتشي يجد في سيره، ويهرول، مُباعدًا الفجوة بينه وبين التمثال.. بل بدأ حتَّى التفكير في احتمالية أن يكون كل ما مرَّ به مُجرَّد هلوسة، وهنا انغرس الألم في عينيه مُجدَّدًا، عميقًا ومُبرحًا، وجعله يصرخ بصوتٍ عالٍ مبحوح. كانت هناك فتاة شابة تسير أمامه ترمق السُحُب المتكسِّرة بنظرة حالمة. نظَرت الفتاة خلفها، وتردَّدت لحظة، قبل أن تهرول إليه.

- «هل حضرتك بخير؟».

قال ريتشي بصوتٍ مُنهك: «إنها عدساتي اللاصقة. عدساتي اللاصقة اللعينة. يا إلهي لكم هذا مؤلم!».

هذه المرَّة رفع سبَّابتيه إلى عينيه سريعًا حتَّى إنه كاد أن يدسَّهما فيهما. جذب جفنيه السُفليين وهو يُفكِّر: لن أستطيع إخراجهما من عينيّ، هذا ما سيحدث، لن أستطيع إخراجهما وسيظل الأم يلازمني ويلازمني ويلازمني إلى أن أصير كفيفًا أصير كفيفًا أصير كـ...

لكن طرفة واحدة أدَّت الغرض كما فعلت دائمًا. تلاشى العالم الواضح المُحدَّد واضح الألوان الذي تُرى فيه الوجوه بجلاءٍ تام بسيط، وحلَّ محلّه عالمٌ مائعٌ لا خطوط واضحة فيه، ورغم أنه ظل يفتِّش الرصيف برفقة فتاة المدرسة الثانوية -التي كانت خيِّرة ومُحبَّة للمُساعدة- قرابة خمس عشرة دقيقة، لم يستطع أيُّهما العثور ولو على عدسة واحدة.

وفي عقله اللا واعي شعر ريتشي أنه يسمع صوت المُهرِّج يضحك.

3

بيل دِنبروه يرى شبحًا

لم يحدث أن التقى بيل بالمُهرِّج بيني وايز عصر ذلك اليوم، لكنه رأى شبحًا.. شبحًا حقيقيًّا، هكذا اعتقد بيل وقتها، ولم يحدث أيُّ شيءٍ لاحق جعله يُغيِّر رأيه عن هذا.

كان قد سار شمال شارع ويتشام وتوقَّف بعض الوقت أمام مصرف

الأمطار حيث لقي چورچ حتفه في ذلك اليوم المطير من أكتوبر عام 1957. جلس القرفصاء وحدَّق إلى المصرف المحفور في حافَّة الرصيف. أخذ قلبه يدق بعنف، لكنه أمعن النظر على أيِّ حال.

– «فلتخرج.. لماذا لا تخرج!». قالها بيل في صوتٍ خفيض، وجاءته فكرة غير مجنونة تمامًا أن صوته يرتحل طافيًا عبر الدهليز المُظلم الذي يقطر ماءً، دون أن يتلاشى بل يستمر قدمًا وقدمًا، مُتغذِّيًا على أصدائه ذاتها، مُرتدًّا عن حوائط تغطيها الطحالب وميكنات توقَّفت عن العمل منذ سنواتٍ طويلة. شعر بصوته يُحلِّق طافيًا فوق الماء الراكد الآسن، ورُبَّما ينتشر بنعومة إلى مئات المصارف المختلفة في مواضع أخرى من المدينة في الوقت نفسه.

– «فلتخرج من مكمنك وإلا سنأتي ونجهز عليك».

انتظر مجيء الرد بأعصابٍ متوتِّرة، وهو يجلس القرفصاء ويديه بين فخذيه كأنه لاعب بيسبول ينتظر رميةَ الرامي.. لكن ردًّا لم يأت.

وكان على وشك النهوض عندما سقط ظلٌّ فوقه.

نظر بيل فوقه بحدَّة ولهفة، مُتأهِّبًا لرؤية أيِّ شيءٍ، لكنه رأى ولدًا في العاشرة من عمره أو الحادية عشرة. كان يرتدي شورت فتيان الكشَّافة باهت اللون، وكان الشورت يكشف بفخر عن رُكبتين مليئتين بالجروح. كان يحمل مصَّاصة مُثلَّجة في يدٍ، ولوح تزلُّج في اليد الأخرى، هذا الأخير بدا مضروبًا بشدَّة كرُكبتيه، وكان لونه أخضر مُشِعًّا.

سأله الصبي: «هل تتحدَّث إلى المصارف كثيرًا يا أستاذ؟».

قال بيل: «فقط في ديري».

نظر أحدهما إلى الآخر بصرامة بعض الوقت، ثم انفجرا ضاحكين في الوقت نفسه.

قال له بيل: «أريد أن أسألك سؤالًا ساذجًا».

قال الصبي: «حسنًا».

– «هل سبق وأن سـ–سمعت أيُّ صوتٍ من هذه المصارف؟».

نظر الصبي إلى بيل كأنه مخبولٌ، فقال بيل: «حـ–حسنًا، انس أنني سألت».

بدأ بيل في السير، وكان قد ابتعد نحو دزينة من الخطوات في اتِّجاه أعلى

التلة وهو يُفكِّر بعقلٍ مُشوَّش في إلقاء نظرة على منزله القديم، عندما ناداه الصبي: «يا أستاذ؟».

التفت بيل إليه. كانت سُترته مُعلَّقة على إصبعه وتتدلَّى خلف كتفه، وقميصه مفكوك الأزرار، وربطة عنقه مرتخيه. كان الصبي يرمقه بحرص، كأنه يشعر بالندم لأنه تحدَّث إليه مُجدَّدًا. ثم هزَّ كتفيه كأن لسان حاله يقول: أوه، وما الذي سيحدث بحق الجحيم.

- «نعم سمعت».

- «سمعت؟».

- «نعم».

- «ماذا سمعت؟».

- «لا أدري. كانت تتحدَّث بلغة أجنبية. سمعت الصوت يخرج من إحدى محطَّات الضخ في البرِّية، واحدة من تلك المضخات، إنها تبدو كأنابيب تخرج من باطن الأرض...».

- «أعرف ما تقصد. هل كان صوت طفلٍ هو ما سمعت؟».

- «في البداية كان طفلًا، ثم بدا الصوتَ بعدها كصوت رجُلٍ»، توقَّف الصبي قليلًا ثم أضاف: «لقد خفت نوعًا، وركضت إلى المنزل وأخبرت والدي. قال لي إنه رُبَّما كان صدى صوت أو شيئًا ما، يتردَّد في جنبات المواسير الكبيرة مرتحلًا من منزل أحدهم».

- «وهل صدَّقت ذلك؟».

ابتسم الصبي ابتسامة ساحرة وقال: «لقد قرأت في كتابي صدِّق أو لا تُصدِّق مع ريبلي، أن ثمَّة رجُلًا تخرج موسيقى من بين أسنانه.. موسيقى إذاعية. كانت حشوات أسنانه كأنها أجهزة راديو صغيرة. أظنُّ أنني لو صدَّقت ذلك، أستطيع تصديق أيَّ شيء».

قال بيل: «أ-أجل. لكن هل صدَّقت كلامه؟».

هزَّ الصبي رأسه نافيًا في تردُّد.

- «هل سمعت تلك الأصوات أبدًا بعدها؟».

قال الصبي: «مرَّة وأنا أستحِم سمعت صوت فتاة. كانت تبكي فقط ولم

تتكلَّم. كنت خائفًا من أن أزيل سدَّادة بالوعة المغطس عندما انتهيت من استحمامي، فقد ظننت أنني قد، تعرف ما أقصد، قد أغرقها».

أومأ بيل مُجدَّدًا.

كان الصبي ينظر إلى بيل الآن بعينين مُتَّسعتين لامعتين ومنبهرتين.

– «هل تعلم بأمر تلك الأصوات يا أستاذ؟».

قال بيل: «لقد سمعتها.. منذ زمنٍ بعيد جدًّا جدًّا. هل كنت تعرف أيًّا من الصبية الذين قُتلوا هنا يا بُني؟».

تلاشى البريق من عيني الصبي، وحلَّ محلَّه حذرٌ وقلق: «لقد أخبرني أبي ألا أتحدَّث إلى الغرباء. إنه يقول إن القاتل قد يكون أيَّ شخصٍ». قالها ثم ابتعد خطوة أخرى عن بيل، متحرِّكًا أسفل ظل شجرة الدردار التي اصطدم بها بيل بدرَّاجته منذ سبعة وعشرين عامًا، ما أسقطه وقتها أرضًا بقوَّة وعوج مقبضها.

قال بيل: «لست أنا القاتل يا فتى، لقد كنت في إنجلترا طوال الأشهر الأربعة الأخيرة. لقد وصلت إلى ديري البارحة فحسب».

أجابه الصبي: «ولو، ما زال يجب عليّ ألَّا أتحدَّث إليك».

وافقه بيل: «معك حق. إنها بلادٌ حُـ–حُـ–حُرَّة».

ظلَّ الصبي صامتًا قليلًا ثم قال: «لقد اعتدت التسكُّع مع چوني فيوري بعض الوقت. كان ولدًا طيِّبًا. لقد بكيت كثيرًا عليه». أنهى الصبي كلامه ببساطة، ولعق ما تبقَّى من مصَّاصته المُثلَّجة. ثم متداركًا، دلَّى لسانه خارج فمَّه، الذي كان برتقاليًّا فاتحًا، وعقد ذراعيه.

قال له بيل بهدوء: «ابتعد عن المجاري والمصارف يا بني. ابتعد عن الأماكن الخالية والمهجورة. ابتعد عن ساحة القطارات. لكن الأهم من بين كل هذا، ابتعد عن المجاري والمصارف».

كانت اللمعة قد عادت إلى عيني الصبي، ولم يتفوَّه بشيءٍ برهة طويلة جدًّا، ثم قال أخيرًا: «أستاذ؟ هل تود أن تسمع شيئًا غريبًا؟».

– «بالتأكيد».

– «أتعرف ذلك الفيلم الذي تأكل فيه سمكة القرش الناس؟».

- «ومن لا يعرفه. الف-ف-فك المُفترس».

- «حسنًا، أحد أصدقائي، يُدعى تومي ڤيكانانزا. ليس صبيًّا شديد الذكاء، وأبله قليلًا، هل تفهم ما أقصد؟».

- «أجل».

- «يعتقد تومي أنه رأى قرشًا يعوم في مياه القناة. لقد كان هناك بمُفرده منذ أسبوعين، في حديقة باسي، وأخبرني أنه رأى الزعنفة. قال لي إنها كانت بطول ثمانية أو تسعة أقدام. الزعنفة وحدها بهذا الطول، هل تفهمني؟ وبعدها قال لي: 'الفك المفترس هو ما قتل چوني وباقي الصبية، أنا متأكِّد ممَّا رأيت'. فقلت له: 'مياه هذه القناة ملوَّثة تمامًا، لا مخلوق يستطيع أن يعيش فيها، ولا حتَّى أصغر السمك، وأنت تخبرني أنك رأيت سمكة القرش فيها؟ إن عقلك في حاجة إلى صيانة يا تومي'. قال تومي إن السمكة برزت من الماء كما فعلت في نهاية الفيلم وحاولت أن تقضمه، وأنه نجا منها بأعجوبة. أمرٌ مضحك يا أستاذ، هه؟».

وافقة بيل: «مُضحك جدًّا».

- «عقله يحتاج إلى صيانة كاملة، صح؟».

تردَّد بيل قليلًا ثم قال: «ابتعد عن القناة أيضًا يا بني. هل تفهمني؟».

- «هل تعني أنك تُصدِّقه؟».

تردَّد بيل، وكان ينوي أن يهزَّ كتفيه، لكنه أومأ برأسه بدلًا من ذلك.

زفر الفتى نفسًا سريعًا خفيضًا هاسًّا، ودلَّى رأسه كأنه يشعر بالخزي. «أجل، أحيانًا أظنُّ أن عقلي بدوره يحتاج إلى صيانة».

- «أعرف ما تعني». قالها بيل وسار نحو الصبي، الذي نظر إليه بجدِّية لكن ليس بخجلٍ هذه المرَّة، فأردف بيل: «أنت تؤذي نفسك كثيرًا بلوح التزلُّج هذا يا بني».

نظر الصبي إلى رُكبتيه المليئتين بالجروح وابتسم قائلًا: «أجل، أظنُّ ذلك. أنا أقفز من عليه أحيانًا».

سأله بيل فجأة: «هي يمكنني تجربته؟».

نظر إليه الصبي بفمٍ فاغر في البداية، ثم ضحك قائلًا: «سيكون هذا مضحكًا. لم أرَ شخصًا بالغًا يركب لوح تزلُّج من قبل».

قال بيل: «سأعطيك رُبع دولارٍ».

- «أبي أخبرني ألا ...».

- «ألا تأخذ مالًا أو حلوى من أيِّ شخصٍ غريب. إنها نصيحة جيِّدة. لكنني ما زلت سأعطيك ربع دولار. ما قولك؟ فقط جولة صغيرة إلى ناصية شارع چاكسون».

قال الصبي: «دعك من ربع الدولار». ثم انفجر ضاحكًا من جديد، ضحكة سرحة لا تعقيد فيها، ضحكة طازجة. «لست بحاجة إلى نقودك. إن معي دولارين. أنا -تقنيًّا- ثري، ومع ذلك، أرغب في رؤية هذا المشهد. فقط لا تلمني إذا كسرت أحد عظامك».

قال بيل: «لا تقلق. أنا مُؤمَّنٌ عليّ».

ضرب بيل إحدى عجلات لوح التزلُّج البالية بإصبعه، مُستلذًّا بالسهولة السريعة التي دارت بها. كان صوتها يبدو كأن مليون حاملة كُريات بداخلها. كان صوتًا مليئًا بالعنفوان، واستدعى شيئًا عتيقًا إلى قلب بيل.. رغبة ما دافئة كالشوق.. حلوة كالحب.. فابتسم.

سأله الصبي: «فيم تُفكِّر؟».

قال بيل: «أنني سأقتل نفسي»، فضحك الصبي.

أنزل بيل لوح التزلُّج إلى الرصيف ووضع إحدى قدميه عليه، ثم دفعه أمامًا وخلفًا مُجرِّبًا إيَّاه. راقبه الصبي. بعين الخيال، شاهد بيل نفسه يتزلَّج عبر شارع ويتشام في اتِّجاه شارع چاكسون على لوح التزلُّج الأخضر هذا الذي بلون ثمرة الأڤوكادو، ورأسه الأصلع يلتمع في ضوء الشمس، ورُكبتاه منثنيتان قليلًا بالطريقة التي تَثني بها صغار أرانب الثلوج رُكبها في أوَّل يومٍ لها على المُنحدرات، وهي الوضعية التي تخبرك أنها تتخيَّل في عقولها الصغيرة أنها تهوي ساقطة بالفعل. كان واثقًا أن الصبي لا يركب لوحه بهذه الطريقة العرجاء، كان واثقًا أن الصبي يركبه

(ليسبق الشيطان)

كأن ليس ثمَّة غدٌ آتٍ.

ماتت الرغبة في قلبه. لقد رأى رأي العين اللوح ينزلق من أسفل قدمه

وينطلق وحده عبر الشارع، بلونه الأخضر المُشِع الذي لا يُطاق.. اللون الذي لا يستطيع سوى صبي استحسانه. رأى نفسه يسقط على مؤخِّرته، ورُبَّما على عموده الفِقَري. رأى نفسه يودع في غرفة خاصة في مُستشفى ديري العام، كالغرفة التي زار إدي فيها عندما كُسِرَت ذراعه. شاهد نفسه مُمدَّدًا وجسده كله في الجبس، وإحدى ساقيه مُعلَّقة بحبالٍ وأسلاك، بينما يدخل طبيبٌ، وينظر إلى ملف حالته، ثم ينظر إليه ويقول بعدها: «أرى أنك ارتكبت زلَّتين جسيمتين يا سيِّد دِنبروه. الأولى أنك أسأت التحكُّم في لوح التزلج، الثانية أنك نسيت أنك تقترب من الأربعين الآن».

انحنى بيل وأمسك باللوح، ثم أعاده للصبي مرَّة أخرى، وقال: «لا أظنُّني سأفعلها».

قال الصبي بلا وقاحة: «جبان كدجاجة».

وضع بيل إبهاميه أسفل إبطيه ورفرف بكوعيه مقوقِئًا: «باك-باك-باك-بااااك».

ضحك الصبي، ثم قال: «يجب أن أعود إلى المنزل».

قال بيل: «كن حذرًا في طريقك».

أجاب الصبي وهو ينظر إلى بيل بشكٍّ كأن عقله هو الذي في حاجة إلى صيانة: «لا تستطيع أن تكون حذرًا على لوح تزلُّج».

قال بيل: «أجل، حسنًا. كما نقول عندنا في صناعة السينما، أنا أسمعك. لكن ابَق بعيدًا عن المصارف والمجاري، وظل دائمًا وسط صحبة من رفاقك».

أومأ الصبي: «إن منزلي قريب».

فكَّر بيل، وكذا كان منزل أخي.

قال بيل للصبي: «سينتهي الأمر قريبًا على أيِّ حال».

سأله الصبي: «حقًّا؟».

قال بيل: «أظنُّ ذلك».

- «حسنًا. أراك لاحقًا... يا دجاجة!».

وضع الصبي قدمه على اللوح ودفعه بالقدم الأخرى، وما أن انطلق رفع

قدمه الأخرى ومضى يهدر على طول الشارع بسُرعة بدت لبيل انتحارية تمامًا، لكنه كان يمتطيه بالطريقة التي توقَّعها بيل تمامًا: رشاقة خمول مُعتدَّة بنفسها. شعر بيل بحبٍّ نحو الصبي، بانتعاشٍ وخفَّة في الروح، برغبة في أن يكون هو ذلك الصبي، لكنها رغبة صحبها ذُعرٌ خانق. كان الفتى يتزلَّج بأريحية كأن الموت والتقدُّم في العمر أشياء لا وجود لها. كان يبدو خالدًا بطريقة أو بأخرى في شورت الكشَّافة الكاكي وفردتي حذائه الباليتين.. يبدو أبديًّا برُكبتيه العاريتين المُتَّسختين، وشعره الذي يتطاير من خلفه.

فكَّر بيل متحفِّزًا: احذر يا فتى، فلن تستطيع أخذ المُنعطف بتلك السُرعة! لكن الصبي حرَّك فخذيه إلى اليسار فجأة كأنه راقص مُحترف، ودارت أصابع قدميه حول محورها على اللوح الأخضر المصنوع من الزجاج الليفي، وانزلق بنعومة سريعة إلى المنعطف ومنه إلى شارع چاكسون، مُفترضًا ببساطة وبلا تفكير أنه ليس ثمَّة شيءٌ قادمٌ قد يعترض طريقه. فكَّر بيل: لن تجري الأمور هكذا دائمًا يا فتى.

تمشَّى بيل وصولًا إلى منزله القديم لكنه لم يتوقَّف، فقط أبطأ من وتيرته قليلًا وراح يمشي الهوينى. كان هناك أناس في الحديقة، أم تجلس على مقعد ورضيع يغفو بين ذراعيها وتُراقب طفلين آخرين في الثامنة والعاشرة من عمرهما تقريبًا وهما يلعبان الريشة الطائرة فوق عُشبٍ ما زال نديًّا من أمطار البارحة. نجح الطفل الأصغر في صد الكُرة وإرسالها من فوق الشبكة إلى ملعب خصمه، فصاحت المرأة: «حلوة يا شين!».

كان المنزل ما زال باللون الأخضر الداكن ذاته والنافذة المشبكية ما زالت في مكانها فوق الباب، لكن أحواض الزهور الخاصة بأمه لم تعد موجودة.. كذا ذهبت غابة الألعاب الرياضية التي بناها والده في الباحة الخلفية من بقايا المواسير التي جمعها. تذكَّر بيل اليوم الذي سقط فيه چورچي من علٍ وكسرَ جزءًا من سِنّه... لكم صرخ وقتها!

شاهد بيل هذه الأشياء (تلك التي ظلَّت، وتلك التي اختفت) وفكَّر أن يذهب إلى المرأة التي تحمل رضيعًا بين ذراعيها. فكَّر أن يقول لها: مرحبًا، أنا بيل دِنبروه، كنت أعيش هنا منذ زمن. بالتأكيد كانت المرأة ستجيبه: حقًّا، هذا

لطيف، وبعدها، ماذا سيقول؟ هل يستطيع أن يسألها إن كان الوجه المحفور بعناية على إحدى عوارض غرفة العليَّة -الوجه الذي اعتاد تصويب السهام عليه مع چورچ- ما زال موجودًا؟ هل يستطيع سؤالها إن كان ولداها يناماان أحيانًا في الشُرفة المُغطَّاة عندما يشتدَّ الحر في ليالي الصيف، ويتحدَّث أحدهما إلى الآخر بأصواتٍ خفيضة وهما يراقبان تموُّج الهواء الساخن في الأفق. ظن بيل أنه رُبَّما يستطيع طرح بعضٍ من هذه الأسئلة، لكنه شعر أيضًا أنه سيتلعثم تمامًا إذا حاول أن يكون فاتنًا... من ناحية أخرى، هل يرغب حقًّا في معرفة إجابات تلك الأسئلة؟ بعد موت چورچي، صار المنزل مكانًا باردًا، وأيًّا ما كان الذي عاد إلى ديري من أجله، فهو ليس موجودًا هنا.

لذا، اتَّجه بيل إلى ناصية الشارع وانعطف يمينًا، دون أن ينظر خلفه.

سرعان ما صار في شارع كانساس، في طريقه إلى وسط المدينة. مُجدَّدًا، وقف بُرهة عند السياج الذي يطوِّق الرصيف، مُشرئبًّا ببصره إلى أسفل، مُتأمِّلًا البرِّية. كان السياج على حاله. خشبٌ ناخر مُغطًّى بكلسٍ أبيضٍ باهت. البرِّية أيضًا التي لم تتغيَّر، فقط صارت أكثر وعورة، إذا عُدَّ هذا تغييرًا. كان التغييران الوحيدان اللذان لاحظهما هما أن وصمة الدُخان القذرة التي طالما ميَّزت مكب نفايات البلدة قد ذهبت (لقد استبدلت محطَّة معالجة نفايات حديثة مكبّ النفايات القديم حاليًا)، وأن ثمَّة جسرًا هو امتداد للطريق السريع يعبر قاطعًا الخُضرة المُتشابكة الآن. ما عدا ذانك، كل شيءٍ شديد الشبه بالماضي، كأن آخر مرَّة رآها فيها كانت الصيف الفائت: تنزلق الحشائش والشُجيرات الخفيضة أسفل المنحدر إلى منطقة مُسطَّحة الصالحة للتجوُّل إلى اليسار، وإلى أجماتٍ وأشجارٍ كثيفة فوضوية وعرة إلى اليمين. استطاع بيل رؤية منطقة ما اعتادوا تسميته بالخيزران، تلك السيقان الفِضِّية البيضاء التي ترتفع اثني عشر أو أربعة عشر قدمًا في الهواء. تذكَّر بيل أن ريتشي حاول ذات مرَّة تدخين واحدة منها، مُدَّعيًا أنها مثل المواد التي يُدخِّنها مُغنيو الچاز ويمكنها أن تُعلِّي مزاجك. كل ما أصاب ريتشي بعدها أنه مَرِض.

سمع بيل صوت خرير ماءٍ يجري في جداول صغيرة عديدة، واستطاع رؤية أشعة الشمس تنعكس على النطاق الأوسع لنهير الكِندوسكيج. ما زالت

الرَّائحة كما هي، على الرَّغم من إزالة المكب. لم ينجح عطر النباتات النامية الثقيل في أوج الربيع في تقنيع وتغطية رائحة النفايات والفضلات البشرية. كانت رائحة الإنتان ضعيفة لكن لا يُمكن إخطاؤها. رائحة فساد.. نفحة من الجانب المُظلم السُفلي للمدينة.

فكَّر بيل مُرتجفًا: هناك انتهى الأمر من قبل، وهناك سينتهي هذه المرَّة. بالأسفل... تحت المدينة.

استمرَّ وقوف بيل فترة أطول، مُقتنعًا أنه لا بُدَّ سيرى شيئًا ما، تجسُّدًا ما، للشرِّ الذي عاد إلى ديري لمواجهته، لكن شيئًا لم يظهر. أنصت بيل إلى صوت جريان المياه، الصوت الربيعي الحيوي الذي ذكَّره بالسدِّ الذي شيَّدوه في البرِّية. كان يرى تمايل أوراق الأشجار والشُجيرات مع النسيم الخفيف، لكن شيئًا آخر لم يوجد. لا علامة، واصل بيل المسير وهو ينفض عن كفَّيه الكلس الباهت.

حافظ بيل على وجهته صوب وسط المدينة.. نصف حالم، نصف مُتذكِّر. طفلٌ آخر يأتي. هذه المرَّة كانت فتاة صغيرة في حدود العاشرة، ترتدي سراويل قصيرة ترتفع إلى خصرها، وبلوزة حمراء بهت لونها. كانت تُقافز كُرةً بإحدى يديها، وتُمسك دُمية من شعرها البلاستيكي الأشقر في اليد الأخرى.

قال بيل: «مرحبًا!».

نظرت الفتاة إليه: «ماذا!».

- «ما أفضل متجرٍ في ديري؟».

فكَّرت الفتاة في الأمر ثم قالت: «أفضل متجر بالنسبة إليَّ أم إلى أيِّ شخصٍ؟».

قال بيل: «بالنسبة إليك».

قالت بلا أدنى تردُّد: «ملابس مُستعملة، لروز المُستعملة».

- «استميحك عذرًا؟».

- «تفعل ماذا؟».

- «أعني، أهذا اسم متجر؟».

قالت الفتاة وهي تنظر إلى بيل كأنه شخصٌ تافه: «بالتأكيد. ملابس

مُستعملة، لروز المُستعملة[1]. أمي تقول إنه متجر خُردة، لكنني أحبه. لديهم أشياء قديمة، كأُسطُوانات لم تسمع عنها من قبل، وبطاقات بريدية أيضًا. إن رائحته تُشبه غُرفًا لعليَّة. يجب أن أعود إلى البيت الآن. باي».

مضت الفتاة دون أن تنظر خلفها وهي تنطِّط كُرتها وتمسك الدُمية من شعرها.

صاح بيل في إثرها: «هاي!».

نظرت خلفها بوجهٍ عابث: «أستأذنك عذرًا؟».

- «ذلك المتجر! أين هو؟».

نظرت خلفها من فوق كتفها وقالت: «كما تسير في طريقك، إنه أسفل تلَّة أب-مايل».

استشعر بيل مُجدَّدًا ذلك الشعور بأن الماضي ينطوي على نفسه، وينطوي عليه. إنه لم يقصد طرح أيَّ سؤالٍ على الفتاة الصغيرة. لقد انطلق السؤال خارجًا من فمه كسدَّادة تنطلق من فوَّهة زجاجة شامبانيا.

انحدر بيل نزولًا أسفل تلَّة أب-مايل مُتَّجهًا إلى وسط المدينة. لم تعد المستودعات ومصانع التعبئة التي يتذكَّرها من طفولته -وهي مبانٍ قرميدية كئيبة بنوافذٍ مُتَّسخة تنبعث منها رائحة لحوم جبَّارة- موجودة، رغم أن مصنعي آرمور وستار بيف لتغليف اللحوم كانا لا يزالان هناك. لقد ذهب مصنع همفيل، وفي موقعي مصنعي إيجل بيف وكوشر ميت فُتِح محل مخبوزات وبنك من الذي يخدم زبائنه دون مغادرة سيَّاراتهم، وفي المكان الذي اعتاد مرفق الأخوين تراكر أن يوجد فيه، ثمَّة لافتة مكتوب عليها بخطٍ قديم الطراز: ملابس مُستعملة، لروز المُستعملة تمامًا كما قالت الفتاة الصغيرة التي تحمل الدُمية. كان القرميد الأحمر قد طُلي بلونٍ أصفر رُبَّما كان جميلًا منذ عشر أو اثنتي عشرة سنة، لكنه صار الآن عكرًا تمامًا. إنه اللون الذي تدعوه أودرا بصفار البول.

---

(1) اسم المتجر مأخوذ عن أغنية Second Hand Rose. تحكي الأغنية عن فتاة فقيرة تدعى روز، يمتلك والدها متجر خردوات لذا كل ملابسها مستعملة، إلى أن اشتُهرت في الحي بـ«روز المُستعملة».

سار بيل ببطءٍ نحو المتجر، شاعرًا بإحساس الديجا-ڤو يتنامى داخله من جديد. لاحقًا، سيخبر الآخرين أنه كان يعلم بوجود الشبح الذي سيراه قبل أن يراه بالفعل.

كانت نافذة عرض متجر ملابس مُستعملة، لروز المُستعملة أكثر من عكرة. كانت قذرة. ليس هذا متجر خردوات وأثرياتٍ مُعتادًا من تلك التي تعرض أسِرَّة صغيرة عتيقة وخزانات أواني وأطقم خزفٍ مُسلَّطًا عليها مصابيح خفيَّة لتتلألأ، بل كان من المتاجر التي اعتادت أمه أن تصفها بازدراءٍ تام بـ «مكتب رهنيات أمريكي». كانت البضائع مبعثرة هنا وهناك في كل مكان، في أكداسٍ يغيب عنها النظام بالكامل. ثياب مُدلَّاه من على مشاجب، آلات جيتار مُعلَّقة من أعناقها كمُجرمين نُفِّذ فيهم حكم الإعدام. ثمَّة صندوق يحتوي أُسطُوانات عليه ورقة تقول: الأُسطُوانة بـ 10 سنتات. احصل على 12 بدولارٍ واحد. اسمع لفرقة أندروز سيسترز وبيري كومو، وچيمي روچرز، وآخرين. ثمَّة ملابس أطفال وفردتي حذاءٍ مُريع الهيئة أمامه بطاقة تقول: مُستعمل، لكن بحالة جيِّدة! الزوجان بـ 1 دولار. يوجد تلفزيونان مُعطَّلان، وثالث مواجه للشارع يعرض صورة مغبَّشة من مُسلسل برادي بانش. يوجد صندوق يحوي روايات كثيرة، معظمهما مُمزَّق الغلاف (اثنان بربع دولار، العشر بدولار، ويوجد المزيد بالداخل، بعضها «مُثير»)، الصندوق موضوع فوق راديو كبير له غطاء أبيض مُتَّسخ ومزوَّد ببكرة ضبط ضخمة في حجم المنبِّه. ثمَّة باقاتٌ من أزهارٍ بلاستيكية موضوعة في مزهرياتٍ قذرة على منضدة طعام مخلَّعة ومنبعجة ويكسوها الغبار.

كل هذه الأشياء كانت خلفية فوضوية للشيء الذي تسمَّرت نظرة بيل عليه فورًا، وظلَّ واقفًا ينظر إليه بعينين مُتَّسعتين تأبى التصديق. سرت القشعريرة بجنون في جميع جسده. سخنت جبهته، وتثلَّجت أطرافه، وللحظة عابرة بدا أن كل الأبواب داخل عقله ستُفتح على اتِّساعها وأنه سيتذكَّر كل شيء.

إن سيلڤر موضوعة في الركن الأيمن من نافذة العرض.

كانت سنَّادتها الحديدية ما زالت مفقودة، وقد نما الصدأ على مصدَّاتها، لكن البوق الأسود ما زال في مكانه على المقود، وبالونته المطاطية شقَّقها

الزمن.. أما البوق نفسه الذي طالما حافظ بيل عليه لامعًا وأنيقًا، صار باهتًا ومليئًا بالنُقر. كانت حاملة الحاجيات المسطَّحة التي اعتاد ريتشي الركوب عليها كثيرًا لا تزال في مكانها فوق المصدِّ الخلفي، لكنها انثنيت الآن وأضحت مُعلَّقة بمسمارٍ وحيد.. وكما يبدو، غطَّى أحدهم في مرحلةٍ ما كُرسي الدرَّاجة بكساءٍ مخطَّط كجلد النمور، لكنه صار الآن مفروكًا وباليًا حتَّى إن خطوطه لم تعد واضحة تقريبًا.

سيلڤر.

رفع بيل يدًا غير واعية ليمسح بها الدموع التي سالت ببطء على وجنتيه، وبعدها استخرج منديله وأكمل المهمة، ثم دلف إلى المتجر.

كان الجو داخل متجر ملابس مُستعملة، لروز المُستعملة زنخًا من القِدم والزمن. رائحة المكان تُشبه غُرف العليَّة كما قالت الفتاة، لكنها ليست تلك الرَّائحة الجيِّدة التي تفوح من بعضها. لم تكن هذه رائحة زيت بذر الكتَّان المدعوك بعناية على أسطح بعض المناضد القديمة لتلميعها، أو عبق أقمشة ووسائد مخملية طال أمدها، إنما رائحة أغلفة كُتُبٍ عطنة ووسائد ڤينيل قذرة طُبِخت جزئيًا في أشعة شموس فصول صيفٍ عديدة مضت... رائحة غبارٍ وفضلات فِئران.

من التلفاز الموضوع في نافذة العرض، انبعث صوت الهرج والمرج من مسلسل برادي بانش، ينافسه صوت مُقدِّم أغانٍ يُعرِّف نفسه بأنه «صديقكم بوبي راسل» آتيًا من راديو ما، وكان يعد إهداء نسخة من ألبوم برنس الجديد للمُتَّصل الذي سيخبره باسم الممثِّل الذي لعب دور والي في مسلسل اترك الأمر لبيڤر. كان بيل يعرف الإجابة، إنه صبي يُدعى توني دو، لكنه لم يكن راغبًا في ألبوم برنس الجديد. كان الراديو موضوعًا على رفٍّ مُرتفع وسط مجموعة بورتريهات تعود إلى القرن التاسع عشر. أسفله وأسفلها يجلس مالك المكان.. رجُل في الأربعين من عمره تقريبًا ويرتدي الجينز وتيشيرت مُثقَّبًا كشباك الصيد. كان شعره مُملَّسًا إلى الخلف، وكان نحيلًا إلى حد الهزال، ويرفع قدميه المكتب الذي تتكدَّس عليه دفاتر كثيرة، وتحتل الجزء الأكبر منه ماكينة نقود قديمة. كان الرَّجُل يقرأ رواية فكَّر بيل أنها بالتأكيد لم

تُرشَّح لجائزة البوليتزر اسمها فحول موقع البناء. على الأرض أمام المكتب، يوجد عمود حوانيت الحلاقة وشريطه الحلزوني يدور صعودًا إلى ما لا نهاية، وسلكه المُهترئ يتلوَّى في طريقه عبر الأرضية وصولًا إلى مقبس حائط كثعبانٍ مُنهك. كانت اللافتة الموضوعة أمامها تقول: سلالة تنقرض! 250$.

عندما رنَّ جرس الباب، وضع الرَّجُل الجالس وراء المكتب علامة على الصفحة التي انتهى إليها، ورفع بصره متسائلًا: «هل أستطيع مساعدتك؟».

قال بيل: «أجل»، وفتح فمه ليسأله عن الدرَّاجة الموضوعة في واجهة المتجر. لكن قبل أن يتكلَّم، راحت عبارة مُؤرِّقة تقصف وتدوِّي في جنبات عقله فجأة... جُملة وحيدة بخَّرت كل الأفكار الأخرى التي تعتمل في رأسه:

شاف الشَّبح فشِدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب.

ما معنى هذا بحق المسيح؟

(فشطر)

سأله المالك: «هل تبحث عن شيءٍ مُعيَّن؟». كان صوته مُهذَّبًا إلى حدٍ كبير، لكنه راح ينظر إلى بيل بإمعان.

فكَّر بيل مُستمتعًا على الرغم من مزاجه النَّكِد: إنه يتفرَّسني، وربَّما يُفكِّر أنني دخَّنت بعضًا من تلك الأشياء التي تُعلِّي مزاج عازفي الچاز.

- «أجل، أنا مـ-مـ-مـهتم بـ-بـ...».

(شكَّ في رُشدِه)

«... بالعـ-عـ-عـ...».

- «عمود الحلَّاقين؟ أهذا ما تقصده؟». في عيني المالك كان يلوح شيئًا تذكَّر بيل -حتَّى في اللحظة المُضطربة الحالية- أنه طالما كرهه في طفولته. نفاد صبر أولئك الذين يكون لزامًا عليهم الإنصات إلى شخصٍ مُتلعثم، والرغبة المُلحَّة للقفز بالكلام سريعًا لإنهاء الفكرة التي تُلعثِم اللقيط المسكين هكذا. لكنني لا أتلعثم! لقد تجاوزت هذا اللعنة، أنا لا أتلعثم! أنا...

(فشِدِه وشحب)

كانت الكلمات تدوي في عقله بجلاءٍ رهيب كأن أحدهم يلفظها داخله، كأنه رجُلٌ استحوذت عليه شياطين كما في العصور الإنجيلية، رجُلٌ احتلَّه

تصورٌ ما خارجي. لكنه كان يُميِّز الصوت في عقله جيِّدًا، ويعرف أنه صوته.
شعر بيل بالعرق يتفصَّد ببطء من جبهته.
كان المالك يقول: «أستطيع أن...»
(شاف الشَّبح)
«... أعقد معك صفقة جيِّدة على هذا العمود. سأخبرك بالحقيقة، لم أتمكَّن من بيعه بمئتين وخمسين، سأمنحك إيَّاها بمئة وخمسة وسبعين، ما رأيك في هذا؟ إنه الشيء الوحيد ذو القيمة في هذا المكان».
(الخشب)
قال بيل أخيرًا وهو يكاد يصرخ: «عمود. ليس العمود ما أهتم به»، فجفل المالك قليلًا.
سأله المالك: «هل أنت بخير يا أستاذ؟». كانت نبرته المُهتمَّة تناقض الحذر البالغ البادي في عينيه، ولاحظ بيل أنه رفع يده اليُسرى عن المكتب، وبومضة شعورية أقرب إلى الاستدلال الاستقرائي أكثر من كونها حدسًا، علم أن ثمَّة دُرج مفتوح أسفل المكتب، وأن الرَّجُل لا بُدَّ يضع يده الآن على سلاح ما. رُبَّما فكَّر أنه لص سيسطو عليه، لكنه على الأرجح قلق فحسب. فبعد كلِّ شيء، كان واضحًا أن الرَّجُل مثلي الجنس، ونحن في مدينة منح بعضٌ من شبابها المجرمين أدريان ميلون حمَّامًا أخيرًا في مياه نهر الكِندوسكيج.
شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب.
كانت العبارة تُشتِّت تفكيره بالكامل.. الأمر يبدو كأنه يفقد عقله. من أين تأتي؟
(فشطر)
مرارًا وتكرارًا.
بمجهودٍ جبَّار مُفاجئ، هاجم بيل العبارة. فعلها عن طريق إجبار عقله على ترجمة العبارة الغريبة إلى اللغة الفرنسية. إنها الطريقة ذاتها التي كان يتغلَّب بها على لعثمته في مُراهقته، وبينما كانت الكلمات تندفع في جنبات عقله، ترجمها بيل مُغيِّرًا إيَّاها... ودُفعة واحدة شعر بلسانه المُنعقد يرتخي.
ثم أدرك أن المالك قال شيئًا ما لم ينتبه إليه.

- «ا-ا-اعذرني؟».

- «كنت أقول أنك لو سترفع صوتك، فمن الأفضل أن تفعلها في الشارع. أنا لا أرحِّب بهذا الخراء في متجري».

أخذ بيل نفسًا عميقًا.

ثم قال: «لنبدأ من البـ-بداية. لنتظاهر أنني جئت لتـ-توِّي».

قال المالك وهو يُجاريه قدر استطاعته: «حسنًا. لقد أتيت لتوِّك. ماذا تريد الآن؟».

قال بيل: «الد-درَّاجة التي في الواجهة.. كم تُريد مقابل الدرَّاجة».

- «سأقبل بعشرين دولارًا». بدا صوته أقل حِدَّة الآن، لكن يده اليُسرى لم تكن قد عادت بعد إلى مجال الرؤية. «أظنُّ أنها كانت طراز شوين يومًا ما، لكنها هجينة الآن». ثم وازن بيل بعينيه وأردف: «إنها درَّاجة كبيرة. أنت نفسك تستطيع قيادتها».

قال بيل مُفكِّرًا في لوح تزلُّج الصبي الأخضر: «أظنُّ أن أيَّام قيادتي للدرَّاجات قد ولَّت».

هزَّ المالك كتفيه، ثم أظهر يده اليُسرى أخيرًا: «الديك ولد؟».

- «أ-أجل».

- «كم عمره؟».

- «إحدى عشرة سنة».

- «إنها درَّاجة كبيرة على صبي في الحادية عشرة».

- «هل تقبل الدفع بشيكٍ سياحي؟».

- «طالما أنه لا يزيد على عشرة دولارات على مبلغ الشراء».

قال بيل: «أستطيع أن أدفع لك عشرين دولارًا. هل تمانع لو أجريت مُكالمة هاتفية؟».

- «لا أمانع إذا كانت محلِّية».

- «إنها كذلك».

اتَّصل بيل بمكتبة ديري العامة. كان مايك هناك.

سأله مايك: «أين أنت يا بيل؟»، ثم أردف سريعًا: «هل أنت بخير؟».

- «أنا بخير. هل رأيت أيًّا من الآخرين؟».
- «لا، سنراهم الليلة»، ثم صمت برهة قبل أن يضيف: «هكذا أفترض. كيف أستطيع مُساعدتك يا بيل الكبير؟».
قال بيل بهدوء: «سأشتري درَّاجة. كنت أتساءل إن كنت أستطيع أن أعرجها على منزلك. هل لديك مرآب أو أيِّ مكان أضعها فيه؟».
مرَّت لحظة من الصمت.
- «مايك؟ هل أنت...».
قال مايك: «أنا معك. أهي سيلفر؟».
نظر بيل إلى المالك. كان قد بدأ يقرأ في كتابه ثانيةً، أو رُبَّما ينظر فيه فقط بينما يسترق السمع إلى المُكالمة.
قال بيل: «أجل».
- «أين أنت؟».
- «في متجر اسمه ملابس مُستعملة، لروز المُستعملة».
قال مايك: «حسنًا. عنوان منزلي: 61 شارع بالمر. ستذهب إلى نهاية الشارع الرئيس ثم...».
- «أستطيع الوصول إليه».
- «حسنًا. سأقابلك هناك. أترغب في تناول وجبة عشاء خفيفة؟».
- «سيكون هذا جميلًا. هل تستطيع ترك عملك؟».
- «لا مشكلة. ستنوب كارول مكاني»، ثم تردَّد قبل أن يقول: «لقد قالت لي إن رجُلًا جاء إلى هنا منذ نحو ساعة قبل عودتي، وتقول إنه غادر شاحبًا كالشبح. لقد جعلتها تصفه لي. إنه بن».
- «هل أنت متأكِّد».
- «أجل، والدرَّاجة أيضًا. إن لها دورًا في الأمر، أليس كذلك؟».
قال بيل دون أن تبرح عيناه المالك الذي كان ما زال يبدو مُنغمسًا في كتابه: «لست في حاجة إلى هذا السؤال».
قال مايك: «سأراك في منزلي. رقم 61، لا تنسَ».
- «لن أفعل. شكرًا يا مايك».

- «فليُباركك الرب يا بيل الكبير».

أغلق مايك الهاتف، وعلى الفور أغلق المالك كتابه من جديد: «هل أمَّنت مساحة لتخزينها يا صديقي؟».

قال بيل: «أجل». ثم أخرج دفتر شيكاته ووقَّع اسمه على أحد الشيكات بقيمة عشرين دولارًا. فحص المالك التوقيعين بعناية شديدة كان بيل سيعدها إهانة نوعًا ما في ظروفٍ نفسية أقل تشتيتًا.

في النهاية خطّ له المالك فاتورة شراء وألقى بالشيك السياحي في ماكينة النقود القديمة. ثم نهض، وضغط بيديه أسفل ظهره وتمطَّى، واتَّجه إلى مُقدِّمة المتجر. شقَّ الرَّجُل طريقه عبر أكوام البضاعة التي لا قيمة لها -التي بالكاد لا قيمة لها- بمهارة فطرية وجدها بيل فاتنة.

حمل الدرَّاجه، وأرجحها حول المكان، ثم دفعها إلى حافَّة واجهة العرض. ساعده بيل بإمساك مقابضها، وعندما فعل سرت موجة أخرى من القشعريرة في جسده. هذه سيلڤر، من جديد، سيلڤر بين يديه و...

(شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب)

يجب أن يطرد هذه الفكرة بعيدًا لأنها تسقمه وتُشعِره بشعورٍ غريب.

قال المالك: «العجلة الخلفية هذه فارغة من الهواء قليلًا». لقد كانت في الحقيقة فارغة تمامًا ومُسطَّحة كفطيرة. كانت العجلة الأمامية منفوخة جيِّدًا، لكنها نحلت تمامًا حتَّى إن أسلاكها ظهرت في أكثر من موضع.

قال بيل: «لا مشكلة».

- «هل يمكنك التعامل معها من هنا؟».

(لقد كنت أتعامل معها بطريقة جيِّدة جدًّا، الآن لست متأكِّدًا)

قال بيل: «أظنُّ ذلك. أشكرك».

- «تحت أمرك، وإذا أردت التفاوض بخصوص عمود الحلَّاقين هذا، عاود القدوم».

فتح له المالك الباب. سار بيل بالدرَّاجة خارجًا منه وانعطف يسارًا، ثم بدأ سيره مُتَّجهًا صوب الشارع الرئيس. نظر المارَّة بعيونٍ فضولية مُستمتعة إلى الرَّجُل أصلع الرأس الذي يدفع درَّاجة فارغة الإطار ببوق كبير يبرز من فوق

سلَّة حاجيات صدِئة، لكن بيل بالكاد أعارهم انتباهًا. كان يتعجَّب من كيف أن يديه البالغتين ما زالتا تناسبان مقاس المقبضين المطَّاطيين، ويتذكَّر كيف أراد دائمًا أن يربط شرائط بلاستيكية صغيرة مُختلفٌ ألوانها في فتحتي المقبضين كي تُرفرف مع الريح، لكنه لم يفعل هذا قط.

وقف عند مُفترق الشارعين الرئيس والأوسط أمام متجر مستر بيبرباك. أراح الدرَّاجة على المبنى قليلًا ريثما ينزع عنه سُترته الرياضية. إن دفع درَّاجة فارغة الإطار لمَهمَّة شاقة، وقد كان اليوم حارًا. ألقى بيل السترة إلى السلَّة وواصل المسير.

فكَّر بيل: لقد صدئت الجنازير. أيًّا كان من امتلكها من بعدي، فهو لم يرفق بـ...

(بروحها)

بها.

توقَّف بيل هنيهة قاطبًا جبينه، محاولًا التذكُّر ماذا حدث لسيلڤر؟ هل باعها؟ هل تبرَّع بها؟ فقدها رُبَّما؟ إنه لا يتذكَّر، وبدلًا من ذلك، بدأت تلك العبارة السخيفة

(شكَّ في رُشدِه فشطر)

في معاودة الظهور بغرابة في غير وقتها ولا محلِّها كمقعدٍ خشبيٍ في ساحة حرب، كمُشغِّل أُسطُوانات في مدفأة، كصفٍّ من أقلام الرصاص يبرز من أسفلت رصيفٍ ما.

هزَّ بيل رأسه. تكسَّرت العبارة وتبدَّدت كالدخان، وواصل دفع سيلڤر إلى منزل مايك.

6
مايك هانلون يعقد صِلةً

لكنه أوَّلًا أعد عشاءً.

طهى مايك بعض شطائر الهامبرجر مع مشروم بالبصل وسلاطة سبانخ. لقد انتهى كلاهما من تصليح سيلڤر وفُتِحت شهيَّتاهما للأكل.

كان المنزل صغيرًا أنيقًا من طابق واحد مطلي باللون الأبيض وله حواف خضراء. كان مايك قد عاد إلى المنزل في سيَّارة فورد عتيقة بأعتابٍ صدئة ونافذة خلفيَّة متصدِّعة في الوقت الذي كان بيل يدفع فيه سيلڤر عبر شارع بالمر. تذكَّر بيل الحقيقة التي أشار مايك إليها في أثناء الغداء: لقد كفَّ ستَّة أعضاء من نادي الخاسرين عن أن يكونوا خاسرين، أولئك من غادروا ديري. مايك وحده الذي تخلَّف وراءً، وهو ما زال مُتخلِّفًا وراءً.

دفع بيل بسيلڤر إلى مرآب مايك ذي الأرضية المُزيَّتة جيِّدًا والأنيق في كل جوانبه، تمامًا كما أثبت المنزل نفسه تلك الأناقة بعد ذلك. الأدوات مُعلَّقة على الحوائط، وثمَّة مصابيح مُغطَّاة بصفائح مخروطية الشكل أشبه بالمصابيح التي تجدها مُعلَّقة فوق طاولات كرة البلياردو. أسند بيل الدرَّاجة إلى الجدار، ووقف كلاهما ينظر إليها دون أن يتفوَّه أحدهم بكلمة، وأيديهما في جيوبهما.

قال مايك في النهاية: «حسنًا، إنها سيلڤر بالفعل. ظننتك قد تكون مُخطِئًا، لكنها هي بشحمها ولحاماتها. ماذا تنوي فعله بها؟».

- «فلتحل اللعنة عليّ إن كنت أعرف. ألديك منفاخ عجل؟».

- «أجل، وعندي أيضًا عدَّة ترقيع إطارات. أهاتان العجلتان بلا إطارين داخليين؟».

قال بيل مُنحنيًا لتفحُّص الإطار الفارغ: «أجل، لطالما كانت كذلك».

- «هل أنت تتهيَّأ لركوبها من جديد؟».

قال بيل بحدَّة: «بالطبع لا. أنا فقط لا أحب لها أن تقف بإطارٍ فارغ».

- «أيًّا كان ما تطلبه يا بيل الكبير. أنت الزعيم».

التفت بيل بحدَّة إليه ليجيبه على ذلك، لكن مايك كان قد ذهب إلى نهاية المرآب ليأتي بمنفاخ العجل من على المشجب، ثم أخرج من إحدى الخزائن عبوَّة صفيح تحوي عدَّة ترقيع إطارات وناولها لبيل، فراح بيل يتأمَّل العلبة الصفيح بفضول. لقد بدا أنه يتذكَّر أغراض شبيهه بهذه من فترة صباه: علب صفيح أخرى تُماثل هذه في الشكل والحجم كان الرجال يحتفظون بها بسجائرهم التي يلفونها بأنفسهم، باستثناء وحيد أن غطاء تلك العلبة كان

لامعًا وخشنًا، بحيث يُستخدم في تخشين مطَّاط الإطار حول الثقب قبل وضع اللصقة. كانت العلبة جديدة تمامًا، وثمَّة ملصق سعر عليها من متجر وولكو يقول: 7.23 $. تذكَّر بيل أن عدَّة كهذه كان ثمنها نحو دولارٍ وخمس وعشرين سنتًا عندما كان طفلًا.

قال بيل: «ليست مصادفة أنك تمتلك هذه الأشياء في مرآبك». لم يكن هذا سؤالًا.

وافقه مايك: «لا. لقد ابتعتها الأسبوع الماضي من المركز التجاري بلا تفكير».

- «هل لديك درَّاجة؟».

قال مايك: «لا»، والتقت أعينهما.

- «لقد اشتريت هذه العدَّة فحسب».

وافقه مايك وعيناه ما زالتا مُمسكتان بعينيه: «فقط جاءتني الرغبة لفعل ذلك. استيقظت صباحًا شاعرًا إنها قد تكون نافعة، ظلَّت الفكرة تؤرِّقني طوال اليوم. لذا... ابتعت العدَّة، وها أنت تستخدمها».

قال بيل مؤمِّنًا على كلامه: «ها أنا أستخدمها، لكن كما يقولون في المُسلسلات المستهلكة: ما معنى كل ذلك يا عزيزي؟».

قال مايك: «اسأل الآخرين.. الليلة».

- «هل تتوقَّع أنهم سيأتون؟».

- «لا أعلم يا بيل الكبير»، ثم توقَّف قليلًا وأضاف: «أظنُّ أن هناك احتمالًا ألَّا يظهر أيٌّ منهم. قد يتسلَّل واحد أو اثنان منهم هروبًا من المدينة، أو...». قطع كلامه وهزَّ كتفيه.

- «وماذا سنفعل حينها؟».

قال مايك مُشيرًا إلى عدَّة ترقيع الإطارات: «لا أعرف، لقد دفعت سبعة دولارات ثمنًا لهذه. هل تنوي استخدامها أم ستواصل النظر إليها فقط؟».

أخذ بيل سُترته الرياضية من فوق سلَّة الدرَّاجة وعلَّقها بحرص على أحد المشاجب الخالية. ثم قلب سيلفر رأسًا على عقب وأسند مقعدها على الأرض، ثم بدأ يُدير إطارها الخلفي بحرص. لم يحب الصرير الصدئ الذي

يصدره محور العجلة، وتذكَّر النقرة شبه الصامتة التي صدرت عن رولمان بلي عجلة لوح تزلُّج ذلك الصبي. فكَّر بيل: قليلٌ من الزيت سيحل المُشكلة، ولن يضير تزييت الجنزير في شيء أيضًا. إن الصَّدأ مُستشري فيه. أيضًا هي بحاجة إلى أوراق كوتشينة. أراهن أن مايك لديه كوتشينة، ومن النوع الجيِّد. رُبَّما ماركة بايكس المُغلَّفة بطبقة من السليولويد الذي يجعلها صلبة وزلقة تمامًا، حتَّى إذا جئت تخلط أوراقها أوَّل مرَّة لا تسلم من سقوطها الدائم في كل مكانٍ على الأرضية...

توقَّف سيل أفكاره فجأة، وشعر بيل بالبرودة.

ما هذا الذي تُفكِّر فيه بحق المسيح؟

قال مايك بلطف: «هل ثمَّة خطبٍ يا بيل؟».

- «لا شيء»، قالها بيل فيما لمست أصابعه شيئًا صغيرًا دائريًّا صلبًا. دسَّ أظافره تحته وجذب، فخرج دبُّوسٌ صغير من الإطار. قال بيل: «ها هو المُـ-مُـ-مُجرم»، ثم طفت تلك العبارة الغريبة، الدخيلة، المُلحَّة، إلى سطح تفكيره من جديد: شاف الشَّبح فشِدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب، لكن هذه المرَّة كان الصوت الذي يلفظها -صوته- متبوعًا بصوت أمه الذي يقول: حاول مُجدَّدًا يا بيلي. كدت تنجح هذه المرَّة، في الوقت الذي صاح داخل رأسه صوت المُمثِّل آندي ديڤاين في دور چينلز، ذراع جاي ماديسون الأيمن: هاي، يا بيل الشرس، انتظرني!

ارتعدت فرائصه.

(الخشب)

هزَّ بيل رأسه لنفض الأمر عنه وفكَّر: لا أستطيع تلفُّظ هذه العبارة دون تلعثُم، حتَّى الآن، وللحظة خاطفة شعر بيل أنه على وشك فهم كل شيء... ثم تلاشى كل شيء.

فتح عدَّة ترقيع الإطارات وبدأ العمل، واستغرق الأمر منه وقتًا طويلًا لإتمامه على النحو الصحيح. كان مايك يستند إلى الجدار أسفل ضوء شمس الأصيل الغاربة، مُشمِّرًا عن ساعديه ومُرخيًا ربطة عنقه ويدندن أغنية ميَّزها بيل أخيرًا في النهاية: «لقد خلَبَت لُبِّي بالعلم».

وفيما كان ينتظر جفاف الغراء على الإطار، ولإيجاد شيءٍ يشغل به نفسه، راح بيل يُزيِّت جنزير سيلڤر وتروسها ومحوريّ عجلتيها. لم ينجح هذا في تحسين مظهر الدرَّاجة بأيٍّ حال، لكنه عندما أدار الإطارات وجد أن الصرير قد اختفى، وقد كان ذلك مُرضيًا. لم تكن سيلڤر ستفوز بإحدى مُسابقات الجمال على أيٍّ حال. إن قوَّتها الوحيدة تكمن في قُدرتها على الإنطلاق كالبرق.

بحلول الخامسة والنصف، كان قد نسي تقريبًا وجود مايك؛ لقد امتُصَّ بالكامل في عمليات الصيانة الصغيرة لكن المُرضية تمامًا. دسَّ بيل فم خرطوم المُنفاخ في صمام الإطار الخلفي، وراقب الإطار وهو ينتفخ بالهواء، مُخمِّنًا ضغط الهواء المُناسب بالحدس والسليقة، وقد أسعده أن الرُقعة اللاصقة ظلَّت مُتمسِّكة جيِّدًا بمكانها، وعندما ظن أنه حصل على الضغط المناسب، فكَّ بيل فم خرطوم المنفاخ من الصمام وكان على وشك إعادة سيلڤر إلى وضعها الطبيعي، عندما سمع صوت رفرفة مُفاجئة لمجموعة أوراق كوتشينة جديدة من خلفه. استدار إلى الخلف سريعًا وكاد أن يُسقط سيلڤر أرضًا.

كان مايك يقف هناك مُمسكًا بكوتشينة زرقاء في إحدى يديه. «أتريد هذه؟».

زفر بيل تنهيدة طويلة راجفة وقال: «أظنُّ أن لديك مشابك أيضًا؟».

أخرج مايك أربعة مشابك من جيب قميصه ومدَّ يده بها.

– «أفترض أنه تصادف وجودها معك أ-أيضًا؟».

قال مايك: «أجل، شيء كهذا».

أخذ بيل الكوتشينة وحاول خلط أوراقها. كانت يداه ترتعشان، وتساقطت الأوراق منهما في كل مكانٍ على الأرض... لكن ورقتين فقط سقطتا ووجهاهما لأعلى. نظر بيل إليهما، ثم إلى مايك. كانت نظرة مايك مُسمَّرة على الأوراق المبعثرة، وقد زُمَّت شفتاه بشدَّة.

كانت الورقتان الظاهرتان ورقتا الآس البستوني.

قال مايك: «مستحيل. هذه الكوتشينة جديدة، لقد مزَّقت غلافها

البلاستيكي لتوِّي.. انظر»، وأشار إلى سلَّة المهملات جوار باب المرآب ورأى بيل الغلاف السيلوفاني. «كيف توجد ورقتا آس بستوني في كوتشينة واحدة؟».

انحنى بيل أرضًا وأمسك بالورقتين وسأل: «كيف يمكن أن تسقط مجموعة أوراق لعب كاملة في كل مكانٍ على الأرض واثنتان فحسب تسقطان بوجهيهما لأعلى؟ هذا سؤال أكثر...».

قلب بيل الورقتين على ظهرهما، ونظر، ثم أراهما لمايك. كانت إحدى الورقتين بظهرٍ أزرق، والأخرى بظهرٍ أحمر.

– «بحق المسيح يا مايكي، ما الذي ورَّطنا أنفسنا فيه؟».

سأله مايك بصوتٍ خدرٍ: «ماذا ستفعل بهاتين؟».

قال بيل: «سأشبكهما في الدرَّاجة»، ثم بدأ يضحك: «هذا ما يُفترض أن أفعله، أليس كذلك؟ إذا كانت هناك شروط مُسبقة لازمة لاستخدام السحر، فإن تلك الشروط ستُرتِّب نفسها حتمًا، أليس كذلك؟».

لم يرد مايك، وراقب بيل وهو يتَّجه إلى عجلة سيلڤر الخلفية ويشبِّك ورقتي اللعب. ما زالت يداه ترتجفان. استغرق الأمر بعض الوقت، لكنه فعله في النهاية، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وحبسه، وأدار العجلة الخلفية. هدر صوت ورقتي اللعب كمدفعٍ رشَّاش مُدوي في جنبات المرآب.

قال مايك بهدوءٍ: «هيا بنا. هيا بنا إلى المنزل. سأعد بعض الطعام».

وهكذا انتهيا من التهام البرجر، وجلسا يُدخِّنان في باحة منزل مايك الخلفية، ويشاهدن الظلام ينسلخ عن ألوان الغروب. أخرج بيل محفظته، وعثر على بطاقة أحدهم وكتب عليها العبارة التي ابتُليَ بها منذ أن لمح سيلڤر في واجهة ذلك المتجر، ثم عرضها على مايك، الذي قرأها بعناية، بشفتين لا تتحرَّكان.

سأله بيل: «هل تعني أيَّ شيءٍ لك؟».

تمتم مايك: «شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب»، ثم أومأ: «أجل، أعرف ما هي».

– «قل لي إذًا، أم هل ستقول لي ذلك الهُـ-هُـ-هُراء عن أنني سأكتشف الأمر بنفسي؟».

قال مايك: «لا. أظنُّ في هذه الحالة لا يوجد ضير في إخبارك. إنها عبارة قديمة من تلك العبارات صعبة النطق التي تعقد اللسان، ثم صارت تُستخدم كتدريب على النُطق للمُتلعثمين والذين يعانون من لثغة. لم تنفك أمك عن محاولة جعلك تنطقها بشكلٍ سليم في ذلك الصيف... صيف 1958. لقد اعتدتَ التجوُّل في كل مكانٍ وأنت تتمتم بها».

- «حقًّا؟». قالها بيل، ثم ببطء، أجاب نفسه: «أجل، فعلت».

- «لا بُدَّ أنك كنت ترغب في إرضائها».

شعر بيل بأنه على وشك البكاء، لكنه أومأ فحسب. لم يأتمن نفسه على الكلام.

قال مايك: «لكنك لم تنجح في ذلك قط. أتذكَّر هذا جيِّدًا. لقد بذلت كل ما في وسعك لكن لسانك لم ينفك عن الانعقاد في كل مرَّة».

قال بيل: «لكنني نجحت في النطق بها، على الأقل مرَّة واحدة».

- «متى؟».

ضرب بيل المنضدة الخفيفة بقبضته بعنف أوجعه، وصاح: «لا أتذكَّر!». ثم كرَّرها ثانيةً، لكن بخفوت هذه المرَّة: «لا أتذكَّر فحسب».

الفصل الثاني عشر

ثلاثة ضيوف غير مدعوِّين

1

في اليوم الذي تلى إجراء مايك المُكالمات الهاتفية، بدأ هنري باورز يسمع الأصوات. ظلَّت الأصوات تتحدَّث إليه طوال اليوم، ولفترة، ظنَّ هنري أنها تأتي من القمر. ففي أواخر عصر ذلك اليوم، عندما رفع هنري بصره إلى أعلى من مكانه في الحديقة حيث يعزق الأرض ويجرِّف الحشائش، استطاع رؤية قرص القمر في السماء الزرقاء المُضيئة، شاحبًا وصغيرًا. قمرٌ شبحي.

كان ذلك في حقيقة الأمر ما جعله يؤمن أن القمر هو ما يتحدَّث إليه، وحده القمر الشبحي يمكن له التحدُّث بأصواتٍ شبحية. أصوات أصدقائه القدامى، وأصوات أولئك الصبية الذين كانوا يلعبون في البرِّية منذ زمنٍ طويل جدًّا. تلك الأصوات، وصوتٌ آخر... صوتٌ لم يجرؤ على تسمية صاحبة.

كان ڤيكتور كريس أوَّل من تحدَّث إليه من القمر. لسوف يعودون يا هنري. جميعهم سيعود يا رجُل. جميعهم سيعود إلى ديري.

ثم بعدها تحدَّث بيلش هاجنز من القمر، رُبَّما من الجانب المُظلم من القمر. أنت الوحيد الباقي يا هنري. الوحيد الباقي مننا. يجب أن تنال منهم انتقامًا لي ولڤيك. لا يمكن أن نسمح لصبية صغار كهؤلاء بهزيمتنا هكذا. لقد ضربت الكُرة ذات مرَّة إلى خارج ملعب تراكر، وتوني تراكر قال إن تلك الكُرة كانت لتتخطَّى حدود ملعب يانكي.

واصل هنري تجريف الحشائش، شاخصًا ببصره إلى القمر الشبحي الظاهر في السماء، وبعد لحظات، جاء فوجارتي وضربه على قفاه وأوقعه أرضًا.

- «أنت تُجرِّف البازلاء مع الحشائش أيُّها الغبي».

نهض هنري ونفَّض الطين الجاف من وجهه وشعره، وقف فوجارتي قبالته. إنه رَجُل ضخم يرتدي سُترة بيضاء وسراويل بيضاء، وبطنه ينتفخ بعظمة أمامه. كان من غير القانوني أن يحمل الحُرَّاس -الذين كان اسمهم «المستشارين» هنا في مصحة چونيبر هيل- هرَّاوات، لذا تفتَّقت أذهان مجموعة منهم -أسوأهم فوجارتي وأدلر وكونتز- إلى حمل أُسطُوانة بلاستيكية محشوَّة بأرباع الدولارات في جيوبهم، وكانوا دائمًا ما يضربون بها في المكان نفسه تقريبًا.. على قفا الشخص أمامهم. لم يكن يوجد قانون يُجرِّم حمل العُملات النقدية، ولم تكن أرباع الدولارات تُعد سلاحًا مُميتًا في مصحَّة چونيبر هيل، معهد المختلين عقليًّا الذي يقف على مشارف أوجستا قرب حدود مدينة سيدني.

قال هنري وهو يبتسم إلى الحارس ابتسامة عريضة كشفت عن صفٍّ أسنان صفراء غير مُنتظمة تبدو كأوتاد سياج يحيط بمنزلٍ مسكون: «أنا آسف يا سيِّد فوجارتي». لقد بدأ هنري يفقد أسنانه منذ أن كان في الرابعة عشرة أو نحو ذلك.

قال فوجارتي: «أجل، أنت آسف. ستكون أكثر أسفًا إن ضبطتك تفعلها ثانيةً».

- «أجل يا سيِّد فوجارتي».

ابتعد فوجارتي تاركًا خلفه آثار أقدام كبير بُنِّيَّة في تُربة الحديقة الغربية بحذائه الأسود الضخم.. ولأن فوجارتي أعطاه ظهره، استغلَّ هنري الفرصة لينظر حوله خلسةً. كان جميع من في العنبر الأزرق يُسرَّحون لعزق الأرض بمُجرَّد أن تصفى السماء من السُحُب المحمَّلة بالمطر، وقد كان العنبر الأزرق المكان الذي يضعونك فيه إذا كنت مريضًا شديد الخطورة من قبل، لكنك تُعدُّ متوسِّط الخطورة الآن. في الحقيقة، كل نزلاء مصحَّة چونيبر هيل يُعدُّون متوسِّطي الخطورة.. إنها مصحَّة للمُجرمين المُختلِّين عقليًّا. لقد أُودِع هنري باورز هنا لأنه اتُّهِم بقتل والده في نهاية خريف عام 1958. كانت تلك سنة اشتهرت بمُحاكمات جرائم القتل. عندما يأتي الحديث إلى جرائم القتل، فسنة 1958 تسرق الأضواء من جميع نظيراتها.

لكنهم بالطبع لم يشكُّوا في أنه قتل والده فقط. لو كان الأمر يتعلَّق بوالده وحده، لم يكن هنري ليمضي عشرين عامًا في مصحَّة الولاية الرئيسة في أوجستا، ويقضي معظم هذا الوقت رازحًا تحت قمع وتقييدٍ بدنيين ودوائيين. لقد ظنَّت السُلطات أنه المسؤول عن قتل الجميع، أو الغالبية على الأقل.

بعد النطق بالحكم، نشرت جريدة أخبار ديري في صفحتها الأولى عنوانًا رئيسًا يقول: «نهاية ليل ديري الطويل»، وفي متن الخبر أوجزوا النقاط البارزة في القضية: الحزام الذي عُثر عليه في خِزانة هنري يخص الفتى المفقود باتريك هوكستيتر. أيضًا عُثر على بعض الكُتب المدرسية في مكتب هنري، بعضها يخص الفتى المفقود بيلش هاجنز، وبعضها يخص المفقود الآخر ڤيكتور كريس، وكلاهما صديقٌ معروف لهنري. أما الدليل الأدمغ من بين كل الأدلة، فهو الكيلوت الذي عُثر عليه مدسوسًا في طيَّة فراش هنري.. الكيلوت الذي عُرِفَ من علامة غسيل عليه أنه ينتمي إلى الضحية ڤيرونيكا جروجان.

هكذا أعلنت جريدة أخبار ديري أن هنري باورز هو الوحش الذي ظلَّ يؤرِّق ديري في خريف وصيف عام 1958.

بعد ذلك أعلنت الجريدة نهاية ليل ديري الطويل على الصفحة الأولى من طبعتها الأولى في السادس من ديسمبر.. لكن حتَّى شخصًا غبيًا كهنري كان يعرف أن الليل في ديري لا ينتهي أبدًا.

حاصروه بالأسئلة وقتها، ووقفوا في دائرة حوله يشيرون إلى وجهه بأصابعهم. صفعه رئيس الشرطة مرَّتين على وجهه، ولكمه مُحقِّق يُدعى لوتمان في معدته مرَّة آمرًا إيَّاه بالاعتراف، والاعتراف سريعًا.

- «ثمَّة أناس في الخارج ليسوا سُعداء يا هنري»، هكذا أخبره هذا اللوتمان: «منذ فترة طويلة لم يحدث إعدام غوغائي خارج نطاق القانون في ديري، لكن هذا لا يضمن ألا تكون أنت التالي».

افترض هنري أنهم سيستمرُّون في تعذِّيهم عليه وعُنفهم معه ما دام ذلك ضروريًا، ليس بسبب أنهم يؤمنون حقًّا أن أهل ديري الطيبين سيقتحمون قسم الشُرطة ويحملون هنري ويُعلِّقونه على شجرة تُفَّاح، بل لأنهم كانوا يتوقون يائسين لإغلاق دفاتر ذلك الصيف الدموية والمرعبة. كانوا سيواصلون

تعاليه، لكن هنري لم يسمح لهم بذلك. لقد فهم بعد فترة أنهم يريدون منه الاعتراف بكل شيءٍ، وبعد الرُعب الذي واجهه في شبكة المجاري أسفل المدينة، وبعدما حدث لبيلش وڤيكتور، لم يبد هنري أنه يهتم أو ينزعج من أيّ شيءٍ. اعترف هنري أنه قتل والده، كانت تلك حقيقة، واعترف كذلك بقتله كل من ڤيكتور كريس وبيلش هاجنز، وقد كانت هذه حقيقة أيضًا، على الأقل لأنه من قادهما إلى الأنفاق التي قُتلا فيها. نعم، هو من قتل باتريك. نعم هو من قتل ڤيرونيكا. الاعتراف بقتل واحد كالاعتراف بقتل الجميع. ليست حقيقة، لكن ما المُشكلة. يجب أن يُلقى اللوم على أحدهم. رُبَّما كان هذا الغرض من عدم قتله؛ وإذا رفض...

إنه يتفهَّم أمر حزام باتريك الذي عثروا عليه عنده. لقد فاز به من باتريك في رهان على لُعبة ورق في أحد أيَّام شهر أبريل، ثم اكتشف أنه ليس على مقاسه فألقاه في درج خزانته. إنه يتفهَّم أيضًا أمر الكتب. كان ثلاثتهم دائمي التسكُّع معًا، ولم يكونوا يهتمُّون بكتب دراستهم الصيفية أكثر من اهتمامهم بكتب دراستهم العادية، وتلك الأخيرة يمكن القول أنهم كانوا يهتمون بها بقدر اهتمام حيوان المرموط بالرقص الإيقاعي. كُتُب كثيرة تخصه كانت في خزنتيهما أيضًا، وعلى الأرجح كانت الشرطة تعلم ذلك.

أما الكيلوت... فلا. لم يعلم هنري كيف جاء كيلوت ڤيرونيكا چورچان إلى حشية فراشه.

لكنه ظن أنه يعلم مَن -أو ما- اعتنى بذلك الأمر.

من الأفضل عدم الحديث عن مثل هذه الأشياء.

من الأفضل له التظاهر بالغباء.

وهكذا أرسلوه إلى أوجستا، وفي النهاية، في عام 1979، نقلوه إلى مصحَّة چونيبر هيل.. وقد واجهته مشكلة مرة واحدة هنا، لأنه في البداية لم يكن أحد هنا يفهم حالته. في مرَّة حاول أحد الرجال إغلاق النور الليلي الخافت في غرفة هنري. كان المصباح الصغير على شكل دونالد داك الذي يرفع قُبَّعة البحَّارة التي يرتديها. كان دونالد داك حارسه بعد غروب الشمس. ففي غياب الضوء، ثمَّة أشياء يمكن أن تأتي، أشياء لن توقفها الأقفال على الأبواب

والقضبان الحديدية على النوافذ.. تأتي كالضباب. أشياء. أشياء تتحدَّث وتضحك... وأحيانًا تنشب أظافرها. أشياء مُشعرة.. أشياء ناعمة.. أشياء ذات عيون. الأشياء التي قتلت ڤيك وبيلش عندما كان ثلاثتهم يطاردون الصبية في متاهة الأنفاق تحت ديري في أغسطس من عام 1958.

لمح هنري بعض النزلاء الآخرين في العنبر الأزرق وهو ينظر حوله الآن. ها هو چورچ ديڤيل، الذي قتل زوجته وأطفاله الأربعة في إحدى ليالي شتاء عام 1962. كان رأس چورچ محنيًّا في عزم، وشعره الأبيض يتطاير مع هبوب النسيم، والمخاط يسيل من أنفه خفيفًا، بينما صليبه الخشبي الضخم يتدلَّى من المجرفة التي يمسكها. هناك يقف چيمي دونلين. كل ما ذُكر عن چيمي في الجرائد أنه قتل أمه في بورتلاند في صيف عام 1965، لكن ما لم تذكره الجرائد أنه حاول التخلُّص من الجُثَّة بطريقة مُبتكرة: في الوقت الذي وصل رجال الشُرطة فيه إلى چيمي كان قد التهم نصف أمه، بما فيه مُخَّها، وقد اعترف چيمي إلى هنري ذات ليلة بعد إغلاق الأنوار أن التهام مُخِّها قد ضاعف مُعدَّل ذكائه.

خلف چيمي، يوجد رجُلٌ فرنسي يُدعى بيني بيلي يجرِّف الحشائش بطريقة محمومة وهو يترنَّم بمقطعٍ واحدٍ مرارًا وتكرارًا. كان بيني عثَّة حرائق، أي لديه هوس مرضي لإشعال الحرائق، وقد كان الآن يُكرِّر مقطعًا واحدًا من أغنية فرقة دورز وهو يجرِّف الحشائش: «حاول أن تُشعل ظلام الليل، حاول أن تُشعل ظلام الليل، حاول أن تُشعل ظلام الليل...».

أمر كهذا يعبث بأعصابك بعد فترة.

خلف بيني يقف فرانكلين دي كروز، الذي اغتصب أكثر من خمسين امرأة قبل أن يقع في قبضة الشُرطة خالعًا سراويله في حديقة تيراس في بانجور. تراوحت أعمار ضحاياه من سنِّ الثالثة إلى الواحد والثمانين. لم يكن فرانك دي كروز رجُلًا ضيِّق الذوق. خلفه، لكن بعيدًا تمامًا، يقف آرلين ويستون، الذي يقضي نصف وقته يتأمَّل مجرفته شاردًا دون أن يستخدمها. لقد حاول فوجارتي وأدلر وچون كونتز استخدام حيلة أُسطُوانة أرباع الدولارات معه لإقناعه أنه يستطيع العمل أسرع من ذلك، وفي أحد الأيام ضربه كونتز

بها بقوَّة أكثر من اللازم قليلًا لأن الدماء لم تتفجَّر من أنف آرلين ويستون فحسب، بل من أذنيه أيضًا، وقد أُصيب بتشنُّجات في تلك الليلة. لم تكن نوبة جسيمة، فقط قليل من التشنُّجات، لكن منذ ذلك اليوم ازداد شرود آرلين أكثر فأكثر، وغاص عميقًا في عالمه الأسود، شبه غائب عن العالم بالكامل، وصار حالة ميؤوس منها. خلف آرلين هناك...

- «هل ستعاود العمل أم تحتاج إلى مزيدٍ من المُساعدة مني يا هنري!»، هكذا صاح فوجارتي، فبدأ هنري يعزق الأرض من جديد. لم يكن يريد أن يُصاب بأيِّ تشنُّجات. لم يكن يرغب أن ينتهي الأمر به كآرلين ويستون.

وسرعان ما بدأت الأصوات في التحدُّث من جديد. لكن هذه المرَّة كانت أصوات الآخرين، أصوات الصبية الذين تسبَّبوا في ما هو فيه الآن. كانت تهمس إليه من القمر الشبحي.

همس أحدهم: أنت حتَّى لا تستطيع اللحاق بصبي بدين يا باورز. الآن أنا غنيٌّ وأنت تعزق حبوب البازلاء. ها ها ها على حالكَ أيُّها الردف!

بـ-بـ-باورز، إنك لأخرق لا تـ-تـ-تستطيع الـ-للحاق بأيِّ شـ-شـ-شخص! هـ-هـ-هل قرأت أ-أ-أيَّ كُتُب جـ-جـ-جـ-جيِّدة منذ إيداعك هنا؟ أنا أ-أ-أكتب كـ-كـ-كتبًا كـ-كثيرة! أنا ثـ-ثـ-ثري وأ-أنت في جـ-جـ-جوبينر هيل! ها ها ها ها على حالك أيُّها الردف الأحمق!

- «اخرسوا». هكذا همس هنري إلى الأصوات، وجدَّ في تجريف الحشائش، وبدأ يجرف شتلات البازلاء الجديدة مع الحشائش. سال العرق على وجنتيه كالدموع. «كان في استطاعنا الإجهاز عليك. أجل كان في استطاعتنا ذلك».

قال صوتٌ آخر ضاحكًا، لقد حاصرناك أيُّها الأحمق.. لقد طاردتني ولم تستطع الإمساك بي وصرت ثريًّا بدوري! هنيئًا لك أيُّها العجل.

- «اخرسوا»، قالها هنري وهو يُجرِّف الأرض سريعًا. «اخرسوا فحسب!».

أغواه صوتٌ آخر: أتريد مطارحتي الغرام يا هنري؟ للأسف! لقد سمحت لهم جميعًا بالنوم معي، لم أكن سوى عاهرة، لكنني الآن ثرية وقد التمَّ شملنا جميعًا من جديد، وسنفعلها ثانيةً لكنك لن تستطيع فعْلها معي حتَّى لو تركتك

تفعلها لأنك لا تستطيع جعل قضيبك ينتصب، لذا ها ها ها على حالك يا هنري، ها ها ها على كل...

عزق هنري الأرض بوتيرة محمومة، وتطاير الطين والحشائش والبازلاء من حوله. ارتفعت الأصوات الشبحية الآتية من القمر الشبحي الآن، وراحت تتردَّد وتُحلِّق داخل رأسه، وجاء فوجارتي راكضًا نحوه وهو يهدر، لكن هنري لم يسمعه.. بسبب الأصوات.

همس صوتٌ شبحيٌ ساخر آخر: أتستطيع التغلُّب حتَّى على زنجي مثلي، هه؟ لقد انتصرنا عليكم انتصارًا ساحقًا في مُناوشة الحجارة! لقد سحقناكم! ها ها على حالك أيُّها الأحمق! ها ها على حالك!

ثم بدأ جميعهم في الثرثرة معًا في آنٍ واحد، ساخرين منه، ناعتينه بالعجل، سائلينه عن رأيه في العلاج بالصدمات الذي أعطوه له عندما جاء إلى هنا في العنبر الأحمر، سائلينه عن مدى رضاه عن الإقامة هنا في جـ-جـ-جوبينر هيل.. راحوا يسألون ويضحكون، يضحكون ويسألون.. وفي النهاية أسقط هنري مجرفته على الأرض وبدأ يصرخ في وجه القمر الشبحي البازغ في السماء الزرقاء. في البداية كان يصرخ بغضبٍ مُستعرٍّ، ثم تغيَّر وجه القمر ذاته بعدها وصار وجه مُهرِّج، صار وجهًا كثير الثقوب كقرص الجبن، بعينين هما حُفرتان سوداويان، وابتسامة حمراءٍ دموية فاحشة فجَّة لا تُحتمل، وهكذا بدأ هنري يصرخ لا غضبًا بل من الذُعر وقد ارتعدت أوصاله، وهنا بدأ صوت المُهرِّج الآتي من القمر الشبحي يتحدَّث إليه قائلًا: عليك أن تعود يا هنري. يجب أن تعود لإتمام المهمَّة. يجب أن تعود إلى ديري وتقتلهم جميعًا. لأجلي. لأجل...

ثم بعدها، سئم فوجارتي الذي كان يقف جواره ويصرخ فيه طوال دقيقتين كاملتين من الصياح، وعالج هنري بضربة كاسحة بأُسطُوانة أرباع الدولارات، فسقط هنري على الأرض كجدار متهاوي، فيما كان النزلاء الآخرين يقفون في صفوفهم مُمسكين بمجارفهم في أيديهم كأنها قضبان ذكورية هزلية، ولم تكن وجوههم مُهتمَّة تمامًا، بل مُتدبِّرة تقريبًا.. أجل مُتدبِّرة.. كأنهم فهموا أن كل هذا جزءٌ من الغموض الذي وضعهم هنا، كأن انهيار هنري باورز العصبي

المُفاجئ هنا في الحديقة الغربية مُثيرٌ للاهتمام أكثر ممَّا يبدو. تابع صوت المُهرِّج هنري في إغماءته المُريعة السوداء وراح يُردِّد مرارًا وتكرارًا: اقتلهم يا هنري، اقتلهم جميعًا، اقتلهم جميعًا، اقتلهم جميعًا.

2

استلقى هنري مُستيقظًا في الفراش.

كان القمر قد غرب، ووجد نفسه يشعر بامتنانٍ كبير لذلك. يكون القمر أقل شحوبًا في الليل، وأكثر واقعية. كان هنري يعتقد أنه إذا رأى وجه المُهرِّج في حُلكة الليل بازغًا فوق التلال والحقول والغابات، فإنه سيموت هلعًا.

استلقى هنري على جانبه، مُحدِّقًا إلى النور الليلي الخافت بإمعان. كان مصباح دونالد داك قد احترق، وحلَّ محلَّه مصباح على هيئة ميكي وميني وهما يرقصان رقِصَّة البولكا، ثم احترق ذلك المصباح بدوره وحل محلَّه أوسكار المُتذمِّر من عالم سمسم، وفي أواخر العام الماضي استُبدل بأوسكار وجه الدب فوزي. كان هنري يحصي سنوات سجنه بعدد المصابيح الليلية المُحترقة بدلًا من ملاعق القهوة.

في تمام الساعة الثانية صباح يوم الثلاثين من مايو، انطفأ نور مصباحه الليلي الخافت. فلتت منه أنَّة جزعٍ خافتة لا أكثر. كان كونتز يحرس العنبر الأزرق الليلة. كونتز الأسوأ من بين الجميع، الأسوأ حتَّى من فوجارتي الذي ضربه بقوَّة هائلة عصر اليوم لدرجة أن هنري لم يعد قادرًا على تحريك رأسه.

حوله، كان باقي نُزلاء العنبر الأزرق نائمين. إن بيني بيلي نائم وهو مُقيَّد بقيودٍ مرنة. لقد سمحوا له بمُشاهدة إعادة مُسلسل الطوارئ على تلفاز غُرفة الحُرَّاس عندما عادوا من عزق الأرض، وفي نحو الساعة السادسة بدأ ينتفض مُتشنِّجًا ويصرخ دون انقطاع «حاول أن تُشعل ظلام الليل! حاول أن تُشعل ظلام الليل! حاول أن تُشعل ظلام الليل!»، لذا خدَّروه، ونجح هذا في تهدئته نحو أربع ساعات، ثم أعاد الكرَّة ثانيةً في حدود الحادية عشرة مساءً عندما زال مفعول عقار إيلافيل، وراح يخمش قضيبه بسُعارٍ مجنون حتَّى بدأ يدمي وهو يصرخ: «حاول أن تُشعل ظلام الليل!»، لذا خدَّروه مرَّة أخرى وأحكموا

وثاقه بالقيود. الآن غاب في النوم، وكان وجهه الصغير المأزوم يبدو شديد التجهُّم كوجه أرسطو في الضوء الخافت.

من حول فراشه، استطاع هنري سماع مجموعة متنوِّعة من الأصوات. شخير خافت وآخر عالٍ، ونخير، وهمهمات، وضرط بين الفينة والأخرى. كان يسمع أنفاس چيمي دونلين السريعة ذات الصفير.. من الصعب عدم تمييزها رغم أن چيمي ينام على بُعد خمسة أسرَّة. لسببٍ ما كانت أنفاسه تجعل هنري يُفكِّر في ماكينة الخياطة، ومن وراء الباب، وعبر الردهة، استطاع سماع صوت تلفاز كونتز الخافت. كان يعلم أن كونتز لا بُدَّ يُشاهد فيلمًا قديمًا على القناة 38، فيما يجرع خمر تكساس درايڤر ويأكل عشاءه. إن شطائر كونتز المُفضَّلة هي المصنوعة من زبدة الفول السوداني الخشنة وبصل برمودا. عندما عَلِمَ هنري بذلك هزَّ كتفيه وفكَّر: ويقولون إن جميع المجانين نزلاء في المصحَّات.

هذه المرَّة لم يأتِ الصوت من القمر.

هذه المرَّة أتى الصوت من أسفل الفراش.

ميَّز هنري الصوت على الفور. كان صوت ڤيكتور كريس، الذي فُصلت رأسه عن جسده في مكانٍ ما تحت ديري منذ سبعة وعشرين عامًا. لقد مزَّقها وحش فرانكنشتاين. لقد شاهد هنري الأمر بعينيه، وبعدها شاهد عين الوحش ترنو، وشعر بنظرتها الصفراء العكرة تستقر عليه. أجل، لقد قتل وحش فرانكنشتاين ڤيكتور ثم بيلش من بعده، لكن ها هو ڤيك قد عاد، كإعادة شبحية لبرنامج أبيض وأسود من الخمسينيات الفاتنة، عندما كان الرئيس أصلع وسيَّارات البويك مزوَّدة بكوى صغيرة.

والآن لمَّا حدث الأمر، لمَّا جاءه صوت ڤيكتور، شعر هنري بأنه هادئ غير جازع... بل مرتاح.

قال ڤيكتور: «هنري».

صاح هنري: «ڤيك! ماذا تفعل تحت السرير؟».

كان بيني بيلي يُشخِّر ويتمتم في نومه، وتوقَّف صوت ماكينة الخياطة الخارج من أنفاس چيمي لحظةً، وفي الردهة، خُفِض صوت تلفاز كونتز

السوني الصغير ورأى هنري كونتز بعين الخيال يحرِّك رأسه في اتِّجاه العنبر، ويده على زر الصوت في جهاز التحكُّم عن بعد، وأصابع يده الأخرى تلمس الأسطُوانة التي تنتفخ في جيب سراويله البيضاء... لفافة أرباع الدولارات.

قال ڤيك: «لست مُضطرًّا بالتحدُّث بصوتٍ عالٍ يا هنري، أستطيع سماعك إذا فكَّرت فحسب، وهم لا يستطيعون سماعي على الإطلاق».

فكَّر هنري مُتسائلًا: ماذا تريد يا ڤيك؟

لم يأتِه جواب بُرهة طويلة. ظنَّ هنري أن ڤيك رُبَّما رحل، ومن وراء باب العنبر، ارتفع صوت تلفاز كونتز من جديد. ثم جاءت بعدها أصوات خمشٍ وخدشٍ من أسفل الفراش. صرَّت الحشية قليلًا فيما كان ظلٌّ أسود يسحب نفسه من الأسفل ويظهر. نظر ڤيك نحوه وابتسم. فابتسم هنري له في توتُّر. كان الرفيق ڤيك القديم يُشبه وحش فرانكنشتاين نوعًا ما بحالته هذه.. ثمَّة نُدبة كأثر حبل مشنقة تلتفُّ حول عنقه. فكَّر هنري أنها نتجت عن إعادة حياكة رأسه إلى مكانها. كانت عيناه غريبة ولونها رمادي يشوبه اخضرار، والقرنيتان تبدوان كأنهما طافيتان على مادة لزجة سبخة.

ما زال ڤيك في الثانية عشرة من عمره.

قال ڤيك: «أريد ما تريده بالضبط، أريد الانتقام منهم».

كرَّر هنري حالمًا: الانتقام.

قال ڤيك: «لكن يجب أن تخرج من هنا لفعل ذلك. يجب أن تعود إلى ديري. أحتاجك يا هنري. جميعنا نحتاجك».

فكَّر هنري مُدركًا أنه يتحدَّث إلى ما هو أكثر من ڤيك: إنهم يستطيعون إيذائك.

قال ڤيك: «إنهم لا يستطيعون إيذائي ما دام إيمانهم ضعيف. لكن في الماضي، حدثت بعض العلامات المقلقة يا هنري. نحن لا نعتقد أنهم كانوا جديرين بهزيمتنا في ذلك الصيف أيضًا. لكن العيل البدين هرب منك في البرِّية، ثم بعدها هرب البدين وذلك الببَّغاء المُتذاكي وتلك العاهرة الصهباء في ذلك اليوم بعد خروجنا من السينما، ومُناوشة الحجارة، عندما أنقذوا ذلك الزنجي...».

لا تتحدَّث عن ذلك الأمر! هكذا صاح هنري في ڤيك.. ولوهلة عادت كل الصرامة القاطعة التي مكَّنته من زعامتهم قديمًا إلى صوته، ثم انكمش بعدها، ظانًّا أن ڤيك قد يؤذيه. بالتأكيد يستطيع ڤيك فعل أيَّ شيءٍ، بما أنه شبح، لكن ڤيك ابتسم فحسب.

قال له: «أستطيعُ الاعتناء بأمرهم ما دام إيمانهم منقوص. لكنك حيٌّ يا هنري، يُمكنك الإجهاز عليهم بغض النظر عمَّا إذا كانوا مُؤمنين، أو نصف مُؤمنين، أو غير مُؤمنين على الإطلاق. يمكنك قتلهم الواحد تلو الآخر، أو جميعهم في آنٍ واحد، تستطيع الانتقام منهم».

كرَّر هنري: الانتقام. ثم نظر إلى ڤيك بشكٍّ من جديد.

لكنني لا أستطيع الخروج من هنا يا ڤيك. توجد قضبان على النوافذ وكونتز يحرس الباب الليلة. إن كونتز أكثرهم سوءًا. رُبَّما ليلة غدٍ...

قال ڤيك ناهضًا: «لا تقلق بخصوص كونتز». رأى هنري أنه ما زال يرتدي الچينز الذي كان يرتديه ذلك اليوم، وأن أوساخ المجاري ما زالت تتناثر عليه. مدَّ ڤيك يده قائلًا: «دع كونتز لي».

بعد لحظات التقط هنري يده. سار هو وڤيك نحو باب العنبر الأزرق وصوب صوت التلفاز. كانا قد وصلا تقريبًا عندما استيقظ چيمي دونلين الذي التهم مخ أمه. اتَّسعت عيناه عن آخرهما عندما رأى زائر هنري الليلي. لقد رآه في صورة أمه، وقد كان لباسها التحتي يظهر منه طرف رفيع كما كان يفعل دائمًا، ولم تكن مُقدِّمة رأسها موجودة. دارت عيناها الحمراوان بشناعة إليه، وعندما ابتسمت شاهد چيمي لُطخ أحمر الشفاة على أسنانها الصفراء الكبيرة كما اعتاد تلطيخها دائمًا. بدأ چيمي ينتفض: «لا يا أما! لا يا أما! لا يا أما!».

أُغلِق التلفاز فورًا، وحتَّى قبل أن يبدأ الآخرون في إثارة ضجَّة، نخع كونتز الباب فاتحًا إيَّاه وهو يقول: «حسنًا أيُّها الأحمق، استعد لإمساك رأسك عندما ترتد مخلوعة عن كتفيك. لقد نلت كفايتي».

- «لا يا أما! لا يا أما! لا يا أما!».

دخل كونتز العنبر مُندفعًا. في البداية شاهد باورز، يقف فارعًا ومُتدلي

البطن ويبدو سخيفًا في منامته، ويبدو لحمه الرخو كالمرهم في الضوء القادم من الممرِّ، ثم نظر يسارًا وصرخ صرخة صامتة أكلت نفسها قبل أن تخرج. على يسار باورز، وقف شيءٌ ما في حُلَّة مُهرِّج. كان طوله ثمانية أقدام تقريبًا، وحُلَّته فِضِّية على صدرها كُريات بُرتقالية من الزغب، وينتعل فردتي حذاءٍ مُضحكتين مُبالغ في حجمهما في قدميه. لكن رأسه لم يكن رأس رجُل ولا مُهرِّج، وإنما رأس كلب دوبرمان، الحيوان الوحيد الذي يخشاه كونتز من بين جميع خلق الله. كانت عيناه حمراوين، وخطمه الذهبي يُكشِّر كاشفًا عن أنيابٍ عظيمة بيضاء.

سقطت أُسطُوانة أرباع الدولارات من أصابع كونتز الراجفة وتدحرجت على الأرض إلى الرُكن. في الصباح التالي سيعثر عليها بيني ويلي الذي كان يغط نائمًا طوال الأحداث، وسيُخبِّئها في قعر خزانته. ستبتاع له أرباع الدولارات السجائر -الملفوفة- مُدَّة شهر.

سحب كونتز نفسًا عميقًا ليصرخ من جديد عندما تهادى المُهرِّج مقتربًا منه.

- «إنه وقت الألعاب البهلوانية!» هكذا صرخ المُهرِّج في صوتٍ هادرٍ، في الوقت الذي وضع فيه قُفَّازيه الأبيضين على كتف كونتز.

كان القُفَّازان مخلبيين.

3

للمرَّة الثالثة في ذلك اليوم -ذلك اليوم بالغ الطول- ذهبت كاي مكال إلى الهاتف.

هذه المرَّة انتظرت رنين الجرس أكثر عمَّا انتظرته في المرَّتين السابقتين. هذه المرَّة انتظرت حتى رُفِعت السمَّاعة من الطرف الآخر وأتاها صوت ضابط أيرلندي الأصل ودود يقول: «قسم الشارع السادس، الرقيب أوبانون معك، كيف أستطيع مُساعدتك»، قبل أن تغلق السمَّاعة.

أوه، أحسنت هذه المرَّة. يا للمسيح. في المرَّة الثامنة أو التاسعة ستلملمين شجاعتك بما يكفي لإخباره باسمك.

اتَّجهت كاي إلى المطبخ وأعدت لنفسها خليطًا خفيفًا من السكوتش والصودا، رغم أنها كانت تعلم أن هذه رُبَّما ليست فكرة جيِّدة مع مُهدِّئ دارڤون الذي ابتلعته. تذكَّرت مقطعًا من أغنية جماعية من أيَّام كافيتيريا الجامعة في شبابها تقول: رأسي مُترع بالويسكي وبطني مليء بالنبيت| الطبيب يقول الخمر سيقتلني لكنه لم يخبرني بالتوقيت. ضحكت بخشونة. كانت هناك مرآة تجري بطول المشرب، ورأت كاي انعكاس صورتها فيها ما جعلها تقطع ضحكتها فورًا.

من تلك المرأة؟

كان التورُّم يغلق إحدى عينيها تمامًا.

من تلك المرأة التي أُبرحت ضربًا؟

كان أنفها أحمر كأنف مدمن خمر قضى ثلاثين عامًا في ارتياد حانات الشراب، وكان منتفخًا بحجمٍ بشع.

من تلك المرأة التي أُبرحت ضربًا التي تبدو كتلك النساء اللاتي يُجرجرن ذيولهن إلى ملجأ النساء بعدما يتملَّك منهن الخوف أو الشجاعة أو الجنون المُطلق في النهاية ويقرِّرن ترك الرَّجُل الذي يؤذيهن، الرَّجُل الذي لم ينفك عن إيذائهن في كل أسبوع من كل شهر من كل سنة قضته إحداهن معه؟

ثمَّة خدش بالغ يجري على إحدى وجنتيها.

من هي؟ أهي كاي بيرد؟

أحد ذراعيها مرفوع بحمَّالة كتف.

من أنت؟ أهذه أنت؟ هل هذا معقول؟

دندنت كاي: «ها هي ذي... سيِّدة أمريكا»، كانت تريد لصوتها أن يخرج قويًّا وساخرًا، وقد بدأ كذلك بالفعل، لكنه أخذ يخذلها عند المقطع السابع، وبحَّ تمامًا عند الثامن. لم يكن صوتها قويًّا. إنه صوتٌ خائف. تعرف ذلك. لقد اعتادت أن تخاف في الماضي ودائمًا ما نجحت في تخطي الأمر، لكنها شعرت أن وقتًا طويلًا سيمرُّ قبل أن تتخطَّى هذا الأمر.

كان الطبيب الذي عالجها في إحدى المقصورات الصغيرة الموجودة خارج مدخل طوارئ مُستشفى ملائكة الرحمة على بُعد نصف ميل عبر

شارعها شابًا وليس سيئ المنظر. في ظروفٍ أخرى، رُبَّما كانت ستُفكِّر بتكاسل (أو ليس بكثيرٍ من التكاسل) في محاولة استدراجه إلى منزلها واصطحابه في جولة جنسية حول العالم، لكنها لم تكن تشعر بأي احتياجٍ جنسي في تلك الأثناء. الألم لا يولِّد الشبق، ولا الخوف أيضًا.

كان اسمه جيفان، ولم تأبه كاي بالنظرة الثاقبة التي يرمقها بها. لقد أتى بكوبٍ ورقيٍ أبيض وملأه من الصنبور إلى نصفه، وأخرج علبة تبغٍ من درج مكتبه، وعرضها عليها.

أخذت كاي واحدة منها فأشعلها لها. لقد اضطُرَّ إلى تعقُّب طرفها لثانية أو اثنتين بالثقاب المشتعل لأن يدها كانت ترتعش، ثم ألقى بالثقاب إلى كوب الماء. فسسسسس.

قال لها: «عادة رائعة. أليست كذلك؟».

أجابته كاي: «إنها شهوة فموية».

أومأ الطبيب ثم عمَّ الصمت. ظل ينظر إليها. جاءها شعورٌ أنه يتوقَّع منها أن تبكي، وقد أثار هذا غيظها لأنها شعرت أنها على وشك البكاء بالفعل. كانت تكره أن تكون عرضة لأدنى تخمين شعوري، بالذات من قِبَل رجُلٍ.

في النهاية سألها: «صديقك؟».

– «أُفضِّل عدم الكلام عن الأمر».

– «أها». قالها وسحب نفسًا من سيجارته وهو ينظر إليها.

– «ألم تخبرك أمك قط أن التحديق في الناس أمرٌ مكروه؟». كانت تُريد أن يخرج صوتها أكثر حدَّة، لكنه بدا أقرب إلى استجداءٍ: كُفَّ عن النظر إليّ، أعرف كيف أبدو، لقد رأيت وجهي. تَبِعت هذه الفكرة أخرى.. فكرة شكَّت كاي أنها لا بُدَّ كثيرًا ما راودت صديقتها بيفرلي: إن أسوأ الضربات التي تلقَّتها تلك التي وقعت على روحها، مُسبِّبة ما يُمكن تسميته بنزيفٍ شعوري. أجل، كانت تعلم كيف تبدو، لكن الأسوأ أنها تعرف كيف تشعر. إنها تشعر بأنها صفراء. كان هذا شعورًا قابضًا.

قال جيفان بصوتٍ هادئ ومؤنس: «ما سأقوله، سأقوله مرَّة واحدة. عندما كنت أعمل في غرفة الطوارئ –عندما جاء دوري في المطحنة، إذا راقك

التعبير- اعتدت رؤية نحو دزينة من النساء المضروبات أسبوعيًّا، وكان الأطباء المتدرِّبون يعنون بنحو دزينة أخرى من الحالات. لذا اسمعيني، يوجد هاتف هنا على المكتب، المكالمة على حسابي. اتَّصلي بالشُرطة، وأخبريهم باسمك وعنوانك، وأخبريهم بما حدث ومن أحدثه، ثم أغلقي الخط ولسوف أستخرج زجاجة البربون التي أحتفظ بها في خِزانة الملفَّات -للأغراض الطبية فقط كما تعلمين- وسنشرب نخب ذلك. أحيانًا أُفكِّر، وهذا رأيي الشخصي فحسب، أن شكل الحياة الوحيد الأقل انحطاطًا من الرَّجُل الذي يضرب امرأة، لهو الجرذ المريض بالزهري».

ابتسمت كاي بضعف، وقالت: «أُقدِّر عرضك. لكنني لن أفعل، في الوقت الحالي».

قال لها: «أها، لكن عندما تعودين إلى منزلك ألقِ نظرة جيِّدة على نفسك يا سيِّدة مكال. أيًّا كان من فعل هذا بك، فقد فعله جيِّدًا».

هنا لم تقوَ كاي على كبح نفسها، وانخرطت في بكاءٍ حار.

لقد اتَّصل توم روجان بها عصر اليوم التالي بعد مُرافقتها لبيڤرلي إلى المطار حتَّى أقلعت بسلامة، كان يريد معرفة هل التقت كاي بزوجته أم لا. بدا صوته هادئًا ورزينًا ولم يكن يشوبه أقل استياء. أخبرته كاي أنها لم ترَ بيڤرلي طوال أسبوعين تقريبًا، فشكرها توم وأغلق السمَّاعة.

في حدود الساعة الواحدة، رنَّ جرس الباب عندما كانت تكتب في غرفة مكتبها. ذهبت إلى الباب لترى القادم.

- «من؟».

أجابها صوتٌ مرتفع: «محل زهور كريجان يا سيِّدتي». لكم كانت حمقاء عديمة التمييز لعدم إدراكها أن هذا صوت توم وهو يؤدي نبرة مصطنعة مفضوحة.. كم كانت حمقاء لظنِّها أن توم استسلم بهذه السهولة.. كم كانت حمقاء عندما أزالت سلسلة الأمان قبل أن تفتح فرجة من الباب لتنظر منها.

وهكذا اقتحم المنزل، وكل ما قالته كان: «أخرج خارج منزلـ...»، قبل أن تطير قبضة توم قادمة من العدم وتضرب عينها اليُمنى لتُغلقها في التو وتُرسل صاعقة من عذابٍ لا يُمكن وصفه عبر رأسها. لقد طاحت مُترنِّحة إلى الوراء

عبر الردهة، وحاولت التشبُّث بالموجودات كي تظل واقفة.. بمزهرية تحمل وردة واحدة سقطت مُتحطِّمة على الرخام.. بمشجب على هيئة شجرة انقلب ساقطًا. سقطت كاي فوق ساقيها وأغلق توم الباب من خلفه وسار نحوها.

صرخت فيه: «أخرج من هنا!».

- «بمُجرَّد أن تخبريني بمكانها». قالها توم وهو يقطع الردهة متوجِّهًا إليها. لاحظت بالكاد أن توم لا يبدو على ما يُرام -حسنًا، في الحقيقة، مُزريًا هي الكلمة الأدق لوصف الأمر- وشعرت بسعادة خافتة لكن متوحِّشة تسري في أوصالها. أيًّا كان ما فعله توم ببيف، فيبدو أن بيف ردَّت له الصفع مُضاعفًا. ما فعلته كان كافيًا لطرحه أرضًا يومًا كاملًا، ولم يكن مظهره حاليًا يصلح للانتماء إلى أيِّ مكانٍ بخلاف غُرفة مُستشفى.

لكنه كان يبدو شريرًا جدًّا أيضًا، وغاضبًا تمامًا.

زحفت كاي بقدميها وتراجعت خلفًا، مُثبِّتة عينيها عليها بالطريقة التي قد تُثبِّت بها عيناك على حيوانٍ مُفترس فرَّ من قفصه.

قالت له: «لقد أخبرتك أنني لم أرَها وهذه الحقيقة، الآن اخرج من منزلي قبل أن اتَّصل بالشُرطة».

قال توم: «بل رأيتيها»، وحاولت شفتاه المُتورِّمتان الابتسام. رأت كاي أن أسنانه لها مظهر مُمزَّقٌ غريب. إن بعض أسنانه الأمامية مكسورة. «عندما اتصلتُ بكِ وأخبرتكِ أنني لا أعرف مكان بيف، كل ما قلتيه لي أنكِ لم تريها منذ أسبوعين. لم تسألي سؤالًا واحدًا، لم تلوميني بكلمة واحدة، رغم أنني أعلم جيِّدًا أنكِ تكرهيني كالشيطان. الآن إذًا، أين هي أيَّتُها العاهرة؟ أخبريني».

استدارت كاي وركضت إلى نهاية الردهة، وفي نيَّتها الوصول إلى قاعة الاستقبال، ودفع درفتي باب الماهوجني المُنزلقتين، وإغلاقهما خلفها بالشنكل. سبقته كاي بالفعل إلى هناك -فقد كان يعرج- لكن قبل أن تتمكَّن من إغلاق الدرفتين دسَّ توم جسده بينهما، ثم اندفع متشنِّجًا عبرهما. استدارت كاي لتركض من جديد، لكنه أمسكها من ثوبها وجذبها بمنتهى العنف فتمزَّق ظهر ثوبها بأكمله من أعلاه إلى خصرها. زوجتك من حاكت

هذا الفستان أيتُها القمامة، هكذا فكَّرت كاي مشوَّشة، ثم وجدت نفسها تُدار نحوه من دون فعلٍ من جانبها.

- «أين هي ؟».

رفعت كاي يدها في صفعة متهوِّرة ردَّت رأسه إلى الوراء وجعلت الجرح على جانب وجهه الأيسر يدمي من جديد. أمسكها من شعرها وجذبها ثم ناولها بقبضته. شعرت للحظة بأن أنفها انفجر. صرخت، وشهقت لتصرخ من جديد، وبدأت تسعل بسبب الدماء التي سالت إلى حلقها. شعرت بذعرٍ كاملٍ الآن، لم تكن تعرف أن مثل هذا الذُعر الهائل يُمكن أن يوجد في العالم بأكمله.. ابن العاهرة المخبول هذا سيقتلها.

صرخت كاي، وصرخت، ثم اندفعت قبضته في معدتها مُفرغة الهواء من رئتيها، ولم تقو إلا أن تشهق جازعة، ثم بدأت تسعل وتشهق في الآن ذاته، ومرَّت لحظة مُرعبة شعرت فيها أنها ستموت مُختنقة.

- «أين هي ؟».

هزَّت كاي رأسها، وشهقت قائلة: «لم... أرَها... الشُرطة... ستذهب إلى السجن... أحمق».

أمسك بها وأوقفها على قدميها، وشعرت بشيءٍ في كتفها. مزيدٌ من الألم الموجع لدرجة تُسقِم. لفَّها حول نفسها، وهو يتمسَّك بذراعها، والآن بدأ يلوي ذراعها خلفها فعضَّت على شفتيها محاولة أن تعد نفسها بألا تصرخ ثانيةً.

- «أين هي ؟».

هزَّت كاي رأسها بمعنى أنها لا تعرف.

اعتصر ذراعها من جديد، وهزَّهُ بقوَّة كبيرة لدرجة أنها سمعته يئن. فاحت أنفاسه الدافئة ونفخت في أذنها. شعرت بكف يده الأيمن يندس في لوح كتفها الأيسر، وصرخت من جديد عندما اشتدَّ ذلك الألم في كتفها أكثر عليها.

- «أين هي ؟».

- «... أعرف...».

- «ماذا؟».

- «لا أعرف».

أفلتها توم دافعًا إيَّاها بعيدًا. انهارت على الأرض، باكية، والدم والمخاط يسيلان من أنفها. صدر صوت تهشيم شبه إيقاعي، وعندما نظرت خلفها، كان توم ينحني فوقها. لقد كسر قمَّة مزهرية أخري، لكن هذه مصنوعة من الكريستال. كان يُمسك بقاعدتها، أما عُنُقها الحاد المسنون فيبتعد بوصات قليلة من وجهها. حدَّقت كاي فيها كالمنوَّمة إيحائيًّا.

قال لها: «دعيني أخبرك بشيءٍ». خرجت الكلمات من فمه مصحوبة برذاذٍ طفيف ونفحات من الهواء الساخن. «سوف تُخبريني أين ذهبت أو ستُلملمين أشلاء وجهك من على الأرضية. أمامك ثلاث ثوانٍ، ورُبَّما أقل. عندما أكون مُستثارًا يبدو أن الوقت يمرُّ أسرع كثيرًا من مُعدَّله الطبيعي».

وجهي! هكذا فكَّرت، وكانت تلك الفكرة ما جعلها تستسلم في النهاية، أو تنهار دفاعاتها، إذا أعجبك هذا التعبير أكثر: فكرة استخدام ذلك الوحش عُنُق مزهرية كريستالية مُشظًّى في تقطيع وجهها إلى نسائل.

قالت ناحبة: «لقد ذهبت إلى مسقط رأسها. بلدتها. ديري. مكان يُدعى ديري، في ولاية مين».

- «كيف ذهبت؟».

- «استقلَّت الحافلة إلى ميلواكي، ومنها ركبت الطائرة».

صاح توم: «العاهرة النجسة الصغيرة!»، ثم اعتدل. قطع الغُرفة ذهابًا وإيابًا في دوائرٍ مُفرغة لا هدف لها وهو يُجري أصابعه بين خصال شعره، ما جعله يقف منتصبًا كأشواكٍ مجنونة مغزلية. «العاهرة، القحبة، المومس ذات الفرج اليابس!». التقط توم تمثالًا رقيقًا منحوتًا من الخشب لرجُل وامرأة يتطارحان الغرام -تمتلكه كاي منذ أن كانت في الثانية والعشرين- وألقاه إلى المدفأة حيث تحطَّم إلى شظايا صغيرة. التقى توم نفسه وجهًا لوجه في المرآة التي تعلو المدفأة ووقف مكانه ينظر إلى انعكاس صورته بعينين جاحظتين كأنه ينظر إلى شبح، ثم عاد إليها من جديد. كان قد أخرج شيئًا من جيب سُترته، ورأت كاي بنوعٍ بليد من التعجُّب أنها رواية ذات غلافٍ ورقي أسود تمامًا،

باستثناء حروفٍ حمراء لامعة تلفظ العنوان وصورة لمجموعة شباب يقفون أعلى جرفٍ عالٍ يطل على نهر. الجنادل السوداء.

- «من هذا اللعين؟».

- «هه؟ ماذا؟».

- «دِنبروه. دِنبروه». كان يهزُّ الكتاب في نفاد صبرٍ عنيف أمام وجهها، ثم صفعها به فجأة. صرخت وجنتاها من الألم ثم احمرَّ لونهما بالسخونة كمواقد الفحم. «من هو؟».

بدأت كاي تفهم.

- «كانا صديقين في طفولتهما،كليهما نشأ في ديري».

لطمها بالكتاب ثانيةً، هذه المرَّة على الخد الآخر.

بكت كاي بحرقة: «أرجوك، أرجوك يا توم».

أمسك بكُرسيٍّ خشبي عتيق أمريكي الطراز بأرجُلٍ طويلة نحيفة وجاء بها إليها، ولفَّهُ، ثم جلس عليه. نظر إليها وجهه الشيطاني الشبيه بقرعة الهالوين من خلف ظهر الكُرسي.

قال لها: «انصتي إليّ.. انصتي إلى العم تومي الكبير، هل تستطيعين ذلك أيَّتُها العاهرة المسترجلة؟».

أومأت في خوفٍ. كانت تشعر بمذاق الدماء الساخنة الصدئة في حلقها، وكان كتفها يشتعل بالألم. تمنَّت لو أنه خُلع من مكانه فحسب ولم يُكسر. لكن ليس هذا أسوأ ما في الأمر، وجهي، سوف يقطِّع وجهي...

- «إذا اتَّصلتِ بالشُرطة وأخبرتيهم أنني جئت إلى هنا، سأنكر. لن تستطعين إثبات أيَّ شيءٍ لعين. إن اليوم عُطلة خادمتك وليس في المكان سوانا. بالتأكيد قد يعتقلونني على أيِّ حال، فكل شيءٍ مُحتمل، أليس كذلك؟».

وجدت نفسها تومئ من جديد، كأن رأسها مربوط بخيط وأحدهم يُحرِّكه.

- «بالتأكيد، وما سيحدث أنني سأخرج بكفالة وسأعود إلى هنا فورًا. هذه المرَّة سيعثرون على ثدييك على طاولة المطبخ، وسينتشلون عينيك من حوض السمك. هل تفهميني؟ هل تفهمين العم تومي جيِّدًا؟».

انفجرت كاي باكية. كان ذلك الخيط المربوط إلى رأسها ما زال يعمل، وأخذ يهزّه إلى أعلى وأسفل.

- «لماذا؟».

- «ماذا؟ أنا.. أنا لا...».

- «استفيقي عليك اللعنة! لماذا عادت؟».

قالت كاي وهي بالكاد تصرخ: «لا أعرف!».

لوَّح توم بالمزهرية المكسورة في وجهها.

قالت بصوتٍ مبحوح: «لا أعرف. أرجوك. أرجوك، إنها لم تخبرني، أرجوك لا تؤذيني».

ألقى توم بالمزهرية من يده ونهض واقفًا.

ثم غادر دون أن ينظر خلفه، برأسٍ محني، ومشية مُتثاقلة كدُبٍّ بشري.

أسرعت كاي خلفه وأغلقت البابَ بالقفل، ثم هرولت إلى باب المطبخ وأحكمت إغلاقه بدوره، وبعد برهة صامتة قضتها واقفة، عرجت صاعدة الدرج (بأسرع ما يسمح به بطنها الموجوع) وأغلقت الأبوب التي تُفتح على الشرفة. ليس من المُستبعد أن يُقرِّر تسلُّق أحد الأعمدة ويأتي ثانيةً من تلك الجهة. إنه مُتضرِّرٌ جسديًّا، لكنه مجنون كذلك.

اتَّجهت إلى الهاتف للمرَّةِ الأولى، ولم تفعل أكثر من وضع يدها على سمَّاعته، قبل أن تتذكَّر ما قاله.

ما سيحدث أنني سأخرج بكفالة وسأعود إلى هنا فورًا. هذه المرَّة سيعثرون على ثدييك على طاولة المطبخ، وسينتشلون عينيك من حوض السمك.

انتزعت يدها بعيدًا عن الهاتف راجفة.

سارت إلى الحمَّام ونظرت إلى أنفها الأحمر كحبَّة طماطم الذي يقطر دمًا، وإلى عينيها السوداوين. لم تبك. كان الخزي والعار اللذان تشعر بهما أكثر عُمقًا من أن تنتحب، ووجدت نفسها تُفكِّر: أوه يا حبيبتي بيڤ، لقد فعلت أقصى ما أستطيع... لقد هدَّد بتقطيع وجهي...

كان لديها مُهدِّئا = الدارڤون والڤاليوم في خِزانة أدويتها. فاضلت كاي بينهما، ثم ابتلعت قُرصًا من كليهما، وعرجت بعدها على مُستشفى ملائكة

الرحمة لتلقِّي علاجًا وقابلت دكتور جيفان الشهير، وهو الرَّجُل الوحيد الآن الذي شعرت أنها لن تكون سعيدة تمامًا لو مُحيَ من على وجه البسيطة.

ومن هناك، عادت تهرول مُترنِّحة إلى المنزل من جديد، إلى المنزل من جديد، كما تقول الأغنية.

اتَّجهت إلى نافذة غُرفتها ونظرت عبرها. الشمس مُنخفِضَّة قرب الأُفُق الآن. لا بُدَّ أن ألوان الشفق تُلطِّخ سماء الساحل الشرقي في هذا التوقيت، لا بُدَّ أنها السابعة مساءً في ولاية مين.

يُمكنك التفكير في أمر إبلاغ رجال الشُرطة لاحقًا. الشيءُ الهام الآن تحذير بيڤرلي.

فكَّرت كاي: ألم يكُن من الأيسر بكثير لو كُنتِ أخبرتيني أين تمكثين يا عزيزتي بيڤرلي. أظنُّ أنك نفسك لم يكن لديك علم بهذا.

رغم أن كاي كانت قد أقلعت عن التدخين قبل عامين، فقد أبقت على علبة سجائر ماركة بول مول في دُرج مكتبها للطوارئ. أخرجت الآن واحدة من العلبة، وأشعلتها، فالتوت قسماتها. إن آخر مرَّة دخَّنت فيها سيجارة من هذه العلبة كانت في ديسمبر 1982، وهذا الصغيرة قد صارت أكثر فسادًا من تعديل قانون المساواة في الحقوق الذي ناقشه مجلس شيوخ ولاية إلينوي. لكنها دخَّنتها رغم ذلك وهي تُضيق إحدى عينيها اتقاءً للدُخان، بينما العين الأخرى يرتخي جفنها نصف مُنغلق، بفضل توم روجان.

مُستخدمة يدها اليُسرى بمشقَّة -لقد خلع ابن الزانية ذراعها النافعة- اتَّصلت كاي باستعلامات ولاية مين وسألت عن اسم ورقم هاتف كل فندق ونُزُل في ديري.

قالت لها موظَّفت الدليل المُساعِدة في تردُّد: «سيستغرق ذلك وقتًا يا سيِّدتي».

قالت كاي: «أكثر ممَّا تظنين. أنا مُضطرَّة للكتابة بيدي العسراء، فيدي النافعة في إجازة».

- «هذا الأمر غير معتاد وفقًا لـ...».

قالت كاي بصرامة مُهذَّبة: «اسمعيني. أنا أتَّصل من شيكاجو، وأحاول

الوصول إلى صديقة لي هجرت زوجها لتوِّها عائدة إلى ديري، مسقط رأسها. زوجها يعرف أين ذهبت. لقد استخلص المعلومات مني عن طريق إبراحي ضربًا. هذا الرَّجُل مريضٌ نفسي. إنها في حاجة أن تعلم بقدومه».

مرَّت بُرهة صمت طويلة، ثم قالت موظَّفة في صوتٍ جازم أكثر تعاطُفًا: «أظنُّ أن ما تحتاجينه هو رقم قسم شُرطة ديري».

قالت كاي: «حسنًا، ستعطيني ذلك أيضًا. لكن يجب أن يصلها تحذير...»، ثم صمتت قليلًا مُفكِّرة في وجنتي توم المجروحتين، والبروز على جبهته، والآخر على صدغه، ومشيته العرجاء، وشفتيه شديدتي التورُّم، وأردفت: «إذا عَلِمَت بقدومه، أظنُّ ذلك سيكون كافيًا».

مرَّت بُرهة صمت طويلة أخرى.

سألت كاي: «أأنتِ معي يا أختاه؟».

قالت موظَّفة الدليل: «نُزُل أرلنجتون موتور: 643-8146. خان باسي بارك: 648-4083. فندق بونيان موتور كورتـ...».

ترجَّتها كاي: «هلَّا أبطأتِ قليلًا من فضلك؟». بحثت كاي عن منفِضَة تبغ، ولم ترَ واحدة، فأطفأت سيجارتها في نشَّافة الورق على المكتب. «حسنًا، أكملي».

- «نُزُل كلارندون...».

4

حالفها الحظ في المُكالمة الخامسة، وجدت اسم بيڤرلي مُسجَّلًا في دفاتر فندق ديري تاون هاوس، لكنها كانت نصف محظوظة فقط لأن بيڤرلي لم تكن بالفندق. تركت اسمها ورقمها ورسالة إلى بيڤرلي تطلب منها معاودة الاتصال بها فورًا ما إن تعود إلى الفندق، مهما كان الوقت مُتأخِّرًا.

جعلت موظَّف الاستقبال يكرِّر الرسالة عليها لتتأكَّد أنها وصلته، ثم صعدت بعدها إلى الطابق الثاني وابتلعت قرصًا آخر من الڤاليوم، واستلقت على الفراش وانتظرت أن يأتيها النوم.. لكن النوم جافاها. أنا آسفة يا بيڤ. لم أتحمَّل ما قاله عمَّا سيفعله بوجهي. اتصلي قريبًا يا بيڤ. أرجوك أن تتصلي

قريبًا، واحترسي من ابن العاهرة المجنون هذا الذي تزوَّجتيه. هكذا فكَّرت كاي وهي تحملق في الظلام، مُنتشية من جُرعة المُخدِّر.

5

استغل ابن العاهرة المجنون الذي تزوَّجته بيڤ علاقاته بشكلٍ أفضل ممَّا فعلت في اليوم السابق، واستطاع المُغادرة من مطار أوهير، القلْب النابض لرحلات الطيران التجاري في الولايات المُتَّحدة القارية. في أثناء الرحلة، قرأ توم التعريف المُختصر بالمؤلِّف في نهاية رواية الجنادل السوداء أكثر من مرَّة. قال التعريف أن بيل دِنبروه من مواليد نيو إنجلاند، وأنه كتب ثلاث روايات أخرى (جميعها مُتاح في طبعاتٍ ورقية الغلاف من دار سيجنت، هكذا أفادت الحاشية)، وأنه يعيش مع وزوجته المُمثِّلة أودرا فيليبس في كاليفورنيا، وأنه يعكف حاليًا على كتابة رواية جديدة. لاحظ توم أن طبعة الجنادل السوداء التي بين يديه صدرت في عام 1976، وافترض أن الرَّجُل كتب حفنة من الروايات الأخرى منذ ذلك الحين.

أودرا فيليبس... لقد رآها في الأفلام، أليس كذلك؟ نادرًا ما كان يُلاحظ المُمثِّلات. إن الفيلم الجيِّد بالنسبة إلى توم هو فيلم جريمة، أو فيلم مُطاردات، أو فيلم وحوش. لكن لو أن تلك المرأة من يظن توم أنها هي، فهو يتذكَّرها لأنها تُشبه بيڤرلي كثيرًا: صهباء الشعر، خضراء العينين، ناهدة الثديين.

اعتدل قليلًا في جلسته على المقعد، ضاربًا بالرواية ساقه، محاولًا تجاهل الألم في رأسه وفمه. أجل، إنه واثق. أودرا فيليبس الصهباء ذات النهدين الخلَّابين. لقد رآها في فيلم من بطولة كلينت إيستود، ثم بعدها بعام في فيلم رعب اسمه قمر المقبرة. لقد ذهبت بيڤرلي معه إلى ذلك الفيلم، وعندما خرجا من دار العرض أشار توم إلى كون المُمثِّلة تُشبهها كثيرًا، وحينها ردَّت بيڤ قائلة: «لا أظنُّ ذلك، أنا أطول وهي أجمل. كما أن شعرها أحمر داكن». كان هذا كل شيء، ولم يُفكِّر توم في الأمر مرَّة ثانية إلى اللحظة.

هو وزوجته، المُمثِّلة أودرا فيليبس.

كان توم يعلم القليل عن علم النفس، وقد أجاد استخدامه للتلاعب

بزوجته طوال سنوات زواجهما. الآن ثمَّة انزعاجٌ كريهٌ راح ينغزه.. كان أقرب إلى شعور منه إلى فكرة. تمحور الانزعاج حول حقيقة أن ذلك الدِنبروه اعتاد اللعب مع بيف وهما طفلان، وأن ذلك الدِنبروه تزوَّج امرأة تُشبه زوجة توم روجان بشكلٍ مُذهل، بغض النظر عمَّا قالته بيف.

أيُّ نوعٍ من الألعاب اعتاد دِنبروه وبيڤرلي لعبه في صباهما؟ تبادُل القبلات؟ تَدوير الزجاجة؟

ألعابٌ أخرى؟

جلس توم في مقعده وواصل خبط ساقه بالكتاب، وهو يشعر بصدغيه ينبضان.

عندما وصل إلى مطار بانجور الدولي وراح يتفقَّد مكاتب إيجار السيَّارات، رمقت الفتيات -بعضهن في زيٍّ أصفر، وبعضهن في زيٍّ أحمر، وأخريات في زيٍّ أخضر أيرلندي- وجهه المتورِّم الذي يشي بخطورة بعصبية، وأخبرنه -بعصبية أكثر- أنه لا توجد سيَّارات للإيجار، مع الأسف الشديد.

اتَّجه توم إلى كشك الجرائد وابتاع جريدة بانجور. انتقل إلى صفحة الإعلانات المُبوَّبة، غافلًا عن النظرات التي تنهال عليه من المارَّة، وتوقَّفته ثلاثة إعلانات مُرجِّحة لغايته، وبالفعل عثر على ضالته مع ثاني مُكالمة هاتفية.

- «الجريدة تقول إن لديك سيَّارة فورد 7 راكب طراز 76، معروضة للبيع بألف وأربعمئة دولار».

- «صحيح».

- «سأخبرك بشيء»، قالها توم وهو يتحسَّس المحفظة في جيب سُترته. كانت مليئة بالنقود السائلة. ستَّة آلاف دولار بالتحديد. «أحضِرها إلى المطار وسنعقد الصفقة هنا. ستسلِّمني السيَّارة وفاتورة البيع وأوراق الملكية، وسأعطيك المال نقدًا».

صمت الرَّجُل الذي يعرض سيَّارته للبيع هنيهة ثم قال: «يجب أن أزيل لوحاتي المعدنية من عليها».

- «بالتأكيد، لا مُشكلة».

- «كيف سأعرفك يا سيِّد...؟».

قال توم: «السيِّد بار». كان ينظر إلى لافتة مُعلَّقة عبر ردهة صالة المطار تقول: خطوط بار هاربور للطيران تُسهِّل عليك الوصول إلى نيو إنجلاند... والعالم بأكمله! «سأنتظرك عند الباب البعيد. ستعرفني لأن وجهي لا يبدو وسيمًا جدًّا. لقد ذهبت وزوجتي البارحة إلى التزلُّج بالعجلات وسقطت سقطة مروِّعة. كان من المُمكن أن أتأذَّى أكثر، على ما أظنُّ. لكنني لم أكسر أي عظم في جسدي، فقط وجهي».

- «يا إلهي، آسف لسماع ذلك يا سيِّد بار».
- «سأتعافى.. فقط أحضر السيَّارة إلى هنا يا صديقي الطيِّب».

أغلق توم الخط، وقطع الصالة إلى الباب، وخطا خارجًا إلى ليل مايو الدافئ العَطِر.

جاء صاحب السيَّارة الفورد الكبيرة بعد عشر دقائق، خارجًا بسيَّارته من وسط ظلام ليل نهايات الربيع. لم يكن سوى فتى يانع. أبرم الاثنان الصفقة، ووقَّع له الفتى فاتورة البيع التي دسَّها توم لا مُباليًا في جيب معطفه، ووقف مكانه يراقب الفتى وهو ينزع لوحات السيَّارة المعدنية التابعة لولاية مين.

عندما انتهى قال توم له: «سأعطيك ثلاثة دولارات إضافية مُقابل مفكِّ البراغي».

نظر إليه الفتى مُفكِّرًا لحظات، ثم هزَّ كتفيه، وناوله المفكَّ، وأخذ الدولارات الثلاثة التي مدَّ توم يده بها. ليس من شأني، كان هذا لسان حال هزَّة كتفيه، وفكَّر توم: كم أنت متعاون يا صديقي الصغير العزيز. شاهده توم يستقل تاكسيًّا، ثم جلس خلف مقود الفورد.

كانت السيَّارة بحالة مُزرية: ناقل الحركة خشن، أزرار التحكُّم يابسة، هيكلها المعدني يصدر صريرًا، مكابحها ذائبة. لكن أيًّا من هذا لم يكن يهم. اتَّجه بالسيَّارة إلى موقف سيَّارات، وقطعُ تذكرة، وقادها إلى الداخل. أوقفها توم جانب سيَّارة سوبارو بدا أنها مركونة هنا منذ فترة. استخدم مفك البراغي الذي ابتاعه من الفتى ليفكَّ لوحات السوبارو ويضعها على الفورد. كان يُدندن وهو يعمل.

بحلول العاشرة مساءً، كان يقود شرق الطريق 2، وهناك خريطة ورقية لولاية مين مفتوحة على المقعد المجاور له. لقد اكتشف أن راديو السيَّارة مُعطَّل. لا ضير في ذلك، فعقله مشغول بالتفكير بأمورٍ عديدة. على سبيل المثال، كل الأشياء الرائعة التي سيفعلها ببيڤرلي ما إن يعثر عليها.

كان واثقًا في أعماقه أن بيڤرلي أمست قريبة جدًّا الآن.

وتُدخِّن.

أوه يا فتاتي العزيزة، لقد عبثتِ مع الرَّجُل الخاطئ. لقد عبثتِ مع توم روجان، والسؤال الآن ما الذي سنفعله بكِ تحديدًا؟

أسرعت الفورد في طريقها في عمق الليل، تُطارد ضوء مصابيحها الأمامية القويَّة، وفي الوقت الذي وصل فيه إلى نيوبورت، كان قد عرف تحديدًا ما سيفعله بها، وجد متجر دواء وحاجيات على قارعة الطريق الرئيس ما زالت أبوابه مفتوحة. دخله وابتاع دزينة من علب السجائر. تمنَّى له صاحب المتجر ليلة طيِّبة، وتمنَّى له توم المِثل. ألقى توم بعلب السجائر إلى المقعد المجاور وبدأ يتحرَّك من جديد. سار ببطء عبر الطريق 7، باحثًا عن مخرجه. ها هو ذا، الطريق 3، الذي تتصدَّره لافتة تقول: هاڤن 21 ميلًا/ ديري 15 ميلًا.

أخذ توم المُنعطف وحثَّ الفورد على التقدُّم أسرع. ألقى نظرة على علب التبغ وابتسم، وفي الوميض الأخضر المُنبعث من أضواء لوحة القيادة، بدا وجهه المُرضَّض المليء بالجروح غريبًا وماجنًا.

فكَّر توم بينما السيَّارة الكبيرة تشق طريقها مُسرعة بين صفوف أشجار التنوب والصنوبر، مُتَّجهةً إلى ديري بسُرعة ستين ميلًا في الساعة: لقد أحضرت لك بعض السجائر يا بيڤي. أوه، أجل. دزينة كاملة منها. لك وحدك، وعندما سأرى وجهك يا عزيزتي، سأجعلك تلتهمين كل سيجارة لعينة منها، وإذا كان ذلك الأخ دِنبروه في حاجة إلى بعض التأديب، سأعتني بأمره أيضًا. لا مُشكلة يا بيڤي، لا مُشكلة على الإطلاق.

وللمرَّة الأولى منذ أن هاجمته تلك العاهرة القذرة وفرَّت، بدأ توم يشعُر ببعض التحسُّنِ.

6

حلَّقت أودرا دِنبروه إلى ولاية مين في مقصورة الدرجة الأولى على متن الطائرة دي سي 10 التابعة لخطوط الطيران الجوِّية البريطانية. لقد غادرت مطار هيثرو في السادسة إلا عشر دقائق مساء ذلك اليوم، ولم تنفك تطارد مغيب الشمس من حينها. كانت الشمس تنتصر -بل انتصرت في الحقيقة- لكن هذا لم يكن يهم حقًّا. لقد عثرت على مِقعدٍ شاغر في الرحلة الخطوط البريطانية الجوية رقم 23 المُقلعة من لندن إلى لوس أنچلوس بضربة حظٍّ إلهية. تلك الرحلة التي خُطِّط لها أن تتوقَّف للتزوُّد بالوقود... في مطار بانجور الدولي.

كان اليوم كابوسًا مُقيمًا. كان مُنتج فيلم غُرفة العليَّة، فريدي فايرستون، يُريد رؤية بيل أوَّل شيءٍ بطبيعة الحال. لقد حدث لغو وفوضى كبيرة بخصوص مؤدِّية المشاهد الصعبة التي كان من المفترض أن تسقط من على السلالم بدلًا من أودرا. يبدو أن للبُدلاء نقابة بدورهم، وتلك المرأة كانت قد استنفدت حصَّتها من العمل في المشاهد الصعبة لهذا الأسبوع أو شيءٌ ما آخر سخيف على غرار ذلك. المشكلة أنه لم تكن توجد امرأة أخرى قريبة من هيئة أودرا الجسدية. قال فريدي لرئيس النقابة إنهم سيضطرون اللجوء إلى رجُل لأداء الحيلة إذًا، أليس كذلك؟ فالمشهد لم يكن يتطلَّب أن يُصوَّر بحمَّالةَ صدر ولباسٍ داخلي. أتوا بشعرٍ مُستعارٍ أحمر، وكانت مسؤولة الملابس ستُلبس الرَّجُل حشوات ليبدو ناهدًا، وحشواتٍ أخرى لتكبير مؤخِّرته، وربَّما أيضًا مزيدٌ من الحشوات لملء ساقيه، إذا اضطرَّهم الأمر.

هذا غير جائز يا رفيق، هكذا أخبره رئيس النقابة. من المُخالف للوائح وميثاق الاتِّحاد أن يصير رجُلا بديلًا لامرأة. ذلك تمييزٌ جنسي.

كانت حِدَّة طباع فريدي أسطورية الأبعاد في عالم صناعة الأفلام، وعند تلك المرحلة فقد الرَّجُل السيطرة على ذاته. قال فريدي لرئيس النقابة -الرَّجُل البدين كريه الرَّائحة- أن يدس شيئًا في ثقب مؤخِّرته، فقال رئيس النقابة

لفريدي إنه من الأفضل له الالتزام بالأدب وإلا لن يجد أيَّ بُدلاء في موقع تصوير فيلم غُرفة العليَّة على الإطلاق. ثم فرك سبَّابته وإبهامه معًا في إشارة ابتزازية إلى تفتيح مخه، وقد أثار هذا التلميح جنون فريدي وثائرته. كان رئيس النقابة ضخمًا لكنه رخو، أما فريدي الذي ما زال يُمارس كُرة القدم الأمريكية كلما أُتيحت له الفرصة، والذي ضرب الكُرة ذات مرَّة ضربة أسطورية في لعبة الكريكيت، كان ضخمًا وصلبًا. أمسك فريدي برئيس النقابة من تلابيبه وألقاه بعيدًا، ثم عاد إلى مكتبه ليستجم، ثم خرج بعدها بعشرين دقيقة يصيح مُناديًا على بيل. كان يُريد إعادة كتابة المشهد برُمَّته لإلغاء تتابع السقوط من على الدرج، هنا اضطُرَّت أودرا إلى إخبار فريدي أن بيل غادر إنجلترا.

صرخ فريدي بفم مُتدلٍّ: «ماذا؟». كان يرمق أودرا كأنه يظنها فقدت صوابها. «ما الذي تقولينه؟».

- «لقد استُدعي إلى الولايات المُتَّحدة، هذا ما أقوله لك».

فلتت من فريدي إيماءة كأنه سيقتنصها، فانكمشت أودرا إلى الوراء خائفة قليلًا. نظر فريدي إلى يديه، ثم دسَّهما في جيبيه ووقف مكانه ينظر إليها فحسب.

قالت أودرا بصوتٍ ضعيف: «أنا آسفة يا فريدي. صدقًا آسفة».

ثم نهضت وصبَّت لنفسها كوبًا من القهوة من مُعد القهوة الموضوع على لوح التسخين الخاص بفريدي، ولاحظت ارتعاشة يديها البسيطة. مع جلوسها، سمعت صوت فريدي المُضخَّم يخرج من سمَّاعات الاستوديو ويصيح في الجميع أنْ يعودوا إلى منازلهم أو يذهبوا إلى الحانات، لقد أُلغي يوم التصوير. هذه عشرة آلاف دولارٍ على الأقل قد راحت سُدى.

أغلق فريدي نظام الاتِّصال الداخلي، ونهض وصب لنفسه كوبًا من القهوة بدوره. ثم جلس من جديد وعرض عليها سيجارة من علبة سجائره السليك كات.

هزَّت أودرا رأسها بتهذيب.

أخرج فريدي واحدة وأشعلها، وضيَّق عينيه ناظرًا إليها عبر الدُخان: «هذا أمرٌ جاد، أليس كذلك؟».

قالت أودرا: «أجل»، محاولة الحفاظ على رباطة جأشها قدر استطاعتها.
- «ماذا حدث؟».
ولأن أودرا كانت تُحب فريدي بصدق وتثق به بصدق، أخبرته بكل شيء تعرفه. استمع إليها فريدي باهتمامٍ شديد وجهامة. لم تستغرق الحكاية وقتًا طويلًا.. وعندما انتهت من سردها كانت أبواب السيَّارات ما زالت تُغلق والمُحرِّكات تبدأ عملها في ساحة الانتظار بالخارج.
التزم فريدي الصمت بعض الوقت، وظلَّ يحملق خارج النافذة، ثم مال برأسه نحوها وقال: «لقد أُصيب بانهيارٍ عصبي من نوعٍ ما».
هزَّت أودرا رأسها نافية: «لا، ليس الأمر كذلك. لم يحدث له هذا»، ثم ابتلعت لعابها وأضافت: «رُبَّما كان من الأفضل لو كنت موجودًا وقتها».
ابتسم فريدي ابتسامة ملتوية: «يجب عليك إدراك أن الرجال نادرًا ما يشعرون بأنهم مجبرون على الوفاء بوعودٍ قطعوها على أنفسهم وهم صبية صغار. أنت قرأت كتاب بيل، وتعرفين أن جزءًا محوريًّا منه يدور حول الطفولة، وأن هذا الجزء مكتوب ببراعة حقًّا. لذا فإن فكرة أنه نسي كل ما حدث في صباه شديدة السخف وغير معقولة».
قالت أودرا: «الندوب على كفَّيه لم تكن موجودة من قبل، حتَّى هذا الصباح».
- «هُراء! أنت فقط لم تُلاحظيها إلا هذا الصباح».
قالت مُستهجنة بقِلَّة حيلة: «كنت سألاحظها لو كانت موجودة».
لكنها استطاعت أن ترى في عينيه أنه لم يُصدِّق ذلك أيضًا.
سألها فريدي: «وما العمل الآن؟»، فلم تقدر سوى على هزِّ رأسها. أشعل فريدي سيجارة أخرى من طرف السيجارة الأولى: «أستطيع تسيير الأمور مع رئيس النقابة، ليس بشخصي بالطبع، فهو الآن يُفضِّل لقائي في الجحيم عن أن يُعطني بديلًا آخر. سأبعث بتيدي رولاند إلى مكتبه. إن تيدي شاذ، لكنه قادر على إقناع الطيور بمُغادرة أغصانها. لكن ماذا عمَّا سيأتي بعد؟ ما زال أمامنا أربعة أسابيع تصويرٍ باقية، وزوجك الآن في مكانٍ ما في ماساتشوستس...».
- «في مين».

لوَّح بيده: «أينما كان. كيف سيكون حال مزاجك من دونه؟».

- «أنا...».

انحنى فريدي أمامًا وقال: «أنا أحبك يا أودرا. صدقًا أحبك. كما أحب بيل، بالرغم من هذه الفوضى. أظن أننا نستطيع تجاوز هذه الأزمة. إذا احتاج السيناريو بعض الترقيع، أستطيع ترقيعه. يعلم المسيح أنني مارست كثيرًا من عمل مُصلحي الأحذية هذا في شبابي، وإذا لم يعجب زوجك عملي، فلا يلومنَّ إلا نفسه. أستطيع العيش من دون بيل، لكنني لا أستطيع الاستغناء عنك يا أودرا الآن. لا أستطيع تحمُّل فرارك إلى الولايات المُتَّحدة خلف زوجك، وأريد منك بذل كل ذرَّة مجهودٍ. هل أنت قادرة على ذلك؟».

- «لا أعرف».

- «ولا أنا كذلك. لكن أريد منك التفكير في شيءٍ. نستطيع الإبقاء على الأمر سِرًّا لفترة، رُبَّما إلى انتهاء التصوير، إذا أديت دورك كمُمثِّلة مُحترفة وأنجزت مهمتك. لكن إذا رحلتِ، فلن أستطيع التزام الصمت. أحيانًا أكون وغدًا، لكنني لست ذا ميولٍ انتقامية بالسليقة، ولن أخبرك أنك لو غادرتِ فسأحرص على التأكُّد من أنك لن تعملي في مهنتنا ثانيةً. لكن يجب أن تعلمي أنه إذا أُشيع عنكِ أنك مزاجية في العمل، فلرُبَّما يلتصق بك الأمر إلى الأبد. أعرف أنني أتحدَّث إليكِ كعمٍّ هولندي، هل هذا يضايقك؟».

قالت بسأم: «لا». في الحقيقة، لم تكن تلقي بالًا كبيرًا لكل ما يقول. إنها لا تُفكِّر سوى في بيل الآن. لقد أظهر فريدي لُطفًا كافيًا إلى اللحظة، لكن فريدي لا يفهم، وفي تحليله الأخير للأمور -سواء كان رجُلًا لطيفًا أم لا- فكل ما يُفكِّر فيه هو مصلحة فيلمه. إنه لم يرَ النظرة التي لاحت في عيني بيل... ولا سمع لعثمته.

قال ناهضًا: «جميل. تعالي معي إلى حانة هير أند هاوند. أظنُّ كلانا في حاجة إلى شراب».

هزَّت رأسها مُمتنعة: «آخر شيءٍ أحتاجه الآن الشراب. سأعود إلى المنزل وأُفكِّر في الأمر».

- «سأطلب السيَّارة».

- «لا، سأستقل القطار».

نظر إليها بثباتٍ، وإحدى يديه على الهاتف، ثم قال: «أعتقد أنك تنوين الذهاب خلفه، وها أنا أخبرك أن تلك غلطة جسيمة يا فتاتي العزيزة. أعرف أنه بدا لكِ مهوَّسًا بالأمر، لكنه في جوهره رابط الجأش بما يكفي. سينسى الأمر، وعندما سينساه سيعود. لو كان يُريدك معه، كان سيخبرك».

- «لم أُقرِّر أيَّ شيءٍ بعد»، قالتها أودرا له وهي تعلم في صميمها أنها قرَّرت كل شيء مُسبقًا.. لقد قرَّرته حتَّى قبل أن تأتي السيارة لإقلالها هذا الصباح.

قال فريدي: «اعتني بنفسك يا حبيبتي، ولا تفعلي شيئًا قد تندمين عليه لاحقًا».

شعرت بقوَّة شخصيته تسحقها، مُطالبة إيَّاها بالاستسلام، بقطع وعدٍ، بإنجاز عملها، بانتظار عودة بيل هنا... أو أن تذوي من جديد، وتختفي في الحُفرة التي خرجت منها في الماضي.

ذهبت إليه ولثمته على وجنته قائلة: «أراك قريبًا يا فريدي».

عادت إلى المنزل واتَّصلت بالخطوط الجويِّة البريطانية، وأخبرت الموظَّفة أنها تريد الوصول إلى مدينة صغيرة في ولاية مين تُدعى ديري إذا كان ثمَّة إمكانية لذلك. مرَّت لحظة صمتٍ استشارت فيها المرأة حاسوبها، ثم أتتها بالخبر كعلامة من السماء. الرحلة اليومية رقم 23 ستتوقَّف في بانجور، وبانجور على بُعدِ خمسين ميلًا أو أقل من ديري.

- «هل أحجز لكِ على متن الرحلة يا سيِّدتي؟».

أغلقت أودرا عينيها وشاهدت وجه فريدي الحازم اللطيف نوعًا، الجاد جدًّا، وسمعته يقول: اعتني بنفسك يا حبيبتي، ولا تفعلي شيئًا قد تندمين عليه لاحقًا.

فريدي لا يريدها أن ترحل، وبيل لم يرغب في رحيلها بدوره، لماذا إذًا تشعر بقلبها يصرخ فيها أنه يجب عليها الرحيل؟ أغلقت أودرا عينيها. ربَّاه، كم أنا مُشتتَّة...

- «سيِّدتي؟ أما زلتِ معي على الخط؟».

قالت أودرا: «احجزي». ثم تردَّدت. اعتني بنفسك يا حبيبتي... رُبَّما يجب عليها التريُّث قليلًا والحظو ببعض النوم كي تباعد بين نفسها والجنون. بدأت تُفتِّش حقيبتها بحثًا عن بطاقة أمريكان إكسبريس خاصتها. «احجزي لي غدًا، في الدرجة الأولى إن كان ذلك مُتاحًا، لكنني سأقبل بأيِّ شيء»، ثم أردفت لنفسها: وإذا غيَّرت رأيي أستطيع إلغاء الحجز، على الأرجح هذا ما سأفعله. سأستيقظ بكامل قواي العقلية وسأجد عقلي صافيًا.

لكن شيئًا لم يكن صافيًا هذا الصباح، وواصل قلبها الصراخ فيها بالوتيرة ذاتها كي ترحل. نُسج نومها من مزيج كوابيسٍ مجنون. لذا اتَّصلت بفريدي، لا لأنها ترغب ذلك، لكن لشعورها بأنها مدينة له بذلك.

لم تحك كثيرًا، كانت تحاول إخباره -ببعض التعثُّر- كيف أنها تشعر أن بيل قد يكون في حاجة إليها بجوراه، عندما سمعت نقرة إغلاق الخط الخافتة من طرف فريدي. لقد أغلق الخط دون أن يتفوَّه بكلمة تزيد على ترحيبه الاستهلالي.

لكن في طريقها، شعرت أودرا أن تلك النقرة الناعمة باحت بكل ما يرغب في قوله.

7

هبطت الطائرة في بانجور الساعة السابعة وتسع دقائق بتوقيت شرق الولايات المُتَّحدة. كانت أودرا الراكبة الوحيدة التي ترجَّلت من الرحلة، وقد نظر الآخرون إليها بنوعٍ من الفضول، مُتعجِّبين رُبَّما لِمَ قد يرغب أيَّ شخصٍ اختيار الهبوط هنا، في ذلك المكان الصغير الضائع. فكَّرت أودرا في أن تقول لهم: أنا أبحث عن زوجي، هذا هو السَّبب. لقد عاد إلى مدينة صغيرة هنا في الجوار لأن أحد رفاق صباه اتَّصل به وذكَّره بوعدٍ قطعه على نفسه لا يذكُر تفاصيله تمامًا. المُكالمة أيضًا ذكَّرته أنه لم يُفكِّر في شقيقه المتوفي ما يزيد على عشرين عامًا. أوه أجل، وقد أعادت له انعقاد لسانه أيضًا... بالإضافة إلى ندوبٍ بيضاء نشأت من العدم على راحتي يديه.

ثم فكَّرت بعدها أن وكلاء الجمارك الواقفين عند ممرِّ الهبوط رُبَّما سيطلبون لها مُستشفى المجانين.

التقطت حقيبتها الوحيدة -التي بدت موحشة ووحيدة تمامًا وهي تنزلق على سير الحقائب بمُفردها- واتَّجهت إلى مكاتب إيجار السيَّارات كما فعل توم روجان قبلها بساعة. لكن حظها كان أفضل؛ فقد كانت لدى الشركة الوطنية لتأجير السيَّارات سيَّارة داتسون مُتاحة.

ملأت الفتاة البيانات، ومهرت أودرا الورقة بتوقيعها.

قالت الفتاة: «أظنُّ أنها أنتِ»، ثم أضافت بحياء: «هل لي أن أحظى بتوقيعك؟».

أعطتها أودرا توقيعًا، وكتبت اسمها على ظهر إحدى استمارات الإيجار وهي تُفكِّر: تباهي به قدر استطاعتك يا فتاة، لأنه إذا كان فريدي فايرستون مُحقًّا، فلن يكون له أيَّ قيمة بعد خمس سنوات من الآن.

بعد عشر دقائق، كانت أودرا على الطريق، مُذكِّرة نفسها عند كل منعطف أنها لو نسيت وبدأت تقود كأنها في بريطانيا حيث مقعد القيادة إلى اليسار، فلسوف يعانون كثيرًا في كشط أشلائها من فوق الأسفلت.

وفيما كانت تقود، أدركت أودرا أنها تشعُر بذُعرٍ لم تختبره في حياتها من قبل.

8

بإحدى مُفارقات القدر الغريبة، أو رُبَّما بمحض مصادفة من التي تحدث أحيانًا (والتي تحدث كثيرًا في ديري في حقيقة الأمر)، حجز توم غُرفة في نُزُل كوالا على أطراف شارع چاكسون، وحجزت أودرا غُرفة في نُزُل هوليداي. كان الموتيلان يقفان جنبًا إلى جنب، وساحتي انتظارهما يفصلهما فقط رصيف مرتفع قليلًا، وقد حدث أن ركنت أودرا الداتسون المُستأجرة وجهًا لوجه مع الفورد الكبيرة التي ابتاعها توم، لا يفصلهما سوى ذلك الرصيف المُرتفع. كان كلاهما نائمًا حاليًا؛ أودرا بهدوءٍ على جانبها، وتوم روجان مقلوبًا على ظهره ويُشخِّر بقوَّة، حتَّى إن شفتيه المتورِّمتين أخذتا تُرفرفان.

أمضى هنري النهار مُختبئًا بين صفوف الشُجيرات على جانبي الطريق 9. كان يغفو أحيانًا، وأحيانًا ظلَّ مُستلقيًا على ظهره يراقب دوريات سيَّارات الشُرطة التي تدور باحثة ككلاب صيدٍ مُدرَّبة.. وفيما كان الخاسرون يتناولون الغداء، كان هنري ينصت إلى الأصوات الآتية من القمر.

وعندما حلَّ الظلام، اتَّجه إلى حافَّة الطريق ورفع إبهامه للسيَّارات المارَّة. بعد فترة، توقَّف له أحمق ما وأقلَّه.

ديري: الفاصل الثَّالث

«اقترب طائر عبر الممشى...
لم يلحظ أنني شاهدته؛
قضم دودة أرض نصفين،
وأكل الصغيرة نيئة».

- إيملي ديكنسون
اقترب طائرٌ عبر الممشى

١٦ مارس 1985

وقع الحريق في ملهى بلاك سبوت في أواخر خريف عام 1930، ووفقًا لما استطعت تحديده، أنهى ذلك الحريق -الذي نجا منه والدي بأعجوبة- دورة جرائم القتل ووقائع الاختفاء التي حدثت بين عامي 1929 و1930. تمامًا كما أنهى انفجار مصنع الحديد والصلب الدورة السابقة قبلها بخمسة وعشرين عامًا. يبدو أن الأمر يستلزم قُربانًا بشريًّا هائلًا لإخماد القوَّة المُريعة التي تعمل هنا... لإدخال الشَّيء في سُباتٍ طويل قرابة رُبع قرنٍ آخر أو نحو ذلك.

لكن إذا كان مثل هذا القربان ضروريًّا لإنهاء كل دورة، فيبدو أن حدثًا مُماثلًا مطلوبًا لاستهلال كل دورة.

وهو ما يقودني لواقعة عصابة برادلي.

لقد نُفِّذت عملية تصفية عصابة برادلي في تقاطع شوارع كانساس والرئيس والقناة الثلاثي -في مكانٍ ليس ببعيدٍ عن الجزء الذي كانت تعرضه صورة ريتشي وبيل التي تحرَّكت في أحد أيَّام يونيو 1958- قبل ثلاثة عشر شهرًا من حريق ملهى بلاك سبوت، في أكتوبر 1929... قبل وقتٍ قصير من انهيار سوق الأسهم.

ومثل الحال مع حريق ملهى بلاك سبوت، يميل كثيرٌ من مواطني ديري إلى عدم تذكُّر ما حدث في ذلك اليوم، أو سيخبرونك أنهم كانوا خارج البلدة وقتها في زيارة لأحد الأقارب، أو ينامون القيلولة ولم يعرفوا بما حدث حتَّى

سمعوا الأخبار في الراديو.. أو رُبَّما سينظرون إلى وجهك ببساطة ويكذبون عليك بمنتهى الصفاقة.

تفيد سجلَّات الشُرطة لذلك اليوم أن رئيس القسم سوليڤان لم يكن موجودًا في المدينة (قال لي ألويسيس نيل من مقعده المُشمس في شُرفة دار شفاء بولسون في بانجور: بالتأكيد أتذكَّر ذلك اليوم. كان هذا أوَّل عامٍ لي في الخدمة، وبالتأكيد أتذكَّر أحداثه جيِّدًا. كان سوليڤان في غرب ولايةٍ مين في رحلة صيد طيور، وعند عودته كان أفراد العصابة جميعًا قد غُطوا بالملاءات وحُملوا بعيدًا، ما جعل چيم سوليڤان غاضبًا كثورٍ برِّي)، لكن هناك صورة في كتاب مرجعي عن العصابات عنوانه السفَّاكون والرجال الأشرار أظهرت رجُلًا يقف جوار جُثَّة آل برادلي المُمزَّقة بالرصاص في المشرحة، وإذا لم يكن ذلك الرَّجُل هو رئيس الشُرطة سوليڤان، فبالتأكيد هو أخوه التوأم.

كان السيِّد كين هو من استقصيت منه ما أؤمن بأنه النسخة الحقيقية للواقعة. نوربرت كين، مالك صيدلية ومتجر الشارع الأوسط في الفترة من 1925 إلى 1975. لقد تحدَّث إليَّ عن طيب خاطر، لكنه جعلني أغلق جهاز تسجيلي كما فعل والد بيتي ريبسوم قبل أن يسرد الحكاية. ما زلت أسمع صوته الشبيه بالورق في رقَّته.. أكابيلا[1] آخر في الجوقة اللعينة لهذه المدينة.

قال لي: «لا سبب يمنعني من عدم إخبارك. لا أحد سينشر كلامي، ولا أحد سيُصدِّق إن نُشِر». ثم عرض عليّ جرَّة صيدلانية قديمة الطراز سائلًا: «لادن عرقسوق؟ كنت دائمًا تُفضِّل العرقسوس الأحمر يا مايكي حسبما أتذكَّر».

أخذت واحدة. «هل كان الرئيس سوليڤان موجودًا في ذلك اليوم؟».

ضحك السيِّد كين وأخذ سوطًا من لادن العرقسوس لنفسه: «الأمر يُحيِّرك، أليس كذلك؟».

وافقته قائلًا إن بلى وأنا أمضغ قطعة من العرقسوس الأحمر. لم أتناول

(1) أكابيلا: لون من الأغاني يستغنى عن مُصاحبة الآلات الموسيقية ويستعين بدلاً منها بالأصوات البشري من كل الطبقات، من السوبرانو إلى الباص.

واحدة من هذه منذ أن كنت طفلًا يعرض بنساته على نُسخة أكثر شبابًا ونشاطًا من السيِّد كين. إن طعمها جيِّد، كما كانت في الماضي.

قال السيِّد كين: «أنت أصغر سنًّا من أن تتذكَّر إكمال بوبي تومسون دورة كاملة حول الملعب لصالح فريق چاينتز في مباراة عام 1951. فلم يكن سنَّك وقتها ليتخطَّى الرابعة. لقد كتبوا مقالًا عن تلك المُباراة في الجريدة بعدها ببضع سنوات، وتبيَّن أن نحو مليون من قاطني نيويورك ادَّعوا أنهم كان في ملعب البيسبول في ذلك اليوم». مضغ السيِّد كين لادن العرقسوس، وسال لعابٌ داكن من ركن فمه، فمسحه بصعوبة بمنديله. كنا جالسين في مكتبه الواقع خلف الصيدلية، لأن بالرغم من أن نوربرت كين كان في الخامسة والثمانين ومُتقاعد منذ عشرة أعوام، فهو ما زال يمسك الدفاتر التجارية لحفيده.

صاح كين: «العكس تمامًا حدث في واقعة عصابة برادلي!». كان يبتسم، لكنها لم تكن ابتسامة سرور، بل ابتسامة ساخرة، مفعمة بالذكريات. «كان هناك نحو عشرين ألف شخصٍ يعيشون في وسط مدينة ديري وقتذاك، وكان الشارع الرئيس وشارع القناة قد عُبِّدا منذ أربعة أعوام، أما شارع كانساس فكان لا يزال غير مُمهَّدٍ.. يُثار غُباره في الصيف ويستحيل برك طينٍ آسنة في مارس ونوڤمبر من كل عام. كانوا مُعتادين على تزييت تُربة تلَّة أب–مايل في يونيو من كل عام، وفي الرابع من يوليو من كل عام يخطب العمدة في الجموع عن كيف أنهم سيشرعون في تعبيد شارع كانساس، لكن ذلك لم يحدث حتَّى عام 1942. كان... لكن ماذا كنت أقول؟».

قلت له سريعًا: «إن عشرين ألفًا كانوا يعيشون في وسط المدينة».

– «أوه، أجل. حسنًا، من بين عشرين الألف أولئك، مات النصف على الأرجح منذ ذلك الحين، وربَّما أكثر. إن خمسين عامًا لوقتٍ طويل، والناس في ديري يموتون صغارًا بطريقة غريبة. رُبَّما ثمَّة شيءٍ في الهواء. على أيِّ حال، من بين أولئك المُتبقِّين، لا أظنُّ أنك ستعثر على أكثر من دزينة منهم سيقولون لك إنهم كانوا في البلدة في اليوم الذي أُبيدت فيه عصابة برادلي. أحدهم هؤلاء سيكون بوتش رودن على ما أظن، الذي يعمل في سوق اللحم.

إنه يحتفظ بصورة لواحدة من السيَّارتين على الحائط حيث يُقطِّع اللحم. إذا نظرت إلى تلك الصورة، ستُميِّز بصعوبة أنها سيَّارة. أيضًا قد تخبرك شارلوت ليتلفيلد معلومة أو اثنتين، إذا اقتنصتها في مزاج جيِّد. إنها مُدرِّسة في المدرسة الثانوية، وبالرغم من أنها لم تكن تتعدَّى العاشرة أو الثانية عشرة وقتها، إلا أنني واثق أنها تتذكَّر كثيرًا. كارل سنو.. أوبري ستيسي.. إيبن ستامبنيل.. ذلك الرَّجُل الكبير الغريب الذي يرسم تلك اللوحات المضحكة ويحتسي الخمر طوال الليل في حانة والي، أظنُّ أنا اسمه بيكمان. هؤلاء سيتذكَّرون. جميعهم كان حاضرًا...».

شرد السيِّد كين بغموض ناظرًا إلى لادن العرقسوس في يده. فكَّرت في حثِّه لمواصلة الكلام، لكنني قرَّرت ألا أفعل.

في النهاية قال: «أغلبية الآخرين سيكذبون حول الأمر، بالطريقة نفسها التي كذب الناس بها وقالوا إنهم كانوا في الملعب عندما أكمل بوبي تومسون دورة كاملة في المباراة، هذا كل ما أعنيه. لكن الناس يكذبون بخصوص وجودهم في مُباراة بيسبول لأنهم يتمنُّون لو كانوا قد حضروها، أما الناس في ديري فيكذبون بخصوص وجودهم في البلدة في ذلك اليوم لتمنِّيهم لو لم يكونوا حاضرين.. هل تفهمني يا بُني؟».

أومأت.

سألني السيِّد كين: «هل أنت مُتأكِّد من أنك تريد سماع باقي القِصَّة؟ تبدو متوتِّرًا قليلًا يا سيِّد مايكي؟».

قلت له: «لست كذلك، لكنني أعتقد أنه من الأفضل لو كنت متوتِّرًا».

قال السيِّد كين برقَّة: «حسنًا». كان اليوم حافلًا بالذكريات بالنسبة إليّ، فعندما عرض عليّ جرَّة حلوى العرقسوس، تذكَّرت فجأة البرنامج الإذاعي الذي اعتاد أبي وأمي الاستماع إليه عندما كنت طفلًا صغيرًا: السيِّد كين، مُتتبِّع المفقودين.

- «كان رئيس الشرطة موجودًا يومها بالفعل. كان من المُفترض أن يذهب في رحلة صيد، لكنه غيَّر رأيه سريعًا عندما أتى لال ماكن وأخبره أنه يتوقَّع قدوم آل برادلي عصر ذلك اليوم».

سألته: «كيف علم ماكن تلك المعلومة؟».

قال السيِّد كين والابتسامة الساخرة تعلو وجهه من جديد: «حسنًا، تلك حكاية مُمتعة في حدٍّ ذاتها. لم يكن برادلي عدو الشعب الأوَّل في قائمة مكتب التحقيقات الفيدرالي، لكنهم كانوا يريدونه منذ عام 1928 أو نحو ذلك. كنوع من تأكيد القوَّة على ما أظنُّ. لقد سرق آل برادلي وشقيقه چورچ ستَّة أو سبعة بنوك في الغرب الأوسط، ثم اختطفا مصرفيًّا للحصول على فدية. دُفعت الفدية كاملة. ثلاثون ألف دولارٍ، وهو مبلغ فادح في ذلك الوقت، لكنهما قتلا المصرفي على أيِّ حال».

«بحلول ذلك الوقت، كان الغرب الأوسط قد صار مكانًا مُريحًا نسبيًّا للعصابات التي تعمل هناك، لذا ارتحل آل وچورچ وعصبتهما من الأوغاد إلى الشمال الشرقي، مُتابعين على هذا النحو. استأجروا لأنفسهم بيتًا ريفيًّا على حدود البلدة في نيوبورت، في مكانٍ لا يبعد كثيرًا عن مزارع رولين هذه الأيَّام».

«كان ذلك في أيَّام الصيف الحارَّة من عام 1929، رُبَّما في يوليو، رُبَّما أغسطس، رُبَّما حتَّى في أوائل سبتمبر... لا أعلم بالتحديد. كانوا ثمانية: آل برادلي، وچورچ برادلي، وچو كونكلن، وشقيقه كارل، ورجُلٌ أيرلندي يدعى آرثر مالوي يشتهر بـ «مالوي الأعمش» لأنه كان قصير البصر لكنه يرفض ارتداء نظَّارته إلا إذا اقتضت الضرورة تمامًا، وباتريك كودي، وشاب يافع من شيكاجو قيل إنه مولع بالقتل لكنه كان وسيمًا كأدونيس.. وكان بينهم أيضًا امرأتين: كيتي دوناهو، زوجة چورچ برادلي الذي تزوَّجها عرفيًّا، وماري هاوسر عشيقة كودي، لكنهم كانوا يتناقلونها أحيانًا وفقًا للقصص التي سمعناها لاحقًا».

«عندما نزلوا جميعًا إلى هذه البلدة يا بُني، افترضوا افتراضًا سيِّئًا كان سببًا في سوء مآلهم. لقد ظنوا أنهم ابتعدوا تمامًا عن ولاية إنديانا، وأنهم صاروا آمنين».

«حافظوا جميعًا على هدوئهم لفترة، وظلَّوا متوارين عن الأنظار، ثم أصابهم السأم وقرَّروا أنهم يريدون الذهاب في رحلة صيد. كان معهم ترسانة

متنوِّعة من الأسلحة، لكن الذخيرة كانت تنقصهم إلى حدٍّ ما.. لذا هبط جميعهم إلى ديري في السابع من أكتوبر في سيَّارتين. اصطحب باتريك كودي المرأتين للتسوُّق، بينما ذهب الرجال الآخرون إلى متجر ماكن للمستلزمات الرياضية. ابتاعت كيتي دوناهو فستانًا من متجر فيرسي، وماتت وهي ترتديه بعدها بيومين».

«انتظر لال ماكن الرجال بنفسه. لقد مات عام 1959. كان بدينًا جدًّا، لطالما كان بدينًا، لكن كان حاد البصر كالصقر، وقد عرف أن القادم هو آل برادلي في اللحظة التي دخل عليه فيها، هكذا قال. كما ظن أنه ميَّز بعض الآخرين، لكنه لم يتأكَّد من مالوي إلى أن وضع الأخير نظَّارته على عينيه لينظر إلى مجموعات السكاكين المعروضة في واجهات زجاجية».

«سار آل برادلي نحوه وقال: 'نرغب في شراء بعض الذخيرة'».

«فأجابه ماكن: 'حسنًا، لقد أتيتم إلى المكان الصحيح'».

«ناوله برادلي ورقة فقرأها لال. لقد ضاعت الورقة، على الأقل حسب علمي، لكن لال قال إنها كانت ستجمِّد الدماء في عروق من يقرأها. كانوا يريدون شراء خمسمئة طلقة عيار 0.38، وثمانمئة طلقة عيار 0.45، وستين طلقة عيار 0.50، تلك التي لم تعد تصنع من الأساس، وخراطيش بنادق بخردق لصيد الطيور وخردق لصيد الأيائل، وألف طلقة عيار 0.22 لكلٍّ من البنادق الطويلة والقصيرة».

«بالإضافة إلى -لاحظ هذا- ستَّة عشر ألف طلقة بُندقية آلية رشَّاشة».

صحت به: «يا للهول!».

ابتسم السيِّد كين تلك الابتسامة الساخرة مُجدَّدًا وعرض عليّ جرَّة العرقسوس. في البداية هززت رأسي، ثم أخذت سوط لادن آخر منها.

«قال لهم لال: 'هذه قائمة تسوُّق كبيرة يا رفاق'».

«قال مالوي الأعمش: 'هيَّا بنا يا آل. لقد أخبرتك أننا لن نجد بغيتنا في مدينة ريفيَّة كهذه. لنذهب إلى بانجور. لن نجد لديهم شيئًا أيضًا على الأرجح، لكنني سأستمتع بالرحلة'».

«هنا قال لال بهدوءٍ شديد: 'تريَّثوا قليلًا. هذه طلبية شراء جيِّدة وأنا لا

أريد خسارتها لصالح ذلك اليهودي في بانجور. أستطيع إعطاءكم الطلقات عيار 0.22 الآن، وأيضًا خرادق الأيائل والطيور، كما أستطيع إعطاءكم مئة طلقة لكلٍ من عيار 0.38 و0.45 أيضًا، وأستطيع توفير باقي الطلبية لك...' وهنا ضيَّقَ لال عينيه وأمسك بذقنه كأنه يحسب الأمر في عقله قبل أن يردف: '... بعد غدٍ. ما رأيكم في ذلك؟'».

«ابتسم برادلي ابتسامة واسعة قسمت وجهه إلى قفاه تقريبًا وقال إن هذا جيِّد جدًّا كالطلاء اللامع. قال كونكلن أنه ما زال يُفضِّل الذهاب إلى بانجور، لكنه خسر برأي الأغلبية».

«قال برادلي للال: 'إذا لم تكن متأكِّدًا من أنك تستطيع تجهيز الطلبية في الميعاد، فمن الأفضل أن تقول هذا الآن.. لأنني رجُلٌ طيِّب جدًّا لكن لن تريد خوض جدال معي عندما أغضب. هل تفهمني؟'».

«قال لال: 'أجل. سأجلب لك كل الذخيرة التي تحتاجها يا سيِّد...؟'».

«قال برادلي: 'رادر.. ريتشارد رادر في خدمتك'».

«ثم مدَّ يده فالتقطها لال بابتسامة كبيرة: 'شرف كبير يا سيِّد رادر'».

«وهكذا سأله برادلي بعدها ما الوقت المناسب له ولأصدقائه كي يمرُّوا عليه لجمع حاجياتهم، فسألهم لال ماكن فورًا ما إذا كانت الساعة الثانية ظهرًا مناسبة لهم، واتَّفقا أن التوقيت جيِّد لكليهما. ثم خرجوا، وراقب لال ابتعادهم. التقوا المرأتين وكودي على الممشى في الخارج، واستطاع لال تمييز كودي أيضًا».

قال لي السيِّد كين وهو ينظر إليَّ بعينين لامعتين: «حسنًا، ماذا تظن أن لال فعل بعدها؟ اتَّصل بالشُرطة؟».

قلت له: «تخميني يقول لا استنادًا لما حدث بعدها. لو كنت مكانه، لم أكن لأتوانى ثانية عن الإمساك بالهاتف».

- «حسنًا، رُبَّما كنت ستفعل، ورُبَّما لا». قالها السيِّد كين وعلى ثغره الابتسامة الساخرة لامعة العينين ذاتها، وشعرت برجفة لأنني أدركت ما يقصد... وقد أدرك هو أنني أدركت. ما إن تبدأ كرة ثلج ضخمة في التدحرج، فلا يُمكن وقفها. إنها تواصل اندفاعها فحسب حتَّى تجد مكانًا منبسطًا طويلًا

بما يكفي كي يمتص ويضعف طاقتها الحركية وكل الزخم الذي اكتسبته. تستطيع الوقوف في وجه مثل هذه الكُرة لتستوي بالأرض، لكن هذا لن يوقفها أيضًا.

قال السيِّد كين مُكرِّرًا: «رُبَّما كنت ستفعل، ورُبَّما لا. لكنني أستطيع إخبارك بما فعله لال ماكن. طوال ذلك اليوم وفي اليوم التالي، ما انفك عن إخبار كل رجُلٍ يأتي إليه أنه يعرف من يقطن الغابات قرب حدود ديري ونيوبورت ويصطادُ الأيائل والدجاج البرِّي ويعلم الله ماذا أيضًا، ببنادق مصنوعة في كانساس سيتي. إنها عصابة برادلي. إنه واثق من هذا لأنه ميَّز وجوههم. كما راح يخبرهم أن برادلي ورجاله سيأتون في اليوم التالي في حدود الثانية ظهرًا لالتقاط بقيَّة ذخيرتهم، وراح يخبرهم أنه وعد برادلي بتجهيز كل الذخيرة التي يحتاجها، وأن هذا وعدًا ينوي الوفاء به».

سألته: «كم عددهم؟». شعرت أن عينيه المتلألئتين تنوِّماني إيحائيًّا. فجأة بدت رائحة هذه الغُرفة الخلفية -رائحة الأدوية والمساحيق الطبية، والماسترول والڤيكس ڤابورَب وشراب روبيتسون للسُعال- خانقة... لكنني لم أكن أجرؤ على مغادرة الغرفة، تمامًا كما لم أجرؤ على كتم أنفاسي إلى أن أقتل نفسي اتِّقاءً لها.

سألني السيِّد كين: «هل تقصد كم عدد الرجال الذين أخبرهم لال بالأمر؟».

أومأت.

قال السيِّد كين: «لا أعرف بالتحديد. لم أكن أقف هناك وأقضي واجب الحراسة، لكنه أخبر كل من ظن أنه يستطيع الوثوق به على ما أفترض».

غمغمت مُفكِّرًا بصوتٍ أجش نوعًا ما: «كل من يستطيع الوثوق بهم».

قال السيِّد كين: «أجل. رجال ديري[1]، كما تعرف، لكن لا يعني هذا أن جميعهم يربُّون الأبقار»، ثم ضحك على تلك الدعابة القديمة قبل أن يُكمل.

---

(1) يتلاعب كينغ هنا بالجناس بين كلمتي Derry وDairy. الأولى اسم المدينة، والثانية تعني منتجات الألبان. المقصود برجال ديري في المُزحة، رجال مُنتجات الألبان.

«أما عن نفسي، فقد عرجت على لال في حدود الساعة العاشرة في اليوم التالي من ذهاب عصابة برادلي إليه. أخبرني بالقِصَّة، ثم سألني كيف يستطيع مُساعدتي. كنت قد جئت لأرى إن كانت صوري الأخيرة قد تم تحميضها أم لا. في تلك الأيّام كان ماكن يتولّى أمر الكاميرات وأفلام كوداك، لكنني بعد أن أخذت صوري قلت له إنني أريد بعض الذخيرة لبندقيتي الونشستر أيضًا».

سألني لال وهو يُمرِّر الخراطيش إليّ: «هل ستصطاد بعض الطرائد يا نورب؟».

«قلت له: 'رُبَّما سأصيب بعض الهوام'، وضحك كلينا». ضحك السيِّد كين وضرب ساقه الهزيلة كما لو أنها ما زالت أفضل دعابة سمعها. ثم انحنى أمامًا وربَّت على رُكبتي قائلًا: «كل ما أقوله يا بُني، إن القِصَّة انتشرت على نطاق واسع. كعادة المدن الصغيرة، إذا أخبرت الأشخاص المناسبين فإن ما تُريد إشاعته سيشيع... هل تفهم ما أقصد؟ أتريد سوطًا آخر من لادن العرقسوس؟».

أخذت واحدًا بأصابع خدرة.

قال السيِّد كين: «ستصير بدينًا»، وضحك. بدا طاعنًا في السن حينها، بنظّارته ثنائية البؤرة التي تنزلق على أنفه الناحل، وجلده المشدود تمامًا على وجنتيه الخالي بالتالي من التجاعيد.

«في اليوم التالي أحضرت بندقيتي معي إلى المتجر، كما أحضر بوب تانر -الذي يعمل بجدٍ أكثر من أيِّ مُساعدٍ سمعت عنه في حياتي- بندقيته معه.. ثم في حدود الساعة الحادية عشرة، جاء جريجوري كول لشراء بيكربونات الصودا، فلتحل اللعنة عليّ إن لم يكن مُسدَّسه الكولت عيار 0.45 مدسوسًا في حزامه».

قلت له: «احترس ألا تُفجِّر خصيتيك بهذا يا جريج».

قال جريج: «لقد أتيت من الغابات قاطعًا كل الطريق من ميلفورد من أجل هذه، وأظنُّ أن رأسي يدور من أثر الخمر اللعين. أظنُّ أنني سأُفجِّر خصيتي شخصٍ ما قبل مغيب الشمس».

«في حدود الواحدة والنصف، وَضعتُ لافتة سأعود قريبًا، من فضلك

تحلَّى بالصبر على باب الصيدلية وأخذت بندقيتي وخرجت من الباب الخلفي إلى زقاق ريتشارد. سألت بوب تانر إن كان يريد مرافقتي فقال لي إنه سينهي صرف الدواء للسيِّدة إيمرسون وسيراني لاحقًا. قال لي: 'اترك لي واحدًا حيًّا'. لكنني اعتذرت إليه قائلًا إنني لا أستطيع وعده بشيءٍ».

«كانت حركة المرور شبه منعدمة في شارع القناة، سواء من المارَّة أو السيَّارات. بين الفينة والأخرى، كانت شاحنة توصيل تمرُّ، هذا كل شيء. رأيت چاك بينيت يعبر الطريق مُمسكًا ببندقية في كل يدٍ، ثم التقى آندي كريس واتَّجها إلى إحدى الدكك التي كانت موجودة هناك قبل نصب الحرب التذكاري كما تعرف... في المكان الذي تجري فيه القناة أسفل الأرض».

«كان كلٍ من بيتي ڤانيس وآل نيل وچيمي چوردن يجلس على سلالم المحكمة، يلتهمون الشطائر والفاكهة من سلال غدائهم، وينقِّلون الطعام فيما بينهم حسب شهيتهم كما يفعل الأطفال في فناء المدرسة. كان ثلاثتهم مُسلَّحين. كان چيمي چوردن يحمل بندقية طراز سبرينجفيلد من أيَّام الحرب العالمية الأولى وقد بدت أكبر حجمًا منه».

«رأيت طفلًا يسير في اتجاه تلَّة أب-مايل. أظنُّه كان زاك دِنبروه، والد صديقك القديم، ذلك الذي شبَّ وأصبح كاتبًا. هنا صاح كيني بورتون من نافذة غرفة قراءة العلم المسيحي: 'ابتعد عن هنا يا فتى، سيحدث تبادل إطلاق نيران'. ألقى زاك نظرة واحدة على وجه كيني، وفرَّ مذعورًا فراره من الجحيم».

«كان هناك رجال في كل مكان مُسلَّحون بمُسدَّساتٍ وبنادق، يقفون على مداخل البنايات ويجلسون على المُدرَّجات وينظرون من النوافذ. كان جريج كول يجلس في أحد المداخل في نهاية الشارع واضعًا مُسدَّسه عيار 0.45 في حجره، ونحو دزينتي من طلقات الخرطوش متراصة جواره كألعاب الجنود. أما بروس چاجرمير وذلك السويدي أولاف ثيرمانيوس، فكانا يقفان في الظل أسفل سُرادق خيمة كبيرة».

نظر إليَّ السيِّد كين، بل نظر عبري. لم تكن عيناه حادتين حاليًا، بل عكرتان بالذكريات، وناعمتان كعيون الرجال عندما يتذكَّرون أحد أفضل أيَّام حياتهم... أوَّل دورة كاملة حول ملعب البيسبول، أو اصطياد أوَّل سمكة

سلمون كبيرة بما يكفي للإبقاء عليها، أو النوم أوَّل مرَّة على الإطلاق جوار امرأة راغبة.

أخبرني بصوتٍ حالم: «أتذكَّر أنني سمعت صوت الرياح يا بُني. أتذكَّر صوت الرياح وصوت ساعة المحكمة وهي تدق معلنة الثانية ظهرًا. جاء بوب تانر من خلفي، وقد كان كل عصب في جسدي متوتِّرًا ومشدودًا تمامًا لدرجة أنني كدت أُفجِّر رأسه».

«من الطبيعي أن تُفكِّر أنه إذا مرَّ بعض الوقت، وصارت الساعة الثانية وعشر دقائق ولم يحدث شيء، ثم الثانية والربع، ثم الثانية والثلث، سيمل الرجال ويغادرون مستسلمين، أليس كذلك؟ لكن هذا لم يحدث على الإطلاق. ظلَّ الرجال متمسِّكين بمواقعهم، لأن...».

سألته: «لأنكم كنتم متأكِّدين من قدومهم، أليس كذلك؟ لم يكن يوجد أدنى شك على الإطلاق».

أشار إليَّ بإصبعه كمُعلِّم سرَّته إجابة تلميذه وقال: «هذا صحيح. كنا واثقين. لم يضطر أحد للغو في الأمر، لم يجد أحدٌ نفسه مُجبرًا لقول: 'حسنًا إذًا، لننتظر ثلث ساعة إضافية، وإذا لم يظهروا سأضطر العودة إلى عملي'. ظلَّت الأجواء هادئة، ثم في حدود الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة من بعد ظهيرة ذلك اليوم، هبطت تانك السيَّارتان أسفل تلَّة أب-مايل -إحداهما حمراء والأخرى زرقاء داكنة- واقتربتا من التقاطع. كانت إحداهما شيڤورليه والأخرى لاسال، وكان الأخوان كونكلين وباتريك كودي وماري هاوسر يركبون الشيڤورليه، بينما الأخوان برادلي ومالوي وكيتي دوناهو في السيَّارة اللاسال».

«في البداية، عبروا التقاطع في سلاسة، ثم ضرب آل برادلي مكابح اللاسال بغتةً لدرجة أن كودي كاد أن يصطدم به. كان الشارع هادئًا تمامًا وقد شعر برادلي بالكمين. لم يكن باردلي سوى حيوان مشحوذ الغريزة، لكن الأمر لا يتطلَّب الكثير لإثارة ذعر حيوانٍ عندما يجري تعقُّبه طوال أربع سنوات كتعقُّب ابن عرسٍ في حقول الذُرة».

«فتح برادلي باب السيَّارة ووقف على عتبتها برهة. نظر حوله، ثم أشار إلى كودي بيده أن 'عُد أدراجك'. قال كودي: «ماذا يا زعيم؟». كنت أسمع جيِّدًا

في ذلك اليوم، وكان ذلك الشيء الوحيد الذي سمعت أحدهم يقوله يومها. أتذكَّر أيضًا انعكاسًا وامضًا يأتي من مرآة نسائية صغيرة. كانت المرأة هاوسر تضع البودرة على أنفها».

«كان هذا حين خرج لال ماكن ومُساعده بيف مارلو مهرولين من المتجر، وصاح لال: 'استسلم يا برادلي، أنت مُحاصرا'، وقبل أن يُدير برادلي رأسه، بدأ لال في إطلاق النار. كان مسعورًا في البداية، ثم أصابت إحدى طلقاته كتف برادلي. بدأ الدم الأحمر الداكن في التدفُّق من الثقب مُباشرةً. أمسك برادلي بعضَّادة باب السيَّارة وألقى بنفسه إلى داخلها مُجدَّدًا وعشَّق مُحرِّك تروسها، وكانت تلك اللحظة التي بدأ الجميع فيها إطلاق النار».

«انتهى كل شيء في غضون أربع أو خمس دقائق، لكنه بدا كأنه استغرق وقتًا أطول من ذلك بكثير في أثناء حدوثه. ظل بيتي وآل وچيمي چوردن جالسين في مكانيهما فحسب على سلالم المحكمة، يهمرون الطلقات على مؤخِّرة السيَّارة الشيڤورليه. رأيت بوب تانر جاثيًا على رُكبة واحدة، يطلق النار ويجذب زناد بندقيته العتيقة كالمجنون، وكان چاجرمير وثيرمانيوس يطلقون الرصاص على جانب السيَّارة الأخرى الأيمن من أسفل سُرادق المسرح.. بينما وقف جريج كول في المصرف، مُمسكًا بذلك المدفع الرشاش الآلي عيار 0.45 بكلتا يديه، ضاغطًا زناده بأسرع ما يستطيع».

«لا بُدَّ أن خمسين أو ستين رجُلًا كانوا يطلقون الرصاص في الوقت نفسه. عندما انتهى كل شيء، استخرج لال ماكن ستًّا وثلاثين طلقة من الطوب على جانبي حوائط متجره، وقد كان ذلك بعد ثلاثة أيَّام من مجيء كل شخص لعين في المدينة راغبًا في تذكارٍ واستخراج رصاصة بنفسه لنفسه بمدية جيب. في أشد اللحظات سوءًا، بدا إطلاق النار كأنه معركة المارن الأولى[1]. انفجرت نوافذ كل الأبنية المُحيطة بمتجر ماكن بفعل نيران البنادق».

---

(1) معركة المارن الأولى: إحدى المعارك الهامَّة بين القوات الألمانية والقوات الفرنسية والبريطانية في الحرب العالمية الأولى وقعت في الفترة من 6 إلى 12 سبتمبر عام 1914 على نهر المارن، وانتهت بانتصار قوات الحلفاء.

«تمكَّن برادلي من الالتفاف بالسيَّارة نصف دائرة. لم يكن بطيئًا في ردَّة فعله، لكنه كان يسير في ذلك الوقت على أربعة إطارات فارغة، وقد انفجر المصباحان الأماميان، كما تحطَّم الزجاج الأمامي بأكمله. كان مالوي الأعمش وچورچ برادلي جالسين في المقعد الخلفي يطلقان النيران من مُسدَّسيهما. رأيت رصاصة تخترق عُنُق مالوي وتُمزِّقه. أطلق الرَّجُل رصاصتين أخرتين، ثم انهارت جُثَّته على النافذة وقد تدلَّت ذراعاه».

«حاول كودي الالتفاف بالشيڤورليه ليصطدم بمؤخِّرة سيَّارة برادلي اللاسال. كانت هذه نهايتهم الحقَّة يا بُني. لقد علق مصدُّ الشيڤورليه الأمامي بمصدِّ اللاسال الخلفي، وهكذا انعدمت فُرصة أيٍّ السيَّارتين في الفرار».

«خرج چو كونكلين من المقعد الخلفي ووقف في العراء في منتصف التقاطع، يُمسك مُسدَّسًا في كل يد، وبدأ يصب نيرانه صبًّا. كان يطلق النار على چاك بينيت وآندي كريس، وقد سقط كلاهما من فوق الدكَّة التي كانا يجلسان عليها واستقرَّا على العشب، وراح آندي كريس يصيح: 'لقد قُتلت! لقد قُتلت!'، مرارًا وتكرارًا. رغم أن أدنى ضرر لم يصبه. في الحقيقة كلاهما خرج سليمًا».

«نفدت ذخيرة مُسدَّسي چو كونكلين قبل أن يصبه أيُّ مكروه. كان معطفه يطير من خلفه وسراويله ترفرف كأن امرأة خفيَّة تتشبَّث بها. كان يرتدي قُبَّعة من القش، وقد طارت من على رأسه كاشفة عن شعره المفلوق من النصف، وضع كونكلين أحد المُسدَّسين أسفل ذراعه وكان يحاول إعادة تعبئة الآخر عندما أصاب أحدهم ساقيه بنيرانه، ما جعله يتهاوى أرضًا. ادَّعى كيني بورتون لاحقًا أنه من اقتنصه، لكن لم تكن ثمَّة وسيلة للتأكُّد من ذلك.. فأيٍّ شخصٍ قد يكون الفاعل».

«ما إن سقط چو، خرج كال شقيق كونكلين في أثره، ثم تهاوى ساقطًا كجدار من الطوب بثُقبٍ قبيح في منتصف جبهته».

«خرجت ماري هاوسر بدورها. لا أعرف، رُبَّما كانت تحاول الاستسلام. كانت لا تزال مُمسكة بالمرآة الصغيرة في يدها اليمنى، المرآة التي استخدمتها في وضع البودرة على أنفها. أعتقد أنها كانت تصرخ، لكن في ذلك التوقيت

كان من الصعب سماع أيِّ شيءٍ. كانت الطلقاتُ تطير في كل مكانٍ من حولهم، وتلك المرآة الصغيرة انفجرت في يدها. استدارات عائدة إلى السيَّارة وتلقَّت رصاصة في مؤخِّرتها، لكنها نجت بطريقةٍ ما واستطاعت الزحف داخل السيَّارة».

«زاد آل برادلي من سُرعة اللاسال إلى أقصى قدرتها، ونجح في تحريكها من جديد. جرَّ الشيڤورليه خلفه مسافة عشرة أقدام تقريبًا قبل أن يُنتزع المصدَّ منها».

«أمطرها الأولاد بوابلٍ من الرصاص. كل نوافذها تحطَّمت. كانت تجر أحد واقيات الطين خلفها، ومالوي يتدلَّى ميّتًا من نافذتها، لكن كلًا من الشقيقين برادلي كان لا يزال حيًّا. كان چورچ يطلق الرصاص من النافذة الخلفية، فيما تستلقي امرأته مقتولة جواره وإحدى عينيها مفقودة».

«بلغ آل برادلي التقاطع الكبير، ثم اعتلت سيَّارته الرصيف وتوقَّفت هناك. لذا ترجَّل من خلف مقودها وبدأ يركض صوب شارع القناة. كان مُثقَّبًا كغربال».

«خرج باتريك كودي من الشيڤورليه، وبدا لدقيقة أنه سيستبسلم، ثم أخرج مُسدَّسًا صغيرًا عيار 0.38 من أسفل إبطه، وضرب به ثلاث مرَّات كالمجنون بلا هدف مُحدَّد، ثم انفجر قميصه من الصدر واحترقت أطرافه. انزلق على جانب السيَّارة واتَّخذ جسده الوضع جالسًا على عتبتها. أطلق النار مرَّة أخرى، وحسب علمي، كانت تلك الطلقة الوحيدة من الجهة الأخرى التي أصابت أحدهم؛ لقد ارتدَّت عن أحد الأسطح وأصابت ظهر يد جريج كول، وخلَّفت نُدبة اعتاد جريج أن يُريها للناس وهو مخمور، حتَّى أتاه أحدهم -آل نيل رُبَّما- وانتحى به جانبًا وأخبره أنها ستكون فكرة جيِّدة لو التزم الصمت وخرس قليلًا عن الحديث عمَّا حدث لعصابة برادلي».

«خرجت المرأة هاوسر من السيَّارة، وهذه المرَّة لم يكن يوجد أدنى شك في أنها تحاول الاستسلام. كانت ترفع يديها عاليًا. رُبَّما لم يقصد أحد قتلها عن سبق إصرار، لكن في ذلك الوقت كان وابل النيران ينهمر من جهات مُختلفة، وقد سارت إليه المرأة مُباشرةً».

«استطاع چورچ برادلي بلوغ تلك الدكَّة القريبة من نصب الحرب التذكاري، ثم فجَّر أحدهم مؤخِّرة رأسه بطلقة بندقية، فسقط صريعًا وقد بال على نفسه مُغرقًا سراويله».

مددتُ يدي وأخذت سوطًا آخر من لادن العرقسوس دون وعيٍ حقيقي بما أفعل.

قال السيِّد كين: «واصل الجمع إطلاق نيرانهم بكثافة على السيَّارتين لدقيقة أخرى أو نحو ذلك قبل أن تضمحل النيران. عندما تغلي دماء الرجال، فليس من السهل تبريدها سريعًا. كان هذا الوقت الذي نظرت حولي فيه ورأيت رئيس الشُرطة سوليڤان واقفًا خلف نيل والآخرين على سلالم مبنى المحكمة، يمطر تلك السيَّارة الشيڤورليه الهامدة بطلقاتٍ من بندقيته الرمينجتون. لا تدع أيَّ شخصٍ يخبرك أنه لم يكن حاضرًا، فها هو نوربرت كين يجلس أمامك ويخبرك بأنه كان هناك».

«عندما توقَّف إطلاق النار، لم تعد السيَّارتان تشبهان السيَّارات في شيءٍ، بل صارتا كتلتين من الخُردة تتناثر شظايا الزجاج حولهما. بدأ الرجال في الاتِّجاه نحوهما. لم يتحدَّث أحد. كل ما كنت تستطيع سماعه هو صوت الريح وصرير الأقدام فوق الزجاج المكسور. في تلك اللحظة بدأ التقاط الصور، ويجب عليك أن تعلم يا بُني أنه عندما يبدأ التقاط الصور، فهذا يعني نهاية القِصَّة».

أخذ السيِّد كين يتهادى في كُرسيه، ونعلاه يهتزان بهدوء على الأرضية، وهو ينظر نحوي.

قلت له: «لم يُذكر أيٌّ من ذلك في جريدة أخبار ديري». كان هذا كل استطعت التفكير فيه. كان العنوان الرئيس في عدد ذلك اليوم يقول: المباحث الفيدرالية تُسقِط عصابة برادلي في معركة ضارية، مع عنوانٍ فرعي: بدعمٍ من الشُرطة المحلِّية.

قال السيِّد كين وهو يضحك مُستمتعًا: «بالطبع لا. لقد رأيت الناشر ماك لولين يطلق رصاصتين على چو كونكلين بنفسه».

غمغمت قائلًا: «يا للمسيح!».

- «أنلت كفايتك من العرقسوس يا ولدي؟».
قلت له وأنا ألعق شفتيّ: «نلت كفايتي. سيِّد كين، كيف يُمكن التستُّر على واقعة بهذه... بهذه الجسامة؟».
قال السيِّد كين باندهاشٍ حقيقي: «لم يُجرى أيُّ تستُّر. كل ما في الأمر أن لا أحد تحدَّث كثيرًا عمَّا حدث.. وفي الواقع، من يهتم؟ لم يكن من أُردي قتيلًا في ذلك اليوم رئيس الجمهورية وحرمه السيِّدة هوڤر. لم يتعدَّ الأمر قتل مجموعة من الكلاب المسعورة التي قد تقتلك بعضَّة واحدة إذا أُتيحت لها نصف فرصة».
- «لكن النساء؟».
قال بلا مُبالاة: «عاهرتان لا أكثر. بالإضافة إلى ذلك، لقد وقعت الحادثة في ديري، لا نيويورك أو شيكاجو. المكان لاعبٌ رئيس بقدر الفعل نفسه يا ولدي. لهذا السبب تُكتب عناوين أكبر في الجرائد عندما يقضي زلزالٌ على اثني عشر شخصًا في لوس أنچلوس، عمَّا يحدث عندما يقضي زلالٌ آخر على ثلاثة آلاف شخصٍ في بلدٍ ما همجي في الشرق الأوسط».
بالإضافة إلى ذلك، لقد وقعت الحادثة في ديري.
لقد سمعت مثل هذا القول من قبل.. وأفترض أنني إذا واصلت مسعاي هذا فلسوف أسمعه مرارًا وتكرارًا. إنهم يكرِّرونه ببطءٍ وصبر كأنهم يحادثون مُتخلِّفًا عقليًّا. إنهم يقولونه كأنهم يقولون: بسبب الجاذبية الأرضية، إذا حدث أن سألتهم عن لماذا نلتصق بالأرض في أثناء مشينا ولا نطير. إنهم يقولونه كأنه قانونٌ طبيعي على كُلِ رجُلٍ طبيعي إدراكه والإلمام به، ومن دون ريب، أسوأ ما في الأمر أنني أفهم السَّبب.
كان لديّ سؤالٌ إضافيٌّ لنروبرت كين.
- «هل رأيت أيَّ شخصٍ لا تعرفه في ذلك اليوم ما إن بدأ تبادل إطلاق النار؟».
أتت إجابة السيِّد كين سريعة بما يكفي لتهبط معها درجة حرارة دمائي نحو عشر درجات، أو على الأقل هذا ما شعرته: «تقصد المُهرِّج؟ كيف عرفت بأمره يا ولدي؟».

قلت له: «أوه، لقد سمعت به في مكانٍ ما».

قال السيِّد كين: «لمحته سريعًا فحسب. ما إن اشتعل الموقف، كنت أهتم بأمري وما أفعله، لكنني نظرت حولي مرَّة واحدة ورأيته عند بداية الشارع خلف أولئك السويديين، واقفًا تحت سُرادق المسرح. لم يكن يرتدي حُلَّة مُهرِّج أو شيءٍ من هذا القبيل. كان يرتدي عفريتة المُزارعين وقميصًا قطنيًّا أسفلها، لكن وجهه كان مُلطَّخًا بذلك الطلاء الأبيض الدهنيّ الذي يستخدمونه، ومطليًا بابتسامة مُهرِّجين حمراء واسعة. أيضًا كانت لديه تلك الخصلات المنتصبة من الشعر على الجانبين، تعرف ما أقصد. برتقالية اللون.. هزلية نوعًا ما».

«لم ير لال ماكن الرَّجُل قط، لكن بيف رآه. لكن يبدو أن بيف اختلط الأمر عليه، لأنه ظن أنه شاهده في نافذة شقة في بناية ما إلى اليسار، وعندما سألت چيمي چوردن ذات مرَّة -لقد قُتل في بيرل هاربور كما تعلم غرقًا مع البارجة كاليفورنيا على ما أظنُّ- قال لي إنه شاهد الرَّجُل خلف النصب التذكاري».

هزَّ السيِّد كين رأسه، وهو يبتسم ابتسامة خافتة.

«إنه لأمر غريب كيف يتصرَّف الناس في أثناء مواقفٍ كهذا، والأغرب ما يتذكَّرونه بعد انتهاء كل شيء. يمكنك الاستماع إلى ستَّ عشرة قِصَّة مختلفة ولن تجد اثنتين منهما تنسجمان. خذ عندك تلك البندقية التي كان ذلك الرَّجُل المُهرِّج يحملها على سبيل المثال...».

سألته: «بندقية؟ أكان يطلق النيران بدوره؟».

قال السيِّد كين: «أجل. في اللمحة الوحيدة التي رأيْتُها له بدا لي أنه يحمل بندقية ونشيستر، ولم أفهم إلا لاحقًا أنني رُبَّما رأيت ظننت ذلك لأن هذا السلاح نفسه الذي كنت أحمله. ظنَّ بيف مارلو أنه كان يحمل رمينجتون، لأن هذا كان سلاحه.. وعندما سألت چيمي عن الأمر، قال لي إن ذلك الرَّجُل كان يُطلق النيران من بُندقية طراز سبرينجفيلد، كبندقيته تمامًا. أمرٌ غريب، هه؟».

قلت له بصوتٍ أخرجته بالكاد: «غريب بالفعل. سيِّد كين، ألم يتعجَّب أحدكم ماذا كان مُهرِّج -خصوصًا واحد يرتدي زي المُزارعين- يفعل هناك بالضبط؟».

قال السيِّد كين: «بالتأكيد تعجَّبنا. لم يكن أمرًا هامًا، كما ترى، لكننا تعجَّبنا. معظمنا ركن إلى فكرة أنه شخصٌ ما أراد أن يشارك في الحفلة لكنه لم يكن يريد لأحدٍ أن يتعرَّفه. عضو في مجلس المدينة رُبَّما.. هورست مولر، أو حتَّى نوجلر، الذي كان العُمدة وقتذاك، أو رُبَّما كان شخصًا مُحترفًا لا يُريد أن يتعرَّفه أحد. طبيبٌ أو محامي. عن نفسي لم أكن لأستطيع تعرُّف أبي نفسه في هيئة كهذه».

ضحك السيِّد كين قليلًا وسألته ما المُضحك في الأمر.

قال لي: «يوجد أيضًا احتمال أن يكون مُهرِّجًا حقيقيًّا. في العشرينيات والثلاثينيات كان معرض المُقاطعة المُتنقِّل في إستي يأتي إلى هنا كثيرًا، وكان قد نُصِب وسيبدأ في العمل بكامل طاقته في الأسبوع الذي لاقت فيه عصابة برادلي حتفها. كان هناك مُهرجِّون في معرض المُقاطعة. رُبَّما سمع أحدهم أننا سنقيم مهرجاننا الخاص وأتى إلى هنا لأنه أراد المُشاركة فيه».

وابتسم لي ابتسامة جافة.

ثم قال: «لقد أُنهكت من كثرة الحديث. لكنني سأخبرك بشيءٍ إضافي أخير، بما أنك مهتم كثيرًا وتجيد الإنصات. إنه شيء قاله بيف مارلو منذ ستَّة عشر عامًا عندما كنا نحتسي البيرة في حانة بايلوت في بانجور. لقد قالها فجأة ودون أيِّ مُقدِّمات.. قال إن المُهرِّج كان ينحني من النافذة بوعورة شديدة لدرجة أنه لم يُصدِّق كيف لم يسقط. لم يكن يتدلَّى برأسه وكتفيه وذراعيه فحسب، بل كان جسده كله خارجًا من النافذة إلى رُكبتيه، وكان يطلق النار على السيَّارتين اللتين تحملان عصابة برادلي مُعلَّقًا في الهواء وابتسامة حمراء كبيرة على وجهه. لقد وصف بيف الأمر قائلًا إنه كان 'مُعلَّقًا كثمرة يقطين محفور عليها وجهًا مُريعًا في عيد الهالوين'».

قلت له: «كأنه كان طافيًا».

وافقني السيِّد كين قائلًا: «أجل، كما قال بيف شيئًا آخر.. شيئًا ظل يقض مضجعه لأسابيع طويلة بعدها.. من تلك الأشياء التي تكون على طرف لسانك لكنها تأبى مُغادرته، أو كقرادة تمص الدماء من على جلدك وأنت شاردٌ عنها. قال إنه في النهاية أدرك فحوى الأمر ذات ليلة عندما استيقظ ليفرغ

مثانته. كان يبول في المرحاض دون أن يُفكِّر في أمرٍ بعينه، وفي تلك اللحظة أدرك الحقيقة دفعة واحدة. كانت الساعة الثانية وخمسًا وعشرين دقيقة ظهر ذلك اليوم عندما بدأ تبادل إطلاق النار، وكانت السماء عالية في السماء، لكن المُهرِّج لم يكن يلقي أيَّ ظلٍّ.. لم يكن له ظلٌّ على الإطلاق».

الجزء الرَّابع

يوليو سنة *1958*

«نُعاسك يأسرني،
يُضرِم نيراني، وينتظر لفحها..
وأنا ماثل أمامك
مُزَلزلٌ بجمالك
مُزَلزلٌ بجمالك
مُزَلزلٌ».

– ويليام كارلوس ويليامز
قصيدة باترسون.

عندما وُلِدتُ عاريًا،
صفعني الطبيب على مؤخِّرتي وقال:
«ستكون مُميَّزًا،
يا عزيزي الصغير الجميل».

– سيدني سيمين
أغنية «ماي توت توت»[1]

(1) بتصرُّف من المؤلِّف.

الفصل الثالث عشر

مُناوشة الحجارة المروِّعة

1

كان بيل أوَّل الواصلين. جلس على أحد المقاعد الوثيرة داخل غرفة القراءة، يتابع مايك وهو يتعامل مع آخر حفنة من مرتادي المكتبة: سيِّدة عجوز تحمل مجموعة من روايات الجيب القوطية، ورجُل يحمل مُجلَّدًا تاريخيًّا ضخمًا عن الحرب الأهلية، وصبي هزيل ينتظر ليسجِّل استعارة رواية يحمل غلافها البلاستيكي مُلصق استعارة مُدَّة سبعة أيَّام. لاحظ بيل دون اندهاش كبير أو مُفاجأة سارة أنها روايته الأخيرة. لقد تجاوز مرحلة الشعور بالاندهاش، واتضح له أن فكرة المصادفة التي ظن سابقًا أنها حقيقة مؤكدة ليست سوى وهم بعد كل شيء.

ثمَّة فتاة جميلة تعقد تنورتها بدبّوسٍ ذهبي كبير (يا إلهي، لم أر واحدًا من هذه الدبابيس منذ سنوات، هل عادت تلك الصيحة؟ هكذا فكَّر بيل) تُلقِّم آلة النسخ الزيروكس الأوراق، وتنسخ مستخرجًا وهي ترمق الساعة البندولية الكبيرة المُعلَّقة على الحائط خلف مكتب الاستقبال. أصوات المكتبة الناعمة في كل مكان، وقد كانت مُهدِّئة ومُريحة للأعصاب كعادة أصوات المكتبات: صرير الكعوب والأحذية الخافت على مشمَّع الأرضية ذي الترابيع الحمراء والسوداء. تكتكة الساعة الثابتة وهي تحصي الثواني. همهمة آلة النسخ الشبيه بخرير الهررة.

ذهب الطفل بروابة ويليام دِنبروه إلى الفتاة عند آلة النسخ في الوقت الذي انتهت فيه وبدأت في ترتيب أوراقها.

قال مايك: «يمكنك ترك تلك النسخة على المكتب يا ماري، سأحملها لاحقًا».

ابتسمت ماري ابتسامة مُمتنَّة وقالت: «شكرًا يا سيِّد هانلون».

- «عمتِ مساءً. عمتَ مساءً يا بيلي. عودا إلى المنزل سريعًا، كلاكما».

- «البعبع سوف يقتصنك إذا لم تفعلي... احذري!». قالها الصبي الهزيل بيلي وهو يلف خصر الفتاة النحيل بذراعٍ تعلن عن ملكيته لها.

قال مايك: «في الواقع لا أظنُّ أنه سيرغب في قبيحين مثلكما... لكن احذرا على أيِّ حال».

أجابت ماري بجدِّية غير تامة: «سنفعل يا سيِّد هانلون»، ثم لكمت كتف الصبي بخفَّة وأردفت: «هيَّا بنا يا قبيح»، وضحكت.. وعندما ضحكت تحوَّلت من فتاة صغيرة عادية مُحببَّة إلى الطراز اللعوب غير البارع تمامًا الذي كانته بيفرلي مارش وهي في الحادية عشرة... وعندما عبرا من أمامه راع جمالها بيل... وشعر بالخوف. أراد الذهاب إلى الصبي وإخباره بجدِّية أنهما يجب أن يعودا إلى المنزل عبر شوارع مُضاءة جيِّدًا، وألا يلتفتا إذا تحدَّث أحدٌ إليهما.

لا تستطيع أن تكون حذرًا على لوح تزلُّج يا أستاذ، هكذا قال صوتٌ شبحي في عقله، فابتسم بيل ابتسامة بالغين حزينة.

راقب بيل الصبي وهو يفتح الباب لفتاته. سارا عبر الردهة، مُتقاربين، وقد راهن بيل على عائدات الكتاب الذي يحمله الصبي أسفل ذراعه أنه سرق قُبلة منها قبل أن يفتح الباب الخارجي. ستكون أحمق لو لم تفعل يا صديقي بيلي، هكذا فكَّر بيل. الآن تأكَّد من إيصالها إلى المنزل بأمان، لأجل خاطر المسيح أوصلها إلى المنزل بأمان!

صاح مايك: «سأكون معك سريعًا يا بيل الكبير، فقط سأحفظ ذلك في الأرشيف».

أومأ بيل ووضع ساقًا على ساق. أصدرت الحقيبة الورقية الموضوعة في

حجره خشخشة طفيفة. توجد زجاجة بربون سعة نصف ليتر داخل الحقيبة، وقد شعر بيل أنه لم تخالجه رغبة هائلة في الشراب في حياته من قبل كما تخالجه الآن. سيأتي مايك بالماء، إن لم يأتِ بالثلج... وفي الوقت الحالي، شعر بيل أن قليلًا جدًّا من الماء سيكون كافيًا.

فكَّر بيل في سيلفر، التي تستند على جدار مرآب مايك في شارع بالمر.. ومن تلك الفكرة، توالت أفكاره بشكل طبيعي ووصلت إلى اليوم الذي التقوا فيه جميعًا في البرِّية، جميعًا باستثناء مايك، وكيف حكى كلٌّ منهم حكايته مرَّة أخرى: المجذوم أسفل الشُرفة.. المومياء السائرة على الجليد.. الدماء الخارجة من البالوعة.. الصبية الموتى في برج الماء.. الصورة التي تحرَّكت.. المُستذئب الذي طارد صبييِّن صغيرين عبر الشارع المهجور.

لقد توغَّلوا عميقًا في البرِّية في اليوم الذي سبق الرابع من يوليو، إنه يتذكَّر ذلك الآن. كان الجو حارًّا في المدينة لكنه بارد أسفل ظلال الشجيرات المُتشابكة على الضِفَّة الشرقية لنُهير الكِندوسكيج. إنه يتذكَّر مرأى إحدى تلك الأُسطُوانات الخرسانية في مكانٍ ليس ببعيد، وهي تصدر هميمها المتواصل لنفسها، بذات الطريقة التي همهمت بها آلة النسخ لتلك الفتاة الجميلة منذ قليل. تذكَّر بيل ذلك، كما تذكَّر الطريقة التي نظر إليه بها الآخرون عندما انتهوا من سرد قصصهم.

كانوا يريدون منه أن يخبرهم بالخطوة التالية.. وكيف سيتصرَّفون.. لكنه لم يكن يعرف الإجابة، وقد ملأه عدم المعرفة بنوع من اليأس.

بالنظر الآن إلى ظلِّ مايك الذي يرتسم عملاقًا على الجدار المُعتم في غُرفة السجلَّات المُطعَّم بلوحات كثيرة، اعترى بيل يقينٌ مُفاجئ: إنه لم يعلم الإجابة في ذلك اليوم لأن نصابهم لم يكن قد اكتمل بعد في الثالث من يوليو. لقد أتى الاكتمال لاحقًا، عند حُفرة الحصى الكبيرة التي تقع خلف مكبِّ النفايات، والتي تستطيع تسلُّقها بسهولة لتخرُج من الجانب الآخر للبرِّية، وتبلغ شارع كانساس أو شارع ميريت، حيث يوجد الجسر الذي يأخذك إلى الطريق السريع.. الجسر الذي ليس بعيدًا عن مكانه الحالي في المكتبة في حقيقة الأمر. لم يكن لحُفرة الحصى اسم. كانت قديمة، وتنمو الأعشاب

والشُجيرات بحُرِّية على جوانبها المُتداعية، ورغم ذلك كان تحتوي على وفرة من الذخيرة كانت أكثر من كافية لمناوشة الحجارة المروِّعة.

لكن قبلها، في ذلك اليوم وهم جالسون على ضِفَّة الكِندوسكيج، لم يكن مُتأكِّدًا ممَّا سيقول. ما الذي يريدونه أن يقول؟ ما الذي يُريد هو قوله؟ تذكَّر بيل كيف راح ينقل بصره من وجهٍ إلى الآخر. بن.. بيڤ.. إدي.. ستان.. ريتشي.. وتذكَّر الموسيقى، أغنية ليتل ريتشارد: «وومب بوب، لومب بومب».

الموسيقى الخفيضة، وسهام أشعة الشمس في عينيه. إنه يتذكَّر سهام الشمس لأن...

2

... ريتشي علَّق الراديو الترانزستور على أدنى فرعٍ في الشجرة التي يستند إليها، ورغم أنهم كانوا في الظلِّ، انعكست أشعة الشمس من على صفحة الكِندوسكيج، ومنها إلى غطاء الراديو المعدني، ومنه إلى عيني بيل.

قال بيل: «أ-أ-أنزِل ذ-ذ-ذلك الشيء، سـ-سـ-سيصيبني بالعـ-عـ-عمى».

قال ريتشي على الفور «بالتأكيد يا بيل الكبير» دون سخرية من أيِّ نوع، وأنزل الراديو من على الفرع، كما أغلقه كذلك، وقد تمنَّى بيل لو لم يفعل. لقد جعل صوت الصمت -الذي لا يقطعه سوى خرير الماء والهمهمة الغامضة المُنبعثة من آلات ضخ مياه الصرف الصحي- عاليًا تمامًا. راقبته أعينهم من كثب، فأراد أن يقول لهم أن ينظروا بعيدًا. ماذا يظنونه، فلتة من فلتات الطبيعة؟

لكنه بالطبع لم يقل ذلك، لأن كل ما كانوا يفعلونه هو انتظاره كي يُخبرهم بما يجب فعله الآن. لقد أدركوا أن هناك أمرًا مُريعًا، وكانوا يريدون منه أن يخبرهم ماذا يفعلون حياله. لماذا أنا؟ هكذا أراد أن يصرخ فيهم، لكنه كان يعلم إجابة ذلك السؤال أيضًا. لأنه -شاء أم أبى- أُختير لذلك المنصب. لأنه كان رجُل الأفكار النيِّرة، أو لأنه فَقَد شقيقه.. لكن الأهم من كل ذلك لأنه صار -بطريقة ما غامضة لم ولن يفهمها أبدًا- بيل الكبير.

ألقى نظرة سريعة على بيفرلي ثم أشاح ببصره سريعًا بعيدًا عن تلك الثقة المُطمئنَّة التي تلوح في عينيها. كان النظر إلى بيفرلي يصيبه بشعورٍ غريب في أعماق معدته. اختلالٌ مُضطرب.

في النهاية قال بصوتٍ بدا جافًا وعاليًا جدًّا في أذنيه: «لا نـ-نـ-نـستطيع إبلاغ الشُـ-شُـ-شُرطة، ولا نـ-نـ-نـستطيع اللجوء إلى آ-آ-آبائنا أيضًا. إلا...»، ثم نظر آملًا إلى ريتشي وقال: «ماذا عـ-عن أُ-أ-أمك وأبيك يا ذا العيون الأربع، إنهما يبدوان طـ-طـ-طبيعيَّان إلى حـ-حدٍّ كـ-كبير».

قال ريتشي بصوت كبير الخدم تودلز: «أوه يا رجُلي الطيِّب. من الواضح أنك لا تفهم والدي ووالدتي على الإطلاق. إنهما...».

قال إدي من مكانه جوار بن: «كلِّمنا بالعامية يا ريتشي». كان يجلس إلى جوار بن لسببٍ بسيط أن بن كان يوفِّر ظلًّا كافيًا ليجلس إدي أسفله. بدا وجهه صغيرًا وعابسًا وقلقًا، أشبه بوجهِ رجُلٍ مُسِنٍّ، وقد كان بخَّاخه في يده اليمنى.

قال ريتشي: «سيظنوني فقدت عقلي وصرت جاهزًا للذهاب إلى مصحَّة جونيبر هيل». كان يرتدي نظَّارة قديمة اليوم، ففي اليوم السابق، اقترب جارد يجماستر أحد أصدقاء هنري باورز من خلف ريتشي، في أثناء ما كان ريتشي يُغادر متجر أيس كريم ديري بمخروط أيس كريم بنكهة الفستق. «لقد لمستك، أنت الخاسر»، هكذا صاح هذا اليجماستر الذي يفوق ريتشي وزنًا بأربعين رطلًا أو نحو ذلك، وصفع ريتشي على ظهره بكلتا يديه. اختلَّ توازن ريتشي وطار إلى مصرف الأمطار وأسقط نظَّارته ومخروط الأيس كريم. تحطَّمت عدسة نظَّارته اليُسرى، ما جعل أمه تستشيط غضبًا ولا تُصدِّق تفسيره.

قالت له: «كل ما أعرفه أنك تعبث كثيرًا في الجوار. قل لي بصدق يا ريتشي، هل تظن أن هناك شجرة تطرح نظَّارات في مكانٍ ما، وأننا نقطف منها نظَّارة جديدة لك كلما كسرت نظَّارتك القديمة؟».

- «لكن يا أمي، ذلك الفتى دفعني، لقد أتى من خلفي، وهو ضخم، ودفعني...»، أوشك ريتشي على البُكاء وقتها. كان إخفاقه في جعل أمه تُصدِّقه يؤلمه أكثر من تلك الصفعة التي أطاحت به إلى المصرف، وقد كان

ذلك الفتى جارد يجماستر أكثر غباءً من أن تُكلِّف إدارة المدرسة نفسها عناء إحالته إلى الدراسة الصيفية عقابًا له.

قالت ماجي توزييه بشكلٍ قاطع: «لا أريد سماع كلمة واحدة إضافية، لكن في المرَّة القادمة التي ترى فيها أباك يعود فيها إلى المنزل مُنهكًا بعد عمله لوقتٍ مُتأخِّر لثلاث ليالٍ متتالية، فكِّر في الأمر قليلًا يا ريتشي. فكِّر في الأمر».

- «لكن يا أمي...».

- «ولا كلمة، ماذا قلت؟». كان صوتها قاطعًا وحاسمًا، والأسوأ، أنها أوشكت على البكاء بدورها. غادرت الغُرفة وبعدها فتحت التلفاز بصوتٍ مُرتفع جدًّا، وتركت ريتشي بمُفرده جالسًا في تعاسة إلى منضدة المطبخ.

كانت هذه الذكرى التي جعلت ريتشي يهزُّ رأسه من جديد ويقول: «إن والداي طيِّبان، لكنهما لن يُصدِّقا شيئًا كهذا أبدًا».

- «مـ-ماذا عن الصـ-صـ-صبية الآ-آ-آخرين؟».

نظروا جميعًا حولهم -هكذا سيتذكَّر بيل بعد سنوات طويلة- كأنما يبحثون عن شخصٍ غائب.

قال ستان في ارتياب: «من؟ لا أستطيع التفكير في أيِّ شخصٍ آخر أثق به».

- «وأنا كـ-كـ-كـذلك...».

قالها بيل بصوتٍ مُضطرب، وعم صمتٌ قصير جمعهم، فيما راح بيل يُفكِّر ما سيقول تاليًا.

3

إذا حدث وسألته، سيُخبرك بن هانسكوم أن هنري باورز يمقته أكثر من أيِّ فردٍ آخر في نادي الخاسرين، بسبب ما حدث في ذلك اليوم الذي انزلقا على ذلك المُنحدر في شارع كانساس المؤدي للبرِّية، وبسبب ما حدث في اليوم الذي هرب فيه هو وريتشي وبيفرلي من سينما علاء الدين.. لكن الأهم من كل ذلك، لأنه لم يسمح له بنقل إجاباته في أثناء الامتحانات، ما تسبَّب

في إرسال هنري إلى المدرسة الصيفية والتعرُّض لغضبة والده بوتش باورز المجنون ذائع السُمعة.

وإذا حدث وسألته، سيُخبرك ريتشي أن هنري باورز يمقته أكثر من الآخرين بسبب ذلك اليوم الذي هرب فيه من هنري ورفيقيه في متجر فيرسي.

وكان ستانلي يوريس سيخبرك أن هنري يمقته أكثر من أيٍّ منهم لأنه يهودي (عندما كان ستان في الصف الثالث وهنري في الصف الخامس، دعك هنري وجه ستان بالثلج حتَّى أدماه، وظلَّ ستانلي يصرخ بهستيرية من الألم والذُعر).

وكان بيل دِنبروه يؤمن أن هنري يمقته الأكثر لأنه هزيل ومُتلعثم، ولأنه يحب ارتداء ملابس أنيقة («ا-ا-ا-انظروا إلى اللـ-لـ-لوطي اللعين!». هكذا صاح هنري ذات يوم عندما كانت مدرسة ديري تُقيم يومًا للوظائف، وقد حضر بيل مُرتديًا ربطةَ عنق. قبل انتهاء ذلك اليوم، انتُزِعت ربطة عنقه وأُلقي بها إلى شجرة عالية في منتصف شارع شارتر).

كان هنري يكرههم جميعًا بالفعل، لكن الصبي الذي اعتاد أن يحتل المرتبة الأولى في قائمة هنري الخاصة للكراهية لم يكن عضوًا في نادي الخاسرين على الإطلاق حتَّى ذلك الثالث من يوليو، بل كان فتًى أسود البشرة اسمه مايك هانلون، يقطن على بُعد رُبع ميل عبر الطريق من مزرعة باورز.

إن والد هنري هو أوسكار بوتش باورز، الذي كان مخبولًا تمامًا كما يُشاع عنه. كان بوتش باورز يربط تدهوره المالي والجسدي والعقلي بعائلة هانلون في العموم، وبوالد مايك تحديدًا. كان بوتش مُغرمًا بإخبار أصدقائه القليلين وابنه الوحيد أن ويل هانلون زجَّ به في سجن المُقاطعة عندما مات كل دجاجه.. دجاج هانلون. كان بوتش يقول وهو يرمق جمهوره بنظرة مسعورة لسان حالها يقول قاطعوني-إن-جرؤتم: «لقد فعلها كي يحصل على مبلغ التأمين كما تعلمون. لقد أوعز بعضًا من أصدقائه ليشهدوا زورًا، ولهذا السَّبب اضطُررت لبيع سيَّارتي الميركري».

- «من شهد زورًا له يا أبي؟». هكذا سأله هنري وهو في الثامنة من العمر، ودماؤه تغلي من الظلم الذي أحاق بوالده، وفكَّر بينه وبين نفسه أنه عندما

يكبر سيعثر على أولئك الكاذبين وسيغطيهم بالعسل ويربطهم قرب بيوت النمل، كما شاهد في بعض أفلام الغرب التي تعرضها سينما بيچو في أيَّام السبت.

ولأن ابنه كان مُستمعًا لا يكل (على الرغم من أنه إذا سئل، كان بوتش سيؤكِّد أنه لم يُغال في شيءٍ)، ملأ باورز الأب أُذُني ابنه بالكراهية والأسى لحاله. لقد شرح لإبنه أنه في حين أن كل الزنوج أغبياء، بعضهم ماكرٌ كذلك، وأنهم جميعًا يكرهون الرَّجُل الأبيض في أعماقهم، ويرغبون في اغتصاب النساء البيض. قال بوتش لهنري إن الأمر رُبَّما لم يكن يدور حول مبلغ التأمين فحسب، رُبَّما قرَّر هانلون اتِّهامه بقتل الدجاج الميِّت في حظيرته لأن بوتش كان يمتلك المنفذ التالي على الطريق لبيع مُنتجات المزرعة. على أيٍّ حال، هو من فعلها لا أحد آخر، وهذا مؤكَّد تمامًا كما يلتصق الغائط بالدثار. لقد فعلها ثم جلب مجموعة من الزنوج البيض من المدينة ليشهدوا زورًا ويُهدِّدون بوتش بإيداعه في السجن إذا لم يدفع تعويضًا لذلك الزنجي. «ولِمَ لا؟»، هكذا كان بوتش يسأل ابنه الصامت مُتَّسع العينين مُتَّسخ العُنُق. «لِمَ لا؟ وأنا مُجرَّد رجُل حارب اليابانيين من أجل بلاده. يوجد رجال كثير على شاكلتي هنا، لكن لم يكن يوجد سوى زنجي واحد في المقاطعة بأكملها».

أعقب واقعة الدجاج تلك حادثٌ سيِّئ تلو الآخر: لقد تلف مُحرِّك جرَّاره الزراعي، وكُسِرت مسلفته[1] الزراعية في الحقل الشمالي، وظهر له خُرَّاج في عُنُقه وتلوَّث واضطُر إلى شَرطِه، ثم تلوَّث ثانيةً واضطُر إلى إزالته جراحيًّا، وبدأ الزنجي يستخدم أمواله التي حازها بقذارة في خفض أسعار مُنتجاته إلى أن فقدوا زبائنهم.

في أُذُنيّ هنري، بدا الأمر أشبه بذكرٍ يومي لا تنقطع تلاوته: الزنجي، الزنجي، الزنجي.. كل شيء غلطة الزنجي. الزنجي يعيش في منزل جميل من

---

(1) المسلفة: أداة زراعية تتألَّف من العديد من الأسنان الشوكية أو الأقراص وتُسحب عبر التربة. يوجد أربعة أنواع عامة من المسلفات. في الأصل كانت المسلفة تُسحب عن طريق حيوانات الجر أو العُمَّال. في الممارسة الحديثة، تُعلَّق المسلفة بالجرار الزراعي.

طابقين وبه فرن يعمل بالزيت بينما هنري وزوجته وابنه يعيشون في منزل ليس أفضل حالًا من كوخ تخزين الورق المُقيَّر. الزنجي هو سبب عدم استطاعة هنري كسب قوت يكفيه من الزراعة، واضطراره العمل في تقطيع الأخشاب لفترة.. وعندما جفَّت البئر في عام 1956، فإن الزنجي كان السَّبب أيضًا.

لاحقًا في العام نفسه، بدأ هنري في إطعام شيبس -كلب مايك- حساء العظام وأكياس شرائح البطاطس، وقد جعل هذا شيبس يُسرع مُبصبصًا بذيله إلى هنري كُلَّما ناداه.. وعندما اعتاد الكلب هنري واعتاد هداياه، أطعم هنري الكلب ذات يوم رطلًا من الهامبرجر مرشوشًا بسم حشرات عثر عليه في السقيفة الخلفية، وقد ادَّخر طوال ثلاثة أسابيع من مصروفه اليومي لشراء اللحم من جزارة كوستيلو.

التهم شيبس نصف اللحم المسموم ثم توقَّف عن الأكل. حث هنري شيبس قائلًا: «استمر، انتهي من طعامك، يا كلب الزنجي». فهزَّ شيبس ذيله.. ولأن هنري كان يناديه بتلك الكُنية من البداية، فقد ظن الكلب أنها اسمه. عندما بدأ الألم، أخرج هنري قطعة من القماش وربط شيبس في وتدٍ خشبي كي لا يفر عائدًا إلى المنزل. ثم جلس إلى صخرة دفَّأتها الشمس مُريحًا ذقنه على راحتي يديه، وراقب الكلب وهو يحتضر. استغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكن هنري عدَّهُ وقتًا أُحسِن إنفاقهُ. في النهاية بدأ شيبس يتشنَّج، وسال خيطٌ رفيع من رغوة خضراء من بين فكَّيه.

سأله هنري: «هل أعجبك هذا يا كلب الزنجي؟»، فرفع الكلب عينيه المُحتضرتين صوب هنري وحاول هزَّ ذيله في وهن. «هل استمتعت بغدائك أيُّها الهجين الحقير؟».

عندما مات الكلب، أزال هنري الرباط وعاد إلى المنزل، وأخبر والده بما فعل. كان أوسكار باورز قد جُنَّ تمامًا بحلول ذلك الوقت. بعدها بعام سوف تهجره زوجته بعد أن سيبرحها ضربًا حتَّى توشك على الموت. كان هنري يخاف أباه بالمثل، ويشعر بمقتٍ رهيب نحوه أحيانًا، لكنه كان يحبه أيضًا. لكن في عصر ذلك اليوم، بعدما أخبره بفعلته، شعر أنه عثر أخيرًا على مُفتاح حنان والده، لأن والده ربَّت على ظهره (بقوَّة شديدة كاد هنري أن ينكفىء

بسببها) وأخذه إلى غرفة المعيشة، وأعطاه زجاجة بيرة. كانت تلك أوَّل زجاجة بيرة يشربها هنري في حياته، ولسنوات عمره القادمة لن ينفك عن ربط مذاق البيرة بالمشاعر الإيجابية: الانتصار والحب.

قال والد هنري المجنون له: «نخب عَمَلٍ جيِّد أُتقِن تنفيذه»، ثم قرقعا زجاجتيهما البُنِّيتين معًا وجرعاها جرعًا. حسب علم هنري، لم تكتشف العائلة الزنجية من الذي قتل كلبهما قط، لكنه افترض أنهم حملوا شكوكًا تجاههما، بل تمنَّى أن يكونوا قد فعلوا ذلك.

كان أفراد نادي الخاسرين الآخرين يعرفون مايك شكلًا فقط -ففي مدينة هو الطفل الزنجي الوحيد فيها، من الغريب ألَّا يلحظوه- هذا كل شيء، لأن مايك لم يكن يرتاد مدرسة ديري الابتدائية. لقد كانت أمه معمدانية مُتديِّنة وبالتالي أُرسل مايك إلى مدرسة كنيسة شارع نيبولت.. ومع دروس الجغرافيا، والقراءة، والحساب، تلقَّى مايك تعاليم الإنجيل، ودروسًا عن مواضيع مثل: معنى الوصايا العشر في عالم علماني نحياه الآن، وحلقات نقاش عن كيفية التعامل مع المعضلات الأخلاقية في الحياة اليومية (كإن رأيت شخصًا يسرق من أحد المتاجر على سبيل المثال، أو سمعت مُدرِّسًا يتَّخذ اسم الله عبثًا).

كان شعور مايك تجاه المدرسة الكنسية طيِّبًا. لكن مرَّت عليه أوقات اشتبه فيها -بطريقة غامضة- أنه يفوِّت بعض الأشياء الهامة. أشياء كعقد صداقات على نطاق أوسع مع أطفال في سنِّه رُبَّما.. لكنه كان مُستعدًّا للانتظار إلى المرحلة الثانوية كي تبدأ هذه الأمور في الحدوث له. كانت احتمالات أن يُنبذ مُستقبلًا تؤرِّقه أحيانًا، بسبب بشرته البُنِّية، لكن كلًا من أبيه وأمه كانا يُعاملان باحترام في المدينة كما اعتاد أن يرى، لذا اعتقد مايك أنه سُيعامل بشكلٍ جيِّد ما دام سيعامل الآخرين بالمثل.

لكن استثناء هذه القاعدة كان -بكلِ تأكيد- هنري باورز.

ورغم أنه كان يحاول إظهاره بأقل قدرٍ ممكن، عاش مايك في رُعبٍ متواصل بسبب هنري. في عام 1958، كان مايك نحيفًا وقوي البنية. كان أطول من ستان يوريس لكنه ليس في طول بيل دِنبروه تمامًا. كان سريعًا ورشيقًا، وقد أنقذته مهاراته تلك من الوقوع في قبضة هنري في مواقف مُتعدِّدة، بالإضافة

إلى ارتياده مدرسة مُختلفة بالتأكيد. بسبب ذلك، وبالإضافة إلى فارق السن، نادرًا ما تقاطعت سُبُلهما، وقد جاهد مايك كثيرًا للإبقاء على الأمور كما هي. لذا ظلَّت هذه المُفارقة موجودة: برغم أن هنري باورز كان يكره مايك هانلون أكثر من أيِّ طفلٍ آخر في ديري، فقد كان مايك أقلهم عرضة لأذاه.

أوه، لكن هذا لا يعني أنه لم ينل نصيبه. في ذلك الربيع الذي قتل فيه كلب مايك، اندفع هنري خارجًا من بين الشجيرات في أحد الأيَّام فيما كان مايك مُتَّجهًا إلى المدينة للذهاب إلى المكتبة. كان هذا في أواخر شهر مارس وقد صار الجو دافئًا ومناسبًا بما يكفي لجولة بالدرَّاجة، لكن في تلك الأيَّام كان شارع ويتشام يصير أرضًا تُرابية بعد منزل آل باورز مُباشرةً، ما يعني أنه يصير بِركًا من الطين، ولا يكون مُناسبًا لقيادة الدرَّاجات.

صاح هنري وهو يبزغ من بين الأشجار وعلى وجهه ابتسامة مقيتة: «مرحبًا أيُّها الزنجي».

تراجع مايك إلى الوراء، وراحت عيناه تتلفَّتان بحذر يمينًا ويسارًا باحثتان عن فُرصة للهرب. كان يعرف أنه إذا استطاع الالتفاف حول هنري، سيتمكَّن من اجتيازه مُسرعًا. كان هنري كبيرًا، وكان هنري قويًّا، لكنه كان بطيئًا أيضًا.

قال هنري مُتقدِّمًا نحو الصبي الأصغر: «سأصنع لنفسي عروسًا من القطران. لست أسود بما يكفي، لكنني سأعالج هذا».

ألقى مايك نظرة خاطفة إلى اليسار وحرَّك جسده بقوَّة في ذلك الاتِّجاه. التقم هنري الطُعم واندفع إلى تلك الجهة بسُرعة كبيرة وتهوُّرٍ شديد يمنعه من تعديل مساره بعدها. مُنعكسًا بسُرعة ورشاقة طبيعية، اندفع مايك إلى اليمين (في السنة الثانية من المدرسة الثانوية سينجح مايك في الالتحاق بفريق كُرة القدم الأمريكية كمُهاجم متأخِّر، وما سيمنعه من كسر الرقم القياسي لفريق للتهديف في تاريخ الفريق هو كسر ساقه في منتصف موسم عام تخرُّجه). كان سيستطيع الفرار بسهولة من هنري لولا الطين. كان زلقًا تمامًا، وجعل مايك ينزلق على رُكبتيه، وقبل أن يتمكَّن من النهوض، جاء هنري قبالته.

- «أيُّها الزنجي، أيُّها الزنجي، أيُّها الزنجي!». هكذا صاح هنري في نوعٍ من الانتشاء الديني وهو يُدير مايك نحوه. لطَّخ الطين ظهر قميص مايك

ومِقعدة سروايله، واستطاع الشعور به يملأ فردتي حذائه، لكنه لم يبدأ في البكاء إلا حين دهن هنري وجهه بالطين، مُدخِله في فتحتي منخاره.

صاح هنري بنشوةٍ طروب: «الآن صرت أسودا»، وهو يدعك الطين في شعر مايك.

- «الآن صرت أسود حقًّـــــــــــــــا!». ثم نزع معطف مايك والقميص من تحته وصفع لطخة من الطين على سُرَّة بطن الصبي. «الآن صرت أسود كمنتصف الليلِ في جوف كهفٍ!». هكذا صرخ هنري مُظفَّرًا، وصفع مزيدًا من الطين في أُذُني مايك. ثم تراجع خلفًا وعلَّق يديه الملوَّثتين بالطين في حزامه وصاح: «لقد قتلت كلبك أيُّها الصبي الأسودا». لكن مايك لم يسمعه بسبب الطين الذي يملأ أُذُنيه، وبسبب عبراته المذعورة.

ركل هنري كتلة أخيرة لزجة من الطين في وجه هنري ثم استدار عائدًا لمنزله دون أن ينظر وراءه. بعدها بلحظات، نهض مايك وعاد لمنزله بدوره، وهو ما زال ينتحب.

استشاطت أمه غضبًا بلا ريب؛ أرادت أن يتَّصل ويل هانلون برئيس الشُرطة بورتون ليجعله يعرج على منزل آل باورز قبل مغيب الشمس. سمعها مايك تصيح: «لقد تحرَّش بمايكي من قبل». كان مايك جالسًا في مغطس الاستحمام ووالداه في المطبخ. كانت هذه ثاني مرَّة يغتسل فيها، ففي المرَّة الأولى استحال لون الماء إلى الأسود في اللحظة التي خطا فيها إليه وجلس، وفي ثورة غضبها العارم، انتقلت أمه للحديث بعامية أهل تكساس التي يفهمها مايك بالكاد: «ارفع سيف القانون عليهما يا ويل هانلون! كلاهما.. الكلب وجروه! قاضيهما، هل تسمعني؟».

سمعها ويل، لكنه لم يفعل ما طلبت منه زوجته. في النهاية، عندما هدأت ثورتها (كان الوقت ليلًا، وقد نام مايك منذ ساعتين)، ذكَّرها زوجها بحقائق الحياة. ليس الرئيس بورتون كالرئيس سوليڤان. لو كان بورتون هو رئيس الشُرطة عند وقوع حادثة الدجاج المُسمَّم، لم يكن ويل ليحصل على مئتي دولار، وكان سيُجبر على أن يرضى بالوضع الراهن. بعض الرجال يعضِّدون

موقفك، وبعضهم لا يفعل، وقد كان بورتون من النوع الأخير. لقد كان، في الواقع، ضعيف الشخصية.

قال ويل لچيسيكا: «أجل، لقد صادف مايك مشاكل مع ذلك الفتى من قبل، لكنه لم يصادف كثيرًا منها لأنه حذرٌ بخصوص هنري باورز.. وهذه الواقعة ستجعله أكثر حذرًا».

- «تعني أنك ستدع الأمر يمرُّ فحسب؟».

قال ويل: «لقد أخبر باورز ولده بقصصٍ عن حكاياتِه معي على ما أعتقد، وقد كرهنا ابنه نحن الثلاثة بسببها، وأيضًا لأن والده أخبره أن كراهية الزنوج لهو أمرٌ واجبٌ على الرجال. كل الأمور منبعها لون بشرتنا. لن أستطيع تغيير حقيقة أن ابننا زنجيٌ، كما لن أستطيع إخبارك أن هنري باورز سيكون آخر من يعتدي عليه بسبب بشرته البُنِّية. لسوف يعاني الأمرَّين من لونه طوال حياته، كما عانيت من قبله، وكما عانيتِ أنتِ. حتَّى في تلك المدرسة المسيحية التي أصررتِ على أن يذهب إليها، أخبرته المُدرِّسة أن السود ليسوا سواسية كالبيض لأن حام بن نوح نظر إلى أبيه وهو مخمورٍ وعارٍ بينما أشاح ولداه الآخران بأعينهما بعيدًا، كما أخبرته أن لهذا السَّبب حُكِمَ على أبناء حام أن يكونوا دائمًا قاطعي أخشاب وسُقاة».

رمقت چيسكيا زوجها في صمتٍ وبؤس، ثم انسالت دمعتان من كل عينٍ على وجهها. «ألا توجد طريقة لتجنُّب هذا المصير؟».

كانت إجابته مواسية لكن عنيدة. كانا في ذلك العصر الذي تُصدِّق فيه الزوجات أزواجهن، ولم يكن لدى چيسيكا سببٌ للارتياب في زوجها.

- «لا، لا طريقة لتجنُّب سماع كلمة زنجي، ليس الآن، ليس في العالم الذي مُنحنا إيَّاه. الزنوج في ريف ولاية مين ما زالوا زنوجًا. أحيانًا أظنُّ أن السَّبب وراء عودتي إلى ديري أنه لا مكان أفضل من هنا لتذكُّر تلك الحقيقة، لكن سوف يكون لي حديثٌ مع الولد».

في اليوم التالي نادى الأب مايك من الحظيرة. جلس ويل على ذراع مسلفته، وربَّت على مكانٍ جواره لمايك.

قال له: «يجب أن تتحاشى ذلك الفتى هنري باورز».

أومأ مايك.

- «إن أباه لمجنون».

أومأ مايك ثانيةً. لقد سمع ذلك كثيرًا في البلدة، وقد عزَّزت نظراته الخاطفة على السيِّد باورز تلك الفكرة.

قال ويل وهو يُشعل سيجارة ملفوفة يدويًّا بتبغ بيوجلر ناظرًا إلى ابنه: «أنا لا أعني أنه مُجرَّد مجنون عادي.. إنه يبعد ثلاث خطوات فقط عن الخبال التام، والحاجة للزجِّ به في مصحة مجاذيب. لقد عاد من الحرب بهذا الحال».

قال مايك: «أظنُّ أن هنري مجنونٌ أيضًا». كان صوته خفيضًا لكنه راسخ، وقد شد هذا من عزم ويل... رغم أنه كان غير قادرٍ على تصديق أن فتى مثل هنري قد يكون مجنونًا... حتى بعد الحياة الحافلة المُتقلبة التي عاشها، والتي شملت الاقتراب من الاحتراق حيًّا في في ملهى غير شرعي أُنشئ كما اتُّفق اسمه بلاك سبوت.

قال ويل: «حسنًا، إنه يستمع إلى والده أكثر من اللازم، لكن هذا أمرٌ طبيعي». لكن بخصوص تفصيلة جنون هنري تلك، كان مايك أقرب إلى الحقيقة من أبيه. كان هنري باورز يجنح بالفعل -ببطء رُبَّما- بُخطى ثابتة نحو الجنون، إما بسبب مرافقته الدائمة لأبيه، أو بسببٍ آخر يتعلَّق به.

قال أبوه: «لا أريدك أن تعتاد الهروب طوال حياتك، لكنك ستكون عُرضة للاعتداء والمُضايقات بنسبة كبيرة لأنك زنجي. هل تفهم قصدي؟».

قال مايك «أجل يا أبي» وهو يُفكِّر في بوب جوتييه زميله في المدرسة، الذي حاول أن يشرح لمايك كيف أن كلمة زنجي لا يُمكن أن تكون لفظة نابية، لأن أباه يستخدمها طوال الوقت. في الحقيقة، قال بوب لمايك إنها كلمة جيِّدة، وكان يتحدَّث بجدِّية تامة. في برنامج ملاكمات ليلة الجمعة، عندما كان أحد المُلاكمين يتلقَّى ضربة قويَّة ويتمكَّن من البقاء واقفًا على قدميه، كان والده يقول إن «رأسه صلد كرأسِ زنجي»، وعندما كان أحد زملاءه في العمل في مطعم ستار بيف يجتهد في عمله، كان والده يقول «هذا الرَّجُل يعمل كالزنوج». تذكَّر مايك أن بوب أنهى كلامه وقتها قائلًا: «ووالدي رجُلٌ مسيحي مُتديِّن، تمامًا كوالدك». عندما نظر مايك إلى وجه بوب جوتييه

الأبيض المُتنمِّر، المُحاط بفرو غطاء رأس معطفه البالي العتيق المتوارث الواقي من الثلج، لم يشعر بالغضب، بل بحُزنٍ مُريع جعله يريد البُكاء. لقد رأى الصدق والنيَّة الحسنة في وجه بوب، لكنه شعر بالوحدة، والانعزال، وبفراغٍ واسع عظيم تعوي الرياح فيه يبعد بينه وبين ذلك الصبي الآخر.

قالَ ويل وهو يداعب شعر ابنه: «أرى أنك تفهم بالفعل ما أقصد. كل ما عليك فعله أن تكون حذرًا وتنتقي مكان وموعد صمودك.. كما يجب أن تسأل نفسك هل يستحق هنري باورز عناء المشكلات؟ أهو كذلك يا بُني؟».

قال مايك: «لا. لا أظنُّ ذلك يا أبي».

وسوف يمرُّ وقت طويل على مايك قبل أن يُغيِّر رأيه. في الحقيقة هو لن يفعل ذلك إلا في الثالث من يوليو عام 1958.

4

في الوقت الذي كان فيه هنري باورز وڤيكتور كريس وبيتر چوردون وفتى آخر من المدرسة الثانوية نصف مخبول اسمه ستيڤ سادلر (يشتهر باسم مووس، تيمُّنًا بتلك الشخصية من قصص آرتشي كومكس) يطاردون مايك الذي راح يعدو كالريح عبر ساحة القطارات مُتَّجهًا إلى البرِّية التي تبعد نصف ميل، كان بيل وباقي أفراد نادي الخاسرين ما زالوا يجلسون على ضِفَّة نهير الكِندوسكيج، يتدارسون أمر كابوسهم.

قال بيل أخيرًا كاسرًا الصمت: «أ-أ-أنا أ-أ-أعرف أين هـ-ـه-هو على ما أظنُّ».

قال ستان: «شبكة الصرف الصحي»، ثم قفز جميعهم من الصوت الجاف الحاد الذي صدر بعد العبارة الأخيرة، فابتسم إدي شاعرًا بالذنب وهو يخفض بخَّاخه إلى حجره من جديد.

أومأ بيل: «كـ-كـ-كنت أسأل و-و-والدي عن ا-ا-المجارير منذ بـ-بـ-بضع ليالٍ مـ-مضت».

«هذه المنطقة بأكملها كانت في الأصل مُستنقعًا سبخًا» هكذا أخبر زاك ابنه بيل، «وقد حدث أن أنشأ آباء البلدة المؤسِّسين وسط المدينة وقتها في

أسوأ بقاعها. إن ذلك القطاع من القناة الذي يجري أسفل الشارعين الأوسط والرئيس ويخرج من حديقة باسي لا يعدو في الحقيقة كونه مصرفًا لاستيعاب فيضان الكِندوسكيج. في معظم أوقات العام، تظل هذه المصارف خاوية تقريبًا، لكنها تكون مهمَّة عندما يبدأ الذوبان الربيعي أو عندما تبدأ الفيضانات في...» ثم توقَّف هنا، رُبَّما مُفكِّرًا أنه فقد ابنه الأصغر إبَّان الفيضان في الخريق الماضي. «... بسبب المضخَّات»، هكذا أنهى كلامه.

سأله بيل: «المـ-مـ-مضخَّات؟»، وهو يُدير رأسه قليلًا دون أن يعي بذلك. عندما يتلعثم بيل في الحروف الشفهية، يتطاير الرضاب من بين شفتيه.

قال والده: «مضخَّات المصارف. إنها موجودة في البرِّية. أنابيب خرسانية سميكة تبرز بارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض...».

قاطعه بيل مُبتسمًا: «بـ-بـ-بن ه-ه-هانسكوم يدعوها فتحات المورلوك».

بادله زاك الابتسامة... لكنها لم تكن سوى شبح ابتسامته القديمة. كان الاثنان في ورشة زاك، حيث كان الأب يُصلِّح بعض الكراسي الخشبية بلا اهتمام حقيقي. قال له: «إنها ليست سوى حُفر مجارير يا فتى. إنها تمتد في أُسطُوانات بعمق عشرة أقدام، وهي تضخ مياه الصرف الصحي وفيضان الماء عندما تنحدر الأرض أو ترتفع قليلًا. إنها آلات عتيقة، يجب على المدينة أن تستجلب بعض المضخَّات الحديثة، لكن المجلس دائمًا ما يدَّعي الفقر عندما تأتي مُناقشة هذا البند في جدول الأعمال في اجتماعات الميزانية. كم من مرَّاتٍ هبطت فيها هناك، غارقًا إلى رُكبتي في القذارة، لإصلاح أحد تلك المُحرِّكات... لكنك لست في حاجة إلى سماع كل هذه الأمور يا بيل. فلتذهب وتشاهد التلفاز، أظنُّ أن مسلسل شوجارفوت يُعرض الليلة».

قال بيل: «بل أ-أ-أرغب في السـ-سـ-سماع»، ولم يكن ذلك فقط لأنه توصل إلى استنتاج مُفاده أن ثمَّة شيءٍ رهيب يعيش في مكانٍ ما أسفل بلدة ديري.

سأله زاك: «لماذا تريد الحديث عن مجموعة من مضخَّات المصارف؟».

قال بيل سريعًا: «مـ-مـ-مشروع مـ-مدرسي».

- «الدراسة انتهت».

- «لـ-لـ-للعام القادم».

قال زاك: «حسنًا، إنه موضوع مُمل تمامًا. سيعطيك مُعلِّمك درجة سيِّئة لأنك ستضجره حتَّى النوم. انظر، هنا الكِندوسكيج...»، قالها ورسم خطًّا مُستقيمًا على غبار الخشب الرقيق الذي يغُطي الطاولة المُدمجُ فيها مُنشارٌ شريطي «... وهنا البرِّية. الآن، لأن وسط المدينة أكثر انخفاضًا من المناطق السكنية كشارع كانساس مثلًا، أو اللسان القديم أو غرب برودواي، فيجب ضخ معظم نفايات وسط المدينة إلى النهر، لأن نفايات المنازل تتدفق إلى البرِّية من تلقاء نفسها تقريبًا، هل ترى؟».

قال بيل: «أ-أ-أجل»، مُقتربًا أكثر من والده لينظر إلى الخطوط، مُقتربًا بما يكفي ليُلامس كتفه.

- «في يوم من الأيام سيتوقَّفون عن ضخ مياه الصرف الصحي في النهر، وستكون هذه نهاية شبكة الصرف الصحي بأكملها. لكن في الوقت الراهن، لدينا تلك المضخات داخل الـ... بِمَ يدعوها صديقك؟».

- «فتحات المورلوك». قالها بيل دون أدنى أثرٍ للعثمة، لكن لا هو ولا والده لاحظا الأمر.

- «أجل. هذه وظيفة المضخَّات الموجودة في فتحات المورلوك، على أيٍّ حال، إنها تؤدِّي وظيفتها جيِّدًا، باستثناء فترات هطول أمطار مدرارة أو فيضان النهر. لأنه على الرغم من أن مصارف الجاذبية والمجارير بمضخَّتها لم يكن من المُفترض أن يكونا نظامين منفصلين، فهما يتقاطعان في نقاطٍ كثيرة. هل ترى؟». رسم زاك مجموعة من علامات X على الخط الذي يُمثِّل نهير الكِندوسكيج، فأومأ بيل مُتفهِّمًا. «حسنًا، أهم شيء يجب أن تعلمه عن تصريف المياه أنه سيجري أينما استطاع. عندما يرتفع، يبدأ في ملء المصارف وكذلك المجاري، ووعندما يرتفع منسوب المياه في المصارف بما يكفي للوصول إلى تلك المضخات، فإنه يُعطِّلها، ويُسبِّب مشكلة لي، لأنه يتحتَّم عليّ إصلاحها».

- «بابا، ما حجم أنابيب شبكة المجاري والمصارف؟».

- «تعني، ما حجم تجويفها من الداخل؟».

أومأ بيل.

- «يبلغ قطر المجاري الرئيسة ستَّة أقدام تقريبًا، والثانوية الموجودة في المناطق السكنية ثلاث أو أربع أقدام على ما أظنُّ. بعضها قد يكون أكبر قليلًا.. وصدِّقني فيما سأقوله يا بيل، كما تستطيع أن تُخبر أصدقائك به: يجب ألَّا تحاول الدخول في إحدى تلك المواسير.. لا في لعبة، ولا في تحدٍّ، ولا لأي سبب».

- «لماذا؟».

- «لأن دزينة من الحكومات المُتتالية المُختلفة وسَّعت وأنشأت امتدادات لها منذ عام 1885 أو نحو ذلك. خلال الكساد الكبير، وضعت إدارة تسيير الأعمال نظام صرف ثانويًا كاملًا، وشبكة مجارٍ ثالثة. كان هناك مال كثير موجَّه للأشغال العامة في ذلك الوقت. لكن المسؤول عن إدارة المشروع قُتِل في الحرب العالمية الثانية، وبعدها بنحو خمس سنوات وجدت وزارة المياه أن مُخططَّات النظام فُقِدت في الغالب. أنا أتحدَّث عن زنة تسعة أرطال من المُخططَّات، جميعها اختفت في الفترة بين 1937 و1950. قصدي هو أن لا أحد يعرف أين تبدأ شبكة المجاري والمصارف وأين تنتهي ولماذا، فما دامت تعمل، لا أحد يهتم. لكن عندما يتعطَّل شيءٌ، يُكلَّف ثلاثة أو أربعة تعساء حظ من إدارة المياه بمحاولة معرفة أيَّ مضخَّة تعطَّلت أو أين موقع الانسداد، وعندما يهبط تعساء الحظ أولئك إلى هناك، فإن أوقاتًا عصيبة لعينة تنتظرهم. المكان مُظلم ويفوح برائحة كريهة خانقة وتمرح الفئران فيه بحُرِّية. هذه كلها أسباب جيِّدة كي يبقى المرء بعيدًا.. لكن السَّبب الأهم على الإطلاق أنك قد تضل طريقك في تلك المتاهة. لقد حدث ذلك من قبل».

الضياع أسفل ديري. الضياع في المجاري. الضياع في الظلام. ثمَّة شيءٌ كئيبٌ ومُرجفٌ في هذه الفكرة جعل بيل يلتزم الصمت لحظات، ثم قال بعدها: «لكن ألم يـ-يـ-يرسلوا أ-أ-أناسًا إلى هناك كـ-كي يرسموا خارطـ...».

قاطعه زاك بغتةً مُعطيًا ظهره له ومُبتعدًا: «يجب أن أنتهي من إصلاح تلك الكراسي. اذهب وشاهد ماذا يُعرض في التلفاز».

- «لـ-لـ-لـ-لكن يا أبي...».

قال زاك: «هيَّا اذهب يا بيل»، وشعر بيل بتلك البرودة من جديد. تلك البرودة التي تُحيل أوقات العشاء إلى نوعٍ من العذاب المُقيم عندما يتصفَّح والده دوريات الهندسة الكهربائية (كان يأمَل في الحصول على ترقية في العام التالي)، وعندما تقرأ أمه واحدة من روايات الغموض البوليسية البريطانية التي لا تنتهي: من تأليف مارش، أو سايرز، أو إينيس، أو ألينجهام. تناول الطعام في هذه البرودة ينزع المذاق من الأكل؛ يبدو الأمر كتناول عشاءٍ مُجمَّد لم يرَ نار الفُرن الحامية قط. كان أحيانًا يصعد إلى غرفته بعدها ويستلقي في فراشه مُمسكًا بمعدته ويُفكِّر: شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب. لقد فكَّر في تلك العبارة أكثر فأكثر منذ أن لقي چورچي حتفه، رغم أن أمه لقَّنته إيَّاها قبلها بعامين. لقد صارت تُشكِّل تعويذة سحرية في ذهنه: في اليوم الذي سيستطيع فيه الذهاب إلى والدته ولفظ هذه العبارة بكل بساطة ومن دون تعثُّر أو تأتأة وهو ينظر مُباشرةً في عينيها وهو يلفظها، ستنكسر البرودة. سوف تُضيء عيناها وستعانقه وهي تقول: «رائع يا بيلي! يا لشطارتك! يا لشطارتك!».

بالتأكيد لم يُخبر بيل أحدًا بالذي يعتمل في صدره، ولم تكن الجياد الجامحة لتقوى على إخراج ما يكنُّه في صدره. لا إغراء ولا ترهيب في العالم يستطيع إجباره على البوح بخياله السري، هذا الذي يقبع عميقًا جدًّا في قلب قلبه. إذا استطاع نُطق هذه العبارة التي علَّمته أمه إيَّاها بشكلٍ عابر في صباح يوم سبتٍ ما عندما كان جالسًا هو وچورچي يشاهدان جاي ماديسون وآندي ديڤين في مغامرات بيل هيكوك الشرس، سيكون الأمر كالقُبلة التي أيقظت الجمال النائم من مملكة أحلامها الباردة وألقت بها إلى عالم غرام الأمير الخيالي الأكثر دفئًا.

شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب.

كما أنه لم يخبر أصدقاءه بذلك في الثالث من يوليو... لكنه أخبرهم بما قاله له والده عن أنظمة الصرف الصحي ومصارف الأمطار في ديري. كان بيل صبيًّا يأتيه التلفيق بسهولة وبشكلٍ طبيعي (أحيانًا أكثر سهولة من قول

الحقيقة)، والمشهد الذي رسمه لهم كان يختلف كثيرًا عن المشهد الذي جرت فيه المُحادثة الحقيقية. قال لهم إنه كان جالسًا ووالده يُشاهدان التلفاز معًا، وهما يحتسيان فنجانين من القهوة.

سأله إدي: «هل يسمح لك والدك بشُرب القهوة؟».

قال بيل: «بـ-بـ-بالتأكيد».

صاح إدي: «يا للروعة! أمي لن تسمح لي أبدًا بشُرب القهوة. إنها تقول إن الكافيين خطر»، ثم توقَّف قليلًا قبل أن يردف: «على الرغم من أنها تشرب كثيرًا منها».

قالت بيڤرلي: «والدي يسمح لي بشُرب القهوة إن أردت، لكنه سيقتلني إذا عرف أنني أُدخِّن».

سأل ريتشي وهو ينقل بصره من بيل إلى ستان يوريس ثم إلى بيل من جديد: «ماذا يجعلك واثقًا من أنه يقطن المجاري؟».

قال بيل: «كـ-كـ-كل الأمور تـ-تـ-تشير إلى ذ-ذ-ذلك. الأ-أ-أصوات التي سمعتها بـ-بـ-بيڤرلي تخرج من البـ-بـ-بالوعة، والد-د-دماء، وعندما طـ-طاردنا المُـ-مُهرِّج، تلك الأز-أزرار البـ-برتقالية كانت قرب المـ-مجرور، وچـ-چـ-چورچي...».

قال ريتشي: «لم يكن مُهرِّجًا يا بيل الكبير. لقد أخبرتك بذلك. أعلم أن الأمر يبدو جنونيًّا، لكنه كان مُستذئِبًا». ثم نظر إلى الآخرين مدافعًا عن نفسه: «وعهد الله كان كذلك. أنا شُفته».

قال بيل: «كان مُستذئِبًا بالنسبة إ-إ-إليك».

- «هه؟».

قال بيل: «ألم تـ-تـ-تفهم بعد؟ لقد رأيته مُـ-مُـ-مُستذئِبًا لأنك شاهدت ذلك الفيلم الأ-أبله في سينما عـ-عـ-عـ-علاء الدين».

- «لا أفهم ما تعني».

قال بن بهدوء: «أظنُّ أنني أفهم».

قال بيل: «لقد ذهبت إلى المـ-مـ-مكتبة وبـ-بـ-بحثت عن الأمر. أظنُّ

أنه جـ-جـ-جـ...»، انحشرت الكلمة في حلقه، وجاهدت حنجرته لنُطقها، ثم لفظها: «جلامور».

سأل إدي في ارتياب: «جلامار؟».

كرَّر بيل: «جـ-جـ-جـلامور»، وتهجَّاها لهم، ثم أخبرهم بما وجد في أثناء بحثه في الموسوعة عن الأمر، وفي ذلك الفصل الذي قرأه من كتاب اسمه حقيقة الليل. قال لهم أن الجلامور، أو المتحوِّل، هو الاسم الذي تطلقه الشعوب الكلتية على المخلوق الذي يسكن ديري ويقض مضجعها. توجد أعراق أخرى وثقافات أخرى في أوقات أخرى تصفه بكلمات مختلفة، لكن جميعها تعني الشيء نفسه. الهنود الحمر يُسمُّونه مانيتيو، الذي أحيانًا ما يأخذ شكل الأسد الجبلي أو ظبي أو نسر، وأولئك الهنود يظنون أن روح المانيتيو قد تسكنهم أحيانًا، وعندما يحدث ذلك يصبحون قادرين على تشكيل الغيوم في هيئة صور لتلك الحيوانات التي تُسمَّى منازلهم تيمُّنًا بها. سُكَّان الهيمالايا يدعونه تالوس أو تيلوس، والذي يعني مخلوقًا غامضًا شريرًا يستطيع قراءة عقلك ثم التجسُّد في هيئة أكثر شيءٍ تخافه في حياتك. في أوروبا الوسطى، كان يُدعى إيلاك، شقيق الڤودرليك، أو مصَّاص الدماء، وفي فرنسا هو لا لوب جارو، أو منسلخ الجلد، وهو المفهوم الذي تُرجم بفجاجة إلى مُستذئب، لكن بيل أخبرهم أن لا لوب جارو قد يكون أيَّ شيءٍ، أيَّ شيءٍ على الإطلاق: ذئب، صقر، حمل، أو حتَّى حشرة.

سألته بيڤرلي: «هل أوضحت تلك المقالات طريقة هزيمة الجلامور؟».

أومأ بيل، لكنه لم يبدُ مُتفائلًا: «سُكَّان الهـ-هـ-هيمالايا لديهم طـ-طـ-طقس للتـ-تـ-تخلُّص منه، لـ-لـ-لكنه شـ-شـ-شديد الشناعة».

نظروا جميعًا إليه وهم لا يريدون السماع، لكن راغبون فيه.

قال بيل: «ا-ا-اسمه طـ-طـ-طقس تشو-تشود». ثم أخذ يشرح لهم طبيعته. إذا كنت أحد رجال الدين المُقدِّسين في الهيمالايا، فأنت تتقفَّى أثر التالوس وتتعقَّبه. عندما تلتقيه، يُخرج التالوس لسانه، وتُخرج أنت لسانك.. ثم تُشابكان أنت والمخلوق لسانيكما معًا، وتبدآن في لف أحدهما على الآخر حتَّى تصيرا كأنما دُبِّستما معًا، وجهًا لوجه».

قالت بيڤرلي وهي تتدحرج على الأرض: «أظنُّ أنني سأتقيّأ». ربّت بن على ظهرها بتردُّد، ثم نظر حوله ليرى إن كان لاحظه أحد. لكن أحدًا لم يفعل، فقد كانت أعين الآخرين جميعها مُسمَّرة على بيل في افتنان.

سأله إدي: «وماذا بعد؟».

قال بيل: «حـ-حـ-حسنًا، الأمر يـ-يـ-يبدو جـ-جنونيًّا، لـ-لكن الكتاب يـ-يقول إن كـ-كلاكما يبدأ بعد ذ-ذلك في تـ-تـ-تبادل الأ-ألغار والنـ-نـ-نكات».

صاح ستان: «ماذا؟!».

أومأ بيل بوجهٍ أشبه بوجه مُراسِل يريدك أن تعرف -دون أن يقولها صراحةً- أنه لا يصنع الأخبار بل ينقلها فقط: «أ-أجل، فـ-في البداية يقول مسخ التـ-تالوس نكتة، ثم يـ-يـ-يأتي د-دورك لتقول و-و-واحدة، ويستمر الأمر هـ-هـ-هكذا، تـ-تـ-تتبادلان الأ-أدوار...».

اعتدلت بيڤرلي في جلستها مُجدَّدًا، وضمَّت رُكبتيها إلى صدرها، مُشبِّكة يديها أسفل ذقنها: «لا أعرف كيف يمكن أن يتحدَّث وألسنتهم -كما تقول- معقودة معًا».

أخرج ريتشي لسانه في التوِّ، وأمسكه بأصابعه، وترنَّم: «أبي يعنل في ثاحة من الغائت». ضحكوا جميعًا على هذا لبعض الوقت رغم أنها كانت نكتة أطفال.

قال بيل: «رُبَّما يـ-يـ-يتم الأ-أمر عـ-عن طريق التخاطُر. عـ-عـ-على أ-أ-أيِّ حال، إذا ضـ-ضـ-ضحك الرَّجُل أ-أ-أوَّلًا على الرغم مـ-مـ-من الأ-أ-أ...».

سأله ستان: «الألم؟».

أومأ بيل، ثم أردف: «... هـ-هـ-هنا يتعيَّن عـ-عـ-على التـ-تـ-تالوس قتله والتهامه. ا-ا-التهام ر-ر-روحه على مـ-ما أظنُّ. لـ-لكن إ-إ-إن استطاع الرَّ-رَّجُل إ-إضحاك التـ-تالوس أوَّلًا، فـ-ف-فيتعيَّن عليه المـ-مغادرة لـ-لـ-لـ-مئات السنين».

سأله بن: «هل أوضح الكتاب من أين جاء مثل هذا المخلوق؟».

هزَّ بيل رأسه نافيًا.

سأله ستان: «هل تُصدِّق أيًّا من هذا؟»، وبدا كأنه يريد أن يسخر لكنه لا يجد القوة المعنوية أو العقلية لذلك.

هزَّ بيل كتفيه وقال: «نـ–نـ–نعم، تـ–تقريبًا»، وبدا كأنه سيضيف المزيد، لكنه هزَّ رأسه بعدها والتزم الصمت.

قال إدي ببطء: «هذا يُفسِّر الكثير. المُهرِّج، المجذوم، المستذئِب»، ثم نظر إلى ستان وأردف: «والصبية الموتى أيضًا على ما أظنُّ».

قال ريتشي بصوت مُقدِّم نشرة الأخبار: «تبدو هذه مَهمَّة أفضل من يوكل بها ريتشي توزييه، رجل الألف دعابة والستَّة آلاف لغز».

قال بن: «إذا أرسلناك للقيام بهذا العمل، فسنُقتل جميعًا. ببطء، وعذابٍ رهيب»، فانفجر جميعهم ضاحكين على هذا.

طالب ستان بإجابة: «إذًا ماذا سنفعل حيال الأمر؟». مرَّة أخرى لم يستطِع بيل سوى هزِّ رأسه... وهو ينتابه ذلك الشعور بأنه يكاد يعرف الإجابة. نهض ستان واقفًا وقال: «لنذهب إلى مكانٍ آخر. مؤخِّرتي تؤلمني من الجلوس».

قالت بيڤرلي: «أنا أحب المكان هنا. إنه ظليل وجميل»، ثم نظرت إلى ستان وأردفت: «أظنُّ أنك تريد فعل أمر صبياني كالذهاب إلى مكب النفايات وتكسير الزُجاجات بالحجارة».

قال ريتشي وهو ينهض واقفًا جوار ستان: «أنا أحب تكسير الزُجاجات بالحجارة. إنه چيمس دين الذي يحيا داخلي»، ثم رفع ياقة قميصه وبدأ يسير كچيمس دين في فيلم مُتمرِّد بلا قضية، ووهو يقول بنبرة كئيبة خامشًا صدره: «إنهم يؤذونني، كثيرًا، والديّ. المدرسة. المجتمع. الجميع. إنه لأمر ضاغط يا صغيرة. إنه...».

قالت بيڤرلي: «إنه هُراء»، وتنهَّدت.

قال ستان: «إن معي بعض المفرقعات النارية»، ثم أبرز حزمة من مُفرقعات بلاك كات النارية، وعلى الفور نسوا جميعًا كل شيء عن الجلامور، والمانيتيو، وتقليد ريتشي السيئ لچيمس دين.. حتَّى بيل أُثير إعجابه.

- «يا للمـ–مسيح يا سـ–سـ–ستان، من أ–أ–أين لك بـ–بـ–بهذه؟».

قال ستان: «من ذلك الفتى البدين الذي أذهب معه إلى المعبد اليهودي أحيانًا. لقد قايضته عليها ببعض قصص سوبرمان وليتل لولو المصوَّرة».

صاح ريتشي والفرحة تكاد تخنقه: «لنذهب ونُطلقها. لنذهب ونُطلقها يا ستاني، ولن أخبر أيَّ شخصٍ آخر أنك أنت ووالدك قاتلا المسيح، أعدك بهذا. ما قولك؟ كذلك سأخبرهم أن أنفك صغير يا ستاني! وسأقول لهم إنك لم تُختتن».

هنا بدأت بيڤرلي تصرخ ضاحكة وهي تقترب بالفعل من سكتة دماغية وشيكة، قبل أن تُغطِّي وجهها بيديها. بدأ بيل يضحك، وبدأ إدي يضحك، ثم بعد لحظات انضم ستان إليهم. انجرفت أصوات ضحكاتهم عبر امتداد نهر الكِندوسكيج الضحل في ذلك العصر الذي يسبق يوم الرابع من يوليو. كانت أصوات صيفية، لامعة كأشعة الشمس التي تنعكس على صفحة الماء، ولم يرَ أحدهم العينين البرتقاليتين اللتين كانتا تُحدِّقان إليهم من بين نبتات العليق المُتشابكة وأجمات التوت البرِّي الأسود العقيمة إلى يسارهم. كانت نبتات العليق هذه تمتدُّ ثلاثين قدمًا بطول الضِفَّة، وفي وسطها توجد واحدة من تلك الأُسطُوانات، أو فتحات المورلوك كما يصفها بن. من هذا التجويف الخرساني البارز، واصلت تانك العينان -التي تربو كلٌّ منهما قدمين عرضًا- تحديقهما.

5

ما جعل مايك يتصادم مع هنري باورز وعصابته غير المرحة تمامًا في ذلك اليوم، هو أن اليوم التالي كان هو الرابع من يوليو المجيد. كان لدى المدرسة الكنسية فرقة موسيقية يعزف مايك الترومبون فيها. في الرابع من يوليو، كانت الفرقة ستسير في موكب العُطلة السنوي، وستعزف ثلاث أغنيات: «نشيد معركة الجمهورية»، و«إلى الأمام أيُّها الجنود المسيحيين»، و«أمريكا جميلة»، وقد كان هذا حدثًا ينتظره مايك منذ أكثر من شهر. ذهب مايك إلى البروڤة الأخيرة سيرًا لأن درَّاجته تحطَّم جنزيرها. كان ميعاد البروڤة لن يأتي قبل الثانية والنصف ظهرًا، لكنه غادر في الواحدة لأنه أراد تلميع

آلة الترومبون -التي كانت مخزونة في غرفة الموسيقى في المدرسة- حتَّى تبرق، ورغم أن عزفه على الترومبون لم يكن أفضل حالًا من أصوات ريتشي، كان مايك مُغرمًا بالآلة، وكلَّما كان يشعر بالحزن فإن نصف ساعة فقط من نفخ مقطوعات مسيرات سوسا، أو الترانيم، أو الألحان الوطنية تكون كفيلة لإنعاشه من جديد. كان يحمل عبوَّة تلميع الأدوات النحاسية في أحد جيوب قميصه الكاكي، بينما تتدلَّى من جيب سراويله الجينز الخلفي خرقتان أو ثلاث، وكانت فكرة التعثُّر في هنري باورز أبعد ما تكون عن خياله.

لكن نظرة واحدة إلى الخلف وهو يقترب من شارع نيبولت والمدرسة الكنسية كانت ستُغيِّر رأيه فورًا، لأن هنري وڤيكتور وبيلش وبيتر چوردون وموس سادلر كانوا مُبعثرين عبر الطريق خلفه. لو كانت العُصبة غادرت منزل باورز لاحقًا بخمس دقائق فقط، كان مايك سيغيب عن أنظارهم وراء قمَّة التلَّة التالية، ولرُبَّما حدثت مُناوشة الحجارة المروِّعة وكل ما تبعها بشكلٍ مُختلف، أو رُبَّما لم تكن ستحدث على الإطلاق.

لكن مايك نفسه، بعدها بسنوات، هو الذي سيعرض فكرة أنه رُبَّما لم يكن أيٌّ منهم يمتلك زمام أموره وسيرورات الأحداث في ذلك الصيف، وأنهم لو افترضوا أنَّ الحظ وإرادتهم الحُرَّة قد لعب أحدهما أو كلاهما أيَّ دورٍ، فلا بُدَّ أن مُساهمتهما كانت محدودة تمامًا على أفضل تقدير، ولسوف يلفت مايك انتباه الآخرين إلى عدد من هذه المُصادفات المُريبة في أثناء اجتماع غداء لمَّ شملهم، لكن ثمَّة إحدى المُصادفات على الأقل لم يكن مايك يعلم بها. لقد انتهى اجتماع الخاسرين في البرِّية عندما أبرز ستان مُفرقعاته النارية وتوجَّهت الثُلَّة إلى مكب النفايات لإطلاقها. قبلها بقليل كان ڤيكتور وبيلش والآخرين قد ذهبوا إلى باورز لأن هنري كانت لديه ألعابًا نارية، وقنابل، وصواريخ M-80 (بعد بضع سنوات، ستُعد حيازة هذه الأخيرة جناية قانونية). كان الفتية الكبار يعتزمون الذهاب إلى المنطقة الخالية خلف ساحة القطارات وتفجير كنوز هنري.

لم يكن أيٌّ منهم، ولا حتَّى بيلش، يذهب إلى مزرعة باورز في الظروف العادية. في المقام الأوَّل بسبب والد هنري المجنون، لكن أيضًا لأن الأمر

ينتهي بهم إلى مُساعدة هنري في أعماله اليومية: إزالة الأعشاب الضارة، التقاط الحجارة التي لا تنتهي، جر الأخشاب، نقل المياه، تكويم القش، جمع أيٍّ نوعٍ من المحصول يتصادف نضجه في الموسم: البازلاء، الخوخ، الطماطم، البِطاطس. لم يكن أولئك الأولاد حسَّاسين تجاه العمل بشكلٍ خاص، لكن كان لديهم كثير من المهام لإنجازها في منازلهم، لذا كانوا في غنى عن التعرُّق في سبيل والد هنري المُختل، الذي لم يكن يأبه بضربهم (ذات مرَّة انهال على ڤيكتور كريس بجذع من خشب الموقد عندما أسقط الصبي سلة من الطماطم كان يحملها إلى منفذ البيع على قارعة الطريق). كان الضرب بقطعة من خشب البتولا سيِّئًا بما يكفي، لكن ما جعله أسوأ هو غناء بوتش باورز وهو يفعلها: «لسوف أقتل كل اليابانيين! لسوف أقتل كل اليابانيين اللعينين!».

وبقدر غبائه، تمكَّن بيلش هاجنز من التعبير مُفسِّرًا الأمر على النحو الأمثل: «أنا لا أعبث مع المجانين». هكذا أخبر ڤيكتور في أحد الأيَّام قبلها بعامين، وقد ضحك ڤيكتور كثيرًا ووافقه.

لكن كان إغواء تلك المُفرقعات النارية الشبيه بنداء النَّداهات أكبر من أن يُقاوم.

قال ڤيكتور لهنري في التاسعة صباحًا عندما هاتفه الأخير كي يدعوه إلى منزله: «سأخبرك بشيءٍ يا هنري، سأقابلك عند منجم الفحم في نحو الساعة الواحدة، ما رأيك؟».

أجابه هنري: «سوف تذهب إلى منجم الفحم في نحو الساعة الواحدة ولن أكون هناك. لدي أعمالٌ عديدة هنا. إذا أتيت إلى المنجمٍ في الثالثة سأكون هناك، وأوَّل صاروخ M-80 سيدخل مُباشرةً في ثقب مؤخرتك يا ڤيك».

تردَّد ڤيك ثم وافق على المرور عليه ومُساعدته في أعمال المزرعة.

جاء الآخرون كذلك، وعندما اجتمع خمستهم، جميع الفتية الكبار، وعملوا كالشياطين في مزرعة باورز، استطاعوا الانتهاء من جميع المهام في وقتٍ مُبكِّر من بعد الظهيرة.. وعندما سأل هنري والده إن كان يستطيع الخروج، لوَّح باورز الأب بيدٍ فاترة الهمَّة إلى ابنه. كان بوتش قد استقرَّ في

الشُرفة الخلفية لقضاء فترة بعد الظهيرة، وزجاجة حليب مملوءة بنبيذ التُفَّاح تقبع جوار كُرسيه الهزَّاز، ومذياعه المحمول طراز فيلكو يقبع أمامه على سور الشُرفة (لاحقًا عصر هذا اليوم، سيلعب فريق ريد سوكس مع فريق واشنطن سيناتورز، وهو أمر من شأنه أن يُصيب الرَّجُل الذي لم يكن مجنونًا بنوبة سيِّئة من قشعريرة البرد). كان هناك سيفٌ غير مُستلٍّ مُلقى على حجر بوتش، وهو غنيمة حرب ادَّعى بوتش أنه أخذها من جسد جُنديٍّ ياباني مُحتضر على جزيرة تاراوا (في الحقيقة لقد قايض ستَّ زجاجات من بيرة بادويزر وثلاث أذرع ألعاب ڤيديو مُقابل السيف في هونولولو). مؤخَّرًا، كان بوتش يُخرج سيفه دائمًا تقريبًا عندما يكون مخمورًا، وبما أن كل الفتية بما فيهم هنري نفسه كانوا مُقتنعين سرًّا بأنه عاجلًا أو آجلًا سيستخدم السيف على شخصٍ ما، فكان من الأفضل الابتعاد عنه عندما يَظهَر السيف على حِجره.

ولم يكد الصبية يأخذون خطواتهم الأولى إلى الشارع حتَّى لمح هنري مايك هانلون أمامًا وقال: «إنه ذلك الزنجي!»، وعيناه تبرقان كعينيّ طفلٍ صغير ينتظر قدوم سانتا كلوز في ليلة الكريسماس.

- «الزنجي؟». قالها بيلش هاجنز والحيرة على وجهه، إنه لم يرَ آل هانلون إلا نادرًا، ثم أضاءت عيناه المُعتمتان وأردف: «أوه أجل! الزنجي! لننل منه يا هنري!».

أحال بيلش سيره إلى هرولة مُتسارعة، وحذا الآخرون حذوه قبل أن يقبض هنري بيلش ويجذبه إلى الخلف. كانت لدى هنري من الخبرة في مُطاردة مايك هانلون ما يفوقهم، وكان يعلم أن الإمساك به ككلام أسهل كثيرًا من الفعل. هذا الصبي الأسود سريع.

- «إنه لا يرانا. دعونا نجدُّ في السير فقط حتَّى يلاحظنا. لنُقصِّر المسافة».

وهكذا فعلوا. أيُّ مُراقب لهذا المشهد لا بُدَّ أنه كان سيستمتع: كان خمستهم يبدون كأنهم يتدرَّبون على تلك المشية المُميَّزة العجيبة لمُسابقات السير الأولمبية. ترجرج بطن موس سادلر أسفل تيشرت مدرسة ديري الثانوية الذي يرتديه. سال العرق على وجه بيلش، الذي سرعان ما استحال لونه إلى الأحمر. لكن المسافة بينهم ومايك أخذت في الانكماش.. مئتا ياردة.. مئة

وخمسون ياردة.. مئة ياردة.. وحتَّى اللحظة لم ينظر سامبو الأسود[1] الصغير خلفه. ترامى إلى آذانهم صوت صفيره.

- «ماذا ستفعل به يا هنري؟». هكذا سأل ڤيكتور كريس بصوتٍ هامس. كان يبدو كأنه يهتم بالكاد، لكنه كان قلقًا في الحقيقة. مؤخَّرًا، بدأت تصرُّفات هنري تُقلقه أكثر فأكثر. لم يكن ليأبه لو أن هنري يرغب في إبراح صبي آل هانلون ضربًا، أو رُبَّما حتَّى تمزيق قميصه أو إلقاء سراويله ولباسه على شجرة عالية، لكنه لم يكن واثقًا إن ذلك فقط هو كل ما يدور في عقل هنري. هذا العام حدثت مصادمات كثيرة غير سارة مع صبية من مدرسة ديري الابتدائية من الذين ينعتهم هنري بـ «الأوغاد الصغار». لقد اعتاد هنري فرض سُلطته وترويع الأوغاد الصغار، لكن منذ شهر مارس الماضي بدأ بعضهم في التفوُّق عليه مرَّة بعد مرَّة. لقد طارد هنري وأصدقاؤه أحدهم ذات مرَّة -ذلك الصبي توزييه ذا الأربع عيون- إلى متجر فيرسي، ثم ضلوا أثره بطريقةٍ ما عندما كادت مؤخرته أن تقع في قبضتهم. أيضًا، في آخر يومٍ في الدراسة، ذلك الصبي هانسكوم...

لكن ڤيكتور لم يحب التفكير في ذلك الأمر.

ما كان يقلقه ببساطة هو الآتي: أن هنري قد يتمادى كثيرًا، ولم يكن ڤيكتور يحب التفكير في ماهية أو شكل هذا التمادي، لكن قلبه المُضطرب طرح السؤال رغم ذلك.

قال هنري: «لسوف نُمسك به ونأخذه إلى منجم الفحم. أُفكِّر في أن نضع بعض المفرقعات في فردتي حذائه لنرى إن كان بارعًا الرقص».

- «لكن ليس صواريخ M-80 يا هنري، أليس كذلك؟».

إذا كان هنري ينتوي شيئًا كهذا، فلسوف يُغادر ڤيكتور مُسرعًا. إذا وُضِع صاروخي M-80 في فردتي حذاء الزنجي، لسوف يُفجِّر هذا قدميه بالكامل، وهذا يُعدُّ تماديًا مُريعًا.

قال هنري دون أن يرفع عينيه عن ظهر مايك هانلون: «لديَّ أربعة فقط،

---

(1) يقصد مايك.

أتظن أنني سأهدر اثنين منها على هذا الزنجي اللعين؟». كانا قد اختصرا المسافة حاليًا إلى خمس وسبعين ياردة، لذا قال هنري عبارته بصوتٍ خفيض أقرب إلى الهمس.

- «لا يا هنري. بالطبع لا».

قال هنري: «سنضع اثنتين من مُفرقعات بلاك كات في فردتي حذائه، ثم سننزع عنه ملابسه ونلقي بها إلى البرِّية. رُبَّما سيُصيبه اللبلاب السام وهو يسعى لاستعادتها».

قال بيلش وعيناه المُعتمتان تتوهَّجان: «لندحرجه في الفحم أيضًا. موافق يا هنري؟ أليس هذا رائعًا؟».

قال هنري بطريقة عفوية لم تعجب ڤيكتور: «رائع تمامًا. سندحرجه في الفحم، كما دحرجته في الطين في ذلك اليوم، و...» ابتسم هنري كاشفًا عن أسنانٍ بدأ حالها يسوء وهو ما زال في سنِّ الثانية عشرة، قبل أن يردف: «وثمَّة شيءٌ أريد أن أقوله له، لأنني أظنُّه لم يسمعه في المرَّة السابقة».

سأله بيتر: «بِمَ أخبرته يا هنري؟». كان بيتر چوردون مُتحمِّسًا ومُهتمًّا دون إفراط. كان الفتى ينحدر من إحدى عائلات ديري العريقة، ويعيش في غرب برودواي، وخلال عامين سيُرسل إلى المدرسة الإعدادية في جورتون.. أو هكذا كان يظنُّ في ذلك الثالث من يوليو. كان أكثر ذكاءً من ڤيكتور كريس، لكنه لم يتسكَّع مع هنري فترة كافية كي يعرف كم بدأ هنري يضمحل.

قال هنري: «ستعرف. الآن اخرس. نحن نقترب منه».

صاروا على بُعد خمس وعشرين ياردة من مايك، وكان هنري على وشك أن يفتح فمه ويعطيهم الأمر بالهجوم عندما فجَّر موس سادلر أوَّل مُفرقعة نارية. لقد التهم موس ثلاثة أطباق من الفول المطبوخ في الليلة السابقة، وقد كانت الضرطة التي أخرجها صاخبة الصوت كما طلقة البندقية.

نظر مايك حوله، وشاهد هنري أن عينيه تتَّسعان.

صاح هنري: «أمسكوه!».

تجمَّد مايك مكانه لحظة من الرعب، ثم انطلق راكضًا، لينجو بحياته.

6

شقَّ الخاسرون طريقهم عبر سيقان الخيزران في البرِّية بالترتيب الآتي: بيل، ثم ريتشي، ثم بيڤرلي خلف ريتشي وهي تسير برشاقة ودلال مُرتدية سراويلها الچينز الزرقاء وبلوزتها البيضاء عديمة الأكمام وتنتعل صندلًا في قدميها، ثم بن محاولًا ألا يلهث بصوتٍ عالٍ (كان يرتدي سترته الفضفاضة رغم أن حرارة الجو كانت إحدى وثمانين درجة فهرنهايت في ذلك اليوم، ثم ستان، ثم إدي في المؤخِّرة يبرز من جيب سراويله الأمامي طرف بخَّاخه.

كان بيل سارحًا في حلم يقظة جامح الخيال عن «رحلة سافاري في الغابة»، كما يفعل دائمًا عندما يسير في هذا النطاق من البرِّية. كانت أعواد الخيزران طويلة وبيضاء، وتحد من رؤية المسار الذي قطعوه إلى هذه اللحظة، والأرض سوداء وموحلة ومليئة بحُفرٍ مائية يجب تفاديها أو القفز فوقها إذا أردت إبقاء الطين بعيدًا عن قدميك. كانت ألوان قوس قزح غريبة تلتمع على سطح برك الماء الراكد الآسن، وفي الهواء رائحة رطوبة قويَّة نصفها قمامة ونصفها نباتات عفنة.

توقَّف بيل على مبعدة خطوات من الكِندوسكيج والتفت ناظرًا إلى ريتشي: «هناك نـ–نـ–نمرٌ أمامنا مُباشرةً يا تـ–تـ–توزييه».

أومأ ريتشي والتفت إلى بيڤرلي لاهثًا: «نمر».

– «نمر». هكذا أخبرت بن.

سألها بن كاتمًا أنفاسه كي لا يلهث: «آكل لحوم بشر؟».

قالت بيڤرلي: «الدماء تغرق جسده».

تمتم بن لستان: «نمر آكل لحوم بشر»، الذي نقل الخبر بدوره إلى إدي، الذي توهَّج وجهه النحيف من فرط الإثارة. غابوا وسط أعواد الخيزران، تاركين درب الأرض السوداء الذي يلتف عبرها خاليًا. مرَّ النمر من أمامهم، وتمكَّن جميعهم بالكاد من مشاهدته بوزنه الثقيل –نحو أربعمئة رطلٍ– وهيكله العضلي الذي يتحرَّك بقوَّة وسلاسة أسفل جلده المخطَّط الناعم.

كادوا أن يُشاهدوا خضار عينيه، وبُقع الدماء حول خطمه، بقايا الوجبة الأخيرة من المحاربين الأقزام الذين أكلهم أحياء.

اهتزَّت أعواد الخيزران قليلًا مُصدرة أصواتٍ إيقاعية غريبة، ثم سكنت من جديد. رُبَّما كان هذا بفعل نسيم الصيف... ورُبَّما بسبب مرور النمر الأفريقي وهو في طريقه إلى طرف البرِّية المُتاخم للسان القديم.

قال بيل: «لقد رحل». ثم أطلق سراح نفسٍ مكبوت، وخطا إلى الدرب من جديد، فحذا الآخرون حذوه.

كان ريتشي الوحيد الذي خرج من مكمنه مُسلَّحًا، رافعًا مُسدَّس لُعبة زناده مُثبَّت بشريطٍ لاصق، وقال مُتجهِّمًا: «كنت أستطيع أن أرديه قتيلًا لو تحرَّكت قليلًا يا بيل الكبير»، ثم أرجع نظَّارته إلى نهاية أنفه بفوَّهة مُسدَّسه.

قال بيل: «يوجد سـ-سـ-سكَّان محلِّيين من التـ-توتسي فـ-فـ-في الجوار. لا يـ-يـ-يمكن المُخاطرة بـ-بـ-بطلقٍ ناري. أ-أ-أتريد أن يـ-يـ-يحاصرونا؟».

قال ريتشي مُقتنعًا: «أوه».

أشار بيل بذراعه أن هيَّا بنا، فعادوا إلى السير عبر المسار من جديد، الذي ضاق كعُنق زجاجة عند نهاية رُقعة أعواد الخيزران. بزغوا إلى ضِفَّة الكِندوسكيج، حيث تتناثر بعض أحجار العبور إلى الضِفَّة الأخرى. لقد علَّمهم بن كيف يضعوها. تأتي بصخرة كبيرة وتلقي بها في المياه، ثم تأتي بثانية وتلقي بها إلى المياه وأنت تخطو على الصخرة الأولى، ثم تأتي بثالثة وتُسقطها في المياه وأنت تقف على الصخرة الثانية، وهكذا دواليك حتَّى تصل إلى الضِفَّة الأخرى من النهر دون أن تبتل قدماك. كان النهر في هذه الموضع وفي هذا الوقت من العام بعمق قدم واحد وضحل بفعل الرمال المجروفة. كانت حيلة الأحجار في غاية السهولة لدرجة طفولية، لكن أحدًا منهم لم يُفكِّر فيها حتَّى أشار بن إليها. كان بارعًا في مثل هذه الأمور، لكنه حين يشرحها لا يجعلك تشعر بأنَّك غبي.

بدأوا في العبور إلى الضِفَّة الأخرى واحدًا تلو الآخر فوق ظهور الصخور الجافة التي زرعوها في النهر.

هتفت بيفرلي في حدَّة: «بيل!».
تجمَّد بيل مكانه فورًا دون أن ينظر خلفه، ومدَّ ذراعيه لحفظ اتِّزانه. تدفَّق ماء النهر وخرَّ من حوله.
- «ما الأمر؟».
- «توجد أسماك بيرانا في هذه المياه! لقد رأيْتُها تلتهم بقرة كاملة منذ يومين. بعد دقيقة واحدة من لم يتبق منها سوى العظم. حذارِ أن تسقط!».
قال بيل: «حسنًا. حذارِ يا رجال».
تأرجح ستَّتهم في طريقهم عبر الصخور. مرَّ قطار شحن مُندفعًا على القضبان قرب الضِفَّة في الوقت الذي اقترب فيه إدي من صخرة منتصف الطريق، وقد جعله النفير المُفاجئ الذي أطلقه يهتزَّ ويتراقص على حافَّة صخرته كي يحفظ توازنه. نظر إلى المياه المتلألئة للحظة خاطفة، وبين وميض أشعة الشمس المُنعكس إلى عينيه من صفحة الماء، رأى بالفعل أسراب بيرانا تسبح. لم يكن هذا جزءًا من التظاهر بالرؤية كما رحلة السفاري الخيالية من نسج عقل بيلٍ، بل كان إدي واثقًا من رؤيتها. الأسماك التي رآها أشبه بأسماك ذهبية مُتضخِّمة لكن مع ذينك الفكَّين القبيحين لأسماك السلور أو القشر. كانت أسنانها حادَّة كالمناشير وتبرز من بين شفاهٍ غليظة، وكما كانت برتقالية اللون كالأسماك الذهبية.. برتقالية ككريات الزغب التي تراها أحيانًا على حُلل المُهرِّجين في السيرك.
أخذت الأسماك تدور في المياه الضحلة.. وتسنُّ أسنانها.
حرَّك إدي ذراعيه في الهواء وهو يُفكِّر: سأسقط. سأسقط وسيمزِّقونني حيًّا...
هنا أمسكه ستانلي من خصره بحزمٍ وأعاده إلى مركز اتِّزانه.
قال ستان: «في اللحظة الأخيرة. لم تكن أمك لترحمك لو كنت سقطت».
للمرَّة الأولى كان التفكير في أمه أبعد ما يكون عن عقله. كان الآخرون قد وصلوا إلى الضِفَّة الأخرى وبدأوا في إحصاء عربات قطار الشحن الآن. نظر إدي بجنون في عينيّ ستان، ثم رمق الماء ثانيةً. رأى كيس بطاطس مقلية يتهادى على صفحة النهر، هذا كل شيء، فرفع بصره إلى ستان من جديد.

- «ستان، لقد رأيت...».
- «ماذا؟».
هزَّ إدي رأسه، وقال: «لا شيء. أنا فقط...
(لكنها كانت هناك، كانت هناك، وكانت ستأكلني حيًّا)
«... عصبي قليلًا، بسبب النمر رُبَّما. لا عليك، واصل المسير».
خلال الطقس الممطر والذوبان الربيعي، تصبح ضِفَّة الكِندوسكيج الغربية -ضِفَّة اللسان القديم- مُستنقعًا موحلًا، لكن أمطارًا غزيرة لم تهطل في ديري منذ قرابة أسبوعين أو أكثر، وقد جفَّت تُربة الضِفَّة وتشقَّق سطحها الأملس حتَّى صارت أشبه بتضاريس كوكبٍ فضائي تبرز منه الكثير من تلك الأُسطُوانات الخرسانية، وتلقي بظلالٍ كئيبة في المكان، وعلى بُعد نحو عشرين ياردة جنوبًا، كان هناك أنبوب أسمنتي يعلو ناتئًا فوق الكِندوسكيج، ويواصل سكب تيَّارٍ غير منقطع من الماء البُنِّي القذر إلى النهر.
قال بن بصوتٍ خافت: «المكان مُخيف هنا». فأومأ الآخرون موافقين.
قادهم بيل عبر الضِفَّة الجافة رجوعًا إلى الشُجيرات الكثيفة، حيث تطن الحشرات وتئز البراغيث، وبين الفينة والأخرى تصدر رفرفة جناحين ثقيلة عندما يُحلِّق طائرٌ ما من إحدى الأشجار إلى السماء. عَبَرَ سنجابٌ طريقهم، وبعدها بخمس دقائق -فيما كادوا يصلون إلى الحافَّة المنخفِضَّة المُضعضعة التي تؤم الجانب المخفي من مكب نفايات البلدة- تعثَّر فأرٌ كبير أمام بيل، كانت هناك قطعة من سوليفان عالقة بين شاربيه وهو يركض في مساره السرِّي الخاص عبر البرِّية المُصغَّرة الخاصة التي تُشكِّل عالمه.
صارت رائحة القمامة الآن واضحة ولاذعة، وثمَّة خيط من دُخانٍ أسود يرتفع إلى السماء. كانت الأرض قد بدأت تفترش بالقمامة، في حين أنها لم تكن تزل كثيفة بالنباتات بخلاف المسار الضيق الذي يسيرون فيه، وصف بيل المكان باسم «قشرة شعر المزبلة»، وقد سرَّ الاسم ريتشي تمامًا، وراح يضحك كثيرًا حتَّى كاد يبكي، قبل أن يقول له: «يجب أن تدوِّنه يا بيل الكبير. إنه جيِّد تمامًا».
ها هي أوراق مُعلَّقة على الأغصان ترفرف وتتمايل كشعارات الحسومات،

وهناك التماع فِضِّي لأشعة شمس الصيف المُنعكسة عن مجموعة علب صفيح تتجمَّع في قاع حُفرة خضراء مُتعرِّشة بالنباتات، بالإضافة إلى انعكاس أشدُّ قوَّة لأشعة الشمس من على زجاجة بيرة مُحطَّمة. لمحت بيڤرلي دُمية أطفال تبدو كأنها سُلقت تقريبًا وقد استحال لون جلدها البلاستيكي ورديًّا زاهيًا. انحنت والتقطتها، وفي التوِّ أفلتتها صارخة عندما رأت خنافس بيضاء رمادية تتلوَّى أسفل تنورتها المتعفِّنة وساقيها الناخرتين، ثم فركت أصابعها في سراويلها.

تسلَّقوا فوق الحافَّة الناتئة ونظروا إلى أسفل نحو مكب النفايات.

قال بيل: «أوه، اللعنة»، ودسَّ يديه في جيبي سراويله، في حين ما احتشد الآخرون حوله.

إنهم يحرقون الطرف الشمالي من المكب اليوم، لكن هنا -عند طرفهم- كان حارس المكب (الذي كان -في حقيقة الأمر- هو أرماندو فازيو، الأعزب، والشهير بماندي بين أصدقائه، وشقيق حاجب مدرسة ديري الابتدائية) يشغل نفسه بقيادة الجرَّافة المُدرَّعة طرازD-9 من أيَّام الحرب العالمية الثانية، التي يستخدمها في تجميع القمامة في أكوام استعدادًا لحرقها. كان خالعًا قميصه، ومن المذياع المحمول الموضوع أسفل المظلَّة القُماشية على مقعد الجرَّافة ترامت إلى آذانهم مراسمم استعدادت بداية مُباراة فريق ريد سوكس وواشنطن سيناتورز.

وافق بن بيل في الرأي: «لا نستطيع الهبوط إلى أسفل». لم يكن ماندي فازيو رجُلًا سيِّئًا، لكنه عندما يرى أطفالًا في مكب النفايات فإنه يطردهم على الفور.. بسبب الفئران، وبسبب السم الذي ينثره بانتظام للإبقاء على تعداد الفئران منخفضًا، وبسبب أخطار الجروح والسقوط والحروق... لكن الأهم لأنه كان يؤمن أن المكب ليس مكانًا لِلأطفال. «ألستم أولاد ناس؟»، هكذا كان يصيح في الأطفال الذين يلمحهم يتسلَّلون إلى المكب ببنادق الرَّش ليصوِّبوا على الزُجاجات (أو الفئران، أو النوراس)، أو مدفوعين بافتنان البحث في أرجاء المكب: قد تجد لُعبةً ما زالت تعمل، أو مقعدًا يُمكن إصلاحه واستعماله في مقر الثُّلة، أو تلفازًا معطوبًا ما زال أنبوب كاثوده

سليمًا، إذا ألقيت بحجر على أحد هذه الأجهزة فلسوف يولِّد انفجارًا مُرضيًا تمامًا. «ألستم أولاد ناس؟». هكذا كان ماندي يصيح دائمًا (يصيح لا بسبب غضبه، بل لأنه كان أصمًّا ولا يرتدي مُساعِدات السمع). «ألم يُعلِّمكم ذووكم أن تكونوا مُهذَّبين؟ الأولاد والفتيات المُهذبون لا يلعبون في مكب النفايات! اذهبوا إلى الحديقة! اذهبوا إلى المكتبة! اذهبوا إلى البيت المُجتمعي والعبوا هوكي الصندوق! تصرَّفوا كمُهذَّبين!».

قال ريتشي: «أجل، أعتقد أن أحلام المكبِّ تبخَّرت».

جلس جميعهم أرضًا لبعض الوقت يراقبون ماندي وهو يعمل بجرَّافته في قمامة المكبِّ، آملين أن يستسلم ويمضي بعيدًا، لكن دون إيمانٍ حقيقي بأنه سيفعل: كان وجود المذياع يشير إلى أن ماندي ينتوي تمضية طوال فترة العصر هنا. إن هذا الإحباط لقادر على إثارة حنق أهدأ الأشخاص طرًّا، هكذا فكَّر بيل. لم يكن ثمَّة مكان أفضل من المكب لإشعال المُفرقعات النارية، حيث تستطيع وضعها أسفل علب الصفيح وتشاهد العلب تطير عاليًا في الهواء عندما تنفجر المفرقعات، أو تُشعل فتيلها وتسقطها عبر أعناق الزجاجات ثم تركض مبتعدًا بكل ما أوتيت من سُرعة. لم تكن الزجاجات تنفجر في كل مرَّة، لكنها عادةً ما تفعل.

تنهَّد ريتشي قائلًا: «يا ليت كان معنا بعض صواريخ M-80»، ولم يكن يعلم أنه قريبًا جدًّا سيُقذف بواحدٍ منها على دماغه.

قال إدي بصورة جادَّة تمامًا: «أمي تقول إن الناس يجب أن يرضوا بما لديهم»، ما جعلهم جميعًا ينفجرون ضاحكين.

وعندما ذوت الضحكات، نظروا جميعًا إلى بيل من جديد.

فكَّر بيل في الأمر ثم قال: «أ-أعرف مـ-مكانًا. يوجد مـ-مـ-منجم فحم قديم في نهاية البـ-برِّية قرب ساحة القـ-قطارات».

صاح ستان واقفًا: «أجل! أعرف ذلك المكان! أنت عبقري يا بيل».

وافقتهما بيڤرلي: «سيكون صدى الصوت عاليًا حقًّا هناك».

قال ريتشي: «حسنًا، هيَّا بنا».

سار ستَّتهم -ينقصون واحدًا عن الرقم السحري- بطول جبهة التلَّة

التي تُحيط بمكب النفايات. ألقى ماندي فازيو نظرة خاطفة عليهم وشاهد صورتهم الظلِّية أمام السماء الزرقاء كهنودٍ حمر خارجين لغارة. فكَّر أن يصيح فيهم «ليست البرِّية مكانًا للأطفال»، لكنه فضَّل الصمت والعودة إلى عمله. على الأقل هم ليسوا في المكبِّ.

7

عبر مايك المدرسة الكنسية دون أن يتوقَّف، واندفع في خطٍّ مُستقيم عبر شارع نيبولت مُتَّجهًا صوب ساحة القطارات. كان لمدرسة شارع نيبولت حارسًا مُقيمًا، لكنه كان طاعنًا في السنِّ، وأشدُّ صممًا من ماندي فازيو، فضلًا عن أنه كان يحب تقضية معظم نهارات الصيف نائمًا في القبو جوار السخَّان الذي لا يعمل، مُمدَّدًا على كُرسيٍّ قديمٍ مُتداعٍ وجريدة أخبار ديري في حضنه. إذا فكَّر مايك في التوقُّف وقرع الباب والصياح في الرَّجُل العجوز كي يُدخله، سيأتي هنري من خلفه ويقتلع رأسه قبل أن يحدث أيُّ شيء.

لذا واصل مايك ركضه.

لكن من دون إفراط. كان يحاول الحفاظ على وتيرة ثابتة، ويحاول السيطرة على أنفاسه، لذا لم ينفق كل ما في جعبته. لم يكن هنري أو بيلش أو موس سادلر يشكِّلون مُشكلة، فحتَّى وهم في ذروة نشاطهم نسبيًّا، كان ثلاثتهم يركضون كالجاموس الجريح.. غير أن ڤيكتور كريس وبيتر چوردون كانا أسرع بكثير. مع تجاوزه للمنزل الذي رأى فيه بيل وريتشي المُهرِّج –أو المُستذئب– ألقى مايك نظرة خلفه وجُزِعَ من رؤية بيتر چوردون يكاد ينهي المسافة التي تفصلهما. كان بيتر يبتسم في حبور.. يبتسم ابتسامة بريطانية راضية.. ابتسامة أثرياء تامة.. ابتسامة بلهاء.. ووجد مايك نفسه يفكِّر: تُرى هل سيبتسم كذلك لو علم ماذا سيحدث لو أمسكوا بي... هل يظن أن كل ما سيقولونه له: «أنت الخاسر، الدور عليك»، ثم سيركضون بعيدًا؟

عندما لاحت بوَّابة محطَّة القطارات بلافتتها الشهيرة: ملكية خاصة/ ممنوع الدخول، المتسلِّلون سيتعرَّضون للمُساءلة القانونية، أجبر مايك جسده ببذل كل ما أُوتي من قوَّة. لم يشعر بأيِّ ألمٍ –كانت أنفاسه متلاحقة

لكنه ما زال يسيطر عليها- لكنه كان يعلم أن كل جزء فيه سيبدأ في إيلامه إن اضطُرَّ الإبقاء على هذه الوتيرة فترة طويلة.

كانت البوَّابة نصف مفتوحة. ألقى مايك نظرة ثانية خاطفة إلى الوراء ورأى أنه ابتعد عن بيتر ثانيةً. كان ڤيكتور على بُعدِ نحو عشر خطوات من بيتر، والآخرون يبعدون عنه الآن أربعين أو خمسين ياردة. لكن حتَّى في تلك النظرة الخاطفة، لمح مايك الغضب الأسود على وجه هنري.

انسلَّ سريعًا عبر الفتحة، ودار على عقبيه، وصفع البوَّابة مُغلقًا إيَّاها. سمع صوت تكَّة المزلاج. بعدها بلحظة اندفع بيتر چوردون مُصطدمًا بالسياج المتشابك، وبعد ذلك بلحظة، لحق به ڤيكتور. كانت ابتسامة بيتر قد تلاشت من على وجهه، وحلَّت محلَّها نظرة عابسة مُحبَطة. مدَّ يده إلى المزلاج، لكن واحدًا لم يكن موجودًا بلا ريب: كان المزلاج في الداخل فقط.

بشكلٍ لا يُصدَّق، قال بيتر: «هلُم يا غلام، افتح البوَّابة. هذا ليس عدلًا».

سأله مايك لاهثًا: «ما مفهومك عن العدل؟ خمسة ضد واحد؟».

كرَّر بيتر قائلًا كأنما لم يسمع شيئًا ممَّا قاله مايك: «كُن مُنصفًا».

نظر مايك إلى ڤيكتور، وشاهد البصَّة القلقة في عينيه. همَّ بالكلام، لكن في هذه اللحظة وصل الآخرون إلى البوَّابة.

صاح هنري: «افتح أيُّها الزنجي!»، وبدأ يهز السياج الحديدي بضراوة شديدة جعلت بيتر ينظر إليه مشدوهًا. «افتح! افتح البوَّابة حالًا!».

قال مايك بهدوء: «لن أفعل».

صرخ بيلش: «افتح! افتح يا عبد يا لعين!».

تراجع مايك مُبتعدًا عن البوَّابة وقلبه يتواثب بين ضلوعه. لم يتذكَّر أيَّ مرَّة شعر فيها بمثل هذا الخوف.. بمثل هذا الانزعاج. اصطفُّوا جميعًا على الطرف الآخر من البوَّابة، صارخين فيه، ناعتينه بنعوت زنجية عُنصرية مُهينة لم يحلم مايك أنها موجودة في أقصى أحلامه جموحًا: قرد، وبربري، وعبد أفريقي، وسعدان، وثمرة باذنجان، وبوَّاب، وغيرها. أدرك مايك بالكاد أن هنري يُخرج شيئًا من جيبه، وأنه أشعل عود ثقابٍ بظفر إبهامه، ثم طار جسمٌ

دائري أحمر صغير من فوق السياج فجفل بشكلٍ غريزي في الوقت الذي انفجرت فيه القنبلة الحمراء إلى يساره، مُبعثرة الغبار في الهواء.

أخرسهم الإنفجار جميعًا لحظة. حدَّق مايك إليهم غير مُصدِّق، وبادلوه التحديق بدورهم. بدا بيتر چوردون مصدومًا تمامًا، وحتَّى بيلش بدا مشدوهًا.

إنهم يخافونه الآن، هكذا فكَّر مايك بغتةً، وبدأ صوتٌ جديد يتحدَّث داخله رُبَّما للمرَّة الأولى. صوتٌ راشد بدرجة مقلقة. إنهم يخافونه، لكن ذلك لن يوقفهم. يجب أن تهرب يا مايكي، وإلا سيحدث شيءٌ سيئٌ. قد لا يكون جميعهم راغب في حدوثه -رُبَّما ليس ڤيكتور ولا بيتر چوردون- لكنه سيحدث على أيِّ حال لأن هنري سيجعله يحدث. لذا اهرب الآن.. اهرب سريعًا.

تراجع مايك خطوتين أو ثلاث خلفًا، ثم قال هنري باورز: «أنا من قتلت كلبك أيُّها الزنجي».

تجمَّد مايك مكانه كأن كُرة بولينج صدمته في معدته. حدَّق إلى عيني هنري باورز وأدرك أن هنري يخبره بالحقيقة المُرَّة: لقد قتل شيبس.

تلك اللحظة الإدراكية بدت شبه أبدية في عقل مايك، وبالنظر الآن إلى عيني هنري المجنونتين المُحاطتين بنُدف العرق، ووجهه الذي سوَّده الغضب، بدا له أنه أدرك حقائق كثيرة أخرى للمرَّة الأولى. حقائق تبدو أمامها حقيقة مقدار جنون هنري الذي لم يرد في أقصى خيالات مايك جموحًا أقلها أهمِّية. لقد أدرك قبل كل شيء أن العالم ليس مكانًا عطوفًا، وقد كان ذلك -أكثر من الخبر نفسه- ما دفعه للصراخ قائلًا: «أيُّها الأبيض الزنيم النَّغل!».

صرخ هنري صرخة غضب وهاجم السياج، وبدأ يتسلَّق طريقه صعودًا إلى قمَّته بقوَّة بهيمية مُفزعة. ظل مايك واقفًا لحظاتٍ أخرى، مُنتظرًا ليرى إن كان ذلك الصوت الراشد الذي تحدَّث داخله مُحقًّا.. وأجل.. لقد كان كذلك بالفعل: فبعد تردُّدٍ ضئيل، انتشر الآخرون على السياج وبدأوا في التسلُّق بدورهم.

استدار مايك وعاود الركض، قاطعًا محطَّة القطارات، وظِله مُرابضٌ أسفل قدميه. كان قطار الشحن الذي شاهده الخاسرون يعبر البرِّية قد رحل منذ مُدَّة

طويلة الآن، ولم يكن يوجد صوتٌ في المكان سوى أنفاس مايك اللاهثة في أذنيه، وإيقاع اهتزاز السياج أسفل أقدام هنري والآخرين وهم يتسلَّقونه.

ركض مايك عبر ثلاثة أزواج من قضبان القطارات، وفردتا حذائه تنثران الرماد خلفه بينما هو يركض في الفراغات بين القضبان. تعثَّر في القضيب الثاني، وشعر ألمًا حارقًا يتوهَّج لحظيًّا في كاحله، ثم نهض وعاود الركض. سمع صوت الرطمة مع قفز هنري من أعلى السياج خلفه، ثم سمع هنري يصيح: «ها أنا آتٍ لإمساكك من قفاك أيُّها الزنجي!».

قرَّر عقل مايك المنطقي أن البرِّية ستكون ملاذه الوحيد الآن. إذا استطاع النزول إليها، سيتمكَّن من الاختفاء عن الأنظار بين الشُجيرات الكثيفة، أو بين أعواد الخيزران، أو -إن استدعى الأمر حقًّا- يمكنه الاختباء في إحدى أنابيب مصارف الأمطار وانتظار رحيلهم.

رُبَّما سيستطيع فعل أحد هذه الأشياء، لكن شرارة ساخنة من الغضب لا علاقة لها بذاته العاقلة المنطقية اندلعت في صدره. إنه يستطيع فهم سبب اعتداء هنري عليه كلما أُتيحت له الفرصة، لكن شيبس؟... يقتل شيبس؟ لم يكن كلبي زنجيًّا أيُّها النَّغل الحقير، هكذا فكَّر مايك وهو يركض، بينما يتنامى الغضب الحائر في صدره.

الآن سمع مايك صوتًا آخر، هذه المرَّة كان صوت والده: لا أريدك أن تعتاد الهروب طوال حياتك، كل ما عليك فعله أن تكون حذرًا وتنتقي مكان وموعد صمودك، كما يجب أن تسأل نفسك هل يستحق هنري باورز عناء المشكلات؟

كان مايك يركض في خطٍّ مُستقيم بطول محطَّة القطارات مُتَّجهًا صوب مستودعات التخزين، التي يوجد خلفها سياج حديدي آخر يفصل محطَّة القطارات عن البرِّية. كان يخطِّط لتسلُّق هذا السياج والعبور إلى الجانب الآخر، لكن بدلًا من ذلك انحرف إلى اليمين بعُنف، مُتَّجهًا نحو حُفرة الفحم.

ظلَّت حُفرة الفحم المهجورة تُستخدم كمخزنٍ للفحم حتَّى عام 1935 أو نحو ذلك. كانت نُقطة إذكاء نارٍ للقطارات التي تمرُّ بمحطَّة ديري. ثم جاءت قطارات الديزل، وبعدها القطارات الكهربائية، ولبضع سنوات بعد نفاد

الفحم (معظم ما تبقَّى منه سرقه الناس الذين يملكون أفرانًا تعمل بالفحم) راح مقاول محلِّي يستخرج الحصى منها، لكنه أفلس في عام 1955، ومن حينها والحُفرة مهجورة. كان ما زال يوجد خط سكَّة حديدي جانبي يمر في مسار على هيئة حدوة حصان حول الحُفرة ثم يعود إلى نقطة تحوِيل المسارات، لكن قضيبيه صدِئا، ونمت الأعشاب بين فواصلهما المتحلِّلة. هذه الأعشاب ذاتها كانت تنمو في الحفرة نفسها، وتتنافس على المساحة مع أزهار العِصِي الذهبية وعبَّاد الشمس، وبين الأعشاب والنباتات، كان لا يزال هناك كثيرٌ من أحجار الفحم غير الصالحة للاشتعال.. تلك البُرادة التي اعتاد الناس يومًا على تسميتها بالـ «خُبث».

ركض مايك إلى هذا المكان، ونزع قميصه، وصل إلى حافَّة الحُفرة ونظر خلفه. كان هنري قادمًا عبر القضبان، وعصابته تنتشر من حوله. هذا جيِّد، رُبَّما.

مُتحرِّكًا بأسرع ما يستطيع، ومُستخدمًا قميصه كلفَّة، التقط مايك حفنة وراء الأخرى من أحجار الفحم الصلبة. ثم ركض عائدًا إلى السياج مؤرجحًا قميصه إلى جواره، وبدلًا من تسلُّق السياج عندما بلغه، استدار حتَّى صار ظهره يلتصق به. ثم ألقى بالفحم من قميصه، وانحنى، والتقط كُتلتين منه.

لم يرَ هنري الفحم. كل ما رآه أن الزنجي حوصر عند السياج، فأسرع نحوه صارخًا.

صاح مايك غير عالمٍ أنه بدأ يبكي: «هذه من أجل كلبِي أيُّها اللقيط!»، وألقى بكتلة الفحم على طول ذراعه. طار الحجر في خطٍّ مُستقيم، وصدم جبهة هنري بدويٍ مكتوم. بونك! ثم ارتد عنه. ترنَّح هنري ساقطًا على رُكبتيه، وارتفعت يداه إلى جبهته. سالت الدماء من بين أصابعة في التوِّ، كحيلة ساحرٍ.

انزلق الآخرون على الأرض كابحين تقدُّمهم، وعلى وُجوههم ختمٌ موحَّد من عدم التصديق. صرخ هنري صرخةِ ألمٍ هائلة ونهض واقفًا من جديد وهو ما زال يمسك برأسه. رمى مايك كُتلة أُخرى من الفحم، فانحنى هنري وبدأ يسير نحوه، وعندما ألقى مايك الكُتلة الثالثة، أبعد هنري إحدى يديه عن جبهته المفتوحة ودفع قطعة الفحم بعيدًا ببساطة. كان يبتسم.

ثم قال: «أوه، لسوف تأتيك مُفاجأة غير سارَّة تمامًا. أوه يا إلهي!». حاول

هنري قول المزيد لكن لم يخرج من فمه سوى غرغرة صاخبة لا معنى لها.

ألقى مايك بقطعة فحم أخرى، وأصابت هذه هنري في حلقومه مُباشرة. تداعى هنري على رُكبتيه ثانيةً. فغر بيتر چوردون فاهُ، وقطَّب موس سادلر جبينه كأنه يحاول حل مسألة حسابية مُعقَّدة.

استطاع هنري أن يصيح: «ماذا تنتظرون يا رجال؟». كان الدم يسيل من بين أصابعه، وبدا صوته صدئًا وغريبًا وهو يقول: «أمسكوه! أمسكوا ماص الأعضاء الصغير هذا!».

لم ينتظر مايك ليرى إن كانوا سيطيعونه أم لا. ألقى بقميصه وقفز إلى السياج، وبدأ يجذب نفسه إلى أعلى عندما شعر بيدٍ قاسية تقبض قدمه. نظر إلى أسفل وشاهد وجه هنري الملتوي ألمًا، والمُلطَّخ بالدماء ورماد الفحم. انتزع مايك قدمه إلى أعلى، فانخلع حذاؤه في يدِ هنري. ركل مايك بقدمه العارية في وجه هنري وسمع صوت شيءٍ ينسحق. صرخ هنري ثانيةً، وأمسك الآن بأنفه الذي تفجَّر دمًا.

تعلَّقت يدٌ أخرى -يدُ بيلش- للحظة بطرف سراويل مايك الچينز، لكنه تمكَّن من التحرُّر منها، ثم عبر بساقه قمَّة السياج في اللحظة التي صدم شيءٌ فيها جانب وجهه بقوَّة هائلة. سال الدفء على وجنته. شيءٌ آخر صدم ردفه، وثالث ساعده، ورابع.. كانوا يرجمونه بذخيرته التي جمعها.

ظلَّ مايك مُتعلِّقًا لحظاتٍ معدودات بيديه ثم سقط أرضًا، وتدحرج مرَّتين. كانت الأرض المُنحدرة شديدة الميل هنا، ورُبَّما يكون ذلك ما أنقذ بصر مايك هانلون أو حتَّى حياته. كان هنري قد اقترب من السياج مرَّة أخرى، وألقى بواحد من صواريخ الـ M-80 الأربعة من فوق السياج. انفجر الصاروخ بدويٍّ هائل تردَّد صداه عاليًا، وصنع رُقعة عارية واسعة من الأرض وسط العُشب.

انقلب حال مايك رأسًا على عقب، وأصمَّ الطنين أذنيه، ثم وقف مُترنِّحًا على قدميه. كان يقف الآن في منطقة الحشائش العالية عند حافَّة البرِّية. مسح بيده على خدِّه الأيمن فخرجت دامية. لم يقلقه مرأى الدماء، فهو لم يكن يتوقَّع أن ينجو من هذا الموقف سليمًا.

ألقى هنري بقُنبلة حمراء، لكن مايك شاهدها هذه المرَّة وتحاشاها بسهولة.

زأر هنري: «لنُمسك به!»، وبدأ يتسلَّق السياج.

- «يا للمسيح يا هنري، لست مُتأكِّدًا...». كان ما يحدث تماديًا كبيرًا بالنسبة إلى بيتر چوردون، الذي لم يسبق له أن واجه موقف تحوَّل فجأة إلى مثل هذه الوحشية. لم يكن يفترض أن تؤول الأمور إلى إراقة الدماء -على الأقل في فريقك- عندما تكون الاحتمالات في المُستهل في صالحك.

صاح هنري: «من الأفضل لك التأكُّد»، وهو ينظر إلى بيتر من موقعه أعلى نصف السياج. ظلَّ مُعلَّقًا هناك كعنكبٍ مُتضخِّمٍ سامٍ ذي هيئة بشرية. نظرت عيناه المؤذيتان شَزْرًا إلى بيتر، والدماء تُلطِّخ جانبيها. لقد حطَّمت ركلة مايك أنفه، رغم أن هنري لن يعي هذه الحقيقة إلا مع مرور بعض الوقت. «من الأفضل لك التأكُّد، وإلا سأنال منك أيُّها الأحمق اللعين».

بدأ الآخرون في تسلُّق السياج، بيتر وڤيكتور ببعض التردُّد، وبيلش وموس بإصرارٍ شغوف لم يهدأ منذ البداية.

لم ينتظر مايك ليرى مزيدًا. التفت وأطلق ساقيه للريح في اتِّجاه الشجيرات المُتشابكة، بينما هنري يصيح من خلفه: «سأعثر عليك أيُّها الزنجي! سأعثر عليك!».

8

وصل الخاسرون إلى الجانب البعيد من حُفرة الحصى، التي لم تعد بعد مرور ثلاث سنوات منذ استخراج آخر حمولة حصى منها أكثر من جلطة معشوشبة عملاقة في جسد الأرض. تجمَّعوا جميعًا حول ستان، ينظرون بإعجابٍ إلى علبة مُفرقعات بلاك كات التي يحملها، عندما ترامى إلى مسامعهم صوت الانفجار الأوَّل. قفز إدي فَزِعًا. كان لا يزال يُفكِّر مُضطربًا في أسماك البيرانا التي ظنَّ أنه شاهدها (لم يكن واثقًا من شكل أسماك البيرانا الحقيقية، لكنه كان مُتأكِّدًا أنها ليست أسماكًا ذهبية بأسنانٍ حادَّة).

قال ريتشي مُتقمِّصًا صوت عاملٍ صيني: «هدِّئ من روعك، إدي يا بُني. إنهم مُجرَّد أطفال آخرين يطلقون بعض الألعاب النارية».

أبدى بيل مُلاحظة: «مـ-مـ-ملعون مـ-من أ-أ-أخبرك أ-أنك مـ-مـ-موهوب يا ر-ر-ريتشي». فضحك الآخرون.

- «سأواصل المحاولة يا بيل الكبير. أشعر أنني -إن تحسَّنت بما يكفي- سأنال حُبَّك يومًا ما».

قالها ريتشي وألقى إليه بقُبلة لذيذة في الهواء. أطلق بيل النار عليه بأصبعه، فيما وقف بن وإدي جنبًا إلى جنب يبتسمان في استمتاع.

صاح ستان يوريس مُقلِّدًا غناء بول أنكا ببراعة مُخيفة: «أوه، لكم أنا يافع، ولكم أنتِ عجوز، وقد قالوا لي يا عزيزتي إنه لا يجوز...».

صرخ ريتشي بصوت الخادم الزنجي الصغير: «إنه بارع في الغناء. رُحماك يا يسوع، ذلك الصبي هنا بارع في الغناء!»، ثم انتقل سريعًا إلى صوت مُذيع نشرة الأخبار وأعلن: «أريدك أن توقِّع هنا يا بُني، على هذا الخط المنقوط» ووضع ذراعه على كتفي ستان ومنحه ابتسامة كبيرة مُشرقة وأردف: «سنحتاج إلى أن نُطيل شعرك يا بُني، وسنعطيك جيتارًا ونُعلِّمك كيف تعزف عليه، و...».

خبَّط بيل مرَّتين على ذراع ريتشي، سريعًا وبلطف. كانوا جميعًا مُتحمِّسين لبدء إطلاق الألعاب النارية.

قالت بيفرلي: «افتحها يا ستان، معي بعض أعواد الثقاب».

احتشدوا ثانيةً حول ستان وهو يفتح بحرص علبة الألعاب النارية. ثمَّة حروف صينية غريبة على المُلصق الأسود، وتحذير جاد بالإنجليزية جعل ريتشي يضحك مُجدَّدًا. كان التحذير يقول: «لا تُحمل في اليد بعد إشعال الفتيل».

قال ريتشي: «جميل أنهم أخبروني. دائمًا ما أحملها في يدي بعد إشعال الفتيل. ظننت أنها الطريقة المُناسبة للتخلُّص من الجلد اللعين الزائد حول الظفر».

ببطء، وبتبجيل تقريبًا، أزال ستان السيلوفان الأحمر، ووضع مجموعة الأنابيب الزرقاء والحمراء والخضراء المصنوعة من الورق المقوَّى في راحة يده. كانت فتيلاتها مجدولة معًا في ضفيرة صينية.

قال ستان: «سأفك الـ...»، وقبل أن ينهي عبارته دوَّى انفجارٌ آخر أعلى

صوتًا، وتردَّد صداه ببطء عبر البرِّية. طارت سحابة من النوارس من الجانب الشرقي لمكبِّ النفايات وهي تصيح وتزعق. انتفض جميعهم في اللحظة نفسها. أسقط ستان مفرقعاته النارية، ثم بدأ في جمعها.

سألت بيفرلي في توتُّر: «أهذا ديناميت؟». كانت تنظر إلى بيل الذي رفع رأسه إلى أعلى واتَّسعت عيناه. فكَّرت بيفرلي أنه لم يبد أكثر وسامة من اللحظة قط، لكن ثمَّة تأهُّبًا شديدًا وحذرًا بالغًا في حركة رأسه، كأنه ظبيٌ يتشمَّم رائحة حريقٍ في الهواء.

قال بن ببطء: «هذه صواريخ M-80 على ما أظنُّ. في الرابع من يوليو الماضي كنت في الحديقة وكان بعض الفتية من المدرسة الثانوية معهم اثنان منها، ووضعوا واحدًا في صفيحة قمامة، وعندما انفجر أصدر صوتًا كهذا».

سأله ريتشي: «هل أحدث الصاروخ ثقبًا في الصفيحة يا كومة القش».

- «لا، لكنه جعلها تنبعج من أحد جوانبها. بدا الأمر كأن قزمًا داخلها لكمها بقبضته.. جميعهم ركض».

قال إدي: «هذا الانفجار الكبير أقرب»، ونظر بدوره إلى بيل.

سأل ستان: «أتريدون إشعال هذه يا رفاق أم لا؟». كان قد فكَّ نحو دزينة من المُفرقعات وأعاد رص الباقي بأناقة في الورق المشمَّع لاستخدامها لاحقًا.

قال ريتشي: «بالتأكيد».

- «ضـ-ضـ-ضعها بـ-بـ-بـعيدًا».

نظروا إلى بيل في تساؤل، وأصابهم بعض الخوف من نبرته القاطعة أكثر ممَّا قال.

كرَّر بيل: «ضـ-ضـ-ضعها بـ-بـ-بـعيدًا». كانت قسمات وجهه تلتوي من المجهود الذي يبذله لإخراج الكلمات، وتطاير الرذاذ من فمه. «شـ-شـ-شـيءٌ سـ-سـ-سيحدث».

لعق إدي شفتيه، وضبط ريتشي من وضع نظَّارته على أنفه بإبهامه، واقترب بن من بيفرلي أكثر دون تفكير.

فتح ستان فمه ليقول شيئًا، ثم دوى صوت انفجار آخر أقل صخبًا. إنها قنبلة حمراء أخرى.

قال بيل: «حـ-حجارة».

سأله ستان: «ماذا يا بيل؟».

بدأ بيل يلتقط حجارةً ويدسَّها في جيوبه حتَّى انتفخت. «حـ-حـ-حجارة. ذ-ذ-ذخيرة». رمقه الآخرون في تعجُّبٍ كأنه جُنَّ، ثم شعر إدي بالعرق يتفصَّد من جبينه.. وفجأة استشعر معنى الإصابة بهجمة ڤيروس الملاريا. لقد استشعر شعورًا مُماثلًا في ذلك اليوم عندما كان بصحبة بيل والتقى كلاهما بن (لفظ عقله اسم بن رغم أنه -كالآخرين- كان قد بدأ التفكير فيه بصفته كومة القش)، اليوم الذي أدمى فيه هنري باورز أنفه، لكن هذه المرَّة الشعور أسوأ. هذه المرَّة شعر أن مأساة هيروشيما ستتكرَّر هنا في البرِّية.

بدأ بن يجمع الصخور، وتبعه ريتشي، وقد بدأ يتحرَّك سريعًا دون استظرافٍ الآن. انزلقت نظَّارته على طول أنفه، ثم سقطت على الأرض المُغطَّاة بالحصى مُحدثة تكَّة، فطواها شاردًا ودسَّها في قميصه.

سألته بيڤرلي: «لم نزعت نظَّارتك يا ريتشي؟». خرج صوتها رفيعًا وشديد التوتُّر.

قال ريتشي وهو يواصل جمع الحجارة: «لا أعلم يا صغيرة».

قال بن: «بيڤرلي، رُبَّما من الأفضل لو، آه، تراجعتِ خلفًا ناحية مكبِّ النفايات لبعض الوقت». كانت يداه مليئتين بالحجارة.

قالت له: «تبًّا لهذا الهُراء.. تبًّا لكل هذا الهُراء يا بن هانسكوم»، وبدأت في جمع الحجارة بدورها.

نظر ستان إليهم وهم يجمعون الحجارة سريعًا كمُزارعين مجاذيب مُفكِّرًا، ثم بدأ يجمعها بدوره وهو يزمُّ شفتيه حتَّى لم يظهر منهما سوى خطٍّ رفيع نيِّق.

شعر إدي بإحساس الاختناق الذي يألفه جيِّدًا عندما بدأت حنجرته في الانغلاق إلى ثُقبٍ صغير.

وفكَّر فجأة: ليس هذه المرَّة. ليس وأصدقائي يحتاجونني. تبًّا لهذا الهُراء مثلما قالت بيڤ.

وبدأ يجمع الحجارة بدوره.

9

كان هنري باورز قد صار أضخم من أن يستطيع العدو بسُرعة أو رشاقة في ظل الظروف العادية، لكن هذه الظروف لم تكن عادية. كان في نوبة سُعار عارمة من الألم والغضب، ما أكسبه عنفوانًا جسديًّا هائلًا لا يُصدق. كان فكره الواعي قد غاب، وبدأ يشعر بعقله كحقل حشائش أُضرمت النيران فيه، يتوهَّج بالأحمر الوردي ويتصاعد الدُخان منه. لقد اندفع وراء مايك كثورٍ هائج في أثر علمٍ أحمر. كان مايك يركض في دربٍ بدائي على طول جانب الحُفرة الكبيرة، وهو المسار الذي يقود في النهاية إلى مكب النفايات، لكن هنري كان أكثر جنونًا وغضبًا من أن يتَّبع أيَّ شكلياتٍ مُخنَّثة كاستخدام الدروب نصف المُمهَّدة، بل شقَّ طريقه مُستقيمًا مُباشرةً عبر الشُجيرات والأجمات، غير شاعرٍ بالجروح الصغيرة التي تخمشها الأشواك في جلده، ولا صفعات فروع الشُجيرات التي تنهال على وجهه وعنقه وذراعيه. الشَّيء الوحيد الذي يهمه الآن هو رأس الزنجي المُجعَّدة، التي تقترب. كان هنري يُمسك بصاروخ M-80 في يدٍ وبعود ثقابٍ في اليد الأخرى. عندما سيمسك بالزنجي سيُشعل الثقاب، وبه سيُشعل الفتيل، ثم سيدس الشيء في لباس الزنجي الداخلي من الأمام.

أدرك مايك أن هنري يقترب منه وأن الآخرين في أعقابه. حاول حث نفسه على الركض أسرع. كان مجروحًا جرحًا بالغًا، ويحاول ألا يجزع ويحافظ على رباطة جأشه بجهدٍ جهيد. لقد التوى كاحله بشكل أسوأ ممَّا ظن في البداية وهو يعبر القضبان، وها هو الآن يتواثب عرجًا في أثناء تقدُّمه. استعدات أصوات التكسير والتحطُّم الآتية من تقدُّم هنري المتهوِّر المُخاطِر بكل شيءٍ إلى ذهنه رؤى غير سارة، وشعر أن كلبًا قاتلًا أو دُبًّا شريرًا يطارده.

اتَّسع المسار أمامه مُباشرةً، وتعثَّر مايك ساقطًا إلى حُفرة الحصى أكثر من ركضه إليها. تدحرج إلى القاع، ونهض على قدميه، وقطع منتصف الطريق عبرها قبل أن يدرك أن ثمَّة أطفالًا هناك.. ستَّة منهم. كانوا ينتشرون في خطٍّ

مُستقيم وعلى وجوههم تلوح نظراتٍ غريبة. لاحقًا، عندما ستتاح له الفُرصة لترتيب أفكاره، سيدرك جيِّدًا ما الغريب في أمر تلك النظرات التي لاحت على وجههم: كانوا يبدون كمن يتوقَّعون قدومه.

- «النجدة».

هكذا تمكَّن مايك من الصياح وهو يتقدَّم إليهم بقدمٍ عرجاء، ووجد نفسه غريزيًّا يتحدَّث إلى الصبي الطويل أحمر الشعر الذي يتوسَّطهم. «فتية... فتية كبار».

هنا اندفع هنري إلى حُفرة الحصى. شاهد الفتى الكبير ستَّتهم واقفين فانزلق بقدميه مُتوقِّفًا. مرَّت لحظة تكدَّر وجهه فيها بسحابة من الشكِّ ونظر خلفه من فوق كتفه. شاهد هنري جنوده، وعندما أعاد ناظريه إلى الخاسرين (كان مايك حاليًا يقف جوار بيل دِنبروه وخلفه قليلًا وهو ويلهث بعنف) كان يبتسم.

قال هنري مُتحدِّثًا إلى بيل: «أنا أعرفك يا غلام»، ثم إلى ريتشي: «وأعرفك أنت أيضًا، أين نظَّارتك يا ذا الأربع عيون؟»، وقبل أن يرد ريتشي، لمح هنري بن فصرخ: «يا أولاد القحاب! اليهودي والصبي البدين هنا أيضًا! أهذه خليلتك أيُّها البدين؟».

انتفض جسد بن قليلًا، كأن أحدهم نغزه.

في تلك اللحظة تقدَّم بيتر چوردون إلى جوار هنري، وجاء ڤيكتور ليقف إلى جانب هنري، وكان بيلش وسادلر آخر الواصلين وأحاطا ببيتر وڤيكتور. هكذا وقف الفريقان المتعارضان أحدهما في مواجهة الآخر في صفَّين أنيقين شبه رسميين.

لاهثًا بكثافة، قال هنري وهو ما زال يبدو كثورٍ آدميٍّ صغير: «هناك حسابٌ عسيرٌ أريد تسويته مع كثيرٍ منكم، لكنني سأتغاضى عنه اليوم. أريد ذلك الزنجي. لذا من الأفضل لكم أن تتراجعوا أيُّها الأوغاد الصغار».

قال بيلش مُتذاكيًا: «صحيح!».

- «لقد قتل كلبي!»، هكذا صاح مايك. كان صوته راجفًا ومُتكسِّرًا. «لقد اعترف بذلك!».

قال هنري: «فلتأتِ إلى هنا حالًا، ورُبَّما لن أقتلك حينها».
ارتجف مايك لكنه لم يتحرَّك.
قال بيل مُتحدِّثًا بهدوء ووضوح: «البـ-برِّية ملكنا. أنتم الذين يجب أن ترحلوا يا أ-أ-أولاد».
اتَّسعت عينا هنري عن آخرهما كأنه صُفِع على وجهه بغتةً.
سأله: «ومن سيجبرني على ذلك؟ أنت يا أخرق؟».
قال بيل: «نـ-نـ-نحن. لقد نـ-نـ-نلنا كفايتنا من هـ-هـ-هرائك يا بـ-باورز. غـ-غـ-غادر».
قال هنري: «أيُّها المتلعثم الشَّاذ». ثم خفض رأسه واندفع مُهاجمًا.
كان بيل يحمل حفنة من الحجارة.. كانوا جميعهم يحملون حفنة من الحجارة ما عدا مايك وبيڤرلي، الأخيرة كانت تحمل حجرًا واحدًا. بدأ بيل يصوِّب على هنري، دون أن يستعجل رمياته، بل راح يقذفها ببطء ودقَّة عالية. طاش الحجر الأوَّل، وضرب الثاني كتف هنري، ولو كان الحجر الثالث قد طاش، الحجر الثالث، لاصطدم هنري ببيل وصرعه أرضًا، لكنه لم يطش، بل ضرب هنري أسفل جبهته.
صرخ هنري في ذهولٍ وألم، ثم رفع ناظريه لـ... ليُضرب بأربعة حجارة أخرى في اللحظة ذاتها: ضربة رقيقة الحاشية من ريتشي توزيه على صدره، وواحدة من إدي ارتدت عن لوح كتفه، وواحدة من ستان يوريس صدمته في ذقنه، وحجر بيڤرلي الوحيد، الذي ضربه في معدته.
نظر إليهم في عدم تصديق، وفجأة امتلأ الهواء بقذائف ملأت الأجواء أزيزًا. سقط هنري على ظهره، وعلى وجهه التعبير المتألِّم المتحيِّر ذاته، وصرخ قائلًا: «هلموا يا رفاق! ساعدوني!».
قال بيل بصوتٍ خفيض: «هـ-هـ-هاجموهم»، ودون أن ينتظر إن كانوا سيطيعونه أم لا، اندفع راكضًا أمامًا.
جاءوا معه، وهم يلقون بالحجارة لا على هنري فحسب بل على الجميع. كان الفتية الكبار مُنكفئين على الأرض بحثًا عن ذخيرة لأنفسهم، لكن قبل أن يجمعوا عددًا كافيًا، أُمطروا بوابلٍ من الحجارة. صرخ بيتر چوردون

عندما صدمه حجرٌ قذفه بيل في عظم وجنته وأدماه. تراجع إلى الخلف بضع خطوات، وهو يرمي حجارةٍ مُتردِّدة مُرتعشة، ثم أطلق ساقيه للريح هاربًا. لقد نال كفايته.. الأمور لا تتفاقم هكذا في غرب برودواي.

استولى هنري على حفنة من الحجارة في لفتة كاسحة وحشية. كان مُعظمها -من حسن حظِّ الخاسرين- مُجرَّد حصى. ثم ألقى بإحدى الحصوات الكبيرة على بيڤرلي فجرحت ذراعها، وصرخت.

مُطلقًا خوارًا، اندفع بن إلى هنري باورز، الذي نظر حوله في الوقت المناسب ليراه قادمًا لكن ليس ليتفاداه. اختُل توازن هنري. إن بن يزن مئة وخمسين رطلًا وفي طريقه إلى المئة وستين.. لم تكن توجد أدنى منافسة. لم يتدحرج هنري فحسب، بل طار مُحلِّقًا في الهواء، ثم هبط على ظهره وانزلق. ركض بن نحوه وهو يشعر بالكاد بالدفء والألم الطازج في أذنه، بعد أن أصابه بيلش هاجنز بحجرٍ في حجم كرة الجولف تقريبًا.

كان هنري ينهض مهزوزًا على يديه ورُكبتيه عندما وصل بن إليه وعالجه بركلة قويَّة من قدمه في فخذه الأيمن. انقلب هنري ساقطًا على ظهره بعنف، وعيناه تقذفان بشررٍ في وجه بن.

صاح بن: «ليس من اللائق أن تضرب الفتيات بالحجارة!». لم يكن يتذكَّر أنه شعر بمثل هذا الغضب في حياته من قبل قط. «ليس من اللائق!».

ثم رأى الشُعلة التي في يد هنري عندما أشعل هنري عود ثقابه ولمس به فتيل صاروخ الـ M-80، قبل أن يُلقيه في وجه بن. تحرَّك بن دون أدنى تفكير وقابل الصاروخ براحة يده، ضاربًا إيَّاه كما يضرب المرء الكُرة في لعبة كُرة الريشة. ارتد الصاروخ وسقط أرضًا. رآه هنري يقترب. اتَّسعت عيناه ثم انقلب مُتدحرجًا وهو يصرخ. انفجر الصاروخ في جزءٍ من الثانية بعدها، مسوِّدًا قميص هنري من الخلف ومُمزِّقًا أجزاءً منه.

بعدها بلحظة، ضرب موس سادلر بن وأُسقِطَ على رُكبتيه. اصطكَّت أسنانه معًا قاضمةً لسانه، ونزفت الدماء منه. اسودَّ لون العالم، وطرف بن بعينيه حوله مُصابًا بدوارٍ. كان موس آتيًا صوبه، لكن قبل أن يصل إلى المكان

الذي كان راكعًا فيه، جاء بيل من خلفه وبدأ يرشق الفتى الضخم بالحجارة. التفت موس خلفه هادرًا.

صرخ موس: «أتضربني من الخلف أيُّها الجبان! أيُّها المقاتل القذر اللعين!».

استجمع موس شتات نفسه ليهاجم، لكن ريتشي انضم إلى بيل وبدأ بدوره في رشق موس بالحجارة. لم يتأثَّر بيل بخطبة موس العصماء عمَّا يُعد أو لا يُعد سلوكًا حقيرًا جبانًا؛ لقد شاهد خمسة فتية يطاردون فتًى وحيدًا مذعورًا، ولم يكن يظن أن ذلك يضعهم في مرتبة نُبل الملك آرثر وفرسان المائدة المُستديرة. إحدى قذائف ريتشي شجَّت الجلد فوق حاجب موس الأيسر، فجأر موس صارخًا من الألم.

تحرَّك كلٌ من إدي وستان يوريس لينضمَّا إلى بيل وريتشي، واقتربت بيقرلي معهما بذراعٍ نازف لكن بعينين مُتنمِّرتين تمامًا. طارت الحجارة. صرخ بيلش هاجنز عندما صدمت إحداها عصب كوعه، وراح يتقافز كاللقلق داعكًا كوعه. نهض هنري واقفًا على قدميه، وظهر قميصه يتدلَّى في خرقٍ مُمزَّقة، والجلد أسفله كان سليمًا لم يتأذَّ بمُعجزةٍ ما.. لكن قبل أن يتمكَّن من الالتفات إليهم، رشقه بن بحجرٍ في مؤخِّرة رأسه أسقطه أرضًا من جديد.

كان ڤيكتور كريس من أوقع مُعظم الضرر بالخاسرين في ذلك اليوم، يرجع ذلك جزئيًّا لأنه كان ضارب بيسبول بارعًا إلى حدٍ كبير، لكن الأهم من ذلك –وللمفارقة– لأنه كان أقلهم انخراطًا شعوريًّا. كان الشعور بعدم الرغبة في الوجود هنا يتزايد باطِّراد في صدر ڤيكتور. إن الناس يُصابون إصاباتٍ بالغة في مُناوشات الحجارة: قد تُكسر جمجمة أحدهم، أو تتحطَّم أسنان الآخر، وقد يفقد ثالث عينًا. لكنه ما دام موجودًا، فلا بُدَّ أن يُثبت وجوده. كان عازمًا على إحداث بعض الضرر الحقيقي.

رزانته الشعورية هذه مكَّنته من أخذ ثلاثين ثانية إضافية في جمع حفنة من الصخور معقولة الحجم. رمى واحدة منها على إدي في حين ما كان الخاسرون يعيدون الاصطفاف في خط مناوشتهم، وقد ضربت الصخرة إدي في ذقنه. سقط إدي أرضًا صارخًا، وبدأت الدماء تتدفَّق من أسفل وجهه.

التفت بن إليه لكن إدي عاود النهوض مُجدَّدًا والدماء تلتمع بشناعة في مقابلة جلده الشَّاحب وقد ضيَّق عيناه.

رمى ڤيكتور على ريتشي وارتدَّ الحجر عن صدر الأخير. ردَّ ريتشي رميته برمية لكن ڤيك انحنى متجاوزها بسهولة، ورمى حجرًا أُفُقيًّا على بيل دِنبروه. نخع بيل رأسه إلى الخلف، لكن ليس بسُرعة كافية، وفتح الحجر جرحًا عميقًا في وجنته.

التفت بيل إلى ڤيكتور، وتلاقت أعينهما، ورأى ڤيكتور شيئًا في عيني الصبي المُتلعثم أثار فزعه تمامًا. أعتذر عمَّا فعلت، هكذا ارتعشت الكلمات بخوفٍ وعلى نحوٍ سخيف خلف شفتي ڤيكتور، لكن هذا ليس شيئًا يقال لصبيٍّ صغير.. ليس إذا كنت لا تريد لرفاقك أن يصنِّفوك كمُخنَّثٍ أو ما هو أدنى.

الآن، بدأ بيل في السير تجاه ڤيكتور، وبدأ ڤيكتور بالسير تجاه بيل. ثم في اللحظة ذاتها، وكأنما بفعل إشارة وجدانية غير منطوقة، بدأ كلاهما في رشق الآخر بالحجارة، وهما مُستمرَّان في تقليص المسافة. تراخى العراك من حولهما مع التفات الآخرين إليهما للمُراقبة.. حتَّى هنري أدار رأسه.

كان ڤيكتور ينحني ويراوغ، لكن بيل لم يبذل مجهودًا يُذكر، وتلقَّى حجارة ڤيكتور على صدره ومنكبيه وبطنه. جرحت إحداها أُذُنه، وواصل بيل رمي أحجاره واحدًا تلو الآخر، مصوِّبًا إيَّاها بدقَّة وقوَّة قاتلين، دون أن يهتم بالضربات التي يتلقَّاها كما يبدو. ضرب الحجر الثالث رُكبة ڤيكتور وصدر صوت تكسُّرٍ هش فصاح ڤيكتور بأنَّةٍ مكتومة. كانت الذخيرة قد نفدت منه، وتبقَّى مع بيل حجرٌ واحد. كان حجرًا ناعمًا وأبيض اللون، مشوَّبًا بالكوارتز، وفي حجم بيض البطِّ تقريبًا، وقد بدا صلدًا ومُؤلمًا جدًّا في ناظري ڤيكتور.

كان بيل يبعد أقل من خمسة أقدام عنه.

قال له: «ا-ارحل عـ-عن هنا الآن، وإ-إلا سـ-سـ-سأفتح لك دماغك، أنا أ-أ-أعني مـ-ما أقول تمامًا».

نظر ڤيكتور إلى عينيه، وأدرك أنه لا يمزح. لذا من دون كلمة أخرى، استدار على عقبيه وعاد في الطريق الذي سلكه بيتر چوردون.

أخذ بيلش وموس سادلر ينظران حولهما في ريبة. سالت الدماء من رُكن فم ابن آل سادلر، ومن جرحٍ في فروة رأس بيلش تدفَّقت دماءٌ غزيرة.

حاول هنري التلفُّظ بشيءٍ، لكن صوتًا لم يخرج من حنجرته.

التفت بيل إلى هنري وقال: «ا-ا-ارحل».

- «وماذا لو لم أفعل؟». قالها هنري محاولًا أن يبدو صلدًا، لكن بيل كان يرى شيئًا مُختلفًا الآن في عيني هنري. كان خائفًا، ولسوف يرحل. كان من المُفترض أن يجعل هذا الأمر بيل يشعر بالسعادة -بل النصر- لكنه لم يشعر سوى بالتعب.

قال بيل: «إ-إ-إذا لم تـ-ترحل، سـ-سـ-سوف نـ-نـ-نتكاتل عليك ونـ-نبرحك ضربًا. أظنُّ أن سـ-سـ-ستَّتنا قادرون على إ-إ-إيداعك في المـ-مُستشفى».

قال مايك: «سبعة»، وانضم إليهم. كان يحمل حجرًا في حجم كرة التنس في كل يدٍ. «فقط جرِّبني يا باورز. لكم أحب ذلك».

- «أيُّها الزنجي اللعين!». هكذا صاح هنري بصوتٍ مرتعش يُوشك على البُكاء. هذا الصوت أفتر آخر ذرَّة عزيمة للقتال في صدريّ بيلش وموس، وتراجع كلاهما والحجارة تتساقط من أيديهما المُرتخية. نظر بيلش حوله كأنه يتساءل أين هو.

قالت بيڤرلي: «غادروا مكاننا».

قال هنري: «اخرسي يا مومس. يا...». طارت أربعة حجارة في وقتٍ واحد وضربت هنري في مواضع مُختلفة. صرخ هنري وزحف مُتراجعًا إلى الوراء فوق الأرض المعشوشبة، وأسمال قميصه البالية ترفرف من حوله. نقل بصره من وجوه الصبية الصغار اليانعة الراشدة المُتجهِّمة، إلى وجهي بيلش وموس المذعورين. لم يرَ فيهُما استعدادًا لمُساعدته... على الإطلاق. استدار موس مُبتعدًا، شاعرًا بالخزي.

نهض هنري واقفًا، وقال وهو ينشج ويشهق من أنفه المكسور: «سأقتلكم جميعًا»، وركض فجأة عائدًا عبر الدرب... وبعدها بلحظة، كان قد اختفى.

قال بيل مُتحدِّثًا إلى بيلش: «هـ-هيًّا. ا-ارحل ولا تـ-تأت إلى هـ-هـ-هنا ثانيةً. البـ-برِّية مـ-مـ-ملكنا».

قال بيلش: «ستتمنَّى لو لم تعرض طريق هنري يا صبي. هيًّا بنا يا موس».

ثم غادرا مُنكَّسي الرأس دون أن ينظرا خلفهما.

وقف سبعتهم في نصف دائرة مُفكَّكة، كلٌّ منهم ينزف من مكانٍ ما في جسده. لم تستمر مُناوشة الحجارة المُروِّعة أكثر من أربع دقائق، لكن بيل شعر أنه قاتل طوال الحرب العالمية الثانية، على كلتا الجبهتين، وبلا هوادة.

كُسِر الصمت بشهيق إدي وصفيره وهو يكافح من أجل الهواء. اتَّجه بن ناحيته وهو يشعر بقطع توينكيز الثلاث وكعكات دينج-دونجز الأربع التي التهمها في طريقه إلى البرِّية تتلبَّك وتبدأ في التصارُع في أحشائه، ثم عبر إدي واتَّجه صوب الأجمات الخفيضة حيث يستطيع التقيُّؤ في هدوء وخصوصية بقدر ما يستطيع.

من قصدا إدي كانا ريتشي وبيڤ. طوَّقت بيڤرلي خصر الفتى الناحل بذراعها، فيما بحث ريتشي في جيوبه عن بخَّاخه وأخرجه قائلًا: «عُضَّ على هذا يا إدي».

أخذ إدي نفسًا عميقًا شاهقًا عندما ضغط ريتشي الزناد، وفي النهاية تمكَّن من قول: «شكرًا».

خرج بن من خلف الأجمات بوجهٍ متورِّد، وهو يمسح فمه بظهر يده. ركضت بيڤرلي إليه وأمسكت كلتا يديه في يديها.

قالت له: «شكرًا لدفاعك عنِّي».

أومأ بن ناظرًا إلى حذاءيه المُتَّسخين، وقال: «تحت أمرك في أيِّ وقتٍ يا صغيرة».

واحدٌ تلو الآخر، نظروا جميعًا إلى مايك.. مايك ذي البشرة الغامقة. رمقوه حريصين، حذرين، مُفكِّرين. كان مايك قد شعر بمثل هذا الفضول من قبل -في الحقيقة لم يمرُّ عليه وقت في حياته لم يشعر فيه به- وقد بادلهم نظراتهم بصراحة ووضوح كافيين.

نقل بيل بصره من مايك إلى ريتشي، فالتقى ريتشي عينيه. شعر بيل أنه

بالكاد سمع صوت تكَّةٍ.. تكَّةِ ترسٍ أخير يتعشَّق بأناقة ودقَّة في مكانه في جسد آلةٍ غير معلومة الغرض. شعر بيل بالقشعريرة تغزو عموده الفِقَري، وفكَّر: لقد اكتمل نصابنا الآن. كانت الفكرة مُلحَّة وقويَّة جدًّا... وصحيحة تمامًا، لدرجة أنه ظن أنه قد ينطق بها جهرًا. لكن لم يكن ثمَّة داعٍ لنطقها جهرًا من دون ريب. إنه يراها جليَّة في عيني ريتشي، وبن، وإدي، وبيفرلي، وستان.

فكَّر بيل ثانيةً: لقد اكتمل نصابنا الآن. ساعدنا يا إلهي. الآن يبدأ كل شيءٍ حقًّا. أرجوك يا إلهي، أرجوك ساعدنا.

سألت بيفرلي مايك: «ما اسمك يا فتى؟».

- «مايك هانلون».

سأله ستان: «هل تود إطلاق بعض الألعاب النارية؟». كانت ابتسامة مايك جوابًا شافيًا تمامًا.

الفصل الرَّابع عشر

ألبوم الصور

1

كما اتَّضح، لم يكن بيل وحده من أحضر الخمر، بل جميعهم فعل.

أحضر بيل زُجاجة بوربون، وجاءت بيفرلي بفودكا وصندوق من عصير البرتقال، وريتشي بنصف دزينة من البيرة، وبن هانسكوم بزجاجة وايلد تركي. أما مايك فكان يحتفظ بنصف دزينة أخرى من البيرة في ثلَّاجة استراحة الموظَّفين.

كان إدي كاسبراك آخر من وصل، وكان يحمل كيسًا ورقيًّا بُنِّيًّا صغيرًا.

سأله ريتشي: «ماذا تحمل معك يا إدي؟ شراب الفاكهة زا-ركس أم مسحوق كول-آيد المُحلَّى؟».

مُبتسمًا في توتُّر، أخرج إدي زجاجة چين أوَّلًا، ثم زجاجة عصير برقوق.

قال ريتشي قاطعًا الصمت الثقيل الذي تلى ذلك: «فليتَّصل أحدكم بمُستشفى المجاذيب. لقد فسدت أخلاق إدي كاسبراك أخيرًا».

قال إدي مُدافعًا عن نفسه: «الچِن وعصير البرقوق مُفيدان جدًّا للصحة في حقيقة الأمر». ضجُّوا جميعًا بالضحك، وتردَّد صدى مرحهم في جنبات المكتبة الساكنة، ساريًا عبر الممرِّ الزُجاجي من مكتبة الكبار إلى مكتبة الأطفال.

قال بن ماسحًا عينيه الدامعتين: «استمر يا إدي.. استمر. أراهن أنهما يُسهلان دخول الحمَّام أيضًا».

مُبتسمًا، ملأ إدي ثلاثة أرباع كوبٍ ورقي بعصير البرقوق، ثم بحرص أضاف جرعتين صغيرتين من الچِن.

قالت بيڤرلي: «أوه يا إدي، لكم أحبك»، فنظر إدي إليها مشدوهًا وهو يضحك، ودارت بيڤرلي بعينيها حول المنضدة وأردفت: «لكم أحبكم جميعًا».

قال بيل: «ونـ–نحن أيضًا نحبك يا بـ–بيڤ».

قال بن: «أجل، نحن نحبك»، ثم اتَّسعت عيناه قليلًا وضحك مضيفًا: «أظنُّ أننا جميعًا ما زلنا نحب بعضنا بعضًا... أتدركون مدى نُدرة مثل هذا الأمر؟».

مرَّت لحظة من الصمت، ولم يكن مايك مُتفاجئًا حقًّا من رؤية ريتشي مُرتديًا نظَّارته من جديد.

قال ريتشي بإيجاز عندما سأله مايك: «لقد أحرقتني عدساتي اللاصقة. أليس من الأفضل أن ندخل مُباشرةً في صلب الموضوع؟».

نظر جميعهم إلى بيل كما فعلوا قديمًا عند حُفرة الحصى، وفكَّر مايك: إنهم دائمًا ما يتَّجهون بأنظارهم إلى بيل عندما يحتاجون قائدًا، وإلى إدي عندما يحتاجون ملَّاحًا. ندخل مُباشرةً في صلب الموضوع. يا لها من عبارة! هل أُخبِرهم أن جثث الأطفال التي عُثر عليها قديمًا وحديثًا لم تُنتهك جنسيًّا، ولم تُشوَّه أو يُمثَّل بها، بل كانت مأكولة جُزئيًّا؟ هل أخبرهم أنني أحتفظ بسبعة خوذات تعدين، من تلك المُزوَّدة بكشَّاف ضوءٍ قوي في مُقدِّمتها، إحداها لأجل ستان يوريس الذي «لم يظهر على المسرح»، كما اعتدنا أن نقول قديمًا؟ أم هل يكفي أن أُخبِرهم أن يعودوا إلى الفندق ويحظوا بنوم جيِّد، لأن الأمر سينتهي صباح غدٍ أو ليلة غدٍ إلى الأبد، إما بنهايتنا أو بنهاية الشَّيء؟

ربَّما لا داعي لقول أيٍّ من هذه الأشياء، والسَّبب وراء عدم جدوى ذكرها قد سبق وأن قيل بالفعل: إنهم ما زالوا يُحبون بعضهم بعضًا. لقد تغيرَّت أشياء كثيرة خلال آخر سبعٍ وعشرين سنة، لكن هذا الحب –بمُعجزةٍ ما– لم يتغيَّر، وجد مايك نفسه يُفكِّر: وهذا أملنا الوحيد.

الشيء الوحيد الباقي هو إنهاء رحلة الذكريات، إتمام مَهمَّة اللحاق بالركب، تشبيك الحاضر بالماضي لإغلاق الدائرة. فكَّر مايك: أجل، هذا هو

المطلوب. إن مهمَّة الليلة هي صُنع العجلة، ولنرَ غدًا إن كانت لا تزال قادرة على الدوران، كما فعلت قديمًا عندما طردنا الفتية الكبار من حُفرة الحصى وخارج البرِّية.

سأل مايك ريتشي: «هل تذكَّرت البقية؟».

ابتلع ريتشي جرعة من البيرة وهزَّ رأسه: «تذكَّرت كلامك عن الطائر... وعن حُفرة الدُّخان»، ثم شاعت ابتسامة كبيرة على وجهه. «تذكَّرت الأخيرة وأنا في طريقي الليلة إلى هنا بصحبة بن وبيڤرلي. كم كانت تجربة تلك الحُفرة أشبه بعرض فيلم رُعب لعينٍ داعر...».

قالت بيڤرلي باسمة: «بيب-بيب يا ريتشي».

- «حسنًا، أنتم تعرفون». هكذا قال ريتشي والابتسامة لا تزال على وجهه، وأرجع نظَّارته إلى نهاية أنفه في لفتة ذكَّرتهم بريتشي القديم بدرجة مُخيفة. ثم غمز إلى مايك: «أنا وأنت، أليس كذلك يا مايكي ؟».

شخر مايك ضاحكًا وأومأ.

صاح ريتشي في صوت الخادم الزنجي الصغير: «سيِّدة سكارليت! سيِّدة سكارليت! المكان مُتَّسع بعض الشيء في منزل الدُخان يا سيِّدة سكارليت!».

قال بيل ضاحكًا: «كانت انتصارًا هندسيًّا ومعماريًا آخر من إبداع بن هانسكوم».

أومأت بيڤرلي قائلة: «كنا نحفُر مقرِّ النادي عندما أحضرت ألبوم صور والدك إلى البرِّية يا مايك».

قال بيل وقد انتصب بغتةً في جلسته: «يا للمسيح. لقد تحرَّكت الصور...».

أومأ ريتشي عابسًا: «الحيلة نفسها التي حدثت في غُرفة چورچي، لكن هذه المرَّة جميعنا رآها».

قال بن: «لقد تذكَّرت ماذا فعلنا بذلك الدولار الفِضِّي».

التفت جميعهم إليه.

قال بن برويَّة: «لقد أعطيت الدولارات الثلاثة الأخرى إلى صديقٍ لي قبل أن آتي إلى هنا.. من أجل أطفاله، وكنت أتذكَّر أنه ثمَّة دولارٍ رابع، لكنني لم أستطع تذكُّر ماذا حدث له. الآن أتذكَّر» ثم نظر إلى بيل وأردف «لقد صنعنا

قذيفة فِضِّية منه، أليس كذلك؟ أنا وأنت وريتشي. في البداية كنا سنصنع رصاصة فِضِّية...».

قال ريتشي مؤكِّدًا كلامه: «كنتَ واثقًا من أنك ستستطيع صنعها، لكن في النهاية...».

أومأ بيل ببطء وقال: «جَبُنّا وتراجعنا عن الفكرة». لقد عادت الذكرى إلى مكانها في عقله بأناقة، وقد سمع نفس التكَّة الخفيضة الجليَّة عندما حدث ذلك. نحن نقترب، هكذا فكَّر.

قال ريتشي: «لقد عُدنا جميعًا إلى شارع نيبولت».

قال بن فجأة لبيل: «لقد أنقذت حياتي يا بيل الكبير»، فهزَّ بيل رأسه نافيًا.

أصرَّ بن: «لكنك فعلت»، وهذه المرَّة لم يهز بيل رأسه. لقد اشتبه في أنه رُبَّما فعل ذلك حقًّا، رغم أنه لا يتذكر حتَّى الآن كيف فعلها... وهل كان هو من أنقذه؟ إنه يظن أن بيفرلي هي التي فعلتها... الذكرى ما زالت مُشوَّشة لم تتضح.. ليس الآن على أيِّ حال.

قال مايك: «اعذروني لحظة. سأحضر بعض البيرة من الثلَّاجة الخلفية».

قال ريتشي: «خذ واحدة مني».

قال مايك: «هانلون لا يحتسي بيرة الرَّجُل الأبيض.. ليست بيرتك تحديدًا يا سليط اللسان».

قال ريتشي بشكلٍ جاد: «بيب-بيب يا مايكي»، وذهب مايك لجلب البيرة مصحوبًا بموجة دافئة من ضحكاتهم.

أضاء مايك أنوار الاستراحة، وهي غرفة صغيرة مُبتذلة بها كراسي رثَّة، وأدوات مطبخ في حاجة ماسَّة إلى التنظيف، ولوحة نشرات مليئة بالإشعارات القديمة ومعلومات عن الأجور وساعات العمل وحفنة من رسوم مجلَّة نيويوركر تحوَّلت الآن إلى اللون الأصفر وانبعجت حوافها. فتح مايك الثلَّاجة الصغيرة وشعر بصدمة مُفاجِئة تغوص عميقًا في روحه، إلى النخاع، باردة كالثلج، بالطريقة ذاتها الذي يغوص بها برد فبراير في عظامك عندما يأتي فبراير ويكون أبريل بعيد المنال كأنه لن يأتي أبدًا. انجرفت عشرات البالونات الزرقاء والبرتقالية خارجة من الثلَّاجة كأنهم في حفل رأس السنة،

وفكَّر مايك مُشوَّشًا وسط ذعره: كل ما ينقصنا أن يأتي جاي لومباردو ويعزف «نشيد الوداع». لامست البالونات وجهه وارتفعت إلى السقف. حاول الصراخ ولم يقو عليه عندما سقطت عيناه على ما يقبع وراء البالونات، على ما يبرز من الثلاجة جوار زجاجات البيرة كأنه وجبة خفيفة جاهزة للأكل ليلًا بعد أن يحكي أصدقاؤه قصصهم عديمة القيمة ويذهبوا إلى أسرَّتهم المُستأجرة في هذه المدينة التي لم تعد ديارهم بعد الآن.

تراجع مايك خلفًا ووضع يديه على وجهه مُغلقًا مجال رؤيته. تعثَّر في أحد المقاعد، وكاد أن يسقط، فأزال يديه بعيدًا. إنه ما زال هناك لم يغادر.. رأس ستان يوريس المقطوع القابع جوار زجاجات بيرة باد لايت، رأس الطفل ذي الأحد عشر عامًا لا رأس الرَّجُل الذي صاره. كان الفم مفتوحًا في صرخة صامتة لكن مايك لم ير الأسنان ولا اللسان لأن الفم كان محشوًّا بالريش.. ريش بُنِّي فاتح وكبير لدرجة لا تُصدَّق. كان مايك يعرف جيِّدًا الطائر صاحب هذا الريش. أوه أجل، دون شك. لقد شاهد الطائر في مايو من عام 1958، وشاهده جميعهم في أغسطس من العام نفسه، ثم بعدها بسنوات، عندما كان يزور أباه المُحتضر، اكتشف أن ويل هانلون شاهده مرَّة بدوره بعدما هرب من حريق ملهى بلاك سبوت. تقاطرت الدماء من عُنُق ستان المُمزَّق وكوَّنت بركة مُتخثِّرة على رفِّ الثلَّاجة السُفلي. كانت تلتمع بلونٍ ياقوتي أحمر داكن أسفل الضوء الواضح العنيد الذي يلقيه مصباح الثلَّاجة.

- «آه... آه... آه...». كان ذلك كل ما خرج من حلق مايك، ولم يتمكَّن من إصدار صوتٍ آخر غيره. ثم فتح الرأس عينيه، وكانتا عيني المُهرِّج بيني وايز الفِضِّية اللامعة. دارت العينان في محجريهما واستقرَّتا عليه، وبدأت شفتا الرَّأس تتلوَّى حول الفم المليء بالريش.. إنها تحاول التحدُّث! رُبَّما تحاول لفظ نبوءة كالعرَّافات في المسرحيَّات اليونانية.

فكَّرت أن أنضم إليكم يا مايك لأنكم لا تستطيعون الانتصار من دوني. لا تستطيعون الانتصار من دوني وأنتم تعلمون هذا، أليس كذلك؟ رُبَّما سيكون لديكم فرصة إن انضممت إليكم بكامل جسدي، لكنني لا أستطيع تحمُّل كل هذا الإجهاد، بطول البلاد، إن كنتم تعلمون ما أعني يا أولاد. كل ما يمكنكم

القيام به يا معشر الستَّة هو محاولة تذكُّر الأيَّام الخوالي، ومن ثم التسبُّب في قتل أنفسكم. لذا فكَّرت أن أشير برأسي إليكم إلى الطريق الصحيح. أشير برأسي إليكم، هل وصلتك الدعابة يا مايكي؟ هل وصلتك يا صديقي القديم؟ هل وصلتك يا حثالة الزنوج؟

أنت لست حقيقيًّا! هكذا صرخ مايك، لكن صوته لم يخرج، إنه كتلفازٍ أُخفِض صوته إلى أدنى درجة.

ثم بصورة مُقزِّزة، وبالغة البشاعة، غمز الرَّأس إليه.

أنا حقيقي تمامًا، حقيقي كقطرات المطر، وأنت تعلم ما الذي أتحدَّث عنه يا مايكي. ما تحاولون أنتم الستَّة فعله أشبه بمحاولة إقلاع بطائرة نفَّاثة لا عجلات هبوطٍ لها. لا معنى للإقلاع إذا كنت غير قادرٍ على الهبوط ثانيةً، أليس كذلك؟ لا معنى للرقود إذا كنت لا تستطيع النهوض ثانيةً أيضًا. لن تنجحون أبدًا في التفكير في الألغاز والنِكات الصحيحة. لن تنجحون في إضحاكي قط يا مايكي. لقد نسيتم جميعًا كيف تحيلون صرخاتكم إلى ضحكات. بيب-بيب يا مايكي، ما قولك؟ أتذكُر الطائر؟ لم يكن سوى عُصفور، لكن حدِّث ولا حرج! لقد كان رائعًا، أليس كذلك؟ ضخمًا كحظيرة، ضخمًا كأحد وحوشِ تلك الأفلام اليابانية السخيفة التي اعتادت إخافتك وأنت طفل صغير. لقد ولَّت الأيَّام التي عرفت فيها كي تهشَّ هذا الطائر بعيدًا عن نافذتك وعن رأسك. ثق في كلامي يا مايكي. إن كنت ذكيًّا وتعرف كيف تُشغِّل دماغك جيِّدًا، ستهرب من هنا، من ديري برُمَّتها، وفورًا.. وإن كنت لا تعرف كيف تُشغِّلها، فسينتهي بها الحال كهذه الدماغ التي أُحدِّثك منها. حكمة اليوم أن تستخدم رأسك قبل أن تفقدها يا صديقي الهُمام.

تدحرج الرأس وانكفأ على وجهه (أصدر الريش داخل الفم صوت تغضُّنٍ مُريع)، ثم سقط من الثلَّاجة. ضرب الرأس الأرض بصوت بخبخة مكتوم وتدحرج نحوه ككُرة بولينج بشعة، وراحت الفروة الدامية المُلبَّدة تتبادل مع الوجه المُبتسم الظهور والاختفاء. خلَّف تدحرُج الرأس المقطوع نحوه خيطًا لزجًا من الدماء وبقايا ريشٍ على الأرض، فيما واصل الفم التحدُّث والريش محشورٌ داخله.

بيب-بيب يا مايكي! هكذا صرخ الرَّأس ومايك يتراجع ملسوعًا إلى الخلف بعيدًا عنه ويداه مرفوعتان أمامه تفاديًا. بيب-بيب، بيب-بيب، بيب-بيب!

ثم صدرت فرقعة عالية، كسدَّادة من الفلين تطير من عُنُق زجاجة شامبانيا رخيصة، واختفت الرَّأس (فكَّر مايك مذعورًا: إنه حقيقي. لا شيء خارق للطبيعة في تلك الفرقعة. إنه رأس حقيقي.. وهذا صوت احتلال الهواء حيِّز الفراغ الذي أُخلي فجأة. هذه حقيقة مادية، يا إلهي، إنه حقيقي). طفت شبكة رقيقة من قطرات الدماء ثم تناثرت على الأرض بنمط فوضوي. لا حاجة لتنظيف الاستراحة، فلن ترى كارول شيئًا عندما ستعود غدًا، ولا حتَّى لو شقَّت طريقها وسط هذه البالونات إلى الموقد لتُعدَّ لنفسها أوَّل كوب قهوة. يا له من أمر مريح. هكذا فكَّر وقهقه وجسده يرتعش.

رفع مايك ناظريه إلى أعلى. البالونات ما زالت هناك، وقد كان مكتوبًا على الزرقاء منها: زنوج ديري ينالون الطائر، أما البرتقالية فتقول: الخاسرون ما زالوا يخسرون، لكن ستانلي يوريس صار في الطليعة أخيرًا.

لا معنى للإقلاع إذا كنت غير قادرٍ على الهبوط ثانيةً، هذا ما أكَّد عليه الرأس الناطق. لا معنى للرقود إذا كنت لا تستطيع النهوض ثانيةً أيضًا. هذه العبارة الأخيرة جعلته يُفكِّر مُجدَّدًا في خوذات التعدين التي اشتراها وخزَّنها. أكان ذلك صحيحًا؟ فجأة وجد نفسه يُفكِّر في أوَّل يومٍ ذهب فيه إلى البرِّيَّة بعد معركة الحجارة. السادس من يوليو، بعد يومين من سيره في موكب الرَّابع من يوليو.. بعد يومين من لقائه ببيني وايز بشخصه للمرَّة الأولى، بعد هذا اليوم في البرِّيَّة، وبعد الاستماع إلى قصصهم وإخبار قصَّته الخاصة مُتردِّدًا، حدث أن عاد إلى المنزل وسأل والده إن كان يستطيع إلقاء نظرة على ألبوم الصور.

لماذا بالضبط ذهب إلى البرِّيَّة في السادس من يوليو؟ هل كان يعلم أنه سيجدهم هناك؟ من الواضح أنه كان يعلم.. ليس فقط أنهم سيكونون هناك، بل أين يجدهم تحديدًا. تذكَّر مايك أنهم كانوا يتحدَّثون عن حفر مقرٍ ما للثُّلَّة، لكن بدا له أنهم كانوا يتحدَّثون عن هذا لأن ثمَّة شيئًا آخر لا يعرفون كيفية الحديث عنه.

رفع مايك عينيه إلى البالونات -دون أن يراها حقًّا- محاولًا تذكُّر مُلابسات ذلك اليوم، ذلك اليوم الحار. فجأة بدا له أنه من الضروري جدًّا تذكُّر كل ما حدث، بكُل تفاصيله الدقيقة، وكيف كانت حالته الذهنية وقتها.

لأن ذلك كان الوقت الذي بدأ كل شيء فيه في الحدوث. قبل ذلك كان الآخرون يتحدَّثون عن قتل الشَّيء، لكنهم لم يتَّخذوا أيَّ خُطوات تجاه ذلك. لم تكن لديهم خطَّة. لكن مع قدوم مايك، أُغلِقت الدائرة، وبدأت العجلة في الدوران، وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم ذهب بيل وريتشي وبن إلى المكتبة وبدأوا يجرون أبحاثًا جادَّة على الفكرة التي اقترحها بيل قبلها بيومٍ أو أسبوعٍ أو شهرٍ. لقد بدأت كل الأمور في...

- «مايك؟ هل تُوفيت هناك؟»، هكذا صاح ريتشي من غرفة المراجع حيث يجتمع الآخرون.

كِدتُ. هكذا فكَّر مايك وهو ينظر إلى البالونات والدماء والريش المتناثر على أرفف الثلَّاجة.

نادى مايك عليهم: «أظنُّ أنه من الأفضل لو أتيتم إلى هنا قليلًا يا رفاق».

سمع صوت تحرُّك الكراسي واحتكاكها بالأرض، وغمغمة أصواتهم، وسمع ريتشي يقول: «يا للمسيح، ماذا الآن؟»، وبأُذنٍ أخرى، أُذنِ ذاكرته هذه المرَّة إن جاز التعبير، سمع ريتشي يقول شيئًا آخر، وفجأة تذكَّر ما كان يُفتِّش عنه.. بل أكثر من هذا، لقد أدرك لماذا كان الأمر مراوغًا جدًّا هكذا. عندما خطا إلى تلك البُقعة الموغلة الأعتم من البرِّية، والأكثر وفرة في الحياة النباتية، لم تصدر أدنى ردَّة فعل من الآخرين... لا شيء على الإطلاق. لا اندهاش، ولا أسئلة عن كيف عثر عليهم، ولا تعجُّب من أيِّ نوع. تذكَّر أن بن كان يأكل قطعة توينكيز، وبيفرلي وريتشي يُدخِّنان السجائر، وبيل مُستلقي على ظهره وذراعيه خلف رأسه وينظر إلى السماء، وإدي وستان ينظران في ريبة إلى مجموعة من الخيوط مُثبَّتة بأوتادٍ إلى الأرض وتُشكِّل مربعًا طول كل ضلع منه نحو خمسة أقدام.

لا اندهاش، لا أسئلة، ولا تعجُّب من أيِّ نوع. كل ما فعله أن ظهر، وفي اللحظة نفسها صار وجوده مقبولًا. كان الأمر يبدو كأنهم كانوا ينتظرونه من

دون أن يعلموا.. وبتلك الأُذُن الثالثة -أُذُن الذاكرة- سمع مايك ريتشي يقول في صوت الخادم الزنجي الصغير كما فعل في وقتٍ سابق من الليلة: «يا للهول، يا للقول، ها هو...

2

... الصبي الأسود يأتي مُجدَّدًا! رُحماك يا يسوع، لا أعلم ما الذي تؤول إليه هذه البرِّية. انظر إلى هذا الرأس الأجعد يا بيل الكبير!». لم يُكلِّف بيل نفسه عناء الالتفات حتَّى، بل واصل تحديقه الحالم إلى سُحُب الصيف السميكة التي تقطع صفحة السماء. كان يولي تفكيره في سؤالٍ ما جل اهتمامه وعنايته، غير أن ريتشي لم يشعر بالإهانة من التجاهل، وواصل إلحاحه: «مُجرَّد النظر إلى ذلك الشعر الأجعد يجعلني أشعر بحاجة إلى شراب نعناعٍ مُسكِرٍ آخر! أظنُّ أنني سأتناوله في الشُرفة، حيث الهواء أكثر برودة...».

- «بيب-بيب يا ريتشي». هكذا قال بن بفمٍ مليء بالتوينكيز، فضحكت بيڤرلي.

قال مايك مُتردِّدًا: «مرحبًا». كان قلبه ينبض بقوَّة كبيرة نوعًا، لكنه كان مُصمِّمًا على المُضي قدمًا في مسعاه. إنه مدين لهم بالشُكرِ، ولقد أخبره والده أنه يجب عليه تسديد دينه دائمًا، وفي أقرب وقت، قبل أن تتراكم الفائدة عليه.

نظر ستان حوله وقال: «مرحبًا»، ثم عاد يمعن التفكير في الخيوط المربوطة بأوتادٍ وسط تلك المساحة الخالية، وأردف: «بن، هل أنت واثق أن هذا سينجح؟».

قال بن: «أجل، سينجح. مرحبًا يا مايك».

سألته بيڤرلي: «أتريد سيجارة؟ ما زال معي اثنتان».

- «لا، أشكرك».

ثم سحب نفسًا عميقًا وقال: «أردت أن أشكركم جميعًا مرَّة أخرى على مُساعدتي في ذلك اليوم. أولئك الفتية كانوا ينوون إيذائي حقًّا. أنا آسف لأن بعضكم تأذَّى».

لوَّح بيل بيده صارفًا النظر: «لـ-لـ-لا تقـ-تقلق بخصوص الأ-أمر. إ-إ-

إنهم يـ-يـ-يتحرَّشون بـ-بنا جميعًا طـ-طوال العـ-عام»، ثم جلس ونظل إلى مايك باهتمامٍ مُفاجئ وأردف: «هـ-هل أ-أ-أستطيع أ-أن أسألك سـ-سـ-سؤالًا؟».

قال مايك: «أظنُّ ذلك»، وجلس بخجلٍ وحذرٍ شديد. لقد سمع مثل هذه المُقدِّمات من قبل.. ذلك الصبي دِنبروه سيسأله ما الشعور أن يكون المرء زنجيًّا.

لكن بدلًا من ذلك سأله بيل: «عندما لم تُصد أ-أيٌّ من رميات د-د-دون لارسين في كـ-كأس العالم منذ عامين، هل كان ذ-ذلك مُجرَّد حـ-حظ؟».

سحب ريتشي نفسًا عميقًا من سيجارته وبدأ يسعل، ربَّتت بيڤرلي على ظهره بطيبة وهي تقول: «أنت مُجرَّد مُبتدئ يا ريتشي، ستتعلَّم».

قال إدي قلقًا وهو ينظر إلى مُربَّع الخيوط: «أظنُّه سيسقط يا بن، وأنا لست مولعًا تمامًا بفكرة أن أُدفن حيًّا».

قال بن: «لن تُدفن حيًّا، وإذا حدث ذلك، دس بخَّاخك في فمك واستنشق إلى أن يأتي أحدهم وينقذك».

ضرب التعليق الآخي ستانلي أوريس في مقتل ضحك. مال إلى الخلف مُستندًا إلى كوعه، ورفع رأسه إلى السماء، وظلَّ يضحك إلى أن ركله إدي في ذقنه وأمره أن يخرس.

في النهاية قال مايك: «أجل حظ. أظنُّ أن أيَّ مُبارة تنتهي دون صدٍّ أي رميات فهذا حظ أكثر منه مهارة».

قال بيل: «هـ-هـ-هذا رأيي أيضًا». انتظر مايك سماع المزيد، لكن بدا أن بيل رضيَ بهذا، لأنه استلقى على ظهره من جديد وعقد ذراعيه أسفل رأسه وعاد يتأمَّل السُحُب الطافية التي تمرُّ من فوقهم.

سأل مايك ناظرًا إلى مُربَّع الخيوط المُثبَّتة بأوتداد: «ماذا تفعلون يا رفاق؟».

قال ريتشي: «أوه، تلك فكرة كومة القش الألمعية لهذا الأسبوع. في المرَّة السابقة أغرق البرِّية وكان ذلك رائعًا، لكن هذه المرَّة الأمر جاد. هذا الشهر بعنوان: احفر مقرَّ ناديك بنفسك. الشهر القادم...».

قال بيل وهو ما زال ينظر إلى السماء: «لـ-لـ-لا يـ-يـ-يجب أن تـ-تـحبط بـ-بـ-بـن دائمًا. سيكون المقرُّ جـ-جـ-جيِّدًا».

- «رباه يا بيل، أنا أمزح فقط».

- «أ-أحيانًا تـ-تـ-تمزح أكثر من الـلـ-لازم يا ر-ر-ريتشي».

تقبَّل ريتشي التوبيخ في صمتٍ.

قال مايك: «ما زلت لا أفهم».

قال بن: «حسنًا، الأمر في غاية البساطة. كانوا يريدون بناء بيت شجرة، ونحن نستطيع تشييد ذلك، لكن الناس عادةً ما يكسرون عظامهم عند سقوطهم من أعلى بيوت الشجر...».

قاطعه ستان ساخرًا: «كوكي... كوكي... أعرني عظامك»، وضحك ثانيةً بينما نظر إليه الآخرون مُندهشين. لم يكن لدى ستان حسَّ دعابة قويًا، والقلة القليلة من الفُكاهة التي يمتلكها كانت غريبة.

قال ريتشي: «سنيور، أنت تفقد عقلك. هذا بسبب الحرارة والحشرات على ما أظنُّ».

قال بن: «على أيِّ حال، ما سنفعله أننا سنحفر حُفرة بعمق خمسة أقدام في المُربَّع الذي حدَّدته هنا. لن نستطيع أن نحفر أعمق من ذلك وإلا سنصطدم بالمياه الجوفيه. إنها قريبة جدًا من السطح هنا. ثم سنُدعِّم الجوانب كي نضمن فقط ألا تتداعى الحُفرة». أنهى كلامه ونظر إلى إدي بإمعان، لكن إدي كان قلقًا.

قال مايك وقد تحمَّس: «وماذا بعد؟».

- «سنغلق الحُفرة».

- «هه؟».

- «سنضع ألواح الخشب كغطاء للحُفرة، وقد نفتح فيها كُوَّة أو باب كي نستطيع الدخول والخروج منه، بل نوافذ حتَّى لو رغبنا».

قال بيل وهو ما زال يُحدِّق في السحاب: «سنحتاج بعض المـ-مـ-مفصَّلات».

قال بن: «نستطيع الحصول عليها من محل راينولدز للخردوات».

قال بيل: «هـ-هـ-هل أخذتم مـ-مـ-مصروفكم يا رفاق؟».
قالت بيڤرلي: «معي خمسة دولارات، لقد ادَّخرتها من عملي جليسة أطفال».
بدأ ريتشي في الزحف على الفور على يديه ورُكبتيه وقال مُبصبصًا ككلب: «أنا أحبك يا بيڤي، هل تتزوَّجينني؟ سنعيش في عشَّة من خشب الصنوبر...».
صاحت بيڤرلي: «أين؟»، بينما راقبهما بن بمزيجٍ غريب من العصبية، والاستمتاع، والتركيز.
قال ريتشي: «عشَّة مصنوعة من خشب أشجار الصنوبر، خمسة دولارات تكفي يا صغيرتي، أنا وأنت والطفل ثلاثة...».
ضحكت بيڤرلي واحمرَّت وجنتاها وابتعدت بعيدًا عنه.
قال بيل: «سـ-سـ-سنتقاسم المـ-مصروفات. لهذا السَّبب نُنشئ ناديًا».
واصل بن شرحه: «بعد تغطية الحُفرة بألواح الخشب، سنأتي بغراءٍ قوي ونعيد لصق الأعشاب في مكانها، ورُبَّما ننثر عليها بعض فروع الأشجار. نستطيع المكوث في هذا المخبأ بينما يمر الناس من فوقنا -أشخاص كهنري باورز- دون أن يعلموا بوجودنا من الأساس».
قال مايك: «وأنت فكَّرت في كل ذلك؟ يا للمسيح، هذا عظيم». ابتسم بن، وجاء عليه الدور ليتورَّد خجلًا.
اعتدل بيل في جلسته فجأة ونظر إلى مايك، وقال: «أ-أ-أتريد مـ-مـ-مساعدتنا؟».
قال مايك: «حسنًا... بلا شك. سيكون ذلك مُمتعًا».
شاعت نظرة مُعيَّنة في عيون الآخرين، استشعرها مايك بقدر رؤيتها إيَّاها، وفكَّر: ثمَّة سبعة منا هنا الآن، ووجد نفسه يرتجف مُقشعرًّا من دون سببٍ على الإطلاق.
- «متى ستبدأون الحفر؟».
- «قـ-قـ-قريبًا جدًّا». قالها بيل وعلم مايك على الفور أنه لم يكن يتحدَّث عن مخبأ بن السُفلي فحسب. بن أيضًا علم ذلك، وكذا ريتشي، وبيڤرلي، وإدي... وتوقّف ستان يوريس عن الابتسام.

- «سـ-سـ-سنبدأ هـ-هـ-هذا المشروع قـ-قـ-قريبًا جدًّا».

حلَّت بُرهة من الصمت، وأدرك مايك شيئين فجأة: إنهم يريدون إخباره بشيءٍ، وأنه لم يكن واثقًا تمامًا من رغبته في سماعه. التقط بن عصا وبدأ يرسم بلا هدف في التُربة وشعره يسقط على جبهته حاجبًا وجهه، وراح ريتشي يقضم أطراف أظافره المقضومة بالفعل.. فقط بيل وحده من كان ينظر بثبات إلى مايك.

سأله مايك متوتِّرًا: «هل توجد مُشكلةٍ ما؟».

قال بيل مُتحدِّثًا ببطء: «نـ-نحن نُشكِّل نـ-نـ-ناديًا، يـ-يمكنك الانضمام إ-إ-إلى النادي إذا ر-ر-رغبت، لكن سـ-سـ-سيكون عليك كـ-كـ-كتم أ-أسرارنا».

قال مايك شاعرًا بعدم ارتياح أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: «تعني أسرارًا كمقرِّ النادي؟ حسنًا، بالتأكيد...».

قال ريتشي وهو يواصل عدم النظر إلى مايك: «لدينا أسرارٌ أخرى يا غلام، وبيل الكبير يقصد أن لدينا أشياء أكثر أهمِّية هذا الصيف لفعلها أكثر من حفر مخابئ تحت الأرض».

أضاف بن: «وهو مُحقٌّ في ذلك».

صدرت شهقة مُفاجئة عالية فانتفض مايك، لم يكن هذا سوى إدي الذي استنشق نفسًا من بخَّاخه. نظر إدي إلى مايك مُعتذرًا، وهزَّ كتفيه كناية عن عدم الحيلة، ثم أومأ.

قال مايك في النهاية: «حسنًا، لا تبقوني مُتشوِّقًا أكثر من ذلك. هيَّا، أخبروني».

كان بيل ينظر إلى الآخرين: «أيـ-يـ-يوجد من لا يرغب فـ-في ا-ا-انضمامه إلى نـ-نـادينا؟».

لم يتحدَّث أحد أو يرفع يده.

سألهم بيل: «مـ-من يُريد إ-إخباره؟».

مرَّت لحظة صمتٍ طويلة أخرى، وهذه المرَّة لم يكن بيل من كسرها. في النهاية تنهَّدت بيفرلي ونظرت إلى مايك وقالت:

- «أولئك الصبية الذين قُتلوا مؤخَّرًا.. نحن نعرف من قتلهم.. وهو ليس بشريًّا».

3

واحدٌ تلو الآخر، أخبروه بقصصهم: المُهرِّج السائر على صفحة مياه القناة المُجمَّدة، المجذوم أسفل الشُرفة، الدماء والأصوات الخارجة من البالوعة، الصبية الموتي في بُرج المياه. أخبره ريتشي عمَّا حدث عندما عاد هو وبيل إلى المنزل في شارع نيبولت، وكان بيل آخر الرواة، وقد أخبره عن صورة المدرسة التي تحرَّكت، والصورة التي أدخل يده إليها، ثم أنهى كلامه موضِّحًا أن ذلك الشَّيء قتل شقيقه چورچي، وأن نادي الخاسرين مُكرَّسٌ لقتل الوحش... أيًّا كان كُنهه.

لاحقًا، وهو في طريق عودته إلى منزله في تلك الليلة، فكَّر مايك أنه كان ينبغي له الاستماع إليهم بعدم تصديقٍ بدلًا من الرُعب الذي أحسَّه، وأن يركض فارًّا في النهاية بأسرع ما يستطيع دون النظر خلفه، ثم يُقنع نفسه أنه وقع فريسة مجموعة من الصبية البيض الذين لا يُحبون سود البشرة، أو أنه كان في حضرة ستَّة مجاذيب التقطوا عدوى الجنون بعضهم من بعضٍ بشكلٍ ما، بذات الطريقة يمكن أن يلتقط بها تلاميذ فصلٍ واحد عدوى بردٍ شرسة.

لكنه لم يركض، لأنه بالرغم من ذعره، شعر بنوعٍ غريب من الراحة.. الراحة وشيء آخر، شيء أكثر جوهرية: الشعور بالعودة إلى الديار. ثمَّة سبعة مننا هنا الآن، هكذا فكَّر مرَّة أخرى عندما أنهى بيل كلامه أخيرًا.

فتح مايك فمه غير واثق تمامًا ممَّا سيقول.

ثم قال: «لقد رأيت المُهرِّج».

- «ماذا؟». هكذا صاح كلٌ من ريتشي وستان في نفسٍ واحد. حرَّكت بيڤرلي رأسها إليه بُسرعة كبيرة طوَّحت ذيل حصانها من كتفها الأيسر إلى كتفها الأيمن.

قال مايك ببطء مُوجِّهًا أغلب حديثه إلى بيل: «رأيته يوم الرابع من يوليو». كانت عينا بيل الحادتان شديدتا التركيز مُثبَّتتين عليه، تطالبانه بالاستمرار.

«أجل، في الرَّابع من يوليو...»، ثم شرد لحظاتٍ مُفكِّرًا: لكنني أعرفه مُسبقًا.. أعرفه لأنها لم تكن المرَّة الأولى التي أراه فيها. لم تكن هذه المرَّة الأولى التي أرى فيها شيئًا... شيئًا شاذًا.

ثم فكَّر في الطائر بعدها، وقد كانت هذه المرَّة الأولى التي سمح لنفسه فيها بالتفكير فيه -بخلاف كوابيسه- منذ مايو الماضي. كان يظن أنه بدأ يفقد عقله.. ولكم كان مُريحًا أن يُدرك أنه لا يفقد عقله... لكن يا لها من راحة مُخيفة. بلَّل مايك شفتيه.

قالت بيڤرلي بنفاد صبر: «أَكمِل.. أَسرِع».

- «حسنًا، في حقيقة الأمر، كنت في الموكب. أنا عـ...».

قاطعه إدي: «لقد رأيتك. كنت تعزف الساكسفون».

قال مايك: «إنها آلة الترومبون في الحقيقة. أنا عضو في فرقة مدرسة نيبولت الكنسية. على أيِّ حال، لقد رأيت المُهرِّج. رأيته يهدي طفلًا مجموعة بالونات عند التقاطع الثلاثي في وسط المدينة. كان يبدو كما وصفه بيل وبن تمامًا. حُلَّة فِضِّية، بأزرارٍ برتقالية، ومساحيق تنميق على وجهه، وابتسامة حمراء كبيرة. لا أعرف إن كان ما يستخدم أحمر شفاه أم مسحوق تجميل.. لكنه يبدو كالدماء».

أومأ الآخرون برؤوسهم مُتفهِّمين، وقد تحمَّسوا الآن، لكن بيل واصل تحديقه إلى مايك من كثب فحسب، وسأله: «نـ-نـ-ندف شـ-شـ-شعرٍ بُرتقالية على جـ-جـ-جانبي رأسه؟»، مُقلِّدًا إيَّاها بأصابع يديه قرب رأسه.

أومأ مايك.

- «رؤيته بهذه الهيئة أخافتني، وبينما أنا أرقبه، التفت خلفه ولوَّح لي، كأنه قرأ أفكاري، أو مشاعري، أو أيًّا كان، وهذا... أخافني أكثر. لم أعرف السَّبب حينها، لكنه أثار فزعي تمامًا لثانيتين، لدرجة أنني لم أستطِع نفخ الترومبون بعدها. جفَّ كل اللعاب في فمي وشعرت...» توقَّف مايك وألقى نظرة سريعة على بيڤرلي. إنه يتذكَّر كل شيءٍ بوضوحٍ تامٍ الآن. كيف بدت الشمس فجأة باهرة لا يُطاق انعكاسها على نحاس بوق الترومون وهياكل السيَّارات، كيف أن الموسيقى صاخبة جدًّا، والسماء زرقاء تمامًا. رفع المُهرِّج يدًا واحدة في قُفَّازٍ

أبيض (الأخرى كانت تُمسك بخيوط البالونات) ولوَّح له ببطء أكثر من مرَّة وهو يبتسم إليه بابتسامته شديدة الاحمرار والاتِّساع، كصرخة معكوسة على وجهه. تذكَّر كيف أصاب الخدر كيس صفنه وكيف تدلَّت خصيتاه وشاعت الحرارة فيهما، كأنه على وشك أن يتبرَّز مُخرجًا حمولة طارئة من القذارة في سراويله. لكنه لا يستطيع قول أيٍّ ممَّا سبق أمام بيڤرلي. المرء لا يقول أشياءً كهذي أمام الفتيات، حتَّى لو كنَّ من النوعِ الذي تستطيع التلفُّظ أمامه بألفاظٍ كمومس ونغل، لذا أنهى مايك كلامه قائلًا: «... شعرت بالخوف»، شاعرًا أن التعبير ضعيف جدًّا، لكنه لم يكن يعرف كيف يقول باقي الكلام. لكنهم أومأوا برؤوسهم كأنهم فهموا، وشعر مايك براحة تغسله من الداخل يتعذَّر وصفها. بطريقةٍ ما، كانت رؤية ذلك المُهرِّج وهو ينظر إليه، ويبتسم ابتسامته الحمراء الكبيرة، ويلوِّح إليه بيده المدسوسة في قُفَّازٍ أبيض بحركة بندولية بطيئة، أكثر ترويعًا من مُطاردي هنري باورز وعصابته له.. أكثر ترويعًا بكثير.

واصل مايك: «ثم مضى الموكب في طريقه. تحرَّكنا صعودًا بطول تلَّة الشارع الرئيس، وهناك رأيته مُجدَّدًا، يقدِّم بالوناته إلى مجموعة من الأطفال، لكن كثيرًا منهم لم يرغبوا في أخذها، وبدأ بعضهم -الأصغر سنًّا- في البكاء. لم أفهم كيف استطاع الوصول إلى هنا بهذه السُرعة. ظننت أنه يوجد مُهرِّجان يرتديان الزيَّ نفسه، كفريق، لكنه التفت بعدها ولوَّح لي ثانيةً وعرفت أنه هو. كان الرَّجُل نفسه».

قال ريتشي: «إنه ليس رجُلًا»، فارتعشت بيڤرلي، ووضع بيل ذراعه حولها للحظة، فنظرت إليه مُمتنَّة.

- «لقد لوَّح لي... ثم غمز بعدها. كأن ثمَّة سرٍ ما بيننا، أو كأنه... كأنه يظن أنني سأتعرَّفه».

رفع بيل ذراعه من حول كتفي بيڤرلي وقال: «وهـ-هـ-هـل تعرَّفته بـ-بالفعل؟».

قال مايك: «أظنُّ ذلك. لكن يجب التيقُّن من شيءٍ أوَّلًا قبل تأكيد هذا أو نفيه. إن أبي لديه بعض الصور... إنه يحب تجميعها. اسمعوني يا رفاق، أنتم تأتون هنا كثيرًا للعب، أليس كذلك؟».

قال بن: «بالتأكيد. لهذا نبني مقرًّا للنادي».

أومأ مايك: «سأتأكَّد من الصور لأرى إن كنت مُحقًّا، وإذا اتضح أنني كذلك، سأجلب ألبوم الصور معي».

سأله بيل: «أهي صـ-صـ-صور قديمة؟».

- «أجل».

سأله بيل: «مـ-مـ-ماذا لديك لـ-لـ-لتحكيه أيضًا؟».

فتح مايك فمه ليتكلَّم ثم أغلقه ثانيةً، ثم نظر حوله في تردُّد قبل أن يقول: «ستظننون أنني مجنون. مجنون أو كاذب».

- «هـ-هـ-هل تظنـ-نـ-نا مـ-مجانينَ؟».

هزَّ مايك رأسه نافيًا.

قال إدي: «يمكنك الرهان على ذلك. أنا مليء بالعيوب، لكنني لست مخبولًا. لا أظنُّ ذلك».

قال مايك: «لا.. لا أظنُّم مخابيلَ».

قال بيل: «حسنًا، ونـ-نـ-نحن لا نـ-نـظنك مـجـ-مجـ-مجـ... مخبولًا بدورنا».

أشاع مايك نظره في وجوههم جميعًا، ثم تنحنح مُجليًّا حنجرته وقال: «رأيت طائرًا. منذ شهرين، لا بل ثلاثة. رأيت طائرًا».

نظر ستان يوريس إلى مايك: «أيُّ نوعٍ من الطيور؟».

تحدَّث مايك بتردُّدٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: «بدا أنه عصفور، لكنه كان يُشبه أبا حنَّاء أيضًا. كان صدره بُرتقاليًّا».

سأله بن: «حسنًا، ما الجديد في ذلك؟ توجد أنواع طيورٍ عديدة في ديري». لكنه شعر بعدم راحة.. ثم نظر إلى ستان مُتيقِّنًا من أنه يتذكَّر الآن ما حدث له عند بُرَج المياه، وكيف أنه استطاع ردعه عن طريق الصراخ بأسماء الطيور. لكن بن نسي أمر ذلك وكل شيءٍ آخر عندما بدأ مايك في التحدُّث.

قال مايك: «كان الطائر في حجم منزلٍ مُتنقِّل».

نظر إلى وجوههم المصدومة المشدوهة، وانتظر ضحكاتهم، لكن أيًّها

لم يخرج. بدا ستان كأنه ضُرِبَ بقالب قرميدٍ على وجهه.. لقد شحب وجهه تمامًا حتّى صار بلون أشعة شمس نوفمبر الغائمة.

قال مايك: «أقسم أن هذا ما رأيته. كان طائرًا عملاقًا، كأحد طيور أفلام الوحوش التي يُفترض أنها من ما قبل التاريخ».

قال ريتشي: «أجل، كفيلم المخلب العملاق».

كان ريتشي يرى أن الطائر في ذلك الفيلم بدا زائفًا نوعًا، لكن عندما وصل الأخير إلى نيويورك ضمن أحداث الفيلم، شعر ريتشي بحماسة كافية جعلته يُبعثر الفشار على درابزين البلكون في سينما علاء الدين. كاد فوكسي فوكسورث أن يطرده خارج القاعة، لكن الفيلم كان قد انتهى على أيٍّ حال. أحيانًا يُصاب المرء بالفزع رغمًا عنه، لكن كما يقول بيل الكبير، تستطيع أحيانًا التغلُّب عليه.

قال مايك: «لكنه لم يبدُ آتيًا من ما قبل التاريخ، ولم يبد كأحد تلك الطيور من الأساطير الإغريقية والرومانية...».

قاطعه بيل مُقترحًا: «تقصد الرُّ-رُّ-رُّخ».

- «أجل، أظنُّ ذلك. لم يكن شبيهًا بأيٍّ من تلك أيضًا. كان مزيجًا من عصفور دوري وطائر أبو حنَّاء، الطَيْرين الأكثر شيوعًا اللذين تراهما».

قال بيل: «أ-أ-أين ر-ر-رأيتـ...».

قاطعته بيڤرلي ببساطة: «اخبرنا عنه».

بعد لحظة استغرقها في تجميع أفكاره، سرد مايك عليهم قِصَّة التقائه بالطائر، وفي أثناء ما كان يحكي، وبالنظر إلى وجوههم التي راح الخوف والاهتمام يتزايدان فيها، شعر بحملٍ ثقيل ينزاح من صدره. لقد اختبر مايك شيئًا قد يُطيِّر صواب أيِّ شخصٍ راشد، تمامًا كبن وموميائه وإدي ومجذومه وستان وصبيته الغارقين، وليس فقط بسبب الرعب، بل بسبب الشعور بعدم الواقعية الكاسحة التي تفتقر لأيِّ منطقٍ عقلاني، والتي لا يُمكن وضع تفسيرٍ لها أو تجاهلها ببساطة. لقد قرأ مايك أن وجه النبي إلياس احترق بالنار التي أرسلها الله من السماء لتأييده، لكن إلياس كان طاعنًا في السنِّ عندما حدث

ذلك، وربَّما هذا ما شكَّل فارقًا. ألم يُصارِع أحد الرجال في الإنجيل -ذلك الرَّجُل الذي كان جاوزَ الصِبَى بقليل- ملاكًا وجرَّه إلى تعادُلٍ؟

لقد رأى مايك الطائر ثم واصل حياته بعدها بشكلٍ طبيعي، ولم يدمج تلك الذكرى في نظرته للعالم. كان لا يزال صغيرًا بما يكفي بحيث لم تزل رؤية للعالم خصبة وواسعة بشكلٍ كبير. لكن رغم ذلك، ما حدث له في ذلك اليوم أرَّق أركان عقله الأكثر إعتامًا.. وأحيانًا في أحلامه كان يواصل الفرار من ذلك الطائر الذي يلقي بظلِّه عليه من أعلى. بعض هذه الأحلام يتذكَّرها وبعضها لا، لكنها ما انفكَّت عن ترويعه، كظلالٍ تتحرَّك من تلقاء نفسها.

رُبَّما كان مقدار ما نسي ومقدار ما يؤرِّقه (في خضم أعماله اليومية المُعتادة: مُساعدة والده، الذهاب إلى المدرسة، ركوب الدراجة، مساعدة أمه في الأعباء المنزلية، انتظار ظهور فرق السود الغنائية في برنامج أمريكان باندستاند) قابلًا للقياس بطريقة واحدة؛ بالراحة التي شعرها من مُشاركة الأمر مع الآخرين. فعندما فعل، أدرك مايك أنها المرَّة الأولى التي سمح لنفسه فيها حتَّى بالتفكير في ما حدث بشكلٍ كامل منذ ذلك اليوم في حديقة باسي قرب القناة، المكان الذي رأى فيه العلامتين المحفورتين في الأرض كأخدودين... المكان الذي رأى فيه الدماء.

4

حكى مايك قصَّته مع الطائر عند أطلال مصنع الحديد وكيف ركض إلى ماسورة المدخنة هربًا منه. لاحقًا عصر هذا اليوم، اتَّجه ثلاثة من الخاسرين -بيل وريتشي وبن- إلى مكتبة ديري العامة. فتح بن وريتشي أعينهما جيِّدًا مُراقبين من كثب أيَّ ظهورٍ لباورز وعصابته، أما بيل فكان يسير شاردًا على الرصيف، بجبينٍ مُقطب، تائهًا في أفكاره. تركهم مايك بعد ساعة من إخبارهم قصَّته، قائلًا إن أباه طلب منه العودة إلى المنزل بحلول الرابعة لجمع البازلاء. أما بيفرلي فقالت إن لديها بعض مهام تسويق لإنجازها وأنها يجب أن تُعد العشاء لوالدها، وكان لدى كلٍ من إدي وستان أشياء لإنجازها. لكنهم قبل أن يفترقوا بدأوا يحفرون ما سيكون مقر ناديهم السُفلي إذا كان بن مُحقًّا

بخصوصه. بالنسبة إلى بيل (وإليهم جميعًا، هكذا ظن) كانت عملية الحفر فعلًا رمزيًّا تقريبًا. لقد بدأوا... أيًّا كان ما يُفترض عليهم فعله كمجموعة -كوحدة واحدة- قد بدأ.

سأل بن بيل ما إذا كان يُصدِّق قِصَّة مايك هانلون. كانوا يعبرون من أمام مركز ديري المُجتمعي وكان مبنى المكتبة أمامهم مُباشرةً، مُستطيلًا حجريًا تُظلِّله أشجار دردارٍ قديمة يبلغ سِنّها قرنًا من الزمان، وحتَّى الآن لم تمسَّها آفة الدردار الهولندية التي من شأنها أن تبليها تمامًا لاحقًا.

قال بيل: «أجل. أ-أظنُّ أنها حـ-حـ-حقيقية. مـ-مـ-مجنونة نـ-نعم، لكن حقيقية. ماذا عنك يا ر-ر-ريتشي؟».

أومأ ريتشي قائلًا: «أجل، أكره أن أُصدِّقها، إن كنت تفهم ما أعني، لكنني أصدقها. هل تذكُر ما قاله عن لسان الطائر؟».

أومأ كلٌّ من بيل وبن. لقد قال إن زغبًا بُرتقاليًّا كان ينتفش عليه.

قال ريتشي: «هذه علامته المُميِّزة، كما مع أشرار القصص المصوَّرة. لكس لوثر أو الجوكر أو أيُّ شخصية أخرى.. دائمًا ما يتركون بصمة خلفهم».

أومأ بيل مُفكِّرًا. إنه مثل أشرار القصص المُصوَّرة. أهذا لأنهم يرونه بهذه الطريقة؟ ويُفكِّرون فيه بهذه الطريقة؟ نعم، رُبَّما. هذه أمور طفولية.. لكن تلك ما يبدو أن الشَّيء يعيش عليها... أمور الأطفال.

عبروا الشارع إلى الرصيف الآخر.

قال بيل: «لقد سـ-سألت سـ-ستان إ-إ-إن كان قـ-قد سمع مـ-مـ-من قبل عن طـ-طـ-طائرٍ كهذا. ليس بالضـ-ضـ-ضرورة بـ-بـ-بهذا الحجم، لـ-لـ-لكن مُجرَّد...».

قال ريتشي: «طائر حقيقي بهذا الوصف؟».

أومأ بيل، ثم قال: «قـ-قـ-قال لي إ-إ-إنه رُبَّما يـ-يوجد طائرٌ بـ-بـ-بهذا الوصف في أ-أ-أمريكا الجنوبية أو أ-أ-أفريقيا، لكن ليس هنا».

سأله بن: «إذًا هو لم يُصدِّق روايته؟».

قال بيل: «بل صـ-صـ-صدَّقها».ثم أخبرهما بعدها بشيءٍ آخر اقترحه ستان عندما رافقه بيل إلى المكان الذي ترك درَّاجته فيه. كانت فكرة ستان أنه

لم يكن بإمكان أيِّ شخصٍ آخر منهم رؤية ذلك الطائر قبل أن يخبرهم مايك بتلك القِصَّة. قد يرون الشَّيءَ في هيئةٍ أخرى، لكن ليس في هيئة ذلك الطائر، لأن ذلك الطائر هو كابوس مايك هانلون الشخصي. لكن الآن... حسنًا، صار ذلك الطائر ملكية عامة لكل أعضاء نادي الخاسرين، وأيٌّ منهم يستطيع رؤيته. رُبَّما قد لا يرونه مُطابقًا لما وصفه، فبيل قد يرى غُرابًا، وريتشي صقرًا، وبيفرلي نسرًا ذهبيًّا. لكن الشَّيءَ يستطيع التجسُّد لهم جميعًا في صورة طائرٍ الآن. أخبر بيل ستان أنه لو كان ذلك حقيقيًّا، فأيٌّ منهم قد يرى المجذوم، أو المومياء، أو رُبَّما الأولاد القتلى.

أجابه ستان: «ما يعني أنه يتحتَّم علينا فعل شيءٍ قريبًا جدًّا إذا كنا سنفعل أيَّ شيءٍ على الإطلاق. الشَّيء يعرف...».

سأله بيل بحدَّة: «يـ-يـ-يعرف ماذا؟ كـ-كـ-كل ما نـْ-نـ-نعرفه؟».

أجابه ستان: «لا يا رجُل، إن كان يعرف ذلك، فنحن مقضي علينا. لكنني أراهن أنه يعلم أننا نعلم أمره. أظنه سيحاول قتلنا. هل ما زلت تُفكِّر في ما تحدَّثنا عنه البارحة؟».

- «أجل».

- «أتمنى لو كنت أستطيع المجيء معك».

- «بـ-بـ-بـن ور-ر-ريتشي سـ-سـ-سيُرافقاني. إن بـ-بـ-بن ذكيٌّ حـ-حقًّا، ور-ر-ريتشي كذلك، عندما يكف عـ-عـ-عن الا-ا-استظراف».

الآن، وبينما ثلاثتهم واقفين خارج مبنى المكتبة، سأل ريتشي بيل فيما يُفكِّر تحديدًا. أخبره بيل ببطءٍ شديد، كي لا يتلعثم بشكلٍ سيئ. لقد ظلَّت الفكرة تتواثب داخل رأسه طوال الأسبوعين الماضيين، لكن الأمر تطلَّب قِصَّة طائر مايك كي تتبلور.

ماذا تفعل إن كنت ترغب في التخلُّص من طائرٍ؟

حسنًا، صيده بعيارٍ ناري سيكون حلًّا كافيًا وحاسمًا تمامًا.

ماذا تفعل إن كنت تريد التخلُّص من مسخ؟

حسنًا، تقول الأفلام أن رصاصة فِضِّية ستكون حلًّا كافيًا وحاسمًا.

استمع ريتشي وبن إلى ما يقوله بيل باحترامٍ كافٍ، ثم سأله ريتشي: «كيف سنحصل على رصاصة فِضِّية يا بيل الكبير؟ نُرسل في طلبها؟».

- «ظ-ظ-ظريف جدًّا. سيتحتَّم علينا صـ-صـ-صنعها».

- «كيف؟».

قال بن: «أظنُّ أن هذا ما جئنا إلى المكتبة لمعرفته».

أومأ ريتشي مُتفهِّمًا ودفع نظَّارته بعيدًا عن طرف أنفه. من خلفها، بدت عيناه حادتين وعميقتي التفكير... لكن مُرتابتان أيضًا، هكذا فكَّر بيل. كان بيل يرتاب في الأمر بدوره. على الأقل ليس ثمَّة طيشٌ في عيني ريتشي، وهذه تُعد خطوة إيجابية على الطريق الصحيح.

سأله ريتشي: «أنت تُفكِّر في مُسدس أبيك الوالتر؟ ذلك الذي أخذناه معنا إلى شارع نيبولت؟».

قال بيل: «أجل».

قال ريتشي: «حتَّى لو عرفنا طريقة صنع رصاصة فِضِّية، من أين لنا بالفِضَّة؟».

قال بن بهدوء: «دع هذا الأمر لي».

قال ريتشي: «حسنًا... حسنًا. سندع هذا الأمر لكومة القش، وماذا بعد؟ العودة من جديد إلى شارع نيبولت؟».

أومأ بيل: «العـ-عـ-عودة إ-إ-إلى شـ-شارع نيبولت مـ-من جـ-جديد، وتـ-تفجير رأس ذ-ذ-لك اللعين».

وقف ثلاثتهم في مكانهم لحظة أطول، ينظر أحدهم إلى الآخر بخطورة، ثم دخلوا المكتبة.

5

- «يا ليسوع المُخلص، إنه ذلك الفتى الأسود مرَّة أخرى». هكذا صاح ريتشي بصوت الضابط الأيرلندي.

لقد مرَّ أسبوع، واقتربنا من منتصف يوليو، وأعمال حفر مقرِّ النادي في بطن الأرض شارفت على الانتهاء.

- «صباح مُشرق عليك يا سيِّدي هانلون! اليوم يعد بأن يكون يومًا جيِّدًا كبراعم البطاطس النامية، كما اعتادت أمي أن...».

قال بن مُخرجًا رأسه من الحُفرة: «حسب علمي تأتي الظهيرة بعد الصباح يا ريتشي، وقد مرَّت على الظهيرة ساعتان الآن». كان هو وريتشي يدعمون جوانب الحفرة بألواحِ الخشب. كان بن قد خلع سُترته لأن اليوم كان حارًّا ولأن العمل كان مُرهقًا، ووقف بتيشرتٍ رمادي غارقٍ في العرق ويلتصق إلى صدره وبطنه المنتفخ. كان يبدو غير مُدرِك لكيف يبدو مظهره، لكن مايك افترض أن بن لو سمع بيڤرلي قادمة، سيندسُّ في سُترته الواسعة مرَّة أخرى قبل أن تستطيع إنهاء هذه العبارة.

قال ريتشي: «لا تكن نيِّقًا هكذا. أنت تتكلَّم مثل ستان الإنسان». كان قد خرج من الحُفرة قبل مجيء مايك بخمس دقائق، لأنه وقت استراحة السيجارة قد حان، هكذا قال لبن.

قال بن له: «ظننت أنك قُلت إن لا سجائر معك».

وأجابه ريتشي: «بالفعل، لكن المبدأ لا يتغيَّر».

كان مايك يحمل ألبوم صور والده تحت إبطه، وسألهما: «أين الجميع؟». كان يعرف أن بيل لا بُدَّ في الجوار، لأنه أوقف درَّاجته أسفل الجسر جوار سيلڤر.

قال ريتشي: «بيل وإدي ذهبا إلى مكب النفايات منذ نصف ساعة للعثور على مزيدٍ من الألواح، وراح ستانلي وبيڤ إلى متجر خردوات راينولدز لشراء المفصَّلات. لا أعرف ما الذي يدور ببال كومة القش، لكنه في الغالب ليس جيِّدًا. الصبي في حاجة أن يُبقي شخصٌ عينه عليه كما تعرف. بالمناسبة، أنت مدين لنا بثلاثة وعشرين سنتًا إذا كنت تريد عضوية هذا النادي. هذا نصيبك من ثمن المفصَّلات».

نقل مايك الألبوم من ذراعه اليُمنى إلى اليُسرى ودسَّ يده في جيبه. عدَّ ثلاثة وعشرين سنتًا وأعطاها إلى ريتشي) تاركًا ما مجموعه عشرة سنتات في ثروته)، ثم سار إلى الحُفرة وألقى نظرة.

لكنها لم تعُد حُفرة في الحقيقة. كانت جوانبها قد رُبِّعت جيِّدًا، وكل جانب

دُعِّم بالأخشاب. كانت الألواح التي استخدموها هجينة، ومُختلفة الأطوال والأنواع، لكن بن وبيل وستان نجحوا في تشذيبها جيِّدًا باستخدام بعض الأدوات من ورشة زاك دِنبروه (لقد تكلَّف بيل عناءً كبيرًا في التأكُّد من إرجاع كل أداة إلى مكانها كل ليلة، وبذات الحالة التي أُخذت بها). ثبَّت بن وبيڤرلي ألواحًا مُتقاطعة على الدعامات بالمسامير ليُزيدا من متانتها، ورغم ذلك كانت الحُفرة ما زالت تُثير قلق إدي.. لكن هذا ما جُبِل إدي عليه. في أحد الأركان، كُوِّمت رُقع مُربَّعة من العُشب سيلزقونها لاحقًا على السطح للتمويه.

قال مايك: «يبدو أنكم تعلمون جيِّدًا ما تفعلونه يا رفاق».

قال بن: «بالتأكيد»، ثم أشار إلى الألبوم: «ماذا تحمل معك».

قال مايك: «إنه ألبوم ديري الخاص بوالدي. إنه يهوى جمع الصور القديمة وقصاصات عن البلدة. إنها هواية. لقد بحثت في الصور قبل بضعة أيام. لقد أخبرتكم عن ظني أنني رأيت ذلك المُهرِّج من قبل، وقد كنت مُحقًّا. إنه موجود في الألبوم، لذا أحضرته معي». كان مايك خَجِلًا جدًّا من أن يضيف أنه لم يجرؤ على طلب إذن والده للقيام بذلك، خشيةً من الأسئلة التي قد يُثيرها مثل هذا الطلب. لقد سرق الألبوم من المنزل كلصٍّ في أثناء ما كان والده يزرع البطاطس في الحقل الغربي وتُعلِّق أمه الملابس المغسولة في الباحة الخلفية. «فكَّرت أنكم يجب أن تلقوا نظرة عليه أيضًا يا رفاق».

قال ريتشي: «حسنًا، دعنا نراه».

- «أظنُّ أنه من الأفضل انتظار حضور الجميع».

- «حسنًا». قالها ريتشي الذي لم يكن في الحقيقة مُتحمِّسًا تمامًا للنظر إلى مزيدٍ من صور ديري، سواء في ذلك الألبوم أو في أيِّ ألبومٍ آخر، ليس بعد ما حدث في غرفة چورچي. «أترغب مساعدتنا في تثبيت باقي الدعامات؟».

- «على الرحب والسعة»، قالها مايك ووضع ألبوم والده جانبًا بحرص، بعيدًا عن الحُفرة بما يكفي كي لا يتَّسخ بالتُربة المُتطايرة، ثم أمسك بمعول بن.

قال بن مُشيرًا إلى بقعة: «احفر هنا بعمق قدم، ثم سأضع اللوح في الفجوة وأضغطه إلى جانب الحائط بينما تُعيد أنت التُربة إلى مكانها».

- «خطَّة جيِّدة يا رجُل». قالها ريتشي بحكمة من مكانه على حافَّة الحُفرة وقدماه تتدلَّيان منها.

سأله مايك: «ماذا أصابك؟».

قال ريتشي مُقدِّمًا عُذرًا سخيفًا: «أشعر بألمٍ في ساقي».

- «كيف حال مشروعك أنت وبيل؟»، هكذا سأل مايك وهو يخلع قميصه ثم بدأ في الحفر. كان الجو حارًّا بالأسفل، وأزيز الصراصير الرتيب يبدو كدقِّ الساعات بين الشجيرات.

قال ريتشي: «حسنًا، لا بأس به، على ما أظنُّ»، وشعر مايك أنه رمق بن بنظرة جانبية تحذيرية.

سأله بن: «لماذا لا تُشغِّل لنا الراديو يا ريتشي»، ثم وضع لوحًا في الحُفرة التي حفرها مايك وثبَّته بيديه. كان مذياع ريتشي مُعلَّقًا من حزامه في مكانه المُعتاد، على فرعٍ سميك من شُجيرة قريبة.

قال ريتشي: «البطاريات نفدت. لقد أخذت آخر خمسة وعشرين سنتًا أملكها لشراء المفصَّلات، أتذكُر؟ يا للقسوة يا كومة القش، هذه قسوة كبيرة. بعد كل ما فعلته من أجلك. فضلًا عن أن المحطَّة الوحيدة التي أستطيع ضبط موجتها هنا هي وابي، وهذه لا تُذيع سوى موسيقى روك مُخنَّثة».

سأل مايك: «هه؟».

قال ريتشي: «يظن كومة القش أن ما يُغنيه تومي ساندس وبات بون موسيقى روك أند رول، لكن هذا لأن ذوقه مريض فقط. إلڤيس يُغني روك أند رول. إرني كيه دو يُغني روك أند رول. كارل بيركنس يُغني روك أند رول. بوبي دارين.. بودي هولي.. 'آهاو بيجي، ما بيجي سوهو-وو...'».

قاطعه بن: «ريتشي، أرجوك».

قال مايك وهو يميل فوق المعول: «هانك أيضًا، وفاتس دومينو، وتشاك بيري، وليتل ريتشارد، وشيب أند لايملايتس، ولاڤرن بيكر، وفرانكي ليمون وفريق تين-آچرز، وهانك بالارد وفريق ميدنايترز، وفرقة كوسترز، والأخوان آيزلي، وفرقة كريستس، وفرقة كوردس، وستيك مكي...».

كان كلاهما ينظر إليه بانشداهٍ مذهول، ما جعل مايك ينفجر ضاحكًا.

قال ريتشي: «لقد تُهت منك بعد ليتل ريتشارد». كان ريتشي يُحب ليتل ريتشارد، لكن بطل الروك أند رول السري المُفضَّل لديه لهذا الصيف كان چيري لي لويس. لقد تصادف أن جاءت أمه إلى غُرفة المعيشة بينما چيري لي يؤدي عرضًا في برنامج أمريكان باندستاند، وقد كانت هذه اللحظة التي قفز فيها چيري لي فوق البيانو وراح يعزف وهو مقلوبًا رأسًا على عقب وشعره يتدلَّى على وجهه. كان يُغني «هاي سكول كونفيدنشال». ظنَّ ريتشي للحظة أن أمه سيغشى عليها. لم يحدث هذا، لكن ما رأته راعها تمامًا، وقد تحدَّثت مع أبيه على العشاء بخصوص إرسال ريتشي إلى أحد المُعسكرات الصيفية شبه العسكرية لقضاء البقية الباقية من عُطلة الصيف. الآن بعثر ريتشي شعره على وجهه مُغطِّيًا عينيه وبدأ يغنِّي: «هيًّا يا صغيرتي، كل القطط في المدرسة الثانوية تُزلزل القاعة...».

بدأ بن في الترنُّح في أرجاء الحُفرة، مُمسكًا بطنه الكبير ومُتظاهرًا بأنه يتقيأ. أغلق مايك أنفه بإصبعيه، لكنه كان يضحك بقوَّة أسالت الدموع من عينيه.

سألهما ريتشي: «ما الأمر؟ أعني، ما مُشكلتكما يا صاحبيّ؟ كان هذا جيِّدًا! وعندما أقول جيِّدًا فأنا أعني جيِّدًا جدًّا!».

قال مايك وهو يضحك الآن من أعماق قلبه لدرجة أنه استطاع بالكاد التحدُّث: «أوه يا رجُل، كان هذا رائعًا، وعندما أقول رائعًا أعني أنه لا يُقدَّر بثمن».

قال ريتشي: «الزنوج لا ذائقة لديهم، أظنُّ أن هذا مذكور في الإنجيل».

قال مايك وهو يضحك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: «الحقيني يا أمي»، وعندما سأله ريتشي بحيرة صادقة عن معنى ذلك، ارتمى مايك أرضًا بقوَّة وأخذ يهتزُّ أمامًا وخلفًا وهو يعوي ويُمسك بمعدته.

قال ريتشي: «رُبَّما تعتقد الآن أنني أشعر بالغيرة، رُبَّما تعتقد أنني أتمنى لو كنت زنجيًّا».

الآن سقط بن بدوره أرضًا، وقد جحظت عيناه وراح يضحك بجنون وجسده كله يهتز ويترجرج بشكل يثير القلق، ثم تمكَّن من قول: «كفى أرجوك يا ريتشي. سأغوط في سراويلي. سأموت إن لم تتوقَّف...».

قال ريتشي: «أنا لا أريد أن أكون زنجيًّا. من يرغب في ارتداء سراويل وردية والعيش في بوسطن وشراء البيتزا بالقطعة؟ أريد أن أكون يهوديًّا كستان. أريد أن أمتلك مكتب رهنيات وأبيع للناس مطاوي وجيتارات مُستعملة وألعاب براز الكلاب البلاستيكي الزائف».

كان بن ومايك الآن يصرخان حرفيًّا. تردَّد صدى الضحكات عبر الوادي الأخضر المُتشابك الذي أُسيئت تسميته بالبرِّية، ما جعل الطيور تفرُّ من أغصانها والسناجب تتجمَّد في أماكنها مُنصتة. كانت أصوات يافعة، نافذة، مُفعمة بالنشاط، حيَّة، بسيطة، حُرَّة.. وقد تفاعل معها كل شيءٍ حيٍّ تقريبًا بشكلٍ أو بآخر، لكن الشَّيءَ الذي سقط من مصرف الأمطار الخرساني إلى نهر الكِندوسكيج لم يكن حيًّا. في عصر اليوم السابق هبَّت عاصفة رعدية مُفاجئة مَا جعل المياه تجري في سيولٍ عبر مصارف العواصف أسفل ديري (لم يتأثَّر مقرُّ النادي، فمنذ أن بدأت عمليات الحفر، كان بن يُغطِّي الحُفرة في نهاية كل يومٍ بخرقة من القماش المشمَّع عثر إدي عليها خلف صالون والي سبا.. كانت تفوح منها رائحة طلاء، لكنها أدَّت الغرض)... وقد كان جريان المياه هو الذي دفع ذلك الجسم غير السار إلى الخارج وتحت ضوء الشمس لكي يجده الذباب.

كانت هذه جُثَّة صبي في التاسعة من عمره اسمه چيمي كولوم. باستثناء أنفه، كان وجه الصبي قد اختفى بالكامل، وحلَّت محلَّه كتلة عجينية مُمزَّقة شر مُمزَّق. كان اللحم العاري منقوطًا بعلامات سوداء عميقة رُبَّما كان ستان الوحيد الذي سيستطيع تمييز ماهيتها: هذه آثار نقرٍ. آثار نقرٍ خلَّفها مُنقارٌ عملاق.

تدفَّق الماء فوق سراويل چيمي كولوم الموحلة، بينما طفت يداه كسمكتين نافقتين على سطح الماء. كانت يداه مثقوبتين بدورهما، لكن ليس بالبشاعة نفسها. أخذ قميصه المزركش ينتفخ وهبط، ينتفخ ويهبط، كالمثانة.

عبر كلٌّ من بيل وإدي -مُحمَّلين بالألواح التي جمعاها من مكب النفايات- نهير الكِندوسكيج مُستخدمين أحجار العبور على بُعدِ أقل من أربعين ياردة من الجُثَّة. سمع كلاهما أصوات ضحكات ريتشي وبن ومايك،

فابتسم أحدهما للآخر، ثم أسرعا في طريقهما عابرين جُثَّة چيمي كولوم لمعرفة علام يضحكون.

6

كانوا ما زالوا يضحكون عندما جاء بيل وإدي إلى المساحة الخالية والعرق يسيل منهما بسبب حمولة الأخشاب. حتَّى إدي -الذي دائمًا ما يبدو شاحبًا كقطعة جبن- شاع بعض الاحمرار في وجهه. أسقطا الألواح الجديدة أرضًا فوق كومة الإمدادات التي أوشكت على النضوب تقريبًا، فتسلَّق بن خارجًا من الحُفرة لتفحُّصها.

قال لهما: «مجموعة رائعة! واو! عظيم».

انهار بيل أرضًا وهو يقول: «هـ-هـ-هل أ-أستطيع أن أ-أ-أحظى بسـ-سكتتي القلبية الآن أم يـ-يـ-يتحتَّم عليّ الانتظار لـ-لـ-لاحقًا؟».

قال بن دون اكتراث: «لاحقًا». كان قد جلب بعض الأدوات الخاصة به إلى البرِّية، وكان الآن يخطو فوق الألواح الجديدة بعناية، يقصف البراغي ويزيل المسامير. ألقى بأحد الألواح بعيدًا لأنه كان مشروخًا، وقرع آخر فصدر عنه صوتًا مكتومًا في ثلاثة مواضع على الأقل، فألقاه بدوره بعيدًا. جلس إدي فوق كومة من التُربة يراقبه. استنشق بخَّة من بخَّاخه في أثناء ما كان بن ينزع مسمارًا صدئًا من لوحٍ بطرف المطرقة المُستدق. أصدر المسمار صريرًا أشبه بصوت حيوانٍ صغيرٍ تعس دهس أحدهم ذيله ولم يحب ذلك كثيرًا.

أخبر إدي بن: «ستُصاب بالتيتانوس إذا جرحت نفسك بمسمارٍ صدئ».

قال ريتشي: «ماذا؟ ما التيتنوس؟ يبدو كمرض للنساء».

قال إدي: «أنت مخنَّث. اسمه تيتانوس، لا تيتنوس، وهو يعني الكزاز أو تصلُّب الفك. ثمَّة جرثومة مُتخصِّصة تنمو في الصدأ، وإذا جرحت نفسك بشيءٍ صدئ فيمكن أن تدخل جسدك وتُدمِّر جهازك العصبي». أنهى إدي عبارته وازداد وجهه احمرارًا، فاستنشق بخَّة سريعة أخرى من بخَّاخه.

قال ريتشي وقد تأثَّر: «تصلُّب الفك، يا للمسيح. يبدو هذا مؤلمًا».

- «يمكنك الرهان على ذلك. في البداية يتشنَّج فكَّك تمامًا ولا تستطيع

فتح فمك على الإطلاق، ولا حتَّى لتأكل. ثم يفتح الأطباء ثقبًا في وجنتك ويغذُّونك بالسوائل عن طريق أنبوب».

قال مايك خارجًا من الحُفرة: «هذا مُخيف يا رجُل». كانت عيناه مُتَّسعتين، وتبدو قرنيَّتاه شديدتي البياض في مُقابلة وجهه البُنِّي. «هل أنت مُتأكِّد؟».

قال إدي: «لقد سمعته من أمي. بعدها تتصلَّب حنجرتك ولا تعود قادرًا على بلع أيَّ شيءٍ، فتتضوَّر جوعًا حتَّى الموت».

التزم جميعهم الصمت وفكَّروا في الأمر مرعوبين.

أضاف إدي: «ولا علاج له حتَّى الآن».

مزيدٌ من الصمت.

قال إدي سريعًا: «لذا، دائمًا ما آخذ حذري من المسامير الصدئة وكل ما شابه. لقد أخذت لقاح التيتانوس مرَّة، وهو مؤلمٌ حقًّا».

سأله ريتشي: «إذًا لماذا رافقت بيل إلى المكبِّ للإتيان بكل هذه الفضلات؟».

اختلس إدي نظرة سريعة إلى بيل، الذي كان يرمق مقرَّ النادي، وقد حملت نظرته كل معاني الحب وتجبيل البطل اللازمة لإجابة مثل هذا السؤال، لكن إدي قال بنعومة: «يجب فعل بعض الأشياء حتَّى لو تضمَّن الأمر مُجازفة.. هذا أوَّل شيءٍ هام أكتشفه دون أن لم أتعلَّمه من أمي».

تبع عبارته الأخيرة مزيدٌ من الصمت، لكنه لم يكن مُوتِّرًا هذه المرَّة.. ثم واصل بن نزع المسامير الصدئة عن الألواح، وانضم مايك هانلون إليه.

كان مذياع ريتشي الذي سُلِب صوته -على الأقل إلى أن يأخذ ريتشي مصروفه أو يجد حشائش ليجزَّها- يتدلى مُتأرجحًا من فرع الشجيرة المُنخفض بفعل النسيم الضعيف. كان أمام بيل وقت للتفكير في غرابة كل هذا.. في غرابة مُصادفة تجمُّعهم جميعًا هنا في هذا الصيف. إنه يعرف صبية كُثُر يزورون أقاربهم خارج البلدة. يعرف صبية ذهبوا في رحلات خارج البلدة إلى ديزني لاند في كاليفورنيا أو كيب كود، ويعرف شخصًا ذهب لزيارة صديقٍ حميم في مكانٍ بعيد لا يُمكن تصوُّر بُعده له اسم شاذ لكنه موحٍ: جشتاد. ثمَّة صبية ذهبوا إلى مُعسكر الكنيسة، وآخرين إلى مُعسكر الكشَّافة،

وآخرين -أثرياء- إلى مُعسكرات الأثرياء حيث تستطيع تعلُّم السباحة ولعب الجولف.. مُعسكرات تتعلَّم أن تقول فيها «هاي، رمية جيِّدة» بدلًا من «عليك اللعنة» عندما يباغتك خصمك باستهلالة قاتلة في مُبارة تنس. إنه يعرف صبية أخذهم ذويهم ببساطة بعيدًا. استطاع بيل أن يفهم هذا التصرُّف الجماعي. كان يعلم أن بعض الصبية يريدون الابتعاد بعيدًا، خوفًا من البُعبُع الذي يقض مضجع البلدة، لكنه كان يشك أن آباءً أكثر يرتعدون خوفًا من ذلك البُعبُع. غيَّر الناس الذين قرَّروا مُسبقًا قضاء العُطلة في منازلهم رأيهم فجأة، وقرَّروا الذهاب بعيدًا

(جشتاد؟ أهي في السويد؟ الأرجنتين؟ إسبانيا؟)

بدلًا من ذلك. كان الأمر شبيهًا بهلع شلل الأطفال الذي حدث عام 1956، عندما التقط أربعة صبية كانوا يسبحون في مسبح أوبراين التذكاري عدوى المرض، وقتها قرَّر الكبار -وهي الكلمة المُرادفة للآباء والأمهات في عقل بيل- أن السفر بعيدًا أفضل. أكثر أمانًا. كل من استطاع السفر وقتها سافر. كان بيل يدرك مفهوم كلمة بعيد، ويستطيع التأمُّل في كلمة شديدة الروعة والعجب كجشتاد، لكن العجب لا يعدو كونه راحة باردة مُقارنةً بالرغبة. إن جشتاد بعيدة، لكن ديري مُفعمة بالرغبة.

لم يذهب أيٌّ منا بعيدًا، هكذا فكَّر بيل وهو يراقب بن ومايك ينزعان المسامير من الألواح الخشبية المُستعملة، بينما تمشَّى إدي قاصدًا سُترة من الشجيرات ليتبوَّل (يجب عليك التبول في أقرب وقتٍ ممكن، وذلك لتجنُّب إجهاد مثانتك الذي قد يكون خطيرًا، لكن يجب عليك في الوقت نفسه الاحتراس من البلاب السام، لأن من يريد أن يُلامس هذا النبات الشيطاني قضيبه، هكذا قال إدي ذات مرَّة). جميعنا لم يبرح ديري. لا مُعسكر للذهاب إليه، لا أقراب لزيارتهم، لا رحلات، لا سفر. جميعنا موجود هنا. الكل حاضر ولا غياب مُسجَّل.

- «لقد وجدنا بابًا قرب المكبِّ»، قالها إدي وهو يُغلق سحَّابه ويعود.

قال ريتشي: «أتمنى أن تكون قد أفرغت مثانتك بالكامل يا إدي. إن لم تُفرغها بالكامل في كل مرَّة تشخ فيها قد تُصاب بالسرطان، هكذا أخبرتني أمي».

بدا إدي مشدوهًا، وقلقًا بعض الشيء، ثم شاهد ابتسامة ريتشي. عالجه إدي بنظرة من نوع الاستظراف-من-شيم-الأطفال ثم قال: «كان أكبر ممَّا نستطيع حمله، لكن بيل قال لو ذهبنا جميعًا وتعاونَّا في حمله سنتمكَّن من إحضاره إلى هنا».

واصل ريتشي مُتجاهلًا كلامه: «بالطبع لن تستطيع إفراغها تمامًا، أتريد معرفة ما قاله لي رجُلٌ حكيمٌ ذات مرَّة يا إدز؟».

قال إدي: «لا، ولا أريدك أن تناديني بإدز بعد الآن يا ريتشي. أنا جاد. أنا لا أناديك بالقضيب كأن أقول لك: 'هل معك قطعة علكة يا قضيب'، فلا أفهم لماذا...».

قاطعه ريتشي قائلًا: «هذا الرَّجُل الحكيم أخبرني بالآتي: 'لا يهم كم تتشنَّج وتتراقص، آخر قطرتين ستنزلان في لباسك حتمًا'، وهذا سبب انتشار السرطان في العالم يا عزيزي إدي».

- «سبب انتشار السرطان أن المُهوَّسين أمثالك وأمثال بيڤرلي مارش يُدخِّنون».

قال بن بنبرة رادعة: «بيڤرلي ليست مهوَّسة، راقب لسانك يا بذيء اللسان».

قال بيل شاردًا: «بيب-بيب يا رفاق، وبالحديث عن بـ-بـ-بيڤرلي، إنها قـ-قـ-قويَّة إلى حدٍّ كـ-كبير، يمكنها مُـ-مُساعدتنا في إ-إ-إحضار ذلك البـ-باب»

سأله بن أيَّ نوعٍ من الأبواب هذا.

- «من خـ-خـ-خشب المـ-ماهوجني، على ما أ-أظنُّ».

سأل بن مُندهشًا لكن من دون تكذيب: «أألقى أحدهم بابًا من خشب الماهوجني؟».

قال مايك: «الناس يتخلَّصون من كل شيء. لكم يؤلمني الذهاب إلى ذلك المكبِّ.. حقًا أتأذَّى».

وافقه بن: «أجل، يُمكن إصلاح كثير من الأشياء المُلقاة هناك بسهولة. يوجد أناس في الصين وأمريكا الجنوبية لا يملكون شيئًا، هذا ما تقوله أمي».

قال ريتشي مُتجهِّمًا: «يوجد أناس في ديري لا يملكون شيئًا يا بُني چيم».

سأل بيل وقد لاحظ الألبوم الذي جلبه مايك: «مـ-مـ-ما هـ-هـ-هذا؟».
أخبره مايك بأمره، وقال له إنه سيُريهم صور المُهرِّج عندما يعود ستان وبيفرلي بالمفصَّلات.

تبادل بيل وريتشي نظرة.

سألهما مايك: «ما الأمر؟ أهو ما حدث في غرفة أخيك يا بيل؟».

قال بيل: «أ-أجل»، ولم يضِف المزيد.

تناوبوا العمل في الحُفرة إلى أن عاد ستانلي وبيفرلي، كلٌّ منهما يحمل كيسًا ورقيًّا بُنِّي اللون يحوي مفصَّلات. مع بدء مايك كلامه، جلس بن معقود الساقين، وصنع نوافذ زجاجية يُمكن فتحها وغلقها في اثنين من الألواح الطويلة. كان بيل الوحيد تقريبًا من لاحظ كيف تعمل أصابعه بسُرعة ومهارة، كم هي بارعة وتعرف طريقها جيِّدًا كأصابع جرَّاح! أُعجِبَ بيل بذلك.

قال لهم مايك واضعًا الألبوم في حجره: «بعضُ هذه الصور يعود تاريخها إلى مئة عام مضت. لقد حصل أبي عليها من الخردوات التي يعرضها الناس للبيع في باحات منازلهم، ومن متاجر الأشياء المُستعملة. كان يبتاعها أحيانًا ويقايضها ببضاعة في أحايينٍ أخرى. بعضٌ منها مُجسَّمة. توجد صورتان مطبوعتان على بطاقة مُعايدة طويلة، وعندما تنظر إليهما عبر تلك النظَّارة الخاصة، تبدوان كصورة واحدة مُجسَّمة، كعروض أفلام مثل منزل الشمع والمخلوق من البحيرة السوداء».

سألته بيفرلي: «لماذا يحب أبوك جمع كل هذه الصور؟». كانت ترتدي سراويل جينز عادية، لكنها فعلت شيئًا ظريفًا في ثنية ساقيَّ السراويل: لقد طوتهما إلى الخارج مُظهرة بطانتهما الداخلية اللامعة حتَّى بدت كسراويل البحَّارة الغريبة.

سأله إدي: «أجل، إن ديري مدينةٍ مُملَّة مُعظم الوقت».

قال مايك خَجِلًا: «حسنًا، لست متأكِّدًا تمامًا، لكن أظنُّ لأنه لم يولد هنا. الأمر يبدو، لا أعرف، يبدو كأن كل شيءٍ جديد عليه، أو مثلما يحدث إذا دخلت السينما في منتصف الفيلم...».

قال بيل: «بـ-بـ-بالتأكيد. تـ-تـ-ترغب فـ-في مـ-مـ-معرفة بـ-بدايته».

قال مايك: «أجل. يوجد تاريخ حافل مخبوء في ديري، وأنا أحب هذه الأمور نوعًا. كما أظنُّ أن الأمر له علاقة بهذا الذي نتعامل معه.. الشَّيءِ.. إذا رغبتم في إطلاق هذا الاسم عليه».

أنهى مايك عبارته ونظر إلى بيل، ثم أومأ الأخير وعيناه مليئتان بالتفكير.

- «وهكذا رحت أُقلِّب في الألبوم بعد موكب الرَّابع من يوليو لأنني كنت مُتأكِّدًا من أني رأيت ذلك المُهرِّج من قبل. كنت واثقًا.. انظروا».

فتح مايك الألبوم، وقلَّب في الصور، ثم ناوله إلى بن الذي كان يجلس إلى يمينه.

قال بيل: «لـ-لـ-لا تـ-تـ-تلمس الصفحات». كانت نبرته تحمل تشديدًا جعلهم جميعًا ينتفضون. لاحظ ريتشي أنه يضم قبضته التي تحمل القطعات التي أُصيب بها عندما مدَّ أصابعه إلى ألبوم چورچي. كانت مضمومة بإحكامٍ في قبضة حذرة.

قال ريتشي: «بيل مُحِقٌّ»، وقد شكَّل صوته الخفيض البعيد تمامًا عن شخصيته إقناعًا قويًّا لهم. «كونوا حذرين، فكما قال ستان، إذا كنا أنا وبيل رأيناه، فقد يتكرَّر الأمر معكم أنتم أيضًا».

أضاف بيل مُتجهِّمًا: «أو تستشعرونه».

تناقلوا الألبوم من يدٍ إلى يدٍ، وحمل كلٌّ منهم الكتاب بحذرٍ شديد من أطرافه، كأنهم يحملون أصابع ديناميت تتعرَّق حبَّات كبيرة من النيتروجلسرين.

عاد الألبوم إلى مايك الذي فتحه على واحدة من الصفحات الأولى.

قال مايك: «أبي يقول إنه من المستحيل معرفة تاريخ هذه الصورة بدقَّة، لكنها غالبًا من منتصف القرن الثامن عشر. لقد أصلح منشارًا شريطيًّا لأحدهم في مُقابل صندوق من الكتب والصور القديمة، وكانت هذه من ضمنها. يقول إنها تساوي اليوم أربعين دولارًا أو رُبَّما أكثر».

كانت الصورة محفورة في قطعة خشب في حجم بطاقة بريدية كبيرة. عندما جاء دور بيل لينظر إليها، شعر بالراحة أن والد مايك يمتلك ألبومًا من النوع الذي تُحفظ فيه الصور أسفل ورقة بلاستيكية وقائية. نظر بيل إلى الصورة مشدوهًا، وفكَّر: هناك. أنا أراه.. أرى الشَّيءَ. أراه بأم عيني. هذا وجه العدو».

كانت الصورة تُظهر شخصًا مُضحكًا يطوِّح مجموعة زجاجات بولينج في الهواء في منتصف شارعٍ موحل. توجد منازل قليلة على كلا جانبي الشارع، وحفنة من الأكواخ خمَّن بيل أنها متاجر، أو محلَّات تداول، أو أيًّا ما كان اسمها في تلك الأيام. لم يبدُ أنه منظر يستعرض ديري على الإطلاق، باستثناء القناة. كانت موجودة، وقد رُصف مجراها بأناقة من كلا الجانبين.. وبعيدًا في الخلفية، استطاع بيل رؤية مجموعة من البغال تجرُّ مركبًا كبيرًا عبر طريق الأنعام.

كان هناك نصف دزينة من الأطفال تقريبًا مُلتفَّة حول الرَّجُل المُسلي، يرتدي أحدهم قُبَّعة ريفية مصنوعة من القش، وآخر لديه طارة وعصا ليُدحرجها بها، لكنها لم تكن كالعصي التي تشتريها هذه الأيَّام مع الطارات من متجر وولورث، بل مُجرَّد فرع شجرة. استطاع بيل رؤية العُقد العارية عليها حيث قُطعت الفروع الأصغر بواسطة سكينٍ أو بلطة. هذه العصا لم تُصنع في تايوان أو كوريا، هكذا فكَّر بيل مسحورًا بهذا الصبي الذي كان يُمكن أن يكونه إذا كان وُلِد قبل أربعة أو خمسة أجيال.

ثمَّة ابتسامة كبيرة على وجه الرَّجُل المُضحك. لم يكن يضع مساحيق تجميل (إلا أن وجهه بالكامل بدا مُصطنعًا بالنسبة إلى بيل)، لكنه كان أصلع الرَّأس باستثناء خُصلٍ من الشعر تبرز كقرون من فوق أذنيه، ولم يجد بيل صعوبة في تعرُّفه.. إنه مُهرِّجهم. فكَّر بيل: كان موجودًا منذ مئتي عامٍ أو أكثر، وشعر بموجة عارمة من الرعب والغضب والإثارة تجتاح جسده. بعدها بسبعة وعشرين عامًا، وهو جالس في مكتبة ديري العامة يتذكَّر أوَّل نظرة ألقاها إلى ألبوم والد مايك، أدرك بيل أن استشعر الشعور الذي قد يستشعره صيَّادٌ يتعثَّر في أوَّل أثرٍ طازجٍ خلَّفه نمرٌ قاتل عجوز. منذ مئتي عام مضت.. إنه بهذا القِدم، والرَّب وحده يعلم كم هو أقدم. قاده هذا التفكير إلى التساؤل عن كم بالضبط مكثت روح بيني وايز هنا في ديري، لكنه وجدها فكرة مُقلقة لا يودُّ حقًّا تتبُّع خيطها.

قال ريتشي: «مرِّرهُ يا بيل». لكن بيل ظل مُمسكًا بالألبوم مُدَّة أطول، يُحملق بثبات إلى النقش الخشبي، بالتأكيد سيبدأ في التحرُّك: ستبدأ

زجاجات البولينج (إن كانت هذه حقيقتها بالفعل) التي يُطوِّحها الرَّجُل المُضحك في الارتفاع والسقوط، الارتفاع والسقوط، وسيبدأ الأطفال في الضحك والتصفيق (لكن رُبَّما لن يضحكوا ويُصفِّقوا جميعًا، بعضهم قد يبدأ في الصراخ والفرار بدلًا من ذلك)، وستبدأ البغال في جرِّ المركب الكبير إلى ما وراء حواف الصورة.

لكن هذا لم يحدث. مرَّر بيل الكتاب إلى ريتشي.

عندما عاد الألبوم إلى مايك، أخذ يُقلِّب مزيدًا من صفحاته باحثًا عن شيءٍ. ثم قال: «هنا. هذه الصورة من عام 1856، قبل أربع سنوات من انتخاب لينكولن رئيسًا للجمهورية».

طاف الكتاب حولهم مُجدَّدًا. كانت الصورة التالية مرسومة باليد -كاريكاتورية نوعًا- وتستعرض مجموعة من الثمالى يقفون أمام حانة بينما رجُلٌ سياسي بدين بشاربٍ كثٍّ يخطب من فوق منصة نُصِّبت على برميلين كبيرين. كان يحمل جرَّة كبيرة من البيرة تعلوها الرغوة، وكان اللوح الذي يقف عليه ينحني بشكلٍ ملحوظ أسفل ثقله، وفي البُعد قليلًا، توجد مجموعة من النسوة يرتدين القلنسوات وينظرن إلى هذا العرض بخليطٍ من السخرية والاستهزاء والاشمئزازٍ. كان التعليق أسفل الصورة يقول: السيناتور جارنر يقول إن السياسة في ديري عملٌ مُعطِّش.

قال مايك: «أبي يقول إن مثل هذه الصور كانت ذات شعبية كبيرة قبل الحرب الأهلية بنحو عشرين عامًا. كانوا يدعونها «البطاقات المازحة»، واعتاد الناس وقتها إرسالها إلى بعضهم بعضًا. إنها كتلك الدعابات في مجلَّة ماد على ما أظنُّ».

قال بيل: «هـ-هـ-هجاءٌ سـ-ساخر».

قال مايك: «أجل، لكن انظروا الآن إلى رُكن هذه الصورة».

كانت الصورة التالية تُشبه مجلَّة ماد بطريقةٍ أخرى، إنّ بها تفاصيل كثيرة ونكات فرعية عديدة كلوحة من إبداع مورت داركر تحتلُّ صفحة كاملة في تغطية مجلَّة ماد لفيلمٍ جديد. كانت تعرض رجُلا بدينًا يبتسم وهو يصب كأسًا من البيرة في حلقِ كلبٍ. ثمَّة امرأة سقطت على ردفيها في بركة موحلة،

وصبيي شوارع يلصقان بمكرٍ عودي ثقاب في باطني فردتي حذاء رجُل أعمال تلوح النعمة عليه، وفتاة تتأرجح مُعلَّقة بكاحليها من شجرة دردار كاشفة عن ملابسها الداخلية. لكن بالرغم من كل تلك التفاصيل المتشابكة المُحيِّرة التي تزيغ البصر، لم يشعر أحدهم بحاجة إلى أن يُشير مايك إليهم نحو المُهرِّج. كان يلعب الورقات الثلاث مع مجموعة من الحطَّابين الثملين مُرتديًا سُترة طبَّالين بصديري مفتوح ذي ترابيع. كان يغمز إلى حطَّاب -الذي وفقًا لفمه المفتوح ونظرة الاندهاش على وجهه- اختار الورقة الخاطئة، وكان المُهرِّج/ الطبَّال يأخذ عملة نقدية منه.

قال بن: «هو من جديد.. بعد ماذا.. مئة سنة تقريبًا؟».

قال مايك: «تقريبًا، وها هي صورة ثالثة من العام 1891».

كانت هذه قُصاصة من الصفحة الأولى من جريدة أخبار ديري. كان العنوان يُعلن بصيغة مُفرطة: مرحى! اليوم افتتاح مصنع الحديد! وأسفل هذا كُتِب عنوانٌ فرعي: «الاحتفالات تعم شوارع البلدة». كانت الصورة تعرض نقشًا خشبيًا لمراسم قص شريط مصنع الحديد. ذكَّرهُ طراز الصورة باللوحات التي تُعلِّقها أمه في غرفة الطعام، لكن هذه لم تكن مصقولة مثلها. كان هناك رجُلٌ يرتدي معطفًا صباحيًا ويعتمر قُبَّعة عالية ويُمسك بمقصٍّ كبيرٍ مفتوحٍ في يده فوق شريط افتتاح مصنع الحديد، فيما يقف جمعٌ تعداده نحو خمسمئة شخصٍ يتفرَّجون. إلى اليسار يقف مُهرِّج.. كان المُهرِّج يتشقلب في الهواء لإبهاج مجموعة من الأطفال، وقد اقتنصه الرسام في الوضع مقلوبًا، مُحيلًا ابتسامته إلى صرخة.

مرَّر مايك الكتاب إلى ريتشي.

الصورة التالية فوتوغرافية.. وقد كتب ويل هانلون أسفلها: 1933، إلغاء تحريم الخمور في ديري. رغم أن الصبية لم يكونوا يعرفون كثيرًا عن قانون ڤولستد ولا عن إلغائه، لم تكن الصورة في حاجةٍ إلى شرح. كانت الصورة تستعرض ماخور والي سبا الموجود في الجزء من البلدة المُسمَّى نصف الفدَّان الجحيمي. كان المكان يمتلئ تقريبًا برجالٍ يرتدون قمصان بيضاء مفتوحة الياقات، وطواقي من القش، وقمصان حطَّابين، وتيشرتات، وبزَّات

رسمية، وكانوا جميعًا يحملون الكؤوس والزجاجات ويبتسمون في انتصارٍ بهيج، ثمَّة لافتتان مُعلَّقتين على النافذة، الأولى تقول: مرحبًا بعودتك يا چون بارليكورن! والأخرى تقول: البيرة الليلة مجانًا. كان المُهرِّج مُتأنِّقًا كأكثر غندور شاهدته في حياتك، ويرتدي حذاءً أبيض، وحُليٌّ حذاء، وسراويل عصابات، ويريح قدمه على عتبة سيَّارة ريو أوتو ويحتسي الشامبانيا في فردة حذاء نسائي عالي الرقبة.

قال مايك: «1945».

جريدة أخبار ديري من جديد. العنوان هذه المرَّة يقول: اليابان تستسلم، الحرب انتهت! حمدًا لله الحرب انتهت! ثمَّة موكب يشق طريقه ملتويًا كثعبان عبر الشارع الرئيس في اتِّجاه تلَّة أب-مايل، وكان المُهرِّج يظهر في الخلفية مُرتديًا حُلَّته الفِضِّية ذات الأزرار البرتقالية ومُجمَّدًا في النقاط الدقيقة التي تُشكِّل تفاصيل صورة الجريدة المُغبَّشة التي بدا أنها تُلمِّح -إلى بيل على الأقل- أن شيئًا لم ينتهِ.. أن أحدًا لم يستسلم.. أن حربًا لم يُنتصر فيها.. أن صفرًا هو المُحصِّلة.. أن عدمًا هو المُسيطر.. وقبل كل شيء كان يبدو أنها تقترح أن كل الأمور ما زالت مُعلَّقة.

شعر بيل بالبرودة والجفاف والخوف.

فجأة اختفت النقاط في الصورة وبدأت الصورة تتحرَّك.

كان مايك يقول: «هذا ما...».

قاطعه بيل: «ا-ا-انظروا».

سقطت الكلمة من فمه كمُكعَّب ثلجٍ ذائب. «ا-ا-انظروا جـ-جـ-جميعًا إلى ه-ه-هذا!».

احتشد ستَّتهم حوله.

همست بيفرلي مذهولة: «يا إلهي».

صرخ ريتشي: «هذا ما حدث!»، ضاربًا بيل على ظهره من فرط حماسته، ثم نظر إلى وجه إدي الأبيض الشاحب وإلى النظرة المُتجمِّدة في عيني ستان، وأردف: «هذا ما رأيناه في غُرفة چورج! هذا تحديدًا ما...».

نهره بن: «صه. أنصِت». ثم أضاف مُوشكًا على البكاء: «أتسموع الصوت! يا للمسيح، الصوت يخرج من الصورة».

وسط الصمت الذي لفَّهم بعدها، والذي لم يقطعه سوى هبوب نسيم الصيف، أدركوا جميعًا أنهم يسمعون أصواتًا. كانت الفرقة تعزف لحنًا عسكريًّا خافتًا وضعيفًا، كأنه يترامى إلى آذانهم من مسافة بعيدة.. أو من ممرٍّ زمني.. أو أيًّا ما كان. كان صوت الجماهير الهاتفة يبدو كالصوت الذي يخرج من محطَّة إذاعية غير مضبوطة الموجة. كانوا يسمعون أيضًا صوت فرقعة -ضعيفًا بدوره- كصوت أصابع تنقر.

همست بيڤرلي: «ألعاب نارية». ثم فركت عينيها بيدين مُرتعشتين وأردفت: «تلك ألعاب نارية، أليس كذلك؟».

لم يجبها أحد. ظلوا جميعًا يحملقون في الصورة، وعيونهم تنتقص من وجوههم في اتِّساعها.

استمرَّ الموكب في التقدُّم نحوهم، لكن قبل أن يبلغ السائرون مُقدِّمة الصورة القصوى -أي النقطة التي سيسيرون بعدها خارجين من الصورة بعد التقاطها بثلاثة عشر عامًا- سقطوا بعيدًا عن الأنظار، كأنهم سلكوا منحنيًا مجهولًا. كان أوَّل من غاب عن الأنظار جنود الحرب العالمية الأولى، التي بدت وجوههم قديمة جدًّا أسفل خوذاتهم المُصفَّحة، وهم يحملون لافتة تقول: قدامى مُحاربي ديري يُرحِّبون بعودة فتياننا الشجعان. ثم تبعهم صبية الكشَّافة، ثم أعضاء منظَّمة كيوانس، ثم قوَّات التمريض الرئيسة، ثم فرقة مُشاة ديري المسيحية، ثم جنود الحرب العالمية الأوائل أنفسهم، ومن بعدهم فرقة المدرسة الثانوية. كانت الحلوى وقصاصات الورق الملوَّن تُرفرف هابطة من نوافذ المباني التجارية التي تصطف على جانبي الشوارع. كان المُهرِّج يتقافز على هامش الموكب، يتشقلب ويؤدي حركاتٍ بهلوانية.. مُحاكيًا القانِّصين، ومُحاكيًا التحية العسكرية. ثم لاحظ بيل للمرَّة الأولى أن الناس تبتعد عن طريقه، ليس لأنهم يرونه بالتحديد، بل كانوا يبدون كمن يشعرون بهبوب هواء أو يشتمُّون رائحة خبيثة.

الأطفال وحدهم من كانوا يرونه، وقد انكمشوا بعيدًا عنه.

مدَّ بن يده إلى الصورة، كما فعل بيل في غرفة چورچ.

صرخ بيل: «لـ-لـ-لـ-لا تـ-تفعل!».

قال بن: «أظنُّ أنه لا ضير في ذلك يا بيل. انظر». ثم وضع يده على الغلاف البلاستيكي العازل فوق الصورة لحظات ثم رفعها. «لكن إن نزعت هذا الغلاف...».

صرخت بيڤرلي. كان المُهرِّج قد ترك هذره عندما رفع بن يده، واندفع نحوهم وفمه المطلي بلون الدماء يتمتم ويضحك. أجفل بيل وتراجع إلى الوراء، لكنه حافظ على الكتاب في يديه، ظانًا أنه سيسقط بعيدًا عن الأنظار كما فعل الموكب والفرقة العازفة وأطفال الكشَّافة والسيَّارة الكاديلاك المكشوفة التي تقل ملكة جمال ديري لعام 1945.

لكن المُهرِّج لم يختفِ مع ذلك المُنحنى الذي بدا أنه الحدُّ الفاصل بين الحاضر وذلك الوجود القديم، بل قفز برشاقة ماهرة مُخيفة إلى عمود إنارة يقف على أقصى يسار مُقدِّمة الصورة، وتسلَّقه كسعدان يتسلَّق شجرة، وبغتةً التصق وجهه بالغلاف البلاستيكي السميك الذي وضعه ويل هانلون على كل صفحات ألبومه. صرخت بيڤرلي ثانيةً، وهذه المرَّة انضم إدي إليها، إلا أن صرخته كانت ضعيفة ومقطوعة النفس. برز البلاستيك وانتفخ إلى الخارج (لاحقًا سيتَّفق جميعهم أنهم رأوه يفعل). شاهد بيل أرنبة أنف المُهرِّج الحمراء تتسطَّح وتستوي، بالطريقة التي تستوي بها أنفك عندما تضغطه على زجاج نافذة.

زأر المُهرِّج ضاحكًا: «سأقتلكم جميعًا! حاولوا أن توقفوني وسأقتلكم جميعًا! سأقودكم إلى الجنون قبل أن أقتل كل واحدٍ منكم! لن توقفوني! أنا رجل كعكة الزنجبيل! أنا المُستذئب المُراهق».

فجأة صار وجه المُستذئب الفِضِّي كالقمر هو الذي ينظر إليهم، وبرزت أسنانه من فمٍ يعلو ياقة حُلَّته الفِضِّية.

- «لن تستطيعوا إيقافي، فأنا المجذوم!».

الآن كان وجه المجذوم الشاحب المُتآكل المُنتن بالقروح ينظر إليهم بعيني ميِّتٍ حيّ.

- «لن تستطيعوا إيقافي، فأنا المومياء!».

تغضَّن وجه المجذوم، وتجعَّد، وسرت فيه شقوق يابسة، ثم سبحت ضمَّادات عتيقة ولفَّت جلده وتصلَّبت عليه. أشاح بن بعيدًا وقد شحب وجهه كخثارة اللبن، لاصقًا إحدى يديه على رقبته وأذنه.

- «لن تستطيعوا إيقافي، فأنا الصبية الموتى!»..

صرخ ستان: «لا!». جحظت عيناه من فوق هلالين مُنتفخين من الجلد أسفلهما. هذا لحمٌ مصعوق، هكذا فكَّر بيل بشكلٍ عشوائي، وقد كان هذا مُصطلح سيستخدمه لاحقًا في رواية بعد اثنتي عشرة سنة، من دون أن يملك أدنى فكرة من أين استقاه، لكنه سيقتنصه فحسب، كما يَقتَنِص الكُتَّاب الكلمة المُناسبة في الوقت المُناسب، كهدية بسيطة من الفضاء الخارجي

(أم الفضاء الآخر)

الذي تأتي منه الكلمات المُناسبة الصحيحة أحيانًا.

انتزع ستان الألبوم من يديه وأغلقه بقوَّة. كان يمسكه قريبًا منه بكلتا يديه، وقد برزت الأوتار بطول باطن معصميه وساعديه. ثم نظر نحو الآخرين بعينين مسعورتين تقريبًا وكرَّر سريعًا: «لا، لا، لا».

وفجأة وجد بيل نفسه قلقًا بخصوص إنكار ستان المُتكرِّر أكثر من قلقه بخصوص المُهرِّج، وأدرك أن هذه تحديدًا ردَّة الفعل التي كان المُهرِّج يأمل في إثارتها، لأن...

لأنه رُبَّما خائفٌ منا... خائفٌ حقًّا للمرَّة الأولى في حياته الطويلة، الطويلة جدًا.

أمسك بيل بستان وهزَّه مرَّتين، بقوَّة وهو مُتشبِّثٌ بكتفيه. اصطكَّت أسنان ستان معًا وأسقط الألبوم. التقطه مايك سريعًا ووضعه جانبًا، غير راغبٍ في لمسه بعد الذي شاهده، لكنه ما زال ألبوم والده، وقد أدرك مايك بالحدس أن والده لن يرى فيه أبدًا ما شاهده هو لتوِّه.

قال ستان بضعف: «لا».

قال بيل: «نعم».

كرَّر ستان ثانيةً: «لا».

- «نعم. جـ-جـ-جميعنا...».
- «لا».
- «... ر-ر-رأيناه يا ستان». أنهى بيل عبارته، ونظر إلى الآخرين.
قال بن: «أجل».
قال ريتشي: «أجل».
قال مايك: «أجل، أوه يا إلهي، أجل».
قالت بيڤ: «أجل».
قال إدي بالكاد من حنجرته التي تنغلق سريعًا: «أجل».
نظر بيل إلى ستان، آمرًا ستان بعينيه أن ينظر مُباشرةً إليه، وقال: «لا تدعه يتملَّكك يا رجُل، لقد رأيت الأمر مثلنا».
ناح ستان: «لم أرغب!».
- «لـ-لـ-لكنك فـ-فـ-فعلت»

نظر ستان في وجوه الآخرين، واحدًا تلو الآخر. ثم مرَّر يده عبر خصلات شعره القصير وتنهَّد تنهيدة هائلة راجفة. ثم بدا أن عيناه راقتا من ذلك الجنون المُكفهرِّ الذي أزعج بيل كثيرًا.

في النهاية قال: «أجل. أجل. حسنًا. أجل. أهذا ما تُريد؟ أجل».

فكَّر بيل: ما زلنا جميعًا معًا. الشَّيء لم يوقفنا. ما زلنا نستطيع قتله. ما زلنا نستطيع قتل الشَّيء... إذا كنا شجعانًا.

نظر بيل في وجوه من حوله ورأى في كل زوجي عيونٍ منها قدرًا من الهِستيريا التي لاحت في عيني ستان. لم تكن بذات الشدَّة، لكنها موجودة.

قال بيل مُبتسمًا لستان: «أ-أ-أجل». بعدها بلحظة ابتسم ستان بدوره، وغادرت بعض من تلك الصدمة المُريعة ملامحه. «هـ-هذا ما أ-أ-أريد أيُّها اللـ-لـ-لقيط».

قال ستان: «بيب-بيب يا دمبو».

ضحكوا جميعًا. كان ضحكهم صراخًا هِستيريًّا لا أكثر، لكن هذا أفضل من عدم الضحك على الإطلاق، هكذا اعتقد بيل.

ولأن كان يجب على أحدهم قول أيِّ شيءٍ، قال بيل لهم: «هـ-هـ-هيا بنا. لـ-لـ-لـنتته من مقرِّ النادي، ما ر-ر-رأيكم؟».

رأى بيل امتنانًا في عيونهم وشعر بقدرٍ من السعادة من أجلهم... لكن امتنانهم هذا لم ينجح تمامًا في شفاء ذعره الخاص. في الحقيقة، ثمَّة شيءٍ في امتنانهم جعله يريد أن يكرههم. ألن يستطيع هو التعبير عن الذُعر الذي يشعر به قط، خشية أن تتفكَّك اللحامات الهشَّة التي تربطهم جميعًا في كيانٍ واحد وتتركهم مُبعثرين؟ وحتَّى التفكير في مثل هذا الأمر ليس من العدل تمامًا، أليس كذلك؟ لأنه -إلى حدٍ ما على الأقل- يستخدمهم، يستخدم أصدقاءه، يخاطر بحيواتهم للثأر من قاتل أخيه چورچ. لكن هل هذه هي الحقيقة حقًّا؟ لا، لأن چورچ ميِّت، وإذا كان سيستطيع الثأر من الأساس، فإنه يشتبه بأن الثأر لا يمكن تنفيذه إلا أصالة عن الأحياء، وماذا يجعل هذا منه؟ شخص أناني دنيء حقير يلوِّح بسيفٍ من الصفيح ويحاول أن يبدو كالملك آرثر؟

يا للمسيح، لو كانت هذه الأمور التي يتحتَّم على الكبار التفكير فيها فهو لا يرغب في أن يكبر أبدًا.

كان عزمه لا يزال قويًّا، لكنه صار قويًّا مريرًا.

مريرًا.

الفصل الخامس عشر

حُفرة الدُخان

1

دفع ريتشي توزييه نظّارته إلى أعلى أنفه (كان قد بدأ يشعر أن تلك الحركة مألوفة تمامًا، رغم أنه يرتدي عدسات لاصقة منذ قرابة عشرين عامًا)، وفكّر ببعض الدهشة أن الجو قد تغير في الغرفة في أثناء ما راح مايك يروي مُتذكِّرًا واقعته مع الطائر في أطلال مصنع الحديد، ويُذكِّرهم بألبوم صور والده والصورة التي تحرَّكت.

شعر ريتشي بنوعٍ مجنون ومُنعش من الطاقة يتنامى في الغُرفة. كان قد جرَّب الكوكايين تسع أو عشر مرَّات على مدى العامين الماضيين؛ في الحفلات غالبًا. لم يكن الكوكايين شيئًا تريد وجوده دومًا في منزلك إذا كنت مُقدِّم أغاني ذائع الصيت. كان الشعور الذي ملأ الغُرفة شبيهًا بنشوة الكوكايين، لكن ليس تمامًا. هذا الشعور أكثر نقاءً، وأقرب إلى نشوة خالصة. ظنَّ ريتشي أنه يتذكَّر الشعور من فترة صباه، عندما كان يعتريه يوميًّا وكان قد اعتاد وجوده كأمرٍ طبيعي، وافترض أنه لو كان فكَّر في تلك الطاقة الجوفية الجارية عندما كان طفلًا (فهو لا يتذكَّر أنه قد فعل ذلك قط)، فلا بُدَّ أنه كان سينبذ تلك الفكرة مُعتبرًا الشعور مُجرَّد حقيقة من حقائق الحياة، شيء لن ينتهي وجوده، كلون عينيه أو أصابع قدميه المقوَّسة المُقزِّزة.

حسنًا، لم يتبيَّن أن ذلك حقيقيًّا. تلك الطاقة التي اعتدت استنزافها بإسراف وأنت طفل، تلك الطاقة التي ظننت أنها لن تنضب أبدًا، والتي بدأت تتفلَّت منك في وقتٍ ما بين الثامنة عشر والرابعة والعشرين، ستُستبدل بشيءٍ أكثر بلادة، شيءٍ زائفٍ كنشوة الكوكايين: هدفٌ ربُّما، أو غاية، أو أيُّ كلمة

هُرائية أخرى يريد منك المُجتمع أن تستخدمها في وصف أحلامك. لم يكن الأمر جللًا، فتلك الطاقة لم تنتهِ دُفعة واحدة، ولا بفرقعة مدوية نهائية.. وهذا هو الجزء المُخيف من الأمر، هكذا ظن ريتشي. أنك لا تتوقَّف عن كونك طفلًا بانفجارٍ مدوٍ كبير، كفرقعة إحدى بالونات ذلك المُهرِّج الممهورة بشعاراتٍ هزلية. بل يتسرَّب الطفل داخلك رويدًا رويدًا، كتسرُّب الهواء من إطار سيَّارة.. ثم تستيقظ يومًا وتنظر في المرآة لتجد رجُلًا راشدًا ينظر إليك. يمكنك مواصلة ارتداء السراويل الچينز الشبابية، يمكنك الاستمرار في الذهاب إلى حفلات سبرينجستين وسيجر، يمكنك صبغ شعرك، لكن وجه ذلك الرَّجُل البالغ في المرآة سيظل على حاله. لقد حدث الأمر بينما كنت نائمًا، كأنه زيارة من جنِّية الأسنان.

لا، هكذا فكَّر ريتشي. ليست هذه جنِّية الأسنان، بل جنِّية العُمر.

ضحك كثيرًا على هذه الصورة الساذجة المُغالى فيها. نظرت بيڤرلي إليه مُتسائلة، فلوّح لها بيده وقال: «لا شيء يا حلوة. فقط أُفكِّر في بعض التفكير».

لكن الآن تلك الطاقة قد عادت. لا، لم تعد بشكلٍ كامل -أو ليس بعد على أيِّ حال- لكنها في طريقها، والأمر لا يحدث معه فحسب، إنه يستشعرها تملأ الغُرفة. إن مايك يبدو على ما يُرام في نظره للمرَّة الأولى منذ أن رآه في ذلك الغداء الشنيع الذي تناولوه قُرب المركز التجاري. عندما سار ريتشي في الرواق وشاهد مايك يجلس مع بن وإدي، فكَّر مصدومًا: هذا رجُل يفقد عقله، وربَّما يتهيَّأ للانتحار. لكن تلك النظرة قد غادرت وجهه الآن. لم تنزوي قليلًا فحسب، بل غادرت بالكامل. لقد جلس ريتشي هنا وشاهد آخر قطرة منها وهي تنزلق بعيدًا عن وجه مايك وهو يعيد سرد تجربته مع الطائر والألبوم. لقد شُحِن بالطاقة.. وقد حدث الأمر نفسه معهم جميعًا. إنه يراه في وجوههم، يسمعه في أصواتهم، يلاحِظه في إيماءاتهم.

صبَّ إدي لنفسه كأسًا آخر من الچِن الممزوج بعصير البرقوق، وجرع بيل مزيدًا من البوربون، وفتح مايك زجاجة بيرة أخرى، بينما نظرت بيڤرلي إلى البالونات التي ربطها بيل إلى جهاز الميكروفيلم في المكتب الرئيس وأنهت آخر جرعة من كوكتيلها في عجلة. لقد شربوا جميعهم بحماسة كبيرة، لكن أيًّا

منهم لم يثمل. لم يكن ريتشي يعرف مصدر تلك الطاقة التي يشعر بها، لكنها من دون ريب ليست نابعة من زجاجة خمرٍ.

البالونات الزرقاء: زنوج ديري ينالون الطائر.

البالونات البرُتقالية: الخاسرون ما زالوا يخسرون، لكن ستانلي يوريس صار في الطليعة أخيرًا.

يا للمسيح، هكذا فكَّر ريتشي وهو يفتح لنفسه عبوَّة بيرة جديدة. كأن قدرة الشَّيءِ على الانمساخ في صورةِ أيِّ وحشٍ يُريد أو قدرته على التغّذي بمخاوفنا ليست بالسوء الكافي، ليتبيَّن أيضًا أنّ الشَّيءَ يستظرف كرودني دانجرفيلد في زيٍّ نسائي.

كان إدي من كسر حاجز الصمت بسؤاله: «ماذا تظنُّون مقدار ما يعرف الشَّيء عمَّ نفعل الآن؟».

قال بن: «لقد كان هنا، أليس كذلك؟».

أجابه إدي: «لست واثقًا من أن هذا يعني كثيرًا».

أومأ بيل وقال: «تلك مُجرَّد صور زائفة، ولست متأكِّدًا من أن هذا يعني أن الشَّيءَ قادرٌ على رؤيتنا، أو معرفة ما نُخطِّط له. يمكن للمرء رؤية مُذيع نشرة الأخبار في التلفاز، لكن المُذيع لا يستطيع رؤيته».

قالت بيڤرلي وهي تُشير بإبهامها من فوق كتفها: «تلك البالونات ليست صورًا، إنها حقيقية».

بدأ ريتشي يتكلَّم فنظر جميعهم إليه: «هذا ليس صحيحًا مع ذلك. الصور حقيقية. بالتأكيد هي كذلك. إنها...».

وفجأة التمع في ذهنه إدراكٌ جديد، وقد باغته هذا الإدراك بقوَّة ساحقة لدرجة أنه وضع يديه على أذنيه اتِّقاءً لهما، واتَّسعت عيناه من خلف نظَّارته.

صرخ ريتشي بغتةً: «يا إلهي!»، وتلمَّس بيديه المنضدة، ونهض نصف واقفٍ، ثم انهار ساقطًا إلى كُرسيه من جديد برطمة مكتومة. ارتطمت يد ريتشي التي مدَّها إلى عبوَّة البيرة وأسقطتها، فانحنى والتقطها، ثم جرع ما تبقَّى فيها. حملق ريتشي إلى مايك فيما كان الآخرون ينظرون إليه، مُندهشين وقلقين.

صاح ريتشي قائلًا: «الألم الحارق! الألم الحارق في عينيّ يا مايك! الألم الحارق في عينيّ...».

أومأ مايك متفهمًا، وابتسم قليلًا.

سأله بيل: «مـ-ما الأمر؟ مـ-ماذا هـ-هنالك؟».

لكن ريتشي سمعه بالكاد. اجتاحت قوّة الذكرى روحه كالمدّ، وراحت تُبدِّل حرارته برودة ثم العكس، وفجأة أدرك لِمَ تتقاطر هذه الذكريات إلى عقله فرادى. لو أنه تذكَّر كل شيء دُفعة واحدة، فستضربه الذكريات بقوّة هائلة كطلقة بندقية نفسية صانعة فجوة في صدغه أو ستُفجِّر رأسه بالكامل.

قال ريتشي لمايك: «لقد رأينا لحظة قدوم الشَّيء! لقد رأينا لحظة قدوم الشَّيء إلى عالمنا، أليس كذلك؟ أنا وأنت... أم هل كنت بمُفردي؟» ثم أمسك بيد مايك التي كان يُريحها على المنضدة وأردف: «هل رأيت ذلك أيضًا يا مايكي، أم هل كنت وحدي؟ هل رأيته؟ حريق الغابة؟ الفجوة التي صنعها؟».

قال مايك بهدوء: «أجل رأيته»، وشدَّ على يد ريتشي. أغلق ريتشي عينيه برُهة، مُفكِّرًا أنه لم يستشعر مثل موجة الراحة الدافئة القويَّة هذه في حياته من قبل قط، ولا حتَّى عندما انزلقت الطائرة النفَّاثة التي أقلعت به من لوس أنجلوس إلى سان فرانسيسكو خارجة عن مهبط الطائرات قبل أن تتوقَّف دون أن يُقتل أحدٌ، حتَّى دون أن يتأذَّى أحدٌ. كل ما حدث أن بعض الحقائب سقطت من رفوفها التي تعلو الرؤوس.. هذا كل شيء. لقد قفز وقتها إلى مخرج الطوارئ الأصفر وساعد امرأة على الخروج من الطائرة. إنه يتذكَّر كيف التوى كاحل المرأة بسبب انبعاج مخفي وسط الحشائش العالية. كانت تضحك وتقول: «لا أصدِّق أنني لمّ أمت، لا أصدِّق أنني ما زلت حيَّة، لا أُصدِّق». لذا قال ريتشي للمرأة التي كان يحملها جزئيًا بذراع واحدة ويلوِّح إلى رجال الإطفاء الذين يشيرون إلى الرُكَّاب الخارجين من الطائرة إشارات نداءٍ محمومة باليد الأخرى: «حسنًا، لقد مُتِّ، لقد مُتِّ، أتشعرين بتحسُّنٍ الآن؟»، وضحك كلاهما بجنون. كانت تلك ضحكات خلاص... لكن الخلاص الذي يستشعره الآن أعظم.

سألهما إدي وهو ينظر إلى واحدٍ تلو الآخر: «عمَّ تتحدَّثان يا رفاق؟».
نظر ريتشي إلى مايك، لكن مايك هزَّ رأسه: «تفضَّل أنت يا ريتشي، لقد نلت نصيبي من الحكي الليلة».
أخبرهم ريتشي: «في الغالب لا يعرف بقيتّكم أو لا يتذكَّرون ما حدث لأنَّكم غادرتم، لقد كُنَّا أنا ومايكي آخر هنديِّين أحمرين في حُفرة الدُخان».
كرَّر بيل مُفكِّرًا بعينين شديدتي الزُرقة والشرود: «حُفرة الدُخان».
قال ريتشي: «لقد استشعرت الألم الحارق في عينيّ أسفل عدساتي اللاصقة أوَّل مرَّة بعد أن هاتفني مايك في كاليفورنيا مُباشرةً. لم أكن أعرف ماهيته وقتها، لكنني أعرف الآن. إنه بسبب الدُخان. دُخان عمره سبع وعشرين سنة» ثم نظر إلى مايك: «هذا عرضٌ نفسي، أليس كذلك؟ أو نفسي بدني؟ شيءٌ من رُكام العقل الباطن؟».
أجابه مايك بهدوء: «لست مُتأكِّدًا من هذا. كل ما أعرفه أن الألم الذي استشعرته حقيقيًّا كتلك البالونات، أو تلك الرَّأس التي رأيتها في الثلَّاجة، أو حتَّى جُثَّة توني تراكر التي رآها إدي. اسرد عليهم الأمر يا ريتشي».
قال ريتشي: «لقد حدث هذا بعد أربعة أو خمسة أيَّام من اليوم الذي أحضر فيه مايك ألبوم والده إلى البرِّية. في وقتٍ ما بعد مُنتصف شهر يوليو على ما أظنُّ. كنا قد انتهينا من مقرِّ نادينا، لكن... حُفرة الدُخان كانت فكرتك يا كومة القش. لقد أخبرتنا بها بعد أن قرأتها في أحد كُتُبك».
أومأ بن، وهو يبتسم نوعًا.
فكَّر ريتشي: كان يومًا غائمًا لا نسيم فيه، والرعد يدوِّي من السماء. مثل اليوم الذي تلاه بعد شهرٍ أو نحو ذلك عندما وقفنا في مياه الجدول صانعين دائرة، وجاء ستان بزجاجة كوكا مكسورة وجرح أيدينا. كان الهواء جاثمًا بلا حراك، كأنه ينتظر شيئًا ليحدث، ولاحقًا قال بيل إن لهذا السبب ساء الأمر كثيرًا وبسرعة داخل الحُفرة، لأنه لم يكن يوجد أيُّ تيَّار هوائي يُحرِّك الدُخان.
السابع عشر من يوليو. أجل. هذا تاريخ يوم حُفرة الدُخان. السابع عشر من يوليو عام 1958، بعد شهر تقريبًا من بداية عُطلة الصيف وتشكيل نواة فريق الخاسرين -بيل وإدي وبن- في البرِّية. فكَّر ريتشي: إذا سمحتم لي بالبحث

عن توقعات الطقس ذلك اليوم منذ سبعة وعشرين عامًا تقريبًا، فسأستطيع تلاوتها عليكم قبل حتَّى أن أقرأها: أنا ريتشي توزييه، الشهير بالمُتبصِّر العظيم «حار، رطب، مع احتمالية هبوب عاصفة رعدية. احذروا أيضًا من الرؤى التي قد تأتيكم وأنتم جلوسٌ في حُفرة الدُخان...».

كان قد مرَّ يومان على اكتشاف جُثَّة چيمي كولوم، ويوم على نزول السيِّد نيل إلى البرِّية مرَّة ثانية وجلوسه فوق حُفرة مقرِّ النادي دون حتَّى أن يُلحظ وجودها، لأنهم بحلول ذلك اليوم كانوا قد موَّهوها جيِّدًا، وقد أشرف بن بنفسه على إعادة رصِّ رُقع العُشب على سطحها. لم يكن لأحدٍ أن يكتشف وجودها إلا إذا ركع على يديه ورُكبتيه وراح يزحف فوقهم. كان مقرُّ النادي -تمامًا كالسدِّ- مشروعًا عظيم النجاح، لكن هذه المرَّة لم يعرف السيِّد نيل شيئًا عنه.

لقد استجوبهم بحرص، وبشكلٍ رسمي، مدوِّنًا إجاباتهم في مُذكِّرته السوداء، لكن لم يكن لديهم سوى أقل القليل ليُخبروه به، على الأقل بخصوص جُثَّة چيمي كولوم.. لذا غادر السيِّد نيل مُجدَّدًا، بعد أن شدَّد عليهم مُجدَّدًا أن عليهم ألا يأتوا للعب في البرِّية بمُفردهم... أبدًا. خمَّن ريتشي أن السيِّد نيل كان سيأمرهم بمغادرة البرِّية على الفور إذا كان قسم شُرطة ديري يؤمن بأن صبي آل كولوم (أو أيًّا من الصبية الآخرين) قُتل فيها. لكن رجال الشُرطة كانوا أعقل من هذا، وكانوا يعلمون أن شبكة المجاري ومصارف العواصف هي المكان الذي تنتهي البقايا إليه، وهذه تصُب في البرِّية.

لقد أتى السيِّد نيل يوم السادس عشر من يوليو.. وأجل كان ذلك يومًا حارًا ورطبًا بدوره، لكنه مُشمس. أما السابع عشر من يوليو فكان غائمًا.

سألته بيڤرلي: «هل ستبدأ في التحدُّث أم ماذا يا ريتشي؟». كانت تبتسم بشفتين ورديتين شاحبتين قليلًا وعينين مُضطرمتين حماسةً.

قال ريتشي: «أُفكِّر فقط من أين أبدأ». نزع ريتشي نظَّارته، ومسحها في قميصه، وأدرك بغتةً من أين يجب أن يبدأ: عندما انفتحت الأرض من جوار قدميه وقدمي بيل. بالتأكيد كان يعرف كل شيء عن مقر النادي -وكذا بيل والآخرين جميعًا- لكن مرأى الأرض تنفتح فجأة كاشفة عن شقٍّ مُظلم أثار ذُعره.

تذكَّر ركوبه خلف بيل على سيلفر وصولًا إلى المكان المُعتاد في شارع كانساس، ثم إخفاء الدرَّاجة أسفل الجسر الصغير. تذكَّر مسيرتهما عبر الممرِّ المؤدِّي إلى الفرجة بين النباتات، واضطرارهما إلى الالتفاف حوله أحيانًا لأن الشُجيرات كانت كثيفة تمامًا في بعض المواضع. إنهم في منتصف الصيف الآن، وقد صارت البرِّية في أوج خصوبتها. إنه يتذكَّر سحق البعوض الذي أخذ يطن بجنون قُرب أُذُنيه، بل إنه يتذكَّر حتَّى (أوه يا لوضوح سيل الذكريات. الأمر لا يبدو كأنه حدث بالأمس، بل كأنه يحدث الآن) قول بيل: «تـ-تـ-توقَّف لـ-لـ-لحظة...

2

... يا ر-ر-ريتشي. تـ-توجد بـ-بـ-بعوضة لعينة كـ-كبيرة على قـ-قـ-قفاك».

صاح ريتشي: «يا للمسيح». كان يكره البعوض. إنها مصَّاصات دماء صغيرة طائرة، ذلك جوهر حقيقتها إذا نحَّيت كل شيءٍ جانبًا.

صفع بيل قفا ريتشي بقوَّة.

- «أوتش!».

- «أ-أ-أترى؟».

رفع بيل يده في وجه ريتشي. كان في يده جسد بعوضة صغير مسحوق وسط لطخة دماء غير مُنتظمة. فكَّر ريتشي: هذا دمي، الذي سُفك من أجلك ومن أجل كثيرين[1]، ثم قال: «يع».

قال بيل: «لـ-لا تـ-تقلق. الـ-لـ-لعينة الص-صـ-صغيرة لن تـ-ترقص التـ-تانجو مُجدَّدًا».

واصلا مسيرتهما، يصفعان البعوض، ويهشَّان الهاموش الواخز الذي تجذبه رائحة شيءٍ ما في عرقهما.. شيءٍ من شأنه أن يُعرِّفه العلم بعدها بسنوات على أنه «فيرمونات»، أيًّا كان معنى هذا.

---

(1) إحالة إلى قول المسيح في الإنجيل.

- «بيل، متى ستخبر الآخرين عن الرصاصات الفِضِّية؟». هكذا سأله ريتشي وهما يقتربان من الفرجة. كان يعني بـ«الآخرين» في هذه الحالة بيڤ وإدي ومايك وستان، مع أن ريتشي أحرز أن ستان لديه فكرة جيِّدة بالفعل عمَّا كانوا يتدارسونه في المكتبة العامة. إن ستان ذكيٌّ، بل أذكى ممَّا يصب في مصلحته، هكذا كان ريتشي يُفكِّر أحيانًا. في اليوم الذي أحضر فيه مايك ألبوم والده إلى البرية جزع ستان وهلع، وفي الحقيقة كان ريتشي مُقتنعًا تقريبًا أنهم لن يروا ستان ثانيةً بعدها، وأن نادي الخاسرين سيكون سُداسيًّا (وهي كلمة كان ريتشي يُحبها تمامًا، خصوصًا بالتركيز على مقطعها الأوَّل[1]) لكن ستان عاد في اليوم التالي، وقد احترمه ريتشي كثيرًا جدًّا لهذا السبب. «هل ستخبرهم اليوم؟».

قال بيل: «لـ-لـ-ليس اليـ-يوم».

- «أنت لا تظن أنها لن تنجح، أليس كذلك؟».

هزَّ بيل كتفيه في إشارة إلى عدم علمه، وخمَّن ريتشي -الذي رُبَّما كان يفهم بيل أكثر من أيِّ شخصٍ آخر قبل ظهور أودرا فيليبس في حياته- كل ما كان بيل سيقوله لولا حاجز إعاقته الكلامية: أن نجاح مجموعة من الصبية في صناعة رصاصات فِضِّية لهو كلام قصص أطفال وقصص مصوَّرة... أو بعبارةٍ أخرى، هُراء كامل. أجل يمكنهم المحاولة. أجل بن هانسكوم قد يتمكَّن من إنجاح الأمر بالكاد. أجل هذه الأمور تنجح في الأفلام دائمًا. لكن...

- «وإذًا؟».

قال بيل: «لـ-لـ-لدي فـ-فكرة. أبسط. فقط لو بـ-بـ-بيڤرلي...».

- «لو بيڤرلي ماذا؟».

- «لـ-لا عـ-عليك».

ولم يُفصِّل بيل بالمزيد عن الموضوع.

جاءا إلى الفرجة. إذا أمعنت النظر، رُبَّما ستلاحظ أن مظهر العُشب

(1) بالإنجليزية، أيُّ تشكيل قوامة ستَّة أفراد يُدعى Sextet، هذا يجعل المقطع الأوَّل من الكلمة Sex أي جنس، ولهذا هي كلمة يُفضِّلها ريتشي.

مستويًا قليلًا، مدهوسًا قليلًا، ورُبَّما أيضًا ستشعِر أن شيئًا ما اصطناعيًّا -أو مُرتَّبًا تقريبًا- في شكل تبعثر الأوراق وفروع الأشجار فوق العُشب. التقط بيل غلاف كعكة رينج دينج -هذه تعود لبن بلا شك- ودسَّه في جيبه دون اكتراث.

عبر الصبيَّان إلى مُنتصف الفرجة المحصورة بين الشجيرات، قبل أن تنفتح كوَّة صغيرة في الأرض طولها نحو عشر بوصات وعرضها ثلاثة وتُحدث مفصَّلاتها صريرًا قذرًا. سرت القشعريرة في جسد ريتشي من مرأى العينين اللتين أطلَّتا من الظلام، لكنهما لم تكونا سوى عيني إدي كاسبراك، وقد كان إدي -الذي سيودع في المُستشفى بعدها بأسبوع- هو من رتَّل بصوتٍ أجوف: «من ذا الذي يجرؤ على عبور جسري؟».

صوت ضحكات آتية من أسفل، ثم وميض كشَّافٍ ضوئي.

قال ريتشي بصوت بانشو ڤانيلا وهو يجلس القرفصاء ويبرُم شاربًا وهميًّا: «مُمثِّلا العدالة يا سنيور».

سألته بيڤرلي من أسفل: «أحقًّا؟ دعني أرى شارتك».

صاح ريتشي جذلًا: «شارات؟ لسنا في حاجة إلى شاراتٍ لعينة!».

أجابه إدي: «اذهب إلى الجحيم يا بانشو»، ثم أغلق الكوَّة الكبيرة بقوَّة. ترامت إلى مسمعيهما ضحكات أخرى من أسفل.

صاح بيل بصوت آمرٍ خفيض: «اخرجوا واضعين أيديكم فوق رؤوسكم!»، وبدأ يخطو بتثاقل جيئةً وذهابًا فوق منفذ مقرِّ النادي المُغطَّى بالتُربة. كان يرى الأرض وهي ترتفع وتنخفض من جراء مروره ذهابًا وإيابًا، لكن بشكلٍ طفيف فقط. لقد بنوا فأحسنوا البناء. صاح بيل وهو يخال نفسه چو فرايداي الذي لا يهاب شيئًا: «لا مهرب أمامكم! اخرجوا من مخبأكم أيُّها الأشرار! وإلا سأنزل فاتحًا النار عليكم!».

قالها وهو يتواثب للتأكيد على وجهة نظره. صرخات وضحكات من الأسفل. كان بيل يضحك، غير واعٍ أن ريتشي ينظر إليه بحكمة لا نظرة طفلٍ إلى طفلٍ آخر، وإنما -في تلك اللحظة الوجيزة- نظرة رجُلٍ إلى طفل.

فكَّر ريتشي: إنه لا يعرف أنه نادرًا ما يبدو طفلًا.

قالت بيڤ: «دعهم يدخلون قبل أن يُحطِّموا السقف فوق رؤوسنا يا بن».
بعدها بلحظة فُتح بابٌ سحري إلى أعلى كغطاء كوَّة غوَّاصة، وأطل بن منه. كان متورِّد الوجه، وعلم ريتشي على الفور أنه كان جالسًا جوار بيڤرلي.

قفز بيل وريتشي عبر الفتحة وأغلق بن الباب السحري من خلفهما مُجدَّدًا، ثم جلس جميعهم مُتضامين مُستأنسين بتجاورهم وظهورهم للجدران وأرجلهم مضمومة إلى صدورهم، ووجوههم بالكاد ظاهرة في شعاع كشَّاف بن اليدوي.

سألهم بيل: «حـ-حـ-حسنًا، مـ-ماذا كـ-كنتم تـ-تفعلون؟».

قال بن: «لا شيء ذا أهمِّية». كان يجلس جوار بيڤرلي وقد بانت السعادة في ملامحه كما شاع التورُّد في وجهه. «كنَّا فقط...».

قاطعه إدي: «أَخبِرهما يا بن. أَخبِرهما بالقِصَّة! لنأخذ رأيهما».

قال إدي لستان: «لن يُحسِّن ذلك من حالة مرضك كثيرًا»، بنبرة لسان حالها يقول يجب-أن-يتصرَّف-أحدٌ-بشكلٍ-عملي-هنا.

كان ريتشي يتوسَّط مايك وبن، وقد عقدَ كفَّيه على رُكبتيه المضمومتين. إن المكان مُبهج الروعة هنا، وشديد الخصوصية.

نسى ريتشي مؤقَّتًا ما شَدَهَهُ في الخارج منذ دقيقة واحدة تقريبًا وهو يتتبَّع شعاع الكشَّاف الذي يتحرَّك من وجهٍ إلى الآخر، ثم قال: «عمَّ تتحدَّث؟».

قالت بيڤ: «أوه، كان بن يحكي لنا قِصَّة ذلك التقليد الذي اعتاد الهنود الحُمر ممارسته، لكن ستان على حق، لن يكون مُناسبًا جدًّا لحالة الربو التي يعاني إدي منها».

قال إدي بصوتٍ يحمل نبرة انزعاجٍ طفيفة فقط، وهو -هكذا فكَّر ريتشي- ما يُحسب له: «قد لا تهيج بسبب ذلك، إنها تأتيني فقط عندما أنزعج. على أيِّ حال، أنا راغبٌ في تجربة الأمر».

سأله بيل: «تجربة مـ-مـ-ماذا؟».

قال إدي: «حُفرة الدُخان».

- «مـ-مـ-ما هذا؟».

انجرف شعاع كشَّاف بن إلى أعلى، وتتبَّعه ريتشي بعينيه. كان يتحرَّك

بلا هدف على سقف مقرِّ ناديهم الخشبي وهو يشرح لهم. كان يعبر من بين الخصاص المُشقَّقة والمُجوَّفة للباب المصنوع من خشب الماهوجني الذي حمله سبعتهم إلى هنا من المكب منذ ثلاثة أيَّام، في اليوم الذي سبق العثور على جُثَّة چيمي كولوم. الشيء الوحيد الذي يتذكَّره ريتشي عن چيمي كولوم -الذي كان صبيًّا هادِئًا يرتدي نظَّارة بدوره- أنه كان يحب اللعب بلعبة سكرابل في الأيَّام المطيرة. فكَّر ريتشي: لن ألعب سكرابل مجدّدًا طوال حياتي، وارتجف. في تلك العتمة، لم يلحظ أحدهم ارتجافه، لكن مايك هانلون -الذي كان يجلس جواره كتفًا بكتف- نظر إليه بفضول.

كان بن يقول: «حسنًا، استعرت كتابًا من المكتبة الأسبوع الماضي اسمه: أشباح السهول الكُبرى، وهو كتاب مُكرَّس بالكامل لقبائل الهنود الحُمر التي كانت تعيش في الغرب منذ مئة وخمسين عامًا. قبائل البايوت والباوني والكيوا والأوتو والكومانتش. إنه كتاب جيِّد حقًّا، لكم سأحب الذهاب لزيارة الأماكن التي كانوا يقطنونها. أيوا، نبراسكا، كولورادو، يوتاه...».

قاطعته بيڤرلي: «اختصر واحك لهم عن تقليد حُفرة الدُخان».

قال لها: «بالتأكيد، صحيح». شعر ريتشي أن ردَّة فعلة لن تختلف إذا نغزته بيڤرلي بكوعها وقالت: «اشرب سُمًّا زُعافًا الآن يا بن، موافق؟».

- «كان لدى أولئك الهنود الحُمر تقليد خاص، وقد جعلني مخبأنا هذا أُفكِّر فيه. عندما كان يتحتَّم عليهم اتِّخاذ قرار هام، سواء كان التحرُّك خلف قطعان الجاموس البرِّي، أو البحث عن آبار مياه صالحة للشُرب، أو عقد العزم على خوض حربٍ مع أعدائهم من عدمه، كانوا يحفرون حُفرة كبيرة في الأرض ويغطونها بفروع الأشجار والحشائش، تاركين فقط فتحة صغيرة في قمَّتها».

قال بيل: «حُفرة الدُ-دُ-دُخان».

قال ريتشي: «لم تتوقَّف سُرعة بديهتك عن إثارة ذهولي قط يا بيل الكبير. يجب أن تشترك في برنامج واحد وعشرون، أُراهن أنك تستطيع هزيمة تشارلز ڤان دورين ذاته».

تظاهر بيل بأنه سيلكمه فتراجع ريتشي سريعًا إلى الوراء، صادمًا رأسه بقوَّة كبيرة في إحدى الدعامات الخشبية».

- «آي!».

قال بيل: «تـ-تستأهل».

قال ريتشي: «سأقتلك أيُّها الجرينجو المغرور، لسنا في حاجة إلى...».

سألتهما بيڤرلي: «هلا توقَّفتما يا رفاق. هذا أمرٌ مثير للاهتام»، ثم عالجت بن بنظرة دافئة تمامًا جعلت ريتشي يظن أن البخار سيبدأ في التصاعد خارجًا من أُذُنيّ كومة القش في غضون دقيقتين.

قال بيل: «حـ-حـ-حسنًا، أ-أ-أكمل يا بن».

قال بن: «بالتأكيد». خرجت الكلمة من فمه مصحوبة بحشرجة، واضطر إلى إجلاء حنجرته قبل أن يبدأ من جديد. «عندما ينتهي صُنع حُفرة الدُخان، يُشعلون نارًا داخلها، وهم في هذا يستخدمون أخشابًا طازجة كي تكون النار كثيفة الدُخان حقًّا، ثم ينزل جميع الشجعان إلى الحُفرة ويجلسون حول النار. يمتلأ المكان بالدُخان. يقول الكتاب إن هذا كان طقسًا دينيًّا، لكنه كان مُسابقة من نوع ما أيضًا، هل تفهمون؟ بعد انقضاء نصف يوم أو نحو ذلك، يتسلَّق معظم الشجعان زاحفين خروجًا من الحُفرة كالحشرات، لأنهم لا يعودون قادرين على تحمُّل الدُخان أكثر من ذلك، ويتبقَّى فقط ثلاثة أو أربعة.. ومن المُفترض أن تأتي أولئك المُتبقِّين رؤى».

قال مايك: «بالتأكيد، إذا استنشقت دُخانًا لأربع أو خمس ساعات فسوف تأتيك كل أنواع الرؤى التي تريدها»، فضحك جميعهم.

قال بن: «يُقال إن تلك الرؤى من المُفترض أن تُخبر رجال القبيلة بما عليهم فعله. لا أعلم إن كان هذا الجزء صحيحًا أم لا، لكن الكتاب يقول إن مُعظم الرؤى تكون صادقة».

حفَّ مجلسهم الصمت، ونظر ريتشي إلى بيل. كان يدرك أن جميعهم ينظر إلى بيل، وخالجه شعورٌ -مرَّة أخرى- أن مسألة حُفرة الدُخان التي قصَّها بن لهي أكثر من مُجرَّد أمر تقرأ عنه في كتاب ثم تحاول تجريبه بنفسك،

التجارب الكيميائية أو الحيل السحرية. كان يعلم وجميعهم يعلم ورُبَّما بن
كان أكثرهم علمًا أن هذا شيء يُفترض عليهم فعله.

يُقال إن الرؤى من المُفترض أن تُخبر رجال القبيلة بما عليهم فعله...
معظم الرؤى تكون صادقة.

فكَّر ريتشي: أظنُّ أننا لو سألنا كومة القش عن الكتاب، فسيُجيب أن الكتاب قفز إلى يديه من تلقاء نفسه، كأن شيئًا يُريد منه قراءة هذا الكتاب بالتحديد كي يخبرنا بعدها بأمر حُفرة الدُخان، لأنه توجد قبيلة هنا في الحُفرة، أليس كذلك؟ أجل. نحن هذه القبيلة، وأجل، أظنُّ أننا نريد معرفة ماذا سيحدث تاليًا.

بطريقةٍ ما، افترض ريتشي أن مثل هذه الفكرة يجب أن تكون مُريحة تقريبًا. إنه لشعورٍ جميل أن تتخيَّل أن شيئًا أكبر منك، وأذكى منك، يُفكِّر نيابةً عنك، كالكبار الذين يحضرون لك وجباتك، ويبتاعون لك ملابسك، وينظِّمون لك يومك.. وقد كان ريتشي مُقتنعًا أن القوَّة التي جمعتهم معًا، القوَّة التي استخدمت بن كرسولٍ لتمرير فكرة حُفرة الدُخان لهم، تلك القوَّة لا تُشبه ذلك الآخر الذي يقتل الأطفال في ديري.

هذه القوَّة تبدو مُضادة ومُعادلة لذلك الآخر... لذلك

(حسنًا، يمكنك لفظ كنيته)

الشَّيء. لكن رغم هذا لم يحب ريتشي الشعور بأنه لا يُسيطر على أفعاله، الشعور بأنه مُدار، بأن كيانًا آخر يُشغِّلهُ.

نظر جميعم إلى بيل، وانتظر جميعهم للإنصات إلى ما سيقوله بيل.

قال بيل: «أ-أ-أتعرف شيئًا؟ تبدو هـ-هذه فـ-فكرة جـ-جـ-جيِّدة جدًّا».

تنهَّدت بيفرلي، وتململ ستان في غير راحة، وكان هذا كل شيء.

كرَّر بيل: «جـ-جـ-جيِّدة جـ-جدًّا»، وهو يخفض بصره إلى أسفل. ظنَّ ريتشي أن بيل يبدو شاحبًا قليلًا وخائفًا تمامًا رغم أنه كان يبتسم، لكن رُبَّما كان ذلك انعكاس شعاع ضوء كشَّاف بن المُتذبذب على مُخيِّلته فحسب.

«ر-ر-رُبَّما نستطيع ا-ا-استخدام تـ-تلك الر-ر-رؤى لـ-لـ-لإخبرنا بما يجب عـ-عـ-علينا فـ-فعله».

فكَّر ريتشي: إذا كان لأحدٍ أن تأتيه رؤية، فسيكون أنت يا بيل، لكنه كان مُخطئًا بخصوص ذلك.

قال بن: «حسنًا، رُبَّما الأمر ينجح فقط مع الهنود الحُمر، لكن التجربة ستكون مُثيرة».

قال ستان متجهِّمًا: «أجل، في الغالب سنفقد وعينا جميعًا بسبب الدُخان وسنموت هنا.. سيكون هذا مُثيرًا حقًّا».

سأله إدي: «ألا ترغب في فعل الأمر يا ستان؟».

قال ستان مُتنهِّدًا: «حسنًا، بل أرغب نوعًا في الحقيقة. أظنُّ أنكم تُفقِدُونني صوابي يا رفاق، أتعلمون ذلك؟». ثم نظر إلى بيل.

- «متى التنفيذ؟».

قال بيل: «حـ-حسنًا، خـ-خـ-خير البـ-بـ-بر عـ-عاجله».

عمَّ صمتٌ ثقيل جفلت العقول فيه، ثم نهض ريتشي واقفًا وفتح الباب السحري على اتساعه سامحًا لضوء ذلك اليوم الغائم الساكن بالدخول.

قال بن وهو يتبعه: «إن معي بلطتي، من يريد مساعدتي في جلب بعض الأخشاب الطازجة؟».

وفي نهاية المطاف، ساعده جميعهم.

3

استغرق الأمر منهم نحو الساعة للاستعداد. قطعوا ما مقداره خمس أو ست حمولات من الفروع الخضراء الصغيرة، التي نزع بن الأوراق والأغصان عنها، ثم قال لهم: «ستُطلق هذه الحمولة دُخانًا كثيفًا بالفعل ما إن تشتعل، لكنني لا أعرف إن كنا سننجح في إشعالها أم لا».

ذهبت بيفرلي وريتشي إلى ضِفَّة الكِندوسكيج وأحضرا مجموعة أحجار معقولة الحجم، مُستخدمين معطف إدي كحمَّالة مؤقَّتة (كانت أمه تصر دائمًا أن يأخذ معطفه معه، حتَّى لو كانت درجة الحرارة ثمانين. قد تُمطر، وإذا كان معك معطفًا وقتها، فلن يتشرَّب جلدك ماء المطر، هكذا كانت السيِّدة كاسبراك تقول). قال ريتشي وهما يحملان الحجارة عائدين إلى مقرِّ النادي:

«لا يمكنك الاشتراك في هذا الأمر يا بيڤ. أنت فتاة. بن قال إن الشجعان فقط من يهبطون إلى حُفرة الدُخان، لا زوجاتهم».

توقّفت بيڤرلي ناظرة إلى بن بمزيجٍ من الاستمتاع والغيظ. فلتت خصلة من عقصة ذيل حصانها وسقطت على وجهه، فزمَّت شفتيها ونفختها إلى الوراء بعيدًا عن جبهتها في تنمُّرٍ.

– «أستطيع مصارعتك وصرعك في أيِّ وقتٍ تشاء يا ريتشي، وأنت تعلم ذلك».

قال ريتشي وقد جحظت عيناه وهو ينظر إليها: «هذا لا يهم يا آنسة سكارليت! أنت ما زلت فتاة وستظلّين فتاة! لن تكوني أبدًا مُحاربًا من الهنود الحُمر».

قالت بيڤرلي: «سأكون مُحاربة إذًا. الآن، هل سنأخذ هذه الحجارة إلى مقرّ النادي أم أبدأ في إلقاء بعضها على ثقب مؤخِّرة جُمجمتك؟».

صرخ ريتشي مُلتاعًا: «رُحماك يا يسوع. ليس لديّ ثقب مؤخِّرة في جمجمتي يا آنسة سكارليت!». ضحكت بيڤرلي كثيرًا وأسقطت طرف معطف إدي الذي تحمله فتناثرت الحجارة جميعها على الأرض، ووجَّهت بيڤرلي صفعاتٍ كثيرة إلى ريتشي وهما يجمعان الحجارة من جديد، وراح ريتشي يمزح ويصرخ بأصواتٍ مختلفة وهو يُفكِّر في قرارة نفسه كم هي جميلة.

ورغم أن ريتشي لم يكن جادًا عندما تحدَّث عن استبعادها من حُفرة الدُخان لاعتباراتٍ لها علاقة بالتفرقة الجنسية، بدا من الواضح أن بيل دِنبروه كان جادًا تمامًا في ذلك.

وقفت بيڤرلي تواجهه في تحدٍ، ويداها في خصرها، ووجنتاها مُشتعلتان بالغضب: «أنت لا تملك حق اتِّخاذ هذا القرار يا بيل المُتلعثم! أنا معكم في هذا الأمر أيضًا، أم أنني لم أعُد عضوة في ناديك الرديء بعد الآن؟».

قال بيل بأناةٍ: «لـ–لـيس الأمر كـ–كذلك يا بـ–بـ–بيڤ وأ–أ–أنت تعلمين ذ–ذ–ذلك. يـ–يـ–يجب أن يظلَّ أحدنا خـ–خـ–خارج الحُفرة».

– «لماذا؟».

حاول بيل إجابتها، لكن عائق لسانه عاقه مُجدَّدًا. فنظر إلى إدي طالبًا المُساعدة.

أخبرها إدي بهدوء: «الأمر يتعلَّق بما قاله ستان عن الدُخان يا بيفرلي. بيل يقول إن هذا يُمكن أن يحدث حقًّا. يمكن أن نفقد وعينا في تلك الحُفرة. عندها سنموت. بيل يقول إن هذا ما يحدث لمعظم الناس في حرائق المنازل. إنهم لا يحترقون، بل يختنقون بالدُخان حتَّى الموت. إنهم...».

الآن كانت قد التفتت إلى إدي: «حسنًا، جميل. إنه يريد أن يظل أحد خارج الحُفرة في حال إذا حدثت مُشكلة، أليس كذلك؟».

أومأ إدي برأسه في بؤس.

- «حسنًا، ماذا عنك؟ أنت الوحيد الذي يعاني الربو».

لم يتفوَّه إدي بشيءٍ، فالتفتت بيفرلي عائدة إلى بيل. كان الآخرون يقفون حولهم، داسين أيديهم في جيوبهم، ويحدِّقون في أحذيتهم.

- «كل هذا لأنني فتاة، أليس كذلك؟ هذه حقيقة الأمر، أليس كذلك؟».

- «بـ-بـ-بـ-بيـ-بيـ...»

فرقعت بأصبعيها: «لست في حاجةٍ إلى الكلام، فقط أومِئ برأسك أو هِزَّه نافيًا. إن رأسك لا يتلعثم، أليس كذلك؟ أهذا لأنني فتاة؟».

مُتردِّدًا، أومأ بيل برأسه.

نظرت إليه لحظاتٍ وشفتاها ترتعشان، وظن ريتشي أنها ستبكي.. لكنها انفجرت بدلًا من ذلك.

- «حسنًا إذًا، عليك اللعنة!». ثم دارت بعينيها تنظر إلى الآخرين، الذين أشاحوا بعيدًا عن نظرتها المُلتهبة كعُنصرٍ مُشع. «اللعنة عليكم جميعًا إن كنتم تفكرون التفكير نفسه!»، ثم عادت إلى بيل وبدأت تتحدَّث بسُرعة وترشقه بالكلمات رشقًا: «هذا الأمر أكبر من ألعاب الأطفال التافهة اللعينة كالمسَّاكة أو الغُمِّيضة وأنت تعلم ذلك يا بيل. هذا شيء من المُفترض أن نفعله. هذا جزء من الأمر كله، وأنت لن تحرمني منه فقط لأنني فتاة. هل تفهم ذلك؟ من الأفضل لك أن تفهم وإلا سأرحل حالًا، وإذا رحلت، فلن أعود أبدًا. هذا يعني إلى الأبد، هل تفهمني؟».

أنهت بيڤرلي كلامها. نظر بيل إليها، وبدا أنه استعاد هدوءه من جديد، لكن ريتشي شعر بالخوف. لقد شعر بأنه إذا كان أمامهم أيَّ فرصة للفوز، أيَّ فُرصة لإيجاد طريقة للعثور على ذلك الشَّيءِ الذي قتل چورچ دِنبروه والأطفال الآخرين، العثور على الشَّيءِ وقتل الشَّيءِ، فتلك الفُرصة صارت مُعرَّضة للخطر الآن. فكَّر ريتشي: سبعة. إنه ذلك الرقم السحري. هذا الأمر يستوجب وجود سبعة منا. هذه الطريقة التي من المُفترض أن تسير بها الأمور.

غرَّد طائرٌ ما من مكانٍ ما فوق رؤوسهم، وصمت، ثم غرَّد مرَّة أخرى.

قال بيل: «حـ-حـ-حسنًا»، فأطلق ريتشي سراح النفس الذي كان يكتمه. «لـ-لـ-لكن أحدنا يـ-يـ-يجب أ-أ-أن يظل خـ-خارج الحُفرة. مـ-مـ-من يرغب فـ-في التـ-تطوُّع؟».

فكَّر ريتشي أن إدي أو ستان سيتطوَّعان بلا ريب لهذه المهمَّة، لكن إدي لم يقل شيئًا، ووقف ستان شاحبًا وممعنًا في التفكير وصامتًا. علَّق مايك إبهاميه في حزامه كستيڤ ماكوين في فيلم مطلوب حيًّا أو ميتًا. لم يكن شيئًا يتحرَّك فيه سوى عيناه.

قال بيل: «هـ-هـ-هلموا»، فأدرك ريتشي أن كل التظاهر قد انتهى. لقد تكفَّل خطاب بيڤ الحماسي ووجه بيل المُتجهِّم المُتَّسم بالخطورة بذلك. إن ما هم مُقدمون عليه جزءٌ من المهمَّة، وربَّما كان هذا الجُزء بنفس خطورة الحملة التي شنَّها هو وبيل إلى المنزل رقم 29 الكائن في شارع نيبولت. كان جميعهم يعرفون ذلك، ولم يتراجع أيٌّ منهم. فجأة شعر ريتشي بفخرٍ شديد لوجوده وسطهم. بعد كل تلك السنوات التي نُبِذَ فيها، ها هو قد قُبِلَ كعضوٍ أساسيّ في مجموعة. لم يكن يعرف ما إذا كانوا لا يزالون خاسرين أم لا، لكنه كان يعرف أنهم معًا.. أنهم أصدقاء.. وأصدقاء مُقرَّبون تمامًا. خلع ريتشي نظَّارته ومسحها بقوَّة في طرف قميصه.

قالت بيڤ: «لديّ حلٌّ»، ثم أخرجت مشط ثقاب من جيبها عليه صورٌ صغيرة جدًّا تحتاج عدسات مُكبِّرة لرؤية تفاصيلها جيِّدًا، وقد كانت صورًا المُرشَّحات للقب ملكة جمال بيرة رينجولد. أشعلت بيڤرلي عود ثقاب ثم نفخت وأطفأته، ثم مزَّقت ستَّة أعواد ثقابٍ أخرى وضمَّتها للعود المُحترق.

أعطت ظهرها لهم، وعندما عادت إليهم كانت أطراف أعواد الثقاب البيضاء السبعة تبرز من قبضتها المضمومة. قالت وهي تمد يدها بالأعواد إلى بيل: «اسحب واحدًا.. من سيسحب العود المُحترق سيمكث هنا ولن ينزل الحُفرة، وهو من سيتولّى إنقاذ بقيتنا إذا ما ساءت الأمور».

نظر إليها بيل بندِّية وقال: «أ-أ-أهكذا تـ-تـ-ترغبين أ-أ-أن تـ-تسير الأ-أمور؟».

ابتسمت إليه حينها، وقد جعلت الابتسامة وجهها يتألق، وقالت: «أجل أيُّها الأخرق الكبير، هكذا أرغب أن تسير الأمور. ماذا عنك؟».

قال لها: «أنا أ-أ-أحبك يا بـ-بـ-بيڤ»، فاشتعلت وجنتاها على الفور بلونٍ وردي كنيرانٍ متصاعدة.

لم يبد أن بيل قد لاحظ، لأنه راح يتفحَّص أعقاب أعواد الثقاب التي تبرز من قبضتها، وفي النهاية انتقى واحدًا. كان رأسه أزرق غير مُحترقة. التفتت بيڤرلي إلى بن وعرضت عليه الأعواد الستَّة المُتبقية.

قال بن بصوتٍ أجش: «أنا أيضًا أحبك». كان وجهه بلون البرقوق، وبدا أنه على شفا الإصابة بنوبة قلبية، لكن أحدهم لم يضحك، وفي مكانٍ ما أعمق من البرِّية، غرَّد الطائر من جديد. فكَّر ريتشي دون اكتراثٍ: بالتأكيد ستانلي سيعرف نوعه إن رآه.

قالت بيڤرلي مُبتسمة: «شكرًا»، واختار بن ثقابًا. كان رأسه غير مُحترق.

عرضت بيڤرلي أعواد الثقاب بعدها على إدي. ابتسم إدي ابتسامة خجولًا حلوة بشكلٍ لا يُصدَّق وسهلة الخدش لدرجة مُحزنة تقريبًا، وقال لها: «أظنُّ أنني أحبك أيضًا يا بيڤ»، ثم اختار عودًا دون تفكير. كان رأسه أزرق.

الآن كانت بيڤرلي تُقدِّم الأربعة أعواد الباقية في قبضتها إلى ريتشي.

صرخ ريتشي بأعلى صوته: «أوه، لكم أحبك يا آنسة سكارليت!»، وراح يحاكي قُبُلاتٍ مُبالغًا فيها بشفتيه. نظرت بيڤرلي إليه وهي تبتسم قليلًا فحسب، فشعر ريتشي بالخجل فجأة وقال لها: «أنا أحبك حقًّا يا بيڤرلي»، ثم لمس شعرها وأضاف: «أنت فتاة جيِّدة».

قالت له: «شكرًا».

جذب ريتشي عودًا ونظر إليه، سيختار العود المُحترق من دون ريب. لكنه لم يفعل.

مدَّت يدها بالأعواد إلى ستان.

قال ستان: «أنا أحبك»، والتقط أحد الأعواد سريعًا من قبضتها. غير مُحترق.

قالت وهي تمد يدها بالعودين المُتبقيين: «أنا وأنت يا مايك».

تقدَّم مايك خطوة أمامًا وقال: «أنا لا أعرفك جيِّدًا كي أحبك، لكنني أحبك رغم ذلك. بالمناسبة، أنت قادرة على إعطاء أمي دروسًا في الصياح على ما أظنُّ».

ضحكوا جميعًا، والتقط مايك ثقابًا. كان رأسه غير مُحترق أيضًا.

قال بيل: «أظنُّ أنكِ من سيبقى بعد كل شيء يا بيڤ».

فتحت بيڤرلي يدها والاشمئزاز يعلو ملامحها. كل هذا الصياح والغضب من أجل لا شيء.

كان رأس عود الثقاب الأخير أزرق غير مُحترقٍ بدوره.

اتَّهمها بيل صائحًا: «لـ-لـ-لقد تـ-تـ-تلاعبت بـ-بها».

قالت بيڤرلي بنبرة لم تكن تنم عن احتجاج غاضب -الذي قد يكون مشبوهًا- بل عن دهشةٍ مذهولة: «لا، لم أفعل. أقسم بالله لم أفعل».

ثم أظهرت لهم راحتها. شاهد جميعهم آثار الرماد الباهتة من عود الثقاب المُحترق الذي كان في قبضتها.

- «بيل، أقسم بشرف والدتي أنني لم أفعل!».

نظر بيل إليها لحظة وأومأ، ثم بإجماعٍ عام غير مُعلن، أعاد جميعهم أعواد الثقاب إلى بيل. كانت رؤوس سبعتها سليمة لم تُمس. بدأ إدي وستان في الزحف أرضًا بحثًا عن العود المُحترق، لكن عودًا مُحترقًا لم يكن موجودًا.

قالت بيڤرلي ثانيةً دون أن توجِّه كلامها إلى شخصٍ بعينه: «لم أفعل».

سأل ريتشي: «ما العمل الآن إذًا؟».

قال بيل: «جـ-جـ-جميعنا سـ-سـ-سننزل الحُفرة، لأن ذلك مـ-ما يُـ-يُـفترض أ-أ-أن نفعله».

سأله إدي: «وإن غبنا جميعًا عن الوعي».
نظر بيل إلى بيڤرلي مُجدَّدًا وقال: «إ-إ-إذا كـ-كانت بيڤرلي تـ-تـ-تقول الحـ-حـ-حقيقة، وهـ-هي كـ-كذلك بالفعل، فـ-فـ-فذلك لن يـ-يحدث».
سأله ستان: «ولم أنت واثق من ذلك».
- «أ-أنا و-واثق فـ-فحسب».
قالها بيل، ثم غرَّد الطائر مُجدَّدًا.

4

هبط بن وريتشي أوَّلًا، وناولهما الآخرون الحجارة واحدة تلو الأخرى. مرَّر ريتشي الحجارة إلى بن، الذي صنع بها دائرة حجرية في منتصف أرضية مقرِّ النادي التُرابية، ثم أعلن: «حسنًا، هذا يكفي».
هبط الآخرون بدورهم، وكلٌّ منهم يمسك بحفنة من فروع الشجر التي قطَّعوها ببلطة بن. كان بيل آخر من هبط، وأغلق الباب السحري من خلفه وفتح النافذة الضيِّقة المُثبَّتة بالمفصلات. ثم قال: «هـ-ها هـ-هي. هـ-ها هي حُفرة دُ-دُخاننا. هل لدينا أيُّ شيءٍ لـ-لإضرام النـ-نـ-نار».
قال مايك مُخرِجًا قِصَّة مُهترئة من قصص آرتشي المصوَّرة من جيبه: «يمكنك أن تستخدم هذه إن شئت، لقد أنهيت قراءتها».
مزَّق بيل صفحات القِصَّة المصوَّرة واحدة تلو الأخرى، ببطء وجهامة. جلس الآخرون مُستندين إلى الحوائط بظهورهم، كتفًا بكتف، ورُكبةً برُكبة، يراقبونه دون التفوُّه بكلمة. كان للشدِّ العصبي حضورٌ كثيفٌ وذو ملمس.
وضع بيل بعض الفروع والأغصان الصغيرة فوق الورق، ثم نظر إلى بيڤرلي قائلًا: «أ-أ-أنت من تـ-تحملين الثـ-ثقاب».
أشعلت بيڤرلي عودًا، فتوهَّجت إضاءة صفراء كئيبة في العتمة. قالت بيڤرلي بنبرة متفاوتة نوعًا: «الخشب اللعين لن يشتعل على أيِّ حال»، ثم لمست الورق بعود الثقاب في أكثر من موضع، وعندما اقتربت شُعلة الثقاب من إصبعيها، ألقت به إلى مُنتصف النار.
توهَّجت النيران الصفراء مُرتفعة، مُتلظِّية، ما جعل وجوههم تلتمع براحةٍ

قَلِقَة؛ وفي تلك اللحظة لم يجد ريتشي صعوبة في تصديق قِصَّة بن عن الهنود الحُمر، وفكَّر أن التقليد لا بُدَّ أنه كان مُماثلًا في الماضي في تلك الأيَّام عندما كان الرَّجُل الأبيض لا يعدو كونه مُجرَّد شائعة أو أسطورة طويلة يرويها أولئك الهنود الحُمر الذين يتعقَّبون قطعان جاموسٍ هائلة تستطيع تغطية وجه الأرض من الأُفُق إلى الأُفُق.. قطعان جسيمة يهزُّ مرورها الأرض كوقع زلزالٍ. في تلك اللحظة استطاع ريتشي أن يرى بعين الخيال أولئك الهنود -من قبيلة الكيوا أو الباوني أو أيِّ اسمٍ آخر- قابعين في الأسفل في حُفرة دُخانهم، كتفًا بكتف، وساقًا بساق، يراقبون لهب النيران يعلو ويهبط وسط الخشب الطازج كقروحٍ ساخنة، وينصتون إلى الصوت الخافت الرتيب للعصارة وهي تخرج من الخشب الرطب (سسسسسس) مُنتظرين هبوط الوحي عليهم.

نعم. في أثناء جلوسه هنا الآن استطاع تصديق كل هذا... وبالنظر إلى وجوههم الداكنة الواجمة وهم يتأمَّلون اللهب وصفحات كتاب مايك المصوَّر الذي يتفحَّم، رأى ريتشي أنهم يصدِّقون الأمر بدورهم.

بدأت الفروع في الاشتعال، وبدأ مقرُّ النادي يمتلئ بالدُّخان. تصاعد بعض الدُّخان -الذي كان أبيض بلون إشارات الدُّخان الناتج عن احتراق القطن في حفلة فيلم مسائية من بطولة راندولف سكوت أو أودي ميرفي- هاربًا من حُفرة الدُّخان، لكن بسبب عدم وجود حركة هواء كافية في الخارج لتخلق نسيمًا، ظل معظمه حبيس الحُفرة. كان للدُّخان لسعة حامضة أحرقت أعينهم وبحَّت حلوقهم. سمع ريتشي سُعال إدي مرَّتين -كان جافًا كلوحي خشبٍ يابسين يُحكَّان معًا- ثم عمَّ الصمت من جديد. فكَّر ريتشي: لم يكن ينبغي له الوجود هنا، لكن من الواضح أن شيئًا آخر له رأيٌ مُخالف.

ألقى بيل حفنة أخرى من فروع الشجر إلى النار المُشتعلة وسألهم بصوتٍ رفيع لا يُشبه صوته المُعتاد: «هل شاهد أيٌّ منكم رؤًى؟».

قال ستان يوريس: «الرؤى تنقشع من هنا في الحقيقة». ضحكت بيڤرلي لدُعابته، لكن ضحكتها استحالت نوبة من السُعال والاختناق.

أرجع ريتشي رأسه إلى الوراء وأسنده إلى الحائط وهو يُركِّز بصره مُتأمِّلًا حُفرة الدُّخان.. المستطيل الرفيع السابح في الضوء الأبيض. فكَّر في تمثال

بول بونيان الذي طارده في ذلك اليوم من شهر مارس... لكن ألم يكن هذا الأمر مُجرَّدِ سراب، هلوسة، (رؤية)؟

قال بن: «الدُخان يخنقني، واو!».

غمغم ريتشي: «غادر إذًا»، دون أن يرفع عينه عن حُفرة الدُخان. شعر أنه بدأ يفهم ما يمرون به. شعر أنه خسر عشرة أرطال دُفعة واحدة.. ومن دون ريب شعر أن مقرَّ النادي يتَّسع. تلك الفكرة الأخيرة أكيدة لا شك فيها. لقد كان جالسًا ولحم ساق بن هانسكوم اليُمنى البدينة يلتصق بساقه اليُسرى، وكتف بيل دِنبروه الأيسر ناتئ العظام ينغرس في ذراعه اليُمنى. الآن هو لا يلمس أيًّا منهما. نظر ريتشي بتراخٍ ذات اليمين وذات اليسار للتحقُّق من صحَّة إدراكه الحسي، واتَّضح أنه مُحِقٌّ. بن يبتعد قدمًا عن يساره أو نحو ذلك، وعن يمينه، كان بيل قد ابتعد مسافة أكبر.

قال ريتشي: «المكان يتَّسع يا أصدقاء ويا جيران»، ثم أخذ نفسًا أعمق وسعل بقوَّة. أوجعه السُعال.. أوجعه عميقًا في صدره، بالطريقة ذاتها التي يوجعك السُعال بها عندما تكون مُصابًا بالبرد أو الأنفلونزا أو أيِّ مرضٍ صدري آخر. لوهلة، ظن أن نوبة السُعال لن تمرُّ أبدًا، وأنه سيسعل ويسعل حتَّى يضطروا إلى سحبه خارج الحُفرة. هذا إذا تبقَّت قوَّة فيهم، هكذا فكَّر.. لكن الفكرة كانت أكثر خفوتًا من أن تُخيفه.

ثم دقَّ بيل بقبضته على ظهره، فمرَّت نوبة السُعال بخير.

قال ريتشي: «أنت لا تعرف أنك لا تفعلها دائمًا». كان ينظر إلى حُفرة الدُخان بدلًا من بيل. يا لسطوعها! وعندما أغلق عينيه كان لا يزال قادرًا على رؤية المُستطيل، طافيًا هناك في الظلام، لكن يسطع بضوءٍ أخضر لا أبيض باهر.

سأله بيل: «مـ-مـ-ماذا تـ-تـ-تعني؟».

قال ريتشي: «اللعثمَّة».. ثم توقَّف مُدركًا أن أحدهم يسعل لكنه لم يكن مُتأكِّدًا من هو. «أنت من يجب عليه تقليد الأصوات يا بيل الكبير لا أنا. أنت...».

علا صوت السعال أكثر، وفجأة غمر ضوء النهار مقرَّ النادي بسطوعٍ هائل

مباغت جعل ريتشي يضيِّق عينيه من شدَّة الضوء، وبالكاد لمح خيال ستان يوريس يتسلَّق زحفًا خروجًا من الحُفرة.

كان ستان يقول بشق الأنفس وسط سعاله التشنُّجي: «معذرة. معذرة، لا أستطيع...».

سمع ريتشي نفسه يقول: «لا بأس، لستَ في حاجة إلى شارة لعينة». كان صوته يبدو كأنه يخرج من جسدٍ آخر.

صُفِع الباب السحري مُغلَقًا بعدها بلحظة، لكن هواءً نقيًا بما يكفي تسلَّل إلى الحُفرة وساعد على إفاقة رأسه قليلًا. قبل أن يتحرَّك بن قليلًا ليملأ المكان الشاغر الذي كان ستان يحتلُّه، استطاع ريتشي الشعور بساق بن، تضغط ساقه. كيف جاءته فكرة أن المخبأ يتَّسع؟

ألقى مايك هانلون مزيدًا من العصي إلى النار الداخنة، وواصل ريتشي استنشاق أنفاسٍ قصيرة والتحديق في حُفرة الدُخان. كان قد فقد شعوره بمرور الوقت، لكنه كان يعلم على نحوٍ غامض أنه فضلًا عن الدُخان، فإن مقرَّ النادي يزداد سخونة.

نظر ريتشي حوله إلى أصدقائه. كانت رؤيتهم عسيرة ونصف مبلوعة بالدُخان الضبابي الذي يُكسِبَه ضوء النهار الأبيض كثافةً وبياضًا. بيفـ تميل برأسها إلى الوراء مُستندة إلى ركيزة، ويداها فوق رُكبتيها، وعيناها مُغلقتان، والدموع تنسال على وجنتيها في طريقها إلى شحمتي أذنيها. بيل يجلس معقود الساقين، وذقنه على صدره. بن...

لكن بن تحرَّك فجأة ونهض واقفًا، وفُتِحَ الباب السحري من جديد.

قال مايك: «ها هو بن يُغادر». كان يجلس في وضعية هندية في مُقابلة ريتشي تمامًا، وعيناه حمراوان كعيني ابن عرس.

اجتاحتهم برودة نسبية من جديد. تطهَّر الهواء مع تصاعد الدُخان هروبًا من المصيدة. كان بن يسعل ويحاول التقيؤ بحلقٍ جاف، وقد سحب نفسه خارجًا بمُساعدة ستان، وقبل أن يتمكَّن أيٌّ منهما من غلق الباب، نهض إدي مُترنِّحًا، بوجهٍ شديد الشحوب كوجوه الموتى باستثناء الانتفاخين الداكنين أسفل عينيه اللذين وصلا إلى عظمة وجنته تقريبًا. كان صدره الواهن يعلو

ويهبط بوتيرة سريعة وتشنُّجاتٍ سطحية. تعلَّق إدي بضعفٍ في حافَّة كوَّة الخروج وكان سيسقط إذا لم يمسكه بن من يدٍ وستان من اليد الأخرى.

– «أنا آسف». همسها إدي بالكاد بنبرة خافتة حادة، ثم جذبه كلاهما إلى الخارج. ضُرِبَ الباب مُغلقًا مرَّة أخرى.

مرَّت بُرهة هادئة طويلة نسبيًا. تجمَّع الدُخان مُتراكمًا في المخبأ إلى أن صار ضبابًا سميكًا ثابتًا. فكَّر ريتشي: إنه يُشبه حساء البازلاء في نظري يا عزيزي واطسن، ولوهلة، تخيَّل نفسه شيرلوك هولمز (في هيئة تُشبه كثيرًا المُمثِّل بازيل راثبون، وبالأبيض والأسود)، وكان يسير عازمًا بطول شارع بيكر. إن موريارتي في مكانٍ ما قريب، يجلس في عربة خيل مُستأجرة، خيلها مُتأهِّبٌ للرحيل.

كان حلم يقظته جليًّا تمامًا، وشديد الوضوح والصلادة، لدرجة أنه بدا كأن له وزنٌ بالكاد، كأنه ليس حلم يقظة عابر من النوع الذي يسرح فيه طوال الوقت (الكُرة تُضرَب عاليًا، المُباراة انتهت تقريبًا، الكُرة تواصل ارتفاعها.. لقد اختفت تقريبًا... توزييه يُكمل دورة كاملة حول الملعب مارًّا بكل القواعد... وهذا يُحطِّم رقم بيب العالمي!) بل شيءٍ حقيقي تمامًا تقريبًا.

لكن كان ما زال يوجد ما يكفي للمُغتر المُعجب بنفسه الذي يعيش داخل ريتشي ما يجعله يُفكِّر في لو أن كل ما سيحصل عليه من هذه التجربة هي خيالات عن بازيل روثبون وشيرلوك هولمز، إذًا ففكرة الرؤى هذه في مُجملها مُبالغ فيها تمامًا.

باستثناء أن موريارتي ليس هو الذي يقبع في انتظاره على قارعة الطريق. إن الشَّيءَ ما ينتظره.. شيءٌ ما.. وهذا الشَّيء حقيقي. إنه...

فُتِحَ الباب السحري مُجدَّدًا، وها هي بيڤرلي تشق طريقها صعودًا بمُعاناة وهي تسعل سعالًا جافًا وتُغطي فمها بإحدى يديها. أمسك بن بإحدى يديها وجذبها ستان من أسفل ذراعها. غادرت بيڤرلي الحُفرة نصف محمولة، نصف مدفوعة بعضلات جسدها، واختفت عن أنظار من بالأسفل.

قال بيل: «المـ–مـ–مكان أ–أ–أكبر».

نظر ريتشي حوله وشاهد دائرة الحجارة التي تتلوَّى ألسنة اللهب داخلها

باعثة بسُحُب الدُخان. على الجهة الأخرى أمامه، شاهد ريتشي مايك جالسًا معقود الساقين كطوطم محفور في جذع شجرة ماهوجني، يحدِّق إليه عبر النار بعينين ألهبهما الدُّخان. لكن مايك يبعد عنه نحو عشرين ياردة الآن، وبيل على مسافة أبعد إلى يمين ريتشي. لقد صار مقرُّ النادي الآن في حجم قاعة رقصٍ على أقل تقدير.

قال مايك: «لا يهم. سُرعان ما سيحدث شيءٌ ما في أيِّ لحظة الآن».

قال بيل: «أشعر بهذا. لكنني... لكنني...».

وبدأ يسعل.

حاول بيل السيطرة على الأمر، لكن النوبة ازدادت سوءًا وجفافًا. استطاع ريتشي بالكاد رؤية بيل وهو ينهض مُتعثِّرًا، مُندفعًا نحو الباب السحري، ويفتحه بقوَّة.

- «حـ-حـ-حظًّا طـ-طـ-طـ...».

ثم غاب عن أنظارهما، مسحوبًا من الآخرين.

قال ريتشي وقد بدأ يسعل بدوره: «يبدو أنه لم يتبقَّ سوى أنا وأنت يا مايك. كنت شبه مُتأكِّد أن بيل من سيصمد إلى...».

ساء سعاله أكثر. انقلب ريتشي أرضًا وراح يسعل بلا انقطاع سعالًا جافًّا وهو عاجزٌ بالكامل عن التنفُّس. كان رأسه ينبض وينتفخ كنبتة لفتٍ تمتلئ بالدماء، ودمعت عيناه من خلفه نظَّارته.

من مسافة بعيدة جدًّا، سمع مايك يصيح فيه: «غادر يا ريتشي إن كنت مُضطرًّا. لا تفقد وعيك. لا تقتل نفسك».

رفع ريتشي يده وحرَّكها لمايك

(لا شارات لعينة)

في إشارة نافية. رويدًا رويدًا، بدأ يسيطر على سعاله من جديد. إن مايك مُحق؛ شيءٌ ما سيحدث، وقريبًا، وهو يريد أن يكون حاضرًا عند حدوثه.

أمال رأسه إلى الوراء وحدَّق في حُفرة الدُخان ثانيةً. لقد تركته نوبة السعال وهو يشعر بدوارٍ في رأسه، والآن بدا أنه يطفو على وسادة من الهواء. كان شعورًا لطيفًا، واصل ريتشي استنشاق أنفاسٍ قصيرة وهو يُفكِّر: يومًا

ما سأصير مُغني روك أند رول ذائعَ الصيت. أجل. سأصير شهيرًا. سأصنع أُسطُوانات وألبومات وأفلام، وسأرتدي سُترة سوداء وحذاءً أبيض وسأمتلك كاديلاك صفراء، وعندما سأعود إلى ديري، سيأكل الحسد قلوب الجميع، حتَّى باورز. أجل أنا بنظَّارة، لكن ماذا يهم في ذلك؟ إن بادي هولي يرتدي نظَّارة. سأغني حتَّى يبح صوتي وسأرقص حتَّى يُغشى عليّ. سأكون أوَّل نجم روك أند رول ينحدر من ولاية مين على الإطلاق. سـ...

انجرفت أفكاره مُبتعدة. لا يهم. لم يعُد في حاجة إلى أخذ أنفاس سريعة قصيرة. لقد تكيَّفت رئتاه. إنه قادر الآن على استنشاق أيَّ كمٍّ يُريد من الدُخان.. رُبَّما هو من كوكب الزُهرة.

ألقى مايك مزيدًا من الأعواد إلى النار.. وكي لا يشعر ريتشي أن مايك تفوَّق عليه، ألقى حفنة منها بدوره.

سأله مايك: «كيف حالك يا ريتشي؟».

ابتسم ريتشي: «أفضل. بخير حال تقريبًا، وأنت؟».

أومأ مايك وردَّ ابتسامته: «أشعر بخير. هل راودتك أيُّ أفكارٍ غريبة؟».

- «أجل. تخيَّلت أنني شيرلوك هولمز لوهلة، ثم شعرت أنني أستطيع الرقص ببراعة أعضاء فرقة دوڤيلز. هل تعرف أن عينيك حمراوان لدرجة لن تستطيع تصديقها؟».

- «وأنت كذلك. نحن مُجرَّد زوجين من ابن عرسٍ في قفص».

- «أحقًّا؟».

- «أجل».

- «هل تريد أن تقول إننا بخير؟».

- «نحن بخير. هل تريد أن تقول لهم إننا تلقينا الرؤى؟».

- «سنتلقَّى الرؤى يا مايك».

- «نعم، حسنًا».

ابتسم كلاهما للآخر ثم سمح ريتشي لرأسه بأن يميل إلى الحائط من جديد ونظر إلى حُفرة الدُخان، ثم سُرعان ما بدأ ينجرف بعيدًا.. لا، ليس بعيدًا، بل إلى أعلى. كان ينجرف صعودًا. كـ

(هنا بالأسفل، كلنا نطفو)
بالونة.
- «هـ-هـ-هل أ-أ-أنتما بـ-بـ-بـخير؟».
هذا صوت بيل يأتي إليهم عبر حُفرة الدُخان.. يأتي من كوكب الزُهرة.. تمامًا. شعر ريتشي بأنه يغوص عميقًا في مجاهل ذاته، وسمع صوته آتيًا من بعيد ومُنزعجًا وهو يقول: «أجل، قلنا إننا بخير، اصمت يا بيل، دعنا نتلقَّى الرؤى، نريد أن نقول إننا تلقَّينا الرؤى».
صار مقرُّ النادي أكبر من أيِّ وقتٍ مضى، وأصبح مُغطًّى بخشبٍ جديد مصقول الآن. كان الدُخان سميكًا كالضباب، ومن العسير رؤية النار. تلك الأرضية! يا للمسيح، ساعدنا! لقد صار المكان كبيرًا كقاعة رقصٍ هائلة في فيلم من أفلام مترو جولدن ماير الغنائية. نظر إليه مايك من الجانب الآخر، كهيئة طمس الضباب ملامحها بالكامل تقريبًا.
هل ستأتي يا صديقي مايكي؟
أنا هنا بجوارك يا ريتشي.
هل ما زلت ترغب في قول أننا بخير؟
أجل... لكن أمسك يدي... هل تستطيع إمساكها جيِّدًا؟
أظنُّ ذلك.
مدَّ ريتشي ذراعه أمامًا، ورغم أن مايك كان عند الطرف البعيد من هذه الغُرفة الشاسعة، استطاع أن يستشعر لمسة تلك الأصابع البُنِّية القويَّة تقبض معصمه.. ولكم كان هذا جيِّدًا. تلك لمسة مُطمئنة. من الجيد العثور على راحة في النزوع، ونزوعٍ في الراحة. العثور على حقيقة في الدُخان، ودُخانٍ في الحقيقة...
أمال ريتشي رأسه إلى الوراء ونظر إلى حُفرة الدُخان شديدة البياض والصِغَر. كانت مُرتفعة جدًّا الآن، على بُعد أميال ارتفاعًا، ككوَّة على كوكب الزُهرة.
الأمر يحدث. لقد بدأ يطفو. هيَّا إذًا، هكذا فكَّر، وبدأ يسري صعودًا أسرع عبر الدُخان، عبر الضباب، عبر الغشاوة... أو أيًّا ما كان كُنهها.

5

لم يعُد كلاهما في الحُفرة.

كانا يقفان مُتجاوران وسط البرِّية المغمورة بضوء الغسق الوشيك.

هذه البرِّية، إنه يعلم ذلك، لكن كل شيءٍ فيها مُختلف. إن الغطاء النباتي أغنى، وأخصب، ويفوح بأريجٍ عتيقٍ قوي. توجد نباتات هنا لم يرَها من قبل قط في حياته، وأدرك ريتشي أن بعض النباتات التي ظنَّها أشجارًا هي في الحقيقة سراخس عملاقة. إنه يسمع صوت جريان المياه، لكنه أعلى وأصخب ممَّا يجب أن يكونه. لم يبد الصوت كصوت تدفُّق مياه الكِندوسكيج المُتمهِّل، بل أقرب إلى ما كان يتخيَّل أنه يصدر عن نهر كولورادو وهو يشق طريقه عبر الأخدود العظيم.

كان الجو حارًّا أيضًا. لا يعني هذا أن الجو لا يسخن في ولاية مين خلال شهر الصيف وتزداد رطوبته لدرجة تُشعرك أحيانًا باللزوجة من مُجرَّد استلقائك ليلًا على فراشك، لكن هذه حرارة ورطوبة لم يستشعر حِدَّتهما من قبل قط في حياته. يوجد ضباب مُنخفض، غائمٌ وسميك، يكمن في تجاويف الأرض ويتسلَّل حول ساقيّ الصبيين. كانت له رائحة لاذعة قليلًا كرائحة احتراق الخشب الطازج.

بدأ يسير مع مايك تجاه صوت جريان الماء دون أن يتكلَّما، شاقين طريقهما عبر غطاءٍ نباتي غريب. هناك نباتات مُتعرِّشة ليفيَّة تتدلَّى مُعلَّقة من الأشجار كأراجيح عنكبوتاتٍ شبكية، وفي لحظة سمع ريتشي صوت مخلوقٍ يركض سريعًا وسط الشجيرات الخفيضة في خطٍ مستقيم محطِّمًا بعضها.. صوتًا يصدر عن شيءٍ أكبر من غزالٍ.

توقَّف ريتشي بعض الوقت لينظر حوله، والتفَّ حول نفسه مُتفحِّصًا الأُفُق. إنه يعرف المكان الذي يُفترض أن بُرج المياه يحتلَّه، لكنه لم يكن موجودًا، ولا السكَّة الحديدية كذلك التي تجري مُمتدَّة إلى ساحة القطارات في نهاية شارع نيبولت، ولا مساكن التنمية العمرانية في اللسان القديم. مكانها جميعًا،

توجد منحدرات خفيضة ونتوءات صخرية من الحجر الرملي الأحمر تنتشر على حافَّة حاجزٍ سميك من السراخس العملاقة وأشجار الصنوبر.

سمعا صوت رفرفة من فوق رأسيهما. انحنى الصبيان سريعًا في أثناء ما مرَّ سرب خفافيش مُرفرفًا بصخب. كانت هذه أكبر خفافيش شاهدها ريتشي في حياته، ولوهلة شعر بخوفٍ يفوق ما شعر به عندما كان بصحبة بيل عندما كان يحاول حث سيلڤر على الإسراع هربًا من المُستذئب. كان سكون هذه الأرض مُفزعًا، وغرابتها مُريعة، لكن ذلك الشعور بأن كل هذا مألوف بشكلٍ ما كان أكثر ترويعًا.

لا داعي للهلع، هكذا أخبر نفسه. تذكَّر أن هذا مُجرَّد حُلم، أو رؤية، أو أيٍّ شيءٍ آخر تريد نعته به. أنا ومايكي ما زلنا في مقرِّ النادي، يتلاعب الدُخان برأسينا. قريبًا جدًّا سيشعر بيل الكبير بالقلق لأننا لم نعد نجيب نداءاته، وسيهبط هو وبن إلى الحُفرة وسيُخرجانا. هذا مُجرَّد إيهام، كما يقول كونواي تويتي.

لكنه استطاع رؤية كيف مزَّق جناحي أحد الخفافيش أشعة الشمس الغائمة المصبوبة من السماء، وعندما عبر كلاهما أسفل إحدى السراخس العملاقة شاهد يسروعًا كبيرًا بدينًا أصفر اللون يتهادى في مشيته على ورقة خضراء كبيرة مُلقيًا ظلَّه خلفه. ثمَّة عثٌّ صغير أسود يتواثب ويئز على جسد اليسروع. لو كان هذا حُلمًا، فهو أكثر الأحلام التي راودته وضوحًا وتفصيلًا.

استمرَّا في سيرهما تجاه صوت المياه، وعبر تلك الأرض التي تغطيها صفحة الضباب إلى الرُكبتين. لم يتمكن ريتشي من معرفة ما إذا كانت قدميه تلمسان الأرض أم لا. جاءا إلى مكانٍ لم تعد فيه أرضٌ ولا ضباب. حدَّق ريتشي في عدم تصديق. ليس هذا الكِندوسكيج، لكنه هو. الماء يثور ويمور مارًّا عبر مسارٍ مائي ضيِّق محفور في تلك الصخور المُفتَّتة التي رآها عند حاجز السراخس. بالنظر بعيدًا إلى الجانب الآخر، استطاع ريتشي رؤية العصور محفورة في طبقات تلك الصخور: طبقات صخورٍ حمراء، ثم برتقالية، ثم حمراء مُجدَّدًا. لا أحد يستطيع عبور هذا الجدول بأحجار عبور، بل يحتاج المرء إلى جسرٍ مُعلَّق بالحبال.. وإذا سقطت منه سينجرف جسدك

مع التيَّار في التوِّ. كان صوت المياه يبدو غاضبًا، وفي أثناء ما كان ريتشي يتأمَّل المنظر فاغر الفم، شاهد سمكة وردية فِضِّية تقفز من المياه في قوسٍ محدودب مُستحيل فيزيائيًا مُقتنصة الحشرات التي تتجمَّع في سُحُبٍ مُتحرِّكة فوق صفحة الماء. غاصت السمكة في الماء من جديد، مُعطية ريتشي وقتًا كافيًا بالكاد ليعي وجودها، وليدرك أنه لم ير سمكة مثلها من قبل في حياته، ولا حتَّى بين دفَّتي كتاب.

حلَّقت الطيور في السماء وهي تصيح بشدَّة. لا دزينة أو دزينتان منها، بل لوهلة أعتمت السماء تمامًا بأسراب منها حجبت قرص الشمس خلف أجنحتها. صوت مخلوق آخر يعدو هاربًا في خطٍّ مستقيم يأتي من بين الشجيرات، متبوعًا بأصوات أخرى مماثلة. دار ريتشي حول نفسه وقلبه يدق بقوَّة مُؤلمة بين ضلوعه، وشاهد شيئًا يبدو كظبيٍ يعدو مُسرعًا في اتِّجاه الجنوب الغربي.

شيءٌ ما سيحدث.. والكائنات تستشعره.

حلَّقت الطيور إلى مكانٍ ما أبعد جنوبًا في فرارٍ جماعي. ها هو حيوانٌ آخر يركض في أثرها.. ثم آخر.. ثم عمَّ صمتٌ مُفاجئ لا يقطعه سوى هدير الكِندوسكيج. كان للصمت طابع ترقُّبٍ أشبه بلحظة ميلاد لم يحبه ريتشي. أحسَّ بالشعيرات تتحرَّك وتحاول الانتصاب على مؤخِّرة عنقه، فتلمَّس يدَ مايك ثانيةً.

صاح بمايك: هل تعرف ما نحن فيه؟ هل لديك أدنى فكرة؟

صاح مايك فيه بدوره: أجل بحق المسيح! لقد فهمت! هذا الماضي يا ريتشي! الماضي!

أومأ ريتشي. إنه الماضي، كما في عبارة: حدث ذات مرَّة في الماضي. الماضي البعيد، عندما كان البشر يقطنون الغابات ولا أحد يقطن مكانًا آخر. إنهما في البرِّية كما كانت منذ آلاف سنوات لا يعلم تعدادها سوى الرب. إنهما في ماضٍ سحيق ما لا يمكن سبر أغواره، ماضٍ يسبق العصر الجليدي بآماد، حيث كانت نيو إنجلاند بأكملها غابة استوائية مطيرة كما أمريكا الجنوبية في الحاضر... إذا كان ما زال يوجد حاضر من الأساس. نظر ريتشي حوله مُجدَّدًا في توتُّرٍ، متوقِّعًا رؤية برونتوسوروس يرفع عنقه الطويل الشبيه برافعة ويحدِّق

فيهما من أعلى بفمٍ مليء بالوحل ويتساقط منه فتات النباتات التي اجتثَّها، أو أنَّ نمرًا سيفيَ الأسنان سيقترب منهما خلسة من بين الشجيرات.

لكن شيئًا لم يحدث بخلاف ذلك الصمت الثقيل الذي يلفُّ المكان، تمامًا كما يحدث قبل أن تضرب عاصفة رعدية بنحو خمس أو عشر دقائق، عندما تتراكم الغيوم الأرجوانية الداكنة أعلى وأعلى في السماء من فوق الرؤوس، ويستحيل الضوء إلى لون الكدمات الأصفر الأرجواني السقيم، وتتوقَّف الرياح تمامًا، وتستطيع أن تشم عبيرًا سميكًا في الجو كبطَّاريات سيَّاراتٍ مشحونة مُعلَّقة في الهواء.

نحن في الماضي البعيد، ربُّما منذ مليون عام، أو عشرة ملايين، أو ثمانين مليونًا.. ها نحن ذا هنا. ثمَّةَ شيءٍ سيحدث، شيء لا أعرف كنهه، لكنني خائف وأريده أن ينتهي، أريد أن أعود، بيل، أرجوك يا بيل أن تجرَّنا من الحُفرة. يبدو أننا سقطنا في صورة، صورةٍ ما، أرجوك أرجوك ساعدنــ...

أُحكِمَت قبضة مايك ضاغطة يده، وأدرك ريتشي أن الصمت كُسِر الآن. شعر باهتزازٍ منخفض مستمر، وبدا أنه يشعر به يُرجِف غشاء طبلة أذنه المشدود أكثر ممَّا يسمعه، وينتشر عبر العظام الصغيرة الموصِّلة الصوت. نما الاهتزاز بشكلٍ مُطّرد. لم يكن له رنين. كان مُجرَّد

(في البدء كان الكلمة.. العالم...)

صوت لا نبرة له ولا روح فيه. مدَّ يده إلى الشجرة التي كانا يقفان جوارها، وعندما لمستها يده، والتفَّت حول ساقها، استشعر ريتشي الاهتزاز حبيسًا فيها.. وفي اللحظة نفسها أدرك أنه يستشعره في قدميه كوخزٍ ثابت يصعد عبر كاحليه وساقيه إلى رُكبتيه مُحيلًا أوتاره إلى شوكةٍ رنانةٍ.

إنه ينمو.. وينمو.

كان الاهتزاز مصدره السماء. رفع ريتشي رأسه إلى أعلى غير راغبٍ لكن دون إرادةٍ منه. الشمس عملة معدنية ذائبة تحرق دائرة في الغيوم الخفيضة المتراكمة مُحاطة بحلقة من النداوة الرطبة، وأسفلها، تقبع البرِّية وارفة الاخضرار الساكنة تمامًا. فجأة ظن ريتشي أنه يُدرك معنى هذه الرؤية: إنهما على وشك أن يشهدا لحظة قدوم الشَّيء.

صار للاهتزاز العميق صوتًا.. زئيرًا هادرًا يتزايد ككريشندو مُتصاعد يصم الآذان، وضع ريتشي يديه على أُذُنيه وصرخ بأعلى صوته دون أن يستطيع سماع صوت صرخته، وإلى جواره، كان مايك هانلون يحذو حذوه، ولاحظ ريتشي أن أنف مايك يدمي قليلًا.

أُضيئت الغيوم في اتّجاه الغرب بسطوع كُرة من اللهب الأحمر. استمرَّت كُرة الضوء في طريقها مُتَّجهة نحوهما، آخذٌ مسارها في الاتِّساع من مُجرَّد شُريانٍ صغير إلى جدولٍ إلى نهرٍ ينذر لونه بسوء.. ثم مع بزوغ الجسم الساقط المُشتعل نافذًا عبر غطاء السُحُب، جاءت الرياح. كانت رياحًا ساخنة حارقة داخنة خانقة، وكان الجسم الذي يسقط من السماء هائلًا كرأس عود ثقابٍ عملاق يشتعل ببريق لا يُحتمل النظر إليه. كانت الصواعق الكهربائية تخرج منه في أقواسٍ، في سياطٍ زرقاء وامضة تُخلِّف وراءها رعدًا في تكوُّنها.

صرخ ريتشي وهو يسقط أرضًا على رُكبتيه مُغطِّيًا عينيه: سفينة فضاء! ربَّاه إنها سفينة فضاء! لكنه كان يؤمن -وهذا ما سيخبر به الآخرين لاحقًا، بأفضل ما في وسعه- أنها لم تكن سفينة فضاء، على الرغم من أنها قطعت الفضاء للوصول إلى هنا. أيًّا كان كنه هذا الجسم الذي وصل إلى هنا في ذلك اليوم السحيق فهو أتى من مكانٍ ما يبعد بمقدارٍ هائلٍ عن أيِّ نجم أو مجرَّة أخرى، وإذا كانت كلمة سفينة فضاء هي أوَّل ما قفز إلى لسانه، فرُبَّما ذلك لأنه لم تكن أمام عقله طريقة أخرى لاستيعاب ما تراه عينيه.

حدث انفجارٌ بعدها، ثم تبعته أصوات صاخبة متبوعة بهزَّة ارتجاجية هائلة أسقطت كليهما أرضًا. هذه المرَّة كان مايك من مدَّ يده إلى ريتشي. انفجارٌ آخر. فتح ريتشي عينيه ورأى وهج نيران وعمود دُخانٍ هائل يرتفع إلى عنان السماء.

الشَّيء! هكذا صرخ ريتشي إلى مايك في حماسة مرعوبة. لم ولن يحدث في حياته لاحقًا أنه سيختبر أيَّ شعورٍ أو عاطفة بمثل هذا العُمق، أو أن يسحقه إحساسٌ كهذا. الشَّيء! الشَّيء! الشَّيء!

جذبه مايك كي يقف على قدميه وركضا معًا بطول ضِفَّة نهرِ الكِندوسكيج اليافع، ولم يلحظا قط كيف أوشكا على الانزلاق سقوطًا فيه. تعثَّر مايك وانزلق

على رُكبتيه، ثم بعدها بقليل جاء دور ريتشي ليتعثَّر، جالطًا ذقنه ومُمزِّقًا سراويله. كانت الريح قد جاءت دافعة معها رائحة الغابة المُتحرقة نحوهما. تكاثف الدُخان أكثر، وأدرك ريتشي بنصف وعي أنه ومايك لا يركضان بمفردهما. لقد بدأت الحيوانات في الركض مُجدَّدًا، فارَّة من الدُخان، والنار، والموت القابع داخل النار. هاربة من الشَّيءِ رُبَّما.. ذلك الوافد الجديد إلى عالمها.

بدأ ريتشي يسعل، وسمع صوت مايك يسعل جوارَه. صار الدُخان أكثف، وراح يغسل اخضرار ورمادية واحمرار الأشياء من حوله. سقط مايك مُجدَّدًا تاركًا يد ريتشي. مدَّ ريتشي يده بحثًا عنه، لكن لم يعثر عليه.

صرخ في هلع وهو يسعل: مايك! مايك! أين أنت! مايك! مايك.

لكن مايك كأن قد اختفى؛ لم يعد مايك موجودًا في أيِّ مكان. ريتشي! ريتشي! ريتشي! (يا أحمق!!)

- «ريتشي! ريتشي! ريتشي! هل أنت...

6

... بخير؟».

طرفت عينا ريتشي سريعًا وفتحهما ليرى بيڤرلي جاثمةً جواره تمسح فمه بمنديلٍ. كان الآخرون -بيل وإدي وستان وبن- يقفون خلفها، وعلى وجوههم سيماء الخوف والخطورة. كان جانب وجه ريتشي يؤلمه كالجحيم. حاول التحدُّث إلى بيڤرلي لكنه لم يقوَ إلا على حشرجة واهنة. حاول تنقية حنجرته وكاد أن يتقيَّأ. كان يشعر أن رئتيه وحنجرته مُبطَّنة بالدُخان.

في النهاية استطاع أن يقول: «هل صفعتيني يا بيڤرلي؟».

قالت له: «هذا كل ما استطعت التفكير فيه».

غمغم ريتشي: «حمقاء».

قالت بيڤرلي: «لم أعتقد أنك ستفيق على ما يُرام، هذا كل شيء»، ثم انفجرت باكية.

ربَّت ريتشي بخرقٍ على كتفها، ووضع بيل يده على مؤخِّرة عنقها لتهدأ، فالتفتت حولها سريعًا، والتقطت يده واعتصرتها.

استطاع ريتشي النهوض جالسًا. عاد وعيه بالعالم في موجاتٍ متتابعة، وعندما استعاد توازنه رأى مايك يميل مستندًا إلى شجرة قريبة بوجهٍ شاحبٍ كالرماد ويعاني الدوار.

سأل ريتشي بيف: «هل تقيّأت؟».

أومأت الفتاة دون أن تنفك عن البكاء.

سألها ريتشي في تقليد ناعب مُرتبك لصوت الضابط الأيرلندي: «هل لوَّثتك بأيٍّ من قيئي يا عزيزتي؟».

ضحكت بيڤرلي وسط دموعها وهزَّت رأسها قائلة: «لقد قلبتك على جانبك. لقد خفت... خـ-خـ-خفت أن تـ-تـ-تختنق بقيئك»، وبدأت في البكاء بحرارة مُجدَّدًا.

قال بيل وهو ما زال مُمسكًا بيدها: «ليس هذا عدلًا، أنا من يتلعثم هنا».

قال ريتشي: «ليست سيِّئة يا بيل الكبير». حاول ريتشي النهوض واقفًا لكنه جلس ثانيةً بقوَّة. كان العالم ما زال يدور من حوله. بدأ يسعل وأشاح بوجهه بعيدًا عالمًا أنه سيتقيَّأ مُجدَّدًا قبل أن يتقيَّأ بالفعل. قاء ريتشي مزيجًا مُقزِّزًا من الرغوة الخضراء واللعاب السميك، الذي خرج معظمه في فتلٍ. أغلق الصبي عينيه بقوَّة وقال بصوتٍ أجش: «هل يرغب أحدكم في وجبة خفيفة؟».

- «أوه، هذا خراء!». قالها بن مُشمئزًّا وهو يضحك في الوقت نفسه.

قال ريتشي: «يبدو أقرب إلى القيء في نظري» رغم أن عينيه كانتا لا تزالا مُغلقتين بإحكام في الحقيقة، ثم واصل: «الخراء عادةً ما يخرج من الثقب الآخر، على الأقل هذا ما أفعله، لا أعرف ما الحال معك يا كومة القش».

عندما فتح عينيه، شاهد ريتشي مقرَّ النادي يبعد نحو عشرين ياردة. كان كلٌّ من الباب السحري والنافذة مفتوحين، والدُخان -الخفيف الآن- يتصاعد من كليهما.

هذه المرَّة تمكَّن ريتشي من النهوض واقفًا على قدميه، ولوهلة عابرة ظن أنه سيتقيَّأ ثانيةً، أو يغشى عليه، أو كليهما. غمغم الصبي قائلًا: «يا للجنون»، وهو يشاهد العالم يدور ويتشوَّه أمام ناظريه، وعندما انقشع الشعور، شق طريقه إلى حيث يقف مايك. كانت عينا مايك لا تزالان حمراوين كعيني ابن

عرس، ومن البلل الذي يلوِّث أطراف سراويله، خمَّن ريتشي أن الرفيق العزيز مايكي قد عانى انقلابًا في معدته بدوره.

قال مايكي بصوتٍ مبحوح وهو يلكم ريتشي بضعفٍ في كتفه: «لقد أبليت بلاءً حسنًا تمامًا، بالنسبة إلى صبيٍّ أبيض».

لم يجد ريتشي كلماتٍ مناسبة يرد بها عليه، وهي الحالة مُذهلة النُدرة بالنسبة إلى ريتشي.

اقترب بيل منهما، ورافقه الآخرون.

سأله ريتشي: «هل جررتنا من الحفرة؟».

- «أ-أنا وبـ-بن. كـ-كـ-كنتما تـ-تـ-تصرخان. كـ-كـ-كلاكما. لـ-لـ-لكن...»، قطع بيل كلامه ونظر إلى بن.

قال بن: «لا بُدَّ أن عيوننا خُدعت بسبب الدُخان يا بيل».

لكن لم يكن يوجد أدنى اقتناع في صوت الصبي الضخم بما يقول.

قال ريتشي قاطعًا الشك: «هل تعني ما أظنُّ أنك تعنيه؟».

هزَّ بيل كتفه وقال: «ومـ-مـ-ما هذا الذ-ذ-ذي تظنه يا ر-ريتشي؟».

أجاب مايك: «أننا لم نكن موجودين في البداية، أليس كذلك؟ لقد نزلتما إلى الحُفرة لأنكم سمعتمونا نصرخ، لكننا في البداية لم نكن موجودين».

قال بن: «كان الدُخان كثيفًا بحق. كان سماع صراخكما مُخيفًا بما يكفي. لكن ذلك الصراخ... لقد بدا صوته... في الواقع...».

قال بيل: «بـ-بـ-بدا آ-آ-آتيًا من بـ-بـ-بعيد». ثم أخبرهما وهو يتلعثم بشكلٍ سيئ تمامًا أنه عندما هبط برفقة بن لم يتمكَّن كلاهما من رؤية ريتشي أو مايك، وأنهما راحا يدوران بسرعة في الحُفرة المُشبَّعة بالدُخان، خائفان من أنهما إذا لم يتصرَّفا سريعًا فإن الصبيين سيموتان من تسمُّم الدُخان. في النهاية، التقط بيل يدًا، وكانت يد ريتشي. عالجها بيل بـ «جـ-جـ-جذبة قـ-قـ-قوية»، فخرج ريتشي طائرًا من جوف الظلام، بأقل من رُبع وعي، وعندما التفت بيل حوله، رأى بن يحتضن مايك، وكلاهما يسعل، ثم ألقى بن بمايك إلى أعلى عبر الباب السحري.

استمع بن إلى كل هذا وهو يومئ مؤيِّدًا.

- «ظللت أمد يدي أمامًا بلا انقطاع. لم أفعل شيئًا سوى مدَّ يديّ أمامًا كأنني أريد مُصافحة أحدهم. ثم أمسكتها يا مايك. من الجيد أنك أمسكتها في الوقت المناسب. أظنُّ أنك كنت على وشك الاختفاء إلى الأبد».

قال ريتشي: «أنتما تصفان مقرِّ النادي كأنه أكبر ممَّا هو عليه يا رفاق، تتحدَّثان عن تحرُّككما فيه بحُرِّيَّة، إنه بعرض خمسة أقدام فحسب من كل جانب».

مرَّت لحظة من الصمت نظروا فيها جميعهم إلى بيل، الذي كان يقف مُقطبًا جبينه في تركيز.

في النهاية قال: «كان أ-أ-أكبر. أ-أ-أليس كـ-كـ-كذلك يا بن؟».

هزَّ بن كتفيه: «لقد بدا كذلك بلا شك. إلا لو كان هذا تأثير الدُخان».

قال ريتشي: «لم يكن هذا من تأثير الدُخان. قبل حدوث الأمر -قبل فقداننا لوعينا- أتذكَّر أنني ظننت أنه صار على الأقل في حجم قاعة رقصٍ في فيلم من تلك الأفلام الاستعراضية كـسبع عرائس لسبعة أخوة. كنت بالكاد ألمح مايك عند الطرف الآخر».

قالت بيڤرلي: «قبل أن تفقد وعيك؟».

- «حسنًا... ما أقصده هو...».

أمسكت بيڤرلي بذراع ريتشي وقالت: «لقد حدث الأمر، أليس كذلك؟ حدث بالفعل! لقد جاءتك رؤية، تمامًا كما قال كتاب بن! لقد حدث الأمر حقًّا!».

كان وجهها متوهِّجًا.

خفض ريتشي بصره ناظرًا إلى نفسه، ثم إلى مايك. كانت إحدى ساقي سراويل مايك القصيرة مُمزَّقة من عند الرُكبة، وكلتا رُكبتي سراويله هو مُمزَّقتان، ومن أسفلهما، استطاع أن يرى جروحًا دامية على رُكبتيه.

قال ريتشي: «إذا كانت تلك رؤية، فأنا لا أرغب في أن أحظى بمثلها ثانيةً أبدًا. لا أعرف بأمر هذا الزعيم، لكنني عندما هبطت إلى تلك الحفرة عن نفسي، كنت بسراويل سليمة. هذا القطعان جديدان تقنيًّا. أمي ستخرب بيتي».

سأل بن وإدي في نفسٍ واحد: «ماذا حدث؟».

تبادل ريتشي ومايك نظرة ثم قال ريتشي: «بيڤي، أمعك سيجارة؟».

كان معها اثنتان ملفوفتين في منديلٍ ورقي، ووضع ريتشي واحدة منهما بين شفتيه، وعندما أشعلتها له جعله النفس الأوَّل منها يسعل بشكلٍ سيئ تمامًا واضطره إلى إرجاعها لها.

قال لها: «لا أستطيع. معذرة».

قال مايك: «لقد عُدنا بالزمن إلى الماضي».

قال ريتشي: «هُراء. لم يكن ذلك الماضي فحسب، لقد عدنا إلى سالف الزمان».

- «أجل، هذا صحيح. كنا في البرِّية، لكن سُرعة جريان مياه الكِندوسكيج كانت تبلغ ميلًا في الدقيقة. لقد كان هذا المُخنَّث عميقًا وجامحًا تمامًا. معذرة يا بيڤي، لكنه كان كذلك، كان يحوي سمكًا. السالمون على ما أظنُّ».

- «أ-أ-أبي يـ-يقول أ-أ-أن الأسماك ا-اختفت مـ-مـ-من الكِندوسكيج مـ-منذ و-و-وقتٍ ط-طويل.. بسبب مـ-مياه الصـ-صرف الصحي».

قال ريتشي وهو ينظر إليهم مُتردِّدًا: «لقد كان هذا منذ وقتٍ طويل جدًا. أظنُّ أنه كان منذ مليون عام على الأقل».

خيَّم صمتٌ ثقيل الوطء بعد تلك العبارة، لكن بيڤرلي قطعته في النهاية: «لكن ماذا حدث؟».

شعر ريتشي بالكلمات في حلقه، لكنه جاهد كي يُخرجها من فمه. بدا الأمر كأنه سيقيء مرَّة أخرى تقريبًا. في النهاية قال: «لقد شهدنا لحظة قدوم الشَّيءِ. أظنُّ أن هذا ما رأيناه».

غمغم ستان: «يا للمسيح. أوه، يا للمسيح».

صدر شهيقٌ ذو هسيس فيما كان إدي يستخدم بخَّاخه.

قال مايك: «لقد جاء من السماء. أنا لا أريد أن أرى أيَّ شيءٍ من هذا القبيل مرَّة أخرى في حياتي كلها. كان يشتعل بحرارة رهيبة لا تستطيع النظر إليها، ويخرج منه شرارات كهربائية، ويُسقط صواعق.. والضجيج...» هزَّ مايك رأسه ونظر إلى ريتشي «كان يبدو كنهاية العالم، وعندما اصطدم بالأرض، ابتدأ حريقًا هائلًا في الغابة، وهنا انتهت الرؤية».

سأل بن: «هل تصفان مركبة فضائية؟».

قال ريتشي: «نعم»، وقال مايك: «لا».

نظر أحدهما إلى الآخر.

قال مايك: «حسنًا، أظنها كانت كذلك»، في الوقت نفسه الذي قال ريتشي فيه: «لا، لم تكن سفينة فضاء حقًّا، تعرفون ما أقصد، لكن...».

صمتا من جديد، وراح الآخرون ينظرون إليهما في حيرة.

قال ريتشي إلى مايك: «تحدَّث أنت. أظنُّ أننا نعني الشيء ذاته، لكنهم لا يفهمون مقصدنا».

سعل مايك في قبضته ثم رفع بصره ناظرًا إلى الآخرين بنظرة اعتذارية تقريبًا، وقال: «لا أعرف كيف أصف الأمر لكم».

قال بيل بشكل عاجل: «حـ--حـ--حاول».

كرَّر مايك: «لقد جاء الشَّيء من السماء، لكن ليس في سفينة فضائية، ليس تمامًا، ولم يكن نيزكًا أيضًا. كان الأمر أشبه بـ... حسنًا... سفينة العهد المذكورة في الإنجيل، تلك التي يُفترض أنها حملت روح الرَّبِ... باستثناء وحيد، أن القادم لم يكن الرَّب. بمجرَّد الشعور بقدوم الشَّيءِ ورؤيته، عَلِمت أن الشَّيءَ ينوي شرًّا. أنه شرٌّ خالص».

أنهى مايك كلامه ونظر إليهم.

أومأ ريتشي قائلًا: «لقد جاء من... الخارج. هذا هو الشعور الذي راودني.. من الخارج».

سأله إدي: «من خارج ماذا يا ريتشي؟».

قال ريتشي: «خارج كل الأشياء.. وعندما جاء ساقطًا، صنع أكبر حفرة لعينة قد تراها في حياتك. لقد دكَّ جبلًا هائلًا مُحيله إلى كعكة دونات تقريبًا. لقد هبط في المكان الذي تحتله وسط المدينة الآن».

أنهى ريتشي عبارته ونظر إليهم مُردفًا: «وصلتكم الفكرة؟».

رمت بيفرلي سيجارتها التي لم تنه نصفها وسحقتها بحذائها.

قال مايك: «لطالما كان الشَّيء موجودًا هنا.. منذ بداية الزمان.. قبل وجود البشر في أيٍّ بقعة من البقاع، إلا لو كان يوجد عددٌ قليلٌ منهم في مكان ما

في أفريقيا، يتأرجحون على الأشجار أو يعيشون في الكهوف. لقد طُمست الفُوَّهة واختفت الآن. على الأرجح جاء العصر الجليدي ونحت الوادي أعمق، وغيَّر بعض التضاريس، وملأ الفُوَّهة بطبقاتٍ فوق طبقات.. لكن الشَّيءَ كان موجودًا حينها، يغفو رُبَّما، ينتظر ذوبان الجليد، ينتظر مجيء البشر».

قال ريتشي: «لهذا السَّبب يستخدم الشَّيء شبكة المصارف والمجاري. لا بُدَّ أنها تُشكِّل طُرقًا سريعة مألوفة له».

سأل ستان يوريس فجأة وبصوتٍ خشن قليلًا: «ألم تريا هيئته الحقيقية؟».

هزَّ كلا الصبيين رأسه نافيًا.

وفي خضم الصمت الذي تلى ذلك، سأل إدي: «هل نستطيع دحره؟ هل نستطيع التغلُّب على كيانٍ كهذا؟».

لكن أحدًا لم يجب.

الفصل السادس عشر

كسر إدي الأليم

1

في الوقت الذي أنهى فيه ريتشي روايته، كان جميعهم يومئ.. وكان إدي يومئ معهم، ويتذكَّر معهم، عندما شعر بألم حارق يسري فجأة في ذراعه الأيسر. يسري في ذراعه؟ لا، بل يُمزِّقه: كانَ الشعور أشبه بأن أحدهم يحاول شحذ نصل منشار صدئ في عظام ساعده. التوت قسماته من الألم، فمدَّ إدي يده إلى جيب سُترته باحثًا مُتلمِّسًا مجموعة من الزجاجات، واستخرج عبوَّة الإكسدرين. ابتلع قرصين منهما بجرعة من الجِن وعصير البرقوق. لم تنفك ذراعه عن إيلامه طوال اليوم. في البداية لم يعر الأمر انتباهًا، واعتبره وخز التهاب المفاصل الذي يصيبه عندما يصير الجو رطبًا. لكن في منتصف قصَّة ريتشي، هبطت عليه ذكرى جديدة تخصه، وفهم طبيعة ذلك الألم، وفكَّر: لم يعد هذا الذي نسير فيه شارع ذكريات، إنه يتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى طريق لونج أيلاند السريع.

منذ خمس سنوات، في أثناء فحص طبي دوري روتيني (يحظى إدي بفحصٍ دوريٍ كل ستَّة أسابيع)، قال له الطبيب بشكلٍ عابر: «يوجد كسر قديم هنا يا إد... هل سقطت من فوق شجرة وأنت صغير؟».

قال إدي وقتها: «شيءٌ كهذا»، ولم يُكلِّف نفسه عناء إخبار دكتور روبينز أن أمه كانت ستسقط ميتّة دون شك بنزُيف في المخ إذا كانت قد رأت أو سمعت أن إدي يتسلَّق الأشجار. الحقيقة أنه لم يكن يتذكَّر تمامًا كيف كسرت ذراعه بالتحديد. لم يبد الأمر ذو أهمِّيَّة (رغم أن انعدام الأهمِّيَّة ذلك في حدِّ ذاته أمرًا غريبًا، فهو بعد كل شيء رجل يعطي أهمِّيَّة كبرى إذا عطس أو لاحظ

تغيُّرًا طفيفًا في لون برازه، هكذا فكَّر إدي الآن). هذا كسرٌ قديم، يُسبِّب له ألمًا ممضًّا بسيطًا. هذا أمر حدث له منذ زمنٍ بعيد إبَّان صباه يتذكَّره بالكاد ولا يهمه أن يكلِّف نفسه عناء تذكُّره. كان يؤلمه قليلًا عندما يضطر إلى القيادة ساعاتٍ طويلة في الأيَّام المطيرة. لكن قرصي أسبرين دائمًا ما يتكفَّلان بالألم سريعًا. لم يكن بالأمر الهام.

لكن الألم لم يكن الآن مُمضًّا بسيطًا، بل بدا كأن رجلًا مجنونًا يشحذ منشارًا في عظامه، ويعزف أنغامًا عليها. ها هو يتذكَّر شدَّة الألم الذي كان يستشعره في المُستشفى، خصوصًا في الليل، في أوَّل ثلاثة أو أربعة أيَّام من الإصابة. إنه يتذكَّر هجوعه المُضطرب في الفراش، وتعرُّقه في حرٍّ ليالي الصيف، مُنتظرًا المُمرِّضة كي تجلب له أقراص الدواء، والدموع تسيل صامتة على وجنتيه وتصب في تجويفيّ أُذُنه، مُفكِّرًا أن الألم أشبه بشحذ منشارٍ في عظامه من قِبَل رجُلٍ مسعور.

فكَّر إدي: إذا كانت هذه ذكريات، فأنا على استعدادٍ لاستبدالها بحقنة شرجٍ دماغية هائلة.

قال إدي دون أن يعي أنه سوف يتكلَّم: «لقد كسر هنري باورز ذراعي، هل تتذكَّرون هذا؟».

أومأ مايك قائلًا: «كان هذا قبل اختفاء باتريك هوكستيتر. لا أتذكَّر التاريخ بالضبط».

قال إدي ببساطة: «أنا أتذكَّر. كان هذا في العشرين من يوليو، لقد أُبلغ عن اختفاء هوكستيتر في... متى؟ الثالث والعشرين؟».

– «بل الثاني والعشرين». قالتها بيفرلي لكنها لم تخبرهم لِمَ هي شديدة الثقة من ذلك التاريخ. كان ذلك لأنها شاهدت الشَّيءَ يأخذ هوكستيتر، كما أنها لم تخبرهم بأنها كانت تعتقد وقتها -وأنها ما زالت تعتقد- أن باتريك هوكستيتر كان مجنونًا تمامًا، رُبَّما أكثر جنونًا من هنري باورز. لسوف تُخبرهم، لكن الدور الآن دور إدي. ستتحدَّث بعده، ثم بعدها تُخمِّن أن بن سوف يسرد ذروة الأحداث التي وقعت في شهر يوليو ذلك... وتلك الرصاصة الفِضِّية التي لم يجرؤوا حقًّا على صنعها. يا له من جدول أعمالٍ كابوسي هذا لم

يسبق له مثيل من قبل، هكذا فكَّرت. لكن ذلك الابتهاج المجنون المُنعش ما زال يتواصل. متى آخر مرَّة شعرت فيها بمثل هذا اليُفوع؟ إنها بالكاد تستطيع السيطرة على نفسها جالسة.

غمغم إدي مُتذكِّرًا وهو يُدحرج بخَّاخه من يدٍ إلى الأخرى على المنضدة: «العشرون من يوليو. بعد ثلاثة أو أربعة أيَّام من تجربة حُفرة الدُخان. لقد قضيت بقية الصيف في جبيرة، أتذكرون؟».

صفع ريتشي جبهته بإيماءة يتذكَّرها جميعهم من الأيَّام الخوالي، وفكَّر بيل بمزيج من الاستمتاع وعدم الراحة، أن ريتشي بدا لوهله شبيهًا ببيڤر كليفر[1] وهو يقول: «أجل، بالتأكيد! لقد كانت ذراعك مُجبرَّة عندما عدنا إلى منزل شارع نيبولت، أليس كذلك؟ ولاحقًا... في الظلام...». لكن ريتشي هزَّ رأسه مُتحيِّرًا نوعًا عندما أتى إلى هذا النقطة.

سأله بيل: «ما الأمر يا ر-ريتشي؟».

اعترف ريتشي: «ما زلت لا أتذكَّر هذا الجزء بعد. هل تتذكَّره؟». هزَّ بيل رأسه نافيًا ببطء.

قال إدي: «كان هوكستيتر معهم في ذلك اليوم. كانت هذه آخر مرَّة أراه فيها على قيد الحياة. رُبَّما كان بديلًا لبيتر چوردون في عصابة باورز. أظنُّ أن باورز لم يكن يرحِّب بوجود بيتر في زمرته بعدما فرَّ هاربًا في يوم مُناوشة الحجارة».

سألت بيڤرلي بهدوء: «لقد ماتوا جميعًا، أليس كذلك؟ بعد مقتل چيمي كولوم، كل من ماتوا كانوا أصدقاء هنري باورز... أو أصدقاءه السابقين».

وافقها مايك قائلًا: «جميعهم باستثناء باورز»، وهو ينظر إلى البالونات المربوطة في مُشغِّل شرائط الميكروفيلم. «وهو الآن نزيل مصحَّة چونيبر هيل. إنه مُستشفى خاص للمجاذيب في أوجستا».

قال بيل: «مـ-مـ-ماذا عن كسر ذراعك يا إ-إ-إدي؟».

---

(1) شخصية الطفل العابث ذو السبع سنوات دائم الوقوع في المُشكلات من المسلسل التلفزيوني الأمريكي Leave it to Beaver، التي لعبها المُمثل الصغير چيري مازرس.

قال إدي بخطورة: «إن تأتأتك تزداد سوءًا يا بيل الكبير»، ثم أنهى مشروبه في جرعة واحدة.

قال بيل: «لا عليك من هذا، أ-أخبرنا».

كرَّرت بيڤرلي: «أخبرنا»، ثم وضعت يدها برفقٍ على ذراعه، فتوهَّج الألم فيها من جديد.

قال إدي: «حسنًا»، وهو يصب لنفسه شرابًا آخر، ويتأمَّله، ثم يقول: «بعد يومين من عودتي إلى المنزل من المُستشفى، جئتم يا رفاق إلى منزلي وأريتموني تلك الكريات الفِضِّية. أتذكُر يا بيل؟».

أومأ بيل.

نظر إدي إلى بيڤرلي وقال: «لقد طلب منك بيل أن تكوني أنتِ من يتولَّى إطلاقها على الشَّيء، إذا اضطرتنا الظروف إلى ذلك، لأنك كنت أبرع رامية فينا. أظنُّ أنك رفضتِ، وقلتِ إن الذُعر سينتابك تمامًا... كما أخبرتينا بشيءٍ آخر، لكنني لا أتذكَّر ما هو. الأمر يبدو...»، أخرج إدي لسانه وأمسك طرفه كأن شيئًا عالقًا فيه

ابتسم كلٌ من بن وريتشي.

سألها إدي: «أكان هذا شيئًا يخص هوكستيتر؟».

قالت بيڤرلي: «أجل، سأخبركم عندما تنتهي. هيًّا، أكمل».

- «بعدها، بعد رحيلكم جميعًا يا رفاق، نشب شجارٌ كبيرٌ بيني أنا وأمي. لقد مانعت خروجي معكم ثانيةً بعد ذلك، وكادت أن تقنعني بالأمر. كانت لديها طريقة، طريقة في الإقناع، كما تعرفون...».

أومأ بيل ثانيةً. إنه يتذكَّر السيِّدة كاسبراك، امرأة ضخمة ذات وجهٍ فصامي غريب، وجه قادر على أن يبدو مُتحجِّرًا وغاضبًا وبائسًا ومرتعدًا في الآن ذاته.

قال إدي: «أجل، كادت أن تقنعني. لكن شيئًا آخر حدث في اليوم الذي كسر فيه باورز ذراعي، وقد زلزلني تمامًا من الداخل».

ضحك إدي ضحكة خافتة وفكَّر: زلزلني تمامًا من الداخل... أهذا كل ما تستطيع قوله؟ ما فائدة البوح إن كنت لا تخبر الناس بمكنون صدرك؟ لو كنت في رواية أو فيلم فما اكتشفته قبل أن يكسر بيل ذراعي كان سيُغيِّر

حياتي بالكامل وإلى الأبد، ولم يكن شيئًا سيحدث بالطريقة التي حدث بها. في رواية أو فيلم كان ما عرفته سيُحرِّرني. في رواية أو فيلم لم أكن سأحضر معي إلى الفندق حقيبة مكتظَّة بعلب وزجاجات الدواء، لم أكن لأتزوَّج ميرا، لم أكن لأمسك بهذا البخَّاخ الغبي في هذه اللحظة. في فيلم أو كتاب، لأن...

فجأة، ريثما هم ينظرون، بدأ بخَّاخ إدي في التدحرُج فوق المنضدة من تلقاء ذاته، مصدرًا خشخشة جافة سريعة شبيهة بصوت احتكاك عظام بعضها ببعض.. شبيهة بصليل الشخشيخة.. شبيهة نوعًا ما بالقهقهة، وصل البخَّاخ إلى طرف المنضدة البعيد بين بن وريتشي، ثم قفز إلى الهواء وسقط أرضًا. مدَّ ريتشي يدًا مُتردِّدة مشدوهة إليه، فصرخ بيل بحدَّة: «لا تـ-تـ-تلمسه».

صاح بن: «البالونات!»، فالتفت جميعهم إليها.

كانت البالونات المربوطة من خيطها إلى مُشغِّل الميكروفيلم مكتوب عليها حاليًا: دواء الربو يصيب بالسرطان! وأسفل الشعار توجد جماجم ضاحكة.

فرقعت البالونات واحدة تلو الآخرى.

نظر إدي إلى هذا المشهد بحلقٍ جاف، وشعور الاختناق المألوف ذلك يغلق صدره كمزاليج.

التفت بيل إليه وقال: «من أ-أ-أخبرك وبِمَ أخبرك؟».

لعق إدي شفتيه، شاعرًا برغبة في النهوض وجلب بخَّاخه، لكنه لم يجرؤ تمامًا على فعل ذلك. من يعرف ما قد يحتوي الآن؟

فكَّر إدي في ذلك اليوم، العشرين من يوليو، وكيف كان حارًّا، وكيف أعطته أمه شيكًا مصرفيًّا كل بياناته مملوءة ما عدا المبلغ، مع دولار نقدًا.. مصروفه.

قال إدي بصوتٍ منهكٍ بدا بعيدًا جدًّا في أذنيه هو نفسه: «السيِّد كين.. السيِّد كين من أخبرني».

قال مايك: «لم يكن ألطف رجُلٍ في ديري على أيِّ حال»، لكن إدي الغارق في أفكاره سمعه بالكاد.

أجل، كان الجو حارًّا في ذلك اليوم، لكنه كان مُنعشًا في صيدلية الشارع

الأوسط. المراوح الخشبية تدور على مهلٍ أسفل السقف القصديري، بينما تفوح رائحة ذلك المزيج المُطمئن من المساحيق والعقاقير مجهولة التركيب. هذا هو المكان الذي يبيعون الصحَّة فيه، كانت هذه قناعة أمه الراسخة غير المُعلنة، ولأن ساعته البيولوچية كانت مضبوطة على الحادية عشرة والنصف صباحًا، لم يكن لدي إدي أدنى شك في أنها قد تكون مُخطِئة بخصوص ذلك، أو أيِّ شيءٍ آخر.

فكَّر إدي الآن بغضبٍ مُنتشي من نوعٍ ما: حسنًا، لقد وضع السيِّد كين نهاية لذلك اليقين.

تذكَّر إدي وقوفه جوار حامل القصص المُصوَّرة الدوَّار بعض الوقت، وكيف راح يُديره بتراخٍ بحثًا عن أعدادٍ جديدة من قصص باتمان أو سوبربويز أو -شخصيته المُفضَّلة- بلاستيك مان. كان قد أعطى القائمة التي كتبتها أمه والشيك المصرفي إلى السيِّد كين (كانت أمه ترسله إلى الصيدلية كما ترسل أمهات الصبية الآخرين أولادها إلى محل البقالة). يُنهي السيِّد كين تجميع الطلب، ثم يكتب المبلغ في الشيك، ويعطي إدي الفاتورة كي تستطيع أمه خصم المبلغ من رصيدها. كانت القائمة كلها أدوية لإدي، وثلاثة أنواع مختلفة من الوصفات الطبية لأمه، بالإضافة إلى زجاجة من الجريتول، لأنها قالت له بشكلٍ غامض: «إنها تحتوي على الحديد يا إدي، والنساء تحتاج إلى الحديد أكثر من الرجال». كانت القائمة تحتوي أيضًا على ڤيتاميناته، وزجاجة د. سويت للأطفال... وبالتأكيد، دواء الربو.

كانت من المُفترض أن تكون رحلة عادية إلى الصيدلية من التي اعتادها. لاحقًا سوف يتوقَّف عند متجر جادة كوستيلو ليبتاع قطعتي حلوى وبيبسي بدولاره. ثم سيشرب البيبسي، ويأكل الحلوى، ويتبختر عائدًا والعملات النقدية الباقية تصلصل في جيبه طوال الطريق إلى المنزل. لكن اليوم مُختلف. سينتهي به الأمر في المستشفى وهذا مُختلف بما يكفي. لكنه بدأ مُختلفًا أيضًا عندما ناداه السيِّد كين، الذي بدلًا من أن يُسلِّمه الحقيبة البيضاء الكبيرة المليئة بالعلاجات مع إيصال الاستلام مُشدِّدًا عليه بوضع الإيصال في جيبه كي لا يضيع منه، نظر إليه بشكلٍ مدروس ثم قال: «تعال...

2

... إلى مكتبي دقيقة يا إدي. أريد التحدُّث معك».

نظر إليه إدي هنيهة، وهو يطرف بعينيه، شاعرًا ببعض الخوف. جالت فكرة في عقله سريعًا أن السيِّد كين رُبَّما يظن أنه يسرق بعض الأشياء. كانت تلك اللافتة المُعلَّقة على الباب التي دائمًا ما يقرأها وهو يدلف إلى صيدلية الشارع الأوسط مكتوبة بحروفٍ سوداء كبيرة جدًّا لدرجة أن ريتشي توزييه نفسه يستطيع قراءتها من دون نظَّارته. كانت تقول: ليس الاختلاس من المتاجر «مهارة» ولا «عادة» ولا «شطارة». الاختلاس جريمة، وسنقاضيك إذا ارتكبتها!

لم يختلس إدي شيئًا في حياته، لكن تلك اللافتة دائمًا ما أشعرته بالذنب. كانت تجعله يشعر أن السيِّد كين يعرف عنه أشياء لا يعلمها عن نفسه.

ثم قال السيِّد كين بعدها شيئًا آخر جعله أكثر ارتباكًا: «هل تريد كأسًا من مخفوق الأيس كريم؟».

- «في الحقيقة...».

- «أوه، على حسابي لا تقلق. دائمًا ما أتناول واحد في مكتبي في هذا التوقيت من اليوم. إنه يمدك بطاقة جيِّدة، إلا إذا كنت ممَّن يراقبون وزنهم، ولا أظنُّ أن كلينا كذلك. زوجتي تقول لي إنني أشبه بحبلٍ محشو. صديقك بن هانسكوم هو الذي يحتاج إلى مراقبة وزنه. أيُّ نكهة تُحب يا إدي؟».

- «في الحقيقة، أمي أخبرتني أن أعود إلى المنزل في أقرب...».

- «تبدو لي كرجلٍ يُحب الشيكولاتة. هل تناسبك نكهة الشيكولاتة؟».

قالها السيِّد كين وغمز بعينه، لكنها كانت غمزة جافَّة، كالتماع الشمس على بلورات الرمل في الصحراء، أو هكذا فكَّر إدي الذي كات مُغرمًا بكُتَّاب قصص الغرب كماكس براند وآرشي جوسلين.

قال إدي مُستسلمًا: «بالتأكيد». لكن شيئًا في طريقة دفع السيِّد كين لإطار نظَّارته الذهبي إلى أعلى نصل أنفه الحاد جعله يتوتَّر. شيءٌ في أسلوب السيِّد

كين جعل الرَّجُل يبدو عصبيًّا ومسرورًا في قرارة نفسه. لم يشعر إدي برغبة في الذهاب إلى المكتب مع السيِّد كين. الأمر لا يتعلَّق بمخفوق الأيس كريم.. لا.. وأيًّا كان كنه ما سيُحدِّثه فيه، فإدي يعتقد أنه ليس أخبارًا عظيمة جدًّا.

رُبَّما سيخبرني أنني مريض بالسرطان أو شيء من هذا القبيل. سرطان الأطفال الشهير. اللوكيميا. يا للمسيح!

أوه، لا تكن أحمق، هكذا أجاب إدي نفسه، محاولًا جعل أفكاره كأنها تأتيه من بيل المُتلعثم. لقد حلَّ بيل المُتلعثم محل چوك ماهوني بطل مسلسل رينچ رايدر الذي يذاع صباحًا على التلفاز، وصار مثل إدي الأعلى وبطله الأثير، وبالرغم من حقيقة أنه لم يكن مُتحدِّثًا لبقًا، فبيل الكبير يبدو دائمًا كمن يلم بكل شيء. هذا الرَّجُل صيدلي لا طبيب بحق المسيح، ولن يُشخِّص مرضًا. لكن إدي كان لا يزال متوتِّرًا.

رفع السيِّد كين حاجز الدخول وأشار إلى إدي بإصبعه ناتئ العظام. دخل إدي، لكن بتردُّد.

كانت روبي، فتاة البيع، تجلس جوار ماكينة النقود وتقرأ أحد أعداد مجلَّة سيلڤر سكرين. نادى السيِّد كين عليها قائلًا: «هل يمكنك إعداد مخفوقيّ أيس كريم يا روبي، واحد بالشيكولاتة وواحد بالقهوة؟».

قالت روبي: «بالتأكيد»، ثم علَّمت الصفحة التي تقرأها بغلاف علكة مُفضَّض ونهضت.

- «اجلبيهما إلى مكتبي».

- «بالتأكيد».

- «تعال يا بُني، لن أعضك». قالها السيِّد كين وغمز، ما أدهش إدي بالكامل.

لم يدخل إدي إلى آخر الصيدلية من قبل قط، لذا راح ينظر إلى كل الزجاجات وعبوات الدواء والبرطمانات بفضول. كان سيتباطئ لو كان يتجوَّل بمفرده، ليتفحَّص هاون ومدقَّة السيِّد كين، ومقاييسه وموازينه، وجِراره المليئة بالكبسولات.. لكن السيِّد كين دفعه أمامًا إلى مكتبه وأحكم إغلاق الباب خلفهما بحزمٍ. استشعر إدي انقباضًا مُنذرًا في صدره عندما

أصدر الباب تكَّة الغلق، لكنه قاومه. يوجد خزَّان دواء جديد لبخَّاخه بين حاجيات أمه، ولسوف يستنشق منه نفسًا عارمًا مُرضيًا ما إن يخرج من هذا المكان.

كان هناك برطمان مُترع بأسواط العرقسوس موضوعًا على رُكن مكتب السيِّد كين، وقد فتحه الأخير وعرضه عليه.

قال إدي في تهذيب: «لا أريد، شكرًا لك».

جلس السيِّد كين على كُرسيه ذي العجلات خلف مكتبه وأخذ قطعة عرقسوس لنفسه. ثم فتح درج المكتب وأخرج شيئًا وضعه جوار جرَّة العرقسوس الطويلة. شعر إدي بناقوس خطر حقيقي يدقُّ في عقله. إنه بخَّاخ. مال السيِّد كين في كرسيه إلى الوراء حتَّى كاد رأسه يلامس الرُزنامة المُعلَّقة على الحائط خلفه. كانت الصورة على الرُزنامة تعرض مزيدًا من الحبوب والأقراص، وكان مكتوبًا عليها شركة سكويب للدواء و...

... ولوهلة كابوسية، عندما فتح السيِّد كين فمه ليتحدَّث، تذكَّر إدي ما حدث في متجر الأحذية عندما كان طفلًا صغيرًا، عندما صرخت فيه أمه لأنه وضع قدمه في جهاز الأشعة السينية. في هذه الوهلة الكابوسية ظنَّ إدي أن السيِّد كين سيقول: «إدي، تسعة من كل عشرة أطباء في العالم يتَّفقون أن دواء الربو يسبِّب السرطان، تمامًا كأجهزة الأشعة السينية التي كانوا يستخدمونها في متاجر الأحذية. في الغالب أنت مريض بالسرطان بالفعل. لقد فكَّرت فقط أنك تستحق معرفة الحقيقة».

لكن ما قاله السيِّد كين كان غريبًا تمامًا لدرجة أن إدي لم يستطِع التفكير في أيِّ ردٍّ عليه على الإطلاق. كل ما استطاع فعله هو الجلوس في كرسيه الخشبي المُستقيم على الجانب الآخر من مكتب السيِّد كين كالأحمق.

- «لقد طال الأمر أكثر من اللازم».

فتح إدي فمه ليقول شيئًا، ثم أغلقه مُجدَّدًا.

- «كم سنَّك يا إدي؟ الحادية عشرة، أليس كذلك؟».

قال إدي بوهن: «أجل يا سيِّدي».

لقد بدأت أنفاسه في التقطُّع بالفعل. لم يكن قد بدأ بعد التصفير كإبريق

شاي (وهو التعبير الذي اصطكَّهُ ريتشي: فليطفئ أحدكم النار أسفل إدي! إنه يغلي!)، لكن هذا على وشك الحدوث في أيِّ وقت. نظر بتوقٍ إلى البخَّاخ الموضوع على مكتب السيِّد كين، ولأن شيئًا آخر بدا مطلوبًا، قال إدي: «سأتِم الثانية عشرة في نوڤمبر».

أومأ السيِّد كين مُتفهِّمًا، ثم انحنى أمامًا كصيدلي في إعلانٍ تليفزيوني وصفَّق بكفَّيه معًا. كانت نظَّارته تلتمع بشدَّة في الضوء القوي الآتي من قضبان مصابيح الفلورسنت التي تعلوهما. «هل تعرف البلاسيبو يا إدي؟».

قال إدي بعصبيَّة وهو يطرح أفضل تخمينٍ لديه: «إنها تلك الأشياء على الأبقار التي يخرج اللبن منها، أليس كذلك؟».

ضحك السيِّد كين واهتزَّ عائدًا إلى الخلف في كُرسيه. اتَّقد وجه إدي بالكامل بالاحمرار وصولًا إلى بصيلات شعر مُقدِّمة رأسه. الآن كان يسمع الصفير يتسلَّل إلى أنفاسه. «البلاسيبو...».

قوطِع السيِّد كين بنقرة مزدوجة على الباب، ودون انتظار الإذن بالدخول، دلفت روبي إلى الحجرة حاملة كأسًا عتيقة الطراز تحوي مخفوق الأيس كريم في كل يدٍ. قالت الفتاة لإدي وهي تناوله كأسه: «لا بُدَّ أن الشيكولاتة لك». بادلها إدي الابتسامة بأفضل ما في وسعه، لكن اهتمامه بالأيس كريم كان في أدنى مستوياته الآن في تاريخه الشخصي بأكمله. كان يشعر بالخوف بطريقة غامضة ومُحدَّدة في الآن ذاته. إنه الخوف ذاته الذي استشعره عندما كان جالسًا على منضدة فحص دكتور هاندور مُرتديًا ملابسه الداخلية ينتظر قدوم الطبيب وهو يعي أن أمه في غرفة الانتظار بالخارج، تحتل أريكة كاملة تقريبًا بمفردها، وترفع كتابًا بصرامة أمام عينيها كأنه كُتيِّب تراتيل (غالبًا هو قوَّة التفكير الإيجابي لڤينسنت بيل أو طب ڤيرمونت الشعبي لدكتور جارفيس). كان إدي يشعر وهو أعزل ومُجرَّد من ملابسه هكذا بأنه محصور بينهما.

ارتشف إدي بعضًا من مخفوقه في أثناء خروج روبي، دون أن يتذوَّق له طعمًا تقريبًا.

انتظر السيِّد كين حتَّى أُغلق الباب وابتسم ابتسامته الجافة الشبيهة بالتماع أشعة الشمس على رمال الصحراء مُجدَّدًا، وقال: «اطمئن يا إدي، لن أعضك أو أؤذيك».

أومأ إدي موافقًا، لأن السيِّد كين كان كبيرًا ومن المُفترض أن يتَّفق المرء مع كل الكبار في كل الظروف (علَّمته أمه هذا)، لكنه في قرارة نفسه كان يُفكِّر: أوه، لقد سمعت هذا الهُراء من قبل. هذا تقريبًا ما قاله الطبيب له قبل أن يفتح عبوَّة التعقيم لتخرج منها رائحة كحولِّية مخيفة حادة نحرت منخريه. كانت تلك رائحة الحُقن، أما هذه فرائحة الهُراء، وكلاهما يعنيان الشيء ذاته: عندما يخبرونك أن الأمر لن يعدو مُجرَّد وخزة دبُّوس، وأنك لن تشعر بشيءٍ على الإطلاق، فهذا يعني أنه سيكون مؤلمًا تمامًا.

حاول إدي أن يشفط شفطة أخرى من شفَّاطة مخفوق الأيس كريم، لكنه لم ينجح. كان يحتاج كل بوصة في حلقه المستمر في الانغلاق كي يستنشق الهواء. نظر إلى البخَّاخ الموضوع فوق دفتر أحوال السيِّد كين، وأراد أن يستأذنه في استخدامه، لكنه لم يجرؤ. ثم جالت بباله خاطرة غريبة: رُبَّما السيِّد كين يعرف أنه يحتاجه وأنه لا يجرؤ على سؤاله.. رُبَّما السيِّد كين (يُعذِّبه)

يختبره. لكن هذه فكرة بلهاء، أليس كذلك؟ لن يتلاعب شخصٌ بالغ -خصوصًا من يعمل في مجال الصحَّة- بصبي صغير بهذا الشكل، أليس كذلك؟ قطعًا لا. الأمر لا يستحق عناء التفكير من الأساس، لأن التفكير في مثل هذه الفكرة يستلزم إعادة تقييم مُرعبة للعالم الذي يفهمه إدي.

لكن ها هو البخَّاخ. ها هو، قريب جدًّا لكن بعيد في الوقت نفسه، كماءٍ يبعد خطواتٍ قليلة من رجلٍ يحتضر ظمأً في الصحراء. ها هو ذا، يجلس فوق المكتب أسفل ابتسامة عينيِ السيِّد كين الحارقة.

تمنَّى إدي -أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في العالم- لو كان في البرِّية الآن وأصدقاؤه حوله. فكَّر في الوحش، الوحش الهائل الذي يكمن متربِّصًا أسفل المدينة التي وُلِد وترعرع فيها، ويستخدم المصارف وشبكة المجاري للزحف من مكانٍ إلى آخر. كانت تلك فكرة مُخيفة، وفكرة التصدي لهذا المخلوق ومحاولة دحره أكثر إرعابًا حتَّى... لكن بطريقةٍ ما فموقفه الآن أسوأ. كيف تقاتل شخصًا بالغًا قال لك إنه لن يؤذيك في حين أنك تعلم أنه سيفعل؟ كيف

تقاتل شخصًا بالغًا يسألك أسئلة غريبة ويلقي بكلامٍ مشؤوم غامض مثل: لقد طال الأمر أكثر من اللازم؟

وفي خِضم موقفه هذا، وهو مكتوف اليدين تقريبًا، داهمته خاطرة عابرة ما، واكتشف إدي إحدى أهم حقائق صباه: الكبار هم الوحوش الحقيقية. لم تُشكِّل الفكرة أهمِّية كبيرة، فلم تكن من الأفكار التي تأتي في ومضة كاشفة كالوحي أو تعلن عن نفسها بالأبواق والأجراس. لقد جاءته فحسب، ثم مضت، بعدما دُفنت تحت الفكرة الطامسة الأقوى والأكثر إلحاحًا: أريد بخَّاخي وأريد الخروج من هنا.

قال السيِّد كين ثانيةً: «تخفَّف. معظم مشاكلك يا إدي منبعها أنك متوتِّر ومشدود طوال الوقت. خذ عندك أزمة الربو على سبيل المثال. انظر هنا».

فتح السيِّد كين درج مكتبه، وبحث فيه قليلًا، ثم أخرج بالونًا. ثم موسِّعًا صدره إلى أقصى ما يستطيع (ما جعل ربطة عنقه تميل كقارب نحيل يركب موجة متوسِّطة)، نفخ السيِّد كين في البالونة ونفخه. كان مكتوبًا على البالونة: صيدلية الشارع الأوسط، وصفات طبية، كماليات، مستلزمات طبية. اعتصر السيِّد كين عُنُق البالونة المطَّاطية وأمسكها أمامه، ثم قال: «الآن، لنتظاهر لحظة أن هذه البالونة رئتيك. أوه، أقصد رئتيك، إنهما زوجين. يجب أن أنفخ واحدًا آخر بالتأكيد، لكن بما أنني لا أمتلك إلا واحدًا باقيًا من التخفيضات التي قدَّمناها بعد الكريسماس فـ...».

- «سيِّد كين، هل أستطيع أن أستخدم بخَّاخي الآن؟». كان رأس إدي قد بدأ ينبض، واستطاع أن يشعر بحلقومه يحكم إغلاق نفسه. ارتفع مُعدَّل نبضات قلبه، وتفصَّد العرق من جبينه. كان قد وضع كأس مخفوق الأيس كريم على طرف مكتب السيِّد كين، وقد بدأت حبَّة الكرز في الأعلى تغوض ببطء عبر الكريمة المخفوقة.

قال السيِّد كين: «في غضون دقيقة يا إدي. أعرني انتباهك. أنا أحاول مُساعدتك. لقد حان الوقت ليساعدك شخصٌ ما. إذا لم يكن روس هاندور رجُلًا بما فيه الكفاية ليفعلها، فسأفعلها أنا. إن رئتيك كهذه البالونة، الفارق الوحيد إنها مُحاطة بغطاءٍ من العضلات. هذه العضلات تعمل كذراعي

رجُل يعزف الأكورديون، هل تفهمني؟ في الشخص السليم، تساعد تلك العضلات الرئتين على الانبساط والانقباض بسهولة، لكن إذا كان صاحب هاتين الرئتين السليمتين متوتِّرًا ومشدودًا طوال الوقت، تبدأ العضلات في العمل ضد الرئتين وليس معهما. انظرا».

وضع السيِّد كين يدًا ناحلة شاحبة تغزوها رُقع بُنِّية على البالونة واعتصره. انتفخت البالونة وانبعجت أسفل قبضته وجفل إدي استعدادًا لسماع صوت الفرقعة، وفي الوقت نفسه شعر أن أنفاسه تتوقَّف تمامًا. انحنى إدي فوق المكتب ومدَّ يده إلى البخَّاخ الموضوع فوق الدفتر. اصطدم كتفه بكأس مخفوق الأيس كريم الثقيلة، فطاحت من فوق المكتب وتكسَّرت على الأرضية كقنبلة.

لم ينتبه إدي للصوت. كان قد أمسك بالبخَّاخ ودسَّ فوَّهته في فمه وضغط الزناد. أخذ نفسًا عميقًا ثقيلًا، فيما تسارعت أفكاره جزعة مثلما يحدث دائمًا في لحظاتٍ كهذي: أرجوك يا أمي أنا أختنق، لا أستطيع التنفُّس، يا إلهي الرحيم، رُحماك أيُّها المسيح، لا أستطيع التنفُّس، أرجوك لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت، أرجوك...

ثم تكاثف الرذاذ البخَّاخ على بطانة حلقه المُنتفخة وبدأ يتنفَّس من جديد.

قال إدي وهو يكاد يبكي: «معذرة. آسف على تحطُّم الكأس. سأنظف مكانها وسأدفع ثمنها... فقط لا تخبر أمي أرجوك، حسنًا؟ أنا آسف يا سيِّد كين، لكنني لم أكن أستطيع التنفُّس...».

نقرة مزدوجة أخرى على الباب، ثم روبي تطل برأسها. «هل كل شيء...».

قال السيِّد كين بحدَّة: «كل شيءٍ بخير. اتركينا بمفردنا».

قالت روبي: «حسنًا، معذرة!»، ورفعت عيناها إلى أعلى بطريقة ملول وأغلقت الباب.

بدأت أنفاس إدي تُصفِّر في حلقه من جديد. أخذ الصبي نفسًا آخر من البخَّاخ وبدأ يغمغم باعتذاراتٍ مُجدَّدًا، ولم يتوقَّف إلا عندما رأى السيِّد كين يبتسم له.. يبتسم تلك الابتسامة الجافة الغريبة. كانت يدا السيِّد كين معقودتين على وسطه، والبالونة تستلقي أمامه فوق المكتب. جاءت إدي

خاطرة، وحاول كبحها لكنه لم يستطع. لقد بدا أن نوبة الربو التي تنتابه مذاقها أفضل في فم السيِّد كين أكثر من مخفوقه المُثلَّج بنكهة القهوة.

قال السيِّد كين: «لا عليك، روبي ستنظف هذه الفوضى لاحقًا، وإذا كنت تريد معرفة الحقيقة، فأنا سعيد لأنك كسرت الكأس. لأنني أعدك بأنني لن أخبر أمك أنك كسرته إذا وعدتني بعدم إخبارها أن هذا الحديث الصغير دار بيننا».

قال إدي بلهفة: «أوه، أعدك بذلك».

قال السيِّد كين: «جميل. نحن نفهم بعضنا جيِّدًا، وأنت تشعر بتحسُّن كبير الآن، أليس كذلك؟».

أومأ إدي.

- «لماذا؟».

- «لماذا؟ حسنًا، لأنني أخذت دوائي»، قالها إدي ورمق السيِّد كين بتلك النظرة التي يرمق بها مسز كاسي في المدرسة عندما يجيب إجابة يشك في صحَّتها.

قال السيِّد كين: «لكنك لم تأخذ أيَّ دواء، لقد أخذت بلاسيبو. البلاسيبو يا إدي دواء وهمي.. شيء يبدو كالدواء، وطعمه كالدواء، لكنه ليس دواءً. ليس البلاسيبو دواءً لأنه لا يحتوي على أيِّ مادَّة فعَّالة، ولو كان دواءً، فهو دواء من نوع خاص جدًّا. دواء للرأس» ثم ابتسم السيِّد كين وأردف: «هل تفهم هذا يا إدي؟ دواء للرأس».

كان إدي يفهم بالفعل. السيِّد كين يخبره أنه مجنون، لكن قال له بشفتين خدرتين تمامًا: «لا، لا أفهم مقصدك».

قال السيِّد كين: «دعني أخبرك بِقِصَّة صغيرة. في عام 1954، أُجرِيت مجموعة من الفحوصات الطبية على مرضى قُرحة في جامعة ديبول. أعطوا مئة مريضٍ بالقرحة أقراصًا دوائية، وأخبروا جميع المرضى أن الأقراص ستساعد في تحسين حالتهم، لكن خمسين من المئة منهم أُعطُوا بلاسيبو في حقيقة الأمر. في الواقع، كانت الأقراص التي تناولوها هي حلوى إم أند إم وقد غُطِّيت بطلاءٍ وردي»، قالها السيِّد كين وضحك ضحكة غريبة صاخبة،

كأنه رجُل يحكي خُدعة لا تجربه طبية، ثم واصل: «من بين مئة المريض، قال ثلاثة وتسعون إنهم شعروا بتحسُّنٍ كبير، وواحد وثمانون منهم أظهروا تحسُّنًا بالفعل. ما رأيك في ذلك؟ ما الاستنتاج الذي استخلصته من مثل هذه التجربة يا إدي؟».

قال إدي بخفوت: «لا أعرف».

نقر السيِّد كين على رأسه بجدٍّ، وقال: «معظم المرض يبدأ هنا، هذا ما أؤمن به. أنا في هذا المجال منذ زمنٍ طويل جدًّا جدًّا يا بُني، وأعرف عن البلاسيبو قبل سنوات طوال من إجراء أولئك الأطباء بحثهم. عادةً، كبار السن هم من يأخذون البلاسيبو. يذهب الرجال المسنون والنسوة العجائز إلى الطبيب مُقتنعين أنهم يعانون خللًا في القلب أو سرطان أو داء السكري أو أيَّ مرضٍ لعين آخر. لكن في عددٍ كبير من الحالات يكون الأمر غير ذلك. هم يشعرون بتوعُّك لأنهم هرموا، هذا كل شيء. لكن كيف يتصرَّف الطبيب؟ هل يخبرهم أنهم صاروا كساعاتٍ بليت تروسها؟ هه! على الأرجح لا. الأطباء يحبون أتعاب العلاج كثيرًا». كان مزيج من الابتسام والاستهزاء يعتلي وجه السيِّد كين حاليًا.

جلس إدي مكانه ينتظر أن تنتهي هذه الجلسة فحسب.. أن تنتهي، أن تنتهي. أنت لم تأخذ أيَّ دواءٍ، تلك الكلمات ترنُّ في عقله.

- «لا يخبر الأطباء أولئك العجائز بذلك، وأنا لا أخبرهم بدوري. فلِمَ العناء؟ أحيانًا يأتي إليَّ مرضى كبار في السن بوصفة طبية فارغة كتبها طبيب تقول صراحةً: بلاسيبو، أو 25 قرصًا من اللا شيء، هكذا يُفضِّل بعض الأطباء صياغة الأمر أحيانًا».

ضحك السيِّد كين ضحكة قصيرة ثم رشف من كأس مخفوقه المُنكَّه بالقهوة.

ثم سأل إدي: «حسنًا، ما الضير في ذلك؟»، وعندما ظلَّ إدي جالسًا مكانه فحسب ولم يتفاعل معه، أجاب السيِّد كين سؤاله بنفسه: «حسنًا، لا شيء! لا شيء على الإطلاق. على الأقل... في أغلب الأوقات. علاجات البلاسيبو نعمة لكبار السن. ثم لدينا حالات أخرى. مرضى السرطان، وأولئك الذين

يعانوا أمراض القلب الانتكاسية، الناس المصابون بأدواءٍ مُريعة لا نفهمها بعد. بعضهم مُجرَّد أطفال مثلك يا إدي. في مثل تلك الحالات، إذا استطاع البلاسيبو إيهام المريض بأنه يشعر بتحسُّن، فما الضرر؟ هل ترى ضررًا يا إدي؟».

قال إدي: «لا يا سيِّدي»، ونظر إلى أسفل نحو بقع أيس كريم الشيكولاته المُتناثرة، وماء الصودا، والكريمة المخفوقه، والزجاج المتكسِّر على الأرض. تتوسَّط كل ذلك حبَّة كرزٍ حمراء مُتَّهِمة، كأنها تخثُّرٌ دموي في مسرح جريمة. تأمُّل تلك الفوضى جعل صدر إدي يضيق من جديد.

- «إذًا، أنا وأنت كالبازلاء والجزر! مُتناغمان ويكمل أحدنا الآخر! منذ خمس سنوات، عندما أصيب ڤيرنون ميتلاند بسرطان في المريء -وهو نوع مؤلم رهيب الألم من السرطان- ونفدت جعبة الأطباء من أيِّ أدوية فعَّالة قد يعطوها له لتخفيف ألمه، عرجت على غُرفته في المُستشفى بزجاجة مليئة بسكاكر. كان صديقًا عزيزًا ومُقرَّبًا لي، وقلت له: 'ڤيرن، هذه حبوب مُسكِّنة ما زالت تحت الاختبار. الطبيب لا يعرف أنني أعطيها لك، فبالله عليك توخَّ الحذر ولا تُوشِ بي. رُبَّما لن تنفعك بشيء، لكنني أظنها ستنفع. لا تأخذ أكثر من حبَّة واحدة في اليوم، وفقط عندما يشتدُّ الألم عليك'. أخذها صديقي وشكرني والدموع تترقرق في عينيه. الدموع يا إدي! وقد نجحت في تخفيف ألمه بالفعل! أجل لم تكن سوى سكاكر، لكنها سكَّنت مُعظم آلامه... لأن الألم ينبع من هنا».

قالها السيِّد كين ونقر رأسه جادًّا مرَّة أخرى.

قال إدي: «إن دوائي ينجح معي بالفعل».

أجابه السيِّد كين مبتسمًا ابتسامة ناضجة من التي تُميِّز الكبار: «أعرف ذلك. إنه ينجح في توسيع صدرك لأنه يُعمل تأثيره في عقلك. الهيدروكس ميست يا إدي مُجرَّد ماء صنبور مُلقى فيه بعض الكافور لإكسابه طعم الدواء».

قال إدي: «لا»، وبدأت أنفاسه تُصفِّر من جديد.

رشف السيِّد كين من كأس مخفوق الصودا، والتهم بعض الأيس كريم الذائب بالملعقة، ثم مسح ذقنه سريعًا بمنديل في أثناء ما استعمل إدي بخَّاخه ثانيةً.

قال إدي: «أريد المغادرة الآن».

- «اسمح لي أن أنهي كلامي، من فضلك».

- «لا! أريد المُغادرة، لقد أخذت مالك وأنا أريد المغادرة!».

- «دعني أنهي كلامي». قالها السيِّد كين بشكل حازم تمامًا ما جعل إدي يتقهقر جالسًا في كُرسيه. الكبار قادرون على أن يكونوا مُنفِّرين تمامًا أحيانًا باستخدام سُلطتهم.. مُنفِّرين تمامًا.

- «جزء من المشكلة هنا أن طبيبك روس هاندور رجُل ضعيف، والجزء الآخر أن أمك تصر على أنك مريض، وأنت يا إدي، محصور بين الاثنين».

همس إدي: «أنا لست معتوهًا». خرجت الكلمات من فمه مبحوحة.

أصدر كُرسي السيِّد كين صريرًا كأنه صرصور عملاق، وقال: «ماذا؟».

صاح إدي: «قلت إنني لست معتوهًا»، ثم على الفور، شاع لونٌ وردي بائس في وجهه.

ابتسم السيِّد كين. كانت ابتسامته تقول: فكِّر كما تشاء، وسأُفكِّر فيما أشاء.

- «كل ما أقوله لك يا إدي إنك لست مريضًا. رئتاك لا تعاني الربو.. بل عقلك».

- «تعني أنني مجنون».

انحنى السيِّد كين أمامًا، ونظر إليه باهتمام شديد من فوق يديه المعقودتين. ثم قال بنعومة: «لا أعرف. هل تعرف أنت؟».

صرخ إدي: «كل هذا كذب!»، وقد باغته أن الكلمات تخرج من صدره المُغلق بهذه القوَّة. كان يُفكِّر في بيل، وماذا ستكون ردَّة فعله تجاه مثل هذه الاتِّهامات. كان بيل سيعلم ما يجب قوله في هذا الموقف، مُتلعثمًا أم لا. يعرف بيل كيف يكون شجاعًا. «كل هذا كذب شنيع! أنا مريض بالربو، أنا مريض!».

قال السيِّد كين، وقد استحالت ابتسامته الجافة إلى ابتسامة هيكلٍ عظمي. «لكن من أصابك به يا إدي؟».

كان رأس إدي ينبض ويدور. أوه، إنه يشعر بغثيان.. يشعر بغثيانٍ شديد.

- «منذ أربع سنوات، في عام 1945، العام نفسه الذي أجرت فيه جامعة

ديبول دراستها، وتلك مُفارقة الغريبة بما فيه الكفاية، بدأ دكتور هاندور كتابة وصفات هايدروكس الطبية لك. هذا المصطلح يعني الهيدروچين والأكسچين، عُنصري الماء.. وقد غضضط أنا الطرف عن هذه الوصفة منذ حينها، لكنني لن أتغاضى عنها بعد الآن. دواء الربو يؤثر على عقلك بدلًا من جسدك. نوبة الربو التي تنتابك تنتج عن انقباضات عصبية في حجابك الحاجز بأمرٍ من عقلك... أو من أمك. أنت لست مريضًا».

هبط عليهما صمتٌ مُريع.

جلس إدي في كُرسيه، وعقله يعمل محمومًا. لوهلة، فكَّر في احتمالية أن السيِّد كين رُبَّما يقول الحقيقة، لكن كان لهذه الفكرة تداعيات يصعب عليه مواجهتها. لكن -في الوقت نفسه- لِمَ سيكذب عليه، خصوصًا في أمرٍ بهذه الخطورة؟

جلس السيِّد كين يبتسم ابتسامته اللامعة الصحراوية التي لا قلب لها.

أنا مريض بالربو. أنا مريض. كدت أموت في ذلك اليوم في البَرِّية عندما لكمني هنري باورز، اليوم الذي كنت أحاول فيه أنا وبيل بناء السدِّ. هل من المفترض أن أعتقد أن عقلي كان... كان يختلق كل ذلك؟

لكن لماذا سيكذب؟ (لاحقًا في المكتبة، بعدها بسنوات، سيسأل إدي نفسه سؤالًا أكثر إفزاعًا: لماذا أخبرني بالحقيقة؟).

برأسٍ مشوَّش، سمع السيِّد كين يقول: «لقد أبقيت عينيّ عليك طويلًا يا إدي، وقد أخبرتك بكل ذلك لأنك كبرت بما يكفي للفهم، وأيضًا لأنني لاحظت أنك بدأت تُكوِّن صداقات. إنهم أصدقاء جيِّدون، أليس كذلك؟».

قال إدي: «أجل».

مال السيِّد كين في كُرسيه (ما جعل الأخير يصدر الصوت الشبيه بصوت الصراصير ثانيةً)، ثم أغلق عينًا واحدة في إيماءة قد تكون أو لا تكون غمزة، وقال: «أراهن أن أمك لا تحبهم كثيرًا، أليست كذلك؟».

- «إنها تحبهم بما يكفي». قالها إدي مُفكِّرًا في الأشياء السيِّئة التي قالتها أمه عن ريتشي توزيير (إن رائحة فمه كريهة... إن أنفاسه مُسمَّمة يا إدي... أظنُّ أنه يُدخِّن)، وتحذيرها له بألا يقرض أيَّ مالٍ لستان يوريس لأنه يهودي، وكراهيتها الصريحة لبيل دِنبروه ولذلك «الصبي البدين».

كرَّر إدي قائلًا إلى السيِّد كين: «إنها تحبّهم كثيرًا».

قال السيِّد كين وهو لا يزال يبتسم: «أحقًّا؟ حسنًا، قد تكون مُحقَّة وقد لا تكون كذلك، لكنك على الأقل تحظى بأصدقائك. رُبَّما يجب أن تُحدِّثهم عن مُشكلتك هذه. تُحدِّثهم عن هذا... السقم العقلي، ولتستمع إلى ما سيقولون».

لم يرد إدي. كان قد انتهى من الحديث مع السيِّد كين، وبدا له أن هذا أفضل.. وكان يشعر بالخوف من أنه إذا لم يغادر هذا المكان، فسوف يبدأ حقًّا في البكاء.

قال السيِّد كين ناهضًا: «حسنًا، أظنُّ أن هذا يضع نهاية لحديثنا يا إدي. أعذرني إن كنت ضايقتك، كنت فقط أؤدي واجبي كما أراه. أنا...».

لكن قبل أن يقول أيَّ شيءٍ آخر، خطف إدي بخَّاخه وحقيبة الأدوية البيضاء وطار. انزلقت قدمه في فوضى الأيس كريم التي تُغرق الأرضية وكاد يتعثر، ثم بدأ يركض مُندفعًا خارج صيدلية الشارع الأوسط بالرغم من صفير أنفاسه. رمقته روبي من فوق مجلة الأفلام التي تقرأها بفم فاغرٍ.

من خلفه، شعر بأن السيِّد كين يقف على مدخل مكتبه ويراقب فراره الأخرق. يقف نحيلًا أنيقًا مُفكِّرًا ومُبتسمًا.. مُبتسمًا تلك الابتسامة الصحراوية الجافة.

توقَّف إدي عند تقاطع شوارع كانساس والرئيس والأوسط الثلاثي، ثم سحب نفسًا عميقًا آخر من بخَّاخه وهو يجلس على جدارٍ حجري مُنخفض قرب محطَّة الحافلات. استجابت حنجرته الآن بعدما رطَّبها مذاق الدواء (مُجرَّد ماء صنبور مُلقى فيه بعض الكافور)

وفكَّر إدي أنه لو اضُطر إلى استخدام بخَّاخه مرَّة أخرى اليوم، فعلى الأرجح سيتقيَّأ أمعاءه من فمه.

دس إدي البخَّاخ في جيبه وراقب حركة سير السيَّارات إلى نهاية الشارع الرئيس أو جنوبًا إلى تلَّة أب-مايل، وحاول ألا يُفكِّر. كانت الشمس الحارقة تضرب جبهته، وكل سيَّارة عابرة تعكس سهامًا برَّاقة من الضوء في عينيه، وها هو الصداع يبدأ اعتماله في صدغيه. لم يجد ما يجعله يريد أن يظلَّ غاضبًا

من السيِّد كين، لكنه لم يجد غضاضة على الإطلاق في أن يشعر بالسوء إزاء نفسه. كان يشعر بسوءٍ حقيقي إزاء نفسه، وافترض أن بيل بالتأكيد لم ينفق أيَّ وقتٍ في الرثاء لحاله الشخصي، لكن يبدو أنه -إدي- لا حيلة له في الأمر.

كان يريد أن يفعل ما قاله السيِّد كين بالحرف الواحد أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في العالم: أن يذهب إلى البرِّية ويخبر أصدقاءه بكل شيء، ويسمع ما سيقولونه، ويكتشف أيَّ إجاباتٍ قد يملكونها. لكنه لا يستطيع فعل ذلك، فأمه تتوقَّع منه العودة إلى المنزل بدوائها قريبًا

(عقلك... أو أمك)

وإذا لم يعد إلى المنزل

(أمك مُصرَّة أنك مريض)

فسيوقعه هذا في مشكلة. ستفترض أمه أنه كان بصحبة بيل أو ريتشي أو «الصبي اليهودي» كما تُسمي ستان (مؤكِّدة أنها لا تقصد أيَّ نوعٍ من التعصُّب وهي تنعته بذلك، بل هي ببساطة «تكشف أوراقها»، وهذه كانت عبارتها عندما تقصد قول الحقيقة في المواقف الصعبة). في أثناء وقوفه هنا في هذا الرُكن، محاولًا بيأس ترتيب وفرز أفكاره المُتطايرة، علم إدي ما كانت ستقوله إذا جاءها خبر أن أحد أصدقائه الآخرين صبي زنجي وأن الأخرى فتاة... بل فتاة في سنٍ كبيرة بما يكفي ليبدأ ثدياها في التبرعم.

بدأ إدي يسير اتِّجاه تلَّة أب-مايل، وهو هائب من تسلُّق المُرتفع القاصي في هذا الحر. كان الجو شديد الحرارة لدرجة أنك تستطيع قلي البيض على قارعة الطريق، وللمرَّة الأولى وجد إدي نفسه يتمنى أن تعود الدراسة، أن يبدأ صفٌّ دراسيٌّ جديد ويتعامل مع مُدرِّسين جُدد، أن ينتهي هذا الصيف المُريع.

توقَّف الصبي في منتصف صعوده التلَّة في مكانٍ لا يبعد كثيرًا عن المكان الذي سيعيد فيه بيل اكتشاف درَّاجته سيلفر بعد سبعة وعشرين عامًا، وأخرج بخَّاخه من جيبه. كان الملصق يقول: استخدمه كُلَّما دعت الحاجة.

شيءٌ آخر يلتمع في عقله. استخدمه كُلَّما دعت الحاجة. إنه مُجرَّد صبي، ولا يزال غرًا ساذجًا (كما تقول له أمه أحيانًا وهي «تكشف أوراقها»)، لكن حتَّى الصبية في هذه السن يعلمون أن لا أحد يعطي أحدًا دواءً حقيقيًا بمُلصق

يقول: استخدمه كُلَّما دعت الحاجة. إذا كان هذا دواءً حقيقيًّا، فمن السهولة بمكان أن تقتل نفسك إذا استخدمته بحماقة كلما رغبت: حتَّى أقراص الأسبرين قد تقتلك إذا استخدمتها بهذه الطريقة.

تطلَّع إدي بثبات إلى بخَّاخه، غير واعٍ بالمرأة العجوز التي رمقته بفضول وهي تمر من جواره هابطة التلَّة في اتِّجاه الشارع الرئيس وهي تحمل حقيبة مشترياتها على ذراعها. شعر إدي بالخيانة، ولوهلة، كاد أن يلقي بالزجاجة البلاستيكية في البالوعة، أو في في مصرف المجاري سيكون أفضل، هكذا فكَّر. بالتأكيد! لِمَ لا؟ لأدع الشَّيء يأخذها إلى أنفاقه ومواسير الصرف الصحي الرطبة. فلتتذوق البلاسيبو أيُّها البغيض صاحب مئة الوجه! ضحك إدي ضحكة مجنونة وكاد أن يفعل الأمر، لكن في النهاية، غلب الطبع التطبُّع، فأعاد وضع البخَّاخ في الجيب الأمامي الأيمن من سروايله وواصل سيره، غير واعٍ تقريبًا بنفير حافلة حديقة باسي وهي تمرُّ من جواره، كما لم يكن يعي أيضًا مدى قُربه من اكتشاف معنى الألم... الألم الحقيقي.

3

عندما خرج إدي من متجر جادة كوستيلو بعد خمس وعشرين دقيقة حاملًا زجاجة بيبسي في يدٍ وقطعتي حلوى بايداي في اليد الأخرى، بوغِت –على نحوٍ كريه– من رؤية هنري باورز وڤيكتور كريس وموس سادلر وباتريك هوكستيتر راكعين فوق الحصى الذي يغطي الجانب الأيسر للمتجر الصغير. لوهلة ظن إدي أنهم يقذفون النرد، ثم رأى أنهم يجمعون أموالهم في تيشرت البيسبول الخاص بڤيكتور، وكُتُب دراستهم الصيفية مُكدَّسة إلى جوار الجدار في كومة غير مُرتَّبة.

لو كان هذا يومًا عاديًا، لتلاشى إدي بهدوء عائدًا إلى المتجر، ولسأل السيِّد جيدرو إن كان يستطيع المُغادرة من الباب الخلفي، لكن هذا لم يكن يومًا عاديًا. تجمَّد إدي في مكانه بدلًا من ذلك. كانت إحدى يديه تحمل كيس البقالة البُنِّي وحقيبة الدواء البيضاء، بينما ظلَّت الأُخرى مُمسكة بالباب الذي تملأه لافتات السجائر المصنوعة من القصدير (المرسوم على إحداها غلام

فندق يصيح: سجائر وينستون رائعة المذاق، كأفضل ما يكون الطُّباق، إحدى وعشرون سيجارة رائعة تضمن لك إحدى وعشرين لحظة تدخين ممتعة. من إنتاج فيليب موريس).

رآه ڤيكتور كريس فلكز هنري باور بكوعه. رفع هنري بصره، وكذا فعل باتريك هوكستيتر، أما موس التي تعمل دوائر تفكيره بشكلٍ أبطأ، استمرَّ في عدِّ البنسات خمس ثوانٍ أخرى قبل أن يدرك الصمت المُحيط به ويرفع بصره على إثره.

نهض هنري واقفًا، نافضًا حصيات صغيرة التصقت برُكبتي سراويله. كانت هناك جبيرة على جانبي أنفه المُضمَّد، وكان لصوته صوتٌ أجوف بوقي وهو يقول: «ويحي، إنه أحد رُماة الحجارة. أين أصدقاؤك أيُّها الأحمق؟ أهم بالداخل؟».

هزَّ إدي رأسه نافيًا من دون وعي، قبل أن يدرك أن هذه غلطة أخرى.

اتَّسعت ابتسامة هنري وقال: «حسنًا، هذا جيِّد. لا أمانع أن ألقنكم دروسًا على انفراد واحدًا تلو الآخر. تعال إلى هنا يا أحمق».

كان ڤيكتور يقف جوار هنري، وهوكستيتر خلفهما يبتسم بطريقته الخنزيرية الخالية من التفكير التي يألفها إدي من المدرسة، أما موس فكان لا يزال ينهض.

قال هنري: «هلم أيُّها الأحمق. لنتحدَّث عن إلقاء الحجارة.. لنتحدَّث عن الأمر، ما رأيك؟».

بما أن الوقت كان قد تأخَّر جدًّا الآن، قرَّر إدي أنه سيكون من الحكمة العودة إلى المتجر، حيث يوجد أحد الكبار. لكن في أثناء ما راح يتراجع، انطلق هنري نحوه كالسهم وأمسكه من ذراعه وبدأ يجذبه. كان يجذبه بقوَّة وقد تحوَّلت ابتسامته إلى تكشيرة. انتُزعت يد إدي التي تُمسك بالباب، وراح يُدفع عبر السلالم وكاد أن يسقط فوق الحصى على رأسه لكن ڤيكتور تلقَّاه بخشونة من أسفل ذراعيه. ألقى هنري به. استطاع إدي أن يظل واقفًا، لكن فقط عن طريق الالتفاف حول نفسه مرَّتين. كان الأولاد الأربعة يواجهونه الآن من مسافة عشرة أقدام، يتقدَّمهم هنري بمسافة طفيفة، ويبتسم، وشعره ينتصب من الخلف كأن بقرة لعقته إلى أعلى.

خلف هنري يقف باتريك هوكستيتر، وهو فتى مُخيف حقًّا. لم يكن إدي قد رآه بصحبة أيِّ شخصٍ من قبل حتَّى اليوم. كان باتريك زائد الوزن بحيث يتدلَّى بطنه دائمًا فوق حزامه المزوَّد بحلية معدنية منقوش عليها صورة بطل القصص المُصوَّرة ريد رايدر. كان وجهه كامل الاستدارة، ويبدو شاحبًا دائمًا كالكريمة، أما حاليًا فالشمس تلوِّحه قليلًا. كان أكثر جزء حرقته الشمس هو أنفه، الذي بدأ يتقشَّر، لكن التقشُّر كان ينتشر إلى وجنتيه كجناحي طائر صغير. في المدرسة، كان باتريك يهوى قتل الذُباب بمسطرته الخضراء البلاستيكية وجمعه في مقلمة أقلامه الرصاص. أحيانًا، كان يعرض مجموعته من الذُباب على صبي جديد في فناء المدرسة في الفُسحة وهو يبتسم بشفتيه الغليظتين، بينما عيناه الرماديتان الخضراوان تتأمَّلانه برصانة. لم يكن يتكلَّم قط وهو يعرض ذُبابه الميِّت، بغض النظر عمَّا قد يقوله له الصبي الجديد. كان هذا التعبير يعلو وجهه الآن.

سأله هنري وهو يتقدَّم عبر المسافة التي تفصلهما: «كيف حالك يا رجُل الحجارة. أمعك أيُّ أحجار؟».

قال إدي بصوتٍ مُرتعش: «اتركني في حالي».

كرَّر هنري: «اتركني في حالي»، مُحاكيًا إيَّاه في سُخرية وهو يُحرِّك يديه في خوفٍ مُصطنع، فضحك ڤيكتور. «ماذا ستفعل إذا لم أتركك يا رجُل الحجارة؟ هه؟». قالها هنري في الوقت الذي اندفعت قبضته فيه بسُرعة هائلة وانفجرت في وجنة إدي بدويٍّ هائلٍ كطلقة بندقية. نُخِعت رأس إدي إلى الوراء، وبدأت الدموع تسيل من عينه اليسرى.

قال إدي: «إن أصدقائي بالداخل».

صرخ باتريك هوكستيتر بصوتٍ رفيع: «إن أصدقائي بالداخل. أوووه! أووووه! أووووه!»، وبدأ يلتف إلى جانب إدي الأيمن.

همَّ إدي بالفرار من هذا الاتِّجاه، لكن قبضة هنري طاحت من جديد، وهذه المرَّة اشتعلت وجنته المُقابلة بالألم.

فكَّر إدي: لا تبكِ، هذا ما يريده. إيَّاك أن تبكي يا إدي، بيل لن يفعل لو كان مكانك، بيل لن يبكي، لذا إيَّاك أن تفعل، إيـ...

خطا ڤيكتور إلى الأمام وعالج إدي بدفعة قويَّة في صدره. تعثَّرت قدما إدي نصف خطوة إلى الوراء ثم انقلب مُتدحرجًا من فوق باتريك، الذي ربض راكعًا خلفه مُباشرةً، وقع إدي فوق الحصى، وكشط ذراعيه، وخرج الهواء من رئتيه في زفرة سريعة، ووووف!

بعدها بلحظة اعتلاه هنري، مُثبِّتًا ذراعي هنري برُكبتيه، وجالسًا بمؤخِّرته فوق معدته.

- «أمعك أيُّ أحجار يا رجُل الحجارة؟». هكذا صاح هنري مُهتاجًا في وجه إدي، وقد أصاب إدي الذُعر من الجنون المُلتمع في عيني هنري أكثر من الألم الحارق في ذراعيه أو عدم قدرته على التقاط أنفاسه. كان هنري مسعورًا، وفي مكانٍ ما جواره، وقف باتريك يضحك.

- «أتريد إلقاء الحجارة؟ هه؟ سأعطيك بعض الحجارة! هاك! إليك بعض الحجارة!».

طوَّح هنري كفًّا مليئًا بالحصى وصفعها في وجه إدي، ثم راح يفرك الحصى في وجهه مُقطِّعًا وجنتيه وجفنيه وشفتيه. فتح إدي فمه ليصرخ.

- «أتريد صخورًا؟ حسنًا؟ ماذا عن المزيد؟ ماذا عن...».

- «توقَّف! أنت، أنت! توقَّف! أنت يا فتى! اتركه الآن! حالًا! هل تسمعني! ابتعد عنه!».

بعينين خذلاهما جفناهما وضبَّبتهما الدموع، شاهد إدي يدًا ضخمة تهبط إلى أسفل وتمسك هنري من ياقة قمصيه آخذة بتلابيبه. انتزعت اليد هنري بعنف وألقت به أرضًا فسقط فوق الحصى ثم نهض. اعتدل إدي بوتيرة أبطأ. كان يحاول الوقوف على قدميه، لكن قدميه أبتا مطاوعته. شهق إدي وبصق كُتلًا من الحصى المخلوطة بالدم من فمه.

كان هذا السيِّد جيدرو الذي يضع عليه إزاره الأبيض والغضب يشتعل في ملامحه. لم يكن ثمَّة خوفٌ في وجهه، رغم أن هنري كان أطول منه بنحو ثلاث بوصات ويفوقه وزنًا على الأرجح بخمسين رطلًا. لم يكن ثمَّة خوفٌ في وجهه لأنه كان كبيرًا وهنري مُجرَّد فتى. لكن هذه المرَّة، هكذا فكَّر إدي، قد لا يُشكِّل ذلك فارقًا يُذكر. إن السيِّد جيدرو لا يفهم.. لا يفهم أن هنري مجنون.

قال السيِّد جيدرو وهو يقترب من هنري حتَّى صار ماثلًا أمام وجه الفتى الضخم الحرون الغاضب: «امش من هنا. امش من هنا ولا تحاول العودة مرَّة أخرى. أنا لا أتسامح مع الاستقواء على الضعفاء. لا أتسامح مع أربعة ضد واحد. ماذا ستظن أمك بك إذا علمت بما تفعل؟».

ثم جال بعينين غاضبتين شرستين في وجوه الآخرين. أشاح موس وڤيكتور ببصريهما أرضًا ونظرا إلى حذائيهما، أما باتريك فظلَّ يُحدِّق في السيِّد جيدرو بتلك النظرة الرمادية الخضراء الخاوية. عاد السيِّد جيدرو ينظر إلى هنري ولم يكمل أكثر من: «اركبوا درَّاجاتكم و...»، عندما عالجه هنري بدفعة قويَّة.

اعتلى وجه السيِّد جيدو تعبير مُندهش كان سيبدو هزليًّا في ظل ظروفٍ أخرى وهو يطير إلى الوراء والحصى السائب يتطاير من تحت كعبيه. اصطدم الرَّجُل بالدرج الذي يقود إلى باب المتجر وجلس أرضًا بقوَّة.

بدأ في قول: «يا لك من...».

سقط ظل هنري فوقه وقال له: «ادخل متجرك».

قال السيِّد جيدرو: «إنك...»، وهذه المرَّة صمت من تلقاء نفسه. أدرك إدي أن السيِّد جيدرو قد رأى أخيرًا ذلك الالتماع في عيني هنري. نهض الرَّجُل سريعًا، وإزاره يرفرف من حوله، وصعد الدرج بأسرع ما يستطيع، وتعثَّر في الدرجة قبل الأخيرة وسقط بشكلٍ وجيز على رُكبته. ثم نهض ثانيةً في التوِّ، لكن هذه العثرة -بقدر إيجازها- بدا أنها جرَّدته ممَّا تبقَّى من أيِّ سُلطة راشدة في جعبته.

التفَّ السيِّد جيدرو ناظرًا إليهم وصاح: «سأتَّصل بالشُرطة!».

تظاهر هنري بأنه سيندفع نحوه، فانتكص السيِّد جيدرو جافلًا. كانت هذه نهاية الموقف، هكذا أدرك إدي. رغم لا معقولية الأمر واستحالته، لم يكن ثمَّة حامٍ له في هذا المكان. لقد حان وقت الرحيل.

لذا، في أثناء ما كان هنري يقف أسفل الدرج يُحدِّق شزرًا في السيِّد جيدرو، وفي أثناء ما كان الآخرون يحملقون مذهولين (باستثناء باتريك هوكستير، الذي لم يبدُ عليه أدنى روع) من هذه الهزيمة النكراء المُباغتة

لسُلطة الكبار، وجدها إدي فرصته في الهرب.. وسرعان ما التفَّ، ونهض إلى قدميه، وأطلق ساقيه للريح.

كان قد وصل إلى مُنتصف المسافة حول البناء في الوقت الذي التفت هنري فيه وعيناه تقطران شرًّا وزأر: «أمسكوا به!».

استطاع إدي إنهاكهم ركضًا في ذلك اليوم، ولم تُشكِّل مسألة كونه مريض ربو فارقًا يُذكر. لقد قطع مسافات ركضًا -بعضها بطول خمسين قدمًا- لا يتذكَّر فيها إن لامسَ كعبا حذائه فيها أرض الرصيف أم لا.. وللحظاتٍ قليلة، تلاعبت برأسه الفكرة المُسكِرة بأنه رُبَّما سيتفوَّق عليهم.

ثم قبل وصوله إلى شارع كانساس مُباشرةً وما قد يكون برّ الأمان، قطع طفلٌ صغير يركب درَّاجة بثلاث عجلات طريق إدي خارجًا من ممرٍّ منزلي جانبي. حاول إدي المرواغة، لكن بسُرعته القصوى تلك رُبَّما كان من الأفضل لو قفز من فوق الطفل، أو حاول ذلك على الأقل (كان الطفل في حقيقة الأمر هو ريتشارد كوان، الذي سيغرق لاحقًا في المرحاض ثم سيُلتهم جُزئيًّا من قِبَل شيءٍ سيرتفع من المرحاض في صورة دُخانٍ أسود قبل أن يتَّخذ هيئة مُريعة لا يُمكن تصوُّرها).

عَلِقَت إحدى قدمي إدي في عتبة الدرَّاجة الخلفية، وهو المكان المُخصص لطفلٍ لعين مُغامر كي يقف ويدفع الدرَّاجة ثلاثية العجلات بقدمه كأنها سكوتر. لم يهتزَّ ريتشارد كوان -الذي سيقتل الشَّيء أخيه الذي لم يولد بعد، بعد سبعة وعشرين عامًا- في جلسته على درَّاجته ثلاثية العجلات، لكن إدي طار مُحلِّقًا في الهواء، ثم هبط أرضًا ضاربًا الرصيف بكتفه وارتد عنه، ثم سقط ثانيةً وتزحلق مسافة عشرة أقدام جالطًا الجلد على كوعيه ومعصميه. كان يحاول النهوض عندما طار هنري وضربه كطلقة مدفع بازوكا وسطَّحهُ أرضًا. التصق أنف إدي بخرسانية الطريق، وتدفَّقت الدماء من منخريه. قام هنري بدحرجة جانبية سريعة كأنه جندي مظلَّات ونهض مُجدَّدًا وأمسك بإدي من قفاه ومعصمه الأيمن. كانت أنفاسه الثقيلة التي تخرج من أنفه المُتورِّم المُجبَّر دافئة ورطبة.

- «تريد أحجارًا يا رجُل الحجارة؟ بالتأكيد! اللعنة!»، ثم لوى معصم

إدي بقوَّة إلى منتصف ظهره. صرخ إدي من الألم، فلوى هنري معصمه أعلى ظهره أكثر. «أحجار لرجُل الحجارة، أليس كذلك يا رجُل الحجارة؟». صرخ إدي. كان يسمع اقتراب الآخرين من خلفه بنصف وعيٍ. بدأ الطفل الصغير على الدرَّاجة ثلاثية العجلات يعوي. أهلًا بك في الناديّ أيُّها الصغير، هكذا فكَّر إدي.. وبالرغم من ألمه، وبالرغم من دموعه وخوفه، فلت منه نهيقًا ضاحكًا كنهيق الحمار. هي-هاو.

سأله هنري وقد بدا مُندهشًا فجأة أكثر منه غاضبًا: «أتظن أن هذا مُضحك؟ أتظن أن هذا مُضحك؟». هل يبدو صوت هنري خائفًا أيضًا؟ لاحقًا بعد سنوات، سيُفكِّر إدي: أجل، كان خائفًا، لقد بدا صوته خائفًا.

لوى إدي معصمه في قبضة هنري. كان ملوَّثًا بالعرق وكاد إدي أن يفلت، ولعلَّ هذا هو السَّبب الذي جعل هنري يجذب معصم إدي بقوَّة أكبر إلى أعلى هذه المرَّة. سمع هنري ذراعه يطقُّ كصوت تكسُّر صفحة الثلج أسفل خشب الشتاء. كان الألم الذي سرى في ذراعه المكسورة رهيبًا وغير مسبوق. صرخ إدي، لكن صوته بدا بعيدًا. تلاشت الألوان من الموجودات حوله، وعندما أفلته هنري ودفعه، بدا أنه يطفو في الهواء وصوب أرضية الرصيف. لقد استغرق وصوله إلى ذلك الرصيف وقتًا طويلًا جدًا، واستطاع إدي إلقاء نظرة مُتفحِّصة على كُل شقٍّ في الحجارة وهو ينزلق أرضًا، بل أُتيحت أمامه فُرصة للإعجاب بالطريقة التي تنعكس بها أشعة شمس يوليو عن حبَّات الرَّمل على ذلك الرصيف القديم. كانت أمامه فُرصة ليلاحظ كل شبكة حجلة رُسمت بالطباشير الوردية على الرصيف القديم.. ثم -للحظة عابرة فقط- زاغت خطوط الحجلة وبدت كشيءٍ آخر.. بدت كسُلحفاة.

كان سيغيب عن الوعي وقتها على الأرجح، لكنه وقع على ذراعه حديثة الكسر، وقد كان ذلك الألم الجدي الطازج حادًّا وصارخًا وساخنًا ومُريعًا. شعر إدي بشظايا عظامه اللينة تحتك وتُطحن معًا. عضَّ إدي لسانه، وسالت الدماء منه، ثم تدحرج على ظهره ورأى هنري وڤيكتور وموس وباتريك يقفون فوقه. كانوا يبدون فارعي الطول، ماردو القامة، كحاملي نعشٍ ينظرون إلى قبر.

سأله هنري: «هل أحببت ذلك يا رجُل الحجارة؟». كان صوته يأتيه من أراضٍ بعيدة محمولًا على سُحُبٍ من الألم. «هل أحببت هذه الإثارة يا رجُل الحجارة؟ هل أحببت هذه الدحرجة؟».

ضحك باتريك هوكستيتر.

سمع إدي نفسه يقول: «إن أباك مجنون، وأنت كذلك».

تلاشت ابتسامة هنري سريعًا كأنها انتُزِعت من وجهه. جذب الفتى ساقه إلى الخلف ليركل، ثم دوَّت صافرة إنذار في أجواء عصر هذا اليوم الحار الساكن. تسمَّر هنري مكانه، ونظر ڤيكتور وموس حولهما في توتُّر.

قال موس: «هنري، أظنُّ أنه من الأفضل أن نبتعد عن هنا».

قال ڤيكتور: «عن نفسي سأفرُّ من هنا حالًا». لكم بدت أصواتهم بعيدة! لكم بدت كأنها تطفو كبالونات مُهرِّج. انطلق ڤيكتور صوب المكتبة قاطعًا حديقة مكارون ليبتعد عن الشارع.

تردَّد هنري بُرهة أطول، آملًا رُبَّما أن تكون سيَّارة الشُرطة مُتَّجهة لتقصِّي أمر آخر، وأنه يستطيع الاستمرار فيما يفعله، لكن صافرة الإنذار ارتفعت أكثر وبدا أنها تقترب. «لقد حالفك الحظ يا ذا الوجه اللعين». قالها هنري، ثم انطلق هو وموس في أثر ڤيكتور.

تريَّث باتريك هوكستيتر قليلًا، وهمس بعدها بصوتٍ مبحوحٍ أجش: «هذه هدية إضافية لك»، ثم أخذ نفسًا عميقًا وبصق كتلة كبيرة من المخاط الأخضر في وجه إدي المُتعرِّق الدامي. «لا تأكلها كلها دُفعة واحدة، احتفظ ببعضها لوقتٍ لاحق إذا رغبت». قالها باتريك وهو يبتسم ابتسامته الكريهة المريضة.

ثم استدار ببطء واختفى بدوره.

حاول إدي مسح كتلة المخاط عن وجهه بذراعه السليمة، لكن حتَّى هذه الحركة الطفيفة جعلت الألم يتأجَّج مُجدَّدًا.

لم يخطر ببالك قط أن الأمر سينتهي بك على رصيف جادة كوستيلو بذراعٍ مكسورة وبصاق باتريك هوكستيتر يسيل على وجهك عندما هممت بالذهاب إلى الصيدلية، أليس كذلك؟ إنك لم تنل الفرصة حتَّى لاحتساء زجاجة البيبسي التي ابتعتها. الحياة تعج بالمفاجآت، أليس كذلك؟

بشكلٍ يثير الدهشة، ضحك إدي ثانيةً. كانت ضحكة واهنة، وقد آلمت ذراعه المكسورة، لكنها كانت ضحكة جيِّدة.. كما يوجد شيءٌ آخر أيضًا: لم ينتابه الربو. إن تنفُّسه بخير حال، على الأقل إلى الآن. هذا شيءٌ جيِّدٌ أيضًا، فلم يكن سيستطيع الوصول إلى بخَّاخه على الإطلاق وهو في هذه الحالة، ولو بعد ألف سنة.

اقتربت صافرات الشُرطة جدًّا الآن، تعوي وتولول. أغلق إدي عينيه وشاهد احمرارًا أسفل جفنيه. ثم استحال الاحمرار إلى سواد عندما سقط ظلٌّ فوقه. كان ظلُّ ذلك الطفل على الدرَّاجة.

سأله الطفل: «هل أنت بخير؟».

سأله إدي: «هل أبدو بخير؟».

قال الطفل: «لا، تبدو بهيئة مُزرية». ثم قاد درَّاجته مُبتعدًا وهو يُغني «المُزارع في الطريق».

بدأ إدي يقهقه. ها هي سيَّارة الشرطة، إنه يسمع صرير مكابحها وهي تتوقَّف، وجد إدي نفسه يأمل بشكلٍ غامض أن يكون السيِّد نيل فيها. رغم أنه يعلم أن السيِّد نيل شُرطي دورية مُترجِّل.

لماذا تضحك بحق المسيح؟

لم يكن يعلم، كما لم يكن يعلم لماذا يشعر بمثل هذه الراحة على الرغم من الألم. هل رُبَّما لأنه ما زال حيًّا، وأن أسوأ ما حلَّ به هو ذراعٌ مكسورة وبعض الرضوض والكدمات؟ استكان إدي لهذا التفسير، لكن بعدها بسنوات، عندما سيجلس في المكتبة بكأس الجِن وعصير البرقوق أمامه، وبخَّاخه في متناول يده، سيخبر الآخرين أن الأمر كان ينطوي على ما هو أكثر، وأنه قد كَبِرَ بما يكفي لاستشعار ذلك الأكثر، لكن ليس بما يكفي ليفهمه أو ليُحدِّده.

أظنُّ أن ذلك كان أوَّل ألم حقيقي أستشعره في حياتي، هكذا سيخبر الآخرين، ولم يكن كما تخيَّلتهُ على الإطلاق. إنه لم يقضِ عليّ كإنسان، بل أعتقد أنه... منحني أساسًا للمُقارنة، لمعرفة أنني أستطيع النجاة والعيش في خضم الألم، على الرغم من الألم.

حنى إدي رأسه بضعف إلى اليمين وشاهد الإطارات السوداء الكبيرة

ماركة فايرستون، وأغطيتها اللامعة من الكروم، والأضواء الزرقاء الوامضة. بعدها سمع صوتًا أيرلنديًّا.. أيرلنديًّا تمامًا.. صوت السيِّد نيل، لكنه بدا أقرب إلى تقليد ريتشي من الصوت الحقيقي، لكن رُبَّما كانت المسافة هي سبب ذلك الشعور. قال الصوت:

- «يا ليسوع المسيح، إنه صبي آل كاسبراك!».

وفي هذه اللحظة، غاب إدي عن الوعي، وظلَّ غائبًا عن الوعي فترة طويلة، باستثناءٍ وحيد. لقد مرَّت عليه لحظة من الوعي في سيَّارة الإسعاف رأى فيها السيِّد نيل يجلس قبالته، ويرشف من زجاجته البُنِّية الصغيرة وهو يقرأ قِصَّة عنوانها أنا المُحكِّم. كانت الفتاة على الغلاف صاحبة أكبر نهدين شاهدهما إدي في حياته. انتقلت عيناه من السيِّد نيل إلى سائق السيَّارة في المُقدمِّة. التفت السائق إلى إدي وكانت على وجهه ابتسامة كبيرة مشدودة، ووجهه مُلطَّخٌ بالأصباغ، وعيناه تلمعان كأرباع الدولارات الجديدة. كان السائق بيني وايز ذاته.

قال إدي مبحوحًا: «سيِّد نيل».

نظر إليه السيِّد نيل وابتسم: «كيف تشعر يا بُني؟».

- «... السائق... السائق...».

قال السيِّد نيل: «أجل، سنصل في لمح البصر»، ثم مدَّ يده بالزُجاجة البُنِّية الصغيرة وأردف: «ارتشف قليلًا من هذه، ستشعر بتحسُّن».

شرب إدي شرابًا مذاقه كالنار السائلة، وسعل، ما أذى ذراعه. نظر إدي أمامًا وشاهد السائق من جديد. كان مُجرَّد رجُل حليق الشعر.. لا مُهرِّج هناك.

ثم غاب عن الوعي مُجدَّدًا.

بعدها وجد نفسه في غُرفة الطوارئ، وثمَّة مُمرِّضة تمسح الدماء والتراب والمُخاط وبقايا الحصى من على وجهه بمنشفة باردة. كانت تلسع، لكن بدا ملمسها على جلده رائعًا في الوقت نفسه. سمع إدي صوت أمه يصيح ويعوي وينعب كالبوق في الخارج، وحاول إخبار المُمرِّضة أن تسمح لها بالدخول، لكن الكلمات أبت مغادرة حلقه، بالرغم من محاولاته المُضنية.

كانت أمه تصرخ: «... أريد أن أعرف ما إذا كان يحتضر! هل تسمعني؟

من حقِّي أن أعرف، ومن حقِّي أن أراه! أستطيع مقاضاتكم وأنت تعرف ذلك! أعرف مُحامين.. مُحامين كُثُر! بعضٌ من أفضل أصدقائي مُحامين!».

قالت المُمرِّضة لإدي: «لا تحاول الكلام». كانت صغيرة السِّنِ، واستطاع إدي أن يشعر بنهديها يضغطان ذراعه. للحظة عابرة خطرت له خاطرة مجنونة بأن المُمرِّضة هي بيڤرلي مارش، ثم انجرف غائبًا عن الوعي من جديد.

عندما جاءه الوعي هذه المرَّة كانت أمه في الغرفة، وتتحدَّث إلى دكتور هاندور بسُرعة ألف كلمة في الدقيقة. إن سونيا كاسبراك امرأة بادنة، وساقاها -الملفوفتان في رُباطٍ داعم- في حجم جذوع الأشجار لكنهما فائقتا النعومة. كان وجهها شاحبًا حاليًا، باستثناء بُقعتين تشتعلان احمرارًا على وجنتيها.

استطاع إدي أن يقول: «ما... بخير... أنا بخير».

تأوَّهت السيِّد كاسبراك قائلة: «لست كذلك.. لست كذلك»، وطقطقت أصابع يديها. سمع إدي مفاصلها تطق ويطحن أحدها الآخر، وبدأ يشعر بأنفاسه تتقطَّع وهو ينظر إليها، مستوعبًا الحالة التي هي فيها، وإلى أيٍّ مدى آذت مُغامرته الأخيرة هذه قلبها. كان يريد إخبارها أن تهوِّن على نفسها وإلا ستصاب بأزمة قلبية، لكنه لم يقوَ. كان حلقومه جافًّا تمامًا. «لست بخير، لقد أُصبت في حادثٍ خطير، شديد الخطورة، لكنك ستكون بخير، أعدك بذلك يا إدي. ستكون بخير، حتَّى لو اضطررنا لاستدعاء كل الأطباء المُتخصِّصين، أوه يا إدي... يا إدي... يا لذراعك المسكينة...».

ثم انفجرت في بكاءٍ عارم. لاحظ إدي أن المُمرِّضة التي نظَّفت له وجهه تنظر إليها دون تعاطفٍ كبير.

وفي خضم سيمفونية العويل هذه، كان الطبيب هاندور يتلعثم قائلًا: «سونيا... أرجوك، سونيا... سونيا...؟». كان رجُلًا نحيلًا أعرجَ الهيئة له شارب صغير مُشذَّب غير مستوٍ ولا ينمو جيِّدًا وأطول من اليسار عن اليمين. كان يبدو مُتوتِّرًا. تذكَّر إدي ما أخبره إيَّاه السيِّد كين في الصباح، وشعر بأسفٍ خاص على حال الطبيب هاندور.

في النهاية، مُستجمعًا شتات نفسه، استطاع روس هاندور أن يقول: «إذا لم تتمكَّني من السيطرة على نفسك، سيتوجَّب عليك المُغادرة يا سونيا».

استدارت سونيا نحوه فتراجع إلى الوراء، وقالت: «لن أفعل هذا، وإيَّاك أن تقترحه من الأساس! هذا ابني طريح الفراش مُعذَّب! ابني طريح هذا الفراش المصنوع من الألم!».

فاجئ إدي جميع من بالغُرفة عندما عثر على صوته وقال: «أريدك أن تُغادري يا ماما. إذا كانوا سيفعلون أشياء ستجعلني أصرخ -وهذا ما أظنُّ أنهم سيفعلونه- سيكون من الأفضل لو غادرتِ».

استدارت أمه مذهولة، ومطعونة. برؤية طعنة الألم هذه تشيع في ملامحها، شعر إدي بصدره ينقبض أكثر ودون توقُّف. صرخت أمه: «يا له من قولٍ شنيع يا إدي! أنت تهذي ولا تعي ما تقول! هذا التفسير الوحيد».

قالت المُمرِّضة: «لا أعرف ما التفسير ولا أهتم، كل ما أعرفه أننا نقف هنا دون أن نفعل شيئًا في حين أنه يجب علينا تجبير ذراع ابنك».

قالت سونيا وصوتها يرتفع إلى الطبقة البوقية العالية التي يصل إليها عندما تستشيط غضبًا: «هل تقولين إنني...».

قاطعها دكتور هاندور قائلًا: «من فضلك يا سونيا. لا داعي لخوض جدالٍ هنا. دعينا نساعد إدي».

تراجعت سونيا إلى الخلف، لكن عينيها -عينا أنثى دب يُهدِّدُ خطرٌ وليدها- وعدتا المُمرِّضة بمشكلة لاحقة، ورُبَّما دعوة قضائية كذلك.. ثم هدأت عيناها، واستطاعت إطفاء الغضب المُشتعل فيهما، أو أخفته على الأقل. أمسكت سونيا بيد إدي السليمة واعتصرتها بقوَّة مؤلمة جعلته يجفل.

قالت له: «إصابتك شديدة، لكنك ستتعافى مُجدَّدًا قريبًا. ستتعافى قريبًا، أعدك بذلك».

قال إدي بأنفاسٍ تُصفِّر: «بالتأكيد يا أمي. هل يمكنك إعطائي بخَّاخي؟».

قالت له: «بالتأكيد». نظرت سونيا كاسبراك إلى المُمرِّضة مُنتصِرة، كأنها بُرِّئت من تُهمة جنائية سخيفة، وقالت: «ابني مريض بالربو. إن حالته خطيرة، لكنه يتعايش معها بشكلٍ رائع».

قالت المُمرِّضة بنبرة باردة: «جميل».

أمسكت أمه البخَّاخ له كي يستطيع الاستنشاق منه. بعدها بلحظة كان

دكتور هاندور يتحسَّس ذراعه المكسورة. كان لطيفًا قدر الإمكان لكن الألم كان لا يزال رهيبًا. شعر إدي برغبة في الصراخ فصرَّ على أسنانه كي يكبح الصرخة. كان خائفًا من الصراخ كي لا تصرخ أمه بدورها. تفصَّد العرق من جبينه في قطراتٍ كبيرة واضحة.

قالت السيِّدة كاسبراك: «أنت تؤلمه، أشعر بذلك! لا داعي لفعل ذلك! توقَّف! لا داعي لإيلامه! إنه هش جدًا ولا يستطيع تحمُّل مثل هذا الألم!».

لاحظ إدي أن المُمرِّضة تنظر إليها بعينين تشتعلان غضبًا بالإضافة إلى عيني دكتور هاندور القلقتين المُتعبتين، واستمع إلى المُحداثة الصامته التي تدور بين الطبيبو المُمرِّضة.

أخرِج هذه المرأة من هنا يا دكتور.

لا أستطيع. لا أمتلك الشجاعة الكافية.

شعر إدي بشفافية عظيم في خضم الألم (رغم أنها لم تكن شفافية يرغب في اختبارها كثيرًا في المستقبل، فثمنها فادح)، وفي أثناء تلك المُحادثة الصامتة، تقبَّل إدي كل ما قاله له السيِّد كين سابقًا. بخَّاخه لا يمتلئ بأكثر من ماء صنبور مُنكَّه بالكافور، والربو ليس في حلقه أو رئتية بل في رأسه. بطريقة أو بأخرى سيتحتَّم عليه التعامل مع هذه الحقيقة.

نظر إدي إلى أمه، وشاهدها بجلاءٍ تام في خضم ألمه: كل زهرة مطبوعة على فُستانها ماركة لين بريانت. بقع العرف أسفل ذراعيها التي أغرقت الوسادات الماصَّة الصغيرة التي ترتديها. الشقوق البالية في فردتي حذائها. شاهد كيف تتموضع عيناها الصغيرتان في محجريهما المكتنزين باللحم، وطافت فكرة مُريعة لحظتها بباله: هاتان عينان ضاريتان تقريبًا، كعيني المجذوم الذي خرج زاحفًا من قبو المنزل رقم 29 في شارع نيبولت. ها أنا آتٍ... لن يفيدك الهرب يا إدي بأيِّ حال...

وضع دكتور هاندور يديه برفق على ذراع إدي المكسورة، واعتصرها.

تفجَّر الألم.

وغاب إدي عن الوعي.

أعطوه سائلًا ليشربه فيما راح دكتور هاندور يُجبِّر كسره. سمع إدي دكتور هاندور يخبر أمه أن الكسر أخضر ليِّن، وليس أخطر من أيِّ كسر طفولة آخر. قال لها: «إنه من تلك الكسور التي يُصاب الأطفال بها عندما يسقطون من فوق الأشجار»، وسمع إدي أمه تردُّ بغضب مُحتدٍّ: «إدي لا يتسلَّق الأشجار! الآن اخبرني بالحقيقة! ما مدى سوء حالته؟».

هنا جاءت المُمرِّضة وأعطته قرص دواء. شعر بنهديها على ذراعه من جديد وامتنَّ كثيرًا لضغطتهما المُريحة، وحتَّى في خضم هذيانه لاحظ أن المُمرِّضة غاضبة، وظنَّ أنه أخبرها: أمي ليست المجذوم، أرجوكِ لا تظنِّي ذلك. إنها تأكلني فقط لأنها تحبِّني، لكن الكلمات لم تخرج من فمه على الأرجح، لأن ملامح المُمرِّضة لم تتبدَّل.

الأشياء تتلاشى. كان سعيدًا أنها تتلاشى.. سعيدًا أنه يتلاشى. لقد ذهب الألم وذهبت الشفافية معه. لم يشعر برغبة في التفكير. كان يريد الانجراف بعيدًا. كان يشعر أن ذراعه اليُمنى أضحت ثقيلة جدًّا، وتعجَّب ما إذا كانوا وضعوها في الجبيرة بالفعل أم ليس بعد. لم يكن يستطيع رؤية ما إذا كانوا وضعوها في جبيرة أم لا. كان بالكاد يعي أصوات الراديو في الغُرف المُجاورة، بالمرضى الذين يبدون كأشباح في إزاراتهم السريرية وهم يسيرون جيئة وذهابًا في الممرَّات، بحرارة الجو الشديدة... الشديدة جدًّا. عندما أدخلوه إلى هذه الغُرفة مُمدَّدًا فوق الفراش ذي العجلات، شاهد أشعة الشمس البرتقالية الغاضبة تتسلَّل من النافذة في دائرة كبيرة، وفكَّر مُشوَّشًا: ككُرية برتقالية عملاقة في حُلَّة مُهرِّج.

- «هيَّا يا إدي، يمكنك المشي». هكذا أخبره صوتٌ ما، ووجد أنه قادرٌ على المشي بالفعل. كان ينزلق من فوق أغطية باردة ناعمة. أخبره الصوت أنه سيتألم قليلًا ليلًا، لكن لا داعي لتناول أيِّ مُسكِّنٍ إلا إذا اشتدَّ الألم عليه تمامًا. طلب إدي كأسًا من الماء. جاءه كوب به شفَّاطة حلزونية قابلة للطي

من منتصفها ليستطيع ثنيها كما يشاء. كان الماء مُنعشًا وجيِّدًا، فشربه إدي كله.

زاره الألم بالفعل ليلًا... ألمٌ غيرِ هيِّن في الحقيقة. ظلَّ إدي مُستلقيًا في فراشه، مُمسكًا بزرِّ الاستدعاء في كفِّه الأيسر، لكنه لم يضغطه. ثمَّة عاصفة رعدية تدور في الخارج، وعندما ومض البرق بضوءٍ أبيض مزرق، أشاح برأسه بعيدًا عن النافذة خوفًا من رؤية وجهٍ وحشي مُبتسم مطبوع على صفحة السماء في العاصفة المشحونة بالطاقة الكهربائية.

في النهاية راح في النوم، وفي أثناء نومه شاهد حُلمًا. فيه، رأى بيل وبن وريتشي وستان ومايك وبيڤ -أصدقاءه- يأتون إلى المُستشفى على درَّاجاتهم، وريتشي يركب خلف بيل على سيلڤر. تفاجئ من رؤية بيڤرلي ترتدي فُستانًا أخضر مُحببًا، بلون البحر الكاريبي كما يظهر في لوحات ناشيونال چيوجرافيك. لا يستطيع تذكُّر إن كان قد رآها بفُستانٍ من قبل، كل ما يتذكَّره هو الچينز والسراويل القصيرة وما تُطلق عليه الفتيات «زي المدرسة»: التنورات والبلوزات. البلوزات التي عادةً ما تكون بيضاء بياقاتٍ مُستديرة، والتنورات التي ما تكون بُنِّية عادةً وبطيَّات في منتصفها، كي لا تظهر الخدوش على رُكبهن.

في الحلم رآهم يأتون في الثانية ظهرًا في أوقات الزيارة الرسمية، وقد استقبلتهم أمه -التي كانت جالسة تنتظر منذ الحادية عشرة- بصياحٍ وجلبة عالية جدًّا جعلت عيون الجميع تنظر إليها.

إذا كنتم تظنون أنكم ستدخلون لرؤيته الآن، فمن الأفضل أن تُفكِّروا مُجدَّدًا! هكذا صاحت أمه. ثم فجأة قفز المُهرِّج الذي كان يجلس في غُرفة الانتظار منذ البداية في الزاوية -وثمَّة عددٌ من مجلة لوك مرفوع أمام وجهه أخفاه حتَّى اللحظة- وراح يصفِّق كثيرًا وسريعًا جدًّا بطريقة ساخرة، بكفَّيه المدسوسين في قُفَّازين أبيضين. راح المُهرِّج يعربد ويرقص.. ها هو يتظاهر بجر عربة، ها هو يقفز مُلتفًّا في دورة كاملة في الهواء فيما تواصل السيِّدة كاسبراك توبيخها لأصدقاء إدي الذين راحوا ينكمشون واحدًا تلو الآخر خلف بيل، الذي وقف وحيدًا شاحبًا لكن رابط الجأش ويداه مدسوستان عميقًا في جيبي سراويله الچينز (رُبَّما كي لا يرى أحدٌ أنهما ترتجفان، ولا

حتَّى هو نفسه). بخلاف إدي، لم يرَ أحدهم المُهرِّج... لكن كان هناك رضيع نائم بسلام بين ذراعي أمه وقد استيقظ فجأة وبدأ يبكي بحرقة.

كانت أم إدي تصيح: لقد تسببَّتم في إضراره بما فيه الكفاية! أنا أعرف أولئك الفتية الذي اعتدوا عليه! إنهم في مأزِق في المدرسة، ويعانون مُشكلاتٍ مع الشُرطة! لكن ليس لأنهم يحملون ضغينة نحوكم، يجب أن يحملوا ضغينة نحوه. لقد أخبرته بذلك، ووافقني، وطلب مني إخباركم أن تغادروا، وأنه لم يعد يريد رؤية أيٍّ منكم مرَّة أخرى في حياته. لا يريد صداقتكم هذه على الإطلاق ثانيةً! لا يريد صداقة أيًّا منكم! كنت أعرف أن تسكُّعه معكم سيجره إلى مُشكلات، وانظروا ماذا حدث! صغيري إدي في المُستشفى! صبي بهشاشته قد...

واصل المُهرِّج وثبه ورقصه، ثم وقف مقلوبًا على يدٍ واحدة. كانت ابتسامته حقيقية تمامًا الآن، وفي حلمه أدرك إدي أن هذا ما يريده المُهرِّج بالتأكيد: أن يُدقَّ وتدًا كبيرًا بينهم، كي يُفرِّق شملهم ويُدمِّر أيَّ احتمالٍ لعملٍ منسَّقٍ مُتضافر، وفي نشوته القذره هذه، تدحرج المُهرِّج مرَّتين وتظاهر بأنه يلثم خدَّ أمه.

كان بيل يقول: أ-أ-أولئك الفـ-فـ-فـتية الذ-ذ-ذين فـ-فـ-فعلوها...

صرخت السيِّدة كاسبراك: إيَّاك أن ترد عليّ! إيَّاك أن تجرؤ وتتحدَّث إليّ! إدي لا يريد معرفتك! انتهى الأمر!

هنا جاء طبيب تحت التمرين راكضًا إلى غرفة الانتظار وأخبر أم إدي أنها يجب أن تصمت أو تغادر المُستشفى. بدأ المُهرِّج يتلاشى، يختفي، وفي أثناء تلاشيه بدأ يتبدَّل. شاهد إدي المجذوم، والمومياء، والطائر.. شاهد المُستذئب ومصاص الدماء ذا الأسنان الحادَّة كالأمواس المغروسة عميقًا في اللثة بزوايا غير منتظمة تبدو كمتاهة مرايا قاتلة، حيث خطوة واحدة خاطئة يمكنها أن تقطعك إلى نصفين. شاهد فرانكنشتاين، ومخلوق البحيرة السوداء، وشيئًا آخر هلامي أشبه بمحَّارة تُفتح وتُغلق كفم شرهٍ. شاهد عشرات الأشياء الأخرى المُريعة.. بل المئات.. لكن قبل أن يتلاشى المُهرِّج بالكامل، شاهد أكثر الأشياء ترويعًا على الإطلاق: شاهد وجه أمه.

حاول إدي الصراخ: لا! لا! لا، ليس هي! ليس أمي!

لكن أحدًا لم ينظر حوله، أحدًا لم يسمعه.. وفي لحظات تلاشي الحلم، أدرك إدي مذعورًا أنهم لا يستطيعون سماعه. كان ميّتًا. لقد قتله الشّيء وهو الآن ميِّت. إنه شبح.

5

تبخَّر انتصار سونيا كاسبراك الحلو اللاذع بطرد ما ينعتهم إدي بأصدقائه في اللحظة التي خطت فيها إلى حجرة إدي في عصر اليوم التالي تقريبًا.. يوم الواحد والعشرين من يوليو. لم تعلم سونيا تحديدًا لماذا تلاشى شعورها بالانتصار هكذا، ولا لِمَ حلَّ محلَّه خوفٌ مُقلق. كان هذا بسبب شيءٍ ما لاح في وجه ابنها الشاحب الذي لم يكن يُكدِّره ألمٌ ولا قلقٌ، بل تعبير آخر لا تتذكَّر أنها رأته من قبل في حياتها. كان تعبيرًا حادًّا نوعًا ما.. حادًّا ومُنذرًا وعازمًا.

لم تحدث المواجهة بين أصدقاء إدي وأمه في غرفة الانتظار كما في حلم إدي. كانت أمه تعلم بقدومهم. «أصدقاء» إدي الذين -على الأرجح- يُعلِّمونه تدخين السجائر بالرغم من مرضه بالربو، «أصدقاؤه» الذين يسيطرون على تفكيره بشكل غير صحي لدرجة أنه لا يتكلم عن شيءٍ آخر سواهم عندما يعود إلى المنزل مساءً، «أصدقاؤه» الذين تسبَّبوا في كَسر ذراعه. لقد أخبرت جارتها السيِّدة ڤان بريت بكل هذا بل وأكثر وهي تقول: «لقد حان وقت كشف بعض الأوراق على الطاولة». عثرت السيِّدة ڤان بريت التي كانت تعاني مشاكل جمَّة في جِلدها، والتي دائمًا ما كانت توافق كل ما تقوله سونيا كاسبراك بحماسة تُثير الشفقة، على ما يكفي من الجرأة التي مكَّنتها من الاختلاف معها في هذا الموقف.

قالت لها السيِّدة ڤان بريت وهما تُعلِّقان ملابسهما المغسولة في الصباح الباكر قبل ذهابها إلى العمل: «ظننتك ستكوني سعيدة لأنه عقد بعض الصداقات. سيكون في مأمنٍ أكثر بصحبة أولاد آخرين يا سيِّدة كاسبراك، ألا تظني ذلك؟ في ظل كل ما يجري في البلدة، وكل أولئك الأطفال المساكين الذين قُتلوا؟».

كان ردَّ السيِّدة كاسبراك الوحيد هو شخرة غاضبة من منخارها (في الحقيقة لم يخطر لها وقتها ردًّا لفظيًّا مناسبًا، رغم أنها فكَّرت لاحقًا في عشراتٍ منها، بعضها قاطع تمامًا)، وعندما اتَّصلت بها السيِّدة ڤان بريت ذلك المساء -والقلق بائن في صوتها- كي تسألها إن كانت سترافقها إلى متجر بينو للمُكمِّلات الغذائية الكائن في شارع سانت ماري كالعادة، أجابتها السيِّدة كاسبراك ببرود أنها تُفضِّل المكوث في المنزل هذا المساء والاسترخاء.

كانت تأمل أن تكون السيِّدة ڤان بريت راضية الآن. كانت تأمل أن السيِّدة ڤان بريت ترى الآن أن المهوَّس الجنسي الذي يقتل الأطفال والرُّضَّع ليس الخطر الوحيد الطليق في ديري هذا الصيف. ها هو ابنها، طريح فراش الألم في مُستشفى ديري العام، رُبَّما لن يستطيع استخدام ذراعه مرَّة أخرى. لقد سمعت أمورًا كهذي من قبل؛ أو -لا سمح الله- قد تسير شظايا من الكسر في مجرى دمه وتصل إلى قلبه وتخترقه وتقتله، أوه بالتأكيد لن يسمح الله بحدوث ذلك، لكنها سمعت مثل هذه الأمور من قبل، لذا فإن ذلك الرب الذي تدعوه يسمح بحدوث أمورٍ كهذي.. في حالاتٍ مُعيَّنة.

وبالتالي تلكَّأت سونيا جالسة على دكَّة في شُرفة المُستشفى الأمامية الطويلة الظليلة، عالمة أنهم سيأتون، وعازمة على وضع حدٍّ قاطع لهذه «الصداقة» المزعومة إلى الأبد.. هذه الصداقة الحميمة التي تنتهي بأذرعٍ مكسورة وسرائر في المُستشفى.

وأخيرًا وصلوا، كما توقَّعت، وقد أثار ذعرها أن أحدهم زنجي. هذا لا يعني أنها تحمل أيَّ ضغينة تجاه الزنوج. كانت سونيا ترى أن لهم كل الحق في ركوب الحافلات المُتَّجهة جنوبًا كما شاءوا، وتناول الغداء في المطاعم مع البيض، كما يجب ألا يُعزلوا في أماكن خاصة بالزنوج في دور العرض إلا لو أزعجوا

(النساء)

المواطنين البيض، لكن كانت تحمل أيضًا اعتقادًا راسخًا بما كانت تُسمِّيه نظرية الطيور: الطيور السوداء تُحلِّق مع الطيور السوداء الأخرى، لا عصافير أبو حنَّاء. السوادية تُعشِّش مع السوادية، ولا تختلط مع العصافير الزرقاء ولا

العنادل. الطيور على أشكالها تقع، كان هذا شعارها، لذا كانت رؤية مايك هانلون يأتي راكبًا درَّاجته بصحبة الآخرين تجعل تصميمها -كما غضبها وفزعها- يتضاعف سريعًا. فكَّرت موبِّخة كأن إدي يسمعها: لم تخبرني من قبل أن أحد «أصدقائك» زنجي.

حسنًا، بعدها بعشرين دقيقة، عندما دخلت إلى غُرفة المُستشفى حيث يستلقي ابنها بذراع موضوعة في جبيرة عملاقة مربوطة إلى صدره (كان مُجرَّد النظر إليها يؤلمها)، ظنَّت أنها تمكَّنت منهم وأنها استطاعت طردهم بمنتهى السهولة... لا حاجة لتورية الأمر. لم يتجرَّأ أحدهم -باستثناء صبي آل دِنبروه، ذلك الذي يعاني تأتأة مُريعة- على مُجرَّد الرَّد عليها أو مناطحتها بالكلام. لقد ظلَّت الفتاة ترمقها -أيًّا من كانت- بنظرة لعوبة غَنِجة تدل على أصلٍ حقير من جنوب الشارع الرئيس، أو مكانٍ أسوأ في تصوُّر سونيا كاسبراك، لكنها أبقت على فمها مُغلقًا بحكمة. إذا كانت قد تجرَّأت وتلفَّظت بحرفٍ واحد، كانت سونيا ستقول لها جزءًا بسيطًا من رأيها فيها. كانت ستخبرها أيُّ نوعٍ من الفتيات يتسكَّع مع الصبية. توجد نعوت لمثل هذه الفتيات، وهي لن تسمح أن يرتبط ابنها -الآن أو في أيِّ وقتٍ آخر- بفتيات ممَّن تنعتن بهذه النعوت.

الآخرون لم يفعلوا ما هو أكثر من النظر إلى أقدامهم المتوتِّرة. هذا ما كانت تتوقَّع حدوثه.. وعندما انتهت ممَّا أرادت قوله، أمسك كلٌّ منهم درَّاجته ورحل. أخذ الصبي دِنبروه الصبي توزييه خلفه على درَّاجه عملاقة تبدو غير آمنة، وفي قرارة نفسها تساءلت السيِّدة كاسبراك كم مرَّة ركب إدي فيها خلفه على هذه الدرَّاجة الخطرة، مُخاطرًا بذراعيه وساقيه ورقبته وحياته.

فكَّرت سونيا وهي تسير عائدة إلى المُستشفى مرفوعة الرأس على نحوٍ صارم: لقد فعلت هذا من أجلك يا إدي. أعلم أنك قد تشعر ببعضٍ من خيبة الأمل في البداية.. هذا طبيعي تمامًا. لكن الآباء يعلمون مصلحة أبنائهم أكثر. السَّبب الذي من أجله خلق الرَّب الآباء في المقام الأوَّل هو الإرشاد، والتقويم... والحماية. لسوف يفهم بعد خيبة أمله الأولية، وإذا كانت تشعر براحة مُعيَّنة الآن، فهي بالتأكيد تشعرها نيابةً عن إدي لا عن نفسها. الراحة تأتي فقط عندما ينقذ المرء ابنه من أصدقاء السوء.

إلا أن إحساس الراحة هذا بدأ يشوبه قلقٌ الآن وهي تنظر إلى وجه إدي. إنه ليس نائمًا كما ظنَّته سيكون. وبالرغم من جُرعة المُخدِّر والدواء التي يتلقَّاها والتي من المُفترض أن تجعله يستفيق مشوَّشًا ودائخًا وهشًّا، توجد هذه النظرة الحادَّة المؤرِّقة المختلفة تمامًا عن نظرة إدي الرقيقة المُعتادة. كان إدي كبن هانسكوم -رغم أن سونيا لا تعلم ذلك- من الأطفال الذين ينظرون إلى الوجوه بشكلٍ خاطف، كما لو أنه يختبر الطقس الشعوري الذي يختمر فيها قبل أن يشيح بنظره بعيدًا بذات السُرعة. لكنه ينظر إليها الآن بثبات (رُبَّما هي الأدوية التي يأخذها، يجب أن أعرف رأي دكتور هاندور في هذه الأدوية، هكذا فكَّرت)، وقد وجدت نفسها هي التي تشعر برغبة في الإشاحة ببصرها بعيدًا. إنه يبدو كأنه ينتظرني، هكذا فكَّرت سونيا، وقد كانت تلك فكرة يُفترض أن تجعلها سعيدة. الطفل الذي ينتظر أمه هو بالتأكيد أحد أعذب مخلوقات الله وأحبها إليه و...

- «لقد طردتِ أصدقائي». خرجت الكلمات باردة من فمه، لا تحمل أدنى شكٍّ أو تساؤل.

أحجمت سونيا شاعرة بالذنب تقريبًا، وبالتأكيد كانت أوَّل فكرة تُومض في عقلها مُذنبة: كيف عرف ذلك؟ هذا مُستحيل! وفجأة شعرت بالغضب من نفسها (ومنه) لشعورها بمثل هذا الشعور. لذا ابتسمت له.

- «كيف حالك اليوم يا إدي؟».

هذا هو الرَّد المُناسب. لقد وشى أحدهم بها. ثمَّة واشٍ هنا. أحد المتطوِّعين أو رُبَّما تلك المُمرِّضة الخصيمة غير المؤهَّلة التي كانت موجودة بالأمس.

- «كيف حالك؟». سألته ثانيةً عندما لم تتلقَّ ردًّا. ظنَّت أنه لم يسمعها. لم تقرأ سنويا من قبل في أيٍّ من أدبياتها الطبية أن كسر الذراع قد يؤثِّر على السمع، لكنها خمَّنت أن هذا جائز.. أيُّ شيءٍ جائز.

إدي ما زال لا يرد.

توغَّلت أكثر في الغُرفة، كارهة الشعور المُتردِّد الخجول تقريبًا داخلها، ومُرتابةٌ فيه لأنها لم تشعر بالتردُّد أو الخجل في حضرة إدي من قبل. شعرت

أيضًا بالغضب، رغم أنه كان لا يزال شعورًا وليدًا. ما السُلطة التي يمتلكها ابنها ليجعلها تشعُر بمثل هذا الشعور، بعد كان ما فعلته له، بعد كا ما ضحَّت به من أجله؟

– «لقد تحدَّثت إلى دكتور هاندور، وهو يؤكِّد لي أنك ستكون على ما يُرام». قالتها سونيا سريعًا، وهي تجلس إلى الكُرسي الخشبي منتصب الظهر الموجود جوار الفراش. «بالطبع لو حدثت أدنى مُشكلة، سنذهب لرؤية مُتخصِّص في بورتلاند. أو في بوسطن حتَّى إذا تطلَّب الأمر». ثم ابتسمت كأنها تؤدي له خدمة كبيرة. لم يبادلها إدي الابتسامة، واستمر في صمته.

– «إدي، هل تسمعني؟».

كرَّر قائلًا: «لقد طردتِ أصدقائي».

قالت له: «أجل»، مُنهية التظاهر، ولم تزد شيئًا. لُعبة الصمت هذه يمكن أن يلعبها اثنان.. لذا ظلَّت ببساطة ترمقه.

لكن هنا حدث أغرب الأشياء طرًّا. حدث شيءٌ مُريع حقًّا. بدا أن عيني إدي تكبران بطريقةٍ ما. بدت البقع الرمادية فيهما كأنها تتحرَّك بالفعل، كسُحُبٍ رعدية، وفجأة أدركت سونيا أنه ليس «مُستاءً»، أو «منزعجًا» أو أيًّا من هذه الأمور، بل يحمل غضبًا هائلًا منها ونحوها، وشعرت سونيا فجأة بالخوف، فقد بدا أن هناك شيئًا آخر غير ابنها معها في الغرفة. خفضت المرأة بصرها، وبدأت تبحث في حقيبتها عن منديلٍ ورقي.

قالت له: «أجل، لقد طردتهم»، ووجدت أن صوتها قويًّا بما يكفي وواثقًا بما يكفي ما دامت لا تنظر له. «أنت تضررت ضررًا بالغًا يا إدي، ولست في حاجة إلى زوَّارٍ بخلاف أمك، فضلًا عن أنك لست في حاجة إلى مثل أولئك الزوَّار على الإطلاق. لولاهم لكنت الآن في المنزل تشاهد التلفاز، أو تصنع سيَّارة سباق من صندوق الصابون في المرآب».

كان إدي يحلم بصنع سيَّارة سباق من صندوق الصابون واصطحابها إلى بانجور. إذا حدث وفاز بالسباق هناك، سيفوز برحلة مدفوعة التكاليف إلى أكرون في أوهايو للاشتراك في السباق الوطني. كانت سونيا مُستعدَّة تمامًا للسماح له بهذا الحلم ما دامت مهمة إكمال سيَّارة السباق –تلك المصنوعة

من صناديق البرتقال، ومزوَّدة بعجلاتٍ آتية من سيَّارات الأطفال- مُجرَّد حلم. لم يكن لديها نيَّة بالتأكيد أن تسمح لإدي بالمخاطرة بحياته في مثل هذه البدعة الخطيرة؛ لا في ديري، ولا في بانجور، وبالتأكيد ليس في أكرون، التي (كما أخبرها إدي) سيتطلَّب الوصول إليها ركوب طائرة، فضلًا عن الاشتراك في اندفاع جنوني أسفل تلَّة مُنحدرة في صندوق برتقال مزوَّد بعجلات وعديم مكَابح. لكن -كما كانت أمها تقول- ما لا يعرفه المرء لا يمكن أن يؤذيه (كانت أمها أيضًا تقول: «قولي الحقيقة وأَخزِي الشيطان»، لكن عندما كان الأمر يأتي إلى تذكُّر الأمثال، تستطيع سونيا أن تكون انتقائية كحال معظم الناس).

قال إدي بالصوت البارد نفسه: «لم يكسر أصدقائي ذراعي. لقد أخبرت دكتور هاندور بذلك كما أخبرت السيِّد نيل عندما جاء هذا الصباح. هنري باورز من كسر ذراعي. كان معه فتية آخرون، لكن هنري باورز من فعلها. إذا كنت برفقة أصدقائي، لم يكن ذلك سيحدث أبدًا. لقد حدث لأنني كنت وحيدًا».

جعلها كلامه تُفكِّر في تعليق السيِّدة ڤان بريت عن كيف أن الأمر أكثر أمانًا إذا كان لدى المرء أصدقاء، وقد أعاد لها ذلك الغضب الساطع. رفعت رأسها سريعًا وقالت: «هذا لا يهم وأنت تعرف ذلك! ماذا تظن يا إدي؟ أن أمك ابنة الأمس؟ أهذا ما تظنه؟ أنا أعرف جيِّدًا لماذا كسر فتى آل باورز ذراعك. لقد جاء هذا الشُرطي الأيرلندي السخيف إلى منزلنا أيضًا. لقد كسر ذلك الفتى ذراعك لأن طرقك أنت و'أصدقائك' تقاطعت معه بشكلٍ أو بآخر. الآن، هل تظن أن ذلك كان سيحدث لو أنصتَّ إليَّ من البداية وبقَيت بعيدًا عنهم في المقام الأوَّل؟».

قال إدي: «لا. أعتقد أن أمرًا أسوأ كان سيحدث».

- «إدي، أنت لا تعني هذا الكلام».

قال لها: «بل أعنيه»، وشعرت سونيا بتلك القوَّة تخرج منه جديد، تخرج منه في موجات. «بيل وباقي أصدقائي سيعودون يا أمي. أنا أعرف ذلك، وحين سيعودون، لن تعترضي طريقهم. لن تتفوَّهي بكلمة لهم. إنهم

أصدقائي، وأنت لن تسلبي مني أصدقائي لمُجرَّد أنك خائفة من أن تكوني وحيدة».

حدَّقت سونيا إليه، مذهولة ومرعوبة. اغرورقت عيناها بالدموع وسالت على وجنتيها مُبلِّلة مسحوق التجميل، ثم قالت بين دموعها: «هذه هي الطريقة التي تتحدَّث بها إلى أمك الآن. رُبَّما هذه الطريقة التي يتحدَّث بها 'أصدقاؤك' إلى ذويهم. أظنُّ أنك تعلَّمتها منهم».

كانت تشعر بأمانٍ أكثر وهي تبكي. عادةً يبكي إدي بدوره عندما تبكي. قد يقول البعض إن هذا أسلوب رخيص، لكن أيوجد حقًّا أيُّ أساليب رخيصة عندما يتعلَّق الأمر بحماية ابنتها؟ لم تكن تظن ذلك.

نظرت إليه والدموع تنسال من عينيها، شاعرة بمزيجٍ من الحزن والثكل والخيانة... والتأكُّد. لن يستطيع إدي الصمود في وجه هذا الفيض من الدموع. ستغادر هذه النظرة الحادَّة الباردة وجهه، ورُبَّما سيبدأ في الشهيق والصفير قليلًا، وستكون هذه علامة أن العراك انتهى وأنها حقَّقت انتصارًا آخر... لمصلحته، بلا شك. كل شيءٍ لمصلحته.

لكن صدمتها رؤية التعبير ذاته على وجهه دون أن يتبدل، وإن تبدل بالفعل، فقد ازداد عُمقًا لدرجة أن جعلها تختنق بعبراتها. ثمَّة أسى أسفل ذلك التعبير، لكن حتَّى ذلك الأسى يُخيفها: لقد راعاها بطريقةٍ أو بأخرى كأنه عبء شخصٍ بالغ، والتفكير في إدي كشخصٍ بالغ لطالما أثار ذعر سونيا وطيَّر صواب تفكيرها. هذا التفكير الذي ينهشها في مناسباتٍ عديدة عندما تتساءل ماذا سيحدث لها إذا قرَّر إدي عدم رغبته في ارتياد كلية التجارة في ديري أو جامعة ولاية مين في أورونو أو جامعة هوسون في بانجور كي تتسنَّى له العودة كل يوم بعد انتهاء مُحاضراته. ماذا سيحدث لو قابل فتاة، ووقع في الحب، وأراد الزواج؟ ما مصيري في كل ذلك؟ هكذا كان طائرٌ مزعج ينعق في رأسها عندما تراودها تلك الأفكار الكابوسية. أين مكاني في حياةٍ كهذي؟ أنا أحبك يا إدي! أحبك! أنا أعتني بك وأحبك! أنت لا تعرف كيف تعد طعامك، أو تغيير أغطية فراشك، أو غسل ملابسك الداخلية! لماذا يجب عليك معرفة هذه الأشياء؟ أنا أفعلها نيابةً عنك! لأنني أحبك.

كان إدي يُحدِّث نفسه الآن قائلًا: «أنا أحبك يا أمي. لكنني أحب أصدقائي أيضًا. أعتقد... أعتقد أنك ترغمين نفسك على البكاء».

همست قائلة: «أوه يا إدي، لكم تجرحني»، وتضاعف كمُّ الدموع الطازجة التي تسيل على وجهها الشاحب ثلاثة أضعاف. إذا كانت دموعها منذ لحظات محسوبة، فهي لم تعد كذلك. لقد كانت سونيا امرأة قويَّة بطريقتها الخاصة الغريبة. لقد شاهدت زوجها يهبط إلى قبره ولم تتحطَّم، وحصلت على وظيفة في سوق الوظائف الكاسد عندما كان من الصعب إيجادُ واحدة، وربَّت ابنها بمفردها، بل حاربت من أجله عندما كانت الضرورة تقتضي. هذه أوَّل دموع صادقة وغير محسوبة تذرفها منذ سنوات، رُبَّما منذ أن أُصيب إدي بالتهاب الشعب الهوائية وهو في الخامسة من عمره، عندما كانت واثقة تمامًا أنه سيموت في فراشه متوهِّجًا بالحُمَّى، وهو يسعل ويصيح ويشهق طلبًا لأنفاسه. إنها تبكي الآن بسبب ذلك التعبير الراشد الغريب نوعًا الذي يلوح على وجهه. كانت خائفة عليه، لكنها أيضًا -بطريقةٍ ما- خائفة منه.. خائفة من تلك الهالة المُحيطة به، التي يبدو أنها تُطالبها بشيءٍ ما.

قال إدي بصوتٍ متفاوت، متوتِّر، لكنه تحت السيطرة: «لا تجبريني على الاختيار بينك وبين أصدقائي يا أمي، لأن هذا ليس عدلًا».

بكت شبه مسعورة: «إنهم أصدقاء سوء يا إدي! أنا أعرف ذلك، وأشعر به من كل قلبي. إنهم لن يجلبوا لك سوى الألم والأسى!». كان أسوأ ما في الأمر كله أنها تشعر بذلك بالفعل. لقد أخبرها حدسها بذلك من عيني صبي آل دِنبروه الذي وقف أمامها ويداه في جيبيه وشعره الأحمر يتوهَّج أسفل شمس الصيف. كانت عيناه شديدتي الغموض والغرابة والشرود، كعيني إدي الآن.

ألم تكن تلك الهالة نفسها تحيط به كما تحيط بإدي الآن؟ هي نفسها، بل أكثر قوَّة؟ فكَّرت سونيا أن نعم.

- «أمي...».

نهضت سونيا بسرعة كبيرة حتَّى كاد أن تطيح بالكُرسي الخشبي خلفها، وقالت: «سأعود إليك في المساء. إنها الصدمة، الحادث، الألم، هذه الأشياء هي التي تجعلك تتحدَّث معي بهذه الطريقة. أعرف ذلك. لقد... لقد...».

بحثت في عقلها وعثرت على التعبير المُناسب الأصيل وسط تخبُّط وارتباك عقلها. «لقد تعرَّضت لحادثٍ أليم، لكنك ستتعافى، وعندها ستعلم أنني على حق يا إدي. إنهم أصدقاء سوء. إنهم ليسوا مثلنا. ليسوا مثلك. فكِّر في الأمر واسأل نفسك إن كانت أمك أخبرتك بغير الحقيقة من قبل. فكِّر في الأمر و... و...».

فكَّرت سونيا في ذُعرٍ مُسقم ومُؤلم: أنا أهرب. أنا أهرب من مواجهة ابني! يا إلهي، امنع عنا شر قضائك!

- «أمي...».

لوهلة كادت أن تفر هاربة. كانت تهابه الآن، أجل، إن ما أمامها ليس إدي فحسب. إنها تشعر بالآخرين في حضوره، تشعر بـ «أصدقائه» وبشيءٍ آخر، شيءٍ أكبر منهم جميعًا، وكانت خائفة من أن يتجلَّى لها. الأمر كأنه في قبضة شيءٍ ما، حُمَّى ما مروِّعة، مثلما وقع في قبضة التهاب الشعب الهوائية عندما كان في الخامسة، عندما كاد أن يموت.

توقَّفت سونيا، واضعة يدها على مقبض الباب، غير راغبة في سماعِ ما سيقوله؛ وعندما قاله، كان الأمر مُباغتًا تمامًا لدرجة أنها لم تستوعبه حقًّا.. وعندما هبط الفهم عليها، هبط كحمولة من الأسمنت على رأسها، ولوهلة ظنَّت أنها ستفقد وعيها.

قال إدي: «أخبرني السيِّد كين أن دواء الربو الذي أستخدمه مُجرَّد ماء صنبور».

استدارت سونيا إليه بعينين مُتَّقدتين: «ماذا؟ ماذا؟».

قال لها: «مُجرَّد ماء، مُضاف إليه مادَّة لتكسبه طعم الدواء. إنه بلاسيبو».

- «هذا كذب! ليس هذا إلا محض كذب! لماذا سيقول لك السيِّد كين شيئًا كهذا؟ حسنًا، توجد صيدليات أخرى في ديري، أظنُّ، أظنُّ...».

قال إدي بهدوء وصلابة دون أن تفارق عيناه عينيها: «لقد أخذت وقتي في التفكير في الأمر، وأظنُّ أنه أخبرني بالحقيقة».

قالت له وقد عاودها الذُعر والارتباك: «إدي، أقول لك إنه غير صادق».

قال إدي: «أعتقد أن كلامه يجب أن يكون صدقًا وإلا لكان سيوجد تحذير

ما على العبوَّة، تحذير يخبرك أنك لو تناولت جرعة زائدة منه قد تموت أو تمرض على الأقل. حتَّى...».

قالت سونيا باكية وهي تصفع كفَّيها على أذنيها: «إدي، لا أريد سماع ذلك! أنت... أنت... أنت لست أنت، هذا كل ما في الأمر!».

واصل إدي دون أن يرفع صوته: «حتَّى الأدوية التي تباع دون وصفة طبية يضعون عليه إرشادات خاصة». كانت عيناه الرماديتان تقعان عليها، ولم يبد أنها قادرة على خفض نظرتها، أو حتَّى تحريكها: «حتَّى لو كان الدواء ڤيكس شراب السُعال، أو الجريتول الذي تستخدمينه».

صمت إدي وهلة. أنزلت سونيا يديها من على أذنيها. كان الإمساك بهما يجهدانها كثيرًا، كأنهما تزنان أطنانًا.

- «ويبدو أنك كنت تعلمين هذا بدورك يا أمي».

ناحت سونيا تقريبًا: «إدي!».

واصل إدي بجبين مُقطب كأنها لم تتفوَّه بشيءٍ مُشدِّدًا على المُشكلة: «لأن الآباء يُفترض أنهم يعرفون جيِّدًا الدواء الذي يتناوله أبناؤهم. حسنًا، أنا أستخدم البخَّاخ خمس أو ست مرَّات يوميًّا. لم تكوني لتسمحي لي فعل ذلك إذا شَعَرتِ أنه من الممكن أن يضرني. لأن عملك حمايتي. أعرف هذا لأن ذلك ما تقولينه لي دائمًا. لذا... هل كنت تعرفين يا أمي؟ هل كنت تعرفين أنه مُجرَّد ماء؟».

لم تتفوَّه سونيا بشيءٍ. ارتعشت شفتاها، وشعرت بأن وجهها بأكمله يرتعش. لم تعد تبكي. كانت تشعر بخوفٍ هائل يمنعها من أن تبكي.

قال إدي وهو ما زال عابسًا: «لأنك إذا كنت تعرفين، إذا كنت تعرفين حقًّا، فأريد معرفة السَّبب. أستطيع فهم بعض الأشياء، لكنني لا أستطيع فهم لماذا ترغب أمي في إيهامي بأن الماء دواء... أو أنني مُصاب بربوٍ هنا» قالها وأشار إلى صدره «في حين أن السيِّد كين يقول إنني مُصاب به هنا»، وأشار إلى رأسه.

شعرت أنها ستُفسِّر له كل شيءٍ حينها. ستفسِّر له كل شيءٍ بهدوء ومنطقية. كيف اعتقدت أنه كان سيموت وهو في الخامسة، وكيف أن هذا كان سيدفعها للجنون بعدما فقدت فرانك قبلها بعامين فقط. كيف أدركت

أنه لا من وسيلة لحماية الأبناء إلا من خلال الحنان والحب، وكيف أنه يجب على المرء العناية بولده كما يعتني بحديقته، ويخصِّبها، ويزيل عنها الأعشاب الضارة... وأجل، يُقلِّمها ويجزها أحيانًا، بالرغم من الألم. كانت ستخبره أن من مصلحة الطفل أحيانًا -خاصةً لو كان طفلًا هشًّا كإدي- أن يظن أنه مريض بدلًا من أن يمرض بالفعل، وكانت ستنهي كلامها بالحديث عن حماقة الأطباء المميتة وقوَّة الحب الرائعة. كانت ستخبره أنها تعلم بأنه مريض ربو، ولا يهم ما يعتقده الأطباء أو ما يعطونه له. كانت ستقول له إنها تستطيع صنع دواء دون الحاجة إلى شعوذة صيدلي خبيثة. كانت ستقول له: إدي، إنه دواء لأن حب أمك يجعله دواءً، وأنا أستطيع الاستمرار في حبك ما دمت تسمح لي. هذه القوَّة التي منحها الرَّب إلى الأمهات المُحبَّة. أرجوك يا إدي، أرجوك، إن قلبي عامر بالحُب، يجب أن تُصدِّقني.

لكنها في النهاية لم تقل شيئًا، فقد كان ذعرها منه هائلًا.

واصل إدي: «لكن رُبَّما ليس من اللازم علينا التحدُّث عن الأمر. رُبَّما كان السيِّد كين يمزح معي. أحيانًا يحب الكبار المزاح مع الأطفال وخداعهم. لأن الأطفال يصدِّقون أيَّ شيءٍ. من اللؤم فعل ذلك مع الأطفال، لكن الكبار أحيانًا ما يفعلون ذلك».

قالت سونيا كاسبراك في لهفة: «أجل، إنهم يحبون الخِداع وأحيانًا يكونون أغبياء، وأوغادًا، و... و...».

قال إدي: «لذا... سأنتظر مجيء بيل وبقيَّة أصدقائي، ولن أغفل استخدام بخَّاخي. رُبَّما كان هذا أفضل، ألا تظنين ذلك؟».

الآن فقط أدركت -عندما فات الآوان- كيف حوصرت وسِيقَت إلى المصيدة بمنتهى الأناقة والقسوة. ما فعله إدي معها يكاد يكون ابتزازًا، لكن هل من خيارٍ أمامها؟ أرادت أن تسأله متى تعلَّم هذا التلاعب وهذه المناورة. فتحت فمها لتسأل، ثم أغلقته مرَّة أخرى. من المُرجَّح جدًّا، في حالته المزاجية الحالية، أن يُجيبها.

لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا. أجل. إنها مُتأكِّدة من شيءٍ واحد فقط: هي لن تخطو عتبة صيدلية السيِّد نوزي باركر كين مُطلقًا في حياتها.

قاطعها صوته الذي بدا خجولًا الآن على نحوٍ غريب: «ماما؟». رفعت سونيا بصرها ورأت أمامها ابنها إدي أخيرًا، فاتَّجهت إليه مسرورة.

- «هلا عانقتني يا ماما؟».

ضمَّته سونيا لكن بحرص، كي لا تؤذي ذراعه المكسورة (أو تتسبَّب في تحريك أيٍّ من شظايا العظام لتبدأ جريانها المشؤوم في مجرى دمه ثم تخترق قلبه؛ أيُّ أمٍّ تلك التي تقتل ابنها بالحب؟).

وبادلها إدي العناق.

6

بقدر ما كان إدي يشعر بالقلق، غادرت أمه في التوقيت المناسب تمامًا. في أثناء مواجهته المُريعة معها، شعر بأن أنفاسه تتراكم وتتراكم وتتراكم في رئتيه وحلقه خامدة وهامدة، قديمة وزنخة، مُهدِّدة بأن تُسمِّمه.

ظل إدي ممسكًا بأنفاسه إلى أُغلِق الباب من خلفها ثم بدأ يشهق ويعب الهواء عبًّا. كان الهواء الحامض يوخزه في حنجرته المُغلقة كقضيبٍ ساخن. مدَّ يده إلى بخَّاخه، مؤلمًا ذراعه لكن دون أن يأبه، ثم ضغط الزناد وسحب نفسًا طويلًا منه. استنشق إدي رذاذ الماء المُنكَّه بالكافور وهو يُفكِّر: لا يهم إن كان بلاسيبو. الأسماء لا تهم ما دام يعمل.

استلقى إدي إلى الوراء مُتَّكِئًا على وساداته، مُغلقًا عينيه، ومتنفِّسًا بحُرِّية للمرَّة الأولى منذ أن دخلت أمه إلى الحجرة. كان خائفًا.. خائفًا بشدَّة. الأشياء التي قالها له، والطريقة التي تصرَّف بها.. لقد فعل هو ذلك لكن في الوقت نفسه لم يكن هو على الإطلاق. ثمَّة شيءٍ كان يتحكَّم به، يعمل من خلاله... قوَّة ما، وقد استشعرت أمه هذه القوَّة بدورها. لقد رآها في عينيها وفي شفتيها المُرتعشتين. لم يشعر إدي أن تلك القوَّة شريرة على الإطلاق، لكن حضورها الطاغي كان مُزلزلًا. الأمر مثلما تركب أفعوان ملاهٍ خطيرًا حقًّا وتدرك أنك لن تستطيع النزول إلا عندما ينتهي الدور، وأنك ستخوض التجربة أيًّا كانت رغمًا عنك.

سبق السيف العذل، هكذا فكَّر إدي، وهو يشعر بسخونة وحكَّة من وزن

الجبيرة التي وُضِعت ذراعه المكسورة فيها. لن يعود أحدٌ إلى المنزل إلا عندما ينتهي الأمر. يا إلهي لكم أنا خائف. كان يعلم أن السَّبب الحقيقي لمُطالبته إيَّاها بألا تقطعه عن أصدقائه شيء لن يستطيع البوح به لها على الأطلاق: أنا لا أستطيع مواجهة هذا وحدي.

بكى إدي قليلًا بعدها، ثم غاب في نومٍ متقطِّع مُؤرَّق، وحلم بمكانٍ مُظلم تعمل فيه ماكينات -مضخَّات- دون توقُّفٍ أو كلل.

7

كانت السماء تُهدِّد بأن تمطر سيلًا ذلك المساء عندما عاد بيل وباقي الخاسرين إلى المُستشفى. لم يتعجَّب إدي من رؤيتهم يتقاطرون إلى غُرفته واحدٌ تلو الآخر. كان يعلم مُسبقًا أنهم قادمون.

كان الجو حارًّا طوال اليوم -حدث اتفاق لاحقًا أن ذلك الأسبوع الثالث من يوليو كان الأكثر سخونة في صيفٍ حارٍ بشكلٍ استثنائي- وقد بدأت السُحُب الرعدية في التراكم في حدود الرابعة عصرًا، سوداء أرجوانية هائلة، حبلى بالماء، مُحمَّلة بالبرق. كان الناس يمضون لقضاء حوائجهم في سُرعة وقلق، وهم لا ينفكون عن اختلاس النظر إلى السماء. توقَّع الجميع أنها ستُمطر بشدَّة في وقت العشاء، مُزيلة بعضًا من الرطوبة الخانقة المُعلَّقة في الهواء. كانت حدائق ديري وملاعبها -قليلة الروَّاد طوال الصيف- مهجورة تمامًا في تلك الأُمسية بحلول السادسة. لم يكن المطر قد بدأ في الهطول بعد، وقد تعلَّقت الأراجيح بحبالها بلا حراك وغير ظليلة أسفل ضوءٍ أصفر سقيم منبسط. كان الرعد يهدر بكثافة، وكان هذا الصوت، مع نباح كلبٍ وحيد، وضجيج السيَّارات في الشارع الرئيس، هي الأصوات الوحيدة التي تنجرف عبر نافذة إدي عندما جاء الخاسرون.

كان بيل أوَّلهم، متبوعًا بريتشي، ثم بيڤرلي وستان من خلفه، ثم مايك وبعده بن في النهاية. كان بن يبدو غير مرتاح ولا يطيق نفسه وهو يرتدي سُترته ذات الياقة العالية.

اقتربوا من فراشه واجمين. حتّى ريتشي لم يكن يبتسم. فكَّر إدي منبهرًا: يا لوجوههم! بحق المسيح، يا لوجوههم!

كان يرى فيها ما رأته أمه عصر هذا اليوم: هذا المزيج الغريب من القوَّة والعجز. سقط ضوء العاصفة الأصفر على جلودهم، جاعلًا وجوههم تبدو شبحية، وظليلة، وبعيدة.

فكَّر إدي: إننا نعبر إلى مرحلةٍ جديدة. نحن على الحدود الآن. لكن ما الذي ينتظرنا على الجانب الآخر؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين؟

قال بيل: «مـ-مـ-مرحبًا يا إ-إ-إدي. كـ-كـ-كيف حـ-حـ-حالك؟».

قال إدي: «بخير يا بيل الكبير»، وحاول الابتسام.

قال مايك: «خضتَ يومًا حافلًا أمس على ما أعتقد». هدر الرعد وراء كلماته. لم يكن مصباح الغرفة ولا المصباح المجاور لفراش إدي مُضاءين، وبدا له أنهم جميعًا يتلاشون ويبزغون في ضوء العاصفة المُتذبذب. فكَّر إدي أن هذا الضوء ينتشر فوق جميع أنحاء ديري الآن، مُنبسطًا وساكنًا فوق حديقة مكارون، وينفذ عبر ثقوب سقف جسر القُبُلات راسمًا بُقعًا واهنة يعوزها الحيوية، ويجعل نهر الكِندوسكيج يبدو كأنه زُجاجٌ مضبَّب وهو يشق طريقه الضحل عبر البرِّية. فكَّر في ألعاب المتوازي الواقفة في زوايا ميِّتة خلف مدرسة ديري الابتدائية بينما السُحُب الرعدية آخذة في التراكم. فكَّر في ضوء العاصفة الأصفر، وفي السكون المُريب، كأن البلدة بأكملها قد نامت... أو ماتت.

قال إدي: «أجل، كان يومًا حافلًا».

قال بيل: «سيذهب و-و-والديّ إلى السـ-سـ-سينما بعد غد ليلًا عندما سـ-سيتغير الفـ-فـ-فيلم المعروض الآن. هـ-ه-هذا هو الوقت الذي سـ-سـ-سنصنعها فيه. الكـ-كـ-كـ...».

قال ريتشي: «الكُريات الفِضِّية».

- «ظننت أن...».

قال بن بهدوء: «هذا أفضل. ما زلت أظنُّ أننا قادرون على صناعة رصاصات، لكن الظن وحده لا يكفي. إذا كنا كِبارًا...».

قالت بيڤرلي: «أوه أجل، لكان العالم ينتظر منا أن نقطفه. الكبار قادرون على فعل أيِّ شيءٍ يريدون، أليس كذلك؟ الكبار قادرون على فعل أيِّ شيءٍ، ودائمًا ما ينجحون فيه» ثم ضحكت بصوتٍ عصبي وأردفت: «بيل يريدني أن أتولَّى مهمة رمي النِّبلة، هل تُصدِّق ذلك يا إدي؟ يمكنك أن تدعوني ببيڤرلي أوكلي».

قال إدي: «لا أعلم عمَّ تتحدَّثون»، لكنه شعر بأنه يفهم نوعًا.. لديه صورة ضبابية على أيِّ حال.

فسَّر له بن الأمر. سيُذيِّبون أحد دولاراته الفِضِّية ويصنعون منه كُريتين فِضَّيتين أصغر حجمًا من البلي. ثم، إذا كان هناك مُستذئب يقطن المنزل 29 في شارع نيبولت، فستصوِّب بيڤرلي كُرية فِضِّية إلى رأسه باستخدام نبلة بيل. ثم وداعًا أيُّها المُستذئب.. وإذا كانوا مُحقِّين بخصوص أنه يوجد مخلوق واحد يتَّخذ أشكالًا عديدة، فوداعًا أيُّها الشَّيءَ أيضًا.

لا بُدَّ أن تعبيرًا ما اعتلى وجه إدي لأن ريتشي ضحك وأومأ برأسه.

- «أعرف كيف تشعر يا رجُل. لقد ظننت أن بيل فقد ما تبقَّى من عقله عندما بدأ يتحدَّث عن استخدام نبلته بدلًا من مسدَّس أبيه. لكن عصر هذا اليوم...». صمت ريتشي وتنحنح. كان سيهم بقول: عصر هذا اليوم عندما أهانت أمك كرامتنا وطردتنا، لكن لن يكون لائقًا هذا من الواضح. «عندما ذهبنا إلى المكبِّ عصر هذا اليوم، أحضر بيل النِّبلة معه.. انظر». أخرج ريتشي من جيبه الخلفي علبة مُسطَّحة من الصفيح كانت فيما سبق تحوي قطع أناناس ديل مونت. كان في منتصفها ثقب غير منتظم الحواف قطره نحو بوصتين. «بيڤرلي فعلت هذا بحصاة ملساء من مسافة خمس وعشرين قدمًا! تبدو لي كطلقة عيار 0.38. لقد اقتنع سليط اللسان، وعندما يقتنع سليط اللسان، فقد اقتنع سليط اللسان».

قالت بيڤرلي: «قتل عبوات الصفيح أمر، وما تطلبونه أمر مختلف. إذا كانت هذه الصفيحة شيئًا آخر... شيئًا حيًّا... فأظنُّ أنك من يجب أن تفعلها يا بيل. حقًّا».

قال بيل: «لـ-لـ-لا. لقد جـ-جـ-جرَّبنا جــ-جـ-جميعًا، وقد ر-ر-رأيت النتيجة بـ-بـ-بنفسك».

سأل إدي: «كيف سار الأمر؟».

فسَّر له بيل ببطءٍ وتعثُّر، فيما وقفت بيڤرلي تنظر إلى خارج النافذة بشفتين مزمومتين بحزمٍ تام لدرجة أن لونهما استحال أبيض. كانت أكثر من خائفة، لأسبابٍ لا تستطيع حتَّى تفسيرها لنفسها: لقد شعرت بإحراج كبير ممَّا حدث اليوم، وفي طريقهم إلى هنا الليلة جادلت مرَّة أخرى -بحماس- أن يحاولوا صنع الرصاصات الفِضِّية رغم كل شيء، لا لأنها أكثر ثقة بأيِّ حال من بيل أو ريتشي من أنه عندما يحين الوقت سوف تعمل الرصاصات جيِّدًا، بل لأن -إذا حدث شيءٌ ما بالفعل في ذلك المنزل- السلاح سيكون في يد

(بيل)

شخصٍ غيرها.

لكن الحقائق تظل حقائق. لقد أخذ كل منهم عشرة أحجار وصوَّبوا النِّبلة على عشر علب صفيح من مسافة عشرين قدمًا. أصاب ريتشي واحدة من العشر (وقد كانت رميته الوحيدة الصائبة مُجرَّد خدشٍ)، وأصاب بن ثلاث، وبيل أربع، ومايك خمس.

أما بيڤرلي، التي كانت ترمي بلا اكتراث دون أن تبدو أنها تُصوِّب على الإطلاق، فأصابت تسعًا من العلب العشر في منتصفها تمامًا، والعاشرة سقطت عندما ارتدَّ الحجر عن حافتها.

- «لـ-لـ-لكن في البـ-بـ-بداية يـ-يـ-يجب علينا أ-أ-أن نصنع الذ-ذ-ذخيرة».

قال إدي: «بعد غدٍ؟ سأكون قد خرجت من هنا». ستعترض أمه مُتحجِّجة بأنه... لكنه لا يظن أنها ستعترض كثيرًا، ليس بعد ما جرى اليوم.

سألته بيڤرلي: «هل تؤلمك ذراعك؟». كانت ترتدي فُستانًا ورديًّا (لم يكن الفُستان الذي رآه في حلمه، رُبَّما كانت ترتدي هذا الأخير عصر اليوم عندما طردتهم أمه) مُزدانًا بنقوشٍ وورودٍ صغيرة، وجوربًا طويلًا من النايلون أو الحرير. كانت تبدو بالغة تمامًا، لكن صبية تمامًا في الوقت نفسه، كفتاة

تُجرِّب ملابس أكبر من سنها. كان التعبير في ملامحها حالمًا وشاردًا. أراهن أنها تبدو هكذا وهي نائمة.

قال لها: «ليس كثيرًا».

تبادلوا الحديث بعض الوقت، وتخلَّل هزيم الرعد أصواتهم. لم يسألهم إدي عمَّا حدث عندما أتوا باكرًا إلى المُستشفى هذا اليوم، ولم يذكر أحدهم الأمر أمامه. أخرج ريتشي اليويو من جيبه، وطوَّحها بمهارة مرَّتين، ثم دسَّها في جيبه مُجدَّدًا.

تراخى الحديث، وفي واحدة من لحظات الصمت صدرت تكَّة سريعة جعلت إدي ينظر حوله. كان بيل يحمل شيئًا في يده، وللحظة شعر إدي بقلبه يتسارع بوتيرة مُقلقة. في تلك اللحظة الخاطفة ظن إدي أنها مدية. لكن بعدها أضاء ستان نور الغُرفة مُبدِّدًا الكآبة، وشاهد إدي أنه مُجرَّد قلم حبر.. وفي الضوء الكاشف، بدوا جميعًا طبيعيين مرَّةً أخرى.. حقيقيين.. مُجرَّد أصدقاءه.

قال بيل: «فكَّرت أننا يجب ألا نفوِّت فرصة توقيع جبيرتك»، والتقت عيناه بعيني بيل صراحةً.

فكَّر إدي وقد باغته فهمٌ واضح مُفاجئٌ مُنذر بخطرٍ: لكن ليس هذا المقصود. إنه عقد. إنه عقد. أليس كذلك يا بيل الكبير؟ أو على الأقل هذا أقرب ما سنحصل عليه إلى العقد. كان مذعورًا، ويشعر بالخزي والغضب من نفسه. إذا كان قد كسر ذراعه قبل هذا الصيف، فمن كان سيوقِّع له جبيرته؟ أيوجد أحدٌ آخر بخلاف أمه، ودكتور هاندور رُبَّما؟ عمَّاته في هاڤن؟

إن أمه مُخطئة. هؤلاء أصدقاؤه، وهم ليسوا بأصدقاء سوء. فكَّر إدي: رُبَّما لا يوجد ما يُسمَّى بأصدقاء خير وأصدقاء سوء، رُبَّما لا يوجد سوى أصدقاء فحسب. أشخاص يقفون جوارك عندما تتأذَّى ويساعدوك ألا تشعر بالوحدة. رُبَّما مثل هؤلاء يستحقون أن يخاف المرء عليهم، ويأمل لمصلحتهم، ويعيش لأجلهم. بل رُبَّما أن يموت في سبيلهم أيضًا، إذا كان هذا أمرًا لا مفر منه. لا يوجد أصدقاء جيِّدون. لا يوجد أصدقاء سوء. فقط يوجد أشخاص تريد أن تكون معهم.. تحتاج إلى أن تكون معهم. أشخاص يشيِّدون منازلهم في قلبك.

قال إدي بصوتٍ مبحوح قليلًا: «سيكون هذا أمرًا رائعًا حقًّا يا بيل الكبير».
انحنى بيل برزانة فوق فراشه وكتب اسمه على الجص النَّاتئ الوارد من باريس الذي يُغلِّف ذراع إدي. كانت الحروف كبيرة وحلقية. بعدها وقَّع ريتشي اسمه بتباهٍ، وكان خط بن صغيرًا بقدر بدانته وتميل حروفه إلى أسفل كأنها تنتظر دفعة خفيفة لتسقط من الجبيرة. كان خط مايك هانلون كبيرًا وغريبًا لأنه كان أعسر، وقد كانت زاوية الكتابة عسيرة عليه، وقَّع مايك فوق كوع إدي ووضع دائرة حول اسمه، وعندما انحنت بيڤرلي فوقه، استطاع أن يشم عطرًا زهريًّا خفيفًا يفوح منها، ثم وقَّعت اسمها بخطٍّ مُتشابك قديم، وجاء ستان آخرًا، وكتب اسمه بحروفٍ مُحكمة دقيقة على معصم إدي.
ثم تراجع جميعهم بعدها، كأنما أدركوا لتوِّهم ما فعلوه. في الخارج، كان الرعد يهزم بقوَّة من جديد، وومض البرق بشكلٍ خاطف على بناء المُستشفى بضوءٍ مُتقطِّع مُتلعثم.
سألهم إدي: «هذا كل شيء؟».
أومأ بيل: «تــ-تــ-تــعال إـ-إـ-إلى مــ-مــ-منزلي بعد غـــ-غـــ-غدٍ إن استطعت بعد العــ-عشاء، حــ-حسنًا؟».
أومأ إدي، وأُغلق الموضوع.
قضوا مزيدًا من الوقت في مُحادثة عبثية لا هدف لها، دار بعضها حول الموضوع الرئيس في ديري هذه الأيَّام. مُحاكمة ريتشاد ماكلين بتهمة قتله ربيبه دورسي بمطرقة، واختفاء شقيقه الأكبر إيدي كوركوران. كان ماكلين ما زال أمامه يومين قبل أن يعترف ناحبًا على منصَّة الشهود، لكن الخاسرين كانوا يتفقون على أن ماكلين على الأرجح لا علاقة له باختفاء إيدي. الصبي إما هرب، أو أن الشَّيءَ قتله.
غادروا في حدود السابعة إلا الربع، ولم يكن المطر قد بدأ هطوله بعد. استمرت السماء في التهديد بسيلٍ حتَّى بعد فترة طويلة من قدوم أم إدي، وإنهاء زيارتها، وعودتها إلى المنزل مرَّة أخرى (لقد أثارت التوقيعات التي تملأ جبيرة إدي ذعرها، وهلعت أكثر من إصرار إدي على مُغادرة المُستشفى في اليوم التالي، فقد كانت تتصوَّر أنه سيمضي أسبوعًا أو أكثر في هدوءٍ

وراحة تامَّين كي يأخذ طرفا الكسر وقتهما في «الالتحام»، هكذا قالت).

في النهاية تبدَّدت السُحُب وانجرفت بعيدًا. لم تسقط قطرة مطر واحدة على ديري في ذلك اليوم. ظلَّت الرطوبة مُشبَّعة في الجو، ونام الناس في الشُرفات والحدائق وفي أكياس نومٍ في الباحات الخلفية في تلك الليلة.

جاء المطر في اليوم التالي، ليس بعد وقتٍ طويل من رؤية بيفرلي الشيء الشنيع الذي حدث لباتريك هوكستيتر.

الفصل السَّابع عشر

واحد آخر من المفقودين:
مقتل باتريك هوكستيتر

1

عندما انتهى إدي من سرد قصَّته، صبَّ لنفسه مشروبًا آخر بيدٍ ليست متَّزنة تمامًا، ثم نظر إلى بيڤرلي وقال: «لقد رأيتِ الشَّيءَ، أليس كذلك؟ رأيتِ الشَّيءَ يأخذ باتريك هوكستيتر في اليوم التالي الذي وقَّعتم فيه جميعًا جبيرتي؟».

انحنى الآخرون أمامًا.

أرجعت بيڤرلي شعرها إلى الوراء مُثيرة سحابة حمراء، وأسفله، كان وجهها شاحبًا بشكلٍ غير عادي. أخرجت بارتباك سيجارة جديدة من علبتها -السيجارة الأخيرة- وأشعلت قدَّاحتها البيك. لم يبدُ أنها قادرة على توجيه الشُعلة إلى طرف سيجارتها. بعد لحظة ثبَّت بيل معصمها برفق لكن بإحكام واضعًا الشُعلة في المكان الذي يُفترض أن تكونه. نظرت إليه بيڤرلي مُمتنَّة ونفثت سحابة زرقاء رمادية من الدُخان.

قالت له: «أجل. شاهدت الأمر يحدث»، وارتجفت.

قال بيل: «كان الفتى مـ-مـ-مجنونًا»، وفكَّر: مُجرَّد أن هنري سمح لفتى مُغيَّب مثل باتريك هوكستيتر في التسكُّع معه قرب نهاية ذلك الصيف، فهذه حقيقة ذات دلالة وحدها، أليس كذلك؟ إما أن هنري كان يفقد بعضًا من تأثيره، بعضًا من جاذبيته، أو أن جنون هنري قد تطوَّر بما فيه الكفاية بحيث يبدو له فتى مثل هوكستيتر لا بأس به. كلا الفرضين يؤدي إلى النتيجة نفسها.. تفاقم... ماذا؟ انتكاسة هنري؟ أهذه الكلمة المُناسبة؟ تفاقم انتكاسته؟ أجل، في ضوء ما حدث له، وإلى أين انتهى مآله، أظنُّ أنها كذلك.

ثمَّة شيءٍ آخر يُدعِّم هذه الفكرة، هكذا فكَّر بيل، لكنه إلى اللحظة كان يتذكَّره بشكلٍ مشوَّش فحسب. لقد كان يتسكَّع برفقة ريتشي وبيڤرلي قرب مستودع الأخوين تراكر في أوائل أغسطس عندما كانت فترة الدراسة الصيفية التي أبعدت هنري عن طريقهم على وشك الانتهاء... و... ألم يقترب منهم ڤيكتور كريس؟ ڤيكتور كريس المذعور تمامًا؟ أجل، هذا ما حدث. كانت الأمور تقترب بسُرعة إلى نهايتها بحلول ذلك الوقت، وها هو بيل الآن يُفكِّر أن كل طفل في ديري استشعر الأمر وقتها... أكثرهم من دون شك الخاسرين وعصابة هنري، لكن هذا حدث لاحقًا.

قالت بيڤرلي بنبرة صريحة: «أوه أجل أنت مُحِق في ذلك. كان باتريك هوكستيتر مجنونًا، لم تكن أيٌّ من الفتيات لتُفكِّر في الجلوس أمامه في المدرسة. قد تجلس الواحدة منا في حالها، لتحل بعض مسائل الحساب أو كتابةِ قصَّة أو موضوع تعبير، ثم تستشعر فجأة تلك اليد التي تتحسَّسها، تلك اليد الخفيفة كالريشة، لكن الدافئة المتعرِّقة المكتنزة باللحم». ابتلعت بيڤرلي ريقها، فأصدرت حنجرتها تكَّة مسموعة. كان الآخرون ينظرون إليها باهتمام من أماكنهم حول المنضدة. «تستشعرها على جانبها، أو رُبَّما على صدرها.. ولا أعني بهذا أنه كان لإحدانا وقتها نهدان فعليَّان، لكن لم يبدُ أن باتريك كان يهتم بذلك».

«تستشعر الواحدة منا تلك... اللمسة، فتجزع منتفِضَّة مُبعدة نفسها عنها، وتلتفت لتجد أمامها باتريك، يبتسم تلك الابتسامة اللزجة بشفتيه الكبيرتين المطَّاطيتين. كانت لديه مقلمة...».

قاطعها ريتشي فجأة: «مليئة بالذباب. أجل. كان يقتله بمسطرته الخضراء ويجمعه في مقلمته. ما زلت أذكر شكل المقلمة. حمراء، بغطاء بلاستيكي أبيض مموَّج ينزلق جانبًا ليُفتح».

كان إدي يومئ موافقًا.

قالت بيڤرلي: «كنا ننتفض مُرتعشاتٍ ليبتسم هو، ورُبَّما يفتح مقلمته كي تستطيع الفتاة رؤية الذباب الميِّت داخلها. أسوأ ما في الأمر وأكثره شناعة أنه كان لا يتفوَّه بكلمة واحدة وهو يبتسم. مستر دوجلاس كان يعرف. لقد

أخبرته جريتا بوي بذلك التحرُّش، وأظنُّ أن سالي مولر قالت شيئًا بدورها. لكن، أظنُّ أن مستر دوجلاس كان يخافه أيضًا».

كان بن يميل إلى الوراء في مقعده مُسنِدهُ على ساقيه الخلفيتين، ويعقد ذراعيه خلف عُنُقه. إنها لا تزال لا تُصدِّق كم صار ممشوقًا. قال بن لها: «أنا واثق تمامًا أنكِ مُحِقَّة».

سألها بيل: «مـ–ماذا حـ–حدث له يا بـ–بـ–بيفرلي؟».

ابتلعت ريقها من جديد وهي تحاول مُحاربة قوَّة الذكرى الكابوسية لما رأته ذلك اليوم في البرِّية، عندما كان حذاءا التزلُّج خاصتها مربوطين معًا ومُعلَّقين على كتفيها، وإحدى رُكبتيها تحرقها من الألم بسبب السقطة التي سقطتها في جادة القديس كريسبين، والأخرى من الشارع الذي تصطفّ الأشجار على جانبيه والذي ينتهي حيث تنحدر الأرض بحدَّة إلى البرِّية. تتذكَّر (أوه عندما تأتي تلك الذكريات فإنها تكون شديدة الجلاء والقوَّة) أنها كانت ترتدي سراويل قصيرة من القطن.. سروايل قصيرة جدًّا بالكاد تُغطي حافَّة لباسها الداخلي. لقد صارت أكثر وعيًا بجسدها خلال العام الماضي، في الشهور الستة الأخيرة تحديدًا، عندما بدأت منحنياته تتبلور ويصير أكثر أنوثة. كانت المرآة أحد أسباب هذا الوعي المُتزايد بطبيعة الحال، لكنها ليست السَّبب الرئيس: السَّبب الرئيس أن والدها صار أكثر حدَّة مؤُخَّرًا، وأكثر ميلًا لاستخدام صفعاته أو حتَّى قبضتيه. كان يبدو قلقًا، مُحجَّمًا تقريبًا، وقد بدأت عصبيتها في التزايد أكثر فأكثر، وحذرها ينمو أكثر فأكثر، في ظل وجوده. بدا الأمر له كأن هناك رائحة تفوح بينهما، رائحة لا تشمها عندما تكون في الشقة بمُفردها، ولم تكن موجودة من قبل عندما كانا يمكثان معًا بمفرديهما في الشقَّة. لم تكن موجودة قبل ذلك الصيف. كما أن الوضع يسوء أكثر عندما لا تكون أمها موجودة. إذا كانت هناك رائحة –رائحةٌ ما– فلا بُدَّ أنه على الأرجح يشمها بدوره، لأن بيف كانت تراه أقل فأقل مع توالي الأيَّام الأكثر حرارة. يرجع ذلك جزئيًّا إلى دوري البولينج الصيفي الذي يشارك فيه، ومن ناحية أخرى لأنه كان يساعد صديقه چو تامرلي في إصلاح السيارات... لكنها شكَّت أن الأمر يرجع في جزئه أيضًا إلى تلك الرَّائحة، تلك التي كانت

تفوح بينهما، التي لم يكن أحدهما يقصدها لكنها ظلَّت تفوح رغمًا عنهما، وكانا عاجزين عن وقفها كما يعجز المرء عن وقف تعرُّقه في أيَّام شهر يوليو الحارة.

شوَّشت أفكارها تلك الرؤية الخاصة بالطيور مرَّة أخرى. مئات وآلاف الطيور التي تهبط فوق أسقف المنازل، وأسلاك خطوط الهاتف، وهوائيات أجهزة التلفاز.

قالت بيڤرلي بصوتٍ عالٍ: «واللبلاب السام».

سألها بيل: «مـ-ماذا؟».

قالت ببطء وهي تنظر إليه: «شيءٌ ما عن اللبلاب السام. لكنه لم يكن كذلك. أنا فقط شعرت بأنه كاللبلاب السام. مايك...؟».

قال مايك: «لا عليك. ستتذكَّرين الأمر. احكي لنا ما تتذكَّرينه الآن يا بيڤ».

كانت ستخبره: أتذكَّر السراويلِ القصيرة الزرقاء. كم كان لونها قد بهت، كم كانت ضيِّقة حول فخذيّ ومُؤخرتي. كان معي نصف علبة سجائر لاكي سترايك في جيبٍ، والنِّبلة في الجيب الآخر...

سألت بيڤرلي ريتشي: «هل تذكر النِّبلة؟»، لكنهم جميعًا أومأوا برؤوسهم.

أردفت بيڤرلي: «لقد أعطاها بيل إليّ. لم أكن أرغب في ذلك، لكن...» ابتسمت لبيل ابتسامة واهنة صغيرة وأردفت: «لم يكن يمكن رفض طلبٍ من بيل الكبير، هذا كل ما في الأمر. لذا أخذتها، ولهذا السَّبب كنت في الخارج بمُفردي في ذلك اليوم. لأتدرَّب. كنت لم أزل أظنُّ أنني لن أمتلك الشجاعة الكافية لاستخدامها عندما يحين الوقت. لكنني استخدمتها في ذلك اليوم. كنت مضطرَّة. لقد قتلت أحد أجزاءه... أحد أجزاء الشَّيءِ. كان الأمر مُريعًا، حتَّى الآن يصعب عليّ التفكير فيه. لقد اقتنصني أحد أجزاءه الأخرى. انظروا».

رفعت بيڤرلي ذراعها وأدارته كي يتمكَّن جميعهم من رؤية النُدبة القديمة على ساعدها من أعلى. كانت تبدو كأن جسمًا دائريًّا في حجم سيجار كوبي قد ضُغط على جلد معصمها. كانت النُدبة غائرة قليلًا، والنظر إليها أصاب

مايك برجفة. هذا أحد أجزاء القِصَّة التي اشتبه في حدوثها لكنه لم يسمعه من قبل قط، تمامًا كحديث إدي مع كين الذي فُرِض عليه فرضًا.

قالت بيڤرلي: «كنت مُحقًّا بخصوص أمرٍ واحد يا ريتشي. كانت تلك النِّبلة قاتلة. كنت أخافها، لكنني أيضًا أحببتها نوعًا».

ضحك ريتشي وربَّت على ظهرها قائلًا: «اللعنة، كنت أعرف ذلك وقتها، أيَّتُها الغريرة الحمقاء».

- «أحقًّا؟».

قال ريتشي: «أجل، حقًّا. كان الأمر جليًّا في نظرتك إليها».

- «كانت تبدو كأنها مُجرَّد لُعبة، لكنها كانت حقيقة، وقادرة على إحداث ثقوب كبيرة في الأشياء».

فكَّر بن متمتمًا: «وقد أحدثتِ بها ثُقبًا في شيءٍ ما في ذلك اليوم».

أومأت بيڤرلي.

- «أكان باتريك من...».

قالت بيڤرلي: «أوه، ربَّاه، لا! لقد كان الآخر... انتظر». سحقت سيجارتها، وارتشفت من شرابها، وسيطرت على زمام نفسها مُجدَّدًا أخيرًا. في الحقيقة... لا. لكن اعتراها شعورٌ أن هذا أقرب ما ستحصل عليه إلى رباطة الجأش الليلة. «كما ترون، كنت أتزلج، وقد سقطت وجرحت نفسي جرحًا غير هيّنٍ، ثم قرَّرت النزول إلى البرِّية للتمرُّن. عرجت على مقرِّ النادي أوَّلًا لأرى إن كان أيُّكم موجودًا هناك، لكنه كان خاويًا وتفوح منه رائحة الدُخان. هل تتذكَّرون يا رفاق كم ظلت رائحة الدُخان عالقة بالمكان؟».

أومأوا جميعهم مُبتسمين.

قال بن: «لم ننجح في إزالة الرَّائحة عنه قط، أليس كذلك؟».

واصلت بيڤرلي: «وهكذا اتَّجهت إلى مكبِّ النفايات. لأن هذا هو المكان الذي كنا... نتمرَّن فيه، وكنت أعلم أنني سأجد كثيرًا من الأشياء لاستخدامها كأهداف.. رُبَّما حتَّى بعض الفئران». صمتت بيڤرلي برهة، وتفصَّد عرقٌ دقيقٌ غامض على جبينها الآن، وفي النهاية قالت: «هذا ما كنت أريد التصويب عليه

حقًّا. كائنٌ حيٌ. ليس نورسًا -كنت أعلم أنني لا أستطيع قتل نورس- بل فأر. كنت أريد اختبار قدرتي على فعل الأمر».

«ولكم أنا سعيدة لأنني قصدت المكبِّ من ناحية شارع كانساس بدلًا من اللسان القديم، لأنه لم يكن هناك غطاء نباتي كثيف قرب ضِفَّة السكَّة الحديدية، وكانوا سيرونني بالتأكيد، والله وحده يعلم ما الذي كان سيحدث لي وقتها».

- «من كانوا سيرونك؟».

قالت بيڤرلي: «هنري باورز، وڤيكتور كريس، وبيلش هاجنز، وباتريك هوكستيتر. كانوا جميعًا في حُفرة المكبِّ و...».

وفجأة، مُباغتة إيَّاهم جميعًا، بدأت بيڤرلي تقهقه كطفلة صغيرة، وتورَّدت وجنتاها بلونٍ أحمرٍ وردي، وظلَّت تضحك حتَّى اغرورقت عيناها بالدموع.

قال ريتشي: «ما الأمر يا بيڤرلي؟ شاركينا المُزحة».

قالت بيڤرلي: «لقد كانت مُزحة بلا شك. كانت مُزحة لكنني أظنهم كانوا سيقتلونني إذا علموا أنني رأيتهم».

صاح بن وقد بدأ يضحك بدوره: «تذكَّرت الآن! تذكَّرت عندما حكيتِ لنا الأمر».

قالت بيڤرلي وهي تضج بالضحك: «كانوا خالعين سراويلهم ويشعلون النار بضراطهم».

مرَّت لحظة من الصمت الثقيل، ثم بدأ جميعهم في الضحك، وتردَّدت ضحكاتهم العارمة عبر جدران المكتبة.

في أثناء تفكيرها في الطريقة المُثلى لسرد واقعة مقتل باتريك هوكستيتر، كان أوَّل ما ركَّزت عليه أن الاقتراب من مكبِّ نفايات البلدة من ناحية شارع كانساس كان أشبه بدخول حزام كويكباتٍ غريب. يوجد مسارٌ تُرابيٌّ وعرٌ (شارع من شوارع البلدة في الحقيقة، بل كان له اسم حتَّى: طريق لايم القديم) يتفرَّع من شارع كانساس ويقود إلى المكبِّ، وقد كان هذا هو الطريق الحقيقي الوحيد الذي يعبر البرِّية، وتستخدمه شاحنات مكبِّ نفايات البلدة. سارت بيڤرلي قرب طريق لايم القديم لكنها لم تسلكه. كانت قد صارت أكثر حذرًا -مثلهم جميعًا كما تفترض- منذ أن كُسِرت ذراع إدي، خصوصًا وهي بمفردها.

شقَّت طريقها عبر الشجيرات الكثيفة، مُلتفَّة حول رُقعة من نباتات اللبلاب السام بأوراقها الحمراء الزيتية، مُشتمَّة رائحة المكبِّ العطنة الداخنة، مُستمعة إلى صياح النوارس، وإلى يسارها، ومن خلال الفجوات العابرة في غطاء النباتات، استطاعت رؤية طريق لايم القديم.

راح الآخرون ينظرون إليها مترقِّبين. تفحَّصت علبة سجائرها ووجدتها خاوية. دون كلمة، ألقى ريتشي إليها بواحدة.

أشعلتها بيڤرلي ونظرت حولها في وجوههم وقالت: «كان اقترابي من مكبِّ نفايات البلدة من ناحية شارع كانساس يُشبه نوعًا...

2

دخول حزام كويكباتٍ غريب. حزام من نفايات. في البداية لم يكن يوجد شيءٌ سوى الخمائل التي تنمو من أرضٍ إسفنجية زلقة تحت الأقدام، ثم بعد ذلك تبدأ في رؤية أوَّل قطعة نفاية في حزام النفايات: عبوَّة صدئة حَوَتْ يومًا رُبَّما صلصلة مكرونة البرنس، أو زُجاجة صودا تزحف الحشرات عليها مُنجذبة إلى بقايا كريمة الصودا أو البيرة الحلوة اللزجة. ثم ينعكس إلى عينيك شعاع شمسٍ يرتد عن قصاصة من ورق الألومنيوم عالقة في شجرةٍ ما، ورُبَّما ترى أيضًا زنبركًا (أو تتعثَّر فيه، إذا لم تكن حريصًا في سيرك) أو عظمة أتى بها كلبٌ ما وحفر حُفرة وأسقطها فيها.

لم يكن المكبُّ نفسه مكانًا سيِّئًا تمامًا، في حقيقة الأمر كان مُثيرًا نوعًا، هكذا فكَّرت بيڤرلي. ما كان كريهًا (ومُخيفًا نوعًا) هو الطريقة التي ينتشر بها. الطريقة التي يَخلِق المكبُّ بها حزام كويكبات النفايات هذا.

بدأت تقترب الآن. صارت الأشجار أكبر، معظمها أشجار تنوب، فيما راحت الخمائل والشُجيرات تذوي. النوارس تصيح وتصرخ بأصواتها الشاكية الحادَّة، والهواء مُشبَّع برائحة احتراقٍ خانقة.

الآن، إلى يمين بيڤرلي، توجد ثلَّاجة تميل بزاوية طفيفة مُستندة إلى جذع شجرة تنوب. ثلَّاجة من طراز أمانا. نظرت بيڤرلي إليها وتذكَّرت ما قاله الضابط الذي زارهم في الفصل عندما كانت في الثالثة من عمرها. لقد

أخبرهم أن مثل هذه الأجهزة التي يتخلَّص الناس منها خطرة، فقد يفتحها طفلٌ ويختبئ داخلها وهو يلعب الغُمِّيضة على سبيل المثال، ثم يموت مُختنقًا بالداخل. لكن لماذا قد يرغب أيُّ شخصٍ في دخول ثلّاجة قديمة مُهملة و...

سمعت بيڤرلي صيحة قريبة جدًّا جعلتها تقفز في الهواء، ثم تبعتها ضحكة. ابتسمت. إنهم هنا إذًا. لقد تركوا مقرَّ النادي بسبب رائحة الدُخان وجاءوا إلى هنا. إنهم يقذفون الزجاجات بالحجارة، أو رُبَّما يبحثون في النفايات فحسب.

أسرعت بيڤرلي في سيرها أكثر، وقد نسيت الجرح العميق الذي جرحته لنفسها الآن في خضم حماستها لرؤيتهم.. لرؤيته.. بشعرِه الأحمر الشبيه بشعرها، لترى إن كان سيبتسم لها تلك الابتسامة المُحبَّبة بزاوية فمه. كانت تعلم أنها صغيرة جدًّا على حُب صبي، صغيرة جدًّا على أيِّ مشاعر تتعدَّى «الإعجاب». لكنها كانت تحب بيل رغم ذلك، وبالتالي أسرعت في سيرها، وفردتا حذاء التزلُّج تتأرجحان بشدَّة على كتفيها، وحبل نبلته يضربها برفق على مُؤخِّرتها.

كادت بيڤرلي أن تتَّجه صوبهم مُباشرةً قبل أن تدرك أن هؤلاء ليسوا ثُلَّتها، بل عصابة باورز.

خرجت بيڤرلي من خلف ستار الشُجيرات المُتشابكة. كان جانب المكبِّ الأكثر انحدارًا يبعد نحو سبعين ياردة عنها، وتوجد كومة لامعة من النفايات تميل إلى جانب حُفرة الحصى حاد الزاوية. كانت جرَّافة ماندي فازيو تقف إلى اليسار، وفي الجزء الأمامي الأقرب توجد مجموعة كبيرة من السيارات المُهملة غير المرغوب فيها. في نهاية كل شهر تُسحق تلك السيَّارات وتُنقل إلى بورتلاند وتباع خُردة، لكن الآن ثمَّة دزينة منها أو أكثر، يقف بعضها على عجلاتٍ بلا إطار، وبعضها مقلوب إلى جانبه، وواحدة أو اثنتان منها تقفان على سقفها ككلابٍ ميِّتة. كانت السيَّارت مرُتَّبة في صفين، وقد سارت بيڤرلي في الممرِّ الوعر المليء بالقمامة بينهما كعروسٍ مُستقبلية ماجنة، وهي تتساءل في قرارة نفسها ما إذا كانت تستطيع كسر زجاج إحداها الأمامي بنبلتها. كان أحد جيوب سراويلها القصيرة الزرقاء ينتفخ بالكُريات الحديدة الصغيرة التي تُشكِّل ذخيرة تدريبها.

كان صوت الضحكات آتيًا من وراء صف السيَّارات المُهملة من ناحية اليسار، عند حافَّة مكبِّ النفايات الأصلية. دارت بيڤرلي حول السيَّارة الأخيرة، التي كانت من طراز ستودبيكر وقد فقدت نصفها الأمامي بأكمله. مات الهتاف على شفتيها، ولم تسقط اليد التي رفعتها للتلويح لهم إلى جوارها بالضبط، بل بدا أنها تذبل.

كانت أوَّل فكرة غاضبة مُحرجة تعبر عقلها هي: يا إلهي، لماذا جميعهم عرايا؟

تبع ذلك إدراكٌ مُخيف بمن يكونوا. لقد وقفت مكانها أمام السيَّارة الستودبيكر النصفية وظلَّها مُسمَّر فوق كعبي حذائها الرياضي. في تلك اللحظة كانت مرئية لهم بالكامل، وإن رفع أحدهم بصره عن الدائرة التي يجلسون القرفصاء فيها، لم يكن ليخطئ تلك الفتاة الأطول قامة من متوسِّطات الطول بقليل التي تُعلِّق زوجي حذاء تزلُّج على كتفيها، والتي ما زالت رُكبة إحدى ساقيها الملفوفتين الطويلتين تنز دمًا. الفتاة فاغرة الفم، التي تشتعل وجنتاها احمرارًا.

قبل أن تهرع بيڤرلي لتختبئ خلف الستودبيكر لاحظت أنهم ليسوا عرايا بالكامل بعد كل شيء. إنهم يرتدون قمصانهم، فقط هم يدلُّون سراويلهم وملابسهم التحتية إلى أسفل سيقانهم، كما لو أنهم يقضون حاجتهم رقم 2 (لقد عاد عقلها تقائيًا إلى ذلك التعبير الطفولي المُلطَّف الذي تعلَّمته وهي طفلة صغيرة بسبب الصدمة). لكن من سمع من قبل عن أربعة فتية يقضون حاجتهم رقم 2 في الوقت نفسه، بل وجماعة؟

ما أن اختفت بيڤرلي عن الأنظار، كانت أوَّل فكرة تخطر إلى عقلها أن تسارع بالهرب.. وفي الحال. راح قلبها يضخ الدماء بقوَّة، وامتلأت عضلاتها بالأدرينالين. نظرت حولها ورأت ما لم تُزعج نفسها بملاحظته وهي آتية إلى هنا، ظانة أن الأصوات التي سمعتها تنتمي لأصدقائها. كان طابور سيَّارات الخُردة إلى يسارها مليئًا بالفجوات. ليست السيَّارات مُلتصقة بأي حالٍ من الأحوال كما سيحدث بعد أسبوع أو نحو ذلك عندما سيأتي المكبس ليحيلها إلى كتلٍ من الحديد المُتلألئ. لقد كانت مكشوفة لأولئك الأولاد عدَّة مرات

وهي تسير قادمة إلى حيث هي الآن، وإذا تراجعت ستصير مكشوفة من جديد، وهذه المرَّة قد يلاحظونها.

أيضًا، وجدت نفسها تشعر ببعض الفضول المُخجل: ماذا يفعلون بحق الجحيم؟

بحرص أطلَّت بيڤرلي برأسها ناظرة من وراء الستودبيكر.

كان جسدا هنري وڤيكتور كريس في مواجهتها تقريبًا، وكان باتريك هوكستيتر إلى يسار هنري، فيما يعطيها بيلش هاجنز ظهره. لاحظت الفتاة أن بيلش هاجنز صاحب مؤخِّرة ضخمة جدًّا، ومُشعرة جدًّا، وفجأة تصاعدت ضحكات هِستيرية تقريبًا أعلى حنجرتها كالزَّبد الذي يعلو كأسًا من البيرة، واضُطرَّت لكتم فمها بكلتا يديها والانسحاب خلف السيَّارة مُجدَّدًا مكافحة لإخراس نفسها.

يجب أن تفرِّي من هنا يا بيڤرلي. إذا أمسكوكِ... اختلست النظر مُجدَّدًا من بين السيَّارت المُهملة وهي لا تزال تُغطي فمها بكلتا يديها. كان الممرُّ بعرض عشرة أقدام تقريبًا، ومغطى بالصفائح والقمامة، ويومض بسبب انعكاس أشعة الشمس عن بقايا الأكواب وشظايا الزجاج، كما كان غزيرًا بالحشائش. إذا أصدرت صوتًا، فقد يسمعونها... لا سيَّما إذا انصرف تفكيرهم عن أيِّ ما هم يفعلونه الآن. عندما فكَّرت في مدى السذاجة واللامُبالاة التي سارت بهما وصولًا إلى هنا، تجمَّد الدم في عروقها. أيضًا...

ما الذي قد يكونوا يفعلونه بحق الجحيم؟

أطلَّت برأسها مُجدَّدًا، ولاحظت مزيدًا من التفاصيل هذه المرَّة. كانت كتبهم الدراسية وملازمهم مُبعثرة بإهمال جوارهم. لقد خرجوا لتوِّهم من فصول دراستهم الصيفيَّة إذًا، أو ما يطلق عليه مُعظم الصبية فصول الأغبياء أو مدرسة البُلداء.. ولأن هنري وڤيكتور كانا في مواجهتها، استطاعت أن ترى عضويهما الذكريين. كان هذان العضوان هما أوَّل الأشياء التي تراها من قبل في حياتها، بخلاف الصور المشوَّشة التي أرتها إياها بريندا آروسميث في ذلك الكتاب الصغير العام الماضي، التي لم تكن توضِّح كثيرًا. لاحظت بيڤرلي الآن أن شيئيهما كانا أنبوبين صغيرين يتدلَّيان مُعلَّقين بين فخذيهما.

كان عضو هنري صغيرًا وبلا شعر، لكن عضو ڤيكتور كبير حقًّا، وثمَّة سحابة من الزغب من شُعيرات سوداء دقيقة تعلوه.

فكَّرت بيڤرلي: بيل يمتلك واحدًا من هذه \الأشياء، وفجأة بدا أن جسدها بأكمله يفور دُفعة واحدة. شاعت موجة من الحرارة في جسدها جعلتها تدوخ وينتابها الإعياء كأنها ستفقد الوعي. في تلك اللحظة، شعرت تقريبًا بالشعور ذاته الذي شعره بن هانسكوم في آخر يوم في الدراسة، عندما نظر إلى سوار كاحلها الذي يلتمع في ضوء الشمس... لكنه لم يستشعر وقتها الرُعب المُختلط الذي تستشعره الآن.

نظرت خلفها مرَّةً أخرى. بدا لها الآن أن الممرَّ الذي يتوسَّط السيَّارات ويقود إلى البرِّية –مرفأ الأمان– أطول كثيرًا. كانت تخشى التحرُّك. إذا علموا أنها رأت أشياءهم، فسوف يؤذونها على الأرجح، ولن يكون أذاهم عابرًا، بل سيؤذونها بشدَّة.

جأر بيلش هاجنز بصوتٍ عالٍ فانتفضت، ثم صاح هنري: «ثلاثة أقدام! لا مزاح يا بيلش! لقد ارتفعت ثلاثة أقدام! أليس كذلك يا ڤيك؟».

وافقه ڤيكتور أن هذا ما حدث، وانفجروا جميعًا ضاحكين بقوة.

خاطرت بيڤرلي بإلقاء نظرة أخرى من خلف الستودبيكر الخُردة. كان باتريك هوكستيتر قد التفَّ ونهض قليلًا في نصف وقفة، وبالتالي كانت عجيزته في وجه هنري تقريبًا.

كان هنري يحمل جسمًا فِضِّيًا لامعًا في يده. بعد بُرهة من التفحُّص تبيَّنت أنها قدَّاحة.

قال هنري: «ألم تقل أنك تستشعر أن واحدة ستخرج».

قال باتريك: «بالفعل. سأخبرك عندما تقترب. استعد!... استعد، إنها آتية! استـ... \الآن!».

أشعل هنري القدَّاحة، وفي اللحظة ذاتها صدر الصوت المُميَّز المُمزِّق الذي لا يُخطَئ لضرطة جيِّدة. من الصعب عدم تمييز هذا الصوت، لقد سمعت بيڤرلي ما يكفي منه في منزلها، عادةً في ليالي السبت بعد أكلة الفول بالسجق. كان أبوها يحب التهام الفول بالسجق التهامًا. عندما ضرط باتريك

ضرطته وأشعل هنري القدَّاحة، رأت بيڤرلي شيئًا جعل فاها يفغر. اندفعت شعلة زرقاء باهرة من اللهب من مؤخِّرة باتريك. بدت لبيڤرلي كأنها شُعلة موقد مُبالغ في حجمها.

ضج الفتية بضحكاتهم الجامحة وانسحبت بيڤرلي وراء السيَّارة التي تحميها، كاتمة ضحكاتٍ ماجنة أخرى. لم تكن تضحك لأنها مُستمتعة. أجل، الموقف مُضحك جدًّا بطريقة غريبة، لكن أغلب ضحكاتها كانت بسبب نفورها العميق الممزوج بشيءٍ من الرُعب. كانت تضحك لأنها لم تجد طريقة أخرى للتعامل مع ما رأته. للأمر علاقة برؤية أعضاء الفتية الذكرية، لكن لم يكن ذلك بأيِّ حال من الأحوال كل أو حتَّى جزء كبير ممَّا شعرت به. فقبل كل شيء، هي تعرف أن للأولاد أشياء بقدر معرفتها أن البنات لديهن أشياء مُختلفة. ما حدث هو ما يمكن تسميته رؤية مُؤكِّدة فحسب.. لكن باقي ما يفعلونه بدا أمرًا شديد الغرابة، وشديد السخافة، وفي الوقت نفسه بدائي تمامًا لدرجة أنها وجدت نفسها -بالرغم من ضحكاتها المكتومة- تتلمَّس رباطة جأشها في نوع من اليأس.

توقَّفي، هكذا فكَّرت، كأن هذه الفكرة هي الإجابة: توقَّفي وإلا سيسمعوكِ. توقَّفي يا بيڤي!

لكن كان ذلك مُستحيلًا، وبدا أفضل ما في وسعها هو الضحك من دون استخدام أحبالها الصوتية، وقد خرجت الأصوات منها كسلسلة من الشهقات غير المسموعة تقريبًا، بينما التصقت يداها أكثر بفمها، واحمرَّت وجنتيها كتُفَّاحتين، وسبحت الدموع في عينيها.

صرخ ڤيكتور قائلًا: «اللعنة، هذا يؤلم!».

صاح ڤيكتور: «اثنى عشر قدمًا! أقسم بالله يا ڤيك، لقد امتدَّت اثنى عشر قدمًا! أقسم بشرف أمي!».

- «لا أهتم حتَّى لو وصلت لعشرين قدمٍ لعينة، لقد أحرقت مؤخِّرتي!».

هكذا صاح ڤيكتور، فتفجَّرت الضحكات مُجدَّدًا.. وبينما كانت بيڤرلي لا تزال تضحك خلف السيَّارة التي تحتمي بها، فكَّرت في فيلمٍ رأته على التلفاز ذات يومٍ. فيلم من بطولة چول هال. كان يحكي عن قبيلةٍ في إحدى

الغابات لديهم طقس سرِّي. إذا حدث ورأيت ذلك الطقس، فإنهم يُضحُّون بك قربانًا لإلههم، الذي كان صنمًا حجريًا ضخمًا. لم ينجح ذلك التفكير في إيقاف ضحكها المكتوم، لكنه أضاف إليه نوعًا من السُعار المحموم. لقد بدأت ضحكاتها تتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى صرخاتٍ صامتة. أوجعها بطنها من الاهتزاز، وسالت الدموع على وجهها.

3

انتهى الأمر بهنري وڤيكتور وبيلش وباتريك هوكستيتر في مكبِّ النفايات يشعل بعضهم النار في ضرطات بعض في عصر ذلك اليوم الحار من أيَّام يوليو بسبب رينا داڤينبورت.

كان هنري يعلم تبعات التهام كمِّياتٍ كبيرة من الفاصوليا المطبوخة، وكان أفضل ما يُعبِّر عن هذه التبعات هي الأغنية الصغيرة التي تعلَّمها على حجر أبيه عندما كان لا يزال يرتدي السراويل القصيرة: الفاصوليا، الفاصوليا، النبتة الموسيقية! كلما أكلت منها، زمَّرت! وكلما زمَّرت، استرحت! وما إن تستريح، تكون مُستعدًّا للوجبة التالية!

إن رينا داڤينبورت في علاقة غرامية مع والده لقرابة ثماني سنوات. كانت بدينة، وفي الأربعين من عمرها، وقذرة عادةً. كان هنري يتصوَّر أحيانًا أن رينا ووالده يتضاجعان، رغم أنه لم يكن يتخيَّل أحدًا يقبل أن يلصق جسده بجسد رينا داڤينبورت.

كانت رينا تفخر كثيرًا بالفاصوليا المطبوخة التي تصنعها. تنقعها في ليلة السبت، وتطهوها على نارٍ هادئة طوال يوم الأحد. كان هنري يظن أن مذاقها معقول؛ هو طعام تدسَّه في فمك وتمضغه على أيِّ حال... لكن بعد ثماني سنوات أيُّ شيءٍ يفقد سحره.

لم تكن رينا تقنع بطهي حفنة من الفاصوليا، بل كانت تصنعها بكمِّيات كبيرة. عندما كانت تأتي في سيَّارتها الديسوتو الخضراء العتيقة في أمسيات الأحد (المُعلَّق في مرآة صالونها دُمية عارية تبدو كأصغر ضحيَّة عُنف غوغائي جماعي في التاريخ)، كانت دائمًا ما تحمل معها الفاصوليا الساخنة في سطلٍ

حديدي هائل سعة اثنى عشر جالونًا على المقعد المجاور. ثم يجلس ثلاثتهم يلتهمون الفاصوليا ليلتها (طوال الجلسة، تتحدَّث رينا عن براعتها في الطهي، ويكون بوتش باورز المجنون غائصًا حتَّى الأذنين في عصيدة الفاصوليا التي يلتهمها بقطعة من الخبز، أو ينهرها ببساطة إذا كانت هناك مُباراة كُرة تُذاع في الراديو.. أما هنري فكانِ يزدرد الطعام فحسب، مُحدِّقًا خارج النافذة، تائهًا في أفكاره الخاصة (في واحدة من ليالي الأحد تلك، وحول مائدة الفاصوليا، حدث أن راودته فكرة تسميم كلب مايك هانلون). في الليلة التالية يأتي بيلش ليلتهم ما تبقَّى منها، ثم بعدها، في أيَّام الثلاثاء والأربعاء، يأخذ هنري علبة بلاستيكية ضخمة مليئة بالفاصوليا معه إلى المدرسة.. وبحلول الخميس أو الجمعة، يعجز هنري ووالده عن التهام المزيد منها، وتظل حجرتا نومهما في المنزل مُعبَّقة برائحة الضراط النتن بالرغم من فتح نوافذهما.. ثم يأخذ بوتش البقايا ويخلطها ببقايا طعامٍ أخرى ويطعمها لبيب وبوب، خنزيريّ آل باورز. ثم تظهر رينا بسطلٍ آخر يتصاعد البخار منه في يوم الأحد التالي، وتتكرَّر الدورة بأكملها من جديد.

هذا الصباح، جلب هنري معه كمية هائلة من بقايا الفاصوليا، والتهم أربعتهم الكمية بأكملها عصرًا في فناء المدرسة مُستظلين بظل شجرة دردار عتيقة ضخمة. لقد أكلوا حتَّى كادت بطونهم أن تنفجر.

كان باتريك هو الذي اقترح أن يقصدوا مكبَّ النفايات، الذي سيكون هادئًا إلى حدٍ كبير في منتصف يوم عملٍ صيفي كهذا، وبحلول الوقت الذي وصلوا فيه، كانت الفاصوليا قد عملت عملها في بطونهم بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا.

4

رويدًا رويدًا، بدأت بيڤرلي في البسيطرة على نفسها من جديد. كانت تعلم أن عليها المُغادرة، فمحاولة التراجع ستكون أقل خطرًا ببون شاسع من البقاء هنا. كانوا منغمسين تمامًا في ما يفعلونه، وفي أسوأ الظروف ستحظى بسبقٍ عليهم على الأقل (في خلفية عقلها قرَّرت أنه -إذا وصلت الأمور إلى سوءٍ مُريع- فإن حفنة قذائف من النِّبلة ستؤدي الغرض وستُثبِّطهم).

كانت على وشك أن تبدأ تراجعها الزاحف حين قال ڤيكتور: «يجب أن أرحل يا هنري. أبي يريد أن أساعده في جمع الذُرة عصرًا».

قال هنري: «أوه اللعنة، سوف يتدبَّر أموره من دونك».

– «لا، إنه غاضبٌ مني. بسبب ما حدث في ذلك اليوم».

– «سُحقًا له إن كان لا يتقبَّل الدُعابات».

أنصتت بيڤرلي من كثبٍ أكثر الآن، ظانه أنهم يتحدَّثون عن المُلابسات التي انتهت بكسر ذراع إدي.

– «لا، يجب أن أرحل».

قال باتريك: «أظنُّ أن مؤخِّرته تؤلمه».

قال ڤيكتور: «انتبه إلى ما يخرج من فمك أيُّها اللعين قبل أن يوقعك في ورطة».

قال بيلش: «يجب أن أرحل بدوري».

سأله هنري في غضب: «أيريد أبوك مُساعدتك في جمع الذُرة أنت أيضًا؟». لا بُدَّ أن تلك كانت دعابة في تصوُّر هنري، لأن والد بيلش كان ميِّتًا.

– «لا، لكن يجب عليّ توزيع مُلحق ويكلي شوبر، ويجب عليّ الانتهاء من العمل الليلة».

سأله هنري: «ما حكاية مُلحق ويكلي شوبر اللعين هذا؟»، وهو يبدو الآن مُنزعجًا وغاضبًا.

قال بيلش بنفاد صبرٍ: «إنها وظيفة، أكسب منها مالًا».

أصدر هنري صوتًا مُشمئِزًّا، وخاطرت بيڤرلي باختلاس نظرة أخرى من خلف السيَّارة. كان ڤيكتور وبيلش ينهضان ويربطان حزامي سراويليهما، وهنري وباتريك كانا لا يزالان جالسين القُرفصاء مُرخيين سراويليهما، والقدَّاحة تلتمع في يدِ هنري.

سأل هنري باتريك: «أنت لن تُغادر بدورك، أليس كذلك؟».

– «بلى، لن أغادر».

– «ليس عليك جمع الذُرة أو أيِّ عملٍ مُخنِّثٍ آخر؟».

كرَّر باتريك: «لا».

قال بيلش مُتردِّدًا: «حسنًا، نراك لاحقًا يا هنري».
قال هنري: «بالتأكيد»، وبصق جوار حذاء بيلش عالي الرقبة.
اتَّجه ڤيكتور وبيلش معًا نحو صفَّي السيَّارات المُحطَّمة... نحو الستودبيكر التي تربض بيڤرلي خلفها. في البداية لم تستطع بيڤرلي سوى الانكماش مُتجمِّدة خوفًا كالأرانب، ثم انزلقت تجاه الجانب الأيسر من السيَّارة وتراجعت إلى الفجوة التي بينها وبين الفورد المُهلهلة عديمة الأبواب جوارها. توقَّفت لحظة، ونظرت من جانبٍ إلى آخر، مُنصتة إلى اقترابهما. انتابها التردُّد وشعرت أن فمها جافٌ كالقُطن. كان ظهرها يحكُّها بسبب العرق، وتساءل جزء مشلول من عقلها كيف سيبدو شكلها في جبيرة كجبيرة إدي ممهورة بتوقيعات الخاسرين، ثم غاصت بعدها إلى المقعد المجاور للسائق في السيَّارة الفورد. تكوَّرت حول نفسها على الأرضية القذرة محاولة جعل نفسها صغيرة قدر الإمكان. كانت الحرارة شديدة داخل الفورد التي تفوح برائحة غُبارٍ ثقيل وبطانات عطنة وبراز فئران مُعتَّق، ما جعل بيڤرلي تُكافح بقوَّة كي لا تسعل أو تعطس. سمعت صوت اقتراب بيلش وڤيكتور، كانا يتحدَّثان بصوتٍ خفيض. ثم مضيا في طريقيهما.
عطست ثلاث مرَّات، بسُرعة وخفوت، مُغطية فمها بيدين مضمومتين.
حسبت أنها قد تستطيع المُغادرة الآن، إذا كانت حذرة. أفضل طريقة لفعل ذلك هي الانتقال إلى مقعد القيادة، والتسلُّل رجوعًا عبر الممرِّ، ثم التلاشي بالكامل. كانت تؤمن أنها ستنجح في مسعاها، لكن الصدمة من أنها كادت أن تُكتَشَف كانت قد سلبتها شجاعتها ولم تُفارقها، على الأقل في الوقت الحالي. كانت تشعُر بأمانٍ أكبر داخل الفورد. أيضًا، بما أن ڤيكتور وبيلش رحلا، رُبَّما سيرحل الاثنان الآخران بدورهما.. عندها ستستطيع العودة إلى مقرِّ النادي.. لقد فقدت كل اهتمامها بالتدريب على التصويب.
أيضًا، هي في حاجة إلى أن تتبوَّل.
فكَّرت بيڤرلي: هيَّا، هيَّا ارحلا سريعًا، ارحلا سريعًا أرجوكما.
بعدها بلحظة سمعت باتريك هوكستيتر يضج بمزيج من الضحك والألم.
صاح هنري: «ستَّة أقدام! كأنها شُعلة موقد لحام لعين! أقسم بالله!».

بُرهة من الصمت. العرق يسيل على ظهرها. أشعة الشمس تدخل السيَّارة عبر زجاج الفورد الأمامي المُشظَّى وتسقط على قفاها. ثِقَلٌ في مثانتها.

صاح هنري بصوتٍ عالٍ جدًا، لدرجة أن بيڤرلي التي كانت توشك على فُقدان الوعي رغم مشقتها، كادت أن تصرخ بدورها.

– «اللعنة يا هوكستيترا لقد أحرقت مؤخِّرتي اللعينة! ماذا تفعل بالقدَّاحة؟».

– «عشرة أقدام»، قالها باتريك ضاحكًا (مُجرَّد سماع هذا الصوت جعل بيڤرلي تشعُر بالبرودة والتقزُّز، كأنها رأت دودة تخرج من طبق سلاطتها)، ثم أردف: «عشرة أقدام من اللهب الأزرق على الأقل يا هنري. عشرة أقدام على الأقل. أقسم بالله!».

غمغم هنري مُتذمِّرًا: «أعطني هذه».

هيَّا، هيَّا يا أحمقان، غادرا، انصرفا!

عندما تحدَّث باتريك ثانيةً، كان صوته خفيضًا جدًّا، وسمعته بيڤرلي بالكاد. لو أن نسمة هواء عابرة واحدة هبَّت لم تكن ستسمعه.

قال باتريك: «دعني أريك شيئًا».

سأله هنري: «ماذا؟».

– «شيئًا فحسب»، ثم توقَّف لحظة وأردف: «إنه شعور لذيذ».

سأله هنري ثانيةً: «ماذا؟».

ثم ساد الصمت.

لا أريد أن أنظر، لا أريد أن أنظر إلى ما يفعلانه الآن، كما أنهما قد يلاحظاني، في حقيقة الأمر سيلاحظاني دون ريب لأنني استنفدت جميع حظي اليوم. امكثي في مكانك فحسب يا فتاة. لا تلقي النظر...

لكن فضولها تغلَّب على حسِّها السليم. ثمَّة شيءٌ غريب في هذا الصمت، شيءٌ مُخيف نوعًا. رفعت بيڤرلي رأسها بوصة تلو البوصة حتَّى تمكَّنت من النظر عبر زجاج الفورد الأمامي المتصدِّع، وأدركت أنه لم يكن ثمَّة داعٍ للقلق من أن يتكشَّف أمرها، فكلا الولدين كان يصب تركيزه على ما يفعله باتريك.

لم تفهم ما تراه، لكنها شعرت بأنه مُقرف. لم يكن هذا يعني أنها لا تتوقَّع أيَّ شيءٍ مريض من باتريك، ذلك المعتوه غريب الأطوار.

كان هوكستيتر يضع إحدى يديه بين فخذي هنري، يده الأخرى بين فخذيه هو. كانت يداعب عضو هنري بلطف بيدٍ، وبيده الأخرى راح يدعك عضوه. لكنه لم يكن يدعكه بالضبط، بل كان... يعتصره نوعًا ما... يجذبه، ثم يدعه يرتمي بتثاقل مُتدلِّيًا.

ماذا يفعل؟ تعجَّبت بيڤرلي فَزِعة.

لم تكن تفهم -ليس تمامًا- لكن المشهد أخافها. لا تظن أنها شعرت بخوفٍ مماثل كما تشعر الآن منذ ذلك اليوم الذي قِيئَت الدماء فيه من بالوعة الحمَّام وأغرقت كل شيء. ثمَّة جزء منها يصرخ بها أنهم إذا علموا أنها رأت ما يفعلانه -أيًّا كان ما يفعلانه- فقد يفعلان بها ما هو أكثر من الأذى.. قد يقتلونها بالفعل.

ورغم ذلك، لم تستطع الإشاحة بنظرها بعيدًا.

رأت أن عضو باتريك صار أطول قليلًا، لكنه كان ما زال مُتدليًا بين فخذيه كثعبان بلا عمودٍ فِقَري. في المقابل، استطال عضو هنري بشكل مُذهل. لقد انتصب في قوَّة وصلابة وبلغ سُرَّته تقريبًا. راحت يد باتريك تتحرَّك إلى أعلى وأسفل، أعلى وأسفل، وهي تتوقَّف أحيانًا لاعتصاره وأحيانًا لدغدغة ذلك الكيس الغريب الثقيل أسفل عضو هنري.

فكَّرت بيڤرلي: تلك خصيتاه. هل يحمل الأولاد هاتين الكُرتين معهم طوال الوقت؟ يا إلهي، إن هذا قد يثير الجنون. ثم همس جزء آخر من عقلها فيها: بيل يمتلك مثل هاتين. تخيَّلت أنها بيڤرلي تمسكهما، وتحتضنهما في كفَّيها مُستشعرة ملمسهما، فسَرَت في جسدها تلك الموجة الساخنة من جديد وأشعلَت في وجنتيها احمرارًا حارًّا.

سأله باتريك: «هل تحب أن أضعه في فمي؟»، ثم ابتسم بشفتيه الكبيرتين المُكتنزتين في رضا.

سأله هنري: «هه؟»، وكأنه استيقظ من حلم عميق.

- «سأضعه في فمي إذا رغبت. لا أمانع أنّ...».

اندفعت قبضة هنري المرتخية قليلًا إلى وجهه. سقط باتريك أرضًا منبطحًا، واصطدم رأسه بالأرض المفروشة بالحصى. انكمشت بيفرلي من جديد، وغاص قلبها في صدرها، وعضَّت شفتيها بأسنانها كاتمة أنَّة فاضحة كانت على وشك الإفلات. بعد أن ضرب باتريك، استدار هنري خلفًا لحظة، بالكاد قبل أن تغوص مُجدَّدًا إلى مكمنها في المقعد المجاور للسائق. لقد شعرت أن عيني هنري التقت عينيها.

يا إلهي، قل لي إن الشمس كانت تضرب عينيه. أنا آسفة لأنني نظرت. أرجوك يا الله.

مرَّت لحظة صمت مُعذِّبة بعدها. كانت بلوزتها البيضاء تلتصق بجسدها من العرق، وقطراتٍ منه تلتمع على ساعدها الذي لوَّحته الشمس كبذورٍ مُتلألئة. راحت مثانتها تنبض بضراوة، وظنَّت أنها قريبًا جدًّا ستبول على نفسها. انتظرت أن يظهر وجه هنري المجنون من الفتحة التي كان يحتلها باب السيَّارة الفورد من قبل، مُتأكِّدة أن هذا سيحدث... كيف يمكن ألا يراها؟ سيجرُّها من مكمنها ويؤذيها بقسوة. ســ...

الآن، جالت بخاطرها فكرة أكثر ترويعًا، ومن جديد بذلت مجهودًا عظيمًا مؤلمًا كي لا تبول في سراويلها القصيرة. ماذا إذا فعل معها شيئًا بعضوه. ماذا لو أرادها أن تضعها في مكانٍ ما؟ كانت تعرف أين يوضع بلا ريب، وبدا أن تلك المعرفة قد تشكَّلت في عقلها دفعة واحدة. فكَّرت بيفرلي أنها ستُجنُّ لو حاول هنري وضع شيئه داخلها.

أرجوك يا إلهي ألا تكون قد سمحت له برؤيتي، أرجوك، حسنًا؟

بعدها تحدَّث هنري، وشعرت بيفرلي مذعورة أن صوته يأتي من مكانٍ ما أقرب كثيرًا: «لا أريد الانخراط في أمور الشواذ هذه».

من بعيد، أتى إليها صوت باتريك: «لقد أحببت الأمر».

صاح هنري غاضبًا: «لم أحبه! وإذا أخبرت أحدًا أنك فعلت ذلك سأقتلك أيُّها المُخنَّث الحقير الصغير».

قال باتريك: «لقد انتصب». كان صوته يبدو كأنه يبتسم، وبالرغم من مدى خوفه وخشيته من هنري باورز، مثل هذه الابتسامة لم تكن تُفاجئ بيفرلي. إن

باتريك مخبول، ورُبَّما أكثر جنونًا من هنري. الأشخاص الذين يبلغون هذه الدرجة من الجنون لا يهابون شيئًا. «لقد رأيته».

صوت خطوات تسحق الحصى: تقترب، تقترب. رفعت بيڤرلي نظرها وجحظت عيناها، وعبر زجاج الفورد الأمامي القديم استطاعت رؤية قفا هنري الآن. كان ينظر إلى باتريك، لكن لو استدار سوف...

قال هنري: «إذا أخبرت أيَّ شخصٍ، سأقول إنك تحب المصَّ حُبًّا جمًّا، ثم سأقتلك بعدها».

قال باتريك مُقهقهًا: «أنت لا تُخيفني يا هنري. لكنني لن أقول رُبَّما لو أعطيتني دولارًا».

تململ هنري في وقفته، واستدار قليلًا. استطاعت بيڤرلي أن ترى الآن جُزءًا من جانب وجهه بدلًا من قفاه فحسب. أرجوك يا الله، أرجوك، هكذا راحت تتضرَّع مُشوَّشة، بينما مثانتها تنبض بقوَّة.

قال هنري بصوتٍ خفيضٍ مُتعمد: «إذا تكلَّمت سأحكي ما كنت تفعله في القطط، وفي الكلاب أيضًا. سأخبرهم بأمر الثلَّاجة. أتعرف ماذا سيحدث حينها يا هوكستيتر؟ سيودعونك في مصحَّة المجانين اللعينة».

لم يتفوَّه باتريك بكلمة.

نقر هنري على غطاء مُحرِّك الفورد التي تختبئ بيڤرلي داخلها: «هل تسمعني؟».

- «أسمعك». كان صوته يبدو كدرًا الآن وخائفًا نوعًا، ثم انفجر صائحًا: «لقد أعجبك الأمر. لقد انتصب قضيبك أكبر انتصاب رأيته في حياتي».

- «أجل، أراهن أنك رأيت كثيرًا منها أيُّها المُخنَّث الشاذ الصغير اللعين. فقط تذكَّر ما قلته لك عن الثلَّاجة.. ثلَّاجتك.. وإذا رأيتك في الجوار ثانيةً، سأنهال عليك ضربًا».

لم ينطق باتريك مرَّة أخرى.

تحرَّك هنري مُبتعدًا. أدارت بيڤرلي رأسها ورأته يعبر من جوار جانب مقعد القيادة. لو كان قد طرف بعينه يسارًا لرآها على الفور. لكنه لم ينظر. بعدها بلحظات سمعته يمضي مُبتعدًا من الطريق الذي سلكه ڤيكتور وبيلش.

لم يتبقَّ سوى باتريك الآن.

تريَّثت بيڤرلي مُنتظرة، لكن شيئًا لم يحدث. مرَّت خمس دقائق. إنها في حاجة ماسَّة إلى التبوُّل الآن. قد تستطيع إمساك نفسها دقيقتين أو ثلاث دقائق أخرى، لكن ليس أكثر من ذلك، وقد جعلها جهلها بموقع باتريك الحالي مُضطربة وتترقَّب شرًّا.

اختلست النظر عبر الزجاج الأمامي من جديد ووجدته يجلس مكانه. لقد نسي هنري قدَّاحته. كان باتريك قد وضع كتبه المدرسية في حقيبته الكتَّانية وعلَّقها حول رقبته كموزِّع الجرائد، لكنه كان لا يزال خالعًا سراويله ولباسه الداخلي. كان يعبث بالقدَّاحة.. يضغط بكرتها الحديدية، ويشعل لهبها، ثم يغلقها، ويبدأ الدورة من جديد. بدا كأنه منوَّم. ثمَّة خيطٌ من الدماء يجري من ركن فمه إلى ذقنه، وشفتاه مُنتفختان من جانبهما الأيمن. كان يبدو كأنه لا يلاحظ ذلك، ومن جديد شعرت بيڤرلي بنوعٍ مُربِك من الاشمئزاز. باتريك مُختل بالكامل. لم تشعر من قبل بمثل هذه الرغبة في البقاء بعيدًا عن شخصٍ في حياتها.

تحرَّكت بيڤرلي بحرصٍ بالغ، وزحفت من فوق عصا ناقل التروس الفورد واعتصرت جسدها أسفل المقود. أنزلت قدمها إلى الأرض وتسلَّلت إلى آخر السيَّارة، ثم ركضت سريعًا عبر الطريق الذي جاءت منه. عندما دخلت إلى نطاق أشجار الصنوبر الذي يقع خلف رُكام السيَّارات، نظرت إلى الخلف من فوق كتفها. لم يكن أحد هناك. مكب النفايات يستحم في سكون أسفل أشعة الشمس. شعرت بقيود التوتُّر التي تلف صدرها ومعدتها ترتخي، وكل ما تبقَّى هو حاجتها العارمة للتبوُّل، التي كانت تُسقمها الآن.

أسرعت في طريقها عبر الممر ثم انحنت منزوية إلى اليمين. كانت قد حلَّت سراويلها القصيرة بالفعل قبل أن تسترها الشجيرات التي التجأت إليها. ألقت نظرة سريعة حولها لتتأكَّد من عدم وجود أيٍّ لبلابٍ سام في الجوار، ثم جلست القرفصاء، ممسكة بجذع شجيرة راسخ لحفظ توازنها.

أنهت ما تفعله، وبدأت ترتدي سراويلها القصيرة مُجدَّدًا عندما سمعت صوت خطواتٍ تقترب آتية من جهة المكبِّ. كل ما استطاعت تبيُّنه من خلف

ستار الشجيرات هو شذراتٍ من سراويل زرقاء قماشية وتيشرت ذو نقوشٍ بهت لونه. إنه باتريك. انحنت بيڤرلي مُنتظرة عبوره إلى جهة شارع كانساس. كانت مُطمئنة أكثر في موقعها الحالي هذا. إن الحِجابَ جيِّد، ولم تعد في حاجة للتبوُّل، وباتريك سارح في هذيان عالمه الخاص. عندما سيرحل، ستركض عائدة إلى مقرِّ النادي.

لكن باتريك لم يمر، بل توقَّف في الممرِّ قبالة مكمنها مُباشرةً تقريبًا، وراح ينظر إلى الثلَّاجة الصدئة المُهملة.

كانت بيڤرلي قادرة على رؤية باتريك من بين الشجيرات على امتداد بصرها الطبيعي من دون مُخاطرة كبيرة تجعله يستطيع رصدها. الآن بعد أن ارتاحت وتحرَّرت من خوفها، شعرت بالفضول يتسلَّل إليها ثانيةً. لا داعي للقلق، إذا حدث ورآها، فهي بالتأكيد تستطيع التفوُّق عليه ركضًا. لم يكن بدينًا كبن، لكنه مُمتلئ وقصير، ومع ذلك أخرجت النِّبلة ووضعت ستَّ كُريات حديدية في جيب صدر بلوزتها القديمة. لا يهم إن كان مجنونًا أو لا.. إن قذيفة واحدة جيدة إلى رُكبة باتريك هوكستيتر كفيلة بتثبيط همَّته سريعًا.

تذكَّرت الثلَّاجة جيِّدًا الآن. ثمَّة كثيرٌ من الثلَّاجات المُهملة في المكبِّ، لكنها أدركت فجأة أن هذه هي الثلَّاجة الوحيدة التي لم يُفكِّكها ماندي فازيو إما بتحطيم أقفالها أو نزع بابها بالكامل فحسب.

بدأ باتريك في الدندنة والتمايل أمامًا وخلفًا قبالة الثلَّاجة القديمة الصدئة، وشعرت بيڤرلي بمخاوف جديدة طازجة تتأجَّج في صدرها. إنه كشخصٍ يحاول استدعاء وإحياء جُثَّة من مقبرة في فيلم رُعب.

ما الذي ينتويه؟

لكن لو كانت بيڤرلي قد علمت ذلك وقتها، أو علمت ماذا سيحدث لباتريك هوكستيتر عندما سينتهي من طقوسه ويفتح باب الثلَّاجة الهامدة الصدئة، لفرَّت هاربة بكل ما أوتيت من قوَّة.

5

لم يكن أحد يعلم مقدار جنون باتريك هوكستيتر الحقيقي، ولا حتَّى مايك

هانلون. إن الصبي في الثانية عشرة من عمره، وابن بائع طلاء. كانت أمه امرأة كاثوليكية مُتدينة ستتوفَّى بسرطان الثدي في عام 1962، بعد أربع سنوات من تغذِّي الكيان المُظلم الذي يحيا أسفل مدينة ديري على باتريك هوكستيتر. رغم أن مُعدَّل ذكائه كان قد اختُبر بالفعل وحُدِّد بأنه في المستوى الطبيعي المُتدنِّي، رسب باتريك عامين في المدرسة، في الصفين الأوَّل والثالث، وكان يرتاد الدروس الصيفية هذا العام كي لا يرسب في عامه الدراسي الخامس أيضًا. كان مُدرِّسوه يعدونه تلميذًا بليدًا (هكذا أشار كثيرٌ منهم في حاشية المُعلِّمين في تقارير المدرسة) ومصدرَ إزعاج نوعًا ما أيضًا. إذا كان باتريك قد وُلِد بعد عشر سنوات من الآن، لرُبَّما أحاله مستشار التوجيه إلى طبيب أطفال نفسي، هذا الأخير رُبَّما كان سيدرك الأعماق النفسية المُخيفة التي تختبئ خلف هذا الوجه المُتراخي الشاحب (ورُبَّما لا، فباتريك كان أكثر ذكاءً بكثير من اختبارات مُعدَّل الذكاء البليدة التي أُجريت له).

كان باتريك مُعتلًّا اجتماعيًّا، وبحلول صيف عام 1958 الحار هذا، رُبَّما صار مُعتلًّا اجتماعيًّا ومريضًا نفسيًّا كاملًا. لم يكن باتريك يتذكَّر متى كان يعتقد أن الناس -أو أيَّ مخلوقٍ حيٍّ آخر- «حقيقيون». كان يعد نفسه مخلوقًا فعليًّا، رُبَّما المخلوق الفعلي الوحيد في الكون، لكنه لم يكن يقتنع بأيِّ حالٍ من الأحوال أن هذه الفعلة تجعله حقيقيًّا. لم يكن يفهم معنى إيذاء الآخرين تمامًا، ولا معنى أن يتعرَّض هو نفسه للإيذاء (كانت لا مُبالاته باللطمة التي لطمها له هنري على فمه في مكب النفايات مثالًا على ذلك)، لكن رغم أنه كان يرى أن الواقع مفهوم لا معنى له، فكان يدرك مفهوم الـ «قواعد» جيِّدًا.. ورغم أن جميع مُدرِّسيه كانوا يجدونه غريبًا (كانت مسز دوجلاس مُعلِّمة الصف الخامس ومسز وييمز التي درَّست لباتريك في الصف الثالث تعرفان عن مقلمته المليئة بالذُباب، ورغم أن أيًّا منهما لم تتجاهل تداعيات ذلك الأمر تمامًا، فقد كان لدى كلٍّ منهما ثمانية وعشرون تلميذًا آخر، كُلٌّ له مُشكلاته)، لم تكن لدى أيٍّ منهم مشاكل انضباط جسيمة معه. صحيح أنه كثيرًا ما يُسلِّم أوراق إجابات الامتحانات ناصعة البياض، أو خالية إلا من علامة استفهام كبيرة، وصحيح أن مسز دوجلاس كانت قد اكتشفت أنه من

الأفضل إبعاده عن الفتيات بسبب يديه المُتسلِّلتين وأصابعه مُتلمِّسة النهود، إلا أنه كان هادئًا.. هادئًا لدرجة أن أحدهم قد يظنه كتلة كبيرة من الصلصال شُكِّلت سريعًا في هيئة صبي. كان من السهل تجاهُل باتريك -البليد الهادئ- عندما يكون عليك التعامل مع أولادٍ كهنري باورز وڤيكتور كريس اللذين كانا مصدرا إزعاجٍ وقسوة نشيطين، ويسرقان مصروف التلاميذ ويشوهان ممتلكات المدرسة بسرورٍ إذا أُتيحت لهما الفرصة.. عندما يكون عليك التعامل مع فتياتٍ كإليزابيث تيلور التي لم تكن اسمًا على مُسمًّى المُصابة بالصرع التي تعمل خلايا عقلها الشحيحة البائسة بشكلٍ مُتقطِّع فحسب، والتي كان يجب نهرها بشكلٍ دوري وبحزم كي لا ترفع تنورتها في فناء المدرسة لإظهار لباسها التحتي الجديد. بعبارة أخرى، كانت مدرسة ديري الابتدائية نموذجًا مثاليًا للكرنڤال التربوي المُختلط. سيركًا يجوبه بهلوانات كُثُر لدرجة أن بيني وايز نفسه قد يمر به دون أن يلحظه أحد. بالتأكيد لم يكن أيٌّ من مُعلِّمي باتريك -أو حتَّى والديه- يعلمون أن الصبي قتل أخاه الرضيع عندما كان في الخامسة من العمر.

لم يحب باتريك الوضع عندما عادت أمه من المُستشفى ورضيعها آڤري بين ذراعيها. لم يكن يهتم (أو هكذا أخبر نفسه في البداية) إن حظي والداه بطفلين، أو خمسة، أو خمسة عشر طفلًا، ما دام ذلك لن يغيِّر من جدوله الزمني في شيء. لكنه وجد أن وجود آڤري يُسبِّب ذلك. صارت الوجبات تأتيه مُتأخِّرة عن ميعادها المُعتاد. الرضيع يبكي ليلًا ويوقظه من نومه. بدا له أن والديه دائمًا ما ينحنيان فوق مهده الصغير، وكان باتريك يفشل عندما يحاول جذب اهتمامهما إليه عادةً، وفي واحدة من المرَّات القليلة في حياته، صار باتريك خائفًا. خطر في عقله لو أن والديه قد أحضراه هو من المُستشفى، وأنه إذا كان «حقيقيًّا»، إذًا فآڤري حقيقي بدوره. رُبَّما حتَّى عندما يكبر بما يكفي ويستطيع المشي والتحدُّث وجلب نسخة والده من جريدة أخبار ديري من عتبة الباب ومناولة أمه الأطباق العميقة وهي تخبز الخبز، قد يُقرِّران التخلُّص من باتريك بالكامل. لم يكن ما يخافه أن يشعُر والداه بحُبٍّ أكثر نحو آڤري (رغم أن ذلك كان جليًّا لباتريك بالفعل، وفي هذه الحالة قد

يكون حُكمه صحيحًا)، ما كان يهمه هو التالي: 1) القواعد التي خُرِقت أو تغيَّرت منذ مجيء آڤري، 2) احتمالية أن يكون آڤري حقيقيًّا، و3) احتمالية أن يتخلَّصا منه تفضيلًا لآڤري.

ذهب باتريك إلى غرفة آڤري بعد ظهر أحد الأيَّام في الساعة الثانية والنصف، بعد فترة وجيزة من توصيل الحافلة المدرسية له إلى المنزل من حضانته. كان هذا في شهر يناير، وفي الخارج، كان الثلج قد بدأ يتساقط. ثمَّة رياح شديدة تهب عبر حديقة مكارون وتصفع نوافذ الدور العلوي المُجمَّدة المُضادة للعواصف. كانت أمه تغفو في حجرتها. لم ينفك آڤري عن الصراخ طوال الليل، لكنه الآن كان نائمًا على بطنه، ورأسه معوجًّا إلى أحد الجانبين، وكان أبوه في العمل.

أدار باتريك -بوجهه المُستدير الخالي من التعبير- رأس آڤري إلى أن صار رأسه مضغوطًا في الوسادة. أصدر الرضيع صوتًا متململًا وأعاد رأسه من جديد إلى وضعه السابق. راقب باتريك تصرُّفه، وتوقَّف مُفكِّرًا فيما كان الجليد يذوب عن فردتي حذائه الأصفر عالي الرقبة ويتجمَّع في بركة صغيرة على الأرضية. مرَّت خمس دقائق (لم تكن سرعة البديهة من فضائل باتريك)، ثم أدار الصبي رأس آڤري إلى الوسادة من جديد وثبَّته لحظات. تقلقل آڤري أسفل يديه مقاومًا، لكن مقاومته كانت ضعيفة. أطلق باتريك سراحه. أعاد آڤري رأسه إلى الجانب مرَّة أخرى، وأصدر شخيرًا صارخًا واحدًا، ثم عاود النوم مُجدَّدًا. هبَّت الريح صافعة النوافذ. انتظر باتريك ليرى إن كانت الصرخة الواحدة هذه ستوقظ أمه أم لا. لكنها لم تفعل.

الآن شعر بحماسة عظيمة تجتاحه، وبدا له أن العالم يبزغ جليًّا أمامه للمرَّة الأولى. كانت أجهزته العاطفية معيبة تمامًا، وفي تلك اللحظة استشعر باتريك ما قد يستشعره شخصٌ مُصاب بعمى ألوان إذا أخذ مِحقنًا يُمكِّنه من رؤية الألوان لفترة وجيزة، أو كمُدمن مُخدِّرات حلَّقت صواريخ المُخدِّر بعقله إلى مداره. كان الشعور مُسكرًا وجديدًا تمامًا عليه، ولم يكن يشتبه حتَّى في وجوده.

برفقٍ شديد، دس باتريك وجه آڤري في الوسادة من جديد. هذه المرَّة

عندما قاوم الرضيع لم يطلق باتريك سراحه، بل ضغط وجهه في الوسادة بمزيدٍ من الحزم. راح الرضيع يصدر صرخاتٍ مكتومة متواصلة، وأدرك باتريك أنه استيقظ، وجالت في عقله فكرة ضبابية أنه سيَشِي به إلى والدته لو تركه الآن. استمرَّ باتريك في ضغط رأسه. قاوم الرضيع. حافظ باتريك على تثبيته. فلتت من الرضيع ضرطة صغيرة، ثم بدأت مقاومته تضعف. لم ينفك باتريك عن تثبيته، وفي النهاية همد جسد الطفل تمامًا، واصل باتريك ضغط رأسه في الوسادة خمس دقائق أخرى، وبلغ ذروة النشوة، قبل أن تبدأ في الانحسار. المُخدِّر ينسحب من جسده، العالم يعود رماديًا من جديد، الجُرعة تفقد تأثيرها الأخَّاذ.

نزل باتريك إلى الدور الأرضي وجلب لنفسه طبقًا من الكعك وصبَّ لنفسه كوبًا من الحليب. نزلت أمه بعد نصف ساعة وقالت إنها لم تسمع قدومه، وعلَّقت أنها لهذه الدرجة مُتعبة (فكَّر باتريك: لن تتعبي بعد الآن يا أماه، لا تقلقي، لقد اعتنيت بالأمر). جلست معه، وأكلت واحدة من كعكاته، وسألته عن أحواله في المدرسة. قال لها باتريك إن الأمور جيِّدة وأراها صورة رسمها لمنزل وشجرة. كانت لوحته تتكوَّن من شخابيط أنشوطية لا معنى لها مرسومة بألوان شمع سوداء وبُنِّية. قالت له إنها جميلة جدًّا. كان باتريك يحضر معه نفس الشخابيط التي لا معنى كل يوم من المدرسة. أحيانًا كان يقول إنها ديك رومي، وأحيانًا شجرة كريسماس، وأحيانًا صورة لصبي، ودائمًا ما كانت أمه تخبره أنها جميلة جدًّا... رغم أنها أحيانًا -في جزء عميق من شخصيتها لم تكن تعلم بوجوده- كانت تقلق. ثمَّة شيءٌ مُثير للقلق في هذا التكرار المُبهم الكئيب من الشخابيط الدائرية السوداء والبُنِّية.

لم تكتشف الأم موت آفري حتَّى الساعة الخامسة. حتَّى ذلك الوقت كانت تظن فقط أنه يحظى بغفوة طويلة جدًّا. بحلول ذلك الوقت كان باتريك يشاهد مسلسل الرسوم المُتحرِّكة الأرنب الصليبي على تلفازهم الصغير، ولم يبرح مُشاهدته في أثناء الجلبة والصخب اللذين تليا ذلك. كان التلفاز قد بدأ يعرض مُسلسل المروحيَّات عندما أتت جارتهم السيِّدة هنلي من الشقة المُقابلة (كانت أمه تمسك بجُثَّة الرضيع وتصرخ على عتبة باب المطبخ

المفتوح، ظانة ظنًّا أعمى أن الهواء البارد قد يُفيقه، وقد شعر باتريك بالبرد وأخرج سُترته من خِزانة الدور الأرضي)، وكان التلفاز يعرض هايواي باترول -مُسلسل بن هانسكوم المُفضَّل- عندما جاء رب الأسرة السيِّد هوكستيتر من عمله، وعندما وصل الطبيب، كان برنامج مسرح الخيال العلمي الذي يُقدِّمه ترومان برادلي على وشك البدء. «من يعرف ما الأشياء الغريبة التي يُخبِّئها الكون لنا؟»، هكذا كان ترومان برادلي يتساءل في الوقت الذي كانت أم باتريك ترتجف بين ذراعي زوجها في المطبخ. لاحظ الطبيب هدوء باتريك العميق ونظرته اللا مُتسائلة وخمَّن أنه في حالة صدمة. أراد أن يعطي باتريك قرص دواء، ولم يمانع الصبي.

شُخِّص الأمر على أنه متلازمة الموت في المهد. بعد سنوات ستُثار أسئلة كثيرة حول مثل هذه الوفيات، بعد مُلاحظة انحرافات عن مُتلازمة وفيات الرُّضَّع المألوفة. لكن وقتها سُجِّلت وفاة آفري فحسب ودُفن الرضيع. شعر باتريك بالارتياح لأنه بمجرد أن استقرَّت الأمور أخيرًا، بدأت وجباته تأتي في أوقاتها من جديد.

في عصر ومساء ذلك اليوم الحافل بالجنون -أناس يجيئون ويخرجون من المنزل، أضواء سيَّارة إسعاف المُستشفى الرئيس تنبض على الجدران، صرخات السيِّدة هوكستيتر ونحيبها ورفضها لكل أنواع المواساة- وحده والد باتريك الذي اقترب من تلمُّس جسد الحقيقة. كان يقف مشلولًا أمام فراش آفري الخاوي بعد نحو عشرين دقيقة من إزالة الجُثَّة.. يقف مكانه فحسب رافضًا تصديق حدوث أيٍّ من هذا. نظر إلى أسفل ورأى زوجيّ آثار الأقدام على الأرضية الخشبية تشكَّلتا بسبب ذوبان الجليد من فردتي حذاء باتريك المطَّاطي. نظر الأب إليهما، وصعدت فكرة مُريعة إلى عقله كأنها غاز كريه الرَّائحة يتصاعد من فوَّهة منجم، وجدت يداه طريقهما إلى فمه واتَّسعت عيناه عن آخرهما. بدأت صورة تتشكَّل في عقله، لكن قبل أن تتبلور تمامًا، غادر الأب الغُرفة وصفع الباب من ورائه بقوَّة كاسحة لدرجة أن قمَّة حافَّته تشقَّقت.

ولم يطرح على باتريك أيَّ أسئلةٍ قط.

لم يرتكب باتريك شيئًا مثل هذا مرَّة أخرى في حياته، على الرغم من أنه من المُمكن أن يرتكبه إذا أتيحت له الفُرصة. لم يشعر الصبي بأيِّ ذنبٍ، ولم تنتابه أيُّ كوابيس. لكن مع مرور الوقت، صار أكثر وعيًا بما كان سيحدث له لو أن أمره كان قد اكتُشِف. تُوجد قواعد، وقد تحدث لك أمورٌ غير سارَّة إذا لم تتَّبع تلك القواعد، أو إذا شوهدت وأنت تخرقها. قد ينتهي بك الأمر في السجن أو على الكُرسي الكهربائي.

لكن ذلك الشعور بالحماسة -ذلك الشعور بالنشوة المُلوَّنة والانتشاء- كان أقوى وأكثر إذهالًا من أن يُتخلى عنه بالكامل ببساطة. لذا راح باتريك يقتل الذباب. في البداية كان يضربه فحسب بمضرب الذباب الخاص بأمه، لكنه اكتشف لاحقًا أنه يستطيع قتله بفاعلية تامة بمسطرته البلاستيكية. أيضًا اكتشف مباهج مصيدة الذباب الورقية. كان يستطيع شراء بكرة طويلة من الورق اللزج مقابل سِنت من متجر جادة كوستيلو، وكان يقف أحيانًا مُدَّة ساعتين في المرآب بفمٍ مفتوح، يشاهد الذباب يسقط فوق الورقة ويجاهد للتحرُّر، وعيناه الكالحتان تلتمعان بتلك الحماسة النادرة، والعرق يسيل على وجه المُستدير وجسده المُمتلئ. كان باتريك يقتل الخنافس أيضًا، لكنه يُمسك بها أوَّلًا إن استطاع. أحيانًا كان يسرق إبرة طويلة من وسادة الدبابيس الخاصة بأمه، ويخوزق خنفسة يابانية بها، ثم يجلس متقاطع الساقين في الحديقة يراقب احتضارها الأليم. كان التعبير الذي يعتلي وجهه في هذه الأوقات تعبيرَ وجه صبي يقرأ كتابًا جيِّدًا جدًّا. ذات مرَّة، اكتشف قطًّا يحتضر دهسه شخصٌ ما بسيَّارته في نهاية شارع مين وجلس يراقبه، إلى أن رأته سيِّدة عجوز وهو يركل المخلوق المسكين المهروس الذي يموء ألمًا بقدمه. ضربته السيِّدة بالمكنسة التي تكنس بها الممرِ المؤدي إلى منزلها، وصرخت فيه: عُد إلى منزلك! هل أنت مجنون؟ عاد باتريك إلى منزله بالفعل. لم يكن غاضبًا من المرأة العجوز. لقد شوهِد وهو يخرق القواعد، هذا كل ما في الأمر.

في العام الماضي، اكتشف باتريك الثلَّاجة الصدئة المُهملة.. إحدى كويكبات النفايات الضخمة في حزام الكويكبات الذي يحيط بالمكبِّ. لم

يكن مايك هانلون أو أي من الخاسرين سيتفاجأ لمعرفة أن ذلك حدث في الحقيقة في اليوم الذي قُتِل فيه چورچ دِنبروه.

مثل بيڤرلي، كان باتريك قد سمع التحذيرات الكثيرة حول مثل هذه الأجهزة المهجورة، وعن كيف أن نحو نيف وثلاثين مليون طفل يقتلون ذواتهم الحمقاء وهم يلهون جوارها كل عام، وقف باتريك ينظر إلى الثلَّاجة وقتًا طويلًا، واضعًا يديه في جيبيه، وعابثًا بهما بقضيبه في تراخٍ. لقد عاد الشعور بالحماسة أقوى من أيِّ وقتٍ سابق، باستثناء المرَّة التي عالج فيها آڤري. لقد عادت الحماسة -وسط الأفكار المُخيفة القذرة التي عبرت عقله- لأن باتريك عَلِم أن لديه فكرة جيِّدة.

بعدها بأسبوع، فقد آل لوسي -الذين يقطنون على بُعد ثلاثة منازل من بيت آل هوكستيتر- قطهم بوبي. لقد أمضى صبي آل لوسي -الذي لم يكن يتذكَّر شكل حياته قبل بوبي- ساعاتٍ طوال يُمشِّط الحي بأكمله بحثًا عن قِطهُ. لقد جمعوا أموالهم ووضعوا إعلانًا في عمود المفقودين في جريدة أخبار ديري، لكن ثماره لم تؤت.. وإذا كان قد حدث وشاهد أحدهم باتريك في ذلك اليوم وهو يحمل صندوقًا من الورق المقوَّى، ويبدو ضخمًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى في معطفه الطويل الجديد الذي تفوح منه رائحة أقراص النفتالين (لقد ازدادت حدَّة البرد سريعًا بعدما تراجعت مياه الفيضان في ذلك الخريف المشؤوم من عام 1957)، لم يكن سيخطر في باله أيُّ شيءٍ.

بعدها بعشرة أيَّام، فقد آل إنجستورم -الذين يقطنون خلف منزل آل هوكستيتر مُباشرةً تقريبًا- جروهم الكوكر في عيد الشُكر، وفقدت عوائل أخرى كلابهم وقططهم طوال الشهور الستة أو الثمانية التالية. كان باتريك من أخذها جميعًا بالطبع، فضلًا عن أكثر من دزينة من الحيوانات الضالة التقطها من منطقة نصف الفدَّان الجحيمي في ديري.

كان باتريك يضع الحيوانات في الثلَّاجة الصدئة واحدًا تلو الآخر. في كل مرَّة كان يحضر فيها حيوانًا جديدًا بقلبٍ لا يتوقَّف عن الخفقان في صدره ورطوبة ساخنة في عينيه من فرط الحماسة، كان يتوقَّع أن يجد ماندي فازيو قد سحب قفل الثلَّاجة أو حطَّم مفصلاتها بمطرقته. لكن ماندي لم يمس تلك

الثلَّاجة بعينها. رُبَّما لم يكن يلحظ وجودها، ورُبَّما كانت قوَّة إرادة باتريك تبقيه بعيدًا... أو رُبَّما قوَّة أخرى هي التي فعلت ذلك.

كان جرو آل إنجستورم الكوكر أطول من استمرَّ على قيد الحياة من ضمن الحيوانات، وبرغم البرد القارس، كان لا يزال الجرو حيًّا عندما عاد باتريك للمرَّة الثالثة في ثلاثة أيَّام متتالية، لكنه كان قد فقد كل مرحه ولهوه اللعوب (كان يبصبص بذيله ويلعِق يديه بشكلٍ محموم عندما أخرجه أوَّل مرَّة من الصندوق ووضعه في الثلَّاجة). عندما عاد في اليوم الذي تلى هجره إيَّاه في الثلَّاجة، كاد الجرو أن يفر. اضطر باتريك لمطاردته طوال الطريق إلى المكبِّ تقريبًا قبل أن يتمكَّن من القفز والإمساك بإحدى قدميه الخلفيتين. عضَّ الجرو باتريك بأسنانه الحادَّة، لكن باتريك لم يبال، وبالرغم من العضَّات، عاد بالكوكر إلى الثلَّاجة وزجَّه فيها من جديد. انتصب قضيبه عندما فعل ذلك، ولم يكن هذا أمرًا غير مألوفٍ.

في اليوم التالي حاول الجرو الهروب مُجدَّدًا، لكنه كان يتحرَّك ببطءٍ شديد. أعاده باتريك بقسوة إلى الثلَّاجة، وأغلق بابها الصدئ، ومال فوقه. استطاع سماع الجرو يخمش الباب من الداخل، كما سمع أنينه المكتوم. «كلبٌ مُطيع»، هكذا قال باتريك هوكستيتر. كانت عيناه مُغلقتين وأنفاسه سريعة. «يا لك من كلبٍ مُطيع». في اليوم الثالث رفع الجرو عينيه فحسب إليه عندما فتح الباب. كان صدره يعلو ويهبط سريعًا وبضعف، وعندما عاد باتريك في اليوم الرابع، كان الكوكر ميِّتًا وكعكة من الرغاوي تُحيط بفمه وأنفه. جعل هذا المشهد باتريك يُفكِّر في مصَّاصة جوز الهند، وضحك بقوَّة وهو يسحب الجُثَّة المتصلِّبة من مقبرته الصدئة ويلقي بها إلى الأحراش.

كانت إمدادات الضحايا (التي كان باتريك يُفكِّر فيها -هذا إذا فكَّر فيها على الإطلاق- باعتبارها «حيواناتِ تجارب») شحيحة هذا الصيف، وإذا نحَّينا تساؤلاته عن مدى واقعيته، كان حُب البقاء لدى باتريك قد تطوَّر جيِّدًا، وشُحِذَت بداهته. ارتاب باتريك في أن الناس قد بدأوا يرتابون فيه. لكن من الذي يرتاب تحديدًا، هذا ما لم يكن مُتأكِّدًا منه. السيِّد إنجستورم رُبَّما؟ لقد التفت السيِّد إنجستورم ورمق باتريك بنظرة احتزارية طويلة في

متجر أيه أند بي هذا الربيع. كان السيِّد إنجستورم يبتاع السجائر، وقد أُرسِل باتريك لابتياع الخبز. السيِّدة چوزيڤز؟ رُبَّما. إنها تجلس في نافذة ردهتها أحيانًا بنظَّارة مُعظِّمة، وقد كانت -وفقًا لكلام أمه- سيِّدة مُفرطة الفضول. السيِّد چاكوبوا الذي يضع مُلصق الجمعية الأمريكية للرفق بالحيوان على سيَّارته من الخلف؟ السيِّد نيل؟ شخصٌ آخر؟ لم يكن باتريك مُتأكِّدًا تمامًا، لكن حدسه أخبره أن الشكوك بدأت تحوم حوله، ولم يكن يجادل مع حدسه قط. لذا لم يقتنص إلا عددًا قليلًا من الحيوانات التي تتجول بين المساكن الوضيعة في نصف الفدان الجحيمي، وكان ينتقي تلك التي تبدو رقيقة أو مريضة.. كان هذا كل شيء.

لكنه اكتشف رغم ذلك أن تلك الثلَّاجة القريبة من المكبِّ تُسيطر عليه بشكل غريب. لقد بدأ يرسم صورًا لها في المدرسة عندما يشعر بالملل، وأحيانًا يحلم بها ليلًا.. وفي أحلامه كانت بطول سبعين ذراعًا، كضريح أبيض عملاق، كسرداب ثقيل مُجمَّد أسفل ضوء القمر البارد. في تلك الأحلام، كان الباب العملاق يُفتح ويرى داخلها عينين ماردتين تُحدِّقان فيه. كان يستيقظ غارقًا في العرق البارد، لكنه وجد أنه لا يستطيع الاستغناء عن مُتع الثلَّاجة بالكامل.

لكنه اكتشف الآن أخيرًا من يرتاب في أمره. إنه باورز.. وبمعرفته أن هنري باورز يعلم سر مقبرته الصدئة، وجد باتريك نفسه يشعر بأقرب شعور إلى الجزع يقدر أن يستشعره على الإطلاق. لم يكن ما يستشعره قريبًا من ذلك الشعور في حقيقة الأمر، لكنه رغم ذلك كان يجد هذا الاضطراب العقلي الذي لم يرقَ لأن يكون خوفًا مُقلقًا وغير سار. هنري يعلم. هنري يعلم أن باتريك يخرق القواعد أحيانًا.

كانت آخر ضحاياه حمامة وجدها في شارع چاكسون منذ يومين.. لقد صدمتها سيَّارة ولم تعد قادرة على الطيران. عاد باتريك إلى المنزل، وأحضر صندوقه من المرآب، ووضع الحمامة فيه. نقرت الحمامة ظهر يد هنري بمنقارها مرَّاتٍ كثيرة، مُحدثة ثقوبًا سطحيَّة دامية فيه.. لكن باتريك لم يأبه. عندما تفحَّص الثلَّاجة في اليوم التالي، كانت الحمامة قد ماتت وشبعت موتًا،

لكن باتريك لم يُخرج الجُثَّة وقتها. الآن، بعدما سمع تهديد هنري بالوشاية به، شعر باتريك أنه من الأفضل له التخلُّص من جُثَّة الحمامة فورًا، بل قد يجلب حتَّى دلوًا من الماء وخِرَق ويدعك دواخل الثلَّاجة. لم تكن رائحتها ذكيَّة بأيِّ حال. إذا وشى به هنري وجاء السيِّد نيل إلى هنا لتقصِّي الأمر، فرُبَّما يعلم أن شيئًا -أشياء كثيرة في الواقع- مات هنا.

فكَّر باتريك وهو يقف وسط بُستان أشجار الصنوبر وينظر إلى الثلَّاجة الصدئة: إذا وشى بي، سأقول إنه من كسر ذراع إدي. بالطبع رُبَّما هم يعرفون ذلك بالفعل، لكنهم لم يتمكنوا من إثبات أيِّ شيءٍ لأنهم جميعًا ادَّعوا أنهم كانوا يلعبون في منزل هنري في ذلك اليوم، وقد أيَّد والد هنري المجنون هذه الأقوال. لكنه لو قال، سأقول بدوري.. والبادئ أظلم.

هذا لا يهم الآن. ما عليه فعله الآن هو التخلُّص من الطائر، ثم يستطيع ترك باب الثلَّاجة مفتوحًا ويذهب لجلب الماء والخِرَق لتنظيفها. هذا جميل.

فتح باتريك باب الثلَّاجة ولم يكن يعلم أنه يفتح بوَّابة وفاته.

في البداية شعر باتريك بمحض حيرة، ولم يتمكَّن من التعامل بأيِّ شكلٍ من الأشكال مع ما يراه. لم يكن ما يراه يحمل أيَّ معنى لعقله على الإطلاق.. لم يكن له سياق.. لذا راح باتريك يُحدِّق فحسب، برأسٍ مائل، وعينين مُتَّسعتين.

لم تعد الحمامة سوى هيكلٍ عظمي مُحاط بشعثٍ من ريش. لم يكن يوجد لحم على جسدها، وحولها، توجد عشرات الأجسام لها لون اللحم تبدو كأنها قواقع مكرونة كبيرة. كانت الأجسام عالقة بالجدران الداخلية للثلَّاجة، وعلى الجانب السفلي لحجرة التجميد، وتتدلَّى من الرفوف. لاحظ باتريك أنها تتحرَّك قليلًا، تُرفرف، كأن ثمَّة نسيمًا يهب. لكن لا يوجد أيُّ نسيم. قطَّب باتريك جبينه مُفكِّرًا.

فجأة، فرد أحد هذه الأجسام أجنحة حشرية من جانبيه، وقبل أن يتمكَّن هنري من استيعاب الأمر، قطع الجسم المسافة الفاصلة بين الثلَّاجة وذراع باتريك، وهبط عليها مُحدثًا صوت لطخة مُرتفعًا. شعر باتريك بسخونة لحظة، ثم تلاشت وعاد ذراعه لإحساسه الطبيعي، لكن لحم ذلك المخلوق

الشبيه بالقوقعة بدأ شحوبه يستحيل بمُباغتة صادمة إلى اللون الوردي أوَّلًا، ثم إلى أحمرٍ قانٍ.

رغم أن باتريك لم يكن يخاف أيَّ شيءٍ تقريبًا بالمعنى الشائع المفهوم للكلمة (من العسير أن يهاب المرء أشياء غير «حقيقية»)، كان ثمَّة شيءٌ واحد على الأقل يملأه باشمئزازٍ رهيب. لقد خرج ذات يوم دافئ في شهر أغسطس من بُحيرة بروستر عندما كان في السابعة من عمره، واكتشف أن أربع أو خمس علقات تتشبَّث ببطنه وساقيه. لقد صرخ حتَّى بح صوته وجاء والده وانتزعها من عليه. الآن، أدرك باتريك بعقلٍ كاد الفهم أن يقتله، أن هذا نوع غريب من العلقات الطائرة. لقد تفشَّت في ثلَّاجته.

بدأ باتريك يصرخ ويضرب الشَّيءَ المُتشبِّث بذراعه. انتفخت العلقة وصارت في حجم كُرة تنس، وفي الضربة الثالثة انفجرت مفتوحة بصوتٍ مُقزِّز. انتشرت الدماء -دماؤه- على ذراعه من كوعه إلى معصمه، لكن رأس الشَّيءِ الهلامي الذي لا أعيُن له ظلَّ يتمسَّك به. كان بشكل أو بآخر أشبه برأس الطيور في استطالته، وينتهي بشيءٍ يشبه المنقار، لكن هذا المنقار لم يكن مُسطَّحًا أو مُدبَّبًا. كان أنبوبيًّا وحادًّا كخرطوم بعوضة، وكان هذا الخرطوم غائرًا في لحم ذراعه.

اعتصر باتريك المخلوق بين أصابعه وهو ما زال يصرخ وانتزعه عن جسده. خرج الخرطوم نظيفًا، متبوعًا بتدفُّقٍ من دماء مخلوطة بمادَّة صفراء شاحبة كالقيح. لقد صنع فجوة بحجم عُملة صغيرة في ذراعه.

ورغم أنه انفجر، كان المخلوق ما زال يتلوَّى ويتحرَّك ويبحث عن عائلٍ بين أصابعه.

ألقاه باتريك بعيدًا.. ثم طار مزيدٌ من هذه الأشياء خارجة من الثلَّاجة وتناثرت عليه وهو يتلمَّس مقبض الثلَّاجة. هبطت الأشياء على يديه وذراعيه ورقبته، والتصقت إحداها بجبهته. عندما رفع باتريك يده لينتزعها، شاهد أربعة منها على يده ترتجف عن قصد، ويتحوَّل لونها إلى الوردي أوَّلًا ثم الأحمر.

لم يشعر باتريك بألم... لكن غمره شعورٌ بشع بأنه يُستنزف. راح عقله

يصيح وهو يتخبَّط، ويصرخ، ويضرب جبهته ورقبته بيديه التي تُغطِّيها العلقات: هذا! ليس حقيقيًا، إنه مُجرَّد كابوس مُزعج، لا تقلق، ليس هذا! حقيقيًّا، لا شيء حقيقي...

لكن الدماء التي تتدفَّق من العلقات المسحوقة تبدو حقيقية بما يكفي، وصوت رفرفة أجنحتها تبدو حقيقية بما يكفي... والذعر الذي يشعر به يبدو حقيقيًّا بما يكفي.

سقط إحداها داخل التيشرت الذي يرتديه واستقرَّت على صدره، وفيما كان يضربها بشكلٍ محموم وهو يرى بقع الدماء تنتشر فوق المكان الذي أنشبت نفسها فيه، استقرَّت أخرى على عينه اليمنى. أغلق باتريك عينه، لكن ذلك لم يفلح. شعر بألمٍ حارق وجيز بينما ماص العلقة ينغرس في جفنه ويبدأ في امتصاص السائل من مقلة عينه. شعر باتريك بعينه تنسحب من محجرها فصرخ مُجدَّدًا. طارت علقة داخل فمه عندما فعل ذلك وتموضعت على لسانه.

كان الأمر بأكمله تقريبًا غير مؤلم.

راح باتريك يتخبَّط عبر الممرِّ الطويل مُتَّجهًا صوب السيَّارات المهملة والطفيليَّات تملأ جميع جسده. امتصَّ بعضها الدماء إلى أقصى سعتها وراحت تنفجر كالبالونات، وعندما حدث ذلك للكبريات منها، نُقِع باتريك في نحو نصف لترٍ من دمائه. شعر بالعلقة التي في فمه تنتفخ ففتح فمه لأن الفكرة المتماسكة الوحيدة التي ظلَّت في عقله أنها يجب ألا تنفجر داخله.. يجب ألا تنفجر.. ألا تنفجر.

لكنها انفجرت. قاء باتريك رذاذًا هائلًا من الدماء مخلوطًا بلحم العلقة، ثم سقط أرضًا في التُربة التي يملأها الحصى وبدأ يتدحرج مرارًا وتكرارًا دون أن ينفك عن الصراخ. رويدًا رويدًا خفتت صرخاته، كأنها تأتي من بعيد.

وقبل أن تنتهي حياته مُباشرةً، شاهد باتريك هيئة تخرج من وسط السيَّارات المُحطَّمة. في البداية ظنَّه باتريك رجُلًا، ماندي فازيو رُبَّما، وأنه سوف ينجو. لكن مع اقتراب الهيئة، رأى أن وجهه يسيح كالشمع. أحيانًا كان يتماسك ويتَّخذ هيئة شيءٍ -أو شخصٍ- لكنه سرعان ما كان يتغيَّر من جديد، كأنه لم يحسم من أو ما يريد أن يكون بعد.

- «مرحبًا ووداعًا». خرج الصوت يُبقبِق من داخل الشحم الهلامي الذي يُشكِّل ملامح الشَّيءِ، وحاول باتريك الصراخ من جديد. لم يكن يريد أن يموت.. فبصفته الإنسان «الفعلي» الوحيد، ليس من المُفترض أن يموت. إذا مات، كل من في العالم يجب أن يموت معه.

أمسكت الهيئة الشبيهة بالرجُل ذراعيه المُغطَّيتين بالعلقات وبدأت تسحبه بعيدًا نحو البرِّية. راحت حقيبة كتبه المُلطَّخة بالدماء تتخبَّط وهي تُجرُّ خلفه من حزامها الذي كان لا يزال معقودًا حول عُنُقه. فقد باتريك وعيه بالعالم وهو ما زال يحاول الصراخ.

لم يفق هوكستيتر إلا مرَّة واحدة فقط: عندما بدأ الشَّيء في التغذِّي عليه في جحيمٍ مُظلم كريه الرَّائحة لا يشرق فيه ضوء. أيُّ ضوءٍ على الإطلاق.

6

في البداية لم تكن بيڤرلي متأكِّدة ممَّا تراه أو ممَّا يحدث، هي فقط رأت أن باتريك بدأ يصرخ ويُجلد ويتراقص. نهضت بوهن، مُمسكة بالنِّبلة في إحدى يديها واثنتين من الكُرات الحديدية في اليد الأخرى. كانت تسمع الأصوات التي تصدر من باتريك وهو يتخبَّط على طول الدرب، وصراخه الشنيع الذي لا يتوقَّف. في تلك اللحظة، بدت بيڤرلي -في كل بوصة منها- أشبه بالمرأة الجميلة التي ستصيرها يومًا، وإذا كان بن هانسكوم موجودًا وقتها لرؤيتها، فرُبَّما لم يكن قلبه سيتحمَّل كل هذا الجمال.

كانت تقف منتصبة تمامًا، رأسها إلى اليسار، وعيناها مُتَّسعتان، وشعرها معقوص في ضفيرتين ربطتهما بشريطتين ابتاعتهما من متجر دالي مُقابل عشرة سنتات. كانت وقفتها المُنتصبة تشي بتركيزٍ واهتمامٍ كاملين. كانت تبدو كالسنور.. كالوشق. أمالت وزنها مُتَّكئة على قدمها اليُسرى، وجسدها يلتف نصف التفافة كأنها ستذهب خلف باتريك، وقد ارتفعت ساقا سراويلها القصيرة الباهتة إلى أعلى، ما جعل حافَّة لباسها التحتي القطني الأصفر ظاهرة للعيان.. وأسفلها، كانت ساقاها ملفوفتين بعضلاتٍ مُتناسقة، جميلتين على الرغم من خدوشهما، وكدماتهما، ولطخ الطين التي تلوِّثهما.

إنه يخدعك. لقد رآكِ، وهو يعلم أنه لن يستطيع اللحاق بك في سباقٍ عادل، لذا فهو يحاول استدراجك بالخديعة. لا تذهبي يا بيفي!

لكن جزءًا آخر من عقلها شعر أنه ثمَّة خوفٌ وألم كبيران في تلك الصرخات. كانت تتمنَّى لو أنها ترى أيًّا ما كان يحدث لباتريك -إذا كان ثمَّة شيءٍ يحدث- بوضوحٍ أكبر، لكنها تمنَّت أكثر من أيِّ شيءٍ آخر لو أنها أتت إلى البرِّية من طريقٍ آخر وفوَّتت كل المزاح المجنون القميء الذي شاهدته.

توقَّف صراخ باتريك. بعدها بلحظة سمعت بيفرلي صوت شخص يتكلَّم، لكنها كانت واثقة أن مُخيِّلتها تلعب بها الألاعيب. لقد سمعت صوت أبيها يقول: «مرحبًا ووداعًا»، لكن أباها ليس في ديري اليوم: لقد ذهب إلى برونزويك في الثامنة مساءً. هو وچو تاميرلي سيأخذان شاحنة شيڤورليه من برونزويك. هزَّت رأسها كي تطرد التشويش عنها. لم يتحدَّث الصوت ثانيةً. إنها مُخيِّلتها بكل تأكيد.

خرجت من وسط الشجيرات إلى الدرب، مُتأهِّبة للركض في اللحظة التي سترى فيها باتريك يندفع نحوها، وقد شُحِذت حسَّاسات ردَّة فعلها كشوارب قطَّة. حدَّقت عبر الممرِّ واتَّسعت عيناها. هناك دماء. دماء غزيرة.

أصرَّ عقلها: إنها دماء زائفة. يمكنك شراء زجاجة منها من المتجر لقاء تسعة وأربعين سنتًا. كوني حذرة يا بيڤي.

انحنت أرضًا ولمست الدماء بأصابعها ونظرت إليها من كثب. ليست دماءً زائفة.

شعرت بسخونة واخزة على ذراعها الأيسر أسفل كوعها مُباشرةً. نظرت إلى أسفل ورأت شيئًا ظنَّته في البداية نبتة شائكة. لا، ليست هذه نبتة شائكة، تلك الأخيرة لا ترتعش وتتموَّج. هذا الشَّيء حي. بعدها بلحظة أدركت أنه يلدغها. ضربته بيڤرلي بقوَّة بظهر يدها اليُمنى فانفجر داميًا. تراجعت بيڤرلي خطوة وهي تستعد للصراخ بما أن الأمر قد انتهى الآن، لكنه لم يكن قد انتهى على الإطلاق. كان رأس الشَّيءِ هلاميَّ الملامح لا يزال على ذراعها، وخرطومه مدفونًا في لحمها.

بصرخة اشمئزازٍ وذعُر، انتزعت بيڤرلي الشَّيءَ ورأت أن خرطومه يخرج

من ذراعها كخنجرٍ صغير ويقطر دمًا. لقد فهمت مغزى الدماء التي تُلطِّخ الدرب الآن، أوه أجل، فرَنَت عيناها إلى الثلَّاجة.

كان بابها قد أُغلق جيِّدًا من جديد، لكن عددًا من الطُفيليات ما زال يزحف ببطء على البورسلين الأبيض الصدئ.. وفيما كانت بيڤرلي تنظر، فردت إحدى الطفيليات جناحيها الغشائيين الشبيهان بأجنحة الذباب وطارت تئز نحوها.

تصرَّفت الفتاة دون تفكير. لقَّمت واحدة من الكُريات الحديدية إلى جراب النِّبلة وجذبت الشريط المطَّاطي إلى الخلف، وعندما تمدَّدت عضلات ذراعها أمامها بنعومة، رأت الدم يفيض من الفجوة التي أحدثتها العلقة في ذراعها. لكنها أطلقت قذيفتها على أيِّ حالٍ، وبهذه الحركة قادت -دون وعيٍ منها- الطُفيلة إليها.

اللعنة! لقد أخفقت! هكذا فكَّرت عندما ارتدَّ شريط النِّبلة المطَّاطي وطارت الكُرية الحديديَّة ككتلة من الضوء اللامع في الشمس الحامية. لاحقًا ستخبر الخاسرين الآخرين أنها علمت أنها أخفقت هدفها في اللحظة التي غادرت القذيفة فيها أناملها. لكنها رأت الكُرية الحديديَّة تنعطف. حدث الأمر في جزء من الثانية، لكن الانطباع كان واضحًا تمامًا: لقد انعطفت في الهواء ثم ضربت المخلوق الطائر وسحقته إلى عصيدة، وتناثر وابل من قطرات صفراء ملوِّثة الدرب.

تراجعت بيڤرلي خلفًا ببطء في البداية، بعينين مُتَّسعتين وشفتين ترتجفين ووجه رمادي شاحب من الصدمة. كانت نظرتها مُثبَّتة على مُقدِّمة الثلَّاجة المُهملة، مُنتظرة رؤية ما إذا كان ثمَّة أشياء أخرى قد تشم رائحتها أو تستشعر وجودها. لكن الطُفيليات راحت تزحف ببطء ذهابًا وإيابًا، كذباب الخريف الذي أثمله برد.

في النهاية التفتت وركضت.

كان الذُعر يضرب تفكيرها بظلامه، لكنها لم تستسلم له بالكامل. أمسكت بالنِّبلة في يدها اليُسرى، وأخذت تنظر من فوق كتفها من وقتٍ إلى آخر. كانت الدماء اللزجة ما زالت تلتمع على الدرب وعلى أوراق بعض الشجيرات المُتاخمة له، كما لو أن باتريك أخذ يتطوَّح من جانب إلى آخر وهو يركض.

اندفعت بيفرلي إلى منطقة السيَّارات المُحطَّمة من جديد. أمامها توجد دماء متناثرة أكثر بدأت الأرض الترابية تتشرَّبها. العلامات على الأرض فوضوية، وثمَّة خطوط داكنة كثيرة تتقاطع على سطحها الأبيض الناعم. يوجد أخدودان يبعد أحدهما قدمين ونصف عن الآخر يقودان بعيدًا عن هذه البُقعة.

توقَّفت بيفرلي لاهثة. نظرت إلى ذراعها، وسرَّتها رؤية أن الدماء بدأت تتوقَّف قليلًا، رغم أن ساعدها ويدها كانا غارقين بها.

نظرت خلفها ثانيةً. لم ترَ شيئًا.. ثم نظرت إلى الأخدودين اللذين يقودان بعيدًا عن السيَّارات المُحطَّمة، بعيدًا عن المكب، وإلى عُمق البرِّية.

تلك الأشياء في الثلَّاجة. لقد تكالبت عليه. بالتأكيد. انظري إلى الدماء. لقد وصل إلى هنا، ثم

(مرحبًا ووداعًا)

حدث شيءٌ آخر.

كانت مُرتعدة تمامًا لأنها تعرف ما حدث. هذه العلقات جزء من كيان الشَّيءِ، وقد دفعت باتريك إلى جزءٍ آخر من كيان الشَّيءِ مثلما يُدفع ثورٍ صغير إلى حظيرة الذبح.

اهربي من هنا! اهربي من هنا يا بيفي!

لكنها بدلًا من ذلك تتبَّعت أثر الأخدودين المحفورين في الأرض، مُمسكة بالنِّبلة بحزمٍ في قبضتها المُتعرِّقة.

على الأقل استدعي الآخرين.

سأفعل... بعد قليل.

واصلت بيفرلي السير مُتقفِّية أثر الأخدودين مع انحدار الأرض. تبعتهما وصولًا إلى الغطاء النباتي المُتشابكِ من جديد. من مكانٍ ما أزَّت حشرة سيكادا ثم توقَّفت. تجمَّع البعوض على ذراعها الغارق في الدماء. هشَّته بعيدًا. كانت أسنانها تعض شفتها السُفلية.

ثمَّة شيءٌ مُلقى على الأرض أمامها. التقطته بيفرلي ونظرت إليه. كانت محفظة يدويَّة الصنع، واحدة من تلك منتجات الأشغال اليدويَّة التي يصنعها

الأطفال في مشروعات الحرف اليدويَّة في مركز ديري المُجتمعي، إلا أنه بدا واضحًا لبيڤرلي أن الطفل الذي صنع هذه المحفظة لم يكن حرفيًّا ماهرًا على الإطلاق. كانت الخيوط البلاستيكية قد بدأت تتفكَّك منها، وحاوية الفواتير بها مقطوعة كفم فاغر. عثرت بيڤرلي على رُبع دولار في جيب النقود الفِضِّية. لم يكن يوجد شيء آخر في المحفظة سوى بطاقة استعارة مكتبة ديري تحمل اسم باتريك هوكستيتر. ألقت بيڤرلي بالمحفظة جانبًا بكل محتوياتها، ثم مسحت أصابعها في سراويلها القصيرة.

بعد خمسين قدمًا أخرى وجدت فردة حذاء. كانت الشُجيرات الآن قد صارت شديدة التشابك ما منعها من تقفِّي أثر الأخدودين في الأرض، لكنك لا تحتاج إلى مُستكشف محترف لتتبُّع قطرات ولطخ الدماء المتناثرة على الشجيرات.

توقَّف الدرب فجأة مُنحدرًا بوعورة خطرة. فقدت بيڤ اتزانها دُفعة واحدة، وانزلقت، وخمشتها الأشواك. ظهرت خطوط دامية جديدة على فخذها. تسارعت أنفاسها والتصق شعرها المُتعرِّق المُلبَّد على جمجمتها. كانت بُقع الدماء تقود إلى أحد الدروب الباهتة التي تملأ البَرِّية. إن الكِندوسكيج قريب.

فردة حذاء باتريك الأخرى.. دامية الرباط ومُلقاة بإهمال على الدرب.

اقتربت من النهر وهي تُمسك بالنِّبلة في وضع الإطلاق. ظهر الأخدودان في الأرض من جديد. كانا أكثر ضحالة الآن. هذا لأنه فقد فردتي حذائه، هكذا فكَّرت.

وصلت بيڤرلي إلى انحناءة أخيرة وواجهت النهر. الأخدودان يجريان على طول الضِفَّة في اتِّجاه المصب وينتهيان عند واحدة من تلك الأُسطُوانات الخرسانية، واحدة من محطَّات الضخِّ. الغطاء الحديدي على قمَّة هذه الأُسطُوانة مفتوح جزئيًّا.

وبينما كانت بيڤرلي تقف فوق الغطاء تنظر إلى أسفل بعد أن تسلَّقت الأُسطُوانة، صدرت ضحكة ثقيلة وحشيَّة فجأة من الأعماق.

كان هذا يفوق احتمالها بكثير. هبط الذُعر المُهدِّد على تفكيرها بظلامه. استدارت بيڤرلي وطارت صوب الفرجة الخالية بين الشجيرات ومقرِّ النادي، رافعة ذراعها الدامي أمامها لتحمي وجهها من الأغصان التي تضربه وتصفعه.

أحيانًا أقلق بدوري يا أبي، أحيانًا أقلق كثيرًا! هكذا فكَّرت بجنونٍ جامح.

بعد ذلك بأربع ساعات، كان جميع الخاسرين باستثناء إدي يربضون بين الشجيرات قرب البقعة التي اختبأت بيڤرلي فيها وراقبت ذهابه إلى الثلَّاجة وفتح بابها. كانت السماء مُدلهمَّة وداكنة بالسُحُب من فوقهم، وتعلَّقت رائحة المطر في الهواء من جديد. كان بيل يُمسك بطرف حبل غسيل طويل في يديه. لقد جمَّع ستتهم كل ما معهم من نقود وابتاعوا الحبل وحقيبةً إسعافات أوَّلية لبيڤرلي. ألصق بيل بعناية ضمَّادة من الشاش فوق الحفرة الدامية في ذراعها.

- «أ-أ-أخبِري و-والديك أنك تـ-تـ-تعثَّرتِ وأنت تـ-تـ-تتزلَّجين».

صرخت بيڤرلي جزعة: «حذاء التزلُّج!». كانت قد نسيت كل شيءٍ عنه.

أشار بن: «هناك». كانت فردتا الحذاء ملقيتين فوق كومة قريبة، فذهبت بيڤرلي لاستعادتهما قبل أن يعرض بن أو بيل أو أيٌّ من الآخرين تولي الأمر. لقد تذكَّرت الآن أنها وضعتهما جانبًا قبل أن تتبوَّل، ولم تكن تريد أن يذهب أحدهم إلى تلك البقعة.

ربط بيل بنفسه طرف حبل الغسيل إلى مقبض الثلَّاجة، رغم أنهم اقتربوا جميعًا معًا وهم متأهبون للفرار في أيِّ لحظة عند رؤية أوَّل بادرة لأدنى حركة. عرضت بيڤ إرجاع النِّبلة إلى بيل، لكنه أصرَّ أن تُبقيها معها. لم يجدوا شيئًا يتحرَّك، ورغم أن النطاق المحُيط بمُقدِّمة الثلَّاجة كان ملوَّثًا بالدماء، فإن الطُفيليات اختفت.

رُبَّما طارت مُبتعدة.

قال ستان يوريس بمرارة: «يمكننا استدعاء رئيس الشُرطة بورتون أو السيِّد نيل مع مئة ضابط آخر ولن يحدث شيء».

وافقه ريتشي: «أجل، لن يروا شيئًا لعينًا واحدًا. كيف حال ذراعك يا بيڤ؟».

- «تؤلمني»، ثم توقَّفت ناظرة من بيل إلى ريتشي ثم إلى بيل مرَّة أخرى: «هل سيرى أبي وأمي الثقب في ذراعي؟».

قال بيل: «لا أ-أ-أظنُّ ذ-ذ-ذلك. ا-ا-استعدوا للر-ر-ركض. سـ-سـ-سأربط الحبل».

صنع بيل أنشوطة من طرف حبل الغسيل حول مقبض الثلَّاجة المعدني الصدئ، وهو يعمل بحذر رجُلٍ ينزع فتيل قُنبلة حيَّة. صنع عُقدة جيِّدة ثم تراجع إلى الخلف، دون أن يفلت الحبل.

ابتسم بيل ابتسامة صغيرة واهنة للآخرين عندما ابتعدوا مسافة مقبولة بالحبل قبل أن ينتهي، وقال: «واهو... كـ-كـ-كم أنا سـ-سـ-سـ-سعيد لأنه ا-ا-انتهى».

الآن، بعدما صاروا على مبعدة آمنة -هكذا تمنَّوا- من الثلَّاجة، أخبرهم بيل مُجدَّدًا أن يتأهبوا للفرار عند أوَّل بادرة خطر. هزم الرعد من فوق رؤوسهم مُباشرةً فانتفضوا جميعًا، وبدأت أولى قطرات المطر الهزيلة في الهطول.

جذب بيل حبل الغسيل بكل قوَّته. انفكَّت العُقدة التي عقدها على مقبض الباب، لكن ليس قبل أن تجذبه وتنجح في فتحه. خرج سيل كُريات زغبية بُرتقالية من الثلَّاجة، وصدرت عن ستان يوريس شهقة، أما الآخرون فتسمَّروا في أماكنهم مُحملقين فحسب.

بدأ المطر يشتد ويتسارع. دوَّى الرَّعد وجعلهم ينكمشون، ثم ومض برقًا أزرق في أثناء ما كان باب الثلَّاجة يتأرجح مفتوحًا عن آخره. كان ريتشي أوَّل من رأى الأمر وصرخ بصوتٍ عالٍ مُوجِع، وفلتت من بيل صرخة غاضبة وراجفة.. أما الآخرون فالتزموا الصمت.

على جانب الباب الداخلي، كانت الكلمات التالية مكتوبة بالدماء:

توقفوا الآن قبل أن أقتلكم جميعا
نصيحة من صديقكم
بينِّي وايز

هطلت الأمطار بغزارة مخلوطة بالبَرَد، وارتجف باب الثلَّاجة مع هبوب

الرياح، وبدأت الحروف المكتوبة عليه تسيل وتقطر، مُتَّخذة هيئة مُخيفة كأنها حروف على مُلصق فيلم رعب.

لم تشعر بيڤ أن بيل نهض إلا عندما رأته يتقدَّم عبر الدرب نحو الثلَّاجة. كان يلوِّح بكلتا قبضتيه في الهواء بينما الماء يسيل على وجهه لاصقًا قميصه بصدره.

صرخ بيل: «سنقتلك». دوى الرعد وومض البرق بلمعانٍ هائل لدرجة أنها اشتمَّت رائحته، ومن مكان ما قريب، ترامى إلى أذنيها صوت تشقُّق وسقوط شجرة كبيرة.

صرخ ريتشي: «عُد يا بيل! عُد يا رجل!»، وهمَّ بالنهوض لكن بن جذبه.

- «لقد قتلت شقيقي چورچ يا بن العاهرة! أيُّها النغل! يا قوَّاد! أظهِر نفسك! أظهِر نفسك!».

ركل بيل كومة الكُريات الزغبية التي قاءتها الثلَّاجة بغضب، ثم استدار مُبتعدًا عائدًا إليهم برأسٍ مُنكَّس. لم يبد أنه يُبالي بالبرَد، رغم أنه كان يُغطِّي الأرض كالثلج. اندفع بيل بقوَّة إلى الشُجيرات، واضطر ستان أن يمسك ذراعه ليمنعه من الاحتكاك بالشجيرات حادَّة الأشواك والأغصان.

قال بن: «هوِّن عليك يا بيل»، واضعًا ذراعًا خرقاء حول كتفه.

قال ريتشي: «أجل، لا عليك. لا تقلق، لن نجبن»، ثم نظر إليهم بعينين مُتَّسعتين ووجهٍ مُبلَّل. «هل سيجبن أحدكم؟».

هزُّوا رؤوسهم جميعًا.

رفع بيل نظره ومسح عينيه. كانوا جميعًا مُبتلِّين تمامًا كمجموعة جراء عبرت نهرٍ لتوِّها. «إ-إ-إنه خـ-خـ-خائف مـ-مـ-منا، أتعرفون ذلك. أ-أ-أشعر بهذا. أ-أ-أقسم بـ-بالله أ-أنني أ-أشعر بـ-بهذا!».

أومأت بيڤ: «أظنُّ أنك على حق».

قال بيل: «سـ-سـ-ساعدوني.. أ-أ-أرجوكم، سـ-سـ-ساعدوني».

قالت بيڤرلي: «سنفعل»، ثم احتضنته بين ذراعيها. لم تفهم كيف التفَّت ذراعاها حوله بهذه السهولة.. كم هو نحيف. استطاعت أن تشعر بخفقان قلبه

أسفل قميصه. كانت تشعر به يدق في مقابلة قلبها، وفكَّرت أنها لم تستشعر لمسة بمثل هذه العذوبة والقوَّة من قبل.

وضع ريتشي يديه حول كليهما وأراح رأسه على كتف بيڤرلي. فعل بن المثل من الجانب الآخر، ووضع ستان يوريس ذراعيه حول ريتشي وبن. تردَّد مايك لحظة، ثم لف خصر بيڤرلي بذراعه، ووضع الأخرى على كتفي بيل المُرتجفين.

وقفوا بهذا الوضع طويلًا، متعانقين، وتحوَّل المطر المُتجمِّد إلى سيل من جديد، سيل عارم لدرجة أنه بدا كأنه غلافٌ جويٌ جديدٌ تقريبًا. ضرب البرق وهزم الرعد. لم يتحدَّث أحد. كانت عينا بيڤرلي مُغلقتين بإحكام، وقفوا في المطر مجموعة مُتشابكة، يعانق بعضهم بعضًا، وينصتون إلى الهسيس الآتي من غطاء النباتات. كان هذا أكثر ما تتذكَّره: صوت المطر وصمتهم المشترك والأسف الغامض أن إدي لا يشاركهم اللحظة. إنها تتذكَّر هذه الأمور جيِّدًا. إنها تتذكَّر الشعور بالشباب والفُتوَّة.

الفصل الثَّامن عشر

النِّبلة

1

قال ريتشي: «حسنًا يا كومة القش. إنه دورك. لقدَ أنهتَ تلك الصهباء على سجائرها وسجائري. الوقت يتأخَّر».

نظر بن إلى الساعة. أجل، لقد تأخر الوقت، ومنتصف الليل يقترب. فكَّر بن: ثمَّة مُتَّسع لحكاية أخرى. حكاية أخرى قبل الثانية عشرة، فقط كي نبقي على أنفسنا مشغولين. لكن تُرى ما الحكاية؟ هذه مُزحة دون ريب، وليست مُزحة جيِّدة جدًّا. توجد حكاية واحدة باقية.. حكاية الكُريات الفِضِّية، وكيف صنعوها في ورشة زاك دِنبروه في ليلة الثالث والعشرين من يوليو، وكيف استخدموها في الخامس والعشرين.

قال لهم: «ما زلت أحمل ندوبي. أتذكرون؟».

هزَّت بيفرلي وإدي رأسيهما، وأومأ بيل وريتشي. ظلَّ مايك صامتًا، وعيناه يقظتان في وجهه المُتعب.

وقف بن وحلَّ أزرار قميصه وفتحه على اتِّساعه. كانت هناك نُدبة قديمة على هيئة حرف H على بطنه، خطوطها مُتقطِّعة –فقد كان بطنه أضخم كثيرًا عندما وُضعت عليه– لكن شكلها ما زال قابلًا للتمييز.

ثمَّة نُدبة أخرى غائرة أسفل الحرف، وتبدو كحبل مشنقة ملتوٍ قُطعت عنه الأنشوطة.

غطَّت بيفرلي فمها بيدها وصاحت: «المُستذئب! يوم التقيناه في ذلك البيت! يا للمسيح!». ثم التفتت إلى النافذة كأنها تتوقَّع رؤيته يربض في الخارج وسط العتمة.

قال بن: «هذا صحيح. أتريدون سماع أمرًا غريبًا. لم تكن تلك النُدبة موجودة منذ يومين. نُدبة هنري كانت موجودة، أعرف ذلك لأنني عرضتها على صديقٍ لي، ساقٍ في حانة في هيمنجفورد هوم اسمه ريكي لي. أما هذه...» قالها بن ضاحكًا غير مازحٍ ويبدأ يُزرِّر قميصه، وأردف: «أما هذه فعادت».

- «كالندوب في أيدينا».

قال مايك وبن يُزرِّر قميصه: «أجل، المُستذئب. كلنا رأينا الشَّيء في صورة المُستذئب».

غمغم بيل: «لأنها الصورة التي رآه به ريتشي سابقًا. هذا هو السَّبب، أليس كذلك؟».

قال مايك: «أجل».

قالت بيڤرلي بصوتٍ هادئٍ مُتسائل: «كنا قريبين، أليس كذلك؟ قريبين من قراءة عقول بعضنا بعضًا؟».

قال ريتشي: «ذلك الصديق المُشعر القديم كاد أن يقتلع رأسك يا بن». لم يكن يضحك وهو يقولها، ثم دفع نظَّارته الملحومة إلى أعلى أنفه، وخلفها، بدا وجهه شاحبًا وضعيفًا وشبحيًّا.

قال إدي فجأة: «لقد أنقذ بيل حياتك. أعني، بيڤ هي التي أنقذتنا جميعًا، لكن إذا لم يتقدَّم بيل لحمايتك لـ...».

وافقه بن: «أجل. لقد أنقذتني يا بيل الكبير. لقد كنت كالضائع في بيت الملاهي».

أشار بيل بإصبعه إلى مقعدٍ شاغر وقال: «لقد تلقَّيت بعض العون من ستان يوريس، وقد دفع ثمن ذلك. رُبَّما مات بسببه كذلك».

هزَّ بن هانسكوم رأسه وقال: «لا تقل ذلك يا بيل».

- «لـ-لكنها الحـ-حقيقة. إذا كانت الأمر غلطتك، فهي غلطتي أيضًا، وغـ-غلطة الجميع هنا.. لأننا استمررنا.. استمررنا حتَّى بعد ما حدث لباتريك، وبعد ما رأيناه مكتوبًا على تلك الثـ-ثلَّاجة. قد يكون الأمر برُمَّته غلطتي أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، لأنني أردت أ-أن نستمر بسبب جـ-چورج.

لأنني كنت أظن أنني إذا قتلت الشَّيءَ الذي قتل چورچ، فسيعود والدي يحـ-حـ-حـ...».

سألته بيڤرلي بلطف: «يُحبَّاك من جديد؟».

- «أجل، بالتأكيد. لكنني في الحقيقة لا أظنها غلطة أيِّ شخصٍ يا بن، إنها فقط الطـ-طبيعة التي جُبِل ستان عليها».

قال إدي: «لم يستطيع مواجهة الأمر». كان يُفكرٍّ في الكلام الذي قاله السيِّد كين عن دواء الربو الخاص به، وكيف أنه ما زال غير قادر عن التخلِّي عنه إلى اللحظة. فكَّر إدي أنه رُبَّما كان في استطاعته التخلِّي عن عادة المرض، لكن عادة الإيمان هي التي لم تبرحه، وكما اتضحت الأمور بعد ذلك، رُبَّما تلك العادة هي التي أنقذت حياتة.

قال بن: «كان ستان رائعًا في ذلك اليوم.. ستان وطيوره».

ضجُّوا جميعًا بالضحك، ونظروا إلى المقعد الخالي الذي كان ستان سيجلس عليه في عالم عادل يفوز فيه الأناس الطيبون طوال الوقت. فكَّر بن: أنا أفتقده. يا الله، لكَم أفتقده! ثم قال: «أتتذكر يا ريتشي ذلك اليوم الذي أخبرته فيه أنك سمعت من قبل أنه من قتل المسيح، وردَّ ستان عليك بعدها بوجهٍ جامد:' أظنُّ أنك تقصد أبي ' ؟».

قال ريتشي بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «أجل، أتذكَّر»، ثم أخرج منديله من جيبه الخلفي، ونزع نظَّارته، ومسح عينيه، ثم ارتدها مرَّةً أخرى، وضع ريتشي المنديل جانبًا وقال دون أن يرفع عينيه: «لِمَ لا تسرد قصَّتك فحسب يا بن ؟».

- «إنها أليمة، أوليست كذلك ؟».

قال ريتشي بصوتٍ غليظ مفهوم بالكاد: «أجل، بلا شك. إنها أليمة».

نظر بن إليهم ثم أومأ: «حسنًا إذًا. حكاية أخرى قبل منتصف الليل. فقط لإبقاء أنفسنا مشغولين. لقد جاءت فكرة الرصاصات الفِضِّية إلى بيل وريتشي و...».

احتجَّ ريتشي: «لا، بن من فكَّر فيها أوَّلًا، ومن فلتت أعصابه أوَّلًا».

- «لقد بدأت في القلق فـ-فـ-فقط...».

قال بن: «لا يهم حقًّا، لقد أمضى ثلاثتنا وقتًا طويلًا في المكتبة في ذلك الشهر. كنا نحاول معرفة طريقة صنع رصاصاتٍ فِضِّية. كانت الفِضَّة معي،

مُتمثِّلة في أربعة دولارات فِضِّية تخص والدي، ثم فلتت أعصاب بيل عندما فكَّر في الموقف الذي سنجد أنفسنا فيه إذا اتضح أن الرصاصة فاسدة في الوقت الذي يقترب فيه وحش منا لالتهام حناجرنا.. وعندما رأينا بعدها كم أن بيفرلي بارعة في رمي النِّبلة، انتهينا إلى استخدام أحد دولاراتي الفِضِّية في صنع نِبال بدلًا من رصاصات، وهكذا جمعنا حاجياتنا وذهبنا جميعًا إلى منزل بيل. إدي، لقد كنت موجودًا...».

قال إدي: «لقد أخبرت أمي أننا ذاهبون للعب المونوبولي. كانت ذراعي تؤلمني كثيرًا، لكن كان عليّ أن آتي. إلى هذه الدرجة كانت غاضبة مني.. وفي كل مرَّة كنت أسمع فيها صوتًا خلفي وأنا في طريقي إليكم يا رفاق كنت التفت سريعًا، ظانًا أن القادم باورز.. ولم يُخفِّف ذلك من الألم».

ابتسم بيل: «ثم وقفنا جميعًا نراقب بن وهو يصنع الذخيرة. أظنُّ أن بن كان قادرًا حـ-حقًا على صُنع رصاصات فـ-فِضِّية».

قال بن: «أوه، لست مُتأكِّدًا تمامًا من ذلك»، رغم أنه كان ما زال لديه القدرة على صُنعها لو أراد. إنه يتذكَّر كيف كان المغيب يقترب في الخارج (لقد وعدهم السيِّد دِنبروه أن يقلهم جميعًا إلى منازلهم).. يتذكَّر أصوات الصراصير بين الأعشاب، وأوَّل يرَّاعات راحت تومض خارج النوافذ. كان بيل قد أعدَّ لوح المونوبولي في حُجرة العشاء بشكلٍ جيِّد، ليبدو كأنهم كانوا يلعبون منذ ساعة أو أكثر.

إنه يتذكَّر ذلك، كما يتذكَّر بركة الضوء الأصفر الساقطة على منضدة ورشة والد بيل. يتذكَّر بيل وهو يقول «يجب أن نـ-نـ-نكون...

2

... حذرين. لا أريد أن نترك فوضى خـ-خـ-خلفنا. أبي سـ-سـ-سـ...»، راح يُكرِّر عددًا كبيرًا من حروف السين، قبل أن يتمكَّن في النهاية من قول: «سيستشيط غضبًا».

تظاهر ريتشي مداعبًا أنه يمسح ذقنه وقال: «هل تُقدِّم مناشفَ مع الرذاذ الذي تمطرنا به يا بيل المُتلعثم؟».

تظاهر بيل أنه سيضربه، فجبن ريتشي وتراجع صارخًا بصوت الخادم الزنجي الصغير.

كان بن بالكاد يلحظ مشاكسة أحدهما للآخر، وراح يراقب بيل وهو يجلب الأدوات والمُعدَّات واحدة تلو الأخرى إلى دائرة الضوء، وجزء من عقله يتمنَّى لو أنه حظيَ بمثل هذه الورشة المُرتَّبة يومًا ما. كان مُعظم الأشياء في المكان مُعدَّة للمَهمَّة التالية. ليست المَهمَّة بصعوبة مَهمَّة صنع الرصاصات الفِضِّية، لكن مع هذا يجب أن يكون حذرًا.. فلا يُقبل من صانع مُهمِل. لم يكن هذا شيئًا تعلَّمه أو سمعه من أحد، بل شيئًا يعرفه بالسليقة.

أصر بيل أن يصنع بن النبال، تمامًا كما ظل يُصرَّ على أن تكون بيڤرلي هي من تحمل النِّبلة. مثل هذه الأفكار كان يُمكن تُناقش، أو يُطعن في جدواها، لكن لم يدرك بن إلا لاحقًا -بعد سبعة وعشرين عامًا- في أثناء ما راح يسرد القِصَّة، أن أحدهم لم يقدِّم أدنى اعتراض بأن الرصاصة أو القذيفة قد تفشل في إيقاف الوحش. كان يبدو أن ميراث ما يقرب من ألف فيلم رعب في صفِّهم، ويدعم الفكرة.

قال بن: «حسنًا». ثم طرقع بأصابعه ونظر إلى بيل قائلًا: «أمعك قوَالب الصب؟».

جافلًا قليلًا، قال بيل: «أوه. هـ-هـ-هاك»، ثم مدَّ يده إلى جيب سراويله وأخرج منديله ووضعه على المنضدة وفكَّ طيَّه. كانت به كُرتان حديديتان ثقيلتان، كلٍ منهما مزوَّدة بفتحة صغيرة. إنها قوالب صنع البلي.

بعد استقرار رأيهم على صنع نبال بدلًا من رصاصات، عاد بيل وريتشي إلى المكتبة وبحثا عن كيفية صنع الكُريات. قالت لهم السيِّدة ستاريت: «أنتما مشغولان تمامًا يا رفاق، الأسبوع الماضي رصاصات، ثم النبال في الأسبوع التالي! كل هذا ونحن في إجازة الصيف!».

قال ريتشي: «أحب الإبقاء على ذكائي نشيطًا، أليس كذلك يا بيل؟».

- «بـ-بـ-بـلى».

اتضح بعد ذلك أن صُنع الكُريات أمر سهلٍ، ما إن تحصل على القوالب. السؤال الوحيد هو من أين تحصل عليها. ما تولَّى إجابة ذلك هي بضعة أسئلة

متحفِّظة طرحها بيل على زاك دِنبروه، ولم يتعجَّب أيٌّ من الخاسرين عندما علموا أن متجر الآلات الوحيد الذي يبيع مثل هذه القوالب في ديري هو كيتشينر بيرسشن تول أند داي. إن السيِّد كيتشنر الذي يمتلك ويدير المتجر هو حفيد حفيد ابن أخ الشقيقين اللذين كانا يمتلكان مصنع الحديد: مصنع حديد كيتشنر.

ذهب بيل وريتشي إلى المتجر بكل المال الذي استطاعوا جمعه من الخاسرين في هذا الوقت القصير، عشرة دولارات وتسعة وخمسين سنتًا، وعندما سأل بيل عن سعر قالبي صنع بلي بقُطر بوصتين، سأله كارل كيتشنر -الذي كان يبدو أشبه بسكير وتفوح منه رائحة غطاء جياد قديم- ما الذي يبغي صبيَّان فعله بقوالب البلي، ترك ريتشي مهمَّة الكلام لبيل، عالمًا أن الأمور ستكون أسهل بهذه الطريقة. يسخر الأطفال من ثأثأة بيل، لكنها تُحرج الكبار. في بعض الأحيان يكون ذلك مُفيدًا بشكلٍ مُدهش.

وصل بيل إلى مُنتصف الشرح الذي اتفق عليه مع ريتشي وهما في طريقهما إلى هنا -حكاية ما عن نموذج طاحونة هوائية لمشروع مدرسي علمي للعام القادم- فلوَّح له كيتشنر ليُخرسه، وأعطاهم القالبينَ بسعر خرافي، فقط خمسون سنتًا للقطعة.

أعطاه بيل دولارًا وهو لا يُصدِّق الثروة الصغيرة التي تبقَّت بحوزتهم.

قال كارل كيتشنر: «لا تتوقَّع مني إعطاءك حقيبة»، وهو يرمقهما بعينين حمراوين مُحتقنتين بالدماء.. عيني رجُلٍ يُصدِّق أنه اختبر كل شيءٍ يحمله العالم في جعبته، واختبر أغلبه مرَّتين. «لا أحد يحصل على حقيبة إلا إذا اشترى بضاعة بخمسة دولارات على الأقل».

قال بيل: «عُلم ويـ-يـ-ينفَّذ يا سيِّدي».

قال كيتشنر: «ولا تتسكَّعان في الجوار، كلاكما يحتاج أن يقص شعره».

في الخارج قال بيل: «أ-أ-ألم تلحظ مـ-مـ-من قبل يـ-يا ر-ريتشي أن الكبار لـ-لا يـ-يـ-يبيعونك أيَّ شـ-شيء باستثناء الحـ-حلوى والقـ-قـ-قصص المصوَّرة ورُبَّما تـ-تـ-تذاكر السينما، قبل أ-أ-أن يرغبوا أوَّلًا مـ-معرفة ما حـ-حـ-حاجتك إليه؟».

قال ريتشي: «بالتأكيد».

- «لـ-لـماذا؟ لـ-لـماذا يتصرَّفون هـ-هـ-هكذا؟».

- «لأنهم يظنون أننا نُشكِّل خطرًا».

- «أ-أحقًّا؟ وهل تـ-تـ-تـتعتقد ذلك؟».

قال ريتشي: «أجل»، ثم ضحك: «لنتسكَّع في الجوار قليلًا، ألا ترغب في ذلك؟ لنرفع ياقاتنا ونُحدِّق في الناس ونطيل شعورنا».

قال بيل: «عـ-عليك الـ-اللعنة».

3

قال بن وهو يتفحَّص القالبين بإمعان قبل أن يضعهما على المنضدة: «حسنًا، جميل. الآن...».

أفسحوا له المجال أكثر، ناظرين إليه بأملٍ، بالطريقة التي ينظر بها رجُلٌ لا يفقه شيئًا عن السيَّارات إلى ميكانيكي. لم يلحظ بن التعبير على وجوههم. كان مُنكبًّا على عمله.

قال بن: «ناولني هذه القذيفة المدفعية، وموقد اللحام».

ناوله بيل القذيفة. كانت غنيمة حرب التقطها زاك دِنبروه بعد خمسة أيَّام بعد عبوره النهر إلى ألمانيا هو وباقي أفراد كتيبته في الماضي. عندما كان بيل صغيرًا وجورج ما زال في حفَّاضاته، اعتاد والده استخدام القذيفة كمنفِضَة تبغ. لاحقًا أقلع عن التدخين، واختفت القذيفة بعدها، قبل أن يكتشفها بيل في المرآب الأسبوع الماضي فحسب.

وضع بن القذيفة المدفعيَّة في ملزمة الحدَّاد، وأحكم إمساكها، ثم أخذ موقد اللحام من بيڤرلي. مدَّ يده إلى جيبه وأخرج الدولار الفِضِّي، ووضعه في البوتقة المؤقَّتة التي صنعها كيفما اتَّفق باستخدام القذيفة. أصدر الدولار صوتًا مُجوَّفًا.

سألته بيڤرلي: «لقد أعطاك والدك هذا، أليس كذلك؟».

قال بن: «أجل. لكنني لا أتذكَّر والدي جيِّدًا».

- «هل أنت مُتأكِّد أنك ترغب في فعل ذلك؟».

نظر إليها وابتسم ثم قال: «أجل».

بادلته الابتسامة. إذا كانت قد ابتسمت له مرَّة ثانية، كان بن سيصنع عن طيب خاطر كميَّة من الكُريات الفِضِّية تكفي للقضاء على كتيبة من المُستذئبين.

أشاح الصبي ببصره بعيدًا وقال: «حسنًا. ها نحن نبدأ. لا مُشكلة. أسهل من السهولة، أليس كذلك؟».

أومأوا جميعهم.

بعدها بسنوات، وهو يسرد كل ذلك، سيُفكِّر بيل: هذه الأيَّام يستطيع أيَّ طفل دخول أيَّ متجر ليبتاع موقد بروبان... أو قد يمتلك والده واحدًا في ورشته.

لم يكن يوجد مثل هذه الأشياء في عام 1958، ومع ذلك، كان زاك دِنبروه يمتلك صهريج غاز، وقد جعل هذا الأخير بيفرلي عصبية. كان بن يستشعر عصبيتها، وأراد أن يخبرها ألا تقلق، لكنه خاف أن يرتعش صوته.

قال بن لستان الذي كان يقف إلى جوارها: «لا تقلق».

قال ستان وهو ينظر إليه ببلاهة: «هه؟».

– «لا تقلق».

– «لست قلقًا».

– «أوه، ظننتك كذلك. أردت فقط أن أطمئنك أن الأمر آمنٌ تمامًا، أعني إذا كنت قلقًا».

– «هل أنت على ما يُرام يا بن؟».

غمغم بن: «أجل. أعطِني الثقاب يا ريتشي».

أعطاه ريتشي علبة ثقاب. أدار بن صمام الصهريج وأشعل عود ثقاب تحت فوَّهة موقد اللحام. صدر صوت فلام! ثم لمع ضوءٌ أزرق برتقالي ساطع، وبدأ بن يسخِّن قاع القذيفة المدفعية.

سأل بن بيل: «أمعك القُمع؟».

– «هـ–هـ–هنا»، قالها بيل وناوله القُمع يدوي الصنع الذي صنعه بن في وقتٍ سابق. كان الثقب الصغير في قاعدته يتناسب مع الثقب في كل قالب تمامًا تقريبًا. لقد فعل بن هذا دون أن يأخذ قياسًا واحدًا. لقد دُهِشَ بيل

بالكامل -بل ذُهِلَ بالأحرى- لكنه لم يعلم ماذا يقول دون أن يُسبِّب حرجًا لبن.

في أثناء ما كان منغمسًا فيما يفعله، استطاع بن التحدُّث إلى بيڤرلي. كان يتحدَّث بالجفاف والإحكام اللذين يتحدَّث بهما جرَّاح إلى مُمرِّضة.

- «بيڤ، أنت صاحبة أثبت يدين. ضعي القُمع في الثقب. استخدمي أحد هذه القُفَّازات كي لا تحرقي يدك».

ناولها بيل أحد قُفَّازات والده، ووضعت بيڤرلي القُمع الصفيح في القالب. لم يتحدَّث أحد. كان هسيس موقد اللحام يبدو مُرتفعًا جدًّا، وراحوا جميعًا يراقبونه بأعينٍ ضيِّقة شبه مُغلقة.

قال بيل فجأة: «ا-ا-انتظر»، وركض إلى المنزل. ثم عاد بعد دقيقة حاملًا نضَّارة شمس رخيصة كانت موجودة في درج المطبخ منذ سنة أو أكثر. «مـ-مـ-من الأفضل أ-أ-أن تـ-تستخدم هـ-هذه يـ-يا كومة القـ-القش».

أخذ بن النظَّارة وابتسم، ثم وضعها على عينيه.

قال ريتشي: «اللعنة، إنه فابيان، أو فرانكي أڤالون، أو أحد أولئك الطلاينة في برنامج باند ستاند».

قال بن: «اللعنة عليك يا سليط اللسان»، وبدأ يضحك رغمًا عن نفسه. بدت فكرة أن يتخيَّل نفسه فابيان أو فرانكي غريبة جدًّا عليه. تذبذبت الشُعلة فتوقَّف عن الضحك، وانحصر تركيزه في نقطة واحدة من جديد.

بعدها بدقيقتين ناول بن الشعلة إلى إدي، الذي حملها بحذرٍ شديد بيده السليمة. قال بن لبيل: «إنها جاهزة».

- «أعطني هذا القُفَّاز الآخر. سريعًا! سريعًا!».

ناوله بيل القُفَّاز، فارتداه بن وأمسك بالقذيفة وهو يُدير ملزمة الحِدادة بيده الأخرى.

- «أمسِكيه جيِّدًا يا بيڤ».

ردَّت سريعًا: «أنا مُستعدة، لا تنتظرني».

أمال بيل القذيفة فوق القُمع. راقب الآخرون غدير الفِضَّة المنصهرة وهي تتدفَّق بين الوعاءين. صبَّ بن السائل بحرص، ولم تسقط قطرة واحدة.

للحظة، شعر بأنه مشحون كهربائيًّا. كان يبدو أنه يرى كل الأشياء مُضخَّمة بواسطة توهُّجٌ أبيضُ قوي. في تلك اللحظة، لم يشعر بن أنه ذلك الصبي البدين بن هانسكوم الذي يرتدي السُترات ليُداري بطنه وثدييه. بل شعر أنه الإله ثور، يُعمِل البرق والرعد في حِدادة الآلهة.

ثم تلاشى الشعور.

قال لهم: «حسنًا، سأعيد تسخين الفِضَّة. ليضع أحدكم إبرة أو مسمارًا في فوَّهة القمع قبل أن تتجمَّد المادة اللزجة فيه.

فعل ستان ما قال.

شدَّ بن قذيفة الهاون في ملزمة الحِدادة من جديد وأحكم وثاقها، وأخذ موقد اللحام من إدي.

ثم قال: «حسنًا. الثانية».

وعاد إلى العمل.

4

بعد عشر دقائق انتهت المهمَّة.

سأل مايك: «الآن ما العمل؟».

قال بن: «الآن نلعب مونوبولي ساعة أو نحو ذلك حتَّى يتصلَّب القالبان، ثم سأفصلهما إلى نصفين بإزميل من عند خطوط القطع ونكون قد انتهينا».

نظر ريتشي بعدم راحة إلى ساعته التيمكس المشروخة التي تلقَّت ضربات كثيرة لكنها ما زالت تعمل.

- «متى سيعود والداك؟».

قال بيل: «لـ-لـ-ليس قبل العـ-عـ-عاشرة والنـ-نـ-نصف. إنهما يُشاهدان فـ-فـ-فيلمين في عـ-عـ-عرض واحد في سـ-سينما عـ-عـ-عـ-...».

قال ستان: «علاء الدين».

- «أجل، وسيتوقَّفان لتناول البيتزا بعدها. دائمًا مـ-مـ-ما يفعلان ذ-ذ-ذلك».

قال بن: «إذًا لدينا مُتَّسعٌ من الوقت».
أومأ بيل.
قالت بيڤ: «إذًا لندخل إلى المنزل. أريد الاتِّصال بالبيت. لقد وعدت بذلك. لا يرفع أحدٌ منكم صوته يا رفاق، فأبي يظن أنني في البيت المُجتمعي وأن أحدهم سيقلُّني إلى المنزل من هناك».
قال مايك: «ماذا لو قرَّر أن يأتي لاصطحابك باكرًا؟».
قالت بيڤ: «سأكون في مُشكلة حقيقية».
فكَّر بن: سوف أذود عنكِ يا بيڤرلي، وبعين الخيال، تشكَّل حُلم يقظة في عقله على الفور. حُلم بنهاية شديدة العذوبة جعلت جسده يقشعر. في الحلم، بدأ والد بيڤ في تعنيفها، يصيح ويجعجع وكل ذلك (وحتَّى في حلمه لم يتخيَّل بن مدى السوء الذي قد يصل إليه ذلك الأمر). في الحلم، حال بن بجسده بينه وبينها وأخبر آل مارش أن يبتعد.
إذا كنت تريد مُشكلة أيُّها الفتى البدين، استمرّ في حماية ابنتي.
هانسكوم، الذي عادةً ما يكون هادئًا، يُمكن أن يتحوَّل إلى نمرٍ غاضب لو أغضبته. تحدَّث بن إلى مارش بحُسن نية: إذا أردت الوصول إليها، يجب أن تعبر من خلالي أوَّلًا.
تقدَّم مارش إليه، ثم ردعه الوميض الحديدي الذي التمع في عيني بن.
ستندم، قالها مارش، لكن كان واضحًا أن القتال لن يميل إلى كفَّته. إنه مُجرَّد نمر من ورق.
أشك في ذلك، هكذا قال هانسكوم وهو يبتسم ابتسامة جاري كوبر الحازمة، ففرَّ أبوها هاربًا.
صاحت بيڤرلي: ماذا فعلت يا بن؟ لقد بدوت مُستعدًّا لقتله!
قال هانسكوم وابتسامة جاري كوبرِ ما زالت تتلاعب على ثغره: قتله؟ مُحال يا حلوتي. قد يكون وغدًا، لكنه ما زال والدك. كنت سألقنه درسًا صغيرًا، لأنني أشعر بالدماء تفور في عروقي لو تحدَّث إليك أحدٌ بطريقة غير لائقة، أتعرفين ذلك؟
لفَّت بيڤرلي ذراعيها حول عُنُقه وقبَّلته (على شفتيه! على شفتيه) وبكت: أنا أحبك يا بن! كان يستشعر نهديها الصغيرين ينضغطان على صدره و...

ارتجف بن قليلًا، وتخلَّص من تلك الصورة الساطعة شديدة الوضوح بجهدٍ جهيد، وقف ريتشي على عتبة الباب وسأله ما إذا كان سيأتي، وأدرك بن أنه يقف وحيدًا في الورشة.

قال وهو يَهُمُّ قليلًا: «أجل، بالتأكيد سأفعل».

– «لقد بدأت تشيخ يا كومة القش»، قالها ريتشي في أثناء عبور بن من الباب وربَّت على ظهره. ابتسم بن ولفَّ ذراعه حول عُنُق ريتشي سريعًا.

5

لم تحدث مشكلة مع والد بيڤرلي. لقد عاد إلى المنزل مُتأخِّرًا من عمله -هكذا أخبرتها أمها عبر الهاتف- وخرَّ نائمًا أمام التلفاز، ثم جرَّ نفسه جرًّا إلى الفراش.

– «هل سيوصِّلك أحدٌ إلى المنزل؟».

– «نعم، والد بيل دِنبوره سيقلنا جميعًا إلى منازلنا».

توتَّر صوت السيِّدة مارش فجأة: «أنت لست في موعدٍ غرامي، أليس كذلك يا بيڤي؟».

قالت بيڤ وهي تنظر إلى المدخل المقوَّس الذي يفصل الرُدهة المُعتمة حيث تقف عند حجرة الطعام حيث يجلس الآخرون حول لوح المونوبولي: «لا، بالتأكيد لا»، لكم كنت أريد ذلك، «الأولاد حمقى. إن لديهم هنا ورقة اشتراك، وكل ليلة يتولَّى أب أو أم مهمَّة توصيل الأطفال إلى منازلهم». كان هذا على الأقل حقيقيًّا، أما كل ما عاداه فمحض كذب لدرجة جعلتها تشعر بحرارة تورُّدها خجلًا في الظلام.

قالت أمها: «حسنًا، فقط أردت التأكُّد، لأنه لو ضبطك والدك تواعدين أحدًا في هذه السن سيُجنُّ جنونه»، ثم أضافت مُستدركة: «وسيكون هذا شعوري أيضًا».

قالت بيڤ: «أجل، أعرف»، وهي لا تزال تنظر إلى حُجرة الطعام. إنها تعرف بالفعل، ومع ذلك ها هي هنا، ليست مع ولد واحد بل ستة، في بيتٍ لا

كبار فيه. رأت بن ينظر إليها بلهفة، فحيَّته بابتسامة صغيرة عذبة. تورَّد خجلًا قليلًا لكنه بادلها التحية.

– «هل أيٌّ من صديقاتك معك؟».

أيُّ صديقات يا أمي؟

– «ممم، أجل، باتي أوهارا هنا، وآيلي جايجر على ما أظنُّ.. إنها تلعب لعبة إحدى الألعاب بالأسفل». أشعرتها السهولة التي تنساب الأكاذيب بها من فمها بالخزي، وتمنَّت لو أنها تتحدَّث إلى والدها لا أمها.. كانت ستشعر بخوفٍ أكبر من دون شك، لكن بخزيٍ أقل. افترضت بيڤرلي أنها في حقيقة الأمر ليست فتاة مُهذَّبة جدًّا.

قالت: «أحبك يا أمي».

– «وأنا كذلك يا بيڤ»، هكذا قالت أمها، ثم صمتت قليلًا قبل أن تضيف: «كوني حذرة، الجريدة تقول إن طفلًا آخر فُقِد. صبي اسمه باتريك هوكستيتر. هل تعرفينه يا بيڤي؟».

أغلقت بيڤرلي عينيها وقالت: «لا يا أمي».

– «حسنًا، وداعًا إذًا».

– «وداعًا».

انضمت بيڤرلي إلى الآخرين على المنضدة، وراحوا يعلبون المونوبولي مُدَّة ساعة، كان ستان الرَّابح الأكبر.

قال ستان وهو يبني فُندقًا ومنزلين أخضرين على خانة جادة فينتور: «اليهود بارعون في كسب الأموال، الجميع يعرف ذلك».

قال بن فجأة: «ربَّاه، اجعلني يهوديًّا»، فضحك الجميع، ولم يتمالك بن نفسه تقريبًا.

راحت بيڤرلي تختلس النظر إلى بيل عبر المنضدة.. لاحظت يديه المُنمَّقتين، وعينيه الزرقاوين، وشعره الأحمر المُصفَّف؛ وفكَّرت وهي تراقبه وهو يُحرِّك أيقونة الحذاء الفِضِّي الذي تُستخدم كعلامة على اللوح: أظنُّ أنني سأموت من السعادة لو أمسك يدي فقط. بدا أن شُعلة دافئة توهجَّت في صدرها لفترة وجيزة، فابتسمت الفتاة سِرًّا وهي تنظر إلى يديها.

6

كانت نهاية الأُمسية خيبة أمل كبيرة بالنسبة لهم. أخذ بن أحد أزاميل زاك من الرَّف واستخدم مطرقة ليفتح بها القالبين من عند خطَّي القطع. فُتح القالبان بسهولة، وسقطت منهما كُرتان فِضِّيتان صغيرتان. على إحداها استطاعوا رؤية جزء من التاريخ: 925، وعلى الأخرى، رأوا خطوطًا متموِّجة ظنَّت بيڤرلي أنها تُشبه شعر تمثال سيِّدة الحُرِّية.. أو بقايا شعر سيدة الحُرِّية. حدَّقوا في الكُرتين دون أن يتحدَّثوا لفترة، ثم أمسك ستان واحدة وقال:

- «صغيرة جدًّا».

قال مايك: «وكذا كانت الحجارة التي ألقاها داود على جالوت. تبدو قوية في نظري».

وجد بن نفسه يُومئ. كانت تبدو كذلك في نظره.

سأله بيل: «ه-هـ-هل انتهينا؟».

قال بن: «أجل»، وألقى الكُرية الأخرى إلى بيل، الذي تفاجأ لدرجة أنه كاد أن يسقطها. دارت السبيكتان حولهما. تفحَّصهما كلٌّ منهما من كثب، مُندهشين من استدارتهما، ووزنهما، وواقعيتهما.. وعندما عادت الكُريتان إلى بن، أمسكهما في يده ونظر إلى بيل وقال: «ماذا نفعل بهما الآن؟».

- «أ-أ-أعطِهما إلى بـ-بيڤرلي».

- «لا!».

نظر إليها. كان وجهه حنونًا جدًّا لكنه صارم.

- «بـ-بـ-بيف، لقد تـ-تـ-تحدَّثنا في هذا الأمر بـ-بالفعل، و-و-و...».

قالت: «سأفعلها. سأصوِّب على الشَّيءِ اللعين عندما يحين الوقت.. إذا حان الوقت.. سأتسبَّب غالبًا في مقتلنا جميعًا، ومع ذلك سأفعلها، لكنني لا أريد اصطحابهما إلى المنزل. قد يعثر عليهما أحد

(والدي)

أبواي، عندها سأقع في مُشكلة حقيقة».

سألها ريتشي: «أليس لديكِ مخبأ سرِّي. هذا عجيب، لديَّ خمسة أو ستة مخابئ».

قالت بيفرلي: «لديّ مكان». كان هناك شقٌّ صغيرٌ في حشية فراشها اعتادت أن تخفي فيه سجائرها وقصصها المصوَّرة و-مؤخَّرًا- مجلات السينما وصيحات الموضة أحيانًا. «لكنني لا أجد مكانًا آمنًا لمثل هذه الأمور. احتفظ أنت بهما يا بيل إلى أن يحين الوقت. احتفظ بهما».

- «حسنًا»، قالها بيل باعتدال، ثم مُباشرةً بعدها شاع ضوءٌ في الممرِّ المُؤدي إلى منزله. «الـ-لـ-لعنة، لـ-لـ-لقد وصلا، لـ-لـ-لنخرج من هنا».

جلس سبعتهم حول لوح المونوبولي من جديد في اللحظة التي فتحت فيها شارون دِنبروه باب المطبخ.

رفع ريتشي عينيه وتظاهر بأنه يمسح العرق عن جبهته، فضحك الآخرون من قلوبهم. لقد أطلق ريتشي واحدة مُحترمة.

بعدها بلحظة جاءت إليهم: «والدك ينتظر أصدقائك في السيَّارة يا بيل».

قال بيل: «حـ-حـ-حسنًا يا أمي. لـ-لـ-لقد شارفنا عـ-على الانتهاء على أ-أ-أيِّ حال».

سألت شارون وهي تبتسم بعينين مُشرقتين لأصدقاء بيل: «من فاز؟». فكَّرت المرأة أن الفتاة ستكبر لتكون شابَّة جميلة جدًّا، وافترضت أنه خلال عام أو عامين ستتوجَّب مُراقبة الأولاد إذا كانوا سيحظون بفتيات بينهم، لكن منَ المُبكِّر جدًّا الآن القلق بخصوص أن يطلَّ الجنس برأسه القبيح.

قال بيل: «سـ-سـ-ستان من فـ-فـ-فاز، اليـ-يـ-يهود بارعون فـ-في كـ-كـ-كسب المال».

صاحت فيه أمه شاعرة بالذُعر والخجل: «بيل!»، ثم نظرت إليهم مشدوهة عندما انفجروا ضاحكين، بمن فيهم ستان.. وهي دهشة انقلبت إلى شعورٍ أشبه بالخوف (رغم أنها لم تقلِ شيئًا من هذا لزوجها لاحقًا في الفراش). ثمَّة شيءٌ في الجو، كالكهرباء الاستاتيكية، لكنه أقوى بكثير بطريقة أو بأخرى، وأكثر ترويعًا. شعرت أنها لو لمست أيًّا منهم، ستسري رعدة فيها. ماذا حدث لهم؟ هكذا فكَّرت جزعة، كادت أن تفتح فمها لتقول شيئًا كهذا، ثم وجدت

بيل يعتذر (لكن بذات اللمعة الشيطانية في عينيه)، وستان يقول إنه لا مُشكلة، وإنها مُجرَّد مُزحة يداعبونه بها من وقتٍ إلى آخر، فوجدت نفسها عاجزة عن قول أيَّ شيءٍ على الإطلاق.

لكنها شعرت بالراحة مع رحيل الأطفال، وصعود ابنها المُحيِّر المُتلعثم إلى غُرفته وإغلاق نورها.

7

كان اليوم الذي التقى فيه نادي الخاسرين أخيرًا بالشَّيءِ في قتالٍ وجهًا لوجه، اليوم الذي كاد فيه الشَّيء أن ينتزع أحشاء بن هانسكوم، هو يوم الخامس والعشرين من يوليو عام 1958. كان يومًا حارًّا ورطبًا. تذكَّر بن الطقس جيِّدًا، فقد كان آخر يومٍ في الأيَّام الحارَّة، وبعده، هبطت على البلدة برودة غائمة طويلة.

وصلوا إلى المنزل رقم 29 في شارع نيبولت في حدود العاشرة صباحًا. بيل يقود سيلڤر وريتشي يركب خلفه، بن بردفيه الوافرين متدليان من جانبي مقعد درَّاجته الرالي. بيڤرلي على درَّاجتها الشوين، مُبعدة شعرها الأحمر الذي يتطاير خلفها كنهرٍ صاخب عن جبهتها في عِقصة بشريطٍ أخضر. ثم جاء مايك بمُفرده، وبعدها بخمس دقائق أتى ستان وإدي معًا.

– «كيف حال ذراعك يا إدي؟».

– «ليست سيِّئة جدًّا.. تؤلمني قليلًا إذا حرَّكتها إليَّ هكذا أو وأنا نائم. هل أحضرت الأشياء؟».

كانت توجد قماشة ملفوفة في سلَّة سيلڤر. أخذها بيل وفضَّها أمامهم. ناول بيڤرلي النِّبلة. أخذتها منه بعبوسٍ نوعًا ما لكنها لم تُعلق. كانت هناك أيضًا عُلبة صغيرة. فتحها بيل وعرض عليهم الكُريتين الفِضِّيتين. نظروا إليهما بصمت وبعضهم يقترب من بعض في حديقة المنزل رقم 29 الجرداء. الحديقة التي يبدو أنه لا تنمو فيها سوى الحشائش الضارة. لقد رأى بيل وريتشي وإدي المنزل من قبل، أما الآخرون فلا.. لذا راحوا ينظرون إليه بفضول.

النافذتان الرئيستان أشبه بعينين، عينين ضريرتين قذرتين، هكذا فكَّر ستان

ويده تتلمَّس الكتاب الورقي المدسوس في جيب سراويله الخلفي. تلمسَّ ستان الكتاب الذي يحمله معه في كل مكان تقريبًا لجلب الحظ. إنه كتاب دليل طيور أمريكا الشمالية لكاتبه إم كيه هاندي.

فكَّرت بيڤرلي: إنه نتن الرَّائحة. أستطيع شم رائحته، لكن ليس بأنفي.. لا ليس تمامًا.

وفكَّر مايك: أشعر بذات الشعور الذي اعتراني في خرائب مصنع الحديد. للمكان الحضور نفسه، كأنه يدعونا كي نخطو داخله.

فكَّر بن: هذا أحد عرائن الشَّيء، واحد من مكامنه كحُفر المورلوك التي يستخدمها للدخول والخروج، وهو يعلم أننا هنا في الخارج. إنه ينتظر قدومنا.

سأل بيل: «أ-أ-أمازلتم تريدون الاستمرار؟».

نظروا إليه بوجوهٍ شاحبة واجمة. لم يقل أحدهم لا. أخرج إدي بخَّاخه من جيبه ورجَّه واستنشق منه نفسًا عميقًا.

قال ريتشي: «أعطِني نفسًا من ذلك».

نظر إليه إدي مُندهشًا ومُنتظرًا خاتمة المُزحة.

مدَّ ريتشي يده إليه: «لا أعبث معك يا رفيق، هل أستطيع استخدامه؟».

هزَّ إدي كتفه السليم -بحركة غريبة مُفكَّكة- وناوله إيَّاه. ضغط ريتشي البخَّاخ وأخذ نفسًا عميقًا. ثم قال: «كنت أحتاج ذلك»، ثم أعاده إليه. سعل ريتشي قليلًا، لكن ظلَّت عيناه هادئتين.

قال ستان: «وأنا أيضًا، حسنًا؟».

وهكذا استخدموا جميعًا بخَّاخ إدي واحدٌ تلو الآخر، وعندما عاد إليه في النهاية، وضعه إدي في جيبه، بحيث تبقى فوَّهته معلَّقة إلى الخارج.. ثم التفتوا ونظروا إلى المنزل.

سألت بيڤرلي بصوتٍ خفيض: «هل يقطن أيُّ شخصٍ في ذلك الشارع؟».

قال مايك: «ليس من هذه الناحية. لم يعد أحد يعيش هنا. فقط المشرَّدون الذين يمكثون فترة ثم يرحلون مع عربات البضائع».

قال ستان: «حتَّى لو كان ثمَّة من يقطن هنا. فهم لن يروا شيئًا، وسيكونون

في مأمن، مُعظمهم على أيٍّ حال»، ثم نظر إلى بيل وأردف: «هل يمكن أن يرى الكبار الشَّيءَ يا بيل؟ هل تظن ذلك؟».

قال بيل: «لا أ-أ-أعرف. لا بُدَّ أ-أ-أن بـ-بـ-بعضهم يرونه».

قال ريتشي بوجهٍ كالح: «أتمنَّى أن نعثر على واحدٍ. هذه حقًّا ليست مهمَّة صبية صغار، أتعرفون ما أقصد؟».

كان بيل يفهم ما يقصد. عندما كان الأخوان هاردي يقعان في مُشكلةٍ فيه، ففينتون هاردي كان يهب لنجدتهم. نفس الأمر مع والد ريك برانت، السيِّد هارتسون، في روايات مُغامرات ريك برانت العلمية. اللعنة، حتَّى نانسي درو لها أب سيظهر من تحت الأرض في جزء من الثانية إذا خطفها الأشرار وربطوها وألقوا بها إلى منجم مهجور أو أيِّ مكانٍ مشابه.

قال ريتشي: «يتحتَّم علينا أن نكبر»، وهو ينظر إلى المنزل المُغلق بطلائه المُتآكل، ونوافذه المُتَّسخة. ثم تنهَّد مُتعبًا. للحظة، شعر بن بأن قرارهم يتعثَّر.

ثم قال بيل: «تـ-تـ-تعالوا إلى هـ-هنا. ا-ا-انظروا إلى هذا».

ساروا إلى الجانب الأيسر من الشُرفة حيث تمزَّقت حافَّة الجدار. كانت الزهور البرِّية لا تزال موجودة، أما تلك التي لمسها مجذوم إدي عندما خرج من مكمنه فكانت سوداء وميِّتة.

أومأ بيل: «هـ-هـ-هل أ-أ-أنتم متأكِّدون يـ-يا ر-رفاق؟».

مرَّت لحظة لم يرد فيها أحد. لم يكونوا واثقين. كانوا يعرفون من ملامح بيل أنه سيواصل من دونهم، ورغم ذلك لم يكونوا مُتأكِّدين. أيضًا، ثمَّة بعض الخزي يلوح على وجه بيل، فكما أخبرهم من قبل، ليس چورچي شقيق أيٍّ منهم.

فكَّر بن: لكن ماذا عن كل الصبية الآخرين. بيتي ريبسوم، شيريل لامونيكا، كليمينتز، إدي كوركوران، روني جروجان... وحتَّى باتريك هوكستيتر. إن الشَّيءَ يقتل الأطفال.. الأطفال بحق الجحيم.

قال بن: «سآتي معك يا بيل الكبير».

قالت بيڤرلي: «اللعنة، بكل تأكيد».

قال ريتشي: «من دون شك. هل تظن أننا سندعك تحظى بالمرح كله وحدك يا ذا اللسان الثقيل».

نظر بيل إليهم، وابتلع ريقه، ثم أومأ، وناول علبة الصفيح إلى بيڤرلي.
- «هل أنت مُتأكِّد يا بيل؟».
- «مُـ-مُـ-مُتأكد».

أومأت برأسها مذعورة من المسؤولية ومسحورة من ثقته بها. فتحت الصندوق، وأخرجت السبيكتين، ودسَّت واحدة في جيب سراويلها الچينز، ووضعت الأخرى في القطعة الجلدية للنِبلة وحملتها منها. كانت تشعر بالكُرية مُطوَّقة بإحكام في قبضتها.. باردة في البداية قبل أن تدفأ.

قالت لهم بصوتٍ غير راسخ تمامًا: «هيَّا بنا. لندخل قبل أن أفر مذعورة».

أومأ بيل ونظر بحدَّة إلى إدي: «هـ-هـ-هل تـ-تـ-تستطيع الإقدام على ذلك يا إ-إ-إدي؟».

أومأ إدي: «بالتأكيد. لقد كنت وحدي في آخر مرَّة. الآن أنا برفقة أصدقائي. أليس كذلك؟». ثم نظر إليهم وابتسم قليلًا. كان التعبير الذي يلوح الآن على وجهه هشًّا وخجولًا وشديد العذوبة.

ربَّت ريتشي على ظهره: «هذا صحيح يا سينيوري. أيُّ واحد سيحاول سرقة بخَّاخك، سنكتله. لكننا سنكتله ببطء».

قالت بيڤرلي ضاحكة: «هذا مُريع يا ريتشي».

قال بيل: «سنزحف مـ-مـ-من تحت الشُـ-شُرفة، ثم سنهبط إلى القـ-قـ-قبو. ا-ا-ابقوا خـ-خلفي».

سألته بيڤرلي: «ماذا لو هبطت أوَّلًا ووجدت هذا الشَّيء يقفز عليك، ماذا سأفعل حينها، هل أطلق عليه من خلالك؟».

قال بيل: «نعم، إذا ا-ا-اضطررتِ لذلك. لكنني أ-أقترح أن تـ-تجربي الالتفاف حـ-حـ-حولي أ-أ-أوَّلًا».

ضحك ريتشي كثيرًا على هذا.

- «سـ-سـ-سنُفتِّش المكان بـ-بـ-بأكمله»، ثم هزَّ كتفه مُردفًا: «قـ-قد لا نـ-نـ-نعثر على أ-أيِّ شـ-شيءٍ».

قال مايك: «أتعتقد ذلك؟».

قال بيل باقتضاب: «لا. إنه هـ-ه-هنا».

ظنَّ بن أنه على الحق. هذا المنزل يبدو كأنه مُغطًّى بنطاقٍ سام. ليس هذا شيئًا تراه... بل تستشعره. لعق بن شفتيه.

سألهم بيل: «جـ-جـ-جاهزون؟».

نظر جميعهم إليه: «جاهزون يا بيل».

قال بيل: «هـ-هـ-هيَّا بنا إذًا. ابقي خـ-خلفي مُباشرةً يا بـ-بيفرلي». ثم ركع على رُكبتيه، وزحف عبر بُستان الأزهار الفاسدة أسفل الشُفرة.

8

تقدَّم الركب بالترتيب التالي: بيل، بيفرلي، بن، إدي، ريتشي، ستان، مايك. تكسَّرت الأوراق الجافة المُتكدِّسة أسفل الشُرفة وفاحت منها رائحة لاذعة قديمة. جعَّد بن أنفه. ألم يشتم رائحة أوراق يابسة كهذي من قبل؟ لا يظن ذلك.. ثم دارت في عقله فكرة مُقلقة.. إن لها تلك الرَّائحة التي طالما تخيَّل أنها رائحة المومياء في اللحظة التي يفتح فيها مُكتشفها التابوت: رائحة الغُبار وحمض التانيك المُر المُعتَّق.

وصل بيل إلى نافذة القبو المكسورة وكان يرنو إلى داخل القبو، عندما زحفت بيفرلي مُقتربة منه: «أترى شيئًا؟».

هزَّ بيل رأسه: «لا، لكن هـ-هـ-هذا لا يعني أن المكان خـ-خـ-خاوٍ. ا-انظري. هذه كـ-كومة الفـ-فحم التي استخدمتها أ-أنا ور-ر-ريتشي للفـ-فرار».

مُختلسًا النظر من بينهما، رأى بن رُكام الفحم. كان قد بدأ يتحمَّس الآن بقدر خوفه، وقد رحَّب بتلك الحماسة بعد أن أدرك غريزيًّا أنه يستطيع استخدامها كأداة. كانت رؤية كومة الفحم كرؤية معلمٍ سياحي عظيم قرأت أو سمعت عنه من آخرين.

غيَّر بيل وضعية جسده وانزلق عبر النافذة. أعطت بيفرلي النِّبلة إلى بن، وطوت يده فوق القطعة الجلديَّة والكُرية التي تحملها، وقالت: «ناولني إيَّاها بمُجرَّد نزولي. بمُجرَّد نزولي».

- «أجل».

انزلقت بيڤرلي إلى أسفل بسهولة ورشاقة. انسحبت بلوزتها إلى أعلى خارجة من سراويلها، وشاهد بن بطنها الأبيض المُسطَّح، فأفلت قلبه نبضة.. ثم رفعت يديها المُنفعلتين إلى يديه كي يناولها النِّبلة.

- «حسنًا، لقد أخذتها. الآن انزل».

أدار بن جسده وبدأ يشق طريقه مُتمعِّجًا عبر النافذة، وكان عليه أن يتنبأ بما حدث بعد ذلك، فقد كان الأمر حتميًّا. لقد حُشِرَ. التصقت عجيزته بنافذة القبو المستطيلة ولم يستطِع التقدُّم أكثر. بدأ يجذب نفسه إلى الخلف، ثم أدرك مذعورًا أنه لا يستطيع فعل ذلك أيضًا، لكنه كان مُستعدًّا لنزع سراويله -ولباسه التحتي أيضًا- إلى رُكبتيه لفعل ذلك. هذا سيضع مؤخِّرته العظيمة في وجه محبوبته.

قال إدي: «أسرِع!».

دفع بن بقوَّة بيديه. ظلَّ لحظات غير قادر على الحركة، ثم برز بطنه بعدها من فتحة النافذة. سُحبت سراويله الچينز الزرقاء بشكلٍ مؤلم وسحقت خصيتيه، وجذبت حافَّة النافذة التيشرت الذي يرتديه إلى لَوحي كتفه، والآن انحشرت أحشاؤه.

قال ريتشي وهو يضحك بشكلٍ هستيري: «اشفط بطنك يا كومة القش».

- «من الأفضل أن تشفط بطنك وإلا سنضطر لاستدعاء والد مايك كي يأتي برافعته لسحبك إلى الخارج مرَّة أخرى».

قال بن من بين أسنانه التي يصر عليها: «بيب بيب يا ريتشي»، ثم شفط بطنه قدر المستطاع. تحرَّك الصبي بشكلٍ طفيف فقط، ثم علق مُجدَّدًا.

أدار بن رأسه بقدر استطاعته مُحاربًا الذُعر ورُهاب الأماكن المُغلقة. تعرَّق وجهه وتوهَّج بالدماء، وكانت رائحة الأوراق اليابسة ثقيلة في أنفه.

- «بيل! هل تستطيعان جذبي يا رفاق».

شعر بيد بيل تُمسك بكاحله، وأمسكت بيڤرلي بالآخر. شفط بن بطنه مُجدَّدًا، وبعدها بلحظة سقط بقوَّة، لكن أمسكه بيل. كاد كلاهما أن يسقط. لم يجرؤ بن على النظر إلى بيڤ، فلم يكن قد شعر بمثل هذا الإحراج من قبل في حياته قدر ما استشعره اللحظة.

- «هـ-هـ-هل أنت بـ-بخير يا رجُل؟».
- «أجل».
ضحك بيل كثيرًا، وضحكت بيفرلي معه، ثم تمكَّن بن بعدها من الضحك قليلًا، رغم أن سنواتٍ طويلة ستمر قبل أن يستطيع رؤية أيِّ شيءٍ مُضحك في ما حدث.
نادى ريتشي من أعلى: «هاي! إدي في حاجة إلى مُساعدة».
- «حـ-حـ-حسنًا». تمركز بيل وبن أسفل النافذة. سقط إدي مقلوبًا على ظهره، فأمسك بيل بساقيه بالكاد من فوق رُكبتيه.
قال إدي بصوتٍ مُعاتب مُتوتِّر: «راقب ما تفعل. أنا حسَّاس تجاه اللمس حاليًا».
صاح صوت ريتشي من أعلى: «الصبي شديد الحساسية يا سنيور».
أمسك بن بإدي من خصره، محاولًا إبعاد يده عن جبيرته والحبال. تناوله بن وبيل عبر النافذة كأنهما يحملان جثَّة. صرخ إدي مرَّة، لكن هذا كل شيء.
- «إ-إ-إدي؟».
قال إدي: «أجل. أنا على ما يُرام. لا مُشكلة». لكن قطرات عرقٍ كبيرة احتشدت على جبهته وكان يلهث بسُرعة كبيرة. دارت عيناه في القبو.
تراجع بيل ثانيةً، وقفت بيفرلي جواره ممسكة بالنِّبلة في يدها في وضع التأهُّب للإطلاق، وراحت عيناها تمسحان القبو دون هوادة. هبط ريتشي بعدها، متبوعًا بستان ومايك في سلاسة ورشاقة ناعمة جعلت بن يحسدهم. الآن اكتمل نصابهم في القبو، القبو حيث التقى بيل وريتشي الشَّيءَ منذ شهر.
كانت الغُرفة مُعتمة، لكنها لم تكن مُظلمة بالكامل. كان ضوء الغروب ينفذ عبر النافذة ويتجمَّع على الأرضية التُرابية. بدا القبو مكانًا كبيرًا بالنسبة إلى بن، كبيرًا جدًّا. العوارض الخشبية تتقاطع فوق رؤوسهم. كانت مواسير السخَّان صدئة، وثمَّة أقمشة بيضاء مُتَّسخة مُعلَّقة على مواسير المياه في شرائطٍ وحبالٍ قذرة. الرَّائحة ذاتها هنا أيضًا. رائحة صفراء نتنة. فكَّر بن: الشَّيء هنا، لا ريب.

تحرَّك بيل تجاه الدرج. تكدَّس الآخرون خلفه. أوقفهم بإشارة من يده

ونظر إلى الأرض، ثم انحنى على رُكبة واحدة والتقط شيئًا. نظر جميعهم واجمين. كان هذا قُفَّاز مُهرِّج ملوَّثًا بالأوساخ والغبار.

قال لهم: «أ-أ-أعلى الدرج».

صعدوا إلى أعلى ودخلوا إلى مطبخٍ قذر. هناك كُرسي بظهرٍ مُستقيم يقف وحيدًا وسط أرضية من المشمَّع. هذا هو كل الأثاث الموجود. ثمَّة زجاجات خمرٍ خاويةٍ في أحد الأركان، واستطاع بن رؤية زجاجات أخرى في حُجرة المؤن. كان يستطيع اشتمام رائحة الخمر -نبيذ في الغالب- وسجائر قديمة عفنة. هذه هي الروائح التي تُهيمن على المكان، لكن توجد رائحة أخرى، وهي تزداد قوَّة طوال الوقت.

اتَّجهت بيڤرلي إلى الخزائن وفتحت إحداها، ثم صرخت بصوتٍ ثاقب عندما تعثَّر فأرٌ أسود بُنِّي ساقطًا منها على وجهها تقريبًا. صدم الفأر منضدة بصوتٍ مكتنز مكتوم، ونظر إليهم بعينين سوداوين. رفعت بيڤرلي النِّبلة وشدَّت شريطها إلى الخلف وهي ما زالت تصرخ.

زجرها بيل: «لا».

التفتت إليه شاحبة ومذعورة، ثم أومأت وأرخت ذراعها. لم تنطلق الكُرية الفِضِّية، لكن بن ظن أنها كانت قريبة جدًّا جدًّا من ذلك. تراجعت بيڤرلي خلفًا ببطء، وركضت إلى بن وقفزت عليه، فلفَّها بن بذراعه بإحكام.

هرول الفأر بطول المنضدة، وقفز إلى الأرض، ثم ركض إلى غرفة المؤن واختفى هناك.

قالت بيڤرلي بصوتٍ خفيض: «لقد أراد الشَّيء أن أصوب عليه، أن استنفذ نصف ذخيرتنا عليه».

قال بيل: «أ-أ-أجل، الأمر يُـ-يُشبه تـ-تـ-تدريبات المباحث الفـ-فيدرالية فـ-في كوانتيكو بـ-بـ-بطريقة أو بـ-بأخرى. إ-إ-إنهم يرسلونك إ-إ-إلى ذ-ذ-ذلك الشارع المصنوع خـ-خصيصًا، ويـ-يبرزون لـ-لكِ أ-أهدافًا عـ-عديدة. إذا أ-أ-أطلقت النار عـ-على المواطنين الأ-أبرياء بـ-بدلًا مـ-من المُشتبه بهم، تـ-تـ-تخسرين نـ-نـ-نقاطًا».

قالت له: «لا أستطيع فعل الأمر يا بيل، سأفسد كل شيء. هاك، خذها»، ومدَّت يدها بالنِّبلة إليه، لكن بيل هزَّ رأسه رافضًا.

- «يـ-يـ-يجب عليك فعلها يا بـ-بيڤرلي».

صدر أنينٌ من خِزانة أخرى.

اتَّجه ريتشي إليها.

صاح ستان: «لا تقترب كثيرًا، فقد...».

نظر ريتشي داخلها واعتلى وجهه تعبير اشمئزازٍ سقيم. صفع باب الخِزانة بصوتٍ عالٍ تردَّد صداه في جنبات المنزل الخاوي.

قال ريتشي بصوتٍ مُتقزِّز: «فضلات. أكبر كومة فضلات رأيتُها في حياتي، أكبر كومة فضلات رآها أيُّ شخصٍ في حياته»، ثم وضع ظهر يده على فمه وأردف: «ثمَّة مئات الفئران هنا»، وواصل ريتشي تحديقه في الخِزانة وارتعش رُكن فمه: «ذيولها... مُتشابكة جميعًا يا بيل. معقودة معًا»، وعلا العبوس وجهه: «كالثعابين».

نظروا إلى باب الخِزانة. كان الأنين مكتومًا لكن مسموع. فكَّر بن وهو ينظر إلى وجه بيل الشاحب، ومن فوق كتف بيل إلى وجه مايك الرمادي: فئران، الجميع يخاف الفئران. الشَّيء يعلم هذا.

قال بيل: «هـ-هـ-هلموا، فهنا فـ-فـ-في شارع نـ-نيبولت، المـ-مـ-مرح لا يـ-يتوقَّف».

ساروا في الرَّدهة الأمامية. هنا كانت رائحتا الجص المتعفِّن والبول المُعتَّق مختلطتين. استطاعوا النظر عبر الزجاج المُتَّسخ ورؤية درَّاجاتهم. درَّاجة بن وبيف تقفان على مسنديهما، ودرَّاجة بيل تميل مُستندة على جذع شجرة قيقب هزيلة. في عيني بن، كانت الدرَّاجات تبدو كأنها تبعد آلاف الأميال، كالأشياء التي تراها من الطرف الخاطئ لتليسكوب. بدت الموجودات كحُلم بالنسبة إليه.. الشارع الخالي ذو الرُّقع في الأسفلت، السماء المعتمة المُشبَّعة بالرطوبة، صوت عربات القطار الرتيبة في أثناء سيرها.. هلاوس. ما كان حقيقيًّا هو الردهة القذرة برائحتها العفنة وظلالها.

ثمَّة زجاج بُنِّي مُشظًّى في أحد الأركان... إنها زجاجات بيرة.

في ركنٍ آخر، تقبع مجلّة نسائية ابتلّت صفحاتها وانتفخت. كانت المرأة على الغلاف مُنحنية فوق كُرسي وتنُّورتها مُرتفعة من الخلاف وتُظهر من أسفلها جواربها الطويلة المُتقاطعة كشباك الصيد ولباسها الداخلي الأسود. لم تبد الصورة مُثيرة بشكلٍ خاص في عيني بن، ولم يشعر بالحرج من أن بيڤرلي كانت تنظر إليها بدورها. لقد أحالت الرطوبة جلد المرأة إلى الأصفر، وملأت الصورة بتجاعيد صارت تجاعيد وجهها، وأصبحت نظرتها المُغوية غمزة عاهرة ميِّتة.

(بعدها بسنوات، فيما كان بن يسرد هذه الحكاية، صرخت بيڤرلي فجأة وأرجفتهم جميعًا، فلم يكونوا يستمعون إلى الحكاية بقدر ما يعيشونها من جديد: «لقد كانت هي. السيِّدة كيرش! كانت هي»).

في أثناء ما كان بن يتأمَّل الغلاف، غمزت المرأة الصغيرة/ العجوز إليه، وحرَّكت مؤخِّرتها في دعوة فاحشة له بأن يأتي.

أشاح بن ببصره بعيدًا والعرق والبرودة يغمرانه.

دفع بيل الباب إلى يساره وتبعوه إلى غرفة شبيهة بسرداب رُبَّما كانت في يومٍ من الأيَّام صالة واسعة. ثمَّة سراويل خضراء مُجعَّدة مُعلَّقة على نجفة تتدلَّى من السقف.. وتمامًا كالقبو، بدت الغرفة عملاقة في عيني بن، بطول عربة قطار تقريبًا. أطول كثيرًا بالنسبة إلى بيتٍ في حجم هذا البيت كما يبدو من الخارج...

أوه، لكن هذا من الخارج. هكذا تحدَّث صوتٌ جديد داخل عقله. كان صوتًا مازحًا مهذارًا، وأدرك بن بيقينٍ مُفاجئ أنه يسمع صوت بيني وايز ذاته. إن بيني وايز يتحدَّث إليه على موجات راديو عقلية. من الخارج، تبدو الأشياء أصغر ممَّا هي عليه في الحقيقة، أليس كذلك يا بن؟

همس: «اذهب بعيدًا».

التفت ريتشي ونظر إليه، كان وجهه مُرهقًا وشاحبًا: «هل قلت شيئًا؟».

هزَّ بن رأسه. لقد رحل الصوت، هذا هو الأمر الهام.. الأمر الجميل. لكنه (الخارج)

فهم. هذا المنزل مكان خاص، محطَّة من نوعٍ ما، أحد البقاع في ديري

-واحد من أماكنٍ كثيرة رُبَّما- التي يعثر الشَّيء عبرها على طريقه إلى العالم الخارجي. هذا المنزل العفن كريه الرَّائحة الذي يسير كل شيءٍ فيه على نحوٍ خاطئ. لم تكن المُشكلة أنه يبدو كبيرًا فقط، لكن زواياه غريبة، والمنظور فيه جنونيًّا. كان بن يقف على عتبة الباب الذي يفصل الردهة عن الرواق، والآخرون يتحرَّكون بعيدًا عنه عبر المساحة الخالية التي بدت الآن في حجم حديقة باسي تقريبًا، لكن في أثناء ابتعادهم عنه، راحت قاماتهم تطول بدلًا من أن تصغر، وبدت الأرضية مائلة، و...

التفت مايك ونادى عليه: «بن!»، وشاهد بن وجهه المأخوذ: «الحق بنا! نحن نفقد أثرك». سمع بن الكلمة الأخيرة بالكاد. لقد انجرفت بعيدًا كما لو أن الآخرين اجتاحهم قطارٌ سريع.

بدأ بن يركض وقد شعر بالذعر فجأة. طاح الباب من خلفه مُنغلقًا بقوَّة بصوتٍ مدوي مكتوم. صرخ بن، وبدا له أن شيئًا عبر الهواء من خلفه وحرَّك ملابسه. نظر بن خلفه، لكن شيئًا لم يكن هناك. لم يُغيِّر هذا من قناعته أن شيئًا عبر لتوِّه.

لحق بالآخرين. كان يلهث، وأنفاسه متقطِّعة، ويكاد يقسم أنه ركض نصف ميلٍ على الأقل.. لكن عندما نظر خلفه، كان جدار الرواق البعيد لا يبعد أكثر من عشرة أقدام الآن.

أمسك مايك بكتفه بقوَّة آلمته.

قال له: «لقد أخفتني يا رجُل». كان ريتشي وستان وإدي ينظرون إلى مايك مُتسائلين، أردف مايك: «لقد بدوت صغيرًا. كأنك تبعُد ميلًا».

- «بيل!».

نظر بيل خلفه.

لهث بن قائلًا: «يجب أن نتأكَّد أن الجميع مُتقاربون. هذا المكان أشبه بـ... بيت المرح في الملاهي، سنضل طريقنا فيه.. أظنُّ أن الشَّيءَ يُريدنا أن نضيع.. أن نتفرَّق».

نظر بيل إليه لحظات زامًّا شفتيه: «حسنًا، لـ-لـ-لنبق جـ-جميعًا مـ-مـ-متلاصقين. لا تـ-تسكَّع».

أومأوا جميعًا برؤوسهم، مذعورين، مُحتشدين خارج باب الرواق. أمسك ستان بكتاب الطيور المدسوس في جيبه الخلفي. كان إدي يضغط بخَّاخه في يده، ثم يفلته، ويعود ويضغطه ثانية، كصبي ضعيف هزيل يحاول بناء عضلاته عن طريق اعتصار كُرة تنس.

فتح بيل الباب ليجدوا أمامهم رواقًا آخر أضيق. كان ورق الحائط المُزدان بصور أزهار وأقزام يرتدون قُبَّعاتٍ خضراء مُهترئ في مواضع عديدة بسبب الجص الإسفنجي المُنتفخ أسفله، وثمَّة بُقع ماءٍ صفراء تنتشر في حلقاتٍ على السقف من فوقهم. كانت طبقة رقيقة من الضوء الغائم تسقط عبر النافذة القذرة في نهاية الرواق.

فجأة، بدا أن الرواق يستطيل. ارتفع السقف وبدأ يستدق فوق رؤوسهم كأنه صاروخ غريب. تضخَّمت الأبواب مع السقف متمدِّدة كحلوى الطوفي. استطالت وجوه الأقزام وصارت غريبة، واستحالت عيونهم إلى ثقوبٍ سوداء.

صرخ ستان ووضع يديه على وجهه مُغطِّيًا عينيه.

صرخ بيل: «هـ-هـ-هـ-هذا لـ-لـ-لـيس حـ-حـ-حـ-حقيقيًّا». صرخ ستان بدوره: «بل حقيقي»، وقبضتاه الصغيرتان تُخفينان عينيه.. «إنه حقيقي. أنا مُتأكِّدٌ من ذلك. ربَّاه، أشعر أنني سأُجن، هذا جنون، جنون...».

– «ا-ا-ا-احترس». هكذا صرخ بيل في ستان، بل فيهم جميعًا.. وفي أثناء ترنُّحه، شاهد بن أن بيل ينحني أرضًا، ويتكوَّم، قبل أن يدفع نفسه إلى أعلى. لم تضرب قبضته اليُسرى شيئًا، لكن صدر عنها صوت تحطُّم ثقيل. انتشر غبار الجصَّ من المكان الذي لم يعد السقف يشغله، قبل أن يعود من جديد. لقد عاد الرواق رواقًا ضيِّقًا مُنخفض السقف مُتَّسخًا من جديد، ولم تعد الحوائط تمتد ارتفاعًا إلى ما لا نهاية. لم يكن يوجد إلا بيل، الذي كان ينظر إليهم وهو يعتني بيده النازفة المُغبَّرة بغُبار الجصِّ. فوق رأسه، رأوا العلامة الواضحة التي أحدثتها قبضته في جصِّ السقف الناعم.

قال بيل لستان ولهم جميعًا: «لم يـ-يكن حـ-حـ-حقيقيًّا، مُجرَّد وجه ز-ز-زائف، كـ-كـ-كأقنعة الهـ-هـ-هالوين».

قال ستان بتهذيب: «بالنسبة إليك رُبَّما». كان وجهه مصدومًا ومرعوبًا، وراح ينظر حوله كأنه لم يعد مُتأكِّدًا أين هو. شعر بن الذي طار فرحًا بانتصار بيل بالخوف يعتصره من جديد عندما نظر إلى ستان، واشتمَّ رائحة عرقه الحامض التي تنضح بها مسامه. ستان على شفا انهيارٍ عصبي. قريبًا ستجتاحه الهِستيريا، ورُبَّما سيبدأ في الصراخ، وماذا سيحدث حينها؟

كرَّر ستان قوله: «بالنسبة إليك. لكن لو حاولت أنا فعل ذلك، لن يحدث شيء. لأن... أنت لديك شقيقك يا بيل، أنا لا شيء لديّ». أنهى ستان كلامه ونظر حوله، لكن قبلها اختلس نظرة إلى الردهة، التي يلفُّها هواء بُنِّي كئيب وضبابي سميك جدًّا، لدرجة أنهم بالكاد استطاعوا رؤية الباب الذي دخلوا منه إلى الرواق، الذي كان مُضيئًا لكنه أيضًا مُظلم بطريقة أو بأخرى، قذرٌ بطريقة أو بأخرى، جنونيٍ بطريقة أو بأخرى. ها هم الأقزام يُعربدون في مرح على ورق الحائط المُتحلِّل أسفل صفوف الورد، وأشعة الشمس تلتمع على خصاصِ النافذة في نهاية الرواق، وشعر بن أنه يعلم أنهم لو ذهبوا إلى هناك سيرون ذُبابًا ميِّتًا.. ومزيدًا من الزُجاج المُتكسِّر.. ثم ماذا؟ هل ستُشقُّ ألواح الأرضية وتبتلعهم إلى ديجورٍ ميِّت تنتظر فيه أصابعٌ مُمتدَّة لتقبضهم؟ إن ستان مُحقٌّ؛ ربَّاه، لماذا أتوا إلى عرين الشَّيء غير مُتسلِّحين بشيءٍ إلا سبيكتين فِضِّيتين ونِبلة لعينة؟

وجد بن أن ذُعر ستان ينتقل من أحدهم إلى الآخر، كحريق حشائش برِّية تدفعه رياحٌ ساخنة. إنه يتَّسع في عيني إدي، ويُسقط فم بيفرلي عن اتِّساعه، ويجعل ريتشي يدفع نظَّارته بكلتا يديه ويتلفَّت حوله كأن شيطانًا يتقفَّى أثره.

كانوا يرتعدون على حافَّة الدرج، وقد نسوا تحذير بيل بالبقاء مُلتصقين معًا، وراحوا ينصتون إلى عواصف ذُعرٍ عاتية تهبُّ على آذانهم. داخل عقله، سمع بن صوت السيِّدة ديفيس مُساعدة أمين المكتبة وهي تقرأ على الصغار: من ذا الذي يجرؤ ويسير على جسري؟ ورأى بعين الخيال الأطفال ينحنون أمامًا، وجوههم واجمة ومشدوهة، وفي عيونهم المُتَّسعة ينعكس السحر الأبدي للقِصَّة الخيالية: هل سيُدحر الوحش... أم سيحظى بفريسته؟

كان ستان يعوي: «ليس لديَّ شيء»، وهو يبدو صغيرًا جدًّا، صغيرًا لدرجة

أنه يمكن أن ينزلق عبر أحد شقوق ألواح الأرضية كمظروفٍ بشري. «الديك شقيقك يا رجُل.. أنا لا شيء لديّ».

ردَّ عليه بيل الصياح بصياح: «بـ-بـ-بل لـ-لـ-لديك»، ثم أمسك بستان وشعر بن أنه سيصفعه، فصرخت أفكاره: لا يا بيل، أرجوك لا تفعل، هذه طريقة هنري، إذا فعلتها ستنكسر شوكتنا في التوِّ!

لكن بيل لم يصفع ستان. بل لفَّه حول نفسه بأيدٍ فظَّة ونزع الكتاب من جيب ستان الخلفي.

قال ستان وقد بدأ يبكي: «أعطِني هذا!»، وقف الآخرون مشدوهين، مُنكمشين بعيدًا عن بيل، التي اشتعلت عيناه الآن، وومضت جبهته كمصباح، وهو يمسك بالكتاب في وجه ستان كما يرفع قس صليبًا في وجه مصَّاص دماء.

- «لـ-لـ-لـ-لديك طـ-طـ-طيـ-طيـ-طيو...».

رفع بيل رأسه إلى أعلى، ونفرت العروق في رقبته، وبرزت تُفاحة آدم تبرز كرأس سهمٍ مدفون في حلقه. شعر بن بمزيجٍ من الخوف والشفقة على صديقه بيل دِنبروه، لكنه شعر أيضًا بشعور راحةٍ قوي ورائع. هل يشك في بيل؟ هل يشك به أحدهم؟ أوه يا بيل انطقها أرجوك، ألا تستطيع نُطقها؟

وبمُعجزةٍ ما، قال بيل: «الديك طـ-طـ-طيـ-طيـ-طيورك! طـ-طـ-طيـ-طيورك».

ثم دفع بالكتاب إلى ستان. أخذه ستان وهو ينظر إلى بيل خَرِسًا، والدموع تتلألأ على وجنتيه. أمسك ستان الكتاب بقوَّة هائلة لدرجة أن أنامله ابيضَّت. نظر بيل إليه، ثم إلى الآخرين.

ثم قال ثانيةً: «هـ-هيَّا بنا».

سأل ستان بصوتٍ خفيض أجشٍ: «هل ستنجح الطيور في ردعه؟».

سألته بيف: «لقد نجحت في بُرج المياه، أليس كذلك؟».

نظر إليها ستان بشكٍّ.

ربَّت ريتشي على كتفه وقال: «هيَّا يا ستان الصغير، هل أنت رجُلٌ أم فأر؟».

قال ستان مُرتجفًا وهو يمسح دموعه من وجهه بظهر يده اليُسرى: «لا بُدَّ أنني رجُلٌ، فالفئران لا تغوط على نفسها بقدر علمي».

ضحكوا جميعًا، وكاد بن أن يقسم أنه شعر بالبيت يبتعد بعيدًا عنهم.. بعيدًا عن هذا الصوت. التفت مايك خلفًا، وصاح: «تلك الغُرفة الكبيرة، الغُرفة التي جئنا منها لتوِّنا. انظروا!».

نظروا جميعًا. كانت الرُدهة شبه مُظلمة الآن.. لم يكن يُعتمها دُخان، أو أيُّ نوعٍ من الغازات، بل محض ظلام.. ظلام مادي ملموس تقريبًا. لقد سرق الهواء ضوءها. بدا له أن السواد يتثنَّى ويلتئم مُتَّخذًا هيئات وجوه وهم يحملقون فيه.

- «هـ-هـ-هيًّا بنا».

استداروا مُبتعدين عن هذا السواد وساروا عبر الرواق. كان ينتهي بثلاثة أبواب، اثنين منها لهما مقبضان من الخزف الأبيض المُتَّسخ، أما الثالث فلا توجد به إلا فجوة في المكان الذي كان المقبض يشغله. مدَّ بيل يده إلى المقبض الأوَّل وأداره، ثم دفع الباب. اقتربت بيڤ جواره، رافعة النِّبلة في وضع الاستعداد.

عاد بن إلى الخلف، واعيًا أن الآخرين يحذون حذوه، واحتشدوا وراء بيلٍ كالسمَّان الخائف. كانت الحُجرة حُجرة نوم خاوية باستثناء فراشٍ بحشية مُبقَّعة. كانت أشباح الأسلاك الملولبة الصدئة موشومة على قُماش الحشية أصفر اللون. خارج إحدى نوافذ الغُرفة، تترنَّح زهور عبَّاد الشَّمس وتومئ.

همَّ بيل بقول: «لا شيءَ هـ...»، عندما بدأت الحشية تنتفخ وتهبط بشكلٍ إيقاعي، ثم انشقَّت فجأة من منتصفها، وبدأ سائلٌ أسود لزج في التدفُّق منها وراح يتدفَّق على الأرض في اتجاه الباب. كان يقترب منهم ببطءٍ كنباتٍ مُتعرِّش لزج طويل.

صرخ بيل: «أغلقه يا بيل! أغلق الباب اللعين!».

صفع بيل الباب مُغلقًا إيَّاه، ونظر حوله، ثم أومأ برأسه. «هلموا». كان بيل بالكاد قد لمس مقبض الباب الثاني -هذا الذي يقع على الجانب الآخر من الرواق الضيِّق- عندما دوَّت صرخة مُريعة من خلف الخشب الرخيص.

حتَّى بيل تراجع جافلًا من تلك الصرخة المُروِّعة غير البشرية. شعر بن أن الصوت سيُفقده عقله، وصوَّر له خياله أن صرصورًا عملاقًا يقبع خلف الباب، كتلك الحشرات في الأفلام التي تتضخَّم بفعل إشعاع ما إلى أحجام مهولة، مثل فيلم بداية النهاية، أو العقرب الأسود، أو ذلك الفيلم عن النمل العملاق الذي يقطن مصارف المياه في لوس أنچلوس. تجمَّد بن مكانه، ولم يكن سيقوى على الركض حتَّى لو حطَّمت تلك الحشرة المُرعبة ألواح الباب وراحت تُداعبه بأرجلها المُشعرة. إلى جواره كان إدي يتنفَّس بشهقاتٍ مُتقطِّعة، لكن بن لم يكن يعي ذلك.

ارتفعت حدَّة الصراخ، ولم تفقد أزيزها الحشري المُريع. تراجع بيل خطوة أخرى إلى الوراء، وقد هربت الدماء من وجهه تمامًا الآن وجحظت عيناه ولم تعد شفتاه إلا نُدبة أرجوانية أسفل أنفه.

سمع بن نفسه يصرخ: «أطلِقي عليه يا بيڤرلي! أطلِقي عليه عبر الباب قبل أن ينال منا!». كانت الشمس تسقط عبر النافذة المُتَّسخة في نهاية الرواق، وكان لها وزن ثقيل مُرجِف.

رفعت بيڤرلي النِّبلة كفتاة في حُلمٍ، فيما ارتفعت حِدَّة الصراخ أكثر، فأكثر، فأكثر...

وقبل أن تسحب النِّبلة إلى الخلف، صاح مايك: «لا! لا! لا تفعلي يا بيڤ! يا إلهي! غير معقول!». ثم بشكلٍ لا يُصدَّق بدأ يضحك. اندفع مايك إلى الأمام، وأمسك بالمقبض، وأداره فاتحًا الباب. تحرَّر الباب من إطاره الخشبي المُنتفخ الذي كان عالقًا به مُصدرًا صوت جرشٍ وجيزًا. «إنه منفاخ فزَّاعة! مُجرَّد منفاخ فزَّاعة لطرد الغربان! هذا كل شيء».

كانت الغُرفة صندوقًا فارغًا، وعلى الأرض وجدوا عبوَّة من الصفيح مقطوعة الطرفين، وفي مُنتصفها يوجد حبل مشدود ومغموس في الشمع ومربوط من الطرفين.. ورغم عدم وجود رياح في الغُرفة، فقد كانت نافذتها

الوحيدة مُغلقة ومكسوة بألواح الخشب كيفما اتُفق ولا تسمح سوى لشذرات من الضوء بالمرور، لم يكن ثمَّة شكٌّ في أن الأزيز يخرج من العلبة.

سار مايك نحوها وركلها بقوَّة. توقَّف الأزيز على الفور، وتدحرجت العلبة إلى رُكن الغُرفة البعيد.

قال مايك للآخرين كأنه يعتذر: «إنها مُجرَّد منفاخ. نحن نضع مثل هذه الأشياء على الفزَّاعات. مُجرَّد خدعة رخيصة. لكنني لست غُرابًا»، ثم نظر إلى وقد توقَّف عن الضحك لكنه ظلَّ يبتسم: «لا أنكر أنني ما زالت أخاف الشَّيءِ، أظنُّنا جميعًا كذلك، لكن الشَّيءَ يخافنا بدوره. لأصدقكم القول، أظنُّه يخافنا بشِدَّة».

أومأ بيل وقال: «أنا أ-أ-أيضًا أظنُّ ذ-ذ-ذلك».

ساروا باتِّجاه الباب الواقع في نهاية الرواق، وعندما شاهد بن بيل يعقف إصبعه في الفتحة التي استبدلت مقبض الباب، أدرك أنهم على وشك دخول المكان الذي سينتهي فيه كل شيء. لن توجد خدع خلف هذا الباب. إن الرَّائحة أسوأ الآن، وذلك الشعور بأن قوَّتين مُتضادتين تحومان في المكان قد صار أقوى كثيرًا. نظر بن إلى إدي الذي يحمل جبيرته في يدٍ، ويقبض بخَّاخه باليد الأخرى. نظر إلى بيڤرلي الواقفة إلى جانبه الآخر، شاحبة الوجه، ممُسكة بالنِّبلة عاليًا كأنها عظمة ترقوة، ووجد نفسه يُفكِّر: إذا اضطُررنا للفرار، سأذود عنكِ يا بيڤرلي. أقسم أنني سأحاول.

رُبَّما استشعرت بيڤرلي فكرته هذه، لأنها التفتت إليه وابتسمت ابتسامةً مُنهكة، فبادلها بن الابتسامة.

جذب بيل الباب. أصدرت المفصلَّات صريرًا بليدًا، ثم عمَّ الصمت. كانت الغُرفة حمَّامًا، لكن ثمَّة خطبٍ ما بها. لقد كسر أحدهم شيئًا ما هنا. ليست زجاجة خمر... ماذا إذًا؟ هذا كل ما استطاع بن التفكير فيه.

ثمَّة رقائق وشظايا لامعة خبيثة تتناثر في كل مكان. ثم فهم بن الأمر. كان هذا تتويجًا لكل ذلك الجنون. ضحك بن، ثم انضم ريتشي إليه.

قال ريتشي: «لا بُدَّ أن أحدهم ضرط أكبر ضرطة في التاريخ.. الضرطة الأم»، فبدأ مايك يقهقه ويومئ برأسه، وابتسم ستان قليلًا، فقط بيل وبيڤرلي ظلَّا مُتجهِّمين.

كانت الشظايا التي تتناثر على الأرضية هي قطع بورسلين. لقد انفجر المرحاض. كان الحوض يقف ثَمِلًا بزاوية مائلة وسط بركة ماء، ما يمنعه من السقوط هو أن المرحاض طار في إحدى زوايا الحُجرة وأن الحوض مال عليه بوضعٍ مُنحرف.

احتشدوا جميعًا خلف بيل وبيڤرلي وهشَّمت أقدامهم شظايا البورسلين. فكَّر بن: كائنًا من كان هذا، فقد فجَّر المرحاض المسكين تمامًا. جاءته رؤية أن هنري باورز ألقى باثنين أو ثلاثة صواريخ M-80 إلى المرحاض وأغلق الغطاء، ثم انسلَّ خارجًا في عجلة من أمره. لم يستطِع التفكير في شيءٍ آخرِ قادر على فعل مثل هذا الأمر الكارثي غير الديناميت. كانت هناك بعض الكُتل الكبيرة، لكنها قليلة جدًّا، أما مُعظم ما تبقَّى فشظايا دقيقة الحجم. كان ورق الحائط (المُزدان بالزهور والأقزام كما الرواق) مُثقَّبًا في كل أرجاء الحُجرة. الأمر يبدو كطلقات بُندقية، لكن بن علم أن هذا بسبب البورسلين الذي اخترق الحوائط من قوَّة الانفجار.

هناك حوض استحمام يقف على أرجُلٍ حديدية مُحاطة بأجيالٍ مُتراكمة من الصدأ والرطوبة. نظر بن إلى الحوض وشاهد ركام الطمي والحصى في القاع. ثمَّة صنبور استحمام صدئ يلتمع من أعلى، ويوجد سطل وخزانة أدوية تعلوان الصنبور خاويةٌ رفوفها. على تلك الرفوف الخاوية، توجد حلقات صدأ في الأماكن التي كانت تشغلها الزُجاجات في يوم من الأيَّام.

قال ريتشي بحدَّة: «لا تقترب كثيرًا من هذا يا بيل الكبير»، فتلفَّت بن حوله.

كان بيل يقترب من فتحة البالوعة في الأرضية التي كان المرحاض يستقر فوقها يومًا. انحنى بيل إليها، ثم التفت إلى الآخرين.

- «أ-أ-أستطيع سـ-سـ-سماع صوت مـ-مـ-ماكينات الضـ-ضخ، كـ-كـالصوت الذي فـ-فـ-في البرِّية تـ-تمامًا».

اقتربت بيڤ من بيل، وتبعها بن. أجل، إنه يسمع الصوت: ذلك الضجيج الرتيب المُستمرُّ.. ورغم أن صدى ذلك الصوت كان يتردَّد عبر الأنابيب، لم يبد كصوت ماكينات على الإطلاق، بدا صوت شيءٍ حيٍّ.

قال بيل: «هـ-هـ-هذا هو المـ-مـ-مكان الذي أ-أتي الشَّيء مـ-مـ-

منه». كان وجهه ما زال شاحبًا كوجوه الموتى، لكن عينيه كانتا تلتمعان بالحماسة. «لـ-لقد خـ-خرج مـ-مـ-من هنا في ذ-ذ-ذلك اليـ-يوم، ومـ-من هنا يـ-يأتي د-د-دومًا! المـ-مـ-مجارير!».

كان ريتشي يومئ موافقًا: «كنا في القبو، لكن الشَّيء لم يكن هناك، بل جاء من الدرج، لأن هذا هو المكان الذي يخرج منه».

سألت بيفرلي: «وهو من فعل ذلك؟».

قال بيل بخطورة: «لـ-لـ-لقد كـ-كان فـ-فـ-في عـ-عجلة مـ-مـ-من أ-أ-أمره».

حدَّق بن في الماسورة. كانت بقطر ثلاثة أقدام ومُعتمة كمدخل منجم. كان سطح الماسورة الداخلي تكسوه أشياء لم يرغب في معرفة كنهها. طفا ذلك الصوت الرتيب صاعدًا إلى آذانهم بتأثيرٍ مُنوِّم، وفجأة رأى بن شيئًا. لم يره بن بأم عينه -ليس في البداية- بل ببصيرته.

كان يندفع نحوهم، بسُرعة جنونية كقطار بلا مكابح، مالئًا حلق الماسورة المُظلمة من جانب إلى الآخر. لقد كان الشَّيء بهيئته الأصلية الآن، أيًّا كان كُنه هذه الهيئة. لسوف يتَّخذ هيئة ما من عقولهم عندما يُنهي صعوده إليهم. إنه يصعد من مجاريره العفنة كريهة الرَّائحة، وسراديب الموتى السوداء السُفلية، وعيناه تومضان بضوءٍ أخضر مصفر آبد. يصعد. يصعد.. يصعد.. إن الشَّيء آتٍ.

ثم بعدها، وكشرارتين، شاهد بن عينيّ الشَّيءَ في الظلام تتَّخذان شكلًا، مُشتعلًا وخبيثًا. استطاع بن الآن سماع صوت آخر يعلو على همهمة الماكينات الرتيبة. هوووووووووو... تجشَّأ فم الماسورة المضعضع رائحة كريهة أشبه برائحة جنين مُجهض، فسقط بن أرضًا وهو يسعل وشعورٌ بالغثيان يلفه.

ثم صرخ: «إنه آتٍ. لقد رأيته يا بيل. الشَّيء آتٍ».

رفعت بيفرلي النِّبلة على أهبة الاستعداد، وقالت: «جميل».

انفجر شيءٌ ما خارجًا من الماسورة. عندما حاول بن تذكُّر تلك المواجهة الأولى لاحقًا، لم يستطع تذكُّر سوى هيئة فِضِّية بُرتقالية مُتحوِّلة. لم يكن ظهوره شبحيًا، بل مادي راسخ، واستشعر بن كيانًا آخر، حضورًا آخر حقيقيًا ولا مُتناهيًا، خلف حضور الشَّيءِ... لكن عينيه لم تتمكَّنا من استيعاب ما يراه، ليس تمامًا.

تعثَّر إدي مُترنّحًا إلى الخلف بوجهٍ معجون بالرعب، وراح يصرخ ويصرخ مرارًا وتكرارًا: «المُستذئب! إنه المُستذئب يا بيل! المُستذئب المُراهق!»، وفجأة تجسَّد الشكل في هيئة واقعية أمام عيني بن، أمام عيون الجميع.

وقف المُستذئب مُتحفِّزًا فوق الماسورة، واضعًا كلتا قدميه المُشعرتين على جانبي الحُفرة التي كان المرحاض يحتلُّها. التمعت عيناه الخضراوان في وجوههم من وجهه الآبد. كشَّر الوحش عن أنيابه وتقاطر لعابٌ أصفر شاحبٌ من بين أسنانه. هدر الشَّيء بزئير مُدمدم. مدَّ ذراعيه في اتِّجاه بيڤرلي، وانسحب كُمَّا سُترة المدرسة الثانوية الرياضية التي يرتديها إلى أعلى كاشفة عن ساعدين مُشعرين. كانت رائحته ساخنة ونيئة وبدائية وقاتلة.

صرخت بيڤرلي. أمسكها بن من ظهر بلوزتها وجذبها بقوَّة هائلة فَتَقَت النسيج من تحت إبطيها. ضربت يدٌ مخلبية الهواء حيث كانت تقف منذ لحظة واحدة، فطاحت بيڤرلي إلى الخلف واصطدمت بالحائط. طارت الكُرية الفِضِّية من جراب النِّبلة، والتمعت للحظة في الهواء، ثم اختطفها مايك بأسرع من السُرعة ذاتها وأعادها لها ثانيةً.

قال لها: «اقذفيها يا عزيزتي». كان صوته هادئًا تمامًا وصافيًا تقريبًا. «اقذفيها الآن».

زأر المُستذئب زئيرًا هادرًا يصم الآذان، وتحوَّل بعدها إلى عويلٍ طويل وهو يرفع خطمه تجاه السقف.

تحوَّل العويل إلى ضحكة، ثم تقدَّم الشَّيء نحو بيل بخطواتٍ واسعة في أثناء ما كان الأخير يلتفت إلى بيڤرلي. دفعه بن فانبطح بيل أرضًا.

صرخ ريتشي: «صوِّبي عليه يا بيڤ! بحق الرَّب، صوِّبي عليه!».

وثب المُستذئب إلى الأمام، ولم يشك بن لحظة -وقتها أو لاحقًا- أن الشَّيء كان يعلم بالتحديد من هو الزعيم هنا. كان يريد بيل. جذبت بيڤرلي شريط النِّبلة المطَّاطي وأطلقت. طارت الكُرية الفِضِّية ومن جديد لم تصب الهدف، لكن هذه المرَّة لم تكن قريبة حتَّى. لقد أخطأته بمسافة قدم أو أكثر، وأحدثت ثُقبًا في ورق الحائط الذي يعلو حوض الاستحمام. أطلق بيل سُبَّة عالية عندما أمطر وابل من شظايا البورسلين ذراعيه وأدماهما في عشرات المواضع.

تحرَّك رأس المُستذئب سريعًا ناظرًا في أرجاء المكان، وفكَّرت عيناه الخضراوان في بيڤرلي. دون تفكير، خطا بن حائلًا بينه وبينها عندما كانت بيڤرلي تتلمَّس جيبها لاستخراج الكُرية الفِضِّية الأخرى. كانت السراويل الجينز القصيرة التي ترتديها ضيِّقة جدًّا، لكنها ارتدتها دون أدنى تفكير في استفزازٍ أو إثارة، كما هو الحال مع السراويل القصيرة التي كانت ترتديها يوم التقت باتريك هوكستيتر والثلَّاجة.. إنها ما زالت ترتدي صيحة العام الماضي. تلمَّست أصابعها الكُرية في جيبها لكنها انزلقت مُبتعدة، فمدَّتها ثانيةً وأمسكتها هذه المرَّة، وجذبتها من جيبها وأخرجت معها طيَّته مُسقِطة أربعة عشر سنتًا وكعبي تذكرتي سينما علاء الدين وبعض وبر الجيوب على الأرض.

تقدَّم المُستذئب إلى بن، الذي كان يقف أمامها كجنديٍ حامٍ معرقلًا مجال رؤيتها. كان رأس المُستذئب يميل بزاوية كاشفًا عن فكٍ مُفترسٍ قاتل، ثم أغلقه عاضًا بقوَّة. بسط بن يديه بتهوُّر إلى الشَّيء، لم يبد أن ثمَّة مجالًا للخوف الآن في ردود أفعاله، بل كان يشعر بنوعٍ من الغضب العارم ممزوجٍ بارتباك وشعور بأن كل شيء سينتهي الآن سريعًا. دسَّ بن يديه في الشعر المُلبَّد الخشن مُفكِّرًا: أنا أقبض فراء الشَّيء! واستشعر عظم جُمجمته الثقيل أسفله. أقحم بن قبضتيه في ذلك الرأس الذئبي بكل قوَّته، ورغم أنه كان صبيًّا ضخمًا، لم يُساعده هذا على الإطلاق.. وإذا لم يكن قد تعثَّر واصطدم بالحائط، كان الشَّيء سيُمزِّق حنجرته بأسنانه.

اندفع الشَّيءُ نحوه، وعيناه الخضراوان المصفرتان تقدحان شررًا، وهو يزمجر مع كل نفس يأخذه. فاحت منه رائحة المجاري ورائحة كريهة غليظة أخرى كرائحة بندقٍ فاسد. رفع الوحش يده المخلبية فتحرَّك بن جانبًا سريعًا بأفضل ما يستطيع. مزَّق الكف بمخالبه الثقيلة جروحًا عديمة الدماء في ورق الحائط والجصَّ الإسفنجي أسفله. كان بن بالكاد يسمع ريتشي وهو يصيح بكلامٍ ما، وإدي يعوي إلى بيڤرلي أن أطلقي، أطلقي، لكن بيڤرلي لم تفعل. لم تتبقَ أمامها إلا فُرصة واحدة، لكن هذا لا يهم، فقد انتوت أن تجعل رميتها التالية الرمية الوحيدة التي ستحتاجها. هبطت برودة واضحة على عينيها لم

تستشعرها بعد ذلك في حياتها قط، ومن خلالها، رأت كل الموجودات بصفاءٍ وجلاءٍ تامَّين. لن ترى بيفرلي الواقع بأبعاده الثلاثة بمثل هذا الوضوح المُحدَّد مرَّة ثانية في حياتها. كانت تستحوذ على كل لونٍ، وكل زاوية، وكل مسافة. لقدِ غادر الخوف، وشعرت بشهوة اليقين التي تعتري الصيَّاد عندما يمتلك ناصية فريسة في مرماه. تباطأ نبضها، وارتخت القبضة الهِستيرية المُرتجفة التي كانت تمسك النِّبلة بها، ثم أُحكمت وصارت طبيعية. سحبت نفسًا عميقًا وبدا لها أن رئتيها لن تمتلآن بالكامل أبدًا. كانت تسمع الأصوات من حولها خافتة وبعيدة. لا تهم مواقعهم أينما كانت. تحرَّكت يسارًا، مُنتظرة أن تسقط رأس المُستذئب البشعة بدقَّة تامة بين القبضة التي ينبثق منها عمودان على شكل حرف Y والحبل المشدود خلفها.

هبطت مخالب المُستذئب ثانيةً. حاول بن تفاديها، لكنه وجد نفسه فجأة في قبضته. نخعه الشَّيء أمامًا كأنه مُجرَّد دُمية، وفُتح فمه.

- «نغل...».

زجَّ بن إبهامه في إحدى عينيه. جأر الشَّيء من الألم، ومزَّقت إحدى يديه المخلبيتين ملابسه. شفط بن بطنه، لكن مخلبًا حادًّا شقَّ خطًّا غائرًا حارقًا في معدته. تدفَّقت الدماء سائلة وأغرقت سروايله وحذاءه والأرضية. ألقاه المُستذئب في حوض الاستحمام. ارتطمت رأس بن به، وشاهد نجومًا تسبح مُجاهدة كي تبقى في مواضعها، ورأى أن حجره غارق في الدماء.

دار المُستذئب في أرجاء المكان، ولاحظ بن بذات الجلاء الجنوني أن الشَّيءَ يرتدي سراويل چينز زرقاء ماركة ليڤيس، وقد تشقَّق نسيجها في أكثر من موضع، وثمَّة منديلٌ أحمر من النوع الذي قد يحمله عامل قطارات مُعلَّق في جيبه الخلفي.. وعلى سُترة المدرسة الثانوية السوداء البرتقالية التي يرتديها كُتِبت الكلمات التالية: فريق قتل مدرسة ديري الثانوية، وأسفلها الاسم: بيني وايز، والرقم 13.

اتَّجه الشَّيء قاصدًا بن مرَّة أخرى. كان بن قد نهض واقفًا مُسندًا ظهره إلى الجدار وراح يُحملق فيه بثبات.

صرخ ريتشي ثانية: «اضربيه يا بيڤرلي!».

- «بيب-بيب يا ريتشي»، هكذا سمعت نفسها تُجيب من مسافة آلاف الأميال. لقد تموضعت رأس المُستذئب في المكان الذي تُريده، في مرمى النِّبلة. غطَّت بيڤرلي إحدى عيني الشيءِ الخضراوين بجراب النِّبلة وأطلقت. ليس هناك أدنى ارتعاشٍ في يديها. لقد رمت بذات السلاسة والنعومة اللتين كانت تصوِّب بهما على علب الصفيح في المكبِّ في ذلك اليوم الذي راحوا يجرِّبون فيه جميعًا لرؤية أيهم الرامي الأفضل.

كان أمام بن مُتَّسعٌ من الوقت ليُفكِّر: أوه يا بيڤرلي إذا أخفقتِ هذه المرَّة سنموت جميعًا وأنا لا أريد الموت في حوض الاستحمام القذر ذلك. لكنها لم تخفق. انبثقت فجوة دائرية -ليست خضراء بل كالحة السواد- فوق مُنتصف خطمه تمامًا: لقد صوَّبت إلى عينه اليُمنى، لكن رميتها طاشت بأقلِ من نصف بوصة.

كانت صرخة الشَّيء -صرخة ألم وخوف وغضب مُباغتة شبه بشرية- تصمُّ الآذان، طنَّت أُذُنا بن بسببها، ثم تلاشى الثقب الدائري في خطمه بعد أن حجبته دماء طازجة غزيرة. لم تكن الدماء تسيل، بل تفيض مُتدفِّقة من الجرح الغائر. أغرقت الدماء وجه بيل وشعره، ففكَّر بن بشكلٍ هِستيري: لا يهم. لا تقلق يا بيل، لا أحد سيراها عندما سنخرج من هنا، هذا لو خرجنا.

تقدَّم كلٌّ من بيل وبيڤرلي إلى المُستذئب، ومن خلفهما، كان بن يصيح في حالة هِستيرية: «اضربيه ثانية يا بيڤرلي! اقتليه!».

صرخ مايك: «اقتليه!».

انضم إدي إليهما صائحًا: «أجل، اقتليه!».

صرخ بيل: «اقتليه!»، والتوى فمه إلى أسفل في قوسٍ مُرتعد. كان هناك خط أبيض من غبار الجص في شعره. «اقتليه يا بيڤرلي، لا تدعيه يهرب!».

فكَّر بن مُشوَّشًا: عمَّ تتحدَّثون؟ لم تتبق معنا ذخيرة، لقد نفدت مقذوفاتنا. لكنه نظر إلى بيڤرلي وفهم، وإذا لم يكن قلبه يرغبها قبل هذه اللحظة، فقد كان سيهيم بها حُبًّا بعدها. لقد جذبت بيڤرلي النِّبلة مُجدَّدًا، واضعة أصابعها على الجراب، مُخفية فراغه.

صرخ بن: «اقتليه»، وتعثَّر في خرقٍ على حافَّة الحوض. كانت سراويله

وملابسه الداخلية مُلتصقة بجلده وغارقة في الدماء. لم تكن لديه أدنى فكرة عن إذا ما كانت إصابته خطيرة أم لا، فبعد الألم الحارق الأصلي لم يشعر بالكثير، لكنه فقد قدرًا كبيرًا من الدماء من دون شك.

ومضت عينا المُستذئب الخضراوين إليهم، يملأهما الشَّك والألم. كانت الدماء تُصبُّ صبًّا فوق سُترة الشَّيءِ من الأمام.

ابتسم بيل دِنبروه. كانت ابتسامته لطيفة، ورقيقة نوعًا، لكنها لم تبلغ عينيه، ثم صاح: «لم يكن ينبغي لك أن تبدأ بأخي.. أرسِلي هذا اللعين إلى الجحيم يا بيڤرلي».

غادر الشَّك عيني المخلوق، وحل يقينٌ محلَّه. برشاقة ناعمة، استدار الشَّيء على عقبيه وغاص في المجاري، وفي أثناء ذهابه، تبدَّلت هيئته. ذابت سُترة مدرسة ديري الثانوية في فرائه وغاب اللون عن كليهما. استطالت جمجمته كأنها مصنوعة من شمع ازدادت حرارته وبدأ يذوب. تغيَّر شكل الشَّيءِ تمامًا، وللحظة خاطفة اعتقد بن أنه قد رأى هيئته الحقيقة تقريبًا، فتجمَّد قلبه في صدره، وتركه مُتقطِّع الأنفاس.

جأر صوتٌ من داخل ماسورة المجاري: «سأقتلكم جميعًا». كان صوتًا غليظًا، وهمجيًّا، وغير بشري على الإطلاق: «سأقتلكم جميعًا... سأقتلكم جميعًا... سأقتلكم جميعًا...». راحت الكلمات تخفُت أكثر فأكثر.. تتلاشى.. تنجرف.. تذوي بعيدًا.. وفي النهاية انضمت إلى همهمة ماكينات الضخ الخفيضة التي تسري خارجة من المواسير.

بدا لهم أن المنزل استقرَّ فجأة بعدها بهديرٍ ثقيل شبه مسموع. لكنه لم يكن يستقر، هكذا أدرك بن، بل ينكمش بطريقةٍ ما غريبة عائدًا إلى حجمه الطبيعي. أيًّا كان نوع السحر الذي استخدمه الشَّيء ليجعل المنزل رقم 29 في شارع نيبولت يبدو أكبر من حجمه فهو ينسحب الآن. لقد عاد المنزل لطبيعته كالمطَّاط، وصار منزلًا الآن فحسب. منزلًا تفوح منه رائحة رطوبة وعفونة خفيفة. مُجرَّد منزل غير مؤثَّث يتَّخذه المُشرَّدون ملجأً، ويأوون إليه لشرب الخمر وتبادل الحديث والنوم بعيدًا عن الأمطار أحيانًا.

لقد رحل الشَّيء.

ولم يكن رحيله هيِّنًا أو من دون ضجَّة صاخبة.

قال بيل: «يـ-يـ-يجب أ-أ-أن نـ-نـ-نـخرج من هذا المـ-مـ-مكان».
ثم سار إلى حوض الاستحمام حيث كان بن يحاول النهوض وأمسك إحدى يديه الممدوتين. كانت بيڤرلي تقف جوار فتحة المجاري وتنظر إلى أسفل، وفجأة اندفع هواءٌ ساخن من الماسورة وسحب البرودة من جميع خلاياها وأحال بشرتها إلى جوربٍ دافئ. لا بُدَّ أنه كان زفيرًا عميقًا جدًّا.. أما أصوات الفرقعة الخافتة التي رافقت الهواء الساخن فقد كانت أصوات تمزُّق أزرار بلوزتها. لقد ذهبت أزرارها جميعًا، تاركة بلوزتها مفتوحة ونهديها مكشوفين بوضوح. ضمَّت بيڤرلي البلوزة على جسدها مُغلقة إيَّاه.

قال بيل: «ر-ر-ريتشي. ساعدني لرفع بـ-بـ-بن. إ-إ-إنه...».

انضم ريتشي إليه، وكذا ستان ومايك. ساعد أربعتهم بن على الوقوف، أما إدي فاتَّجه إلى بيڤرلي ووضع ذراعه السليمة على كتفيها بشكلٍ أخرق وقال: «لقد أبليت بلاءً عظيمًا»، فانفجرت بيڤرلي باكية.

مشى بن خطوتين مُترنِّحتين باتِّجاه الحائط واستند إليه قبل أن يسقط مُجدَّدًا. كان يشعر برأسه خفيفًا، واستمرَّت الموجودات في التجسُّد والزوال أمام عينيه، وشعر برغبة شديدة للقيء.

ثم التفَّ ذراع بيل حوله، قويًّا ومُطمئنًا.

- «مـ-مـ-ما مدى سـ-سوء حـ-حالك يـ-يا كومة القـ-قش؟».

أجبر بن نفسه على النظر إلى بطنه، ووجد أن حركتين بسيطتين كثني رقبته وفتح التيشرت المُمزَّق تتطلَّبان منه شجاعة أكبر من تلك التي احتاجها لدخول المنزل في المقام الأوَّل. توقَّع بن رؤية نصف أمعائه تتدلَّى أمامه كضروعٍ مُقزِّزة، لكنه بدلًا من ذلك رأى أن تدفُّق الدماء قد هدأ وصار خاملًا. لقد قطعه المُستذئب قطعًا طويلًا وغائرًا، لكنه ليس قاتلًا.

انضم ريتشي إليهم وحملق في القطع الذي يجري ملتويًا أسفل صدر

بن ويتبدَّد عند انتفاخ بطنه العلوي، ثم رفع بصره إلى وجهه وقال: «لقد كاد الشَّيء أن يُفرغ أمعائك يا كومة القش، أتدرك ذلك».

قال بن: «لا مُزاح يا چاك».

حدَّق الصبيان أحدهما في الآخر ثم انفجرا ضاحكين بضحكاتٍ هِستيرية، وتناثر لعابهما في كل مكان. أخذ ريتشي بن في ذراعيه وربَّت بقوَّة على ظهره قائلًا: «لقد هزمنا الشَّيءَ يا كومة القش! لقد هزمنا الشَّيءَ».

قال بيل مُتجهِّمًا: «لا، لم نهزم الشَّيءَ. لقد حالفنا الحظ. لنخرج من هنا قبل أن يُقرِّر العودة».

سأل مايك: «إلى أين؟».

قال بيل: «البـ-بـ-برِّية».

شقَّت بيڤرلي طريقها مُقتربة منهم وهي لا تزال تُمسك ببلوزتها، كان خدَّاها يشتعلان احمرارًا. «مقرِّ النادي؟».

أومأ بيل.

سألتهم بيڤرلي وخدَّاها يتورَّدان خجلًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: «هل أستطيع الحصول على تيشرت أحدكم؟». خفض بيل بصره ناظرًا إليها، وشاعت الدماء في وجهه بفوران مُفاجئ، فأشاح ببصره بعيدًا سريعًا.. لكن في تلك اللحظة الخاطفة هبط الفهم على بن مصحوبًا بغيرة قابضة للصدر. ففي تلك اللحظة، في تلك الثانية الواحدة، صار بيل واعيًا بوجودها بطريقة خاصة كان بن وحده الذي يعيها قبل ذلك.

نظر الآخرون إليها بدورهم قبل أن يبعدوا نظراتهم. سعل ريتشي في ظهر يده، واستحال وجه ستان إلى الأحمر، وتراجع مايك هانلون خطوة أو خطوتين إلى الوراء كأنه يهاب حافَّة ذلك النهد المُنتفخ الأبيض الصغير الظاهر للعيان أسفل يدها.

ألقت بيڤرلي رأسها إلى الوراء، وهزَّت شعرها المُتشابك خلف رأسها. كانت لا تزال تتورَّد خجلًا، لكن وجهها كان جميلًا.

قالت لهم: «ليست لي حيلة في أنني فتاة، أو أن جسدي بدأ يتغيَّر من أعلى. الآن هلا أعطاني أحدكم تيشرتًا؟».

قال بيل: «بـ–بالتأكيد». ثم نزع تيشيرته الأبيض من فوق رأسه، مُعرِّيًا صدره المكتنز وضلوعه الواضحة للعيان وكتفيه النمشين اللذين لوَّحتهما الشمس. «تـ–تـ–تفضَّلي».

قالت له: «شكرًا يا بيل»، وللحظة واحدة ساخنة تلاقت أعينهما مُباشرةً. لم يشح بيل ببصره هذه المرَّة. كانت نظرته ثابتة، وراشدة.

قال له: «عـ–عـ–على الرحب».

فكَّر بن: حظًّا طيبًّا يا بيل الكبير، ثم استدار مُبتعدًا عن تلك النظرة. كانت تؤلمه.. تؤلمه في مكانٍ أعمق من أن يصل إليه أيُّ مصَّاص دماء أو مُستذئب. لكن بالرغم من هذا، يوجد ما يُسمَّى باللياقة. لم يكن يعرف الكلمة بعد، لكن مفهومها كان مألوفًا له تمامًا. كان النظر إليهما وهما ينظران أحدهما إلى الآخر بهذه الطريقة بقوَّة النظر إلى نهديها عندما تركت بلوزتها لارتداء تيشيرت بيل من فوق رأسها. لكنك لن تحبها أبدًا كما أحبها.. أبدًا.

وصل تيشيرت بيل إلى رُكبتي بيڤرلي تقريبًا، وإذا لم تكن حواف سراويلها القصيرة ظاهرة من أسفل التيشيرت، كانت ستبدو كأنها لا ترتدي سوى الأخير.

كرَّر بيل قائلًا: «هيَّا بنا، أنا لا أعلم بم تشعرون يا رفاق، لكنني نلت كفايتي لهذا اليوم».

واتَّضح أن جميعهم كذلك.

11

مرَّت ساعة قبل أن يجدوا أنفسهم في مقرِّ النادي، الذي كانت نافذته وبابه مفتوحين. كان الجو باردًا بالداخل، والبرِّية هادئة في ذلك اليوم لحسن حظهم. جلسوا من دون كلامٍ كثير، كلٌّ منهم تائه في أفكاره الخاصة. تناقل ريتشي وبيڤ علبة مارلبورو فيما بينهما، واستنشق إدي نفسًا قصيرًا من بخَّاخه. عطس مايك عِدَّة مرَّاتٍ واعتذر، وقال إنه يتوقَّع الدخول في نزلة برد.

قال ريتشي مُستظرفًا: «هذا الشيء الوحيد الذي تستطيع الدخول فيه»، لكنه لم يزد.

استمرَّ بن يتوقَّع أن يطارده ذلك الفاصل المجنون الذي مرَّوا به في شارع نيبولت في أحلامه، وفكَّر: سوف يذوي ويتلاشى، كعادة الأحلام. تستيقظ مُتقطِّع الأنفاس وغارقًا في العرق، وبعد رُبع ساعة تجد أنك لا تتذكَّر عمَّا كان يدور الحلم من الأساس.

لكن ذلك لم يحدث.. فقد ظلَّ كل ما وقع منذ اللحظة التي حشر نفسه فيها عبر نافذة القبو، حتى اللحظة التي استخدم بيل فيها ذلك الكُرسي في المطبخ لكسر النافذة ليتمكَّنوا من الخروج، مُشرقًا وثابتًا بمنتهى الوضوح في ذاكرته. لم يكن ذلك حلمًا، كما أن الجرح المتخثِّر على صدره وبطنه ليس حلمًا، بغض النظر عمَّا إذا كانت أمه تستطيع رؤيته أم لا.

في النهاية نهضت بيفرلي واقفة وقالت: «يجب أن أعود إلى المنزل. أريد تغيير هذه الملابس قبل أن تعود أمي. لو رأتني أرتدي تيشرت صبي ستقتلني».

وافقها ريتشي: «أجل ستقتلك يا سينيوريتا، لكن ببطء».

- «بيب-بيب يا ريتشي».

كان بيل يرمقها بوقار.

- «سأعيده لك يا بيل».

أومأ بيل وأشاح لها بيده أن الأمر غير هام.

- «هل ستقع في مُشكلة عندما ستعود من غيره؟».

- «لـ-لا. إ-إ-إنهم بـ-بالكاد يلاحظون و-و-وجودي».

أومأت بيفرلي وعضَّت شفتها السُفلية بالكامل. إنها فتاة في الحادية عشرة، لكنها تبدو أطول من عمرها، وهي ببساطة بارعة الجمال.

- «ماذا سيحدث تاليًا يا بيل؟».

- «لـ-لـ-لا أ-أ-أعرف».

- «ألم ينتهِ الأمر؟».

هزَّ بيل رأسه نافيًا.

قال بن: «سيريد الشَّيء القضاء علينا الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى».

سألت بيفرلي: «هل نصنع كُريات فِضِّية أخرى؟». شعر بن أنه بالكاد يستطيع تحمُّل التقاء أعينهما. أنا أحبك يا بيفرلي، فقط دعي لي ذلك. يمكنك

أن تحظي ببيل، أو بالعالم كله، أو بما تشائين. فقط دعي لي ذلك، لا تحرميني حُبك، وأظنُّ أن ذلك سيكون كافيًا لي.

قال بن: «لا أعرف. نستطيع فعل ذلك، لكن...»، ثم ماتت الكلمات على شفتيه بشكل غامض وهزَّ كتفيه. لم يستطع التلفُّظ بما يشعر، ولا البوح بمكنون صدره. الأمر يبدو كأنهم في فيلم رُعب عن وحش، لكنه ليس كذلك تمامًا. لقد بدت المومياء مُختلفة عمَّا تظهر في الأفلام، وهذا ما أكَّد واقعيتها الجوهرية. الأمر كذلك مع المُستذئب، يستطيع أن يشهد بذلك لأنه رآه من كثب لدرجة مُريعة.. لا في فيلم، ولا حتَّى في فيلم ثلاثي الأبعاد. لقد دسَّ يديه في شعره الخشن المُلبَّد، ورأى بقعة نارية برتقالية صغيرة في إحدى عينيه الخضراوين (كزرٍّ زغبي برتقالي!). هذه الأمور... أحلام مُجسَّدة؛ وما إن تتجسَّد الأحلام، فهي تتحرَّر من سُلطة الحالم وتصبح أشياء قاتلة، وقادرة على الفعل من تلقاء ذاتها. لقد نجحت الكُريات الفِضِّية لأن سبعتهم توحَّدوا على قلب رجُلٍ واحد مؤمنين بفاعليتها، لكنهم لم يقتلوا الشَّيءَ.. وفي المرَّة القادمة سيأتيهم هذا الشَّيء في صورة جديدة.. صورة لا تملك الفِضَّة أيَّ سُلطة عليها.

فكَّر بن: سُلطة، سُلطة، وهو ينظر إلى بيڤرلي. لا بأس الآن، لقد التقت عيناها بعيني بيل ثانيةً، وراح أحدهما ينظر إلى الآخر كأنهما ضائعان. لم يستغرق الأمر سوى لحظة عابرة، لكنها كانت طويلة جدًّا بالنسبة إلى بن.

يعود الأمر برُمَّته إلى مفهوم السُلطة. أنا أحب بيڤرلي مارش، لذا هي تمتلك سُلطة عليّ.. وهي تحب بيل دِنبروه، وهكذا صارت له سُلطة عليها. لكنه بدوره سيقع في حُبِّها على ما أظنُّ. رُبَّما سيكون وجهها وهي تقول إنه ليست لديها حيلة في كونها فتاة هو السّبب، رُبَّما السَّبب أنه رأى أحد نهديها لثانية خاطفة فحسب. رُبَّما السَّبب هي الطريقة التي تبدو بها أحيانًا حينما تكون زاوية الضوء مثالية، أو بسبب عينيها. كل ذلك لا يهم. المهم أنه لو وقع في هواها، ستبدأ في امتلاك سُلطة عليه. إن لدى سوبرمان قوَّة، ولا تنعدم إلا في وجود الكريبتونايت. إن لدى باتمان قوَّة، رغم أنه لا يطير ولا يرى من خلال الجُدران. أمي تمتلك سُلطة عليّ، ورئيسها في العمل في الطاحونة

يمتلك سُلطة عليها. الجميع يمتلك بعض السُلطة... رُبَّما باستثناء الرُّضَّع والأطفال الصغار.

ثم فكَّر بن أنه حتَّى الأطفال الصغار والرُّضَّع يمتلكون سُلطة، إنهم قادرون على الاستمرار في البُكاء إلى أن تفعل شيئًا لإخراسهم.

سألت بيڤرلي بن وعادت تنظر إليه: «بن؟ هل أكلت القطة لسانك؟».

- «هه؟ لا.. كنت أُفكِّر في القوَّة.. قوَّة الكُريات الفِضِّية».

راح بيل ينظر إليه بتمعُّن.

قال بن: «أتعجَّب من أين استمدَّت قوَّتها تلك».

همَّ بيل بقول: «إنـ-إنـ-إنها...»، ثم خرس، ولاحت على وجهه سيماء تفكيرٍ عميق.

قالت بيڤرلي: «يجب أن أرحل حقًّا. سأراكم جميعًا، أليس كذلك؟».

قال ستان: «بالتأكيد، تعالي غدًا، سوف نكسر ذراع إدي الآخر».

ضحكوا جميعًا، وتظاهر إدي بإلقاء بخَّاخه على ستان.

قالت بيڤرلي: «إلى اللقاء إذًا»، ثم دفعت نفسها خارجة من الحُفرة.

نظر بن إلى بيل ولاحظ أنه لم يشاركهم الضحك. كانت سيماء التفكير العميق ما زالت تحتلُّ ملامحه، وعلم بن أنه يجب عليه النداء باسمه ثلاث أو أربع مرَّات حتَّى يستفيق ويرد. كان يعلم فيما يُفكِّر بيل. هو نفسه سيُفكِّر في الأمر ذاته في الأيَّام القادمة. ليس طوال الوقت، لا. ستمرُّ الأيام بأمورها المُعتادة. سيجمع ملابسه المُتَّسخة ويعطيها لأمه كي تغسلها، سيلعبون بالمُسدَّسات في البرِّية، وفي خلال الأيَّام الأربعة الأولى المطيرة من شهر أغسطس، سيلعبون بلوح الليدو في منزل ريتشي توزيه، وسيهزم بعضهم بعضًا بنشوة غامرة، وسيتجادلون حول الطريقة المُثلى لإلقاء النرد، بينما الأمطار تهطل وتسيل في الخارج. ستخبره أمه أنها تظن أن بات نيكسون هي أجمل امرأة في أمريكا، وستصعق حين سيختار بن مارلين مونرور (كان بن يظن أن بيڤ تُشبه مارلين مونرو، باستثناء لون شعرها). ستمرُّ أوقات سيأكل فيها كميَّات كبيرة من النقانق وحلوى توينكز ورينج دينج، وأوقات أخرى سيجلس فيها في الشُرفة الخلفية ليقرأ قِصَّة لاكي ستار وأقمار كوكب عُطارد.

سيكون أمامه مُتَّسع لكل تلك الأمور، بينما يلتئم الجرح الذي على صدره وبطنه ويبدأ في حكّه.. لأن الحياة تستمر، ولأنه رغم ذكائه وألمعيته لا يزال في الحادية عشرة من عمره، ولا يمتلك منظورًا حقيقيًّا للأمور. إنه قادر على التعايش مع ما حدث في منزل شارع نيبولت، فالعالم -بعد كل شيء- مليء بالعجائب.

لكن ستمرُّ لحظات غريبة سيُفكِّر فيها في تلك الأسئلة مرَّة أخرى: قوَّة الفِضَّة.. قوَّة الكُريات.. من أين تأتي مثل هذه القوَّة؟ ما مصدر أيِّ قوة بغض النظر عن طبيعتها؟ كيف يتحصَّل المرء عليها؟ كيف يستخدمها؟

بدا له أن حيواتهم قد تعتمد على إجابات عن تلك الأسئلة. في إحدى الليالي قبل أن يغط في النوم، وفي أثناء ما كان المطر يهطل بثباتٍ على السقف والنوافذ، تفتَّق في ذهنه أن سؤالًا آخر أكثر أهمَّية يطرح نفسه، بل رُبَّما يكون هو السؤال الوحيد المهم. إن للشَّيءِ شكُلًا حقيقيًا ما، لقد رآه تقريبًا.. ورؤية الشكل كمعرفة سر. هل هذا ينطبق على فكرة القوّة؟ رُبَّما. هل يمكن أن تكون القوَّة -كالشَّيءِ- مُتبدِّلة الأشكال؟ إنها الطفل الذي يبكي في منتصف الليل.. إنها القنبلة الذرية.. إنها الكُرية الفِضِّية.. إنها الطريقة التي نظرت بها بيفرلي إلى بيل، والطريقة التي نظر بها إليها.

ما معنى القوَّة - ما المعنى الحقيقي للقوّة- على أيِّ حال؟

12

لم يحدث أمرٌ هام خلال الأسبوعين التاليين.

ديري: الفاصل الرَّابع

حتمًا ستخسر،
فلا يمكنك أن تربح طوال الوقت.
سوف تخسر،
ألم أخبرك أنك لن تربح طوال الوقت؟
أعلم ذلك يا صغيرتي الجميلة،
فأنا أرى الصعاب والعراقيل في الأُفُق.

- چون لي هوكر
حتمًا ستخسر.

6 أبريل، 1985

سأخبركم بشيء يا أصدقائي وجيراني. أنا ثَمِلُ الليلة.. ثَمِلٌ تمامًا.. سكران بالويسكي. في البداية ذهبت إلى ماخور والي، ثم عرجت على جرينفرونت في الشارع الأوسط قبل أن يغلقوا أبوابهم بنصف ساعة، وابتعت لترًا إلا رُبع من الويسكي. أعرف جيِّدًا ما سيحدث. يقول المثل: اشرب الخمر الرخيصة اليوم، وادفع الثمن غاليًا غدًا. ها أنا ذا.. زنجيٌّ ثمل يجلس في مكتبة عامة بعد مواعيد العمل، أمامي كتاب مفتوح وإلى يساري زجاجة أولد كنتاكي. «قُل الحقيقة واخزِ الشيطان»، هذا ما اعتادت أمي قوله، لكنها نسيت أن تُخبرني أنك أحيانًا لا تستطيع خزي الشيطان وأنت مُستفيق. الأيرلنديون يعرفون ذلك، لكنهم بالطبع زنوج الرَّب البيض، ورُبَّما هم يسبقوننا بخطوة.

أريد الكتابة عن مضارِّ الخمر والشيطان. أتذكرون رواية جزيرة الكنز، الفصل الأوَّل: البحار العجوز في جانة أدميرال بينبو؟ أراهن أنه حتَّى ذلك العجوز اللعين كان يؤمن بذلك. إذا ملأت بطنك بالروم -أو الويسكي- تستطيع الإيمان بأيِّ شيء.

الخمر والشيطان. حسنًا.

أتسلَّى أحيانًا بالتفكير في المدة التي سأحياها إذا نشرت بعضًا من تلك

الأمور التي أدوِّنها في عمق الليل. إذا أفشيت بعض الأسرار المُخبَّأة في خِزانة مدينة ديري. لمجلس إدارة المكتبة العامة إحدى عشر عضوًا، أحدهم كاتب عجوز سنه واحد وسبعين سنة أُصيب بجلطة دماغية منذ سنتين، ويحتاج الآن مُساعدة للعثور على مكانه في جدول أعمال كل اجتماع. لقد لوحظ الرَّجُل أحيانًا وهو يُخرج كُتلًا ضخمة من المخاط الجاف من فتحة أنفه المُشعره ويضعها بحرص في أُذُنه، كأنه يريد الحفاظ عليها. توجد أيضًا عضوة أُخرى هي امرأة مُتغطرسة جاءت إلى من نيويورك مع زوجها الطبيب، وهي لا تكف عن سرد مُنولوجات مُطوَّلة مُتذمِّرة عن كم أن ديري بلدة ريفية، وكيف أن لا أحد هنا يفهم التجربة اليهودية، وكيف أنها تضطر إلى السفر إلى بوسطن لشراء تنورة تليق بها. آخر مرَّة تحدَّثت فيها إلى هذه المرأة العصابية من دون وسيط كانت في حفل الكريسماس الذي أقامه المجلس منذ عام ونصف. كانت قد شربت كمًّا كبيرًا من الچين، وسألتني إن كان أحدٌ في ديري يفهم التجربة السوداء. كنت شربت بدوري كمًّا كبيرً جدًّا من الچين، فأجبتها: «سيِّدة جلادري، قد يكون اليهود لُغزًا مُطلسمًا، لكن الزنوج مفهومون في جميع أنحاء العالم». اختنقت المرأة بالشراب، والتفتت بحدَّة كبيرة جدًّا حتَّى إن ملابسها الداخلية ظهرت من أسفل تنُّورتها القصيرة التي رفرفت في الهواء (لم يكن المشهد مُثيرًا جدًّا للاهتمام، فهي لم تكن كارول دانرا)، وهكذا انتهت مُحادثتي غير الرسمية الأخيرة مع السيِّدة روث جلادري، وتلك ليست خسارة فادحة كما ترون.

باقي أعضاء مجلس إدارة المكتبة أحفاد بارونات الخشب، ودعمهم للمكتبة يُعدُّ نوعًا من الكفَّارة المتوارثة: لقد نهبوا جميع الأخشاب، والآن يهتمُّون لأمر تلك الكُتب بذات الطريقة التي يريد بها رجُلٌ فاجر تعويض أولاد الزنى الذين أنجبهم في شبابه. إن أجدادهم وأجداد أجدادهم هم الذين فشخوا ساقيّ غابات ديري وبانجور الشمالية، واغتصبوا تلك العذارى الأبكار الخضراوات بفؤوسهم ومناشيرهم. لقد مزَّقوا وقطَّعوا وانتهكوا الغابة الخضراء، ولم ينظروا خلفهم أبدًا. لقد افتضوا غشاء بكارة الغابات العظيمة عندما كان جروڤر كليڤلاند رئيسًا للبلاد، وكانوا قد انتهوا

من أعمالهم حينما أُصيب وودرو ويلسون بجلطة. أولئك الأنذال الأخسَّاء اغتصبوا الغابات العظيمة، ولقَّحوها بنفايات الخشب وبقايا الأشجار، وبدَّلوا حال ديري من بلدة صغيرة تعيش على صناعة المراكب، إلى ماخور عملاق مُزدهر لا تُغلق أبوابه أبدًا تقتات العاهرات والقحاب فيه طوال الليل. أخبرني واحد من المناضلين القدامى، رجُل اسمه إجبرت ثوروجود سِنَّه الآن ثلاثة وتسعون عامًا، أنه أخذ عاهرة هزيلة في كوخ في شارع بيكر (وهو شارع لم يعد موجودًا، وتقف الآن في المكان الذي كان يحتلّه قديمًا في عنفوانه شُقق إسكان مُتوسِّط هادئة).

- «لم أدرك أنها مُستلقية فوق بركة من المني بُعمق بوصة تقريبًا إلا بعد أن قذفت مائي داخلها، وقد لزجت المادة وصارت هُلامية. قلت لها: 'ألا تنظِّفين نفسك أبدًا يا فتاة؟'، فنظرت إلى أسفل وقالت: 'سأفرش ملاءة جديدة لك إذا أردت أن تقذف ثانيةً. توجد ملاءتان إضافيتان في الخِزانة التي في الردهة على ما أظنُّ. أكون مدركة فقط لما أنام فوقه حتَّى الساعة التاسعة أو العاشرة، لكن بحلول مُنتصف الليل يكون فرجي قد تخدَّر بالكامل ولا أشعر به، كأنه في إلسورث'».

هكذا كانت ديري في بدايات القرن العشرين، على الأقل خلال العشرين سنة الأولى منه: خمر ونساء وعربدة. كانت صفحتا نهري الكِندوسكيج وبينوبسكوت تمتلآن بالأخشاب والحطب بدايةً من ذوبان الجليد في أبريل إلى إعادة تجمُّده في نوفمبر. ثم بدأت التجارة في الركود في العشرينيات بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي كانت تُأجِّجها وغياب الأخشاب الصلبة التي كانت تُطعمها، ثم ذبلت تمامًا وتوقَّفت في النهاية إبَّان الكساد الكبير، وضع بارونات الأخشاب أموالهم في بنوك نيويورك وبوسطن التي نجت من الانهيار، وتركوا اقتصاد ديري ليعيش -أو يموت- بمُفرده. تراجع الأباطرة منزوين إلى منازلهم الكريمة في غرب برودواي، وأرسلوا أولادهم إلى مدارسٍ خاصة في نيوهامبشير وماساتشوستس ونيويورك، وعاشوا على أموال الفوائد وعلاقاتهم السياسية.

وبعد قرابة نيف وسبعين عامًا، ما تبقَّى من ميراث سيادتهم بعدما قذف

إجبرت ثوروجود ماءهُ نظير دولار على فراشٍ غارقٍ في المني في شارع بيكر هي الغابات المقطوعة في بينوبسكوت ومقاطعات أروستوك، والمنازل الفيكتورية العظيمة التي تقف في كتلتين بطول غرب برودواي، ومكتبتي بلا شك. إلا أن أولئك الرفاق الطيبون سوف يسلبوني «مكتبتي» قبل أن يرتدَّ إليَّ طرفي -التورية مُتعمَّدة دون شك- لو نَشَرتُ أيَّ شيء عن رابطة الحشمة البيضاء، أو حريق ملهى بلاك سبوت، أو إعدام عصابة برادلي الجمعي... أو قضية كلود هيروكس والدولار الفِضِّي.

كان الدولار الفِضِّي ماخورًا ذائع الصيت وقتها، وقد وقع فيه في سبتمبر عام 1905 ما يُمكن توصف بحادثة القتل الجماعي الأغرب والأكثر شذوذًا في تاريخ أمريكا بأكمله. ثمَّة حفنة من المواطنين القدامى في ديري هم فقط من يدَّعون أنهم يتذكَّرون الواقعة، لكن الرواية الوحيدة التي أثق بها هي رواية ثوروجود، الذي كان في الثامنة عشر من عمره عندما حدث الأمر.

يعيش ثوروجود الآن في دار بولسون لرعاية المُسنِّين. إنه أدرد بلا أسنان، لكنته الشمالية الريفية ثقيلة جدًّا، ولو كُتبت كما تُنطق فلن يفهمها أو يتمكَّن من قراءتها إلا أحد مواطني ديري العجائز الآخرين. لقد ساعدتني ساندي أيڤيس -أستاذة الفولكلور من جامعة مين التي ذكرتها سابقًا في هذه الصفحات الوحشية- في ترجمة التسجيلات الصوتية.

وفقًا لثوروجود، كان كلود هيروكس:

«Un bat Cannuck sonofawhore widdin eye that'd roll adju like a mart's in dem oonlight».

(الترجمة: «كنديًا فرنسيًّا ابن قحبة ذا عينين واسعتين كعيون الجياد اللامعة في ضوء القمر»).

قال ثورجورد أنه اعتاد أن يعتقد -مثله مثل كل من عمل مع هيروكس- أن الرَّجُل كان ماكرًا كالكلابِ التي تسرق الدجاج، ما جعلِ هجومه على ماخور الدولار الفِضِّي غير مُتوقَّع وأكثر إذهالًا بمراحل. حتَّى ذلك الحين، كان الحطَّابون في ديري يؤمنون أن هيروكس يستخدم مهاراته ويصب جُلَّ تركيزه على إشعال الحرائق في الغابات.

كان صيف عام 1905 طويلًا وحارًّا واشتعلت فيه حرائق غاباتٍ كثيرة، وقد حدث أكبرها في غابة إينچن الكبيرة في هاڤن، وهو الحريق الذي اعترف هيروكس لاحقًا بإشعاله بواسطة شمعة وكومة من الأخشاب. تفحَّم عشرون هِكتارًا من الأخشاب الصلبة الأساسية في الحريق، وقد كانت رائحة الدُخان تُشَمُّ من مسافة خمسة وثلاثين ميلًا في ديري، حيث تسير العربات التي تجُرَّها الجياد نحو تلَّة أب-مايل.

في ربيع ذلك العام، تناثر حديثٌ مقتضب في البلدة عن إنشاء نقابة. شارك أربعة من الحطَّابين في التنظيم (لا يعني هذا أنه كان هناك تنظيم حقيقي، فالعُمَّال في ديري كانوا مُعادين للنقابات وقتها بقدر ما هم مُعادين للنقابات الآن)، وأحد أولئك الأربعة كان كلود هيروكس، الذي كان يرى الأنشطة النقابية فُرصة للتحدُّث بكلام كبير وقضاء وقت طويل في شرب الخمر في شارعي بيكر وإكستشينچ. كان هيروكس والثلاثة الآخرون يُسمُّون أنفسهم «المنظِّمون»، أما بارونات الأخشاب فكانوا ينعتوهم بـ «زُعماء الفتنة». عُلِّق منشورٌ في جميع مُخيَّمات الخشب من مونرو إلى قرية هاڤن إلى سمر بلانتيشن إلى ميلينوكيت يُعلِم الحطَّابين أن أيُّ رجُلٍ سيُكتشف ضلوعه في الحديث عن إنشاء نقابة سيُسرَّح من وظيفته على الفور.

في مايو من ذلك العام حدث إضراب شمالًا قُرب ترافام نوتش، ورغم أن شوكة الإضراب كُسِرت سريعًا بواسطة كل من المُتخاذلين و«شُرطة البلدة» (كان ذلك غريب نوعًا كما تفهم، بما أنه كان يوجد قُرابة ثلاثين رجُل أمن مُسلَّحين بالفؤوس، لكن قبل ذلك اليوم من شهر مايو، لم يكن يوجد أكثر من فرد أمن واحد في ترافام نوتش، التي كان عدد سكانها تسعة وسبعين في عام 1900، حسب المعلومات المتوافرة)، اعتبر هيروكس وأصدقاؤه المُنظِّمون الإضراب انتصارًا ساحقًا لقضيتهم، وبناء على ذلك، جاءوا إلى ديري ليسكروا ويُعربدوا ويقوموا بمزيدٍ من «التنظيم» أو «إثارة الفتن» اعتمادًا علي الجانب الذي تفضله، وأيًّما كانت حقيقة ما يفعلونه، فلا بُدَّ أنه كان عملًا مُملًا. لقد عرجوا على مُعظم حانات نصف الفدَّان الجحيمي، وانتهى بهم الأمر في ماخور الدولار الفِضِّي، عاقدين أذرعهم على أكتاف بعضهم بعضًا،

وثملين بدرجة مُزرية، ويُغنُّون بلسانٍ معوجٍ أغاني النقابات مثل «عينا أمي تطلّان من الجنَّة»، رغم أنني أعتقد أن أيُّ أُم ستكون معذورة لو نظرت من الجنة وابتعدت مُشيحة ببصرها عند رؤية ابنها في مثل هذا الحالة.

وفقًا لإجبرت ثوروجود، كان السَّبب الوحيد في كون هيروكس بمثل هذا النشاط وقتها هو ديڤي هارتويل. كان هارتويل رئيس «المُنظِّمين» أو «زُعماء الفتنة»، وكان هيروكس يعشقه عشقًا.. وهذا لا يعني أنه الوحيد الذي كان يُحب هارتويل، فمعظم رجال الحركة النقابية كانوا يُحبُّون هارتويل بعُمق وشغف، بذلك الحُب الذي يكنُّه الناس لمن يتمتَّعون بمغناطيسية تقترب من الألوهية.

قال ثوروجود:

«Dawey Ardwell wadda main who walk lak e ohn heffa de worl an haddim a daylah on de resp».

(الترجمة: «كان ديڤي هارتويل يسير أشمًّا كرجُلٍ يمتلك نصف العالم، ويحوز مُفتاح باب نصفه الآخر»).

لقد اتَّبع هيروكس الزعيم هارتويل في مسألة التنظيم هذه، بالطريقة نفسها التي كان سيتَّبعه بها لو كان قرر الذهاب لبناء السفن في بريور أو جنوبًا في باث، أو بناء جسر مُعلَّق في ڤيرمونت، أو حتَّى محاولة إعادة خدمة الطرود البريدية في الغرب. كان هيروكس ماكرًا وشرِّيرًا، وأنا أفترض ذلك في رواية من طبيعتها استبعاد أيِّ صفاتٍ حميدة من أبطالها على الإطلاق. لكن أحيانًا، عندما يمضي رجُلٌ حياته وحيدًا وغير موثوق به (أو فاشل) اختياريًّا أو بسبب رأي المُجتمع فيه، فهو قد يهب حياته ببساطة لصديق أو محبوب، كما تهب الكلاب حياتها لأصحابها. كان هذا الحال بين هيروكس وهارتويل على ما يبدو.

على أيِّ حال، لقد قضى أربعتهم تلك الليلة في فندق برنتوود أرمز، الذي كان يشتهر بين الحطَّابين باسم الكلب العائم (السَّبب في ذلك مجهول تمامًا، ودفين كحال الفُندق ذاته). سجَّل أربعتهم الدخول، لكن أحدًا لم يُسجِّل خروجه.. وأحدهم –وهو رجُل يُدعى آندي دليسبيس– لم يُشاهد بعدها أبدًا.

حسب الرواية التاريخية، هذا الأخير رُبَّما أمضى ما تبقَّى من حياته في رغدٍ في بورتسموث، لكنني أشُك في ذلك نوعًا.

عُثر على اثنين من «زُعماء الفتنة»، وهما أمسيل بيكفورد وديڤي هارتويل ذاته طافيين على صفحة نهر الكِندوسكيج بوجهيهما في الماء. كان بيكفورد بلا رأس، لقد فصل أحدهم رأسه بضربة واحدة من بلطة حطَّاب. كانت كلتا ساقي هارتويل مفقودة، وأولئك الذين عثروا عليه أقسموا أنهم لم يروا من قبل مثل هذا الألم والرعب على وجه إنسان. كان فم الرَّجُل متورِّمًا، ووجنتاه مُنتفختين، وعندما قلبوا جُثَّته وفتحوا شفتيه، سقطت سبع من أصابع قدميه في الوحل خارجة منه. اعتقد البعض أنه رُبَّما فقد أصابعه الثلاث الأخرى من سنوات عمله في الحطابة في الغابات، بينما تمسَّك آخرون برأيهم أنه رُبَّما ابتلع الثلاثة الناقصين قبل أن يموت.

وعلى ظهر قميص كلا الرَّجُلين وجدوا ورقة مُعلَّقة بدبُّوس مكتوبًا عليه: نقابة.

لم يمثل كلود هيروكس أمام المحكمة بسبب ما حدث في ماخور الدولار الفِضِّي ليلة 9 سبتمبر من عام 1905، لذا لا توجد طريقة لمعرفة بالضبط كيف استطاع النجاة من مصير الآخرين في تلك الليلة من مايو. يمكننا نسج افتراضات كثيرة: أنه كان يتجوَّل بمُفرده وقتًا طويلًا، أو هو تعلَّم القفز عاليًا، أو رُبَّما طوَّر قدرة خاصة كتلك التي تمتلكها بعض الكلاب للشعور بالاضطرابات قبل حدوثها. لكن لو كان الأمر كذلك، لِمَ لم يأخذ هارتويل معه؟ رُبَّما أخذوه إلى الغابة مع بقيَّة «المُحرِّضين»؟ رُبَّما كانوا يدَّخرونه للنهاية، وقد تمكَّن الهرب حتَّى مع صرخات هارتويل التي يتردَّد صداها في الظلام مُفزعة الطيور من غصونها، تلك التي راحت تُكتم وهم يحشون أصابع أقدامه في فمه. لا توجد طريقة للتأكُّد ممَّا حدث بالضبط، لكن ذلك الافتراض الأخير هو الأقرب إلى قلبي.

صار كلود هيروكس شبحًا، وراح يتنقَّل من مكانٍ إلى آخر. يتسلَّل إلى مُعسكرٍ في وادي القدِّيس چون، ويصطف في سقيفة الغذاء مع باقي الحطَّابين، ويأخذ صحنًا من الحساء، ويشربه، ثم يرحل قبل أن يدرك أيُّ شخصٍ أنه ليس

واحدًا مِن الجماعة. بعدها بأسابيع قد يظهر في حانة وينتربوينت، يتحدَّث عن النقابة ويقسم أنه سيثأر من الرجال الذين قتلوا أصدقاءه. كانت أسماء هاميلتون تراكر وويليام مولر وريتشارد بوي هي الأسماء التي يذكرها في انتقامه المُرتقب في معظم الأحيان. كانوا جميعًا يعيشون في ديري، وما زالت منازلهم المُقبَّبة مُتعدِّدة الأسقف جملونية الشكل تنتصب في غرب برودواي إلى اليوم. بعدها بسنوات، هم وذُرِّيتهم من سيشعلون حريق ملهى بلاك سبوت.

ممَّا لا شكَّ فيه أن أشخاصًا كُثُر كانوا يريدون إزاحة كلود هيروكس من طريقهم، لا سيَّما بعد أن بدأت الحرائق في الحدوث في يونيو من ذلك العام، وعلى الرغم من أن هيروكس كان يُشَاهد كثيرًا، فقد كان سريعًا ويمتلك حاسَّة الحيوان بالخطر.. وبقدر ما استطعت جمعه من معلومات، لم تُصدر أيُّ مُذكِّرة اعتقال رسمية ضده، ولم تُطلق يد الشُرطة للإيقاع به قط. رُبَّما كانت هناك مخاوف بشأن ما يمكن أن يقوله هيروكس إذا حوكم بتُهمة إشعال الحرائق عمدًا.

أيًّا ما كانت الأسباب، ما برحت الغابات المُحيطة بديري وهاڤن عن الاحتراق طوال ذلك الصيف الحار. بدأ الأطفال في الاختفاء، ووقعت مُشاحنات وجرائم بمُعدَّل أعلى من المُعتاد، وسقط غطاء من الخوف له ذات ثقل وطء الدُخان الذي ينبعث فوق أب-مايل على البلدة.

هطلت الأمطار أخيرًا في غُرَّة سبتمبر، وظلَّت تُمطر بثبات مُدَّة أسبوع. غرقت منطقة وسط المدينة، وهو الأمر الذي لم يكن غير مُعتاد، لكن المنازل الكبيرة في غرب برودواي كانت مُشيَّدة على ارتفاع أعلى بكثير من وسط المدينة، وداخل بعض من تلك المنازل لا بُدَّ أن أُناسًا كُثُر تنفَّسوا الصعداء. دع ذلك الكندي المجنون يختبئ في الغابة طوال الشتاء إذا كان ذلك ما يريده، لقد انتهى عمله لهذا الصيف، وسوف نمسك به قبل أن تجفُّ الجذور في يونيو القادم. لا بُدَّ أنهم قالوا ذلك.

ثم جاء يوم التاسع من سبتمبر. لا أستطيع تفسير ما حدث في ذلك اليوم.. ولا ثوروجود يستطيع.. وبقدر علمي، لا أحد يستطيع تفسيره. كل ما يُمكنني فعله هو حكي الأحداث التي وقعت.

كان ماخور الدولار الفِضِّي الهادئ يمتلئ بالحطَّابين الذين يشربون الجعَّة، وفي الخارج، كان الليل يرخي سدوله الغائمة. كان منسوب الكِندوسكيج مُرتفعًا، ويملأ مجرى النهر من ضِفَّته إلى الأخرى، ووفقًا لرواية إجبرت ثوروجود «راحت رياحٌ عظيمة تهب. رياحٍ من تلك تعثر على الرتق في سراويلك وتستخدمها للدخول إلى ثقب مؤخرتك». صارت الشوارع مُستنقعات. كان هناك زُمرة من الرجال يلعبون الكوتشينة على إحدى الطاولات في نهاية الغُرفة. كانوا من رجال ويليام مولر. كان مولر يملك جُزءًا من سكَّة جس أند ويم الحديدية، بالإضافة ملايين الأفدنة من أخشاب البناء الأساسية، وقد كان الرجال الذين يلعبون البوكر في ماخور الدولار الفِضِّي في تلك الليلة يعملون حطَّابين بدوام جُزئي، وثيران سكَّة حديدية بدوام جُزئي، ومُثيري شغبٍ بدوامٍ كامل. اثْنان منهما هما تينكر ماكوتشون وفلويد كالدروود أمضا سنوات في السجن من قبل، وكان معهما لاثروب روندز (الذي كان لقبهُ «إل كاتوك» يحمل ذات غموض لقب فُندق الكلب العائم)، وديڤيد جرينر الشهير بـ «الغبيح»[1]، وإدي كينغ، وهو رُجل طلق اللحية ويضع نظَّارة ضخمة بضخامة بطنه. لا بُدَّ أنهم كانوا يبدون بعضًا من الرجال الذين أمضوا الشهرين والنصف الماضيين ينتظرون مجيء كلود هيروكس.. وبذات الرجاحة، كانوا يبدون من مجموعة الرجال الذين قطَّعوا أوصال هارتويل وبيكفورد في مايو الماضي.

كان المشرب مُزدحمًا، هكذا قال ثوروجود: كان عشرات الرجال متكدِّسين عليه، يشربون الجعَّة ويأكلون الطعام وينثرون الفُتات والبقايا على أرضية الماخور المُغطَّاة بنشارة الخشب.

ثم فُتح الباب ودخل كلود هيروكس. كان يحمل بلطة حطَّابين مزدوجة النصل في يده. تقدَّم إلى البار وأزاح لنفسه مكانًا بكوعه. كان إجبرت ثوروجود يقف إلى يساره، وقال إن رائحته بدت كحساء ظُربان. أحضر له الساقي كوبًا كبيرًا من الجعَّة، وبيضتين مسلوقتين في وعاء، وقنينة ملح. نقده

(1) الغبي القبيح.

هيروكس ورقة فئة دولارين وأخذ الباقي -دولارًا وخمسة وثمانين سنتًا- ووضعه في سُترة الحطَّابين التي يرتديها. نثر الملح على بيضتيه والتهمهما. ثم نثر بعض الملح على جعَّته وجرعها، ثم تجشَّأ.

قال ثوروجود له: «العراء أأمن من الأماكن المُغلقة يا كلود»، كما لو أن نصف العاملين في مجال إنفاذ القانون شمال مين لم يكونوا مُتأهبين لهيروكس طوال ذلك الصيف.

قال هيروكس: «هذه حقيقة»، لكن لكونه كنديًّا فرنسيًا، فعلى الأغلب ما تلفَّظ به بلكنته الثقيلة بدا أقرب لـ «هادي حقيقا».

طلب هيروكس كوبًا كبيرًا آخر من الجعَّة، وجرعه، وتجشَّأ ثانيةً. استمرَّ الحديث على المشرب. نادى بعض الأشخاص على كلود باسمه، فلوَّح لهم الرَّجُل وأومأ، لكنه لم يبتسم. قال ثوروجود أنه بدا كرجُلٍ نصف نائم، نصف حالم، وعلى الطاولة في نهاية الغُرفة، استمرَّت لعبة البوكر. كان إل كاتوك يوزِّع الأوراق. لم يُكلِّف أحدٌ نفسه مشقَّة إخبار أيًّا من اللاعبين أن كلود هيروكس عند المشرب، لكن بما أن طاولتهم لم تكن تبعد أكثر من خمسة وعشرين قدمًا، وبما أن اسم كلود صيح به أكثر من مرَّة بواسطة أُناسٍ يعرفونه، فمن الصعب معرفة كيف استمرُّوا في اللعب غير واعين بوجوده في المكان.. وجوده الذي يُحتمل أن يكون قاتلًا. لكن ذلك ما حدث.

بعدما أنهى كوب الجعَّة الثاني، حمل هيروكس بلطته مزدوجة النصل، واستأذن ثوروجود، وذهب إلى طاولة رجال مولر الذين يلعبون الورق، وبدأ في تقطيعهم إربًا.

كان فلويد كالدروود قد صبَّ لنفسه كأس ويسكي لتوِّه، وكان يُعيد الزجاجة إلى مكانها عندما اقترب هيروكس وقطع ذراعه من الرسغ. نظر كالدروود إلى يده وصرخ. كانت لا تزال مُمسكة بالزُجاجة، لكنها فجأة لم تعد مُتَّصلة بأيِّ شيء باستثناء غضاريف رطبة وأوردة دامية مُهتكة. للحظة أحكمت اليد المقطوعة قبضتها أكثر على الزُجاجة، ثم تراخت على الطاولة كعنكبوتٍ ميِّتة، وتدفَّقت الدماء من معصمه.

من عند المشرب، صاح أحدهم مُطالبًا بمزيدٍ من الجعَّة، وسأل شخصٌ

آخر الساقي -الذي كان اسمه چونسي- ما إذا كان ما زال يصبغ شعره. قال چونسي بمزاجٍ سيئ: «لم أصبغه قط». كان چونسي أصلع الرأس.

قال الرَّجُلُ: «لقد التقيت عاهرة في ماكورتني وأخبرتني أن الشَّعر حول قضيبك أبيض بلون الثلج».

قال چونسي: «كاذبة».

قال حطَّابٌ اسمه فالكلاند كان ثوروجود ينافسه في الشراب قبل مجيء هيروكس: «اخلع سراويلك ودعنا نرى»، وضجَّ الجمع بالضحك من تلك الدعابة.

خلفهم، كان فلويد كالدروود ما زال يرتجف. بعض الرجال الذين كانوا يجسلون مُنحنين فوق المشرب ألقوا نظرة عابرة في الوقت المُناسب ليروا كلود هيروكس يدفن بلطته في رأس تينكر ماكوتشون. كان تينكر رجُلًا ضخمًا بلحية سوداء بدأ لونها يستحيل رماديًا. نهض الرَّجُل في نصف وقفة والدماء تُصبُّ على وجهه صبًّا، ثم جلس ثانيةً. انتزع هيروكس البلطة من رأسه. بدأ تينكر ينهض ثانيةً، فطوَّح هيروكس البلطة جانبًا، ورشقها في ظهره. قال ثوروجود إنها أحدثت صوتًا شبيهًا بصوت كومة من الملابس المُتَّسخة أسقطها أحدهم على بساط. انقلب تينكر فوق الطاولة، ناثرًا أوراق اللعب من يده.

راح اللاعبون الآخرون يزأرون ويجأرون، فيما كان كالدروود يحاول التقاط ذراعه اليُمنى بيده اليُسرى ودماء الحياة تغادر جسده في تيَّارٍ مُستمر. كان ستوجلي جرينيه يحمل ما يُسمِّيه ثوروجود بـ «مُسدَّس مخلبي» (ما يعني مُسدَّسًا مدسوسًا في حمَّالة كتف)، وكان يحاول إخراجه من جرابه من دون جدوى. حاول إدي كينغ النهوض لكنه سقط من فوق مقعده على ظهره في التوِّ، وقبل أن يستطيع النهوض ثانيةً، وقف هيروكس مُنفرج الساقين فوقه رافعًا البلطة فوق رأسه. صرخ كينغ ورفع كلتا يديه في الهواء ليذود عن نفسه.

صرخ كينغ: «أرجوك يا كلود، لقد تزوَّجت الشهر الماضي!».

هبط الفأس واختفى نصله بالكامل تقريبًا في بطن كينغ الفسيح. تناثرت الدماء ووصلت للسقف. بدأ إدي في التراجع زحفًا عبر الأرضية. جذب كلود البلطة من جسده بالطريقة التي يجذب بها حطَّاب فأسه من جذع شجرة

مرن ويُحرِّكها يمينًا ويسارًا ليُخفِّف قبضتها المُتشبِّثة بعروق الخشب. عندما تحرَّرت البلطة رفعها كلود عاليًا فوق رأسه، ثم هبط بها ثانية فتوقَّف إدي كينغ عن الصراخ. لم يكن كلود هيروكس قد انتهى منه بعد، وراح يُقطِّع أوصال كينغ ببلطته كما يُقطَّع الخشب.

عند البار، تغيَّر الحديث وراح الرجال يناقشون فصل الشتاء القادم، وهل سيكون من النوع قارص البرودة أم لا. ادَّعى مُزارع من بالميرا اسمه ڤيرون سناتشفيلد أنه سيكون مُعتدلًا، فقد كان يؤمن أن أمطار الخريف تستهلك ثلوج الشتاء. أما ألفي نوجلر الذي كان يمتلك مزرعة في شارع نوجلر في ديري (وهو الشارع الذي لم يعد موجودًا الآن.. ففي المكان الذي كان يزرع فيه نوجلر البازلاء والحبوب والبنجر، يجري الآن امتداد الطريق السريع ذي الحارات الست مسافة 8.8 ميل)، لم يكن يتَّفق معه. توقَّع ألفي أن الشتاء القادم سيكون رهيبًا، فهو قد رأى قرابة ثماني حلقات على بعض يرقات الموهير، هكذا قال، وهو رقم لم يسمع به أحدٌ من قبل. مدَّ رجُلٌ كوبه طلبًا لمُكعَّبات ثلج، وطلب آخر مزيدًا من الخمر. راح چونسي يزحلق كؤوس الجعَّة وصحون البيض على سطح المشرب، ومن خلفهم تواصل الصراخ، واستمرَّ تدفُّق أنهار الدماء.

عند هذه اللحظة وأنا أستجوب إجبرت ثوروجود، أغلقت المُسجِّل وسألته: «كيف استمرَّ الأمر في الحدوث؟ هل تقول إنكم لم تكونوا تعلمون بحدوثه وراء ظهوركم، أم كنتم تعلمون لكنكم سمحتم باستمراره، أم ماذا بالضبط؟».

سقط ذقن ثوروجود فوق الزِّر العلوي لصيديريه المُلوَّث ببقع الطعام، وقطب حاجبيه. استمرَّ الصمت جاثمًا مُدَّة طويلة جدًّا في حُجرة ثوروجود الصغيرة الضيِّقة التي تفوح منها زائحة الدواء حتَّى أوشكت على تكرار سؤالي، عندما أجاب: «كنا نعلم، لكن لم يبدُ أن الأمر يهمَّنا في شيء. كان ما يجري أشبه بتفاصيل السياسة بشكل أو بآخر. أجل، كذلك تمامًا، أو كأعمال البلدة. من الأفضل ترك الأشخاص الذين يفهمون السياسة تولِّي أمورها، وترك الذين يفهمون أعمال البلدة تولِّي أمورها. مثل هذه الأمور تتم على النحو الأمثل إذا لم يتدخَّل العُمَّال فيها».

سألته فجأة: «هل تتحدث عن القَدَر لكنك تخشى التصريح بذلك؟». لقد قفز السؤال من فمي ببساطة، وبالتأكيد لم أتوقَّع من ثوروجود المُسِنَّ البطيء الأُمي إجابته.. لكنه أجابه، من دون أدنى مُباغتة على الإطلاق.

قال لي: «أيوا.. رُبَّما كان الأمر كذلك».

وبينما كان الرجال عند المشرب مُستمرِّين في الحديث عن المناخ والطقس، واصل كلود هيروكس تمزيق الأجساد. استطاع ستوجلي جرينيه إخراج مُسدَّسه من جرابه في النهاية. كانت البلطة تهبط مُمزِّقة جزءًا آخر من جسد إدي كينغ، الذي كان قد قُطِّع إلى أشلاء حينها. ضربت الرصاصة التي أطلقها جرينيه رأس البلطة وارتدَّت عنها بشرارة وطنينٍ مدوٍّ.

نهض إل كاتوك واقفًا وبدأ في التراجع مُبتعدًا. كان ما زال يحمل الكوتشينة التي كان يوزِّع منها، وراحت الأوراق تسقط منها على الأرض. اتَّجه كلود إليه. رفع إل كاتوم يديه في الهواء. أطلق ستوجلي جرينيه رُصاصة أخرى، لم تقترب مسافة عشرة أقدام من هيروكس.

قال إل كاتوك: «توقَّف يا كلود». أخبرني ثوروجود أن إل كاتوك بدا أنه يحاول الابتسام. «لم أكن معهم. لا تخلط الحابل بالنابل».

زمجر هيروكس فحسب.

قال إل كاتوك وقد ارتفع صوته إلى طبقة الصراخ: «كنت في ميلينوكيت. كنت في ميلينوكيت. أقسم بشرف أمي! اسأل أيَّ شخصٍ إن كنت لا تُصدِّقني...».

رفع كلود البلطة التي تقطر الدماء منها، فألقى إل كاتوك ما تبقَّى من أوراق لعب في يده إلى وجهه. هبطت البلطة مُصفِّرة في الهواء. انحنى إل كاتوك. انغرست البلطة في ألواح خشب جدار الدولار الفِضِّي الخلفي. حاول إل كاتوك الهرب. انتزع كلود البلطة من الجدار وطعنه بها بين كاحليه. تدحرج إل كاتوك أرضًا. أطلق ستوجلي جرينيه الرصاص على هيروكس مُجدَّدًا، وهذه المرَّة حالفه الحظ قليلًا. كان قد صوَّب على رأس الحطَّاب المسعور، لكن الرصاص استقرَّ في لحم فخذ هيروكس.

في هذه الأثناء، راح إل كاتوك يزحف بهمَّة نحو الباب وشعره منسدل

على وجهه. طوَّح هيروكس البلطة من جديد، وهو يزمجر ويزأر، وبعدها بلحظة تدحرج رأس كاتوك المقطوع على الأرضية المُغطَّاة بنشارة الخشب، وبرز لسانه على نحوٍ غريب من بين أسنانه. تدحرج الرأس وتوقَّف عند حذاء عالي الرقبة ينتعله رجُل يدعى ثارني، الذي كان قد أمضى أغلب اليوم هنا في ماخور الدولار، والذي كان ثملًا تمامًا حينها ولا يعرف إن كان على الأرض أم في البحر. ركل الرَّجُل الرأس بعيدًا دون أن ينظر ليرى ما هو، وصاح بجونسي كي يجلب له كوبًا آخر من الجعَّة.

زحف جسد إل كاتوك مسافة ثلاثة أقدام أخرى، والدماء تنبثق من رقبته في نافورة قويَّة الضغط، قبل أن يدرك أنهُ ميِّت وينهار أرضًا. لم يتبق سوى ستوجلي، الذي التفت هيروكس إليه، لكنه كان قد ركض إلى الحمَّام الخارجي وأغلق الباب عليه.

أعمل هيروكس بلطته في الباب، وشقَّ طريقه صارخًا مُثرثرًا هاذيًا، واللعاب يسيل من بين شدقيه. عندما دخل، كان ستوجلي قد رحل، رغم أن الغُرفة الصغيرة الباردة الراشحة كانت عديمة النوافذ، وقف هيروكس مكانه لحظات برأسٍ مُنكَّس وذراعين قويتين ملوَّثتين بلُطخ الدماء، ثم زأر وقلب غطاء المرحاض ثلاثي الفتحات في الوقت المُناسب ليرى حذائي ستوجلي يختفيان أسفل اللوح الخشبي الذي تبرز حافته من جدار الحمَّام الخارجي.

ركض ستوجلي صارخًا بطول شارع إكستشينچ، مُتَّسخًا بالقاذورات من رأسه إلى أخمص قدميه، وهو يصيح مستنجدًا أنه يتعرَّض للقتل. لقد نجا الرَّجُل من حفلة التمزيق في ماخور الدولار الفِضِّي -الوحيد الذي نجا- لكنه غادر ديري بعدها إلى الأبد بعد ثلاثة أشهر من الاستماع إلى نكات هازئة عن طريقة هربه.

خطا هيروكس خارجًا من الحمَّام ووقف أمامه كثورٍ خارج من معركة.. رأسه مُنخفض، ويحمل البلطة أمام جسده. كان ينفخ ويلهث وجسده بأكمله مُغطًّى بالدماء.

قال ثوروجود له: «أغلِق الباب يا كلود، رائحة حُفرة الخراء تصل إلى عنان السماء». ألقى كلود البلطة أرضًا وفعل ما طُلب منه. ثم عاد إلى الطاولة

التي تتناثر عليها أوراق اللعب حيث كان ضحاياه يجلسون، وركل إحدى ساقي إدي كينغ المُمزَّقتين بعيدًا عن طريقه، ثم جلس ببساطة ووضع رأسه بين ذراعيه. استمرَّ الحديث والشُرب عند المشرب. بعد مرور خمس دقائق، بدأ مزيدٌ من الرجال في التجمُّع، من بينهم ثلاثة أو أربعة نوَّاب رؤساء شُرطة (كان الفرد المسؤول بينهم هو والد لال ماكن، وعندما رأى تلك الفوضى فاجأته نوبة قلبية، واضطروا حمله إلى مكتب دكتور شرات). أُخِذ كلود هيروكس بعيدًا.. كان طيِّعًا ومُنصاعًا عندما أخذوه، ونائمًا أكثر منه مُستيقظًا.

في تلك الليلة طارت أنباء المذبحة في كل المواخير والحانات في شارعي إكستشينج وبيكر. بدأ نوعٌ من الغضب الثمل الصادق ينتشر، وعندما أُغلِقت الحانات توجَّه قرابة سبعين رجُلًا إلى وسط المدينة قاصدين السجن ودار المحكمة. كانوا يحملون مشاعل ومصابيح، وبعضهم كان يحمل السلاح، والبعض الآخر يحملون فؤوس ومحاريث.

لم يُستدع شريف المقاطعة من بانجور إلا ظهيرة اليوم التالي، لذا لم يكن موجودًا، وكان چوس ماكن مُستلقيًا في عيادة دكتور شارت بسبب أزمته القلبية. سمع نائبا الشُرطة اللذان كانا يجلسان في المكتب يلعبان الورق عُصبة الرجال قادمة ففرَّا سريعًا من المكان. اقتحم السكارى الحجز، وجرُّوا كلود هيروكس من زنزانته. لم يحتج الرَّجُل كثيرًا، وبدا مُخدَّرًا وخاليًا من التعبير.

حملوه على أعناقهم كأنه بطل كُرة قدم إلى شارع القناة، وهناك سحلوه وأعدموه على شجرة دردار عتيقة تطل على مياه القناة. قال إجبرت ثوروجود: «كان في عالمٍ آخر تمامًا حتَّى إنه لم ينتفض إلَّا مرَّتين». حسب سجلَّات البلدة، هذا هو الإعدام الغوغائي الوحيد الذي حدث في ذلك الجزء من ولاية مين، ولا داعي لذكر أنه لم يُذكر في صحيفةِ أخبار ديري. كثيرٌ من أولئك الذين واصلوا الشرب دون هوادة في أثناء ما كان هيروكس ينهي عمله في ماخور الدولار الفِضِّي كانوا من ضمن العُصبة التي شنقته، وبحلول منتصف الليل، تغيَّرت حالتهم المزاجية.

سألت ثوروجود سؤالي الأخير: هل رأى أيَّ شخصٍ لا يعرفه إبَّان ذلك

اليوم العنيف؟ هل رأى شخصًا ما بدا له غريبًا.. في غير محله.. هاذرًا.. أو حتَّى يبدو كبهلوان؟ شخصًا ما كان من بين الشاربين في ذلك الماخور عصر ذلك اليوم.. شخصًا ما انضم إلى مُثيري القلاقل في تلك الليلة التي تحوَّل الغضب فيها مع تأثير السُكر إلى إعدام غوائي؟

أجاب ثوروجود: «رُبَّما». كان قد أُنهك من الحكي بحلول ذلك الوقت، وبدأ رأسه ينحني إلى صدره استعدادًا لغفوة القيلولة. «كان هذا منذ زمنٍ بعيد يا سيِّد.. زمنٍ بعيد جدًّا جدًّا».

قلت له: «لكنك تتذكَّر أمرًا».

قال ثوروجود: «أتذكَّر أنني ظننت أن سيركًا مُتنقِّلًا لا بُدَّ حلَّ ببانجور. كنت أشرب الجعَّة في حانة بلودي باكت في تلك الليلة. إن حانة باكت على بُعد ستَّة أبواب من ماخور الدولار الفِضِّي. كان هناك رجُلٌ بالداخل... رجُلٌ من النوع الهزلي، يتواثب ويتشقلب، ويطوِّح الزُجاجات في الهواء، ويُنفِّذ حيلًا، كأن يضع أربعة سنتات على جبهته وتظلُّ في مكانها... بهلوان... أنت تفهم ما أقصد...».

غاص ذقن ثوروجود بارز العظام إلى صدره من جديد. كان سيغفو نائمًا أمامي. بدأ اللُعاب في التجمُّع عند رُكني فمه، الذي كان يمتلئ بالتجاعيد وندوب الزمن كالمحفظة القديمة.

قال ثوروجود: «رأيته بضع مرَّات هنا وهناك بعدها، وحسبت أنه لا بُدَّ قضى وقتًا طيِّبًا جدًّا في تلك الليلة لهذا قرَّر المكوث في الجوار».

قلت له: «أجل. إنه يمكث في الجوار منذ زمنٍ بعيد جدًّا».

كان ردُّه الوحيد شخيرًا واهنًا. لقد نام ثوروجود في مقعده قرب النافذة، وأدويته تصطف جواره على حافَّة الشبَّاك.. جنود الشيخوخة المُصطفَّة في طابورٍ عسكري. أغلقت المُسجِّل وجلست أنظر إليه لحظات، إلى مُسافر الزمن الغريب هذا القادم من عام 1890 تقريبًا، الذي يتذكَّر شكل العالم عندما لم تكن هناك سيَّارات ولا مصابيح كهربائية ولا طائرات ولا ولاية أريزونا. كان بيني وايز موجودًا، وقد أرشدهم إلى طريق القُربان الدوري، الذي لم يكن سوى أحد القرابين الصارخة في تاريخ ديري الطويل. ذلك القربان،

الذي قُدِّم في سبتمبر عام 1905، كان فاتحة فترة عنيفة من الرُّعب ستشمل لاحقًا انفجار مصنع حديد كيتشنر في عيد الفصح من العام التالي.

يثير هذا بعض الأسئلة المُثيرة للاهتمام (والمهمة جدًّا حسب علمي). ما الذي يتغذَّى عليه الشَّيء بالتحديد؟ أعرف أن بعض الأطفال أُكلوا جُزئيًّا، فقد أظهرت أجسادهم آثار عضٍّ على الأقل؛ لكن قد نكون نحن البشر من نقود الشَّيءَ لفعل ذلك. بالتأكيد تعلَّمنا جميعًا في طفولتنا المُبكِّرة أن ما يفعله أيُّ وحشٍ حين يمسك بك في أغوار الغابة هو التهامك. رُبَّما هذا أسوأ شيء تستطيع عقولنا تصوُّره. لكن هذا الوحش يتغذَّى بالأحرى على الإيمان، أليس كذلك؟ أجد نفسي منساقًا بشكلٍ لا يُقاوم إلى ذلك الاستنتاج: الغِذاء هو وقود الحياة، لكن الإيمان هو وقود القوَّة لا الغِذاء.. ومن أكثر قدرة على فعل الإيمان الكلي من الأطفال؟

لكن ثمَّة مُشكلة هنا: الأطفال يكبرون في العمر. في الكنيسة، تدوم السلطة وتتجدد عن طريق طقوسٍ دورية مُستمرَّة، وفي ديري، يبدو أن السلطة تُجدِّدها أعمالٌ طقسية دورية أيضًا. هل يُعقل أن الشَّيءَ يحمي نفسه بحقيقة أن الأطفال حين يصيرون بالغين فإنهم يصبحون عاجزين عن الإيمان، أو مُعاقين بسبب تصلُّب يصيب أرواحهم وخيالهم الخصب؟

أجل. أظنُّ أن هذا هو السر. إذا اتصلت بأصدقاء الأيَّام الخوالي الآن، فما المقدار الذي سيتذكَّرونه؟ ما مقدار ما سيُصدِّقونه؟ هل سيتذكَّرون ما يكفي للقضاء على مصدر الرُّعب مرَّة واحدة وإلى الأبد، أم ما يكفي ليلقوا حتفهم؟ إنهم يُدعَون إلى المدينة، أنا أعرف ذلك. كل جريمة في هذه الدورة الجديدة تُعدُّ نداءً. لقد كدنا أن نقتل الشَّيءَ مرَّتين، وفي النهاية أجبرناه على التراجُع عميقًا إلى شبكة أنفاقه وغُرفه النتنة أسفل المدينة.. لكنني أظنُّ أن الشَّيءَ يعلم سِرًّا آخر: أنه خالد (أو تقريبًا كذلك)، أما نحن ففانين. كل ما على الشَّيءِ فعله هو الانتظار ريثما يصير فعل الإيمان مُستحيلًا علينا.. الإيمان الذي جعلنا قاتلي وحوش مُحتملين ومصادر قوَّة منذ سبعة وعشرين عامًا مضت. رُبَّما تكون فترة سُبات الشَّيءِ مُجرَّد غفوة قصيرة ومُنعشة كما القيلولة بالنسبة إلينا، وعندما يصحو، يظلُّ هو كما هو، أما نحن فتكون ثُلث حيواتنا قد ولَّت،

ومعها ضاق أُفُقنا ووجهات نظرنا وبَلَى إيماننا بالسحر -الذي يجعل السحر مُمكنًا- كما تُبلَى اللمعة من على زوجي حذاءٍ جديدين بعد يوم عصيب من المشي.

لماذا يستدعينا؟ لماذا لا يدعنا نموت؟ لأننا كدنا أن نقتله، لأننا ألقينا الخوف في نفسه، على ما أظنُّ. لأن الشَّيءَ يُريد الانتقام.

والآن، عندما عندما لم نعد نؤمن بسانتا كلوز وجنِّية الأسنان وهانزل وجريتل والقزم أسفل الجسر، فإن الشَّيءَ مُستعدٌ لنا. تعالوا، هكذا يقول الشَّيء. تعالوا، دعونا نُنهي ما بدأناه في ديري. اجلبوا ألعابكم ودُمياتكم وكُريات البلي! سوف نلعب! عودوا ولنرى إن كنتم تتذكَّرون أبسط الأمور قاطبة: معنى أن تكونوا أطفالًا واثقين بإيمانكم، آمنين فيه، عامرين به... وبالتالي تخافون الظلام.

بالنسبة إلى الخوف من الظلام، فأعتقد أنني أُسجِّل ألفًا في المئة.

أنا مذعور.. مذعور إلى أقصى درجة.

الجزء الخامس

طقس تشود

«سبق السيف العذل.
لقد تفشَّى الرَّشحُ وأفسد الستائر.. وتحلَّل النسيج.
انزع الظفر من اللحم، لا تَبنِ مزيدًا من الجسور.
عبر أيِّ هواءٍ ستطير لعبور المسافات؟
دع الكلمات تسقط على أيِّ شاكلة، فقد تصيب جانبًا من الحُب.
البلاء عظيم، والمحنة نادرة.
لقد أنهى الفيضان عمله،
وأشياء كثيرة ينبغي إنقاذها».

- ويليام كارلوس ويليامز
قصيدة باترسون.

«انظر وتذكَّر، انظر إلى هذه الأرض،
في البُعد البعيد خلف الحقول والمصانع.
قطعًا سيُسمح لك بالمرور.
تحدَّث إذًا، واسأل الغابة والتُّربة الخصيبة.
ماذا تسمع؟ بمَّ تَرُدُّ البسيطة؟
الأرض مُحتلَّة... ليس هذا وطنك».

- كارل چاي شابيرو
«السفرنامة للمنفيين»

الفصل التَّاسع عشر

في سويعات الليل

1

مكتبة ديري العامَّة/ الواحدة والربع صباحًا

عندما أنهى بن هانسكوم سرد قِصَّة الكُريات الفِضِّية، أرادوا جميعًا أن يتكلَّموا، لكن مايك أخبرهم أنه يريد منهم أن يحظوا ببعض النوم.. قال لهم: «لقد نلتم كفايتكم للوقت الحالي»، لكنه هو من بدا أنه نال كفايته. كان وجهه مُنهكًا ومستنزفًا، وظنَّت بيڤرلي أنه يبدو سقيمًا.

قال إدي: «لكننا لم ننتهِ. ماذا عن باقي الأحداث؟ ما زلت لا أتذكَّر...».

قاطعه بيل: «مـ-مـ-مايك مُحق. إما سنتذكَّر أو لن نتذكَّر، وأظنُّ أننا سنتذكَّر. لقد تذكَّرنا كل ما نحن في حـ-حاجة إليه».

قال ريتشي: «رُبَّما كل ذلك في مصلحتنا؟».

أومأ مايك وقال: «سنلتقي غدًا»، ثم نظر إلى ساعته وأردف: «أعني لاحقًا اليوم».

سألت بيڤرلي: «هنا؟».

هزَّ مايك رأسه ببطء وقال: «أقترح أن نلتقي في شارع كانساس.. في المكان الذي اعتاد بيل إخفاء درَّاجته فيه».

سأل إدي: «سننزل إلى البرِّية؟»، وسرت رعدة مُفاجئة في جسده.
أومأ مايك مُجدَّدًا.
مرَّت لحظة من الهدوء نظروا فيها إلى بعضهم، ثم نهض بيل واقفًا، ونهض الآخرون معه.
قال مايك: «أريد منكم جميعًا الاحتراس الليلة. لقد أتى الشَّيء إلى هنا، ويمكنه أن يوجد حيثما كنتم. لكن هذا الاجتماع طمأنني نوعًا»، ثم نظر إلى بيل قبل أن يردف: «أستطيع القول أن الأمر ما زال في حيِّز التنفيذ، أليس كذلك يا بيل؟».
أومأ بيل ببطء وقال: «بلى، أظنُّ أنه ما زال في حيِّز للتنفيذ».
قال مايك: «سيكون الشَّيء على علم بذلك بدوره، وسيفعل كل ما يتطلَّبه الأمر لقلب الاحتمالات إلى صالحه».
سأل ريتشي: «ماذا نفعل إذا ظهر الشَّيء؟ أنُمسك بأنوفنا ونغلق أعيُننا وندور حول نفسنا ثلاث مرَّات مُفكِّرين في أفكارٍ سعيدة ثم ننفخ بعض الغُبار السحري في عينيه؟ أم نُغنِّي أغاني إلڤيس بريسلي القديمة؟ أم ماذا؟».
هزَّ مايك رأسه: «إذا كان لديّ جواب على سؤالك، فلن تكون ثمَّة مُشكلة من الأساس، أليس كذلك؟ كل ما أعرفه أنه ثمَّة قوَّة أخرى موجودة -أو كانت موجودة على الأقل عندما كنا أطفالًا- أرادت لنا البقاء على قيد الحياة وإتمام المهمة.. رُبَّما تلك القوَّة ما زالت موجودة»، ثم هزَّ كتفيه في إيماءة هزيلة، وأردف: «رؤيتكم اليوم جميعًا في الاجتماع أعطتني سببًا للتفاؤل. لقد ظننت أن اثنين أو ثلاثة منكم سيتغيَّبون عنا الليلة.. إما مفقودين أو موتى».
نظر ريتشي إلى ساعته: «إنها الواحدة والربع. كم يمضي الوقت سريعًا مع الصُحبة الجيِّدة، أليس كذلك يا كومة القش؟».
قال بن: «بيب-بيب يا ريتشي»، وابتسم بوهن.
سأل بيل: «بيڤرلي، أترغبين في السيِّر معي إلى فُندق تاون هاوس؟».
قالت بيڤرلي وهي تضع معطفها: «حسنًا». بدت المكتبة هادئة جدًّا، ومُخيفة، وتعُجُّ بالظلال. شعر بيل أن أحداث اليومين الأخيرين تُثقِل كاهله وتقبض قلبه دُفعة واحدة. لو كان ذلك مُجرَّد إنهاك، فليس ثمَّة مُشكلة،

لكنه ليس كذلك فحسب: إنه يشعر بنفسه تتداعى، كأنه في حُلم، ولا تنفك ضلالات جنون الارتياب عن مراودته. إنه يشعر بأنه مُراقب. فكَّر بيل: رُبَّما أنا لستُ هنا من الأساس. رُبَّما أنا في مصحَّة دكتور سيوارد للمجاذيب المُتاخمة لمنزل الكونت دراكيولا، ورا‌ينفيلد خادمه المُخلص في الزنزانة المجاورة مشغولٌ بذُبابه كما أنا مشغولٌ بوحوشي، وكلانا مُتيقِّن أن الحفلة ما زالت مُستمرَّة حقًّا، وقد ارتدينا الملابس اللائقة لها، وتلك الأخيرة ليست بزَّات سهرة رسمية بالتاكيد، بل قمصان مجانين.

- «ماذا عنك يا ر-ريتشي؟».

هزَّ ريتشي رأسه وقال: «سأدع كومة القش وكاسبراك يصطحباني إلى البيت، أليس كذلك يا صاحبي؟».

قال بن: «بالتأكيد»، واختلس نظرة إلى بيڤرلي التي كانت تقف قُرب بيل، وشعر بالألم القديم الذي نسيه تقريبًا. اختلجت ذكرى أخرى في عقله، وكاد أن يقتنصها، لكنها سبحت بعيدًا.

سأل بيل: «ماذا عنك يا مـ-مـ-مايك؟ هل تريد السير معي وبيڤ؟».

هزَّ مايك رأسه: «يجب أن...».

هنا صرخت بيڤرلي صرخة حادَّة عالية قطعت ذلك الصمت، والتقطتها القُبَّة العالية المُحدَّبة، فتردَّد صداها كصرخات قبيلة من جان البانشي تطير وتُرفرف حولهم.

التفت بيل إليها، وأسقط ريتشي سُترته الرياضية أرضًا وهو يأخذها من على ظهر المقعد، وترامى إلى آذانهم صوت تكسُّر زُجاج لأن ذراع إدي طاشت وطوَّحت زجُاجة چين فارغة في الهواء وأسقطتها أرضًا.

كانت بيڤرلي تتراجع مُبتعدة عنهم، وترفع يديها أمام وجهها الشاحب كالورقة البيضاء. جحظت عيناها في محجريهما الداكنين، وصرخت: «يداي! يداي!».

قال بيل: «ماذا...»، ثم رأى الدماء تقطر ببطء من بين أصابعها المُرتعشة.

تحرَّك بيل إليها وشعر فجأة بخيوط من الألم الدافئ في يديه بدوره. لم يكن الألم حارقًا، بل كان أشبه بالحكَّة التي تشعر بها أحيانًا مع الجروح القديمة المُلتئمة.

لقد انفتحت الندوب القديمة في راحتي يديه -تلك التي عاودت الظهور في إنجلترا- وراحت تدمى. نظر بيل حوله وشاهد إدي يُحملق في كفَّيه ببلاهة. كانا يدميان بدورهما، وكذا كفَّا مايك وريتشي وبن.

قالت بيڤرلي: «نحن متورِّطون إلى النهاية، أليس كذلك؟»، ثم بدأت تبكي. ضُخِّمَ صوت بُكائها أيضًا في صمت المكتبة الخاوية، وبدا أن المبنى ذاته ينتحب معها. شعر بيل أنه سيُجنُّ لو واصل الاستماع إلى ذلك الصوت مُدَّة طويلة. «فليكن الله في عوننا، نحن متورِّطون إلى النهاية». بكت بيڤرلي وسال خيطٌ من مخاط من أحد منخريها، فمسحته بظهر يدها المُرتعشة، وتقاطر مزيدٌ من الدم على الأرض.

- «سـ-سـ-سريعًا!». قالها بيل وأمسك بيد إدي.

- «ماذا...».

- «سريعًا!».

ثم مدَّ يده الأخرى في الهواء، وبعد لحظة التقطتها بيڤرلي دون أن تتوقَّف عن البكاء.

قال مايك: «أجل». بدا تائهًا ومُخدَّرًا تقريبًا، لكنه أردف: «أجل، هذا صحيح، أليس كذلك؟ لقد بدأ الأمر من جديد، أليس كذلك يا بيل؟ كل شيء يبدأ من جديد».

- «أ-أ-أجل، على ما أظنُّ...».

أخذ مايك يد إدي، وأخذ ريتشي يد بيڤرلي الأخرى. للحظات ظلَّ بن واقفًا يُحدِّق إليهم، ثم بعدها، رفع يديه الداميتين كرجُلٍ غارق في حُلمٍ عميق، ووقف بين مايك وريتشي ممُسكًا بيديهما.

أُغلقت الدائرة.

(آه.. تشود.. هذا طقس تشود. السُلحفاة لن تستطيع مُساعدتنا)

حاول بيل الصراخ لكن الصوت لم يُغادر حلقه. رأى رأس إدي يميل إلى الوراء، والعروق في رقبته تنتفخ. انتفض فخذا بيڤ بقوَّة، كأنها في نشوة جنسية قصيرة، وتحرَّك فم مايك بغرابة، وبدا أنه يضحك ويعبس في الوقت نفسه، وفي صمت المكتبة، فُتحت الأبواب وأُغلقت بدويٍ مُرتفع، وراح

الصوت يسري كصوت كُرات بولينج ثقيلة، وفي غُرفة الدوريات، طارت المجلّات وحامت في دوّامة بلا ريح، وفي مكتب كارول دانر، دبّت الحياة في الآلة الكاتبة وراحت تطبع:

شافالشبح

شافالشبحفشُده

وشحبوشكفيرُشدهفشطرالخشب

شافالشبحفُشدهوشحب

انحشرت الكُرة التي تطبع الحروف من السُرعة الهائلة، ثم احترقت الآلة الكاتبة وصدر عنها تجشُّؤ إلكتروني غليظ مع إنهاك كل أجزائها الداخلية.. ومن أحد الأقسام الأخرى في المكتبة، انقلب رفُّ كُتُب التنجيم والأسرار لافظًا كتابات إدجار كايس، ونوسترادامِوس، وتشارلز فورت، والأسفار الدينية المنحولة، في كل مكان.

شعر بيل بالقوَّة. لم يكن يعي بالكامل أن قضيبه مُنتصب، وأن كل شعرة في رأسه تنتصب مُستقيمة بدورها. كان الشعور بالقوَّة في الدائرة المُكتملة لا يُوصف.

صُفعت أبواب المكتبة جميعًا مُغلقة في آنٍ واحد.

دقَّت الساعة العتيقة المُعلَّقة خلف مكتب الاستقبال دقَّة واحدة.

ثم انتهى كل شيء، كأن أحدهم فصل التيَّار.

أرخوا أيديهم، ونظر أحدهم إلى الآخرين مُنبهرين. لم يتفوَّه أحدهم بشيءٍ، ومع انحسار الشعور بالقوَّة، شعر بيل بهلاكٍ مُريع يزحف عليه. نظر إلى وجوههم البيضا، المُنهكة، ثم خفض بصره إلى يديه. كان الدم مُتجلِّطًا عليهما، لكن الجروح التي أحدثها ستان بشظية زُجاجة كوكاكولا في أغسطس عام 1958 كانت قد التأمت ثانيةً، تاركة خلفها خطوط بيضاء مُلتوية كخيوطٍ معقودة. فكَّر بيل: كانت تلك آخر مرَّة اجتمعنا فيها نحن السبعة. ذلك اليوم الذي فتح فيه ستان تلك الجروح فينا في البرِّية. ستان ليس هنا، إنه ميِّت، وهذه آخر مرَّة سيجتمع فيها ستتّنا. أعرف ذلك. أشعر به.

كانت بيفرلي مُلتصقة وترتجف، ووضع بيل ذراعه حولها. نظر جميعهم

نحوه بأعينٍ مُتَّسعة تلتمع في العتمة. كانت المنضدة الطويلة التي يجلسون إليها والتي تتناثر عليها الزُجاجات والأكواب الفارغة ومنافض التبغ التي تفيض بأعقاب السجائر تبدو كجزيرة صغيرة من الضوء.

قال بيل بصوتٍ أجش: «هذا يكفي. لقد نلنا كفايتنا من التسلية الليلة. لندِّخر الرقص إلى وقتٍ آخر».

قالت بيڤرلي: «لقد تذكَّرت»، ثم نظرت إلى بيل بعينين مُتَّسعتين، ووجنتيها الشاحبتين مُبلَّلتين: «تذكَّرت كل شيء. اكتشاف والدي أمركم يا رفاق.. والركض.. وباورز وكريس وهاجنز.. وكيف ركضت هاربة. النفق... الطيور... الشَّيء... أتذكَّر كل شيء».

قال ريتشي: «أجل، وأنا أيضًا».

أومأ إدي مُضيفًا: «محطَّة الضخِّ...».

قال بيل: «وكيف استطاع إدي أن...».

قاطعهم مايك: «عودوا إلى الفندق الآن. ارتاحوا قليلًا. الوقت مُتأخِّر».

قالت بيڤرلي: «رافقنا يا مايك».

- «لن أستطيع. يجب أن أغلق المكان، ويجب أن أدوِّن بعض الأشياء. مُلخَّص الاجتماع. لن أستغرق وقتًا طويلًا، تفضَّلوا أنتم».

تحرَّك خمستهم قاصدين الباب دون كثيرٍ من الكلام. سار بيل وبيڤرلي معًا، وخلفهما إدي وريتشي، ثم بن. فتح بيل الباب لها فغمغمت شاكرة، وفي أثناء خروجها خاطية على مصاطب الجرانيت الواسعة، فكَّر بيل كم تبدو يافعة وهشَّة، وأدرك مذعورًا أنه قد يقع في حُبها مرَّة أخرى. حاول التفكير في أودرا، لكن أودرا بدت بعيدة جدًّا. لا بُدَّ أنها نائمة في منزلهما في فليت الآن، وأن الشمس تُشرق هناك، ويبدأ بائعو اللبن مرورهم.

تكدَّست الغيوم في سماء ديري، وغمر ضبابٌ أرضيٌّ كثيف مُنخفض أرض الشارع الخالي. أمامهم عبر الشارع، كان مبنى ديري المُجتمعي الطويل، الضيِّق، الڤيكتوري، مُسربلًا بالظلام. فكَّر بيل: أيًّا كان ما يجوب ردهات البيت المُجتمعي، فهو يجوبها وحيدًا. اضطر بيل أن يخنق كلماته، فقد بدا أن وقع أقدامهم عالٍ جدًّا. لمست يد بيڤرلي يده، فأخذها في يده بكل سرور.

قالت له: «لقد بدأ الأمر قبل أن نستعد له».

- «وهل كـ-كـ-كنا مُستعدين في أ-أ-أي وقتٍ مضى؟».

- «أنت كنت كذلك يا بيل الكبير».

فجأة، صارت لمستها رائعة وضرورية على حدٍ سواء. تعجَّب كيف ستكون لمسة نهديها للمرَّة الثانية في حياته، وشعر أنه قبل انتهاء هذه الليلة الطويلة سيعرف حتمًا. بالتأكيد صارا مُمتلئين وناضجين، وستتلمَّس يداه شعرًا عندما سيحضن انتفاخ جبل عانتها. فكَّر بيل: لقد أحببتك يا بيڤرلي، وما زلت أحبك، وبن أحبك، وما زال يُحبك. لقد أحببناكِ جميعًا آنذاك... وما زلنا نحبك الآن. ذلك أفضل لنا، لأن اللهو انقضى وبدأ الجدُّ. لا مناص الآن.

نظر بيل خلفه ورأى المكتبة على بُعد مبنيين. كان ريتشي وإدي على درجاتها العلوية، أما بن فيقف عند سفحها ينتظرهما. كانت يداه مدسوتين في جيبيه وكتفاه مُسترخيين، وجعلته عدسة الضباب الخفيض المُحرِّفة يبدو كأنه في الحادية عشرة من عمره ثانيةً. إذا كان في استطاعته التخاطر مع بيل عقليًا، كان سيخبره قائلًا: لا تنزعج يا بن. الحُب هو كل ما يهم.. التوق هو كل ما يهم، لا التوقيت. رُبَّما هذا فقط ما سنأخذه معنا عندما سنغادر هذا العالم وندلف إلى المجهول. تلك الراحة الباردة.. وهي أفضل من انعدام الراحة على الإطلاق حسبما أظنُّ.

قالت بيڤرلي فجأة: «كان أبي يعلم، لقد عُدت للمنزل في أحد الأيام ووجدته قد علم. هل أخبرتك من قبل ماذا كان يقول لي وهو غاضب؟».

- «ماذا؟».

قالت وهي تضحك وترتجف في الآن ذاته: «أنا أقلق عليك يا بيڤي، أقلق كثيرًا. هذا ما اعتاد قوله. أظنُّه كان يقصد إيذائي يا بيل. أعني، لقد آذاني كثيرًا من قبل، لكن المرَّة الأخيرة بدت مُختلفة. كان رجُلًا غريبًا في كثيرٍ من النواحي. لقد أحببته، أحببته كثيرًا، لكن...».

نظرت بيڤرلي إليه رُبَّما مُنتظرة أن يقولها نيابةً عنها. لكنه لن يفعل. هذا شيء يجب أن تفعله لنفسها بنفسها، عاجلًا أم آجلًا. إن الكذب وخداع النفس ثقلان لا تستطيع احتمالهما.

في النهاية قالت: «لقد كرهته»، ثم تشنَّجت يدها في يده بُرهة طويلة. «لم أبح بذلك لأحدٍ من قبل قط في حياتي. كنت أظنُّ أن الله سيسقطني ميِّتة في التوِّ إذا تفوَّهت بذلك بصوتٍ عالٍ».

– «قوليها ثانيةً إذًا».

– «لا، أنا...».

– «هيًا. لسوف يؤلمك قولها، لكنني أظنها تقيَّحت طويلًا في صدرك. الفظيها».

قالت بيڤرلي وقد بدأت تنشج بلا حول ولا قوَّة: «لقد كرهته.. كرهته، وكنت أخافه. لم أستطِع قط أن أكون فتاة جيِّدة بما يكفي بالنسبة إليه، ولهذا كرهته، لكنني أحببته أيضًا».

توقَّف بيل وأمسكها بإحكام. التفَّت ذراعاها حوله في ضمَّة مذعورة، وبلَّلت دموعها رقبته. كان واعيًا بجسدها الناضج المتماسك. حرَّك جذعه بعيدًا عنها قليلًا.. لم يكن يرغب في أن تستشعر الانتصاب الذي ينتابه، لكنها التصقت به ثانيةً.

قالت له: «لقد قضينا النهار هناك في البرِّية، نلعب المسَّاكة أو شيءٍ كهذا. مُجرَّد لهوٍ بريء. لم نتحدَّث حتَّى عن الشَّيءِ يومها، على الأقل ليس وقتها، رغم أننا كنا نتحدَّث عن الشَّيءِ كل يوم تقريبًا عند مرحلةٍ ما، أتذكُر؟».

قال لها: «أجل.. عند مرحلةٍ ما. أتذكَّر».

– «كان يومًا غائمًا، وحارًّا. قضينا مُعظم النهار في اللعب، وعدت إلى المنزل قرابة الحادية عشرة والنصف. ظننت أنني سأتناول شطيرة وصحنًا من الحساء قبل أن أستحم. ثم أعود وأواصل اللعب. كان من المُفترض أن كليهما في العمل. لكنه كان هناك.. في المنزل.. وقد...

2

جنوب الشارع الرئيس | الحادية عشرة والنصف صباحًا.

... ألقاها عبر الغُرفة قبل أن تعبر حتَّى عتبة الباب. صدرت عنها صرخة

مروَّعة قبل أن تُقطع مع اصطدامها العنيف بالجدار بقوَّة كاسحة خدَّرت كتفيها. انهارت فوق أريكتهم الهابطة، ونظرت حولها بشكلٍ عشوائي. أُغلق الباب الردهة الأمامية بصفعة هائلة، وكان والدها يقف خلفه.

قال لها: «أنا أقلق عليك يا بيڤي. أحيانًا أقلق كثيرًا. أنت تعرفين ذلك. أقولها لك كثيرًا، أليس كذلك؟ أنا مُتأكِّد من هذا».

– «بابا، ماذا...».

كان يسير ببطء نحوها عبر غُرفة المعيشة، بوجهٍ مُتجهِّم وحزين ومُميت. لم تكن ترغب في رؤية ذلك التعبير الأخير، لكنه كان موجودًا، كالتماع الطمي العكر على صفحة ماءٍ راكد. كان مارش يقضم عقلة أحد أصابع يده اليُمنى، وكان يرتدي سراويله الكاكية، وعندما نظرت إلى الأرض رأت أن فردتي حذائه تتركان آثارًا على بساط أمها. فكَّرت بعقلٍ مُشوَّش: يجب أن أُخرج المكنسة. يجب أن أكنس تلك الآثار. هذا إذا تركني قادرة على الكنس. إذا...

كانت الآثار طينًا أسود. غاص عقلها بشكلٍ مُقلق. كانت في البرِّية مع بيل وريتشي وإدي والآخرين، وكان هناك طين أسود لزج كالذي يعلق بحذاءي والدها، في منطقة المُستنقعات الآسنة حيث تنتصب الأشياء التي يدعوها ريتشي بالخزيران كبُستانٍ أبيض من عظام. مع هبوب الرياح، كانت السيقان الجوفاء تهتز مُحدثة أصواتًا كقرع طبول سحرة الڤودو. هل نزل والدها إلى البرِّية؟ هل رأى والدها...

ووووشش!

هبطت يده كالصاروخ ولطمتها على وجهها. ارتطم رأسها بالجدار. علَّق مارش إبهاميه في حزامه ووقف ينظر إليها بتعبير فضولٍ شاردٍ قاتل. شعرت بخيط دماء يسيل ساخنًا من رُكن شفتيها السُفلى الأيسر.

قال لها: «لقد رأيتك تكبرين». ظنَّت أنه سيضيف شيئًا آخر، لكن بدا ذلك كل شيءٍ في الوقت الحالي.

سألته بصوتٍ مُرتعش خفيض: «بابا، عمَّ تتحدَّث؟».

قال لها: «إذا كذبتِ عليّ، سأضربك حتَّى تشرفين على الموت يا بيڤي»، وهنا أدركت في رُعب أنه لا ينظر إليها، بل إلى الصورة المُعلَّقة على الحائط

فوق الأريكة. غاص عقلها بشكلٍ جنوني مرَّة أخرى.. ها هي في الرابعة من عُمرها، تجلس في حوض الاستحمام ومعها قارب بلاستيكي أزرق وصابون باباي، فيما يجلس والدها -الكبير جدًّا، المحبوب جدًّا- على الأرض جوراها مُرتديًا سراويل قماشية رمادية وتيشرت، ويمسك بمنشفة الوجه في يدٍ، وعصير برتقال بالصودا في اليد الأخرى، ويُرغِّي لها ظهرها بالصابون وهو يقول: دعيني أرى هذين الأذنين يا بيڤي، أمك تريد قطعتي بطاطس على العشاء. ها هي تسمع ذاتها الصغيرة وهي تضحك في مرح، وترفع نظرها إلى وجهه الأشهب قليلًا.. وجهه الذي كانت تعتقد وقتها أنه سرمديٌّ.

قالت له: «لن... لن أكذب يا أبي. ما الأمر؟».

كانت هيئته تهتز بفعل الدموع التي احتشدت في مُقلتيها.

- «هل نزلتِ إلى البرِّية مع مجموعة من الأولاد؟».

تواثب قلبها، وسقطت عيناها إلى فردتي حذائه المعجونتين بالطين.. ذلك الطين الأسود الدبق. إذا غرست قدمك عميقًا في ذلك الطين، فسوف يمتص حذاءك أو نعلك على الفور.. كان كلٌّ من ريتشي وبيل يؤمنان أنه إذا توغَّلت عميقًا فيه، فإنه يستحيل إلى طينٍ مُتحرِّك.

- «أنا ألعب هناك أحيـا...».

ووووشش\ اليد الخشنة تهبط كالصاروخ مُجدَّدًا. صرخت بيڤرلي مُتألِّمة ومذعورة. تلك النظرة التي تلوح على وجهه أرعبتها، والطريقة التي لا ينظر بها إليها أرعبتها بدورها. ثمَّة خطبٌ ما به. إنه يزداد سوءًا في كل مرَّة. ماذا لو أنه ينوي قتلها؟ ماذا لو

(أوه توقَّفي يا بيڤرلي، إنه أبوك، والآباء لا يقتلون أبناءهم)

كان قد فقد سيطرته على نفسه إذًا؟ ماذا لو...

- «بِمَ سمحتِ لهم فعله معك؟».

- «فعله؟ ماذا...»، لم يكن لديها أدنى فكرة عمَّ يتكلَّم.

- «اخلعي لباسك».

تعاظم ارتباكها.. لا شيء ممَّا يقوله يبدو مُرتبطًا بأيِّ شيءٍ منطقي، ومحاولتها لمُجاراته جعلتها تشعر بالسقم والغثيان.

- «ماذا؟... لماذا...؟».
ارتفعت يده، فأجفلت مُنكمشة: «اخلعيه يا بيڤي. أريد التأكُّد من أنكِ سليمة».
الآن تداعت إلى ذهنها صورة جديدة أكثر جنونًا من كل ما سبق: لقد رأت نفسها تخلع سراويلها الجينز، فتنخلع إحدى ساقيها معها. أبوها يجلدها بالحزام بطول الغُرفة وهي تتقافز مُبتعدة عنده على ساقها السليمة كاللُّقلق، وهو يصيح: كنت أعلم أنك غير سليمة! كنت أعلم! كنت أعلم!
- «بابا، لا أعلم ما...».
هبطت يده مُجدَّدًا، لكنها لم تصفعها هذه المرَّة، بل تشبَّثت بها، وانغرست عميقًا في كتفها بقوَّة كاسحة. صرخت الفتاة. جذبها مارش إلى أعلى، وللمرَّة الأولى نظر في عينيها مُباشرةً. صرخت بيڤرلي مُجدَّدًا ممَّا رأته في عينه. في الواقع، لم ترَ شيئًا على الإطلاق. لقد رحل أبوها عن هذا الجسد، وأدركت بيڤرلي فجأة أنها وحيدة في الشقَّة مع الشَّيءِ.. وحيدة مع الشَّيءِ في ذلك الصباح الناعس من شهر أغسطس. لم يكن له ذلك الحضور الكثيف الشرير الذي استشعرته في منزل شارع نيبولت منذ أسبوع ونصف، لقد خُفِّف حضور الشَّيءِ نوعًا بواسطة جبلة والدها الإنسانية.. لكنه هنا.. يعمل من خلاله.. يُحرِّكه.
ألقاها مارش جانبًا. اصطدمت بيڤرلي بطاولة القهوة وطاحت من فوقها، وتدحرجت على الأرض صارخة. فكَّرت بيڤرلي: هكذا الأمر إذًا. سأخبر بيل كي يفهم. إن الشَّيء في كل مكانٍ في ديري. إنه... إنه يملأ الفراغات بحضوره.
تدحرجت الفتاة أرضًا، فسار أبوها نحوها. انزلقت مُبتعدة عنه على مؤخِّرتها وشعرها يغشى عينيها.
قال لها: «أعلم أنك تذهبين إلى هناك. لقد أخبروني، لكنني لم أُصدِّق. لم أصدِّق أن صغيرتي بيڤي تتسكَّع مع مجموعة أولاد. ثم رأيتك بأم عيني هذا الصباح. صغيرتي بيڤي برفقة الصبيان. صغيرتي التي لم تبلغ الثانية عشر بعد تتسكَّع مع مجموعة من الأولاد!». بدا أن تلك الفكرة الأخيرة أجَّجت

ثورة غضب طازجة في أعماقه، وراح جسده العاجف يرتجف من وقعها وهو يصيح: «لم تبلغ الثانية عشرة بعد». ركلها في فخذها ركلة بشعة جعلتها تصرخ. ظلَّ فمه يمضغ تلك الحقيقة أو الفكرة كالكلب الجائع الذي يتشبَّث بقطعة من اللحم. «لم تبلغ الثانية عشرة بعد! الثانية عشرة! الثانية عشرة!».

ركلها ثانيةً. سارعت بيڤرلي مُبتعدة. كانا قد وصلا إلى المطبخ الآن. ضرب حذاء مارش طويل الرقبة الدُرج أسفل الموقد، ما جعل الأواني والمقالي تصلصل داخله.

قال لها: «لا تركضي مني يا بيڤي. من الأفضل لك ألا تركضي وإلا سيكون نهارك أسود. صدقيني يا بيڤي. صدقي والدك. الأمر جاد. التسكُّع مع الأولاد، والسماح لهم بأن يفعلوا بك ما لا يعلمه إلا الرب وأنت لم تبلغي الثانية عشرة بعد أمرٌ خطير، المسيح يعلم ذلك»، ثم أمسكها من كتفيها ونخعها موقفًا إياها على قدميها.

قال لها: «أنت فتاة جميلة. أشخاص كُثُر يُسعدهم التحرُّش بفتاةٍ جميلة، وفتيات جميلات كثيرات تُعجبها هذه الأمور. هل كنت فتاة ساقطة مع أولئك الأولاد يا بيڤي؟».

في النهاية فهمت بيڤرلي الفكرة التي زرعها الشَّيء في رأسه، إلا أن جزءًا منها كان يعلم أن تلك الفكرة رُبَّما كانت موجودة في عقله منذ زمنٍ طويل، وأن الشَّيءَ لم يفعل شيئًا سوى استخدام الأدوات المُبعثرة داخل رأسه التي تنتظر أن يلتقطها أحدهم.

- «لا يا بابا. لا يا بابا...».

صرخ فيها: «لقد رأيتك تدخنين!». هذه المرَّة لطمها براحة يده بقوَّة جعلتها تتراجع خلفًا إلى منضدة المطبخ بخطواتٍ مُترنِّحة ثملة، وهناك انبطحت وألمٌ حارق يسري في أسفل عمودها الفِقَري. سقطت قنينتا الملح والفلفل الأسود على الأرض. انكسرت قنينة الفلفل. تفتَّحت أزهارٌ سوداء وذبلت أمام عينيها. بدت الأصوات حولها أعمق من حقيقتها. رأت وجهه. ثمَّة شيءٍ في وجهه. إنه ينظر إلى صدرها. أدركت فجأة أن بلوزتها مفتوحة، وأنها لا ترتدي سوتيان، فإلى هذه اللحظة لم تكن تمتلك سوى حمَّالة صدر

رياضية واحدة. غاص وعيها عائدًا إلى منزل شارع نيبولت عندما أعطاها بيل تيشيرته.. لقد أدركت كيف كان نهداها يبرزان أسفل القماشة القطنية الرقيقة، لكن نظراتهم العابرة الرقيقة لم تُضايقها، بل بدت طبيعية تمامًا.. ونظرة بيل تحديدًا بدت أكثر من طبيعية... كانت دافئة ومرغوبة، وإن انطوت على خطورة عميقة.

الآن هي تشعر بالذنب الممزوج بالرُعب. هل أبوها بهذا السوء؟ ألم تنتابها

(كنت فتاة ساقطة معهم)

أفكارٌ بخصوصه؟ أفكارٌ سيئة؟ أفكارٌ عن كُل ما كان وأيًّا ما كان يتحدَّث عنه؟

كل هذا يختلف! كل هذا يختلف عن الطريقة التي

(كنت فتاة ساقطة)

ينظر إليَّ بها الآن! تختلف!

زرَّرت بيفرلي بلوزتها سريعًا.

- «بيفي؟».

- «بابا، نحن نلعب فحسب. هذا كل شيء. نلعب... لم نفعل أيَّ... أيَّ شيءٍ سيِّئ. إننا...».

قال لها ثانيةً وهو يسير نحوها: «لقد رأيتك تُدخِّنين». تحرَّكت عيناه على صدرها وفخذيها المُكتنزين عديمي المُنحنيات، ثم هتف فجأة بصوت تلميذ مدرسة أثار ذُعرها أكثر: «الفتاة التي تلوك اللادن ستُدخِّن السجائر! والفتاة التي تُدخِّن السجائر ستشرب الخمر! والفتاة التي تشرب الخمر.. الجميع يعرف ما قد تفعله فتاة كهذه!».

- «لم أفعل شيئًا!». هكذا صرخت فيه بينما يداه تهبطان على كتفيها. لم يكن يؤلمها أو يعصرها الآن. كانت يداه رقيقتين، وكان ذلك ما يُخيف أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

قال لها بمنطِّق رجُلٍ مُهوَّس لا يُمكن مُجادلته: «بيفرلي، لقد رأيتك مع أولاد. الآن أنت في حاجة إلى إخباري ما الذي تفعله الفتيات مع الأولاد في

مثل هذه الغابة القذرة باستثناء الأمور التي تفعلها الفتيات وهن مُستلقيات على ظهورهن؟».

صرخت فيه: «دعني وشأني!». تصاعد غضبها من بئرٍ عميقة لم تدرك وجودها من قبل. أشعل الغضب شُعلة صفراء ضارية إلى الزُرقة في رأسها، وهدَّد أفكارها. كل تلك الأوقات التي أثار ذُعرها فيها.. كل تلك الأوقات التي أشعرها بالخزي فيها.. كل تلك الأوقات التي أذاها فيها. «دعني وشأني فحسب!».

قال لها وقد بدا مشدوهًا: «لا تُحدِّثي أباكِ بهذه الطريقة».

– «لم أفعل ما تقوله! لم أفعله قط!».

– «رُبَّما، ورُبَّما لا. سأفحَّصك كي أتأكَّد. أعرف كيف أفعل ذلك. اخلعي لباسك».

– «لا».

اتَّسعت عيناه كاشفتين عن قرنيَّتين صفراوين تحيطهما قزحيَّتان زرقاوان، وهتف: «ماذا قُلتِ؟».

– «قلت لا».

كانت نظرته مُثبَّتة على عينيها، ولعلَّه لاحظ الغضب المُستعر والتمرُّد المُتزايد الساطع داخلهما.

– «من أخبرك».

– «بيڤي...».

– «من قال لك إننا نلعب هناك؟ أهو شخصٌ غريب؟ رجُل يرتدي حُلَّة بُرتقالية وفِضِّية؟ هل يرتدي قُفَّازين؟ هل يبدو كمُهرِّج حتَّى لو لم يكن مُهرِّجًا؟ ما اسمه؟».

– «بيڤي، توقَّفي...».

قالت له: «لا، بل أنت من يجب أن يتوقَّف».

طوَّح يده من جديد، ولم تكن مفتوحة هذه المرَّة بل مضمومة في قبضة تنتوي كسر شيءٍ ما. انحنت بيڤرلي مُتفادية إيَّاها. صفَّرت قبضته فوق رأسها وارتطمت بالجدار. جأر مارش وأفلتها واضعًا قبضته في فمه. تراجعت بيڤرلي مُبتعدة عنه بخطواتٍ رقيقة سريعة.

- «عودي إلى هنا!».
قالت له: «لا. أنت تريد إيذائي. أنا أحبك يا بابا، لكنني أكرهك عندما تكون بهذا الحال. لست من تفعل هذا، إن الشَّيءَ يُحرِّكك ويحرِّضك على الفعل.. لكنك من سمحت للشَّيءِ بالدخول».
قال لها: «لا أعلم عمَّ تتحدَّثين، لكن من الأفضل لك أن تعودي إلى هنا. لن أطلب منك ذلك مرَّة أخرى».
قالت له وقد بدأت تبكي: «لا».
- «لا تجبريني على المجيء وإحضارك إلى هنا يا بيڤي. ستكونين آسفة تمامًا إذا جعلتيني أفعل ذلك. تعالي!».
قالت له: «قل لي من أخبرك وسوف أقترب».
وثب إليها برشاقة قطٍّ وكاد أن يمسك بها رغم أنها توقَّعت مثل هذه القفزة. تلمَّست مقبض باب المطبخ، وسحبت الباب بما يكفي كي تتمكَّن من الانزلاق عبره، ثم راحت تركض عبر الرواق صوب الباب الأمامي.. تركض كأنها في كابوس مُريع، كما ستركض مذعورة من السيِّدة كيرش بعد سبعة وعشرين عامًا. من خلفها، اصطدم مارش بالباب، وصفعه مُغلقًا إيَّاه، مُسبِّبًا كسرًا في مُنتصفه.
عوى أبوها وهو يفتح الباب ويركض خلفها: «عودي إلى هنا حالًا يا بيڤي!».
كان الباب الأمامي مُغلقًا بالرتاج. لقد دخلت إلى المنزل من الباب الخلفي. راحت يدها المُرتعشة تعمل على القفل، بينما الأخرى تجذب المقبض دون جدوى.. ومن خلفها، جأر والدها من جديد بزئيرٍ
(اخلعي لباسك هذا أيَّتُها الساقطة)
حيواني. أدارت قفل المقبض فانفتح الباب الأمامي على اتِّساعه. اندفع النسيم الحار إلى حلقها. نظرت من فوق كتفها ورأته خلفها تمامًا، يمدُّ يده نحوها، ووجهه مشدودٌ في ابتسامة ملتوية، وأسنانه صفراء كبيرة كأفخاخ الدببة داخل فمه.
اندفعت بيڤرلي خارجة من الباب وشعرت بأصابعه تنزلق على ظهر

بلوزتها لكن دون أن تقبض شيئًا. طارت هابطة الدرج، وفقدت اتِّزانها. تدحرجت على الرصيف الأسمنتي، وجلطت كلتا رُكبتيها.

- «عودي إلى هنا يا بيڤي، وإلا أقسم بالله سأسلخ جلدك عن لحمك!».

هبط مارش الدرجات سريعًا، فنهضت مُتعثِّرة على قدميها، والثقوب بادية في ساقي سراويلها الچينز

(اخلعي لباسك)

ورُكبتاها داميتان ونهايات أطرافها العصبية المكشوفة تشدو «إلى الأمام أيُّها الجنود المسيحيون». نظرت خلفها فوجدته يندفع إليها ثانيةً.. آل مارش، الوصي والحارس، رجُلٌ كالح يرتدي سراويل كاكية وتيشيرت كاكي بجيبين في الصدر، وثمَّة حلقة مفاتيح مُعلَّقة بسلسلة في حزامه، وشعر رأسه مُتطايرٌ أشعث. لكن أباها لم يكن موجودًا.. لم تكن ذاته الحقيقية موجودة، تلك التي اعتادت أن تغسل لها ظهرها وهي صغيرة وتلكمها في معدتها عندما شبَّت لأنه يقلق كثيرًا عليها.. ذاته التي حاولت مرَّة أن تجدل شعرها في ضفيرة عندما كانت في السابعة من عمرها وأفسدتها بطريقة خرقاء، ثم أخذت تضحك معها من مظهرها الأشعث.. ذاته التي تعرف كيف تطهو شراب البيض بالقرفة في أيَّام الآحاد الذي مذاقه أفضل من أيِّ شيءٍ تستطيع ابتياعه من محل أيس كريم ديري مُقابل رُبع دولار.. ذاته الأبوية، بطلها الخارق، الذي يُحيِّرها أحيانًا بتلك الحالة الشبقة الأخرى التي تتلبَّسهُ. لم يكن أيًّا من ذلك يلوح في عينيه الآن. إنها ترى قاتلًا بارد الدم فيهما.. إنها ترى الشَّيءَ فيهما.

لذا فرَّت بيڤرلي هاربة.. هاربة من الشَّيءِ.

رفع السيِّد باسكال الذي كان يروي حديقته النامية المعشوشبة وهو يستمع إلى مُباراة فريق ريد سوكس من المذياع النقَّال الذي يضعه على سور الشُّرفة الأرضية بصره مشدوهًا. تراجع أولاد آل زينرمان عن سيَّارة هدسون هورنت العتيقة التي ابتاعوها نظير خمسة وعشرين دولارًا ولم ينفكُّوا عن غسلها يوميًّا تقريبًا. كان أحدهم يُمسك بخرطوم المياه، وآخر بالدلو الممتلئ برغاوي الصابون، وقد فغر كلاهما فاه. نظرت السيِّدة دنتون من نافذة شقَّتها في الدور الثاني وهي تضع رداء إحدى بناتها الست في حجرها والمزيد من ملابس التي

في حاجة إلى رتق في سلَّة على الأرضية، وفمها يمتلئ بالمشابك. سحب الصغير لارس ثارامينيوس عربته الصغيرة الحمراء سريعًا بعيدًا عن الرصيف المُشقَّق وخطا واقفًا في حديقة باكي باسكال المُحتضرة. انفجر الطفل باكيًا ما إن مرَّت بيڤي -التي أمضت معه نهارًا كاملًا في الربيع الماضي تُريه كيف يربط رباط حذائه جيِّدًا كي لا ينفك- مُندفعة من جواره، وهي تصرخ وعيناها جاحظتان. بعدها بلحظة، عبر والدها مُندفعًا جواره وهو يصيح بها، وقد رأى لارس -الذي كان بسنٍّ ثلاث سنوات وقتها، والذي سيموت بعدها باثني عشر عامًا في حادث درَّاجة نارية- شيئًا مُريعًا غير بشري في وجه السيِّد مارش. لقد انتابته الكوابيس لثلاثة أسابيع لاحقة. في تلك الكوابيس، شاهد لارس السيِّد مارش يتحوَّل إلى عنكبوت عملاقة بملابسه نفسها.

ركضت بيڤرلي. كانت تعي تمامًا أنها رُبَّما تفر بحياتها. إذا أمسكها والدها الآن، فلن يهمه أنهما في الشارع. يرتكب الناس أمورًا جنونية في ديري أحيانًا.. لم تكن بيڤرلي في حاجة إلى قراءة الجرائد أو الإحاطة علمًا بتاريخ المدينة الغريب كي تفهم ذلك. إذا أمسك بها الآن سوف يخنقها أو يضربها أو يركلها، وعندما سينتهي منها، سيأتي أحدهم ويقبض عليه، ولسوف يجلس في زنزانة كما جلس زوج أم إيدي كوركوران في زنزانته في حالة من الذهول وغياب الوعي.

ركضت الفتاة قاصدة وسط المدينة، عابرة من جوار المزيد من الناس في طريقها. حملق المارَّة فيها أوَّلًا، ثم في والدها الذي يتقفَّى أثرها، وبدا عليهم الاندهاش، بل بدا بعضهم مذهولًا.. لكن لم يُترجم هذا الشعور الذي لاح في وجوههم إلى أدنى ردَّة فعل. لقد نظروا إليها وإليها ثم مضوا إلى طريقهم لا يلوون على شيءٍ. صار الهواء الذي يدور في رئتيها أثقل الآن.

عبرت بيڤرلي القناة وقدماها تدقَّان فوق الملاط بينما السيَّارات تدمدم فوق جذوع الجسر الخشبية إلى يمينها، وفي اتِّجاه اليسار، استطاعت رؤية القوس الحجري الذي تجري القناة تحت المدينة من أسفله. انعطفت فجأة إلى الشارع الرئيس، غافلة عن نفير الأبواق وصرير المكابح. اتجَّهت يمينًا لأن البرِّية تقع في ذلك الاتِّجاه. كانت لا تزال على مسافة ميل كامل منها، وإذا

قُدِّر لها الذهاب إلى هناك سيكون عليها سبق والدها بطريقةٍ ما عبر مُرتفع تلَّة أب-مايل المُرهق أو واحد من الطُرق الجانبية الأكثر انحدارًا. لكن ما من بُدٍّ أمامها غير ذلك.

- «عودي أيَّتُها العاهرة الصغيرة، أنا أحذِّرك!».

ما إن وصلت إلى رصيف الطرف الآخر من الشارع، اختلست نظرة سريعة خلفها وتحرَّك وزن شعرها الأحمر الثقيل وهي تفعل ذلك. كان أبوها يعبر الشارع غير واعٍ بالسيَّارات المارَّة كما فعلت هي منذ قليل، ووجهه أحمر مُتعرِّق مُحتقن بالدماء.

انزوت مُختبئة في زقاقٍ يمتد خلف صفِّ المُستودعات. كانت في الجزء الخلفي من مباني المستودعات التي تصطف على واجهة تلَّة أب-مايل: ستار بيف، وأرمور ميتباكينج، ومخزن هيمفيل، وإيجل بيف، ولحوم الكوشر. كان الزقاق ضيِّقًا ومرصوفًا بالحجارة، وجعلته الصناديق المُتراكمة وصفائح القمامة التي ينبعث الدُخان منها أضيق. كان حجر الرصف زلقًا بفضلاتٍ وقذارة لا يعلم فحواها إلا الله. ثمَّة خليط من الروائح هنا، بعضها لطيف، وبعضها لاذع، وبعضها يزكم الأنوف.. لكن جميعها مصدرها اللحم والذبائح. كان الذباب يئز في سُحُبٍ صغيرة، ومن داخل بعض المباني استطاعت سماع أنين مناشير العظام المروِّع. تأرجحت قدماها بشكلٍ غير متساوٍ على الحجارة الزلقة. اصطدم فخذها بصفيحة قمامة مجلفنة، فسقطت حزمٌ من أمعاء ملفوفة في ورق جرائد منها كثمار غابة لحمية سميكة آتت أُكُلها.

- «عودي إلى هنا حالًا بحق الجحيم يا بيفي! أنا أعني ما أقول! لا تجعلي الأمور أسوأ ممَّا هي بالفعل يا فتاة!».

كان هناك رجُلان يتسكَّعان عند مدخل مستودع كيرشنر لأعمال التعبئة يلتهمان شطيرتين سميكتين، وسلَّتا غدائهما قريبتي المنال منهما. قال أحدهما باعتدال: «أنت في مكانٍ وضيع يا فتاة. يبدو أن والدك سيبرحك ضربًا»، فضحك الآخر.

كان مارش يقترب. إنها تسمع وقع خطواته المدوية وأنفاسه الثقيلة خلفها

تقريبًا الآن. بالنظر يمينًا استطاعت رؤية ظله الأسود يُحلِّق على طول السور العالي الذي يمتدُّ مطوِّقًا المكان.

ثم سمعت صيحته عندما انزلقت قدمه أسفله ووقع برطمة عالية فوق أحجار الرصف. بعدها بلحظة كان قد نهض. لم يعد يخور بكلمات مسعورة الآن، بل كان يصرخ فقط بغضبٍ هائج، في حين ما راح الرَّجُلان عند المدخل يضحكان ويصفع أحدهما الآخر على ظهره.

انحرف الزقاق إلى اليسار، فانزلقت بيڤرلي مُتوقِّفة وفمها مفتوحٌ في ذُعر. ثمَّة شاحنة قمامة ضخمة تسدُّ مدخل الزقاق. لم يكن يوجد سوى فُسحة فارغة بعرض تسع بوصات في كلا الجانبين. كان مُحرِّك الشاحنة الصاخب يعمل، وأسفل ذلك الصوت، استطاعت سماع شذرات حديثٍ مسموع بالكاد آتيًا من قمرة الشاحنة. مزيدٌ من الرجال في استراحة الغداء. باقي ثلاث أو أربع دقائق على منتصف الظهيرة؛ قريبًا ستدُقُّ ساعة المحكمة مُعلنة التوقيت.

سمعت بيڤرلي صوته يأتي ثانيةً. لقد صار قريبًا. ألقت نفسها أرضًا، وشقَّت طريقها أسفل الشاحنة مُستخدمة كوعيها ورُكبتيها المجروحتين. جعلتها رائحة العادم ووقود الديزل المخلوطة برائحة اللحم السمين تشعُر بغثيانٍ مريع. كان التقدُّم السهل الذي تحرزه زحفًا تحت الشاحنة أسوأ من ركضها المُرهق: إنها تنزلق فوق طبقة من الوحل وبقايا الذبائح بشكلٍ مُقزِّز، واصلت التحرُّك، ورفعت جسدها مرَّة واحدة من فوق أحجار الرصيف إلى ارتفاع جعل ظهرها يُلامس ماسورة عادم الشاحنة الساخنة، فاضطرت إلى أن تعُضَّ على صرختها لتكتمها.

– «بيڤرلي؟ هل أنت أسفل الشاحنة؟». كانت كل كلمة مفصولة عن الأخرى بشهيق مُتقطِّع. نظرت إلى الوراء والتقت عينيه عندما انحنى ليختلس النظر أسفل الشاحنة.

استطاعت أن تقول: «دعني... وشأني!».

ردَّ عليها بصوتٍ غليظ يخنقه اللعاب: «يا مومس».

انبطح مارش أرضًا، وصلصلت مفاتيحه، وبدأ يزحف خلفها بضربات غريبة من ذراعيه كأنه يسبح.

شقَّت بيفرلي طريقها زاحفة من أسفل قمرة الشاحنة، وأمسكت إحدى إطاراتها الضخمة واندعست أصابعها فيها بعُمق، ثم جذبت نفسها واقفة. ارتطمت فقراتها العصعصية بمُقدِّمة مصدَّ الشاحنة ثم راحت تجري من جديد صوب تلَّة أب-مايل الآن، وبلوزتها وسراويلها ملوَّثان بخليطٍ لزج وتفوح رائحتهما العفنة إلى عنان السماء. نظرت خلفها ورأت يدي والدها وذراعيه تخرج من أسفل قمرة الشاحنة كمخالب وحش وهمي تخرج من أسفل الفراش.

سريعًا، ودون أدنى تفكيرٍ على الإطلاق، اندفعت بيفرلي بين مستودع مخازن فيلدمان ومُلحق الأخوان تراكر. كان هذا الممر الضيق -الأضيق من أن يُدعى زُقاقًا- مليئًا بالصناديق الخشبية المكسورة وزهور عبَّاد الشمس والأعشاب البرِّية.. وبلا ريب، المزيد من القمامة. غاصت بيفرلي خلف كومة من الصناديق وربضت هناك. بعدها بلحظات رأت والدها يجتاز مدخل الممر، ويكمل طريقه صاعدًا التلَّة.

نهضت بيفرلي وأسرعت إلى طرف الممر الآخر. ثمَّة سياج من أسلاك مُتشابكة هنا. تسلَّقته بيفرلي وعبرت قمَّته وشقَّت طريقها في الجانب الآخر. إنها تمشي الآن في أرض ملك معهد ديري لتعليم اللاهوت. ركضت الفتاة عبر الحديقة الخلفية المُشذَّبة بعناية ودارت مع جدار المبنى. استطاعت أن تسمع شخصًا بالداخل يعزف مقطوعة كلاسيكية على الأرغن. كانت النغمات تنقش روح صانعها المُطمئنَّة على الهواء الساكن.

وجدت بيفرلي أن سياج أشجار طويل يفصل حديقة المعهد عن شارع كانساس. اختلست النظر من فرجة فيه ورأت أن والدها يقف على الجهة الأخرى من الشارع، يلتقط أنفاسه بصعوبة، ولُطخ العرق تُغرق أسفل إبطيه. كان ينظر حوله باحثًا وهو يضع يديه في خصره، وحلقة مفاتيحه تبرق مُلتمعة في ضوء الشمس.

راقبته بيفرلي وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة بدورها، وقلبها يخفق بين ضلوعها ويدق في حلقها سريعًا كأنه قلب أرنب. كانت عطشى جدًّا، وأثارت رائحتها الكريهة اشمئزازها، ووجدت نفسها تُفكِّر: إذا كنت إحدى شخصيات القصص المصوَّرة، لوضع الرسَّام خيوط رائحة كريهة متصاعدة مني.

عَبَر والدها الشارع ببطء قاصدًا جهة المعهد.

كتمت بيڤرلي أنفاسها.

أرجوك يا الله، لم أعد أستطيع الركض أكثر من ذلك. ساعدني، لا تدعه يعثر عليّ.

سار آل مارش ببطء بطول الرصيف، عابرًا مُباشرةً أمام البُقعة التي تربض فيها ابنته مُختبئة على الجهة الأخرى من سياج الأشجار.

يا عزيزي يا الله، لا تدعه يشتم رائحتي!

وبالفعل لم يشم مارش رائحتها، رُبَّما لأنه بعد تعثُّره في الزقاق وزحفه أسفل الشاحنة، كانت رائحته بنفس سوء رائحتها، واصل الأب مسيره. راقبته بيڤرلي وهو يبتعد رجوعًا عبر تلَّة أب-مايل إلى أن اختفى عن ناظريها.

جمعت بيڤرلي شتات نفسها ببطء. كانت ملابسها مُغطَّاة بالقمامة، ووجهها مُتَّسخًا، وظهرها يؤلمها حيث أحرقتها ماسورة عادم شاحنة القمامة. لكن هذه المُنغِّصات الجسدية تلاشت أمام دوَّامة أفكارها المُضطربة. كانت تشعر أنها أبحرت إلى حافَّة العالم، ولم تعد أيٌّ من أنماط السلوك الطبيعية تنطبق على حالتها. لم تكن تتخيَّل كيف ستعود إلى المنزل، ولم تكن تتخيَّل كيف ألَّا تعود. لقد تحدَّت والدها، وقفت أمامه وتحدَّته...

يجب عليها إبعاد هذه الفكرة عن خاطرها لأنها تُشعرها بالضعف والارتباك والسقم الشديد. لقد أحبَّت والدها.. ألا تنص إحدى الوصايا العشر أن: «أكرم أباك وأمك كي تطول أيَّامك على الأرض»؟ أجل. لكن ذلك لم يكن هو.. لم يكن ذلك والدها، بل شخصٍ مُغاير تمامًا.. مُنتحل.. شيء.

فجأة سرت رعدة في جسدها عندما تجلَّى سؤالٌ مُريع لها: هل حدث شيءٌ مُشابه له؟ يجب أن تُحذِّرهم. لقد أذوا الشَّيءَ، ومن المُحتمل أن الشَّيءَ الآن يأخذ احتياطه ليطمئن أنهم لن يستطيعوا إيذاءه مرَّة أخرى، وبالفعل، إلى من آخر ستستطيع اللجوء؟ إنهم الأصدقاء الوحيدون الذين حظت بهم. بيل من سيعرف ما يجب فعله. بيل سيخبرها بما يجب عليها فعله. بيل سيمدها بالخطوة القادمة الصحيحة.

وقفت في البقعة التي يلتقي فيها ممشى المعهد بشارع كانساس ونظرت

عبر فرجة الأشجار. لقد رحل أبوها بالفعل. انعطفت إلى اليمين وبدأت في السير بطول شارع كانساس نحو البرِّية. غالبًا لن يكون أيُّهم هناك حاليًا.. سيكونون في المنزل، يتناولون غداءهم. لكنهم سيعودون. في هذه الأثناء، تستطيع الالتجاء إلى مقرِّ النادي لتحاول السيطرة على ذاتها ونفض هذا الروع بعيدًا عنها. ستترك النافذة الصغيرة مفتوحة على اتِّساعها كي تحظى بقليلٍ من ضوء الشمس، وقد تحظى حتَّى ببعض النوم. تشبَّث جسدها المُتعب وعقلها المُستنزف بهذه الفكرة بلهفة. النوم، أجل، يا لها من فكرة جيِّدة.

سقطت رأسها وهي تتهادى بخطى مُتثاقلة مُجتازة آخر مجموعة من المباني قبل انحدار الأرض بشدَّة بحيث يستعصى بناء منازل عليها، وغاصت إلى البرِّية. البرِّية التي بقدر ما بدت رائعة في نظرها، كان والدها يكمن فيها ويتجسَّس عليها.

بالتأكيد لم تسمع وقع الخطوات خلفها. فأولئك الأولاد كانوا يتجشَّمون صعابًا جمَّة ليبقوا هادئين. لقد سُبقوا من قبل، ولم يكن في نيَّتهم أن يُسبقوا ثانيةً. راحوا يقتربون أكثر فأكثر، سائرين بحذرٍ كالقطط. كان بيلش وڤيكتور مُبتسمين، لكن وجه هنري كان شاغرًا من التعبير وجادًّا في الوقت نفسه. كان شعره مُشعَّثًا، وعيناه زائغتين كما كانت عينا آل مارش في الشقَّة. رفع هنري إصبعًا قذرًا أمام شفتيه في إيماءة "صَهٍ"، في حين ما كانوا يقصِّرون المسافة التي تفصلهم عنها من سبعين قدمًا إلى خمسين ثم ثلاثين.

خلال ذلك الصيف، كان هنري على شفا هاوية عقلية ما. كان يخطو فوق جسرٍ يضيق أكثر فأكثر دون انقطاع. في ذلك اليوم الذي سمح فيه هنري لباتريك هوكستيتر بمُداعبته، ضاق هذا الجسر إلى أن صار حبلًا مشدودًا، وقد قُطِعَ هذا الحبل هذا النهار. لقد خرج إلى الفناء عاريًا باستثناء لباسه الداخلي الأصفر الممزَّق، ونظر إلى السماء. إن شبح قمر الليلة الماضية ما زال يتسكَّع في السماء، وفيما كان ينظر هنري إليه تبدَّل وجه القمر فجأة وصار وجهًا مُبتسمًا ناتئ العظام. خرَّ هنري ساقطًا على رُكبتيه أمام الوجه، خاشعًا من الرُعب والبهجة. تحدَّثت إليه أصواتٌ شبحية من القمر. راحت الأصوات تتبدَّل، وبدت أحيانًا كمن تُدمج معًا في ثرثرة ناعمة مفهومة بالكاد، لكنه

استشعر حقيقة واضحة بسيطة. كل تلك الأصوات في جوهرها صوتٌ واحد، يأتي من ذكاءٍ واحد. أخبره الصوت أن يقابل بيلش وڤيكتور وأن يذهبوا إلى ناصية شارع كانساس مع جادة كوستيلو في حدود الظهيرة. أخبره الصوت أنه سيعرف ما ينبغي عمله وقتها، وبالفعل، جاءت العاهرة الصغيرة تتبختر سيرًا في الطريق. انتظر هنري سماع ما سيخبره به الصوت تاليًا، وقد جاءه الجواب وهم يقلِّصون الفجوة التي تفصلهم عنها. لم يأتِ الصوت من القمر هذه المرَّة، بل من مصرف المجاري الذي عبروا من جواره. كان الصوت خفيضًا لكنه واضح. نظر بيلش وڤيكتور نحو المصرف بذهول كالمنومين إيحائيًّا تقريبًا، ثم أعادا ناظريهما إلى بيڤرلي مُجدَّدًا.

اقتلوها. هذا ما قاله الصوت الخارج من المجرور.

مدَّ هنري باورز يده إلى جيب سراويلة الچينز وأخرج أداة ناعمة طولها تسع بوصات مُطعَّمة بعاج مُقلَّد على جانبيها. يوجد زر معدني يلتمع عند أحد أطراف تلك القطعة الفنِّية المُريبة. ضغط هنري الزر. اندفع نصلٌ طوله ستٌّ بوصات من الشق المفتوح في نهاية المقبض. حرَّك الفتى المدية في راحة يده، وبدأ يزيد من سُرعته قليلًا. زاد كلٌّ من ڤيكتور وبيلش من سُرعتهما لمواكبته، وهما ما زالا في حالة ذهول.

لم تسمع بيڤرلي اقترابهم منها بالضبط.. لم يكن ذلك ما جعلها تُدير رأسها في الوقت المُناسب لترى أن هنري باورز صار قريبًا جدًّا. كان هنري يقترب مُنحني الرُكبتين بصمت ورشاقة هنديٍّ أحمر وابتسامة مُجمَّدة تعلو وجهه. لا لم يكن ذلك السَّبب، بل كان مُجرَّد شعور واضح ومباشر وقوي جدًّا بحيث يصعب إنكاره. ذلك الشعور بـ...

3

مكتبة ديري العامَّة| الواحدة وخمس وخمسون دقيقة صباحًا.

... أن تكون مُراقبًا.

وضع مايك هانلون قلمه جانبًا ونظر إلى وعاء حجُرة المكتبة الرئيسة

المقلوب.. القُبَّة الغامضة. شاهد جُزُر الضوء التي تصنعها المصابيح الكروية المُعلقَّة، شاهد الكُتب المُستترة في العتمة، شاهد السلالم الحديدية بلوالبها الرشيقة المُتعرِّشة التي تصل إلى أكداس الكُتب العلوية. كل شيءٍ في مكانه.

وبرغم ذلك، لم يشعر بأنه وحده في المكان. ليس بعد الآن.

عندما رحل الآخرون، نظَّف مايك المكان بعناية بالغة أكثر من المعتاد. كان يعمل بشكل ميكانيكي، وعقله على بُعد ملايين الأميال، ويغوص سبعة وعشرين عامًا في الماضي. أفرغ منافض التبغ، وألقى بزُجاجات الخمر الفارغة وعبوَّات الصفيح في صندوقٍ خلف مكتبه (مُغطِّيًا إيَّاها بطبقة من المُخلَّفات حتَّى لا تُصدم كارول عندما تأتي في الصباح).. ثم أحضر المقشَّة وكنس بقايا زُجاجة الجِن التي كسرها إدي.

عندما انتهى من تنظيف المنضدة، ذهب إلى غُرفة الدوريات وجمع المجلَّات المُتناثرة.. وبينما كان ينجز هذه المهام البسيطة، راح عقله يغربل القصص التي سردوها الليلة، مُركِّزًا أكثر على ما أغفلوه منها. لقد بدأوا يؤمنون أنهم تذكَّروا كل شيء، وهو يظنُّ أن بيل وبيڤرلي تذكَّرا معظم ما حدث بالفعل، لكن مزيدًا من الأمور ما زال مُختبئًا. سيتذكَّرون كل شيء بالتأكيد... فقط إذا أتاح لهم الشَّيء الوقت الكافي لذلك. في عام 1958، لم تُسنح لهم فُرصة للتأهُب. لقد تحدَّثوا إلى ما لا نهاية آنذاك –في الواقع لم يحدث أن كفُّوا عن الحديث إلا في مناوشة الحجارة المروِّعة وبطولتهم الجماعية داخل المنزل رقم 29 في شارع نيبولت– ورُبَّما لم يفعلوا شيئًا في النهاية أكثر من الكلام. ثم جاء يوم الرابع عشر من أغسطس، حين طاردهم هنري وعصابته في شبكة المجاري.

فكَّر مايك وهو يضع آخر المجلَّات في أماكنها: رُبَّما كان عليّ إخبارهم بالباقي. لكن صوتًا داخله عارض الفكرة بقوَّة.. عقيرة السُلحفاة، هكذا افترض. رُبَّما كان ذلك جزءًا من الأمر، ورُبَّما ذلك الشعور بأن كل شيء يُعاد من جديد جزء منه أيضًا. رُبَّما ستتكرَّر المواجهة الختامية، لكن بنسخة مُحدَّثة. لقد وضع خوذات المناجم والمصابيح اليدوية في الخِزانة تحسُّبًا للغد، كما يحتفظ بمُخطَّطات شبكة مصارف ديري وصرفها الصحي ملفوفة

بعناية ومربوطة بأربطة مطَّاطية في الخِزانة نفسها. عندما كانوا أطفالًا، كل ما أنفقوه من كلام وجميع ما خطَّطوا له على عجالة أو برويَّة، لم يُترجم إلى شيءٍ في نهاية المطاف، لأنهم في النهاية نزلوا إلى المصارف مُطاردين، وأُلقوا إلقاءً إلى المواجهة التي تلت ذلك. هل سيتكرَّر ذلك ثانيةً؟ لقد بدأ يصدِّق أن الإيمان والقوَّة وجهان لعملة واحدة. ترى هل الحقيقة الشاملة بسيطة في مفهومها بدورها؟ هل فعل الإيمان لا يحدث إلَّا إذا دُفعت دفعًا بقسْوة إلى مُعترك الأمور، كالطفل الوليد الذي يُدفع من رحم أمه؟ ثم ما إن تسقط من الرحم، تجد نفسك تتقبَّل ذلك العالم الذي أتيت إليه لتوّك والذي لم تكن تعلم عنه شيئًا من قبل؟ وتكون صرختك الأولى -بطريقة أو بأخرى- بمثابة احتجاجك الأخير؟

يا للمسيح، لقد بدأ يعظ كأنه فولتون شين[1] نفسه، إذا وضع مساحيق تجميل تجعله يبدو زنجيًّا. هكذا فكَّر مايك، وضحك قليلًا.

راح مايك يُنظِّف ويُرتِّب ويُفكِّر، في حين كان جزءٌ آخر من عقله يتوقَّع أنه عندما سينتهي من عمله سيكون مُتعبًا بما فيه الكفاية وسيذهب إلى داره لينام بضع ساعات.. لكنه وجد نفسه مُستيقظًا تمامًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى عندما انتهى. لذا ذهب إلى القسم المُغلق في خلفية مكتبه، وفتح البوَّابة الحديدية بمفتاح ضمن مفاتيحه ودخل. هذا الجزء -الذي يُفترض أنه مضاد للحريق ما دام الباب مُغلقًا- كان يحتوي أقيم مجموعة من الإصدارات الأولى في المكتبة.. كُتُب وقَّعها كُتَّاب ماتوا منذ زمن طويل (كان من ضمن الكُتُب الموقَّعة نسخة من رواية موبي ديك وديوان أوراق العُشب لويتمان)، ووثائق تاريخية مُتعلِّقة بالبلدة، ومُذكِّرات شخصية لعدد قليل من الكُتَّاب القلائل الذين عاشوا وعملوا في ديري. كان مايك يأمل، إذا انتهت الأمور بشكلٍ جيِّد، أن ينجح في إقناع بيل أن يهدي مخطوطاته الروائية لمكتبة ديري العامَّة. فكَّر مايك وهو يسير في الممرِّ الثالث أسفل المصابيح المُظلَّلة بالقصدير،

(1) فولتون جون شين (1895-1979): أُسقُف أمريكي من الكنيسة الكاثوليكية اشتهر بالوعظ في الإذاعة والتليفزيون.

وهو يشمُّ روائح المكتبة المألوفة التي هي خليط من غبار وعفونة ورائحة قرفة مصدرها الأوراق الشائخة: عندما سأموت، أعتقد أنني سأنزل إلى القبر وفي يدي بطاقة استعارة مكتبة، وفي اليد الأخرى ختم التأخير. حسنًا، لا بأس في ذلك، فثمّة طُرُق أسوأ كثيرًا للموت.

توقَّف مايك في منتصف الممرِّ الثالث. كان الدفتر المُجعَّد الذي يضم جولات ترحاله المُضطربة وحكايات ديري التي دوَّنها على عُجالة مدسوسًا بين مُجلَّد بلدة ديري القديمة لفرايك وتاريخ ديري لميشو. كان قد دسَّ الدفتر عميقًا لدرجة أنه لم يكن مرئيًّا تقريبًا. لا أحد يستطيع العثور عليه إلا إذا كان يبحث عنه.

أخذه مايك وسار عائدًا إلى المنضدة التي كانوا يجتمعون حولها، وتوقَّف ليغلق المصابيح ويعيد إحكام غلق البوَّابة الحديدية. جلس مايك وراح يُقلِّب الأوراق التي خطَّها بيده وهو يُفكِّر: يا لها من إفادة خطِّية جسيمة: بعضها تاريخ، وبعضها تشهير، وبعضها مُذكِّرات، وبعضها اعترافات. إنه لم يدوِّن شيئًا منذ السادس من أبريل. يجب أن أحصل على دفتر جديد قريبًا، هكذا فكَّر وهو يقلِّب الصفحات الفارغة المُتبقِّية. فكَّر مُشوَّشًا للحظات في مُسوَّدة مارجريت ميتشل الأولى لرواية ذهب مع الريح، التي كتبتها في لونجهاند على أكوام وأكوام من الكتب المدرسية، ثم نزع الغطاء عن قلمه وخطَّ 31 مايو بعد سطرين من آخر تدوينة. بعدها توقَّف، وأشاع بصره بغموض في جنبات المكتبة الفارغة، ثم بدأ في الكتابة عن كل ما جرى في الأيام الثلاثة الماضية، بِدءًا من مُكالمته الهاتفية مع ستانلي يوريس.

ظل يكتب سريعًا قرابة ربع الساعة، ثم أخذ يفقد تركيزه. توقَّف كثيرًا، وحاولت صورة رأس ستان يوريس المقطوع في الثلاجة تشتيته. الرأس الدامي، ذو الفم المفتوح المليء بالريش، الذي سقط من الثلَّاجة وتدحرج على الأرض في اتِّجاهه. بذل مايك جهدًا لطرد الفكرة بعيدًا عن عقله وواصل الكتابة. بعد خمس دقائق انتفض مُعتدلًا ونظر حوله، مُقتنعًا أنه سيرى الرأس المُتدحرج قادمًا إليه عبر بلاط الحُجرة الرئيسة الأبيض والأحمر.. عيناه زُجاجيَّتان وحادَّتان كعيني رأس ظبيٍ مُعلَّق في حُجرة غنائم.

لكنه لم يرَ شيئًا. لا رأس ولا صوت، باستثناء دقَّات قلبه المكتومة.

يجب أن تستجمع شتات نفسك يا مايكي. إنها ضلالات لا أكثر.

لكن ذلك لم يفلح في تهدئته. بدأت الكلمات تراوغه، وبدا أن الأفكار بعيدًا عن متناوله. شعر بثقلٍ غريب في مؤخِّرة عُنُقه، وبدا له أنه ينمو.

أن تكون مُراقبًا.

وضع مايك القلم جانبًا ونهض بعيدًا عن المنضدة وصاح: «هلْ من أحدٍ هنا؟». ارتدَّ صوته عن جدران القاعة المُستديرة عائدًا إليه وأصابه بقشعريرة. لعق مايك شفتيه وحاول مُجدَّدًا: «بيل؟... بن؟».

بيل-بيل-يل-ل... بن-بن-ن-ن..

فجأة قرَّر أنه يريد العودة إلى المنزل. سيأخذ الدفتر معه وسيكمل هناك. مدَّ مايك يده إليه، وسمع وقع خطوة مُنزلقة خافتة.

نظر إلى أعلى مرَّة أخرى. لا شيء سوى برك الضوء المُحاطة ببُحيرات ظلالٍ عميقة. على الأقل ليس هناك شيء يستطيع رؤيته. انتظر مايك وقلبه يخفق بقوَّة.

سمع وقع الخطوة من جديد، وهذه المرَّة استطاع تحديد موقعها بدقَّة. الممرَّ الزجاجي الذي يربط مكتبة الكبار ومكتبة الأطفال. ثمَّة شخصٌ ما هناك.. أو شيءٌ ما.

بهدوء، عبر مايك الغرفة مُتَّجهًا إلى مكتب الاستقبال. كان الباب المزدوج الذي يُفتح على الممرِّ مفتوحًا بواسطة أوتادٍ خشبية، واستطاع رؤية ما ورائه نوعًا ما. رأى شيئًا يُشبه القدم، وبهلع مُفاجئ تساءل عمَّا إذا كان ستان قد جاء بعد كل شيء.. رُبَّما سيخرج من الظلال مُمسكًا بكتاب الطيور، ووجهه أبيض شاحب، وشفتاه أرجوانيتان، ومعصماه وساعداه مقطوعان. سيقول ستان: لقد أتيت أخيرًا. تأخَّرت قليلًا لأنني خرجت من حُفرة في مقبرة، لكنني أتيت أخيرًا.

سمع مايك خطوة أخرى، قبل أن يتأكَّد من رؤية فردتيّ حذاء وساقيّ سراويل قماشية رثَّة. ثمَّة خيوط زرقاء باهتة مُعلَّقة فوق كاحلين لا جوارب فيهما.. وعبر الظلام، رأى مايك عينين لامعتين تعلوان ستَّة أقدام على تينك الكاحلين.

تمسَّك مايك بحافَّة مكتب الاستقبال نصف الدائرية وسار مُتلمِّسًا طريقه إلى الجانب الآخر من دون أن يرفع نظرته عن هاتين العينين. لمست أصابعه صندوقًا خشبيًّا صغيرًا.. هذا صندوق الاستعارات المُتأخِّرة.. ثم لمست صندوقًا آخر أصغر مليء بمشابك الورق والأربطة المطَّاطية، قبل أن تقع في النهاية على جسمٍ معدني وتستولي عليه. إنها فتَّاحة الرسائل المدموغ على مقبضها عبارة: يسوع هو المُخلِّص. كانت أداة واهية جاءت بالبريد من كنيسة نعمة المعمدان كجزء من حملة جمع تبرُّعات. لم يذهب مايك إلى الكنيسة منذ خمسة عشر عامًا، لكن تلك الكنيسة كانت كنيسة أمه، وقد أرسل إليهم خمسة دولارات أضلعته وقتها، وعزم على التخلُّص من فتَّاحة الرسائل، لكنها بقيت وسط الفوضى التي تعم جانبه من المكتب (كان جانب كارول مُهندمًا وأنيقًا دائمًا).

أمسك مايك بالفتَّاحة بإحكام، وحملق في المدخل الغارق في الظلال.

خطوة أخرى، ثم أخرى. الآن صارت السراويل القماشية الرَّثة بائنة للعيان إلى الرُكبتين. استطاع رؤية جسم من تنتمي إليه هاتان الساقان: كان ضخمًا، عملاقًا، عريض المنكبين، وشعره مُجعَّدًا خشنًا. كان جسمًا شبيهًا بالقرد.

- «من أنت؟».

وقف الشكل مكانه دون حراك، وراح يتأمَّله.

برغم أنه كان لا يزال خائفًا، لم يعد مايك يظن أن القادم هو ستان يوريس العائد من القبر كزومبي من أحد أفلام هامر استدعته قوَّة الندوب المشؤومة على راحتيّ يديه. أيًّا ما كان القادم، فهو ليس صديقه ستان يوريس الذي توقَّف نموُّه في ذاكرته عند طول خمسة أقدام وسبع بوصات.

تقدم الشكل خطوة أخرى، والآن سقط ضوء المصابيح الكروية القريبة من الممرِّ على سراويله الچينز التي بلا حِزام.

فجأة عرف مايك ماهية القادم.. عرفها حتَّى قبل أن يتكلَّم الشكل.

قال الشكل: «مرحبًا أيُّها الزنجي. هل ألقيت حجارة على أحدهم مؤخَّرًا؟ أتريد معرفة من سمَّم كلبك اللعين؟».

تقدَّم الشكل خطوة أخرى ودخل إلى دائرة الضوء. أضاءت المصابيح

وجه هنري باورز. لقد سَمِن وترهَّل، وصارت لبشرته مسحة لونية غير صحية. تدلَّت الوجنتان وتناثر عليهما شعر لحية مُشعَّث خفيف فيه من الأبيض قدر ما فيه من الأسود. ثلاث تجاعيد عميقة محفورة في جلد الجبهة فوق الحاجبين الكثَّين. خطوط أخرى صنعت أقواسًا في زوايا الفم كبير الشفتين. العينان شريرتان وصغيرتان وغائرتان في محجرين تغيَّر لون لحمهما، وهما حمراوان وزائغتان. هذا وجه رجُل شاخ قبل أوانه، رجُل في التاسعة والثلاثين من عمره، وعلى وشك بلوغ الثالثة والسبعين.. لكنه كان أيضًا وجه صبي في الثانية عشرة. كانت ملابس هنري ما زالت مُتَّسخة بمسحة خضراء من الشجيرات التي أمضى اليوم مختبئًا بينها.

سأل هنري: «ألن ترد السلام أيُّها الزنجي؟».

- «مرحبًا يا هنري». أدرك مايك أنه لم يستمع إلى الراديو خلال اليومين الماضيين، وأنه لم يقرأ الجريدة، وهو الطقس الذي لم يكن يغفل عنه. أشياء كثيرة تحدث.. إنه مشغول جدًّا.

للأسف.

خرج هنري من الرواق الذي يفصل مكتبة الأطفال عن مكتبة الكبار، ووقف ينظر إلى مايك بعينين نهمتين، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة لا توصف بشاعتها كاشفة عن صفٍّ أسنانٍ فاسدة.

قال هنري: «الأصوات. هل سمعت الأصوات من قبل أيُّها الزنجي؟».

- «عن أيِّ أصواتٍ تتحدَّث يا هنري؟»، هكذا سأله مايك وهو يضع يديه خلف ظهره كتلميذٍ استُدعيَ كي يقرأ أمام الفصل، لينقل فتَّاحة الرسائل من يده اليُسرى إلى اليُمنى. راحت الساعة العتيقة التي تبرَّع بها هورست مولر للمكتبة عام 1923 تحصي الثواني بمهابة وسط بركة الصمت التي تلفُّ جنبات المكتبة.

قال هنري وهو يضع يده في جيبه: «من القمر. إنها تأتي من القمر. أصوات كثيرة»، ثم توقَّف، وقطَّب جبينه قليلًا، قبل أن يهز رأسه مُردفًا: «أصوات كثيرة لكنها في الحقيقة صوتٌ واحد.. صوت الشَّيءِ».

- «هل رأيت الشَّيءَ يا هنري؟».

قال هنري: «أجل. إنه فرانكنشتاين. لقد اقتلع رأس ڤيكتور.. كان يجب أن تستمع إلى ذلك الصوت. بدا صوتها كسحَّابِ عملاق ضخم يُسحب بقوَّة.. بعدها طارد الشَّيء بيلش.. وقد قاومه بيلش».

- «أفعل؟».

- «أجل. هكذا تمكَّنت من الهرب».

- «وتركته يموت».

- «لا تقل هذا!!». قالها هنري واشتعلت وجنتاه بدماءٍ قانية. خطا خطوتين إلى الأمام. مع كل خطوة راح يخطوها مُبتعدًا عن السُّرَّة التي تربط مكتبة الأطفال بمكتبة الكبار، كان يبدو أصغر سنًّا في عيني مايك. رأى مايك الخِسَّة ذاتها في وجه هنري، لكنه رأى شيئًا آخر أيضًا: الطفل الذي ترعرع في كنف بوتش باورز المجنون في مزرعة جيِّدة استحالت أطلالًا خربة على مرِّ السنين. «لا تقل ذلك! كان سيقتلني بدوري».

- «لم يستطع الشَّيء قتلنا».

التمعت عينا هنري بفُكاهة كريهة: «ليس بعد، لكنه سيفعل.. إلا إذا لم أترك أحدًا منكم على قيد الحياة». قالها وأبرز يده من جيبه، التي خرجت حاملة أداة ناعمة طولها تسع بوصات مُطعَّمة بعاج صناعي على جانبيها. يوجد زر معدني يلتمع على أحد أطراف تلك القطعة الفنِّية المُريبة. ضغط هنري الزرَّ فاندفع نصلٌ طوله ستِّ بوصات من الشق المفتوح في نهاية المقبض. حرَّك هنري المدية في راحة يده، وبدأ يسير نحو مكتب الاستقبال بخُطى أسرع قليلًا.

قال هنري: «انظر ماذا وجدت. أنا أعرف أين أبحث»، ثم بفحش، غمز له بجفنٍ حوافه حمراء قانية وأردف: «لقد أرشدني الرَّجُل الذي يسكن القمر»، كشف هنري عن أسنانه ثانيةً «لقد اختبأت النهار بطوله، وركبت الليلة مع رجُلٍ عجوز. أظنُّني قتلته. لقد تخلَّصت من السيَّارة في نيوبورت، ثم وأنا على مشارف ديري، سمعت ذلك الصوت.. ونظرت إلى المجرور. كانت هذه الملابس موجودة هناك، بالإضافة إلى مطواتي، مطواتي القديمة».

- «نسيت شيئًا يا هنري».

هزَّ هنري رأسه دون أن ينفك عن الابتسام.

- «لقد فررت كما فررنا. إذا كان الشَّيء يريدنا، فهو يريدك أنت أيضًا».

- «لا».

- «أظنُّه كذلك. رُبَّما كنتم دُمى يُحرِّكها الشَّيء، لكنه لا عزيز لديه، أليس كذلك؟ لقد قتل كلا صديقيك، وفيما كان بيلش يقاومه، استطعت أنت الهرب. لكنك عُدتَ الآن. أظنُّ أنك جُزء من انتقام الشيَّءِ الذي لم ينتهِ بعد يا هنري. أعتقد ذلك حقًّا».

- «لا!».

- «رُبَّما ستقابل فرانكنشتاين قريبًا. أم المُستذئب؟ أم مصَّاص الدماء؟ المُهرِّج رُبَّما؟ أو اسمع! رُبَّما سترى هيئة الشَّيءِ الحقيقية يا هنري. لقد رأيناها نحن، هل تريدني أن أخبرك؟ هل تريدني أن أصفـ...؟».

- «اخرس!». هكذا صرخ هنري مُندفعًا نحو مايك.

خطا مايك جانبًا ومدَّ ساقه. تعرقل هنري فيها وطار منزلقًا فوق البلاط الذي أبلته الأقدام. اصطدم رأسه بساق المنضدة التي تجمَّع الخاسرون حولها باكرًا الليلة وهم يسردون حكاياتهم. للحظة ذُهِل، وارتخت قبضته قليلًا عن المدية.

انقض مايك عليه، وعلى المدية. في تلك اللحظة كان في وسعه الإجهاز على هنري، في وسعه غرس فتَّاحة الرسائل المنقوش عليها يسوع هو المُخلِّص التي جاءت بالبريد من كنيسة أمه القديمة في عُنُق هنري ثم الاتِّصال بالشُرطة بعدها، وسيتورَّط في بعض الهُراء الرسمي، لكن ليس كثيرًا منه.. ليس في ديري، التي تألف جيِّدًا جميع أنواع الحوادث الغريبة والأحداث العنيفة.

ما منعه عن ذلك هو إدراكٌ وامضٌ كالبرق -تنتفي معه احتمالية أنه نابع من عقله الواعي- بأنه لو قتل هنري فإنه بذلك يُنفِّذ مشيئة الشَّيءِ، تمامًا كما أن هنري سيُنفِّذ مشيئة الشَّيءِ إذا قتل مايك.. بالإضافة إلى شيءٍ آخر.. تلك النظرة المُغايرة التي لاحت على وجه هنري، النظرة الحائرة المُتعبة لطفلٍ أُسيئت مُعاملته ووُضِع على طريقٍ مسمومٍ مجهول الغرض. لقد نشأ هنري

في كنف عقل بوتش باورز المُلوَّث.. وبالتأكيد وقع الفتى في قبضة الشَّيءِ قبل حتَّى أن يعلم بوجوده من الأساس.

لذا بدلًا من غرس فتَّاحة الرسائل في عُنُق هنري غير الحصين، جثا مايك على رُكبتيه واختطف المدية. التوت المدية في يده -من تلقاء نفسها على ما يبدو- فأمسكت أصابعه بالنصل. لم يشعر بألمٍ فوري، فقط سالت الدماء من أصابع يده اليُمنى الثلاثة الأولى وغطَّت راحة يده الندوب ذاتها.

تراجع مايك إلى الوراء. تدحرج هنري مُبتعدًا وأمسك بالمدية ثانيةً. جلس مايك على رُكبتيه، وواجههما وهما ينزفان: مايك من أصابعه، وهنري من أنفه. هزَّ هنري رأسه فتطايرت قطرات الدماء بعيدًا في الظلام.

ثم صاح بصوتٍ أجش: «تظن أنك ذكي جدًّا! كلكم مجموعة من المُخنَّثين! كنا لنهزمكم في معركة عادلة!».

قال مايك بهدوء: «ضع المدية جانبًا يا هنري. سأتَّصل بالشُرطة، وسيعيدونك إلى مصحَّة چونيبر هيل. ستخرج من ديري، ستكون في مأمن».

حاول هنري أن يتكلَّم لكنه لم يستطِع. لم يستطِع إخبار ذلك الزنجي القميء أنه لن يكون بمأمن في چونيبر هيل، أو في لوس أنچلوس، أو في غابات تمبكتو المطيرة. فعاجلًا أم آجلًا سيبزغ القمر، أبيض كالعظام وباردًا كالجليد، وستبدأ الأصوات الشبحية في الكلام، وسيتبدَّل وجه القمر إلى وجه الشَّيءِ، وسيثرثر ويضحك ويأمر. ابتلع هنري دماءه اللزجة مع لعابه.

- «لم تقاتلوا بشرفٍ قط!».

سأله مايك: «وهل فعلت أنت ذلك؟».

صرخ هنري: «أيُّها الزنجي القرد البربري العبد السعدان»، وقفز على مايك مرَّة أخرى.

مال مايك إلى الوراء لتفادي اندِفَاعهُ المتخبِّط الأخرق، وفقد توازنه، وانقلب على ظهره. ارتطم هنري بالمنضدة مُجدَّدًا، وارتدَّ عنها، ثم التفت وأمسك ذراع مايك. طوَّح مايك فتَّاحة الرسائل على طول ذراعه وشعر بها تنغرس عميقًا في ساعد هنري. صرخ هنري، لكن بدلًا من أن يفلته، اعتصر

قبضته أكثر، وجذب نفسه مُقتربًا من مايك وشعره مُبعثر في عينيه والدماء تفيض من أنفه فوق شفتيه السميكتين.

حاول مايك زج قدمه في جذع هنري لدفعه بعيدًا. طوّح هنري المدية في قوسٍ مُتلألئ، فانغرس نصلها كاملًا في فخذ مايك، ماضية في لحمه بمنتهى السهولة كأنها تمضي في كعكة زبد ساخنة. جذبها هنري وكانت تقطر دمًا.. هنا دفعه مايك بعيدًا بصرخة ألم ومجهودٍ عاتٍ.

تعثَّر مايك ناهضًا على قدميه لكن هنري نهض أسرع منه، وتمكّن مايك بالكاد من تفادي اندفاعة هنري الخرقاء التالية. كان يشعر بالدماء تتدفّق على ساقه بشكل خطير وتملأ حذاءه. يا للمسيح، لقد أصاب شُرياني الفخذي. الدماء في كل مكان. إنها تُغرق الأرضية. لقد فسد حذائي، اللعنة، لقد ابتعته منذ شهرين فحسب...

انقض هنري ثانيةً وهو يلهث وينفخ كثورٍ تغلي دماؤه. ترنَّح مايك جانبًا وطوَّح فتَّاحة الرسائل نحوه من جديد. مزَّقت الفتَّاحة قميص هنري الرثّ وأحدثت قطعًا غائرًا في ضلوعه، ولول هنري من الألم، فدفعه مايك بعيدًا مُجدَّدًا.

قال هنري ناحبًا: «أيُّها الزنجي الخسيس. انظر ماذا فعلت!».

قال مايك: «ألقِ بالمدية يا هنري».

صدرت ضحكة مكبوتة من خلفهما. نظر هنري خلفه، وصرخ من الرُعب لاطمًا وجنتيه كخادمة عجوز أُهينت. زاغت نظرة مايك صوب مكتب الاستقبال، ودوى صوتٌ مُرتفع: كا-سبااااانج!، ثم وثبت رأس ستان يوريس من خلف المكتب. كانت مُعلَّقة على أنبوب لولبي مرن مغروس فيها من أسفل العُنُق الذي يقطر دمًا. كان الوجه مُلطَّخًا بالأصباغ، وثمَّة بقعة حمراء مُتوهِّجة على كلتا الوجنتين، وفي مكان العينين، توجد كُرتان زغبيتان برتقاليتان. راح رأس ستان البشع الشبيه برأس عفريت العلبة يتأرجح أمامًا وخلفًا كإحدى زهور عبَّاد الشمس العملاقة المتاخمة لمنزل شارع نيبولت. فتح الرأس فمه، وخرج صوتٌ ضاحك مشؤوم يشدو: «اقتله يا هنري! اقتل الزنجي! اقتل القرد! اقتله، اقتله، اقتله!».

استدار مايك مواجهًا هنري، وأقد أدرك فَزِعًا أنه خُدِع وشُتِّت، وتساءل سريعًا في سرِّه تُرى أيَّ رأس رآه هنري يتأرجح على القضيب الملولب. أهو رأس ستان؟ أم ڤيكتور؟ أم والده رُبَّما؟

انتفض هنري واندفع إلى مايك مُحرِّكًا مطواته صعودًا وهبوطًا كإبرة آلة حياكة وهو يصرخ: «عاااا، زنجي! عاااا، زنجي! عاااا، زنجي!».

تراجع مايك إلى الخلف، والتوت الساق التي ضربها هنري أسفله وأسقطته أرضًا. لم يعد يشعر بتلك الساق تقريبًا. لقد صارت باردة وخدرة، وبالنظر إلى أسفل، رأى مايك أن سراويله البيضاء استحالت حمراء فاقعة.

ومض نصل هنري أمام أنفه.

طعن مايك الهواء بفتَّاحة الرسائل في اللحظة التي تراجع فيها هنري استعدادًا لهجمة أخرى. رَكض هنري إلى نصل الفتَّاحة وانغرس فيها كحشرة غُرست في دبُّوس. أغرقت دماءٌ دافئة يد مايك، وشعر بشيءٍ ينقصف، وعندما سحب يده كان يحمل فيها مقبض فتَّاحة الرسائل، أما النصل فبرز من معدة هنري.

- «عااااا! زنجي!». هكذا صرخ هنري وهو يضع يده على نتوء النصل البارز من بطنه. تدفَّقت الدماء على أصابعه. حدَّق إليها بعينين جاحظتين لا تُصدِّقان ما تريان. ضحك رأس عفريت العلبة الذي يقطر دمًا وقَوْقَأ. نظر مايك خلفه وهو دائخ وشاهد رأس بيلش هاجنز.. كغطاء زجاجة شامبانيا بشري يرتدي قُبَّعة فريق نيويورك يانكيز للبيسبول لسانها مقلوب للخلف. تأوَّه مايك عاليًا، لكن صوته بدا بعيدًا جدًّا، وتردَّد صداه في أُذُنيه. كان يعي أنه يجلس في بركة دماءٍ دافئة. إذا لم أُوقف النزيف، سأموت.

صرخ هنري: «عااااااا زنجي!». كان ما زال ممسكًا بطنه بيدٍ، وباليد الأخرى المدية. ترنَّح مُبتعدًا عن مايك واتَّجه صوب أبواب المكتبة. راح يتمايل من جنب إلى الآخر كالثمل، مُتقدِّمًا عبر الغُرفة الرئيسة كالكُرة في لعبة الكُرة والدبابيس. اصطدم هنري بمقعدٍ وأسقطه أرضًا، ثم أوقعت يده الراغبة في التشبُّث بأيِّ شيءٍ رفَّ الجرائد على الأرض، ووصل هنري إلى ضلفتي الباب، ودفع إحداها بذراعٍ ممدودة، ثم اختفى في جوف الليل.

كان وعي مايك يتلاشى الآن. راحت أصابعه التي غادرها الإحساس تقريبًا تفك حزامه، وفي النهاية تمكَّن من خلعه وتحريره من عُرواته. لفَّ مايك الحزام حول ساقه النازفة أسفل أربية فخذه وشدَّهُ بقوَّة. ثم راح يزحف إلى مكتب الاستقبال وهو يمسكه بيدٍ واحدة. كان الهاتف هناك. لم يكن مُتأكِّدًا كيف سيتمكَّن من بلوغه، لكنه لم يهتم في الوقت الراهن. المهم أن يستطيع الوصول إليه. تلاشى العالم من حوله، وصار ضبابيًّا، وتخفَّى خلف موجاتٍ من الرمادية. أخرج مايك لسانه وعضَّه بقوَّة. كان الألم حارقًا ولحظيًّا. عاد العالم يتشكَّل أمام عينيه، وصار واعيًا أنه ما زال يمسك بمقبض فتَّاحة الرسائل، فألقاه بعيدًا. ها هو مكتب الاستقبال أخيرًا. إنه شاهقٌ كجبل إفرست.

وضع مايك ساقه السليمة تحته، ودفع نفسه إلى أعلى مُتشبِّثًا بحافَّة المكتب باليد التي لا تُحكم وثاق الحزام. التوى فمه في تكشيرة مُرتعشة، وضاقت عيناه. في النهاية استطاع الصعود إلى الأعلى، ووقف على ساقٍ واحدة كطائر اللقلق، وجذب الهاتف المدوَّن على جانبه ثلاثة أرقام: المطافئ، والشُرطة، والمُستشفى. بإصبع مُرتجف بدا أنه يبعد عشرة أميالٍ على الأقل، طلب مايك رقم المُستشفى: 3711-555، وأغلق عينيه عندما بدأ الهاتف يرن، ثم فتحهما على اتِّساعهما عندما أجابه صوت بيني وايز.

صاح بيني وايز: «مرحبًا أيُّها الزنجي!»، ثم أطلق ضحكة حادة كزجاج مُشظًّى في أذني مايك: «ما رأيك؟ كيف حالك؟ أظنُّ أنك ميِّت، ماذا تظنُّ أنت؟ أظنُّ أن هنري أنجز مهمَّته معك! أتريد بالونة يا مايك؟ أتريد بالونة؟ كيف حالك؟ أين أنت!».

التفَّت عينا مايك إلى ساعة الحائط، ساعة مولر، ورأى بلا أدنى اندهاش وجهها تبدَّل وصار وجه والده المُنهك المُلتهب بالسرطان. كانت عينا والده تائهتين في محجريهما ولا يظهر منهما سوى بياضهما. فجأة أخرج والده لسانه وبدأت الساعة تدق.

أفلت مايك حافَّة مكتب الاستقبال، تأرجح لحظات على ساقه السليمة ثم سقط أرضًا مُجدَّدًا. راحت سمَّاعة الهاتف تتأرجح أمامه من طرف سلكها كأنها أداة تنويم إيحائي. صار من العسير جدًّا الآن الإمساك بالحزام.

راح بيني وايز يصرخ مزهوًّا من سمَّاعة الهاتف المُتأرجحة: «مرحبًا يا صديقي العزيز! أنا الزعيم هنا! أنا الزعيم في ديري على الأقل، تلك هي الحقيقة. أليس كذلك يا فتى؟».

صرخ مايك: «إذا كان هناك أيُّ شخصٍ على الطرف الآخر، أيُّ شخصٍ خلف الصوت الذي أسمعه، فأرجوك ساعدني. أنا مايك هانلون. أنا في مكتبة ديري العامة، وأنزف حتى الموت. إذا كنت على الطرف الآخر، فأنا لا أسمعك. لا يُسمح لي بسماعك. إذا كنت هناك، أرجوك أسرِع».

أنهى مايك عبارته واستلقى على جانبه ضامًّا ساقيه إلى صدره حتَّى صار في وضع الجنين. لفَّ الحُزام حول يده اليُمنى مرَّتين ووضع جُلَّ تركيزه في الإمساك به بينما العالم ينجرف من حوله مُستترًا خلف تلك السُحُب الرمادية اللينة الشبيهة بالبالونات.

صرخ بيني وايز من سمَّاعة الهاتف المُتأرجحة: «ألو، مرحبًا؟ كيف حالك؟ كيف حالك أيُّها الزنجي القذر؟ كيف...

4

شارع كانساس | الثانية عشرة وعشرون دقيقة ظهرًا

... حالك؟ كيف حالك أيَّتُها العاهرة الصغيرة؟».

تحرَّكت بيڤرلي فورًا، واستدارت كي تركض. كانت ردَّة فعلها أسرع ممَّا توقَّع أيٌّ منهم، وكانت ستبدأ في الركض بالفعل لولا شعرها. لقد مدَّ هنري يده، وأمسك قبسًا من شعرها الطويل، وجذبها إلى الخلف مُبتسمًا في وجهها ابتسامةً كريهة. كانت أنفاسه ثقيلة ودافئة ونتنة الرَّائحة.

سألها هنري: «كيف حالك؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ هل ستعودين للعب مع أصدقائك الحمقى مرَّة أخرى؟ أظنُّ أنني سأقطع أنفك وأدعك تلتهمينها. أتحبين ذلك؟».

قاومت بيڤرلي كي تتحرَّر. ضحك هنري وهزَّ رأسها أمامًا وخلفًا قابضًا إيَّاه من شعرها. لمعت المدية بشكلٍ خطير في أشعة شمس أغسطس الضبابية.

بغتةً، صدر نفير بوق سيَّارة طويلٌ وصاخب.

- «أنتم! أنتم! ماذا تفعلون يا عيال؟ اتركوا هذه الفتاة ترحل!».

كانت هذه امرأة عجوز تقود سيَّارة فورد طراز عام 1950 بحالة جيِّدة جدًّا. لقد توقَّفت قرب الرصيف ومالت من فوق المقعد المجاور للسائق المُغطَّى بدثار مُطِلَّة من الشباك. عندما رأى ڤيكتور كريس وجهها الغاضب الصادق، غادرت النظرة الحالمة عينيه ونظر إلى هنري بتوتُّر للمرَّة الأولى.

- «ماذا...».

صرخت بيڤرلي بصوتٍ أجش: «أرجوكِ! إن معه سكِين! سكِين!».

استحال الغضب على وجه السيِّدة إلى قلق، ودهشة، وخوفٍ كذلك. «ماذا تفعلون بها؟ اتركوها وشأنها!».

عبر الشارع، رأت بيڤرلي بوضوحٍ تام هربرت روس ينهض من على مقعد حديقته في الشُرفة الأرضية، ثم يقترب من سور الشُرفة، ويطلّ بناظريه. كان وجهه خاليًا من التعبير كوجه بيلش هاجنز. ثم طوى جريدته، واستدار، ودخل إلى منزله بهدوء.

صرخت السيِّدة العجوز بصوتٍ غليظ: «دعوها وشأنها!».

كشَّر هنري عن أنيابه وركض إلى سيَّارتها فجأة جاذبًا بيڤرلي خلفه من شعرها. تعثَّرت الفتاة، وسقط على رُكبتيها مسحولة على الأرض. كان الألم في فروة رأسها مُبرحًا ووحشيًّا، وشعرت بخُصلٍ من شعرها تتمزَّق.

صرخت السيِّدة العجوز وأغلقت نافذة المقعد المجاور للسائق بشكلٍ محموم. مدَّ ريتشي مطواته فانزلق النصل عبر الزجاج. رفعت المرأة قدمها من على مكابح الفورد القديمة وتحرَّكت أمامًا عبر شارع كانساس في ثلاث كبيرة، قافزة فوق الرصيف المنخفض حيث توقَّفت. لاحقها هنري وهو ما زال يجذب بيڤرلي على طول الطريق. لعق ڤيكتور شفتيه ونظر حوله. دفع بيلش قبعة فريق نيويورك يانكيز للبيسبول التي يرتديها إلى أعلى، ثم دسَّ يده في أذنه في لفتة حائرة.

رأت بيڤ وجه المرأة المذعور الشاحب للحظة، ثم رأتها تغلق أقفال الأبواب بادئة بباب المقعد المجاور ثم مقعدها. راح مُحرك الفورد يهدر

ويدمدم. رفع هنري حذاءه عالي الرقبة وركل مصابيح الضوء الخلفي بقوَّة.
- «ابتعدي عن هنا أيَّتُها العاهرة الناشفة».

صرَّت الإطارات عندما تراجعت السيِّدة العجوز خلفًا إلى عرض الشارع. انحرفت شاحنة قادمة لتفاديها ونفيرها يولول. التفت هنري إلى بيڤ، وبدأ في الابتسام ثانيةً، فرفعت قدمها وركلته مُباشرةً في خصيتيه.

استحالت ابتسامة هنري التواءة ألمٍ هائل. سقطت المدية من يده وقعقعت على الرصيف، وتركت يده الأخرى شعرها المُتشابك (جاذبة إيَّاه مرَّة أخيرة مُريعة قبل أن تفلته) ثم غاص جاثيًا على رُكبتيه محاولًا الصراخ وممسكًا ما بين فخذيه. رأت بيڤرلي خُصلًا من شعرها الأحمر في إحدى يديه، وفي تلك اللحظة استحال ذُعرها كله إلى غضبٍ ساطع. أخذت نفسًا عميقًا هائلًا، وبصقت بصقة ضخمة على وجهه.

ثم استدارت وأطلقت ساقيها للريح.

ركض بيلش ثلاث خطوات مُتثاقلة خلفها ثم توقَّف. اتَّجه هو وڤيكتور إلى هنري، الذي دفعهم جانبًا ونهض مُترنِّحًا على قدميه ويديه تحتضنان خصيتيه. لم تكن هذه المرَّة الأولى هذا الصيف التي يُركل فيها في هذا المكان.

انحنى أرضًا والتقط المدية، وقال بأنفاسٍ مُتقطِّعة: «... بنا».

سأله بيلش ملهوفًا: «ماذا يا هنري؟».

أدار هنري له وجهًا غارقًا في العرق والألم وغضبٍ سقيمٍ مُتَّقد لدرجة أن بيلش تراجع خطوة إلى الوراء. بصعوبة تمكن من قول: «قلتُ... هيَّا... بنا!»، ثم بدأ يترنَّح عبر الشارع خلف بيڤرلي مُمسكًا ما بين فخذيه.

قال ڤيكتور على مضد: «لن نستطيع الإمساك بها الآن، أنت بالكاد تستطيع السير».

قال هنري لاهثًا: «سنمسك بها». كانت شفته العُليا تُكشِّر في زمجرة كلبٍ غير واعية، وتفصَّدت حبَّات عرقٍ كبيرة على جبهته وسالت على وجنتيه المحمومتين. «سنمسك بها.. لأنني أعلم إلى أين تتَّجه. ستهبط إلى البرِّية لتكون مع أولئك الحمقى الذين تُسميهم...

5
فندق ديري تاون هاوس | الثانية صباحًا

... أصدقاء». هكذا قالت بيڤرلي.

نظر بيل إليها وغمغم: «هممم؟». لقد انجرفت أفكاره بعيدًا. كانا يسيران كفًّا بكفٍّ، والصمت بينهما أنيس مُطعَّم بانجذابٍ خافتٍ مُتبادل. لم ينتبه سوى للكلمة الأخيرة التي لفظتها.. وعلى بُعد مبنى واحد أمامهما، كانت أنوار فُندق تاون هاوس تنتشر عبر الضباب الأرضي المنخفض.

قالت مُبتسمة: «قلت إنكم كنتم أقرب أصدقاء، بل الأصدقاء الوحيدون الذين حظيت بهم وقتها. أظنُّ أن عقد الصداقات لم تكن قط من مواطن قوَّتي، رغم أن لديّ صديقة جيِّدة في شيكاجو. إنها امرأة تُدعة كاي مكال. أظنُّ أنك لو عرفتها ستحبها يا بيل».

قال مُبتسمًا: «رُبَّما. لم أكن قط سريعًا في عقد الصداقات بدوري. في الأيَّام الخوالي، كانت عصبتنا هي كل ما نــ-نحتاجه». لاحظ بيل قطرات ندى على شعرها، وأعجبته الطريقة التي يصنع الضوء بها هالة حول رأسها. كانت عيناها مرفوعتان وتنظران إلى عينيه بتوق.

قالت له: «أريد شيئًا الآن».

- «مــ-ماذا؟».

قالت له: «أريدك أن تُقبِّلني».

فكَّر بيل في أودرا، وللمرَّة الأولى في حياته لاحظ أنها تُشبه بيڤرلي. تساءل ما إذا كان ذلك ما جذبه إليها في أوَّل الأمر.. ما إذا كان السَّبب الذي جعله يعثر على شجاعة كفاية كي يطلب من أودرا ميعادًا قرب نهاية ذلك الحفل الهوليوودي حيث التقيا. شعر بنغزٍ من تأنيب الضمير، ثم أخذ بيڤرلي -صديقة طفولته- بين ذراعيه.

كانت قُبلتها مُكتنزة، ودافئة، وعذبة. انضغط نهداها فوق معطفه المفتوح

وتحرَّك فخذاها مُقتربين منه... ثم ابتعدا... وعادا والتصقا به مُجدَّدًا. عندما ابتعد فخذاها عنه في المرَّة الثانية، دفع كلتا يديه في شعرها وتحرَّك مُقتربًا منها. عندما شعرت أنه بدأ يتصلَّب، أطلقت تنهيدة صغيرة ومرَّغت وجهها في جانب عُنُقه. شعر بدموعها تجري على جلده دافئة وغامضة.

قالت له: «هلم.. سريعًا».

التقط يدها وقطعا المسافة المُتبقية إلى التاون هاوس. كان المدخل قديمًا، ومُزدحمًا بالنباتات، وما زال يمتلك بعض السحر القديم المُتلاشي. طراز الزخرفة يعود إلى عصر حطَّابي القرن التاسع عشر. كانت الرُدهة خاوية في هذه الساعة المُتأخِّرة إلا من موظَّف الاستقبال، الذي كان بالكاد يُرى في عتمة المكتب الداخلي بقدميه المرفوعتين فوق المكتب وهو يشاهد التلفاز. ضغط بيل زر الطابق الثالث بإصبع مُرتجف قليلًا... أهي حماسة؟ توتُّر؟ شعور بالذنب؟ كل ما سبق؟ أوه أجلٌ، بالتأكيد، بالإضافة إلى نوعٍ من الفرح المجنون تقريبًا، والخوف كذلك. لم يكن خليط المشاعر هذا يمتزج بشكلٍ جيِّد داخله، لكنه بدا ضروريًّا. قادها عبر الرواق إلى غرفته، وقد قرَّر بعقلٍ مُشوَّش أنه ما دام سيكون غير مُخلص، فيجب عليه ممارسة خيانته إلى أقصاها، ويتمَّها في غرفته لا غرفتها، وجد نفسه يُفكِّر في سوزان براون، وكيلة أعماله الأولى وهو دون العشرين عامًا.. حبه الأول.

أنا أخون زوجتي. حاول إبعاد الفكرة عن رأسه، لكنها بدت حقيقية وخيالية في الآن ذاته، وما بدا أقوى منها هو شعور ممض بالغربة والاشتياق للوطن: الشعور القديم المألوف بالنفي بعيدًا. لا بُدَّ أن أودرا مُستيقظة الآن، تُعدُّ القهوة، وتجلس إلى منضدة المطبخ مُرتديها الروب، وتستذكر بعض سطور الحوار رُبَّما.. أو رُبَّما تقرأ رواية لديك فرانسيس.

تخبَّط مُفتاحه في قفل الغرفة 311. لو كانا قد ذهبا إلى غُرفة بيفرلي في الطابق الخامس، كان سيريان ضوء الرسائل في هاتفها يومض، وكان موظَّف الاستقبال الذي يُشاهد التلفاز سيمرِّر لها رسالة الاتِّصال بصديقتها كاي في شيكاجو (لقد تذكَّر تدوين الرسالة في النهاية بعد مُكالمة كاي المذعورة الثالثة)، وربَّما كانت الأمور ستتَّخذ مسارًا آخر، ولن يصبح خمستهم هاربين

من العدالة وعلى قائمة شُرطة ديري عندما ينكسر ضوء ذلك اليوم في نهاية المطاف. لكنهما دلفا إلى غرفته.. كما قُدِّر للأمور أن تسير.

انفتح الباب، وصارا بالداخل. نظرت إليه بعينين مُتلألئتين، ووجنتين مُتَّقدتين، ونهدين يعلوان ويهبطان سريعًا. ضمَّها بين ذراعيه وطغى عليه شعورٌ عارم بصواب ما يفعله واستحقاقه. شعور بالدائرة التي تربط الماضي بالحاضر تُغلق بسلاسة مُنتصرة. ركل الباب مُغلقًا إيَّاه بحركة خرقاء، فضحكت ونفثت أنفاسها الدافئة العذبة في فمه.

قالت له: «قلبي...»، ووضعت يده على نهدها الأيسر. استشعر بيل قلبها أسفل تلك الليونة المُكتنزة المُجِنَّة تقريبًا وهو يتسارع كمُحرِّك سيَّارة.

- «قـ-قـ-قلبك...».

- «قلبي».

ثم انطرحا على الفراش بملابسهما يتبادلان القُبل. انزلقت يدها إلى داخل قميصه، ثم خرجت مُجدَّدًا. تتبَّعت بإصبعها صف الأزرار إلى أسفل، وتوقَّفت عند خصره، ثم انزلق إصبعها إلى أسفل متلمِّسًا تحجُّر قضيبه السميك. انقبضت عضلات لا يعلم شيئًا عنها وانبسطت بين فخذيه. قطع قُبلاتهُ لها وحرَّك جسده بعيدًا عنها في الفراش.

- «بيل؟».

قال لها: «يـ-يـ-يجب أن أ-أ-أهدأ قليلًا، وإلا سأقذف في لباسي كـ-كصبي».

ضحكت مُجدَّدًا، بنعومة، ونظرت إليه: «أهذا الأمر حقًّا؟ أم أنك تُفكِّر في إعادة النظر؟».

قال بيل: «إعادة النظر.. هممم، دائمًا ما أفعل ذلك».

قالت له: «أما أنا فلا. أنا أكره توم».

نظر بيل إليها. كانت الابتسامة على وجهها تتلاشى.

قالت له: «لم أعي لذلك إلا منذ ليلتين فقط. أوه، بالتأكيد كنت أعلم هذه الحقيقة بشكلٍ ما طوال زواجنا، أظنُّ ذلك. لطالما ضربني توم وآذاني. لقد تزوَّجته لأن... لأن والدي كان دائمًا ما يقلق عليّ. هذا ما أظنُّه. كان يقلق

بغض النظر عن مدي التزامي بحسن السلوك. كان يقلق كثيرًا. لذا أظنُّ أنني شعرت أنه طالما هناك شخص يهتم بأمري ويقلق عليّ فسأكون آمنة، بل أكثر من آمنة.. موجودة». نظرت إليه بجدٍّ. كانت بلوزتها قد ارتفعت خارجة من خصرها وكاشفة عن شريطٍ أبيض كالعاج من بطنها. أراد بيل تقبيله. «لكن الأمر انقلب كابوسًا، وكان الزواج من توم أشبه بالغوص في الكابوس القديم مُجدَّدًا. لماذا يفعل شخصٌ ذلك بنفسه يا بيل؟ لماذا يعود شخصٌ إلى كابوسه من تلقاء نفسه، وبرجليه؟».

قال بيل: «السـ-سـ-سبب الوحيد الذ-ذ-ذي يُمكنني التفكير فـ-فيه أ-أن الناس يعودون رغبةً فـ-في العـ-عثور على ذ-ذ-ذواتهم».

قالت بيف: «الكابوس الحقيقي هنا. الكابوس هو ديري. توم يبدو ضئيلًا جدًّا مُقارنةً بذلك، أستطيع أن أرى ذلك الآن. لكم أحتقر نفسي بسبب السنوات التي أمضيتها معه. أنت لا تعرف الأشياء التي أجبرني على فعلها، و... أجل، لقد كنت سعيدة بما يكفي وأنا أفعلها، لأنه كان يقلق عليّ كما ترى. كنت أبكي... لكن الشعور بالخزي يكون أحيانًا عظيمًا جدًّا، أتعرف ما أعنيه؟».

قال بهدوء واضعًا يده فوق يدها: «لا تقسي على نفسك كثيرًا». أمسكت بيڤرلي يده بإحكام، واغرورقت عيناها بالدموع، لكنها لم تبكِ. «الجـ-جميع يـ-يـ-يخطئ. لـ-لـ-لكننا لسنا فـ-في ا-امتحان. كـ-كل ما عـ-عليك فعله هو ا-ا-اجتياز الأمر بـ-بأفضل مـ-ما فـ-في و-و-وسعك».

قالت له: «ما أعنيه أنني لا أخون توم، ولا أستخدمك لإشفاء غليلي منه، أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل. بالنسبة إليَّ، سيكون الأمر... طبيعيًّا وعذبًا وعاقلًا. لكنني لا أود أن أجرحك يا بيل، أو أن أقودك إلى شيء قد تندم عليه لاحقًا».

فكَّر بيل في كلامها.. فكَّر مليًّا وبعمق. لكن العبارة إيَّاها: شاف الشَّبح فشُده إلى آخره.. بدأت تعاوده ثانيةً، وتقطع عليه حبل أفكاره. لقد كان يومًا طويلًا. تبدو مُكالمة مايك والدعوة إلى الغداء في مطعم يشم الشرق الآن أمور حدثت منذ مئات السنين. كم من أمورٍ حدثت منذ ذلك الحين. كم من ذكريات طفت سابحة، كالصور في ألبوم چورچي.

قال لها: «الأصدقاء لا يخدعون بعضهم»، ومال نحوها فوق الفراش. بدأت شفاههما في التلامس، وبدأ يحل أزرار بلوزتها. تعلَّقت إحدى يديها بعُنُقه من الخلف وضمَّته أقرب إليها، فيما حلَّت الأخرى حزام سراويلها أوَّلًا ثم دفعتها إلى أسفل. للحظة لمست يده بطنها.. كانت دافئة.. ثم خُلع لباسها التحتي في غمضة عين. همَّ بيل بها، وأرشدته هي.

وعندما دخل فيها، قوَّست بيڤرلي ظهرها بلطف تجاه طعنته الجنسية وغمغمت: «كن صديقي... أنا أحبك يا بيل».

قال لها: «أنا أيضًا أحبك»، مُبتسمًا أمام كتفها العاري. بدأ يجامعها برويَّة، وشعر بالعرق يتفصَّد من جلده في حين ما راحت تتسارع بجسدها من أسفله. بدأ وعيه يتوه فيها، وصار أكثر تركيزًا على اتِّصالهما. لقد فُتِحَت مسامُّها، وأفرجت عن رائحة مسكٍ جميلة.

شعرت بيڤرلي بنشوتها تقترب. تحرَّكت معها، وعملت لأجلها، ولم ترتب قط في قدومها. فجأة انتفض جسدها بقوَّة وبدا أنه يقفز قفزًا إلى أعلى. ليست هذه نشوة، بل جبل يعلو كثيرًا على أيِّ شعورٍ بلغته مع توم أو العاشقين اللذين خادنتهما قبله. أدركت بيڤرلي جيِّدًا أن ما سيعتريها لن يكون مُجرَّد قذف، بل سلاح نووي. شعرت بقليلٍ من الخوف... لكن جسدها التقط الإيقاع مرَّةً أخرى. شعرت بتصلُّب بيل الطويل داخلها، وصار جسده بأكمله بصلابة الجزء الذي أودعه فيها، وفي اللحظة ذاتها بلغت ذروتها.. بدأت في بلوغ ذروتها.. كانت مُتعة لا توصف تكاد أن تكون عذابًا يُسكب مع فيضانات غير مُتوقَّعة. عضَّت بيڤرلي كتفه كاتمة صرختها.

شهق بيل قائلًا: «يا إلهي»، ورغم أنها لم تتأكَّد من الأمر قط لاحقًا، اعتقدت أنه بكى. تراجع بيل إلى الوراء، وظنَّت أنه سينسحب خارجًا منها، فحاولت التحضُّر لتلك اللحظة التي دائمًا ما تجلب معها شعورًا خاطفًا بالخواء يتعذَّر تفسيره، شيئًا شبيهًا بطبعة قدم قديمة مهجورة... لكنه اندفع بقوَّة داخلها مُجدَّدًا. حظت بنشوتها الثانية فورًا، وهو شيء لم تكن تعلم أنه مُمكن معها.. في تلك اللحظة فُتحت نوافذ ذاكرتها من جديد وشاهدت الطيور.. آلاف الطيور.. تهبط فوق كل قمَّة سقف وكل خط هاتف وكل صندوق بريد في

ديري.. طيورًا ربيعية في سماء أبريل البيضاء.. وشعرت بألم ممزوج بمُتعة.. لكنه كان خفيضًا تقريبًا، كما تبدو سماء الربيع البيضاء خفيضة. ألَم طفيف ممزوج بمُتعة طفيفة وشعور مجنون ما بالتثبُّت. لقد نزفت... لقد... لقد...

صرخت فجأة وقد اتَّسعت عيناها في ذهول: «معكم جميعًا؟».

انسحب بيل خارجًا منها هذه المرَّة بالفعل، لكن في صدمة الرؤية المُباغتة التي اعترتها، بالكاد شعرت بيڤرلي بخروجه.

- «ماذا؟ بيڤرلي؟ هـ-هل أنت بخيـ...».

- «معكم جميعًا؟ مارست الحب معكم جميعًا؟».

رأت الصدمة المُباغتة التي اعتلت وجه بيل، وسقوط فكِّه، ثم إدراكه المُفاجئ. لم تكن تلك الرؤية تخصها، وقد أدركت ذلك حتَّى في خضم صدمتها.. إنها رؤيته هو.

- «نحن...».

- «بيل؟ ما الأمر؟».

قال لها وقد اتَّقدت عيناه بشدَّة لدرجة أفزعتها: «كانت هـ-ه-هذه طـ-طريقتك لإخراجنا جـ-جميعًا.. ألا تفهمين يا بيڤرلي؟ هذا ما فعلتيه لإخراجنا جميعًا! لكننا كنا...». فجأة بدا مُرتعدًا... وضالًّا.

سألته: «هل تذكَّرت كل شيء الآن؟».

هزَّ رأسه ببطء: «ليس بـ-بـ-بالتفاصيل. لكن...»، ثم نظر إليها، ورأت كم هو خائف. «لكننا في النهاية... ابتغينا طريقنا خروجًا.. وأنا لست مُتأكِّدًا يا بيڤرلي أن الكبار يستطيعون فعل الشيء ذاته».

نظرت إليه دون أن تتفوَّه بكلمة مُدَّة طويلة، ثم جلست على حافَّة الفراش من دون وعيٍ منها. كان جسدها ناعمًا وفاتنًا، وخط عمودها الفِقَري بالكاد يمكن تمييزه في العتمة عندما انحنت كي تخلع عنها الجورب النايلون الذي ترتديه. كان شعرها حزمة ملفوفة ملقاة على كتفٍ واحد. شعر بيل أنه سيشتهيها ثانيةً قبل الصباح، وعاوده الشعور بالذنب من جديد، ولم تُخفِّفهُ إلا الراحة المخزية بأن أودرا يفصلها عنه مُحيط شاسع. فكَّر بيل: ضع نيكلًا آخر

في صندوق الموسيقى.. الأغنية القادمة اسمها «ما لا تعرفه لن يؤلمها». لكنه يؤلم بشكلٍ أو بآخر.. رُبَّما يؤلم في المسافات التي تفصل بين البشر.

نهضت بيڤرلي وعدَّلت من وضع الشراشف ثم قالت: «تعالى للفراش، نحن في حاجةٍ إلى النوم.. كلانا في حاجةٍ إليه».

قال لها: «حـ-حـ-حسنًا»، لأن ذلك كان صوابًا كاملًا من وجهة نظره. إنه يرغب في النوم أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. لكنه لا يريد النوم وحيدًا. ليس الليلة. كانت الصدمة الأخيرة قد بدأت في التآكل، سريعًا جدًّا رُبَّما، لكنه يشعر بالإرهاق الشديد الآن.. بالاستنزاف الشديد. راح الواقع يكتسب طابع الحلم مع مرور الثواني، وبالرغم من شعوره بالذنب، شعر بيل بأنه في مأمن. يستطيع الاستلقاء هنا لبعض الوقت والنوم بين ذراعيها. إنه في حاجة إلى دِفئها وصحبتها. كلاهما مشحون جنسيًّا، لكن ذلك لا يستطيع أن يضير أيٌّ منهما الآن.

خلع بيل عنه جوربيه وقميصه واندسَّ جوارها. التصقت به.. إن نهديها دافئان، وساقيها الطويلتين باردتان. احتضنها بيل مُلاحظًا الاختلافات.. إن جسدها أطول من جسد أودرا، وأكثر امتلاءً عند الثديين والوركين.. لكنه جسدٌ مُرحِّبٌ.

فكَّر بيل وهو في حالة نعاسٍ كامل: بن من كان يجب أن يكون معك يا عزيزتي. أظنُّ أن تلك هي الطريقة التي كان من المُفترض أن تؤول الأمور إليها. لماذا لم يحدث هذا مع بن؟

لأنك يا عزيزي من كنت مقصودًا في الماضي، وما زلت مقصودًا حتى الآن، هذا كل شيء. لأن الأمور دوَّارة. أظنُّ أن بوب ديلان قال شيئًا كهذا، أو رُبَّما هو رونالد ريجان. رُبَّما أنا المقصود حاليًا لأن بن هو الشخص الذي يُفترض أن يحظى بكِ في حياةٍ طبيعية عادلة.

انثنت بيڤرلي مُلتصقة به، ليس بطريقة جنسية (رغم أنها استشعرت اضطرام قضيبه ثانيةً بين ساقها وهو يغفو نائمًا، وابتهجت)، لكنها كانت تُريد دِفئه فقط. كانت بالفعل نصف نائمة بدورها. إن سعادتها هنا معه حقيقة، بعد كل تلك السنوات. تأكَّدت من ذلك بسبب مرارتها الكامنة. ليس أمامهم إلا الليلة،

وقد يحظيان بفرصة أخرى صباح الغد. بعدها سيهبطون إلى شبكة المجاري كما فعلوا من قبل، لمُلاقاة الشَّيءَ. سيُحكم إغلاق الدائرة أكثر، وستُدمج حيواتهم الحاضرة بسهولة مع ذواتهم الطفلة.. سيكونون كمخلوقاتٍ تعيش على شريط موبيوس[1] مجنون.

إما هذا، أو هم سيموتون بالأسفل.

تقلَّبت بيڤرلي مُضجعة على جانبها. دسَّ بيل ذراعه بين جانبها وذراعها وكوَّر يده على أحد ثدييها برقَّة. لم تكن مُضطرة إلى الاستلقاء مُستيقظة طويلًا وتتساءل ما إذا كانت يده ستقرصها بغُشمٍ عنيف فجأة أم لا.

بدأت أفكارها تنفرط مع زحف النوم عليها، وكالعادة، رأت بعين الخيال زهورًا برِّية رائعة وهي تعبر الخط الفاصل بين اليقظة والنوم.. جموعًا وجموعًا منها تتهادى رؤوسها تحت سماءٍ زرقاء بهية. ثم بهتت هذه الرؤية وطغى عليها شعورٌ بالسقوط.. الشعور ذاته الذي كان يُوقظها مُتعرِّقة وهي صغيرة بصرخة مرسومة على وجهها. إن حلم السقوط في الطفولة أمرٌ شائع، هكذا قرأت في كتاب علم النفس في كُليَّتها.

لكن سقوطها لم يُقطع بغتة هذه المرَّة. كانت تشعر بثقل ذراعه المُطمئن عليها، وبيده تحتضن نهدها. شعرت أنها إذا سقطت، فعلى الأقل لن تسقط وحدها.

ثم لمست الأرض وبدأت تركض: هذا الحلم لا يُضيِّع وقتًا. ركضت بيڤرلي في إثره.. مُطاردة النوم، ساعية وراء السكون، أو رُبَّما مُلاحقة الزمن فحسب. مرَّت السنون سريعًا.. بل ركضت. إذا قُدِّر لك مُلاحقة طفولتك ركضًا، فيجب أن تطلق ساقيك للريح حرفيًّا. التاسعة والعشرون، السنة التي لوَّنت فيها خصلات شعرها (أسرع). الثانية والعشرين، السنة التي وقعت فيها

---

(1) شريط موبيوس هو سطح ثنائي الأبعاد ذو وجه واحدة وبحدٍ واحدٍ فقط، ويمتلك مسارًا يجعل السائر عليه يعود إلى نقطة البداية بشكل عكس المرآة. إذا سارت نملة على ورقة مصنوعة على هيئة شريط موبيوس، فستعود إلى نقطة البداية مجتازة طول الشريط بالكامل (على كلا جانبي الورقة) دون أن تقطع حافَّته أبدًا.

في حُب لاعب كُرة قدم اسمه جريج كالوري الذي كاد أن يغتصبها بعد حفلة الأخوية (أسرع، أسرع). السادسة عشرة، السُكْر وتعلية المزاج مع اثنين من صديقاتها على تلَّة بلوبيرد التي تطلُّ على بورتلاند. الرابعة عشرة... الثانية عشرة...

... أسرع، أسرع، أسرع...

ركضت طريقها إلى النوم، مُطاردة عامها الثاني عشر، مُمسكة به، مُخترقة حاجز الذاكرة الذي أسدله الشَّيء على عقولهم جميعًا (كان له طعم الضباب البارد في رئتي حُلمها الكادحتين)، وعادت ركضًا إلى عامها الحادي عشر. كانت تركض كأن الجحيم يطاردها، تركض كي تسبق الشيطان، ثم نظرت خلفها الآن، نظرت...

6

البرِّية| الثانية عشرة وأربعون دقيقة ظهرًا.

... من فوق كتفها لترى أيَّ أثرٍ لهم وهي تنزلق مُسرعة في طريقها أسفل الجسر. لا أثر لهم. على الأقل ليس بعد. لقد «شحطت ركلتها فيه شحطًا» كما كان والدها يقول أحيانًا، ومُجرَّد التفكير في والدها غمرها بموجة جديدة من الشعور بالذنب والقنوط.

نظرت أسفل الجسر المُتهالك، آملة أن ترى سيلڤر مستندة إلى جانبه، لكن سيلڤر لم تكن موجودة، هناك فقط مجموعة من ألعاب البنادق المخبوءة التي لم يكلِّفوا أنفسهم عناء أخذها إلى المنزل، هذا كل شيء. بدأت في السير عبر الدرب، ونظرت خلفها... وهناك كانوا يقفون على حافَّة الضِفَّة، بيلش وڤيكتور يدعمان هنري بينهما، ثلاثتهم كحُرَّاس من الهنود الحُمر في فيلم لراندولف سكوت. كان هنري شاحبًا بشكل مُريع. أشار نحوها. بدأ ڤيكتور وبيلش يُعاونانه على النزول أسفل المُنحدر. انزلق الغبار والحصى من أسفل كعوب أحذيتهم.

ظلَّت بيڤرلي تُحدِّق فيهم لفترة طويلة، أشبه بالمُنوَّمة، ثم استدارت

واندفعت راكضة عبر مياه الجدول الهزيل الذي يخرج من أسفل الجسر، مُتجاهلة أحجار العبور التي تفتَّقت إلى عقل بن. نثرت فردتي حذائها ستائر من الماء في كل مكان. ركضت الفتاة عبر الدرب، وأنفاسها حارَّة في حلقها، وشعرت بعضلات ساقيها ترتعش. لم يعد في جُعبتها الكثير الآن. إذا استطاعت بلوغ مقرِّ النادي، فرُبَّما ما زال أمامها فُرصة للنجاة.

ركضت على طول الدرب، وفروع الشجر تزيد من احمرار وجنتيها بلطماتها، وقد ضرب أحدها عينها وجعلها تفيض بالماء. انعطفت إلى اليمين، مُندفعة عبر تشابك خمائل وعر، وخرجت منه إلى الفرجة الخالية من النباتات. ما زال كلٌّ من الباب السحري المُموَّه والنافذة الصغيرة مفتوحًا، ومنهما تتصاعد أنغام موسيقى الروك أند رول. مع صوت اقترابها، أطل بن هانسكوم برأسه. كان يحمل عبوَّة من حلوى النعناع في يدٍ وقِصَّة من قصص آرشي المصوَّرة في اليد الأخرى.

ألقى بن نظرة مُتمعِّنة على بيڤ وفُغِر فوه على اتساعه. في ظل ظروفٍ أخرى، كان مظهره سيبدو هزليًّا. «بيڤ، ما الأمر بحق الجحيم...».

لم تُكلِّف نفسها مشقَّة الرد. فخلفها، وليس ببعيدٍ خلفها، كانت تسمع صوت الفروع تتكسَّر وتخمش.. ثم سمعت سُبَّة مكتومة صيح بها. بدا صوت هنري كأنه استفاق تمامًا وصار مُفعمًا بالعنفوان والحيوية، لذا ركضت بيڤرلي إلى فتحة الباب السحري المُربَّعة، وشعرها الزاخر بأوراق الأشجار وشظايا الأغصان والخثارة من زحفها أسفل شاحنة القمامة يتدفَّق خلفها.

رأها بن تنقض كالفرقة 101 المحمولة جوًّا وتختفي في الحُفرة بذات السُرعة التي خرج هو بها. قفزت بيڤرلي عليه فأمسك بها بطريقة خرقاء.

قالت لاهثة: «أغلِق كل شيء. أسرِع يا بن بالله عليك! إنهم قادمون!».

- «من؟».

- «هنري وأصدقاؤه! لقد جُن جنون هنري، إن معه مدية...».

كان هذا كافيًا لبن. ألقى الصبي بحلوى النعناع وقصَّته الهزلية، وسحب الباب السحري مُغلقًا إيَّاه بعويلٍ مكتوم. كان سطح الباب من الخارج مُغطًّى برُقع الحشائش، لقد أبقى الغراء المتين عليها ملزوقة بطريقة استثنائية الجودة.

فقط حفنة زهيدة منها بدأت ترتخي قليلًا، هذا كل شيء. شبَّت بيڤرلي على أطراف أصابعها وأغلقت النافذة، وصارا في ظلامٍ تام.

مدَّت يديها باحثة عن بن، وعثرت عليه، واحتضنته بقوَّة مذعورة. بعد لحظة، احتضنها بدوره. كان كلاهما جاثيًا على رُكبتيه. ثم بذُعرٍ مُفاجئ، أدركت بيڤرلي أن راديو ريتشي الترانزستور ما زال يعمل في مكانٍ ما وسط هذا العتمة، ومنه يشدو ليتل ريتشارد: «الفتاة لا ذنب لها».

- «بن... الراديو... سيسمعونه».

- «يا إلهي!».

رفسها بفخذه المُكتنز لحمًا وكاد أن يطيح بها أرضًا في الظلام. سمعت الراديو يسقط على الأرض. «الفتاة لا ذنب لها إن كان الرجال يقفون ويحملقون»، هكذا أبلغهم ليتل ريتشارد بحماسته الرخيمة المألوفة. «لا ذنب لها»، هكذا أدلت الجوقة المُصاحبة بشهادتها. «الفتاة لا ذنب لها». راح بن يلهث الآن بدوره. كان كلاهما يهلث كمُحرِّك بُخاري.. وفجأة صدر صوت شيء ينسحق... ثم عمَّ الصمت.

قال بن: «اللعنة. لقد سحقته بقدمي. ريتشي سيقتلني»، ثم تلمَّس طريقه إليها في الظلام. شعرت بيده تلمس أحد نهديها، ثم تُسحب سريعًا كالملسوعة. مدَّت يدها إليه، وأمسكت بالتيشرت الذي يرتديه وجذبته نحوها.

- «بيڤرلي، ماذا...».

- «ششششش!»

صمت بن.

جلسا أرضًا مُتعانقان وينظران إلى أعلى. لم يكن الظلام تامًّا.. ثمَّة خط رفيع من الضوء يدخل من أحد جوانب الباب السحري، وثلاثة خيوط أخرى تحِدُّ النافذة الصغيرة. أحد هذه الخطوط كان عريضًا بما يكفي ليسمح بالضوء المائل أن يسقط داخل مقرِّ النادي.. ولم يكن أمامها سوى الدعاء ألَّا يلاحظوه.

أنصتت إلى اقترابهم. في البداية لم تكن تتبيَّن الكلمات... ثم تبيَّنتها. انقبض كفَّاها المُمسكان ببن أكثر.

كان ڤيكتور يقول: «إذا كانت ذهبت إلى منطقة أعواد الخيزران، فسيكون تقفِّي أثرها يسيرًا».

أجابه هنري: «إنهم يعتادون اللعب في مكانٍ ما هنا». كان صوته مُرهَقًا، والكلمات تخرج منه في أنفاسٍ قصيرة، كأنه يبذل جهدًا عظيمًا. «هذا ما قاله تاليندو الماخط.. وفي ذلك اليوم الذي حاربناهم فيه بالحجارة، كانوا قادمين من هذا المكان».

قال بيلش: «أجل، إنهم يلعبون بالمُسدَّسات وأمور من هذا القبيل».

فجأةـ بدأوا يقرعون بخطواتهم فوق رأسيهما، وراح الغطاء المُغطَّى بالأعشاب يهتزُّ صعودًا وهبوطًا. تغربلت التُربة ساقطة إلى وجه بيڤرلي المُشرئب إلى أعلى. كان أحدهم، أو اثنان منهم، أو ثلاثتهم يقفون الآن على سطح مقرِّ النادي. تقلَّصت عضلة في بطنها، وكانت في حاجة إلى عضِّ شيءٍ لكتم صرختها، وضع بن يده الكبيرة على جانب وجهها ودفنه في ذراعه وهو ينظر إلى أعلى ليرى إن كانوا يخمِّنون مكانهم بالفعل أم هم يعلمون المخبأ ويمارسون فقط بعض الألعاب عليهم.

كان هنري يقول: «إن لديهم مخبأ. لقد أخبرني بوجرز بذلك. بيت شجرة أو شيءٍ آخر. إنهم يُسمُّونه ناديهم».

قال ڤيكتور: «سأناديهم، إذا كانوا في حاجة إلى نداء». أطلق بيلش ضحكة حمار مدوِّية على هذه الدعابة.

ثاد، ثاد، ثاد، وقع الخطوات الثقيل من فوقهما. تحرَّك الغطاء إلى أعلى وأسفل أكثر هذه المرَّة. سيلاحظونه من دون ريب. الأرض العادية لا تتصرَّف هكذا.

قال هنري: «لنتفحَّص النهر. أراهن أنها ستكون هناك».

قال ڤيكتور: «حسنًا».

ثاد، ثاد. إنهم يتحرَّكون. تنهَّدت بيڤرلي تنهيدة خلاص صغيرة من بين أسنانها التي تجزُّ عليها، ثم قال هنري: «ابقَ هنا يا بيلش وراقب الطريق».

قال بيلش: «حسنًا»، وبدأ يسير جيئةً وذهابًا. كان يغادر الغطاء أحيانًا، ويعود إليه أحيانًا. مزيد من التُربة تتغربل داخل الحُفرة. نظر بن وبيڤرلي أحدهما إلى الآخر بوجهين مُنهكين وتعلوهما الأوساخ. بعد قليل، شمَّت

بيڤرلي رائحة تعرُّق ونتانة في الحُفرة، لا رائحة الدُخان فحسب. فكَّرت آسفة: هذه رائحتي، وبالرغم من الرَّائحة، احتضنت بيڤرلي بن بقوَّة أكبر. بدا جسده الضخم فجأة مُرحِّبًا ومُطمئِنًا تمامًا، وكانت مُمتنة أنه يوجد كثيرٌ منه لاحتضانه. رُبَّما لم يكن بن سوى صبي بدين مذعور عندما انتهت الدراسة وبدأ الصيف، لكنه صار أكثر من ذلك بكثير الآن.. لقد تغيَّر، مثلهم جميعًا. إذا اكتشف بيلش أمرهما، فلرُبَّما سيُفاجئه بن مُفاجأة غير سارَّة.

قال بيلش: «سأناديهم، إذا كانوا في حاجة إلى نداء»، وضحك. كانت ضحكة بيلش من النوع الخفيض، ولها طابع ضحكات الأقزام. «سأناديهم، إذا كانوا في حاجة إلى نداء. هذه نكتة جيِّدة، إنها بارعة تمامًا».

شعرت بيڤرلي أن جسد بن العلوي بدأ يعلو ويهبط في حركاتٍ قصيرة حادَّة. كان يسحب الهواء إلى رئتيه ويخرجه في أنفاسٍ قصيرة. للحظة مُخيفة ظنَّت أنه سيبدأ في البكاء، ثم ألقت نظرة مُتفحِّصة إلى وجهه وأدركت أنه يكافح لكتم ضحكاته. التقت عيناه اللتان تنسال الدموع منهما بعينيها، ثم أشاح بهما بعيدًا بجنون، وفي الضوء الخافت الذي يشق طريقه عبر الشقوق المُحيطة بالباب السحري والنافذة، استطاعت رؤية أن وجهه صار أرجوانيًّا من جهاده للإبقاء على الأمر لنفسه.

قال بيلش: «سأناديهم، إذا كانوا في حاجة إلى نداء، داء، داء»، وجلس بقوَّة في مُنتصف الغطاء الخارجي. هذه المرَّة اهتزَّ السقف بشكل أكثر إثارة للقلق، وسمعت بيڤرلي صوت الكررراااك المشؤوم يصدر عن إحدى الدعامات. كان القصد من الغطاء هو دعم رُقع من الحشائش والأعشاب على سطحه بغرض التمويه، لكن ليس لحمل مئة وستين رطلًا إضافيًا؛ وزن بيلش هاجنز.

إذا لم يقرر النهوض، فسيسقط في حجرينا، هكذا فكَّرت بيڤرلي، وبدأت عدوى بن الهِستيرية في الانتقال إليها. راحت تشهق وتنهق بضحكاتٍ زنخة الرَّائحة تحاول الإفلات منها.. وبعين الخيال، رأت نفسها فجأة تدفع النافذة جُزئيًا وتُخرج يدها وتدس إصبعها بمهارة وتنغز بيلش هاجنز في جانبه وهو جالس أسفل أشعة شمس الظهيرة الغائمة يغمغم ويضحك. دفنت بيڤرلي وجهها في صدر بن في محاولة أخيرة للإبقاء على انفجارها داخلها.

همس بن: «ششششش، بالله عليك يا بيڤ...».

كررر اااااك. الصوت أعلى هذه المرَّة.

همست بيڤرلي: «هل ستصمد الحُفرة؟».

قال بن: «غالبًا، فقط لو لم يضرط»، وبعدها بلحظة ضرط بيلش ضرطة جيِّدة بالفعل.. ضرطة عالية الصوت كالبوق استمرَّت لثلاث ثوانٍ على الأقل. أمسك أحدهما بالآخر بشكل أكثر إحكامًا، وكتما ضحكاتهما في جسديهما. كان رأس بيڤرلي يؤلمها بشدَّة لدرجة أنها شعرت أنها ستُصاب بسكتة دماغية.

ثم في النهاية، سمعت صوت هنري البعيد الخافت يُنادي بيلش.

صاح بيلش: «ماذا؟»، وهو ينهض خابطًا وضاربًا ما جعل مزيدًا من التُربة تتغربل فوق رأسي بيڤرلي وبن. «ماذا تقول يا هنري؟».

أجابه هنري بشيءٍ لم تستطِع بيڤرلي تبيُّن منه سوى كلمتيّ ضِفَّة وشجيرات.

صاح بيلش: «حسنًا»، وخطت قدماه فوق الغطاء للمرَّة الأخيرة. صدر ضجيج أخير أكثر ارتفاعًا هذه المرَّة، وسقطت شظية خشبٍ في حجر بيڤرلي. رفعتها بيڤرلي مندهشة.

قال بن همسًا: «خمس دقائق أخرى. هذا كل ما سيحتاجه الأمر».

سألته بيڤرلي وهي تبدأ في الضحك من جديد: «هل سمعت صوت ضرطته؟».

قال بن: «أجل، الحرب العالمية الثالثة»، وبدأ يضحك بدوره.

كان إطلاق العنان لتلك الضحكات شعورًا مُريحًا تمامًا، وقد فعلاها بجموح، وحاولا خفضها قدر الإمكان.

في النهاية، قالت بيڤرلي دون أن تعي أنها كانت ستقول ذلك على الإطلاق (ودون صلة حقيقية بالموقف الذي هما فيه): «شُكرًا على القصيدة يا بن».

توقَّف بن عن الضحك في الحال، ونظر إليها بحذرٍ بالغ.. ثم أخرج منديلًا قذرًا من جيبه الخلفي ومسح به وجهه ببطء، وقال: «قصيدة؟».

– «الهايكو. قصيدة الهايكو على البطاقة البريدية. أنت من أرسلها، أليس كذلك؟».

قال بن: «لا، لم أُرسل إليك أيَّ قصيدة، لأن لو صبي مثلي -صبي بدين مثلي- فعل شيئًا كهذا، فستسخر منه الفتاة غالبًا وتضحك عليه».

- «لكنني لم أضحك. لقد ظننت أنها جميلة».

- «أنا لا أستطيع كتابة أيَّ شيءٍ جميل. رُبَّما بيل من بعثها. ليس أنا».

قالت موافقة: «قد يكتب بيل لي، لكنه لن يكتب شيئًا بمثل هذه العذوبة. هل لي أن أستخدم منديلك؟».

ناولها بن المنديل وبدأت تُنظِّف وجهها بأفضل ما تستطيع.

في النهاية سألها: «كيف عرفتِ أنه أنا؟».

قالت له: «لا أعلم. عرفت فحسب».

تحشرجت حنجرة بن مُتقلِّصة، وخفض بصره نحو يديه، وقال: «لم أعنِ شيئًا بها».

نظرت إليه بعبوسٍ وقالت: «ليتك لا تعني ما تقول الآن، لأنه سيفسد يومي إن كنت تعنيه بالفعل.. وكما ترى، ليس هذا يوم حظي من بدايته».

استمرَّ بن في التحديق إلى يديه، وفي النهاية تحدَّث بصوتٍ مسموعٍ بالكاد: «حسنًا، أنا أحبك يا بيڤرلي، لكنني لا أريد إفساد صداقتنا».

قالت وهي تحتضنه: «لن يحدث ذلك، أنا في حاجة إلى كل الحب الذي أستطيع الحصول عليه الآن».

- «لكنك تميلين إلى بيل بشكلٍ خاص».

قالت له: «رُبَّما. لكن هذا لا يهم. إذا كنا كبارًا، لرُبَّما كان الأمر سيهمُّ نوعًا.. لكنني أحبكم جميعًا بشكلٍ خاص. أنتم أصدقائي الوحيدون. أنا أحبك أيضًا يا بن».

قال لها: «شكرًا لك»، ثم توقَّف قليلًا ليلفظ الحقيقة، بل استطاع حتَّى أن ينظر في عينيها وهو يقولها: «أنا الذي كتبت القصيدة».

جلسا دون أن يتفوَّها بشيءٍ لبعض الوقت. شعرت بيڤرلي بالأمان.. والحماية. خفتت صور أبيها ومدية هنري وصارت أقل سطوعًا وتهديدًا وهما مُتلاصقان هكذا. كان من الصعب تعريف ذلك الشعور بالحماية، وهي لم تحاول ذلك، رغم أنها ستدرك لاحقًا مصدر تلك القوَّة: إنها بين ذراعي

ذكرٍ مُستعد للموت في سبيلها دون ذرَّة تردُّد عل الإطلاق. لقد عرفت هذه الحقيقة ببساطة، فقد كانت مطمورة في الرَّائحة التي تبثّها مسامه. كانت شيئًا بدائيًّا تمامًا لدرجة أن غُددها تستطيع الانفعال بها.

قال بن فجأة: «الآخرون قادمون، ماذا لو أمسكوا بهم في الخارج؟».

اعتدلت بيڤرلي في جلستها، وأدركت أنها كادت أن تغفو. تذكَّرت الآن: لقد دعا بيل مايك هانلون إلى منزله لتناول وجبة الغداء، وقال ريتشي إنه سيصحب ستان لتناول بعض الشطائر، ووعدهم إدي أنه سيجلب لوح الليدو معه بعد الاستراحة. سيعودون قريبًا، جاهلين تمامًا وجود هنري وأصدقائه في البرِّية.

قالت بيڤرلي: «يجب أن نُحذِّرهم. هنري لا يُطاردني وحدي».

- «إذا خرجنا وعادوا...».

- «أجل، أعلم. لكننا نعرف على الأقل أنهم هنا، أما بيل والآخرون فلا يعرفون. إدي لا يستطيع الركض، وقد كسروا له ذراعه بالفعل من قبل».

قال بن: «يا للمسيح. أظنُّ أنه يتحتَّم علينا المخاطرة بالخروج».

- «أجل». قالتها وابتلعت ريقها ونظرت إلى ساعة معصمها التايمكس. كان من الصعب قراءتها في هذه العتمة، لكنها ظنَّت أن الوقت جاوز الواحدة بقليل.

- «بن...».

- «ماذا؟».

- «لقد جُنَّ هنري بالفعل. إنه مثل ذلك الفتي في فيلم بلاكبورد چانجل. كان سيقتلني بمعونة الاثنين الآخرين».

قال بن: «أوه لا. هنري مجنون، لكن ليس إلى هذا الحد. إنه مُجرَّد...».

قالت بيڤرلي: «مُجرَّد ماذا؟»، وتذكَّرت مشاهدة هنري وباتريك في ساحة السيَّارات الخُردة أسفل أشعة الشمس الثقيلة... تذكَّرت عيني هنري الخاليتين من التعبير.

بن لم يرُد. كان يُفكِّر. لقد تغيَّرت الأمور، أليس كذلك؟ عندما يكون المرء جزءًا من التغيير، فمن الصعب عليه مُلاحظته. يجب عليك أن تأخذ

خطوة إلى الوراء للنظر إلى الصورة الشاملة. عندما انتهت الدراسة كان يخاف هنري، لكن هذا فقط لأن هنري أكبر، ولأنه بلطجي من النوع الذي يتحرَّش بالأطفال في الصف الدراسي الأول، ويلوي أذرعتهم، ثم يتركهم يبكون. لكن ليس هذا كل شيء. لقد قطع بالمدية بطن بن، ثم حدثت مناوشة الحجارة، وراح يلقي بصواريخ M-80 على أدمغتهم. تستطيع قتل شخص بسهولة بهذه الأشياء. ثم بدأ يبتدَّل... وصار مُستحوَذًا عليه تقريبًا، وبدا من الواضح أنه يتحتَّم عليك الحذر منه دائمًا، بذات الطريقة التي تحذر بها من النمور أو الأفاعي السامة إذا ضللت طريقك في غابةٍ ما. لكنك تعتاد الأمر بعدها.. تعتاده لدرجة أنه لا يبدو هامًّا حتَّى، فقط يصير من طبيعة الأشياء.
هنري مجنون. أجل. لقد علم بن هذا في آخر يوم في الدارسة، وظلَّ يرفض تصديقه أو تذكُّره عمدًا. لم يكن هذا من الأمور التي قد ترغب تصديقها أو تذكُّرها. ثم فجأة زحفت فكرة مُخيفة إلى عقله كما يزحف البرد على وحل أكتوبر.. فكرة قويَّة جدًّا تكاد أن تكون يقينًا: الشَّيء يستخدم هنري. ربَّما يستخدم باقي عصابته كذلك، لكنه يستخدمهم من خلاله، وإذا كانت هذه حقيقة، فقد تكون بيڤرلي مُحِقَّة. ليس ذلك مُجرَّد تحرُّش مُعتاد في نهاية يوم دراسي، بينما مسز دوجلاس تقرأ كتابًا وهي تجلس إلى مكتبها.. ليس مُجرَّد دفعة قوية على أرضية الفناء كي تسقط وتجلط الجلد عن رُكبتيك. إذا كان الشَّيء يستخدم هنري، فهنري سيستخدم مطواته.

كانت بيڤرلي تقول: «لقد رأت سيِّدة عجوز اعتداءهم عليَّ، فلاحقها هنري وركل مصباح سيَّارتها الخلفي».

أثار هذا قلق بن أكثر من أيِّ شيء آخر. كان يعلم بالسليقة أنهم -كمعظم الأطفال- يعيشون تحت أنظار -وبالتالي أفكار- مُعظم البالغين. عندما يسير أحد الكبار على قارعة الطريق، وهو يُفكِّر في العمل والاجتماعات وشراء السيَّارات أو أيِّ شيءٍ آخر يشغل بال الكبار، فهو لا يلحظ الأطفال الذي يلعبون الحجلة، أو المُسدَّسات، أو مُبارة كُرة بعبوَّة صفيح، أو الغُمِّيضة، أو المسَّاكة. يستطيع البلطجية أمثال هنري إيذاء الصبية الآخرين إذا حرصوا أن يظلوا تحت مستوى الأنظار.. وأقصى ما سيحدث، أن يقول أحد الكبار وهو

يعبر الطريق شيئًا على غرار: «لِمَ لا تكُفَّ عن هذا!»، ثم يمضي في طريقه وهو يدندن دون أن يتوقَّف ليرى إن كان البلطجي قد كفَّ أم لا. لذا ينتظر البلطجي وصول الشخص البالغ إلى المُنعطف التالي، ثم يعود ويمارس عمله من جديد. الأمر يبدو كأن الكبار يظنون أن الحياة الحقيقية لا تبدأ إلا حين يبلغ المرء طولًا مُعيَّنًا ويصير شخصًا يُهتم لأمره.

إذا كان هنري قد لاحق تلك السيِّدة العجوز، فهو قد ارتفع إلى مستوى الأنظار.. وهذا ما أكد لبن -أكثر من أيِّ شيءٍ آخر- أنه جُنَّ حقًّا.

رأت بيڤرلي التصديق في عيني بن وشعرت بالراحة تسري في أوصالها. لن تضطر إخباره أن السيِّد روس طوى جريدته ببساطة ودخل إلى منزله. لم تكن تريد إخباره بذلك، لأن الأمر مُخيف جدًّا.

قال بن: «لنذهب إلى شارع كانساس»، ثم فتح الباب السحري عنوة وأردف: «استعدي للركض».

وقف بن في العراء ينظر حوله. كانت الفرجة التي تحيط بالمقرِّ هادئة. كان يسمع خرير مياه الكِندوسكيج قريبة، وزقزقة العصافير، وصوت مُحرِّك ديزل قطارٍ ما يشق طريقه هادرًا إلى ساحة القطارات. لم يسمع صوتًا آخر، وقد أشعره هذا ببعض الراحة. كان سيشُعر براحة أكبر لو سمع هنري وڤيكتور وبيلش يطلقون السباب وهم يشقون طريقهم عبر الأشجار المُتشابكة قرب التيَّار، لكنه لم يكن يسمع أصواتهم على الإطلاق.

قال لها: «هيا»، وساعدها على الخروج. نظرت بيڤرلي بدورها في المكان بقلق، وهي تدفع خصلات شعرها إلى الوراء، ليعلو وجهها عبوسٌ من ملمسه اللزج.

أخذ بن يدها واندفعا عبر ستار الشُجيرات مُتَّجهين صوب شارع كانساس.

- «يجب ألا نسلك الدرب».

قالت له: «لا.. سيعطِّلنا هذا».

أومأ قائلًا: «حسنًا».

عادا إلى الدرب من جديد، وبدآ في التقدُّم نحو شارع كانساس. في أثناء عدوهما، تعثَّرت بيڤرلي في حجرٍ...

7

تخوم معهد اللاهوت/ الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة صباحًا

... وسقط بقوَّة على الرصيف الذي يُضيئه القمر الفِضِّي. فلتت أنَّة منه رغمًا عنه، وسال خيطٌ من الدماء مع أنينه وتقاطر على أسمنت الرصيف المُشقَّق. في ضوء القمر، كانت الدماء سوداء اللون كدماء خُنفسة. نظر هنري إليه بُرهة طويلة سادرًا، ثم رفع رأسه لينظر حوله.

كان شارع كانساس هادئًا تمامًا كما يكون في النهار الباكر، والمنازل مُغلقة ومُظلمة باستثناء ذرٍّ من الأضواء الليلية.

ها هي فتحة المجاري.

توجد بالونة معقودة في إحدى القضبان الحديدية. كانت البالونة تتمايل وتتقافز في النسيم الخفيف.

نهض هنري واقفًا، وضغط بيدٍ لزجة بطنه. لقد طعنه الزنجي بشكلٍ خطير، لكنه ردَّ له الصاع صاعين. أي نعم. ما يظُنُّه الزنجي لا يهم، فهنري يشعر أنه أجهز عليه.

غمغم هنري: «لقد فشخت الفتى»، وتجاوز البالونة الطافية في الهواء مُترنِّحًا. التمعت دماء طازجة جديدة على يده من معدته. «انتهى أمره. لقد فشخت الأبله. سأفشخهم جميعًا. سأعلمهم كيف يلقون الحجارة».

كان العالم يدور ويموج ببطء أمام ناظريه في موجاتٍ ضخمة كالتي يعرضونها قبل كل حلقة من مُسلسل هاواي فايف أو على التلفاز.

(اعتقلهم يا دانو.. ها ها ها، لكم كان چاك لورد لعينًا قويَ المراس. چاك لورد اللعين كان يفشخ الجميع بمهارة تامة).. وهنري يستطيع، هنري يستطيع، هنري بالكاد يستطيع...

(أتسمع الصوت الذي يُحدثه الشباب في أوهاو وهم يرجرجون مؤخِّراتهم ويهزونها...

(يهزونها يهزونها يهزونها

(تلك حقيقة العالم. أغنية «بايب- لاين» لفريق شانتيس. هل تذكر أغنية «بايب- لاين» يا صاح؟ تلك الأغنية فشيخة. أيضًا ماذا عن تلك الضحكة البلهاء في بداية أغنية «وايب-أوت». إنها تشبه ضحكة باتريك هوكستيتر. ذلك الشاذ اللعين. لقد فشخ نفسه، وبما أنني)

كان قلقًا من فكرة أن كل هذه الهلاوس ناتجة عن وجود...

(أن تطرد أحدهم لهو أمرٌ رائع. اِنكَح جيدًّا، لا بأس، لا بأس تمامًا)

(حسنًا، عودة إلى «بايب- لاين». لا تراجع ولا استسلام، ليسوا أولادي، اقتنص الموجة، واعتليها

(اعتليها اعتليها اعتليها

اِعتَلِ الموجة، وتزلَّج على الرصيف معي.. اِعتَلِ الخط، واِعتَلِ العالم، لكن حافظ على)

... أُذُن في رأسه: تلك الأُذُن لا تنفك عن سماع صوت التزلُّج. توجد عينٌ في رأسه: وتلك العين لا تنفك عن رؤية رأس ڤيكتور المتواثب أعلى ذلك القضيب المُلولب.. الرأس المُلطَّخ بورودٍ دامية.

تطلَّع هنري إلى يساره بعينين غائمتين، ووجد أن سياجًا من شُجيرات طويلًا وأسود استبدل المنازل، ومن خلفه لاح القرميد الڤيكتوري الكئيب لمبنى معهد اللاهوت. لقد تخرَّجت آخر دُفعة في المعهد في يونيو عام 1974، ومن يومها أغلق المعهد أبوابه وصار خاويًا.. والآن أيًّا كان من يسير هناك فهو يسير وحيدًا، لكن حتَّى الأشباح تحتاج إذن نادي النساء الثرثارات اللواتي يُسمين أنفسهن جمعية ديري التاريخية قبل التجوُّل فيه.

سار هنري في الممشى الذي يقود إلى الباب الأمامي. كان مُغلقًا بسلسلة حديدة ثقيلة مُعلَّق منها لافتة معدنية تقول: هذه الأرض تحت حماية قسم شُرطة ديري. ممنوع التعدي.

تعثَّرت قدم هنري في الممشى وسقط فوق الرصيف بقوَّة مرَّة أخرى. أمامًا، انعطفت سيَّارة آتية من شارع هاوثورن إلى شارع كانساس. مسح

مصباحا السيَّارة الأماميان الطريق. قاوم هنري الدوار قدر استطاعته ورأى الأضواء التي تعلوها: إنها سيَّارة شُرطة.

زحف هنري أسفل السلسلة الكبيرة، وشق طريقه يسارًا، واختفى خلف السياج الشجري. كان إحساس النداوة على وجهه رائعًا. استلقى ووجهه إلى أسفل، مُديرًا رأسه من جانبٍ إلى آخر، مُبلِّلًا وجنتيه، وشرب من الماء قدر استطاعته.

اجتازته سيَّارة الشُرطة من دون إبطاء.

ثم فجأة، عادت مصابيحها تغسل العتمة بوميض أضواءٍ زرقاء مُتقطِّعة غير مُنتظمة. لم يكن ثمَّة حاجة لإطلاق صافرة الإنذار في الشوارع الخاوية، لكن هنري سمعها تدور 180 درجة وتنطلق في الاتِّجاه المُعاكس بأقصى سُرعة، وإطاراتها تعوي صارخة على أسفلت الطريق.

راح عقله يهذي: لقد ضُبطت، لقد ضُبطت... ثم أدرك أن سيَّارة الشُرطة تمضي في طريقها شمال شارع كانساس. بعدها بلحظة، ملأ صوتٌ جُهنِّميٌّ صاخبٌ الهواء قادمًا صوبه من الجنوب. تخيَّل هنري أن قطًا أسود حريريًا عملاقًا يجري عبر الطريق، عينيه خضراوان وجسده ليِّن. إنه الشَّيء في ثوبٍ جديد، وهو قادم نحوه، أتٍ لالتهامه.

شيئًا فشيئًا (وفقط عندما بدأ الصوت يذوي) أدرك هنري أنها مُجرَّد سيَّارة إسعاف تسلك الطريق الذي سلكته سيَّارة الشُرطة. استلقى أرضًا يرتعد فوق العُشب المُندَّى الذي صار باردًا جدًّا الآن، وجاهد

(صه يا بن العم، تكلَّم يا بن العم، ثمَّة دجاجة في الحظيرة، أيُّ حظيرة، حظيرة من، حظيرتي)

كي لا يتقيَّأ. كان يخشى لو تقيَّأ أن تخرج أمعاؤه جميعًا من فمه، وهو ما زالت أمامه مهمَّة التخلُّص من خمسة آخرين.

سيَّارة إسعاف وسيَّارة شُرطة. إلى أين تتَّجهان؟ إلى المكتبة بالتأكيد. إلى الزنجي. لكنهما تأخرتا كثيرًا. يُمكنكم إسكات صافرات الإنذار يا رفاق، فهو لن يسمعها. لقد مات وشبع موتًا. إنه...

لكن أهو ميِّت حقًّا؟

لعق هنري شفتيه المُتشقِّقتين بلسانه القاحل. لو كان الزنجي قد مات، فلم يكن صافرات الإنذار ستعوي في عمق الليل. ليس إلا إذا كان الزنجي قد اتَّصل بهم.. لذا رُبَّما الزنجي لم يمُت.

قال هنري لاهثًا: «لا»، ثم انقلب على ظهره وحدَّق في السماء نحو ملايين النجوم التي تُرصِّعها. لقد جاء الشَّيء من هناك، إنه يعلم ذلك. من مكانٍ ما في تلك السماء.

جاء الشَّيء...

(جاء من الفضاء الخارجي بشهوة عارمة لنساء الأرض. لقد جاء لسلب كل النساء واغتصاب كل الرجال، لكن يا فرانك، ألا تعني سلب كل الرجال واغتصاب كل النساء أيُّها الأبله. لقد اعتاد ڤيكتور قول ذلك، وهذا إلى حدٍ كبير...)

... من الفضاء بين تلك النجوم. أثار النظر إلى تلك السماء المُزدانة بالنجوم رجفته: إنها شاسعة تمامًا، وشديدة السواد. كان من اليسير جدًّا تخيُّلها تستحيل حمراء قانية بلون الدماء، ومن الممكن جدًّا تخيُّل وجهًا يتشكَّل في خطوط النار...

أغلق هنري عينيه وهو يرتجف ويحيط بطنه بذراعيه. الزنجي مات. لقد سمع أحدهم عراكنا وأرسل الشُرطة لتقصِّي الأمر، هذا كل شيء.

إذًا لماذا سيَّارة الإسعاف؟

تأوَّه هنري: «اخرس، اخرس»، وقد استشعر الحيرة الغاضبة القديمة ذاتها مرَّة أخرى. تذكَّر كيف هزموه مرَّة واثنتين وثلاث في الأيَّام الخوالي.. الأيَّام الخوالي التي تبدو قريبة جدًّا وحيَّة تمامًا الآن.. وكيف كان يظنُّ في كل مرَّة أنه قبض يده عليهم، قبل أن يتفلَّتوا بعدها من بين أصابعه بشكلٍ ما. لقد حدث ذلك في اليوم الأخير، بعدما رأى بيلش العاهرة الصغيرة تركض عبر شارع كانساس صوب البرِّية. إنه يتذكَّر ذلك، أوه أجل، يتذكَّر ذلك بوضوحٍ كبير. أنت لا تنسى عندما تُركل في خصيتيك بقوَّة. لقد تكرَّر هذا معه كثيرًا في ذلك الصيف.

كافح هنري للاعتدال إلى وضع الجلوس، والتوى ألمًا من ذلك الخنجر الذي يشعر به في أمعائه.

لقد ساعده ڤيكتور وبيلش على النزول إلى البرِّية، واستطاع هو أن يسير

بأسرع ما يستطيع بالرغم من الألم الذي كان يقبض ويسحب منطقة عانته وأسفل بطنه. كان الوقت قد حان لإنهاء الأمر. لقد قطعوا الدرب ووصلوا إلى الفرجة التي تتفرَّع منها خمسة أو ستَّة دروب كخيوط شبكة عنكبوت. أجل، يبدو على المكان أن أحدهم يأتي إليه للعب، لست في حاجة إلى أن تكون تونتو لتعرف ذلك. توجد بقايا أغلفة حلوى، وذخيرة مُسدَّسات أطفال حمراء وسوداء فارغة، وتتناثر ألواح الخشب والنشارة في المكان، كما لو أن شيئًا كان يُبنى هنا.

تذكَّر هنري الوقوف في مُنتصف الفرجة وتفقُّد الأشجار بحثًا عن منزل شجرتهم التافه. سيجده وسيتسلَّقه وسيعثر على الفتاة مُختبئة في ذُعرٍ هناك، وعندها سيستخدم مطواته كي يقطع حنجرتها وهو يتلمَّس نهديها بلُطفٍ ورويَّة إلى أن تهمد حركتها.

لكنه لم يستطع رؤية أيَّ مخبأ، ولم يره بيلش وڤيكتور كذلك. تصاعد الحنق القديم المألوف في حلقه. لقد ترك هو ڤيكتور بيلش ليحرس الفرجة الخالية من النباتات، فيما اتَّجها هما إلى النهر، لكنهما لم يعثرا على أثرٍ لها هناك أيضًا. إنه يتذكَّر الانحناء أرضًا والتقاط الحجارة و...

8

البرِّية/ الثانية عشرة وخمس وخمسون دقيقة ظهرًا

... الإلقاء بها بعيدًا مع مجرى النهر في حنقٍ وتخبُّط. «أين ذهبت بحق اللعنة؟». هكذا صاح مُوجِّهًا سؤاله إلى ڤيكتور.

هزَّ ڤيكتور رأسه ببطء قائلًا: «لا أعرف. أنت تنزف».

خفض هنري بصره وشاهد بُقعة غامقة في حجم رُبع دولارٍ في حجر سراويله الچينز. لقد انسحب الوجع وصار نبضًا مؤلمًا طفيفًا، لكنه شعر أن لباسه الداخلي صار ضيِّقًا وصغيرًا جدًّا. لقد تورَّمت خصيتاه. شعر بالغضب يتصاعد داخله من جديد، وبشيءٍ كأنشوطة غليظة يلتف حول قلبه. هي التي فعلت ذلك به.

فحَّ في وجه ڤيكتور كالأفعى: «أين هي؟».

كرَّر ڤيكتور في صوتٍ بليد: «لا أعرف». كان يبدو مُنوَّمًا، كمن أُصيب بضربة شمس.. ولم يكن حاضرًا بوعيه على إطلاق. «أظُنُّها هربت. يُمكنها أن تكون قطعت شوطًا كبيرًا إلى اللسان القديم الآن».

قال هنري: «لا. إنها مُختبئة. إن لديهم مكانًا هنا وهي تختبئ فيه. رُبَّما هو ليس منزل شجرة، بل شيءٌ آخر».

- «مثل ماذا؟».

صرخ هنري: «لا... أعرف!»، فانكمش ڤيكتور جافلًا.

وقف هنري داخل مياه الكِندوسكيج ينظر حوله باحثًا، والمياه الباردة تجري حول حذاءيه. تركَّزت عيناه على جسم أُسطُواني يبرز من الضِفَّة على مسافة عشرين قدمًا مع اتِّجاه التيَّار. هذه إحدى محطَّات الضخ. خرج هنري من الماء واتَّجه إليها، واستشعر شيئًا من الرهبة يستقرُّ داخله. بدا له أن جلده قد شُدَّ، وأن عينيه اتَّسعتا كي تتمكَّنا من الرؤية أكثر وأكثر. استطاع الإحساس بالشُعيرات الصغيرة في أُذُنيه تتمايل وتتحرَّك كُأعشاب بحرٍ يُحرِّكها المد والجذر أسفل الماء.

هناك طنين خفيض ينبعث من محطَّة الضخ.. وخلفها، استطاع رؤية ماسورة تبرز بشكل أفقي وتصبُّ وحلًا لزجًا لا ينقطع في مياه الكِندوسكيج.

انحنى هنري فوق غطاء الأُسطُوانة الحديدي المُستدير.

قال ڤيكتور في قلق: «هنري؟ هنري؟ ماذا تفعل؟».

لم يولِه هنري اهتمامًا، وحدَّق بعينٍ واحدة عبر أحد الثقوب الدائرية في الغطاء ولم يرَ شيئًا سوى الظلام. بعدها بدَّل بعينه أُذُنه.

- «تريَّث...».

هكذا انجرف صوتٌ خرج إليه من العتمة الداخلية، وشعر هنري أن حرارة جسده تهبط سريعًا إلى الصفر، وتجمَّدت أوردته وشرايينه إلى أنابيب كريستالية من الثلج. لكن فضلًا عن تلك الأحاسيس، جاءهُ شعورٌ مجهول تقريبًا: شعور بالحُب. اتَّسعت عيناه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة بهلوانية

مقوَّسة واهنة. إنه الصوت من القمر، وهو يأتي الآن من محطَّة الضخ.. من شبكة المجاري بالأسفل.

- «انتظر... وراقب».

أطاع هنري وانتظر، لكن شيئًا لم يحدث: فقط الطنين الرتيب المُنوِّم لعمل ماكينات الضخ. عاد هنري بعدها إلى حيث يقف ڤيكتور فوق الضِفَّة ويراقبه بحذر. تجاهله هنري ونادى على بيلش. بعد هنيهة، جاء بيلش.

قال له: «هيَّا بنا».

سأله بيلش: «ماذا سنفعل يا هنري؟».

- «سننتظر ونراقب».

تسلَّل ثلاثتهم عائدين إلى المساحة الخالية وجلسوا. حاول هنري إزاحة لباسه التحتي الذي يسحق خصيتيه، لكن الألم كان كاسحًا.

قال بيلش: «هنري، ماذا...».

- «ششش!».

أطاع بيلش والتزم الصمت. كانت بحوزة هنري سجائر لكنه لم يخرجها أو يعرضها عليهما. لم يكن يريد أن تشم الساقطة الصغيرة رائحة الدُخان إذا كانت في الجوار. كان يستطيع شرح هذا لهما، لكن لم تكن ثمَّة حاجة لذلك. لقد تحدَّث الصوت إليه بكلمتين فحسب، لكنهما تشرحان كل شيء. إنهم يلعبون هنا، وقريبًا سيأتي الآخرون. لماذا يرضى بالعاهرة فحسب إن كان في مقدوره اصطياد الطيور السبعة الصغار؟

انتظر ثلاثتهم وراقبوا. بدا أن ڤيكتور وبيلش قد غابا في النوم بعيونٍ مفتوحة. لم يكن انتظارهم طويلًا، لكن كان أمام هنري مُتَّسع من الوقت للتفكير في أمورٍ جيِّدة مختلفة. على سبيل المثال، كيف عثر على مطواته هذا الصباح. لم تكن هذه نفس المدية التي كانت معه في آخر يوم في الدراسة، لقد فقد تلك الأخيرة في مكانٍ ما. لكن هذه تبدو أكثر روعة.

لقد جاءته بالبريد.

بشكلٍ أو بآخر.

كان يقف في الشُرفة، ثم نظر إلى صندوق بريدهم العتيق البالي، وحاول

استيعاب ما يراه. كان الصندوق مُزيَّنًا بالبالونات. اثنتان منهما معقودتان في الخُطَّاف الحديدي الذي يُعلِّق فيه سُعاة البريد الطرود أحيانًا، بينما الأخرى مربوطة في البيرق. حمراء.. صفراء.. زرقاء.. خضراء. بدا الأمر كأن سيركًا غامضًا تسلَّل إلى شارع ويتشام في عُمق الليل وترك هذه العلامة خلفه.

مع اقترابه من صندوق البريد، لاحظ أن ثمَّة وجوهًا مرسومة على البالونات، وجوه الأطفال الذين نكَّدوا عليه طوال هذا الصيف.. الأطفال الذين يسخرون منه عند كل مُنعطف.

حدَّق هنري في هذا الظهور بفم فاغر، ثم راحت البالونات تنفجر واحدة تلو الأخرى. كان هذا جميلًا. يبدو أنه يُفرقعها بمُجرَّد التفكير فيها.. كأنه يقتلها بعقله.

ثم فُتحت كوَّة صندوق البريد بغتةً. سار هنري إليها ونظر بالداخل.. وبالرغم من أن سُعاة البريد لا يعرجون على مزرعتهم النائية قبل حلول منتصف الظهيرة، لم يشعر هنري بأيِّ اندهاش عندما رأى الطرد المُستطيل بالداخل. سحبه هنري الطرد. كانت معلومات المُرسل إليه تقول: السيِّد هنري باورز، خدمة التوصيل المجَّاني إلى المنطقة الريفية 2#، ديري، مين. يوجد أيضًا عنوان مُرسِل: السيِّد روبرت جراي، ديري، مين.

فتح هنري الطرد وترك الغلاف البُنِّي يسقط بإهمال إلى قدميه. ثمَّة صندوق أبيض بالداخل. فتحه هنري ليجد مطواته تستلقي فوق بطانة من القطن الأبيض، فأخذها ودخل إلى المنزل.

كان والده مُضطجعًا فوق فراش القش في غرفة نومهما المُشتركة مُحاطًا بعلب بيرة فارغة وبطنه مُنتفخ ويتدلَّى فوق لباسه الداخلي الأصفر. انحنى هنري جواره مُستمعًا إلى شخيره وتنفسه العسير، مُشاهدًا شفتيه الغليظتين تخفقان وترفرفان مع كل نفس.

ألصق هنري طرف المدية العامل في رقبة والده العجفاء. تحرَّك والده قليلًا ثم استقرَّ نومه الشبيه بنوم الدب من جديد. ظلَّ هنري مُمسكًا بالمدية في هذا الوضع خمس دقائق تقريبًا، بعينين زائغتين شاردتين، وراح إبهامه الأيمن يداعب الزرَّ الفِضِّي الذي يبرز من جانب المدية. تحدَّث الصوت من

القمر إليه. همس له كرياح الربيع الدافئة التي تحمل تيَّارًا باردًا وسطها، وراح يطن في أذنه كعشٍ يمتلئ بشتَّى أنواع الدبابير. راح الصوت يساومه كسياسيٍ رخيم الصوت.

كل ما كان الصوت يقوله بدا فشيخًا بالنسبة إلى هنري، ولهذا ضغط الزر الفِضِّي. صدرت تكَّة من المدية مع تحرُّر سوستتها الداخلية، وقطع النَّصل الذي طوله ست بوصات طريقه عبر رقبة بوتش باورز. لقد مضى في لحمه بالسهولة ذاتها التي يسري بها مِهمَازا شوكة كبيرة في صدر دجاجة أنضجتها النار. برز طرف النصل من الجهة الأخرى، وراح يقطر.

فُتِحَت عينا بوتش في التوِّ، وحدَّق في السقف بفمٍ فاغر. سالت الدماء من رُكني فمه وعلى شفتيه ووصلت إلى شحمتي أذنيه، ثم بدأ يغرغر. تكوَّنت فُقَّاعة من الدماء بين شفتيه المُرتخيتين ثم فرقعت. تلمَّست إحدى يديه رُكبة هنري واعتصرتها. لم يهتم هنري، وسرعان ما ارتخت يده وسقطت، وبعدها بلحظة انقطعت أصوات الغرغرة. لقد مات بوتش باورز.

سحب هنري المدية من عُنقه ومسحها في الملاءة القذرة التي تُغطي فراش والده المحشو بالقش، ثم دفع النصل إلى جرابه إلى أن أصدرت السوستة تكَّتها المُميَّزة. نظر هنري إلى والده دون اكتراثٍ كبير. لقد أخبره الصوت بباقي المهام التي ينبغي عليه الانتهاء منها اليوم وهو جاثٍ جوار بوتش والمدية مُلتصقة بعُنُقه. لقد شرح له الصوت كل شيء.. لذا سار هنري إلى الغرفة المجاورة واتَّصلَ ببيلش وڤيكتور.

وها هم ثلاثتهم هنا الآن.. وبالرغم من أن خصيتيه لم تكفَّا عن إيلامه بشكلٍ رهيب، كان للمدية انتفاخ مُطمئن في جيب سراويله الأيسر. كان يشعر بدنو وقت التقطيع. قريبًا، سيأتي الصبية الآخرون لاستكمال ألعابهم الطفولية البلهاء، وعندها سيبدأ التقطيع. لقد شرح له الصوت من القمر الأمر وهو راكع جوار والده، وفي أثناء طريقه للمدينة، لم يستطِع هنري رفع عينيه عن ذلك القرص الشاحب الشبحي في السماء. لاحظ هنري أن هناك رجُلًا على القمر بالفِعل، وجهًا شبحيًا ساطعًا مُروِّعًا تحل الحُفر البُركانية محل عينيه، وتصل الابتسامة الملساء إلى عظمتي وجنتيه. لقد تحدَّث الشَّيء إليه

(نحن نطفو هنا يا هنري، كلنا نطفو، وأنت أيضًا ستطفو)

طوال طريقه لبلوغ البلدة. اقتلهم جميعًا يا هنري، هذا ما قاله الصوت من القمر، وقد أحبَّ هنري هذا القول. شعر أنه يُؤيِّد هذا الشعور ويدعمه. سيقتلهم جميعًا، سيقتل مُعذِّبيه، وبعدها ستغادر تلك الأحاسيس بأنه يفقد سطوته، بأنه يخطو لا محالة إلى عالم أكبر لن يستطيع الهيمنة فيه كما اعتاد أن يُهيمن على فناء مدرسة ديري الابتدائية، وأن في ذلك العالم الأوسع قد يكبر الزنجي والصبي الشحيم والمُتلعثم غريب الأطوار ويكتسبون مهابة، في حين يتقدَّم هو في العُمر فحسب.. ستغادره تلك الأحاسيس بغير رجعة.

سيقتلهم جميعًا، وستتركه الأصوات وشأنه.. تلك الأصوات الداخلية وذلك الصوت الذي يتحدَّث إليه من القمر. سيقتلهم ثم سيعود إلى منزله ويجلس في الشُرفة الخلفية ويضع سيف والده الياباني في حجره، وسيجرع إحدى علب البيرة ماركة راينجولد الخاصة بوالده، وسيستمع إلى الراديو أيضًا، لكن ليس إلى مُباريات البيسبول. إن البيسبول لعبة مُملَّة. سيستمع إلى موسيقى الروك أند رول. لم يكن هنري يعلم (ولم يكن ليهتم لو علم) أنه يتَّفق مع الخاسرين في أمرٍ واحد: أن موسيقي الروك أند رول فشيخة تمامًا. لدينا دجاجة في الحظيرة، أيُّ حظيرة؟ حظيرة من؟ إنها حظيرتي. كل شيء سيصير على ما يُرام بعدما ينتهي من مهمَّته، كل شيء سيصير رائعًا، كل شيء سيصير فشيخًا، وكل ما سيأتي بعد ذلك لن يهم من الأساس. سيعتني الصوت بتلك الأمور، هذا ما استشعره هنري. إذا أوليت الشَّيءَ اهتمامك، فسيوليك الشَّيء اهتمامه. لطالما سارت الأمور في ديري على هذا النحو.

لكن يجب إيقاف الصبية عند حدِّهم.. سريعًا.. الآن.. هكذا أخبره الصوت.

أخرج هنري مطواته الجديدة من جيبه ونظر إليها. أدارها ذات اليمين وذات اليسار مُعجبًا بالتماع الشمس على نصلها المعدني. هنا أمسك بيلش بساعده وهمس: «بص يا هنري! يا الله! بص هناك».

نظر هنري إلى حيث يشير وشعر بالفهم ينير عقله فجأة. هناك مساحة مُربَّعة في الرقعة الخالية ترتفع كالسحر، وتكشف عن مساحة مُظلمة أسفلها

آخذة في الاتِّساع. مرَّت لحظة شعر فيها برجفة ذُعر عندما شعر أن صاحب الصوت هو الذي يخرج منها.. بالتأكيد هو يعيش في مكانٍ ما أسفل المدينة.. ثم سمع الصرير وطحن التُربة العالقة بين المفصَّلات وفهم الأمر. إنهم لم يعثروا على بيت شجرة، لأنه لا يوجد بيت شجرة.

شخر ڤيكتور: «ربَّاه، كنا واقفين فوقهم مُباشرةً»، وما إن برزت رأس بن متبوعة بكتفيه من الباب الأرضي في مركز الرُقعة الخالية، همَّ ڤيكتور بالاندفاع إليه، لكن هنري أمسكه من ساعده وأعاده إلى مكانه.

قال ڤيكتور فيما كان بن يقفز خارجًا من الحُفرة: «ألن نُمسك بهم يا هنري؟».

قال هنري: «سنُمسك بهم. لا تقلق»، دون أن يرفع عينيه عن الفتى البدين الكريه، واحد آخر ممَّن ركلوا خصيتيه. سأركل خصيتيك بقوَّة ستجعلهما قرطين في أذنيك أيُّها السمين اللعين. فقط انتظر وسترى.

كان الصبي البدين يساعد العاهرة في الخروج من الحُفرة. نظرت حولها في ارتياب، وللحظة ظنَّ هنري أنها نظرت إليه مُباشرةً، قبل أن تتحرَّك عيناها بعيدًا. تبادل الاثنان حديثًا هامسًا ثم شقَّا طريقهما عبر غطاء الشُجيرات واختفيا عن الأنظار.

وعندما خفتت أصوات تكسُّر الفروع وحفيف أوراق الشجر وصار مسموعًا بالكاد، قال هنري: «هيَّا بنا. سنتبعهما.. لكن حافظا على مسافة آمنة والتزما الهدوء. أريد الإمساك بهم جميعًا معًا».

عبر ثلاثتهم الرُقعة الخالية بظهورٍ مُنحنية كجنودٍ في حملة استكشافية، بعيونٍ مُتَّسعة تمسح كل شبر في المكان. توقَّف بيلش كي ينظر داخل مقرِّ النادي وهزَّ رأسه مُتعجِّبًا وقال: «كنت أجلس فوق رأسيهما مُباشرةً!».

أشار إليه هنري بالتقدُّم بصبر نافد.

سلكوا الدرب لأنه كان أهدأ.. وكانا قد وصلوا إلى مُنتصف المسافة في اتِّجاه شارع كانساس عندما ظهرت العاهرة والصبي البدين أمامهما مُباشرةً، أحدهما يمسك بيد الآخر. (أليس ذلك لطيفًا؟ هكذا فكَّر هنري مُنتشيًا).

لحسن حظهم، كانا يعطيان ظهريهما إلى جماعة هنري، ولم ينظر

أحدهما أو كلاهما حوله. تجمَّد كلٌّ من هنري وبيلش وڤيكتور في أماكنهم، ثمَّ انسحبوا إلى الظلال التي تحد جانبي الدرب.. وسرعان ما صار الطفلان مُجرَّد ثيابًا بعيدة يخفيها غطاء الخمائل والشُجيرات. بدأ ثلاثتهم تتبُّعهما من جديد... بحذر أكثر هذه المرَّة. أخرج هنري مطواته من جديد و...

9

هنري يحظى بتوصيلة/ الثانية عشرة والنصف صباحًا

... ضغط الزر المعدني في مقبضها. اندفع النصل خارجًا. نظر هنري إليه حالمًا في ضوء القمر. أعجبته الطريقة التي يلتمع بها ضوء النجوم على حافَّة النصل. لم يكن يعلم كم الساعة بالتحديد، فقد كان يغيب عن الوعي ويعود إليه بالتناوب.

سمع صوتًا في رأسه وأخذ ينمو. إنه مُحرِّك سيَّارة تقترب. اتَّسعت عينا هنري في الظلام، وأحكم تشبُّثه بالمدية مُنتظرًا مرور السيَّارة.

لكنها لم تمر، بل اقتربت من الرصيف خلف سياج أشجار معهد اللاهوت ووقفت هناك ومُحرِّكها يعمل. عابسًا، اتَّكأ هنري على رُكبتيه وأزاح فروع سياج الأشجار الصلبة. (لقد بدأ بطنه يتجمَّد، وصار في صلادة لوح خشبي. كانت الدماء تتسرَّب ببطء من بين أصابعه كأنها سائل القيقب السُّكَّري الذي يسري من صنبور دقَّه أحدهم في شجرة قيقب في أواخر مارس أو أوائل إبريل لجمع شراب القيقب). استطاع هنري رؤية المصابيح الأمامية وهيئة السيَّارة. أهم رجال الشُرطة؟ اعتصرت يده المدية وارتخت، اعتصرت وارتخت، اعتصرت وارتخت.

همس الصوت: لقد أرسلت لك توصيلة يا هنري. سيَّارة مستأجرة لك خصيصًا، لو كنت تحب ذلك. يجب أن نرسلك إلى فندق تاون هاوس قريبًا جدًّا. الليل يشيخ سريعًا.

أطلق الصوت ضحكة قاسية أشبه بضحكة هيكل عظمي، ثم صمت. الآن كانت الأصوات المسموعة الوحيدة في المكان هي أزيز الصراصير وهدير

المُحرِّك الرتيب. يبدو مزوَّدًا بأنبوب عادم كاتم للصوت، هكذا فكَّر هنري مُشتّتًا.

نهض هنري برعونة على قدميه، وسار عائدًا إلى ممشى المعهد. اختلس النظر إلى السيَّارة. ليست سيَّارة شُرطة، فلا توجد أضواء إضافية على السقف، كما أن شكلها يبدو مغلوطًا بالكامل. يبدو شكلها... عتيقًا.

سمع هنري تلك الضحكة مُجدَّدًا... أم أنها الرياح فحسب؟

خرج هنري من أسفل ظل السياج، وزحف تحت السلسلة الحديدية، ثم نهض مُجدّدًا وبدأ يسير نحو السيَّارة الخاملة التي تقف ساكنة في العالم الفوتوغرافي الأبيض والأسود الذي يصنعه ضوء القمر وتلك الظلال المُستعصية على الاختراق. كان هنري في حالة يُرثى لها: قميصه أسود من الدماء، وتلك الأخيرة تُغرق سراويله بالكامل إلى الرُكبتين، ووجهه بُقعة بيضاء مستطيلة أسفل تصفيفة البحَّارة.

وصل هنري إلى نقطة التقاء ممشى المعهد بالرصيف ونظر إلى السيَّارة مُحاولًا تبيُّن الهيئة الضخمة الجالسة خلف المقود. لكنه ميَّز السيَّارة نفسها أوَّلًا. إنها تلك التي كان والده يقسم أنه سيمتلكها يومًا. بليماوث فيوري طراز عام 1958. كان لونها أحمر وأبيض، وكان هنري يعلم (ألم يخبره والده بما فيه الكفاية؟) أن المُحرِّك الذي يقرقر أسفل الغطاء هو 327 8–V قوَّة 255 حصانًا، وأنه يستطيع الوصول إلى سبعين ميلًا في الساعة في تسع دقائق فقط مُلتهمًا الوقود عالي الأوكتان التهامًا بمُكربنه رُباعي الحُجرات. سأبتاع هذه السيَّارة، وعندما أموت يمكنكم أن تدفنوني فيها، هذا ما كان بوتش يقوله.. لكنه بالطبع لم يحصل على السيَّارة، وقد دفنته الولاية بعدما أُخذ هنري إلى المصحَّة العقلية وهو يصرخ ويهذي عن الوحوش.

إذا كان أبي بالداخل، فلا أظنُّ أنني سأستطيع الركوب، هكذا فكَّر هنري مُعتصرًا مطواته وهو يتأرجح أمامًا وخلفًا دون أن يرفع عينيه عن الشكل الجالس خلف المقود.

ثم انفتح باب السيَّارة الفيوري وأضاء المصباح الداخلي والتفت السائق ناظرًا إليه. كان السائق هو بيلش هاجنز، وقد كان وجهه أطلالًا خربة. إحدى

عينيه مخلوعة، وثمَّة ثقبٌ نتن في وجنته الكالحة يكشف عن أسنانٍ نخرة.. وعلى رأس بيلش تجثم قبَّعة فريق نيويورك يانكيز التي كان يرتديها يوم وفاته. كان لسانها مقلوبًا إلى الخلف، وثمَّة عفنٍ أخضر ينمو عليها.

صرخ هنري: «بيلش!»، فمزَّق ألمٌ عاتٍ بطنه، وجعله يصرخ ثانيةً، لكن من دون كلمات هذه المرَّة.

التوت شفتا بيلش في ابتسامة، وتشقَّقتا مفتوحتين بقطعاتٍ صغيرة بيضاء رمادية خالية من الدماء. رفع بيلش يدًا ملتوية مُشيرًا إلى الباب المفتوح في دعوة للركوب.

تردَّد هنري، والتف حول شبكة الفيوري الأمامية مُتعثِّرًا، سامحًا ليده بتلمُّس شعارها على هيئة حرف V، تمامًا كما كان يتلمَّسه عندما كان والده يصطحبه إلى المعرض في بانجور وهو صغير لمُشاهدتها.. وعندما وصل إلى المقعد المجاور للسائق، أظلم العالم في وجهه واضطر أن يتشبَّث بالباب المفتوح كي يظل واقفًا على قدميه، وقف هنري مكانه مُنكَّس الرأس، ويتنفَّس في شهقاتٍ مُتلاحقة. في النهاية أشرق العالم من جديد -جزئيًّا على الأقل- واستطاع أن يلتف حول الباب ويسقط فوق المقعد. عبث الألم بأمعائه ثانيةً، وتدفَّقت دماءٌ طازجة إلى يديه. كانت كالهُلام الدافئ. أرجع هنري رأسه إلى الخلف وصرَّ على أسنانه وبرزت العروق في عُنُقه. في النهاية، بدأ الألم يتلاشى نوعًا.

أُغلق الباب من تلقاء نفسه، وأعتم مصباح السقف الداخلي. رأى هنري إحدى يدي بيلش المُتحلِّلتين تُمسك بناقل التروس وتُعشِّقه في وضع الحركة. كانت العُقد العظمية البيضاء في عقلات أصابعه تلتمع أسفل لحم أنامله المُتحلِّل.

بدأت السيَّارة في التحرُّك عبر شارع كانساس صوب تلَّة أب-مايل.

سمع هنري نفسه يسأل: «كيف حالك يا بيلش؟». كان سؤالًا سخيفًا بالتأكيد، فهذا لا يُمكن أن يكون بيلش، فالموتى لا يقودون السيَّارات.. لكن هذا كل ما خطر على باله.

لم يرد بيلش. راحت عينه الغائرة الوحيدة تُحدِّق في الطريق، وكانت أسنانه تلتمع في وجه هنري من الثقب في وجنته. أدرك هنري بنصف وعي

أن رائحة الرفيق بيلش نتنة تمامًا. في الحقيقة، تبدو رائحة الرفيق بيلش كسلَّة طماطم فسدت منذ زمنٍ طويل.

فُتح دُرج السيَّارة وارتطم برُكبة هنري، وعلى ضوء المصباح الصغير بالداخل استطاع أن يرى زُجاجة تكساس درايڤر نصف مُمتلئة. أخرجها هنري وفتحها وجرع منها جرعة كبيرة. نزل الخمر في جوفه كحريرٍ بارد وضرب معدته كحمم بركانية. ارتجف جسده وتخبَّط بقوَّة وعوى صارخًا... ثم بدأ يشعر ببعض التحسُّن، وصار أكثر وعيًا بالعالم من حوله.

قال هنري: «شكرًا».

التفت رأس بيلش إليه. سمع هنري الأربطة في عُنُقه تتحرَّك. كان صوتها كصرير مفصلات بابٍ صدئة. رمقه بيلش بعينه الواحدة الميِّتة، وأدرك هنري للمرَّة الأولى أن أنف بيلش غير موجود تقريبًا. يبدو أن شيئًا التهم أنف العزيز بيلش. كلب رُبَّما.. ورُبَّما فئران. الفئران أكثر احتمالًا. كانت الأنفاق التي طاردوا فيها الصبية الصغار في ذلك اليوم مليئة بالفئران.

تحرَّك رأس بيلش بالبطء نفسه وعاد ينظر إلى الطريق من جديد. شعر هنري بالسرور. لم يستطِع هنري أن يحب الطريقة التي ينظر بها العزيز بيلش إليه. لقد لاحظ شيئًا يختلج في عين بيلش الوحيدة الغائرة. أهو عتاب؟ غضب؟ ماذا؟

يوجد صبي ميِّت خلف مقود هذه السيَّارة.

نظر هنري إلى ساعده ورأى جلده يستحيل إلى جلد إوزة من الخوف. جرع جرعة أخرى من الزجاجة، وهذه الأخيرة ضربت معدته أسهل كثيرًا، باعثة الدفء أبعد في أوصاله.

واصلت السيَّارة البليماوث طريقها نزولًا تلَّة أب-مايل ووصلت إلى الدوَّار المروري الذي يسير عكس اتِّجاه الساعة.. لكن لم تكن توجد سيَّارات في هذه التوقيت من الليل، وكانت كل إشارات المرور تومض بضوءٍ أصفر مُتقطِّع ينعكس على الشوارع الخالية والمباني المُغلقة. كان الجو هادئًا جدًّا لدرجة أن هنري استطاع سماع تكتكة المقوِّيات داخل كل مصباح في إشارات المرور... أم أنه يتخيَّل ذلك فحسب؟

قال هنري: «لم أقصد تركك خلفي في ذلك اليوم يا بيلش، لو كنت تُفكِّر في هذا الأمر».

صرير الأربطة اليابسة من جديد. نظر بيلش إليه مُجدَّدًا بعينه الغائرة الوحيدة، ثم تمدَّدت شفتاه في ابتسامة مُريعة كاشفة عن أسنانٍ ناخرة سوداء ورمادية تنمو عليها حديقتها الخاصة من العفن. سأل هنري نفسه بينما راحت السيَّارة تقرقر بنعومة مُتجاوزة متجر فريسي من ناحية ومطعم نان لانشونت وسينما علاء الدين من الأخرى: أيُّ نوعٍ من الابتسامات هذه؟ أهي ابتسامة غفران؟ أم ابتسامة رفيقٍ قديم؟ أم هي ابتسامة تقول: سوف أنتقم منك يا هنري شر انتقام، سأنتقم منك بسبب خيانتك وهروبك مني ومن ڤيكتور؟ أيُّ نوعٍ من الابتسامات هذه؟

قال هنري: «يجب أن تفهم ماذا حدث وقتها»، ثم توقَّف. ماذا حدث وقتها؟ كل شيءٍ مُختلط في عقله.. القطع مُبعثرة في كل مكان كأُحجية أُلقيت لتوِّها فوق منضدة لعبٍ قذرة في غرفة اجتماعات مصحَّة چونيبر هيل. ماذا حدث بالتحديد؟ لقد تتبَّعوا الصبي البدين والعاهرة رجوعًا إلى شارع كانساس، ثم انتظروا بين الشُجيرات، يراقبونهما وهما يتسلَّقان إلى قمَّة الضِفَّة. لو كانا قد غابا عن أنظارهم، كانوا سيتوقفون عن لعبة التقفِّي هذه وسيقصدونهما على الفور.. أن يحصلوا على اثنين منهم أفضل من لا أحد على الإطلاق، وبقيتهم سيأتون مع الوقت.

لكنهما لم يغيبا عن الأنظار، بل وقفا مُستندين إلى السياج فحسب، يثرثران ويرقبان الطريق.. وبين الفينة والأخرى كانا يتحقَّقان من المُنحدر المؤدي إلى البرِّية، لكن هنري أبقى على قوَّاته مُخفاة جيِّدًا.

تذكَّر هنري أن السماء صارت غائمة، وتحرَّكت السُحُب فيها سريعًا إلى الغرب، وثقل الهواء. لسوف تُمطر عصرِ هذا اليوم.

ماذا حدث لاحقًا؟ ماذا...

تشبَّثت يدٌ عظمية مُهترئة بساعده فصرخ. كان ينجرف ثانيةً إلى ذلك العالم الرمادي الغائم، لكن لمسة بيلش الشنيعة وخنجر الألم الذي انغرس في معدته من الصرخة أعاداه لوعيه. نظر حوله ليجد وجه بيلش على مسافة بوصتين من

وجهه، فاستنشق نفسًا عميقًا وتمنَّى لو أنه لم يفعل. إن حالة الرفيق بيلش لا تسرُّ عدوًا ولا حبيبًا حقًا. ذكَّرته رائحته مُجدَّدًا بالطماطم الفاسدة التي تتعفَّن بصمت في رُكنٍ ظليلٍ ما، وشعر بمعدته تنقلب.

فجأة، تذكَّر لحظةَ النهاية.. نهاية بيلش وڤيكتور بالتأكيد لا هو.

تذكَّر كيف خرج شيءٌ من الظلام وهم واقفون في قاع الفتحة الواسعة التي يعلوها غطاء المجاري، مُتحيِّرين أيَّ طريقٍ يسلكوه... شيءٌ ما... لم يستطِع هنري تبيُّن ملامحه، ثم صرخ ڤيكتور: «فرانكنشتاين! إنه فرانكنشتاين!»، وهكذا صار الشَّيء، صار وحش فرانكنشتاين بشحمه ولحمه، بالمسامير التي تبرز من عُنُقه والنُّدبة الغائرة المَخيِطة في جبهته ومشيته المتهادية وهو ينتعل حذاءين مُكعَّبين ضخمين.

صرخ ڤيكتور: «فرانكنشتاين! فرانـ...»، واختفى رأسه قبل أن يكمل كلمته. طار رأس ڤيكتور عبر تجويف المجرور وصدم الحجارة عند الطرف البعيد بصوتٍ مكتومٍ لزج. استدارت عينا الوحش الصفراوان الغائمتان، فتجمَّد هو، وارتخت مثانته وشعر بالدفء يسري أسفل ساقيه.

ترنَّح المخلوق مُقتربًا منه وبيلش... وبيلش...

قال هنري: «اسمع، أعلم أنني هربت. لم يكن ينبغي لي فعل ذلك. لكنني... لكنني...».

واصل بيلش التحديق فيه.

- «لكنني ضللت طريقي»، هكذا همس هنري كأنه يخبر رفيقه القديم أنه دفع الثمن بدوره. بدا كلامه مائعًا، كأنه يقول: أجل، أعرف أنك قُتلت يا بيلش، لكن شظية خشبٍ لعينة اندسَّت تحت ظفري أيضًا. لكن ما مرَّ به كان سيِّئًا بالفعل... بل بالغ السوء. لقد هام في عالمٍ مُظلمٍ نتنٍ ساعاتٍ طوال، وفي النهاية وجد نفسه مُضطرًّا للصراخ.. ثم عند مرحلةٍ ما سقط سقطه طويلة مُذهلة، وكان أمامه مُتَّسع من الوقت ليُفكِّر: أوه جميل، سأموت بعد دقيقة، سأخرج من هذا المكان آلـ... ثم وجد نفسه وسط تيَّارٍ مائي سريع. إنه أسفل القناة، هكذا يظن.. ثم خرج إلى العراء إلى أشعة الشمس الآفلة، وتخبَّط في طريقه وصولًا إلى الضِفَّة، ثم صعد خارجًا من مياه الكِندوسكيج أخيرًا، على

بُعد أقل من خمسين ياردة من المكان الذي سيغرق فيه أدريان ميلون بعد ستَّة وعشرين عامًا. انزلق هنري، وسقط، ورطم رأسه، وغاب عن الوعي.. وعندما استيقظ كان الظلام قد حلَّ، لكنه استطاع الخروج إلى الطريق 2 بشكلٍ ما، واستقلَّ توصيلة إلى المنزل.. وهناك، وجد رجال الشُرطة في انتظاره.

لكن كان هذا في الماضي، ونحن أولاد اليوم. في ذلك اليوم القديم، خطا بيلش أمام وحش فرانكنشتاين فقشَّر الوحش جلد وجهه من اليسار حتَّى برزت عظام جُمجمته. هذا ما رآه هنري قبل أن يطير هربًا. لكن بيلش عاد الآن، وها هو يُشير بإصبعه نحو شيءٍ ما.

رأى هنري أنهما توقَّفا أمام فندق ديري تاون هاوس، وفجأة حلَّ عليه فهمٌ مُفاجئ. إن التاوس هاوس هو الفندق الحقيقي الوحيد الذي ظلَّ في ديري. في عام 1958، كان يوجد فندق نجمة الشرق في نهاية شارع إكستشينج، واستراحة المُسافر في شارع تورلو. كلاهما اختفى في التجديد الحضري الذي شمل المدينة (كان هنري يعلم هذا الأمر، فقد واظب على قراءة جريدة أخبار ديري كل يوم في مصحَّة چونيبر هيل)، وحده التاون هاوس بقيَ، بالإضافة إلى الموتيلات الرخيصة الصغيرة قرب الطريق السريع.

فكَّر هنري: هنا سيكونون. بالداخل. كل من بقى منهم. نائمين في أسرَّتهم، تتراقص في رؤوسهم رؤى عن السكاكر، أو رُبَّما المجارير. سأقتلهم واحدًا تلو الآخر.. سأقتلهم جميعًا.

أمسك بزجاجة الخمر من جديد، وجرع منها جرعة. كان يشعر بدماءٍ طازجة تسيل إلى حجره، وصار المقعد دبقًا من أسفله، لكن الخمر طيَّب جراحه نوعًا. لم يجعل الخمر شيئًا في نظره يبدو ذا أهمِّية. لكم كان يتمنَّى لو كان بربون، لكن التكساس درايڤر أفضل من لا شيء.

قال لبيلش: «اسمع، أنا آسف لهروبي، لا أعرف لماذا فعلت ذلك. أرجوك... لا تغضب مني».

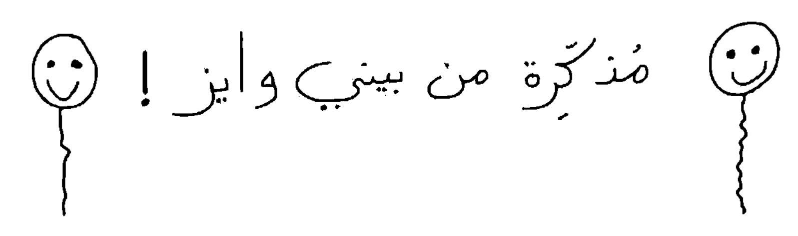
تكلَّم بيلش للمرَّة الأولى والوحيدة، لكن الصوت لم يكن صوته. كان الصوت الذي خرج من فم بيلش المُتحلِّل عميقًا وقويًّا ومُفزعًا. انتفض هنري من الصوت. إنه الصوت الذي يأتي من القمر، صوت المُهرِّج، الصوت الذي

يسمعه في أحلامه القبيحة عن المصارف والمجارير التي يجري الماء فيها بلا هوادة.

قال الصوت: «فقط اخرس واذهب لقتلهم».

أنَّ هنري وقال: «بالتأكيد. بالتأكيد. حسنًا. أنا أريد ذلك. لا مُشكلة...».

أعاد هنري الزُجاجة إلى دُرج السيَّارة. تخبَّط عُنُقها قليلًا، وشاهد هنري ورقة مطوية وموضوعة حيث كانت الزجاجة. أخرجها وفتحها، تاركًا بصماتٍ دامية على أطرافها. على طرفها، وجد هذا الشعار مطبوعًا بلونٍ أحمرِ قانٍ:



وأسفله، مطبوعة بحروفٍ كبيرة، الكلمات الآتية:

بيل دنبروه 311
بن هانسكوم 404
إدي كاسبراك 609
بيڤرلي مارش 518
ريتشي توزيير 217

هذه أرقام غُرفهم. جميل. إنه يُوفِّر عليه الوقت. «شكرًا يا بـ...».

لكن بيلش كان قد اختفى. كان مقعد القيادة خاويًا.. فقط قُبَّعة فريق نيويورك يانكيز للبيسبول موضوعة عليه، بالعفن النامي على لسانها. أيضًا توجد بقايا مادَّة لزجة على مقبض ناقل التروس.

حدَّق هنري في المشهد الخاوي وراح قلبه يقصف في حلقه، ثم شعر أنه سمع بعدها شيئًا يتحرَّك ويتململ في المقعد الخلفي. خرج هنري سريعًا من السيَّارة. فتح الباب وكاد أن يسقط إلى الرصيف في تعجُّله.

ابتعد هنري عن السيَّارة -التي كان مُحرِّكها يقرقر وينفث العادم عبر أنبوب مزدوج كاتمٍ للصوت (حُظر هذا النوع من أنابيب العادم في ولاية مين سنة 1962)- مسافةً مأمونة.

كان المشي عسيرًا، وراحت كل خطوة تُمزِّق معدته.. لكنه عبر الرصيف ووقف هناك ينظر إلى البناء الحجري الذي يرتفع ثمانية طوابق، والذي يُشكِّل مع المكتبة ودار عرض علاء الدين ومعهد اللاهوت المعالم القليلة الباقية من الأيَّام الخوالي. مُعظم الأضواء في الطوابق العُليا مُغلقة، لكن المصابيح الكروية المُزجَّجة المُحيطة بالبوَّابة الرئيسة تشتعل بهدوء في ظلام الليل، مُحاطة بهالة من النداوة بسبب الضباب المُنخفض الباقي.

قطع هنري طريقه الشاق نحوها وعبر بينها، ثم فتح إحدى ضلفتي الباب بدفعة من كتفه.

كانت الرُدهة ساكنة كسويعات الفجر. ثمَّة بساط تُركي باهت على الأرضية، وعلى السقف لوحة جدارية ضخمة مكوَّنة من لوحاتٍ مستطيلة تستعرض ازدهارة عصر الأخشاب في ديري. توجد أرائك منفوخة، ومقاعد وثيرة، ومدفأة كبيرة خامدة النيران الآن لكن أخشابًا مُلقاة في جوفها.. أخشاب حقيقية لا مزاح، فالمدفأة لم تكن مُجرَّد قطعة ديكور لتزيين الرُدهة. ثمَّة نباتات تنسدل خارج أصصها الصغيرة، وكان الباب الزجاجي المزدوج الذي يقود إلى المشرب مُغلقًا، ومن مكتبٍ داخلي ما، استطاع سماع جلبة تلفاز مُنخفض.

عبر هنري الردهة مُترنِّحًا، وسراويله وقميصه تغرقهما الدماء. لقد دمغت الدماء طيَّات يديه، وجرت على وجنتيه ولطَّخت جبهته كأنها علامات حرب، وكانت عيناه جاحظتين في محجريهما. لو أن أيَّ شخصٍ كان قد رآه، فكان سيفرُّ صارخًا من الرُعب بلا شك.. لكن أحدًا لم يكن هناك.

فُتح باب المصعد ما إن ضغط هنري على الزِّر. نظر إلى الورقة في يده، ثم إلى أزرار الطوابق. بعد لحظة تأنٍّ، ضغط رقم 6 فانغلق الباب. صدرت همهمة خافتة من آلية المصعد، ثم بدأ في الصعود.

رُبَّما الأفضل أن أبدأ من أعلى، ثم أنزل تباعًا.

تراجع إلى جدار المصعد مُسترخيًا وأغلق عينيه جُزئيًّا. كانت همهمة المصعد مُريحة، كهمهمة الآلات في محطَّات الضخ في شبكة المجاري. إن ذلك اليوم لا ينفك عن التداعي إلى عقله. كم بدا كل شيء مُعدًّا مُسبقًا، كأنهم جميعًا يلعبون أدوارًا مرسومة لهم. كم بدا ڤيك والرفيق بيلش... حسنًا، مُخدَّرين تقريبًا. تذكَّر هنري...

توقَّف المصعد وهزَّهُ مُرسلًا موجة جديدة من الألم الحارق إلى معدته. فُتح الباب. خرج هنري إلى الرواق الهادئ (يوجد المزيد من نباتات الغيلان الواحف. لم يرغب هنري في لمس أي منها، خاصةً تلك الخضراء المُتعرِّشة اللزجة.. إنها تُذكِّره كثيرًا بالأشياء التي كانت مُعلَّقة في الظلام أسفل المدينة). أعاد هنري التحقُّق من الورقة. كاسبراك في الغرفة 609. سار هنري في ذلك الطريق، وهو يتلمَّس بيده على طول الجدار لحفظ توازنه، مُخلِّفًا خيطًا من الدماء على ورق الحائط (لكنه كان يبتعد إذا اقترب من إحدى نباتات الغيلان الواحف، فلم يكن يرغب في لمس هذه). كانت أنفاسه خشنة وجافة.

ها هي ذي الغرفة. أخرج هنري المدية من جيبه، ولعق شفتيه الجافتين بلسانه، وطرق الباب، وانتظر. ثم طرقه ثانيةً، أعنف هذه المرَّة.

– «من الطارق؟». إن صوته ناعس. جميل. لا بُدَّ أنه في منامته، نصف مُستيقظ. عندما سيفتح الباب سيطعنه مُباشرةً في التجويف القاتل أسفل عنقه. نقطة الضعف المُجوَّفة أسفل تفَّاحة آدم.

قال هنري: «خادم الفندق يا سيِّدي. معي رسالة من زوجتك». هل كاسبراك متزوِّج؟ رُبَّما كان هذا تهوُّرًا منه. انتظر هنري مُترقِّبًا بأطرافٍ باردة. سمع الخطوات تقترب.. حفيف نعلٍ منزلي.

– «من ميرا؟». بدا صوته قلوقًا. لسوف يضطرب أكثر بعد ثوانٍ. راح النَّبض يدق بثبات في صدغ هنري.

– «أظنُّ ذلك يا سيِّدي. لا يوجد اسم مُرفق بالرسالة. إنها تقول زوجتك فقط».

مرَّت لحظة صمت، سمع بعدها تخبُّط السلسلة المعدنية التي يحلُّها كاسبراك. مُبتسمًا بوحشية، ضغط هنري زرَّ المدية.. كليك.. ثم أمسك

بارتفاع عُنُقه مُتأهِّبًا. سمع صوت مقبض الباب يدور. خلال ثانية سيزج النصل في حنجرة الهزيل الصغير غريب الأطوار. فُتح الباب وشَاهَدَ إدي...

10

الخاسرون معًا| الواحدة والثلث مساءً

... ستان وريتشي يخرجان لتوِّهما من متجر جادة أڤينيو، وكلٌّ منهما يلعق قطعة أيس كريم روكيت من عصاه. صاح بهما: «هاي! هاي! انتظرا!».

استدار كلاهما إلى الخلف ولوَّح ستان له. ركض إدي ليلحق بهما بأسرع ما يستطيع، والتي لم تكن سُرعة كبيرة في حقيقة الأمر. كان أحد ذراعيه مسجونًا في الجبيرة، ويضع لوح الليدو أسفل الآخر.

قال ريتشي في صوت رجُلٍ جنوبي مُهذَّب رائع النبرة (وهو الصوت الذي يُشبه صياح فوغهورن ليغهورن في رسوم وارنر براذرز المُتحرِّكة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر): «ما تقول يا إدي؟ ما تقول يا غلام؟ آه... إنه أبو دراع مكسورة! بص يا ستان، العيل دراعه مكسورة! آه... كُن رفيقًا واحمل لوح الليدو بدلًا منه!».

قال إدي مُتقطِّع النفس قليلًا: «أستطيع حمله. ماذا لو أخذت لعقة من عصا الروكيت في يدك؟». ردَّ ريتشي بحزن: «أمك لن توافق يا إدي»، وبدأ يلتهم أسرع، ووصل سريعًا إلى الشيكولاتة في المُنتصف، وهو الجزء المُفضَّل لديه. «إنها الجراثيم يا غلام! آه... قد تلتقط بعض الجراثيم إذا أكلت مكان شخصٍ آخر».

قال إدي: «سأخاطر بذلك».

مُتردِّدًا، رفع ريتشي عصا الروكيت إلى فم إدي، ثم جذبها بعيدًا بمُجرَّد أن لعق إدي لعقتين كبيرتين منها.

قال ستان: «تستطيع أخذ ما معي، ما زلت شبعًا من الغداء».

ثقَّفهُ ريتشي قائلًا: «اليهود لا يأكلون كثيرًا. هذا ديدنهم ودينهم». كان ثلاثتهم يسيرون مُستأنسين ببعضهم الآن، مُتَّجهين صوب شارع كانساس

والبرِّية. بدت المدينة مُستغرقة في النعاس بعُمق عصر هذا اليوم. كانت مُعظم ستائر المنازل التي مرّوا بها مُسدلة، والألعاب مهجورة وحيدة في الحدائق، كأن أصحابها استُدعوا بعجالة وهم يلعبون أو وضعهم ذووهم في الفراش للقيلولة. هزم الرعد من بعيد تجاه الغرب.

سأل إدي ستان: «أحقًّا؟».

قال ستان: «لا، ريتشي يعبث بك فحسب. اليهود يأكلون بقدر الناس العاديين»، وأشار إلى ريتشي وأردف: «مثله».

قال إدي لريتشي: «أتعرف، أنت قاسٍ جدًّا مع ستان. كيف ستتقبَّل الأمر لو أن أحدهم راح يسرد كل هذه الأكاذيب العفنة عنك لمُجرَّد أنك كاثوليكي؟».

قال ريتشي: «أوه، الكاثوليك لهم أخطاؤهم. لقد أخبرني والدي أن هتلر كان كاثوليكيًّا، وقد قتل بلايين اليهود. أليس كذلك يا ستان؟».

قال ستان: «أجل، أعتقد ذلك»، وبدا أنه مُتحرِّج.

واصل ريتشي: «لقد استشاطت أمي غضبًا عندما أخبرني أبي بذلك»، ثم تلاعبت ابتسامة شجنة على ثغره وهو يحكي: «استشاااطت غضبًا. نحن الكاثوليك كانت لدينا محاكم التفتيش أيضًا، تلك التي تضمَّنت تعذيبًا ودق مسامير في الأصابع وجميع تلك الأمور. أرى أن الأديان جميعها غريبة جدًّا».

قال ستان بهدوء: «وأنا أيضًا. نحن لسنا متزمِّتين أو أي شيءٍ من هذا القبيل. أعني، نحن نأكل لحم الخنزير. أنا بالكاد أعرف ماذا يعني أن تكون يهوديًّا. لقد وُلِدتُ في ديري، أحيانًا نذهب إلى المعبد اليهودي في بانجور لحضور مُناسباتٍ كيوم كيبور، لكن...»، قطع كلامه وهزَّ كتفيه.

قال إدي مدهوشًا: «لحم الخنزير؟». كان هو وأمه ميثوديَّين.

قال ستان: «اليهود المُتشدِّدون لا يأكلون هذه الأشياء. توجد في التوراة تعاليم تُحرِّم أكل أيِّ شيءٍ يدب في الطين أو يمشي على قاع المُحيط. لا أدري كل الأنواع المُحرَّم أكلها. لكن لحم الخنزير مُحرَّم، وكذلك السلطعون. لكن أبي وأمي يأكلان هذه الأشياء، وأنا أيضًا».

قال إدي: «هذا غريب»، ثم انفجر ضاحكًا: «لم أسمع من قبلٍ عن ديانة تُحدِّد لك ما تأكله. بعدها، ستقول لك أيَّ نوعٍ من البنزين يجب أنْ تبتاعه».

قال ستان: «بنزين الكوشر»، وضحك بدوره. لم يفهم إدي أو ريتشي علام يضحك بالتحديد.

قال ريتشي: «يجب أن تقرَّ يا ستاني أن هذا كلام غريب جدًّا. أعني، هل يعقل ألا يستطيع المرء التهام النقانق فقط لأنه يهودي».

قال ستان: «هل تجد هذا غريبًا حقًّا؟ هل تأكل اللحم في أيَّام الجُمع؟».

قال ريتشي مصدومًا: «ربَّاه، لا! لا يمكنك أكل اللحم يوم الجمعة، لأن...» ثم بعد لحظة بدأ يبتسم وأردف مُستسلمًا: «أوه، حسنًا، فهمت الآن ما تقصد».

سأل إدي مسحورًا: «هل يذهب الكاثوليك إلى الجحيم بالفعل إذا أكلوا اللحم يوم الجمعة؟»، لكن إدي لم يكن يدرك أن عشيرته الخاصة قبل جيلين فقط كانوا من الكاثوليك البولنديين شديدي الورع، وكان ذنب أكل اللحم يوم الجمعة بالنسبة إليهم يعادل ذنب الخروج من المنزل من دون ملابس.

قال ريتشي: «حسنًا، سأخبرك بشيءٍ يا إدي. لا أعتقد أن الله سيرسلني إلى المكان الحار فقط لأنني نسيت وأكلت شطيرة سجق يوم جُمعة، لكن لِمَ المُخاطرة؟ أليس كذلك؟».

قال إدي: «معك حق. لكن الأمر يبدو...»، شديد الحمق؛ هذا ما كان سيقوله، لكنه تذكَّر ما قالته مسز بورتلي في درس يوم الأحد عندما كان لم يزل بعد طفلًا في الصف الأول في مدرسة العُبَّاد الصغار، وفقًا لمسز بورتلي، سرق صبيٌّ صغير ذات مرَّة بعضًا من خُبز القربان عندما كانت الصينية تُمرَّر، ووضعه في جيبه، ثم أخذه إلى المنزل وألقاه في المرحاض فقط ليشاهد ماذا سيحدث. على الفور -هذا ما ذكرته مسز بورتلي للعُبَّاد الصغار المشدوهين- تحوَّل ماء المرحاض إلى الأحمر القاني. أخبرتهم أنها هذه كانت دماء المسيح، وأنها تجلَّت لهذا الصبي الصغير لأنه ارتكب جرمًا كبيرًا يُسمَّى زندقة. لقد ظهرت الدماء لتُحذِّره أنه برميه للحم المسيح في المرحاض فهو يعرِّض روحه الخالدة لخطر الذهاب إلى الجحيم.

حتَّى ذلك الحين، كان إدي يستمتع بيوم المُشاركة، الذي سمحت له أمه بحضوره فقط منذ العام السابق. الميثوديون يستخدمون عصير العنب بدلًا

من الخمر، ويُمثِّلون جسد المسيح بقطع طازجة من خبز واندر. كان إدي يُحب فكرة التهام الطعام والشراب كجزءٍ من طقسٍ ديني. لكن بعد رواية مسز بورتلي، تلاشى انبهاره بالطقس، ودخل عقله إلى مناطق قاحلة ومُخيفة. صار مدَّ يده إلى الخبز عملًا يتطلَّب شجاعة كبيرة، ولطالما شعر أنه سيُصاب بصدمة كهربائية أو ما هو أسوأ.. أن يتغيَّر لون الخبز في يده، ويصير دماءً متجلِّطة، قبل أن يبدأ صوتٌ لا جسد له يتردَّد راعدًا في جنبات الكنيسة: لست أهلًا! لست أهلًا! ملعون في الجحيم! ملعون في الجحيم!

بعدها، كان يشعر بحنجرته تضيق كثيرًا وهو يحضر فعل المُشاركة في الكنيسة، وتبدأ أنفاسه تُصفِّر، ويجد نفسه ينتظر انتهاء القس منح البركات بنفاد صبر كي يهرع إلى الرواق ويستخدم بخَّاخه.

لا تكن سخفيًا، هكذا أخبر نفسه عندما كبر. هذه مُجرَّد قِصَّة، وبالتأكيد ليست مسز بورتلي قدِّيسة. ماما تقول إنها مُطلّقة تعيش في كيتري، وإنها تلعب البينجو في سانت ماري في بانجور، وإن المسيحيين الحق لا يقامرون. المسيحيون الحق يتركون القمار للكاثوليك والوثنيين.

كل هذا كلام معقول جدًّا، لكن الأمر لم يرِح عقله. ما انفكَّت قِصَّة خبز القربان الذي أحال ماء المرحاض دمًا عن زعزعته ونخزه وسلب النوم من عينيه.. وذات ليلة استقرَّ عقله على أن يأخذ قطعة خبز بنفسه، ويرميها في المرحاض، ويرى ما سيحدث. إنها الطريقة الوحيدة للخلاص.

لكن مثل هذه التجربة تتطلَّب شجاعة أكبر بكثير ممَّا يمتلك. لن يستطيع عقله المنطقي الصمود أمام هذا المشهد الشرير للدماء التي تنشر سحابة اتهامها ولعنتها له في الماء. لن يصمد أمام قوَّة تلك الرقية السحرية المسيحية: هذا جسدي، خذوه، كُلوه؛ هذه دمائي، التي أُريقت من أجلكم، ومن أجل كثيرين غيركم.

لا، لم يقوَ على إجراء تلك التجربة قط.

قال إدي الآن: «أظنُّ أن الأديان كلها غريبة»، لكنها قويَّة، وخوارقية تقريبًا، هكذا أضاف عقله. أم هل يُعدُّ ذلك كُفرًا؟ بدأ يُفكِّر في الشَّيءِ الذي واجهوه في شارع نيبولت، ولاحظ للمرَّة الأولى تناظرًا جنونيًّا.. فقد خرج المُستذئب -بعد كل شيء- من المرحاض.

قال ريتشي وهو يلقي بعصا الأيس كريم بلا مُبلاة إلى مياه القناة: «يا للهول، أظنُّ أن الجميع نيام. هل رأيتم البلدة بمثل هذا الهدوء من قبل؟ هل ذهب الجميع إلى بار هاربور لقضاء اليوم؟».

صاح بيل دِنبروه من خلفهم: «مـ-مـ-مـرحبًا يا رفاق! تـ-تـ-تريَّثوا قـ-قليلًا!».

التفت إدي مسرورًا كالعادة لسماع صوت بيل الكبير. كان يقود سيلڤر خارجًا من ناصية جادة كوستيلو، سابقًا مايك، رغم أن درَّاجة مايك الشوين جديدة تقريبًا.

صاح بيل: «هيَّا يا سيلڤر، انطلـــــــقي!»، وتقدَّم صوبهم بسُرعة عشرين ميلًا في السَّاعة تقريبًا، وأوراق الكوتشينة المُشبَّكة في دعامات الإطار تزأر.. ثم عكس حركة قدميه إلى الخلف، وضغط المكابح، مُحدثًا كشطًا طويلًا رائعًا على أسفلت الطريق.

قال ريتشي: «بيل المُتلعثم! كيف حالك يا غلام؟... حقًّا... حقًّا... كيف حالك يا غلام؟».

قال بيل: «أ-أ-أنا بخير. أرأيتم بن أو بـ-بـ-بيڤرلي؟».

قاد مايك درَّاجته إليهم وقد تفصَّدت حبَّات عرقٍ صغيرة من جبهته: «ما أقصى سُرعة لهذه الدرَّاجة على أيِّ حال؟».

ضحك بيل: «لا أ-أ-أعرف بـ-بالتحديد. إنها سـ-سـ-سريعة جـ-جدًّا».

قال ريتشي: «لم أرَهما. لا بُدَّ أنهما يتسكَّعان في البرِّية ويغنيان: 'شابووم، شابووم... يا دا دا دا دا دا... أنت رقيقة كالحلم يا حبيبة قلبي'».

تظاهر ستان يوريس بأنه يتقيَّأ.

قال ريتشي لمايك: «إنه يغار فحسب، اليهود لا يعرفون الغناء».

- «بـ-بـ-بـ...».

- «بيب-بيب ريتشي!». قالها ريتشي لنفسه، فضحكوا جميعًا.

اتَّجه خمستهم صوب البرِّية، ومايك وبيل يدفعان درَّاجتيهما إلى جوارهما. راحوا يثرثرون بوتيرة سريعة في البداية، ثم فترت وتيرة حديثهم. نظر إدي إلى بيل، ولاحظ مسحة من عدم الراحة على وجهه، وظن أن هدوء

البلدة الثقيل رُبَّما بدأ ينغزه بدوره. كان يعلم أن ريتشي قالها مازحًا، لكن يبدو أن جميع من في ديري قد ذهبوا إلى بار هاربور لقضاء اليوم بالفعل... أو إلى مكانٍ ما آخر. لا توجد سيَّارة في الشارع. لا توجد سيِّدة عجوز وحيدة تدفع أمامها عربة مليئة بمشتريات البقالة مُتَّجهة إلى منزلها أو شقَّتها.

غامر إدي بقول: «الجو هادئ جدًّا، أليس كذلك؟». أومأ بيل فحسب.

نزلوا إلى البرِّية من ناحية شارع كانساس، وهنا شاهدوا بن وبيڤرلي يركضان نحوهما، ويصيحان. صُدِم إدي من مظهر بيڤرلي. إنها دائمًا ما تبدو أنيقة ونظِيفة، ودائمًا شعرها مغسول ومعقود إلى الخلف في ذيل حصان. الآن تبدو مُلطَّخة بكل أنواع القاذورات في الكون. كانت عيناها مُتَّسعتين ومسعورتين، وثمَّة جرحٌ في خدِّها، وسرويلها الچينز منقوعة في الفضلات، وبلوزتها مُمزَّقة.

أما بن فكان يركض خلفها لاهثًا، وبطنه العظيم يترجرج.

قالت بيڤرلي بأنفاسٍ مُتقطِّعة: «لن نستطيع النزول إلى البرِّية... الأولاد... هنري... ڤيكتور... إنهم هناك في مكانٍ ما... مدية... إن معه مدية».

قال بيل لها: «تـ-تـ-تريَّثي»، وتولَّى المسؤولية دفعة واحدة من غير جهد، بطريقته غير الواعية تقريبًا تلك. رمق إدي بن وهو يركض، إلى وجنتيه المُتَّقدتين، إلى صدره الذي يعلو ويهبط.

قال بن: «إنها تقول إن هنري جُنَّ يا بيل الكبير».

سأل ريتشي وهو يبصق من بين أسنانه: «اللعنة، أتعني أنه كان عاقلًا قبل ذلك؟».

قال بيل: «ا-ا-اخرس يا ر-ر-ريتشي»، ثم نظر إلى بيڤرلي وقال: «ا-ا-احكِ». زحفت يد إدي إلى جيبه ولمست بخَّاخه. لم يكن يعرف ما الذي يدور، لكنه عرف أنه ليس بالأمر الجيِّد.

مُجبرة نفسها على التحدُّث بهدوءٍ قدر الإمكان، تمكَّنت بيڤرلي من قصِّ نسخة مُختزلة من الحكاية. نسخة بدأت بعثور هنري وڤيكتور وبيلش عليها في الشارع. لم تخبرهم بأمر والدها، فقد كانت خجلة إلى النخاع من ذلك.

عندما انتهت، ظلَّ بيل واقفًا مكانه لحظات.. داسًّا يديه في جيبيه، وذقنه

مُنخفض، ومقابض سيلڤر تستند إلى صدره، وقف الآخرون مُنتظرين، وراحوا يختلسون النظر إلى الحاجز الحديدي الذي يجري بطول حافّة المُنحدر. استغرق بيل في التفكير طويلًا، ولم يقاطعه أحد. أدرك إدي فجأة ومن دون عناء أن هذا قد يكون الفصل الأخير. لهذا هم يشعرون بهذا الهدوء ثقيل الوطأة جاثمًا على البلدة، أليس كذلك؟ ذلك الشعور الموحش بأن المدينة بأسرها غادرت، تاركة خلفها قشور مباني ومنازل خاوية على عروشها.

كان ريتشي يُفكِّر في صورة ألبوم چورچ التي دبَّت الحياة فيها.

وكانت بيڤرلي تُفكِّر في أبيها، وكم كانت عيناه باهتتين.

ولم ينفك مايك عن التفكير في الطائر.

ولم يكف بن عن التفكير في المومياء، ورائحة القرفة المُعتَّقة.

أما ستان فراحت صور سراويل چينز سوداء مُبتلّة وأيدٍ بيضاء كالورق المُجعَّد تقطر ماءً تتخطَّفه.

في النهاية قال بيل: «هـ-هـ-هيا بنا. سـ-سـ-سننزل إليهم».

قال بن بوجهٍ مُتأزِّم: «بيل، بيڤرلي تقول إن هنري جُنَّ حقًّا، وإنه كان ينوي قتلـ...».

- «البـ-برِّية لـ-لـ-ليست مـ-ملكهم»، قالها بيل وهو يشير إلى النطاق الأخضر من البرِّية الذي يتَّخذ شكل خنجر أسفلهم. إلى الشُّجيرات، والخمائل، وبساتين الأشجار، وأعواد الخيزران، والماء الرقراق. «إ-إ-إنهم لا يـ-يـ-يمتلكونها». ثم نظر إليهم بوجهٍ مُتجهِّم، وأردف: «لـ-لـ-لقد سـ-سئمت ا-ا-الخوف مـ-منهم. لقد هـ-هزمناهم فـ-فـ-في مـ-معركة الحـ-حجارة، وإذا ا-ا-اضطررنا إلى صـ-صراعهم وصرعهم مـ-مـ-مرَّة أ-أخرى، سـ-سنفعلها».

قال إدي: «لكن يا بيل، ماذا لو أن الأمر لا يقتصر عليهم؟».

التفت بيل إلى إدي، وبصدمة مُريعة رأى إدي كم أن وجه بيل مُنهك ومُستنزف. ثمَّة شيءٌ مُخيف في هذا الوجه، لكنه لم يدرك ماهية ذلك الشيء المُخيف إلا لاحقًا جدًّا جدًّا، وهو كبير، عندما ذهب إلى النوم بعد اجتماع المكتبة: كان ذلك وجه صبي يُدفع دفعًا إلى حافَّة الجنون. صبي لم يعُد أكثر

تعقُّلًا أو سيطرة على قراراته من هنري. لكن على الرغم من هذا ما زال بيل الحقيقي موجودًا، ينظر إليهم بهذين العينين المُخيفتين المسكونتين.. بيل الغاضب، عاقد العزم.

قال بيل: «حـ-حسنًا، مـ-ماذا لـ-لـ-لو كـ-كان الأ-الأمر كذ-كذلك؟».

لم يُجبه أحد. دوى الرعد، وكان صوته أقرب الآن. نظر إدي إلى السماء ورأى السُحُب الرعدية السوداء تقترب من جهة الغرب. ستُمطر السماء مدرارًا كالعاهرات، كما اعتادت أمه أن تقول أحيانًا.

قال بيل مُحدِّقًا فيهم: «ا-ا-اسمعوني جـ-جيِّدًا، لا أ-أ-أحد مـ-منكم مُـ-مضطر لـ-لمرافقتي إ-إن كان لا يـ-يرغب. الأمر مـ-مـ-متروك لـ-لكم بـ-بـ-بالكامل».

قال ريتشي بهدوء: «أنا قادم يا بيل الكبير».

قال بن: «وأنا أيضًا».

قال مايك وهو يهزُّ كتفه: «بالتأكيد».

ثم وافق ستان وبيفرلي، وفي النهاية إدي.

قال ريتشي: «لا أظنُّ ذلك يا إدي. إن ذراعك، لا تبدو رائعة جدًّا كما تعرف».

نظر إدي إلى بيل.

قال بيل: «أ-أ-أنا أحتاجه. سـ-سـ-سر مـ-معي يا إ-إدي. سـ-سأبقي عـ-عـ-عيني عليك».

قال إدي: «شكرًا يا بيل». بدا وجه بيل المُنهك نصف المجنون فجأة جميلًا في نظره.. جميلًا ومحبوبًا. شعر إدي بشعور خافت من الدهشة. أظنُّني مُستعدًّا للموت في سبيله إذا طلب مني. أيُّ قوَّة تلك التي يمتلكها؟ إذا كانت تلك القوَّة تجعلك بالهيئة التي يبدو بيل عليها الآن، فرُبَّما هي ليست قوَّة يُحبَّذ امتلاكها.

قال ريتشي: «أجل، بيل معه السلاح الأخير. قنابل الإبط»، ثم رفع ذراعه اليسرى وضغط بيده اليُمنى أسفل إبطه المكشوف. ضحك بن ومايك قليلًا، وابتسم إدي.

هزم الرعد من جديد، كان قريبًا ومُدويًا هذه المرَّة حتَّى إنهم قفزوا في الهواء واحتشدوا مُقتربين من بعض أكثر. بدأتَ الرياح تكتسب سُرعة، مُبعثرة القمامة في كل مكان. أبحرت أولى الغيوم السوداء أسفل قرص الشمس الغائم، فذابت ظلالهم جميعًا. كانت الريح باردة، وأثارت القشعريرة في ساعد إدي.. وارتجف.

نظر بيل إلى ستان وقال شيئًا غريبًا بعدها.

- «أمعك كتاب الطيور يا ستان؟».

ربَّت ستان على جيبه الخلفي.

رمقهم بيل مرَّة أخرى: «هيَّا بـ-بـ-بنا، لنـ-نهبط».

نزلوا أسفل الضِفَّة في طابورٍ، واحدًا وراء الثاني، باستثناء بيل الذي ظلَّ جوار إدي كما وَعَد. ترك بيل لريتشي مهمَّة دفع سيلڤر، وعندما وصلوا إلى القاع، وضع بيل الدرَّاجة في مكانها المُعتاد أسفل الجسر. ثم وقفوا معًا، ينظرون حولهم.

لم تأتِ العاصفة بظلامٍ معها، ولا حتَّى إعتام. لكن نوعية الضوء تغيَّرت، ووقفت الموجودات بحالةٍ أشبه بالحلم: واضحة، حادَّة، بلا ظلال. شعر إدي بالرعب والفهم يغوصان عميقًا في أحشائه عندما أدرك لماذا تبدو نوعية هذا الضوء مألوفة جدًّا بالنسبة إليه: إنه الضوء نفسه الذي يتذكَّره من المواجهة التي تمَّت في المنزل رقم 29 في شارع نيبولت.

وَشَمَ خيطٌ من البرق الغيوم.. كان لامعًا لدرجة جعلته يجفل. رفع إدي يده أمام وجهه ووجد نفسه يحصي: واحد... اثنان... ثلاثة... ثم جاء الرعد بعدها بنباح مشروخ مُفاجئ كالانفجار.. بصوت يشبه مُفرقعات M-80 النارية.. فالتصق بعضهم ببعضٍ أكثر.

قال بن بانزعاج: «لم تتوقَّع الأرصاد الجويَّة أيَّ أمطارٍ هذا الصباح. الجريدة قالت إن اليوم سيكون حارًّا وغائمًا».

راح مايك يُمشِّط السماء بعينيه. كانت السُحُب في الأعلى تبدو كمراكب عملاقة سوداء السافلة تجتاح سريعًا الغشاوة الزرقاء التي تغطي السماء من الأفق إلى الأفق عندما خرج هو وبيل من منزل آل دِنبروه بعد الغداء. كانت

بعيدة وثقيلة. قال مايك: «إنها تقترب سريعًا. لم أرَ عاصفة تقترب بمثل هذه السُرعة من قبل»، وكأنما ليؤكد كلامه، هزم الرعد بصوتٍ مُدوٍّ مرَّة أخرى.

قال بيل: «هـيا بـ-بنا، لـ-لـ-نذهب إلي مـ-مـ-مقر النادي لنترك لـ-لـ-لوح الليدو الخاص بإ-إ-إدي هـ-هناك».

ساروا في الدرب الذي طرقوه مرارًا وتكرارًا في الأسابيع التي تلت واقعة بناء السَّد. كان بيل وإدي في مُقدِّمة الطابور، أكتافهما تحتكُّ بالأوراق الخضراء العريضة على الجانبين، والآخرون خلفهم. هبَّت الريح من جديد، جاعلة أوراق الأشجار والشجيرات يهمس بعضها لبعض.. وبعيدًا أمامهم، قعقعت أعواد الخيزران معًا، كقرع طبولٍ في حكاية عن الغاب.

قال إدي بصوتٍ خفيض: «بيل؟».

- «ماذا؟».

ضحك إدي قليلًا وقال: «كنت أظنُّ هذا لا يحدث إلا في الأفلام... لكن، أشعر أن شخصًا يراقبني».

قال بيل: «أوه، إ-إ-إنهم هـ-هـ-هنا بالفعل».

نظر إدي حوله بتوتُّر مُتشبِّثًا بلوح الليدو أكثر. ثم...

11

غُرفة إدي | الثالثة وخمس دقائق صباحًا

... فتَحَ الباب ليلتقي وحشًا خارجًا من قِصَّة رُعبٍ مُصوَّرة.

كانت هناك سحنة دامية تقف على عتبة الباب لا يمكن أن تكون إلا هنري باورز. كان هنري أشبه بجثَّة نخرة نهضت من قبرها.. وجهه قناع مُشعوذ مليء بالحقد والإجرام، ويده اليُمنى متأهِّبة عند مستوى ذقنه.. وعندما اتَّسعت عينا إدي وشهق شهقته الأولى بفعل المُفاجأة، طعنت اليد إلى الأمام، وضوَّى نصل المدية كالحرير.

من دون تفكير -فلم يكن الوقت يسمح به، فلو توقَّف للتفكير لكان الآن

ميِّت- صفع إدي الباب مُغلقًا إيَّاه. اصطدم الباب بساعد هنري، ما أدَّى لانحراف مسار النصل وطوَّحه في قوسٍ واسعٍ على بُعد بوصةٍ من عُنُقه.

سحق الباب ذراع هنري، فأطلق الأخير صرخة مكتومة. سقطت المدية على الأرض وركلها إدي، فانزلقت أسفل جهاز التلفاز.

ألقى هنري بثقله على الباب. كان يفوق إدي وزنًا بمئة رطلٍ، ما جعل إدي يطيح إلى الوراء كالدُمية، وترتطم رُكبتاه بالسرير ويقع فوقه. دخل هنري الغُرفة وأغلق الباب خلفه. ثم أدار المقبض مُغلقًا القفل بينما كان إدي يعتدل على الفراش بعينين مُتَّسعتين رُعبًا وحلقٍ يضيق.

قال هنري: «حسنًا أيُّها المُخنَّث»، ثم اختلس نظرة سريعة إلى الأرض باحثًا عن المدية. لم يرها في أيِّ رُكنٍ. تلمَّس إدي الكومود ووجد إحدى زجاجات الماء المُكربن التي طلبها سابقًا اليوم. هذه الزجاجة مُغلقة، لقد شرب الأخرى قبل الذهاب إلى المكتبة لأن أعصابه كانت مُحترقة، وكان يعاني من ارتجاعٍ مرِّيئي مُريع. إن الماء المُكربن مُفيد جدًّا للهضم.

عندما نسي هنري أمر مطواته وبدأ يقترب منه، أمسك إدي بالزجاجة الخضراء من عنقها وحطَّمها على حافَّة الكومود. فارت المياه مُغرقة سطح الكومود وزجاجات الأدوية التي تتراص فوقه.

كان قميص هنري وسراويله مُثقلين بالدماء الطازجة ونصف الجافة، وكانت يده اليُمنى الآن مرفوعة في الهواء بزاوية غريبة.

قال هنري: «أيُّها المُخنَّث الصغير، سأعلِّمك كيف تلقي الحجارة جيِّدًا».

وصل هنري إلى الفراش ومدَّ يديه إلى إدي، الذي كان لا يزال لا يستوعب ما يحدث. لقد مرَّت أربعون ثانية فحسب منذ أن فتح الباب. حاول هنري إمساكه. دفع إدي قعر الزجاجة المُشظَّى أمامًا، فمزَّق وجه هنري، وسحبه فاتحًا شقًّا ملتويًا في خدِّه الأيمن، ثم ثقب عين هنري اليُمنى.

أطلق هنري صرخة لاهثة، وترنَّح إلى الوراء. تدلَّت عينه المشقوقة وراحت تقطر سائلًا أبيض يميل إلى الاصفرار وهي مُعلَّقة من محجرها، ورشَّت وجنته الدماء في نافورة صارخة. كانت صرخة إدي أعلى صوتًا. نهض كالملسوع من الفراش واتَّجه إلى هنري، رُبَّما لمساعدته، فلم يكن

مُتأكِّدًا تمامًا من نيَّته.. عندما انقضَّ هنري عليه ثانيةً. طعن إدي بالزجاجة المُشظَّاة كأنها سيف مُبارزة، وهذه المرَّة اخترقت حواف الزجاج الأخضر الحادَّة يد هنري اليُسرى وقطعت أصابعه. تدفَّقت دماء جديدة طازجة. أصدر هنري صوتًا سميكًا شاخرًا، أشبه بصوت رجُل يُجلي حنجرته تقريبًا، ودفع إدي بيده اليُمنى.

طار إدي إلى الخلف وصدم المكتب. التوت ذراعه اليُسرى خلفه وسقط فوقها بثقله. كان الألم حارقًا ومُفاجِئًا. شعر بعظام ساعده تَئِن في موضع الكسر القديم، واضطر أن يعض على أسنانه لكتم صرخة العذاب التي كادت أن تفلت منه.

ارتمى ظلٌ فوقه حاجبًا الضوء.

كان هنري يقف فوقه وهو يتمايل أمامًا وخلفًا، برُكبتين مُنثنيتين، ويده اليُسرى تقطر دمًا أمام رداء إدي.

كان إدي لا يزال مُتشبِّثًا بعُنُق الزجاجة المكسورة.. والآن، عندما تداعت رُكبتا هنري بالكامل، استقبله إدي بقعر الزجاجة المُشظَّى موجَّهًا إلى أعلى، وعُنُقها يلتصق بعظم قفصه الصدري. انهار هنري ساقطًا كالشجرة مخوزقًا نفسه في الزجاجة. شعر إدي بانكسارها في يده وسرت موجة جديدة من الألم الحارق في ذراعه اليُسرى التي كانت لا تزال عالقة أسفل جسده. انتشر دفءٌ مُبلَّل على صدره. لم يكن مُتأكِّدًا إن كانت هذه دماؤه أم دماء هنري.

راح هنري ينتفض كسمكة سلمون مُصاده، وفردتا حذائه تضربان البساط بإيقاعٍ شبه مُتناغم. اشتمَّ إدي أنفاسه الكريهة، قبل أن يتصلَّب جسد هنري وينقلِب. كانت الزجاجة تبرز بشكلٍ بشع من صدره، وعُنُقها يشير إلى السقف، كأنها تنمو من رئتيه.

قال هنري: «جاااج»، ولم يزد.. ثم حملقت عيناه في السقف. ظن إدي أنه غالبًا مات.

قاوم إدي موجات الضعف التي أرادت إفقاده وعيه وسحبه معها إلى أسفل. اتَّكأ على رُكبتيه، ثم نهض واقفًا أخيرًا. شعر بموجة طازجة من الألم في ذراعه المكسورة التي تتأرجح أمامه، وقد ساعد هذا على تصفية ذهنه

نوعًا. مُجهدًا، ومُكافحًا لالتقاط أنفاسه، شق إدي طريقه إلى الكومود. التقط بخَّاخه من بُحيرة الماء المُكربن، ودسَّه في فمه وضغط الزناد. ارتعش من المذاق الفعَّال، ثم أعطى نفسه جرعة أخرى. نظر حوله إلى الجسد المُسجَّى فوق البساط.. هل هذا هنري بالفعل؟ أهذا معقول؟ إنه كذلك. لقد كبر وصار شعره رماديًا، وصار بدنه مُمتلئًا ورخوًا وأبيض، لكنه ما زال هنري.. وقد مات الآن. أخيرًا بعد طول انتظار، هنري...

قال هنري: «جاج»، ثم اعتدل جالسًا. ارتفعت يداه إلى الهواء كأنهما تتشبَّثان بشيءٍ لا يراه سوى هنري. كانت عينه المقوَّرة تقطر وتسيل، وقوسها السُفلي قد انتفخ في وجنته كأنها حبلى. نظر هنري حوله وشاهد إدي مُنكمشًا إلى الحائط، فحاول النهوض.

فتح هنري فمه فتدفَّق شلَّالٌ من الدماء خارجًا منه.. وانهار أرضًا ثانيةً.

بقلبٍ يقصف، مدَّ إدي يدًا مُرتعشة إلى الهاتف، ولم ينجح إلا في إسقاطه من على الطاولة إلى الفراش. بعدها اختطفه سريعًا وطلب الرقم 0. ظل الهاتف يرن ويرن ويرن دون توقُّف.

فكَّر إدي: أسرِع، ماذا تفعل عندك؟ هل تسعد نفسك؟ هيًّا، أرجوك، أجِب الهاتف اللعين!

واصل الهاتف رنينه. لم يرفع إدي عينيه عن هنري، وراح يتوقَّع أنه سيحاول النهوض ثانيةً في أيِّ لحظة.

الدماء، يا إلهي الرحيم. كل هذه الدماء.

في النهاية أجاب صوتٌ ناعسٌ مُستاء: «الاستقبال».

قال إدي: «اطلب غرفة السيِّد دِنبروه حالًا»، وبأذنه الأخرى راح يسترقُّ السمع إلى الغُرف المُجاورة. هل كان صوتهما عاليًا؟ هل سيطرق أحدهم الباب خلال لحظات ويسأل إن كان كل شيءٍ على ما يُرام؟

قال موظَّف الاستقبال: «هل أنت مُتأكِّد من ذلك؟ إنها الثالثة وعشر دقائق صباحًا».

قال إدي بصوتٍ كاد أن يكون صراخًا: «أجل، اطلبه!». كانت يده المُمسكة بسمَّاعة الهاتف ترتعش بتشنُّجات صغيرة متقطِّعة.. أما ذراعه الأخرى، فثمَّة

عش دبابيرٍ قبيح كامل يسري ويطنُّ فيها. هل تحرَّك هنري مرَّة أخرى؟ لا.. بالتأكيد لا.

قال الموظَّف: «حسنًا، حسنًا، هدِّئ من روعك يا صديقي».

ثم سمع تكَّة، تبعها أزيز رنين هاتف الغُرفة الخشن. هيَّا يا بيل، هيَّا، ه...

هجمت عليه فكرة مُفاجئة شنيعة الاحتمالية. ماذا لو أن هنري عرج على غُرفة بيل أوَّلًا؟ أو غُرفة ريتشي؟ أو بن؟ أو بيف؟ أو رُبَّما ذهب في زيارة إلى المكتبة؟ بالتأكيد عرج على مكانٍ ما أوَّلًا. لو أن أحدًا لم يُضعف من قوَّة هنري، لكان إدي مُمدَّدًا الآن غارقًا في دمائه على الأرض، وثمَّة مدية تنمو من صدره بذات الطريقة التي ينمو بها عُنُق الزجاجة من صدر هنري. أم ماذا لو أن هنري زار الآخرين جميعًا أوَّلًا، وباغتهم في أثناء نومهم كما باغته بالضبط؟ ماذا لو أنهم ماتوا جميعًا؟ كانت هذه فكرة مُريعة بشكلٍ لا يمكن وصفه، وشعر إدي أنه سُرعان ما سيبدأ في الصراخ إذا لم يجب أحدهم الهاتف في غرفة بيل.

همس إدي: «أرجوك يا بيل الكبير. كُن هناك يا رجُل أرجوك».

رُفِعت سمَّاعة الهاتف، وسمع إدي صوت بيل حذرًا بشكل غير معهود: «أ-أ-ألو؟».

قال إدي، مُتلعثمًا بالكاد: «بيل. بيل، حمدًا لله».

- «إدي؟»، انخفض صوت بيل لحظيًّا وهو يتحدَّث إلى شخصٍ آخر، مُطلعًا هذا الآخر من المُتَّصل، قبل أن يعود إليه قويًّا واضحًا: «مـ-مـ-ما الأمر يا إ-إدي؟».

قال إدي: «هنري باورز». ثم نظر إلى الجسد المُسجَّى على الأرض مُجدَّدًا. تُرى هل غيَّر من وضعه؟ هذه المرَّة لم يكن من السهل إقناع نفسه أن هذا لم يحدث. «بيل، لقد جاء إلى غُرفتي... وقتلته. كان معه مدية. أظنُّها...» ثم خفض صوته قبل أن يردف «أظنُّها المدية نفسها التي كانت معه في ذلك اليوم، عندما هبطنا إلى المجاري. هل تذكر؟».

قال بيل مُتجهِّمًا: «أجل أ-أ-أذكر. إدي، اسمع، أريدك أن...

تـ-تـ-تعود وتخبر بـ-بن أن يـ-يأتي إ-إ-إلى هنا».

قال إدي: «حسنًا»، وعاد إلى الخلف في التوِّ. كانوا يقتربون من المساحة الخالية الآن. هزم الرعد في السماء الغائمة، وتنهَّدت الشجيرات متمايلة في النسيم الآخذ في التسارُع.

انضم بن إليه وهم يقتربون من الفرجة. كان باب مقرِّ النادي مفتوحًا.. مُربَّع أسود شاذ وسط الخضرة. صوت النهر واضح تمامًا.. وفي تلك اللحظة صدم بيل يقينٌ جنوني: أنه ينصت إلى ذلك الصوت للمرَّة الأخيرة في طفولته. أخذ بيل نفسًا عميقًا، مُشتمًّا التُربة والهواء والمزبلة السخامية البعيدة، التي ينبعث الدُخان منها كبُركان مُنذر لم يستقر رأيه إن كان سينفجر أم لا. شاهد سربًا من الطيور تطير من فوق منصَّة السكة الحديدية وتتَّجه إلى منطقة اللسان القديم، ثم رفع عينيه إلى الغيوم المهتاجة.

سأله بن: «ما الأمر؟».

سأله بيل: «لـ-لـ-لماذا لـ-لم يـ-يحاولوا الإمساك بـ-بنا؟ إ-إنهم هـ-هنا. إن إ-إ-إدي مُحِقٌ فـ-فيما قال. أ-أ-أ-أستطيع الشـ-الشعور بـ-بوجودهم».

قال بن: «أجل، أظنُّهم أغبياء بما يكفي ويظنون أننا سنهبط إلى الحُفرة من جديد، وأنهم سيحاصروننا داخلها كالمصيدة».

قال بيل: «ر-ر-رُبَّما»، وهو يشعُر بغضب مُباغت من ثأثأته التي تمنعه منعًا باتًّا من التحدُّث سريعًا. إن ما يُفكِّر فيه الآن لهي أمور يستحيل قولها على أيِّ حال. إنه يشعر بأنه يستطيع الرؤية بعيني هنري باورز، يشعر أنه وهنري صارا مُقرَّبين تمامًا رغم أنهما طرفا نقيض، يشعر أنهما بيدقان تُحرِّكهما قوَّتان مُتضادتان.

هنري يتوقَّع منهم الصمود والقتال.
الشَّيء يتوقَّع منهم الصمود والقتال.
ثم أن يُقتلوا.

ملأ سطوعٌ أبيض مُرجف رأسه. إذا ماتوا، سيُعدُّ سبعتهم ضحايا للقاتل المجهول الذي يجول في ديري منذ مقتل چورچي. قد يعثرون على جُثثهم، وقد لا يعثرون. كل ذلك يتوقَّف على ما إذا كان الشَّيء يستطيع أو سوف يحمي هنري.. وڤيكتور وبيلش بدرجة أقل. في نظر العالم، في نظر إلى هذه البلدة، سنُعدُّ جميعًا من ضحايا القاتل.. وهذا صحيح.. سيكون صحيحًا بطريقة جنونية أو بأخرى. الشَّيء يريد موتنا، وهنري أداته في إنهاء الأمر، كي لا يضطر الشَّيء إلى الخروج من عرينه. سأكون الأوَّل على ما أعتقد. قد يستطيع ريتشي وبيڤرلي تسلُّم زمام الأمور واحتواء الآخرين، أو رُبَّما مايك.. لكن ستان يرتعد، وكذلك بن، رغم أنني أظنُّه أقوى من ستان.. وإدي ذراعه مكسورة. لماذا قدتهم إلى هنا؟ يا للمسيح! لِمَ فعلت ذلك؟

هتف بن بعصبية: «بيل؟». انضم الآخرون إليهم قُرب مقرِّ النادي. دوى هزيم الرعد مُجدَّدًا، وبدأت الشُجيرات في الحفيف بشكل أكثر إلحاحًا، وقعقعت أعواد البامبو في ضوء العاصفة الغائم.

- «بيل...»، كان هذا ريتشي هذه المرَّة.

- «ششششش!». التزم الآخرون الصمت تحت سطوة هاتين العينان المسكونتان.

حدَّق بيل في الخمائل والشجيرات، وفي الدرب الملتوي بينها، وانتقل بصره صوب شارع كانساس، ثم شعر بعقله يرتقي درجة أخرى كأنه يصعد إلى مستوى أكثر ارتفاعًا. لم يكن عقله يتلعثم. شعر بيل بأفكاره محمولة على رياح حدسٍ جنونية. كل الخيوط تترابط في رأسه.

چورچ في طرف، وأنا وأصدقائي في الطرف الآخر. ثم سينتهي كل شيء (مرَّة أخرى)

مرَّة أخرى. أجل، لأن هذا حدث من قبل، ودائمًا ما كان هنالك قُربانٌ ما

في النهاية.. حدثٌ ما مُريع يُنهي الدورة. لا أعرف كي تسنَّى لي معرفة هذا، لكنني أعرف...

والبلدة تعرف أيضًا... إنهم...

- «يـ-يـ-يسمحون للأمر بـ-بـ-بالحدوث»، هكذا تمتم بيل مُحدِّقًا بعينين مُتَّسعتين في الدرب الملتوي المُهلهل. «بـ-بـ-بالتأكيد».

سألت بيف مُلتمسة: «بيل؟». كان ستان يقف إلى جوارها، صغيرًا وأنيقًا في سراويله القُماشية والتيشيرت ذي الياقة، بينما كان مايك يقف إلى جانبها الآخر، ويحملق في بيل بإمعان، كأنه يقرأ أفكاره.

إنهم يسمحون للأمر بالحدوث.. بتقديم القربان.. بالتضحية.. هذا ما يفعلونه دائمًا.. ثم تهدأ الأمور وتعود إلى مجراها الطبيعي، و... الشَّيء...

(ينام)

ينام... أو يدخل في سُباتٍ كالدببة... ثم تُعاد الكرَّة بعد ذلك.. وهم يعلمون ذلك... الناس يعلمون... يعلمون أن الأمر حتمي، أن وجود الشَّيء بين ظهرانيهم حتمي.

- «لـ-لـ-لـ-لـ...».

رُحماك يا رب، أرجوك يا الله. شاف الشَّبح.. يا الله، فشُدِه وشحب.. ساعدني على قول هذا.. وشَكَّ في رُشده.. يا الله، رُحماك يا يسوع، أرجوك اجعلني قادرًا على الكلام!

قال بيل: «لـ-لـ-لقد قُـ-قُدتكم إلى هـ-هنا لأنه لا يـ-يـ-يوجد مكانٌ آ-آ-آمن». كان الرضاب يتطاير من بين شفتيه، فمسحه بظهر يده وأردف: «إ-إ-إن د-د-ديري هي الشَّيء، هـ-هل تـ-تفهموني؟». كانت نظرته تتوهَّج مُتفرِّسة ملامحهم. تراجعوا إلى الخلف قليلًا، وعيونهم تسطع بالخوف، ويلوح فيها تجسيدٌ لروح الموت تقريبًا. «د-د-د-يري هي الشَّيء! عـ-عـ-عندما سـ-سيأتي الشَّيء لـ-لـ-للنيل مـ-منا، فـ-في أ-أيِّ مـ-مكانٍ كُنَّا، فلن يـ-يـ-يروه أو يسمعوه أ-أ-أو يـ-يعرفوا بـ-بوجوده»، كان ينظر إليهم مُستجديًا: «ألا تـ-تـ-ترون مـ-معي كـ-كـ-كيف تـ-تسير الأمور؟ كـ-كـ-كل مـ-ما نـ-نستطيع فـ-فعله الآن هـ-هو إ-إ-إنهاء مـ-ما بـ-بدأناه».

استدعت بيڤرلي مشهد السيِّد روس وهو ينهض من مجلسه وينظر إليها، ثم يطوي جريدته ويدخل منزله ببساطة. لن يروا، ولن يسمعوا، ولن يعرفوا، وأبي...

(اخلعي لباسك هذا أيتُّها الفتاة الساقطة)

كان ينوي قتلها.

فكَّر مايك في غدائه مع بيل. كانت والدة بيل تسبح شاردة في عالمها الخاص، كأنها لا ترى أيًّا منهما، ولم ترفع بصرها عن رواية هنري چيمس فيما كانا يعدان الشطائر ويلتهمانها في المطبخ. فكَّر ريتشي في منزل ستان الأنيق لكن الخاوي تمامًا. لقد تفاجأ ستان قليلًا لأن أمه لا تُفوِّت وقت الغداء تقريبًا من دون أن تكون في المنزل، وفي المناسبات القليلة التي تغيَّبت فيها، كانت تترك مُذكِّرة تقول أين يُمكن الوصول إليها. لكنها اليوم لم تترك شيئًا خلفها. كانت سيَّارتها غير موجودة فحسب. «في الغالب ذهبت للتسوُّق مع صديقتها ديبي»، هذا ما قاله ستان بجبين مُقطب، قبل أن يجلس لإعداد شطائر سلاطة البيض. لقد نسيَ ريتشي هذه التفصيلة، إلى اللحظة. فكَّر إدي في أمه. عندما خرج مُتأبِّطًا لوح الليدو خاصته، لم يسمع منها التحذيرات المُعتادة: كن حذرًا يا إدي، ابحث عن مكان مُظلَّل إذا أمطرت يا إدي، إيَّاك أن تلعب ألعابًا خشنة يا إدي. لم تسأله حتَّى إذا كان قد أخذ بخَّاخه معه أم لا، ولم تُنبِّه عليه بضرورة العودة إلى المنزل في وقتٍ مُعيَّن، ولم تُحذِّره من «أولئك الصبية الأفظاظ الذين تلعب معهم». لقد جلست تتابع مُسلسلها المُبتذل على التلفاز فحسب، كأنه شفَّاف لا وجود له.

شفَّاف لا وجود له.

طافت أفكار شبيهة بهذه في عقول جميع الصبية في البلدة: لقد صاروا في لحظةٍ ما بين استيقاظهم صباحًا ووقت الغداء أشباحًا ببساطة.

أشباح.

قال ستان بصوتٍ أجش: «بيل، ماذا لو قطعنا البرِّية بالعرض عبر اللسان القديم؟».

هزَّ بيل رأسه نافيًا: «لا أ-أ-أظنُّ ذ-ذ-ذلك. سـ-سنُحاصر بـ-بـ-بين

أ-أعواد الخيزران والطـ-طين المُتحرِّك... أو سـ-سـ-سنجد أ-أسماك بـ-بيرانا حـ-حقيقية في مـ-مـ-مياه الكِندوسكيج... أو أ-أ-أيَّ شـ-شيءٍ آ-أخر».

كان لدى كلٍّ منهم نُسخة مُختلفة من النهاية الشنيعة نفسها. رأى بن -بعين الخيال- الشجيرات تصير فجأة نباتات آكلة للبشر. تخيَّلت بيڤرلي علقات طائرة كتلك التي خرجت من الثلَّاجة القديمة. تصوَّر عقل ستان التُربة الموحلة حول أعواد الخيزران تلفظ جُثث أطفال حيَّة ممَّن ماتوا من قبل في الطين المُتحرِّك الأسطوري. توهَّم مايك زواحف من العصر الچوراسي تخرج مسعورة بأسنانٍ كالمناشير من شقٍ في شجرة يابسة وتهاجمهم، ممزِّقة لحومهم إلى أشلاء. رأى ريتشي العين الزاحفة التي تنز قيحًا فوق رؤوسهم وهم يركضون في نفقٍ أسفل السكَّة الحديدية. أما إدي فشاهدهم يتسلَّقون ضِفَّة اللسان القديم، ثم ينظرون إلى أعلى ليروا أن المجذوم يقف لهم بالمرصاد، تدب في لحمه المتحلِّل الخنافس وتسري فيه الديدان.

غمغم ريتشي: «إذا استطعنا الخروج من المدينة بطريقة ما...»، لكنه أجفل ولم يكمل عبارته عندما اعترض الرعد بصياحٍ غاضب مُريع من السماء. هطل مزيدٌ من المطر. كان لا يزال الماء مُجرَّد نضحٍ، لكنه سُرعان ما سيصير سيلًا عبابًا. كان الهدوء الغائم الذي بدأ اليوم به قدّ تلاشى بالكامل الآن، كأنه لم يوجد قط. «سنكون في مأمن إذا خرجنا من هذه المدينة الملعونة فحسب».

همَّت بيڤرلي بقول: «بيب-بـ...»، لكن صخرة طارت خارجة من بين الشُجيرات الكثيفة وصدمت مايك في جانب رأسه. ترنَّح مايك إلى الوراء، وتدفق الدم مُغرقًا شعره القصير، وكاد أن يسقط لولا أن بيل أمسك به.

جاءهم صوت هنري الساخر يقول: «سأعلمكم كيف ترمون الحجارة!».

رأى بيل تشتُّت الآخرين وعيونهم المُلتاعة التي تنظر في كل مكان. إنهم على وشك الانطلاق راكضين في ستَّة اتجاهات مُختلفة. إذا فعلوا ذلك، سينتهي كل شيءٍ بالفعل.

صاح بيل بحدَّة: «بـ-بـ-بن!».

نظر بن إليه: «بيل، يجب أن نهرب. إنهم...».

طار حجران آخران من بين الشجيرات. صدم أحدهما فخذ ستان فصرخ من المُفاجأة أكثر من الألم. أما بيڤرلي فراوغت الثاني فتحرج ساقطًا إلى مقرِّ النادي عبر الباب السحري المفتوح.

صاح بيل بصوتٍ يعلو على صوت الرعد: «أ-أ-أتذكر أوَّل يـ-يومٍ جـ-جئت فيه إ-إلى هـ-هنا. يـ-يوم انتهاء الد-الد-الدراسة؟».

صاح ريتشي: «بيل...».

رفع بيل يده مُخرسًا ريتشي، ولم تغادر عيناه بن، وسمَّرتاه في مكانه.

قال بن وهو يحاول النظر في كل الاتِّجاهات دفعة واحدة بشكلٍ بائس: «بالتأكيد». كانت الشُجيرات تتمايل وتتراقص بجنون حاليًا، في حركة تشبه حركة المد والجذر تقريبًا.

قال بيل: «المـ-المصارف. مـ-مـ-محطَّة الضَّـ-الضَّخ. يجب أ-أن نـ-نذهب إلى هناك. قُـ-قُدنا إلى ه-هناك!».

- «لكن...».

- «قُـ-قُـ-قُدنا إ-إلى هـ-هـ-هناك!».

صفَّر وابلٌ من الحجارة خارجًا من وسط الشُجيرات، وللحظة لمح بيل وجه ڤيكتور كريس الخائف نوعًا، الخدر، لكن الشَرِه في الوقت نفسه، ثم ارتطم حجرٌ بوجنته وجاء دور مايك ليمنعه من السقوط. مرَّت لحظات لم ير فيها جيِّدًا، وشعر بالخدر يسري في خدِّه، ثم عاد إليه الإحساس فجأة بألمٍ نابضٍ، وشعر بالدماء تجري على وجهه. مسح خدَّه، موجوعًا من التورُّم المُؤلم الذي بدأ ينتفخ فيه، ونظر إلى الدماء على يده، ثم مسحها في سراويله الچينز. كان شعره يتطاير بقوَّة في الرياح المُنعشة.

قال هنري نصف صارخٍ، نصف ضاحكٍ: «سأعلمك كيف تلقي الحجارة جيِّدًا أيُّها المتلعثم الأبله!».

صرخ بيل: «قُـ-قُـ-قُدنا!»، وقد أدرك الآن لماذا أمر إدي بجلب بن من الخلف. يجب عليهم الذهاب إلى محطَّة الضخ.. تلك المحطَّة بالتحديد.. وبن الوحيد الذي يعرف بالتحديد أيَّ واحدة هي.. فهي جميعًا متناثرة بطول

ضِفَّتي الكِندوسكيج على مسافاتٍ غير مُنتظمة. «إ-إ-إنها المـ-مـ-مكان المـ-مقصود! المـ-مـ-مدخل! المـ-مـ-مدخل إلى عـ-عرين الشَّيء».

صرخت بيڤرلي: «بيل، لا يمكن أن تكون مُتأكِّدًا من ذلك».

صاح فيها وفيهم جميعًا بغضبٍ مُستشيط: «بل أعرف!».

وقف بن مكانه لحظات يلعق شفتيه وينظر إلى بيل. ثم اندفع قاطعًا الفرجة الخالية قاصدًا النهر. التمعت صاعقة من البرق بارقة السطوع وشقَّت السماء بضياءٍ أبيض أرجواني، وتَبِعَها مزقٌ من الرَّعد جعل بيل يترنَّح على قدميه. أبحرت قطعة من الصخر بحجم قبضة أمام أنفه وصدمت بن في مؤخِّرته. صرخ بن من الألم ووضع يده مكان الخبطة.

- «أجل أيُّها البدين!»، هكذا صاح هنري نصف ضاحكٍ، نصف صارخٍ من جديد، ثم خشخشت الشُّجيرات وتحطَّمت الفروع وظهر هنري في اللحظة التي توقَّف فيها المطر عن الهذر وانهمر سيلًا مدرارًا. سال الماء على شعر هنري القصير وبين حاجبيه وأسفل وجنتيه، وكشفت ابتسامته عن جميع أسنانه. «سأعلِّمك كيف تلقي الحـ...».

كان مايك قد وجد إحدى قطع الخشب الباقية من حفر مقرِّ النادي وألقاها عليه الآن. دارت الخشبة مرَّتين في الهواء وخبطت هنري في جبهته فصرخ ووضع يده مكان الخبطة كرجُلٍ جاءته فكرة عبقرية، ثم سقط قاعدًا على الأرض.

صرخ بيل: «ا-ا-اركضوا! خـ-خلف بـ-بـ-بن!».

توالت أصوات التحطُّم والحفيف العنيف من بين الشُّجيرات، وفي أثناء ما كان الخاسرون يركضون خلف بن هانسكوم، ظهر ڤيكتور وبيلش ونهض هنري من سقطته، وبدأ ثلاثتهم يطاردونهم.

حتَّى بعد ذلك، عندما سيتذكَّر بن باقي الأمور التي حدثت في ذلك اليوم، لن يستطيع تذكُّر سوى بعض الصور الوامضة المُختلطة لمشهد عدوهم بين الشُّجيراتِ. سيتذكَّر فروع الشجر المُنتهية بأوراقٍ عديدة تقطر ماءً وهي تصفع وجهه وتغرقه بالماء البارد، سيتذكَّر أن البرق والرَّعد بديا له أبديين. سيتذكَّر كيف اختلطت صيحات هنري التي تطالبهم بالعودة والقتال بصوت

مياه الكِندوسكيج مع اقترابهم. سيتذكَّر أنه في كل مرَّة أبطأ فيها، كان بيل يصفعه على ظهره ليحثُّه على الإسراع.

ماذا لو لم أتمكَّن من العثور عليها؟ ماذا لو لم أتمكَّن من العثور على محطَّة الضخِّ تلك بعينها؟

كان الشهيق والزفير يمزِّقان رئتيه، وشعر بمذاقٍ ساخنٍ دامٍ في نهاية حلقه. ثمَّة نغزٍ ناغز في جانبه، وردفاه يصرخان في الموضع الذي صدمه الحجر فيه. بيڤرلي قالت إن هنري وأصدقاءه ينوون قتلهم، وقد وجد بن نفسه يُصدِّق هذا الآن... أجل بلا شك.

جاء بن إلى ضِفَّة الكِندوسكيج فجأةً، وكاد أن يسقط من حافَّتها. تمكَّن من حفظ توازنه، لكنَّ الحافَّة المقوَّضة بفعلِ الجريان الربيعي تداعت من تحته، وبدأ يتشقلب مُنزلقًا كل المسافة إلى حافَّة الماء السريع وقد شُلِح قميصه إلى أعلىَ، ولطَّخ الوحل جلده والتصق به.

هبط بيل إلى جواره، وأوقفه على قدميه.

اندفع الآخرون خارجين من وسط الشجيرات التي تُشرف على الوهدة واحدًا تلو الآخر. كان آخرهم ريتشي الذي يطوِّق خصر إدي بذراعه، في حين ما تشبَّثت نظَّارته التي تقطر ماءً باستماتة بطرف أنفه.

صاح بيل: «أ-أ-أين؟».

نظر بن إلى اليسار ثم إلى اليمين، وهو يدرك كم أن الوقت قصير. يبدو النهر مُرتفع المنسوب بالفعل، وقد أكسبته السماء الداكنة المدرارة لونًا رماديًّا مُكفهرًّا، بينما هو يهيج ويموج في طريقه. كانت الضِفَّتان مُترعتين بالشجيرات القزمة والخمائل التي ترقص جميعًا الآن على ألحان الرياح. كان بيل يسمع إدي وهو يكافح للحصول على الهواء.

- «أ-أ-أين؟».

همَّ بن بقول: «لا أعر...»، ثم لمح الشجرة المائلة والكهف المُتآكل أسفلها. هنا اختبأ في ذلك اليوم. لقد فقد وعيه، وعندما استفاق سمع صوت بيل وإدي يلعبان ويثرثران، ثم جاء الفتية الكبار بعدها... ورأوهما... وضربوهما. تا تا يا أولاد. لقد كان سدًّا عديم القيمة صَدِّقاني.

صاح بن: «هناك! من هذا الطريق!».

ومض البرق من جديد، وهذه المرَّة سمع بن صوته يطن كصوت مُحوِّل قطارات أُثقِلَ بشُحنة زائدة تفوق طاقته. ضرب البرق الشجرة وأحرقت شرارة كهربائية بيضاء تشوبها زُرقة قاعدتها السميكة وقصمتها إلى شظايا هائلة تصلح لتنظيف أسنان عمالقة القصص الخيالية. سقطت الشجرة في ماء النهر بصخب هائل، ناثرة نافورة عظيمة في الهواء. شهق بن شهقة فزع، واشتمَّ رائحة لاذعة جامحة. لفَّت كُرة من النار ساق الشجرة الساقطة وبدا أنها تتوهَّج، ثم خبت. مزَّق الرَّعد السماء، ليس من فوقهم، وإنما من حولهم، كأنهم كانوا يقفون في مركز قصف الرعد. هطل السيل مدرارًا.

ربَّت بيل على ظهره موقِظًا إيَّاه من تأمُّله الذاهل في الأشياء. «تـ-تـ-تحرَّك!».

تحرَّك بن على حافَّة النهر وهو يتعثَّر ويترنَّح وينثر المياه وشعره يغطي عينيه، وصل إلى الشجرة -كان الكهف الصغير المليء بالجذور أسفلها قد طُمِس- وتسلَّقها داسًّا قدميه في لحائها المُبتل، وكشط جلد يديه وساعديه.

تعاون بيل وريتشي على رفع إدي، وعندما تخبَّط الأخير ساقطًا على الجهة الأخرى من الشجرة تلقَّفه بن. سقط كلاهما مُكوَّمًا على الأرض، وصرخ إدي بصوتٍ عالٍ.

صاح بن: «أنت بخير؟».

صاح إدي بدوره وهو ينهض: «أظنُّ ذلك»، ثم مدَّ يدًا مُرتعشة إلى بخَّاخه وكاد أن يسقطه. ساعده بن في الإمساك به، فنظر إليه إدي نظرة مُمتنَّة وهو يضعه في فمه ويضغط الزناد.

قفز ريتشي بعدها، ثم ستان ومايك. دفع بيل بيڤرلي أعلى الشجرة، والتقطها بن وريتشي من الجانب الآخر وشعرها مُلتصق برأسها وقد استحال جينزها الأزرق إلى الأسود الآن.

عبر بيل آخرًا، دافعًا نفسه فوق الجذع ومُؤرجحًا ساقيه حوله. شاهد بيل هنري والاثنين الآخرين يتقدَّمان نحوهم عبر مجرى النهر وهم ينثرون الماء

في كل اتِّجاه، فصاح وهو ينزلق على الجهة الأخرى من الشجرة الساقطة: «حـ-حـ-حجارة! ألقوا عليهم بحجارة».

كانت الحجارة متناثرة بوفرة هنا على الضِفَّة، وقد شكَّلت الشجرة التي ضربها البرق متراسًا مثاليًّا. خلال لحظات، راح سبعتهم يرشقون هنري وصديقيه بالحجارة. كانت عصابة هنري قد وصلت تقريبًا إلى الشجرة، وصارت هدفًا مُباشرًا وسهلًا. أُجبِروا على التقهقر، صارخين من الألم والغضب، فيما راحت الحجارة ترشق وجوههم وصدورهم وأذرعهم وسيقانهم.

صاح ريتشي: «ستعلِّمنا إلقاء الحجارة، هه!»، ثم قذف حجرًا في حجم بيضة دجاجة على هنري. صدمه الحجر في كتفه وارتدَّ عنه مُباشرةً إلى الهواء. صرخ ڤيكتور. «بالتأكيد... بالتأكيد... إستَمِر في تلقيننا يا غلام! نحن سريعو التعلُّم!».

صرخ مايك: «ييييييي-هاااااا! ما رأيك في هذا؟ ما رأيك في هذا؟».

لم يتلق ريتشي جوابًا. لقد تراجع هنري وعصابته إلى أن صاروا خارج نطاق مرماهم، واحتشدوا معًا. بعدها بلحظة تسلَّقوا الضِفَّة صعودًا منزلقين متعثِّرين في الأرض الرخوة المُبتلَّة أسفل أقدامهم المليئة بالجداول الصغيرة، وراحوا يتشبَّثون بالفروع كي يظلوا مُنتصبين.

ثم اختفوا وسط النباتات المُتشابكة.

قال ريتشي دافعًا نظَّارته أعلى أنفه: «سيلتفُّون من حولنا يا بيل الكبير».

قال بيل: «لـ-لـ-لا يـ-يـ-يهم. ا-استمر يا بن. سـ-سـ-سنتبعك».

هرول بن بطول الضِفَّة، ثم توقَّف (متوقِّعًا أن ينقض هنري والآخران في وجهه في أيِّ لحظة) عندما رأى محطَّة الضخ على بُعد عشرين ياردة في اتِّجاه مجرى النهر. تبعه الآخرون، ورأوا أُسطوانتين خرسانيتين أُخريين على الضِفَّة الأخرى.. إحداهما قريبة، والأخرى تبعد أربعين ياردة ضد التيَّار. هاتان الأُسطُوانتان كانتا تقذفان تيَّارين من الماء الموحل القذر في نهر الكِندوسكيج، لكن لم يكن يخرج من ماسورة المحطَّة التي يقصدونها سوى تقاطر مائي ضعيف فحسب، كما أنها لا تصدر طنينًا، هكذا لاحظ بن. إن آلات الضخ بها مُعطَّلة.

نظر بن إلى بيل مليًّا... وبشيءٍ من الخوف.

كان بيل ينظر إلى ريتشي وستان ومايك، ثم قال: «يـ-يـ-يجب أ-أن نـ-ننزع الغـ-غطاء. سـ-ساعدوني».

كان الغطاء الحديدي مزوَّدًا بمقابض يد، لكن المطر جعلها زلقة، والغطاء نفسه كان ثقيلًا جدًّا. تحرَّك بن إلى جوار بيل، فحرَّك بيل يديه لإفساح المجال قليلًا. سمع بن صوت الماء يقطر بالداخل. كان الصوت مصحوبًا بأصداء غير سارة، كصوت الماء الذي يقطر في بئرٍ عميقة.

صاح بيل: «الـ-الـ-الآن!»، ورفع خمستهم متحدين. تحرَّك الغطاء بصوتٍ كريهٍ مُزعج.

أمسكت بيڤرلي بالغطاء من جوار ريتشي، ودفع إدي معهم بذراعه السليمة.

ردَّد ريتشي: «واحد، اثنان، ثلاثة، ادفعوا!». احتكَّ حديد الغطاء بالسطح الخرساني بصوتٍ أكثر صخبًا وتزحزح قليلًا. الآن، ظهر هلالٌ صغير من العتمة أسفله.

- «واحد، اثنان، ثلاثة، ادفعوا!».

ازداد حجم الهلال.

- «واحد، اثنان، ثلاثة، ادفعوا!».

دفع بن بقوَّة إلى أن تراقصت بُقعٌ حمراء أمام عينيه.

صاح مايك: «ابتعدوا! ها هو يسقط، ها هو يسقط!».

تراجعوا جميعًا وراقبوا الغطاء الدائري الكبير يفقد اتِّزانه ثم يقع أرضًا. أحدث الغطاء شقًّا طوليًّا في الأرض المُبلَّلة مع سقوطه مقلوبًا، وبدا كرُقعة شطرنج مُبالغ في حجمها. هرعت الخنافس راكضة هاربة من على سطحه الداخلي إلى العُشب الميِّت.

صاح إدي: «يع».

حدَّق بيل بالداخل. ثمَّة سُلَّم حديدي يهبط إلى بركة دائرية من الماء الأسود سطحها مُضطرب الآن بفعل قطرات المطر. كانت المضخَّة الهامدة تجلس في سكون وسط هذه البركة، نصف مغمورة. رأى بيل الماء يتدفَّق إلى

وحدة الضخّ من فم ماسورة التدفُّق، ووجد نفسه يُفكِّر وروحه تُسحب من أحشائه: هذا هو المكان الذي يفترض أن نهبط إليه. هذا هو المكان.

- «إ-إ-إدي، تـ-تـ-تشبَّث بي».

نظر إدي إليه غير مستوعب.

شرح له بيل: «تشبَّث بظهري. تمسَّك بي بذراعك السليمة».

فهم إدي ما يقصد، لكن شعر بالتردُّد.

طرقع بيل بإصبعيه: «سريعًا! سـ-سـ-سيأتون في أ-أيِّ لـ-لـ-لحظة».

لفَّ إدي ذراعه حول عُنُق بيل، وأعطاه ستان ومايك دفعة كي يستطيع عقْف ساقيه حول خصره.. وفي أثناء ما راح بيل يتأرجح بشكلٍ أخرق فوق شفَّة الأُسطُوانة، رأى بن أن إدي قد أغلق عينيه بقوَّة.

بدأ بن يسمع أصوات أخرى تعلو على صوت المطر: حفيف أوزاق، تكسُّر أغصان، صيحات. إنهم هنري وڤيكتور وبيلش.. أبشع سلاح فرسان في العالم.

أمسك بيل بحافَّة الخرسانة الخشنة وتلمَّس طريقه نزولًا، خطوة حذرة تلو الخطوة الحذرة. كانت الدرجات الحديدية زلقة، وإدي يعقد ذراعه حول عُنُقه في قبضة موتٍ تقريبًا. افترض بيل أنه يعيش مُحاكاة قاسية جدًّا لحالة الربو التي يُعانيها إدي.

همس إدي: «أنا خائف يا بيل».

- «وأ-أ-أنا أيضًا».

ترك بيل حافَّة الخرسانة ونقل يديه إلى الدرجة الحديدية العُليا، ورغم أن إدي كان يخنقه تقريبًا، ورغم أنه كان يشعر أنه اكتسب أربعين رطلًا إضافيًّا، تريَّث بيل لحظة ناظرًا إلى البرِّية والكِندوسكيج والغيوم المُتسارعة. لقد أخبره صوتٌ داخله -لم يكن صوتًا راجفًا، بل واثقٌ مكين- أنه يجب عليه إلقاء نظرة جيِّدة على المكان، تحسُّبًا لأنه قد لا يرى العالم العلوي مرَّةً أخرى.

لذا أشاع بيل النظر جيِّدًا، ثم أخذ يهبط وإدي مُتعلِّقٌ بظهره.

جاهد إدي لقول: «لم أعد أستطيع التشبُّث فترة أطول».

قال بيل: «لـ-لـ-لن تضطر إ-إلى ذلك. كدنا أن نـ-نصل».

غاصت إحدى قدميه في ماءٍ بارد، فتلمَّس بقدمه الدرجة التالية ووجدها. هنالك درجة أخرى أسفلها ثم ينتهي السُلَّم. كان يقف في ماءٍ يصل إلى رُكبتيه جوار المضخَّة.

جلس بيل القُرفصاء وشهق عندما أغرق الماء البارد سراويله وأنزل إدي من على ظهره، ثم سحب نفسًا عميقًا. لم تكن الرَّائحة جميلة جدًّا، لكن التحرُّر من قبضة إدي المُميتة كان شعورًا عظيمًا.

رفع بيل بصره عاليًا نحو فم الأُسطُوانة الذي يعلو رأسه بنحو عشرة أقدام. كان الآخرون متجمِّعين حول الحافَّة وينظرون إلى أسفل. صاح فيهم: «هـ-هـ-هيا! بـ-بـ-بالدور! أَ-أَسرِعوا!».

هبطت بيڤرلي أوَّلًا مُنزلقة بسهولة فوق الحافَّة ومُمسكة بالسلَّم، ومن بعدها ستان. ثم تبعهما الآخرون. كان ريتشي آخر النازلين، وقد تريَّث لحظة للإنصات إلى تقدُّم هنري وصديقيه. كان يظن من صوت تقدُّمهم المُتخبِّط أنهم رُبَّما اجتازوا محطَّة الضخِّ وتوغَّلوا يسارًا قليلًا، لكن ليس بما يكفي كي يضلُّوا الطريق فرق.

في هذه اللحظة، جأر ڤيكتور: «هنري! من هنا! توزيبه!».

نظر ريتشي حوله وشاهدهم يندفعون نحوه، وڤيكتور في طليعتهم.. ثم دفعه هنري جانبًا بوحشيَّة لدرجة أن ڤيكتور تعثَّر وانزلق على رُكبتيه. هنري يحمل مدية بالفعل.. مدية صغيرة عادية يتقاطر المطر من نصلها.

حدَّق ريتشي داخل الأُسطُوانة، ورأى بن وستان يساعدون مايك على النزول من السلَّم، فتأرجح نزولًا. أدرك هنري ما يفعله فصرخ فيه. ضاحكًا بجنون، أمسك ريتشي كوعه الأيمن بيده اليُسرى، ورفع ساعده نحو السماء ويده مضمومة في قبضة قد تكون أقدم إشارة في العالم.. ثم ليتأكَّد ريتشي أن هنري قد فهم مقصده، أبرز له إصبعه الأوسط.

صاح هنري: «سوف تموت بالأسفل!».

صاح ريتشي ضاحكًا: «أَثبِت ذلك!». كان مذعورًا من هبوطه في هذا الحلق الخرساني الطويل، لكنه لم يستطع التوقُّف عن الضحك.. ثم صاح

عاليًا بصوت الضابط الأيرلندي: «بوعدٍ من الله، حظُّ الأيرلنديين لا ينفد أبدًا يا سيِّدتي الجميلة».

انزلق هنري فوق العشب المُبتلِّ وانبطح على مؤخِّرته على بُعد عشرين قدمًا من حيث يقف ريتشي، الذي كان يضع قدمه على الدرجة العلوية من السُلَّم الحديدي الذي يغوص إلى محطَّة الضخِّ، ورأسه وصدره خارج الفتحة.

صاح ريتشي مُنتشيًا بالانتصار: «هنيئًا لك يا عجل!»، ثم أسرع في طريقه هابطًا درجات السُلَّم. كانت الدرجات الحديدية زلقة تمامًا وكاد أن يسقط. ثم تلقَّفه بيل ومايك، ووجد نفسه يقف غارقًا إلى رُكبتيه في الماء مع بقيتهم في دائرة غير مُنتظمة حول المضخَّة. كان يرتجف من رأسه إلى قدميه، وشعر بمَشاعِرَ باردة ودافئة تطارد بعضها بعضًا على ظهره، ورغم كل ذلك لم يستطع كبح جماح ضحكاته.

- «كان يجب أن تراه يا بيل الكبير. أهبل من أيِّ وقتٍ مضى، ما زال لا يستطيع السيطرة على...».

ظهرت رأس هنري من الفتحة الدائرية التي تعلو رؤوسهم، وخدوش فروع الأشجار والأشواك تتقاطع على وجنتيه. كان يعب الهواء عبًّا، وعيناه مُتَّقدتين.

صاح بهم: «حسنًا». كان لكلماته رنينًا مُجوَّفًا داخل الأُسطُوانة الخرسانية، لكنها لم تكن أصداءً تمامًا.

- «ها أنا ذا قادم. سأمسك بكم الآن».

رفع إحدى ساقيه فوق الفتحة، وتلمَّس الدرجة العلوية بقدمه، ووجدها، ثم طوَّح ساقه الأخرى.

قال بيل مُتحدِّثًا بصوتٍ عالٍ: «استعدوا، عندما سيقترب بما يكفي سنُمسك بساقيه ونجذبه إلى أسفل ونغرقه في المياه. هل فهمتهم؟».

قال ريتشي: «تمام يا أفندم»، ثم أدَّى التحيَّة العسكرية بيدٍ مُرتعشة.

قال بن: «أجل».

غمز ستان بعينه إلى إدي الذي لم يكن يفهم ماذا يدور، باستثناء أن ريتشي

يبدو له كمن فقد عقله. كان يضحك كالمجاذيب في أثناء ما كان هنري باورز -هنري باورز المهيب- يستعد للنزل لقتلهم جميعًا كجرذانٍ محصورة في برميل ماء.

صرخ ستان: «أنا جاهز تمامًا له يا بيل».

بعد هبوطة ثلاث درجات تجمَّد هنري في مكانه، ونظر إليهم من فوق كتفه. بدا وجهه -للمرَّة الأولى- مُرتابًا.

فهم إدي الأمر فجأة. إذا هبطت عصابة هنري إليهم، فسيضطرون إلى الهبوط بالدور.. الواحد تلو الآخر. المسافة أعلى بكثير من أن تُقطع قفزًا، خصوصًا مع وجود المضخَّة في القاع.

وها هم هنا.. سبعة منهم.. ينتظرون في دائرة مُحكمة.

قال بيل في سعادة: «تـ-تـ-تعال يا ه-هنري. ما الـ-الـ-الذي تـ-تـ-تنتظره؟».

ردَّ ريتشي: «هذا صحيح. أنت تحب ضرب الأولاد الصغار، أليس كذلك؟ تعال يا هنري».

قالت بيڤ بدلالٍ: «نحن ننتظرك يا هنري. لا أظنُّ أنك ستحب الأمر عند نزولك، لكن تعال إذا كنت ترغب في ذلك».

أضاف بن: «إلا إذا كنت دجاجة مذعورة»، ثم بدأ يقوقئ كالدجاجة. انضم إليه ريتشي على الفور، وسرعان ما راحوا جميعًا يفعلونها. تردَّدت القوقأة الساخرة بين الجدران الرطبة المُبتلَّة. نظر هنري إليهم، وكفه الأيسر يقبض على المدية، ووجهه قانٍ بلون القرميد القديم. راح يُفكر نحو ثلاثين ثانية، ثم تسلَّق صعودًا من جديد. أمطره الخاسرون بسيلٍ من الإهانات والشتائم.

قال بيل: «حـ-حـ-حسنًا». كان يتحدَّث بصوتٍ مُنخفض. «يـ-يـ-يجب أ-أ-أن نـ-نتوغَّل في شـ-شـ-شبكة المجاري. سـ-سـ-سريعًا».

سألته بيڤرلي: «لماذا؟»، لكن هنري أعفاها من عناء الإجابة. عاود هنري الظهور عند حافَّة فتحة محطَّة الضخ وأسقط صخرة في حجم كُرة قدم عبر الفوَّهة. صرخت بيڤرلي، وجذب ستان إدي بعيدًا نحو الحائط الدائري بصيحة غليظة. ارتطمت الصخرة بكِسوَة ماكينة الضخِّ الحديدية الصدئة

وأحدثت صخبًا معدنيًّا مدوِّيًا بـــــــــــــــونــــــــــــــــج! ثم ارتدَّت إلى اليسار وصدمت الجدار الخرساني متجاوزة إدي بأقل من نصف قدم. طارت شظية من الخرسانة في وجنته بقوَّة مُؤلمة، وسقط الحجر في الماء مُحدثًا جلبة.

صاح بيل ثانيةً: «ســـ-ســـ-سريعًا!». احتشد سبعتهم حول ماسورة تدفُّق المضخَّة. كان قُطرها نحو خمسة أقدام. أرسلهم بيل داخلها واحدًا تلو الآخر (وفي عقله عبر مشهد غامض لسيركٍ يخرج فيه كل المُهرِّجين من عربة صغيرة تباعًا.. بعد سنوات سيستخدم ذلك المشهد في رواية له بعنوان الجنادل السوداء)، وكان هو آخر الوالجين إليها بعدما تفادى صخرة أخرى، واصلت الصخور الانهمار عليهم من أعلى، وراح معظمها يصطدم بالقفص المحيط بالمضخَّة ويرتدُّ عنه في زوايا مُريعة.

عندما توقَّف سيل الصخور، نظر بيل من خارج الماسورة وشاهد هنري يهبط السلَّم من جديد، بأقصى ما في وسعه من سُرعة. صاح بن في الآخرين: «أ-أ-أمسِكوه!». تقدَّم ريتشي وبن ومايك مُتعثِّرين خلف بيل. قفز ريتشي عاليًا وقبض كاحل هنري، فأطلق سُبَّة وهزَّ ساقه كأنه يحاول ركل كلبٍ صغير حاد الأسنان بعيدًا.. كلب ترير رُبَّما، أو بكيني. أمسك ريتشي بإحدى الدرجات الحديدية، وتسلَّق إلى أعلى قليلًا، واستطاع بالفعل أن يغرس أسنانه في كاحل هنري. صرخ هنري وجذب نفسه إلى أعلى سريعًا، وخُلعت إحدى فردتي حذائه وسقطت في الماء حيث غاصت من دون جلبة على الإطلاق.

كان هنري يصرخ: «لقد عضَّني! عضَّني! المُخنَّث الصغير عضَّني».

صاح ريتشي فيه: «أجل، من الجيِّد أنني أخذت تطعيم التيتانوس هذا الربيع!».

كان هنري يصيح مُهتاجًا: «اسحقوهم! اسحقوهم! أرسِلوهم إلى العصر الحجري! اسحقوا أمخاخهم!».

حلَّقت صخورٌ أخرى ساقطة. تراجع الأولاد إلى ماسورة الصرف سريعًا من جديد. أُصيب مايك بصخرة صغيرة في ذراعه، فأمسك بها بقوَّة ملتويًا من الألم حتَّى بدأ ينحسر.

قال بن: «نحن في موقفٍ مُتعادل. هم لا يستطيعون النزول إلينا، ونحن لا نستطيع الخروج».

قال بيل بصوتٍ خفيض: «لـ-لـ-لـيس من المُفترض أ-أن نخرج، وأ-أ-أنتم تعلمون ذ-ذلك. لـ-لـ-ليس من المُفترض لنا أن نـ-نـ-نخرج ثانيةً على الإطلاق».

نظر جميعهم إليه بعيونٍ محزونة خائفة، لكن أحدًا لم يتفوَّه بشيءٍ.

ترامى إليهم صوت هنري الغاضب المُستتر بالسُخرية: «نستطيع انتظاركم هنا طوال اليوم يا رفاق!».

كانت بيڤرلي قد استدارت وراحت تُحملق في امتداد تجويف ماسورة التدفُّق. كان الضوء يتشتَّت سريعًا، ولم تتمكن من رؤية الكثير. ما رأته كان نفقًا خرسانيًّا ثلثه السُفلي يمتلئ بالماء، الذي كان منسوبه قد ارتفع قليلًا عمَّا كانوا مُعتصرين داخل الماسورة أوَّل المرَّة الأولى، وأدركت أن هذا بسبب تعطُّل المضخَّة. قليل من الماء فقط يخرج من الطرف الآخر.. طرف نهر الكِندوسكيج. شعرت برُهاب الأماكن الضيِّقة يُغلق حلقها، ويحيل ملمس جلدها إلى شيءٍ أشبه بالوبر. إذا ارتفع الماء بما يكفي، فسيغرقون.

- «بيل، هل نحن مُضطرين إلى ذلك؟».

هزَّ بيل كتفيه، وأخبرهم هذا بكل شيء. أجل، إنهم مُضطرون، فما خيارهم الآخر؟ أن يقتلهم هنري وڤيكتور وبيلش في البرِّية؟ أو أن يقتلهم شيءٌ آخر -شيءٌ أسوأ رُبَّما- في المدينة؟ فهمت بيڤرلي بيل بشكلٍ جيِّد الآن، فلم تكن هزَّة كتفه تتلعثم. من الأفضل لهم الذهاب إلى الشَّيءِ، وإخراجه من عرينه، كما يحدث في المواجهات الحاسمة في أفلام الغرب. ذلك أزكى لهم.. ذلك أنظف.. أشجع.

قال ريتشي: «ما كان اسم ذلك الطِقس الذي أخبرتنا عنه يا بيل الكبير؟ ذلك الذي وجدته في كتاب المكتبة؟».

قال بيل: «تشـ-تشـ-تشود»، وابتسم قليلًا.

أومأ ريتشي: «تشود أجل. أن تعض على لسان الشَّيءِ ويعض الشَّيء على لسانك، أليس كذلك؟».

- «بـ-بـ-بلى».
- «ثم تقول نكاتًا».
أومأ بيل.
قال ريتشي وهو ينظر إلى الأنبوب المُظلم: «الشيءُ الغريب هو أنني لا أستطيع التفكير في نُكتة واحدة».
قال بن: «وأنا كذلك». كان الخوف ثقيلًا في صدره، ويكاد يخنقه، وشعر بن أن الشيء الوحيد الذي يمنعه من الجلوس أرضًا وسط الماء والبكاء كالأطفال -أو التصرُّف بجنون فحسب- هو هدوء بيل ووجوده المُطمئن... ووجود بيڤرلي. شعر أن الموت أفضل له من أن يُظهِر أمام بيڤرلي مقدار هلعه.
سأل ستان بيل: «هل تعرف إلى أين يقود هذا الأنبوب؟».
هزَّ بيل رأسه نافيًا.
- «هل تعرف طريقة للعثور على الشَّيءِ؟».
هزَّ بيل رأسه ثانيةً.
قال ريتشي فجأة: «سنعرف عندما نقترب»، ثم أخذ نفسًا عميقًا راجفًا وأضاف: «إذا كنا سنفعل ذلك، فهيَّا بنا إذًا».
أومأ بيل وقال: «سـ-سـ-سأكون فـ-فـ-في المُقدِّمة. ثم إ-إدي، فبن، فسـ-ستان الإ-إنسان، فمـ-مايك، وسـ-ستكون أنت في المـ-المؤخِّرة يا ر-ريتشي. فـ-فليضع كـ-كلٌّ منكم يـ-يـ-يده على كتف مـ-مـ-من أ-أ-أمامه، سـ-ستكون ر-ر-رحلةً مُظلمةً».
صاح هنري من أعلى فيهم: «هل ستخرجون؟».
غمغم ريتشي: «سنخرج من مكانٍ ما، على ما أعتقد».
اصطفَّ سبعتهم في موكب عميان. نظر بيل خلفه مرَّة، ليتأكَّد من أن كل يدٍ موضوعة على الكتف الذي أمامها. ثم -مُنحنيًا إلى الأمام بشكلٍ طفيف ضد اندفاع التيَّار- قاد بيل دِنبروه أصدقاءه إلى الديجور الذي سلكه القارب الورقي الذي صنعه لأخيه منذ ما يقرب من عامٍ تقريبًا.

الفصل العشرون

الدائرة تُغلَق

1

توم

انتاب عقل توم روجان كابوس مُريع مجنون.. وفيه، رأى أنه يقتل أباه.

أدرك جزءٌ من عقله كم أن هذا جنونيًّا.. فأبوه مات عندما كان في العام الدراسي الثالث. حسنًا... رُبَّما «مات» ليست هي الكلمة المُناسبة لوصف الأمر، قد تكون «انتحر» اللفظة الأدق. لقد أعدَّ أبوه رالف روجان لنفسه كوكتيلًا من الجِن والعصير لمرافقته في الرحلة (كما قد تحب أن تقول)، ومن يومها صار توم مسؤولًا عن أخيه وأخته، وبدأ يتلقَّى «عُلَقًا» إذا حدث أيُّ أمرٍ خاطئ لهم أو تسببوا في حدوثه.

لذا لا يُمكن أن يكون هو قاتل والده. لكن ها هو ذا في هذا الحلم المُزعج، يُمسك بما يبدو أنه مقبض قرب غير مؤذٍ قُبالة عُنُق والده... فقط لم يكن المقبض غير مؤذٍ، أليس كذلك؟ ثمَّة زر في نهاية المقبض، وإذا ضغطه سيخرج منه نصلٌ ليخترق عُنُق والده. لن أفعل أيَّ شيء يؤذيك يا أبي، لا تقلق. هكذا فكَّر عقله الحالم قبل أن يتقلَّص إصبعه فوق الزِّر ويخرج النصل من جرابه. فُتحت عينا أبيه النائمتان على اتِّساعهما وحملقتا في السقف، وانفتح فمه مُخرجًا غرغرة حلقية. صرخ عقل توم: لم أفعل ذلك! شخصٌ آخر قد...

جاهد توم كي يستيقظ، لكنه لم يستطِع. كل ما تمكَّن فعله (وقد تبيَّن أنه ليس أمرًا جيِّدًا على الإطلاق) هو الانزلاق إلى حُلمٍ آخر. في هذا الحلم، راح

يركض متقدِّمًا بصعوبة عبر نفقٍ مُظلمٍ مُبتلٍّ. كانت خصيتاه تؤلمانه ووجهه يلسعه بسبب خدوشٍ كثيرة أصابته، وثمَّة آخرون برفقته، لكنه لم يتبيَّن ملامحهم. لم يكن الأمر يهم على أيِّ حال. ما يهم حقًّا هم الصبية الذين يركضون في مكانٍ ما أمامه. يجب أن يدفعوا الثمن. يجب أن

(يُضربوا علقة)

يُعاقبوا.

أيًّا كان كُنه المطهر الذي هو فيه الآن، فإن رائحته كريهة. الماء يقطر ويتردَّد صداه في الأرجاء. فردتا حذائه وسراويله غارقان في الماء. الأوغاد الصغار يتقدَّمونه في متاهة الأنفاق هذه، وعلى الأرجح هم يظنون أن

(هنري)

توم ورفاقه سيضلون طريقهم، لكن المزاح سينقلب عليهم

(ها ها ها على حالكم!)

لأن لديه صديقٌ آخر.. أجل.. صديقٌ من نوعٍ خاص، وهذا الصديق قد حدَّد له الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه بـ... بـ...

(بالونات قمرية)

بأجسام كبيرة لا اسم لها.. كبيرة ودائرية ومُضاءة بطريقةٍ ما من الداخل وتلقي بسطوعٍ غامض أشبه بسطوع مصابيح الشوارع العتيقة. هناك بالونة تطفو وتتهادىً عند كل تقطاع ومنعطف في الأنفاق، وعلى جانب كُلٍ منها سهم يُشير إلى التفرُّع الذي يجب أن يسلكه هو

(وبيلش وڤيكتور)

أصدقاؤه.. وبالفعل يتَّضح بعدها أنه الطريق الصحيح.. أوه أجل.. إنه يسمع الآخرين أمامه.. إن أصداء تقدُّمهم الصاخب ترجع إليه، مع همساتهم المتمتمة الخفيضة. إنهم يقترب هو وأصدقاؤه منهم، يلحقون بهم.. وعندما سيبلغوهم... نظر توم إلى أسفل ووجد أنه ما زال يحمل المدية في يده.

للحظة شعر بالخوف. إنها تجربة أشبه بالتجارب الوهمية التي يقرأ عنها أحيانًا في الصحف الصفراء، عندما تغادر روحك جسدك وتدخل في جسد شخصٍ آخر. كان شكل يده غريبًا عليه، كأنه ليس توم بل

(هنري)

شخصٍ آخر أصغر سنًّا. بدأ يجاهد للخروج من الحلم شاعرًا بالذُعر، ثم تحدَّث صوتٌ إليه، صوتٌ مطمئن، وراح يهمس في أذنه: لا يهم المكان ولا الزمان، لا يهم من تكون. المهم أن بيڤرلي هناك، إنها معهم يا صديقي العزيز، وهل تعلم ماذا؟ لقد فعلت شيئًا ألعن مئة مرَّة من تدخين السجائر. أتعلم ماذا؟ لقد سمحت لصديقها القديم بيل دِنبروه أن ينكحها! أجل! هي وذلك المُتلعثم غريب الأطوار تناكحا! لقد...

حاول توم الصراخ: هذا كذب! بيڤرلي لن تجرؤ على إتيان أمرٍ كهذا!

لكنه كان يعلم أن هذا ليس كذبًا. لقد ضربته بالحزام على

(ركلتني في)

خصيته وهربت، وهي الآن تخونه، تلك العاهرة

(الطفلة)

الفاسقة خانته بالفعل.. آهٍ يا أصدقاء، وآهٍ يا جيران، لسوف تتلقَّى «علقة العُلق» على فعلتها. سأبدأ بها، ثم سأنتهي بدِنبروه، صديقها مؤلِّف الروايات.. وأيُّ شخصٍ سيحاول اعتراض طريقه سينال من الحُب جانبًا بدوره.

زاد توم من سُرعته، رغم أن أنفاسه كانت مُتقطِّعة بالفعل. أمامه، استطاع رؤية دائرة مُضيئة أخرى تتقافز في الظلام. بالونة قمرية آخر. استطاع سماع أصوات الأشخاص الذين يتقدَّمونه، ولم تعد تزعجه حقيقة أن أصواتهم يافعة طفلة، فمثلما قال الصوت: لا يهم المكان أو الزمان أو الأشخاص. إن بيڤرلي معهم، وآهٍ يا أصدقاء، آهٍ يا جيران...

- «أسرعوا يا رفاق، حَرِّكوا مؤخِّراتكم». لم يهمه أن الصوت الخارج منه ليس صوته، بل صوت صبي.

ومع اقترابهم من البالونة القمرية التالية، نظر حوله وشاهد رفيقيه للمرَّة الأولى. كان كلاهما ميِّت. أحدهما بلا رأس، والآخر وجهه مشقوق نصفين، كأنما بفعل براثن وحش عظيم الحجم.

قال الفتى ذو الوجه المشقوق: «نحن نركض بكل ما أوتينا يا هنري»، وشفتاه تتحرَّكان في نصفين بشكلٍ مُريع وبلا تزامن. في هذه اللحظة استطاع

توم نفض الحُلم عن عقله وعاد إلى ذاته، مُترنِّحًا على حافَّة ما شعر أنه فضاءٌ فارغٌ كبير. كافح توم للحفاظ على اتِّزانه، لكنه خسر معركته وسقط أرضًا. كانت الأرض مُغطَّاة ببساط، لكن رغم هذا سبَّبت السقطة موجة كاسحة من الألم في رُكبته وساعده المُتضرِّرين، لكنه كتم صرخته.

أين أنا؟ أين أنا بحق الجحيم؟

بدأ يعي بالضوء الأبيض الخافت من حوله، وللحظة مُفزعة ظنَّ أنه عاد إلى الحلم ثانيةً، وأن هذا الضوء يأتي من إحدى تلك البالونات الجنونية. ثم تذكَّر أنه ترك باب الحمَّام نصف مفتوح وأن الضوء هو ضوء مصباح الفلورسنت. إنه دائمًا ما يترك النور مُضاءً عندما ينزل في مكانٍ غريب. هذا يوفِّر على المرء التخبُّط والاصطدام إذا اضطر للنهوض ليلًا للتبوُّل.

أعاد هذا الصواب إلى رُشده. لقد كان حُلمًا. كل هذا مُجرَّد حُلم ما غير معقول. إنه في نُزُل هوليداي إن، في مدينة ديري في ولاية مين. لقد لحق بزوجته إلى هنا.. ثم في خضم حُلمه اللا معقول، سقط أرضًا من الفراش. هذا كل شيء. هذه هي كل الحكاية، باختصار وإسهاب.

لم يكن ذلك مُجرَّد كابوس.

انتفض هنري كأنما الكلمات لم تنبع من عقله بل همس به أحدهم جوار أُذُنه. لم يكن هذا الصوت شبيهًا بصوته الداخلي على الإطلاق. إنه بارد، وغريب... لكنه بشكلٍ ما مُنوِّم ومعقول.

نهض توم ببطء، وتلمَّس كوب الماء على المنضدة المجاورة للفراش، وجرعه. دسَّ يديه المُرتعشتين في شعره. كانت الساعة فوق المنضدة تُعلن الثالثة وعشر دقائق فجرًا.

عُد للنوم. الصباح رباح.

لكن الصوت الغريب أجابه: أُناسٌ كُثُر سيروحون ويجيئون عند مجيء الصباح.. أُناسٌ كُثُر جدًّا.. كما أنك قادرٌ على هزيمتهم هذه المرَّة هناك بالأسفل، فلماذا التأجيل؟ هذه المرَّة يمكنك أن تكون سبَّاقًا بالمُفاجأة.

هناك بالأسفل؟ وجد توم نفسه يُفكِّر في كابوسه: الماء. الظلام الذي يقطر ماءً.

بدا الضوء فجأة أكثر سطوعًا. أدار توم رأسه غير راغبٍ لكن رغمًا عنه. كان عاجزًا عن المقاومة. فلتت صرخة من فمه. هناك بالونة مُعلَّقة بخيطٍ في مقبض باب الحمَّام، وتطفو بارتفاع ثلاثة أقدام. كانت البالونة تسطع بضوءٍ شبحيٍ أبيض، وبدت هيئتها كالوهج المُستنقعي الذي يُشاهد طافيًا أحيانًا قُرب المُستنقعات كالحُلم وسط الأشجار التي تنمو عليها حبالٌ مُتدلِّية من الطحالب. يوجد سهم مرسوم على جلد البالونة المُنتفخ المشدود. سهمٌ أحمر بلون الدم القاني.

كان السهم يشير إلى الباب الذي يقود إلى ردهة النُزُل.

قال الصوت بطريقة مُنوِّمة: لا يهم من أنا. أدرك توم الآن أن الصوت لا يخرج من عقله ولا يُهمس جوار أُذُنه، بل يأتي من البالونة، من مركز ذلك الضوء الأبيض الغريب المُحبَّب. كل ما يهم أنني سأحرص أن تنقلب كل الأمور لصالحك ولرضاك يا توم. أُريد أن أراها تتلقَّى «علقة»، أريد أن أراهم جميعًا يتلقون «العلقة» ذاتها. لقد اعترضوا طريقي كثيرًا، لقد تعدوا حدودهم كثيرًا وقد نفد صبري عليهم. لذا اسمع يا توم. اسمعني جيِّدًا جدًّا. إنهم مجتمعون الآن... اتبع الكُرة المُتقافزة...

أنصت توم جيِّدًا فيما راح الصوت الخارج من البالونة يشرح.

لقد شرح له كل شيء.

وعندما انتهى، انفجرت البالونة بوميضٍ ساطع أخير، وبدأ توم في ارتداء ملابسه.

2
أودرا

انتابت الكوابيس أودرا بدورها.

وفي النهاية نهضت جزعة مُعتدلة في فراشها والغطاء يلتف حول خصرها، ونهداها الصغيران يعلوان ويهبطان مع أنفاسها السريعة الجيَّاشة.

تمامًا كتوم، كانت أحلامها تجربة مُختلطة مؤلمة.. وتمامًا كتوم، راودها

شعورٌ أنها صارت شخصًا آخر، أو بالأحرى كأن وعيها أُودِع -أو غُمِر جُزئيًا- في جسدٍ آخر وعقلٍ آخر. لقد رأت نفسها في مكانٍ مُظلم مع مجموعة من الآخرين، وكانت على بينة بالإحساس المُوحش بالخطر الذي يحيق بهم. كانوا يقصدون الخطر ثابتين مُتعمِّدين، وأرادت الصراخ فيهم كي يتوقَّفوا ويشرحوا لها ما الذي يجري، لكن الشخص الذي دُمجت فيه بدا أنه يعلم ويؤمن بأن هذا ضروري.

كانت تعي أيضًا أنهم مُطاردون، وأن مُطارديهم يكتسبون أرضًا شيئًا فشيئًا.

كان بيل في الحُلم. لا بُدَّ أن حكايته عن كيف أنه نسيَ أحداث طفولته ما زالت تؤرِّق عقلها، لأنها رأت بيل في حُلمها، وكان مُجرَّد صبي في العاشرة أو الحادية عشر من عمره، ولا يزال محتفظًا بشعره كاملًا! كانت تُمسك بيده، وتدرك بشكلٍ غامض أنها تكنُّ له حُبًّا كبيرًا، وأن استعدادها للمُضي قِدمًا يستند إلى الاعتقاد الراسخ بأن بيل سيحميها ويحميهم جميعًا. أن بيل -بيل الكبير- سيعبر بهم المحنة ويعرج معهم إلى ضوء النهار مرَّةً أخرى.

أوه، لكنها تموت رُعبًا رغم ذلك.

لقد جاءوا إلى مُفترق طرق يفضي إلى أنفاقٍ عديدة، ووقف بيل عنده ينقل بصره من واحدٍ إلى الآخر، ثم تحدَّث أحد الآخرين (صبي ذراعه موضوعة في جبيرة تومض بنورٍ أبيض شاحب في الظلام): «من هنا يا بيل. النفق الأخير».

- «هـ-هـ-هل أ-أنت مُتأكِّد؟».

- «أجل».

وهكذا مضوا في ذلك الطريق، ثم صادفوا بابًا.. بابًا خشبيًّا قزمًا ارتفاعه ثلاثة أقدام من تلك الأبواب التي تقرأ عنها في حكايات الأطفال.. وكانت هناك علامة على الباب. لم تتذكَّر أيَّ علامةٍ هي.. أيَّ رمزٍ أو كتابة عتيقة كانت.. لكنها ركَّزت جُلَّ رُعبها في نقطة واحدة مكَّنتها من انتزاع نفسها من ذلك الجسد الآخر، جسد تلك الفتاة، أيًّا

(بيڤرلي.. بيڤرلي)

كانت.. ثم استيقظت أودرا في فراشٍ غريب، مُتعرِّقة، مُتَّسعة العينين، تلهث كأنها كانت تركض في سباقٍ. امتدَّت يداها إلى ساقيها سريعًا، متوقِّعة

أن تجدهما مُبتلَّتين وباردتين من الماء الذي كانت تخوض فيه. لكنها كانت جافَّة.

تبع ذلك توهانٌ وارتباك. ليس هذا منزلهما في جادة أخدود توبانجا أو شقّتهما المُستأجرة في فليت. إنها في العدم. في جحيمٍ مُؤثَّث بفراشٍ، وخِزانة، ومقعدين، وتلفاز.

- «يا إلهي، بالله عليك يا أودرا...».

دعكت وجهها بكفَّيها بشراسة، فانحسر عنها ذلك الدوار الذهني المقيت. إنها في ديري. مدينة ديري في ولاية مين حيث نشأ زوجها وترعرع خلال طفولة يدَّعي أنه لم يعد يذكرها. لم يكن المكان مألوفًا بالنسبة إليها، ولم يكن حتَّى مكانًا ذا ريح طيِّبة، لكنه على الأقل مكان معروف ذو وجود على الخريطة. لقد جاءت هنا لأن بيل هنا، وسوف تقابله غدًا في فندق ديري تاون هاوس. أيًا ما كان الخطر هنا، وأيًّا ما كان معنى تلك الندوب التي ظهرت على يديه، فسوف يواجهانه معًا. سوف تتَّصل به، وتخبره أنها هنا، ثم تنضم إليه. بعد ذلك... حسنًا...

في الحقيقة لم يكن لديها أدنى علم بما قد يحدث بعد ذلك. أخذ الدوار وذلك الإحساس بالوجود في مكانٍ هو في حقيقة الأمر عدمًا يُهدِّدان بالرجوع. عندما كانت في التاسعة عشر من عمرها، قامت بجولة حول البلاد قدَّمت فيها أربعين عرضًا مسرحيًّا قصيرًا في مُدنٍ مختلفة مع شركة إنتاج صغيرة مُعدَمة. أربعون عرضًا متواضعًا لملهاة الزرنيخ والدانتيل القديم، في أربعين بلدة متواضعة، خلال سبعة وأربعين يومًا متواضعًا. لقد بدأوا جولتهم في مسرح بيبودي دينر في ماساتشوستس وانتهوا في ساوساليتو، وفي فترةٍ ما بين البداية والنهاية، في إحدى المُدن الغرب أوسطية كبلدة أميس أيوا أو جراند أيسلاند في نبراسكا أو رُبَّما في مدينة يوبيل شمال داكوتا، استيقظت أودرا في منتصف الليل شاعرة بالتيه مثل الآن، غير مُتيقِّنة في أيِّ مدينة هي، ولا في أيِّ يومٍ، ولا لماذا توجد حيث هي وقتها. حتَّى اسمها بدا زائفًا لها.

هذا الشعور عاودها الآن. لقد حطَّمت كوابيسها حاجز النوم، وانتقلت معها إلى صحوتها، وشعرت أودرا بذعرٍ كابوسي يُحلِّق بحُرِّية في كل مكانٍ

حولها. شعرت بأن المدينة تلتفُّ حول جسدها كثعبان بايثون عاصر. إنها تستشعر حضورها الثقيل يجثم عليها، ولم يكن هذا جيِّدًا بأيِّ حال، وجدت أودرا نفسها تتمنَّى لو أنها استمعت إلى نصيحة فريدي وظلَّت بعيدة.

لكن عقلها تركَّز على بيل، وتشبَّثت بالتفكير فيه كما قد تتشبَّث امرأة تغرق بعارضة خشبية أو طوق نجاة أو أيَّ شيء

(كلنا نطفو هنا بالأسفل يا أودرا)

يطفو.

سرت رعدة في جسدها فعقدت ذراعيها حول نهديها العاريين. ارتجفت ولاحظت أن جلدها استحال إلى جلد أوزة. للحظة، شعرت أن الصوت تكلَّم بصوتٍ عالٍ، لكن داخل رأسها.. كأن هناك وجودًا غريبًا يسكن رأسها.

هل سأجُن؟ يا إلهي، أهكذا يبدو الأمر؟

أجابها عقلها: لا، هذا مُجرَّد دوار.. ارتباك.. اختلاف التوقيت.. القلق لأمر زوجك. لا أحد يتحدَّث داخل رأسك. لا أحد...

جاءها الصوت من الحمَّام هامسًا: «كلنا نطفو بالأسفل يا أودرا». كان صوتًا حقيقيًّا.. حقيقيًّا كالمنازل.. ولعوبًا.. لعوبًا وقذرًا وخبيثًا. «وأنت أيضًا ستطفين»، ثم أطلق الصوت ضحكة يانعة قصيرة راحت تغلظ إلى أن صارت كمصرفٍ مسدود يُبقبِق بصوتٍ سميك. صرخت أودرا بأعلى صوتها، ثم كتمت فمها بيديها.

أنا لم أسمع ذلك.

نطقت أودرا العبارة الأخيرة بصوتٍ مسموع، مُتحدِّية الصوت أن يعارضها. لكنه لم يفعل. ظلَّت الغُرفة صامتة.. ومن مكانٍ ما، بعيدًا، أطلق قطارٌ صفيره في جوف الليل.

فجأة وجدت نفسها تشعر باحتياج هائل لبيل لدرجة أن فكرة انتظار النهار بدت مُستحيلة. إنها في نُزُلٍ عادي في غُرفة من ضمن تسع وثلاثين غُرفة أُخرى مُملَّة مُماثلة، لكن الأمر صار يفوق احتمالها فجأة. عندما تبدأ في سماع أصوات، فهذا يعني أن عقلك خرج عن السيطرة. هذا مُخيفٌ جدًّا. يبدو أنها تنزلق إلى الحُلم الذي هربت منه لتوِّها. شعرت أودرا بالخوف

وبوحدة مُريعة. ثم فكَّرت: الأمر أسوأ. أشعر أنني ميتّة. أفلت قلبها نبضتين فجأة، ما جعلها تشهق طلبًا للهواء وتسعل جافلة. شعرت بذعر السجون، برُهاب الأماكن المُغلقة يقبض روحها، وتساءلت متعجبة ما إذا كان كل هذا الرُعب من دون جذر مادِّي عادي أحمق بعد كل شيء: رُبَّما كانت ستصاب بنوبة قلبية بعد لحظات، أو رُبَّما هي في مُنتصف واحدة بالفعل.

استقَّر قلبها، لكنه لم يهدأ.

أضاءت أودرا مصباح الكومود ونظرت إلى الساعة. إنها الثالثة واثنتا عشرة دقيقة. سيكون نائمًا الآن، لكن ذلك لم يعد يهم. لم يعد شيءٌ في الكون يهم سوى سماع صوته. إنها تريد إنهاء الليلة بصحبته. لو صار بيل جوارها، ستتزامن آلية ساعتها الداخلية مع آلية ساعته وسيستقرُّ قلبها. ستغادر الكوابيس. إنه يبيع الكوابيس للآخرين –هذه تجارته– لكنه لم يهدها من قبل شيئًا سوى الخير والسلام.. فخارج قشرة هذه الجوزة العجيبة الباردة المدفونة في مُخيِّلته، كان بيل يبدو دائمًا مخلوقًا لفعل الخير، ومقصودًا له. أخرجت أودرا دليل الهاتف، وعثرت على رقم فندق ديري تاون هاوس، وطلبته.

– «ديري تاون هاوس».

– «هل يمكنك الاتِّصال بُغرفة السيِّد دِنبروه؟ السيِّد ويليام دِنبروه؟».

قال الموظَّف: «ألا يتلقَّى ذلك الرَّجُل مُكالماتٍ في وضح النهار قط؟»، وقبل أن تُفكِّر في سؤاله عن مغزى ما قاله، أوصلها الموظَّف بغُرفته. رنَّ الهاتف مرَّة، واثنتان، وثلاث. استطاعت أن تتخيَّله، نائمًا مُغطًّى بالكامل باستثناء قمَّة رأسه. استطاعت تخيُّله وهو يمد يده مُتحسِّسًا الهاتف.. لقد رأته يفعل ذلك من قبل. نزلت ابتسامةٌ مُحبَّةٌ حنون شفتيها، ثم تلاشت عندما واصل الهاتف رنينه مرَّة رابعة وخامسة وسادسة.. ثم في منتصف الرنين السابع، انقطع الاتِّصال.

– «الغُرفة لا ترد».

قالت أودرا وهي تشعر بغضبٍ وخوفٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: «ألاحظت ذلك بمُفردك يا شيرلوك؟ هل أنت واثق من أنك طلبت الغُرفة الصحيحة؟».

قال الموظَّف: «أينعم. لقد تلقَّى السيِّد دِنبروه مُكالمة داخلية منذ أقل

من خمس دقائق، وأنا أعلم أنه أجاب تلك المُكالمة لأن الضوء في لوحة المفاتيح ظلَّ مُضاءً دقيقة أو اثنتين.. لا بُدَّ أنه ذهب لغُرفة ذلك الشخص».

- «حسنًا، أيُّ غرفة هذه؟».

- «لا أتذكَّر. في الطابق السادس على ما أظنُّ. لكن...».

رمت إودرا السمَّاعة في مهدها، واعترى قلبها يقينٌ مُؤلمٌ وحشي. لقد هاتفته امرأةٌ ما، وقد ذهب إليها. حسنًا، ما العمل الآن يا أودرا؟ كيف سنتعامل مع هذا الموقف؟

شعرت بالدموع تحتشد في مقلتيها وتُهدِّد بإغراق كل شيء. كانت تلسع عينيها وأنفها، وشعرت أودرا بكُتلة البُكاء تحتشد أسفل حلقها. لم تكن تشعر بغضب، على الأقل ليس بعد، فقط شعور مُسقِم بالضياع والهجران.

تمالكي نفسك يا أودرا. أنت تقفزين إلى استنتاجاتٍ مُتسرِّعة. إنه مُنتصف الليل، وقد راودكِ حُلمٌ مُزعج، والآن تحكمين على بيل أنه مع امرأة أخرى. ليس بالضرورة أن يكون الأمر كذلك. ما ستفعلينه هو الجلوس مُعتدلة - فأنت لن تعاودي النوم على أيِّ حالٍ - وإضاءة بعض الأنوار، ثم إنهاء الرواية التي جلبتِها معك كي تقرأيها في الطائرة. أتذكرين ما كان بيل يقوله؟ الكُتب مُهدِّئات مُمتازة، بل أجودها طرًّا. لا مزيد من الخوف. لا مزيد من القشعريرة والقلق وسماع الأصوات. الخيَّاطون التسعة، رواية دورثي سايرز عن اللورد بيتر. هذه تذكرتك للهدوء. ستكفي للعبور بك إلى الفجر. هذا...

أُضيء نور الحمَّام فجأة من تلقاء نفسه.. استطاعت أودرا رؤيته من أسفل الباب، ثم تحرَّك الرتاج مُحدثًا تكَّة قبل أن يُفتح الباب عنوة. حدَّقت في المشهد بعينين مُتَّسعتين، وانعقد ذراعاها على نهديها من جديد بشكلٍ غريزي. بدأ قلبها يقصف قفصها الصدري بنبضه، واستشعرت مذاقَ الإدرينالين الحامض يُغرِق فمها.

ثم جاء ذلك الصوت خفيضًا وممطوطًا: «كلنا نطفو هناك يا أودرا». استطالت الكلمة الأخيرة جدًّا واستحالت إلى صرخة مُتلاشية -أودراااااااااااااا- وانتهت من جديد بتلك البقبقة الغليظة المُريعة التي تُشبه القهقهة كثيرًا.

صرخت أودرا مُتراجعة: «من هناك؟». ليست هذه مُخيِّلتي، مُستحيل، لن تستطيع إقناعي بذلك...

اشتغل التلفاز من تلقاء نفسه. استدارت أودرا لتواجهه ورأت مُهرِّجًا في حُلَّة فِضِّية يتواثب بمرح على الشاشة. توجد فجوتان غائرتان سوداوان مكان عينيه، وعندما انفرجت شفتاه المُصطنعتان الزائفتان في ابتسامة أعرض، استطاعت رؤية أسنانٍ كالنصال الحادَّة أسفلها. كانت أسنانه تمسك برأسٍ مقطوعٍ يقطر دمًا عيناه مقلوبتان بحيث لا يبدو منهما سوى بياضهما، ولسانه مُتدلٍ، لكنها استطاعت أن ترى جيِّدًا أنه رأس فريدي فايرستون. راح المُهرِّج يرقص ويضحك ويطوِّح الرأس ذات اليمين وذات اليسار والدماء الحارة تتناثر على شاشة التلفاز من الداخل.

حاولت أودرا الصراخ لكن لم يخرج من حلقها سوى أنين خافت. تلمَّست حقيبتها والرداء المُلقى على ظهر الكُرسي دون أن تنظر إليهما، ثم طارت كالطلقة إلى الردهة وصفعت الباب من خلفها وهي تلهث ووجهها شاحب كورقة بيضاء. ألقت الحقيبة بين قدميها، ودسَّت جسدها في الرداء من فوق رأسها.

- «تطفو». هكذا قال صوتٌ ضاحك خفيض من خلفها، وشعرت بإصبعٍ بارد يلاطف كعبها العاري.

أطلقت صرخة عالية أخرى وقفزت بعيدًا عن الباب. كان هناك أصابع جُثَّة نخرة تسعى من تحت عتبة الباب وقد تقشَّرت أظافرها كاشفة عن لحمٍ أبيض مزرق خالٍ من الدماء. أصدرت الأصابع حفيفًا جافًّا على حواف سجاد الردهة الخشن.

أمسكت أودرا بذراع حقيبتها وركضت حافية إلى الباب في نهاية الرواق. كانت معمية بالذُعر الآن، والفكرة الوحيدة التي ظلَّت تعمل في رأسها أن عليها إيجاد فُندق ديري تاون هاوس الآن، وبالتالي إيجاد بيل. لم يعد يهم إن كان يتشارك الفراش مع حريمٍ كامل من النساء الآن. ستعثر عليه وتجبره على أخذها بعيدًا عن ذلك الشيء الذي لا اسم له الكائن في هذه المدينة.

ركضت أودرا عبر ممشى النُزُل ومنه إلى موقف السيَّارات، وتطلَّعت حولها مسعورة بحثًا عن سيَّارتها. تجمَّد عقلها للحظة ولم تعرف في أيِّ سيَّارة جاءت

إلى هنا. ثم تذكَّرت: سيَّارة داتسون بُنِّية بلون التبغ. رأتها أودرا تقف غائصة إلى مُقدِّمتها في ضبابٍ خفيض مُتراكم هادئ فركضت إليها. لم تجد المفاتيح في حقيبتها. راحت تبحث عنها بارتباك متزايد بين المناديل الورقية ومساحيق التجميل والنقود ونظَّارة الشمس وشرائح العلكة التي صارت كُتلًا لا شكل لها. في خضم ارتباكها، لم تلحظ أودرا الفورد الكبيرة التي تقف وجهًا لوجه مع سيَّارتها المُستأجرة، أو الرَّجُل الجالس خلف مقودها. لم تنتبه عندما انفتح باب الفورد وترجَّل الرَّجُل منها، فقد كانت تحاول الرضوخ لليقين المُتزايد بأنها تركت مفاتيح السيَّارة في غُرفتها. لن تستطيع العودة إلى هناك.. لن تستطيع.

تلمَّست أصابعها معدنًا مُسنَّنًا صلبًا أسفل علبة أقراص النعناع، فاستولت عليه بصيحة انتصارٍ صغيرة. ثم مرَّت لحظة مُريعة ظنَّت فيها أن هذا قد يكون مُفتاح سيَّارتهما الروفر التي تقف الآن في ساحة انتظار مطار فليت على بُعد ثلاثة آلاف ميل، ثم شعرت بعدها بملمس شريط شركة استئجار السيَّارات البلاستيكي، وضعت أودرا المُفتاح في قفل الباب بأصابعٍ مُرتعشة وهي تشهق شهقاتٍ قصيرة جافة، ثم أدراته. كانت هذه اللحظة التي سقطت فيها يدٌ على كتفها فصرخت... صرخت بصوتٍ يصم الآذان هذه المرَّة.. ومن مكانٍ ما، أجاب كلبٌ صراخها المُلتاع بنباحٍ طويل، وكان كل شيء.

أنشبت هذه اليد -الفولاذية كالحديد- أصابعها فيها وأجبرتها على الالتفاف. كان الوجه التي رأته يتأمَّلها مُرضَّضًا ومُتورِّمًا وعيناه لامعتان.. وعندما انفرجت الشفتان المُتنفختان عن ابتسامة شنيعة، رأت أن بعضًا من أسنان الرَّجُل قد كُسرت، وبدت بقاياها المُسنَّنة خشنة ووحشية.

حاولت الكلام لكنها لم تقو. اعتصرتها اليدُ أكثر، مُستحكمة.

ثم همس توم روجان: «ألم أرَكِ من قبل في أفلام السينما؟».

3

غُرفة إدي

ارتدي بيل وبيڤرلي ملابسيهما سريعًا وبصمت، ثم اتَّجها إلى غُرفة إدي.

في طريقهما إلى المصعد، سمعا جرس الهاتف يرن من مكانٍ ما خلفهما. كان خافتًا، ويبدو آتيًا من مكانٍ آخر.

- «بيل، أهذا هاتف غُرفتك؟».

قال لها: «مُـ-مُـ-مُحتمل. رُبَّما أ-أ-أحدهم يـ-يـ-يتَّصل»، ثم ضغط زر الصعود.

فتح إدي الباب لهما بوجهٍ شاحب ومُنهك. كانت ذراعة اليُسرى ملتوية في زاوية غريبة ذكَّرتهم بالأيَّام الخوالي بشكلٍ غريب.

قال إدي: «أنا بخير، لقد أخذت حبَّتين من الدارڤون. الألم ليس شديدًا الآن»، لكن كان من الواضح عليه أن الألم ليس خفيفًا كذلك. كانت شفتاه مضغوطتين بشدَّة لدرجة أنهما اختفتا واستحال لونهما أرجوانيًّا بفعل الصدمة.

تجاوزه بيل ببصره وشاهد الجسد المُسجَّى على الأرض. كانت نظرة واحدة كافية لإقناعه بأمرين: أن هذا هنري باورز، وأنه ميِّت. تقدَّم بيل مُتخطيًّا إدي وانحنى جوار الجُثَّة. كانت زجاجة الماء المُكربن غائرة في أمعائه وسحبت معها أسمالًا بالية من قميصه داخله. كانت عينا هنري نصف مفتوحتين وتلمعان، وفمه مليء بالدماء المُتجلِّطة، وصارت يداه كمخالبٍ عاجفة.

سقط ظلٌ فوق بيل فنظر إلى أعلى. كانت هذه بيڤرلي، التي راحت تنظر إلى هنري بلا أدنى تعبير على وجهها.

قال بيل: «كـ-كـ-كل تلك الأ-أ-أوقات التي طـ-طـ-طاردنا فيها».

أومأت وقالت: «هل لاحظت يا بيل أنه لا يبدو مُسنًّا على الإطلاق؟»، ثم نظرت فجأة نحو إدي الذي كان يجلس على الفراش. بدا إدي عجوزًا ومُنهكًا. كانت ذراعاه مُرتخيتين في حِجره عديمتي الجدوى.

قالت بيڤرلي: «يجب أن نتَّصل بطبيبٍ لإدي».

قال بيل وإدي في الوقت نفسه: «لا».

- «لكنه مُصاب! إن ذراعه...».

قال بيل: «مـ-ما أ-أ-أشبه اليوم بـ-بــ-بالبارحة»، ثم نهض وأمسكها

من ذراعيها ونظر إلى وجهها وأردف: «مـ-مـ-ما إن نخرج من هنا، ما إ-إ-إن نُـ-نُـ-نُقحم المـ-مـ-مدينة في أمرنا...».

قال إدي بصوتٍ خفيض: «سيعتقلونني بتهمة القتل، أو سيضعوننا جميعًا في الحجز، أو شيءٍ من هذا القبيل.. ثم سيقع واحد من تلك الحوادث التي لا تحدث إلا في ديري. رُبَّما سيُجنُّ الضابط المناوب في غرفة الحجز ويطلق النار علينا جميعًا. رُبَّما سنموت بتسمُّمٍ غذائي، أو نُقرِّر شنق أنفسنا في محابسنا».

- «إدي، هذا جنون! هذا...».

سألها: «حقًّا؟ تذكَّري، نحن في ديري».

- «لكننا كبار الآن! بالتأكيد أنت لا تظن... أعني، لقد جاء إلى هنا في منتصف الليل... وهاجمك...».

قال بيل: «بماذا؟ أين السكين؟». نظرت بيڤرلي حولها ولم تر شيئًا، فركعت على رُكبتيها لتنظر أسفل الفراش.

قال إدي بذات الصوت الخافت الهامس: «لا تزعجي نفسك. لقد صفعت الباب على ذراعه وهو يحاول أن يطعنني بها فسقطت من قبضته وركلتها أسفل التلفاز.. لكنها اختفت الآن. لقد بحثت بالفعل».

قال بيل: «بـ-بـ-بيڤرلي، اتَّصلي بالآخرين. أظنُّ أنني أستطيع تجبير ذراع إدي».

نظرت إليه هنيهة طويلة، ثم حدَّقت في الجسد المُسجَّى فوق الأرض من جديد. فكَّرت أن الصورة الذهنية التي سيطبعها هذا المشهد على عقل أيِّ رجُل شُرطة متوسِّط الذكاء واضحة تمامًا. المكان فوضى عارمة، وذراع إدي مكسورة، وهذا الرَّجُل ميِّت. إنها حالة دفاع عن النفس واضحة ضدَّ هجَّامٍ ليلي، ثم تذكَّرت بعدها السيِّد روس. السيِّد روس الذي نهض ونظر، ثم طوى جريدته فحسب ودخل منزله.

ما إن نخرج... ما إن نقحم المدينة في أمرنا...

جعلها هذا تتذكَّر وجه بيل الطفل الشاحب المُتعب نصف المجنون وهو يقول: د-د-د-يري هي الشَّيء! عـ-عـ-عندما سـ-سيأتي الشَّيء لـ-لـ-

للنيل مـ–منا، فـ–في أ–أيِّ مـ–مكانٍ كُنَّا، فلن يـ–يـ–يروه أو يسمعوه أ–أ–أو يـ–يعرفوا بـ–بوجوده.

فكَّرت بيڤرلي وهي تتأمَّل جُثَّة هنري: بيل وإدي يقولان إننا صرنا أشباحًا من جديد. إن كل شيء يتكرَّر. كل شيء. كنت قادرة على تقبُّل ذلك وأنا طفلة، لأن الأطفال أشباح تقريبًا بالفعل. لكن...

سألته فاقدة الأمل: «هل أنت مُتأكِّد؟ هل أنت مُتأكِّد يا بيل؟».

كان يجلس على طرف الفراش مع إدي، ويتلمَّس ذراعه برفق، وسألها: «أ–أ–ألستِ مُتأكِّدة؟ بـ–بـ–بعد كل مـ–مـ–ما حدث اليـ–يـوم؟».

أجل. كل ما حدث. نهاية اجتماع لمِّ الشمل الفوضوية الشنيعة. المرأة العجوز الجميلة التي تحوَّلت إلى حيزبونٍ أمام عينيها،

(أبويا وأمي الشخص نفسه)

القصص التي سُردت في المكتبة ليلة أمس والظواهر التي صاحبتها. لكن رغم كل تلك الأشياء التي حدثت، ما زال عقلها يصرخ فيها يائسًا أن تُوقف الأمر الآن، أن تتعامل معه ببعض التعقُّل، لأنها إن لم تفعل، فسينتهي بهم في البرِّية الليلة من دون شك، باحثين عن محطَّة ضخٍّ بعينها، و...

قالت بيڤرلي: «لا أعلم. لا أعلم فحسب. رغم كل ما حدث يا بيل، يبدو لي أننا رُبَّما نستطيع الاتِّصال بالشُرطة».

قال لها ثانيةً: «ا–ا–اتَّصلي بالآخرين. لـ–لـ–لنرى ما ر–ر–رأيهم».

– «حسنًا».

اتَّصلت بريتشي أوَّلًا، ثم بن، ووافق كلاهما أن يأتي على الفور، ولم يسألا عمَّا حدث. عثرت بيڤرلي على رقم مايك في دليل الهاتف وطلبته. لم تتلقَّ جوابًا، وبعد فترة من الرنين أغلقت الخط.

قال بيل لها: «جـ–جـ–جرِّبي ر–ر–رقم المـ–مكتبة». كان قد خلع عمود الستارة القصير من على النافذة الصُغرى، وراح يُحكم ربطه إلى ذراع إدي بحزام روب الحمَّام ورباط منامته.

قبل أن تتمكَّن بيڤرلي من إيجاد الرقم، سمعوا طرقًا على الباب. لقد وصل بن وريتشي معًا. كان بن يرتدي سراويل چينز وقميص لم يزرر أزراره بعد،

وريتشي في سراويل قطنية رمادية ومنامته العلوية. طافت عيناه بقلق في أرجاء الحُجرة من خلف نظَّارته.

- «يا للمسيح يا إدي، ماذا حدث لـ...».

رأى بن هنري المُمدَّد على الأرض وصاح: «يا إلهي!».

قال بيل بحدَّة: «اخفضا صوتيكما. أغلِقا الباب!».

فعل بن كما قال، وعيناه لا تبرحان الجُثَّة. «أهذا هنري؟».

تقدَّم بن ثلاث خطوات من الجُثَّة ثم توقَّف، كأنه خائف أن يعضه، ثم نظر بلا حول ولا قوَّة إلى بيل.

قال بيل لإدي: «ا-ا-احكِ أنت. تـ-تـ-تلك الـ-لـ-لعثمَّة الـ-لعينة تـ-تـ-تزداد سـ-سـ-سوءًا مع الو-و-وقت».

شرح لهم ما حدث في عجالة، بينما راحت بيڤرلي تواصل بحثها عن رقم مكتبة ديري العامَّة، ثم عثرت عليه وطلبته. توقَّعت أن مايك رُبَّما خرَّ نائمًا هناك، ورُبَّما أيضًا كان لديه سرير مبيت في مَكتَبِهِ. لكن ما جرى لم يكن متوقَّعًا على الإطلاق: لقد رُفِعت السمَّاعة من الجهة الأخرى بعد الرنَّة الثانية، وقال صوتٌ لم تسمعه من قبل قط ألو.

أجابته: «ألو» وهي تنظر إلى الآخرين وتشير لهم بإصبعها أن صه: «هل مايك هانلون موجود؟».

سأل الصوت: «من المُتحدِّث؟».

بلَّلت بيڤرلي شفتيها بلسانها. كان بيل ينظر إليها بشكلٍ ثاقب، وأشاح بن وريتشي ببصريهما. بدأ قلقٌ حقيقي ينهش صدرها.

ردَّت السؤال بسؤال: «من أنت؟ أنت لست السيِّد هانلون».

قال الصوت: «أنا رئيس قسم شُرطة ديري، أندرو رادميكر. السيِّد هانلون في مُستشفى ديري العام الآن، لقد هوجم وأُصيب بشدَّة منذ قليل. الآن من أنتِ من فضلك؟ أريد اسمك».

تقريبًا، لم تسمع بيڤرلي الكلمة الأخيرة. كانت موجات الصدمة تسري في جسدها، وترفعها أعلى وأعلى خارج ذاتها، وشعرت بالدوار. تخدَّرت العضلات في معدتها ورجليها وبين ساقيها وسابت، ووجدت نفسها تُفكِّر

بهيام: هكذا إذًا يبول الناس على أنفسهم عندما يعتريهم خوفٌ شديد. كل ما يحدث أنك تفقد السيطرة على تلك العضلات...

- «ما مدى سوء إصابته؟». هكذا وجدت نفسها تسأل بصوتٍ مُرتعش، ثم وجدت بيل جوارها، يضع يده على كتفها، ثم بن، وريتشي، وشعرت بيڤرلي بسيلٍ من الامتنان لهم. مدَّت يدها غير المشغولة فأخذها بيل، ووضع ريتشي يدها فوق يد بيل، ثم وضع بن يده على يد ريتشي. بعدها جاء إدي ووضع يده السليمة فوق أيديهم جميعًا.

- «أريد اسمك الآن من فضلك»، هكذا قال رادميكر سريعًا، وللحظة كادت نفسها الجبانة الصغيرة -تلك التي ربَّاها والدها، واعتنى بها زوجها- أن تجيبه: أنا بيڤرلي مارش، وأنا في فندق ديري تاون هاوس. أرجوك أرسِل السيِّد نيل إلى هنا. يوجد رجُلٌ ميِّت هنا، وهو في الحقيقة ما زال نصف صبي، وجميعنا هنا خائف بشدَّة.

قالت له: «أخشى أنني لن أستطيع إخبارك.. ليس بعد».

- «ماذا تعرفين عن الأمر؟».

قالت مصدومة: «لا شيء. ما الذي يجعلك تظن أنني أعرف أيَّ شيءٍ؟ يا للمسيح!».

قال رادميكر: «أنت مُعتادة إذًا على الاتِّصال بالمكتبة في الثالثة والنصف صباحًا كل يوم، أليس كذلك؟ كفاك عبثًا أيَّتُها الشابة. هذه جريمة اعتداء، ووفقًا لحالة الضحية، قد تصير جريمة قتل مع شروق الشمس. سأسألك مرَّةً أخرى: من أنت وما مقدار ما تعرفينه عن الأمر؟».

مُغلقةً عينيها، ومُتمسِّكة بيد بيل بكل قوَّتها، سألته ثانيةً: «أتعني أنه سيموت؟ أنت لا تقول ذلك فحسب لإثارة ذعري؟ هل سيموت بالفعل؟ أرجوك أخبِرني».

- «إنه مُصاب إصابة بالغة.. وإذا كان ذلك لا يُخيفك يا آنسة، فمن الأحرى له أن يفعل. الآن أريد معرفة من أنتِ ولماذا...».

وكأنها في حُلمٍ، رأت يدها تطير في الهواء وتُسقِط السمَّاعة إلى مكانها،

ثم نظرت إلى هنري وشعرت بصدمة تضربها كصفعة من يدٍ باردة. لقد أُغلقت إحدى عينيه، وظلَّت الأخرى -المُمزَّقة- تنز بشكلٍ سافر.
بدا هنري كأنه يغمز إليها.

4

اتَّصل ريتشي بالمُستشفى. أسند بيل بيڤرلي وقادها إلى الفراش، حيث جلست مع إدي تُحدِّق في الفراغ. ظنَّت أنها ستبكي، لكن الدموع جافتها. كان الشعور الوحيد الذي يعتريها هو رغبتها في أن يُغطِّي أحدهم جُثَّة هنري باورز. لم تكن تلك النظرة الغامزة مُحبَّبة على الإطلاق.

بطيشٍ مُرتجل، تقمَّص ريتشي شخصية مُحرِّر من جريدة أخبار ديري، وفهم من المُستشفى أن السيِّد مايكل هانلون، رئيس مكتبة ديري، هوجم في محل عمله حيث كان ساهرًا يعمل. تُرى هل لدى المُستشفى أيُّ تعليق عن حالة السيِّد هانلون؟

أنصت ريتشي للإجابة، وهو يُومئ.

- «أفهم يا سيِّد كيرباسكيان.. اسمك يبدأ بحرف الكاف، أليس كذلك؟ بلى، حسنًا، وأنت تعمل...؟».

واصل الإنصات مُستغرقًا في تقمُّصه تمامًا لدرجة أنه بدأ يخط حروفًا وهمية بإصبعه، كأنه يكتب في مُفكِّرة.

- «أها... آه... أجل. أجل، أفهم. حسنًا، ما نفعله عادةً في مثل هذه الحلات أن نقتبس كلامك بصفتك مصدر.. ثم لاحقًا نستطيع أن... آه... أها، صحيح! عظيم!»، ضحك ريتشي من قلبه ومسح العرق من على جبهته، ثم واصل إنصاته. «حسنًا يا سيِّد كيرباسكيان. أجل. سوف... أجل، لقد كتبته، ك ي ر ب ا س ك ي ا ن، صحيح! هذا اسم يهودي من أصل تشيكي، أليس كذلك؟ حقًّا! هذا... هذا غير مُعتاد تمامًا. حسنًا سأفعل. عمت مساءً. أشكرك».

أغلق ريتشي الخط وأغلق عينيه. «يا للمسيح!»، هكذا صاح بصوتٍ غليظ خفيض. «يا للمسيح! يا للمسيح! يا للمسيح!». تظاهر كأنه سيلقي بالهاتف

من فوق الكومود، لكنه ترك السمَّاعة في مكانها فحسب. نزع ريتشي نظَّارته ومسحها في قميص منامته.

قال للآخرين: «إنه حي، لكنه في حالة خطيرة. لقد قطَّعه هنري كالديك الرومي، وصلت إحدى القطعات إلى شريانه الفخذي وقد فقد كل ما يمكن أن يفقده رجُل من الدماء ويظل حيًّا بعدها. استطاع مايك إيقاف النزيف برباطٍ، وإلا كانوا سيجدونه ميِّتًا عند وصولهم».

بدأت بيڤرلي تبكي. بكت كالأطفال بكلتا يديها مُلتصقتينِ بوجهها.. ولبعض الوقت، كان صوت نشيجها وأنفاس إدي التي تُصفِّر الصوتين الوحيدين المسموعين في الغُرفة.

قال إدي في النهاية: «ليس مايك وحده من يبدو مُقطَّعًا كديكٍ رومي، يبدو هنري كأنه خاض اثنتي عشر جولة مُلاكمة أمام روكي بالبوا».

- «أ-أ-أمازلتِ تـ-تـ-تريدين الذهاب لـ-لـ-للشرطة يا بيڤ؟».

كانت هناك مناديل ورقية على الكومود، لكنها صارت كُتلة مُخضلة في بركة من الماء المُكربن. قصدت بيڤرلي الحمَّام، مُلتفَّة حول جُثَّة هنري في دائرة واسعة، وأخذت منشفة وغمرتها في الماء البارد. كان شعورها رائعًا على بشرتها الساخنة المُنتفخة. شعرت أنها تستطيع التفكير بصفاء من جديد. ليس بمنطقية، فقط بصفاء. لقد صارت على دراية فجأة أنهم إذا فكَّروا في استخدام المنطق الآن فسيقتلهم في التوِّ. ذلك الضابط رادميكر يرتاب، وكيف لا يرتاب؟ الناس لا يهاتفون المكتبة في الثالثة والنصف صباحًا. إنه يفترض الآن أن بحوزتها معلومات خطيرة لا تريد مُشاركتها معه. تُرى ماذا سيفترض لو علم أنها كانت تُكلِّمه من غرفة يتوسَّط أرضيتها رجُلٌ ميِّت يبرز عنق زجاجة مكسور من أمعائه؟ لو علم أنها وأربعة غُرباء آخرين جاءوا البارحة إلى المدينة للمِّ الشمل، وقد جاء ذلك الرَّجُل في إثرهم؟ هل كانت ستصدِّق مثل هذه القِصَّة لو كانت مكانه؟ هل من المُمكن أن يُصدِّقها أيُّ شخصٍ؟ بالتأكيد يستطيعون دعم قصَّتهم بإضافة أنهم جاءوا للقضاء على وحشٍ يعيش في المجاري أسفل المدينة. سيضيف هذا بُعدًا واقعيًّا مُقنعًا لقصَّتهم بلا شك.

خرجت بيڤرلي من الحمَّام ونظرت إلى بيل وقالت: «لا. لا أريد الذهاب للشُرطة. أظنُّ أن إدي على صواب. قد يقع لنا مكروه إذا فعلنا ذلك.. شيءٌ قاضٍ.. لكن ليس هذا سبب عدم رغبتي في الذهاب»، ثم نظرت إلى أربعتهم وأردفت: «لقد أقسمنا على العودة. يجب أن نثأر لشقيق بيل... لستان... لجميع الصبية الآخرين... والآن لمايك. أنا مُستعدَّة يا بيل».

نظر بيل إلى الآخرين.

أومأ ريتشي: «حسنًا يا بيل الكبير. لنُجرِّب الأمر».

قال بن: «تبدو الاحتمالات في غير صالحنا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. لقد نقص عددنا كثيرًا».

لم يقل بيل شيئًا.

أومأ بن: «حسنًا. إنها على حق. لقد أقسمنا».

- «إ-إ-إدي؟».

ابتسم إدي بضعف: «أظنُّ أنني سأتشبَّث بظهرك مرَّةً أخرى لنزول ذلك السلَّم يا بيل، أليس كذلك؟ هذا إذا كان السلَّم ما زال موجودًا».

قالت بيڤرلي: «لن يقذفنا أحدهم بصخورٍ هذه المرَّة».

- «لقد ماتوا. ثلاثتهم ماتوا».

سأل ريتشي: «هل نتحرَّك الآن يا بيل؟».

قال بيل: «أ-أ-أجل. أ-أ-أعتقد أن الو-و-وقت حـ-حـ-حان».

سأل بن فجأة: «هل أستطيع قول شيءٍ؟».

نظر بيل إليه وابتسم قليلًا وقال: «في أ-أ-أي و-و-وقت».

قال بن: «ما زلتم يا رفاق أفضل أصدقاء حظيت بهم في حياتي، بغض النَّظرِ عمَّا سيحدث لاحقًا. أردت فقط إخباركم بذلك».

نقَّل بن نظره فيهم، فبادلوه جميعًا نظرته بوقار.

أضاف بن: «أنا سعيد لأني تذكَّرتكم».

فلت ضحكة شاخرة من ريتشي، وضحكت بيڤرلي، ثم ضحكوا جميعًا بعدها وهم ينظرون إلى بعضهم بعضًا بالطريقة القديمة، بالرغم من حقيقة أن مايك في المُستشفى يرقد بين الحياة والموت، وبالرغم من حقيقة أن ذراع

إدي كُسرت (مرّة ثانية)، وبالرغم من أنهم كانوا في حُفرة من اليأس في ألعن صباح مُمكن.

قال ريتشي وهو يضحك ويمسح عينيه: «إن لك أسلوبٌ مُميَّز في الكلام يا كومة القش. كان لا بُدَّ أن يصير كاتبًا يا بيل الكبير».

قال بيل وهو ما زال يبتسم: «هـ-هـ-هذا مـ-ما كنا نـ-نـ-نحتاجه. هـ-هـيا بـ-بنا».

5

استقلَّ خمستهم الليموزين الذي جاء إدي به، لكن ريتشي من قاده. ازدادت كثافة الضباب الخفيض الآن، وراح ينجرف في الطرقات كأنه دُخان تبغٍ دون أن يبلغ ارتفاع مصابيح الطريق. السماء فوق رؤوسهم مُرصَّعة بنجوم الربيع التي تبدو كندف ثلجٍ لامعة، لكن مع إدارة رأسه إلى نافذة مقعد الراكب نصف المفتوحة، استطاع بيل سماع هزيم الرعد من بعيد. سيُستدعى المطر عن قريب من مكانٍ ما عبر الأُفُق.

شغَّل ريتشي الراديو فخرج صوت چين ڤينسينت يُغني: «بي-بوب آ-لولا». ضغط ريتشي زرًّا آخر فجاءه صوت بادي هولي، وجلبت ضغطة أخرى معها إدي كوشران الذي كان يشدو بأغنية «أشجان الصيف».

قال صوتٌ عميق: «كم أريد مُساعدتك يا بُني، لكنك صغير جدًّا على الإدلاء بصوتك».

قالت بيڤرلي بنعومة: «أغلِقه يا ريتشي».

مدَّ ريتشي يده لإغلاقه، لكن ذراعه تيبَّست. «ترقَّبوا المزيد من منوَّعات فِرق ريتشي توزيبه الميِّتة!». كان صوت المُهرِّج الضاحك الصارخ يعلو على صوت أنغام أغنية إدي كوشران. «إيَّاك أن تلمس مؤشِّر الراديو، اتركه مضبوطًا على إذاعة الروك، لقد اختفت تلك الفِرق من قوائم الأغاني لكنها لم تغادر قلوبنا.. وأنتم تعالوا، تعالوا مُباشرةً، تعالوا جميعًا! سنُشغِّل كل الأغاني الشهيرة هنا! كل الأغاني الشهيرة! إذا لم تكونوا تُصدِّقونني، فقط استمعوا

إلى البرنامج الصباحي مع ضيفنا العزيز الخارج من القبر، چورچي دِنبروه! أخبِرهم يا چورچي!».

فجأة، راح شقيق بيل يبكي عبر الراديو.

«لقد أرسلتني للخارج وقتلني الشَّيء! كنت أظنُّه يقطن القبو يا بيل الكبير، كنت أظنُّه في القبو لكنه كان في المصرف، كان في المصرف ثم قتلني، لقد سمحت له بقتلي يا بيل الكبير، سمحت للشَّيء...».

ضرب ريتشي الراديو مُغلقًا إيَّاه بقوَّة كاسحة، حتَّى إن المؤشِّر خُلع وسقط على الأرض.

قال ريتشي بصوتٍ مُزعزع: «موسيقى الروك شنيعة الذوق في الأرياف. بيڤرلي مُحقَّة، سنتركه مُغلقًا، ما رأيكم؟».

لم يجبه أحد. بدا وجه بيل شاحبًا وجامدًا ومُمعنًا في التفكير في ضوء مصابيح الطريق التي تجري على الجانبين، وعندما دوَّى الرعد من جديد من الغرب، سمعوه جميعًا.

6

في البرِّية

إنه الجسر القديم ذاته.

أوقف ريتشي السيَّارة جواره وترجَّلوا منها وساروا بمُحاذاة الحاجز الحديدي -الحاجز الحديدي القديم ذاته- ونظروا إلى أسفل.

إنها البرِّية القديمة ذاتها.

بدا أنها لم تُمس طوال السنوات السبع والعشرين الماضية. بالنسبة إلى بيل، بدا الطريق السريع الذي يعبر فوقها -الذي يُشكِّل الإضافة الجديدة الوحيدة- غير واقعي، مُجرَّد شيءٍ يبدو كلوحة مائية أو مؤثِّر بصري في فيلم ما بعد فصل الشاشة الزرقاء. كانت الأجمات والشجيرات الصغيرة القذرة تظهر بالكاد عبر الضباب المنتشر، ووجد بيل نفسه يُفكِّر: أظنُّ أن هذا ما نقصده حين نتحدث عن ثبات الذاكرة. مشهد كهذا يُرى في الوقت المُناسب

ومن الزاوية المُناسبة، ويضرم مشاعرك كمُحرِّكٍ نفّاث. مشهد يسقط جلياً أمام عينيك فتتلاشى معه كل الأمور التي وقعت بين الماضي والحاضر. إذا كانت الرغبة هي ما يحتاجه المرء لإغلاق دائرة ما كان وما يكون، إذًا فالدائرة أُغلقت.

قال بيل لهم: «هـ-هـ-هيًّا بنا»، ثم عبر من فوق الحاجز. تبعوه هابطين الضِفَّة مُبعثرين الحصى والطين تحت أقدامهم.. وعندما وصلوا إلى القاع، وجد بيل نفسه يتفقَّد موقع سيلفر تلقائيًّا، ثم ضحك على حاله. إن سيلفر في مرآب مايك تستند مائلة إلى الجدار. يبدو أنه ليس لها دورًا في ما هم مُقبلون عليه، رغم أن ذلك غريبًا، خاصةً بعد الطريقة التي ظهرت بها.

قال بيل لبن: «خـ-خـ-خذنا إ-إ-إلى هناك».

نظر بن نحوه وقرأ بيل ما يُفكِّر فيه من نظرة عينيه. لقد مضت سبعة وعشرون سنة يا بيل، يا لك من مُتفائل. أومأ بن برأسه وتوجَّه إلى الشُجيرات.

اكتسى الدرب القديم -دربهم- بالنباتات والشجيرات، واضطروا إلى شقِّ طريقهم عبر شجيرات شوكية ونباتات الهِدرانج البرِّية وقرنيات مُعبَّقة وتفوح بعبيرٍ خانق. كانت الصراصير تشدو برتابة من كل مكان حولهم، ووفدت بعض الحشرات المُضيئة مُبكِّرة إلى حفل الصيف الشهي وراحت تطعن الظلام. افترض بيل أن أجيالًا جديدة من الأطفال ما زالت تأتي للعب هنا، لكنها صنعت طرقها وممرَّاتها السرِّية الخاصة.

جاءوا إلى الفرجة التي كانت تحتوي مقرَّ النادي قديمًا، لكنها لم تعد فرجة الآن على الإطلاق. لقد استعادتها الخمائل وشُجيرات الصنوبر الشاحبة بالكامل.

همس بيل: «انظروا»، عابرًا الفرجة (كانت لا تزال موجودة في ذكرياتهم، فقط غطَّتها لوحة مائية خادعة أخرى). مدَّ يده وانتزع شيئًا. كان هذا الباب المصنوع من خشب الماهوجني الذي عثروا عليه عند حافَّة المكبِّ، ذلك الذي استخدموه لإنهاء سقف مقرِّ النادي. كان مُلقى بإهمال ولم يبدُ أنه لُمِسَ منذ سنواتٍ كثيرة مضت، وقد صار وجود النباتات المُتعرِّشة راسخًا بقوَّة فوق سطحه القذر.

غمغم ريتشي: «اتركه وشأنه يا كومة القش. إنه قديم».

كرَّر بيل من خلفه: «خـ-خـ-خذنا إلى هـ-هـ-هناك يا بـ-بن».

وهكذا قصدوا الكِندوسكيج يتبعون بن، تاركين الفرجة التي لم تعد كذلك خلفهم. راح صوت الماء الجاري يعلو بثبات، لكنهم -رغم هذا- كادوا يسقطون في الكِندوسكيج قبل أن يراه أيٌّ منهم: لقد نمت النباتات وصنعت جدارًا مُتشابكًا على حافَّة الضِفَّة. تهاوت الحافَّة أسفل حذائي بن، فجذبه بيل من قفاه.

قال بن: «أشكرك».

- «لا عليك. في الأ-أ-أيَّام الخـ-خالية، كـ-كـ-كنت سـ-سـ-ستجذبني معك. مـ-مـ-من هـ-هـ-هنا؟».

أومأ بن وقادهم بطول الضِفَّة التي تغزوها النباتات، وشقُّوا طريقهم عبر الخمائل والشجيرات والعليقات مُفكِّرين كم كانت الأمور أسهل في الماضي عندما كانوا قِصار القامة وقادرين على العبور أسفل معظم المعوِّقات (المعوِّقات في الطريق، والمعوِّقات في رؤوسهم) بمُجرَّد انحناءة بسيطة. حسنًا، كل شيءٍ تغيَّر. درسنا اليوم يا أحبائي يقول: كلما تغيَّرت الأحوال، تغيَّرت الأشياء. لا شيء يبقى على حاله. أيًّا كان من قال إن مع تغيُّر الأحوال، تظلُّ الأشياء على حالها، فهو يعاني من حالة تخلُّف عقلي حادَّة. لأن...

انحشرت قدم بن في شيءٍ فتعثَّر ساقطًا أرضًا برطمة قوية، وكاد أن يصدم رأسه في أُسطُوانة محطَّة الضخ الخرسانية. كانت مدفونة بالكامل في وسط خمائل التوت البرِّي. مع نهوضه، أدرك بن أن وجهه وذراعيه ويديه جُرحت جميعها بأشواك التوت في عشرات المواضع.

قال بن: «بل أكثر من ذلك»، وهو يستشعر خيط الدماء الخفيف الذي يجري على وجنتيه.

قال إدي: «ماذا؟».

- «لا شيء»، ثم انحنى أرضًا لينظر فيما تعثَّر. إنه جذر شجرة على الأرجح.

لكنه لم يكن جذرًا، بل الغطاء الحديدي الثقيل. لقد دفعه أحدهم وأسقطه أرضًا.

فكَّر بن: بالتأكيد. نحن من فعل ذلك. منذ سبعة وعشرين عامًا مضت.

لكنه أدرك أن هذا غير معقول، حتَّى قبل أن يرى علامات الكشط الطازجة تتلألأ بوضوح في منتصف الغطاء الصَّدئ. كانت المضخَّة مُعطَّلة في ذلك اليوم، ولا بُدَّ أن أحدهم جاء لإصلاحها إن عاجلًا أم آجلًا، ولا بُدَّ أعاد الغطاء إلى مكانه بعدها.

نهض بن واقفًا والتفَّ خمستهم حول الأُسطُوانة وحدَّقوا فيها. لم يسمعوا إلا صوت الماء الخافت المُتقاطر. كان ريتشي قد أحضر كل أعواد الثقاب من غُرفة إدي. الآن أشعل مشطًا كاملًا منها وألقاه بالداخل. للحظة خاطفة استطاعوا رؤية جدران الأُسطُوانة الداخلية الرطبة، وأيضًا كتلة آلة الضخ الهامدة.. هذا كل شيء.

قال ريتشي في توتُّر: «رُبَّما هي مُعطَّلة منذ وقتٍ طويل. ليس من الضروري أنها...».

قاطعه بن: «بل تعطَّلت حديثًا نسبيًّا. منذ السيول الأخيرة على أقصى تقدير»، ثم أخذ علبة ثقاب أخرى من ريتشي، وأشعل واحدًا، وأشار إلى علامات الكشط الحديثة.

قال بيل فيما كان بن يهز عود الثقاب مُطفِئًا إيَّاه: «يـ-يـ-يوجد شـ-شـ-شيء أ-أسفل الغـ-غطاء».

سأله بن: «ماذا؟».

- «لـ-لـ-لا أ-أتبيَّنه. يبدو كـ-كـ-كشريط. سـ-سـ-ساعداني أنت ور-ر-ريتشي في قـ-قـ-قلبه».

أمسك ثلاثتهم الغطاء وقلبوه كأنه عُملة معدنية عملاقة. هذه المرَّة أشعلت بيفرلي الثقاب والتقط بن بحذر الحقيبة النسائية التي كانت مدفونة أسفل غطاء الأُسطُوانة من ذراعها الجلدي. همَّت بيفرلي بهزِّ عود الثقاب وهي تنظر إلى بيل، لكنها تجمَّدت في مكانها إلى أن لامس اللهب أطراف أصابعها فأسقطته من يدها بشهقة صغيرة. «بيل؟ ما الأمر؟ هل هناك خطب ما؟».

بدت عينا بيل ثقيلتين، ولم تُغادر نظرتهما تلك الحقيبة الجلدية البالية بذراعها الجلدي الطويل. بغتةً، استطاع بيل تذكُّر الأغنية التي كانت تصدح من الراديو في الغرفة الخلفية لمتجر المشغولات الجلدية التي اشتراها لها منه. «ليالي الصيف سوساليتو». كان ذلك أمرٌ أبعد من الغرابة. جفَّ اللعاب في فمه تمامًا، تاركًا لسانه وشدقيه خشنين وجافَّين كالقماش. استطاع بيل سماع الصراصير ورؤية اليرَّاعات المُضيئة واشتمام الظلام الأخضر الكبير الذي ينمو خارجًا عن السيطرة وهو يُفكِّر: إنها خُدعة أخرى، وهمٌ آخر. أودرا في إنجلترا وهذه مُجرَّد حيلة رخيصة من الشَّيء لأنه خائف.. أوه أجل، رُبَّما لم يعد بالثقة التي كان عليها عندما استدعانا. أيضًا، تعقَّل قليلًا يا رجُل.. كم تعتقد عدد الحقائب الجلدية المُهترئة طويلة الذراع في العالم؟ مليون؟ عشرة ملايين؟

رُبَّما أكثر. لكن توجد واحدة فقط كهذه. لقد اشتراها لأوردا من متجر بربانك للمشغولات الجلدية في أثناء ما كانت أغنية «ليالي الصيف سوساليتو» تصدح من الراديو.

وضعت بيڤرلي يدها على كتفه وهزَّته مُنادية: «بيل؟». إنه ليس هنا. إنه على بُعد سبعة وعشرين ألف فرسخ تحت سطح البحر. ما كان اسم الفريق الذي غنَّى «ليالي الصيف سوساليتو»؟ لا بُدَّ أن ريتشي يعرف.

قال بيل بهدوء في وجه ريتشي المذعور مُتَّسع العينين: «أعرف»، ثم ابتسم: «إنه فريق ديزل. ما رأيك في قوَّة ذاكرتي؟».

همس ريتشي: «بيل، ما الأمر؟».

صرخ بيل وانتزع علبة الثقاب من يد بيڤرلي وأشعل واحدًا، ثم جذب الحقيبة بعنف من بن.

– «بيل، يا للمسيح، ما...».

فتح بيل الحقيبة وقلب محتوياتها. سقط الكثيرُ من متاع أودرا لدرجة أنه صار أكثر ذهولًا من أن يقوى على الصراخ، وسط المناديل الورقية، وشرائح العلكة، وأدوات التنميق، رأى بيل علبة أقراص نعناع... وعلبة حفظ المجوهرات التي أهداها لها فريدي فايرستون عندما وقَّعت عقد فيلم غُرفة العلية.

قال لهم: «ز-ز-زوجتي بالأسفل»، ثم ركع على رُكبتيه وبدأ يلملم حاجياتها في الحقيبة من جديد.. وبحركة لا واعية، أزال عن عينيه شعرًا لم يعد موجودًا دون حتَّى أن يُفكِّر في الأمر.

كان وجه بيفرلي مصدومًا، وجحظت عيناها وهي تقول: «زوجتك؟ أودرا؟».

- «هذه حـ-حقيبتها. تلك حـ-حاجياتها».

غمغم ريتشي: «ربَّاه يا بيل، هذا مُستحيل، أنت تعرف أ...».

لقد وجد محفظتها المصنوعة من جلد التمساح. فتحها وأمسكها عاليًا. أشعل ريتشي عود ثقاب آخر ووجد نفسه ينظر إلى وجهٍ رآه في نصف دزينة أفلام على الأقل. كانت الصورة الموجودة على رُخصة قيادة أودرا أقل سحرًا لكنها تقطع الشك باليقين.

- «لكن هـ-هـ-هنري ميِّت، وكذا ڤـ-ڤـ-ڤيكتور وبيلش». قالها بيل ونهض واقفًا وهو ينظر إليهم بشراسة مسعورة. «من الذي أتى بها إلى هنا؟».

وضع بن يده على كتف بيل وقال: «أظنُّ أنه من الأفضل أن نهبط ونرى بأنفسنا يا بيل، أليس كذلك؟».

التفت بيل ناظرًا إليه كأنه لا يعلم من يكون، ثم راقت عيناه بعدها وقال: «بـ-بلى، إ-إ-إدي؟».

- «بيل، أنا آسف لهذا».

- «هـ-هـ-هل تـ-تستطيع التعلُّق بـ-بظهري؟».

- «لقد فعلتها من قبل».

انحنى بيل ولفَّ إدي ذراعه اليُمنى حول عُنُقه. دفعه بن وريتشي إلى أن استطاع إحكام ساقيه حول خصر بيل، وفي أثناء ما أخذ بيل يتأرجح بشكلٍ أخرق فوق شفَّة الأُسطُوانة، رأى بن أن إدي يُغلق عينيه بقوَّة، وللحظة ظنَّ أنه يسمع أصوات أبشع سلاح فرسان في العالم يهجم من بين الشجيرات الكثيفة. استدار بن متوقِّعًا رؤية ثلاثتهم خارجين من بين الضباب وشجيرات العليق، لكن ما سمعه كان مُجرَّد النسيم القوي الذي يمرُّ عبر أعواد الخيزران على مسافة رُبع ميل تقريبًا من هنا. لقد انتهى أعداؤهم القدامى الآن.

أمسك بيل بحافَّة الخرسانة الخشنة وتلمَّس طريقه نزولًا خطوة حذرة تلو الخطوة الحذرة. الدرجات الحديدية زلقة، وإدي يعقد ذراعه حول عنقه في قبضة موت، وبيل يستطيع التنفُّس بالكاد. إنها حقيبتها. يا إلهي، كيف جاءت حقيبتها إلى هنا؟ لم يعد هذا يهم الآن. إذا كنت موجودًا يا إلهي، إذا كنت بالأعلى تتلقَّى الطلبات وتجيب الدعوات، اجعلها بخير، ولا تأخذها بذنب ما فعلته أنا وبيفرلي الليلة، أو بذنب ما فعلته في ذلك الصيف عندما كنت طفلًا... و... هل المُهرِّج هو الذي اختطفها؟ هل بوب جراي نفسه من اختطفها؟ إذا كان الأمر كذلك، فلست متأكِّدًا إن كان الله ذاته قادرًا على إنقاذها.

قال إدي بصوتٍ رفيع: «أنا خائف يا بيل».

لمست قدما بيل ماءً باردًا راكدًا، فخفض نفسه فيه مُتذكِّرًا الشعور ورائحة الرطوبة، مُتذكِّرًا رُهاب الأماكن الضيِّقة الذي أصابه به هذا المكان، و... بالمناسبة، ماذا حدث لهم؟ كيف ارتحلوا في تلك المصارف والأنفاق؟ إلى أين ذهبوا تحديدًا؟ وكيف خرجوا مرَّةً أخرى؟ ما زال لا يستطيع تذكُّر أيٍّ من ذلك. كل ما يستطيع التفكير فيه الآن هو أودرا.

- «وأ-أ-أنا أيضًا»، قالها بيل وجلس القُرفصاء، ثم شهق عندما أغرق الماء البارد سراويله وتخلَّل خصيتيه، وأنزل إدي من على ظهره.

وقف كلاهما في مياهٍ تصل إلى منتصف سيقانهم، وراقبا الآخرين وهم يهبطون السُلَّم.

الفصل الحادي والعشرون

تحت المدينة

1

الشَّيء/ أغسطس 1985

شيءٌ ما جديد حدث.

للمرَّة الأولى منذ الأزل، شيءٌ ما جديد حدث.

قبل ميلاد الكون، لم يكن يوجد سوى شيئين. أحدهما هو الشَّيء نفسه بنفسه، والآخر السُلحفاة. كانت السُلحفاة كيانًا قديمًا غبيًّا لا يخرج من صدفته قط. اعتاد الشَّيء أن يظن أن السُلحفاة ماتت وشبعت موتًا منذ مليار سنة أو نحو ذلك.. لكن حتَّى لو لم تكن ميتّة، فهي لا تزال كيانًا قديمًا غبيًّا. حتَّى لو أن السُلحفاة هي التي قاءت الكون برمَّته، فهذا لا يُغيِّر من حقيقة غبائها.

لقد جاء الشَّيء إلى هنا -إلى الأرض- بعد زمنٍ طويل جدًّا من انسحاب السُلحفاة إلى صدفتها، وقد اكتشف هنا خصوبة في الخيال كانت أمرًا جديدًا تقريبًا عليه، وذا شأنٍ هام تقريبًا. هذا الخيال يجعل الطعامَ غنيًّا جدًّا. إن أسنانه التي تُمزِّق اللحم تصير أكثر صلابة وفاعلية في ظلِّ وجود المخاوف الغريبة والهلع الحسِّي: إن الصغار هنا يحلمون بالوحوش والرمال المُتحرِّكة، لذا طالما شكَّلوا مُضغًا سائغة له رغمًا عن إرادتهم.

وفي ظل وفرة هذا الطعام الغني، عاش هو في دورة بسيطة: الاستيقاظ ليتغذَّى والنوم ليحلُم. لقد خلق الشَّيء مكانًا على صورته ومثاله، وكان ينظر إلى هذا المكان بإحسان عبر الضياء العتيق الذي هو عينيه. إن ديري حظيرته، وأهل ديري خِرافه. الأمور مُستقرَّة.

ثم... جاء أولئك الصبية.
وحدث شيءٌ جديد.
للمرّة الأولى منذ الأزل.
عندما اندفع الشّيء مُحطِّمًا طريقه، ومُقتحمًا منزل شارع نيبولت وهو يقصد قتلهم جميعًا وهو يشعر بضيقٍ غامض لأنه لم يتمكَّن من القيام بذلك مُسبقًا (بالتأكيد هذا الضيق كان الشعور الأوَّل الجديد عليه)، حدث شيءٌ غير مُتوقَّع تمامًا لم يخطر له على بال.. وشعر بألم.. ألم عظيم صارخ يسري في كل جزءٍ من الهيئة التي تجسَّد فيها.. وللحظةٍ خاطفة شعر بخوفٍ أيضًا، لأن الأمر الوحيد الذي يشترك فيه مع تلك السُلحفاة العتيقة الغبية وكوزمولوچيا الكون الشامل الواقع خارج حدود بيضة هذا الكون المرصود التافهة هو الآتي: يجب أن تلتزم جميع أشكال الحياة بقوانين الشكل الذي تسكُنهُ. أدرك الشّيء للمرّة الأولى أن قدرته على التشكُّل بأشكالٍ مُختلفة يمكن أن يعمل ضِدَّه كما تعمل لصالحه. لم يكن ثمَّة ألمٌ من قبل، لم يكن ثمَّة خوفٌ من قبل.. لكن في تلك اللحظة ظنَّ الشّيء أنه قد يموت، وأن رأسه امتلأ بألمٍ فضِّي مروِّع، فراح يزأر ويهدر ويجأر.. وبطريقةٍ ما تمكَّن الأطفال من الهروب.
لكنهم قادمون الآن. سبعة أطفال حمقى دخلوا نطاق نفوذه تحت المدينة، يتخبَّطون في الظلام من دون نورٍ أو سلاح. سيقتلهم الآن، بالتأكيد.
لقد اكتشف الشّيء أمرًا عظيمًا عن ذاته: إنه لا يحب التغيير ولا المُفاجأة. إنه لا يريد اختبار أشياء جديدة، على الإطلاق. كل ما يريده أن يأكل وينام ويحلُم ثم يصحو ليأكل من جديد.
بعد الألم ولحظة الخوف الساطعة السريعة التي ألمَّت به، ظهر شعورٌ جديد آخر، وكان ككل المشاعر أمرًا جديدًا على الشّيء (رغم أنه مُقلِّد عظيم للمشاعر): الغضب. لسوف يقتل الأطفال لأنهم -بمُصادفة مُذهلةٍ ما- آذوه.. لكنه أوَّلًا سيجعلهم يعانون لأنهم جعلوه -لمُجرَّد لحظة خاطفة- يهابهم.
تعالوا إليَّ إذًا، هكذا فكَّر الشّيء، مُنصتًا إلى اقترابهم. تعالوا إليَّ يا أطفال ولتروا كيف نطفو هنا... كيف نطفو جميعًا.

ورغم ذلك، ثمَّة فكرة مُلحَّة لم تنفك عن التسلُّل إليه مهما حاول دفعها بعيدًا. هذه الفكرة تقول ببساطة: لو أن كل الموجودات تنبع منه (مثلما اعتادت أن تفعل منذ أن قاءت السُلحفاة الكون وغابت عن الوعي داخل صدفتها)، كيف يُمكن لأيٍّ مخلوق في هذا العالم أو في أيٍّ عالم آخر أن يخدع الشَّيءَ أو يؤذيه، بغض النظر عن مدى ضآلة أو تفاهة هذا الأذى؟ كيف يحدث ذلك في المقام الأوَّل؟

وهكذا خطرت خاطرة جديدة أخيرة في نفس الشَّيء.. ولم تكن شعورًا جديدًا بل تخمين: ماذا لو لم يكن الشَّيء واحدًا أحدًا، كما كان يعتقد دائمًا؟

بفرض أن هناك آخر؟

بفرض... بفرض...

بدأ الشَّيء يرتجف.

الكراهية جديدة.. الألم جديد.. اعتراض طريقه جديد.. لكن أكثر الأشياء الجديدة ترويعًا هو ذلك الخوف. لا الخوف من الأطفال، فهذا قد مضى، إنما الخوف من ألا يكون وحيدًا.

لا. لا يوجد آخر. بالتأكيد لا يوجد. ربَّما لأنهم أطفال تتمتَّع مُخيِّلاتهم بقوَّة بدائية مُعيَّنة استخفَّ الشَّيء بها وقلَّل من قدرها لفترة وجيزة.. لكن بما أنهم قادمون الآن، سيسمح لهم بالاقتراب. سيأتون إليه وسينفيهم واحدًا تلو الآخر إلى الكون الشامل... إلى ضياء عينيه العتيق.

أجل.

عندما سيأتون، سيرمي بهم -وهم يرتجفون والجنون يتخطَّفهم- إلى الضياء العتيق.

2

في الأنفاق/ الثانية والرُّبع ظهرًا

كان مع بيف وريتشي نحو عشرة أعواد ثقاب، لكن بيل لم يسمح باستخدامها.. فإلى الوقت الحالي على الأقل ما زال هناك ضوءٌ خافت في

المجاري. ليس الضوء كثيرًا، لكنه كان لا يزال يرى أربعة أو خمسة أقدام أمامه، وما دام أنه يستطيع الاستمرار في ذلك، فسوف يدَّخرون الثقاب.

كان بيل يفترض أن الضوء الطفيف يأتيهم من الفتحات في الأرصفة التي تعلو رؤوسهم، وربَّما أيضًا من ثقوب أغطية الأسطُوانات الخرسانية. كانت فكرة أنهم أسفل المدينة الآن غريبة لدرجة لا تُصدَّق، لكن لا بُدَّ أنهم أسفلها الآن بلا شك.

صار الماء أعمق. عبرت ثلاثة حيوانات نافقة من جوارهم: جرذ، وهريرة، وجسدٌ منتفخٌ لامع هو حيوان مرموط غالبًا. سمع بيل أحدهم يغمغم مُشمئزًّا في أثناء عبور هذا الصغير من جواره.

كان الماء الذي يزحفون عبره هادئًا نسبيًّا، لكن كل ذلك سينتهي عن قريب جدًّا: فثمَّة هديرٍ أجوف يأتي من مكانٍ ما قريب أمامهم. راح الصوت يعلو، وصار هديرًا رتيب الإيقاع. انحرف المجرور إلى اليمين، فداروا مع انعطافته ليجدوا ثلاث مواسير تلفظ الماء لفظًا إلى أنبوبهم. كانت المواسير مُصطفَّة عموديًا كمصابيح إشارة مرور. لقد وصل المصرف إلى نهاية مسدودة. كان الضوء أكثر سطوعًا نوعًا هنا. نظر بيل إلى أعلى ووجد أنهم في بئرٍ حجرية مُربَّعة ترتفع فوقهم نحو خمسة عشر قدمًا. توجد بالوعة صرف في الأعلى، وكان الماء يتدفَّق فوقهم منها. بدا الأمر كأنهم في شلَّالٍ بدائي.

فحص بيل المواسير الثلاث بلا خبرة. كانت العُليا تقذف ماءً نظيفًا تقريبًا، على الرغم من أنه يجرف معه أوراق وفروع أشجار وبعض النفايات الصغيرة: أعقاب سجائر، أغلفة علكة، أشياء من هذا القبيل. أما الماسورة الوسطى فتقذف ماءً رماديًّا، ومن الماسورة الأدنى تأتي مياه صرف صحي رمادية بُنِّية.

- «إ-إ-إدي!».

تخبَّط إدي محاولًا الاقتراب منه. كان شعره مُلتصقًا برأسه، وجبيرته فسدت وانتفخت بالمياه.

- «أ-أ-أيُّ مـ-ماسورة نـ-نـ-نسلك؟».

كانوا جميعًا يعرفون الحقيقية التالية: إذا أردت بناء شيء، فاسأل بن. أما إذا أردت معرفة أيَّ طريقٍ تسلك، فأنت تسأل إدي. لم يكونوا يناقشون هذه

الأمور، كانوا يعرفونها فحسب. إذا حدث ووجدت نفسك في حيٍّ غريب وأردت العودة إلى مكانٍ تألفه، فإدي قادرٍ على العودة بك عبر مُنعطفات يسلكها يمينًا ويسارًا بثقة غير منقوصه، بحيث يتقلَّص دورك وينحصر في تتبعه آملًا أن يكون على صواب، وهذا ما يتَّضح في كل مرَّة. أخبر بيل ريتشي ذات مرَّة أنه عندما بدأ يأتي إلى البرِّية للعب برفقة إدي، كان يخشى دائمًا أن يضل طريقه. لكن هذه المخاوف لم تكن تراود إدي، الذي كان دائمًا ما يأتي بهما إلى المكان الذي انتوى المجيء إليه بالضبط. أخبر بيل ريتشي: «إ-إ-إذا حـ-حدث وأن ضـ-ضـ-ضللت طريقي فـ-في غـ-غابات هانيسقيل وكان إ-إ-إدي مـ-معي، فلن أ-أ-أخشى شيئًا. إنه يـ-يعرف ط-طريقه جيِّدًا. أبي يـ-يـ-يقول إن بـ-بعض النـ-ناس لديهم بـ-بوصلة فـ-في ر-رؤوسهم. إدي و-و-واحدٌ من هـ-هؤلاء».

صاح إدي: «لا أستطيع سماعك؟».

- «قـ-قـ-قلت أ-أيّها؟».

- «أيُّ ماذا؟».

كان إدي يقبض بخَّاخه في يده السليمة، وشعر بيل أنه أشبه بفأرٍ مُبتلٍّ أكثر منه طفلًا.

- «أ-أ-أيَّ مـ-ماسورة نـ-نسلك؟».

قال إدي: «حسنًا، هذا يعتمد على المكان الذي تريد الذهاب إليه»، فشعر بيل أنه سيسعد كثيرًا لو خنقه الآن، رغم أن السؤالَ كان منطقيًّا جدًّا. نظر إدي بارتيابٍ إلى المواسير الثلاث. إن أجسادهم الصغيرة يمكن أن تنحشر في أيٍّ واحدة منها، لكن الماسورة السُفلية بدت أسهل الثلاث.

أشار بيل للآخرين أن يتجمَّعوا في دائرة، ثم سألهم: «أ-أ-أين نـ-نعثر عـ-عـ-على الشَّيءِ بـ-بحق الجحيم؟».

قال ريتشي فورًا: «وسط المدينة. أسفل وسط المدينة مُباشرةً، قُرب القناة».

أومأت بيڤرلي، وكذا فعل بن، وكذا ستان.

- «مـ-مـ-مايك؟».

قال مايك: «أجل. هناك يكمن الشَّيء. قرب القناة.. أو أسفلها».
أعاد بيل بصره إلى إدي: «أ-أ-أيُّ واحدة؟».
نظر إدي مُتردِّدًا إلى الماسورة السُفلى، ورغم أن قلب بيل غاص في صدره، لم يشعر بأيِّ نوعٍ من المُفاجأة. «تلك».
قال ستان بتعاسة: «أوه، هذا مُقرف. هذه ماسورة خراء».
همَّ مايك بقول: «نحن لا...»، ثم توقَّف وحرَّك رأسه في لفتة مُنصته. كانت عيناه قلقتين.
قال بيل: «ما الـ...»، لكن مايك وضع إصبعه على شفتيه في إشارة أن صه! الآن بدأ بيل يسمع الضوضاء بدوره: صوت طرطشة ماء يقترب.. حديثٍ وغمغمات خفيضة.. هنري لم يستسلم بعد.
قال بن: «أسرِعوا، هيَّا بنا».
نظر ستان خلفه إلى الطريق الذي أتوا منه، ثم إلى أدنى المواسير الثلاث، وزمَّ شفتيه معًا وأومأ: «هيَّا بنا. الخراء يروح بالغسيل».
صاح ريتشي: «ستان الإنسان يقول دعابة مُحترمة! واكا واكا و...».
هسَّت بيفرلي هامسة: «ريتشي، هلا خرست؟».
تقدَّمهم بيل إلى الماسورة متأفِّفًا من الرَّائحة، ثم زحف إليها. يا للرائحة: إنها المجارير، إنه الخراء، لكن ثمَّة رائحة أخرى هنا أيضًا. أليس كذلك؟ رائحة أدنى وأكثر حيوية. لو كانت للقباع[1] رائحة، فهي ستبدو كهذه الرَّائحة الخفيفة (افترض بيل لو أن الحيوان صاحب القباع يأكل الطعام المناسب، فمن الممكن أن يكون لقباعه رائحة). نحن في الاتِّجاه الصحيح لا محالة. الشَّيء كان هنا. لقد جاء إلى هنا كثيرًا.
بحلول هذا الوقت، كانوا قد توغَّلوا نحو عشرين قدمًا في الماسورة، وصار الهواء فاسدًا وسامًّا. شقَّ بيل طريقه العجيني ببطء، مُتحرِّكًا في سائلٍ ليس بوحلٍ، ثم نظر من فوق كتفه وقال: «ا-ابق خـ-خلفي مُباشرةً يا إ-إ-إدي، سـ-سـ-سأحتاجك».

(1) صوت الخنزير.

خفت الضوء تمامًا وصار رماديًّا شاحبًا، وظلَّ كذلك فترة، قبل أن يختفي تمامًا وغرقوا
(خارج العالم وإلى المجهول)
في ظلامٍ دامس. تقدَّم بيل مُتثاقلًا عبر القذارة، شاعرًا أنه يشقُّها فيزيائيًا إلى نصفين. كان يمد ذراعه أمامه، بينما جزءٌ داخله يتوقَّع أنه سيُباغت في أيِّ لحظة بشعرٍ خشن، وأن عينين خضراوين ستشعَّان في الظلام كمِشكَاتين، ثم ستأتي النهاية في موجة واحدة حارَّة من الألم، عندما سيقضم الشَّيء رأسه فاصلًا إيَّاه عن كتفيه.
كان الظلام يعجُّ بأصواتٍ مُضخَّمة يتردَّد صداها عبر الجدار الأسطواني. كان يسمع أصدقاءه يتقدَّمون من خلفه، وهم يغمغمون بأشياء أحيانًا. أيضًا هناك أصوات غرغرة وآهاتٌ مبقبقة غريبة. فجأة تدفَّق فيضٌ من ماءٍ دافئ بين ساقيه مُغرقًا إيَّاه إلى الفخذين ودافعًا إيَّاه إلى الوراء. شعر بإدي يقبض قميصه من خلف مذعورًا، ثم تراخى الفيضان الصغير بعدها. من نهاية الطابور، صاح ريتشي بدعابة آسفة جيِّدة: «أظنُّ أن العملاق الأخضر المرح قد شخَّ علينا لتوِّه يا بيل».
استطاع بيل أن يسمع المياه أو الصرف الصحي الذي يجري في طفحٍ تُسيطر عليه شبكة الأنابيب الصغيرة التي يجب أن تكون الآن فوق رؤوسهم. تذكَّر مُحادثته مع والده عن شبكة المجاري، وفكَّر أنه يعرف نوع هذه الماسورة. إنها تلك التي تتعامل مع فيض الماء الذي يحدث في أثناء المطر الشديد وفي أثناء موسم الفيضان. كل الرُكام بالأعلى سيُغادر ديري وسيُلقى في جدول توروه ونهر بينوبسكوت. المدينة لا تُحبِّذ إلقاء قاذوراتها في الكِندوسكيج لأن هذا يجعل رائحة القناة نتنة، أما كل ما يُدعى بالماء الرمادي فيذهب إلى النهر بالفعل، لكن إذا فاض الماء أكثر من سعة مواسير المجاري العادية على التحمُّل يحدث تفريغ، مثل ذلك الذي حدث لتوِّه، وإذا حدث تفريغ، فقد يحدث آخر. رفع بيل عينيه قَلِقًا، لم يكن يرى شيئًا، لكنه يعلم أنه بالتأكيد توجد شبكات تصريف في القوس العلوي من الماسورة، ورُبَّما في الجانبين أيضًا، وفي أيِّ لحظة قد يحدث...

لم يدرك بيل أنه وصل إلى نهاية الماسورة إلا عندما سقط منها وطار في الهواء مُحرِّكًا ذراعيه في كل اتِّجاه في جهدٍ يائس لحفظ توازنه، وقع بيل على بطنه فوق كُتلة عجينية نصف مُتماسكة أسفل الماسورة التي لفظته بنحو قدمين. زقزق شيءٌ وعبر من فوق يده. صرخ بيل واعتدل جالسًا ضامًّا يده المُقشعِرَّة إلى صدره، مُدركًا أن فأرًا سار فوقها لتوِّه. لقد استشعر انزلاقة ذيل الكائن الكريه الأجرد على جلده.

حاول بيل النهوض فخبط رأسه في قمَّة الماسورة الجديدة المُنخفِضَّة. كانت خبطة قويَّة ركَّعت بيل على رُكبتيه، وفجَّرت ومضاتٍ حمراء أمام عينيه في الظلام.

سمع نفسه يصيح: «كُن حذرًا يا إدي!». تردَّد صدى صوت كلماته طويلًا.

- «الماسورة تنتهي هنا! إ-إ-إدي! أين أ-أ-أنت؟».

لمس إدي أنف بيل بيده مُلوِّحًا وهو يقول: «هنا! ساعدني يا بيل، لا أستطيع الرؤية! إن...».

جاء صوت شلَّال ماءٍ هائل وهوووووش! وصرخت بيڤرلي ومايك وريتشي في نفسٍ واحد. في موقفٍ آخر، وفي وضح النهار، رُبَّما كانت جوقتهم المتناغمة الموحَّدة تقريبًا هذه مُثيرة للضحك.. لكن هنا في الظلام، في المجاري، بدا الأمر مُفزعًا. فجأة راحوا يهوون مُتعثِّرين جميعًا. تشبَّث بيل بإدي مُحتضنًا إيَّاه، محاولًا حماية ذراعه المُصابة.

أطلق ريتشي تأوُّهًا شاكيًا وقال: «يا للمسيح، لقد ظننت أننا غرقنا. لقد غُمرنا بالماء. يا إلهي، لقد جرفنا شلَّال خراء. يا للروعة، يجب عليهم تنظيم رحلات مدرسية إلى هنا في وقتٍ ما يا بيل، بقيادة مسز كارسون و...».

قال بن بصوتٍ مُرتعش: «ويمكن لمسز چيمسون إعطاء مُحاضرة صحيَّة بعدها». انفجروا جميعًا ضاحكين بضجيج مُرتجف.. وعندما بدأت ضحكاتهم تهدأ وتتلاشى، انفجر ستان باكيًا فجأة بدموع بائسة.

قال ريتشي: «لا تبك يا رجُل»، واضعًا ذراعًا مُرتعشة حول كتف ستان الزلق: «ستجعلنا جميعًا ننخرط في البكاء».

قال ستان بصوتٍ عالٍ وهو ما زال يبكي: «أنا بخير! كل ما في الأمر أنني

أستطيع تحمُّل الخوف، لكنني أكره أن أكون بهذه القذارة، أكره أن أكون جاهلًا أين أنا...».

سأل بيل ريتشي: «هـ-هـ-هل تظن أ-أ-أن أيًّا مـ-مـ-من أعواد الثقاب مـ-مـ-ما زال صالحًا لـ-لـ-للاستخدام؟».

- «لقد أعطيت ما معي لبيڤ».

شعر بيل بيدٍ تلمس يده في الظلام وتضع فيها مشط أعواد ثقابٍ بدا جافًّا. قالت له: «لقد أبقيت عليها تحت إبطي. قد تكون سليمة، يُمكنك أن تُجرِّبها على أيِّ حال».

مزَّق بيل عود ثقابٍ من المشط وأشعله. اشتعل العود وثبُتت شعلته. كان أصدقاؤه مُحتشدين معًا، وجفلوا من الوهج الساطع الوجيز لعود الثقاب. كانوا مُلطَّخين ومغموسين في القذارة. بدوا له صغارًا جدًّا.. خائفين جدًّا.. وخلفهم استطاع بيل رؤية الماسورة التي خرجوا منها. إن ماسورتهم الحالية أصغر، وتمتدُّ في كلا الاتِّجاهين، وأرضيَّتها مُغطَّاة برواسب قذرة، و...

أطلق بيل هسيسًا وهزَّ عود الثقاب مُطفِئًا إيَّاه بعدما كاد أن يحرق أصابعه. أنصت الصبي إلى صوت جريان الماء السريع، والماء المُتقاطر، وهدير الماء العارض عندما تعمل صمامات الماء الفائض مُرسلة مزيدًا من مياه المجاري إلى الكِندوسكيج الذي يبعد عنهم الآن بمسافة لا يعلمها إلا الله. لم يسمع صوت هنري وعصابته. ليس بعد.

قال بهدوء: «يـ-يـ-يوجد صـ-صبي مـ-ميِّت إلى يميني. على بـ-بـ-بعد عـ-عـ-عشرة أقدام مـ-منا. أ-أ-أظنُّ أنه بـ-بـ-بـ...».

سألته بيڤرلي بصوتٍ على شفا الهِستيريا: «باتريك؟ باتريك هوكستيتر؟».

- «أ-أ-أجل. هل تـ-تـ-تريديني أ-أن أشعل ثـ-ثـ-ثقابًا آ-آخر؟».

قال إدي: «ضروري يا بيل. إذا لم أرَ اتِّجاه امتداد الماسورة، فلن أعرف الطريق الصحيح».

أشعل بيل عود الثقاب، وعلى ضوئه شاهدوا جميعًا الجسم الأخضر المُنتفخ الذي كان يومًا ما باتريك هوكستيتر. إن الجُثَّة تبتسم لهم في الظلام بأُلفة مُريعة، لكن بنصف وجه فقط. لقد أكلت المجاري والفئران النصف

الآخر. كانت كُتُب باتريك الدراسية مُبعثرة حوله، وقد انتفخت أوراقها وصارت في حجم القواميس بفعل الرطوبة.

صاح مايك بصوتٍ غليظ وعينين جاحظتين: «يا ليسوع!».

قالت بيڤرلي: «بدأت أسمعهم ثانيةً.. هنري والآخرين».

ولا بُدَّ أن الهواء حمل صوتها إليهم أيضًا، لأن هنري عوى عبر ماسورة المجاري، وللحظة بدأ أنه يقف وسطهم.

- «سنمسك بكم...».

صاح ريتشي بعينين لعوبتين مسعورتين وتبرقان: «اتَّجه إلينا مُباشرةً! واصل التقدُّم أيُّها العِجل! المكان هنا أشبه بحمَّام سباحة جمعية الشُّبَّان المسيحيين! واصل...».

ثم طفت إلى آذانهم صرخة ذُعرٍ يملأها الخوف والألم جعلت الثقاب المُتراقص يسقط من بين أصابع بيل وينطفئ. التوت ذراع إدي حول بيل، واحتضنه بيل بدوره مستشعرًا جسده المُرتعش كسلكٍ رفيع، وفي الوقت نفسه التصق ستان يوريس به من الجانب الآخر. راحت الصرخة تعلو وتعلو.. ثم صدر صوت رفرفة فاحشة كثيفة، وانقطعت الصرخة.

قال مايك مُختنقًا ومُلتاعًا: «لقد قتل شيءٌ ما أحدهم. شيءٌ ما... وحشٌ ما... بيل، يجب أن نخرج من هنا حالًا... أرجوك».

استطاع بيل سماع الاثنين المُتبقيين -اثنينِ أو واحد، فمع طريقة انتشار الصوت هنا كان من المُستحيل التيقُّن- يتعثَّران ويتخبَّطان عبر الماسورة قادمين نحوهم. سأل بيل بشكلٍ عاجل: «أيَّ ط--ط-طريقٍ نـ-نسلك يا إدي؟».

سأل إدي وهو يرتجف بين ذراعي بيل: «طريق يقود للقناة؟».

- «أجل!».

- «إلى اليمين. من جوار باتريك... أو من فوقه»، ثم اكتسب صوته صلابة دُفعة واحدة وهو يضيف: «لا أهتم كثيرًا. لقد كان أحد من كسروا ذراعي، كما بصق في وجهي».

قال بيل وهو ما زال ينظر خلفه إلى ماسورة المجاري التي غادروها لتوِّهم:

«هـ-هـ-هيَّا بـ-بنا. فـ-في طـ-طـ-طابور! كـ-كل و-و-واحد يلمس الآ-آ-آخر، مثلما سـ-سـ-سبق».

تلمَّس بيل طريقه أمامًا، وكتفه الأيمن يُسحب بطول سطح الماسورة الخزفي الزلق وهو يجزُّ على أسنانه، لا يريد أن يخطو فوق باتريك... أو فيه.

وهكذا زحفوا مُتوغِّلين أكثر في جوف الظلام، فيما راحت المياه تندفع من حولهم، والعاصفة في الخارج تهب وتزأر وتسدل ستارَ ظلام مُبكِّر فوق ديري. ظلامٌ يعوي بالرياح ويدمدم بنيرانٍ كهربائية ويضجُّ بأشجارٍ ساقطة تبدو أصواتها كصرخات احتضار وحوشٍ هائلة من ما قبل التاريخ.

3

الشَّيء/ مايو 1985

الآن هم قادمون مرَّةً أخرى، ورغم أن كل الأمور سارت كما تنبَّأ الشَّيء، عاد أمرٌ لم يتنبَّأ به: ذلك الخوف المُجِنُّ شديد القسوة... ذلك الشعور بوجود آخر. يكره الشَّيء الخوفَ، ولو كان باستطاعته لانقضَّ عليه والتهمه... لكن الخوف يرقص مُستهزِئًا بعيدًا عن متناوله، ولن يكون في مقدوره قتل الخوف إلا عن طريق قتلهم.

بالتأكيد لم يكن ثمَّة داعٍ لمثل هذا الخوف؛ إنهم كبار الآن، وقد نقص عددهم من سبعة إلى خمسة. خمسة رقم قوي، لكن لا يمتلك الخاصية الطلسمية الغامضة للرقم سبعة. صحيح أن خادمه لم يستطِع قتل أمين المكتبة، لكن أمين المكتبة سيموت في المُستشفى. قبل أن يلمس ضوء الفجر السماء، سيُرسل الشَّيء مُمرِّضًا بأقراص دواءٍ مناسبة للإجهاز على أمين المكتبة مرَّة واحدة وإلى الأبد.

إن امرأة الكاتب مع الشَّيء الآن، حيَّة وغير حيَّة. لقد أُبيد عقلها تمامًا أوَّل ما وقعت عيناها على الشَّيء في هيئته الحقيقية، بعد أن خلع عنه جميع أقنعته الصغيرة وفِتَنِه. كل تلك الفِتَن مُجرَّد مرايا، تعكس إلى الضحية المذعورة

أسوأ كوابيس تعتمل في عقلها، عاكسة في ذهنها صورًا كما تعكس المرآة أشعة الشمس في عين مُطمئنَّة واسعة وتصعقها بالعمى.

الآن، صار عقل امرأة الكاتب في قبضة الشَّيء، وراء تخوم حافَّة الكون الشامل، في الظلمات المُمتدَّة خلف السُلحفاة، في المناطق الخارجية وراء كل الأراضي.

إنها في عين الشَّيء. إنها في عقل الشَّيء.

إنها في الضياء العتيق.

أوه، كم أن تلك الِفتَن مُسلِّية! خُذ هانلون على سبيل المثال. إن عقله الواعي لا يتذكَّر منشأ كابوسه، لكن أمه تستطيع إخباره من أين جاء ذلك الطائر الذي رآه في خرائب مصنع الحديد. عندما كان رضيعًا في عمر ستَّة أشهر، تركته أمه نائمًا في مهده في حديقة المنزل الجانبية وذهبت لنشر الشراشف والحفَّاضات على حبل الغسيل.. ثم عادت تركض هارعة على صوت صرخاته، لتجد غرابًا كبيرًا يجثم على حافَّة العربة وينقر مايكي الطفل كمخلوق شرير خارج من خُرافة أطفال. كان مايك يصرخ من الألم والرعب، غير قادر على هَشِّ الغراب الذي استشعر وجود فريسة واهنة. لقد ضربت أمه الطائر بقبضتها وأبعدته عن رضيعها، ووجدت أنه أدمى ذراعه في موضعين أو ثلاثة، فأخذته سريعًا إلى دكتور ستيلواجن لتطعيمه ضد التيتانوس. جزءٌ من عقل مايك لم ينس تلك التجربة أبدًا -رضيع صغير، وطائر عملاق- وعندما تجسَّد الشَّيء له، شاهد مايك ذلك الطائر العملاق مرَّة أخرى.

لكن عندما أتاه خادِمه -زوج الفتاة القديمة- بزوجة الكاتب، لم يرتد الشَّيء قناعًا، فلم يكن يعتاد التأنُّق في منزله. ألقى الزوج الخادم نظرة واحدة عليه وخرَّ ميتًا من الصدمة، وشحبت الدماء عن وجهه وارتشحت في عينيه بعدما نفذت إليهما عبر مخه من عشرات المواضع، وعندما وقعت عينا زوجة الكاتب عليه، اعترت فكرة واحدة مُروِّعة عقلها -يا إلهي الرحيم، إنها أنثى- ثم توقَّفت جميع أفكارها، وراحت تسبح في الضياء العتيق. هبط الشَّيء من مكانه واعتنى بجسدها مُعدًّا إيَّاه للالتهام في وقتٍ لاحق. الآن، ها هي أودرا دِنبروه مُعلَّقة عاليًا وسط أجسام أخرى، وخيوط الحرير تتقاطع عليها،

ورأسها يتدلَّى من بين تجويف كتفيها، وعيناها متَّسعتان مُرجَّجتان، وأصابع أقدامها تشير لأسفل.

لكن ما زال فيهم بأسٌ. نعم تضاءل، لكنه ما زال موجودًا. لقد جاءوا إلى هنا أطفالًا، وبطريقةٍ ما -عكس كل الاحتمالات، وعكس كل ما يُفترض أن يكون، وكل ما يمكن أن يكون- ألحقوا بالشيء أذًى جسيمًا، وكادوا أن يقتلوه، وأجبروه على الفرار إلى أعماق الأرض، حيث احتشد على نفسه، متضرِّرًا وكارهًا ومُرتجفًا وسط بركة غريبة من دمائه آخذة في الانتشار.

وهكذا حدث شيءٌ آخر جديد: للمرَّة الأولى في تاريخه الطويل التليد الذي لا ينتهي، احتاج الشَّيء وضع خطَّة. للمرَّة الأولى وجد الشَّيء نفسه يخشى أخذ ما هو له وما يريده من ديري.. ديري، محميَّة ماشيته الخاصة.

لطالما تغذَّى الشَّيء جيِّدًا على الأطفال في ديري. الكبار يُمكن استخدامهم دون أن يعرفوا أنه يستخدمهم، حتَّى إنه تغذَّى على عددٍ قليلٍ منهم على مرِّ السنين. البالغون أيضًا لهم مخاوفهم الخاصة، ويستطيع الشَّيء النقر على غُددِهم كي تتفتَّح وتسمح لهرمونات الخوف أن تغمر أجسادهم وتُملِّح لحومهم مُعزِّزة نكهتها. لكن مخاوفهم في الغالب معقَّدة جدًّا. مخاوف الأطفال أبسط، وأقوى عادةً. يمكن جمع مخاوف الأطفال وتجسيدها في وجهٍ مُخيفٍ واحد... وإذا لم يفلح الأمر، ودعت الحاجة لاستخدام طُعمٍ، هنا يأتي دور المُهرِّج.. لم يُخلق بعد الطفل الذي لا يُحبُّ رؤية مُهرِّج.

فهم الشَّيء بشكلٍ غامض أن أولئك السَّبعة استطاعوا -بطريقة ما- استخدام أدواته الخاصة ضده.. وأنه بمحض مُصادفة (بالتأكيد ليس عمدًا، وبالتأكيد ليس بمعونة أيِّ آخر)، وعن طريق ترابط سبعة عقول خصبة الخيال بشكلٍ استثنائي، زُجَّ الشَّيء إلى منطقة خطرٍ مُحدق. إن أيًّا من هؤلاء السبعة مُنفردًا، لن يخرج عن كونه طعام الشَّيء وشرابه.. وإذا لم يكونوا قد جاءوا معًا، فمن المؤكد أن الشَّيء كان سيلتقطهم واحدًا تلو الآخر، مجذوبًا بخصوبة عقولهم كما يُجذب الأسد إلى بركة ماء بعينها بسبب رائحة حمار وحشي. لكنهم معًا اكتشفوا سِرًّا مُقلقًا لم يكن الشَّيء على بيِّنة بوجوده من الأساس: أن لقوَّة الإيمان وجهًا آخر. إذا كان عشرة آلاف قرويٍ في العصور

الوسطى قادرين على خلق أسطورة مصَّاص الدماء عن طريق إيمانهم بأنه حقيقي، فرُبَّما واحدٌ فقط -طفلٌ على الأرجح- هو من سيتخيَّل الوتد الخشبي.. السلاح اللازم لقتله. لكن الوتد ليس إلا قطعة بلهاء من الخشب.. العقل هو المطرقة التي ستدقُّ الوتد في صدر مصَّاص الدماء.

ورغم ذلك نجا الشَّيء وفرَّ بجلده وغاص عميقًا، وقد اختار الأطفال المُنهكون المذعورون عدم مُلاحقة الشَّيء عندما كان الشَّيء في أوهن حالاته. لقد اختاروا الإيمان بأنه مات أو يحتضر على الأقل، وتراجعوا عائدين.

كان الشَّيء على بيِّنة من قَسَمِهم الذي قطعوه، وكان يعلم أنهم سيعودون، تمامًا كما يعلم الأسد أن الحمار الوحشي سيعود في نهاية المطاف إلى بركة الماء. لذا بدأ الشَّيء يُخطِّط لكل شيء وهو يبدأ دورة نعاسه. عندما سيصحو سيكون قد تعافى.. تجدَّد.. لكن ستكون طفولتهم قد مضت وذابت كذبالة سبع شمعاتٍ كبيرة. ستكون قوَّة خيالهم السابقة باهتة وضعيفة. لن يعودوا يؤمنون بوجود أسماك بيرانا في الكِندوسكيج، أو أن ذا الرجل المسلوخة سيزورك إذا لم تلتهم طعامك، أو أنك لو قتلت خنفسة وجدتها على قميصك فسيحترق منزلك في تلك الليلة. بدلًا من ذلك، سيُصدِّقون في التأمين على الممتلكات والحياة.. سيؤمنون بضرورة النبيذ مع وجبة العشاء.. وهو أمرٌ جيِّد بالفعل، لكنه ليس بجودة زجاجة بوييه فيوسيه، أو قدح خمرٍ أضرَمَ الساقي فيه النار. سيؤمنون أن كاربونات الكالسيوم علاج حموضة ممتاز.. سيؤمنون بالتلفزيون العام، وبتصريحات جاري هارت، وبأن الركض يمنع النوبات القلبية، وأن الامتناع عن أكل اللحم الأحمر يقي الإصابة بسرطان الأمعاء. سيؤمنون بأقوال دكتور روث في أمور الجنس وبأقوال چيري فالويل في أمور دينهم.. ومع كل عامٍ يمر ستتقلَّص أحلامهم.. وعندما سيصحو الشَّيء سيستدعيهم، أجل، سيستدعيهم، لأن الخوف الذي نكحه منهم كان خصيبًا، وقد أنجب له الغضب.. والغضب رضيع يصرخ طلبًا للانتقام.

سيستدعيهم، ثم يقتلهم جميعًا.

لكن الخوف عاد إليه الآن مع قدومهم. لقد كبروا، وضعفت مُخيِّلاتهم،

لكن ليس بالقدر الذي توقَّعه الشَّيء. لقد شعر بازدياد مُفرط مشؤوم في قوَّتهم عندما التمَّ شَملِهم، وللمرَّة الأولى في وجوده المديد، تساءل الشَّيء إن كان ارتكب خطأً جسيمًا.

لكن لِمَ التشاؤم؟ قُضي الأمر، وليست كل الطوالع نحسة. إن الكاتب يكاد يفقد عقله بسبب زوجته، وهذا جيِّد. إن الكاتب أقواهم، وهو الذي درَّب عقله بطريقةٍ ما لهذه المواجهة على مدار السنين.. وعندما سيموت الكاتب وتخرج أمعاؤه من جدار بطنه.. عندما سيموت العزيز الغالي «بيل الكبير».. سيقع الآخرون في براثن الشَّيء سريعًا.

لسوف يتغذَّى الشَّيء جيِّدًا.. وبعدها رُبَّما يغوص إلى أعماق الأرض مُجدَّدًا وينعس... لبعض الوقت.

4

في الأنفاق/ الرابعة والنصف صباحًا

– «بيل!». هكذا صاح ريتشي عبر الماسورة المُجوَّفة. كان يتحرَّك بأسرع ما يستطيع، لكن ذلك لم يكن سريعًا بما يكفي. تذكَّر أنهم عندما كانوا أطفالًا ساروا منحنين في تلك الماسورة التي تقود من محطَّة الضخ إلى البرِّية. الآن هو يزحف على أربعة، وتبدو الماسورة ضيِّقة بشكل مُستحيل. لم تنفك نظَّارته عن الانزلاق من فوق أنفه، ولم ينفك هو عن دفعها إلى أعلى مُجدَّدًا. كان يسمع صوت بن وبيف خلفه.

صاح مُجدَّدًا: «بيل! إدي!».

جاءه صوت إدي من الأمام يقول: «أنا هنا!».

صاح فيه: «أين بيل؟».

قال إدي: «أمامًا». كان إدي قريبًا جدًا الآن. استشعر ريتشي وجوده أكثر ممَّا كان يراه.

– «إنه لا يريد الانتظار!».

ارتطم رأس ريتشي بساق إدي، وبعدها بلحظة ارتطم رأس بيف بمؤخِّرة ريتشي.

صرخ ريتشي بأعلى صوته: «بيل!». ضخَّمت الماسورة صيحته وأعادتها مؤذية إلى أُذُنيه. «بيل، انتظرنا! يجب أن نذهب معًا، ألا تعرف ذلك؟».

من بعيد، وبصوتٍ خافتٍ مُجوَّف، سمعوا بيل يردِّد: «أودرا! أودرا! أين أنتِ؟».

صاح ريتشي بصوتٍ ناعم: «عليك اللعنة يا بيل الكبير!»، وسقطت نظَّارته. أطلق ريتشي سُبَّة وتلمَّسها، ووضعها ثانيةً على أنفه وهي تقطر ماءً، ثم سحب نفسًا عميقًا وصاح مُجدَّدًا: «ستضل الطريق من دون إدي أيُّها الأحمق اللعين! انتظر! انتظرنا! هل تسمعني يا بيل؟ انتظرنا عليك اللعنة!».

مرَّت لحظة صمتٍ مُعذِّبة، بدا فيها أن أحدهم لم يتنفَّس. كان الماء المُتقاطر هو كل ما يسمعه ريتشي من بعيد. كان المصرف جافًّا هذه المرَّة، باستثناء بعض البرك الراكدة المُتفرِّقة.

صاح ريتشي ثانيةً: «بيل!»، ثم مرَّر يدًا مُرتعشة في شعره وقاوم دموعه: «بالله عليك... أرجوك يا رجل! انتظر! أرجوك!».

بصوت أكثر خفوتًا، ترامى إليه صوت بيل: «أنا مُنتظر».

غمغم ريتشي: «حمدًا لله على النعم الصغيرة»، ثم صفع مؤخِّرة إدي قائلًا: «تحرَّك».

قال إدي مُعتذرًا: «لا أعلم كم أستطيع المواصلة بذراعٍ واحدة».

قال ريتشي: «تحرَّك على أيِّ حال»، فبدأ إدي يزحف من جديد.

كان بيل ينتظرهم شاحبًا ومستهلكًا تقريبًا عند البئر العميقة، حيث تصطف المواسير الثلاث كمصابيح إشارة مرورٍ مُعطَّلة. توجد هنا مساحة كافية لهم للوقوف مُعتدلين.

قال بيل: «انظروا هناك. إنه كـ-كـ-كريس، وبـ-بـ-بيلش».

نظروا جميعًا. صرخت بيڤرلي فوضع بن ذراعه حولها. كان هيكل بيلش العظميّ المُغطَّى بأسمالٍ بالية تفشَّى العفن فيها يبدو سليمًا بطريقة أو بأخرى، أما ما تبقَّى من ڤيكتور فكان جسدًا بلا رأس. نظر بيل في أرجاء البئر وشاهد الجمجمة المُبتسمة مُلقاة.

فكَّر بيل: ها هي ذي، هذا ما تبقَّى منه. كان يجب أن تتخلُّوا عن مطاردتنا يا رفاق.. وارتجف.

لقد هُجِر هذا الجزء من شبكة المجاري وتوقَّف استعماله، وقد ظنَّ ريتشي أن سبب ذلك واضح تمامًا. لقد أُنشئت محطَّة مُعالجة النفايات الجديدة. في وقتٍ ما خلال السنوات التي كانوا يشبُّون فيها، مُنشغلين بتعلُّم حلاقة الذقن، وقيادة السيَّارات، والتدخين، والعبث قليلًا هنا وهناك.. ظهرت وكالة حماية البيئة إلى حيز الوجود، وقرَّرت أن إلقاء المياه الرمادية ومياه المجاري غير المُعالجة في الجداول والأنهار أمر مرفوض. هكذا هُجِرَ هذا الجزء من شبكة المجاري وتفسَّخ، وتفسَّخت معه جُثَّتا ڤيكتور كريس وبيلش هاجنز. إن ڤيكتور وبيلش لم يكبرا أبدًا، مثل الأطفال الضالين في حكاية بيتربان. هنا يرقد هيكلان عظميان لصبيين في ملابسهما المُمزَّقة التي تعفَّنت واستحالت إلى خِرقٍ بالية. لقد نمت الطحالب على قفص ڤيكتور الصدري المُشوَّه، وفوق النسر الموجود على حلية حزامه المعدنية.

قال بن بصوتٍ خافت: «لقد قتلهم الوحش. هل تتذكَّرون؟ لقد سمعنا لحظة الهجوم عليهما».

قال بيل بصوتٍ آلي: «أ-أودرا مـ-ماتت. أعرف ذلك».

قالت بيڤرلي بغضبٍ كاسح لدرجة أن بيل انتفض ناظرًا إليها: «هذا شيء لا تعرفه. كل ما تعرفه أن أناسًا آخرين ماتوا هنا، ومعظمهم أطفال.. وأنت تعلم من فعلها»، ثم سارت نحو ووقفت قبالته واضعة يديها في خصرها. كان وجهه ويدها مُلطَّخين بالأوساخ، وشعرها مُلتصقًا بفروة رأسها بالسخام. كان ريتشي يظن أنها تبدو رائعة تمامًا.

قال بيل: «لـ-لم يـ-يـ-يكن عليَّ إخبراها إلى أ-أ-أين أنا ذ-ذ-ذاهب. لِمَ فعلت ذلك؟ لِمَ...».

- «ولا كلمة إضافية! أنت تعلم لماذا جئنا. لقد أقسمنا، وسوف نفي بما أقسمنا به! هل تسمعني يا بيل؟ إذا كانت قد ماتت، فقد ماتت... لكن الشَّيءَ لم يمت! نحن نحتاجك الآن يا بيل. هل تفهم هذا؟ نحن نحتاجك!»، كانت

تبكي الآن: «لذا استجمَع شتات نفسك من أجلنا! قُدنا كما فعلت من قبل وإلا لن يخرج أحدٌ منا من هنا حيًّا!».

رمقها بيل مُدَّة طويلة دون أن يتكلَّم، ووجد ريتشي نفسه يُفكِّر: هيًّا يا بيل الكبير، هيًّا، هيًّا...

نظر بيل في وجوههم ثم أومأ برأسه راضخًا. «إ-إ-إدي».

- «أنا هنا يا بيل».

- «هـ-هـ-هل تتذكَّر أيَّ أ-أ-أنبوب؟».

أشار إدي إلى ما وراء ڤيكتور وقال: «هذا هو.. يبدو صغيرًا جدًّا الآن، أليس كذلك؟».

أومأ بيل ثانيةً: «هل تستطيع أن تفعلها؟ بذراعك المـ-مـ-مكسورة».

- «أستطيع من أجلك يا بيل».

ابتسم بيل أكثر ابتسامة أليمة مُنهكة رآها ريتشي في حياته وقال: «خـ-خـ-خذنا إلى هناك يا إ-إدي. لننهي هـ-هذا الأمر».

5

في الأنفاق | الرابعة وخمس وخمسون دقيقة صباحًا

في أثناء زحفه، ذكَّر بيل نفسه بالمسقط الموجود في نهاية الماسورة التي يسيرون فيها الآن، لكن الأخير باغته رغم ذلك. في لحظة، كانت يداه تتخبَّطان مُتلمِّسة طريقه عبر سطح الماسورة القديمة المُقشَّر، وفي اللحظة التالية حلَّقتا في الهواء. ضرب بيل الهواء بجسده وتدحرج بشكلٍ غريزي، وهبط على كتفه هبوطًا مُؤلمًا.

ثم سمع نفسه يصيح: «كن حـ-حـ-حذرًا يا إدي! ها هو المسقط! إ-إ-إدي؟».

لمس إدي أنف بيل بيده مُلوِّحًا وهو يقول: «هنا! هل تستطيع مُساعدتي يا بيل؟».

وضع بيل ذراعيه حول إدي وحمله، محاولًا أن يكون حريصًا مع ذراعه المصابة. جاء بن بعده، ثم بيڤ، وأخيرًا ريتشي.

- «هل معك أ-أ-أيُّ أعواد ثـ-ثـقاب يا ر-ريتشي؟».

قالت بيڤرلي: «أنا معي». شعر بيل بيدٍ تلمس يده في الظلام وتضع مشط أعواد ثقاب فيها. «ليس به سوى ثمانية أو عشرة أعواد، لكن بن معه المزيد.. من الغُرفة».

قال بيل: «هل أبقيتها تحت إ-إ-إبطك يا بـ-بيڤرلي؟».

قالت له: «ليس هذه المرَّة»، ووضعت ذراعها حوله في الظلام. احتضنها بيل بقوَّة وأغلق عينيه، وحاول امتصاص كل الراحة التي ترغب بشدَّة في منحها إيَّاه.

ثم أطلق سراحها بلُطفٍ وأشعل الثقاب. إن قوَّة الذاكرة لعظيمة. لقد نظروا جميعًا في التوِّ إلى اليمين. كان ما تبقَّى من جسد باتريك هوكستيتر لا يزال موجودًا في مكانه وسط كُتلٍ منتفخة مُغطَّاة بالطحالب رُبَّما كانت كُتبًا يومًا ما. كان الشيء الوحيد القابل للتميز فيه هو قوس أسنانه البارز، الذي فيه سنَّان أو ثلاثة بحشوات.

ثمَّة جسم آخر قريب. حلقة لامعة يُمكن رؤيتها في ضوء الثقاب المتراقص.

هزَّ بيل الثقاب ثم أشعل واحدًا آخر، والتقط الجسم من على الأرض قائلًا: «هذا خاتم زواجنا».

كان صوته أجوف، وخاليًا من التعبير.

ذبلت الشعلة بين أصابعه.. وفي الظلام دسَّ بيل الخاتم في إصبعه

قال ريتشي مُتردِّدًا: «بيل، هل لديك أيُّ فكرة عن...

6

في الأنفاق/ الثانية والثلث ظهرًا

... كم لبثوا يتجوَّلون عبر الأنفاق أسفل ديري منذ أن غادروا المكان الذي

توجد جُثَّة باتريك هوكستيتر فيه؟ لم يكن بيل يعرف، لكنه كان مُتيقِّنًا أنه لن يستطيع العثور على طريقٍ للخروج أبدًا، ولم ينفك عن التفكير في ما قاله والده: يمكنك أن تهيم على وجهك لأسابيع. إذا فشلت حاسة الاتِّجاه لدى إدي الآن، فلن يحتاجوا أن يقتلهم الشَّيء. سيهيمون في البقاع المُظلمة حتَّى يموتوا، أو سيدخلوا إلى ماسورة خاطئة وسيغرقون كفِئرانٍ في برميل مطر.

لكن إدي لا يبدو عليه أدنى ذرَّة من القلق. كان يسأل بيل بين الفينة والأخرى أن يضيء له واحدًا من مخزونهم المتناقص من الثقاب، ثم ينظر حوله مُفكِّرًا، قبل أن يمضي في طريقه مُجدَّدًا. كان يأخذ المنعطفات يمينًا ويسارًا بطريقة تبدو عشوائية. أحيانًا تكون المواسير ضخمة جدًّا ولا يستطيع بيل أن يلمس سطحها العلوي حتى مع مدِّ ذراعه إلى أقصى امتدادًا لها، وأحيانًا كانوا يُضطرون إلى الزحف، وفي مرَّة -ولمُدَّة خمس دقائق مُريعة بدت لهم كخمس ساعاتٍ- سعوا على بطونهم كالديدان، يتقدَّمهم إدي، بينما الآخرون يتبعونه وأنف كل منهم بين كعبي من أمامه.

ما كان بيل مُتيقِّنًا منه تمامًا هو أنهم دخلوا بطريقةٍ ما إلى القطاع المهجور من شبكة مصارف ومجاري ديري. لقد تركوا كل المواسير والأنابيب العاملة إما بعيدًا خلفهم أو عاليًا من فوقهم.. وقد انحسر هدير الماء الصاخب وبدا أشبه بدويٍّ رعدٍ يترامى من بُعدٍ بعيد. هذه الأنابيب أقدم، وليست مصنوعة من سيراميك مُحمَّى في فُرنٍ، وإنما من مادة قابلة للتفتُّت أشبه بالطين الحمِئ، وينز منها أحيانًا سائل كريه الرَّائحة. تلاشت رائحة الفضلات البشرية -تلك الرَّائحة العضوية الغازية التي كادت أن تخنقهم- لكن استبدلتها رائحة أخرى أخبث وأقدم وأسوأ كثيرًا.

فكَّر بن أنها رائحة المومياء، وبالنسبة إلى إدي كانت رائحة المجذوم، وشعر ريتشي أنها تبدو كرائحة أقدم معطف حطَّاب في العالم.. معطف مُهتَّك وبالٍ، لكنه كبير.. كبير جدًّا، ورُبَّما يناسب مقاس بول بونيان. بالنسبة إلى بيڤرلي كانت الرَّائحة رائحة دُرج جوارب والدها، وفي عقل ستان يوريس، أيقظت الرَّائحة ذكرى من طفولته المُبكِّرة جدًّا، ذكرى يهودية غريبة لصبي لم يدرك بعد سوى أقل القليل عن ديانته اليهودية. كانت تبدو لأنفه

كخليطٍ من الصلصال الممزوج بالزيت.. وجعلته يُفكِّر في شيطانٍ بلا عينين ولا فمٍ يُدعى جوليم، وهو كيان صلصالي يُفترض أن اليهود العُصاة شكَّلوه في العصور الوسطى لإنقاذهم من الأغيار الذين سرقوهم واغتصبوا نساءهم وطردوهم. أما مايك ففكَّر في رائحة الريش الجاف في العُشِّ المهجور.

عندما وصلوا إلى نهاية الأنبوب الضيِّق، انزلقوا كثعابين البحر أسفل سطح أنبوب آخر مُنحنٍ يمتد بزاوية مائلة مُتَّصلًا بالأنبوب الذي كانوا فيه، ووجدوا أنهم قادرون على الوقوف مُعتدلين مُجدَّدًا. تلمَّس بيل رؤوس أعواد الثقاب الباقية معه. أربعة. زمَّ شفتيه وعزم على ألا يخبر الآخرين إلى أيِّ مدى نفاد ضوئهم وشيك... لن يخبرهم بذلك إلا إذا وجد نفسه مُضطرًّا.

- «كـ-كـ-كيف حـ-حالكم يا ر-ر-رفاق؟».

غمغموا مُجيبين، فأومأ برأسه في الظلام. لم يصَب أحدهم بالذعر أو يبكي منذ حادثة ستان. هذا جيِّد. مدَّ بيل يده إليهم ووقفوا جميعًا في الظلام مُتشابكي الأيدي بعض الوقت، يأخذون ويعطون من خلال لمساتهم. شعر بيل بابتهاجٍ كبيرٍ في هذا الفعل، بيقينٌ مؤكَّد أنهم بشكلٍ ما يُنتجون ما هو أكثر من مجموع ذواتهم السبع. لقد أُعيد تجميعهم في كيانٍ واحدٍ قوي.

أشعل بيل أحد أعواد الثقاب الباقية، وعلى ضوئه رأوا نفقًا يمتد أمامهم بانحرافٍ مائلٍ إلى الأسفل. كانت قمَّة هذا الأنبوب تمتلئ بخيوط عنكبوتٍ مُترهِّلة، بعضها قطعه الماء فتدلَّى كأسمال أكفان. شعر بيل برجفة قهقرية عندما شاهد الخيوط. كانت الأرضية جافَّة لكن عليها طبقة سميكة عتيقة من العفن، وما يبدو أنه أوراق شجر وطحالب... أو فضلات ما مُريعة، وفي الأمام، استطاع أن يرى كومة من العظام وخرق خضراء. رُبَّما كانت هذه بقايا ما كان يُسمَّى قديمًا بـ«القطن المصقول»، أو ملابس العُمَّال. تخيَّل بيل عامل إدارة المجاري أو المياه الذي ضلَّ طريقه، وتاه متجوِّلًا إلى أن وصل إلى هنا، ثم اكتشفه الـ...

ارتعش عود الثقاب. أمسكه بيل من رأسه وقلبه إلى أسفل، راغبًا أن يستمر الضوء فترة أطول قليلًا.

سأل إدي: «هـ-هـ-هل تعرف أ-أ-أين نـ-نـحن؟».

أشار إدي نحو تجويف النفق المُلتوي قليلًا وقال: «القناة من هذا الطريق. إنها تبعد أقل من نصف ميل، إلا إذا كان ذلك النفق يأخذ منعطفًا آخر بعد ذلك. نحن الآن أسفل تلَّة أب-مايل على ما أظنُّ، لكن يا بيل...».

أحرق الثقاب أصابع بيل فأفلته. غرقوا في الظلام من جديد فتنهَّد أحدهم. ظن بيل أنها بيڤرلي، لكن قبل أن تُطفأ شُعلة الثقاب، كان قد لاحظ القلق على وجه إدي.

- «مـ-مـ-ماذا؟ ما الأ-أمر؟».

- «عندما قلت إننا أسفل تلَّة أب-مايل، فقد عنيت ما أقول تمامًا. إننا نهبط منذ فترة طويلة الآن. لا أحد يضع مواسير مجارٍ بهذا العُمق. عندما يُحفَر نفقًا بهذا العُمق فإنه يُسمَّى منجمًا».

سأله ريتشي: «على أيِّ عُمق تظننا الآن يا إدي؟».

قال إدي: «رُبع ميل، ورُبَّما أكثر».

قالت بيڤرلي: «رحماك يا يسوع».

قال ستان من خلفهما: «ليست تلك مواسير مجارٍ على أيِّ حال. الرَّائحة وحدها تُشير إلى هذا. إنها سيِّئة حقًّا، لكنها ليست رائحة مجارٍ».

قال بن: «أظنُّ أنني أُفضِّل اشتمام رائحة المجاري.. تلك الرَّائحة تبدو كـ...».

طفت صرخة عالية خارجة من فم الأنبوب الذي غادروه لتوِّهم، وجعلت شعر مؤخِّرة عُنُق بيل ينتصب. احتشد السبعة مُقتربين بعضهم من بعض.

- «سأمسك بكم يا أولاد القحاب... سأمـــــســــــك بــكـــــم...».

لهث إدي قائلًا: «هنري.. يا إلهي، إنه ما زال قادمًا».

قال ريتشي: «لست مُتفاجئًا، بعض الناس أغبى من أن يستسلموا».

كانوا يسمعون صوت اللهاث الخافت، وخبط الأحذية، وحفيف الملابس.

- «... بـــــــــكـــــــــــم...».

قال بيل: «هـ-هـ-هلموا».

بدأوا في الهرولة عبر الأنبوب، كل اثنين مُتجاورين: بيل وإدي، ريتشي وبيڤ، بن وستان، ما عدا مايك الذي كان في نهاية الصف.

- «كـ-كـ-كم تـ-تـ-تظن أ-أ-أن هنري يبعد عـ-عـ-عنا؟».

قال إدي: «لا أستطيع الجزم بذلك يا بيل الكبير، الأصداء تزيد الأمر سوءًا»، ثم خفض صوته وأضاف: «هل رأيت كومة العظام تلك؟».

قال بيل خافضًا صوته بدوره: «أ-أ-أجل».

- «كان هناك حزام أدوات مع الملابس.. أظنُّه عامل في إدارة المياه».

- «أ-أ-أظنُّ ذ-ذلك أيضًا».

- «منذ متى وهو...؟».

- «لـ-لـ-لا أ-أ-أعرف».

أمسك إدي بيده السليمة ذراعَ بيل بقوَّة في الظلام.

كانت خمس عشرة دقيقة قد مرَّت تقريبًا، قبل أن يسمعوا صوت شيء ما قادمًا نحوهم في هذا الديجور.

توقَّف ريتشي وتجمَّد جسده بالكامل. شعر فجأة أنه عاد لسنِّ الثلاث سنوات. أنصت إلى ذلك الصوت اللزج الذي يقترب منهم.. يقترب.. وإلى أصوات الحفيف المُصاحبة له، وحتَّى قبل أن يُشعل بيل عود الثقاب، عرف ريتشي ماهية القادم.

صرخ ريتشي: «العينُ! ربَّاه، إنها العين الزاحفة!».

مرَّت لحظة لم يكن الآخرون مُتيقِّنين فيها إلام ينظرون (جاء لبيڤرلي انطباعٌ أن والدها قد عثر عليها، حتَّى على هذا العُمق، واعترت إدي رؤية عابرة أن باتريك هوكستيتر قد عاد للحياة واستطاع الإحاطة بهم بطريقةٍ ما ومهاجمتهم من الأمام)، لكن صرخة ريتشي، يقين ريتشي، قد جسَّد الشَّكل الذي يراه لهم جميعًا، ورأوا ما يراه.

ملأت العين العملاقة النفق. كان بؤبؤها الزجاجي الأسود بعرض قدمين، وقزحيتها لها لونٌ عكرٌ مُوحل. أما المُلتحمة فبيضاء، وغشائية، وتغزوها أوردة حمراء تنبض باستمرار. كانت كُتلة من الرُعب الهُلامي عديمة الجفون والرموش وتتحرَّك على فراشٍ من مجسَّاتٍ طرية.. تلك المجسَّات راحت تتلمَّس أرضية النفق المُفتَّتة وتغوص فيها كأنها أصابع، ما أعطى لهم انطباعًا

-على ضوء شُعلة ثقاب بيل المُرتعش- أن العين نبتت لها أصابع كابوسية وراحت تُحرِّكها في المكان.

حدَّقت العين فيهم بنظرة جشعة مسعورة لا حياة فيها. انطفأ عود الثقاب.

في الظلام، أحس بيل أن تلك المجسَّات الشبيهة بالأذرع تتلمَّس كاحله وربلة ساقه... لكنه لم يقوَ على الحراك. كان مُتجمِّدًا في مكانه. استشعر بيل اقتراب الشَّيء، وأحس بالحرارة المُشعَّة منه، وكان يسمع نبض الدماء الحيوي في أغشيته الرطبة. تخيَّل بيل اللزوجة التي سيشعر بها عندما ستتلمَّسه العين، ورغم ذلك لم يقوَ على الصراخ.. وحتَّى عندما انزلقت المجسَّات الطازجة حول خصره وأنشبت نفسها في عراوي سراويله الجينز وبدأت تجذبه إليها، لم يستطِع بيل الصراخ أو المقاومة، وبدا أن نُعاسًا قاتلًا قد أفسد جسده كله.

استشعرت بيڤرلي أحد المجَّسات ينزلق حول أُذُنها ثم يعقد نفسه في أنشوطة مُحيطًا بها. اشتعل الألم في رأسها وراحت تُسحب أمامًا وهي تتلوَّى وتتأوَّه، كأن مُدرِّسة عجوزًا تجُرَّها إلى نهاية الفصل من أُذُنها عقابًا، حيث ستُجلِسها على مقعدٍ خشبي وتضع قُبَّعة الأغبياء المخروطية على رأسها. حاول ريتشي وستان التراجُع إلى الوراء، لكن غابة من المجسَّات راحت تتلوَّى وتهمس حولهما، وضع بن ذراعه حول بيڤرلي وحاول أن يستعيدها، فتشبَّثت بيڤرلي بيديه بإحكامٍ مذعور.

- «بن... بن، لقد أمسكتْ بي...».

- «لا، لم تفعل... انتظري... سأجذبك».

جذبها بن بكل عزمه، وصرخت بيڤرلي من الألم الذي يمزِّق أُذُنها، وبدأت الدماء تسيل منها. امتدَّ مجسٌّ جافٌّ وقوي فوق تيشيرت بن، وتوقَّف، ثم التفَّ في عُقدةٍ مؤلمة حول كتفه.

دفع بيل بيده أمامًا، فولجت في سخونة لزجة هُلامية. صرخ عقله: العين! يا إلهي إن يدي في العين! ربَّاه! يا إلهي الرحيم! العين! يدي داخل العين!

ثم بدأ يقاتل، لكن المجسَّات لم تنفك عن توجيهه إلى الأمام بلا هوادة. اختفت يده في تلك السخونة العجينية المُتعطِّشة.. وتلاها ساعده. الآن دُفع ذراع بيل بأكمله حتَّى الكوع إلى داخل العين. في أيِّ لحظة الآن سيلتصق

جسده بذلك السطح الدَّبق وسيفقد عقله في تلك اللحظة. حارب بيل بشكلٍ محموم، مُقطِّعًا المجسَّات بيده الأخرى.

وقف إدي كصبي في حلم، ينصت إلى الصرخات المكتومة وأصوات النضال، بينما أصدقاؤه يُدفعون إلى العين. شعر إدي بالمجسَّات من حوله، لكن أيًّها لم يهبط عليه بالفعل.

أمره عقله صارخًا بقوَّة: اهرب إلى منزلك! عُد إلى أمك يا إدي! تستطيع أن تعثر على طريقٍ للخروج!

صرخ بيل في الظلام بصوتٍ عالٍ يائس تبعته أصوات لُعابية وعجينية بشعة.

كُسِرَت حالة الشلل المؤقَّت التي اعترت إدي وفُتِحَت نوافذها على مصراعيها.

الشَّيء يحاول أخذ بيل الكبير!

جأر إدي: «لا!»، وكان صراخه زئيرًا كاملًا. قد لا يفترض المرء أبدًا أن صرخة مُحارب كهذه يُمكن أن تصدر عن هذا الصدر.. صدر إدي كاسبراك، ورئتي إدي كاسبراك، المُصابة بلا شك بأسوأ حالة ربوٍ في تاريخ ديري. انقض إدي أمامًا قافزًا فوق مجسَّاتٍ ساعية كالأفاعي دون أن يراها، وذراعه المكسورة تقرع صدره في تأرجحها أمامًا وخلفًا داخل جبيرتها المُشبَّعة بالماء. بحث إدي في جيبه وأخرج بخَّاخه

(حامض بطَّاريات، هذا هو مذاقه، إنه كحامض البطَّاريات)

اصطدم إدي بظهر بيل دِنبروه وضربه جانبًا. خرج صوتٌ كصوت قطرات مياه في بركة راكدة، وتبعه صوتٌ خفيضٌ مُتحمِّس لم يسمعه إدي بأُذُنيه قدر ما استشعره بعقله. رفع إدي بخَّاخه عاليًا

(سيكون حامضًا إذا أردته أن يكون، لذا خُذه خُذه)

وصرخ: «حمض نيتريك أيُّها اللعين!»، ثم ضغط الزناد وركل العين في اللحظة نفسها. غاصت قدمه عميقًا في هُلام القرنية، وشعر إدي بتدفُّق سائل ساخن على ساقه. سحب إدي قدمه إلى الخارج، مُدركًا بنصف وعي أنه فقد فردة حذائه.

- «تراجع! ابتعد! اغرب! امش! ابحث لك عن مكانٍ آخر! تراجع».

شعر بمجسَّاتٍ تتلمَّسه، لكن على استحياء فقط. أطلق إدي بخَّاخه ثانيةً مُغرقًا العين، وسمع وشعر بذلك الصوت من جديد... لكنه الآن كان مجروحًا.. ومُباغَتًا.

صاح إدي مُهتاجًا في الآخرين: «حاربوها! إنها ليست سوى عينٍ لعينة! حاربوها! أتسمعونني! قاوموها يا بيل! اركل هذه اللعينة وأَرسلها للجحيم! يا ليسوع المسيح، يا لكم من حفنة جُبناء، أنا من أقاوم وذراعي مكسورة!».

شعر بيل بقوَّته تعود إليه. أخرج ذراعه التي تقطر هلامًا من العين بقوَّة، ثم دفعها داخلها من جديد. بعدها بلحظة، جاء بن إلى جواره، واندفع راكضًا إلى العين وهو ينخر من التقزُّز والمُباغتة، وراح يُمطر لكماتٍ إلى سطحها الهلامي المُرتعش وهو يصرخ: «اتركيها! أتسمعيني؟ اتركيها! اخرجي من هنا! اخرجي من هنا!».

كان إدي يصرخ بانفعالٍ وهذيان: «إنها مُجرَّد عينٍ! مُجرَّد عينٍ لعينة!»، ثم أطلق بخَّاخه من جديد وشعر بالعين تتراجع إلى الخلف. سقطت المجسَّات التي كانت قد نزلت عليه أرضًا. «ريتشي! ريتشي! عليك بها! إنها مُجرَّد عين!».

تخبَّط ريتشي أمامًا في الظلام، غير مُصدِّق أنه يفعل ذلك. إنه يقترب من أسوأ وأبشع وحشٍ في العالم، لكن ها هو ذا يفعلها.

كل ما فعله ريتشي أن عالج العين بلكمة ضعيفة، لكن مُجرَّد شعوره بقبضته تغوص داخلها -كانت سميكة وعجينية ومطَّاطية نوعًا- جعله يُفرغ أمعاءه بتشنُّجٍ معويٍ مُريع.. أعووء! جرَّأته فكرة أنه قاء على العين فلكمها ثانيةً. لم تكن سوى لكمة واحدة، لكن بما أن خياله هو الذي خلق ذلك الوحش بالتحديد، فرُبَّما كان ذلك كافيًا. فجأة اختفت المجسَّات، واستطاعوا سماع الشَّيءَ يتراجع. بعد لحظات، لم تعد هناك أصوات مسموعة بخلاف لهاث إدي وبكاء بيفرلي وهي تضع إحدى يديها على أُذُنها النازفة.

أشعل بيل أحد أعواد الثقاب الثلاثة المُتبقِّية وحملق بعضهم في بعض بوجوهٍ مصدومة مبهورة. كانت ذراع بيل اليُسرى مُغطَّاة بمادة لزجة غائمة

تبدو كخليطٍ من بياض البيض والمخاط، وكانت الدماء تسيل ببطء على عُنُق بيفرلي، وظهر جرح جديد على وجنة بن.

دفع ريتشي نظّارته ببطء إلى أعلى أنفه.

سأل بيل بصوتٍ غليظ: «هـ-هـ-هل أنتم بـ-بـ-بخير؟».

سأله ريتشي: «هل أنت بخير يا بيل؟».

- «أ-أ-أجل»، ثم التفت إلى إدي واحتضنه بشراسة. «لـ-لـ-لقد أ-أ-أنقذت حياتي يا ر-رجل».

قالت بيفرلي: «لقد أكَلَت العين حذاءك»، وأطلقت ضحكة جامحة ثم أضافت: «يا لك من بائس».

قال ريتشي: «سأشتري لك حذاء كيدس جديدًا عندما نخرج من هنا»، ثم ربّت على كتف إدي في الظلام وأضاف: «كيف فعلتها يا إدي؟».

- «استخدمت بخّاخي مُتظاهرًا أنه حامض. هكذا يبدو طعمه أحيانًا في نهاية يومٍ سيِّئ. لقد نجح الأمر».

قال ريتشي وهو يقهقه بجنون: «'أنا من أقاوم وذراعي مكسورة'. ليس قولًا سخيفًا جدًّا يا إدز، بل أصدقك القول، إنه مُضحكٌ جدًّا في الحقيقة».

- «أكره عندما تناديني بإدز».

قال ريتشي وهو يضمه بقوّة: «أعرف ذلك. لكن يجب أن يعلِّمك أحدهم أن تخشوشن قليلًا يا إدز. عندما تترك بيضة طفولتك الآمنة وتكبر، سوف تكتشف أن الحياة ليست دائمًا لقمة سائغة.. أوه أجل».

بدأ إدي يهتزُّ بالضحك: «هذا أسوأ تقليد سمعته في حياتي يا ريتشي».

قالت بيفرلي: «حسنًا، حافظ على هذا البخّاخ.. يبدو مُفيدًا».

- «قد نحتاجه ثانيةً».

سأل مايك: «ألم تر الشَّيءَ في أيِّ مكانٍ يا بيل عندما أشعلت الثقاب؟».

قال بيل: «لـ-لـ-لقد ذ-ذ-ذهب»، ثم أضاف بجهامة: «لـ-لكننا نـ-نـ-نقترب مـ-منه.. من المكان الـ-الـ-الذي يأوي إ-إ-إليه».

قال ستان بصوتٍ خفيضٍ وأجش: «هنري ما زال قادمًا. أستطيع سماعه في الخلف».

قال بن: «إذًا لنتحرَّك».

وهكذا فعلوا. استمرَّ النفق في الهبوط إلى باطن الأرض باطراد، وراحت تلك الرَّائحة -تلك العفونة الخفيضة البرِّية- تزداد حدَّة باطراد. في أوقاتٍ، كانوا يسمعون هنري من خلفهم، لكن الآن بدت صيحاته بعيدة جدًّا وغير ذاتِ أهمِّية. اعتراهم جميعًا شعورٌ -مثيل لذلك الشعور بالتشوه والانفصال الذي اعتراهم في منزل شارع نيبولت- بأنهم عبروا حافَّة العالم ودخلوا إلى نطاقٍ من العدم الغريب. كان بيل يشعر أنهم يقتربون من قلب ديري الداكن الفاسد (رغم أنه لم يمتلك مُفردات مُناسبة للتعبير عمَّا هو مُتيقِّنٌ منه).

أما مايك هانلون، فكان يشعر أنه بالكاد يتلمَّس نبض ذلك القلب السقيم غير مُنتظم الضربات. شعرت بيفرلي بقوَّة شريرة مُتنامية من حولها كأنها تُغلِّفها، وتحاول فصلها عن الآخرين. لذا مدَّت بيفرلي يديها إلى جانبيها بتوتُّر وتشبَّثت بيديّ بيل وبن. بدا لها أنها مدَّت يدها بعيدًا جدًّا لتصل إليهما، فصاحت قائلة بقلق: «ليتشبَّث أحدكم بيد الآخر! يبدو أننا ننجرف بعيدًا عن بعضنا بعضًا!».

كان ستان أوَّل من أدرك أنه يستطيع الرؤية ثانيةً. ثمَّة إشعاع خافت غريب في الهواء. في البداية لم يستطِع ستان أن يرى سوى يديه.. واحدة في يد بن والأخرى في يد مايك. ثم أدرك أنه يستطيع رؤية الأزرار على قميص ريتشي المُتَّسخ، وخاتم طيَّار منتصف الليل الرخيص الذي كان هديَّة علبة حبوب إفطارٍ رخيصة كسبه إدي، ودائمًا ما يُحب ارتداءه في إصبعه الخنصر.

سألهم ستان وهو يتوقَّف: «هل تستطيعون الرؤية يا رفاق؟». توقَّف بيل بدوره ناظرًا حوله، وأدرك أوَّلًا أنه يرى نوعًا ما، ثم ثانيًا أن النفق اتَّسع بشكلٍ مُذهل. كانوا الآن في غرفة مُنحنية في حجم نفق سومنر في بوسطن. بل أكبر، هكذا صحَّح بيل لنفسه وهو ينظر حوله مبهورًا ويغمره شعورٌ مُتزايد بالرهبة.

اشرأبَّت أعناقهم إلى السقف الذي كان يعلو خمسين قدمًا أو أكثر فوق رؤوسهم مدعومًا بدعاماتٍ حجرية أشبه بالأضلُع، وتتعرَّش عليها شباك خيوط عنكبوتٍ قذرة. كانت الأرضية حجرية، لكنها مُغطَّاة بطبقاتٍ من

أوساخٍ قديمة لم تترك عليها أقدامهم طبعات، وكانت جدران النفق التي تنحني في صعودها تبعد عنهم خمسين قدمًا من كلا الجانبين.

قال ريتشي: «إن محطَّات المياه تبدو جنونية هنا»، وضحك في توتُّر.

قالت بيفرلي بخفوت: «يبدو المكان ككتدرائية».

قال بن راغبًا أن يعرف: «من أين يأتي الضوء؟».

قال بيل: «يـ-يـ-يبدو أنه يـ-يـ-يشعُّ من الجـ-جدران مُـ-مُباشرةً».

قال ستان: «لا أحب هذا».

- «هيا بـ-بنا. إن هـ-هـ-هنري في أ-أ-أعقابنا...».

شطر نهيقٌ بهيمي صاخبٌ المكان المُعتم، ثم تبعته رفرفة أجنحة عملاقة ثقيلة ومدوية. خرج جسمٌ مُبحرًا من قلب الظلام، له عينٌ ساطعة، والأخرى مصباحٌ مكسور.

صرخ ستان: «الطائر! احذروا، إنه الطائر!».

انقضَّ الشَّيء عليهم كطائرة حربية همجية، ومنقاره البرتقالي المُصفَّح يُفتح ويُغلق كاشفًا عن بطانة فمٍ وردية فخيمة كبطانة الساتان في تابوتٍ.

اتَّجه الطائر مُباشرةً إلى إدي.

نبش المنقار كتفه، وشعر إدي بالألم يغوص عميقًا في لحمه كالحمض. سالت الدماء على صدره، وصرخ إدي عندما دفع الجناحين تيَّار هواء مؤذيًا في وجهه. دار الطائر في الهواء، وعينه تتَّقد شرًّا، وتدور في محجرها، ولم تغب عنه قط إلا عندما كان الجفن شبه الشفَّاف يُغطيها لحظيًّا بغشاءٍ رفيع. بحثت مخالبه عن إدي، الذي انحنى صارخًا. شقَّت المخالب ظهر قميصه كأمواسٍ مُقطِّعة إيَّاه وراسمة خطوطٍ سطحية حمراء على لوحي كتفه. صرخ إدي وحاول الزحف بعيدًا، لكن الطائر انقض من جديد.

اعترض مايك طريقه وهو يبحث في جيبه وأخرج مدية صغيرة. عندما غاص الطائر في الهواء قاصدًا إدي، طوَّح مايك المديةَ في قوسٍ سريع مُحكم عبر مخالب الطائر. أحدث هذا قطعًا غائرًا فيها، وتدفَّقت الدماء. مال الطائر مُبتعدًا، ثم عاد ثانيةً طاويًا أجنحته ومُندفعًا كالرصاصة. تدحرج مايك على الأرض في اللحظة الأخيرة وضرب بالمدية الصغيرة إلى أعلى.. لكنه أخفق،

وضرب مخلب الطائر رسغه بقوّة هائلة جعلت يده تتخدَّر وتقشعر، وقد وصلت الكدمة التي نمت في ساعده لاحقًا إلى كوعه تقريبًا. طاحت المدية في الظلام.

هجم الطائر من جديد وهو يصرخ منتصرًا، فدحرج مايك جسده نحو إدي وانتظر حدوث الأسوأ.

مع عودة الطائر، تقدَّم ستان أمامًا صوب الصبيين المُكوَّمين على الأرض، وقف ضئيلًا وأنيقًا رغم الأوساخ التي تلطِّخ يديه وذراعيه وسراويله وقميصه، وفجأة مدَّ يده إلى الخارج بإشارةٍ شاذَّة، وراحة يده تواجه السقف، وأصابعه إلى أسفل. أطلق الطائر صرخةً أخرى وشقَّ الهواء مُنطلقًا نحو ستان، وأخطأه ببوصات قليلة، وطوَّح بمروره العاصف شعره إلى أعلى قبل أن يسقط على وجهه. استدار ستان سريعًا ليواجه عودة الشَّيء.

صاح ستان بصوتٍ واضح واثق: «أنا أؤمن بالتناجر القرمزية رغم أنني لم أر واحدًا منها». صرخ الطائر وانضغط إلى الوراء كأنه رُمي برصاصة. «وكذا بالنسور، وطيور مادلارك في غينيا الجديدة والفلامينجو البرازيلي». ناح الطائر، ودار في الهواء، وفجأة طار إلى أعلى النفق زاعقًا. صرخ ستان في إثره: «أؤمن بالنسر الذهبي الأصلع! كما أؤمن أن العنقاء موجودة في مكانٍ ما! لكنني لا أؤمن بك، لذا اغرب من هنا! غادر! إلى الجحيم اللعين الذي أتيت منه!».

سكت ستان بعدها، وبدا الصمت الذي تبع صرخته الأخيرة عظيمًا وهائلًا جدًّا.

ركض بيل وبن وبيڤرلي إلى مايك وإدي، وساعدوا إدي على النهوض وتفحَّص بيل جروحه ثم قال: «لـ-لـ-ليست غـ-غائرة. لـ-لـ-لكنني مُتأكِّد أ-أ-أنها تـ-تـؤلم كالجحيم».

- «لقد مزَّق قميصي إلى أشلاء يا بيل الكبير». كانت وجنتا إدي تلتمعان بالدموع، وراح يلهث ويتنفَّس بصفيرٍ مُجدَّدًا. كان الصوت البربري الصاخب قد تلاشى، وبات من الصعب تصديق أنه ملأ المكان هنا يومًا. «ماذا سأقول لأمي؟».

ابتسم بيل قليلًا ثم قال: «لـ-لـ-لم لا تـ-تـ-تقلق بخصوص ذ-ذ-ذلك عندما نـ-نـ-نخرج من ه-ه-هنا؟ ا-ا-اعط لنفسك بـ-بـ-بخَّة يا إدي».

أخذ إدي نفسًا عميقًا من بخَّاخه، وراحت أنفاسه تُصفِّر.

قال ريتشي لستان: «كان ذلك رائعًا يا رجل.. شديد الروعة في حقيقة الأمر!».

كان ستان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه: «لا يوجد طائرٌ مثل ذلك على الإطلاق. لم يوجد من قبل، ولن يُوجد أبدًا!».

- «نحن قادمان!». هكذا جأر هنري من خلفهم. كان صوته مُختلًّا بالكامل، وراح يضحك ويعوي الآن. كان صوته أشبه بشيءٍ خرج زاحفًا من شقٍّ في جدار الجحيم. «أنا وبيلش قادمان! وسنمسك بكم أيُّها القحاب الصغار! لا سبيل للهرب!».

صاح بيل: «ا-ا-اخرج من هنا يا هـ-ه-هنري، الفـ-فرصة لـ-لـ-لم تفت بـ-بعد».

أجابه هنري بصرخة مُجمجمة جوفاء. سمعوا ضوضاء خطوات أقدامٍ سريعة تقترب، وفي ومضة فهمٍ جليَّة وهائلة تمامًا أدرك بيل الغرض الكاملَ من هنري: إنه حقيقي، إنه فانٍ، ولا يُمكن إيقافه ببخَّاخِ ربوٍ أو بكتاب طيور. لن يفلح السحر مع هنري. لكم كان غبيًّا لأنه لم يفهم من قبل؟

- «هـ-هـ-هلموا. يـ-يجب أن نظلَّ سـ-سـ-سابقينه بخطوة».

بدأوا في الركض مُجدَّدًا، مُتشابكي الأيدي، وقميص إدي المُمزَّق يتطاير من خلفه. ازداد سطوع الضوء، وبات النفق أضخم من أيِّ وقتٍ مضى، وفي أثناء ما كان النفق ينحني بميلٍ إلى أسفل، راح السقف يُحلِّق مُبتعدًا حتَّى صار يكاد لا يُرى. بدا لهم أنهم لم يعودوا يهرولون في نفقٍ على الإطلاق، بل يشقون طريقهم عبر فناءٍ جوفيٍ هائل مُقتربين من قلعة سايكلوب جبَّار. اصطبغ الضوء المُشِع من الجدران بلونٍ ناري أصفر يميل إلى الاخضرار. باتت الرَّائحة أقوى، وبدأوا يشعرون بذبذبة رُبَّما كانت حقيقية ورُبَّما كانت من نسج خيالهم. كانت ثابتة وذات إيقاعٍ مُنتظم.

هذا قلبٌ ينبض.

صاحت بيڤرلي: «الطريق ينتهي! انظروا! هناك جدار عازل مُصمت!».

لكن مع اقترابهم أكثر، أشبه بالنمل الآن فوق هذه الأرض الشاسعة المكوَّنة من كُتلٍ حجرية قذرة كل كُتلة منها تبدو أكبر من حديقة باسي، رأوا أن الجدار العازل ليس مُصمتًا بالكامل رغم كل شيء. هناك باب، ورغم أن الجدار نفسه يرتفع مئات الأقدام فوق رؤوسهم، كان الباب صغيرًا جدًّا، ولم يكنْ طوله يزيد على ثلاثة أقدام ارتفاعًا، كأحد تلك الأبواب في القصص الخيالية المصنوعة من ألواح خشب بلُّوطٍ سميكة ومدعومة بشرائح حديدية على هيئة حرف X، وجدوا أنفسهم جميعًا يدركون فجأة: هذا باب صُنِعَ خصيصًا للأطفال.

في عقله، وبصوتٍ شبحي، سمع بن أمينة المكتبة تقرأ للأطفال الصغار: «من ذا الذي يسير على جسري؟». انحنى الأطفال إلى الأمام، وعكست عيونهم المُتَّسعة السحر الأبدي للقِصَّة الخيالية: هل سيُدحر الوحش... أم سيحظى بفريسته؟

توجد علامة على الباب، وأسفلها كومة كبيرة من العظام المُكدَّسة. عظام صغيرة. عظام أطفال لا يعلم عددهم سوى الله.

لقد وصلوا إلى مكان الشَّيءِ.

الآن.. ما تلك العلامة على الباب؟



تخيَّلها بيل قاربًا ورقيًّا.

وشافها ستان طائرًا يرتفع إلى عنان السماء.. عنقاء رُبَّما.

ورأها مايك وجهًا مُقنِّعًا.. وجه بوتش باروز رُبَّما، لكننه لم يتأكَّد لأنه مُقنَّع.

وشاهد ريتشي عينين محبوستين خلف نظَّارة.

وأبصرت بيڤرلي يدًا مضمومة في قبضة مُميتة.

وتصوَّرها بن هانسكوم ضمَّادات مُمزَّقة تفوح منها رائحة توابل قديمة.

أما إدي فتيقَّن أن هذا هو وجه المجذوم، بعينيه الغائرتين وفمه المهترئ المُجعَّد. كل أمراض العالم، كل السقم في الوجود، مدموغ في هذا الوجه.

لاحقًا، عندما سيصل هنري باروز إلى الباب عينه وصرخات بيلش ما زالت تتردَّد في أذنيه، وحيدًا عند نهاية الأشياء، سيراها بدرًا مُكتملًا.. مؤاتٍ.. أسود.

قال بن بصوتٍ راجف: «أنا خائف يا بيل. هل نحن مُضطرون لفعل ذلك؟».

تلمَّس بيل كومة العظام بأطراف أصابع قدميه، وركلها فجأة ركلة واحدة جعلتها تتدحرج في سقوطٍ صاخب مُثيرة غبارًا أبيض. كان يرتعد خوفًا بدوره... لكن چورچ حاضر معه، ويُفكِّر فيه. لقد مزَّق الشَّيء ذراع چورچ. هل عظامه الصغيرة الهشة موجودة ضمن هذه العظام؟ أجل، من دون ريب هي بينها.

إنهم هنا للثأر من أجل أصحاب العظام.. من أجل چورچ وجميع الأطفال الآخرين، أولئك الذين أُحضروا هنا، وأولئك الذين قد يُحضرون هنا، وأولئك الذين تُركوا في أماكن أخرى ليتحلَّلوا فحسب.

قال بيل: «أجل، نحن مضطرون لفعل ذلك».

سألت بيڤرلي بصوتٍ ضئيل: «ماذا لو كان مُغلقًا؟».

قال بيل: «إنه لـ--لـ-ليس مُـ-مُغلقًا»، ثم أخبرها بعدها بشيءٍ كان يعرفه من أعمق أعماقه: «مـ-مـ-مثل هذه الأ-أماكن لا تكون مُـ-مُغلقة أ-أ-أبدًا».

وضع بيل أصابع يده اليُمنى الملوَّثة بخليطٍ من أشياء كثيرة على الباب ودفعه. تأرجح الباب مفتوحًا وسطع من خلفه فيضٌ من ضوءٍ أصفر يميل إلى

الاخضرار. هبَّت رائحة الحظائر وحدائق الحيوان على وجوههم. كانت قويَّة جدًّا، ومُركَّزة تمامًا الآن.

عبر سبعتهم الباب الذي يبدو آتيًا من حكاية خيالية، ودلفوا إلى عرين الشَّيءِ الواحد تلو الآخر.

توقَّف بيل...

7

في الأنفاق/ الرابعة وتسع وخمسون دقيقة فجرًا.

... فجأة، فتكدَّس الآخرون خلفه كما يحدث لعربات القطار عندما تتوقَّف القاطرة فجأة. صاح بن: «ما الأمر؟».

- «لقد ا-ا-التقيناها هنا. العـ-عـ-عين. أتذكرون؟».

قال ريتشي: «أجل أذكُر. لقد أوقفها إدي ببخَّاخه مُتظاهرًا أنه يحوي حامضًا، وقال شيئًا ما عن ذراعه المكسورة. كان شيئًا مُضحكًا جدًّا، لكنني لا أتذكَّره تمامًا».

قال بيل: «لـ-لـ-لا يـ-يـ-يهم. لن نـ-نـ-نرى أ-أ-أيَّ شيءٍ رأيناه مـ-من قـ-قبل»، ثم أشعل عود ثقابٍ ونظر إلى الآخرين. كانت وجوههم نورانية في وهج الثقاب.. نورانية وغامضة. بدوا يافعين جدًّا. «كـ-كـ-كيف حالكم يـ-يـ-يا ر-رفاق؟».

قال إدي: «بخير يا بيل الكبير»، لكن وجهه كان مخطوفًا من الألم. كانت الجبيرة التي صنعها على عُجالة كيفما اتفق تتفكَّك.

- «ماذا عنك».

قال بيل: «بـ-بخير»، ثم أطفأ عود الثقاب قبل أن يخبرهم وجهه بحقيقة مختلفة.

سألته بيفرلي وهي تلمسه في الظلام: «كيف حدث الأمر؟ بيل، كيف جاءت زوجتك...؟».

- «لأنني ذ-ذ-ذكرت لها ا-اسم البلدة. لـ-لـ-لقد جاءت فـ-فـ-

في إ-إثري، وأ-أ-أنا أخبرها، ر-ر-راح شيءٌ د-د-داخلي يخبرني أن أ-أخرس، لكنني لـ-لـ-لم أستمع له»، ثم هزَّ رأسه عاجزًا في الظلام «لـ-لـ-لكن حتَّى لو أنها أ-أ-أتت إلى د-ديري، فلا أفهم كـ-كـ-كيف وصلت إلى هـ-هنا. إذا لـ-لم يحضرها ه-ه-هنري، فمن فـ-فـ-فعلها؟».

قال بن: «الشَّيء يا بيل. نحن نعرف أنه ليس مُجبرًا بالضرورة على اتِّخاذ هيئة قبيحة. رُبَّما ظهر لها وأخبرها أنك في مأزق، وأخذها لـ... ليشل تفكيرك على ما أظنُّ. ليكسر شوكتنا، لأن طالما كانت هذه حقيقتك يا بيل الكبير. أنت شوكتنا».

قالت بيڤرلي بصوتٍ خفيض مُتسائل تقريبًا: «توم؟».

أشعل بيل ثقابًا آخر: «مـ-مـ-من؟».

كانت تنظر إليه بنوعٍ من الصدق البائس، وقالت: «توم. زوجي. هو أيضًا يعرف. لقد ذكرت اسمَ البلدة له بالطريقة نفسها التي ذكرته بها لأودرا. لا... لا أعرف إن كان هو من اختطفها أم لا. لكنه كان غاضبًا تمامًا مني وقتها».

قال ريتشي: «يا للمسيح، ما هذا المسلسل الرخيص الذي تجتمع فيه كل الشخصيات في النهاية؟».

قال بيل بصوتٍ سقيم: «ليس مُسلسلًا رخيصًا. بل استعراض كاستعراضات السيرك. لقد تزوَّجت بيڤ هنري باروز آخر، وعندما غادرته، أتى خلفها إلى هنا.. كما أتى هنري الحقيقي».

قالت بيڤرلي: «لا. لم أتزوَّج هنري آخر.. بل تزوَّجت والدي».

قال إدي: «إذا كان زوجك يضربك، فما الفرق إن كان والدك أم هنري؟».

قال بيل: «ا-ا-التفوا حولي. تـ-تـ-تحرَّكوا».

فعلوا كما قال. مدَّ بيل يديه إلى كلا الجانبين وأمسك بيد إدي السليمة وبيد ريتشي، وسرعان ما كانوا يقفون في دائرة كما فعلوا من قبل عندما كان عددهم أكبر. شعر إدي بأحدهم يضع ذراعًا على كتفه. كان الشعور دافئًا ومُطمئنًا ومألوفًا بعُمق.

استشعر بيل فيضًا من القوَّة يتذكُّره من الماضي، لكنه أدرك ببعض اليأس والأسف أن الأمور تغيَّرت بالفعل. لم تكن القوَّة تقترب في شيءٍ من بأسها السابق، بل راحت تتذبذب وترتعش كضوء شمعة يتقاذفه هواءٌ فاسد. بدت

الظُلمات أثقل وأقرب وأشدُّ وقعًا، وأكثر هيمنةً، واستطاع بيل اشتمام رائحة الشَّيءِ وهو يُفكِّر: في مكانٍ ما ليس ببعيد في نهاية ذلك الممرِّ، يوجد الباب ذو العلامة. ما الذي كان خلف الباب؟ إنه الأمر الوحيد الذي لا يزال لا يذكره. أتذكَّر أنني يبَّست أصابعي، لأنها كانت تريد الارتعاش، وأنني دفعت الباب. أتذكَّر حتَّى فيض الضوء الذي خرج منه وكيف بدا أنه حيٌّ تقريبًا، كأنه ليس ضوءًا بل ثعابين مُشعَّة. أتذكَّر الرَّائحة.. الرَّائحة الأسوأ من رائحة بيت القردة في حديقة الحيوان. ثم بعدها... لا شيء.

– «هـ–هـ–هل يتذكَّر أ–أ–أحدكم مـ–مـ–ماهية الشَّيءِ الحقيقية؟».

قال إدي: «لا».

همَّ ريتشي بقول: «أظنُّ... »، ثم شعر بيل به يهزُّ رأسه في الظلام قبل أن يردف: «لا».

قالت بيڤرلي: «لا».

– «هه.. هذا الأمر الوحيد الذي لم أتذكَّره بعد. ماهية الشَّيءِ... أو كيف حاربناه». كان هذا بن.

قالت بيڤرلي: «تشود. هكذا حاربناه. لكنني لا أتذكَّر ما يعنيه ذلك».

قال بيل: «قـ–قـ–قفوا بـ–بجانبي يا رفاق، وسـ–سـ–سأقف بجانبكم».

قال بن بصوتٍ هادئٍ جدًّا: «بيل، شيءٌ ما قادم».

أنصت بيل، وسمع خطوات أقدامٍ بطيئة مُتثاقلة تقترب منهم في الظلام... وشعر بخوفٍ.

نادى بيل: «أودرا؟»... لكنه كان يعلم مُسبقًا أن القادم ليس هي.

أيًّا كان من يقترب منهم، فهو يقترب.

أشعل بيل ثقابًا آخر.

8

ديري | الخامسة صباحًا

قبل شروق الشمس الفعلي بدقيقتين، وقع أوَّل حدثٍ غريب في ذلك

اليوم من أواخر ربيع عام 1985.. ولإدراك مدى غرابة ما وقع يجب على المرء معرفة حقيقتين كان مايك هانلون (الذي كان فاقد الوعي في المُستشفى مع طلوع الشمس) يعرفهما.. وكلاهما تتعلَّق بكنيسة نعمة المعمدان التي تقف عند ناصية التقاء شارع ويتشام بشارع جاكسون منذ عام 1897. تعلو الكنيسة قُبَّة مُستدقَّة بيضاء تيمُّنًا بأبراج كل الكنائس البروتستانتية الأخرى في نيوإنجلاند. كانت هناك ساعة مُنصَّبة على كل وجهٍ من وجوه البُرج الأربعة. الساعات صُنعت وشُحِنت من سويسرا في عام 1898. كانت الكنيسة الوحيدة الأخرى الشبيهة بهذه تتوسَّط ميدان قرية هاڤن، على بُعد أربعين ميلًا.

لقد تبرَّع ستيڤن بوي -وهو أحد بارونات الأخشاب ممَّن كانوا يعيشون في غرب بروداوي- بالساعات إلى المدينة وقد وصلت تكلفتها إلى 17 ألف دولار. كان بوي قادرًا على الدفع. لقد كان شمَّاسًا وَرِعًا طوال أربعين عامًا (وفي خلال سنوات عمره الأخيرة، كان أيضًا رئيس رابطة الحشمة البيضاء في ديري). بالإضافة إلى ذلك، كان بوي معروفًا بعظاته في عيد الأم، الذي كان دائمًا ما يُحب تسميته -بورع- بإحدى الأُمَّهات.

منذ أن نُصِّبت وإلى يوم 31 مايو عام 1985، لم تنفك هذه الساعة عن الدَّقِ بدأب كل ساعة وكل نصف ساعة... باستثناءٍ وحيدٍ بارز. لم تدق الساعات مُعلنة منتصف الظهيرة يوم انفجار مصنع حديد كيتشنر. كان المواطنون يظنون أن الأب الموقَّر چولين أسكت الساعة لإظهار أن الكنيسة في حالة حداد على الأطفال القتلى، ولم ينف چولين هذا الأمر رغم أنه لم يكن حقيقيًّا. الساعة ببساطة لم تدق.

كما أنها لم تدق مُعلنة الساعة الخامسة فجرًا صباح يوم 31 مايو 1985.

في تلك اللحظة، في كل بقعة في ديري، فتح المُسِنُّون والعجائز عيونهم واعتدلوا جالسين، بعدما أقلقهم أمرٌ لم يستطيعوا فهمه جيِّدًا. تناولوا أقراص الدواء، وارتدوا أطقم أسنانهم، وأشعلوا غلايينهم وسجائرهم.

ثم وقف جميعهم يراقبون.

كان أحدهم هو نوربرت كين، الذي كان في التسعينيات من عمره الآن. اتجَّه مُتعثِّرًا إلى النافذة وراح ينظر إلى السماء المُظلمة. لقد تنبأت أنباء

الطقس في الليلة السابقة بأن السماء ستكون صافية، لكن غريزته أخبرته أنها ستُمطر.. وبقوَّة. شعر بخوفٍ عميقٍ داخله، وبطريقةٍ ما غريبة شعر بأنه مُهدَّدٌ، كأن سُمًّا زُعافًا يعمل طريقه بلا هوادة صوب قلبه. تذكَّر نوربرت بعقلٍ مُشوَّش اليوم الذي أتت فيه عصابة برادلي إلى البلدة بلا احتياط، وكيف دخل أفرادها إلى مرمى خمسة وسبعين مُسدَّسًا وبندقية. هذه الواقعة التي تركتهم جميعًا يشعرون بنوعٍ من الدِّفء والخمول كانت مثل كل شيءٍ آخر في هذه البلدة... مُقرَّرة مُسبقًا بشكلٍ ما. لم يستطِع نوربرت تفسير الأمر بكلماتٍ أفضل من تلك، حتَّى لنفسه. مثل هذا العمل يترك المرء وهو يشعر أنه سيعيش إلى الأبد، ونوربرت كين كاد أن يبلغ هذا بالفعل. ها هو ذا سيتم السادسة والتسعين في الرابع والعشرين من يوليو وما زال يسير ثلاثة أميال كل يوم. لكنه الآن يشعر بالخوف.

غمغم نوربرت كين وهو ينظر عبر النافذة غير واعٍ أنه تكلَّم: «أولئك الأطفال.. ما خطب أولئك الأطفال اللعينين؟ بِمَ يعبثون هذه المرَّة؟».

في اللحظة نفسها، استيقظ إجبرت ثوروجود -الذي كان في التاسعة والتسعين، والذي حضر واقعة الدولار الفِضِّي التي أعمل فيها كلود هيروكس فأسه عازفًا به «نشيد الموت» على أوصال أربعة رجال- واعتدل جالسًا، وأطلق صرخة صَدِئَة لم يسمعها أحد. لقد حلم بكلود، لكن هذه المرَّة كان كلود يطارده، وقد نزل الفأس عليه، ورأى ثوروجورد يده المقطوعة تنتفض وتتلوَّى على سطح المشرب.

شيءٌ كريه سيحدث، هكذا فكَّر ثوروجود بعقلٍ ضبابيٍ غائم وهو مذعور ويرتجف من قمَّة رأسه إلى أخمص قدميه في منامته الملوَّثة بالبول. ثمَّة شيءٌ مُريع.

فتح ديف جاردنر -الذي اكتشف جُثَّة چورچ دِنبروه المُشوَّهة في أكتوبر عام 1957، والذي اكتشف ابنه الضحية الأولى في الدورة الجديدة التي بدأت باكرًا هذا الربيع- عينيه في تمام الخامسة، وفكَّر: ساعة كنيسة النعمة لم تدق... ماذا حدث؟ قبل حتَّى أن ينظر إلى الساعة الموضوعة على المكتب، وشعر بخوفٍ كبير يستعصي على الفهم. كانت أحوال ديف قد ازدهرت مع

مرور السنين.. ففي عام 1965 اشترى متجر شوبوت، والآن هناك فرع آخر للمتجر في مركز ديري التجاري، وفرع ثالث في بانجور. فجأة بدت كل هذه الأشياء -الأشياء التي أفنى حياته يعمل من أجلها- في خطرٍ مُحدق. من ماذا؟ هكذا صرخ في نفسه وهو ينظر إلى زوجته النائمة. من ماذا؟ لماذا أنت قلق لهذه الدرجة لأن تلك الساعة اللعينة لم تدق؟ لكنه لم يتلقَّ ردًّا.

نهض الرَّجُل وسار إلى النافذة وهو يربط رباط خصر منامته عليه. كانت السماء مُلبَّدةً بالغيوم الآتية من الغرب لتجثم على المدينة، وضاعف مرآها من انزعاج ديڤ. للمرَّة الأولى منذ وقت طويل جدًّا وجد ديڤ نفسه يُفكِّر في الصرخات التي سمعها وأحضرته إلى هذه النافذة منذ سبعة وعشرين عامًا، ليشاهد الجسد الذي يتلوَّى في معطف المطر الأصفر. نظر ديڤ إلى الغيوم المُقتربة وفكَّر: نحن في خطر. جميعنا في خطر. ديري برمَّتها.

وقف رئيس الشُرطة أندرو رادميكر -الذي كان يؤمن بالفعل أنه بذل قصارى جهده لحل سلسلة جرائم الأطفال الجديدة التي تقض مضجع ديري- في شُرفة منزله الأرضية، داسًّا إبهاميه في حزام سراويله، ينظر إلى أعلى نحو السُحُب مُستشعرًا الانقباض ذاته. شيءٌ ما يتأهب للحدوث. يبدو أن السماء ستمطر مدرارًا، لكن ليس هذا كل ما في الأمر. هزَّ رادميكر كتفيه في عدم فهم.. وفيما كان يقف في شُرفته، جاءته رائحة لحم الخنزير المُقدَّد الذي تطهوه زوجته، وبدأت قطرات المطر الكبيرة الأولى تسقط على الرصيف أمام منزله الجميل الكائن في شارع رينولدز.. ومن مكانٍ ما من الأُفُق في اتِّجاه حديقة باسي، دوى صوت الرَّعد.

اقشعرَّ رادميكر ثانيةً.

9

چورچ | الخامسة ودقيقة فجرًا

رفع بيل عود الثقاب... وفلتت منه صرخة طويلة مُرتجفة يائسة.

كان چورچ هو من يتقدَّم نحوهم مُتردِّدًا. چورچ الذي ما زال يرتدي

معطف المطر الأصفر المُلطَّخ بالدماء، والذي يتدلَّى كُمَّه بعرج وغير جدوى.
كان وجه چورچ أبيض بلون الجبن، وعيناه اللامعتان كالفِضَّة مُثبَّتتان على عيني بيل.

ارتفع صوت چورچي المُرتعش في جنبات النفق: «لا أستطيع العثور على قاربي يا بيل، لقد بحثت في كل مكان ولا أستطيع العثور عليه. هذه غلطتك يا بيل، غلطتك...».

صرخ بيل بصوتٍ مبحوح: «چـ–چورچي!»، وشعر بعقله يتزعزع ويفر هاربًا من عقاله.

تقدَّم چورچ نحوه مُتخبِّطًا مترنِّحًا، وذراعه الوحيدة مرفوعة تجاه بيل، واليد التي تبرز منها معقوفة كالمخالب. كانت أظافره قذرة وبشعة.

همس چورچ مبتسمًا: «غلطتك». كانت أسنانه أنيابًا، وراحت تُفتَح وتُغلَق ببطء، كسنون مصيدة دببة. «أنت من أرسلني.. كل ما حدث لي غلطتك».

صرخ بيل: «لـ–لـ–لا يا چـ–چورچي. لم أ–أ–أكن أعلم أ–أن...».

صرخ چورچ: «سأقتلك»، ثم خرج خليط أصواتٍ كلبية من ذلك الفم: نباح، وعويل، وعواء.. واجتمعت كلها في ضحكة من نوع ما. استطاع بيل اشتمام رائحته الآن.. رائحة چورچ العفنة. كانت تُشبه رائحة الأقبية الغامضة.. رائحة وحشٍ ما لا ملامح له يقف مُسترخيًا في الركن بعينيه الصفراوين، ينتظر أن يشقَّ أمعاء صبيٍ ما.

راحت أسنان چورچ تُطحن معًا بصوتٍ شبيه بصوت تصادم كرات البلياردو، وبدأ قيحٌ أصفر ينز من عينيه ويتقاطر على وجهه... وفي هذه اللحظة انطفأ عود الثقاب.

شعر بيل أن أصدقاءه اختفوا. بالتأكيد سيركضون ويتركونه وحيدًا. سيهجرونه كما هجره والداه، لأن چورچ على حق: الأمر كله غلطته. قريبًا سيشعر بتلك اليد الواحدة تقبض حنجرته، قريبًا سيشعر بتلك الأنياب تُمزِّق حلقه، وسيكون ذلك عدلًا. لقد أرسل چورچ إلى حتفه، وقضى بعضها حياته كلها يكتب عن شناعة هذه الخيانة. أجل، لقد ألبسها أقنعةً عديدة، تقريبًا بعدد الأقنعة التي وضعها الشَّيء من أجلهم، لكن الوحش الحقيقي أسفل كل تلك

الأقنعة كان چورچ فحسب. چورچ الذي خرج إلى الفيضان المُنحسر بقاربٍ ورقي مُغطًّى بالشمع. لقد أتت لحظة التكفير.

همس چورچ: «أنت تستحقُّ الموت على قتلك إيَّاي». كان قريبًا جدًّا الآن، فأغلق بيل عينيه.

وعندما فتحهما، أضاء نورٌ أصفر النفق. كان ريتشي يحمل ثقابًا في يده ويصيح: «قاومه يا بيل! بالله عليك! قاومه يا بيل!».

نظر بيل إليهم في حيرة: ماذا تفعلون هنا؟ إنهم لم يفروا بعد كل شيء. كيف ذلك؟ كيف لم يهجرونه ذلك بعدما رأوا كيف قتل أخاه الصغير بشكلٍ قذر؟

كانت بيڤرلي تصرخ: «قاومه يا بيل. قاوم يا بيل! أنت الوحيد من تستطيع مقاومة هذا التجسُّد. أرجوك...».

كان چورچ يبعد خمسة أقدام في هذه اللحظة، وفجأة أخرج لسانه في اتِّجاه بيل. كانت تنمو عليه فطريات بيضاء شنيعة. صرخ بيل ثانيةً.

صاح إدي: «اقتله يا بيل! هذا ليس أخاك! اقتله وهو صغير! اقتله الآن!».

رمق چورچ إدي، وأدار إليه عينيه الفِضِّيتين اللامعتين سريعًا، فطاح إدي إلى الخلف وضرب الجدار كما لو أنه دُفِع، وقف بيل مفتونًا يراقب شقيقه يقترب منه، چورچ الذي عاد بعد كل هذه السنوات.. چورچ في النهاية الأمور كما كان في بدايتها، أوه أجل. ها هو يسمع حفيف معطف چورچ الأصفر مع اقترابه، ها هو يسمع صليل الأبازيم على فردتي حذائه، ها هو يشتم رائحة أوراق الأشجار الرطبة، كأن جسد چورچ الكائن تحت المعطف الأصفر مصنوعٌ منها. إنه رجُل أوراق الشجر.. تلك حقيقة چورچ.. إنه وجهٌ مُنتفخٌ عفنٌ، وجسدٌ مصنوع من أوراق شجر بالية من التي تتجمَّع في المصارف والمجاري وتسدُّها بعد الفيضان.

من بعيد، سمع بيل صراخ بيڤرلي.

(شاف الشَّبح)

- «بيل، أرجوك يا بيل».

(فشُدِه وشحب)

قال چورچ: «سنبحث عن قاربي معًا». مزيدٌ من القيح الأصفر –بديل للدموع– يسيل على وجنتيه. انقض چورچ على بيل ورأسه يميل إلى جانبه، وأسنانه تتقشَّر كاشفة عن تلك الأنياب.

(شاف الشَّبح شاف الشَّبح شاف الشَّبح)

قال چورچ: «سنعثر على القارب»، واستطاع بيل اشتمام أنفاسه التي تفوح برائحة الحيوانات المُنتفخة مُتفجِّرة البطون المُمدَّدة على الطُرُق السريعة في جوف الليل، وعندما انفتح فم چورچ على اتِّساعه، استطاع بيل رؤية أشياء تتلوَّى هناك بالداخل. «إنه ما زال هنا.. وكل شيء هنا يطفو، ونحن أيضًا سنطفو يا بيل، جميعنا سيطفو».

أطبقت يد چورچ سمكية الملمس على عُنُق بيل.

(شاف الشَّبح شافوا الشَّبح، شافوا شُفنا شُفت الشَّبح...)

سرى وجه چورچ الملتوي إلى عُنُق بيل.

– «... نطفو...».

صرخ بيل: «شاف الشَّبح فشُدِه وشحب». كان صوته أعمق، وبالكاد ينتمي إليه، وتذكَّر ريتشي في ومضة ذاكرة ساطعة أن بيل يتلعثم فقط وهو يتحدَّث بصوته، أما لو تظاهر بأنه شخصٌ آخر، فهو لا يتلعثم على الإطلاق.

ارتدَّ الكائن الذي يتَّخذ هيئة چورچ وفحَّ، وارتفعت يده إلى وجهه اتِّقاءً.

صرخ ريتشي هاذيًا: «أحسنت يا بيل! أحسنت قولها! تلك هي العبارة! عليك به! عليك به! عليك به!».

هدر بيل: «شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشدِه فشطر الخشب»، وتقدَّم من الشَّيءِ الذي ينتحل هيئة چورچ وهو يهتف: «أنت لست شبحًا! چورچ يعرف أنني لم أقصد موته! والداي مُخطئان! لقد لاماني ضمنيًا على الأمر وهذا خطأ شنيع منهما! هل تسمعني؟».

استدار الشَّيء الذي ينتحل هيئة چورچ فجأة وهو يئن كفأرٍ، وبدأ ينتفض ويتموَّج أسفل المعطف الأصفر. بدا المعطف نفسه كأنه يذوب ويسيل كالدهن بلُطخٍ صفراء كبيرة لامعة. كان الشَّيء يفقد هيئته، ويستحيل إلى كتلة بلا ملامح.

صرخ بيل دِنبروه: «شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، يا ابن العاهرة، وشكَّ في رُشْدِه فشطر الخشب»، وانقضَّ على الشَّيءِ وغمس أصابعه في معطف المطر الأصفر الذي لم يعد معطف مطرٍ أصفر. ما أمسك به بيل كان أشبه بحلوى راحت تراوغ وتسيل من بين أصابعه ما إن قبضها بيده. خرَّ بيل على رُكبتيه، ثم أطلق ريتشي صرخة عندما أحرق الثقاب المتراقص أصابعه، وغرقوا في الظلام من جديد.

شعر بيل بشيءٍ ينمو في صدره، شيءٍ ساخن وخانق ومؤلم كلدغٍ ناري. سحب بيل رُكبتيه وضمَّها عاليًا إلى ذقنه آملًا أن يتوقَّف الألم أو يخفت. كان مُمتنًّا للظلام، وسَرَّهُ أن الآخرين لا يشاهدون عذابه.

سمع أَنَّة خافتة تفلت منه، ثم ثانية، وثالثة.. ثم بكى بعدها قائلًا: «أنا آسف يا چورچ! لم أقصد أبدًا أن يصيبك أ-أ-أيٌّ مـ-مـ-مكروه!».

رُبَّما كان ثمَّة كلامٍ آخر أفضل لقوله، لكنه لم يقدر على أن يقوله. كان يبكي مُمدَّدًا على ظهره مُغطِّيًا عينيه بذراعٍ واحدة.. مُتذكِّرًا القارب، متذكِّرًا إيقاع المطر الرتيب على نوافذ غرفة نومه، مُتذكِّرًا الدواء والمناديل الورقية على الكومود، وصداع الحُمَّى في رأسه وألمها في جسده، مُتذكِّرًا چورچ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.. مُتذكِّرًا چورچ.. چورچ في معطفه الأصفر.

صرخ من بين دموعه قائلًا: «أنا آسف يا چورچ. أنا آسف، أرجوك، أنا آ-آ-آسف...».

هنا كان الآخرون قد التفُّوا حوله.. أصدقاؤه.. ولم يشعل أحدهم ثقابًا. أمسكه أحدهم، لم يعرف بيل من. قد تكون بيڤرلي، وقد يكون بن، وقد يكون ريتشي. كانوا معه، وفي تلك اللحظة القصيرة كان الظلام رفيقًا به.

10
ديري / الخامسة والنصف صباحًا

بحلول الخامسة والنصف، كانت السماء تُمطر مدرارًا. أبدى متنبِّئو الطقس فى محطات بانجور الإذاعية دهشة طفيفة، وقدَّموا اعتذاراتٍ عابرة

لجميع الأشخاص الذين خطَّطوا رحلاتهم اعتمادًا على توقُّعات الأمس. حظٌّ سيِّئ يا رفاق، إنها واحدة من أنماط الطقس الغريبة التي تنشأ في وادي بينوبسكوت من دون سابق إنذار.

على محطَّة WZON، شرح چيم ويت خبير الأرصاد الجوِّية ما وصفه بالنظام مُنخفض الضغط «استثنائي الانضباط». كانت هذه طريقته لتلطيف الأمر. تفاوتت الأوضاع ما بين غيوم في بانجور، إلى مطرٍ غزيرٍ في هامبدن، إلى رطوبة في هاڤن، إلى مطرٍ مُعتدلٍ في نيوبورت. لكن في ديري، على بُعد ثلاثين ميلًا من وسط مدينة بانجور، راح السيل ينهمر. كان المسافرون على الطريق 7 يقودون سيَّاراتهم في ماءٍ بعمق ثمان بوصات في بعض الأماكن.. وخلف مزارع رولين، فاض بربخٌ مسدود بمائه مُغطِّيًا الطريق السريع ببُحيرة لا يُمكن اجتيازها. بحلول السادسة صباح ذلك اليوم، صارى لافتات الطريق تحدُّ جانبي مُنخفضٍ مائي لا شارع.

أولئك الذين انتظروا أسفل السقيفة في الشارع الرئيس قدوم الحافلة لنقلهم إلى أعمالهم، راحوا ينظرون من فوق السور إلى القناة، حيث كان منسوب الماء يرتفع بشكلٍ ينذر بِشَرٍّ وهو محصور بين الجدارين الخرسانيين. لن يحدث فيضان بلا ريب، اتَّفق جميعهم على هذا، فخطُّ الماء لا يزال أسفل علامة المنسوب المُرتفع الذي حدث عام 1977 بأربعة أقدام.. وفي ذلك العام لم يحدث فيضانٌ. لكن المطر واصل هطوله بثباتٍ عنيد، واستمرَّ دوي الرعد عاليًا بين الغيوم المُنخفِضَة. ركض الماء في جداولٍ كثيرة أسفل تلَّة أب-مايل، واندفع هادرًا إلى مصارف الأمطار وبالوعات المجاري.

اتفق الجميع أن لا فيضان آتٍ، لكن كانت هناك مسحة من القلق الكئيب على كل وجهٍ.

في الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، انفجر مُحوِّل طاقة بوميضٍ أرجواني على عمود قريب من موقف شاحنات الأخوين تراكر، مُبعثرًا قطع المعدن المُلتوية على السقف المكسو بالخشب. نفذت إحدى قطع الحديد عبر أسلاك التوتُّر العالي وقطعت أحدها، الذي سقط على السقف بدوره وراح يفح ويتلوَّى كثعبانٍ مُطلقًا تيَّارًا سائلًا من الشرر. نشبت النار في السقف برغم

المطر الغزير، وسرعان ما اشتعل المستودع. تداعى سلك الطاقة ساقطًا من فوق السقف إلى الزقاق الضيق الذي تنمو فيه الحشائش الذي يلتف حول المبنى ويقود إلى الساحة التي كان الأطفال يلعبون فيها مُباريات البيسبول يومًا. تحرَّكت سيَّارات الإطفاء التابعة لوحدة إطفاء ديري في السادسة ودقيقتين للمرَّة الأولى في هذا اليوم، ووصلت في السادسة وتسع دقائق. كان أحد رجال الإطفاء في الشاحنة هو كالڤين كلارك، وهو أحد الشقيقين كلارك اللذان كان بن وبيڤرلي وريتشي وبيل يرتادون المدرسة معهما. مع ثالث خطوة خطاها كالڤين بعيدًا عن سيَّارة الإطفاء، هبط حذاؤه الجلدي على السلك الحيِّ، وصُعق كالڤين في الحال تقريبًا. قفز لسانه خارجًا من فمه، وراح الدُخان الكثيف يتصاعد من معطف الإطفاء الذي يرتديه. كانت رائحته تشبه رائحة الإطارات المحروقة في مكبِّ نفايات البلدة.

في السادسة وخمس دقائق، شعر سُكَّان شارع ميريت في اللسان القديم بشيءٍ أشبه بانفجارٍ تحت الأرض. سقطت الأطباق من رفوفها، والصور من حوائطها. في السادسة وست دقائق، انفجرت جميع المراحيض في جميع منازل شارع ميريت فجأة بخليطٍ ساخن من البراز والصرف الصحي نتيجة ارتدادٍ ما حدث في أنابيب تغذية صهاريج محطة معالجة النفايات الجديدة في البرِّية. في بعض الحالات، كان الانفجار قويًّا كي يفتح ثقوبًا في أسقف الحمَّامات. قُتِلَت امرأة تُدعى آن ستوارت عندما اندفعت عجلة مُسنَّنة من مرحاضها مع اندفاع تيَّار الصرف الصحي. طارت العجلة المُسنَّنة مُحطِّمة زجاج كابينة الاستحمام واخترقت حلقها وهي تغسل شعرها. كادت رأس المرأة أن تنفصل عن جسدها. هذه العجلة المُسنَّنة كانت من بقايا أطلال مصنع حديد كيتشنر، وقد وجدت طريقها إلى المجاري منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع قرنٍ مضى. قُتلت امرأة أخرى عندما تسبَّب ارتداد الصرف الصحي العنيف المُفاجئ -مدفوعًا بتمدُّد غاز الميثان- في انفجار مرحاضها كقنبلة. مُزِّقت المرأة عاثرة الحظ إلى أشلاء وهي تقضي حاجتها وتقرأ كتالوج ملابس بنانا ريبابلك الأخير.

في السادسة وتسعة عشر دقيقة، ضربت صاعقة برقٍ جسر القُبُلات الذي

يعبر القناة بين حديقة باسي ومدرسة ديري الثانوية. طارت الشظايا وارتفعت في الهواء قبل أن تُمطِر القناة الهائجة وتُحمل بعيدًا.

اشتدَّت سُرعة الرياح، وفي السادسة والنصف، سجَّل مقياس الرياح في بهو مبنى المحكمة سُرعتها بأكثر من خمسة عشر ميلًا في الساعة، ثم ارتفعت إلى أربعة وعشرين ميلًا في الساعة.

في السادسة وست وأربعين دقيقة، استيقظ مايك هانلون في غرفته في مُستشفى ديري العام. كانت عودته للوعي تُشبه ذوبان جليد بطيء، ولفترة طويلة كان يعتقد أنه يحلم. إذا كان الأمر كذلك، فذلك حُلمٌ من نوعٍ غريب، حُلم قلق كما كان دكتور أبلسون -طبيبه النفسي القديم- سيقول. لم يكن يبدو ثمَّة أيُّ داعٍ واضح للقلق، لكنه كان حاضرًا رغم ذلك. بدت تلك الغُرفة البيضاء الخالية التي وجد نفسه فيها كأنها تصرخ بالتهديد.

بالتدريج، أدرك أنه استيقظ. هذه الغُرفة البيضاء ما هي إلا غُرفة مُستشفى. توجد زجاجات مُعلَّقة فوق رأسه، إحداها مليئة بسائلٍ شفَّاف، والأخرى بسائلٍ أحمرٍ داكن. هذه دماء بشرية. رأى التلفاز المُغلق المُعلَّق في الجدار المُقابل، ثم بدأ يعي صوت المطر الثابت الذي يضرب النافذة.

حاول مايك تحريك قدميه. تحرَّكت إحداها بُحرِّية، لكن الأخرى أبت مطاوعته على الإطلاق. كان شعوره بهذه الساق خافتًا جدًّا، وأدرك أنَّها مُضمَّدة بإحكام.

شيئًا فشيئًا راح يتذكَّر. كان جالسًا يكتب في مُفكِّرته عندما ظهر هنري باورز.. ذكرى حيَّة.. شبحٌ من الماضي، هذه المرَّة بحرفية الكلمات.. ونشب عراكٌ بينهما، و..

هنري! أين ذهب هنري؟ خلف الآخرين؟

مدَّ مايك يده إلى جرس الاستدعاء المُعلَّق فوق رأس الفراش، واستطاع الإمساك في اللحظة التي فُتح الباب فيها وظهر منه مُمرِّض. كان هناك زِرَّان محلولان من ردائه الأبيض، وكان شعره الداكن منفوشًا، ما أعطاه مظهر بن كاسي الأشعث. كان يرتدي قلادة القديس كريستوفر حول عُنُقه.. وحتَّى في حالته المائعة نصف المُستيقظة تلك، تعرَّفه مايك على الفور. في عام 1958،

قُتِلَت فتاةِ اسمها سيريل لامونيكا في ديري.. الشَّيء قتلها. كان للفتاة شقيقٌ أكبر عمره أربعة عشر عامًا وقتها، ويدعى مارك. هذا هو مارك.

قال مايك: «مارك؟ يجب أن أتحدَّث إليك».

قال مارك: «ششش». كانت يده مدسوسة في جيبه. «لا تتكلَّم».

عبر المُمرِّض الغُرفة، وعندما وقف عند طرف فراشه، لاحظ مايك برجفة عاجزة يائسة أن عيني مارك لامونيكا زائغتان. كان رأسه مائلًا قليلًا، كأنه يستمع إلى أنغامٍ بعيدة. أخرج مارك يده من جيبه، وكانت تحمل محقنًا.

قال مارك: «سيجعلك هذا تنام»، ثم بدأ يتقدَّم نحوه.

11

تحت المدينة/ السادسة وتسع وأربعون دقيقة صباحًا

صاح بيل فجأة: «شششش!»، رغم أنه لم يكن يوجد صوت سوى وقع خطواته الخافتة.

أشعل ريتشي عود ثقاب. كانت جدران النفق قد ابتعدت، وبدا خمستهم ضِئالًا جدًّا في هذا الفراغ الشاسع تحت المدينة. اقترب بعضهم من بعض وشعرت بيفرلي بدوار ديجا-ڤو حالم مُدوِّخ وهي تنظر إلى الحجارة التي ترصف الأرض وشباك العنكبوت المُعلَّقة. لقد صاروا أقرب الآن.. أقرب جدًّا.

سألت بيل: «ماذا تسمع؟». كانت تحاول النظر حولها في جميع الاتِّجاهات بينما ثقاب ريتشي يذبل، مُتوقِّعة ظهورًا مُفاجئًا جديدًا يخرج مُترنِّحًا أو مُحلِّقًا من جوف الظلمات. روادن رُبَّما هذه المرَّة؟ أو الوحش الفضائي من فيلم سيجورني ويفر الشنيع؟ أو فأرٌ عملاق مُزقزق بعينين بُرتقاليتين وأسنانٍ فِضِّية؟ لكنها لم ترَ شيئًا... فقط رائحة الظلام المُغبَّرة.. ومن بعيد جدًّا، سمعت هدير الماء الراكض كما لو أن المصارف تُملأ.

قال بيل: «أ-أ-أمرٌ سيِّئ يـ-يـ-يحدث»، ثم أضاف: «مايك...».

قاطعه إدي مُتسائلًا: «مايك؟ ماذا عن مايك؟».

قال بن: «لقد استشعرته بدوري. هل... هل مات يا بيل؟».
قال بيل: «لا». كانت عيناه ضبابيتين وبعيدتين ولا مشاعر فيهما، والتوتُّر بائنًا في نبرة صوته ووضعية جسده الدفاعية. بلع بيل ريقه وقال: «إنه... إنه...».
صدرت تكَّة من حلقه، ثم اتَّسعت عيناه: «أوه، لا... لا...».
صاحت بيڤرلي قلقة: «بيل؟ ما الأمر يا بيل؟ ماذا...».
صرخ بيل: «شـ-شـ-شبِّكوا أ-أ-أيديكم! بـ-بـ-بسرعة!».
ألقى بيل الثقاب وأمسك بإحدى يدي بيل وأمسكت بيڤرلي بالأخرى، ثم مدَّت كفها الخالي فضمَّه إدي بوهنٍ بيد ذراعه المكسورة، وأمسك بن بيده الأخرى، ثم أتمَّ الدائرة بإمساك يد ريتشي.
صرخ بيل بذلك الصوت الغريب العميق ذاته: «أرسِلي إليه قوَّتنا! أرسِلي إليه قوَّتنا أيًّا ما كُنتِ، أرسِلي إليه قوَّتنا الآن! في التوِّ! حالًا!».
شعرت بيڤرلي أن شيئًا يخرج منهم ويذهب إلى مايك. رفعت رأسها من فوق كتفيها في نشوة، وامتزج صوت أنفاس إدي المُتقطِّعة مع هدير الماء المُندفع عبر المصارف.

12

- «الآن». هكذا قال مارك لامونيكا في صوتٍ خفيض، ثم تنهَّد ذلك التنهُّد الذي يتنهَّده رجُلٌ يقترب من قذف منيه.
ضغط مايك زرَّ الاستدعاء مرارًا وتكرارًا. كان يسمع رنينه في استراحة المُمرِّضين في نهاية الرواق، لكن أحدًا لم يأتِ.. وبنوعٍ ما من البصيرة الجُهنَّمية أدرك مايك أن المُمرِّضين يجلسون هناك، يقرأون جرائد اليوم، ويحتسون القهوة، ويسمعون رنين جرس الاستدعاء لكن دون أن يسمعوه بالفعل. يسمعونه لكن لا يستجيبون. سيستيجبون لاحقًا عندما ينتهي كل شيء.. هكذا تجري الأمور في ديري. في ديري، ثمَّة أشياء من الأفضل ألا تُرى أو تُسمع... إلى أن تنتهي.
ترك مايك زرَّ الاستدعاء يسقط من يده.

انحنى مارك نحوه وطرف المحقن يلتمع في يده. راحت قلادة القديس كريستوفر التي يرتديها تتأرجح أمامًا وخلفًا بشكلٍ مُنوِّم وهو يسحب الشراشف نحوه.

همس مارك: «هنا بالضبط. في عظم القفص الصدري»، ثم تنهَّد ثانيةً.

شعر مايك فجأة بقوةٍ تجتاحه. قوَّة بدائية ما اندلعت في جسده كالكهرباء. تصلَّب جسده، وتفلطحت أصابعه مُبتعدة كأنها في خالة تشنُّج، واتَّسعت عيناه. خرجت زمجرة غليظة من حلقه، وطُرِدَ ذلك الشعور المروِّع بالشلل من جسده كأنما بفعل صفعة هائلة على الوجه.

طارت يده إلى الكومود المجاور للفراش. كان فوقه جرَّة بلاستيكية وكوب ماءٍ كبير جوارها. انقبضت يده على كوب الماء. استشعر لامونيكا هذا التغيير، فتغيَّر الضوء الحالم المسرور في نظرته إلى ارتباكٍ حذر. تراجع لامونيكا إلى الوراء قليلًا، وهنا كان مايك قد دفع الكوب وحطَّمه في وجهه.

صرخ لامونكا وتراجع مُترنِّحًا مُتخبِّطًا وأسقط المحقن. رفع يديه إلى وجهه المُتفجِّر، وانبثقت الدماء سائلة على معصميه ولطَّخت رداءه الأبيض.

غادرت القوَّة فجأة كما جاءت فجأة. نظر مايك بإعياء إلى شظايا الزجاج المُتكسِّر على الفراش وإلى منامة المُستشفى التي يرتديها وإلى يديه الداميتين. ثم سمع أصوات نعالٍ قماشية رقيقة تعدو قاطعة الرواق.

فكَّر مايك: الآن يأتون، أوه أجل، وبعد رحيلهم، من سيظهر ؟ من سيزورني تاليًا؟

وعندما اندفع إلى غُرفته أولئك المُمرِّضين والمُمرِّضات الذين جلسوا هادئين في استراحتهم يستمعون إلى عويل الجرس المحموم، أغلق مايك عينيه وابتهل أن ينتهي كل ذلك. ابتهل من أجل أصدقاءه الذين يجوبون الأنفاق الرهيبة أسفل المدينة.. ابتهل أن يكونوا جميعًا بخير.. ابتهل أن ينهوا ما يجب أن يُنهى.

لم يكن يعلم إلى من يبتهل تحديدًا... لكنه ابتهل رغم ذلك.

13
تحت المدينة| السادسة وأربع وخمسون دقيقة

- «إ-إ-إنه بـ-بـ-بخير». هكذا قال بيل الآن.

لم يعلم بن كم لبثوا في الظلام مُتشابكي الأيدي. بدا له أنه استشعر شيئًا -شيئًا منهم.. من دائرتهم- يخرج ثم يعود، لكنه لم يعلم إلى أين ذهب هذا الشيء -هذا إن كان موجودًا من الأساس- أو ماذا فعل.

سأل ريتشي: «هل أنت مُتأكِّد يا بيل؟».

قال بيل وهو يطلق سراح يدي ريتشي وبيڤرلي: «أ-أ-أجل. لـ-لـ-لكن يـ-يـ-يجب أ-أن ننتهي مـ-مـ-من هذا فـ-في أسرع و-وقت.. هـ-هـ-هيَّا بنا».

واصلوا طريقهم، وراح بيل وريتشي يُشعلان أعواد الثقاب بالتناوب. فكَّر بن: ليس معنا سلاحٌ يُذكر، ولا حتَّى بندقية أطفال. لكن هذا جزء من الطقس، أليس كذلك؟ طقس تشود. تشود؟ ماذا يعني ذلك؟ ماذا كان هذا الطقس بالضبط؟ ما كان آخر تجسُّد للشَّيء؟ نحن لم نقتله آنذاك، لكننا آذيناه. كيف استطعنا فعل ذلك؟

راحت القاعة التي يهرولون عبرها -لم يعد يمكن تسميتها نفقًا- تكبر وتكبر. تردَّدت أصداء وقع أقدامهم في كل مكانٍ حولهم. تذكَّر بن رائحة حديقة الحيوان الكثيفة هذه، ثم تنبَّه إلى أنه لم يعد ثمَّة داع لأعواد الثقاب. يوجد ضوءٌ الآن، ضوءٌ من نوع ما: سطوعٌ شبحي ينمو بشكل مُطَّرد ويزداد قوَّة. في ذلك الضوء السبخ، بدا أصدقاؤه جُثثًا سائرة.

قال إدي: «هناك جدار أمامنا يا بيل».

- «أ-أ-أعرف».

شعر بن بدقَّات قلبه تتسارع. شعر بمذاقٍ حامض في فمه، وبدأ رأسه يؤلمه. شعر بأنه بطيء ومذعور. شعر بأنه بدين.

همست بيڤرلي: «الباب».

أجل، ها هو ذا. فيما مضى، منذ سبعة وعشرين عامًا، استطاعوا عبور ذلك الباب بانحناءة طفيفة من رؤوسهم. الآن سيضطرون إلى العبور مُقرفِصين، أو زاحفين على أيديهم ورُكبهم. لقد كبروا، وها هو البرهان الآخير على ذلك ماثلًا أمامهم، إذا كانوا في حاجةٍ إلى بُرهانٍ أخير.

شعر بن بمواضع النبض في مرفقيه وعُنُقِه ساخنة ومحمومة. لقد وصل قلبه إلى مرحلة من الرفرفة تقترب من الارتجاف الأُذيني. فكَّر بن مُشوَّشًا: قلب حمامة، ثم لعق شفتيه.

يوجد ضوءٌ أخضر يميل إلى الاصفرار يفيض من أسفل الباب وينطلق كرُمحٍ مُلتوٍ من ثقب المفتاح المُزخرف، وقد بدا سميكًا جدًّا لدرجة أنه قد يخترق ويقطع.

كانت العلامة لا تزال على الباب، ومن جديد رأى كلٌّ منهم شيئًا مُختلفًا في تلك الكتابة الغريبة. رأت بيڤرلي وجه توم، وشاهد بيل رأس أودرا المقطوع وعينيها المُتحجرتين اللتين تُحدِّقان فيه باتِّهامٍ مُريع. شاف إدي رمز السُّم: الجمجمة المُبتسمة التي تعلو عظمتين مُتقاطعتين. شاهد ريتشي وجه بول بونيان المُلتحي الفظَّ، وقد ضاقت عيناه القاتلتان في دهاء الفلَّاحين. أما بن فرأى هنري باورز.

سأله بن: «بيل، هل نحن أقوياء بما فيه الكفاية؟ هل نستطيع فعل ذلك؟».

قال بيل: «لا أ-أ-أعرف؟».

قالت بيڤرلي بصوتٍ ضعيف: «ماذا لو كان مُغلقًا؟». كان وجه توم يستهزئ بها.

قال بيل: «لــ-لـ-ليس مُـ-مُغلقًا. مـ-مـ-مثل هذه الأ-أماكن لا تكون مُـ-مُغلقة أ-أ-أبدًا».

وضع بيل أصابع يده اليُمنى المُلطَّخة بخليط من قذارة على الباب -وقد اضطر أن ينحني ليفعلها- ودفعه. تأرجح الباب مفتوحًا على فيض من ضوءٍ أصفر يميل إلى الاخضرار. هبَّت رائحة الحظائر وحدائق الحيوان على وجوههم.. كانت قويَّة جدًّا، ومُركَّزة تمامًا الآن.

كاميرا.. أكشن.. هكذا فكَّر بيل بشكلٍ عشوائي، ونظر إليهم، ثم ركع

على يديه وركبتيه. تبعته بيڤرلي، ثم ريتشي، ثم إدي، وجاء بن آخرًا ببدنٍ مُقشعر من ملمس الخشونة العتيقة على الأرضية. عبر بن البوابة، وفي أثناء ما كان يعتدل واقفًا في هذا الوهج الناري الغريب الذي يزحف على الجدران الحجرية كثعابين من ضوء، هبطت عليه الذكرى الأخيرة كهجمة كبشٍ ناطح.

صرخ بن مُتراجعًا إلى الوراء وهو يرفع إحدى يديه إلى رأسه، وكانت الفكرة الأولى غير المُتَّسقة التي ضربت عقله هي: لا عجب أن ستان انتحر! يا إلهي، يا ليتني فعلت! ورأى تعبير الرُعب المشدوه ذاته والإدراك نفسه على وجوه الآخرين عندما انفتح قفل الذاكرة الأخير بالمفتاح الأخير.

راحت بيڤرلي تنتفض والتصقت ببيل، في اللحظة الذي أسرع فيها الشَّيء هابطًا من ستارة مُخاطٍ شيطاني هي شبكته، في هيئة عنكبوتٍ كابوسية خارج حدود الزمان والمكان.. عنكبوتٍ تفوق كل الخيالات المريضة للمعذَّبين في أعمق أعماق وهاد الجحيم.

لا، هكذا فكَّر بيل ببرود: إنه ليس عنكبوتًا.. ليس بالضبط.. هذا التجسُّد الأخير ليس قناعًا اختاره الشَّيء من داخل عقولنا لمُحاربتنا به، بل هو أقرب شكلٍ تستطيع عقولنا نسجه لـ...

(الضياء العتيق)

... ماهية الشَّيء الحقيقية.

كان الشَّيء بارتفاع خمسة عشر قدمًا تقريبًا، أسود كليلةٍ محاق لا قمر فيها، وكل بيضة من بيضاته في حجم فخذ لاعب كمال أجسام. كانت عيناه ياقوتيتين شريرتين مُنتفختين في محجريهما، ويقطر منهما سائلٌ ما له لون الكروم. راح فكَّه السفلي الخشن يُفتح ويُغلق، يُفتح ويُغلق، وينزُّ شرائط من الرغوة.

مُتجمِّدًا في نشوة رعب، مُتأرجحًا على حافَّة الجنون الكُلي، شاهد بن بعينٍ مُستقرَّة أشبه بمركز عاصفة هادئ أن الرغوة حيَّة.. فقد كانت تضرب الأرض الحجرية النتنة ثم تبدأ في السعي بعيدًا إلى الشقوق ككائناتٍ أوَّلية.

لكن هذا ليس الشَّيءَ. ثمَّة شكلٍ آخر نهائي. شكل بالكاد أُدرِكه كما تُدرِك أحيانًا ظلَّ رجُلٍ يتحرَّك خلف شاشة سينما في أثناء عرض الفيلم. ثمَّة شكلٍ آخر أخير، لكنني لا أريد رؤيته، أرجوك يا الله، لا تجعلني أراه...

لم يكن هذا يهم الآن. إنهم يشاهدون ما يشاهدونه، وقد أدرك بن أن الشَّيءَ سجين هذا الشكل النهائي، شكل العنكبوت، بسبب بصيرتهم المُشتركة مجهولة المنشأ. عن طريق مواجهة هذه النُسخة من الشَّيءِ، سينجون أو سيموتون.

كان المخلوق ينق ويئز ويزقزق، وشعر إدي فجأة بيقينٍ أنه يسمع الأصوات التي يصدرها الشَّيء مرَّتين: مرَّة في رأسه، ثم بعدها بجزء من الثانية في أُذُنيه. فكَّر بن: خصيصة تليباثية. أنا أقرأ أفكاره. كان ظلُّ الشَّيءِ شبيهًا ببيضة كبيرة جاثمة تجري على الجدران العتيقة في هذا المُعتكف الذي هو عرين الشَّيءِ. كان جسده مُغطًّى بشعرٍ خشن مُقصَّف، ورأى بن أنه يمتلك إبرة ناخزة طويلة بما يكفي لخوزقة رجُلٍ بالغ، وثمَّة سائلٌ شفَّاف يقطر منها، ثم أدرك بن أن ذلك السائل حيٌّ نشط بدوره، لأنه راح يسعى متلوِّيًا -مثل اللعاب- ويختفي في شقوق الأرضية. أسفل هذه الشوكة العملاقة، ينتفخ بطن الشَّيءِ بشكلٍ بشع، وقد كان الشَّيء يجرُّه على الأرض تقريبًا وهو يتحرَّك الآن مُغيِّرًا اتِّجاهه، قاصدًا زعيمهم، قاصدًا بيل الكبير.

هذا كيس بيض، هكذا فكَّر بن، وبدا له أن عقله صرخ من الفهم. أيًّا ما كانت هيئة الشَّيءِ التي تختفي وراء ما نراه، فهذه الصورة صحيحة بالمدلول الرمزي على الأقل: الشَّيء أنثى، وهي حبلى. لقد كانت حبلى حينذاك ولم يعلم أحدٌ منا سوى ستان. يا ليسوع المسيح، أجل، ستان من عرف. ستان، لا مايك. ستان من فهم، وهو الذي أخبرنا.. لهذا السَّبب كان علينا أن نعود، مهما كان الأمر، لأن الشَّيء أُنثى حبلى بذُرِّيَّة مُخيفة لا يتصوَّرها عقلٌ بشري... وقد اقترب ميعاد مخاضها.

بشكلٍ مُدهش، خطا بيل دِنبروه إلى الأمام لمواجهة الشَّيءِ.

صرخت بيفرلي: «بيل، لا!».

صرخ بيل دون أن ينظر حوله: «لا تـ-تـ-تقتربوا»، وفي هذه اللحظة ركض ريتشي نحوه، صارخًا باسمه، ووجد بن أن ساقيه تتحرَّكان بلا إرادة منه. شعر بن أن أمامه بطنًا كبيرًا شبحيًا يترجرج، ورحَّب بذلك الإحساس مُفكِّرًا بعقلٍ مُشوَّش: يجب أن أعود طفلًا من جديد، إنها الطريقة الوحيدة لمنع الشَّيءَ

من أن يقودني إلى الجنون المُطلق. يجب أن أعود طفلًا من جديد. يجب أن أتقبَّل هذا الجنون بطريقةٍ أو بأخرى.

ركض بن بدوره، صارخًا باسم بيل، مُدركًا بالكاد أن إدي يجري إلى جواره، وذراعه المكسورة تتخبَّط بعدما انفكَّ حزام الروب الذي شدَّها به بيل وراح يتجرجر على الأرض. استلَّ إدي بخَّاخه، كان يبدو كمُغامرٍ مجنون يُعاني من سوء تغذيةٍ ويحمل مُسدَّسًا غريب الشَّكل.

سمع بن بيل يصيح: «لقد قـ- قـ- قتلتِ أخي، أ- أ- أيَّتُها العاهرة اللعينة!».

هنا رَبَتْ الكينونة فوق بيل، مُقبِرة إيَّاه تحت ظلَّها، وراحت أرجلها تضرب الهواء. سمع بن زقزقتها المُتحمِّسة، ونظر إلى عينيها الحمراوين الشريرتين السرمديتين، وللحظة خاطفة رأى رأي العين الشكل الواقع خلف هذا التجسُّد: رأى الضياء. رأى شيئًا مُشعرًا زاحفًا أزليًّا مصنوعًا من ضوءٍ.. ضوء صافٍ.. ضوءٍ برتقالي.. ضياء عتيق ميِّت يُحاكي الحياة.

لقد بدأ الطَّقسُ للمرَّة الثانية.

الفصل الثاني والعشرون

طقس تشود

1
في عرين الشَّيء | 1958

كان بيل من أبقى على صفِّهم مُوحَّدًا عندما نزلت تلك العنكبوت السوداء الهائلة مُسرعة من شبكتها، مُثيرة زوبعة من نسيمٍ مؤذٍ شعَّث شعورهم. صرخ ستان كطفلٍ وجحظت عيناه البُنِّيتان من محجريهما، وراحت أصابعه تنهش في وجنتيه. تراجع بن إلى الوراء ببطء حتَّى اصطدمت عجيزته العامرة بالحائط إلى يسار الباب، وشعر بنيرانٍ باردة تحرق سراويله فخطا مُبتعدًا من جديد. كان ذاهلًا. بالتأكيد كل هذا لا يحدث حقًّا. هذا ببساطة أسوأ كابوس في العالم، وجد بن أنه غير قادرٍ على رفع يديه، كأن سلاسلٍ ثقيلة مربوطة بها.

تسمَّرت عينا ريتشي على تلك الشَّبكة العنكبوتية المتدلِّية من هنا وهناك. كان هناك أجسام مُتحلِّلة نصف مأكولة ملفوفة في خيوطٍ حريرية تتحرَّك كأنها حيَّة. ظنَّ ريتشي أنه ميَّز جسد إيدي كوركوران قُرب السقف، رغم أن ساقيّ الصبي وإحدى يديه كانت مقطوعة.

التصق كلٌ من بيڤرلي ومايك بالآخر، كهانزل وجريتل في الغابة، وراقبا في حالة شللٍ كامل وصول العنكبوتِ إلى الأرض واحتكاكها بها في أثناء اقتربها منهم، بينما ظلُّها المشوَّه يتسارع على الحائط من جوارها.

نظر بيل إليهم.. الصبي الطويل النحيل الذي يرتدي سراويل چينز وفردتي حزاء كيدسٍ معجونين بالوحل وقميصًا كان أبيض لكن الطين وسخام المجاري لطَّخاه. كان شعره مُنسدلًا على جبهته، وعيناه ترميان بشررٍ. تتطلَّع

إلى وجوههم، ثم صرف النظر عنها وعاد ينظر إلى العنكبوت، وبشكلٍ مُدهش، بدأ يعبر الغُرفة الواسعة قاصدًا الشَّيءِ. لم يكن يركض أو يهرول، بل يجدُّ فحسب في سيره، بمرفقين متأهِّبين وساعدين مشدودين ويدين مضموتين في قبضتين صارمتين.

- «لـ-لـ-لقد قتلتِ أ-أ-أخي!».

صرخت بيفرلي: «لا يا بيل!»، وجاهدت للتحرُّر من عناق مايك، ثم ركضت إلى بيل وشعرها الأحمر يتطاير خلفها، وصرخت في العنكبوت: «اتركيه وشأنه! إيَّاكِ أن تلمسيه!».

اللعنة يا بيفرلي، هكذا فكَّر بن ثم بدأ يركض بدوره، وبطنه يترجرج أمامه وساقاه تناضلان. كان يدرك بالكاد أن إدي يجري جواره، مُستلًّا بخَّاخه كمُسدَّس في يده السليمة.

هنا رَبَتْ الكينونة فوق بيل الأعزل، وأقبرته تحت ظلِّها، وراحت أرجلها تضرب الهواء. مدَّ بن ذراعه إلى كتف بيفرلي ولمسه، ثم انزلقت يده من عليه. استدارت بيفرلي إليه بعينين مُشتغلتين وشفتين مشدودتين إلى الخلف، وصرخت فيه: «ساعده!».

صرخ بن فيها بدوره: «كيف؟»، ثم استدار تجاه العنكبوت، وسمع زقزقتها المُتحمِّسة، ونظر إلى عينيها الأزليتين الشريرتين، ورأى شيئًا وراء تلك الهيئة.. شيئًا أسوأ كثيرًا من العنكبوت.. شيئًا بأكمله مصنوعًا من ضوء جنوني. خانته شجاعته... لكنها بيف التي سألته لا شخصًا آخر.. بيف التي يحبها.

صرخ بن بأعلى صوته: «اللعنة عليك، اترك بيل وشأنه!».

بعدها بلحظة، ضربته يدُ أحدهم على ظهره بعُنف وكاد أن يسقط. كان هذا ريتشي، الذي كان يضحك بجنون رغم الدموع التي تجري على وجنتيه. كان رُكنا فمه يصلان إلى شحمتي أُذُنيه تقريبًا، وتطاير اللُعاب من فمه وهو يصرخ: «لنجهز عليها يا كومة القش! تشودا تشودا!».

عليها؟ هكذا فكَّر بيل ببلاهة: هل قال عليها؟

بصوتٍ عالٍ صاح: «حسنًا، لكن ما تشود؟».

صرخ ريتشي: «فلتحلُّ اللعنة عليّ إن كنت أعرف»، ثم ركض إلى بيل وغاص أسفل ظلِّ الشَّيءِ.

كانت العنكبوت جالسة على أرجُلها الخلفية بينما أرجلها الأمامية تضرب الهواء بقوَّة فوق رأس بيل. رأى ستان يوريس -المُجبر على الاقتراب، المُضطرُّ إلى الاقتراب رغمًا عن كل غريزة صارخة في عقله وجسده- أن بيل يُحدِّق في الشَّيءِ، وقد ثبَّت عينيه الزرقاوين على عيني الشَّيءِ البُرتقاليتين اللتين يتدفَّق منهما هذا الضياء المُتحلِّل. تجمَّد ستان مكانه، وقد أدرك أن طقس تشود -أيًّا ما كان كُنهه- قد بدأ.

2

بيل في العدم| سابقًا

- من أنتَ ولِمَ أتيت لي؟

أنا بيل دِنبروه. أنتِ تعلمين من أنا ولما أنا هنا. لقد قتلتِ أخي، وأنا هنا لقتلكِ. لقد انتقيتِ الصبي الخاطئ أيَّتُها الداعرة.

- أنا أبدية.. آكلة عوالم.

أحقًّا؟ حسنًا، لقد حظيتِ بوجبتك الأخير.

- ليس لديك سُلطان هنا. هنا سُلطاني، استَشعِر قوَّتي أيُّها الشقي، ثم تحدَّث بعدها عن كيف جئت لقتل من هي أبدية. هل تظن أنك تراني؟ أنت فقط ترى ما يسمح لك به عقلك. أتُريد رؤيتي؟ تعال إذًا! تعال أيُّها التعس! تعال.

أُلقِيَ بقوَّة..

(بيل)

لا لم يُلق، بل أُطلِقَ كرصاصة بشرية، كقذيفة مدفع بشرية في إحدى عروض سيرك شراين الذي يأتي إلى ديري في مايو من كل عام. لقد أُمسِكَ وطيح به عبر قاعة العنكبوت. صرخ بيل لنفسه: هذا يحدث في عقلي فقط.

إن جسدي ما زال يقف مكانه هناك، وجهًا لوجهٍ مع الشَّيء. كُن شجاعًا، إنها مُجرَّد حيلة عقلية، كُن شجاعًا، كن راسخًا.. قاوم.. قاوم..
(شاف)

طار أمامًا، مُصطدمًا بجدار النفقِ الأسود النازف المرصوف بملاطٍ مُتفتِّتٍ مُتحلِّلٍ رُبَّما يعود إلى خمسين عامًا، مئة، ألف، مليون بليون عامٍ، من يدري، مُسرِعًا إلى الصمت المُميت، مُتجاوِزًا تقاطُعاتٍ لا حصر لها، بعضها مُضاء بتلك النار الخضراء الصفراء، وبعضها ببالونات تشعُّ بضوءٍ شاحبٍ أبيض، وأخرى تامَّة السواد. لقد قُذِف بسُرعة ألف ميلٍ في الساعة، ومرَّ بأكوام عظام -بعضها بشري، وبعضها غير بشري- كسهم صاروخي.. في نفقٍ تهب الرياح عبره.. وها هو الآن يصعد إلى أعلى، لكن ليس نحو ضياء، وإنما نحو ديجور.. ديجور هائل...
(الشَّبح)

مدفوعًا نحو اسودادٍ تام. هنا، الاسوداد هو كل شيءٍ، الاسوداد هو الكون وحدوده، وقد كانت أرضية الاسودادِ صلبة، صلبة جدًّا، وتبدو كمطَّاطٍ مصقول، وراح هو ينزلق على صدره وبطنه وفخذيه كقرصٍ مُسطَّح على طاولة ملساء. كان ينزلق على أرضية مرقص الأبدية.. وكانت الأبدية سوداء.
(فشُدِه وشحب)

- كُف عن هذا، لِمَ تقول ذلك؟ لن يجديك هذا نفعًا أيُّها الصبي الأحمق الذي ما زال يشك في رشده ويصر أنه شاف شبحًا!

- كُف عن قول هذا!

شاف الشَّبح فشُدِه وشحب، وشكَّ في رُشده فشطر الخشب.

- توقَّف! كُف عن قول هذا! آمُرك بأن تُوقفَ هذا!

الأمر لا يعجبك، أليس كذلك؟

ثم فكَّر بيل: إذا استطعت فقط لفظها بصوتٍ مسموعٍ، دون أن أتلعثم، لرُبَّما استطعت كسر هذا الإيهام...

- هذا ليس إيهامًا أيُّها الصبي الصغير الساذج. هذه الأبدية.. أبديتي.. وأنت ضائعٌ فيها، ضائعٌ إلى الأبد، وأبدًا لن تجد طريق عودتك. أنت أبديٌّ

الآنِ، ومحكومٌ عليكِ بالهيم على وجهك في الظلمات، بعدما رأيتني وجهًا لوجه، هذا...

لكن يوجد حضورٌ آخر هنا. أحس بيل بذلك، استشعره، واستطاع -بطريقة ما غير معقولة- أن يشُمَّه: يوجد حضورٌ هائل أمامه في الظلام. هيئةٌ ما. لم يشعر بيل بالخوف من هذا الحضور، وإنما برهبة جامحة. هنا توجد قوَّة تُقزِّم قوَّة الشَّيءِ.. وقد كان أمام بيل مُتَّسع ضيِّق من الوقت ليُفكِّر بغير اتِّساق: أرجوك، أرجوك، أيًّا ما كنت، تذكَّر أنني صغيرٌ جدًّا...

اندفع بيل نحو ذلك الحضور المهيب، ورأى سُلحفاة جبَّارة تتَّقد صدفتها بألوانٍ كثيرة مُشتعلة. خرج رأس السُلحفاة الحرشفي التالِد من صدفتها، وشعر بيل فجأة بازدراءٍ غامضٍ كبير للشَّيءِ الذي ألقى به إلى هنا. كانت عينا السُلحفاة حنونتين. ظنَّ بيل أنها رُبَّما أقدم كائن يُمكن لأيٍّ شخصٍ تصوُّره.. أقدم كثيرًا من الشَّيءِ الذي يدَّعي أنه أزليّ.

ما أنتِ؟

– أنا السُلحفاة يا بُني. لقد خلقت الكون، لكن أرجوك لا تُلق اللوم عليّ لفعلتي هذه، كنت أعاني ألمًا في معدتي.

ساعديني! أرجوكِ ساعديني!

– أنا لا أنحاز إلى أيِّ جانب في تلك الأمور.

أخي...

– له مكانه الخاص في الكون الشامل. الطاقة لا تفنى. حتَّى طفل مثلك لا بُدَّ أنه يفهم ما...

كان بيل يُحلِّق الآن متجاوزًا السُلحفاة، لكن حتَّى مع سُرعته الهائلة، بدا أن صَدَفة السُلحفاة التي تمر من يمينه لا تنتهي. فكَّر بيل بعقلٍ مشوَّش في قطارٍ يعبر آخر من جواره في الاتِّجاه المُعاكس. قطار بالغ الطول لدرجة أنه يبدو ثابتًا أو حتَّى يتحرَّك إلى الوراء. كان ما زال يسمع الشَّيءَ يصخب ويئز بصوتٍ مُرتفع وغاضب وغير بشري ومليء بكراهية جنونية. لكن عندما تكلَّمت السُلحفاة، طُمِسَ صوت الشَّيءِ تمامًا. كانت السُلحفاة تتحدَّث في عقل بيل، وفهم بيل منها بطريقةٍ أو بأخرى أن هناك آخر مُغاير أيضًا، وهذا

الآخر الآخير يسكن عدمًا يقع خلف هذا العدم. ذلك الآخر الأخير رُبَّما هو خالق السُلحفاة، التي تُراقب فحسب، وخالق الشَّيءِ، الذي يأكل فحسب. هذا الآخر قوَّة خارج الكون، قوَّة تفوق كل قوَّةٍ أخرى. مُوجِد كل ما كان وكل ما سيكون.

فجأة أدرك بيل أنه فهم أخيرًا: لقد قصد الشَّيء أن يدفع به عبر جدارٍ ما عند حافَّة هذا الكون، ليصل به إلى مكانٍ آخر

(ما سمته تلك السُلحفاة العجوز الكون الشامل)

هو مُستقرَّه الحقيقي. المكان الذي يُوجد فيه الشَّيء بصفته جوهر جبَّارٍ مُحتدم، والذي قد لا يعدو كونه في الوقت نفسه أصغر ذرَّة غبار في عقل ذلك الآخر. سوف يرى الشَّيءَ عاريًا من كل قناع، سيرى الهيئة التي هي ضوء مُدمِّر مشوَّه.. وهناك إما سيُباد إبادةً رحيمة، أو سيحيا مجنونًا إلى الأبد لكن واعٍ داخل كيان الشَّيءِ الأزلي القاتل الجائع الذي لا شكل له.

أرجوكِ ساعديني! من أجل الآخرين...

- يجب أن تُساعد نفسك يا بنُي.

لكن كيف؟ أتوسَّل إليكِ. أخبريني! كيف؟ كيف؟

كان قد وصل حاليًا إلى قدمي السُلحفاة الخلفيتين الحُرشُفتين، وكان أمامه مُتَّسعًا من الوقت ليتأمَّل جسدها الجبَّار العتيق، ويتعجَّب من حجم أظافرها الطويلة الهائلة. كان الأظافر أصفر تشوبها زُرقة، واستطاع بيل رؤية مجرَّاتٍ كاملة تسبح في كل ظفرٍ منها.

أرجوكِ، أنت خيِّرة، أشعر وأؤمن أنكِ كذلك. أتوسَّل إليك. هلَّا ساعدتيني؟ أرجوكِ؟

- أنت تعرف الجواب مُسبقًا. لا ينفعك سوى تشود.. وأصدقائك.

أرجوكِ، أتوسَّل إليكِ.

- يا بنُي، يجب أن تشوف الشَّبح فتُشده وتشحب، وتشُكَّ في رُشدِكَ فتشطُ الخشب... هذا كل ما أستطيع قوله لك. ما إن تتورَّط في أمورٍ كونية خرائية كهذي، يجب أن تلقي بكُتيب التعليمات بعيدًا.

أدرك بيل أن عقيرة السُلحفاة تتلاشى. لقد صار خلفها الآن، مُنطلقًا

كالرصاصة إلى ديجور أظلم من الظلام نفسه. بدأت عقيرة السُلحفاة تُطمس وتُقهر بواسطة الصوت اللعوب الهاذر للكيان الذي ألقى به إلى هذا الفراغ الأسود.. صوت العنكبوت.. صوت الشَّيءِ.

– ما رأيك في المكان هنا أيُّها الرفيق الصغير؟ هل تستلطفه؟ هل تحبه؟ هل تشعر بأن له إيقاعًا جيِّدًا تستطيع الرقص عليه؟ هل تستشعره على لوزتيك وتلهث من خلاله؟ هل استمتعت بلقاء السُلحفاة صديقتي؟ أعتقد أن تلك العجوز اللعينة قد ماتت منذ سنوات مضت، لن تنفعك بشيءٍ حتَّى لو حاولت، هل ظننت أنها تستطيع مُساعدتك؟

لا لا لا لا، شـ–شـ–شـ–شاف الشـ–شبح... لا شـ–شـ–شـ...

– كفاك ثرثرة! الوقت ضيِّق. دعنا نتكلَّم والأمر ما زال في استطاعتنا. أخبِرني عن نفسك يا صديقي الصغير.. قل لي، هل تحب الظلام الخارجي العتيق هنا؟ هل تتمتَّع بجولتك الكبرى في العدم الكائن خارج الأشياء؟ انتظر حتَّى تنفذ عبره يا صديقي الصغير! انتظر حتَّى تنفذ إلى حيث أنا! انتظر ذلك! انتظر الضياء العتيق! لسوف تنظر إليه وتُجنُّ... لكنك ستعيش... ستعيش... ستعيش داخله... داخلي...

صرخ الشَّيء بضحكة فاحشة، وأدرك بيل أن صوته يتلاشى ويتضخَّم في الآن ذاته، كأنه يبتعد عن مُحيطه ويندفع إليه في ذات الوقت. أوليس ذلك ما يحدث بالفعل؟ أجل. إنه يعتقد ذلك. لأنه في حين أن الصوتين كانا في تزامنٍ تام، فذلك الذي يتسارع الآن نحوه غريب تمامًا ويتلفَّظ بمقاطع لا يستطيع لسانٌ أو حنجرة بشرية نُطقها. هذا هو صوت الضياء العتيق، هكذا فكَّر.

– الوقت ضيِّق، دعنا نتكلَّم والأمر ما زال في استطاعتنا.

كان صوت الشَّيءِ البشري يتلاشى حاليًا، بالطريقة التي تتلاشى بها إذاعة بانجور عندما تسافر بالسيَّارة جنوبًا. ملأ كيان بيل ذُعرٌ ساطعٌ مُتَّقد. سُرعان ما سيعبر حاجز التواصل العاقل مع الشَّيءِ.. وأدرك جزءٌ من عقله –بسبب ضحكات الشَّيءِ الماجنة، وبسبب مرحه الطروب الغريب– أن هذا ما يبغيه الشَّيء بالضبط. إنه لا يريد فقط إرساله لملاقاة ذاته الفعلية أيًّا ما كانت، وإنما يريد تحطيم صِلاته العقلية.. وإذا توقَّفت هذه الأخيرة، سيُدمَّر بالكامل. إن

تجاوز حاجز التواصل، سيكون ذاته تجاوز حاجز الخلاص. كان يعي ذلك من خبرته بالطريقة التي تصرَّف بها والداه مع بعد وفاة چورچ. هذا الدرس الوحيد الذي تعلَّمه من برودتهما الثلجية معه.

إنه يغادر الشَّيءَ، ويقترب من الشَّيءِ. لكن تبدو المُغادرة بشكلٍ ما أكثر أهمِّية. إذا كان الشَّيء يحب التهام الأطفال الصغار، أو امتصاصهم، أو أيًّا كان ما يفعله بهم، فلِمَ لم يرسلهم جميعًا إلى هنا؟ لماذا هو بالذات؟

لأن الشَّيءَ يُريد تخليص ذاته العنكبوتية منه. هذا هو السَّبب. بشكلٍ ما، ترتبط الذات العنكبوتية بالذات التي يدعوها الشَّيء بالضياء العتيق. أيًّا كانت الذات الموجودة هنا في هذا السواد، فهي تكون منيعة عندما يكون الشَّيء موجودًا هنا فقط، وليس في أيِّ مكانٍ آخر.

لكن الشَّيءَ موجودٌ على الأرض أيضًا.. أسفل ديري.. في هيئة جسدية. بغض النظر عن مدى قُبح وبُغض حقيقة الشَّيءِ الجوهرية، فجزءٍ منه مُتجسِّد في ديري... وما له جسد يُمكن قتله.

انزلق بيل عبر الظلام، وازدادت سُرعته. لماذا أشعر أن أغلب كلام الشَّيءِ هو محض خداع وتضليل؟ لماذا أشعر بذلك؟ كيف يُمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا؟

رُبَّما هو يفهم السبب... رُبَّما يفهمه، لكن السبب يراوغه.

لقد قالت السُلحفاة أن لن ينفعه سوى تشود. ماذا لو أن ذلك صحيحًا؟ ماذا لو عضَّ أحدهما بلسان الآخر، ليس فعليًّا بل ذهنيًّا، أم رُبَّما روحيًّا؟ ماذا لو استطاع الشَّيء إلقاء بيل مسافة كافية عبر الفراغ الشاسع، بعيدًا بما يكفي للوصول إلى ذات الشَّيءِ الأبدية الكائنة بذاتها؟ هل سينتهي الطقس؟ ماذا سيحدث؟ سيُمزِّقه الشَّيء إلى أشلاء.. ويقتله.. ويفوز بكل شيءٍ دُفعة واحدة.

- أنت تبلي بلاءً حسنًا يا بُني، لكن سُرعان ما سيفوت الأوان.

الشَّيء خائف! خائف مني! خائف منا جميعًا!

إنه ينزلق... ثمَّة جدار أمامي، إنه يستشعره، يستشعره في هذا الديجور، يستشعر الباب الموجود عند حافَّة الاستمرارية. خلف الباب، يوجد الشكل الآخر.. الضياء العتيق.

- لا تتحدَّث إليَّ يا بُني، ولا تتحدَّث إلى نفسك. سيُمزِّق هذا تماسكك. اعضض إن كنت تهتم، عُضَّ إن كنت تجرؤ.. إن استطعت أن تكون شُجاعًا.. إن كُنت تستطيع التحمُّل... عُضَّ يا ولدي!

وبالفعل عضَّ بيل، لكن ليس بأسنانه، إنما بأسنان عقله.

صرخ بيل رافعًا صوته إلى أعلى طبقة له، ساحبًا نفسًا هائلًا، مُغيِّرًا إيَّاه إلى صوتٍ آخر (جاعلًا إيَّاه -في حقيقة الأمر- صوت والده، رغم أنه سيذهب إلى قبره دون أن يعلم ذلك، فبعض الأسرار لا تُكتشف أبدًا، وكثيرًا ما يكون ذلك أفضل): «شافَ الشَّبح فُشده وشحب وشكَّ في رُشِده فشطر الخشب.. الآن أطلق سراحي!».

شعر بيل بالشَّيءِ يصرخُ داخل عقله صرخة غضبٍ مُستبدٍّ عارمٍ، لكنها كانت صرخة خوفٍ وألمٍ أيضًا. لم يكن الشَّيء يعتاد ألا تسير الأمور على طريقته، فمثل هذا لم يحدث معه من قبل قط، وحتَّى في لحظات وجوده الأخيرة، لم يشتبه الشَّيء أن أمرًا من هذا القبيل مُمكن.

شعر بيل بالشَّيءِ يتلوَّى ويتملَّص منه. لم يكن يجذبه بل يدفعه... يدفعه محاولًا إبعاده.

قلت شاف الشَّبح فشُده وشحب!

- توقَّف!

أعدني! أنا آمُرك! هذا مطلبي!

صرخ الشَّيء ثانيةً وقد صار الألم أكثر حِدَّة الآن. رُبَّما كان سبب ذلك أن الشَّيءَ قضى وجوده الطويل الطويل جدًّا يُلحِقُ الألم بالآخرين، ويتغذَّى عليه، لكنه لم يختبره من قبل كجُزءٍ من ذاته.

ومع ذلك حاول الشَّيء دفعه بعيدًا، والتخلُّص منه، مُصِرًّا بعنادٍ وعمى على الانتصار، كما اعتاد الانتصار دائمًا من قبل. دفعه الشَّيء... لكن بيل استشعر أن سُرعته ابطأت، وطافت صورة مُثيرة للاشمئزازِ في عقله: لسان الشَّيءِ المُشقَّق -المُغطى بذلك اللُعاب الحي- يمتد كشريطٍ مطَّاطيٍ سميكٍ دامٍ. رأى نفسه يعضُّ طرف ذلك اللسان بأسنانه، ويغرسها فيه أكثر مع مرور

الوقت، ووجهه يستحم في الإيكور[1] المُتشنِّج الذي هو دماء الشَّيءِ، ويغرق في نتانته الميِّتة.. لكنه يتشبَّث رغم ذلك، يتشبَّث بطريقةٍ ما، بينما يكافح الشَّيء وسط ألمه الذي يُعميه وغضبه الهائل، لكنه لم يسمح للسان الشَّيءِ بأن ينزلق رجوعًا...

(تشود.. هذا طقس تشود. كن شُجاعًا.. تحمَّل.. اصمد من أجل أخيك.. من أجل أصدقائك.. آمن.. آمن بكل الأشياء التي آمنت بها من قبْل.. ثق بأنك لو أخبرت رجُل شُرطة بأنك ضائع فإنه سيحرص على إعادتك إلى بيتك سالمًا، وأن في قلعة حصينة كبيرة من الميناء تعيش جنيِّة الأسنان، وأن سانتا كلوز يصنع الألعاب مع أقزامه في القطب الشمالي، وأن طيَّار مُنتصف الليل قد يكون حقيقيًّا، أجل، قد يكون كذلك، على الرغم من أقوال كالڤين وكيسي كلارك زميليك بأن كل تلك الأمور لعب عيال. صدِّق أن أمك وأباك سيُحبانك من جديد، أن الشجاعة مُحتملة وأن الكلمات ستخرج من فمك بسلاسة في كل مرَّة. صدِّق أنكم لم تعودوا خاسرين، وأن أيَّام اختبائكم في حُفرة في الأرض تنعتونها بالنادي قد ولَّت، وأن أيَّام بُكائك في غُرفة چورچي لأنك لم تستطِع إنقاذه ولَّت بدورها. صدِّق في نفسك، صدِّق في حرارة تلك الرغبة).

فجأة بدأ بيل يضحك في جوف الظلام، ليس بشكلٍ هِستيري، وإنما بدهشة مُطلقة مسرورة.

صاح بيل: «اللعنة، أنا أُصدِّق في كل تلك الأمور!»، وقد كان هذا صحيحًا: حتَّى وهو في سن الحادية عشرة، لاحظ بيل أن هذه الأمور تنجح في أغلب الأوقات إذا آمنت بها. توهَّج الضوء من حوله. رفع بيل ذراعيه عاليًا فوق رأسه، ثم أدار وجهه إلى أعلى، واستشعر فجأة قوَّة تسري في أوصاله.

سمع الشَّيء يصرخ مرَّة ثالثة، وفجأة بدأ يُسحب إلى الخلف عبر الطريق الذي جاء منه، وهو ما زال يتشبَّث بتلك الفكرة عن أسنانه المغروسة عميقًا

---

(1) في الميثولوجيا الإغريقية، الإيكور هو السائل الأنقى من الدماء الذي يجري في عروق الآلهة والخالدين.

في لحم لسان الشَّيءِ الغريب.. أسنانه المُصطكَّة معًا كموت عتيقٍ قاتم. حلَّق بيل خلال الظلام، وساقيه خلفه، وطرفي رباط حذائه المُلطَّخين بالطين يُرفرفان كالأعلام، بينما تهب رياح هذا المكان الخاوي في أُذُنيه.

عبر من جوار السُلحفاة، ورأى أن رأسها انسحب عائدًا إلى صدفتها، وأتته عقيرتها مُجوَّفة ومُحرَّفة، كأن الصدفة التي تعيش داخلها بئر عميقة لا نهاية لها.

– لا بأس أبدًا يا بُني، أحسنت. لكنني سأنهي الأمر الآن لو كنت مكانك. لا تدع الشَّيء يفلت. لدى الطاقة خصيصة التبدُّد كما تعرف. ما يُمكن القيام به وأنت في الحادية عشرة، لا يُمكن القيام به مرَّةً أخرى في أغلب الأحيان.

راحت عقيرة السُلحفاة تتلاشى وتتلاشى وتتلاشى. لم يعد يوجد الآن سوى الظلام المُسرِع، ثم جاءت بعده فوَّهة النفق السيكلوبي، ورائحة الزمن والتحلُّل، وراحت خيوط العنكبوت تضرب وجهه كخيوطٍ حريرة عفنة في منزلٍ مسكون. الحجارة المُلوَّثة تعبر سريعًا من تحته... التقاطعات... لقد صارت جميعًا مُعتمة الآن، واختفت جميع البالونات، وكان الشَّيء يصرخ.. يصرخ:

– دعني أذهب دعني أذهب.. سأرحل ولن أعود مُطلقًا، دعني أذهب الأمر يُؤلم، يؤلم يؤلـــــــــــــــــــــــم...

– «شاف الشَّبح»، هكذا صرخ بيل وهو في حالة هذيانٍ تقريبًا الآن. كان يستطيع رؤية ضوءٍ مُتلاشٍ ويتذبذب كشموع عظيمة احترقت حتى ذبالتها.. وللحظة شاهد نفسه والآخرين يقفون مُتشابكي الأيدي في صفٍّ، إدي إلى أحد جانبيه، وريتشي إلى الجانب الآخر. رأى جسده مُرتخيًا، ورأسه مُلقى إلى الخلف مُحدِّقًا في العنكبوت التي كانت تتلوَّى وتتمايل كالدراويش، وأرجلها الخشنة ذات النتوءات تضرب الأرض بقوَّة، والسُّم يقطر من إبرتها.

كانت تصرخ في سكرات موتها المُعذِّبة.

هكذا آمن بيل بصدق.

ثم ارتدَّت ذاته بُعنفٍ إلى جسده، بقوَّة كُرة بيسبول ضُربت بمضربٍ عظيم البأس، وقد انتزعت قوَّة الارتداد يده من يدي ريتشي وإدي، وركَّعته على رُكبتيه لينزلق عبر الأرضية إلى حافَّة الشبكة.

مدَّ بيل يديه إلى أحد الخيوط من دون تفكير، فتخدَّر كفَّه على الفور كأنه حُقن بمحقنٍ مليء بالنوفوكين. كان الخيط نفسه في سُمك سلك تليفون.

صرخ بن: «لا تلمس هذا يا بيل!»، فانتزع بيل يده بعيدًا في انتفاضة سريعة، ما تسبب في ترك خطٍّ غائر من اللحم على راحة يده أسفل أصابعه. امتلأ كفَّه بالدماء وهو ينهض مُترنِّحًا على قدميه، وعيناه على العنكبوت.

كانت تهرب منهم، وتشقُّ طريقها زحفًا وهي تحتكُّ بالأرض قاصدة العتمة المُتزايدة في نهاية القاعة مع خفوت الضوء. خلَّفت العنكبوت وراءها بركًا من دماءٍ سوداء. لقد نجحت مواجهتهما بطريقةٍ ما في تمزيق أحشائها الداخلية في عشرات -ورُبَّما مئات- المواضع.

صرخ مايك: «بيل، الشباك! احذر!».

تراجع بيل خلفًا مُشرئِبًّا بعُنُقه إلى أعلى، ورأى أن خيوط شباك الكيان العنكبوتي تطفو هابطة، وتضرب الأرضية الحجرية إلى جانبيه كثعابين بيضاء كثيرة اللحم. على الفور بدأت الخيوط تفقد شكلها وتسري عبر الشقوق في حجارة الأرضية. كانت الشبكة تتداعى مقوَّضة من مراسيها العديدة. اندفع أحد الأجساد نصف المأكولة -ملفوفًا بالخيوط كذُبابة- إلى أسفل وضرب الأرض بصوتٍ فاسدٍ مُقزِّز صاخب.

صاح بيل: «العنكبوت! أين العنكبوت!».

كان لا يزال يسمع الشَّيءَ في رأس يعوي وينتحب من ألمه، وأدرك بشكلٍ ما أن الشَّيءَ ارتكن إلى النفق نفسه الذي ألقى بيل إليه... لكن هل ذهب الشَّيء إلى هناك كي يفر هاربًا إلى المكان الذي كان ينتوي إرسال بيل إليه... أم فقط للاختباء حتَّى يرحلوا؟ أم للموت؟ أم للهروب؟

صاح ريتشي: «يا للمسيح، الأضواء! الأضواء تتلاشى! ماذا حدث يا بيل؟ إلى أين ذهبت؟ لقد ظننا أنك مُتَّ!». في جزءٍ مُشوَّش من عقله، كان بيل يعلم أن ذلك ليس صحيحًا: إذا ظنوا أنه مات بالفعل، كانوا سيركضون مُتفرِّقين، وكان الشَّيء سيقتنصهم واحدًا تلو الآخر بسهولة. رُبَّما سيكون من الأصدق لو قال ريتشي إنهم ظنوا\أنه ميِّت، لكن كانوا يؤمنون بأنه حيٌّ.

يجب أن نتأكد ما إذا كان الشَّيء يحتضر أم أنه عاد من حيث أتى، إلى

حيث توجد ذاته الباقية. لكن ماذا لو أن الشَّيءَ أُصيب فحسب؟ ماذا لو أنه تعافى؟ ماذا...

قطعت صرخة ستان حبل أفكاره كشظايا زُجاج، وفي الضوء المُتلاشي، رأى بيل أن أحد خيوط الشبكة قد سقط على كتف ستان، وقبل أن يصل بيل إليه، ألقى مايك بجسده على الصبي الأصغر في وثبةٍ استعراضية. دفع مايك ستان بعيدًا، فانقطع الخيط آخذًا معه قطعة من تيشرت ستان ذي الياقة.

صرخ بن فيهم: «تراجعوا! ابتعدوا بعيدًا عنها.. ستسقط بالكامل!». ثم اعتصر يد بيڤرلي وركض بها نحو الباب الصغير، في الوقت الذي كان فيه ستان يتعثَّر نهوضًا، وينظر حوله في حالة ذهول، قبل أن يمسك بإدي. اتَّجه الاثنان نحو بن وبيڤرلي يساعد أحدهما الآخر، وكانا أشبه بشبحين في ذلك الضوء المُتلاشي.

من فوق رؤوسهم، كانت شبكة العنكبوت تنحني وتُقوَّض مُنهارة على نفسها بعد أن فقدت تناسُقها القبيح المُخيف. دارت الجُثث المُعلَّقة في الهواء كشواقيل كابوسية، وسقطت الخيوط المُتقاطعة كسلالم غريبة معقَّدة متفسِّخة. ارتطمت الخيوط الغليظة بالأرض الحجرية، وفحَّت كالقطط، ثم فقدت هيئتها، وبدأت تسعى.

شقَّ مايك هانلون طريقه مراوغًا عبر الخيوط، مُنحنيًا ومتملِّصًا، ورأسه إلى أسفل، كما سيفعل لاحقًا وهو يشقُّ طريقه لاحقًا عبر خطوط دزينة من فرق كُرة القدم في المدرسة الثانوية. انضم ريتشي إليه وهو يضحك بغرابة رغم أن شعر رأسه انتصب كأشواك القنفذ. ازداد خفوت حِدَّة الضوء، وبدأت الفسفورية التي كانت تنضح من الجدران تحتضر الآن.

صاح مايك: «بيل! هيَّا! تحرَّك بحق الجحيم!».

صرخ بيل: «ماذا لو لم يمت الشَّيء؟ يجب أن نلاحقه يا مايك! يجب أن نتأكَّد».

تدلَّى تشابُكٌ كثيف من خيوط الشبكة كمظَلَّة، ثم سقط بضوضاء تمزيقٍ شنيعة كأن جلدًا يُسلخ من لحمه. التقط مايك ذراع بيل وجذبه مُتعثِّرًا بعيدًا عن الانهيار.

انضم إدي إليهم صارخًا: «لقد مات!». كانت عيناه مصباحين متوهِّجين، وأنفاسه كصفير رياح الشتاء الباردة. كانت بعض الخيوط الساقطة قد تركت نُدبًا مُعقَّدة مُحترقة على ضمَّادات جبيرته. «لقد سمعت صوته يحتضر. لا شيء يُصدر صوتًا كهذا إلا وهو يختنق بسكرة الموت، أنا مُتأكِّد من ذلك!».

امتدَّت يدا ريتشي في الظلام، وأمسكت بيل، وجذبته في عناقٍ خشن. ثم بدأ يضرب ظهره بحماسة: «لقد سمعته بدوري. كان يحتضر يا بيل الكبير! وأنت! أنت لا تتلعثم! كيف فعلتها؟ كيف بحق الجحيم...؟».

كان عقل بيل يعمل كالمحموم، والإرهاق يتخطَّفه بأيديه السميكة الخرقاء. إنه لا يتذكَّر أنه شعر بمثل هذا الإرهاق من قبل، لكنه مع ذلك استطاع أن يسمع عقيرة السُلحفاة المُنهكة تقريبًا في عقله: سأنهيه الآن لو كنت مكانك؛ لا تدع الشَّيء يفلت. ما يُمكن القيام به وأنت في الحادية عشرة، لا يُمكن القيام به مرَّةً أخرى في أغلب الأحيان.

- «لكن يجب أن نتأكَّد».

كانت أيدي ظلالهم متشابكة، وصار الظلام ديجورًا كاملًا الآن. لكن قبل أن يغيب آخر بصيص ضوء، ظن بيل أنه رأى الشكَّ الجحيمي نفسه على وجه بيفرلي وفي عيني ستان، ومع ذلك، مع اضمحلال آخر ضوء، استطاعوا أن يسمعوا همس الرطم المُقشعِر الراجف لشباك الشَّيءِ العنكبوتية وهي تسقط وتتبعثر إلى أشلاء.

3

بيل في العدم/ لاحقًا

- حسنٌ، ها أنت ذا ثانيةً، يا صديقي الصغير! ماذا أصاب شعرك؟ أنك أصلع ككُرة بينج بونج! هذا حزين! أيُّ حيواتٍ قصيرة بائسة يعيشها البشر! كل حياةٍ كُتيِّب صغير كتبه أحمق! أُفٌّ لكم ولكل هذا الـ...

ما زلت بيل دِنبروه. لقد قتلت أخي وقتلت ستان الإنسان، وحاولت قتل

مايك، وأنا هنا لأعلمك أمرًا: لن أتوقَّف هذه المرَّة إلى أن تنتهي مهمتي هنا.

- كانت السُلحفاة حمقاء، أحمق من أن تكذب. لقد أخبرتك بالحقيقة يا صديقي الصغير... الفرصة لا تأتي إلا مرَّة واحدة. لقد آلمتني، وفاجأتني. لن يحدث هذا ثانيةً. أنا من استدعيتك إلى هنا. أنا.

بالفعل استدعيتني، لكنك لم تكن الوحيد.

- صديقتك السُلحفاة ماتت منذ بضع سنوات. تلك الحمقاء العجوز تقيَّأت داخل صدفتها وماتت مُختنقة بمجرَّة أو مجرَّتين. حدثٌ مؤسف جدًّا، أليس كذلك؟ لكنه أيضًا غريب وعجيب، ويستحق مكانًا في باب صدِّق أو لا تُصدِّق، هذا ما أظنُّ. لقد ماتت في الوقت نفسه تقريبًا الذي جاءتك فيه سُدَّة الكُتَّاب. لا بُدَّ أنك شعرت برحيلها يا صديقي الصغير.

لا أُصدِّق ذلك أيضًا.

- أوه، لسوف تُصدِّق.. لسوف ترى رأي العين. هذه المرَّة أنوي أن أريك كل شيءٍ يا صديقي الصغير، بما في ذلك الضياء العتيق.

أحس بيل أن صوت الشَّيءِ يرتفع ويضج ويطن.. وفي النهاية استشعر مدى غضبته الهائلة، وشعر بالذُعر. حاول بيل التركيز بقوَّة وتخيُّل لسان عقل الشَّيءِ، وحاول يائسًا أن يستعيد المدى الكامل لاعتقاداته الصبيانية، وفي الوقت نفسه أدرك الحقيقة المروِّعة المُميتة لما قاله الشَّيءَ: في المرَّة السابقة لم يكن مُستعدًّا، أما هذه المرَّة فحتَّى لو لم يكن هو الوحيد الذي استدعاه، فإنه كان ينتظر بالتأكيد.

لكن مع ذلك...

شعر بيل بغضبته الخاصة، جليَّة وصادحة، عندما تركَّزت عيناه على عيني الشَّيءِ. استشعر ندوبه القديمة، استشعر أن الشَّيءَ قد تأذَّى حقًّا، وأنه ما زال مُتأذِّيًا.

وعندما رماه الشَّيءَ كالمرَّة السابقة، شعر بوعيه يخرج بعُنفٍ من جسده، فركَّز كل ذرَّة في كيانه كي يعض مُتشبِّثًا بلسان الشَّيءِ... لكن قبضته فلتت.

4

ريتشي

راح الأربعة الآخرون يراقبون ما يحدث في حالة من الشلل التَّام. كان الأمر إعادة بحذافيرها لما حدث سابقًا في المرَّة الأولى. فجأة، سكنت حركة العنكبوت التي بدت أنها تكاد تستولي على بيل وتلتهمه. سُمِّرت عينا بيل على عيني الشَّيءِ الياقوتية داكنة الاحمرار، وطغى شعورٌ في المكان بحدوث اتِّصال بينهما... اتِّصال يفوق قدرتهم على التكهُّن. لكنهم استشعروا الصراع الذي يجري.. صدام الإرادات.

رفع ريتشي نظره إلى أعلى وحدَّق في الشبكة الجديدة، ولاحظ أوَّل الاختلافات.

كانت الأجساد نصف المأكولة نصف المتعفِّنة موجودة، ولم يكن ذلك اختلافًا. لكن على مستوى أعلى، وفي أحد الأركان، يوجد جسدٌ آخر.. وقد كان ريتشي مُتيقِّنًا أن هذا الجسد ما زال طازجًا.. بل رُبَّما حيًّا. لم تنظر بيڤرلي إلى أعلى -فقد كانت عيناها مُثبَّتتين على بيل والعنكبوت- لكن حتَّى في خضم ذُعر ريتشي، لاحظ التشابه بين بيڤرلي وتلك المرأة أسيرة الشباك. كان شعرها أحمر وطويلًا، وعيناها مفتوحتان لكنهما زُجاجيتان وزائغتان، وثمَّة خيط من اللعاب يسيل من رُكنِ فمها الأيسر إلى ذقنها. كانت مُقيَّدة في إحدى الركائز بمُخاطٍ شيطاني مُتصلِّب يلف خصرها وأسفل ذراعيها، وقد تدلَّت أمامًا في نصف انحناءة، وذراعيها وساقيها مُعلَّقة جميعًا مرتخية.. وكانت قدماها حافيتين.

شاهد ريتشي جسدًا آخر عند سفح قطاعها من الشبكة.. رُجلًا لم يره من قبل.. ورغم ذلك عقد عقله مقارنة لا واعية تقريبًا بين الرَّجُل والراحل هنري باورز غير المأسوف عليه. كانت الدماء قد سالت من عيني الغريب، وتكتَّلت كالرغوة حول فمه وعلى ذقنه. إنه...

وهنا صرخت بيفرلي: «ثمَّة شيءٍ ما خطأ! لقد حدث خطأٌ ما، افعلوا شيئًا، من أجل خاطر المسيح فليفعل أحدكم شيئًا...».

عاد بصر ريتشي سريعًا إلى بيل والعنكبوت، وسمع وشعر في الوقت نفسه الضحكة الوحشية. كان وجه بيل يتمدَّد بطريقة ماكرة ما. استحال جلده إلى لونٍ شاحب كمخطوطة ورقية قديمة، وصار لامعًا كجلد شخصٍ طاعنٍ في السن، وغابت مُقلتاه في محجريهما تاركة البياض خلفها.

ربَّاه يا بيل، أين أنت؟

وفي أثناء ما كان ريتشي ينظر، انفجرت الدماء من أنف بيل، وراح فمه يتلوَّى محاولًا الصراخ. الآن بدأت العنكبوت في الاقتراب منه ثانيةً. كانت تستدير بجسدها، وتوجِّه إبرتها اللادغة إليه.

إنها تنوي قتله... أو قتل جسده على أيِّ حال... بينما عقله يرزح في مكانٍ آخر. إنها تنوي إخماده إلى الأبد. إنها تربح... بيل، أين أنت؟ بحق المسيح أين أنت؟

ومن مكانٍ ما، وبصوتٍ شديد الوهن والخفوت يأتي من مسافة لا يُمكن تقديرها، سمع ريتشي صرخة بيل.. وقد كانت الكلمات فيها واضحة وضوح الشمس ومليئة بيأسٍ، وإن كان لا معنى لها على الإطلاق.

(السُلحفاة ماتت، ربَّاه، السُلحفاة ماتت بالفعل)

صرخت بيفرلي ثانيةً صرخة رفيعة ووضعت يديها على أُذُنيها كأنها تُريد إخراس ذلك الصوت الخافت. ارتفعت إبرة العنكبوت اللادغة فاندفع ريتشي إليها، وابتسامة هائلة تتَّسع على وجهه وتصل إلى أُذُنيه وهو يصيح بأفضل صوت ضابط أيرلندي في جعبته:

- «هنا، هنا، يا فتاتي الجميلة! ماذا تظنين أنك فاعلة بحق الجحيم؟ ابعدي هذا الهُراء الخزعبلي قبل أن أنتزع تنورتك وأصفع وجنتك!».

توقَّفت العنكبوت عن الضحك، وشعر ريتشي بعويل غضبٍ وألمٍ ينمو داخل رأسها، ففكَّر مزهوًّا: لقد ألمتها! ألمتها! ما رأيكم في هذا.. وأتعرفون ماذا أيضًا؟ لقد أمسكت لسانها! أمسكت لسان الشَّيء! أظنُّ أن بيل أفلته بسببٍ ما، لكن بينما كان ذهنها مُشتتًا أمسكت أنا...

صرخت العنكبوت فيه، وطنَّت خلية من النحل الصاخب داخل رأسه، وضُربت ذات ريتشي خارج جسده وإلى الظلام. فهم ريتشي بالكاد أن الشَّيءَ يُحاول زعزعته للتحرُّر منه، وكان يؤدي عملًا جيِّدًا جدًّا في الحقيقة. سرى الذُعر في خلاياه، ثم استبدله شعُورٌ بالسخافة الكونية. تذكَّر بيڤرلي واليويو خاصته، وكيف علَّمته أن يجعلها تكمن في مكانها عند طرف الخيط وتدور سريعًا، وكيف أرته حيلتي «تمشية الكلب»، و«حول العالم».. وها هو ذا الآن قد صار ريتشي: لُعبة اليويو البشرية.. والخيط هو لسان الشَّيء. ها هو يطيح، وهذه الحيلة لا تُسمَّى «تمشية الكلب»، بل رُبَّما «تمشية العنكبوت».. وإذا لم يكن ذلك مُضحكًا، فما الذي سيُضحِك؟

ضحك ريتشي. ليس من اللياقة أن يضحك المرء وفمه مُمتلئ بالتأكيد، لكنه كان يشك أن أحدًا موجودًا هنا ليقرأ كتاب آداب السلوك.

جعله هذا يضحك ثانيةً، وعضَّ بقوَّة أكبر.

صرخت العنكبوت وهزَّته بشراسة، وهي تصب جُلَّ غضبها عليه لكونها فُوجئت من جديد. لقد ظنَّت أن الكاتب هو الوحيد الذي يستطيع تحديها، والآن هذا الرَّجُل الذي يضحك كصبيٍ مجنون استولى عليها عندما كانت في أقل حالتها استعدادًا.

شعر ريتشي أنه ينزلق.

– تريثي ثانية يا سنيوريتا، لقد جئنا إلى هنا معًا، وسنظل معًا، وإلا لن أبيع لك تذاكر اليناصيب بعد كل شيء.. وأنت تعلمين أنه في كل سحبٍ يوجد رابحٌ أكبر، أقسم بشرف ماما على هذا.

شعر بأسنانه تُنشب فيها من جديد، بل كانت أكثر قوَّة هذه المرَّة. ثم شعر بألمٍ مُدوِّخ نوعًا عندما أنشب الشَّيء العنكبوت أسنانه في لسانه. ربَّاه، لكن الأمر ما زال باعثًا للضحك رغم ذلك. حتَّى في هذا الظلام، حتَّى وهو مُلقى في إثر بيل والجسم الوحيد الباقي الذي يربطه بعالمه هو لسان ذلك المسخ الذي لا يُوصف، حتَّى وألم أنياب الشَّيءِ السَّامة يُخضِّب عقله كالضباب الأحمر، وجد الأمر مُضحكًا بشكلٍ لعين تمامًا. انظروا إلى هذا يا رفاق وستصدِّقون أن مُقدِّم الأغاني يستطيع الطيران.

إنه يطير بالفعل.

كان ريتشي في ظلماتٍ أعظم من أيِّ شيءٍ عرفه أو اختبره من قبل في حياته، بل من أيِّ شيءٍ تخيَّل وجوده من الأساس. إنه يُسافر بسُرعة الضوء كما يبدو، والعنكبوت تهزُّه كما يهزُّ كلب صيدٍ جُرذٍ اقتنصه. شعر أن ريتشي بوجود شيءٌ في الأمام.. جُثَّة ما هائلة الأبعاد. أهذه السُلحفاة التي سمع بيل يولول عليها بصوته البعيد؟ لا بُدَّ أنها كذلك. لا يتبقى منها سوى صدفة فارغة الآن.. قشرة ميِّتة. تجاوزها ريتشي مُدفوعًا إلى أحشاء الظلام.

فكَّر ريتشي: الأمر بدأ يصير مُسكرًا بحق، وشعر برغبة جامحة في أن يضحك من جديد. بيل! بيل، هل تسمعني؟

- لقد رحل، إنه الآن في الضياء العتيق، أعتقني! أعتقني!

(ريتشي؟)

يا لبُعد الصوت السحيق.. يا لبُعده في أغوار أغوار الظلام.

بيل! بيل! أنا هنا! تشبَّث! تشبَّث بحق الإله.

- لقد مات، كلكم موتى، لقد شختم جدًّا، ألا تفهمون ذلك؟ الآن اتركني!

هاي يا عاهرة، لا أحد أبدًا يكبر على قليلٍ من المرح والروك أند رول.

- اتركني!

خذيني إليه ولرُبَّما أتـ...

ريتشي

صار الصوت أقرب، حمدًا لله.

ها أنا آتٍ يا بيل الكبير! ريتشي المُنقذ! سأنقذ مؤخِّرتك العجوز المُشقَّقة! أن مدين لك بجميلٍ منذ ذلك اليوم في شارع نيبولت، أتذكُر؟

- أعتقنــــــــــــــــــــــــــــــي!

كان الشَّيء يتألَّم بشدَّة الآن، وأدرك ريتشي كيف باغته تمامًا وأخذه على حين غِرة. لقد ظنَّ الشَّيء أنه لم يكن أمامه سوى بيل. حسنًا، هذا جيِّد. جيِّد جدًّا. لم يأبه ريتشي لمسألة قتل الشَّيءِ في الوقت الحالي، فهو لم يعد واثقًا من إمكانية قتل الشَّيء من الأساس. لكن بيل فانٍ، ويُمكن أن يُقتَل، وقد شعر

ريتشي أن الوقت المُتبقي أمام بيل قصيرٌ جدًّا جدًّا. إن بيل يقترب من مُفاجأة كبيرة شنيعة. يقترب من شيءٍ من الأفضل عدم التفكير فيه.

لا يا ريتشي! عُدْ! إنها نهاية كل شيءٍ هنا! إنه الضياء العتيق!

يبدو هذا اسم أغنية يمكن أن تسمعها وأنت تقود سيَّارة موتى في منتصف الليل يا سيور. أنتِ يا حُلوتي العسلية؟ أين أنت؟ ابتسمي كي أعرف مكانك!

وفجأة وصل بيل إلى هناك، مُنزلقًا على أحد جانبيه

(الأيسر؟ الأيمن؟ لا توجد اتِّجاهات هنا)

أو الآخر، وخلفه بكثير، مُندفعًا كالرصاصة، استطاع ريتشي رؤية شيءٍ جعل سُخريته تجف وتموت أخيرًا. رأى حاجزًا.. عائقًا غريبًا غير هندسي لم يستطع عقله استيعابه، لكن بدلًا من ذلك، ترجمه عقله بأفضل ما يُمكنه -كما ترجم هيئة الشَّيءِ إلى عنكبوت- سامحًا لريتشي بتخيُّلِهِ جدارًا رماديًا هائلًا مصنوع من أوتادٍ خشبية مُتحجِّرة. هذه الأوتاد كانت تمتدُّ إلى لا نهائية عُليا ولا نهائية سُفلى كقضبان قفصٍ ماردٍ، ومن بينها كان يشرق ضوءٌ أعمى عظيم. كان الضوء يتوهَّج ويتحرَّك ويبتسم ويزمجر. كان الضياء العتيق الميِّت حيًّا،

(الضياء العتيق)

بل أكثر من حيٍّ: كان مُفعمًا بالقوَّة، أو المغناطيسية، أو الجاذبية، أو رُبَّما قوَّة أخرى. شعر ريتشي بنفسه يُرفع ويُسقط، يدور ويُسحب، كأنه يتدحرج على سلسلة مُنحدراتٍ سريعة في إطار عجلة سيَّارة داخلي. شعر ريتشي بحركة الضياء الملهوفة على وجهه... وكان الضياء يُفكِّر.

هذا هو الشَّيء، هذا هو الشَّيء، أو الباقي منه.

- أعتقني، لقد وعدت أن تعتقني.

أعرف يا حبيبتي العسلية، لكنني أكذب أحيانًا. أُمي توبِّخني على هذا، لكن أبي سلَّم أمره في النهاية.

شعر ريتشي ببيل يحوم ويدور ويسقط عبر إحدى الفجوات في الجدار. شعر بأصابعٍ شريرةٍ من ضوءٍ تمتدُّ إليه، وبمجهودٍ يائسٍ أخير، حاول الوصول إلى صديقه.

بيل! يدك! هات يدك! هات يدك عليك اللعنة! هاتها!

أطال بيل يده على امتداها، وراحت أصابعه تُفتح وتُغلق، بينما ذلك الضياء الناري الحيّ يزحف ويلتف حول خاتم زواج أودرا في أنماطٍ بربرية غريبة كالكتابات الرونية. عجلات، أهِلَّة، نجومٌ، صُلبان معقوفة، دوائر متداخلة تتحوَّل إلى سلاسلٍ ملتوية. كان وجه بيل مكسوًا بأشكال الضوء هذه نفسها، ما جعله يبدو كالموشوم. مدَّ ريتشي نفسه بقدر استطاعته، مُستمعًا إلى صراخ الشَّيءِ وعويله.

(لقد أخطأته. ربَّاه لقد أخطأته. سينجرف عبر الجدار)

ثم أطبقت أصابع بيل على يد ريتشي، فضمَّ ريتشي يده في قبضة مُتشبِّثة.

عبرت ساقي بيل إحدى الفجوات بين الأوتاد المُجمَّدة، وللحظة جنونية أدرك ريتشي أنه يرى كل العظام والأوردة والشعيرات الدموية داخله، كأن بيل قد عبر إلى بدن أقوى جهازٍ فحص بالأشعة السينية في العالم. شعر ريتشي بعضلات ذراعه تمتد وتُمطُّ كحلوى الطوفي، وبمفصل كتفه الكروي يصر ويئن مُحتجًّا مع تزايد وحدات الضغط عليه.

استجمع ريتشي كل ذرَّة قوَّة في كيانه وصاح: «اسحبنا خلفًا! اسحبنا خلفًا وإلا سأقتلك! ســ... سأتناوب عليك صوتيًّا حتَّى الموت!».

أطلقت العنكبوت صرخة ذُعرٍ وألم مرَّة أخرى، وشعر ريتشي بلسع سياطٍ هائل يضرب جسده، وصارت ذراعه قضيبًا ساخنًا قُدَّ من ألمٍ.. وبدأت قبضته على يد بيل تنزلق.

- «تمسَّك يا بيل الكبير!».

- «أنا معك يا ريتشي! أنا معك!».

فكَّر ريتشي مُتجهِّمًا: من الأفضل أن تظل كذلك، لأنك تستطيع أن تجوب عشرة بلايين ميلٍ هنا، ولن تعثر على حمَّام عام لعين واحد أبدًا.

اندفعوا عائدين، وصار ذلك الضوء المجنون المُتلاشي متوالية من النقاط اللامعة أظلمت في النهاية. شقَّ ثلاثتهم الظلمات كالطوربيدات، ريتشي عاضًّا على لسان الشَّيءِ بأسنانه، ومُتشبِّثًا بساعد بيل بيدٍ واحدة موجوعة. ها هي السُلحفاة أمامهم، ثم في اللحظة التالية غابت في غمضة عين.

شعر ريتشي أنهم يقتربون إلى المعبر الذي يقود إلى العالم الحقيقي (رغم أنه كان يؤمن أنه لن يُفكِّر فيه أبدًا كمعبرٍ «مادي» حقيقي بالضبط، كان يراه كنسيجٍ مُتقَن مُبطَّن بأسلاكٍ داعمة تمسكه في مكانه، أسلاك كخيوط شباك عنكبوت).

فكَّر ريتشي: سنكون على ما يُرام، سنعود، سوف...

في هذه اللحظة بدأ العصف، والضرب، والصفع، والجَلد، والترنُّح من يمينٍ إلى يسارٍ. إنها محاولة الشَّيءِ الأخيرة في أن ينخعهما ويتركهما في «الخارج». شعر ريتشي بقبضته تنزلق. سمع زئير الشَّيءِ الحلقي المُظفَّر فوضع جُلَّ تركيزه على التشبُّث به... لكنه واصل الانزلاق. عضَّ مسعورًا، لكن بدا له أن لسان الشَّيءِ يفقد مادته وحقيقته.. بدا أنه يستحيل إلى مخاطٍ شيطاني.

صرخ ريتشي: «النجدة! أنا أفقده! النَّجدة! فليساعدني أحدٌ ما!».

5

إدي

كان إدي نصف واعٍ بما يحدث. كان يستشعره ويراه لكن من خلال حجابٍ كاشف. إن جسديهما هنا، لكن بقيتهما –حقيقتهما– بعيدتان جدًّا.

لقد رأى العنكبوت تستدير لوخز بيل بإبرتها، ثم رأى ريتشي يُضطر إلى الركض، والصراخ في وجه الشَّيءِ بصوت ذلك الضابط الأيرلندي السخيف الذي اعتاد استخدامه، لكن يبدو أن ريتشي قد تحسَّن كثيرًا جدًّا خلال السنوات، لأن الصوت بدا مُطابقًا بشكلٍ مُخيف لصوت السيِّد نيل من الأيام الخوالي.

استدارت العنكبوت إلى ريتشي، ورأى إدي عينيها اللتين لا تُوصفان تنتفخان في محجريهما. صرخ ريتشي ثانيةً، هذه المرَّة بصوت بانشو ڤانيلا، وشعر إدي أن العنكبوت تنعق من الألم. صرخ بن بصوتٍ غليظ عندما ظهر شقٌّ جديد على إحدى ندباتها القديمة من المرَّة السابقة. تدفَّق تيَّارٌ من الإيكور

الأسود بلون النفط الخام خارجًا منها. حدَّق ريتشي فيها ليقول شيئًا آخر.. ثم بدأ صوته يتلاشى كما يحدث في نهاية أغاني البوب. انقلب رأسه إلى الوراء من فوق عُنُقه، وتسمَّرت عيناه على عيني الشَّيءِ، وربضت العنكبوت صامتة من جديد.

مرَّ الوقت. لم يعلم إدي مقدار ما مرَّ تحديدًا وريتشي يُحدِّق في وجه العنكبوت والعكس. شعر إدي أن اتِّصالًا حدث بينهما، وشعر بدوَّامة حديثٍ وعواطف تختلج وتدور في مكانٍ ما بعيدًا. لم يستطع استيعاب أيِّ شيءٍ ممَّا يدور بالضبط، لكنه استشعر أجواء ما يجري عن طريق ألوانٍ وصبغات ضبابية.

استلقى بيل مُنهزمًا على الأرض، والدماء تنزف من أنفه وأُذُنيه، وأصابعه تختلج قليلًا، وقد شحب وجهه الطويل تمامًا وأُغلقت عينيه.

كانت العنكبوت تنزف حاليًا من أربعة أو خمسة مواضع وقد تضرَّرت بشدَّة مرَّة أخرى.. تضرَّرت بشدَّة لكنها ما زالت مُفعمة بالعنفوان بشكلٍ خطير.. ووجد إدي نفسه يُفكِّر: لماذا نقف مكتوفي الأيدي؟ نستطيع إيذاءَ الشَّيءِ في أثناء انشغاله مع ريتشي اِلِمَ لا يتحرَّك أحدٌ بحق المسيح؟

شعر إدي بزهوة انتصارٍ جامحة، وشُحذ الشعور داخله وصار أوضح، وأكثر حِدَّة، وأقرب. إنهم عائدون! هكذا أراد أن يصيح، لكن فمَّه كان جافًّا جدًّا، وحنجرته ضيِّقة تمامًا. إنهم عائدون!

ثم بدأ رأس ريتشي يلف ببطء من جانبٍ إلى آخر، وبدا أن جسده يتموَّج داخل ملابسه. ظلَّت نظَّارته مُعلَّقة على طرف أنفه لحظات، ثم سقطت وتكسَّرت على الأرض الحجرية.

هاجت العنكبوت وماجت، وراحت أرجلها الشوكية تنقر الأرض بخشونة. سمع إدي الشَّيءَ يصرخ بصرخة انتصارٍ مُريعة، وبعدها بلحظة، انفجر صوت ريتشي في رأسه بُمنتهى الجلاء:

(النَّجدة! أنا أفقده! النَّجدة! فليساعدني أحدٌ ما!).

في تلك اللحظة ركض إدي منتزعًا بخَّاخه من جيبه بيده السليمة، وشفتاه مشدودتان في تكشيرة، وأنفاسه تُصفِّر وهي تخرج من حلقٍ بدا الآن كأنه ثقب

إبرة. بشكلٍ جنوني، تراقص وجه أمه أمامه، وكانت تصرخ: لا تقترب من هذا الشيء يا إدي! لا تقترب من هذا الشيء! هذه الأشياء التي تُسبب السرطان!

– «اخرسي يا أم!»، هكذا صاح إدي عاليًا وهو يزعق بكل الصوت الذي تبقَّى في جعبته. استدار رأس العنكبوت تجاه الصوت، وغادرت عيناها ريتشي لحظيًّا.

عوى إدي بصوته الذاوي: «هاكِ! هاكِ، تذوَّقي بعضًا من هذا!».

ثم وثب على الشَّيءِ، وضغط زناد بخَّاخه في الوقت نفسه، وللحظة عاد إليه كل إيمانه الطفولي بالدواء.. دواء صباه الذي يستطيع حل كل الأمور، الذي يجعله يشعر بتحسُّن عندما يتحرَّش به الفتية الكبار، وعندما يتعثَّر في اندفاع التلاميذ عبر الأبواب مع انتهاء اليوم الدراسي، وعندما يجد نفسه مُجبرًا على الجلوس على حافَّة قطعة الأرض الخالية وراء مُستودع الأخوين تراكر ولا يشارك في اللعب لأن أمه لا تسمح له بمُمارسة البيسبول. لقد كان دواءً جيِّدًا.. دواءً قويًّا، وثب إدي على العنكبوت، مُستنشقًا رائحتها الكريهة الصفراء، شاعرًا بالقهر بسبب غضب الشَّيءِ الأعمى وعزمه على مسحهم جميعًا من على وجه الأرض، ثم أطلق بخَّاخه في إحدى عيني الشَّيءِ الياقوتيتين.

سمع إدي وشعر بصرخة الشَّيءِ، التي لم تكن من غضبٍ هذه المرَّة، بل من ألمٍ خالص. كانت صرخة عذابٍ مُريعة. شاهد إدي الرذاذ يستقر على تلك العين المُنتفخة الحمراء بلون الدم، ورأى أن القطرات استحالت إلى الأبيض عندما لامستها، ورآها تغوص فيها كما قد يغوص حمض الكربوليك فيها. رأى العين الهائلة تبدأ في التسطُّح كصفار بيضةٍ دموية، وتسيل في تيَّارٍ شنيع قوامه دماء حيَّة وإيكور وقيح كثير الديدان.

صرخ إدي بآخر نفسٍ في صوته: «عُد للديار الآن يا بيل!»، ثم ضرب إدي الشَّيءَ بعد ذلك، وشعر بسخونة جسده المُثيرة للاشمئزاز تسري فيه. شعر بدفءٍ وبللٍ قبيح، وأدرك أن ذراعه السليمة انزلقت إلى فم العنكبوت.

ضغط إدي بخَّاخه ثانيةً، مُطلقًا الرذاذ في حلق الشيءِ مُباشرةً هذه المرَّة..

مُباشرةً إلى مرِّيئه الغفن الخبيث.. ثم شعر بألمٍ مُفاجئٍ باهر أشبه بسقوط ساطورٍ ثقيل عندما أُغلقت العنكبوت فمها قاطعةً ذراعه من عند الكتف.

سقط إدي على الأرض وطرف ذراعه المبتور يرشُّ الدماء، وبالكاد لاحظ أن بيل ينهض على قدميه مُرتجفًا، وأن ريتشي يترنَّح ويتخبَّط نحوه كسكِّيرٍ في نهاية ليلة طويلة مُرهقة.

- «... إدز...».

يا لبُعد الصوت.. يا لعدم أهميته. كان يشعر أن كل شيءٍ يفيض منه مع دماء الحياة التي تُفارقه. كل الغضب، كل الألم، كل الخوف، كل الحيرة، كل الوجع. افترض إدي أنه يحتضر لكنه كان يشعر... يا إلهي، لكم يشعر بالصفاء والشفافية، كأنه مصراع نافذة غُسِل ونُظِّف جيِّدًا، وها هو الآن يسمح لضوء فجرٍ مجيدٍ مُخيف أن يدلف عبره. الضوء، يا إلهي، يا لهذا الضوء العقلاني المثالي الذي يُبرئ الأُفُق في مكانٍ ما من العالم كل ثانية.

- «... إدز، ربَّاه.. بيل، بن، أيُّ شخصٍ.. لقد فقد ذراعه، لقد...».

رفع إدي نظره نحو بيفرلي ووجدها تبكي والدموع تسيل على وجنتيها المُتَّسختين وهي تضع ذراعها أسفل رأسه، وأدرك أنها خلعت بلوزتها وراحت تحاول إيقاف تدفُّق الدماء، وأنها تصرخ طلبًا للمُساعدة. ثم نظر بعدها إلى ريتشي ولعق شفتيه. كل شيء يتلاشى.. يصير أكثر صفاءً.. يفرغ من الموجودات. كل الشوائب تتدفَّق خارجه منه ليصبح أنقى وأطهر كي يستطيع الضوء النفاذ عبره. لو أن أمامه وقتًا كافيًا لكان ألقى موعظة عن هذا. كان سيخطب بادِئًا: ليس هذا سيِّئًا.. ليس سيِّئًا على الإطلاق. لكن ثمَّة شيئًا آخر يجب عليه قوله أوَّلًا.

همس إدي: «ريتشي».

صاح ريتشي: «ماذا؟»، وجثا على يديه ورُكبتيه ناظرًا إليه بيأسٍ جازع.

قال له: «لا تنادني بإدز»، وابتسم.. ثم رفع يده ببطء ولمس خد ريتشي. كان ريتشي يبكي. «أنت تعلم أنني.. أنني». أغلق إدي عينيه مُفكِّرًا كيف ينهي عبارته، وبينما كان لا يزال يُفكِّر... مات.

6

ديري | من السابعة إلى التاسعة صباحًا

بحلول السابعة صباحًا، وصلت سُرعة الرياح في ديري إلى سبعة وثلاثين ميلًا في السَاعة، مع زوابع تصل سرعتها إلى خمسة وأربعين ميلًا، وجَّه هاري بروكس -وهو خبير يعمل في وكالة وطنية لخدمات الأرصاد الجوِّية مقرَّها مطار بانجور الدولي- نداءً مُنزعجًا إلى مقرِّ القوَّات المُسلَّحة في أوجوستا. قال إن الرياح تهب من الغرب في نمطٍ دائري شاذ لم يسبق أن رأى له مثيلًا... لكنها رويدًا رويدًا بدأت تبدو لناظريه كأنها نوعٌ غريب من الأعاصير القزمة، كأنها إعصار يقتصر بشكل حصري تقريبًا على مدينة ديري. في السابعة وعشر دقائق، أذاعت محطَّات بانجور الإذاعية الرئيسة أوَّل تحذيرات شديدة من الطقس. لقد أدَّى انفجار محوُّل الطاقة في ديري قرب مستودع الأخوين تراكر إلى انقطاع التيَّار الكهربائي في جميع أنحاء ديري التي تقع على جانب شارع كانساس من البرِّية. في السابعة وسبع عشرة دقيقة، سقطت شجرة قيقب عتيقة في اللسان القديم جوار البرِّية بدوي صاخب، مُساوية متجر نايت-آول الذي يقع عند ناصية التقاء شارع ميريت وجادَّة اللسان القديم بالأرض. قُتل ربُّ عملٍ مُسن يُدعى رايموند فوجارتي بسقوط مُبرِّد بيرة كبير فوقه. كان هذا هو رايموند فوجارتي ذاته الذي ترأس طقوس دفن چورچ دِنبروه في عام 1957 بصفته كاهن الكنيسة الميثودية الأولى في ديري. جذبت شجرة القيقب أيضًا عددًا كافيًا من أسلاك الكهرباء في سقوطها لقطع التيَّار في اللسان القديم برمَّته، بالإضافة إلى قطاع مساكن شيربورن وودز الأكثر حداثة نوعًا خلفه. لم تدق ساعة بُرج كنيسة نعمة المعمدان المُستدقِّ لا في السادسة ولا في السابعة. في السابعة والثلث، بعد ثلاث دقائق من سقوط شجرة القيقب في اللسان القديم، وبعد نحو ساعة وخمس عشرة دقيقة من ارتداد نظام الصرف وانفجار كل المراحيض هناك، دقَّت الساعة ثلاث مرَّات مُتتالية. بعدها

بدقيقة، ضربت صاعقة برقٍ زرقاء البُرج المُستدقّ. قالت هيذر ليبي -زوجة القس- التي صادف أنها كانت تنظر من نافذة مطبخ بيت القساوسة في ذلك الوقت، أن البُرج «انفجر كأن شخصًا لغَّمه بالديناميت». أُمطِرَ الطريق بألواح خشبية بيضاء، وكُتل من العوارض الخشبية، وأجزاء من ميكنة الساعة القادمة من سويسرا. ظلَّت أطلال البُرج تحترق بعض الوقت ثم انطفأت بفعل المطر، الذي كان يهطل كسيلٍ استوائيٍّ وقتها. علا الزَّبد الشوارع التي تقود أسفل التلَّة إلى منطقة تسوُّق وسط المدينة، وركض الماء أنهارًا فيها. صار جريان الماء في القناة أسفل الشارع الرئيس هديرًا مُستمرًّا يهز المنازل، وجعل الناس ينظرون بعضهم إلى بعض بانزعاجٍ وقلق. في السابعة وخمسة وعشرين دقيقة، عندما كان انهيار بُرج كنيسة نعمة المعمدان الهائل ما زال يدوي في كل أنحاء ديري، رأى البوَّاب الذي يأتي إلى والي سبا كل صباح لتنظيف المكان ما عدا الأحد شيئًا جعله يركض مذعورًا وصارخًا في الطرقات. كان يُدفَع لهذا الرَّجُل -الذي كان مُدمن خمرٍ منذ عامه الدراسي الأوَّل في جامعة مين، وكان ذلك من إحدى عشر سنة مضت- أجرٌ زهيدٌ مُقابل خدماته.. لكن كان أجره الحقيقة -وهذا مفهوم- هو حُرِّيته المطلقة لإنهاء أي شيء يتبقَّى في براميل البيرة أسفل سطح المشرب من الليلة السابقة. قد يتذكَّر ريتشي توزيبه هذا الرَّجُل وقد لا يتذكَّره. كان هو ڤينسينت كارسو تاليندو، أو المعروف بين مُعاصريه من الصف الخامس الابتدائي بتاليندو «الماخِط». عندما أتى تاليندو لتنظيف المكان في ذلك الصباح الكارثي في ديري، وفي أثناء عمله، رأى صنابير البيرة السبعة (المُقسَّمة حسب النوع إلى: صنبور باد، وصنبوري ناراجانسيت، وصنبور ميلر لايت، وصنبور شيلتز المعروف أكثر بين زبائن حانة والي سبا باسم سيلتز) مائلة أمامًا، كأنما تجذبها سبع أيادٍ خفيَّة. كانت البيرة تجري منها في جداول ذهبية وبيضاء مُزبدة إلى بالوعة الحوض. خطا ڤينس أمامًا، مُفكِّرًا لا في الأشباح ولا في العفاريت وإنما في نصيبه الصباحي الذي يروح هباءً. ثم توقَّف مُنزلقًا، واتَّسعت عيناه، وفلتت منه صرخة مذعورة في ذلك الكهف الذي يفوح برائحة البيرة والذي يُدعى والي سبا. كانت البيرة قد استحالت إلى جداول شُريانية من الدماء، وراحت تحوم مُرتفعة حول فم

البالوعة المعدنية التي فاضت بها، وبدأت تجري على حافَّة المشرب في أغادير رفيعة. الآن بدأت تخرج من صنابير البيرة كتلٌ من الشعر واللحم، وقف تاليندو الماخِط يُراقب هذا المشهد مذهولًا، لا يستطيع حتَّى استجماع ما يكفي من القوَّة للصراخ مرَّةً أخرى. ثم صدر دويٌّ مكتوم بلا نغمة مع انفجار أحد براميل البيرة أسفل سطح المشرب، وبعدها فُتِحَت كل أبواب الخزانات أسفل المشرب على اتِّساعها، وبدأ دُخانٌ أخضر -مثل ما يتخلَّف عن خدعة ساحر- في الانجراف ساريًا منها. هنا كان الماخِط قد رأى ما يكفيه، وفرَّ صارخًا إلى الشارع الذي كان قد أصبح نُهيرًا ضحلًا في ذلك الوقت. سقط الماخِط على مُؤخرته، ونهض، وألقى نظرة مذعورة إلى الخلف من فوق كتفه. انفجرت إحدى نوافذ الحانة بصوتٍ صاخب، وطارت شظايا الزُجاج مُصفِّرة من كل مكان فوق رأسه. بعدها بلحظة، انفجرت النافذة الأخرى. مرَّة أخرى لم يمس الماخِط مكروهٌ بأعجوبة... لكنه قرر في التوِّ واللحظة أن الوقت قد حان لرؤية شقيقته في إيستبورت. بدأ ڤينس سعيه على الفور، ويجب أن نذكر أن رحلته إلى حدود بلدة ديري وخارجها ستُشكِّل ملحمة في حدِّ ذاتها... لكن يكفي الآن قول أنه خرج من المدينة في نهاية المطاف. آخرون لم يحالفهم ذات الحظ. على سبيل المثال، كان ألويسيس نيل -الذي لم يمض وقتٌ طويل على تمامه عامه السابع والسبعين- يجلس مع زوجته في صالة منزلهما في شارع سترافام، يراقبان العاصفة التي تسحق ديري. في السابعة واثنتين وثلاثين دقيقة، أصابته سكتة قلبية قاتلة. أخبرت زوجتِه أخيها بعدها بأسبوع أن ألويسيس أسقط فنجان قهوته على البساط، وجلس مُعتدلًا في تشنُّج، وعيناه مُتَّسعتان وتُحدِّقان في الفراغ، وصرخ: «هنا، هنا، يا فتاتي الجميلة! فقط ماذا تظنين أنك فاعلة بحق الجحيم؟ ابعدي هذا الهُراء الخزعبلي قبل أن انتزع تنورتك...»، ثم سقط من مقعده، مُحطِّمًا فنجان قهوته أسفل ثقله. على الفور، أدركت ماورين نيل -التي كانت تعلم مدى سوء حالة قلبه في السنوات الثلاث الأخيرة- أن أمره انتهى، وبعدما فكَّت زر ياقته هرعت إلى الهاتف لتتَّصل بالأب مكدويل، لكن الهاتف كان خارج الخدمة، ولم يخرج منه سوى صوتٍ غريب كصافرة إنذار سيَّارات

الشُرطة، وهكذا، ورغم أنها كانت تعرف أن ما تفعله رُبَّما كان تجديفًا ستمثل بسببه في الآخرة بين يدي القديس بيتر، حاولت أن تُمليه الطقوس الأخيرة بنفسها. لقد كانت واثقة -هكذا أخبرت أخاها- أن الرَّب سيتفهَّم موقفها حتَّى لو لم يتفهم القديس بيتر. لقد كان ألويسيس زوجًا ورجُلًا صالحًا، وإن كان يُفرط في الشراب أحيانًا، فذلك بسبب العرق الأيرلندي فيه لا أكثر. في السابعة وتسع وأربعين دقيقة، هزَّت سلسلة من الانفجارات مركز تسوُّق ديري الذي أُنشئ على أطلال مصنع حديد كيتشنر. لم يُقتل أحدٌ، فلم يكن المركز يفتح أبوابه قبل تمام العاشرة، ولم يكن من المُقرَّر أن يصل حُرَّاس المكان الخمسة قبل الثامنة صباحًا (وفي مثل هذه الصباحات، قد لا يأتي إلا عدد قليل جدًّا منهم على أيِّ حال). لاحقًا، نبذ فريقٌ من المُحقِّقين فكرة حدوث تخريبٍ مُتعمَّد، وافترضوا -بشكل مُبهم في الواقع- أن الانفجارات رُبَّما سبَّبها الماء الذي تسرَّب إلى النظام الكهربائي للمركز التجاري. أيًّا كان السَّبب، لن يتسوَّق أحدٌ في المركز التجاري لفترة طويلة جدًّا. أطاح أحد الانفجارات بمتجر مجوهرات زاليس بالكامل. طارت الخواتم الماسية، وأساور الهوية، وسلسال اللؤلؤ، وصواني خواتم الزفاف، وساعات سيكو الرقمية، في كل مكان في وابلٍ من الحُلي اللامعة المُتلألئة. طار صندوق المُوسيقى بطول الممرِّ الشرقي، وهبط في النافورة أمام متجر چي سي بينيس، حيث صدح لفترة وجيزة بنُسخة مُبَقبِقَة من أغنية «قِصَّة حب» قبل أن يخرس. الانفجار عينه مزَّق فجوة في جدار متجر باسكين روبنز المجاور، مُحِيلًا نكهات الأيس كريم الواحدة والثلاثين المُختلفة إلى حساءٍ واحد راح يجري على الأرضية في جداولٍ قاتمة ثخينة. أزال الانفجار الذي مزَّق متجر سيرز معه كُتلة من السقف، وحملتها الريح الصرصر العاتية إلى السماء كطائرة ورقية، وسقطت بعدها على بُعد آلاف اليارادات، قاطعة كسكينٍ صومعة غلالٍ يملكها مُزارع اسمه برنت كيلجالون. اندفع ابن كيلجالون الذي في السادسة عشر من عمره مع أمه لالتقاط صورة للخراب. لاحقًا، اشترت مجلَّة ناشيونال إنكوايرر الصورة مُقابل ستين دولارًا، وقد استخدمها الفتى لشراء إطارين جديدين لدرَّاجته البخارية طراز ياماها. حطَّم الانفجار الثالث متجر

هيت أور ميس، مُرسلًا تنوراتٍ مُشتعلة وسراويل چينز وملابس داخلية إلى ساحة انتظار السيَّارات التي تفيض بالماء، وسحق الانفجار الأخير فرع المركز التجاري من بنك ديري فارمارز تراست كأنه كيس مُقرمشات. كتلة من سقف البنك مُزِّقت بدورها. راحت صافرات الإنذار ضد السرقة تدوِّي في نهيقٍ مُستمرٍ لم يُخرس حتَّى فُصلت أسلاك نظام الأمان المُستقِّل بعدها بأربع ساعات. حملت الرياح عقود القروض والصكوك المصرفية وقسائم الإيداع ونقود الأدراج واستمارات إدارة المال إلى عنان السماء، وعصفت بها الزوابع. كانت النقود أغلبها من فئة عشرة وعشرين دولارًا، مع كثيرٍ من الخمسات، وحفنة من الخمسينات والمئات، وفقًا لأحد موظَّفي البنك، أكثر من 75 ألف دولارٍ حملتها الرياح بعيدًا. لاحقًا، بعد إعادة ترتيب أوضاع شاملة وإعادة تنظيم للهيكل التنفيذي للبنك (وبعد عملية إنقاذٍ مالي نفَّذتها المؤسسة الفدرالية للادِّخار والتأمين على القروض)، اعترف البعض -بعيدًا عن التسجيلات، وبشكل غير رسمي بلا شك- أن المبلغ كان أقرب إلى 200 ألف دولارٍ. عثرت امرأة من قرية هاڤن اسمها ريبيكا بولسون على ورقة فئة خمسين دولارًا تُرفرف أسفل حصيرة ترحيب بابها الخلفي، وورقتين فئة عشرين دولارًا في قفص طيورها، وورقة فئة مئة دولارٍ مُلتصقة بشجرة البلوط في باحتها الخلفية. استخدمت المرأة وزوجها المال لتسديد دُفعتين من أقساط زلَّاجتهما السكيدو. في الثامنة صباحًا، قُتل طبيب مُتقاعد اسمه هيل عاش في غرب برودواي قرابة خمسين عامًا. كان دكتور هيل يحب التباهي أنه في آخر خمسة وعشرين عامًا من تلك السنوات الخمسين لم ينقطع عن قطع ميلين كاملين سيرًا على الأقدام ابتداءً من منزله في غرب برودواي، ومرورًا حول حديقة ديري والمدرسة الابتدائية. لم يكن يوقفه شيءٌ حسب قوله: لا مطر، ولا برد، ولا ثلوج، ولا عواء أعاصير نوريستر، ولا درجات الحرارة تحت الصفر. لقد خرج في صباح يوم 31 مايو على الرغم من اعتراضات مُدبِّرة منزلهُ القلقة، وقد كانت كلمات الأخيرة -تلك التي نطقها من فوق كتفه وهو يعبر الباب الأمامي، وهو يسحب قُبَّعته بإحكام إلى ما أسفل أُذنيه- التي ودَّع بها العالم هي: «لا تكوني سخيفة هكذا يا هيلدا. ليست

هذه إلا زوبعة فنجان، كان يجب أن تشهدي ما حدث في 1957! تلك كانت عاصفة بحق!».. وفي أثناء ما كان دكتور هيل يلف في مساره عائدًا إلى غرب برودواي، طار غطاء المجرور الذي يقع أمام منزل آل مولر فجأة كأنه دُفِع بصاروخ فضائي، وقطع رأس الطبيب الصالح بسُرعة ودقَّة لدرجة أنه سار ثلاث خطوات أخرى قبل أن ينهار ميِّتًا على الرصيف.

ثم استمرت الرياح في الارتفاع.

7

تحت المدينة/ الرابعة والربع مساءً

قادهم إدي عبر الأنفاق المُظلمة نحو ساعة، أو رُبَّما ساعة ونصف، قبل أن يعترف بنبرة مُتحيِّرة أكثر منها خائفة أنه ضلَّ الطريق للمرَّة الأولى في حياته.

كانوا ما زالوا يسمعون هدير الماء الخافت في المصارف، لكن انتقال الصوت في هذه الأنفاق كان جنونيًّا بالكامل، ويجعل من المُستحيل تحديد ما إذا كان صوت الماء يأتي من الأمام أم الخلف، اليمين أم اليسار. لقد نفدت أعواد الثقاب منهم، وصاروا الآن ضائعين في الظلام.

كان بيل خائفًا... خائفًا بشدَّة. تلك المحادثة التي خاضها مع والده في ورشته لم تنفك عن التردُّد في حُجرات عقله. أنا أتحدَّث عن زنة تسعة أرطال من المُخطَّطات، جميعها اختفت في الفترة بين 1937 و1950. قصدي هو أن لا أحد يعرف أين تبدأ شبكة المجاري والمصارف وأين تنتهي ولماذا، فما دامت تعمل، لا أحد يهتم. لكن عندما يتعطَّل شيء، يُكلَّف ثلاثة أو أربعة تعساء حظ من إدارة المياه بمحاولةِ معرفة أيّ مضخَّة تعطَّلت أو أين موقع الانسداد، وعندما يهبط تعساء الحظ أولئك إلى هناك، فإن أوقاتًا عصيبة لعينة تنتظرهم. المكان مُظلم ويفوح برائحة كريهة خانقة وتمرح الفئران فيه بحُرِّية. هذه كلها أسباب جيِّدة كي يبقى المرء بعيدًا.. لكن السَّبب الأهم على الإطلاق أنك قد تضل طريقك في تلك المتاهة. لقد حدث ذلك من قبل.

حدث من قبل. حدث من قبل. حدث...

بالتأكيد حدث ذلك من قبل. تلك الكومة من العظام والملابس التي مرُّوا بها في طريقهم إلى عرين الشَّيءِ خير شاهدٍ على حدوث الأمر.

شعر بيل بالذُعر يحاول أخذ زمام السيطرة فقاومه، وقد نجح في ذلك، لكن ليس بهذه السهولة. كان يستشعر الذعر داخله ككائنٍ حيٍّ يجاهد ويراوغ، مُحاولًا فك عقاله. أضف إلى ذلك السؤال المُزعج الذي لا إجابة له عمَّا إذا كانوا قد قتلوا الشَّيءَ أم لا. ريتشي قال نعم، ومايك قال نعم، وكذا قال إدي. لكنه لم يحب النظرة المذعورة المُرتابة على وجهي بيفرلي وستان عندما خبا الضوء وزحفوا عائدين عبر الباب الصغير، هاربين من الشباك المُتداعية المُريعة.

سأل ستان: «ما العمل إذًا؟». سمع بيل نبرة صبيٍ صغيرٍ مذعور في صوت ستان، وعرف أن السؤال موجَّه مُباشرةً إليه.

قال بن: «أجل، ما العمل؟ اللعنة، أتمنَّى لو كان معنا كشَّاف... أو حتَّى شـ... شمعة». شعر بيل أنه سمع عَبرة في ذلك المقطع الأخير من جملته، وقد أخافته هذه العَبرة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. كان بن سيُفاجأ لو علم أن بيل يظنُّه أكثر ثباتًا وخشونة وصلابة من ريتشي وأقل عُرضة من الانهيار فجأة كستان. إذا كان بن على وشك الانهيار، فهم على شفا مُشكلة بالغة السوء. لم تكن بقايا هيكل عامل إدارة المياه العظمى هو ما استمرَّ عقل بيل في تذكُّره والرجوع إليه فحسب، بل مشهد ضياع توم سوير وبيكي تاتشر في كهف ماكدوجال، واصل بيل طرد الفكرة بعيدًا عن عقله، لكنها ظلَّت تعود إليه أكثر إصرارًا.

ثمَّة شيءٍ آخر يُزعجه لكن مفهومه كان أكبر وأكثر غموضًا على عقله الصبي المُنهك. رُبَّما كانت بساطة الفكرة الشديدة هي ما جعلتها بعيدة المنال: إن عنقودهم يُفرط. ذلك الرباط الذي أبقاهم معًا طوال ذلك الصيف يذوب. لقد واجهوا الشَّيءَ وهزموه. رُبَّما يكون قد مات كما يظن إدي وريتشي، ورُبَّما يكون مُثخنًا بجراحٍ بالغة ستجبره على السُبات لمئات، أو آلاف أو عشرات آلاف السنين. لقد واجهوا الشَّيءَ ورأوه وهو خالع آخر أقنعته، ولكم كان

مُريعًا -أوه، بلا أدنى ريب!- لكن ما إن شُوهِد شكله المادي لم يعد بذلك السوء، وسلب ذلك منه سلاحه الأقوى.. فجميعهم -رغم كل شيء- قد رأوا عناكب من قبل. إن العناكب مخلوقات غريبة، وتبدو كأنها أتت من خارج هذا العالم، وهي بشكلٍ ما بغيضة وتثير الاشمئزاز، وخمَّن بيل أن أيًّا منهم لن يرى واحدًا آخر منها بعد الآن

(لو حدث وأن خرجنا من هنا)

من دون أن تصيبه رعدة نفورٍ لم يألفها قط. لكن العناكب -في النهاية- مجرَّد عناكب. رُبَّما في النهاية -عندما تُخلع جميع أقنعة الرعب- لا يوجد في الوجود شيءٌ يُعجِز العقل البشري عن التعامل معه والتأقلُم عليه. كانت تلك فكرة مُشجِّعة. لا يوجد مثل هذا الشيء على الإطلاق باستثناء

(الضياء العتيق)

أيًّا ما كان هناك في الخارج. لكن رُبَّما كان ذلك الضوء الحيّ -الذي لا يُوصف- الرَّابض عند مدخل الكون الشامل ميتًا أو يموت. لقد بدأ الضياء العتيق وتلك الرحلة التي خاضها عبر السواد وصولًا إليه يصيران مشوَّشين وعسيري الاسترجاع في عقله الآن. لكن ليس هذا المقصود. المقصود -الذي يستشعره ولم يدركه- أن الرفقة تنتهي ببساطة.. تنتهي وهم ما زالوا بعد في الظلام. رُبَّما ذلك الكيان الآخر -الذي يعمل من خلال صداقتهم- استطاع أن يجعلهم شيئًا أكثر من مُجرَّد أطفال. لكن ها هم يعودون أطفالًا من جديد.. وقد استشعر بيل ذلك كما استشعره الآخرون.

في النهاية سأل ريتشي بشكلٍ مُباشر: «ما العمل الآن يا بيل؟».

قال بيل: «لـ-لـ-لا أعرف». لقد عادت لعثمته تامَّة وبصحة جيِّدة. لقد سمعوها جميعًا، ووقف بيل وسط الظلام يشم العبير المُختمر المُخضَّل لذُعرهم المُتنامي، مُتسائلًا كم من الوقت سيمر قبل أن يُمزِّق أحدهم الصمت -سيكون ستان غالبًا- قائلًا: حسنًا، ولِمَ لا تعرف؟ أنت من ورَّطنا في هذا!!

سأل مايك بإنزعاج: «وماذا عن هنري؟ أما زال بالخارج أم ماذا؟».

قال إدي وهو ينوح تقريبًا: «يا للمسيح، لقد نسيت أمره. بالتأكيد ما زال موجودًا، وهو تائه على الأرجح مثلنا تمامًا، وقد نلتقي به في أيِّ لحظة... يا

للمسيح. ألا توجد لديك أيُّ أفكارٍ يا بيل؟ إن والدك يعمل هنا! ألا تمتلك أيَّ أفكارٍ على الإطلاق؟».

أنصت بيل إلى هدير الماء البعيد الذي يسخر منهم، وحاول الحصول على الفكرة التي مع إدي -بل معهم جميعًا- كل الحق في المطالبة بها.. لأن -أجل- هو من ورَّطهم في كل هذا، ومن واجبه أن يُعيدهم جميعًا إلى العالم الخارجي. لكن لا أفكار.. لا أفكار تأتي.

قالت بيڤرلي بهدوء: «لديّ فكرة».

في الظلام، سمع بيل صوتًا لم يفهمه على الفور. كان صوتًا هامسًا صغيرًا، لكن ليس مُخيفًا. ثم جاء بعده صوت أكثر سهولة للفهم.. صوت سحَّاب ثيابٍ ينزلق. فكَّر بيل: ما الذي...؟ ثم فهم الأمر. إنها تخلع ثيابها. لسببٍ ما تخلع بيڤرلي ثيابها.

سأل ريتشي: «ما الذي تفعلينه؟»، وتصدَّع صوته المصدوم في كلمته الأخيرة.

قالت بيڤرلي: «أعرف شيئًا»، وبالنسبة إلى بيل بدا صوتها أكبر من سنها. «أعرف شيئًا لأن والدي أخبرني به. أعرف شيئًا سيلم شملنا مرَّة أخرى، لأنه إذا لم يُلمُّ شملنا، فلن نغادر هذا المكان أبدًا».

سألها بيل صوتٍ مُتحيرٍ ومذعور: «ماذا؟ ما الذي تتحدَّثين عنه».

- «شيءٌ سيلمُّ شملنا إلى الأبد. شيءٌ سيُبيِّن لكم...».

قال بيل وقد فهم فجأة كل شيءٍ: «لـ-لـ-لـ-لا يا بـ-بـ-بيڤرلي».

واصلت بيڤرلي: «... أنني أحبكم جميعًا، وأنكم جميعًا أصدقائي».

همَّ مايك بقول: «ما الذي تتحدَّ...».

بهدوء، قطعت بيڤرلي كلماته سائلة: «من الأوَّل؟ أظنُّه...

8

في عرين الشَّيء | 1985

... يموت»، قالتها بيڤرلي باكية. «لقد أكل الشَّيء ذراعه»، ومدَّت ذراعها

إلى بيل، وضمَّت نفسها إليه، فأبعدها بيل بقوَّة، ثم صاح فيها والدماء تجفُّ على شفتيه وذقنه: «إنها تهرب مرَّة أخرى! هـ-هـ-هيا بنا! ر-ريتشي! بـ-بـ-بن! هذه المرَّة سنقضي عليها!».

أمسك ريتشي ببيل وأداره نحوه، ونظر إليه كما قد تنظر إلى رجُلٍ يهذي بحالٍ ميؤوس منه: «بيل، يجب علينا الاعتناء بإدي. يجب أن نوقف نزيفه ونخرجه من هنا».

لكن بيفرلي جلست الآن ووضعت رأس إدي في حجرها وراحت وتهدهده، ثم أغلقت عينيه وقالت: «اذهب يا بيل. إذا تركته يموت سُدى، إذا عاد الشَّيء بعد خمس وعشرين سنة أخرى أو خمسين أو حتَّى بعد ألفي سنة، أقسم بالله سوف... سوف أطارد روحك في الجحيم. اذهب!».

حملق ريتشي فيها لحظة غير قادرٍ على حسم قراره، ثم بدأ يُدرك أن وجهها يفقد ملامحه. لم يعد هذا وجهًا، بل كتلة شاحبًا في الظلال المُتنامية. كان الضوء يخبو، وجعله هذا يحسم قراره. قال ريتشي لبيل: «حسنًا، هذه المرَّة سنطاردها».

كان بن يقف عند نهاية الشباك العنكبوتية، التي بدأت تتحلَّل من جديد. هو أيضًا شاهد الجسد المُعلَّق المُتأرجح عاليًا، ودعا ألا ينظر بيل إلى أعلى بدوره.

لكن عندما بدأت الشباك تتداعى في خيوطٍ وحبالٍ وكُتلٍ من كل مكان، رفع بيل نظره.

لمح بيل أودرا تهبط مُرتخية الجسد كأنها في مصعدٍ مُتهالك قديم ذي صرير. هبطت زوجته عشرة أقدام، ثم توقَّفت مُتأرجحة من جانب إلى آخر، ثم هبطت بعدها فجأة خمسة عشر قدمًا أخرى. لم تتبدَّل ملامح وجهها قط. ظلَّت عيناها الزرقاوان على اتِّساعهما، وتأرجحت قدماها أمامًا وخلفًا كنوَّاسين، وتدلَّى شعرها من فوق كتفيها، وكان فمها فاغرًا.

صرخ بيل: «أودرا!».

صاح بن: «بيل، هيَّا!».

كانت الشبكة العنكبوتية تتساقط الآن من كل مكان حولهم، مُرتطمة

بالأرض بقوَّة ثم تسعى. قبض ريتشي بيل فجأة من خصره ودفعه أمامًا، مُنطلقًا إلى فجوة ارتفاعها عشرة أقدام بين الأرض وأدنى كُتلة حبالٍ في الشبكة المُترهِّلة.

صاح بيل بيأسٍ: «هذه أودرا! هـ-هـذه أودرا!!».

قال ريتشي مُتجهِّمًا: «لا يهمني مقدار بصلة إن كانت البابا ذاته. لقد مات إدي وسوف نقتل الشَّيءَ إن كان حيًّا. سوف ننهي الأمر هذه المرَّة يا بيل الكبير، لا يهم إن كانت زوجتك على قيد الحياة أم لا. تحرَّك الآن!».

تلكَّأ بيل لحظة أخرى، ثم بدأت صورٌ خاطفة لجميع الأطفال الذين ماتو، ترفرف في عقله كالصور المفقودة من ألبوم چورچ.. أصدقاء المدرسة.

- «مـ-مـ-معك حـ-حق. هـ-هـ-يَّا بـ-بنا. فـ-فـ-فليسامحني الرَّب».

ركض بيل وريتشي أسفل كُتلة كبيرة من الحبال المُتداخلة قبل أن تنهار، وانضمَّا إلى بن على الجانب الآخر. ركض ثلاثتهم خلف الشَّيءِ، في حين ما كانت أودرا تتأرجح مُتدلِّية على ارتفاع خمسين قدمًا فوق الأرض الحجرية، ملفوفة في شرنقة مُخدِّرة ومُدلَّاه من الشباك المُتفسِّخة.

9

بن

تتبَّعوا أثر دماء العنكبوت السوداء، التي كانت بركًا زيتيةً من الإيكور تتقاطر وتجري إلى شقوق الأرض الحجرية. لكن عندما بدأت الأرض في الارتفاع نحو فتحة سوداء نصف دائرية في الجانب البعيد من الغُرفة، شاهد بن شيئًا آخر: دربًا من البيض. كانت كل بيضة سوداء ومُغطَّاة بقشرة سميكة خشنة وفي حجم بيض النعام تقريبًا، وثمَّة ضوءٍ شمعي يشعُّ من داخل كلٍ منها. أدرك بيل أنها نصف شفَّافة، واستطاع تمييز أجسام سوداء داخلها.

ذُرِّية الشَّيء. هكذا فكَّر بينما كانت أمعاؤه تصعد إلى حلقومه. ذُرِّية الشَّيء المُجهَضة. ربَّاه!

توقَّف ريتشي وبيل وراحا يُحدِّقان في البيض بذهولٍ أبلهٍ. صاح بن: «استمرَّا! استمرَّا! سأتولَّى أنا أمر هذي! اِلحَقَا الشَّيءَ!».

صاح ريتشي: «هاك»، وألقى إلى بن علبة ثقاب فندق ديري تاون هاوس.

التقطها بن، وواصل بيل وريتشي ركضهما. راقب بن ابتعادهما في الضوء الذي يواصل إعتامه سريعًا. لقد ركضا إلى ظلام ممرٍّ هروب الشَّيءِ وغابا عن ناظريه. ثم وجَّه بن بصره صوب أوَّل بيضة رقيقة القشرة، وإلى الظلِّ الأسود الشبيه بأسماك شيطان البحر داخلها، وشعر بعزيمته ترتخي. هذا... هذا كثير جدًّا يا رفاق. هذا ببساطة مهمَّة شنيعة جدًّا.. كما أن تلك الأجنة ستموت بلا ريب دون أن يتدخَّل. إنها لم تُبَض قدر ما أُسقطت.

لكن أوان فقسها اقترب... وإذا تمكَّنت واحدة منها من النجاة... واحدة فقط...

مُستجمعًا كل شجاعته، مُستعيدًا وجه إدي الشاحب المُحتضر، نزل بن بكعب حذائه الثقيل عالي الرقبة على البيضة الأولى. تحطَّمت البيضة بصوتٍ مُقزِّز، وراحت مشيمة نتنة ما تتلوَّى حول حذائه، ثم زحفت عنكبوت في حجم جرذٍ على الأرض بضعفٍ محاولة الفرار، واستطاع بيل سماع صوتها في عقله، سماع صرخاتها الغريبة التي تُشبه صفيحة منشارٍ تُثنى بُسرعة أمامًا وخلفًا مُصدرة موسيقى شبحية.

ترنَّح بن خلفها على ساقين شعر أنهما عصوان خشبيتان طويلتان ونزل بقدمه مرَّة ثانية. شعر بالجسد العنكبوتي ينسحق ويتناثر أسفل كعب حذائه. تقلَّصت أمعاؤه وهذه المرَّة لم يقوَ على كبح نفسه. قاء بن، ثم استدار على عقبيه،كاشطًا الشيء المقيت في الحجر، ومنصتًا إلى الصراخ الذي يتلاشى في عقله كأن لم يكن.

كم عددها؟ كم بيضة؟ ألم أقرأ من قبل أن العناكب تبيض آلاف البيض... أو ملايين؟ لا أستطيع الاستمرار في فعل هذا. سأجُنُّ قبل...

بل يجب عليك. يجب عليك. هيَّا يا بن... استجمع شتاتك!

اتَّجه إلى البيضة الثانية، وكرَّر العملية في آخر شعاع ضوءٍ مُحتضر. كان العملية برُمَّتها تكرارية تمامًا: انكسار القشرة الهشِّ، وتناثر السائل، ثم

رصاصة الرحمة النهائية. ثم يأتي دور التاليةِ.. والتالية.. والتالية.. ها هو يشقُّ طريقه ببطء إلى القوس الأسود الذي اختفى صديقيه فيه. صارت العتمة تامَّة الآن. إن بيفرلي والشبكة المُتداعية خلفه، وهو ما زال يسمع همس انهيارها. البيض حجارة شاحبة في الظلام. في أثناء اقترابه من كل بيضة، راح بن يشعل ثقابًا قبل أن يكسرها. في كل مرَّة كان قادرًا على تتبُّع مسار أطفال العنكبوت المُشوَّشة قبل أن يخبو ضوء الثقاب. لم يكن لديه أدنى فكرة كيف سيستمر في مهمَّته إذا انتهى ثقابه قبل أن يسحق آخر بيضة ويقتل آخر كائن من هذه الحمولة التي لا توصف بكلماتٍ بشرية.

10

الشَّيء/ 1985

ما زالوا قادمين.

استشعر الشَّيء قدومهم، واقترابهم، وتعاظم خوفه. ربُّما هو ليس خالدًا بعد كل شيءٍ. يجب التفكير في ما لا يُمكن تصوُّره في النهاية.. والأسوأ أنه يستشعر موت أطفاله. ثالث أولئك الرجال/ الأطفال يتقدَّم بثبات وسط ذُرِّيته، يكاد النفور يُفقده عقله لكنه يستمر رغم ذلك، ويسحق الحياة من كل بيضة بشكلٍ ممنهج.

لا، هكذا ناح الشَّيء، مُترنِّحًا من جانبٍ إلى آخر، مُستشعرًا بقوَّة الحياة تنساب من مئات الجروح، التي ليس منها واحد قاتل في حدِّ ذاته، لكن كل منها أنشودة ألم.. كل منها يوهنه. تدلَّت إحدى سيقانه من جسده مُعلَّقة من قطعة لحم وحيدة حيَّة. إحدى عينيه عمياء. أحسَّ الشَّيء بتمزُّق مُريع داخله، نتيجة لذلك السُّم الذي تمكَّن أحد الرجال/ الأطفال البُغضاء من رشِّه في حلقه.

وبعد كل ذلك ما زالوا قادمين، مُقلِّصين المسافة، كيف يُمكن لذلك أن يحدث؟ ناح الشَّيءَ وعوى، وعندما استشعر بأن آخر اثنين منهم صارا خلفه مُباشرةً، فعل الشَّيء الأمر الوحيد الذي يستطيع فعله الآن: استدار ليقاتل.

11
بيڤرلي

قبل أن ينفد آخر شعاع ضوءٍ ويطبق الظلام عليها، رأت بيڤرلي زوجة بيل تتداعى عشرين قدمًا أخرى ثم تُنخع إلى أعلى ثانيةً. لقد بدأت تُنسَج حول نفسها بشكلٍ لولبي، وشعرها الأحمر يتطاير. فكَّرت بيڤرلي: هي زوجته، لكنني حبه الأوَّل، وإذا كان قد ظن أن امرأةً أخرى هي الأولى، فهذا فقط لأنه نسيَ... نسيَ كل شيء عن ديري.

بعدها أطبق الظلام عليها وصارت وحيدة فيه، لا يؤنسها إلا صخب انهيار الشباك من حولها وجسد إدي المُستلقي بلا حراك. لم تكن تريد إفلاته، لم تكن تريد ترك وجهه يلمس أرض هذا المكان الدَّنسة. لذا ظلَّت تحمل رأسه بين ذراعها الذي تخدَّر بالكامل تقريبًا، وراحت تزيل الشعر بعيدًا عن جبهته المُبتلَّة. فكَّرت في الطيور. تلك فكرة افترضت أنها التقطت عدواها من ستان. ستان المسكين الذي لم يقوَ على مُواجهة هذا الجنون.

جميعهم... لقد كنت الحُب الأوَّل لهم جميعًا.

حاولت تذكُّر ما حدث. كان التذكُّر نافعًا وسط هذه الظُلُمات التي لا تستطيع تمييز من أين تأتي الأصوات فيها. جعلها التفكير تشعر بأنها أقل وِحدَة. راوغتها الذكرى في البداية، واعترضها مشهد الطيور. الغربان والسوادية والزرزوريات وعصافير الربيع التي عادت من مكانٍ ما، عندما كانت ثلوج الشتاء الذائبة ما زالت تجري في الشوارع، وبقع الجليد القذرة الأخيرة ما زالت عالقة بقتامة في أماكنها الظليلة.

بدا لها أن مرأى ومسمع تلك الطيور الربيعية دائمًا ما كان يحدث في يومٍ غائم، حين تتعجَّب من أين أتت. فجأة تعود الطيور إلى ديري، مالئة الهواءَ الأبيض بثرثراتها الصاخبة.. ثم تهبط على أسلاك خطوط الهاتف وقمم المنازل الڤيكتورية في غرب برودواي، وتتزاحم متنافسة فوق قضبان الهوائي

المعدني على سقف حانة والي سبا، وتُثقل أغصان أشجار الدردار السوداء الرطبة جنوب الشارع الرئيس، ثم تستقر، وتُكلِّم بعضها بعضًا بتلك الثرثرة الصاخبة كثرثرة فلَّاحات عجائز في سهرتهن الأسبوعية للعب الكوتشينة.. ثم بعدها، وانصياعًا لإشارة لا يستطيع البشر تمييزها، تُحلِّق جميعها في الهواء مُحيلة السماء سوداء بأعدادها الغفيرة... ثم تهبط في مكانٍ آخر.

أجل، الطيور، لقد اعتدت التفكير فيها كثيرًا لأنني كنت أشعر بالخزي. أظنُّ أن أبي من جعلني أشعر بالخزي من نفسي، وربُّما كان الخزي نابعًا من وسوسة الشَّيء أيضًا.. ربُّما.

زارتها الذكرى -الذكرى التي تقبع خلف الطيور- لكنها كانت مُشوَّشة وغائمة. رُبَّما ستظل هذه الذكرى كذلك إلى الأبد. إنها...

قُطع حبل أفكار بيڤرلي عندما أدركت أن إدي...

12

حُب ورغبة/ العاشر من أغسطس عام 1985

... أتى إليها أوَّلًا، لأنه كان أكثرهم ذُعرًا. لم يقترب منها بصفته صديقها، ولا حتَّى ليكون عاشقًا لبُرهة وجيزة، وإنما بذات الطريقة التي كان يقترب بها من أمه منذ أربع أو خمس سنوات مضت. لقد أتى إليها ليطمئن. لم يجفل إدي من نعومتها العارية على الإطلاق، وفي البداية شكَّت إن كان استشعرها من الأساس. كان يرتجف، ورغم أنها كانت تضمه بين ذراعيها، فإن الظلام كان كثيفًا ولم تستطع استبيان ملامحه حتَّى وهو بهذا القُرب منها.. وشعرت أنه باستثناء جبيرته القاسية، رُبَّما كان وهمًا حتَّى.

سألها: «ماذا تريدين؟».

قالت له: «يجب أن تضع شيئك داخلي».

حاول إدي التراجع مبتعدًا عنها لكنها أمسكته، فسَكَنَ في قبضتها. سمعت أحدهم -بن، هكذا فكَّرت- يلهث بشهيق كبير.

- «بيڤي، لا أستطيع فعل هذا، لا أعرف كيف...».

- «أظنُّ أن الأمر سهل. لكن عليك أن تخلع ملابسك أوَّلًا»، ثم فكَّرت في صعوبة خلع جميع ملابسه مع وجود جبيرته، وكيف سيتحتَّم عليه فصلها أوَّلًا عن قميصه ثم إعادتهما مرَّة أخرى، فأردفت: «سراويلك فقط على أيِّ حال».

- «لا، لا أستطيع!».

لكن بيڤرلي شعرت أن جُزءًا داخله يستطيع، بل يرغب في ذلك، لأن جسده المُرتجف هدأ، واستشعرت هي شيئًا صغيرًا صلبًا يضغط جانب بطنها الأيمن.

قالت له: «بل تستطيع»، ثم جذبته أرضًا. كان سطح الأرض أسفل ساقيها وظهرها العاري صلدًا، وطينيًّا، وجافًّا.. وكان هدير الماء الآتي من بُعد مُهدِّئًا ومُثيرًا للنعاس. أقبلت إليه، ومرَّت لحظة تدخَّل فيه وجه والدها بينهما، قاسيًا ومُنذرًا

(أريد أن أرى إن كنت سليمة)

ثم طوَّقت بيڤرلي بذراعيها عُنُق إدي، والتصقت وجنتها الناعمة بوجنته الناعمة.. وعندما لمس نهديها الصغيرين بتردُّد تنهَّدت وفكَّرت للمرَّة الأولى: هذا إدي.. وتذكَّرت ذلك اليوم في شهر يوليو -هل مضى على ذلك شهر واحد فحسب؟- عندما لم يظهر أيٌّ منهم في البرِّيَّة سوى إدي، وكان معه مجموعة من قصص ليتل لولو المُصوَّرة، وكيف راحا يقرآن معًا طوال فترة العصر.. يقرآن عن بحث ليتل لولو عن التوت البري، وكيف زجَّها هذا في كل أنواع المواقف الجنونية، ولقائها بالساحرة هازل، وكل تلك الشخصيات.. كم كان هذا مُمتعًا.

فكَّرت بيڤرلي في الطيور.. بالتحديد في السوادية والزرزوريات والغربان التي تعود في الربيع، وامتدت يدها إلى حزامه وفكَّته، وكرَّر هو ثانيةً أنه لا يستطيع فعل ذلك. أخبرته أنه يستطيع، هي تعرف أنه يستطيع، ولم تكن تشعر بالخوف أو الخزي الآن، بل بنوع من الانتصار.

قال لها: «أين؟»، وذلك الشيءُ الصلب يُحشر بإلحاف في طيَّة فخذها من الداخل.

- «هنا».

قال لها: «بيفي، سأسقط عليكِ»، وسمعت صوت أنفاسه وقد بدأت تُصفِّر على نحوٍ مُوجِع.

- «أظنُّ أن هذا هو المقصود نوعًا»، هكذا أخبرته وهي تُمسكه برفق وترشده. اندفع إدي أمامًا بسُرعة كبيرة وكان هناك ألم.

سسسسس! سحبت بيفرلي نفسًا عميقًا، وعضَّت أسنانها شفتها السُفلية وفكَّرت في الطيور مُجدَّدًا.. طيور الربيع، المُتراصة على أسطح المنازل، والتي تُقلِع إلى الهواء دُفعة واحدة أسفل سُحُب مارس المُنخفِضَة.

قال إدي في حيرة: «بيفرلي؟ هل أنت بخير؟».

قالت له: «أبطِئ من وتيرتك، كي تستطيع التنفُّس». تحرَّك إدي بشكل أبطأ بالفعل، وبعد هنيهة تسارعت أنفاسه، لكنها فهمت أن هذا لا علاقة له بأيِّ مُشكلةٍ صحيةٍ لديه.

تضاءل الألم داخلها. فجأة بدأ يتحرَّك بسرعة أكبر، ثم توقَّف، وارتعش، وأخرج صوتًا.. صوتًا ما. شعرت بيفرلي أن هذا الأمر لأجله.. أنها تجربة مُدهشة الخصوصية.. تجربة كـ... كالطيران. شعرت أنها قوية، واستشعرت نوعًا من الانتصار يتنامى داخلها. أهذا ما كان والدها يخشاه؟ حسنًا قد يكون معه حق! ثمَّة قوَّة في هذا الفعل حقًّا، قوَّة مُحطِّمة للقيود ومُحرِّرة للجوهر. لم تشعر الفتاة بمُتعة جسدية، وإنما اعتراها نوعٌ من النشوة العقلية. استشعرت التقارُب، واستمتعت به. دسَّ إدي وجهه في رقبتها وضمَّته هي. إنه يبكي. استمرَّت في ضمِّه، وشعرت أن الجُزء فيه الذي يعقِّد الصلة بينهما بدأ يضعف. لم يغادرها، ليس بالضبط. كان يضعف فحسب، ويصير... أصغر.

عندما تحرَّك وزنه بعيدًا عنها، اعتدلت بيفرلي ولمست وجهه في الظلام.

- «هل فعلت؟».

- «فعلت ماذا؟».

- «أيًّا ما كان.. لا أعرف بالتحديد».

هزَّ إدي رأسه واستشعرته بيفرلي في يديها المضغوطتين على وجنته.

- «لا أظنُّ أنه كان مثل... مثل ما يصفه الفتية الكبار. لكنه كان... أمرًا عظيمًا»، ثم خفض صوته كي لا يسمعه الآخرون: «أنا أحبك يا بيفي».

لقد انفصل وعيها نوعًا في أثناء حدوث الأمر. إنها مُتأكِّدة أن كلامًا أكثر قيل، بعضه همس، بعضه جهر، لكنها لا تتذكَّره. لا يهم الأمر. هل يتحتَّم عليها التحدُّث لكل واحد منهمَ عن كل شيءٍ من جديد؟ أجل، غالبًا. لكن هذا لا يهم. يجب أن تؤنسهم للانخراط في الفعل، هذه هي الصلة البشرية الأساسية بين العالم الفاني والأبدية، إنها المكان الوحيد الذي يلمس فيه مجرى الدَّم الخلود. لا يهم. المهم هو الحب والرغبة.. وهنا، في هذا الظلام، المكان مُناسب مثل أيِّ مكانٍ آخر، بل رُبَّما أفضل من بعضها.

جاء مايك إليها، ثم ريتشي، وتكرَّر الفعل. الآن بدأت تشعر ببعض المُتعة والحرارة الخافتة في جماعها الطفولي غير الناضج معهم، ووجدت نفسها تغلق عينيها مع مجيء ستان وتُفكِّر في الطيور، في الربيع والطيور. رأتها في عقلها مرارًا وتكرارًا، كلها ترفرف في آنٍ واحد، مالِئة أشجار الشتاء العارية. تلك المُسافرات الناجيات في عالمٍ مُتقلِّب في أعنف مواسم الطبيعة. رأت بيڤرلي الطيور تقلع إلى السماء، مرارًا وتكرارًا، تُرفرف بأجنحتها كتطايُر شراشفٍ عديدة على حبل غسيلٍ، وفكَّرت: بعد شهر من الآن، كل طفل في ديري سيكون لديه طائرة ورقية، وسيركضون بعيدًا عن بعض كي يمنعوا تشابك خيوط طائراتهم معًا. ثم فكَّرت ثانيةً: هذا بالضبط شعور التحليق.

شعرت مع ستان –كما هو الحال مع الآخرين– بذلك الشعور المُحبِط بالتلاشي.. بالمُغادرة.. عند اقتراب أيًّا ما كانت بغيتهم الحقيقية من هذا الفعل –نشوة ما مُطلقة– التي بشكلٍ ما لم تتحقَّق كاملةً.

سألته ثانيةً: «هل فعلت؟»، ورغم أنها لم تكن تعرف بالتحديد ماهية «هذا» الذي تسأل عليه، عرفت أنه لم يحدث له.

مرَّت فترة انتظار طويلة، ثم جاء بن إليها.

كان جسده بأكمله يرتجف، لكنه لم يكن هذا الارتجاف الخائف الذي أحسته في ستان.

قال لها في نبرة حاولت أن تكون عاقلة، لكنها كانت أيَّ شيءٍ آخر خلاف ذلك: «بيڤرلي، لا أستطيع».

– «أنت أيضًا تستطيع. أشعر بهذا».

بالتأكيد كانت تشعر. يوجد مزيدٌ من هذه الصلابة.. مزيدٌ منه.. لقد أحست بها أسفل ضغطة بطنه الرقيقة، وأثار حجمها فضولًا مُعيَّنًا داخلها وهي تتلمَّس هذا الانتفاخ بلطف. تأوَّه بن في خُنِّ رقبتها، وجعلت أنفاسه الساخنة جسدها العاري ينتفض بالقشعريرة. شعرت بأوَّل تأوُّدٍ حارٍ يندفع في عروقها. فجأة صار الشعور الذي يملأها كبيرًا جدًّا، وأدركت بيفرلي أنه كبيرٌ جدًّا

(وبما أنه كبيرٌ جدًّا، هل تستطيع إدخاله فيها؟)

وبالغٌ جدًّا بالنسبة إليها. كان الشعور الذي ألمَّ بها يرتدي ثياب بالغين وحذاءً عالي الرقبة. هذا شيءٌ كصواريخ M-80 الخاصة بهنري، شيءٌ ليس مُخصَّصًا لاستخدام الأطفال، شيءٌ قد ينفجر ويُفجِّرك معه. لكن ليس هذا المكان أو الوقت للقلق. هنا لا يوجد سوى الحُب، والرغبة، والظلام. إذا لم يجرِّبوا حظَّهم مع الاثنين الأوَّلين، فسيُتركون تحت رحمة الأخير.

- «بيفرلي، لا...».

- «أجل».

- «أنا...».

- «علِّمني كيف أُحلِّق يا بن»، قالتها بهدوءٍ كاذب عكس ما يعتمل داخلها، وأدركت من السخونة المُبتلة على وجنتها ورقبتها أنه بدأ يبكي: «أرني يا بن».

- «لا...».

- «إذا كنت أنت كاتب القصيدة، فبيِّن لي. المس شعري إن كنت ترغب.. كل شيء على ما يرام».

- «بيفرلي... أنا... أنا...».

لم يكن يرتجف الآن، بل يرتعش من قمَّة رأسه إلى أخمص قدميه. لكنها أحسَّت ثانيةً أن هذه الارتعاشة ليست خوفًا كلها. جزءٌ منها بشير لنوبة الانفعال التي يدور حولها هذا الفعل برُمَّته. إنها تتخيَّل

(الطيور)

وجهه.. وجهه العزيز الحلو المُخلص، ثم علمت أن انتفاضه ليس خوفًا، إنه يشعر بالرغبة، رغبة عميقة مُتَّقدة بالكاد يمسك بزمامها، وأعاد إليها ذلك شعورها بالقوَّة من جديد.. الشعور الشبيه بالتحليق.. شعور النظر من أعلى

ورؤية جميع الطيور فوق الأسطح، وعلى هوائي التلفاز فوق حانة والي، ورؤية الشوارع والمسارات تتكشَّف كأنها تنظر في خريطة.. أوه، الرغبة، يا لها من أمرٍ جلل. الحُب والرَّغبة هما ما يعطيانك أجنحة ويعلِّمانك التحليق بها.

صرخت فجأة باكية: «أجل يا بن!»، وانقطع القيد.

شعرت بالألم من جديد، وغمرها شعورٌ لحظي بالخوف من أنها تُسحق، ثم استند بن بعدها على راحتي يديه رافعًا نفسه قليلًا إلى أعلى فتلاشى ذلك الشعور.

إنه ضخم، أوه أجل.. ثم عاد الألم، وقد كان أعمق كثيرًا من المرَّة الأولى التي ولجها فيها إدي. اضطرَّت بيفرلي إلى عض شفتها مرَّةً أخرى والتفكير في الطيور إلى أن يذهب الألم. لكنه ذهب بالفعل، واستطاعت أن ترتفع قليلًا وتلمس شفتيه بإصبعها.. فتأوَّه.

عادت الحرارة إليها، وشعرت بقوَّتها تنتقل إليه، منحتها إليه عن طيب خاطر، وجارته. أحسَّت في البداية بأنها تُهزُّ، بلذاذة حلوة مُتصاعدة جعلتها تبدأ في تطويح رأسها من جانبٍ إلى آخر رغمًا عنها، وخرج غنجٌ بلا نغمة من شفتيها المُغلقتين. هذا تحليق حقيقي، هذا.. أوه يا للحُب، يا للرغبة.. أوه هذا شيءٌ يستحيل إنكاره.. شيءٌ يضم، يمنح، يصنع دائرة قويَّة: يضم، يمنح... يحلِّق.

همست بيفرلي: «أوه يا بن، أوه يا عزيزي، أجل»، مُستشعرة العرق يتفصَّد من وجهها، مُستشعرة علاقتهما والرباط بينهما كشيءٍ مُحكم، شيءٍ كالخلود، شيءٍ كالرقم 8 إذا نام على جانبه. «لكم أحبك يا حبيبي».

ثم شعرت أن شيئًا سيبدأ في الحدوث.. شيئًا ليس لدى الفتيات التي تضحك هامسة عن أمور الجنس في حمَّام البنات أدنى فكرة عنه، أو هكذا تظن. إنهن يدعين أن الجنس لا بُدَّ أنه أمر مُقزِّز، والآن ها هي تدرك أن الجنس يُمثِّل للكثيرات منهن وحشًا لا ملامح له. إنهن يُشرن إلى الفعل بالشَّيء، كما في: هل تقبلين فعل الشيء؟ هل مَارَسَت أختك وحبيبها الشيء؟ هل ما زال أبوك وأمك يُمارسان الشيء؟ ثم يؤكِّدن بعدها مدى عزمهن على عدم مُمارسة

الشيء قط. أوه أجل، إذا سمع أحدٌ ذلك سيعتقد أن جميع الفتيات في فصل الصف الدراسي الخامس هن عوانس مُستقبليات، وما كان واضحًا لبيفرلي أن أيًّا منهن لا تشك في ذلك الاستنتاج. كتمت بيفرلي صرخاتها أسفل بن لأنها علمت أن الآخرين سيظنونها تتأذّى بشدّة، وضعت طرف يدها في فمها وعضّت عليها بقوّة. إنها تفهم الآن ضحكات جريتا بوي وسالي مولر وجميع الأخريات بشكلٍ أفضل: ألم يقضوا هم -سبعتهم- أطول وأرعب صيفٍ في حياتهم وهم يضحكون كالمجانين؟ أنت تضحك لأن المجهول وما يخيفك شائقٌ أيضًا، أنت تضحك كما يضحك صغير ويبكي في الوقت نفسه أحيانًا عندما يقترب منه مُهرِّج السيرك واثبًا، وهو يعلم ضمنيًّا أن الأمر من المُفترض أن يكون مُضحكًا ومُسلِّيًا.. لكنه مجهولٌ أيضًا، ومُترع بقوّة المجهول الأبدية.

لن يكبح العضُّ على يدها صرختها. الطريقة الوحيدة التي تستطيع طمأنتهم بها وطمأنة بن، أن تصرخ بموافقتها في قلب هذا الظلام.

«أجل! أجل! أجل». ملأت صور رائعة عن الطيران دماغها، ممزوجة بصيحات طيور السوادية والزرزوريات العالية.. تلك الأصوات صارت أعذب موسيقى في الكون.

كانت تُحلِّق.. تُحلِّق.. ولم تعد القوّة معها أو معه بل في مكانٍ ما بينهما.. ثم تأوّه هو بدوره، وشعرت أن يديه ترتجفان، فقوّست نفسها إلى أعلى لتلصق به، مُستشعرة تشنُّجه، ولمسته.. مُستشعرة مجموع علاقته الحميمة في الظلام. لقد نفذا إلى ضوء الحياة معًا.

ثم انتهى الأمر واستلقى أحدهما بين ذراعي الآخر، وعندما حاول أن يقول لها شيئًا -ربَّما اعتذارًا غبيًّا من شأنه أن يفسد ما تتذكَّره- أوقفت كلماته بقُبلة، وأرسلته بعيدًا.

جاء بيل إليها.

حاول أن يقول شيئًا، لكن لعثمته كانت في أكبر تجلٍّ لها الآن.

قالت له مُطمئنة بتجرُبتها الجديدة لكن دون أن تغفل أنها صارت مُنهكة وموجوعة بحق الآن: «كُن هادئًا». كان تشعر بلزوجة بين فخذيها من الداخل

والخلف، وفكَّرت أن هذا رُبَّما لأن بن أنهى رغبته بالفعل، أو رُبَّما لأنها تنزف. «كل شيء سيكون على ما يُرام».

- «ه-ه-ه-هل أ-أ-أنت مُ-مُ-مُتأكِّدة؟».

قالت له: «أجل»، وعقدت يديها خلف عُنُقه، مُستشعرة تلبُّد الشعر المُتعرِّق على قفاه. «يُمكنك المُراهنة على هذا».

- «ه-ه-ه-هل ا-ا-ا... هل ا-ا-ا...».

«ششش...».

لم يكن الأمر مثلما حدث مع بن. أينعم ثمَّة شغف، لكنه ليس من النوع نفسه. أن تكون مع بيل الآن هو أفضل ختام مُمكن لهذا الفعل. إنه رقيق، وحنون، وهادئٌ نوعًا. استشعرت تلهُّفه، لكنه كان يُروِّضه ويُخفِّفه من قلقه عليها، لأن رُبَّما بيل هو فقط -دونًا عن نفسها- الذي يدرك حقًّا أيُّ فعلٍ جللٍ هذا، وكيف يجب ألَّا يتحدَّثوا عنه أبدًا مع أيِّ شخص، ولا حتَّى بعضهم لبعض.

في النهاية، فوجئت بيڤرلي بفيض الأحاسيس المُفاجئ الذي راح يتصاعد داخلها، وكان أمامها وقتٌ لتُفكِّر: أوه! سيتكرَّر الأمر، لا أعرف إن كنت أستطيع تحمُّل...

لكن أفكارها ذوت بعيدًا من فرط العذوبة، وكانت بالكاد تسمعه وهو يقول مرارًا وتكرارًا: «أنا أحبك يا بيڤ، وسأحبك دائمًا»، دون أيِّ تلعثُمٍ على الإطلاق.

ضمَّته بيڤرلي إليها وظلَّا على هذه الوضعية برُهة... خدَّه الناعم يلتصق بخدِّها.

انسحب بيل خارجًا منها دون أن يقول أيَّ شيء.. ولبُرهة قصيرة ظلَّت بمُفردها، تلملم ملابسها، وترتديها ببطء، شاعرة بألم فاترٍ نابض لن يعرفوه أبدًا، لكونهم ذكورًا.. وشاعرة أيضًا بنوعٍ من المُتعة المُنهَكة والرَّاحة والإعفاء من انتهاء الأمر. ثمَّة فراغ بالأسفل الآن، ورغم أنها سعيدة لأن جسدها صار ملكها ثانيةً، فقد أضفى هذا الفراغ حُزنًا غريبًا لن تستطيع التعبير عنه أبدًا، إلا عن طريق التفكير في أشجارٍ تقف عارية تحت السماء الشتوية البيضاء..

أشجار خالية.. أشجار تنتظر طيور سوداء ستأتي في نهاية مارس كأنها وزراء آتون للإشراف على وفاة الثلوج.

عثرت بيڤرلي عليهم عن طريق تلمُّس أيديهم في الظلام.

مرَّت بُرهة لم ينطق فيها أحدٌ، وعندما نطق أحدهم أخيرًا، أدهشها أنه كان إدي: «أظنُّنا كان يجب أن ننعطف يسارًا عندما أخذنا المُنعطف الأيمن قبل مُنعطفين. يا للمسيح، أنا مُتأكِّد من هذا، لكنني كُنت مُتعرِّقًا ومُشوَّشًا تمامًا...».

قال ريتشي: «لطالما كنت مُشوَّشًا يا إدز». كان صوته دمثًا الآن، وقد ذهب عنه ذلك الذُّعر البدائي تمامًا.

قال إدي مُتجاهلًا إيَّاه: «لقد أخذنا مُنعطفات خاطئة أخرى، لكن هذا أسوأها. إذا استطعنا العثور على طريقنا رجوعًا إلى هناك، أظنُّنا سنكون على ما يُرام».

تشكَّلوا في طابورٍ أخرق يتقدَّمه إدي، وثانيه بيڤرلي التي وضعت يدها على كتفه، في الوقت الذي وضع فيه مايك يده على كتفها. بدأوا يتحرَّكون ثانيةً، أسرع هذه المرَّة، ولم يُظهر إدي أيًّا من انزعاجه العصبي السابق.

فكَّرت بيڤرلي وهي ترتعش من الشعور بالإعفاء والبهجة: إننا عائدون للديار. أجل، الديار. سيكون ذلك جيِّدًا. لقد أنهينا مَهمَّتنا.. أنهينا ما جئنا لإتمامه.. الآن نستطيع أن نعود أطفالًا فحسب من جديد.. وسيكون ذلك جيِّدًا أيضًا.

وبينما هم يتحرَّكون في الظلام، أدركت أن صوت الماء الجاري صار أقرب.

الفصل الثالث والعشرون

خروج

1

ديري | من التاسعة إلى العاشرة صباحًا

في التاسعة وعشر دقائق، سجَّلت سُرعة الرياح في ديري متوسِّط خمسة وخمسين ميلًا في الساعة، مع زوابع تصل إلى سبعين ميلًا في الساعة. ثم سجَّل مقياس شِدَّة الرياح في مبنى المحكمة زوبعة وصلت إلى واحد وثمانين ميلًا في الساعة، وانخفضت إبرة المؤشِّر بعدها إلى الصفر بعدما انتزعت الرياح الجهاز الدائري الشبيه بالكوب من دعائمه على سقف مبنى المحكمة، وطارت به إلى عتمة اليوم المطير، ومثل قارب چورچ دِنبروه، لم يُر هذا المقياس مرَّةً أخرى أبدًا. بحلول التاسعة والنصف، لم يعد الأمر الذي أقسمت إدارة المياه في ديري أنه صار مُستحيلًا ممُكنًا فحسب، بل وشيك الحدوث: ثمَّة احتمال أن يغرق وسط مدينة ديري للمرَّة الأولى منذ أغسطس عام 1958، عندما انسدَّ عددٌ كبير من المصارف القديمة أو انهار خلال العاصفة المطيرة الجنونية. في العاشرة إلا الرُبع، بدأ رجالٌ بوجوهٍ مُكفهرَّة يركبون سيَّاراتٍ وشاحناتٍ صغيرة يصلون إلى جانبي القناة، وعِتادهم الذي يقصفه الطقس يتمايل بجنونٍ مُتموِّجًا في قطار الرياح السريع.. وللمرَّة الأولى منذ أكتوبر عام 1957، بدأت أكياس الرمل في الارتفاع بطول جانبي القناة. امتلأ القوس الذي تمرُّ القناة منه أسفل التقاطع الثُلاثي في قلب وسط المدينة إلى قمَّته بالماء، وصارت الشوارع الثلاثة، الرئيس والقناة وسفح تلَّة أب–مايل، غير صالحة للاستخدام

إلا سيرًا على الأقدام. شعر أولئك الذين شرعوا يخوضون في المياه في أثناء عملية تكديس حقائب الرمال بالشوارع ذاتها تهتزّ تحت أقدامهم من تدفُّق الماء المحموم، بالطريقة ذاتها التي تهتزُّ بها الجسور العلوية عندما تمرُّ الشاحنات الكبيرة عليها. لكن هذا الاهتزاز كان مُتواصلًا، وشعر الرجال بسعادة لأنهم في نطاق وسط المدينة الشمالي، بعيدًا عن مركز الارتجاف المتواصل الذي يستشعرون ذبذباته أكثر ممَّا يسمعوه. صاح هارولد جاردنر في ألفريد زيتنر، الذي يُدير متجر زيتنر ريالتي في الجانب الغربي من البلدة، وسأله إن كانت الشوارع ستنهار. قال زيتنر أن الجحيم سيتجمَّد قبل حدوث شيءٍ كهذا. تخيَّل هارولد صورة موجزة لأدولف هتلر ويهوذا الأسخريوطي يتزلَّجون على الجليد في الجحيم، وواصل تكديس أكياس الرمل. صار الماء الآن على بُعد ثلاث بوصات من قمَّة جدار القناة الخرساني، وفي البرِّية، كان الكِندوسكيج قد فاض على ضِفَّتيه بالفعل، وبحلول الظهيرة ستكون الشُجيرات المُثمرة والخمائل ناتئة وسط بُحيرة ضحلة نتنة، واصل الرجال العمل، مُتوقِّفين فقط عندما تنفد إمداداتهم من أكياس الرمال... ثم بعدها، في العاشرة إلا عشر دقائق، تجمَّدوا في أماكنهم بفعل انهيارٍ هائلٍ مُدهش صاخب الصوت. أخبر هارولد جاردنر زوجته لاحقًا أنه ظن أن نهاية العالم قد أتت. لم يكن ذلك انهيار منطقة وسط المدينة -ليس بعد- بل بُرجِ المياه. فقط أندرو كين، ابن نوربرت كين، هو الذي شاهد الأمر، وكان قد دخَّن كثيرًا من الماريجوانا الكولومبية الحمراء هذا الصباح، وظنَّ في البداية أنه يهلوس. كان يجوب شوارع ديري التي أغرقها الماء منذ الثامنة صباحًا تقريبًا في الوقت نفسه الذي صعدت فيه روح دكتور هيل إلى عائلته الطبية العظيمة في السماء. كان أندور منقوعًا بأكمله في الماء إلى الجلد (باستثناء لفافة الماريجوانا زنة أوقيتين والمدسوسة تحت إبطه) لكنه لم يكن واعيًا بذلك. اتَّسعت عيناه في عدم تصديق. لقد وصل إلى الحديقة التذكارية، التي تقف على بُعد خطوات من تلِّة بُرج المياه.. وإذا لم يكن مُخطئًا، فإن بُرج المياه الآن واضح الميل، مثل ذلك البُرج الفاشل في بيزا الذي يقف على صناديق معكرونة. صرخ

أندرو كين: «أوه، يا للعجب!»، واتَّسعت عيناه أكثر من ذي قبل -لقد بدتا كأنهما مُنتشيتان بفعل مُخدِّراتٍ قوية الآن- عندما بدأت أصوات الانقسام والتكسُّر. كان ميلان بُرج المياه يزداد حِدَّة أكثر وأكثر، بينما كان يقف هو وسراويله الجينز مُلتصقة بساقيه العاجفتين، وعصابة رأسه تقطر ماء المطر في عينيه. كانت الألواح البيضاء تُرمى من جانب بُرج المياه الدائري المُقابل لوسط المدينة. لا، لم تكُن تُرمى بالضبط، بل تتدفَّق.. ثم ظهر شقٌّ واضحٌ فوق الأساس الحجري لبُرج المياه بنحو عشرين قدمًا. بدأ الماء في الاندفاع عبر هذا الشقِّ، ولم تعد الألواح الخشبية تتدفَّق ساقطة، بل راحت الرياح تذروها. بدأ صوت الانهيار يخرج من بُرج المياه، واستطاع أندرو رؤيته وهو يتحرَّك كعقرب ساعة عملاقة يميل من مُنتصف الظهيرة إلى الساعة الواحدة أو الثانية. سقطت لُفافة الماريجوانا من تحت إبطه وانحشرت داخل قمصيه قرب حزامه. لم يلحظ أندرو ذلك. كان مجذوبًا تمامًا. جاءت أصوات رنَّانة عملاقة من داخل البُرج، كأن أوتار أكبر جيتارٍ في العالم تُقطع واحدًا تلو الآخر. تلك هي الأسلاك الفولاذية داخل الأُسطُوانة التي توفِّر توازن الإجهاد المُناسب في مُقابلة ضغط المياه. بدأ بُرج المياه في التداعي أسرع فأسرع، وتمزَّقت الألواح والركائز الخشبية وتطايرت شظاياها حائمة في الهواء. صرخ أندرو كين: «يا للعنة بحق الجحيم!»، لكن صرخته ذابت في خضم صخب السقوط النهائي لبُرج المياه، وارتفاع صوت مليون وسبعمئة وخمسون جالونٍ من المياه.. سبعة آلاف طنٍ من المياه.. وانبثاقها من جانب البناء المُتمزِّق. جاء الماء في موجة رمادية هائلة، ومن دون شك لو أن أندرو كين كان على جانب بُرج المياه المُقابل لسفح التلَّة لكان سيغادر العالم في لمح البصر. لكن الله يُحابي السكارى، والأطفال، والمُنتشين بالمُخدِّراتِ. كان أندرو يقف في مكانٍ يُمكِّنه من مُراقبة كل شيءٍ من دون أن يُمس بقطرة ماءٍ واحدة. «يا لها من مؤثراتٍ بصريةٍ لعينة!»، هكذا صاح أندرو بينما الماء يكسح الحديقة التذكارية كجسمٍ واحدٍ صلب، جارفًا معه الساعة الشمسية التي كثيرًا ما وقف جوارها صبيٌّ يُدعى ستان يوريس مُراقبًا الطيور بمنظار أبيه المُعظَّم.

«مُت بغيظك يا ستيڤن سبيلبرج!». انجرف حوض الطيور بدوره. شاهده أندرو لحظات يتقلَّب مرارًا وتكرارًا، قاعدةً على طبقٍ وطبقًا على قاعدةٍ، ثم غاب عن نظره. تناثرت صفوف أشجار القيقب والبتولا التي تفصل الحديقة التذكارية عن شارع كانساس كأنها زجاجاتٍ في صالة بولينج، وكسحت في طريقها خطوط كهرُباءٍ كثيرة ترمي بشررٍ. تدفَّق الماء عبر الشارع، ثم انبسط مُنتشرًا، وبدأ يتصرَّف كماءٍ أكثر منه ذلك الحائط الصلد المُذهل الذي اقتلع الساعة الشمسية وحوض الطيور والأشجار.. لكنه كان لا يزال يحمل قوَّة تكفي لكنس دزينة من المنازل تقريبًا على الجانب البعيد من شارع كانساس وجرفها معه إلى البرِّية. مضت المنازل مع الماء بسهولة مُخيفة، معظمها بحالته.. كاملًا سليمًا. ميَّز أندرو كين أحد المنازل. كان يخص عائلة كارل ماسنسيك. كان السيِّد ماسنسيك مُدرِّسًا للصف السادس الابتدائي، ورجُلًا بادي الخِسَّة. مع عبور المنزل حافَّة البرِّية وهبوطه المنُحدر، أدرك أندرو أنه لا يزال قادرًا على رؤية شمعة زاهية تحترق في إحدى النوافذ، وتساءل لفترة وجيزة إن كان يتخيَّل أم يرى خيالها، إن كنت تستطيع تأمُّل هذا المفهوم. حدث انفجارٌ في البرِّية وتصاعد لهبٌ أصفر وجيز عندما أشعل فانوس يعمل بالغاز في أحد المنازل الزيت المُتدفِّق من خزَّان وقودٍ مُحطَّم. حدَّق أندرو في الجانب البعيد من شارع كانساس، حيث كانت تصطفُّ منذ أربعين ثانية مجموعة أنيقة من منازل الطبقة المتوسِّطة. لقد غادرت المدينة الآن، ومن الأفضل لك أن تُصدِّق ذلك أيُّها الرفيق العزيز. في الأماكن التي كانت المنازل تشغلها، ظهرت عشرة أقبية وكانت تبدو كحمَّامات سباحة. أراد أندرو التعبير عن رأيه أن هذا كان أمرًا لعينًا لا يُصدَّق، لكنه لم يعد قادرًا على الصياح أكثر من ذلك. يبدو أن مصرخته تعطَّلت. كان يشعر بحاجبه الحاجز ضعيفًا وغير ذي جدوى. سمع سلسلة من أصوات الهدر الساحق، ثم صوت عملاق يهبط درجات سُلَّم. كان هذا بُرج المياه الذي يتدحرج أسفل التلَّة. أُسطُوانة بيضاء عملاقة ما زالت تلفظ بقايا مائها، بينما تطير أسلاك الفولاذ التي تُدعِّمها في الهواء، ثم تهبط أرضًا كسياط ثيرانٍ معدنية هائلة، حافرة أخاديد في التُربة

الناعمة راحت تمتلئ فورًا بمياه الأمطار المُتسارعة. في أثناء مُراقبة أندرو، وذقنه مُلتصق تقريبًا بعظمتي ترقوته، طار بُرج المياه -الأطول من مئة وخمس وعشرين قدمًا، والذي كان في وضعٍ أُفقي الآن- في الهواء. للحظة بدا أنه تجمَّد هناك، كصورة سيريالية آتية من أرضٍ أبدية الجنون. راح المطر يضرب الجوانب المُحطَّمة، والنوافذ المكسورة، والإطارات المُعلَّقة، ومصابيح الضوء الوامضة في القمَّة المخصَّصة لتحذير الطائرات الخفيفة المُحلِّقة على ارتفاعٍ منخفض.. ثم في النهاية سقط البرج على أرض الشارع بانفجارٍ هائلٍ مروِّعٍ أخير. استقبل شارع كانساس ماءً عظيمًا، والآن بدأ الماء يندفع إلى وسطِ المدينة عن طريق مُنحدر تلَّة أب-مايل. فكَّر أندرو كين: ثمَّة منازلٍ هناك، وفجأة لم تعد ساقاه قادران على احتماله. جلس أندرو أرضًا بقوَّة ناثرًا الماء من حوله، وحدَّق في الأساس الحجري المكسور الذي وقف عليه بُرج المياه طوال حياته، وتساءل عمَّا إذا كان أيُّ شخصٍ سيُصدِّقه.

ثم تساءل أندرو إن كان يُصدِّق نفسه من الأساس.

2

القتل | العاشرة ودقيقتان صباحًا - 31 مايو عام 1985

شاهد بن وريتشي الشَّيء يلتفت إليهما، وفكَّاه يُفتحان ويغلقان. كانت عينه الواحدة تنظر شزرًا إليهما، وأدرك بيل أنها تشعُّ بضوئها الخاص، كحشرة مُقزِّزة مُضيئة. لكن الضوء فيها كان مُتذبذبًا وغير واثق. إن الشَّيءَ مُصابٌ بأضرارٍ جسيمة، وأفكاره مشوَّشة مضطربة في رأسه.

(اتركاني! اتركاني ويمكنكم جميعًا أن تنالوا كل شيءٍ تمنَّيتوه يومًا. مال، شُهرة، ثروة، سلطة.. أستطيع إغراقكم بهذه الأشياء)

تقدَّم بيل أمامًا مُثبِّتًا عينيه على عين الشَّيءِ الوحيدة الحمراء وهو أعزل. شعر بالقوَّة تتنامى داخله، وتستثمر فيه، غازلة ذراعيه بحبالٍ متينة، مالئة قبضتيه بعُنفوانٍ باطش. سار ريتشي إلى جوراه وشفتاه مزموتان من فوق أسنانه.

(أستطيع أن أعيد زوجتك إليك. أنا الوحيد القادر على فعل ذلك، ولن تتذكَّر أيَّ شيءٍ كما لم يتذكَّر سبعتكم شيئًا).

صارا قريبين جدًّا الآن. شمَّ بيل رائحة الشَّيءِ النتنة وأدرك برُعبٍ مُفاجئ أنها رائحة البرِّية.. الرَّائحة التي ظنوها رائحة المجاري والجداول المُلوَّثة ومكبِّ النفايات المُحترق... لكن هل كانوا يعتقدون حقًّا في أيِّ وقتٍ مضى أن تلك الروائح هي كل ما في الأمر؟ بالطبع لا. إنها رائحة الشَّيءِ، ورُبَّما كانت مُركَّزة بقوَّة في البرية، لكنها لطالما انتشرت فوق ديري برُمَّتها كغيمة هائلة، وقد اعتادها الناس ولم يعودوا يشعرون بها، كما يعتاد الحُرَّاس في حديقة الحيوان رائحة أقفاص حيواناتهم بعد فترة، بل يتعجَّبون حتَّى عندما يُجعِّد الزوَّار أنوفهم وهم يتجوَّلون في الحديقة.

غمغم بيل لريتشي: «معًا»، فأومأ ريتشي دون أن يرفع عينيه عن العنكبوت، التي انكمشت الآن بعيدًا عنهما، وسيقانها الشوكية البغيضة تنقر الأرض، بعدما حوصرت في نهاية المطاف.

(لا أستطيع منحكم حيواتٍ خالدة لكنني أستطيع أن ألمسكم وستعيشون بعدها أعمارًا طويلة جدًّا جدًّا -مئتا عام، ثلاثمئة عام، بل خمسمئة عام رُبَّما- أستطيع جعلكم آلهة على الأرض، إذا تركتماني وشأني تركتماني وشأني تركتماني وشأني).

سأل ريتشي بصوتٍ أجش: «بيل؟».

انقضَّ بيل بصُراخٍ يتنامى في أعماقه، وركض ريتشي إلى جواره خطوة بخطوة. ضرب كلاهما بقبضتيهما اليُمنى، لكن بيل أدرك أنهما لا يضربان بقبضتيهما على الإطلاق. إنهما يضربان بقوَّتهم جميعًا مُجتمعة، مُضافًا إليهما بطش ذلك الآخر.. وفوق كل شيءٍ يضربان بقوَّة الذاكرة والرغبة، قوَّة الحُبِّ والطفولة التي لم تُنس، كمطرقة كبيرة واحدة.

ملأت صرخة العنكبوت رأس بيل وبدا أنها تمزِّق عقله. شعر أن قبضته تغوص عميقًا في لزوجة مُراوِغة، وتبعتها ذراعه التي غاصت إلى كتفه.

سحبها بيل ثانيةً وهي تقطر بدماء العنكبوت السوداء، وراح الإيكور يتدفَّق من الفتحة التي صنعتها قبضته.

شاهد بيل ريتشي يقف أسفل جسد الشَّيءِ المُنتفخ تقريبًا، مُغطًّى بدمائه الداكنة المُتناثرة، في وضعية مُلاكمة كلاسيكية، وقبضتيه الملوَّثتين مُتأهِّبتين.

هاجمتهما العنكبوت بأرجلها. شعر بيل بأحد أطرافها يمزِّق جانبه، ويشقُّ قميصه والجلد من أسفله. ضربت إبرة العنكبوت المُميتة الأرض دون جدوى، ودوَّت صرخاتها كقرع أجراسٍ هائلة في رأسه. تقدَّمت العنكبوت بخرق إلى الأمام، محاولة أن تعُضَّه، لكن بدلًا من التراجع، اندفع بيل أمامًا مُستخدمًا لا قبضتيه فحسب، بل جسده بأكمله، مُحيلًا نفسه إلى طوربيدٍ بشري. اندفع بيل إلى أمعاء الشَّيءِ كمُدافع كُرة قدمٍ أمريكية حانيًا كتفيه ورأسه وهو ينطلق إلى الأمام مُباشرةً.

للحظة شعر بيل أن جلدها النتن ينثني ببساطة، كأنه سيرتد بعدها ويُطيِّرهُ في الهواء. بصرخة مُجمجمة غير ملفوظة، حشر بيل نفسه بقوَّة أكبر، دافعًا نفسه بساقيه أمامًا وإلى أعلى، ناهشًا جسد الشَّيءِ بيديه. تمزَّق الجلد مُنفتحًا وولج بيل إلى الداخل، وغُمِر بسوائل الشَّيءِ الساخنة. جرت السوائل على وجه وفي أُذُنيه، وعندما تنفَّس دخلت السوائل إلى أنفه في مجريين رفيعين مُراوغين.

لقد عاد إلى الظلام ثانيةً، غارقًا إلى الكتفين داخل جسد الشَّيءِ المُتشنِّج، وبأُذُنيه المسدودتين استطاع أن يسمع قرعًا ثابتًا دومب-دومب-دومب-دومب كقرع طبلة كبيرة، كالتي تقود الموكب عندما يأتي السيرك إلى البلدة بمجموعته الكاملة من غريبي الهيئة والمُهرِّجين المرحين المُتبخترين على أعوادٍ خشبية طويلة.

هذا نبض قلب الشَّيءِ.

سمع بيل ريتشي يصرخ بألم مُفاجئ بصوتٍ تصاعد سريعًا وصار تأوُّهًا لاهثًا قبل أن ينقطع بغتةً. دفع بيل كلتا قبضتيه فجأة إلى الأمام. كانت تختنق داخل حقيبة سوائل وأمعاء الشَّيءِ النابضة.

دومب- دومب-دومب-دومب.

أقحم بيل يديه بقوَّة داخل الشَّيءِ.. وهو يُمزِّق، ويُقطِّع، ويفصل، باحثًا عن مصدر الصوت. راح ينتزع الأعضاء ويُفتِّقها، وأصابعه الزلقة تُغلق وتُفتح، وصدره المنغلق ينتفخ من نقص الهواء.

دومب- دومب-دومب-دومب.

وفجأة صار في قبضته شيءٍ هائلٍ حيٍّ ينبض ويضخ بين راحتي يديه ويبعدهما مرارًا وتكرارًا.

(لا لا لا لا لا لا)

بل أجل! هكذا صرخ بيل مُختنقًا، وغارقًا. أجل! جرِّبي هذه أيَّتُها العاهرة! تذوَّقي هذا! أتحبينه؟

شابك بيل أصابعه على حُجرات القلب النابضة، مُباعِدًا راحتيه في شكل حرف V معكوس، ثم ضمَّهما معًا بكل ما أوتي من قوَّة.

صدرت صرخة ألمٍ وخوفٍ أخيرة عندما انفجر قلب الشَّيءِ بين يديه، ثم تداعى بين أصابعه كأوتارٍ مشدودة.

دومب- دومب-دومب-دومـ...

خبت الصرخة وتناقصت. شعر بيل بجسد الشَّيءِ يطبِقُ عليه، وصار جسده كيدٍ مدسوسة في قُفَّازٍ حريري.. ثم تراخى كل شيءٍ بعدها. أدرك بيل أن جسد الشَّيءِ يميل ببطء إلى أحد الجوانب، وراح في الوقت نفسه يجذب نفسه خارجًا ووعيه يغادره سريعًا.

انهارت العنكبوت على جانبها. كُتلة عملاقة من اللحم الغريب يتصاعد البخار منها، تتشنَّج أرجلها وتنتفض، وتداعب جانبي النفق وتكشط الأرض في (شخبطة) عشوائية.

ترنَّح بيل مُبتعدًا، واستنشق نفسًا عظيمًا وبصق في محاولة منه لتنظيف فمه من طعم الشَّيءِ المُريع، ثم تعثَّر أرضًا وسقط راكعًا على رُكبتيه.

بعدها، وبجلاءٍ تام، سمع صوت الآخر. قد تكون السُلحفاة ميِّتة، لكن أيًّا كان من أوجدها فهو حيٌّ لا يموت.

«لقد أبليت حسنًا يا بُني».
ثم تلاشى الصوت، وتلاشت القوَّة معه. شعر بيل بالضعف، والتغيُّر المُفاجئ، والجنون النصفي.. ونظر من فوق كتفه ورأى الكابوس العنكبوتي الأسود المُحتضر ما زال ينتفض ويتشنَّج.
صاح بيل بصوتٍ غليظٍ مُتقطِّع: «ريتشي! ريتشي، أين أنت يا رجُل؟».
لا إجابة.
كان الضوء قد تلاشى الآن. لقد مات مع موت العنكبوت. بحث بيل بأصابع واهنة في جيب قميصه المُلطَّخ عن آخر علبة ثقاب. كانت موجودة، لكنها لَن تشتعل، فالرؤوس مغموسة في الدماء السوداء.
صرخ بيل ثانيةً: «ريتشي!»، وبدأ ينتحب وهو يزحف إلى الأمام مُتلمِّسًا طريقه في الظلام. في النهاية ارتطمت إحدى يديه بجسمٍ مُرتخٍ لا نشاط فيه. حامت يداه فوقه، ثم توقَّفتا عندما لمستا وجه ريتشي.
- «ريتشي! ريتشي!».
لا يزال الجواب مُنعدمًا. مُكافحًا في الظلام، وضع بيل ذراعه أسفل ظهر ريتشي والأخرى أسفل رُكبتيه، ثم تهادى مُرتعشًا على قدميه، وبدأ يتخبَّط رجوعًا وريتشي بين ذراعيه في الطريق الذي جاء كلاهما منه.

3

ديري | من العاشرة إلى العاشرة والربع صباحًا

في العاشرة صباحًا، ازدادت حدَّة الاهتزاز الثابت الذي يُرجِف شوارع وسط المدينة وصار هديرًا مدوِّيًا. لاحقًا ستكتب جريدة أخبار ديري قائلة أن دعامات قطاع القناة الذي يجري تحت الأرض أُضعِفَت بسبب اعتداء الماء الوحشي الذي وصل إلى مرحلة الفيضان الهائج، فانهارت ببساطة. لكن، مع ذلك، اعترض البعض على وجهة النظر هذه. لاحقًا أخبر هارلود جاردنر زوجته: «لقد كنت هناك. أعرف ما حدث. ليس الأمر فقط أن دعامات نفق

القناة انهارت. لقد وقع زلزالٌ، هذه حقيقة ما حدث، وقع زلزالٌ لعينٌ مُدمِّر».

في كلتا الحالتين، كانت النتيجة واحدة. مع تزايد الهدير المُرجِف شيئًا فشيئًا، بدأت النوافذ تتحطَّم، وملاط الأسطح يتساقط، وتنامى صرير أساسات المنازل والعوارض الخشبية غير البشري إلى أن صار جوقة مُخيفة من الأصوات. تصدَّعت واجهة متجر ماكن الحجرية وامتلأت بالشقوق. تقطَّعت الأسلاك التي تمسك بخيمة سينما علاء الدين وسقطت الخيمة مُحطَّمة. امتلأ زقاق ريتشارد -الذي يمتد خلف صيدلية الشارع الأوسط- بركامٍ مُنهار من الطوب الأصفر مع انهيار مبنى براين إكس داود الذي شُيِّد عام 1952. ارتفع ستارٌ ضخم من الغبار الملون في الهواء، ثم حُمِل بعيدًا كحجابٍ بفعل الرياح.

في الوقت نفسه، انفجر تمثال بول بونيان المُنتصب أمام مبنى مركز المدينة. بدا الأمر كأن تهديد مُدرِّسة الرسم بتفجيره اتَّضح أنه جادٌّ تمامًا بعد كل شيء. ارتفع الرأس المُلتحي المُبتسم عاليًا في الهواء، وطارت إحدى ساقيه أمامًا، والأخرى خلفًا، كأن بول يحاول تنفيذ حركة أكروباتية مُتحمِّسة جدًّا أدَّت إلى تقطيع أوصاله. انفجر خصر التمثال في سحابة من الشظايا، وطارت رأس الفأس الحديدية إلى عنان السماء المُمطرة سيلًا واختفت، ثم هبطت من جديد، وهي تدور من طرفٍ إلى طرف، واخترقت سقف جسر القُبُلات، ورُشِقَت في أرضيته.

ثم، في العاشرة ودقيقتين صباحًا، خُفِسَت الأرض بشوارع وسط مدينة ديري بالكامل.

انتهى الأمر بمُعظم الماء الذي تدفَّق من بُرج المياه المُحطَّم عبر شارع كانساس في البرِّية، لكن أطنانًا منه اندفعت إلى المنطقة التجارية عن طريق تلَّة أب-مايل. رُبَّما كانت هذه القشَّة التي قصمت ظهر البعير، أو رُبَّما وقع زلزالٌ بالفعل كما أخبر هارولد جاردنر زوجته. امتدَّت الشقوق والصدوع على سطح الشارع الرئيس. كانت ضيِّقة في البدء، ثم بدأت تتَّسع كأفواهٍ جائعة وتصاعد منها صوت القناة الهادرة من أسفل الذي لم يعد مكتومًا الآن، بل

علا تمامًا بشكلٍ مُفزع. بدأ كل شيءٍ يهتزُّ. ضربت اليافطة المُضيئة أمام متجر شورتي سكويرز للتذكارات التي تُعلن: منفذ بيع الأحذية الخفيفة الأرض، وغاصت في مياه عُمقها ثلاثة أقدام. بعدها بثانية أو ثانيتين، بدأ المبنى الذي يضم متجر شورتي -الذي يقف جوار متجر مستر بابيرباك- يهبط. كان بادي أنجستورم أوَّل من رأى هذه الظاهرة، وقد لكز بكوعه ألفريد زيتنر، الأخير الذي نظر وفُغِر فوه، ثم لكز هارولد جاردنر بدوره، وفي غضون ثوانٍ، توقَّفت عملية تكديس أكياس الرمال بالكامل، ووقف الرجال على كلا جانبي القناة يُحدِّقون في وسط المدينة أسفل المطر المصبوب، ووجوههم مختومة بتعبيرٍ موَّحد: دهشة مذعورة. بدا أن متجري سكويرز وساندرايز بُنيا على مصعدٍ ما هائل وقد بدأ الآن في الهبوط إلى أسفل. غاص المبنى عبر أسفلت الشارع الصلب -ظاهريًا- بجلالٍ رهيب.. وعندما توقَّف، كان في إمكانك الزحف على يديك ورُكبتيك فوق الرصيف المغمور بالماء والدخول إليه من إحدى نوافذ الطابق الثالث. كان الماء يتناثر في كل مكانٍ حول المبنى، وبعدها بلحظة، ظهر شورتي نفسه على سطح المبنى ملوِّحًا بذراعيه في جنون كي ينجده أحدٌ. ثم طُمِسَ الرَّجُل بعدها عندما غاص مبنى المكاتب المجاور -الذي يضم متجر السيد بابيرباك في الدور الأرض- إلى جوف الأرض بدوره. لسوء الحظ، هذا البناء لم يغُص مُعتدلًا كما غاص مبنى شورتي، بل مال ميلًا ملحوظًا (في حقيقة الأمر، بدا شبيهًا بذلك البُرج الفاشل في بيزا الذي يقف على صناديق معكرونة).. ومع ميلانه، بدأ القرميد يُمطِر أرض الشارع من القمَّة والجوانب.. وقد ضُرِبَ شورتي بكثيرٍ منه. شاهده هارولد جاردنر يهرول خلفًا ويديه على رأسه، ثم انزلقت الأدوار الثلاثة الأخير لمبنى متجر السيِّد بيبرباك بأناقة كفطائر واختفى شورتي أسفلها. صرخ أحد الرجال في طابور مُكدِّسي الرمال، ثم ضاع كل شيءٍ في هدير الدمار المُزمجِر الطاحن. طاح الرجال ساقطين في كل مكان، أو ترنَّحوا مُتخبِّطين بعيدًا عن القناة. شاهد هارولد جاردنر المباني التي يواجه بعضها بعضًا بطول الشارع الرئيس تميل إلى الأمام، كالسيِّدات المتطفِّلات على موائد القمار، وكادت

قممها أن تتلامس معًا. كانت الشوارع نفسها تغوص وتتصدَّع وتتداعى. هاج الماء وماج. ثم بعدها، بدأت المباني على كلا جانبي الشارع تتمايل بعيدًا عن مركز ثقلها وتتحطَّم على أرض الشوارع.. البنك الشمالي الشرقي، وأحذية شوبوت، وألقي سموكز أند چوكز، ومطعم بيلي، وأُسطُوانات باندلر، وحظيرة الموسيقى. لكن في حقيقة الأمر لم تعد هناك شوارع حقيقية للمباني كي تتحطَّم فيها. لقد غاص الشارع إلى القناة، مُمتدًّا كحلوى الطوفي في البداية، ثم تكسَّر بعدها إلى قطعٍ من الأسفلت. شاهد هارلود جزيرة المرور عند التقاطع الثلاثي تهبط فجأة بعيدًا عن الأنظار، ومع فوران الماء مكانها، أدرك ما سيحدث خلال لحظات.

صرخ هارولد في آل زيتنر: «يجب أن نخرج من هنا! الماء سيرتدُّ! زيتنر! الماء سيرتدُّ».

لم يعط آل زيتنر أيَّ علامه على أنه سمع. كان وجهه كوجوه الماشين نيامًا، أو رُبَّما كوجه رجُلٍ مُنوَّم إيحائيًّا بشكلٍ ثقيل. كان يقف في معطفه الأحمر والأزرق المنقوع في الماء، وأسفله تيشيرت لاكوست مُنفرج الياقة بشعار التمساح الصغير على صدره الأيسر، وجوربيه الأزرقين المُخيَّط إلى جانبهما مضربا جولفٍ مُتقاطعان مدسوسان في فردتي حذائه البُنِّي ماركة إل إل بينز بنعليهما المطَّاطيين. كان يُراقب مليون دولارٍ تقريبًا من استثماراته الخاصة تغرق في الشوارع، وثلاثة أو أربعة ملايين أخرى من استثمارات أصدقائه الذين يلعب البوكر معهم، ويمارس رياضة الجولف معهم، ويتزلَّق على الجليد معهم في عُطلاته في رانجلي. فجأة بدا مسقط رأسه -بحق المسيح- يبدو غريبًا كتلك المدينة المُتفسِّخة التي ينتقل فيها الناس بتلك الزوارق النحيفة الطويلة. ثار الماء وراح يغلي بين المباني التي تبقَّت صامدة. انتهى شارع القناة بلسانٍ طويل بدا كمنط على حافَّة بُحيرة مُزبِدَة. لم يكن غريبًا أن زيتنر لم يسمع هارولد. مع ذلك، كان الآخرون قد وصلوا إلى الاستنتاج نفسه الذي وصل هارولد إليه. لا يمكن أن تنهار كل هذه الأطنان في ماءٍ مُستعرٍّ كهذا من دون أن وقوع كارثة ضخمة. رمى بعض الرجال أكياس

الرمال التي كانوا يحملونها وأطلقوا سيقانهم للريح. كان هارلود أحد هؤلاء، ولهذا نجا. لم يكن الآخرون بالحظ ذاته، وكانوا لا يزالون في المنطقة العامة عندما فاضت القناة -وقد اختنق حلقها الآن بأطنانٍ من الأسفلت والخرسانة والقرميد والجص والزجاج وبضاعة متنوِّعة تُقدَّر قيمتها بنحو أربعة ملايين دولار- وصبَّت ماءها من فوق جدرانها الخرسانية، حاملة معها الرجال وأكياس الرمال دون تمييز. عاش هارولد يظن أن القناة كانت تريد الحصول عليه، لأنه بغض النظر عن السُرعة التي راح يركض بها، ظل الماء يلاحقه. في النهاية هرب عن طريق إنشاب أصابعه في تُربة مُنحدرٍ مُغطَّى بالشُجيرات وتسلُّقه صعودًا. نظر هارولد مرَّة واحدة خلفه ورأى رجُلًا اعتقد أنه روچر ليرنرد -رئيس إدارة القروض في اتحاد هارولد الائتماني- وكان يحاول أن يُشغِّل مُحرِّك سيَّارته الواقفة في ساحة انتظار مركز القناة التُجاري الصغير. حتَّى مع هدير المياه وخوار الرياح، استطاع هارلود أن يسمع مُحرِّك السيَّارة الصغير يحاول العمل مرَّة وثانية وثالثة، في أثناء ما راح الماء الأسود الناعم الذي يصل إلى ارتفاعه إلى عتبة السيَّارة في الجريان على كلا جانبيها. ثم بصرخة عميقة مدوِّية، فاض نهر الكِندوسكيج صاخبًا على ضِفَّتيه وجرف في طريقه مركز القناة التجاري الصغير وسيَّارة روچر ليرنرد الحمراء البرَّاقة، واصل هارولد تسلُّقه من جديد، مُتشبِّثًا بالفروع والجذور وبأيِّ شيءٍ يبدو صلبًا بما يكفي لتحمُّل وزنه. ستكون الأرض المُرتفعة تذكرة نجاته.. ومثلما قال إندرو كين بعدها، كان هارولد رجُلًا مُتسلِّقًا حقًّا في ذلك الصباح بكل ما في الكلمة من معنى. راح هارولد يسمع أصوات انهيار بقيَّة منطقة وسط مدينة ديري من خلفه. كان الصوت أشبه بنيران مدفعية.

4

بيل

- «بيڤرلي!». هكذا صاح بيل وذراعاه وظهره ينبضان بألمٍ مُمضٍّ حارق.

كان وزن ريتشي يبدو خمسمئة رطلٍ على الأقل الآن، وهمس عقله له: ضعه أرضًا إذًا، إنه ميِّت، أنت تعرف ذلك. لماذا إذًا لا تضعه أرضًا فحسب؟

لكنه لم يكن سيفعل ذلك. لم يكن سيقدر على ذلك.

صاح بيل ثانيةً: «بيفرلي! بن! أيُّ شخص!».

ثم فكَّر مرَّة أخرى: هذا هو المكان الذي رماني الشَّيء عبره، ورمى ريتشي. لكنه ألقى بنا أبعد.. أبعد كثيرًا. كيف كان الأمر؟ إنه يتفلَّت مني، يُنسى...

- «بيل؟». كان هذا صوت بن المُرتجف الضعيف في مكانٍ ما قريب جدًّا. «أين أنت؟».

- «هنا يا رجُل، وريتشي معي. إنه... إنه مُصاب».

صار بن أقرب الآن: «واصل الكلام، واصل الكلام يا بيل».

قال بيل وهو يسير إلى المكان الذي يأتي منه صوت بن: «لقد قتلنا الشَّيءَ. قتلنا العاهرة، وإذا كان ريتشي قد مات...».

هتف بن مذعورًا: «مات؟». كان قد صار قريبًا جدًّا الآن، ثم جاءت يده من وسط الظلام وضربت بيل في أنفه بلطف. «ماذا تقصد بمات؟».

كانا يحملان ريتشي معًا الآن، قال بيل: «أنا... إنه... المُشكلة أنني لا أستطيع رؤيته. لا أ-أ-أستطيع ر-ر-رؤيته!».

صاح بن: «ريتشي!»، وهزَّه بقوَّة. «اصح يا ريتشي! اصح عليك اللعنة!»، ثم بدأ صوته في الاختناق. «اصح يا ريتشي بحق الجحيم».

هنا أتى صوت ريتشي الناعس المُنفعل مُتقلِّب المزاج من وسط الظلام قائلًا: «حسنًا يا كومة القش، حسنًا. لسنا في حاجة إلى شاراتٍ لعينة...».

صرخ بيل: «ريتشي! هل أنت بخير؟».

غمغم ريتشي في ذات الصوت المُنهك المُستيقظ لتوِّه: «تلك العاهرة ألقت بي، واصطدمت بشيءٍ صلب. هذا كل... كل ما أتذكَّره. أين بيقي؟».

قال بن: «من هذا الطريق»، ثم أخبرهم عن البيض: «لقد سحقت مئاتٍ منه. أظنُّني أنهيت عليه جميعًا».

قال ريتشي: «أدعو الله أن تكون فعلت»، كان صوته قد بدأ يتحسَّن الآن. «أنزلني يا بيل الكبير. أستطيع المشي... هل صوت الماء أعلى؟».

قال بيل: «أجل». كان ثلاثتهم مُتشابكي الأيدي في الظلام الآن. «كيف حال رأسك؟».

- «يؤلمني كالجحيم. ماذا حدث بعد أن غبت عن الوعي؟».

أخبرهما بيل بقدر ما استطاع حثّ نفسه على إخباره.

تساءل ريتشي مُندهشًا بعدما انتهى: «وقد ماتت. هل أنت واثقٌ يا بيل؟».

قال بيل: «أجل. هذه المرَّة أنا واثقٌ تمام الثقة».

قال ريتشي: «حمدًا لله. أمسِكني يا بيل، سأتقيَّأ».

أسنده بيل، وعندما انتهى ريتشي، واصلوا المسير. كانت قدمه تضرب أشياء هشَّة بين الفينة والأخرى وتدحرجها في الظلام. افترض بيل أنها قطعٌ من بيض العنكبوت الذي حطَّمه بن إلى شظايا.. وارتجف. كان من الجيِّد معرفة أنهم يسيرون في الاتِّجاه الصحيح، لكنه كان سعيدًا أيضًا أنه غير قادر على رؤية البقايا.

صاح بن: «بيفرلي! بيفرلي!».

- «هنا...».

كانت صيحتها خافتها، وكادت أن تضيع في خضم دمدمة الماء الثابتة. تحرَّكوا قِدمًا عبر الظلام، مُنادين عليها باستمرار، مُقلِّصين المسافة بينهم.

عندما وصلوا إليها أخيرًا، سألها بيل إن كان يتبقَّى معها أيُّ أعواد ثقابٍ. دسَّت في يده علبة نصف ممتلئة. أشعل بيل واحدًا منها وشاهد وجوههم تتجسَّد إلى حيِّز الوجود في صورة شبحية.. بن واضعًا ذراعه حول ريتشي الذي يقف مُرتخيًا والدماء تسيل من صدغه الأيمن، وبيفرلي تضع رأس إدي في حجرها. ثم استدار بعدها إلى الاتِّجاه المُعاكس. كانت أودرا تستلقي مكوَّمة على الأرض الحجرية، ساقاها ملتويتان في اتجاهين مُختلفين، ورأسها ملتوي إلى الوراء. كانت خيوط شبكة العنكبوت قد ذابت من على جسدها بالكامل تقريبًا.

أحرق عود الثقاب أصابع بيل فتركه يسقط، وفي الظلام، أساء تقدير المسافة، وتعثَّر فيها، وكاد أن يُطرح أرضًا.

- «أودرا، أودرا، هل تسمعيني؟».

ثم وضع ذراعه أسفل ظهرها وأجلسها. دسَّ يده تحت خصلة من شعرها وضغط بأصابعه جانب رقبتها. النبض موجود: إيقاعه بطيء، لكن ثابت.

أشعل بيل ثقابًا آخر، ومع توهُّجه شاهد حدقتيها تضيقان. تلك خلجة لا إرادية، لكن زيغ نظرتها لم يتغيَّر حتَّى عندما قرَّب الثقاب إلى مسافة قد تحرق جلدها. إنها حيَّة، لكنها لا تستجيب. اللعنة، الأمر أسوأ وهو يعرف ذلك جيِّدًا. إنها مُتخشِّبة.

أحرق الثقاب الثاني أطراف أصابعه، فألقاه.

قال بن: «بيل، أنا لا أحب صوت ذلك الماء. أعتقد أنه يجب علينا الخروج من هنا الآن».

غمغم ريتشي: «كيف سنخرج من دون إدي؟».

قالت بيفرلي: «نستطيع فعلها. بيل، إن بن على حق. يجب أن نخرج من هنا».

- «سآخذها معي».

- «بالتأكيد. لكن يجب أن نخرج الآن».

- «من أيِّ طريقٍ؟».

قالت بيفرلي بنعومة: «ستعرف يا بيل. لقد قتلت الشَّيءَ. ستعرف الطريق يا بيل».

حمل بيل أودرا كما حمل ريتشي من قبل وعاد إلى الآخرين. كان شعور جسدها بين ذراعيه مُقلقًا ومُقشعرًا. كانت تبدو كتمثال شمع حيٍّ.

سأله بن: «أيُّ طريقٍ نسلك؟».

- «لا أ-أ-أعرف...».

(ستعرف، لقد قتلت الشَّيء؛ ستعرف الطريق)

قال بيل: «حسنًا، هيَّا بنا. لنرى إن كنا سنعثر على مخرج من هنا. بيڤرلي، أمسِكي هذه»، ثم ناولها الثقاب.

سألته: «ماذا عن إدي. يجب أن نأخذه معنا».

سألها بيل: «كيف يا بيڤرلي؟ الـ... المكان يـ-يـ-ينهار».

قال ريتشي: «يجب أن نخرجه من هنا يا رجل، ساعدني يا بن».

تمكَّنا معًا من رفع جثمان إدي، وتقدَّمتهم بيڤرلي مُنيرة الطريق إلى باب الحكايات الخرافية. عبر بيل بأودرا رافعًا جسدها عن الأرض بقدر استطاعته، وحمل ريتشي وبن جثمان إدي عبورًا بدورهما.

قالت بيڤرلي: «ضعاه أرضًا. اتركاه يرقد هنا».

بكى ريتشي قائلًا: «الظلام شديد.. الظلام هنا شديد، وإدز... إنه...».

قال بن: «لا، لا بأس. رُبَّما هذا المكان الذي يُفترض أن يرقد فيه. أظنُّ أنه كذلك».

أنزلاه أرضًا. انحنى ريتشي ولثم وجنة إدي، ثم نظر بعمى إلى بن متسائلًا: «هل أنت مُتأكِّد؟».

- «أجل، هيَّا يا ريتشي».

نهض ريتشي واستدار إلى الباب، ثم صرخ فجأة: «اللعنة عليكِ أَيَّتُها العاهرة!»، وركل الباب بقدمه مُغلقًا إيَّاه. أصدر الباب صوتًا صاخبًا وهو يُغلق ويُثبَّت بالمزلاج.

سألته بيڤرلي: «لِمَ فعلت ذلك؟».

قال ريتشي: «لا أعرف»، لكنه كان يعرف جيِّدًا. نظر ريتشي إلى الوراء من فوق كتفه فيما كانت شُعلة ثقاب بيڤرلي تذوي.

- «بيل.. العلامة على الباب؟».

قال بيل لاهثًا: «ماذا عنها».

قال ريتشي: «لقد اختفت».

5

ديري | العاشرة والنصف صباحًا

انفجر الممرُّ الزجاجي الذي يربط مكتبة الكبار بمكتبة الأطفال بسطوع باهر. تطايرت شظايا الزجاج في هيئة مظلَّة، وجلجلت عبر الأشجار المُنهكة المعصوفة المتناثرة في أراضي المكتبة. كان يُمكن لهذا الوابل المُميت أن يجرح أشخاصًا أو يقتلهم حتَّى، لكن أحدًا لم يكن هناك، لا في داخل المكتبة ولا في خارجها.. فلم تفتح المكتبة أبوابها في ذلك اليوم على الإطلاق. لم يكن في الإمكان استبدال هذا النفق الزجاجي الذي طالما سحر بن هانسكوم في طفولته.. لقد وقع دمارٌ مُكلِّفٌ جدًّا في ديري، وكان من الأسهل على الجميع ترك البنائين مُنفصلين. بمرور الوقت، لن يتذكَّر أحدٌ في مجلس مدينة ديري ما كانت فائدة هذه السُرَّة الزجاجية. رُبَّما فقط بن الوحيد الذي كان يستطيع إخبارهم بشعور الوقوف خارجها في ليالي يناير الباردة بأنفٍ يسيل وأطراف أصابع مُجمَّدة داخل قُفَّزيها، ومراقبة الناس يروحون ويجيئون في المعبر في منتصف الشتاء محاطين بالضوء ومن دون معاطفهم. كان يستطيع إخبارهم كيف اعتاد الوقوف في الظلام البارد وكيف تعلَّم حُبَّ الضوء.. لكن رُبَّما لم يكن هذا من الأمور التي قد تقف وتشهد بها في اجتماع مجلس المدينة. لكن بخلاف كل ذلك، ظلَّت الحقائق المُجرَّدة كما هي: لقد انفجر الممرُّ الزجاجي من دون أيِّ سببٍ واضح ولم يُعاد بناؤه أبدًا، ولم يتأذ أحد (ويا له من فضل، بما أن الحصيلة النهائية لخسائر تلك العاصفة –البشرية منها على الأقل– وصلت لسبعة وستين قتيلًا وأكثر من ثلاثمئة وعشرين مُصابًا). لذا، ومنذ يوم 31 مايو 1985، كان يتحتَّم عليك السير خارج المبنى إذا أردت الذهاب من مكتبة الأطفال إلى مكتبة الكبار.. وإذا كان الجو باردًا، أو يمطر، أو الثلج يسقط، فكان ينبغي لك ارتداء معطفك أوَّلًا.

صاح بيل لاهثًا: «انتظروا.. أعطوني فرصة لأستريح».

قال له ريتشي ثانيةً: «دعني أساعدك في حملها».

كانوا قد تركوا إدي في عرين العنكبوت، ولم يكن ذلك موضوعًا يُريد أحدهم التحدُّث بشأنه. لكن إدي مات، وأودرا ما زالت على قيد الحياة.. تقنيًّا على الأقل.

قال بيل من بين زفيرٍ مُتقطِّع: «سأتولى الأمر».

- «هُراء. ستصاب بنوبة قلبية لعينة. دعني أساعدك يا بيل الكبير».

- «كيف حال رأسك؟».

قال ريتشي: «يؤلمني. لا تُغيِّر الموضوع».

بتردُّد، سمح بيل لريتشي بحملها. كان يُمكن أن يكون الأمر أسوأ. إن أودرا أنثى طويلة ووزنها الطبيعي مئة وأربعين رطلًا، لكن كان من المُفترض أن تلعب شخصية شابة مُحتجزة كرهينة مريض نفسي يعيش على الحدود ويظن نفسه إرهابي سياسي في فيلم غُرفة العلية.. ولأن فريدي فايرستون كان يُريد تصوير كل مشاهد العلية أوَّلًا، فقد خضعت أودرا لحمية غذائية قاسية قوامها الدجاج والجبن قليل السُعرات وسمك التونا، وخسرت عشرين رطلًا، ومع ذلك، بعد الترنُّح والتعثُّر معها في الظلام مسافة رُبع ميل (أو نصف، أو ثلاثة أرباع، أو من يعلم)، فقد بدت تلك مئة وعشرين الرطل كأنها مئتان.

قال له: «أ-أ-أشكرك يا ر-ز-رجُل».

- «لا شُكر على واجب. دورك قادم يا كومة القش».

قال بن: «بيب-بيب ريتشي»، فابتسم بيل رغمًا عن نفسه. كانت ابتسامة مُنهكة، ولم تدم طويلًا، لكنها أفضل من لا شيء.

سألته بيڤرلي: «أيَّ طريقٍ نسلك يا بيل؟ إن هدير الماء أعلى بكثير من ذي قبل. أنا لا أُحبِّذ الغرق هنا».

قال بيل: «إلى الأمام مُباشرةً، ثم يسارًا. رُبَّما من الأفضل أن نحاول الإسراع أكثر».

ساروا أكثر من نصف الساعة، واستغرقها بيل في الانعطاف يسارًا ويمينًا هنا وهناك. راح صوت الماء يرتفع إلى أن بدا أنه يحيط بهم الآن، كتأثير سمَّاعات دولبي في ظلام قاعة سينما. تلمَّس بيل طريقه عبر أحد المُنعطفات، جارًّا يده على القرميد المُبتل، وفجأة راح الماء يجري على حذائيه. كان التيَّار ضحلًا وسريعًا.

قال بيل لبن الذي كان يلهث بصوتٍ عالٍ: «اعطني أودرا. نحن نتقدَّم ضد التيَّار الآن». مرَّر بن أودرا بحرص إلى بيل، الذي تمكَّن من حملها على كتفه كما يفعل رجال الإطفاء. ليتها تتململ فقط.. أو تعترض.. أو تفعل أيَّ شيءٍ.

- «كم تبقَّى من الثقاب يا بيڤ؟».

- «ليس كثيرًا. نحو ستَّة. هل تعرف إلى أين تتَّجه يا بيل؟».

قال لها: «أظنُّ ذلك... هيَّا».

تبعوه حول المُنعطف. كان الماء يزبُد حول كاحلي بيل، ثم وصل إلى ربلتي ساقيه، ثم صار بارتفاع فخذيه. ارتفع هدير الماء وصار زئيرًا صاخبًا مُستمرًّا. كان النفق الذي يسيرون فيه يرتجف.. ولوهلة، ظن بيل أن التيَّار سيصير أعنف من أن يتقدَّموا عبره، لكنهم بعد أن عبروا أنبوب تغذية كان يصب نافورة هائلة من الماء تعجَّب بيل من عنفوانها في نفقهم، بدأ التيَّار يتراخى نوعًا، رغم أن عُمق الماء أخذ في الازدياد. إنه...

لقد رأيت الماء يخرج من أنبوب التغذية هذا! رأيته بعيني!

صاح بهم: «هاي، هل ترون أيَّ شيءٍ يا ر-رفاق؟».

صاحت بيڤرلي بدورها: «إن حدَّة الظلام تخفت منذ ربع ساعة أو نحو ذلك يا بيل! أين نحن يا بيل؟ هل تعرف؟».

كاد بيل أن يقول: أظنُّ ذلك، لكنه قال: «لا! واصلوا التقدُّم!».

كان يعتقد أنهم بالتأكيد يقتربون من القناة... نطاق الكِندوسكيج المطوَّق بجدرانٍ خرسانية الذي يجري أسفل وسط المدينة ويخرج من عند حديقة باسي. لكن ثمَّة ضوء هنا، ضوء حقيقي، وبالتأكيد لا يُمكن لضوءٍ أن يوجد في القناة التي تجري أسفل المدينة. لكن شدَّة الضوء أخذت في الازدياد رغم ذلك.

بدأ بيل يُعاني مشاكل حقيقية من حمل أودرا. لم تكن قوَّة التيَّار السَّبب -فتلك قد تباطأت- بل عُمقه. فكَّر بيل، قريبًا جدًّا سأدعها تطفو على سطح الماء. كان يرى بن إلى يساره وبيڤرلي إلى يمينه، وباستدارة رأسه قليلًا، رأى ريتشي يسير خلف بن. بدأت مواطئ أقدامهم تصير غريبة قطعًا. يبدو أن قاع النفق يمتلئ بالحُطام والطوب.. وأمامًا، كان هناك شيء يخرج من الماء كمُقدِّمة سفينة تغرق.

تعثَّر بن وتقدَّم صوب الجسم وهو يرتجف في الماء البارد. طفت علبة سيجار مُشبَّعة بالماء أمام وجهه. دفعها بن جانبًا وأمسك بالشيء الذي يبرز من الماء واتَّسعت عيناه. بدا أنها لافتة كبيرة، واستطاع أن يقرأ عليها حرفي عل، وأسفل ذلك مست، وفجأة أدرك ما هذا.

راح بن يضحك من الدهشة: «بيل! ريتشي! بيڤ».

صاحت بيڤرلي: «ما الأمر يا بن؟».

أمسك بن اللافتة بكلتا يديه وجرَّها خلفه. أصدرت اللافتة صوتًا خشنًا مُزعجًا وهي تحتكُّ بجدار النفق. الآن استطاعوا جميعًا قراءة المكتوب: علاء الديـ، وأسفل ذلك: العودة للمستقبل.

قال ريتشي: «إنها خيمة سينما علاء الدين، كيف...».

همس بيل: «لقد خُسِفَت أرض الشارع»، واتَّسعت عيناه وهو يُحدِّق أمامه عبر النفق. كان الضوء أكثر سطوعًا في الأمام.

- «ماذا؟».

- «ما الذي حدث بحق اللعنة؟».

- «بيل؟ بيل؟ ماذا...».

قال بيل مُلتاعًا: «كل تلك المصارف. كل تلك المصارف القديمة! لقد حدث فيضانٌ آخر، وأظنُّ هذه المرَّة...».

بدأ بيل في التقدُّم مُتخبِّطًا من جديد وهو يحمل أودرا، وسار بن وبيف وريتشي خلفه. بعد خمس دقائق نظر بيل إلى أعلى وشاهد السماء الزرقاء. كان ينظر عبر شقٍّ في سقف النفق.. شق بدا أنه يتَّسع إلى أكثر من سبعين قدمًا من حيث يقف. كان الماء ينفصل بواسطة جُزرٍ وأرخبيلات صنعتها أشياء عديدة أمامه.. أكوامٍ من القرميد، مؤخِّرة سيَّارة بليموث سوداء صندوقها مفتوح ويصب ماءً، عدَّاد انتظر سيَّارات يميل إلى جدار النفق في زاوية ثملة ولسانه الأحمر يبرز مُعلنًا: مُخالفة.

صار السير مستحيلًا الآن.. ففي القاع ارتفعت جبال وانخفضت وهاد من الرُكام بلا أيِّ اتِّساقٍ أو سبب مُهدِّدة بكسر العظام، وكان الماء يجري باعتدال بمحاذاة آباطهم.

فكَّر بيل: لقد صار جريان الماء مُعتدلًا الآن، لكن لو كنا أتينا منذ ساعتين أو ساعة، أظنُّنا كنا سنحظى برحلتنا الأخيرة.

سأل ريتشي: «ما هذا الهُراء يا بيل؟». كان يقف إلى يساره الآن، والعجب يملأ وجهه وهو ينظر إلى التصدُّع في سقف النفق. فكَّر بيل: ليس هذا سقف النفق. إنه الشارع الرئيس. أو ما كانه قبل ذلك على الأقل.

- «أظنُّ أن أغلب وسط المدينة انجرف إلى القناة وحُمِلَ مع التيَّار إلى الكِندوسكيج.. وسرعان ما سيصل إلى نهر بينسكوبت، ومنه إلى المُحيط الأطلنطي. بئس المصير اللعين. هل يمكنك حمل أودرا قليلًا يا ريتشي؟ لا أظنُّني قادر...».

قال ريتشي: «بالتأكيد يا بيل، بالتأكيد. لست في حاجة إلى تبريرٍ».

أخذ ريتشي أودرا من بيل. في ذلك الضوء، استطاع بيل أن يراها أفضل ممَّا يريد رُبَّما. كان شحوبها مُحتجبًا جُزئيًّا بالأوساخ والقذارة التي لطَّخت جبينها وجفَّت على وجنتيها. كانت عيناها لا تزالان مفتوحتين على اتِّساعهما وخاليتين من أدنى تعبيرٍ، وشعرها يتدلَّى مُسترسلًا ومُبتلًّا. كانت تبدو كواحدة

من تلك الدمى القابلة للنفخ التي تُباع في متجر بليچار تشست الإباحي في نيويورك أو على امتداد طريق ريبيربان في هامبورج. الفارق الوحيد هو تنفُّسها البطيء الثابت، وقد بدا ذلك بدوره حيلة ميكانيكية ليس أكثر.

سأل بيل ريتشي: «كيف سنتسلَّق صعودًا من هنا؟».

قال ريتشي: «اجعل بن يُشابك كفَّيه لك، ثم اجذب بيڤرلي إلى أعلى، وكلاكما تستطيعان تناول زوجتك. بعدها يستطيع بن دفعي إلى أعلى، ثم نجذبه جميعًا.. بعد ذلك سأريكم كيفية إقامة بطولة كرة طائرة لألف فتاة في نادي الطالبات».

- «بيب-بيب يا ريتشي».

- «بيب بيب في مؤخِّرتك يا بيل الكبير».

كان الإرهاق يسري في أوصاله في موجاتٍ لا تنقطع. التقت عيناه بعيني بيڤرلي لبُره، فأومأت إليه برفق، ما جعله يبتسم لها.

- «هلا ساعدتني على التسلُّق يا بن؟».

أومأ بن الذي كان بدوره مُضعضعًا بالكامل. كان على وجهه نُدبة عميقة تجري بطول وجنته. «أظنُّ أنني أستطيع فعل ذلك».

انحنى بن قليلًا وشابك أصابعه معًا. رفع بيل قدمه وخطا فوق يدي بن، ثم قفز. لم تكن قفزته كافية تمامًا. رفع بن الدرجة التي صنعها بيديه واستطاع بيل التشبُّث بحافَّة النفق المُتداعي وجذب نفسه إلى أعلى. كان أوَّل شيءٍ يراه هي حواجز التحطُّم البيضاء البرتقالية.. الشيء الثاني كان حشدًا من الرجال والنساء يقفون وراء الحاجز.. والثالث كان متجر فيرسي الذي كان قد انتفخ وقصر بشكلٍ غريب. استغرق الأمر لحظة ليدرك أن نصف متجر فيرسي تقريبًا قد غاص في أرض الشارع والقناة من أسفلة، أما النصف العلوي فكان قد سقط على الشارع، وبدا على وشك التداعي ككومة من الكتب المُكدَّسة.

- «انظروا! انظروا! ثمَّة شخص في الشارع!».

هكذا راحت امرأة تشير إلى البقعة المُنهارة في الرصيف التي برز بيل منها.

- «يا الله، يوجد شخصٌ آخر!».

ثم بدأت المرأة العجوز التي تلف رأسها بمنديلٍ بطريقة فلَّاحية في السير

نحوهم، لكن شُرطيًّا أوقفها: «المكان ليس آمنًا يا سيِّدة نيلسون. أنت تعرفين ذلك. قد ينهار باقي الشارع في أيِّ لحظة».

فكَّر بيل: السيِّدة نيلسون. أنا أتذكَّرك. لقد اعتادت أختك أن تكون جليسة چورچ وجليستي أحيانًا. رفع بيل يده ليريها أنه بخير، فرفعت المرأة يدها ترد التحيِّة، وشعر بيل بموجة مُفاجئة من الأحاسيس الجيِّدة... والأمل.

استدار بيل واستلقى مُنبطحًا على الرصيف المتصدِّع، محاولًا توزيع وزنه بالتساوي قدر الإمكان كما يفعل المرء على الجليد الرقيق، ومدَّ يديه إلى بيف. أمسكت بيڤرلي بمعصميه، فجذبها بيل بما بدا أنها آخر ذرَّة مجهودٍ في جعبته. خرجت الشمس -التي كانت قد اختفت مُجدَّدًا- من وراء سلسلة غيوم مموَّجة وأعادت لهما ظلَّيهما. رفعت بيڤرلي بصرها مشدوهة، والتقت عيناها بعيني بيل، وابتسمت.

قالت له: «أنا أحبك يا بيل، وأدعوا الله أن تكون زوجتك بخير».

قال لها: «شـ-شـ-شكرًا يا بيڤي»، ثم جعلتها ابتسامته الحنون تبدأ في البكاء قليلًا. احتضنها بيل وتجَّمع الحشد الصغير خلف الحواجز يصفِّقون. التقطت مُصورٌ من جريدة أخبار ديري صورة لهما، وقد ظهرت في الطبعة الأولى يوم 1 يونيو التي طُبعت في بانجور بسبب الضرر الذي طال مطابع الجريدة. كان التعليق الذي كُتُب أسفلها بسيطًا تمامًا وصادقًا تمامًا بالنسبة إلى بيل، ما جعله يقص الصورة ويحتفظ بها مدسوسة في محفظته لسنوات كثيرة قادمة. كان التعليق يقول: ناجون. هذا كل شيء، لكنه كان كافيًا.

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ست دقائق في ديري.

7

ديري | لاحقًا في اليوم نفسه

انفجر الممرُّ الزجاجي بين مكتبة الأطفال ومكتبة الكبار في العاشرة والنصف صباحًا. في العاشرة وثلاث وثلاثين دقيقة، توقَّف المطر. لم

يضمحل الماء المصبوب رويدًا رويدًا، بل انقطع دُفعة واحدة، كأن أحدهم أغلق الصنبور في الأعلى. بدأت الرياح في الإبطاء بالفعل، وقد كانت تُبطئ من سُرعتها سريعًا جدًّا حتَّى إن الناس راحوا ينظرون إلى وجوه بعض بملامح قَلِقَه مُتطيِّرة. كان صوت الرياح أشبه بمُحرِّكات طائرات 747 الواقفة بأمان في مَدْرَج الإقلاع. أطلَّت الشمس للمرَّة الأولى في العاشرة وسبع وأربعين دقيقة.. وبحلول منتصف الظهيرة، كانت الغيوم قد احترقت تمامًا، وجاء النهار قويًّا وحارًّا. بحلول الثالثة والنصف عصرًا، سجَّل الزئبق في ميزان الحرارة خارج باب متجر ملابس مُستعملة لروز المُستعملة ثلاث وثمانين درجة: أعلى قراءة له في موسم الصيف اليافع هذا. سار الناس في الطُرقات كالزومبي لا يتحدَّثون، التعبيرات على وجوههم مُتماثلة تقريبًا: نوعٌ من البلاهة المشدوهة كان من شأنها أن تكون مُضحكة، إذا لم تكن يُرثى لها. بحلول المساء، وصل مراسلون من شبكات أيه بي سي، وسي بي إس، وإن بي سي، وسي إن إن إلى ديري، وسوف ينقل أولئك المُراسلون الصحفيون نُسخة ما من الحقيقة لأغلب الناس، بل سيجعلونها الحقيقية الوحيدة، على الرغم من أن بعض الناس قد يلمِّحون أن الحقيقة مفهوم غير جدير بالثقة تمامًا، ورُبَّما ليست أكثر صلابة من نسيج كِتَّاني مفرود على أسلاك مُتشابكة مُتقاطعة أشبه بخيوط شباك عنكبوت. في الصباح التالي سيصل كلٌّ من بريانت جمبل وويلارد سكوت من برنامج توداي شو إلى ديري. خلال البرنامج، سيعقد جمبل لقاءً مع أندرو كين، وسيقول كين: «بُرج المياه بأكمله انهار على جانبه وبدأ يتدحرج أسفل التلَّة. لقد ذُهلت تمامًا، هل تعلم ما أقول؟ سبيلبرج يُمكن أن يموت غيظًا ممَّا رأيت. هاي، أتعرف، لطالما كنت أظنُّك أكبر حجمًا بكثير عندما كنت أراك في التلفاز». رؤية أهل ديري لجيرانهم وأنفسهم على شاشات التلفاز هي ما سيضيف واقعية للأمور التي حدثت لهم. سيمنحهم ذلك مكانًا يستطيعون الارتكان إليه وفهم هذا الشيء الرهيب غير المقبول الذي حدث. لقد كانت عاصفة استثنائية. في الأيَّام التالية، سترتفع حصيلة القتلى في أعقاب العاصفة القاتلة. إنها في

حقيقة الأمر أسوأ عاصفة ربيعية في تاريخ ولاية مين. كانت كل عناوين الصُحُف الرئيسة هذه مُفيدة بقدر فظاعتها، لقد ساعدت في تخفيف وطأة الغرابة الجوهرية لما حدث.. لكن رُبَّما تكون «الغرابة» كلمة خفيفة جدًّا لوصف الأمر. الجنون، رُبَّما كلمة أفضل. رؤية أنفسهم على شاشة التلفاز سيساعدهم في جعل الأمر أكثر واقعية، وأقل جنونًا. لكن في الساعات التي سبقت وصول فرق الأخبار والوكالات، سار مواطنو ديري بغير هدى في الشوارع المُغطَّاة بالحطام والمكسوَّة بالوحل بتعبيرات عدم تصديقٍ ذاهلة على وجوههم. راح أهل ديري -من دون كلام كثير- ينظرون إلى الأشياء ويرفعون متاعًا من على الأرض بشكلٍ عابر، ثم يلقون به ثانيةً، محاولين فهم ما حدث خلال الساعات السبع أو الثماني الماضية، وقف الرجال في شارع كانساس يُدخِّنون وينظرون إلى المنازل المستلقاة رأسًا على عقب في البرِّية.. ووقف رجال ونساء آخرين خلف الحواجز البرتقالية البيضاء يُحدِّقون في الحُفرة السوداء التي كانت وسط المدينة تحتلُّها قبل العاشرة صباح اليوم. أعلنت عناوين عدد الأحد من الجريدة: عُمدة ديري يتعهَّد: سنعيد البناء. قد يفعلون ذلك حقًّا. لكن في الأسابيع التي تلت، عندما كان أعضاء مجلس المدينة يتجادلون حول كيفية البدء في عملية إعادة الإعمار، استمرت الحفرة الضخمة التي كانت في يومٍ ما وسط المدينة في النمو بطريقة غير ملحوظة لكن ثابتة.. وبعد أربعة أيَّام من العاصفة، انهار بناء شركة بانجو الكهرومائية في الحُفرة. بعدها بثلاثة أيَّام، سقط مطعم فلاينج دوجهاوس -الذي يبيع أفضل الملفوف المُخلَّل والنقانق الحارة في شرق ولاية مين برُمَّتها- في الحُفرة بدوره. راحت المجاري ترتشح بشكلٍ دوري في المنازل والشقق السكنية والشركات. ساء الوضع تمامًا في اللسان القديم وبدأ الناس يرحلون. أُقيم أوَّل سباق خيلٍ مساء العاشر من يونيو في حديقة باسي، وقد حُدِّد موعد انطلاقه في الثامنة مساءً.. وبدا أن الحدث سيستطيع نفث البهجة في قلوب الجميع. لكن قسمًا من المُدرَّجات انهار عندما بدأت الجياد في أوَّل سباق تلتفُّ عائدة إلى خط النهاية، وأُصيب نحو دزينة من الأشخاص. كان أحد

المُصابين هو فوكسي فوكسورث، الذي ظلَّ يُدير سينما علاء الدين حتَّى عام 1973. أمضى فوكس أسبوعين في المُستشفى، يُعاني ساقًا مكسورة وخصية مُمزَّقة، وعندما خرج، قرَّر الذهاب إلى أخته في سمرسوورث في نيو هامبشر.

لم يكن فوكسي الوحيد الذي ترك المدينة.

كانت ديري تتفكَّك.

8

شاهدوا المُمرِّض يصفع باب سيَّارة الإسعاف ويدور حولها ويجلس في مقعد الراكب. تحرَّكت السيَّارة أعلى التلَّة قاصدة مُستشفى ديري العام. اعترض ريتشي طريقها برعونة مُخاطرًا بحياته، وجادل السائق الغاضب الذي يُصرُّ أنه لا يوجد مكان لشخصٍ آخر وأقنعه، وفي النهاية مدَّد أودرا على أرضية السيَّارة.

سأل بن: «ماذا الآن؟». كان هناك دوائر بُنِّية كبيرة أسفل عينيه، وحلقة من السُخام تلتفُّ حول عُنُقه.

قال بيل: «سأعود إلى التاون هاوس. سأنام نحو ســـت عشرة ساعة».

قال ريتشي: «آمين على هذا الكلام»، ثم نظر إلى بيڤرلي آملًا: «أمعك سجائر يا سيِّدتي الجميلة؟».

قالت بيڤرلي: «لا، أظنُّني سأقلع عن التدخين ثانيةً».

- «قرار حكيم تمامًا».

بدأ أربعتهم في السير أعلى التلَّة.

قال بيل: «انتهى الأمر».

أومأ بن: «لقد فعلناها. لقد فعلتها يا بيل الكبير».

قالت بيڤري: «جميعنا فعلناها. كم كنت أتمنى لو استطعنا إحضار إدي. أرغب ذلك أكثر من أيِّ شيءٍ آخر».

وصلوا إلى ناصية التقاء امتداد الشارع الرئيس بشارع بوينت. كان هناك

صبي في معطف مطرٍ أحمر وحذاءٍ مطَّاطيٍ أخضر يُبحر قاربًا ورقيًّا مع تيَّار الماء السريع الذي يصب في المزراب. رفع الصبي عينيه، ووجدهم ينظرون نحوه، فلوَّح لهم مُتردِّدًا. شعر بيل أنه الصبي صاحب لوح التزلُّج، ذلك الذي شاهد صديقه الفك المُفترس في القناة. ابتسم بيل وتقدَّم نحو الصبي.

قال له: «الأمور على مـ-مـ-ما يُرام الآ-آ-آن».

تفحَّصه الصبي بتمعُّن، ثم ابتسم. كانت ابتسامته مُشرقة وباعثة على الأمل، وأجابه: «أجل، أعتقد ذلك».

- «يُمكنك الرهان بمؤخِّرتك».

ضحك الصبي.

- «هل ستكون حـ-حذرًا على لـ-لـ-لوح التزلُّج ذ-ذلك؟».

قال الصبي: «ليس تمامًا»، وهذه المرَّة ضحك بيل وقاوم رغبة مُلحَّة في مُداعبة شعر الصبي -الذي كان سيستاء غالبًا- وعاد إلى الآخرين.

سأله ريتشي: «من هذا؟».

قال بيل: «صديق»، ثم وضع يديه في جيبيه وأردف: «هل تتذكَّرون خروجنا في المرَّة السابقة؟».

أومأت بيڤرلي: «لقد قادنا إدي في رحلة العودة والخروج إلى البرِّية، لكننا انتهينا على الجانب الآخر من الكِندوسكيج بطريقةٍ ما.. جانب اللسان القديم».

قال ريتشي لبيل: «أنت وكومة القش دفعتما غطاء إحدى محطَّات الضخِّ، لأنكما كنتما الأثقل وزنًا».

قال بن: «أجل فعلنا. كانت الشمس قد غابت، أو كادت».

قال بيل: «أجل، وكنَّا جميعًا معًا هناك».

قال ريتشي: «لكن لا شيء يدوم إلى الأبد»، ثم نظر أسفل التلَّة التي تسلَّقوها لتوِّهم وتنهَّد قائلًا: «انظروا إلى هذا على سبيل المثال».

رفع ريتشي كفَّيه مفتوحين. لقد اختفت الندوب الصغيرة على راحتيه.

فتحت بيفرلي يديها، وفعل بن المثل، وكذا بيل. كانت أكفُّهم جميعها مُتَّسخة، لكنها بلا ندوب.

كرَّر ريتشي: «لا شيء يدوم إلى الأبد»، ثم نظر إلى بيل، وشاهد بيل الدموع تشق طريقها ببطء على وجنتي ريتشي المُتَّسختين.

قال بن: «باستثناء الحُب رُبَّما».

قالت بيفرلي: «والرغبة».

سأل بيل: «ماذا عن الصداقة؟»، ثم ابتسم مُضيفًا: «ما رأيك يا طويل اللسان؟».

قال ريتشي مُبتسمًا وهو يمسح عينيه: «حسنًا، يجب أن أُفكِّر بخصوص هذا الأمر يا غُلام؛ بلا شك، بلا شك، يجب أن أُفكِّر بخصوص هذا».

مدَّ بيل يديه وفتحهما فدسُّوا أيديهم فيها ووقفوا هناك لحظات، سبعة تقلَّصوا إلى أربعة لكنهم ما زالوا قادرين على تشكيل دائرة. نظر أحدهم إلى الآخر. كان بن يبكي بدوره الآن، والدموع تفيض من عينيه، لكنه كان يبتسم.

قال بن: «كم أحبكم يا رفاق»، واعتصر كفَّي بيف وريتشي أكثر وأكثر وأكثر، ثم أفلتهما. «الآن هل يعرف أحدكم إن كان لديهم في هذا المكان ما يُسمَّى بوجبة إفطارٍ؟ أيضًا، يجب أن نتَّصل بمايك ونخبره أننا على ما يُرام».

قال ريتشي بصوتٍ ألثغٍ ممطوط: «تفكير جيِّد يا ثينيور. بين حينٍ وآخر يخالجني شعورٌ أنك قد تكون حكيمًا في النهاية. ما رأيك يا بيل الكبير؟».

قال بيل مُحاكيًا إيَّاه بسخرية: «رأيي أنك تستطيع أن تنكح نفسك يا ريتشي».

سار أربعتهم إلى فندق تاون هاوس تصحبهم موجاتٌ من الضحك، وعندما دفع بيل الباب الزُجاجي بيديْه، رأت بيفرلي لمحة لم تتحدَّث عنها أبدًا، لكنها لم تنسها. للحظة خاطفة، رأت بيفرلي انعكاس صورتهم في المرآة، لكن مع اختلافٍ بسيط. كانوا ستَّة لا أربعة، لأن إدي كان يقف خلف ريتشي، وستان يقف خلف بيل، وعلى وجهيهما تلتمع ابتسامة صغيرة واهنة.

9

خروج | غروب يوم العاشر من أغسطس، 1958

كانت الشمس تجلس بأناقة على خط الأُفُق. كُرة حمراء مُفلطحة قليلًا تلقي بضوءٍ ضعيفٍ محموم فوق البرِّية. ارتفع الغطاء الحديدي الذي يعلو إحدى محطَّات الضخ، وهمد، ثم ارتفع ثانيةً، وبدأ ينزلق.

– «ا–ا–ادفعه يا بن، إنه يُـ–يُحطِّم كتفي...».

انزلق الغطاء أكثر، ثم سقط على الشُجيرات التي نمت حول الأُسطُوانة الخرسانية. خرج سبعة أطفالٍ واحدٌ تلو الآخر وهم ينظرون حولهم، وعيونهم تطرف في انشداهٍ صامت. كانوا كأطفالٍ لم يروا ضوء الشمس من قبل قط.

قال بيڤرلي بنعومة: «المكان هادئٌ جدًّا».

كانت الأصوات الوحيدة هي أصوات جريان الماء الصاخب وطنين الحشرات الرتيب. لقد انتهت العاصفة لكن منسوب الكِندوسكيج ما زال مُرتفعًا جدًّا.. وفي الأماكن الأقرب إلى البلدة، ليس ببعيدٍ عن المكان الذي يُحجَّم النهر فيه بين جُدرانٍ خرسانية ويُسمَّى القناة، فاض الكِندوسكيج من على ضِفتَّيه، رغم أنه لم يكن فيضانًا ذا شأنٍ بأيِّ حال من الأحوال.. فأسوأ ما تسبَّب فيه هذه المرَّة هو ابتلال بعض أقبية المنازل.

سار ستان مُبتعدًا عنهم، بوجهٍ واجمٍ وغارقٍ في التفكير. نظر بيل حوله وكان انطباعه الأوَّل في البداية أن ستان رأى نارًا صغيرة على ضِفَّة النهر: كان هناك وميضٌ أحمر أكثر سطوعًا من أن يُنظر إليه مُباشرةً، لكن عندما انحنى ستان والتقط النار في يده اليُمنى تغيَّرت زاوية الضوء، ورأى بيل أنها مُجرَّد زُجاجة كوكا من تلك الزجاجات الجديدة الشفَّافة. لا بُدَّ أن أحدهم رماها أحدهم قرب النهر. راقب بيل ستان وهو يُقلِّبها في يده، ويمسكها من عُنُقها،

قبل أن يهبط بها على حافَّة صخرة ناتئة من الضِفَّة. كُسرت الزُجاجة، وأدرك بيل أنهم جميعًا يراقبون ستان وهو يعبث باحثًا في شظايا الزُجاجة المُحطَّمة بوجهٍ رصينٍ واجمٍ مُستغرق. في النهاية التقط ستان شظية صغيرة من الزجاج. كانت الشمس الغاربة تعكس وميضًا أحمر عليها، وفكَّر بيل ثانيةً: كالنار.

رفع ستان نظره إليهم وفجأة أدرك بيل ما ينتويه: لقد جاءه الفهم بجلاءٍ شديد، وبدا له صحيحًا تمامًا. سار بيل إلى ستان بيدين ممدودتين تتجه راحتاهما إلى أعلى، وتراجع ستان خلفًا إلى الماء. كانت هناك حشراتٍ سوداء تئزُّ قرب سطح الماء، واستطاع بيل رؤية يعسوب قزحي الألوان يطنُّ مُتَّجهًا صوب أعواد القصب التي تصطف بطول الضِفَّة البعيدة كقوس قزحٍ صغيرٍ يطير. بدأت ضفدعة نقيقها الرتيب، وعندما استخدم ستان يده اليُسرى ورسم بحافَّة الزجاج الحادَّة خطًّا على راحته، قاطعًا الجلد ومُستخرجًا الدماء، فكَّر بيل في الأمر كنوعٍ من النشوة: ثمَّة الكثير من الحياة هنا في البرِّية!

– «بيل ؟».

– «بالتأكيد، واصل. اقطع كليهما».

شقَّ بستان يده الأخرى. شعر بيل بالألم، لكنه لم يكن ألمًا عظيمًا. بدأ طائر الغسق الأمريكي في الصياح من مكانٍ ما. كان صوته رائعًا، ويُشيعُ سلامًا. فكَّر بيل: إنه ينادي على القمر كي يبزغ.

نظر بيل إلى يديه، كانت كلتاهما داميتين الآن، ثم نظر حوله. لقد جاء الآخرون. إدي مُمسكًا ببخَّاخه بإحكام في قبضته، وبن ببطنه الضخم الذي يترجرج أمامه خارجًا من بين أسمال قميصه البالية، وريتشي ذو الوجه العاري غريب المظهر من دون نظَّارته، ومايك الصامت الواجم الذي يزمُّ شفتيه السميكتين بطبعهما إلى شريطٍ ضيِّقٍ، وبيفرلي مرفوعة الرأس مُتَّسعة العينين وشعرها ما زال جميلًا برغم الأوساخ التي تُلبِّده.

جميعنا هنا.

راح بيل يشيع النظر فيهم، ويراهم حقًّا، مُجتمعين للمرَّة الأخيرة.. لأنه

بطريقةٍ ما أدرك أنهم لن يجتمعوا معًا ثانيةً قط، ليس سبعتهم.. ليس بهذه الطريقة. لم يتحدَّث أحد. مدَّت بيڤرلي كلتا يديها، وبعد بُرهة مدَّ ريتشي وبن أيديهما. ثم فعل مايك وإدي الأمر نفسه. أحدث ستان قطوعًا في أيديهم واحدًا تلو الآخر في أثناء ما كانت الشمس تنزلق إلى ما وراء الأُفُق مُبرِّدة ذلك الفُرن الأحمر المُستعرُّ إلى إعتامٍ غسقيٍّ وردي. صرخ الطائر من جديد، واستطاع بيل أن يرى أولى دوَّاماتٍ خافتةٍ من الضباب فوق صفحة الماء، وشعر أنه صار جُزءًا من كل شيءٍ حوله.. كانت تلك لحظة قصيرة من النشوة لن يذكرها لأحدٍ قط، كما لن تذكُر بيڤرلي لاحقًا الانعكاسات الخاطفة التي رأتها لرجُلين ميتَّين كانا من أصدقاء صباها.

لمس النسيم الأشجار والخمائل، وجعلها تتنهَّد، وفكَّر بيل: هذا مكانٌ جميل، لن أنساه أبدًا. إنه جميل، وهم أيضًا كذلك. كل واحدٍ منهم فائق الجمال. صاح الطائر من جديد بعذوبة شجيَّة، وللحظة شعر بيل بأنه توحَّد معه.. كأنه يستطيع أن يشدو مثله ثم يغيب في المغيب.. كأنه يستطيع التحليق بعيدًا في الهواء، بجسارةٍ وإقدام.

نظر إلى بيڤرلي ووجدها تبتسم له. أغلقت عينيها ومدَّت يديها إلى كلا جانبيها. التقط بيل كفَّها الأيسر، والتقط بن الأيمن. استشعر بيل دماءها الدافئة تمتزج بدماءه. انضم الآخرون إليهم، ووقفوا في دائرة، وأُحكِمت أكُفُّهم جميعًا بهذه الطريقة الحميمية الغريبة.

راح ستان ينظر إلى بيل بنوعٍ من المُطالبة المُلحَّة.. بنوعٍ من الخوف.

قال بيل: «أ-أ-أقسِموا لي أنكم سـ-ستعودون. أقسِموا لي إن لـ-لـ-لم يكن الشَّـ-شَّيء قد مات فإنكم سـ-سـ-ستعودون».

قال بن: «أُقسم».

قال ريتشي: «أُقسم».

قالت بيڤرلي: «أجل، أُقسم».

غمغم مايك هانلون: «أُقسم على هذا».

- «نعم، أُقسم»، قالها إدي بصوتٍ رفيع وهامسٍ.

همس ستان: «أنا أيضًا أُقسم»، لكن صوته خانه وخفض بصره وهو يتكلَّم.

- «و أ- أ- أنا أُقسـ- سـ- سم».

وهكذا تمَّ الأمر. كان هذا كل شيء.. لكنهم ظلوا واقفين في أماكنهم فترة أطول، مُستشعرين قوَّة تلك الدائرة، والجسد الموحَّد الذي يصنعونه فيها. طلى الضوء وجوهم بألوانٍ باهتة مُختلفة؛ كانت الشمس قد غابت تمامًا الآن والغروب يحتضر، وقفوا معًا في دائرة بينما الظلام يزحف على البرِّية، مُحتلًّا الطرق والمسارات التي قطعوها هذا الصيف، والفُرج التي لعبوا فيها المسَّاكة والمُسدَّسات، والأماكن السرِّية بطول ضِفتَّي النهر التي جلسوا وناقشوا فيها أسئلة الطفولة الطويلة أو دخَّنوا السجائر أو مكثوا صامتين فحسب يراقبون حركة الغيوم المُنعكسة على صفحة الماء. نهاية اليوم تقترب.

في النهاية أسقط بن يديه، وهمَّ بقول شيءٍ، لكنه هزَّ رأسه وسار مُبتعدًا. تبعه ريتشي، ثم سارت بيفرلي ومايك معًا. لم يتحدَّث أحد. تسلَّقوا الضِفَّة صعودًا إلى شارع كانساس، ثم تفرَّق أحدهم عن الآخر ببساطة.. وعندما فكَّر بيل في الأمر بعدها بسبعة وعشرين عامًا، أدرك أنهم لم يجتمعوا كلهم معًا مرَّة أخرى على الإطلاق. كثيرًا ما تجمَّع أربعة منهم، وأحيانًا خمسة، وربَّما ستَّة منهم مرَّة أو مرَّتين. لكن لم يحدث قط أن التمَّ شمل سبعتهم من بعدها.

كان هو آخر من يغادر. ظلَّ واقفًا وقتًا طويلًا مُستندًا بيديه على السور الأبيض المتهالك وينظر إلى البرِّية بينما بدأ أوَّل النجوم ينبت من كبد سماء الصيف من فوق رأسه. لقد وقف أسفل العالم وفوق المجهول يُراقب البرِّية تمتلئ بالظلام.

لا أريد اللعب في البرِّية مرَّة أخرى أبدًا، هكذا وجد نفسه يُفكِّر فجأة، وتعجَّب أن الفكرة لم تكن مُريعة أو مُؤلمة، بل مُحرِّرة بشكلٍ كبير.

ظلَّ بيل واقفًا مكانه بُرهة أطول، ثم استدار على عقبيه مُبتعدًا عن البرِّية، واتَّجه إلى منزله سائرًا بطول الرصيف الداكن ويديه في جيبيه، وهو يختلس

النظر من حينٍ لآخر إلى منازل ديري المُنيرة بشكلٍ يبعث على الدِفء في قلب الظلام.

بعد ناصية أو ناصيتين، بدأ يسرِع في مشيه، ويُفكِّر في العشاء.. وبعد ناصية أو ناصيتين أخرتين، بدأ يُصفِّر.

.

ديري: الفاصل الأخير

قال السيِّد ميكوبر وهو يعبث بعويناته: «في هذه الأوقات، يمتلئ المُحيط عن آخره بالسُفُن، لكننا نفشل في الاقتراب منها في ذلك الأبد البارد. إنها تعبُر أمامنا في الأُفُق.. بعيدة المنال. تعبُر فحسب. المسافة شاسعة حقًّا».

- تشارلز ديكنز

ديڤيد كوبرفيلد

4 يونيو 1985

جاء بيل منذ عشرين دقيقة وأحضر لي ذلك الكتاب. لقد عثرت كارول عليه على إحدى المناضد في المكتبة وأعطته إيَّاه عندما سألها عليه. لقد ظننت أن رئيس الشُرطة رادميكر رُبَّما يكون أخذه، لكن من الواضح أنه لم يرد أيَّ شيءٍ منه البتَّة.

لعثمَّة بيل تتلاشى مُجدَّدًا، لكن المسكين شاخ أربع سنوات في آخر أربعة أيَّام. قال لي إنه يتوقَّع أن يُخرجوا أودرا من مُستشفى ديري العام (حيث ما زلت أنا أرقد) غدًا، فقط لتستقل سيَّارة إسعافٍ خاصة تتَّجه بها شمالًا إلى معهد بانجور للصحة النفسية. إنها سليمة جسديًّا، ولا تعاني أكثر من جروحٍ طفيفة وكدمات بدأت في التعافي بالفعل. لكنها عقليًّا...

قال بيل: «لو رفعت يدها في الهواء وتركتها هناك، تظلُّ كما هي». كان يجلس قُرب النافذة يداعب عبوَّة صُودا عديمة السُعرات بين يديه. «تظلُّ طافية في الهواء إلى أن يُعيدها أحدهم إلى مكانها. إن انعكاساتها موجودة، لكنها بطيئة جدًّا، وقد أظهر مُخطِّط موجات الدماغ أن نشاط موجات ألفا في عقلها مقموع بشدَّة. إنها تعاني إغماءً تخشُّبيًّا يا مايك».

قلت له: «لديّ فكرة. قد لا تكون فكرة جيِّدة جدًّا. إذا لم تعجبك قل ولا تخجل».

- «ماذا؟».

قال له: «أنا سأمكث هنا أسبوعًا آخر. لِمَ لا تأخذ أودرا إلى منزلي بدلًا من إرسالها إلى بانجور؟ أمضِ الأسبوع معها، تحدَّث إليها، حتَّى لو لم تبادلك هي الحديث. أهي... أتتحكَّم في نفسها؟».

قال بيل بنحوٍ بائس: «لا».

- «هل تستطيع.. أعني، هل تقدر...».

- «هل أقدر أن أُغيِّر لها ملابسها؟»، قالها بيل مُبتسمًا، ولكم كانت تلك ابتسامة شديدة الألم جعلتني مُضطرًّا إلى الإشاحة ببصري بعيدًا للحظات. إنها الابتسامة ذاتها التي كان أبي يبتسمها في الوقت الذي أخبرني فيه عن بوتش باورز وقِصَّة الدجاج. «أجل، أظنُّ أنني قادر على فعل ذلك لها».

قلت له: «لن أقول لك هوِّن على نفسك يا بيل، فمن الواضح أنك غير مُستعدٍّ لذلك، لكن أرجوك تذكَّر أنك نفسك اعترفت أن معظم -أو كل- ما حدث كان مُقدَّرًا.. رُبَّما يتضمَّن ذلك أيضًا الدور الذي لعبته أودرا».

- «كان يجب أن أُبقِيَ على فمي مُغلقًا».

في بعض الأحيان يكون من الأفضل عدم قول شيءٍ، لذا هذا ما فعلته.

في النهاية قال: «حسنًا، إذا كنت بالفعل تعني ما قلت...».

- «بلا شك. إن مفاتيح منزلي في مكتب خدمات المرضى بالأسفل. توجد قطعتان من شرائح لحم ديلمونيكو في المُجمِّد.. رُبَّما كان هذا مُقدَّرًا أيضًا».

- «إن أغلب طعامها يتكوَّن من الأشياء سهلة المضغ، والسـ-سـ-سوائل».

قلت وأنا ما زلت مُتمسِّكًا بابتسامتي: «حسنًا، رُبَّما سيحدث ما يدعو للاحتفال. توجد أيضًا زجاجة جيدة من النبيذ على الرفِّ العلوي في المخزن. إنها ماركة مونداڤي محلِّية الصنع، لكنها جيِّدة».

جاء بيل إليَّ وأمسك يدي: «شكرًا لك يا مايك».

- «في أيِّ وقتٍ يا بيل الكبير».

ترك يدي وهو يقول: «ريتشي ركب الطائرة إلى كاليفورنيا هذا الصباح».

أومأت عارفًا: «هل تظن أنكما ستظلان على اتِّصال؟».

قال لي: «رُ-رُبَّما.. لبعض الوقت على أيِّ حال. لكن...»، ثم نظر إليَّ مضيفًا: «أعتقد أن الأمر سيحدث من جديد».

- «تقصد النسيان؟».

- «أجل. في الحقيقة، أظنُّ أنه قد بدأ بالفعل، مع الأمور الصغيرة فقط الآن.. التفاصيل.. لكنني أعتقد أنه سينتشر».

- «رُبَّما كان هذا أفضل للجميع».

- «رُبَّما». قالها ونظر إلى خارج النافذة وهو ما زال يداعب عبوة الصودا، يُفكِّر غالبًا في زوجته من دون شكٍّ. كان مُتَّسع العينين وصامتًا ووسيمًا وبلاستيكيًّا.. مُتخشِّبًا. ترامى صوت بابٍ يُصفع ثم يُدار رتاجه. تنهَّد بيل.

- «رُبَّما كان كذلك».

- «وبن؟ وبيڤرلي؟».

نظر بيل خلفًا إليَّ وابتسم قليلًا: «لقد دعاها بن للعودة معه إلى نبراسكا، وقد وافقت على الذهاب، على الأقل للوقت الحالي. هل عرفت بأمر صديقتها في شيكاجو؟».

أومأت. لقد أخبرت بيڤرلي بن، وأخبرني بن بالأمس. إذا جاز لي أن أُخفِّف كلامي -أُخفِّفه كثيرًا- فسأقول إن وصف بيڤرلي الأخير لزوجها الرائع توم أصدق وأقرب للحقيقة كثيرًا من وصفها الأصلي. لقد أبقى توم الرائع الودود بيڤرلي في عبودية عاطفية وروحية -وأحيانًا جسدية- طوال السنوات الأربع الأخيرة أو نحو ذلك. لقد عثر توم الودود الرائع على مكانها عن طريق تعذيب صديقتها الوحيدة المُقرَّبة وإجبارها قسرًا على الإدلاء بما تعرفه.

- «لقد أخبرتني أنها ستطير عائدة إلى شيكاجو الأسبوع بعد القادم، وستبلغ الشرطة بأنه مفقودٌ. أعني توم».

قلت له: «تصرُّفٌ ذكي. لن يُعثر عليه أبدًا بالأسفل هناك»، ولا إدي كذلك، هكذا فكَّرت، لكنني لم أقُلها.

قال بيل: «أجل، لا أظنُّ ذلك، وعندما ستعود، أراهن أن بن سيعود معها، و... أتريد سماع شيئًا آخر؟ شيئًا جنونيًّا آخر؟».

- «ماذا؟».

- «لا أظنُّها تذكُر ما حدث لتوم من الأساس».

ظللت أُحدِّق فيه فحسب.

قال بيل: «لقد نست، أو هي تنسى.. وأنا لم أعد أذكر شكل المعبر بعد الآن. الباب الذي يقود إلى مكان الشَّيءِ. عندما أحاول التفكير فيه يحدث شيئًا غريبًا، أتخيَّل صورة ماعزٍ تسير فوق جسرٍ. صورة من تلك القِصَّة القديمة مِعَاز جراف الثلاثة. هذا جنون، أليس كذلك؟».

قلت له: «سيتقفُّون أثر توم ريجان إلى ديري في نهاية المطاف. لا بُدَّ أنه ترك خلفه أوراقًا تشير إلى مسار رحلته. تذاكر طيران، عقد استئجار سيَّارة، أيَّ شيءٍ».

قال بيل مُشعلًا سيجارة: «لست مُتأكِّدًا من ذلك. أظنُّه دفع ثمن تذكرة طائرته نقدًا وأعطاهم اسمًا زائفًا، ورُبَّما اشترى سيَّارة هنا بثمنٍ بخسٍ، أو سرق واحدة».

- «لماذا؟».

قال بيل: «بالله عليك، هل تظن أنه قطع كل هذه المسافة ليعطيها ضربة على الردف؟».

التقت أعيننا لفترةٍ طويلة ثم نهض بيل واقفًا وقال: «اسمع يا مايك...».

قلت له: «تأخرت كثيرًا. أعرف ما ستقول. سأغادر الآن».

ضحك بيل على ذلك بقوَّة، وعندما هدأ قال: «شكرًا لك على دعوتك لاستخدام منزلك يا مايكي».

- «لن أؤكِّد لك أنه الأمر سينجح، فلست أعلم أن لمنزلي أيَّ صفات علاجية خفية».

- «حسنًا... سأراك قريبًا».

ثم فعل شيئًا غريبًا عندها.. غريبًا لكن عذبًا جدًّا. لقد لثمني على وجنتي.
- «فليباركك الرَّب يا مايك. سأكون في الجوار».
قلت له: «قد تتحسَّن الأمور يا بيل. لا تفقد الأمل. قد تتحسَّن».
ابتسم بيل وأومأ، لكنني شعرت أن كلمة بعينها ظلَّت تتردَّد في كلا عقلينا: مُتخشِّبة.

5 يونيو 1985

جاء بن وبيڤرلي اليوم لتوديعي. لن يسافرا بالطائرة. لقد استأجر بن سيَّارة كاديلاك كبيرة من شركة هرتز وسيعودان بها بتمهُّل ومن دون عجلة. يوجد شيءٌ ما في نظرتهما عندما يرمق أحدهما الآخر. أراهن بمعاش تقاعدي أنهما سيتطارحان الغرام ما إن يصلا إلى نبراسكا، إذا لم يكونا يفعلان ذلك الآن.

عانقتني بيڤرلي، وأوصتني أن أتعافى سريعًا، ثم بكت.

عانقني بن بدوره، وسألني للمرَّة الثالثة أو الرابعة إن كنت سأكتب لهما. أكَّدت له أنني سأكتب قطعًا، وهكذا سأفعل... لفترة على الأقل. لأن هذه المرَّة الأمر يحدث معي كذلك.

أنا أنسى أشياء.

كما قال بيل، بدأت أنسى الأمور الصغيرة فقط.. التفاصيل. لكن الأمر يبدو أنه سيواصل الانتشار.. وبعد شهر أو سنة، ستكون هذه المُفكِّرة هي كل ما أملك لتذكيري بما حدث في ديري. أظنُّ أن الحروف نفسها قد تبدأ في التلاشي وتترك المُفكِّرة فارغة كما اشتريتها أوَّل مرَّة من قسم الأدوات المدرسية في متجر فيرسي. تلك فكرة مُريعة، وفي النهار تبدو جامحة الجنون.. لكن، أتعرفون شيئًا، إنها تبدو منطقية تمامًا في سويعات الليل.

هذا النسيان يملأني ذعرًا، لكنه يوفِّر نوعًا ما مراوغًا من الخلاص. إنه يؤكِّد لي أكثر من أيِّ شيءٍ آخر أننا قتلنا الشَّيءَ هذه المرَّة بالفعل.. وأنه لم تعد ثمَّة حاجة إلى عسَّاسٍ حارسٍ يأخذ مناوبته وينتظر بدء الدورة مرَّةً أخرى.

ذُعرٌ باهت.. وخلاصٍ مُتسلِّل. سأغتنم الخلاص على ما أظنُّ، مُتسلِّلًا كان أم لا.

اتَّصل بيل وأخبرني أنه وأودرا انتقالا إلى منزلي، وأنه لا تغيير في حالتها.
- «سأتذكَّرك دائمًا». هذا ما قالته بيڤرلي لي قبل أن تُغادر هي وبن.
لكن أعتقد أنني رأيت حقيقة مُختلفة في عينيها.
6 يونيو 1985

يوجد خبرٌ مُثير للانتباه في جريدة أخبار ديري اليوم، الصفحة الأولى. عنوان الخبر يقول: العاصفة تُجبر هنلي على التخلِّي عن خطط توسُّع صالة العرض. هنلي المقصود هنا هو تيم هنلي، المليونير المطوِّر الذي حلَّ في ديري كالزوبعة في الستينيات. هنلي وزيتنر هما من نظَّما الاتِّحاد المسؤول عن بناء مركز ديري التجاري (الذي -وفقًا لخبرٍ آخر على الصفحة الأولى نفسها- رُبَّما على وشك أن يُعلن إفلاسه). كان تيم هنلي مُصرًّا على رؤية ديري تنمو. كان لديه دافع ربحي بالتأكيد، لكن إصراره بدا أنه ينطوي على ما هو أكثر من مُجرَّد ذلك: كان هنلي يُريد حدوث الأمر بصدق.. وتخلِّية المُفاجئ عن التوسُّع في صالة العرض الكبيرة يشير إلى عدَّة أشياء. أن حنق هنلي وسخطه على ديري هو فقط الأكثر وضوحًا، لكن هناك الكثير مثله. أظنُّه أيضًا في طريقه إلى الإفلاس بسبب تدمير المركز التجاري.

يشير المقال إلى أن هنلي ليس الوحيد.. أن مُستثمرين آخرين ومُستثمرين مُحتملين كانوا سيأتون في المستقبل قد يعيدون التفكير في خياراتهم. بالتأكيد، ليس لدى آل زيتنر ما يقلق حياله؛ لقد أحاله الرب إلى المعاش السماوي مع انهيار وسط المدينة. الآخرون الذين يُفكِّرون تفكير هنلي يواجهون الآن مُشكلة عويصة إلى حدٍ كبير: كيف تُعيد إعمار منطقة حضرية صار 50٪ منها على الأقل تحت الماء؟

أظنُّ أن ديري - بعد وجودٍ حيوي وشيطاني طويل- تحتضر.. كباذنجانة أتى وقت ازدهارها ورحل.

هاتفت بيل دِنبروه عصر هذا اليوم. لا تغيير في حالة أودرا.

منذ ساعة مضت، كنت في اتِّصال آخر مع ريتشي توزييه في كاليفورنيا. أجاب جهاز الردِّ الآلي المُكالمة، بموسيقى فرقة كريدينس كليرووتر رِڤايڤل

في الخلفية. تلك الآلات دائمًا ما تعبث بتوقيتي بشكلٍ ما. تركت اسمي ورقم تليفوني، ثم مترددًا أضفت أنني آمل أن يكون قد صار قادرًا على ارتداء عدساته اللاصقة من جديد. كنت على وشك إغلاق الخط عندما التقط ريتشي السمّاعي وقال: «مايكي! كيف حالك؟». كان صوته مسرورًا ودافئًا... لكنه يحمل حيرة واضحة أيضًا. حمل صوته نبرة رجُلٍ تلقّى دعوة لم يكن مُستعِدًّا لها.

قلت له: «مرحبًا يا ريتشي، أنا بخير حال».

– «جميل. ما أخبار الألم؟».

– «طفيف. إنه يزول. الحكّة أسوأ من الألم الآن. سأكون سعيدًا تمامًا عندما يقرّرون في النهاية نزع الضمّادات عن أضلعي. بالمناسبة، لقد أعجبتني موسيقى الكريدينس».

ضحك ريتشي: «اللعنة، إنها ليست للكريدينس، هذه موسيقى 'روك أند رول جيلرز' من ألبوم فوجارتي الجديد. اسمه سنترفيلد. ألم تسمع أيَّ أغانٍ منه؟».

– «لا».

– «يجب أن تبتاعه. إنه عظيم. إنه ببساطة...» وتأخّر قليلًا قبل أن يضيف: «... كالأيّام الخوالي».

قلت له: «سأبتاعه». قد أفعل ذلك حقًّا. لطالما أحببت چون فوجارتي. أظنُّ أن أغنية «النهر الأخضر» هي أفضل أغاني كريدينس على الإطلاق بالنسبة إليّ. إنه يقول فيها: عُد للديار، قبل أن تذوي.

– «ماذا عن بيل؟».

– «سيقيم هو وأودرا في منزلي خلال فترة وجودي هنا».

– «هذا جيِّد»، ثم توقّف لحظة قبل أن يضيف: «أتريد سماع شيء لعين غريب يا عزيزي مايكي؟».

قلت له: «بالتأكيد». كانت لديَّ فكرة معقولة عمّا سيقول.

– «حسنًا... قبل اتّصالك، كنت جالسًا هنا في الاستوديو استمع إلى

توقُّعات مجلَّة كاشبوكس، وأتصفَّح بعض الإعلانات، وأقرأ المُلاحظات المتروكة لي.. لقد عُدت لأجد جبلين تقريبًا من الأمور المُكدَّسة التي يجب إنجازها.. لذا شغَّلت جهاز الرَّد الآلي لكنني رفعت صوته كي أستطيع مُقاطعة الاتِّصالات التي أود تلقيها، وأدع الأغبياء يتحدَّثون إلى الآلة.. والسَّبب الذي جعلني أتركك تتحدَّث إلى الآلة بعض الوقت هو...».

– «أنك لم يكن لديك أدنى فكرة في البداية من أنا».

– «يا للمسيح، هذا صحيح! كيف عرفت؟».

– «لأننى ننسى من جديد يا ريتشي. جميعنا هذه المرَّة».

– «مايكي، هل أنت مُتأكِّد».

سألته: «ما اسم ستان الأخير؟».

حلَّ صمت طويل على الطرف الآخر من الخط.. وفيه استطعت سماع امرأة تتحدَّث في أوماها بصوتٍ خافت، أو رُبَّما كانت في روثقن، أو أريزونا، أو فلينت، أو ميشيجان. سمعت صوتها خافتًا وهي تشكر أحدهم على البسكويت، وكان أشبه بصوت رائد فضاء يُغادر النظام الشمسي في صاروخ احترقت بقيَّته.

ثم قال ريتشي بثقة: «أظنُّ أن كان أندروود، لكن ليس هذا اسمًا يهوديًّا، أليس كذلك؟».

– «إنه يوريس».

صاح ريتشي في ارتياح وارتجاف في الآن ذاته: «يوريس! يا للمسيح، أكره عندما تكون الكلمة على طرف لساني ولا أستطيع لفظها. عندما يأتي أحدهم بلعبة 'سباق المعلومات' أقول على الفور: 'اعذروني، لا بُدَّ أن الإسهال عاودني. أعتقد أنني سأعود للمنزل'، لأنني أكره هذا الشعور. لكنك ستتذكَّر يا مايكي على أيِّ حال، مثلما حدث من قبل».

– «لا، لقد بحثت عن الاسم في دليل العناوين».

هبط صمتٌ طويلٌ آخر.. ثم: «لم تتذكَّر؟».

– «لا».

- «لا مزاح؟».
- «لا مزاح».
قال لي: «إذًا لقد انتهى الأمر حقًّا هذه المرَّة»، ولم يكن يُمكن إخطاء الراحة التي بدت في صوته.
حلَّ ذلك الصمت الطويل ثانيةً.. الصمت الذي يمتد من مين إلى كاليفورنيا. أظنُّ أن كلينا كان يُفكِّر في الأمر نفسه: لقد انتهى الأمر بالفعل، وفي غضون ستَّة أسابيع أو ستَّة أشهر، سنكون قد نسينا كل شيءٍ عن بعضنا بعضًا. لقد انتهى الأمر، ولم يُكلِّفنا سوى صداقتنا وحياتي ستان وإدي. أتعرفون أنني نسيتهما تقريبًا؟ بقدر ما قد يبدو الأمر مُريعًا، لقد أوشكت على نسيان ستان وإدي. هل كان إدي مُصابًا بالربو أم بصداع نصفيٍّ مُزمن؟ فلتحل اللعنة عليّ إن كنت أذكر على وجه اليقين، لكنني أظنُّه الصداع النصفي. سأسأل بيل. سيكون مُتذكِّرًا.
قال ريتشي ببهجة بدت مُعلَّبة: «حسنًا إذًا، بلِّغ تحيَّاتي إلى بيل وإلى تلك الزوجة الجميلة».
قلت له: «سأفعل يا ريتشي»، ثم أغلقت عيني ودعكت جبهتي. إنه يتذكَّر أن زوجة بيل في ديري، لكنه لا يتذكَّر اسمها، ولا ماذا حدث لها.
- «وإذا حدث أن أتيت إلى لوس أنچلوس فأنت تعرف رقمي. اتَّصل بي وسنتقابل ونتناول الغداء».
- «بالتأكيد». شعرت بالدموع الساخنة تحتشد خلف مُقلتيّ. «الأمر نفسه إذا حدث وعُدت من هذا الطريق».
- «مايكي؟».
- «هنا يا ريتشي».
- «أنا أحبك يا رجُل».
- «وأنا أيضًا».
- «حسنًا، ضع إصبعك في مؤخِّرتك».
- «بيب-بيب يا ريتشي».

ضحك ريتشي. «أجل، أجل، أجل. ضعه في أذنك يا مايك. بالتأكيد، في أذنك يا غلام».

أغلق ريتشي الخط بعدها، وكذا فعلت.. ثم استلقيت على وساداتي مُغلقًا عيني، ولم أفتحهما لفترةٍ طويلة.

7 يونيو، 1985

رئيس الشُرطة رادميكر -الذي تولَّى المنصب من بعد الرئيس بورتون في الستينيات- مات. كان حادثًا غريبًا.. حادثًا لا يسعني سوى ربطه بما يحدث في ديري.. أو ما انتهى لتوِّه في ديري.

كان مبنى قسم الشُرطة المُدمج في مبنى المحكمة يقف على حافَّة المنطقة التي سقطت في القناة، وعلى الرغم من أنه لم يسقط، فإن الفورة – أو الفيضان – قد تسبَّبت في أضرار هيكلية لم يعي بها أحدٌ.

كان رادميكر يعمل إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ في مكتبه تلك الليلة، هكذا قال الخبر في الجريدة، مثل كل ليلة منذ العاصفة والفيضان. كان مكتب الرئيس قد انتقل من الطابق الثالث إلى الطابق الخامس منذ زمنٍ طويل، ثم إلى الطابق الذي يربو العلية حيث تُخزَّن جميع أنواع السجلات وآثار المدينة عديمة الفائدة. أحد هذه الأثار كان كُرسي المُشرَّدين الذي وصفته سابقًا في هذه الصفحات. كان مصنوعًا من الحديد ويزن أكثر من أربعمئة رطل. لقد حُمِّل المبنى بكمٍّ هائلٍ من الماء خلال سيل 31 مايو، ولا بُدَّ أن الأمر أضعف أرضية العلية (أو هكذا قالت الجريدة). أيًّا ما كان السَّبب، فقد سقط كُرسي المُشرَّدين فوق رأس الرئيس رادميكر وهو جالسٌ على مكتبه يقرأ تقارير الحوادث. قُتل الرَّجُل في التوِّ. اندفع الضابط بروس أندين إلى الحُجرة ووجده مُستلقيًا بين أطلال مكتبه المُحطَّم وهو ما زال مُمسكًا بالقلم.

تحدَّثت إلى بيل عبر الهاتف من جديد. أخبرني أن أودرا بدأت تتناول بعض الطعام الصلب، لكن بخلاف هذا لم يحدث أيُّ تغيير. سألته ممَّ كان إدي يعاني، الربو أم من الصداع النصفي.

قال على الفور: «الربو. ألا تتذكَّر بخَّاخه؟».

قلت له: «بالتأكيد». لقد تذكَّرت بالفعل، لكن فقط عندما ذكر الأمر.
- «مايك؟».
- «أجل؟».
- «ما كان اسمه الأخير؟».
نظرت في دفترِ العناوين الموضوع على الكومود، لكنني لم أمسكه.
- «لا أتذكَّر تمامًا».
قال بيل وقد بدا محزونًا: «كان على غرار كيركوريان، لكن ليس تمامًا. لكنك تقول إن لديك بعض المُذكِّرات المكتوبة، أليس كذلك؟».
قلت له: «أجل».
- «حمدًا لله على ذلك».
- «هل جاءتك أيُّ أفكار عمَّا ستفعل مع أودرا؟».
قال لي: «لديّ فكرة، لكنها مجنونة تمامًا ولا أريد الحديث عنها الآن».
- «هل أنت مُتأكِّد؟».
- «أجل».
- «حسنًا».
- «مايك، الأمر مُخيف، أليس كذلك؟ أن ننسى بهذه الطريقة؟».
قلت له: «أجل». إنه كذلك بالفعل.
8 يونيو، 1985
في اللحظة الأخيرة، قرَّرت شركة رايثيون التي كان من المُقرَّر أن تبدأ تشييد مصنعها في ديري في يوليو القادم البناء في واترڤيل بدلًا من ذلك. هكذا أعرب مُحرِّر خبر الصفحة الأولى في جريدة أخبار ديري عن حيرته، وإذا كنت قد قرأت ما بين السطور جيِّدًا، فقد كان الخبر ينطوي على خوفٍ أيضًا.
أظنني أعرف فكرة بيل. لكن سيكون عليه التحرُّك سريعًا، قبل أن تُغادر بقايا السحر الأخيرة هذا المكان. إن لم تكن قد غادرته بالفعل.
أعتقد أن ما ظننته من قبل لم يكن جنونًا تامًّا بعد كل شيءٍ. إن أسماء

وعناوين الآخرين تتلاشى من مُذكِّراتي. يبدو لون ونوعية الحبر اللذين اجتمعا لكتابة هذه السطور كأنهُما كُتبا منذ خمسين أو خمس وسبعين سنة قبل الأمور الأخرى التي دوَّنتها في المُذكِّرة. لقد حدث هذا في الأيَّام الأربعة أو الخمسة الأخيرة. أنا مُتأكِّد أنه بحلول سبتمبر ستكون أسماؤهم قد اختفت بالكامل.

لكنني أظنُّ أنني قادر على الاحتفاظ بمذكِّراتي. يُمكنني مواصلة نسخها مرارًا وتكرارًا، لكنني مُقتنعٌ أيضًا أن كل نسخة ستبهت وتختفي بدورها، وسُرعان ما سيصير الأمر مُمارسة بلا جدوى.. ضربًا من العبث.. كأن أكتب لن أبصق في الفصل خمسمئة مرَّة. سأواصل كتابة أسماء لا تعني لي شيئًا، لسببٍ لم أعد أذكره.

دعِ الأمور تمضي.

تخلَّى.. تخلَّى.

تحرَّك سريعًا يا بيل... لكن كن حذرًا.

9 يونيو 1985

استيقظت في منتصف الليل على كابوسٍ مُريع لا أتذكَّره. اعتراني الذُعر، ولم أستطع التنفُّس. مددت يدي إلى زرِّ الاستدعاء لكنني لم أجرؤ على استخدامه. جاءتني رؤية مُريعة أن مارك لامونيكا هو الذي سيجيب ندائي بمحقنه المميت... أو رُبَّما هنري باورز بمطواته.

أمسكت دفتر عناويني واتَّصلت ببن هانسكوم في نبراسكا. لقد بهت العنوان ورقم الهاتف أكثر، لكنهما ما زالا مقروآن.. ثم خاب مسعاي. لقد سمعتُ رسالة مُسجَّلة تقول لي إن هذا الرقم قد تم إلغاؤه من الخدمة.

أكان بن بدينًا، أم يعاني من التواء في القدم؟

ظللت مُستيقظًا حتَّى الفجر.

10 يونيو 1985

اتَّصلت ببيل وأخبرته أن... أظنُّ أنني أردت تحذيره أن بمرور الوقت، فإن الوقت ينفد منه. بيل الوحيد الذي أتذكَّره بوضوح، وأنا مُتأكِّد من أنني الوحيد

الذي يتذكَّره هو بدوره.. وهذا لأن كلينا ما زال في ديري على ما أفترض.

قال لي: «حسنًا، بحلول الغد سنكون خارج منزلك».

- «أما زالت الفكرة تراودك؟».

- «أجل. يبدو لي أن الوقت حان للمحاولة».

- «كن حذرًا».

ضحك بيل كثيرًا وقال شيئًا أفهمه ولا أفهمه في الوقت نفسه: «لا يمكنك أن تكون حـ-حـ-جذرًا على لوح تزلُّجٍ يا رجُل».

- «كيف سأعرف نتيجة فكرتك يا بيل؟».

قال لي: «ستعرف». ثم أغلق الخط.

قلبي معك يا بيل، بعض النظر عمَّا ستؤول الأمور إليه. قلبي معكم جميعًا، وأظنُّ أننا حتَّى لو نسي بعضنا بعضًا، سوف نتذكَّر دائمًا في أحلامنا.

لقد أوشكت على الانتهاء من هذه المُذكِّرات الآن، وأظنُّ أن مذكرات هي كل ما سيتبقَّى، وأن حكاية ديري وغرابتها وسُمعتها لن تبرح هذه الصفحات. لا بأس بهذا من وجهة نظري. أعتقد أنهم عندما سيسمحون لي غدًا بالخروج، سيكون الوقت قد حان أخيرًا لبدء التفكير في حياةٍ جديدةٍ.. رغم أن ماهية تلك الحياة رُبَّما لا تكون واضحة بالنسبة إليّ.

لقد أحببتكم يا رفاق، أنتم تعلمون ذلك.

لقد أحببتكم كثيرًا.

تتمَّة

بيل دِنبروه يسابقَ الشيطان - (ب)

عَرِفتُ العروس منذ أن كانت تعقص شعرها في ذيل حصان،

عَرِفتُ العروس منذ أن كانت تتجوَّل مُتنزِّهة،

عَرِفتُ العروس منذ أن كانت تحب الحفلات،

عَرِفتُ العروس منذ أن كانت تحب الرقص على أنغام الروك أند رول.

- نيك لو

«لا يمكنك أن تكون حذرًا على لوح تزلُّج يا رجُل».

- صبي ما

1

ظهر يوم صيف.

وقف بيل عاريًا في غُرفة نوم مايك ينظر إلى جسده النحيل في مرآة الباب. التمع رأسه الأصلع في الضوء الذي يسقط من النافذة وألقى ظلًّا بطول الأرضِ وصل إلى الحائط. كان صدره خاليًا من الشعر، وكل من فخذاه وربلتا ساقيه نحيلة لكنها مكسيَّة بحبالٍ من العضلات. فكَّر بيل: ما زال هذا جسد شخصٌ بالغ رغم كل شيء، لا ريب في هذا. هذه البطن البارز نوعًا نتيجة سنوات طويلة من التهام شرائح اللحم، وسنوات طويلة من شرب البيرة، ووجبات كثيرة جوار المسبح حظيت فيها بشطائر روبن والبطاطس المقلية بالصوص الفرنسي بدلًا من غذاءٍ صحي. مؤخِّرتك ترهَّلت بدورها يا عزيزي بيل العجوز. ما زال بإمكانك ضرب الكُرة عاليًا إذا ركَّزت جيِّدًا ولم تكن مخمورًا، لكنك لا تستطيع مُطاردة إطار دانلوب قديم مثلما كنت في السابعة عشرة. لديك دهون في خصرك، وصار لخصيتيك ذلك المظهر المُتدلِّي المُميزِّ لمنتصف العُمر. توجد تجاعيك على وجهك لم تكن موجودة عندما كنت في السابعة عشرة... اللعنة، بل لم تكن موجودة في الصورة الأولى التي طُبِعَت على رواياتك، تلك التي حاولت جاهدًا فيها أن تبدو كأنك تعرف شيئًا... أيِّ شيء. أنت مُسنٌّ جدًّا على ما تُفكِّر فيه. ستقتل كليكما.

ارتدى بيل ملابسه الداخلية.

إذا كنا صدَّقنا في عجزنا، لما استطعنا فعل... فعل أيًّا كان ما فعلناه.

لم يكن بيل يتذكَّر حقًّا حقيقة ما فعلوه، أو ما الذي وضع أودرا في هذه الحالة المُتخشِّبة البائسة. إنه يعرف فقط ما يُفترض فعله، كما يعرف أنه إذا

لم يفعله الآن، سوف ينساه أيضًا. كانت أودرا تجلس في الدور الأرضي في مقعد مايك المُريح وشعرها يتدلَّى مُنهكًا على كتفيها، وتنظر باهتمامٍ سارح إلى التلفاز الذي يعرض برنامج اتَّصل لربح الدولارات. لم تكنْ تنطق، وكانت ستتحرَّك فقط إذا قُدتها إلى الحركة.

لقد اختلف الزمان. أنت مُسنٌّ جدًّا يا رجُل. صدقني.

لن أُصدِّق.

إذًا مُت هنا في ديري. لا يهم.

ارتدى بيل جوربيه الرياضيين، وسراويل الجينز الجديدة التي ابتاعها، والتيشيرت بلا أكمام الذي ابتاعه من شيرت شاك في بانجور قبلها بيوم. التشيرت بُرتقالي زاهي، ومكتوب عليه: أين تقع ديري هذه بحق الجحيم؟ جلس بيل على فراش مايك –الفراش الذي تقاسمه في الليالي السابقة مع زوجته الدافئة لكن الشبيهة بالجثة– ثم انتعل حذاءه.. فردتي الكيدس اللتين اشتراهما أمس أيضًا من بانجور.

نهض بيل ونظر إلى نفسه في المرآة، ورأى رجُلًا على مشارف منتصف العمر في ملابس مُراهقين.

تبدو سخيفًا.

وأيُّ طفلٍ الذي لا يبدو سخيفًا؟

لست طفلًا. دعك من هذا الهُراء.

قال بيل بهدوء: «سُحقًا للعالم، لنصخب ونمرح قليلًا».

2

في الأحلام التي ستراوده في السنوات اللاحقة، سيرى بيل نفسه يغادر ديري وحيدًا وقت المغيب. البلدة مهْجورة، والجميع رحلوا. المعهد اللاهوتي والمنازل الڤيكتورية تقف سوداء كئيبة أسفل سماءٍ رهيبة. كل غروب شمسٍ اختبرته من قبل قد اختُزل وطوي في مشهدٍ واحد.

كان يسمع أصداء وقع أقدامه وهي تنقر فوق الأرض الخرسانية، والصوت

الوحيد الآخر الموجود هو هدير الماء المجوَّف الذي يجري في مصارف الأمطار.

3

أخرج بيل سيلفر من المرآب وأخذها إلى الممشى المجاور للمنزل، وأسندها على سنَّادتها، وتفحَّص إطاريها مُجدَّدًا. الإطار الأماميّ بحالٍ جيِّد، لكن الخلفي يبدو طريًّا قليلًا. أخرج المُنفاخ الذي ابتاعه مايك وثبَّته في الإطار، وعندما انتهى، تفحَّص أوراق الكوتشية ومشابك الغسيل التي تمسكها. ما زالت العجلة تصدر صوت الرشَّاش الآلي الحماسي الذي يتذكَّره بيل من أيَّام صباه. جميل جدًّا.

لقد جُننت.

رُبَّما. سنرى.

عاد مُجدَّدًا إلى مرآب مايك، وأخرج عدَّة الصيانة، وزيَّت السلسلة والتروس. ثم وقف ينظر إلى سيلفر، واعتصر بيده البوق المطَّاطي الأسود مُجرِّبًا إيَّاه. صوته جيِّد. أومأ بيل واتَّجه إلى المنزل.

4

ها هو يرى كل هذه الأماكن ثانيةً، سليمة، مثلما كانت: مبنى المدرسة الابتدائية الحجري الشامخ كالقلعة، جسر القُبُلات وغابة الحروف المنقوشة عليه، قُرر أعين المدرسة الثانوية اللواتي على استعداد لملء العالم صراخًا بعواطفهن، واللاتي كبرن ليصبحن وكيلات التأمين وموظَّفات مبيعات سيَّارات ونادلات وأخصائيات تجميل. رأى تمثال بول بونيان يقف في مواجهة الغروب الدامي والسور الأبيض المائل الذي يمتد بطول رصيف شارع كانساس عند حافَّة البرِّية. رأى هذه الأماكن كما كانت، وكما ستظلّ دفينة في جزءٍ ما من عقله... وانكسر قلبه من الحب والرعب.

فكَّر بيل: الرحيل، الرحيل عن ديري. سنغادر ديري، ولو كانت هذه قِصَّة،

فنحن غالبًا في الصفحات الأخيرة. استعد لأن تترك هذا الكتاب على الرَّف وتنسى كل شيءٍ عنه. الشمس تغيب ولا صوت في طرقات المدينة سوى وقع خطواتي، وجريان المياه في المصارف. هذا وقت الـ...

5

انتهى برنامج اتَّصل لربح الدولارات مُفسحًا المجال لبرنامج عجلة الحظ. جلست أودرا بسلبية تامَّة أمام التلفاز، وعيناها لا تُفارقانه قط.. وعندما أغلق بيل التلفاز، لم يتغيَّر سلوكها.

- «أودرا»، هكذا قال وهو يتَّجه إليها ويمسك يدها: «تعالي».

لم تتحرَّك. استلقت يدها في يده. كانت كتمثال شمعٍ دافئ. أخذ بيل يدها الأخرى من فوق ذراع كرسي مايك وجذبها مُنهضها على قدميها. كان قد ألبسها ملابس جديدة هذا الصباح كما فعل. كانت ترتدي سراويل چينز ليڤيس وبلوزة زرقاء. كانت ستبدو جميلة جدًّا لو لم تكن هذه النظرة الواسعة الشاغرة المُحدِّقة في الفراغ على وجهها.

قال لها ثانيةً: «تـ-تعالي»، وقادها عبر الباب إلى مطبخ مايك، ثم في النهاية إلى خارج المنزل. خرجت طوعًا إلى حدٍّ كبير، رغم أنها كانت ستسقط من على سلالم الشُرفة الخلفية وتتمرَّغ في الطين لو لم يضع بيل ذراعه حول خصرها ويقودها نزولًا.

قادها إلى حيث تقف سيلڤر مُستندة إلى مسندها الخلفي في ضوء الظهيرة الصيفي الساطع، وقفت أودرا إلى جوار الدرَّاجة، تنظر بهدوء إلى حائط مرآب مايك.

- «اركبي يا أودرا».

لم تتحرَّك. بصبرٍ وأناة، عمل بيل على مُساعدتها كي ترفع إحدى ساقيها فوق الحامل المُثبَّت فوق عجلة سيلڤر الخلفية. في النهاية كانت تقف وحامل الحاجيات بين ساقيها، من دون أن يلمس المنفرج بين رجليها. ضغط بيل يده برفق على رأسها فجلست أودرا. تقدَّم إلى مقعد الدرَّاجة وامتطاه رافعًا

المسند الخلفي بكعب قدمه. استطاع أن يمد ذراعيها خلفه مُتلمِّسًا يدي أودرا وواضعًا إيَّاهما حول وسطه، وقبل أن يستطيع فعلها التفَّ كفَّاها حوله من تلقاء نفسيهما، كفأرٍ صغير مشدوه.

خفض عينيه ناظرًا إليهما وتسارع قلبه، وبدا له أنه يدق في حلقه مثلما يدق في صدره. هذا أوَّل فعلٍ مُستقل تفعله أودرا طوال الأسبوع على حسب علمه... أوَّل فعلٍ منذ أن حدث الشَّيء... أيًّا كان الشَّيءَ الذي حدث.

- «أودرا؟».

لم يتلق إجابة. حاول لف عُنُقه إلى الخلف ليرى لكنه لم ينجح في ذلك تمامًا. لقد التفَّت يداها حول وسطه، وكانت أظافر أصابعها تُظهر آخر بقايا الطلاء الأحمر اللامع الذي وضعته له شابة مُشرقة موهوبة مُفعمة بالحياة في قرية إنجليزية صغيرة.

قال بيل: «سنذهب في جولة»، وبدأ يدفع سيلڤر إلى الأمام عبر زقاق بالمر، مُنصتًا إلى طحن الحصى أسفل عجلتيها. «أريدك أن تتمسَّكي يا أودرا. أظنُّ... أظنُّ أننا سنُسرع قليلًا».

إن لم أفقد شجاعتي.

فكَّر في الصبي الذي قابله في وقتٍ سابقٍ في ديري، عندما كان الشَّيء ما زال يحدث. لا يمكنك أن تكون حذرًا على لوح تزلُّج يا رجُل، هذا ما قاله الصبي.

لم تُنطَق كلمات أصدق من هذي من قبل أيُّها الصبي.

- «أودرا؟ مُستعِدَّة؟».

لا جواب. هل ضمَّت يديها أكثر قليلًا حول خصره؟ رُبَّما كانت تلك مُجرَّد أمنية.

وصل إلى نهاية المسار ونظر إلى يمينه. ينتهي زقاق بالمر في الشارع الرئيس مُباشرةً، حيث ستأخذه انعطافة يُسرى نزولًا أسفل منحدر التلَّة. سيكتسب سُرعة كبيرة. شعر برجفة خوفٍ عندما تخيَّل الصورة، وعبرت فكرة مُقلقة

(العظام العجور تنكسر بسهولة يا بيلي الصغير).

عقله سريعًا جدًّا قبل أن تُهضم جيِّدًا وتذهب. لكن... لكنها لم تكن فكرة مُقلِقَة فحسب، أليس كذلك؟ لا. إنها تنطوي على رغبة كذلك. إنه ذلك الشعور الذي اعتراه عندما رأى ذلك الصبي يسير بلوح التزلُّج أسفل إبطه. الرغبة في الإسراع، الرغبة في الشعور بالرياح تعبر جوارك وأنت تجهل إن كنت تُسرع نحوها أم تجري معها.. الرغبة في المُضي فحسب.. في أن تطير.

القلق والرغبة. الفارق الهائل بين العالم الواقعي ورغباتك.. الفارق بين أن تكون بالغًا تحسب حساب كل خطوة وأن تكون صبيًّا لا يشغل بالك شيئًا. الفارق الهائل. لكن في الوقت نفسه يبدو أنه لا يوجد فارق على الإطلاق. الأمر سيان في الحقيقة. إنها اللحظة التي تستشعرها عندما يقترب قطار الملاهي الأفعواني قمَّة المُنحدر شديد الانحدار، حيث تبدأ التجربة حقًّا.

القلق والرغبة. ما تريده وما تخاف أن تُجرِّبه. المكان الذي أنت فيه الآن، والمكان الذي تطمح في الذهاب إليه. مثل أغنية الروك أند رول تلك عن حلم الفتاة والسيَّارة ومكان لك في هذا العالم لتُوجد فيه.

أغلق بيل عينيه لحظات، مُستشعرًا الوزن الناعم المُتراخي لزوجته من خلفه، مُستشعرًا مُنحدر التلَّة أمامه، مُستشعرًا نبضات قلبه في صدره.

كُن شُجاعًا، كن قويًّا، اصمد.

بدأ يدفع سيلڤر أمامًا من جديد: «أترغبين في قليلٍ من المرح يا أودرا؟».

لا جواب. لكن لا بأس. إنه مُستعد.

- «تشبَّثي جيِّدًا إذًا».

بدأ بيل يدعس دوَّاستي الدرَّاجة. كانت التقدُّم عسيرًا في البداية. راحت سيلڤر تترنَّح يمينًا ويسارًا بشكلٍ مُقلق، ووزن أودرا يزيد من عدم اتِّزانها، لكن رغم ذلك لا بُدَّ أنها حافظت على بعض التوازن، حتَّى لو من دون وعي، وإلا لكانا سقطا أرضًا على الفور، وقف بيل على الدوَّاستين، واعتصرت يداه مقبضي المقود بقوَّة مجنونة، وارتفع رأسه نحو السماء، وضاقت عيناه، وانتفخت أوداجه.

سأسقط حالًا على الأسفلت الصلب هنا، وسأُحطِّم جمجمتها وجمجمتي...
(لا لن تفعل، اسعى يا بيل، اسعى يا بيل، اسعى خلف ابن العاهرة)

وقف بيل على البدَّالين، مُديرًا إيَّاهما، مُستشعرًا كل سيجارة دخَّنها في العشرين سنة الأخيرة في ضغط دمه المُرتفع ودقَّات قلبه المُتسارع. سُحقًا لذلك أيضًا! هكذا فكَّر، وجعلته فورة الابتهاج المجنون يبتسم.

بدأت أوراق الكوتشينة -التي كانت تدوِّي فرادى- في إسراع وتيرتها. كانت جديدة، وجيِّدة، وتُصدر صوتًا عاليًا. شعر بيل بأولى لمسات الهواء على رأسه الأصلع، واتَّسعت ابتسامته. أنا من صنع ذلك الهواء، هكذا فكَّر. أنا من صنعه بتحريك هذين البدَّالين اللعينين.

كانت لافتة التوقُّف في نهاية الزقاق تقترب. بدأ بيل يضغط المكابح... ثم بدأ في التحرُّك ثانيةً دون أن تكف ابتسامته عن الاتِّساع، كاشفة أكثر فأكثر عن مزيدٍ من أسنانه.

مُتجاهلًا لافتة التوقُّف، انحرف بيل دِنبروه يسارًا شمال الشارع الرئيس فوق حديقة باسي. مرَّة أخرى خدعه وزن أودرا وكادا أن يفقدا اتِّزانهما ويسقطان. ترنَّحت الدرَّاجة، وتهادت، ثم عدلت نفسها. راح الهواء -الذي اشتدَّ الآن- يُبرِّد العرق على جبهته، ويُبخِّره، ويندفع حول أُذُنيه بصوتٍ مُسكرٍ خفيض أشبه قليلًا بصوت المُحيط الذي يصدر عن صدفة محَّار، لكنه لم يكن يشبه أيَّ شيءٍ آخر على هذه الأرض. شعر بيل أنه صوتٌ يألفه الصبي صاحب لوح التزلُّج جيِّدًا، وفكَّر بيل: لكنه صوتٌ سيتفلَّت منك أيُّها الصبي. الأمور تتغيَّر. إنها حيلة دنيئة، لذا كُن مُستعِدًّا.

راح بيل يدعس الدوَّاسات أسرع الآن، وهو يستشعر توازنًا أكثر رسوخًا في السُرعة. أطلال بول بونيان إلى يساره، كبقايا عملاقٍ ساقط. صاح بيل: «هيَّا يا سيلڤر، انطلقـــــــــي!».

ضاقت يدا أودرا حول خصره، وشعر بإثارتها المُرتعشة خلفه. لكنه لم يشعر بتعجُلٍ للالتفات ورؤيتها الآن. لا تعجُّل، ولا حاجة. أسرع بيل أكثر فأكثر، ضاحكًا بصوتٍ عالٍ. رجُلٌ طويل نحيل أصلع الرَّأس مُنحني فوق

مقابض درَّاجة كبيرة ليُقلِّل من مقاومة الهواء. استدار الناس ناظرين إليها وهو يندفع من جوار حديقة باسي.

الآن بدأ الشارع الرئيس في الانحدار نزولًا إلى وسط المدينة بزاوية أكثر حِدَّة، وهمس صوتٌ داخله أنه إذا لم يُبطئ من سُرعته الآن فسيجد نفسه عاجزًا عن ذلك بعد ذلك، وسوف ينزلق ببساطة إلى البقايا الغارقة من التقاطع الثلاثي كخُفَّاشٍ خارج من الجحيم وسيقتل كليهما.

لكن بدلًا من ضغط المكابح، واصل بيل انطلاقه، حاثًّا الدرَّاجة أن تزيد من سُرعتها. الآن كان يطير نزولًا عبر منحدر الشارع الرئيس، واستطاع رؤية حواجز المنطقة الغارقة البرتقالية البيضاء، وأوعية حرق النفط التي يتصاعد منها دُخانٌ شبحي التي تحد حافَّة الخسف الأرضي. استطاع رؤية قمم المباني التي تبرز من الشوارع كخيالاتِ رجُلٍ مجنون.

صاح بيل دِنبروه هاذيًا: «هيَّا يا سيلڤر، انطلقـــــــــي!»، ونزل التلَّة مُسرعًا تجاه أيًّا ما سيقابله، شاعرًا بديري وطنه ومسقط رأسه للمرَّة الأخيرة، شاعرًا أكثر من أيِّ شيءٍ بأنه حيٌّ أسفل سماءٍ حقيقية مُشرقة، وأن الرغبة تجتاحه وتجتاحه وتجتاحه.

أسرع بيل نزول التلَّة فوق سيلڤر.. كان يعدو ليسبق الشيطان.

6

الرحيل.

هكذا ترحل، وأنت تشعر بحاجة مُلحة كي تنظر خلفك.. تنظر خلفك مرَّة أخيرة لترى الغروب يتلاشى، لترى أُفُق سماء نيو إنجلند المبتور آخر مرَّة.. لترى القمم المُستدقَّة، وبرج المياه، وبول بفأسه المُعلَّق على كتفه. لكن ربَّما اختلاس نظرة أخيرة ليست فكرة جيِّدة جدًّا.. كل القصص تقول ذلك. انظر ماذا حدث لزوجة لوط. من الأفضل عدم النظر خلفك. من الأفضل لك تصديق أن النهايات السعيدة موجودة في كل مكان.. وقد تكون كذلك بالفعل. من الذي قال إن مثل هذه النهايات لن تحدث؟ ليست كل الأشرعة

التي تُبحر في الظلام لا ترى الشمس مرَّة ثانية. إذا كانت الحياة تُعلِّم أيَّ شيءٍ على الإطلاق، فهي تُعلِّم أن النهايات السعيدة موجودة بكثرة في كل مكانٍ حولنا، وهو الأمر الذي يجعل رجاحة عقلٍ من لا يؤمن بوجود ربٍّ موضع تساؤلٍ خطير.

أن ترحل.. ترحل سريعًا عندما تغرب الشمس، هكذا فكَّر بيل وهو يحلم. هذا ما تفعله، وإذا فكَّرت في الأمر جيِّدًا مرَّة أخيرة، ربَّما تجد أنك تبحث عن أشباح.. أشباح أطفال يقفون في الماء في الغروب. يقفون في دائرة، متشابكي الأيدي، وجوههم يانعة بالتأكيد، لكنها صارمة... صارمة بما يكفي لتلد الأشخاص الذين سيصيرونهم.. صارمة بما يكفي لفهم أن الأشخاص الذين سيصيرونهم يجب أن ينجبوا بالضرورة ذواتهم القديمة قبل أن يواصلوا فهم حقيقة الفناء البسيطة. الدائرة تُغلق.. العجلة تدور.. هذا كل ما في الأمر.

لست في حاجة أن تنظر خلفك لرؤية أولئك الأطفال، فجزء منك سيظل يراهم إلى الأبد، ويعيش معهم إلى الأبد. هم ليسوا بالضرورة أفضل جوانبك، لكنهم كانوا يومًا مُستودع أسرارك، وكل ما يمكن أن تكونه.

أنا أحبكم يا أطفال. أحبكم جدًّا.

لذ قُد سريعًا، قُد بينما تذوي آخر شذرات الضوء، قُد خروجًا من ديري، من الذكرى... لكن ليس من الرغبة.. فهذه ستبقى، كجوهرةٍ لامعة.. شاهدة على كل ما كُنَّاه يومًا وكل ما صدَّقنا فيه في طفولتنا.. كل ما لمع في أعيننا حتَّى ونحن ضائعون والرياح تزأر في الليل.

ارحل وحاول أن تحافظ على ابتسامتك. شغِّل بعض موسيقى الروك أند رول وافتح قلبك إلى كل الحياة المنبسطة أمامك بكل ذرَّة شجاعة تستطيع العثور عليها فيك، وبكل الإيمان الذي تستطيع حشده. كن قويًّا، كن شجاعًا، اصمد..

فما دون ذلك الظلام.

7

- «هاي!».
- «هاي يا سيِّد، أنت...».
- «... احترس!».
- «الأحمق اللعين سوف...».

راحت ألسنة المارَّة تلدغه بتقريعها. لم يكن لها معنى. كانت كالأعلام في الهواء أو البالونات غير المربوطة. ها هي حواجز الطريق. إنه يستطيع اشتمام رائحة الكيروسين اللاذعة المُنبعثة من أوعية حرق النفط. رأى الفجوة المُظلمة الفاغر فمها التي كانت تحتلُّها الشوارع من قبل، وسمع اندفاع الماء الحرون وهو يهبط إلى هذا الظلام الوعر، وضحك من الصوت.

أدار بيل مقود سيلڤر بقوَّة إلى اليسار، واقترب جدًّا من حواجز الطريق لدرجة أن سراويله الچينز احتكَّ بأحدها. كانت عجلتا سيلڤر على بُعد أقل من ثلاث بوصات من حافَّة انتهاء الطريق إلى الفراغ، ولم يعد أمامه فُسحة للمناورة. أمامًا، كان الماء قد نحت أغلب الشارع وأكل نصف الرصيف أمام متجر مجوهرات كاش، والحواجز تغلق ما تبقَّى منه. كان الشارع مُنهارًا بشكلٍ خطير.

- «بيل؟».

كان هذا صوت أودرا الدائخ الغليظ قليلًا. كانت تبدو كأنها استيقظت لتوِّها من نوم عميق. «بيل؟ ماذا تفعل؟».

صاح بيل: «هيَّا يا سيلڤر!»، مُوجِّهًا سيلڤر المُندفعة مُباشرةً إلى حاجز الطريق الذي يبرز بزاوية مائلة أمام واجهة عرض متجر مجوهرات كاش الخالية. «هيَّا يا سيڤفر، انطلقـــــــــي!».

اصطدمت سيلڤر بالحاجز بأسرع من أربعين ميلًا في الساعة وقفزت طائرة في الهواء، ومركز ثقلها في اتِّجاه، ومقبضها يلتوي إلى اتِّجاهٍ آخر. صرخت

أودرا واعتصرت بيل بقوَّة أفقدته أنفاسه.. وعلى طول الشارع الرئيس، وشارع القناة، وشارع كانساس، وقف المارَّة على الأرصفة ومداخل البيوت ينظرون.

اندفعت سيلڤر على حافَّة الرصيف المُنهار. شعر بيل أن فخذه الأيسر وركبته يحتكَّان بمحل المجوهرات، وشعر أن عجلة سيلڤر الخلفية تنخفض فجأة، فأدرك أن الرصيف ينهار من خلفه...

ثم حملتهما حركة سيلڤر فوق أرض طريقٍ صلبة. راوغ بيل برميل قمامة مقلوب وانطلق بسُرعة فائقة إلى الشارع مُجدَّدًا. صرَّت المكابح. كان يرى مُقدِّمة شاحنة ضخمة تقترب ولم يكن يستطيع التوقُّف عن الضحك رغم ذلك. اندفع بيل عبر الفراغ الذي احتلَّته الشاحنة الضخمة بعدها بثانية واحدة. اللعنة، لا داعي للعجلة أيُّها المُتهوِّر!

أطلق بيل بوق سيلڤر وهو يصيح والدموع تنضح من عينيه، مُنصتًا إلى صوته الأجش الذي يوطِّد نفسه أسفل ضوء الظهيرة الساطع.

صرخت أودرا: «بيل، ستقتلنا!»، ورغم أن صوتها كان يحمل ذُعرًا، لم يخلُ من الضحك.

مال بيل بسيلڤر بحدَّة، وهذه المرَّة شعر بأودرا تميل معه، ما جعل السيطرة على الدرَّاجة أسهل، وعاونته في جعل كليهما والدرَّاجة –على الأقل في هذه اللحظة المُدمجة الصغيرة من الزمن– كثلاثة كائنات حيَّة.

صاح فيها: «أتظنين ذلك؟».

قالت صارخة: «أنا مُتأكِّدة من ذلك!»، وتشبَّثت بحجره، حيث كان يحظى بانتصابٍ بهيج. «لكن لا تتوقَّف!».

لم يكن لديه ما يُعلِّق به على ذلك. راحت سيلڤر تُبطئ من سُرعتها وهما يصعدان تلَّة أب-مايل، وواصل زئير أوراق الكوتشينة الصاخب انخفاضه ليصير طلقات مُنفردة من جديد. توقَّف بيل واستدار لها. كانت شاحبة، مُتَّسعة العينين، واضحة الخوف والارتباك... لكنها واعية، واعية، وتضحك.

– «أودرا»، هكذا قال وهو يضحك معها.

ساعدها على النزول من سيلڤر، وأسند الدرَّاجة على جدارٍ حجري

واحتضنها، ثم راح يُقبِّلها في جبهتها، ووجنتيها، وفمها، ورقبتها، ونهديها. وظلَّت أودرا تحتضنه وهو يفعل ذلك.

- «بيل، ما الذي حدث؟ أتذكَّر هبوطي من الطائرة في بانجور، لكنني لا أتذكَّر أيَّ شيءٍ بعد ذلك. هل أنت بخير؟».

- «أجل».

- «هل أنا بخير؟».

- «أجل، الآن أنت بخير».

دفعته بعيدًا برفق كي تستطيع النظر إليه: «بيل، هل ما زلت تتلعثم».

قال بيل: «لا، لقد انتهت اللعثمَّة»، وقبَّلها.

- «إلى الأبد؟».

قال: «أجل. هذه المرَّة أعتقد أنها انتهت إلى الأبد».

- «هل قلت شيئًا عن الذهاب في جولة؟».

- «لا أعرف. هل فعلت؟».

قالت له: «أنا أحبك».

أومأ بيل وابتسم، وعندما ابتسم بدا يافعًا جدًّا، برأسه الأصلع أو من دونه.

قال لها: «أنا أيضًا أحبك. ماذا يهم غير ذلك؟».

8

استيقظ بيل من حلمه دون أن يتذكَّره تمامًا، أو يتذكَّر أيَّ شيءٍ عنه بخلاف أنه فيه عاد صبيًّا من جديد. لمس بيل ظهر زوجته الناعم الدافئ وهي نائمة جواره تحلم أحلامها الخاصة. شعر بيل أنه من الجيِّد أن تكون طفلًا، لكن من الجيِّد أيضًا أن تكون كبيرًا وتستطيع التفكير في لُغز الطفولة.. في مُعتقداتها ورغباتها. سأكتب عن كل ذلك يومًا ما، هكذا فكَّر، وهو يعلم أن هذه مُجرَّد فكرة فجر عابرة من أفكار ما بعد الأحلام. لكن سيكون من الجميل التفكير في الأمر خلال الصباحات الرائقة. التفكير أن للطفولة أسرارًا حلوة خاصة، وأنها تؤكِّد على مبدأ الزوال.. وأن ذلك الزوال هو الذي يُحدِّد كل أمور

الشجاعة والحب. سيفُكِّر بيل أن التطلُّع للمُستقبل، يجب أن يصحبه تأمُّل للماضي.. وأن كل حياة تصنع مُحاكاتها الخاصة للخلود: إنها دائرة.

أو هكذا يجد بيل دِنبروه نفسه يُفكِّر أحيانًا في تلك الصباحات المُبكِّرة، بعد أحلامه فجرًا، وهو يكاد يتذكَّر طفولته، والأصدقاء الذين رافقوه فيها.

بَدَأْتُ كتابة هذا الكتاب في «بانجور، مين» في التاسع من سبتمبر عام 1981،

وانتهت في «بانجور، مين» في الثامن والعشرين من ديسمبر عام 1985.

سبعة أصدقاء يعودون إلى مسقط رأسهم لمواجهة كابوس مروِّع التقوه أوّل مرّة في صباهم . . شر لا اسم له . . شيء .

مرحبًا بك في بلدة ديري الشمالية في ولاية مين . إنها مدينة صغيرة عادية تمامًا كمسقط رأسك ، لكن في ديري ثمّة شيء مُريع يستتر خلف هذا الشعور بالألفة . كانوا سبعة أطفال عندما تعثّروا في هذا الكابوس . الآن هم أشخاص بالغون خرجوا إلى العالم الواسع سعيًا وراء النجاح والسعادة . لكن الوعد القديم الذي قطعوه على أنفسهم منذ ثمانية وعشرين عامًا ينجح في لمّ شملهم وإعادتهم إلى المكان الذي صارعوا فيه الكيان الشرير النهم الذي يتغذّى على أطفال المدينة . لقد بدأت حوادث القتل من جديد ، والآن ، بدأت ذكريات سبعتهم المقموعة عن الصيف المروّع الذي قضوه في ديري تعود إليهم وهم يستعدّون مرّةً أخرى لمواجهة الوحش الذي يتّخذ مجارير ديري عرينًا له .

يعرف قُرّاء ستيفن كينغ أن لديري قبضة قويّة ومُظلمة على مُخيّلة الرّجُل . لقد ظهرت في كُتُب كثيرة له ، من ضمنها صائد الأحلام ، وحقيبةَ العظام ، وقلوب في أتلانتس ، و١١/٢٢/٦٣ . . لكن البداية كانت مع : الشّيء .

«أنضج عمل روائي لستيفن كينغ» . **جريدة سانت بطرسبرج تايمز**

«نموذج مثالي لبراعة كينج . . . دُرّة تاج أعمال الرُّعب . . . نظرة واحدة على الصفحات الأولى لن تجعلك قادرًا على ترك الكتاب» . **جريدة سانت لويس بوست ديسباتش**

وُلِدَ ستيفن كينغ في ٢١ سبتمبر عام ١٩٤٧ في بورتلاند . ألّف أكثر من خمسين كتابًا ما بين الروايات والقصص القصيرة ، وغدت جميعها من الكتب الأعلى مبيعًا في العالم . من أشهر مُؤلّفاته : كاري ، ميزري ، الشّيء ، بريق ، مقبرة الحيوانات الأليفة ، بُرج الظلام ، الميل الأخضر ، أشياء مُشتهاة ، كوجو . تشمل أعماله الأخيرة المجموعة القصصية القصيرة حانوت الكوابيس ، وروايات تحت القبّة ، واللُقطة لِمَن وجدها ، ودكتور سليب ، والسيّد مرسيدس (التي حازت جائزة إدجار لأفضل رواية عام ٢٠١٤) .

ISBN: 978-6144720172





دار التنوير